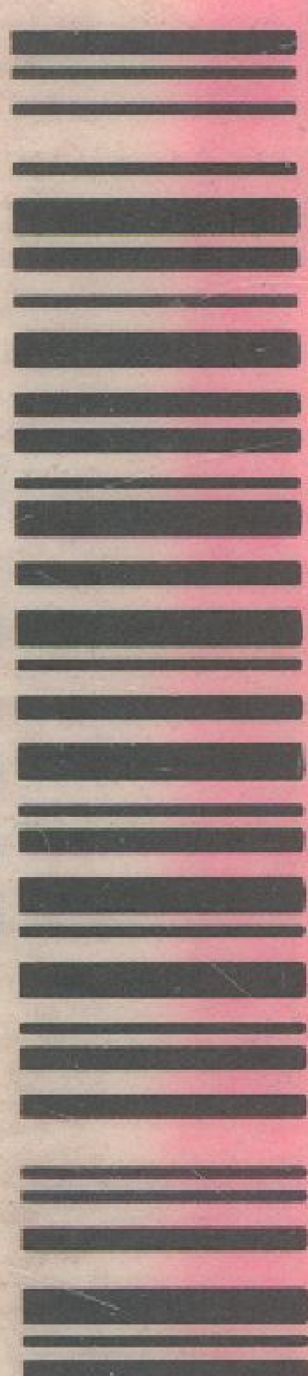
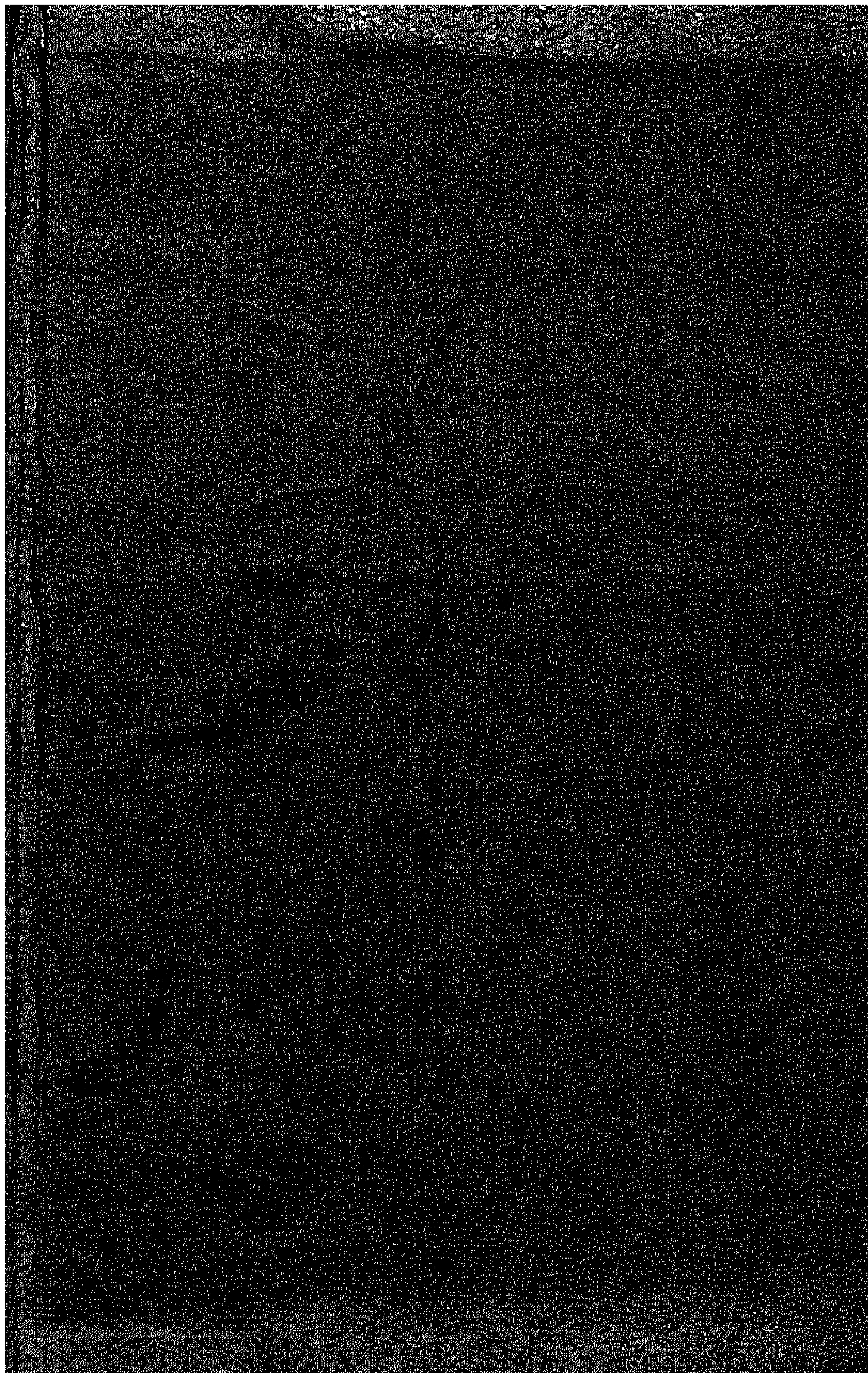
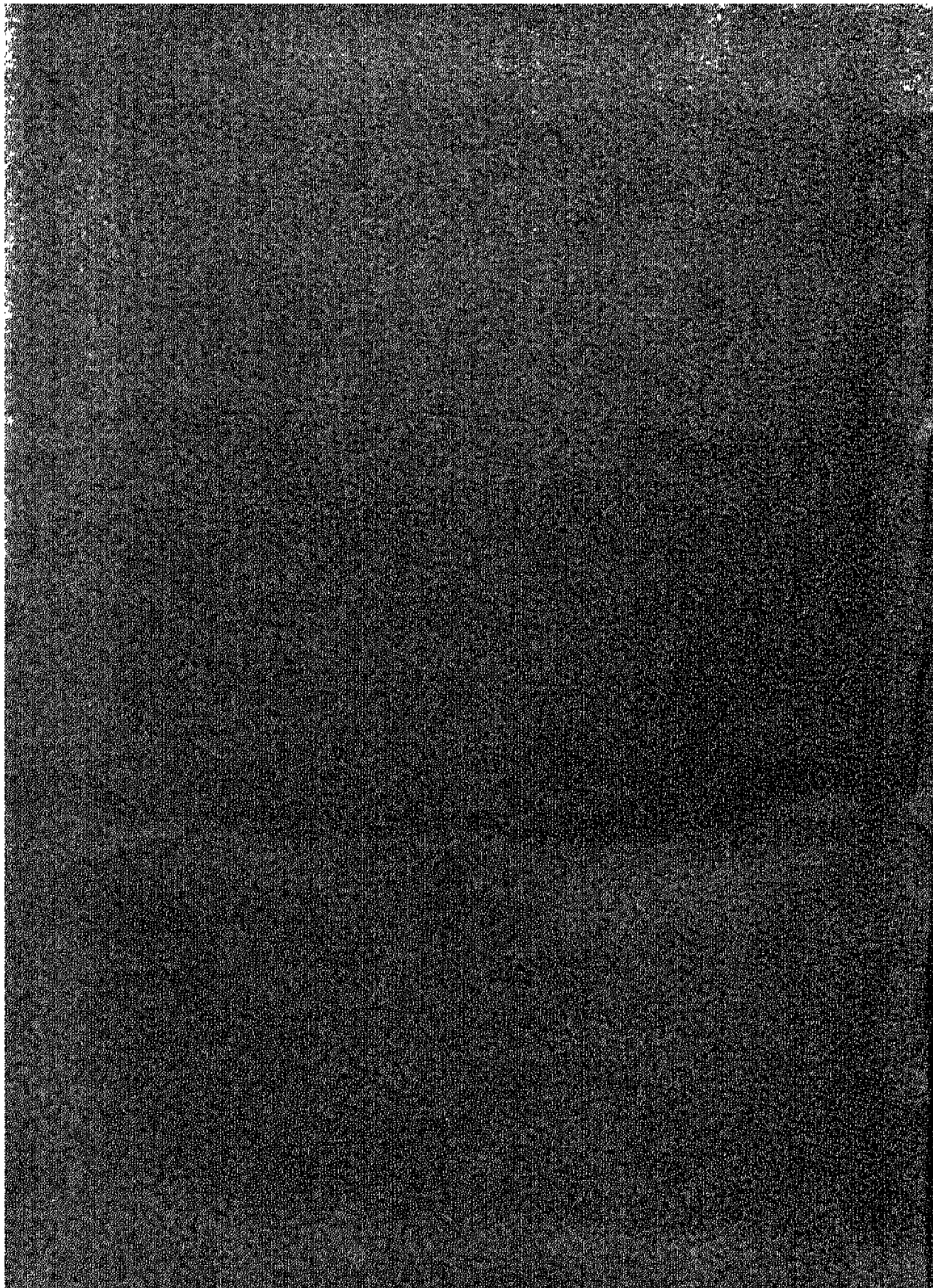





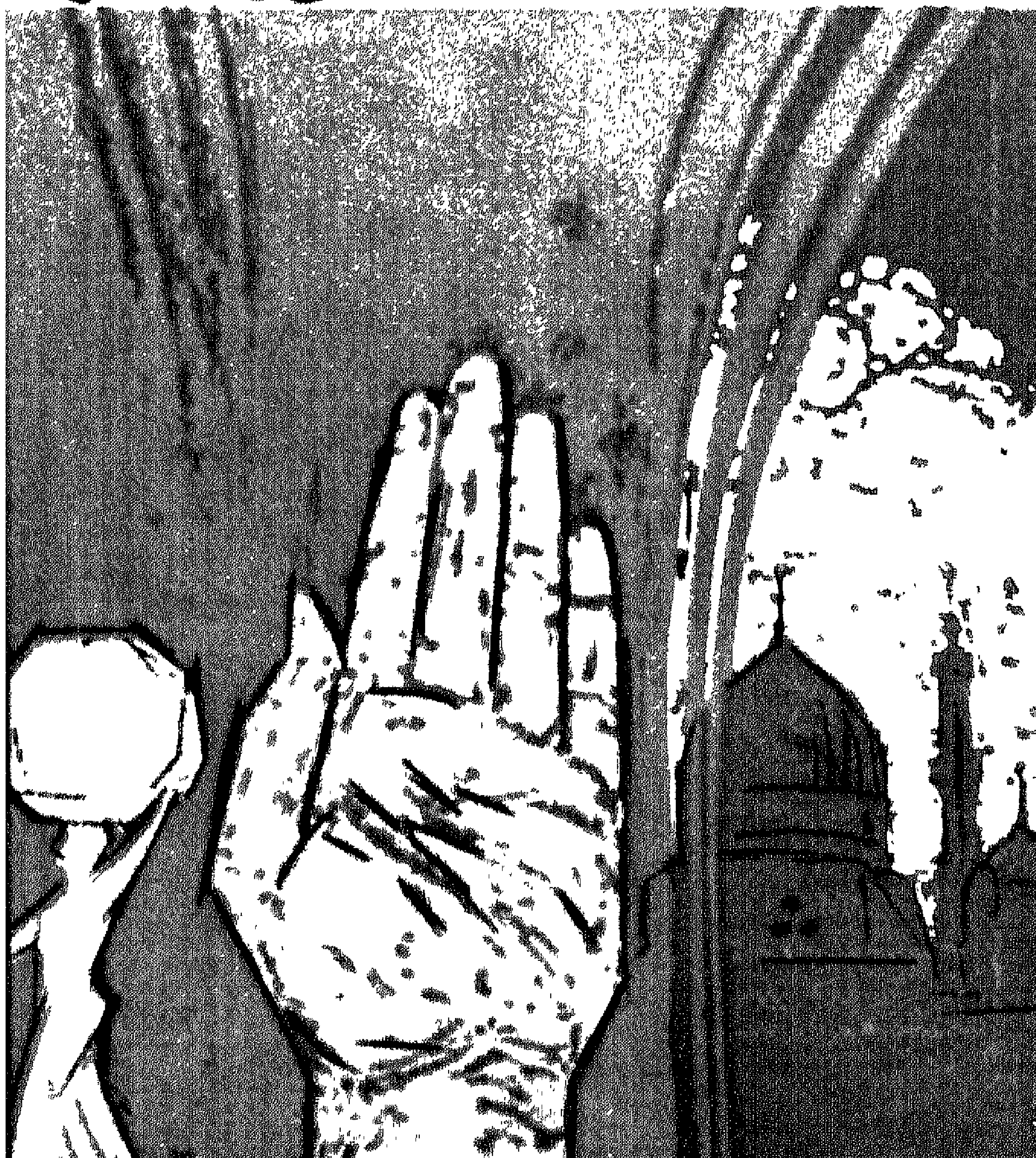


كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

آراء حرة في الدين والحياة

فتحي رضوان



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٦ رمضان ١٣٨٩ ديسمبر ١٩٦٩

No, 226 - Décembre 1969

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهوريه العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ٠ فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج٠ع٠م) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ٠٠

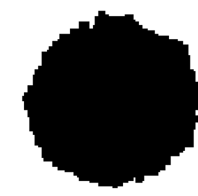
كتاب الهلال



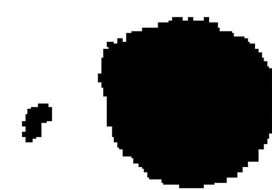
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشـــة
الفنان جمال قطب

آراء حرة في الدين والحياة



بقلم
فتحي رضوان



دار الهلال

الدين ..

محمد رسول الله المشرع

- ١ -

وصف القرآن الكريم محمدا عليه صلوات الله وسلامه فقال : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم .» فدلت هذه الآية الكريمة على أن الرسول قد توافرت فيه كل صفات المشرع الذى يأتى تشريعه علاجا ناجحا لأدواء الجماعة ، ينفى عنها الضعف ، ويقيها شر الجمود ، ويبعث فيها خير فضائلها .

فالمشرع يجب أن يكون من الجماعة التى يشرع لها ، عارفا بخصائصها وفضائلها ، عالما بنقائصها ورذائلها ، واقفا على أسلوب حياتها ومداخلها ومخارجها ، مدركا لما تستجيب له ، وما تنفر منه . فالمشرع طبيب بيد أن الطبيب يعالج فردا أو عضوا فى فرد وواضع القانون يعالج عيبا فى أمة أى فى ملايين من البشر وقد يطول عمر القانون — حتى مع فساده — فيبقى مؤثرا فى حياة آلاف الملايين .

ودلت هذه الآية الكريمة على أن محمدا كان من العرب بعث لهم من أنفسهم ، وقد كان من أعرف العرب بالعرب . فان طول تأمله فى حياتهم قبل البعثة واضطراره الى العمل منذ صباه ، لفقره ويتمه ، الذى استفتح به حياته ، وانتسابه الى أمجد أحيام

العرب ، واعلاها مقاما ، واقدرها على تحمل تبعات القيادة والزعامة ، اطلعه من أمور العرب على شئونهم السياسية والاجتماعية . ثم جاء اشتغاله بالتجارة فى أموال السيدة خديجة رضى الله عنها ، قبل زواجه منها وبعده ، ورحلاته بين الحجاز والشام ، فزادته معرفة بأخلاق اهله وتقاليدهم ، ومشكلاتهم الاقتصادية والمعيشية .

ولا يكفى أن يكون المشرع من بنى قومه ، فلا بد له ليحالفه التوفيق ، فيما يشرع للناس ، أن تكون هموم الناس همومه ، ثم أن يكون طابعه الرفق والرحمة ، وأسلوبه الاتئاد والتريث . فما أكثر الذين يتصدون لعلاج مشكلات شعوبهم وهم لا يفهمون من تقويم المعوج ، الا كسره ، ومن اصلاح المخطىء الا هدمه ، ومن اقامة الفضيلة الا اشاعة الرعب ، وتوهم الخطأ فى كل شىء ، وتصيد العيب عند كل شخص . ولا بد للمشرع ليصلح تشريعه ، أن تبقى صلته بمن يشرع لهم حية ، وقد كان الرسول عليه صلوات الله يعيش مع الناس كواحد منهم ، يغسل ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويشارك أصحابه فيما يعملون ، ولو كان رفع التراب . ويكره أن يقوم احد منهم عنه بنصيبه فى العمل ويقول : « علمت انكم تكفوننى ولكن أكره أن أتميز عليكم » .

وكان يقول :

« من ولى من أمر الناس شيئا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة » .

واذا أردنا أن نوجز منهج رسول الله فى التشريع فى كلمات لقلنا :

أولا ـ كان يؤمن عليه صلاة الله وسلامه ، بان

القانون وحده لا يصلح الأمة ولا يرد الشر ، ولا يهيىء الخير ، فسبيل ذلك عنده عليه أفضل الصلاة ، التربية القومية وقوامها الدعوة والقدوة . لذلك عاش الرسول وهو يدعو الى مكارم الاخلاق .

ثانيا ـ كان يؤمن بأنه لا ضمان لحكم القانون ونفاذه الا يقظة الشعب وسهره وكرهه للظلم واخذه على يد الظالم ، وقد أوجز ذلك كله بقوله : « كما تكونوا يول عليكم » ثم قال : « اذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » وقال : « اذا عجزت أمتي من أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها » .

ثالثا ـ كان سبيله فى التشريع الرفق وكان يقول : « ان الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لايعطي على العنف » ولذلك كان يكره تصيد الاخطاء ويقول : « انك ان اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم » .

رابعا ـ كان يؤمن بأن الأنسان لا القانون ، هو الذى يبسط أحكام الشريعة وينشر نورها، ومن ثم فان اختيار الرجل الصالح فريضة على المسلمين وتخطى الرجل الافضل اساءة اليهم وقال : « ايما رجل استعمل رجلا على عشرة انفس علم أن فى العشرة أفضل مما استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » .

خامسا ـ كان الرسول يسمع لما يقوله المسلمون فيما نزل من الشرع وفيما لم ينزل ، فلا يزور عنهم ولا يضيق صدره بجدلهم وسؤالهم وفى سورة « المجادلة » صورة لأسلوبه هذا ، فقد جاءت خولة بنت ثعلبة وكان زوجها قد ظاهر منها أى طلقها طلاقا لا رجعة فيه ولم يكن قد نزل من القرآن شيء فى الظهار فاشتدت خولة

فى شكواها فنزل القرآن بالآية الكريمة : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير » .

- ٢ -

لا يكون الانسان مشرعا ناجحا ينتفع الناس بقوانينه ، فينصلح حالهم وتستقيم أمورهم ويسودهم الامن ، وينقطع بينهم الشقاق ، الا اذا كان هذا الانسان — كما قلنا — من أفراد الجماعة التى يشرع لها ويضع القوانين، ليعلم عيوب حياتهم وآفاتهم ومواطن قوتهم ، وحوافز غيرتهم ، وبواعث حماستهم وما يقبلون عليه ، وينصرفون عنه ، وما يخيفهم ، وما يريحهم . ولا بد له أن يطوى صدره على الحب للجماعة التى يضع قوانينها ، وأن يكون اسلوبه الرفق والاتئاد ، وأن يكون بعيد النظر يعرف اخريات الامور من مقدماتها .

وقد كان محمد رسول الله مشرعا ، ولكنه لم يشرع للعرب وحدهم وانما شرع للانسانية كلها ، فكيف يتيسر لرجل أن يعرف الانسانية كلها ويحيط بنقائصها وخصائصها وبفضائلها ورذائلها وما تستجيب له وما تثور عليه . وكيف يستطيع قلب رجل واحد أن يحب الناس جميعا ، ويحنو عليهم ويجعل من أحزانهم وآلامهم ، وأحلامهم وآمالهم ، شغله الشاغل ، وهمه المقيم .

الحق ان ذلك امر عسير .. نعم انه لامر عسير أن تعرف الانسانية كلها فى مشارق الارض ومغاربها ، فى السهل والجبل ، وعند البر والبحر ، وفى الصحراء المجدبة والحقول المخصبة ، وفى مختلف الحقب

والعصور . وأشد منه عسرا أن تحب الناس وتفهمهم وفيهم الغليظ المتكبر ، والضعيف الخانع ، والصادق الامين ، والمرائى المشاء بنميم . ولكن محمدا رسول الله بعث ليكون رحمة مهداة للبشرية جمعاء ، وليكون رسول رب العالمين ، فقد واتاه الله بمعرفة الانسان ايا كان مكانه ، وأيا كان زمانه ، وبقدرة لا حدود لها ولا نطاق تقف عنده ، على حب الناس والتسامح والصبر عليهم مهما ساءت اعمالهم أو فسدت نواياهم .

كان محمد عليه الصلاة والسلام عالما بنفوس الناس فقد تربى فى مدرسة القرآن واختير لينشر تعاليمها ، ويبشر برسالتها ، ويرفع لواء دعوتها ، ولم تعرف الانسانية كتابا يحتفل بالانسان ويفصل صفاته وطباعه ، ويبين قوته وضعفه ، وايمانه وكفره ، وخيره وشره وهو طفل وصبى ، وشاب ورجل ، وكهل وشيخ وهرم ، كما فعل القرآن الكريم ، لذلك كان الرسول عليه أفضل الصلوات لا يكف عن التحدث من الانسان والى الانسان ويصدر فى كل احاديثه عن هذا المبدأ الكلى العام الذى جاء فى خطبة الوداع : « أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . ان اكرمكم عند الله اتقاكم . وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لاحمر على أبيض فضل الا بالتقوى » .

وهذا المبدأ الكلى نابع من الاصل الاصيل الذى جاء فى القرآن الكريم : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وهو أصل يعرضه القرآن بأكثر من أسلوب ، من ذلك قوله تعالى : « من قتل

نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل النـاس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

فالناس جميعا ممثلون فى أى فرد منهم مهما صغر شأنه وضعفت مكانته . ولقد عبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن حبه للناس جميعا فى اشد المواقف استثارة للغضب وتحريكا للـكره ونسيانا للروابط والعلائق ، ونعنى به موقف الحرب ففى هـذا الموقف كان دعاء الرسـول : « اللهم انا عبادك وهم عبادك نواصيـنا ونواصيهم ، بيدك اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » ففى موقف القتـال يذكر الرسـول ان الذين يناجزهم ويحاربهم ، هم أخوة وانه لا يحاربهم لـكره ، وانما من اجل غاية ومبدأ ، وقد أوصى عليه السلام أحد صحابته ، وقد امره على احدى السرايا : لا تقاتلوهم حتى تدعوهم فان ابوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فان بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم هل الى خير من ذلك سبيل ؟ . .

فالحب أساس من اسس الدعوة المحمدية لذلك كان يقول : « لا تؤمنوا حتى تحابوا » ، ويصف عليه السلام جماعة ما هم بأنبيـاء ولا شهداء ، يغبطهم الانبيـاء والشهداء ، يقول : « وهم قوم تحابوا بروح الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعـاطونها ، فوالله ان وجوههم النور وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » .

ومن هنا كان فى مقدور محمد عليه الصلاة والسلام ان يشرع للانسانية كافة فى ضوء القرآن وعلى هديه . فقد كان انسانا أحب النـاس فعرفهم ، فعرف كيف يأخذ بيدهم ، ويقودهم . . وهذا هو عمل المشرع العظيم .

لم يفاجا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام الناس بالشرع قط ، ولم يرد أن يثقل عليهم بأحكامه الجديدة ، حتى يمهد لها الطريق وينفذ بها الى قلوب أفراد الجماعة فليس كل ما كتب على ورق وامر به الناس يعد قانونا ، انما القانون ما ارتضته الجماعة وسد حاجة لها ، وزاد فى خيرها . وقد روى عن نصر بن الليث عن رجل منهم انه أتى النبى فاسلم على أن يصلى صلاتين لا خمسا . فقبل . وعن وهب قال : « سألت جابرا عن شأن ثقيف اذ بايعت » فقال : « اشترطت على النبى أن لا صدقة عليها ولا جهاد » ، وانه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون » رواه أبو داود . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « اسلم » قال : « أجدنى كارها » قال : « اسلم وان كنت كارها »

ولم يكن عليه الصلاة والسلام ليقنع بالتلطف للناس منذ أول عهدهم بالدين ، فاذا دخلوا فى صفوفه ، اشتد عليهم وسد فى وجههم منافذ النجاة من العقاب ، وجعل العقاب والخوف هو الحارس للجماعة . . بل إنه جعل ديدنه فتح ابواب التوبة والاخذ بيد من تورط فى الخطأ ومن قارف الجريمة . وقد كان نهجه عليه السلام من نهج القرآن الذى ورد فيه لفظ التوبة وما اشتق منه فى أكثر من تسعين موضعا . وقد روى عن رسول الله فى هذا الصدد أحاديث تعيا بعض العقول فى فهمها ، والوقوف على أسرارها . من ذلك قوله عليه السلام : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بآخرين يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » فقد علم عليه

افضل الصلاة والسلام ، ان الخطأ قدر مكتوب على الانسان ، وانه ليس أقسى على النفس الانسانية ولا أشد عصفا بها من الحاح الشعور بالاثم عليها ، فقد يوردها موارد التلف أو يلقى بها فى مهاوى الجنون أو اليأس الذي لا اصلاح بعده .

ذهب عليه الصلاة والسلام كل مذهب ليدخل الطمأنينة الى القلوب الشاردة الواجفة والتخفيف عمن خيل اليه انه قد أثم ، اذ خطر له خاطر من الشك فقد شكا اليه بعض صحابته من وساوس نفوسهم ومما عانوه من الشك ، فقال لهم : « هل وجدتموه ؟ » فلما قالوا له : « نعم » قال : « الحمد لله !.. هذا محض الايمان » . صدق رسول الله فان النفس المؤمنة هى التى لا يكف حوارها مع صاحبها فى كل ما يعرض لها من شئون الدنيا ومشكلات العقيدة ومواقع الشبه .

ومنهج سمح كهذا لا يستقيم الا بمبدأ الاخذ بالظاهر فقد كان رسول الله يقول : « انك ان تتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم » ومن تطبيقات هذا المبدأ ان أحد أصحاب رسول الله قتل رجلا بعد ان القى اليه السلم اى بعد ان اظهر انه لن يحارب ، فلما اشتد غضب رسول الله ، وقال له صاحبه : « ان هذه كانت خدعة يا رسول الله » فقال : « ولو كانت كذلك فانا أمرنا ان نأخذ بالظاهر » .

فدور العقاب عند رسول الله لا يعدو أن يكون صارفا للنفوس عن الشر ، مخوفا لها من سىء عواقبه ورادعا لمن لا تصلح فيهم الموعظة الحية ، ولا تقومهم القدوة الصالحة . ومن ثم كان درأ الحدود بالشبهات أصلا أصيلا من أصول الشريعة الاسلامية ومؤدى هذا الاصل

ان على القاضى تلمس كل الاسباب المانعة للعقاب ولو كانت شبهة ، وأن يبذل فى سبيل ذلك اقصى الجهـد والمثل الذى يضرب لبيان المقصود من هـذا المبدأ هو مثل ماعز المعروف . فقد جاء ماعز الى الرسول معترفا بأنه زنا فلم يهش الرسول لهذا الاعتراف وأخذ يفتح لماعز أبواب النجاة قائلا : « لعلك قبلت ، لعلك عانقت ، لعلك أ .. لعلك أ .. » فلما اصر ماعز على اعترافه لم يكن ثمة مناص من انزال عقوبة الرجيم عليه . فلما اخذ لتنفيذ الحد اشتد وجعه فحاول الفرار ، فلحق به الناس ، وما زالوا به حتى قتلوه فلما سمع الرسـول بذلك قال : « هلا تركتموه » .

وبقدر حرص الرسول على سد المنافذ فى وجه العقاب كان يبالغ — عملا بالمنهج القرآنى — فى الاحتفاء بالعمل الطيب مهما صغر ويقول : « من هم بحسنة ولم يرتكبها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ولم يرتكبها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وارتكبها كتبت له عشرا » .

— ٤ —

لم يشرع محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام للعرب وحدهم وانما — كما سبق القول — شرع للانسانية كافة على أسس من احكام القرآن .

جاء فى الذكر الحكيم : « وأرسلناك للناس رسولا » « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » ولقد قامت الدلائل على أن هذا البناء القانونى الشامخ الذى أقام محمد صرحه كان بناء انسانيا بحتا تجاوز بلاد العرب وتجاوز الزمن الذى بعث فيه الرسول وكان — من بين الانظمة القانونية والتشريعية — فريدا فذا لا يدانيـه ولا يشبه نظام سواه . فالشريعة اليهودية كانت لليهود

وحدهم ، والشريعة المسيحية خلت من احكام مفصلة تتناول شئون الدنيا كما فعلت شريعة الاسلام. فالاسلام اورد احكام البيع والشراء ، والزواج ، والطــلاق ، والرق والعتق ، والحرب والسلم ، كما أورد روابط واسسعلاقات الانسانالفرد بنفسه وبزوجه وبجماعته، وبالناس اجمعين ، والاديان غير المنزلة ــ البرهميــة والبوذية ــ اقليمية بحتة لم تتجاوز شرق آسيا وشرقها الجنوبي . أما الذين اتخذوا من شريعة الاسلام قانونا ومن محمــد بن عبد الله اماما ، واسوة ، فى شــئون معاشهم ، وعباداتهم ، وبناء مجتمعهم فقد انتشروا فى افريقيا وآسيا ، وعاشوا فى منــاطق اوربا وامريكا ، وظلوا هكذا قرونا بلغت أربعة عشر قرنا .

ولا جدال فى ان صبغة الشرع المحمدى هى صبغة انسانية وثمة قرينتان أساسيتان على ذلك قرينة الزمان وقرينة المكان ، فعن الزمان امتد عمر هــذا الشرع قرونا ككل عمل انسانى صالح ، وعن المكان فقد شمل اقطارا متباعدة ، تسكنها أجناس ، متباينة ، ولــكن القرينة الــكبرى مســتمدة من أحكامه فانه يقوم على الانسان ، وللانسان . يحميه من نفسه ويحميه من عوادى الطبيعة ، وينير له طريقه ، فى صلاته بالــكون ويحوله الى طاقة خير تتجدد وتقوى .

ولو أردنا لضربنا الامثلة العديدة على انسانية هذا الشرع ولــكن حسبنا ان نضرب المثل بحكم الاسلام فى الرق . فالاسلام لم يلغ الرق ، وان ضيق موارده الى أقصى حد ، ووضع من الاحكام والقواعد فى شأن الرقيق ما كشف عن جوهره الانسانى أكثر مما لو حرم الرق - x وعاقب من يسترقون الناس بأقصى عقاب . ذلك لأنه

اعترف بانسانية الرقيق، وكرامته ، وقدمه على الاحرار وحباه بمتجدد عطفه فدل بذلك على أن الانسان يبقى انسانا ، وتبقى له كل حقوقه ، على اخوانه من الناس وعلى الجماعة ولو كان رقيقا . فانسانية الانسان أعلى من أن تطولها يد أو يطمسها نظام ، أو أن يحجبها قانون. بقى الرقيق متاعا فى الغرب يحق لصاحبه أن يقتله آمنا اذا هو اعتدى ــ ولو بكلمة سب ــ على احد الاحرار وقد نص على هذا الحكم الوحشى الجائر قانون صدر فى بريطانيا سنة ١٦٨٥ .

أما محمد رسول الله للناس كافة فقد قال منذ أكثر من الف واربعمائة سنة : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده ، جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه » ولم يقف محمد عند هذا الحد . ولو وقف عنده لكان شيئا عظيما ولكنه ولى الرقيق الذى أعتق أكبر المناصب فولى بلالا المدينة ، وهو عبد حبشى ، وفيها وجوه العرب وساداتهم ، وأمر أسامة على جيش كان فيه كبار الصحابة . وأسامة هو ابن زيد بن حارثة عبد رسول الله، وقد تأسى برسول الله خلفاؤه والمسلمون فلما ذهب عمر الى الشام ليبرم مع أهلها معاهدة ، اصطحب معه رقيقا فكان يركب هو بعض الطريق ، ويركب عبده بعضا آخر ، فلما وصلا الى دمشق ، وخرج الناس ليستقبلوا امير المؤمنين وجدوا العبد على الدابة ووجدوا الامير من خلفها .

ونحن نقول ذلك لنستخلص منه النتيجة التى ان لم نختم بها احاديثنا عن رسول الله المشرع لما كان لاحاديثنا النفع الذى نرتجيه لها . ان العالم اليوم قلق مضطرب كما كان بعهد رسول الله ، واحسب أن سبب ذلك أن

العالم لم يهتد بعد الى نظام يحقق الاتساق والتلاؤم بين اصـــول متعارضة : اى بين حقوق الفرد ، وحقوق الجماعة ، وسيادة العقل ، وسيادة الروح ، وسلطان الدولة ، وسلطان القانون ، وراس المال المسيطر الذى يوسع الهوة بين الفقراء والأغنياء ، ورأس المال المكبل الذى يورث استبداد الفنيين والاداريين حينا ، وبطش الحكام واستبدادهم حينا . واحسب أن الشرع الذى بعث به محمـــد ودعا اليه ، فيه من أسباب التوازن وعناصره ، ما يستحق معه ، أن يعرضه المسلمون على غيرهم بلغة اليوم واسلوبه ، وبمناهج من تتلمذوا على محمد وتأسوا به .

محمد رسول الله مشرعا

١ ـ معالم منهجه الاخلاقي

ان من الأسس في الشريعة الاسلامية ، أن الانسان ، هو الشريعة ، فالانسان الذي توافرت فيه صفات معينة ، واجتمعت له خصائص محددة ، هو الانسان الذي يتلقى العقيدة الاسلامية ، يشرح الله لها صدره ، ويثبت عليها الى آخر عمره . فالمؤمنون تعرفهم بسيماهم ، ومن هنا لم تكن الاخلاق ، مجرد تهذيب للأفراد ، وانما هي المدخل للعقيدة الاسلامية ، والاساس الذي تقوم عليه ، والنتيجة التي تثمرها العقيدة ، فهي فاعلة ومنفعلة ، وهي سبب ونتيجة ، وهي وسيلة وغاية .

لذلك كان أكبر ما انفقه الرسول من جهد ، وهو يدعو للاسلام ، ثم وهو يقيم دعائم المجتمع الاسلامي ، ثم وهو يدافع عن هذا المجتمع ، وأخيرا وهو يخوض الحرب مع أعداء هذا المجتمع بقيمه ومبادئه ، كان أكبر جهد بذله الرسول في هذه الأطوار جميعا ، هو جهده في التربية الاسلامية .

وقد وصفه القرآن : « وانك لعلى خلق عظيم » ، وقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . كما قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ومن كلمات الرسول ، عليه السلام ، الجامعة : « ذهب حسن الخلق بخير الدين والآخرة » ولم يكن

يكف عن دعاء ربه بقوله : « اللهم كما حسنت خلقى ، فحسن خلقى » ، ثم بقوله : « اللهم اهدنا لأحسن الاعمال ، وأحسن الاخلاق ، لا يهدى لأحسنها الا أنت»

وقال : « ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن » ، وقال : « ليبلغ المرء بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل » .

وهو لم يدع مكرمة من مكارم الأخلاق الا وذكرها وزكاها ، وحرص على اتباعها .

ولكن من أمهات الفضائل عن الرسول ، كما هى فى القرآن ، فضيلة الصدق . لأنه فى واقع الأمر ، هو مصدر عشرات من الفضائل الاخرى ، كالشجاعة ، والصراحة ، والثبات على المبدأ ، واحتمال الأذى ، وانكار الذات ، والدعوة الى الحق ، والنهى عن المنكر ، والوفاء للناس ، لذلك قال : « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« اياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور، والفجور يهدى الى النار ، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

وقال عبد الله بن عمر بن العاص : « قلنا يا نبى الله من خير الناس ؟.. قال : ذو القلب المخموم ، واللسان الصادق » .

قلنا يانبى الله ، قد عرفنا اللسان الصادق . فما القلب المخموم ؟ .. قال : « التقى النقى الذى لا اثم فيه ، ولا بغض ولا حسد » .

ولما كان الصدق هو من أركان البناء الاخلاقي الذي شاده رسول الاسلام ، فقد كان النفاق والمراءاة هم اشد الرذائل نكرا عنده حيث قال : « شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » .

وبقدر ما دعا الي الصدق ، دعا الى الحب ، وعنوان عقيدته : « لاتؤمنوا حتى تحابوا » ، و «ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، « وانما المؤمنون اخوة » .

ولكم دعا الى الحب ، وكم كره للناس الحقد والحسد ، والغضب فقال : « ان أحبكم الى أحسنكم أخلاقا » ، « الموطئون اكنافا ، الذين يألفون ، ويؤلفون ، وان أبغضكم الى المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الملتمسون للبراء العيب » .

لذلك كره أن يتورط المسلمون في المراء ، والمشاحنة المفضية الى الكراهية والبغضاء ، فقال :

« مهلا أمة محمد ، انما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء فان المؤمن لايماري ، ذروا المراء فان المماري قد تمت خسارته ، ذروا المراء فكفى الا تزال مماريا ، ذروا المراء فان المماري لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاث أبيات في الجنة ، في رياضها ، ووسطها ، وأعلاها ، لمن ترك المراء وهو صادق ، ذروا المراء فان أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان ، المراء . وقال : « من هجر أخاه خمسة ، فهو كسفك دمه » .

وبقدرما اشتد الرسول في تقبيح المراء ، صور الحب والمتحابين في أجمل الصور ، وأبهاها ، وأكثرها اشراقا ،

قال : « ان من عباد الله أناسا ، ما هم بأنبياء ولا شهداء الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، عطاؤهم من الله تعالى ، قالوا يارسول الله : « تخبرنا من هم ؟ » قال : « هم قوم تحابوا ، بروح الله على غير ارحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها. فوالله أن وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور .. لا يخافون ، اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس .. » (١)

وقد يظن ظان أن الرسول قصر نصائحه على الفضائل الكبرى ، ولكن هذا الظن فى غير موضعه ، فالرسول حرص على أن يضع قواعد رقيقة لمجتمع نظيف أنيق ، يزدان بالذوق المصفى ، وبلطف العلاقة ، وبحسن المظهر والمنظر ، وبجمال الاشارة والعبارة ، ولست قادرا على ان اورد عشرات أو مئات الأحاديث فى هذا المعنى ، ولكن حسبى أن أقدم منها أمثلة ، فقد رأى رسول الله عمر بن الخطاب يبول قائما ، فقال له : لا عمر لا تبل قائما ، ورأى رجلا مضطجعا على بطنه ، فقال : أن هذه ضجعة لا يحبها الله تعالى ، وقال : « لا يستلقى أحدكم ثم يضع احدى رجليه على الاخرى » ، وقال : « من اكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته » ، وقال عمر بن عمرو بن العاص أن رسول الله رأى عليه ثوبين معصفرين (شديدى الصفرة) فقال له : « أمك أمرتك بهذا ؟ » ، فقال ابن عمر : « أغسلهما يا رسول الله ؟ » قال : « بل احرقهما » . وكان رسول الله يكره الثوب الذى تشم منه رائحة العرق .

---

(١) يمكن للقارىء أن يطلع على عدد كبير من هذه الاحاديث فى كتاب « انسانيات محمد » بقلم خالد محمد خالد ..

واليك هـــذه القواعد المثلى فى آداب المجتمع : اذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فان ذلك يحزنك . لا يقيم أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا ، وتفسحوا ، يفسح الله لكم .

ولا يحل لرجـــل ان يجلس بين اثنين الا باذنهما : « واذا انتهى أحدكم الى المجلس فليسلم ، فان اراد أن يقوم فليسلم ، فليست الاولى أحق بالاخرى » .

٢ ـ الرجل الصالح خير من القانون الصالح :

بما أن الشرع الاسلامي ، يقوم أصلا على الانسان ، اى على مصلحته ، بما يطابق خصائصه وصفاته ، وبما يحقق دائما كرامته ، فقد قام على الاخلاق ، لأن كل ما عدا الأخلاق من وازع ودافع ، لا يخلو من القسر والعنف ، ولا يخلو قسر أو عنف ، من امتهان لـكرامة الانسان ، وافتيات على حق من حقوقه ، فاذا كانت الأخلاق هى الوازع الأكبر ، عند الاسلام ، وكانت غايته أن يرهفها الى أقصى الحد ، وأن يستخدم سلاحها ، ويقوى صوتها فى قلب الانسان ، فخير من يحقق هذا ، الانسان ، الذى يقترب فى منهجه وخصـــائصه وأسلوبه وطريقته من رسول الله : « قد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

فالرجل الذن يتقـــدم على الشريعة ، لأن الرجل الصالح ، هو الذى سيتلقى الشريعة الصالحة ، ويؤنس بها ، وهو الذى سيقوم على تنفيذها ورعايتها . وتاريخ الاسلام شاهد على ذلك ، فعمر الدعوة الاسلامية منذ بعث محمد الى أن توفى الى رحمة الله ، هو ثلاثة وعشرون عاما ، كان منها ثلاثة عشر عاما فى مكة ، والثابت أنه لم ينزل خلال هـــذه المدة من القرآن شىء يتضمـــن

الاحكام ، فقد اقتصرت الدعوة فى هـذه المرحلة على اسسها الـكبرى . على التوحيـد ونبـذ الشرك ، والتطبع بالأخلاق الاسلامية ..

فقد قام الاسلام على عدد قليل من الرجال الصالحين وفى خلال سنى صحبتهم للرسول ، وجهـادهم معه ، ومحاربتهم للشرك ، ونشرهم لعقيدة التوحيد البسيطة ، بنى الاسـلام ، وارتفع صرحه ، وتوالت أحكامه فى العبادات ، والمعاملات ، والحدود .

فى خلال هذه الفترة ، كان الرسول يجمع الرجال الصالحين الاقوياء ، ويجعلهم عمـدا لهـذا المجتمع الجديد ، وكانت مهمته التطبيب والعلاج ، والمداواة عملا بالحديث القدسى القـائل : « يقول الله دعونى وعبادى ، أن تابوا الى فانا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فانا طبيبهم .. »

ولذلك كان من الاصول الاساسية فى الشريعة ـ كما مر بنا ـ اختيار الرجل الصالح فريضة على المسلمين ، ولاة امورهم ، وعامتهم ، وانه اذا وجد صالح وأصلح وجب تقديم ثانيهما على أولهما ، لأن فى اختياره مناط المصالح ، وحسن رعايتها ، وخير المسـلمين ، ورد الشر عنهم .

ويكمل هذا الركن ، ويقيمه على أقوى الاسس ان تكون بطانة الرجل الصالح صالحة ، كذلك ، فما أكثر أن يبدأ الرجل صالحا ، ثم يتسلل الى بطانته ، أهل السوء ، ويزداد عددهم شيئا فشيئا ، حتى يصبحوا هم محل ثقة ولى الامر ، كبر مقامه او صغر ، فيصبح هو فى أيديهم أداة يديرونها كيفما شاءوا .

قال عليه السلام :

« ما من وال الا وله بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه خبالا .. فمن وقى شرها فقد نجا .. »

وقال عليه الصلاة والسلام :

« اذا أراد الله بالأمير خيرا ، جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، واذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه » .

هذه هى الحلقات الثلاث ، تكمل بعضها بعضا :

اختيار الرجل الصالح .

تحيط به البطانة الصالحة لا البطانة السيئة .

ويكون له وزير صدق لا وزير سوء .

وهـذه المراتب الثلاث ، تكون ضمانة من أكبر ضمانات اقامة الدين ، وصلاح الرعية ، وسعادة الناس . وهى فى الوقت نفسه ، الجو الصالح ، الذى تسود فيه أحكام الشرع ، ويهتدى فيه الفقهاء والعلماء الى الحكم الصحيح فى الكتاب والسنة ، والا وجدوه بالقياس والاجتهاد بسبله المعروفة ، وطرائقه المشروعة

٣ ـ الصلة الحسية بين ولاة الأمر والرعية :

اذا تيسر اختيار الرجل الصالح ، واختياره من اشد الامور عسرا ومشقة ، فما الضمان ان بطانة السوء لن تحيط به ، وان وزير السوء ، لن يستأثر بهواه ، ل ما السبيل الى الاهتداء الى الرجل الصالح ، إختياره ثم القطع بأنه لا يوجد من يفضله .

لا سبيل الى ذلك كله الا أن يكون ولى الامر فى

متناول النــاس ، يصلون اليه حينما يقصـدونه ، لا يردهم عن بابه حجاب ، ويبلغونه رأيهم ، ويسمعونه احتجاجهم ، ويراهم رأى العين ، لا بطريق النقل عن سواه .

قال رســول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ قال له العباس : « لو اتخذت لك عرشا ، فان النــاس قد آذوك » ، قــال : « والله لا أزال بين ظهـرانيهم ، ينازعونى ردائى ، ويصيبنى غبارهم ، حتى يكون الله يريحنى منهم » .

ولذلك شدد رسول الله النكير على ولاة الامر الذين يحتجبون عن الناس فقال :

« ما من امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة ، والخلة والمسكنة ، الا أغلق الله أبواب السماء دون خلتـه ، وحاجته ومسكنته » .

واذا فتـح الوالى بابه لذوى الحاجـة ، والخلة والمسكنة ، أو أولى الضـعف والحاجة ، كما جاء فى حديث آخر ، فقد فتح بابه لكل الناس ، لأن ولاة الأمر يفتحون أبوابهم عادة لذوى الوجاهة ، وأهل الصدارة ، ولأمثالهم من الحكام والمقربين من بطانتهم وأعوانهم ، ويسدون بابهم فى وجه أصحاب المصالح والضعفاء الذين لا سند لهم ، فان فتح الباب لهؤلاء الضعفاء المجهولين الذين يعوزهم السند والظهير ، فقد فتح الباب للناس كافة ، واذا فتح باب ولى الامر للنــاس فسيسمعونه رأيهم فى بطانتـه ووزرائه ، وسـيعرف من قولهم الصالحين من الرجال والطالحين وستهب من هـذه الابواب المفتوحة رياح لا قبـل للفاسدين بالوقوف فى وجهها ، فانها تقتلع الفاسد من أساسـه ، وان كان قويا فى ظاهر الامر فليس أضعف من الفاسد .

اذا كملت للجماعة تربيتها الخلقية ، فقد تهيأت لأن تفرض عليها التكاليف والعبادات وتطالب بأداء الواجبات وتحاسب على التقصير وتؤاخذ على انتهاك الحرمات وتخطى الحدود .

فلا يكلف أحد شيئا الا بعد أن تتهيأ نفسه له ، فيدرك هذا التكليف وحدوده ، ويدرك ضرورته ولزومه لمصلحته ، ثم يعالج كما يعالج الصبى الناشىء ، أو المريض الناقه ، حتى يستيقن ولى الامر انه بات كفئا للتكليف فيفرض عليه ، ثم يحاسب اذا لم يقم به .

كانت هذه سنة الاسلام كله ، فكانت سنة القرآن ، وكان الرسول هو الذى جرى على هذه السنة طاعة لرب العالمين ، وابلاغا لرسالته .

فالقرآن لم يطالب الناس ، أول الأمر ، الا أن ينبذوا الشرك ، وأن يؤمنوا باله واحد ، لا شريك له ، وأن يتركوا الفواحش والمعاصى ، ما ظهر منها وما بطن ، ويتحلوا بالأخلاق التى أوصاهم بها الرسول ، وبينها لهم . ومضت سنوات فى اثر سنوات ، لا يطلب منهم الا هذا ، ولا تلقى عليهم من الدروس الا ما يتصل به ، او يدور حوله .

فلما نزلت آيات الاحكام نزلت متدرجة ، كما سنرى ذلك ، ولعل حكم الخمر كان أبين الامثلة على هذا الشىء السهل الميسر .

فقد كانت الخمر آفة متفشية فى المجتمع المكى ، وكانت لها تجارة وتجار ، وكان تحريمها صدمة لمن

الفوا شربها ، لذلك بدأ الاسلام ينبه الى ما يهدف اليه آخر الشوط ، فقال : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما » (١)

فكان ذلك تنبيها الى أن الخمر ليست كالمعهد بها ، شرابا مباحا ، لا يثير تعاطيه مناقشة ، فلما تهيأ الناس لذلك ، حرمت عليهم الخمر عند الصلاة ، فصعب تعاطيها خلال النهار ، لتقارب مواقيت الصلاة ، ونزل القرآن بالآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٢) .

ثم نزل حكم التحريم فقال : « انما الخمر والميسر والازلام والانصاب رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله » (٣)

ويروى أنس بن مالك . انه كان يسقى أبا عبيدة بن الجراح ، وأبا طلحة ، وأبى بن كعب شرابا ، فجاءهم من يخبرهم بأن الخمر حرمت ، فامر ابو طلحة أنس بن مالك فكسر الجرار وكانت ملكا لأبى طلحة (٤) .

وتجد مثل هذا فى حكم الربا كذلك ، فقد بدأ بقوله : « وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس ، فلا يربو

---

(١) البقرة - ٢١٩
(٢) النساء - ٤٣ ..
(٣) المائدة - ٩١ ، ٩٢

(٤) تاريخ الفقه الاسلامى - الجزء الثانى - ص ١٠٩ محمد يوسف موسى .

عند الله » (١) ويثنى بقوله عن اليهود : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه » (٢) ثم انتهى الى التحريم الصريح بقوله : « اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا » .

ولقد جرى رسـول الله صلى الله عليه وسلم على هذه السنة فى الدعوة الى الدين كله ، وفى تنفيذ أحكام الشريعة ، ولعل ما فعله مع ثقيف ـ وقد مر بنا ـ من أشد الأمثلة وضوحا فى الدلالة على هذا المنهج ، فعن عثمان بن أبى العاص قال : « لما قدم وفد ثقيف نزلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم فاشترطوا الا يعشروا ، ولايحشروا ، ولا يجبوا » فقال صلى الله عليه وسلم : « لكم ألا تعشروا ولا تحشروا ، ولا خير فى دين ليس فيه ركوع » . ومعنى هذا الحديث أن الرسول عليه السلام وافقهم على ألا يعشروا ، أى الا يدفعوا عشورا اى زكاة ، وألا يحشروا ، اى الا يجاهدوا ، ولم يوافقهم على الا يجبوا ، أى على اعفائهم من اداء الصلاة ، والتجبية هى أن يركع الانسان .

ويفسر بعض المفسرين قبول الرسول هذين الشرطين بأن الزكاة لا تجب على المسلمين الا بتمام الحول ، ولم يكن الحول قد كمل عندما طلبت ثقيف هذا الاعفاء ، كما ان الجهاد لا يلزم الا بقيام مقتضاه ، أما الصـلاة فواجبة ، ولا سبيل الى الاعفاء .

وعن وهب قال : « سألت جابرا رضى الله عنه عن شأن ثقيف اذ بايعت » فقال : اشترطت الا صدقة عليها ، ولا جهاد » وانه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سيصدقون ويجاهدون اذا أسلموا » .

---

(١) الروم ـ ٣٩ (٢) النساء ـ ١٦١

وهذا هو الأصح ، فرسول الله يعلم أن ثقيفا كانت تطلب اعفاءها من الزكاة والجهاد ، أبدا ، ولم يكن من خلق الرسول أن يخادع الناس ، فى عهوده ومواثيقه ، فقصده هو ما أعلنه من أن ثقيف اذا دخلت الدين ، واطمأنت اليه ، نفذت كل أحكامه ، فشروطها عند الدخول فى الاسلام ، شروط من لم يكمل ايمانه ، وقد تحقق ما توقعه الرسول ، وصلح اسلام ثقيف وخرج منها رجال أقوياء أشداء ، خدموا الاسلام بعقولهم ، وحاربوا عنه بسيوفهم .

أما منهج الرسول فى تنفيذ الاحكام ، فقصة ماعز بن مالك الاسلمى خير مثال فى هذا الباب ، وقد أوردناه فى موضع سابق من الكتاب .

ولكن مثل (الغامدية) لا يقل جلالا عن مثل (ماعز) فقد جاءت الغامدية فقالت : يارسول الله ، انى قد زنيت فطهرني ، فردها ، فلما كان من الغد قالت : يارسول الله لم تردنى ، لعلك ان تردنى كما رددت ماعزا ، فوالله انى لحبلى فقال : أما لا فاذهبى حتى تلدى . فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة وقالت : هذا قد ولدته ، قال : فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى وفى يدها كسرة خبز ، فقالت : هذا يانبى الله قد فطمته وقد اكل الطعام ، فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ، ثم امر بها فحفروا لها الى صدرها ، وأمر الناس أن يرجموها ، فاقبل خالد ابن الوليد بحجر ، فرمى راسها فنضح الدم على وجهها فسبها ، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم سبه اياها ، فقال : مهلا يا خالد ، فوالذى نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسى لغفر له ، ثم أمر بها فصلى

عليها ودفنت (١) .

وهاتان الروايتان لهما دلالتان : أولاهما ، هـذا الرفق البـاهر فى تنفيذ الاحكام ، وانزال الحدود ، فالرسول لم يهش لهذا الاعتراف الصـادر من ماعز والفامدية ، وهو اعتراف هادىء لا تردد فيه ، ولا حماسة طارئة ، مبعثـه فى الحالين ايمان كامل ، بأن انزال الحد بهما حق لا مرية فيه ، ولا فرار منه ، وأنه مطهر لهما مبرىء لساحتهما ، وقـد تراخى تنفيـذ العقاب أياما حتى بلغت فوق الاسبوع، وتراخى فى المرة الثانية حتى بلغ سنين .

اما الدلالة الثانية فهى ما أعلنته الروايتان عن مبلغ ايمان المسلمين بانهم لايفعلون شيئا الا والله مطلع عليه ، وانهم لايستطيعون اخفاءه عن الله ، وان خفى عن الناس وهو أقصى ما يطمع فيه المربون فى تربية الأفراد وخلق الجماعات . فهذا اليقين ضابط خلقى وحاكم تربوى ، لا يقوم على أوهام أو مخاوف كاذبة لأنه يقيم من ضمير الناس رقيبا عليهم يحاسبهم على أعمال وجرائم لايرضى عنها مجتمع الا أن يكون قد تدهور الى الحضيض .

ثم انظر بعد ذلك الى هذا الحزن الذى يخالط نفس الرسول وهو ينهى خالدا عن سب الفامدية ، مع انها زانية ، نفذ فيها الحد ، فالمجرم بعد أن يعاقب ، من حقه أن يستأنف حياته فى المجتمع كالأبرياء الذين لم يذنبوا ، والا يعيره أحد بجريرته لا سيما اذا كان قـد سعى بنفسه الى العقاب وطلب من قاضيه أن ينزل عليه الجزاء .

---

(١) اخرجه مسلم وداود ـ من وحى الاحاديث المحمدية ـ ص ١٧٤ ـ محمود على قراعة ..

وفى هذا المعنى روى ان حـــدا نفذ فى امرأة زنت ، فلما ماتت قام النبى فصلى عليها . فقال عمر : أتصلى عليها وقد زنت ؟.. فقال صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينـــة ، لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل (١) .

وعن عمر رضى الله عنه ، أن رجلا كان يلقب حمارا ، وكان يضحك رسول الله أحيانا ، وكان الرسول قد جلده فى الشراب ، فأتى يوما فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تلعنوه ، فوالله ما علمت الا انه يحب الله ورسوله » لقد صدق رسول الله .

« ان الله رفيق يحب الرفق فى الامر كله .. وان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه (٢) ، وانه من يحرم الرفق يحرم الخير كله» (٣) .

٥ ـ التسوية فى الاحكام ، وفى الوقوف بين يدى القضاء :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قاربوا وسددوا ، واعلموا انه لن ينجو أحد منكم بعمله » قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ؟ » قال : « ولا أنا ، الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضله » .

فالقاعدة الأساسية ان النـــاس سواسية كأسنان المشط ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، فيجزاه الجزاء الأوفى ، الناس بأعمالهم

(١) اخرجه الخمسة الا البخارى ـ عن وحى الاحاديث المحمدية جزء ص ١٧٥ ـ محمود على قراعة
(٢) رواه مسلم ..
(٣) رواه مسلم عن عائشة

فقط ، لا بأحسـابهم ، ولا بأموالهم ، ولا بمكانتهم ، يحاسب كل الناس ، ومع الناس ، رسول الله ، المبلغ لدينه والقائد لأمته ، والهادى للمسلمين .

وفى كلمة ، أقام الرسول فى ظل القرآن ، دولة القانون على حد ما نقول هذه الايام .

قال ابن اسحاق : « كان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وكان ابنا لهالة بنت خويلد ، وكانت خديجة ـ بنت خويلد ـ زوج الرسول خالته فسألت خديجة الرسول أن يزوجه ، فزوجه ابنته زينب ، فلما كان الاسلام ، آمنت به خديجة ، ولكن

بقى أبو العاص على دينه ، فرجعت زينب الى أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى احدى الغزوات أسر أبو العاص ، فروت السيدة عائشة قالت :

لما بعث اهل مكة فى فداء أسراهم ، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقـلادة لها كانت خديجة ادخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها . قالت فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رق لها رقة شديدة ، وقال : « ان رأيتم أن تطلقوا لها أسـيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » .

فقالوا : « نعم يا رسول الله » فأطلقوه وردوا عليها الذى لها .

قال ابن اسحاق : « حتى اذا كان قبيل فتح مكة خرج أبو العاص تاجرا الى الشام ، وكان رجلا مأمونا بمال له ، وأموال لرجال من قريش ابضعوها معه » .

فلما فرغ من تجارته وأقبـل قافلا لقيتـه سرية لرسول الله ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هاربا ، فلما

قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل ابو العاص في جنح الليل ، حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجار بها ، فأجارته .

فلما خرج رسول الله الى صلاة الصبح ، كما حدثني يزيد بن رومان كبر وكبر الناس ، صرخت زينب من صفة النساء :

« أيها الناس ، انى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ! »

فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة ، أقبل على الناس ، فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : « نعم » قال : « أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، انه يجير على المسلمين أدناهم » .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته فقال :

« أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك فانك لا تحلين له » .

قال ابن اسحاق : « وحدثني عبد الله بن ابى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال :

« ان هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذي له ، فانا نحب ذلك ، وان أبيتم فهو فيء الله الذى أفاء عليكم فانتم أحق به » .

قالوا : « يارسول الله بل نرده اليه » .

قال : « فردوه اليه » .

وتجمل بقية القصة فى أن أبا العاص عاد الى مكة ، بعد أن أطلق المسلمون سراحه ، ومعه ماله ، وأموال

اهل قريش التي أئتمنوه عليها ، فلما ردها الى أصحابها سألهم : هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟..

قالوا : « لا .. فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما » .

قال : « فأنا اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الاسلام الا تخوف ان تظنوا انى انما اردت ان آكل أموالكم ، فلما اداها الله اليكم ، وفرغت منها أسلمت » (١) .

وهذه الرواية تحمل أكثر من معنى ، ولكن يهمنا من معانيها الكثيرة ما يتصل بحديثنا عن التسوية بين الناس أمام القانون.. فمحمد هو رسول الله ، وأبو العاص زوج ابنته ، والرسول معروف لصحابته ، انه عظيم الحب لبناته وذوى رحمه ، ولكن القانون ينفذ فى زوج ابنته ، وفى ابنته جميعا ، فهى تنفصل عن زوجها وماله يصادر كما يصادر مال اى قرشى آخر ، ويحتاج الرسول لأن يرجو المسلمين الذين أصبح هذا المال حقا لهم ، باعتباره من الغنائم ، أن يردوا لزوج ابنته ماله ، مجرد رجاء . ولا يغير فى الامر أن يكون رجاء الرسول مستجابا ، ولكن النظام والقانون أحوجه أن يرجو ، وأكبر من ذلك ، انه تبرأ أمام المسلمين عندما سمع من زينب ، عند صلاة الصبح انها اجارت زوجها . تبرأ من شبهة انه عرف ذلك من قبل. والرسول هو هو، من ثقة المؤمنين به ، واطمئنانهم اليه ، واخذهم عنه . ولكنه فى حاجة لأن يضرب المثل وابنته لا تلجأ اليه ، بل تلجأ الى المسلمين ، وتعلن ذلك

---

(١) روى هذه الواقعة وعلق عليها محمد خلف الله أحمد فى كتاب القرآن ومشكلاتنا المعاصرة ــ ص ٢٢٦ ..

لهم ، لا لابيها ، ويتم الأمر فى وضح النهار، وعلى رؤوس الاشهاد ، لا محاباة فيه ، ولا خفاء .

وزينب لم تلجأ الى ابيها ، قبل أن تعلن للمسلمين فى المسجد أنها أجارت زوجهـــا ، لانها تعلم أن اباها لا يملك لها من الامر شيئا .

ومع ذلك ، فلا مجاملة فى الدين ، فزوجها المشرك لا يخلص لها ، ولا يحل ان يصيب منها ، ما يصيب الرجل من زوجته ، فحسبه انه أطلق سراحه ، ورد له ماله .

ولــكن هــذا الصنيع كله ، من احترام القانون ، ومشاورة المسلمين فى الأمر ، وترك الامر لأصحابه لا للنبى ، ولا لأحد من كبار أعوانه ، اثر فى قلب أبى العاص ، فأدرك معه ، مبلغ سمو الجماعة الاسلامية ، فعاد الى قريش ، ليبرىء ذمته ، وليعلن هناك فى مكة عاصمة المشركين ، لا فى المدينة عاصمة المسلمين ايمانه فيحقق بذلك أمرين : أولهما ، أن يرد للناس أماناتهم فلا يحسبون انه بقى فى المدينة ، ليضيع عليهم مالهم ، ولينفي عن نفسه شبهة انه أعلن ايمانه بالدين الجديد ، وهو فى أسر المسلمين ، وربقتهم ، فكان صنـــعه من البداية الى النهاية ، مثلا طيبا ، لا شك فى أن المشركين تأثروا به ، وهز من عقيــدتهم ، فأبو العاص كان فى القمة من المجتمع القرشى ، وما يصدر عنه ، يحظى بالحفاوة والاهتمام .

أما قصة المخزومية فمشهورة ذائعة ، وعن عائشة : « ان قريشا اهمتها المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه الا أسامة بن زيد رضى الله عنه ،

حب رسول الله صلى الله عليه وسلم أى حبيبه ، فكلمه أسامة رضي الله عنه فقال : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى؟ ثم قام فاختطب. ثم قال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » (١) .

هذه القواعد هي التى أدت بجماعة المسلمين الى أن يقف كبير من كبرائهم ، وزعيم من زعمائهم ، هو الامام على ، مع خصمه اليهودي ، أمام الخليفة عمر ، فلما وجه عمر القاضى الخطاب الى الامام بقوله : « خذ مكانك بجانب خصمك يا أبا الحسن » يغضب على لا لأن القاضي اشتد معه ، بل لأن القاضي تلطف معه فناداه : « يا أبا الحسن » فى مجلس القضاء ، لأن الكنية تدليل واعزاز ، عند العرب .

٦ ـ الجماعة هي حامية القانون ، والساهرة على الشريعة

الرقيب على الافراد ضمائرهم ، وايمانهم بأن الله مطلع على ما يفعلون ، بل على ما يناجون به أنفسهم ، اذا خلوا لها .

والرقيب على أولى الامر الذين بيدهم السلطان ، والذين اليهم تنفيذ الاحكام ، هى الجماعة نفسها ، فان ضعفت جماعة المسلمين ، وقبلت أن يفتات على احكام الدين ، وأن يخرج أولو الأمر على أوامره ونواهيه ، فيمدوا أيديهم الى مال المسلمين ، فيغترفون منه ، أو يستأثرون بأكثره او أن يتخذوا من السلطة سياجا يحميهم من نقد الناقدين ، أو سيفا يرهبون به رعيتهم ، أو أن

(١) اخرج الخمسة ـ من وحى الاحاديث المحمدية ـ ص ١٧٦

يستأثروا بالرأى ، لا يشاورون ولا يعرفون الا رأى أنفسهم ، ورأى خلطائهم ، الذين لا يمكن الا أن يكونوا بطانة سوء ووزراء شر ، لان البطانة تسوء اذا أمنت نقد الناس وحكم الجماعة .. اذا حدث ذلك فلا نفع فى قانون ، ولا أمل فى شريعة ولا بقاء لدين ، وان احتواه الكتاب ، وحفظته كله أو أكثره صدور قوم كثيرين أو قليلين ، فالاسـلام يقوم على ان الجماعة هى ديدبان الحقوق وحاميتها .

وقد بين الرسول هـذه القاعدة الكبرى فى أربعة أحاديث هى ، معالم الطريق الى حماية حرية الأفراد ، وصيانة الحرمات ، واقامة حكم القانون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا عن يديه ، يوشك ان يعمكم الله بعذاب » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« اذا عجزت أمتى عن ان تقول للظالم ، يا ظالم ، فقد تودع منها » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« أفضل الجهاد ، هو كلمة حق عند سلطان جائر »

وقال صلى الله عليه وسلم :

« سـيكون بعدى أمراء يظلمون ويكذبون ، فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ولا انا منه . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو منى وانا منه » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« يكون أمراء قد غشاهم غواش أو حواش من الناس يكذبون ويظلمون ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ،

وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه . ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه » (١) .

فالجماعة الانسانية ليست مجموعة من أفراد ، كل منهم صالح فى ذاته ، بل انها جماعة ذات شخصية خاصة بها ، منفصلة عن الافراد ، تمارس حقوقا فوق حقوق الأفراد ، وهى حماية هذه الحقوق كلها وبطبيعة الحال يقوم بهذه الحماية عصبة من هذه الجماعة ولكنها مستندة الى المحيط الواسع من الافراد ، فالضرب على يد الظالم ومصارحته بأنه ظالم ، وعدم اعانتـــه على الظلم ، ومقاطعته ، وعدم الدخول اليه ، هى واجبات لا يتخلف المسلمون عن أدائها ، حتى يصيبهم العقاب ، فينزل بهم عذاب عظيم .

وكما ان هذا هو رأى الاسلام فى الاعتداء الاكبر على الحريات وحقوق الجماعة ، فانه رأيه فى الجرائم التى تقع من افراد على أفراد ، قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما ، فان اللعنة تنزل على كل من حضر ، حين لم يدافعوا منه »

فالسبيل الى دفع الظلم ، هو مجاهدته والتصدى له وتنشئة الناس على المســـارعة الى نجدة المظلوم ، ورفض ما ينزل به ، كأنه نازل بهم .

وفى هذا المعنى الحديث المشهور :

« انصر أخاك ظالما ، أو مظلوما » ، فسأل المسلمون : « كيف ننصره ظالما ؟ » فقال الرسول : « برده عن

---

(١) أورد هذه الاحاديث بترتيبها خالد محمد خالد فى انسانيات محمد

الظلم » .

فالحياة في المجتمع الانساني مجاهدة متصلة ، وحركة دائمة ، وسهر لا ينقطع ، وقد أمرهم الحديث :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الايمان » .

ولكن هذا الايمان الذى يبدو ضعيفا ، ان كان ايمانا حقا ، لا يلبث حتى يقود المؤمن الي المقاومة باللسان ، التى لا تلبث أن تقود الى المقاومة باليد ، فما يكره الناس حقا شيئا بقلوبهم ، حتى يصبحوا ألد أعدائه جهرا ، وان اجتمعت قلوب الجماعة على كراهية اتقدت حميتها ، وقويت ارادتها ، وتدفقت جموعها كالسيل العرم .

اما الظلم ، فقد صوره الرسول فى أقبح الصور ، ونفر منه المسلمين .

وحسبنا من احاديث الرسول الكثيرة عن الظالم حديثه عليه الصلاة والسلام :

« اتقوا الظلم ما استطعتم ، فان العبد يجىء بالحسنات يوم القيامة ، يرى أنها ستنجيه ، فما زال عبده يقول : « يارب ظلمنى عبدك مظلمة » ، يقول الله : « امحوا من حسناته » وما يزال كذلك حتى مايبقى له حسنة » .

ولذلك ما أطال رسول الله صبره على أحد ، ما أطاله على الذين ظنوا انهم ظلموا . قال اعرابى للرسول : « يا محمد .. هل هذا المال مال الله أم مال أبيك ؟ » فيغضب عمر ، ويوشك أن يضربه ، فيرده الرسول قائلا : « دعه يا عمر .. ان لصاحب الحق مقالا » .

وليس هذا الا صدى لقول الله تعالى :

«لايحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم» (١)

للظالمين أن يرفعوا أصواتهم ، وأن يجأروا بالشكوى، وابواب السماء تتفتح لها . ألم يقل الرسول :

« دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : « وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

٧ ـ كان للمسلمين الحرية فى ابداء رأيهم فيماينزل عليهم من الاحكام

لقد رأينا الاعرابى يقول للرسول : « أهذا المال مال أبيك ؟ » فيغضب عمر ، ويهم بضربه ، فيرده الرسول ويقول اعرابى آخر : « اعدل يا محمد » ويكررها ، فلا يزيد الرسول عن قوله : « ويحك .. من يعدل ان لم أعدل أنا ؟ » .

وعن أنس ، قال : مشيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فادركه اعرابى فجبذه جبذة شديدة ، حتي نظرت الى صفحة عنقه وقد أثرت فيه حاشية البردة من شدة جبذته ثم قال : « يا محمد ! مر ، لى من مال الله الذى عندك » فالتفت اليه وضحك ، ثم أمر له بعطاء .

فالمسلمون كانوا يثيرون الرأى فيما يقوله الرسول ، وفيما يفعله حتى ولو كان تشريعا ، وقد مر بنا أن عمرا استنكر أو استفسر كيف يصلي الرسول على امرأة زنت ؟ .. وفى القرآن امثلة كثيرة على هذا الجدل الذى كان يقوم بين المسلمين وبين الرسول ، وقد

(١) النساء ـ ١٤٨

حدثتك عن سورة المجادلة ، وكيف نزلت فى خولة بنت ثعلبة الذى طلقها زوجها طلاق الظهـــار فذهبت الى الرسول تشكو اليه وتجادله حينما قال لها الرسول ان الوحي لم ينزل بشيء فى حالها .

فالمشرع كان بين أيدى الناس ، يسألونه ، فان أجاب لم يقتنعوا بالجواب ، بل الحوا فى عرض شكواهم ، وجادلوا فى الجواب الذى سمعوه . وهذا أساس من اسس الشرع فى الاسلام ، وخاصـــة من خصائصه ، فليس التشريع فى الاسلام أمرا يصدر من أعلى ، وينزل بالناس كما ينزل بهم القضــاء لا يملكون معه الا أن يستسلموا له ، ويذعنوا .. ان التشريع فى أغلب الأمر من صنعهم اى هو خلاصة ما يشكون منه وما يفكرون فيه ، وما ينطقونه لفظا بعد أن يصفى وينقى ويخلص من شوائبه .

٨ ـ انه تشريع متطور

قد مر بنا ان التشريع الاسلامى جاء متدرجا يلتمس أسباب الوصول الى النفس ، يهيؤها لاحكامه ، ولا يشتد فى فرض أحكامه حتى بعد أن تستقر ، وهو اذ ينفذها ، لا ينفذها كالجلاد الذى يحسب المجرم شاه تذبح وتسلخ ، على أن الشاة المذبوحة عند الاسلام لها حق وكرامة . فقد قال رسول الله : «احسنوا الذبحة»

ولـكنه الى جانب ذلك كله لا يثبت على الحكم ان ظهر من دواعى التطوير والتعديل ما يقتضى العـــدول عنه او تعليقه .

ومن الثابت أن النبى عليه الصلاة والسلام أوقف حد السارق ، بل الحدود كلها ، خلال الحرب ، وكان ذلك خشية أن ينتقل السارق الى صفوف الأعداء هربا

من القصاص رغم ورود الآية المبينة لحد السرقة « والسارق ، والسارقة فاقطعوا أيديهما » ، فقد قال الرسول : « لا تقطعوا الايدى فى السفر » (١) .

ومن الأمثلة التى تذكر تدليلاً على هذه الميزة فى التشريع الاسلامي ، أن الرسول كان قد نهى عن ادخار شيء من لحوم الاضاحى التى تذبح فى العيد ، ولكنه عاد يقول : « كلوا وتصدقوا ، وتزودوا » .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فزوروها » .

وليس أقبح من تشريع جامد نشأ فى ظروف ، ثم تتابع الأدلة على سوء حكمه ، أو على عدالة الحكم فى مبدأ نزوله ، ثم لم تلبث الظروف أن تتغير حوله ، ففقد مبرره ، واستحال ظلما وتعسفا .

والتشريع الاسلامى لم يكف عن ادخال التطوير على احكامه بوسائله المعروفة بمصادر الاحكام الشرعية من اجماع وقياس ، ومن استصلاح واستحسان ، واستصحاب وسد ذرائع ، فبقى تشريعا عصريا يساير تطور الحياة وينظم ما يجد من المؤسسات والأنظمة ، وما ينشأ فى كل المجتمعات الكاملة من علاقات انسانية يبدو أنها جديدة تماما وهى فى واقع الامر فروع لاصول قائمة ، وأسماء مستحدثة لمسميات معروفة .

ولكن هذا التطور نبت فى البذور التى القاها الرسول المشرع الاول صلى الله عليه وسلم ، فلو لم يكن مؤمنا بالتطور وراغبا فيه ، بل وداعيا اليه ، لجمد التشريع الاسلامى ولما جرؤ احد من الصحابة فى أيامه

---

(١) رواه ابو داود فى سننه

ولا فيما جاء بعده من الايام على التـــامل والتفكير فى الاحكام المقررة فيما يجب أن يدخل عليهـــا من تغيير وتطوير ، ولا فيما جد من امور لا حكم لها فى الـكتاب أو السـنة ، ولا فيما أجمع عليه أصحاب الرسول ، وتابعوهم .

الكسب غير المشروع في الإسلام

— ١ —

قانون الكسب غير المشروع صدر ليكون حماية فعالة للمال العام من النهب والسطو ، وسياجا منيعا للأداة الحاكمة ، من أن تسقط فى يد المرتشين والمتجرين بالنفوذ والعاملين على أن يجعلوا من محاباة الأهل والأصدقاء قانونا تقوم عليه أداة الحكم وتستوحيه .

ولقد طبق أجدادنا هذا القانون كأجمل وأقوى ما يكون التطبيق الصادق المخلص لمبادىء الحكومة الصالحة ، القائمة على مراقبة الموظفين الكبار ، وتقويم ما اعوج من أمرهم وأخذ الفاسد منهم بالشدة والضرب على الأيدى .

وقد كانت نقطة البدء فى تطبيق قانون الكسب غير المشروع انخلفاء رسول الله كانوا يطلبون من الرعية أن تؤيدهم ما استقاموا وأن تقومهم اذا ما انحرفوا ، فلما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أحد المسلمين ، أن المسلمين سيقومون اعوجاجه بحد السيف حمد الله ، متهللا فرحا ، ان جعل من المسلمين من يهدده بحد السيف اذا حاد عن الطريق السوى ، وخرج على ما تمليه عقيدة المسلمين على الحاكم ، من تجرد للعمل العام ، وضبط للنفس ، وانكاره للذات ،

وتضحية بالراحة الشخصية ، فلا ضمان لاستقامة الحاكمين الا بيقظة المحكومين .

والامثلة على صراحة الدستور الذى فرضه عمر بن الخطاب على ولاته وعماله فى الامصار والعواصم الاسلامية ومراقبة أعمالهم فيما يعلنون وفيما يضمرون تملأ صفحات باهرة من تاريخ الانسانية .

كان ثاني خلفاء رسول الله يقول للمسلمين :

اذا استعملت منكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ايبرىء ذلك ذمتى ؟

فيقول أصحابه : « نعم ! »

فيقول : « كلا حتى انظر فى عمله ، اعمل بما أمرته أم لا »

ثم يقول :

« أيما عامل لى ، ظلم احدا وبلغتنى مظلمته فلم اغيرها فأنا ظلمته »

وكان يرفض ان يعين فى المناصب من يسعون الى هذا التعيين لان من يسعى الى وظيفة يغلب أن يكون من هؤلاء الذين ينظرون الى الوظيفة كسبيل الى جر المغانم والكسب الحرام . أما من يعينهم هو من الحكام فكان يقول للواحد منهم : « لا تركب دابة مطهمة ولا تلبس ثوبا رقيقا ولا تغلق بابك دون حوائج الناس » .

وكان يحرم على نفسه أن يتقبل الهدايا من الرعية أو من الحاكمين . أهدى اليه يوما أبو موسى الأشعرى سجادة فألقاها فى وجهه وقال :

« وما حاجتنا الى هدية تهديها الينا »

وكان يحرم على الولاة والعمال بدورهم أن يتقبلوا هدايا الناس ويقول لهم ما قاله الرسول عليه السلام .

ومعنى هذا القول ، هذه هدايا لاتعطى لكم لأشخاصكم ، بل تعطى طمعا فى جاهكم والتماسا لمالأتكم . فليقعد أحدكم فى داره ولير أيهدى اليه أحد شيئا ؟..

وكان يأمر ولاته أن يعودوا الى دورهم نهارا حتى يسهل على النـــاس أن يروا بأى شىء يعودون ، فلا يتخذون من الليل سترا يخفى عن الناس ما جمعوا من وراء ظهر القانون ، وكان يرصد على الحكام الرقبـاء وكان يتقدمهم فى كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم وعليهم شهود ، فاذا ارتاب فى احدهم استعان بالحيلة ليكشف حقيقة أمره وقد روى أن أبا سفيان عاد الى المدينة بعد أن زار ابنه معاوية والى الخليفة فى الشام ، وجاء أبو سفيـان الى عمر مسلما فقال له الخليفة : اجزنا ، أى اهـد الينا شيئا مما عدت به . فقال أبو سفيان : ما اصبنا شيئا فنجزيك . فمد عمر يده الى خاتم فى اصـبع ابى سفيان فخلعه ، ثم أرسله الى زوجة ابى سفيان فى دارها مع رسول ، وامر الرسول أن يقول لها باسم زوجها : انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما فما لبث الرسول أن عاد بخرجين بهما عشرة آلاف درهم فأودعهما عمر رضى الله عنه فى بيت مال المسلمين .

وكما كان يشتد فى مراقبة ولاته ، كان يشتد فى محاسبة أولاده وذوى قرباه . وقد روى انه رأى يوما ابلا سمينة ، فقال : لمن هذه الابل؟.. فلما علم أنها لابنه عبد الله صادرها لحساب بيت مال المسلمين ودفع لابنه ثمنها قائلا : ان المسلمين كانوا يدعون هذه الابل ترعى كلأ المسلمين رعاية لى فخذ ما دفعتـه من الثمن فيها واضف الربح للمسلمين

بمثل هذا تصبح القوانين أداة حية لتقويم الحكام وتربية المحكومين وبغيره لا تؤمل فى حكم صالح ولا فى رعية يستقيم لها أمر ويصلح لها حال .

– ٢ –

وقانون الكسب غير المشروع ، قانون تلجأ الأمم اليه عندما تعقد العزم على أن تطهر أداتها الحاكمة من الضعف والعجز .
والغاية من هذا القانون أن يكون من حق سلطات التحقيق فى الدولة أن تسأل الموظفين فيها وأصحاب السلطة ، عما يطرأ على ثروتهم من زيادة فان بينوا مصدرها ودللوا على خلوها من شوائب الرشوة أو الابتزاز أو الاتجار بالنفوذ أو السطو على المال العام ، بقيت لهم هذه الزيادة ونجوا من العقاب واستقروا فى مناصبهم . أما اذا عجزوا عن ذلك تبين بغير شك انهم خانوا الأمانة التى اؤتمنوا عليها وان نفوسهم سولت لهم ان يطمعوا فى المال العام وأن يضيفوا بعضه الى مالهم ويدخلوه الى ذمتهم ، فحق عليهم أن يردوا ما أخذوه بغير حق وأن ينزل بهم العقاب . ثم أن يفسحوا الطريق لموظفين غيرهم أمناء يرعون الله فى المال الذى يوضع فى رعايتهم ، والنفوذ الذى يسبغ عليهم ، وجاه الوظيفة التى تسند اليهم والحديث حول هذا القانون يثير فى رأسى خاطرين ضمن خواطر كثيرة ، يثير فى رأسى خاطرة مؤداها انه كما ان الانسان لا يحيا بالخبز وحده كذلك فان الاصلاح لا يتم بالقانون وحده وهذا قول رددته فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب .

أما الخاطرة الثانية فجملتها ان قانون الكسب غير المشروع – كما قد رأيت – قانون قديم فى حياتنا العامة

طبقه المسلمون فى صــدر الاسلام ، فقويت دولتهم ، وعظمت شوكتهم ، وسلمت لهم عقيـدتهم ، وحالفهم التوفيق فيما يقولون وفيما يفعلون .

أما ان القــانون لا يحقق الاصــلاح وحده فحقيقة تواترت على صحتها الشــواهد . فالانسان هو الذى يصنع القانون وليس القانون هو الذى يصنع الأنسان . فالقانون الصالح ، كالسيف الباتر ، لابد له من ذراع قوية تبسط سلطانه ، وتفرض أحكامه ، وتخيف به الخارجين على المجتمع والمهددين لأمنــه وراحتــه ، والطامعين فى مرافقه وثروته ، فكم من قانون جيــد صدر ولم يحس به أحد فلم ينتفع به الناس . والحاكم وحده ، وان صلح أمره ، وسلمت نيته ، لا يستطيع ان يحق الحق ويرد الباطل فلا بد أن يكون أكثر الناس مع الحق لتعلو كلمته ، وترتفع رايته ، وعندها سيجد الشعب فى الحاكم الصالح السند والعون ، وسيجد الحاكم فى الشعب القوى اليقظ الحماية والحافز .

ولا أدل على ذلك من أن القرآن الذى جمع العرب المبعثرين فى حواشي الجزيرة العربيــة ونواحيهــا ، ووحدهم بعد تفرق فى أعطافها واطرافها ، ثم أقام لهم حضارة زاهرة ، وقادهم فى دروب العلم ومسالكه هو نفس القرآن الذى كان ولا يزال يتلوه المسلمون الذين انتهك الاستعمار استقلال أوطانهم وفرض عليهم جهل الخرافة وفقر الكسل وذل الخوف . مع ان القرآن باق على حاله منذ انزله الله على نبيه محمـد صلى الله عليه وسلم لم يتغير منه حرف ولم يغادر مكانه فيه لفظ

وقد كان دستور مصر فى الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٥٢ ينص على ان الامة مصــدر السلطات ،

وان الملك يملك ولا يحكم ، وان أوامره الشفوية والكتابية لا تعفى وزراءه من المسئولية ، فلم تعرفنا الامة سلطانا ولم يحترم الملك لها حرمة ، ولم يعص الوزراء لهذا الملك أمرا ، فان اردنا ان نحرم الكسب غير المشروع على الموظفين فلا يكفى ان نصدر قانونا يحرم هذا الكسب الحرام بل يجب أن يكره المواطنون هذا اللون من الكسب فلا يمهدون سبله لاصحاب السلطة ، ولا يتواطئون معهم على تناوله ، ولا يكرمون الذين يملأون بطونهم منه ولا يتنافسون على بذل المودة لهم ، حتى اذا ما ادار هؤلاء ظهورهم طعن المواطنون فيهم ، وأطلقوا السنتهم •• فالقانون هو ما نريد وليس ما نكتبه على الورق ونقول للقضاء طبقوه •

نظام الحكم في الإسلام

لا خلاف في أن القرآن الكريم لم يورد بيانا عن نظام الحكومة التي يرتضيها أو يأمر بها الاسلام ، صحيح ان الآية الثامنة والثلاثين من سورة الشورى ، والآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران قد تحدثتا عن الشورى ، وصحيح أن في القرآن آيات تأمر بالعدل ، وتنهى عن الانحراف عنه لكراهية أو محبة ، ولكن فيما عدا ذلك لا يجد الباحث من الاحكام ما يستطيع أن يقول معه ان الكتاب قد رسم نظاما للناس يلزمونه في اختيار حكامهم ، أو أرسى قواعد لضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، واظهار ما يجوز لكل منهما وما لايجوز ، ومن ثم حق للفقهاء منذ نزل القرآن ، ويحق لنا اليوم أن نتساءل : فيم سكوت القرآن عن بيان مفصل لنظام الحكم .

جرت أكثر الاقوال في الجواب على هذا السؤال بأن مرد ذلك الى كون الاسلام نظاما صالحا لكل زمان ومكان ، ونظام الحكم من أكثر الانظمة الانسانية تأثرا بالتطورات التي تأتي بها الايام ، والتي تنبهت في البيئة . فما يصلح للناس في عهد يضيقون به في عهد ثان ، وما قد ينفعهم في بلد ، قد لا تستقيم به امورهم في بلد آخر .

وهذا القول صحيح ، وقد أخذت به الشريعة ضمن قواعدها « تغير الاحكام بتغير الزمان والمكان » وقد قال ابن خلدون فى مقدمة كتابه : « ان أحوال العالم والامم وعاداتهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهج مستقر . انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال » .

وعلى الرغم من ان هذه الاجابة صحيحة فى جملتها ، الا ان ما صرف القرآن عن بيان نظام الحكم ، هو أسلوب الاسلام وطريقته فى التشريع . فأساس التشريع الاسلامى هو التربية الخلقية واقامة رقابة الضمير الانسانى ، بديلا من رقابة الدولة بشرطتها وعسسها . فالاصل فى الاسلام هو محاسبة الانسان لنفسه مستهديا بأحكام الدين ومنها الحديث الذى يأمرنا أن نعبد الله كأننا نراه ، فان لم نكن نراه فهو يرانا .. فرقابة الحكومة أو رقابة القانون هما رقابتان احتياطيتان .

ولذلك حرص الاسلام على أن ينشيء مجتمعا تحكمه الضوابط الخلقية فاذا نجحت التربية الخلقية فخلقت مجتمعا يسود علاقات أفراده الصدق والامانة ، والوفاء والصراحة ، وكراهية الظلم ، ونصرة العدل ، والمسارعة الى الخير ومقاومة الشر ، فأى نظام حكم يقوم فى هذا المجتمع ، يتساوى مع أى نظام آخر ، فمجتمع كهذا لن يقبل أو لن ينبعث منه نظام ظالم أو حكومة فاسدة أو حكام تعوزهم القدرة أو الكفاءة .

ولقد لخص الحديث النبوى هذه النظرة الاسلامية الى الحكم اذ قال : « كما تكونوا يول عليكم » فنظام الحكم أشبه شيء بالسائل ، يوضع فى الاناء الملون فيأخذ لونه ، ذلك لان نظام الحكم اخلاق الشعب ، وأما

الدساتير والقوانين فلا تقيم حكما ولا تغير من شئون الناس شيئا .

لذلك احتفل الاسلام بأخلاقيات الحكم دون نظامه ، ففرض على الراعي وعلى الرعية فروضا يعلم الاسلام انها من الحكم جوهره ، وانها اذا روعيت استقام . أما اذا أهملت وقفت النصوص ومعها البنادق والمدافع والمحاكم والسجون عاجزة ، لا تقدم خيرا ولا ترد شرا .

وقد روى لنا تاريخ بريطانيا مثلا رائعا ومروعا في الوقت نفسه ما أجدرنا أن نتعظ به فلقد فشت فى لندن منذ قرون جريمة « النشل » حتى أصبحت خطرا داهما لأمن الناس وأموالهم ، فصدر قانون قضى بعقوبة الموت شنقا على كل مرتكب لهذه الجريمة ونفذت عقوبة الشنق علنا بهدف الردع فتزاحم الناس فى الميدان الذى أقيمت فيه المشنقة ، فانتهز النشالون الذين لم يضع القانون يده عليهم الفرصة ، فأعملوا أصابعهم الخفيفة ومشارطهم السريعة في جيوب المشاهدين ، فنشلوا فى ساعة ما كانوا يعجزون عن نشله فى أيام .

وليس فى الوسع ان نسرد نصوص الدستور الاخلاقى الذى فرضه الاسلام على الراعى ، ولكن نستطيع أن نعيد عليك هنا ما أوردناه فيما سبق من الكلام مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » . وقوله عليه السلام : «من ولى من أمر الناس شيئا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة » . وأمره الولاة أن يحسنوا اختيار اعوانهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضي لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » ومن جهـة أخرى فرض الاســلام على أفراد الرعية ألا يعينوا على الظلم . فقد قال الرسول الـكريم : « من أعان ظالمـا بباطل ليدحض به حقا ، فقد برىء من ذمة الله ورسوله » وفرض عليهم أن ينصحوا للحاكم ، وأن يجهروا بالرأى في شئونهم ، فجعل خير الجهاد كلمة حق عند حاكم ظالم .

ولقد تسأل ، ومن سيقوم بتربية الشعب ليكون له هذا الخلق القوى ، ثم ليسهر عليه ، ينميه ، ويمنع عوادى الزمن عليه . والجواب على هذا ان الله فرض على جماعة المسلمين أن تكون منهم دائما طائفة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فاذا نسيت الجماعة ذكروها ، واذا صلحت أعانوها ، واذا خافت قووا ايمانها ، واذا اندفعت ســددوا خطاها ، سدد الله خطانا .

واجبات لا حقوق

لا يعرف الشرع الاسلامى اصطلاح « حقوق الافراد » الذى يستعمله فقهاء العصر الحديث ، حينما يريدون أن يتحدثوا عن الحريات ، كحرية العقيدة ، وحرية التعبير عن الرأى ، وحرية الاجتماع والانتقال ، وحرمة المسكن ، والمراسلات بأنواعها بريدية وبرقية ، وحرمة الجسم الانسانى من القبض أو التفتيش ، أو الاعتقال ، الا بناء على قانون محدد لجريمة ، سابق على اجراء التحقيق او الحبس .

والشرع الاسلامى لا يعرف هذا الاصطلاح ، لا انكارا لهذه الحقوق ، ولا غضاً من شأنها ، ولا ادخالها لها فى غيرها من الحقوق والحرمات، بل لان الشريعة الاسلامية ليست سوى تعبير عن عقيدة الاسلام ، فالاصل الذى تصدر عنه الشريعة ، والمعين الذى تأخذ عنه هو الدين والدين سبن الفرائض والواجبات والتكاليف ، والشريعة تبين احكام هذا كله ، بفروعه وجزئياته . فالفقهاء المسلمون حينما يقولون : « حقوق الله » و « حقوق العباد » لا يعنون ما يعنيه القانون الحديث بحقوق العباد أو الافراد .

والاسلام بفرض التكاليف والواجبات على الافراد أو العباد ، ارتفع بما نسميه بحقوق الافراد ، الى مستوى

لم تبلغه قط ، وأسبغ عليها ضمانات تقيها من العبث ، ومن الاهمال معا ، وما جرى عليه الاسلام ، هو ما أثبته التاريخ على مدى عشرات من القرون ، وما تزال تثبته وقائع حياتنا الجارية .

فحقوق الافراد ، لم تصبح حقوقا ، الا بعد أن اعتبرها الناس واجبات ، عليهم أن يؤدوها ، وأن يبذلوا في سبيل أدائها أرواحهم ودماءهم ، وأن يستبسلوا في الدفاع عنها ، بعد استخلاصها واستنقاذها من طغيان الطغاة ، فالحقوق التي قررها الماجناكرتا « الميثاق العظيم » لم تصبح حقوقا الا بعد ثورة الامراء على « جون » ملك انجلترا ، سنة ١٢١٥ و « قائمة الحقوق » لم تعلن سنة ١٦٦٨ الا بعد ثورة الشعب الانجليزى على الملك جيمس الثاني ، وحقوق الافراد فى الولايات المتحدة لم تصبح كذلك الا بعد ثورة سنة ١٧٦٤ التى أعلنت هذه الحقوق فى سنة ١٧٦٥ كما أعلنت الحرب ضد بريطانيا سنة ١٧٧٥ وأعلنت الاستقلال فى ٤ يولية سنة ١٧٧٦ ، أما فى فرنسا ، فكلنا نعرف أن أعلان حقوق الانسان فى ٢٦ من اغسطس سنة ١٧٨٩ كان بعد ثورة الشعب الفرنسي التى أسقطت الباستيل فى الرابع عشر من يولية فى تلك السنة .

ولا يزال الجدال يدور بين فقهاء القانون الدستورى حول الصوت الانتخابى ، وهل هو حق أو واجب وقد خيل الي بعض الفقهاء أنهم قادرون على الخروج من هذا المأزق اذا قالوا بأن الصوت الانتخابى هو وظيفة .

ومن ثم كان راى المشرع الاسلامى فى أن ما نسميه الآن حقوقا للانسان هو فى حقيقته واجبات ، هو راى أصاب الحقيقة . وبتقرير هذه الحقيقة تيسر أن توضع

هذه الحقوق فى كفالة الضمير الانسانى وحراسته ، وهى أعلى كفالات الحقوق الانسانية ، وأعظم أنواع حراستها ، فكل ما تسجله الدساتير من حقوق ، يصبح حبرا على ورق ، ما لم يجد من يطالب به ويتمسك بادائه .

ولقد قرر الشرع الاسلامى للتهاون فى ممارسة هذه الحقوق ، أو فى اداء هذه الواجبات ـ كيفما شئت ـ عقوبات دنيوية ، وانذر بعذاب فى الآخرة عظيم .

قال الله تعالي : « ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيما كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى فى الارض ، قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا » .

وانظر الى الرسول يقول :

« اذا رايتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » .

فليس المسلم حرا فى أن يقبل الظلم أو يرفضه ، يستنيم اليه ، أو يثور عليه ، بل ان واجبه أن يقاومه وان يطلب حريته ، والا جوزى وعوقب .

ولا يقتصر مجال تطبيق هذه القاعدة الكبيرة ، على الشئون الهامة التى نسميها علاقات الحاكم بالمحكومين بل انها قاعدة تنطبق على كل حالة يقع فيها العدوان .

فقد قال رسول الله عليه السلام : « لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما ، فان اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدافعوا عنه » .

فمجتمع الواجبات لا يعرف هذا الموقف الضعيف الفاتر ، الذى يقول فيه الفرد : « أنا لم اذنب ، فلا

جزيرة على ، ويترك الآخرين يذنبون » .

ولا يزال فى أحاديث الرسول ، ما يجلو هذه الفلسفة ويزيدها وضوحا . فالرسول قال : « ان لبدنك عليك حقا » وجسم الانسان أحق الاشياء أن يكون ملكا خالصا للانسان لا ضير عليه فى استعماله كيف يشاء ، لانه اذ قرر لبدن الانسان حقوقا عليه ، جعل هذا الجسد وديعة بين يدى صاحبه ، يساءل عليها ، ويحاسب ان هو اهملها ، أو عرضها للتلف .

ومن ذلك ما يقوله الرسول : « من لم يأخذ برخصنا فليس منا » كما قال : « ان الله يحب أن تؤتى رخصة ، كما يجب أن تؤتى عزائمه » فالرخص والتيسيرات والتخفيف على الانسان فى المرض والسفر والضعف ، اليست منحا شخصية يتمتع بها ان شاء ، ويدعها ان أراد ، بل هى واجبات تؤدى ، وفروض يقوم بها الانسان ، أحب أو كره .

ففى مجتمع الواجبات تصبح الحقوق حدودا تلزم ، وفروضا تؤدى ، والانسان ليس مخيرا فى أن يأخذها أو يدعها ، ولا فى أن يقبل الظلم او يرفضه ولا فى أن يستسلم للفساد أو يقاومه ، ففى مجتمع المسلمين ، أى مجتمع التكاليف يكون طلب الحرية وممارستها ، وطلب الاصلاح والسعى اليه واجبا وفريضة .

إصنع ما شئت

تسعد النصوص ، وتشقى كما يحظى الآدميون بالسعادة حينا وتحل بهم الشقوة حينا آخر .

فاذا أقبل الدهر على النص كان سند الاقوياء المقبلين على الحياة ، الذين تفيض نفوسهم أملا وثقة ، المبتكرين المجددين الذين تطيب لهم المجازفة ويثقل عليهم الركود والاخلاد الى الراحة . أما اذا أدبر الدهر ، أصبح النص نفسه ، بحروفه التى عرفها الاجداد ، سندا للضعفاء المتوارين والخائفين الذين يؤثرون السلامة والعافية .. خذ مثلا هذا الحديث النبوى : « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » . أليس هو دعوة صريحة وقوية الى نبذ التردد ؟.. أليس هو دعوة الى الاقدام بغير وسوسة أو تحرج ؟ .. انه يخاطب المؤمنين ليعلن لهم انه لا يرد الانسان السليم المعافى ، نفسا وجسدا عن عمل الا أن يكون فيه ما يجافى الحياء ذلك ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء » . ولانه قال : « الحياء لا يأتى الا بخير » . فاذا اطمأن الانسان الى أن ما يساوره من فكر لا يخدش حياء ، ولا يخرج على قانون الاخلاق وجب عليه ان يقدم : ثابت القدم غير مزعزع ولا مضطرب مستوحيا قلبه ، مستهديا بضميره عملا

بالحديث : « البر ما اطمانت اليه النفس ، واطمان اليه القلب ، والاثم ما حاك فى القلب ، وتردد فى الصدر وان أفتاك الناس وأفتوك » .

ولكن ما لبث هذا الحديث المثير للهمة ، الملهم بالقوة ، أن استحال توبيخا لمن يدعون لانفسهم ما يتصوره الناس من غير حقوقهم . والتنديد بالادعياء والمجترئين على الحدود المقررة ، امر جميل ، لا ننكره ولكن المعنى الاول ، المعنى الداعى الى العمل والباعث على الهمة ، اكبر واعظم ، والمجتمع القوى ، يتبناه ويرضاه ، فما أكثر ما تكون الحدود المفروضة فى المجتمع المريض طالمة خانقة للعزائم قاذفة بالخوف الى القلوب .

وبمثل هذا المنطق ، فسرنا الآية الكريمة : « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . فقد فصلنا عجزها عن صدرها وجعلنا آخرها شعارا نواجه به كل دعوة الى العمل الذى تحف به بعض المخاطر ، والذى يبدو مجهول العاقبة . وان كان دافعه خير الجماعة . كما واجهنا به كل محاولة للجهر بالرأى السليم الذى تقضى به مصلحة الامة « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » هى النصيحة السحرية يلقى بها الآباء الى الابناء والمربون للناشئين ، والكبار للصغار ، والمسئولون لطالبى التجديد . فباتت هذه الآية السطر الاول فى دستور الخوف والانكماش والرضى بالواقع وتزيين القبيح ، وتبرير الباطل .

مع أن هذه الآية فى جملتها دعوة الى الانفاق ، ولا ينفق الناس أموالهم فى سبيل الدعوة التى يؤمنون بها حتى يكون المال هو أقل وأتفه ما يبذلونه ، لان الانسان لا يخرج عن ماله العزيز عليه ، الاثير عنده ، الا بعد أن

يكمل ايمانه بالدعوة ثم يسهل عليه ان يستشهد فى سبيلها وان يصبر على كل ما يأتيه من ورائها من حرمان وتضييق وعذاب .

وقد كمل المصاب بتفسير الآيات الداعية الى التواكل التى هى فى حقيقتها دعوة مثيرة وملهمة للاندفاع فى سبيل الخير دون أن تلوى على شىء الا على ما يقضى به التدبر لنجاح العمل والتهيؤ لتوفير أسباب توفيقه : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » هو أقوى ما قيل ليحرر النفوس من ربقة الخوف ويطمئنها الى أن العمل والسعى والجهاد لن يجر على العاملين الساعين المجاهدين شرا فما يجرى فى الدنيا يجرى بناء على سنن مرسومة وقواعد موضوعة ولن تجد لسنة الله تبديلا ، والحديث النبوى صريح الدلالة على هذا المعنى . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » . فقد تحدث الرسول عن الطيور التى تغدو جائعة ، وتعود الى أعشاشها ، وقد ملأت بطنها من طعام . فهو لم يتحدث عن طيور تلزم أوكارها ، ثم يأتى اليها الرزق بلا جهد ولا سعى .

والقرآن الذى وردت فيه الآية الداعية الى الانفاق واتقاء التهلكة ، وردت فيه الآيات التى تسخر من المتشبثين بأسباب الحياة المشفقين من كل حركة وسعى فقد قال الله تعالى : « قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل » . « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » . « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم » .

الفرد والجماعة في الإسلام

ليس فى حياة الناس مشكلة اعقد من مشكلة الحكم استنفدت من علمائهم ومفكريهم ، ومن ساستهم وقادتهم ومن ثوارهم ومجدديهم ، الجهد والوقت ، ودفعت بهم الى حلبات حامية الوطيس من الجدل ثم قادت وراءهم الامم والشعوب الى ميادين القتال ، تسيل فيها الدماء وتطير الرقاب وتثل العروش ، وتتهاوى الحكومات .

وما يزال الناس حتى اليوم فى جدالهم وعراكهم ، وما نشهده من الحروب الدامية ، والمؤامرات التى يمسك بعضها برقاب بعض ، وما تخرجه المطابع من الكتب والصحف وما يتدفق من فوق المنابر ، من المواعظ والخطب ، ليس كل هذا الا صراعا حول نظريات الحكم من أجل السلطة .

وما ذهب اليه الفلاسفة والحكماء ، ورؤساء الدول وزعماء الفرق وفقهاء القانون ، وشراح الدساتير ، على كثرته وتنوعه وترامى آفاقه ، يمكن رده كله الى فكرتين أساسيتين : الفكرة الاولى تعلى من حرية الانسان والفرد ، والثانية تعلى من شأن الجماعة . وتعتبر الفكرة الاولى حرية الانسان والفرد ركن الزاوية فى بناء المجتمع ، وحجر الاساس فى نظام الحكم ، واصحابها يقولون ان الحرية الفردية تدعو الى التنافس الطليق ،

والتنافس الطليق يخرج من الانسان أحسن ماعنده ، ويدفعه الى التجديد ، والاحسان ، والى الابتكار والاتقان ، والى التضحية بنفسه وماله ، اذ يحس انه صاحب أمره وولى نفسه ، وان ما يبذره من حب يحصده ثمارا ، وما يقدمه من خير ، يعود اليه أضعافا. وان حرية الفرد تزيد رخاء المجتمع وترد ظلم الحاكم ، وتقى من فساد الحكم . فالخير كل الخير فى أن تدع الناس أحرارا لا توجههم ، ولا تملى عليهم ، لا فى شئون المال والاقتصاد ، ولا فى شئون الاجتماع والثقافة . ويسفه هذا الرأى أصحاب الفكرة الثانية فيقولون ان حرية الفرد لا تؤدى الا الى وبال . فالانسان ان ترك وحده ، شغلته مصالحه الذاتية وغلبته شهواته الشخصية ، وضحى بالمجتمع وبالناس الآخرين ، فهو يريد أن يربح ويريد أن يستأثر بأوفر رزق وأفضل مسكن ، وهو يود أن يتكلف أقل القليل من البذل وأن يعطى أقل نصيب من العمل ، ولقد جربت الانسانية الحرية الفردية فى أوربا الغربية ، فازدهرت المصانع ، وامتلأت المتاجر بالسلع والبضائع ، ولكن عماذا أسفر هذا كله ؟.. أسفر عن أغنياء يشكون التخمة ، وفقراء يشرفون على الموت . أسفر فى المدينة الواحدة عن أحياء نظيفة أنيقة ، وعن مقابر يسكنها الموزون يعانون فى ظلمتها ورطوبتها السل وغيره من العلل والآفات . فما هو السبيل الى حل هذه المشكلة التى هى أعقد من ذنب الضب ؟ ..

لقد انتهى الاسلام الى أنه لابد من فرد قوى حر ، لتنشأ جماعة حرة قوية وانه لابد من جماعة قوية حرة ، ليوجد فرد حر قوى . فالفرد الحر فى جماعة ضعيفة طاغية ، يستبد بالضعفاء ويستعلى على الفقراء

ويستأثر بالخير كله ويحرم غيره من أتفه متع الحياة .

والجماعة المتسلطة التى تصوغ الافراد فى قوالب وتحيلهم الى أرقام ، وتأمرهم ليأتمروا وتحركهم ليتحركوا ، ثم لا يقولون شيئا ولا يفكرون فى شىء هى المباءة الصالحة للطغاة الذين لا ترد لهم كلمة ولو اخطأوا .

اما كيف توصل الاسلام الى احداث هذا التوازن فيمكن أجماله فى كلمات قليلة .

ليس فى الكتب كلها مقدسة وغير مقدسة من احتفى بالانسان كالقرآن ، فالقرآن تحدث عن الانسان فى كل أدوار حياته . تحدث عنه وهو لايزال نطفة ، فعلقة ، ثم مضغه .. الى أن خرج للحياة طفلا وسايره فى صباه وشبابه ورجولته وشيخوخته وهرمه ، وصور ضعفه ، وقوته وخوفه ، وشجاعته ، وثباته وتردده ، وايمانه وكفره ، واقدامه واحجامه ، وصدقه ونفاقه ، وتهالكه على شهوات الحياة من نساء ومال وخيل مسومة ، وبذله للنفس ، وتضرعه عند النازلة ، وجحوده اذا انجابت الكارثة ، وكرم القرآن الانسان ، فنص على ان الله قد استخلفه فى الارض مع ان الملائكة انكرت ذلك لانهم يقدسون الله ويسبحون ، والانسان يسفك الدماء ويفسد فى الارض وقد استخلفه الله مع احتجاج الشيطان وتمرده . فالانسان عند الله أهل للثقة وجدير بالامانة .

ولكن القرآن الذى كرم الانسان ، هو القرآن الذى وجه الخطاب الى الناس ، فما اكثر ما ابتدات الآيات « بيا ايها الناس » فالانسان الفرد فى القرآن محل للرعاية ، ولكن الناس ككل هم الاصل والبداية

والفرد تفسح لطاقاته وقدراته ، وآرائه واجتهاده الفرصة ولكن فى ظل الجماعة ومن أجلها . فالفرد فى القرآن قوى بذاته من ناحية ، وبالجماعة وللجماعة من ناحية أخرى ، والجماعة قوية بالفرد ، ولكنها أعلى منه وأسمى ، وخير وأبقى .

ولو أردنا أن نصور الفرد فى الجماعة الاسلامية تصويرا يقرب لنا الصلة بينهما ، لكان البيت فى قصيدة الشعر العربية ، هو أحسن تشبيه لهذه العلاقة . فالبيت من الشعر فى القصيدة ، بيت كامل ، قائم بذاته ، له معناه الخاص ، والشاعر العربى ، يفتن فى تجويد كل بيت على حدة ، حتى ليمكن أن يكون هذا البيت قصيدة بذاتها ، ولكن هذا البيت آخر الامر ، هو وحدة ، فى كل متناسق ، وهو بها أكثر امتلاء بالمعنى ، ومهما حسن وقعه فى الاذن ، وعظم قدره فى النفس ، لا يستطيع أن يخرج على سياق القصيدة ، ولا وزنها ، ولا قافيتها ، ولا يستقل بمعناه عن معناها العام ، وهو يكتسب من جمالها جمالا ، ومن موسيقاها موسيقى وهو يبذل لهذه الموسيقى العامة ، ولبنائها الكامل ، ما انطوى عليه من جمال وقوة . فهو قائم بذاته ، له وجوده الذى لا يعتدى عليه ، ولكنه جزء من كل ، ولبنة فى بناء .

تأملات في الحج

أمران كنت لا أذكرهما الا وذكرت معهما صورة رجل مريض يشكو فقر الدم ، وقد قطع شريانه ، فتتدفق دمه الغزير ، وهو ينظر اليه لا يبدو عليه قلق ، ولا يظهر على الذين حوله خوف .

اما أول الامرين : فهو تدفق مياه النيل عند مصبيه في رشيد ودمياط . فقد كنت أعرف ان المصريين يعيشون على ستة ملايين من الافدنة تنقص ، ولا تزيد مع تزايد عدد المصريين كل عام بنحو مليون من الانفس تطلب الغذاء والكساء ، وحولهم الصحراء تطلب الماء فلا تجده . تطلب الماء ، والماء يذهب سدى في ماء البحر الملح ، فما أعظم الخسارة وما أغرب أن نرى ذلك العام بعد العام ، فلا نفكر في كيف نصون هذه الثروة المبددة ولا نحمي هذا المال الضائع حتى وفقنا الله آخر الامر الى وضع حد لهذا الخسران .

اما ثاني الامرين ، فهو اجتماع الحجيج في كل عام في عرفات وما حولها . فالمسلمون منذ دعاهم القرآن الى أن يزوروا البيت الحرام « يأتوك رجالا وعلى كل ضامر » والالوف منهم تلبي هذه الدعوة فيتألف باجتماعهم مجتمع انساني لا يشبهه مجتمع آخر ولا يدانيه .

ففى الحجيج من المسلمين أقوام من اسـيا واخرون من افريقيا ، وطائفة من اوربا ، وافراد من أمريكا ، وفيهم الابيض ، والاسمر ، والاسـود ، والاصفر ، والسليم ، والمريض ، والشيخ ، والشـاب ، والمرأة ، والرجل ، والغنى ، والفقير ، والجـاهل ، والمتعلم ، وهؤلاء يتكلمون عدة لغات ، وما يقرب من الالوف من اللهجات ، فاذا قلت ان الانسـانية كلها تجتمع فوق عرفات لم تعد الحقيقة ولم تبالغ •

وما يستوقف النظر أن هؤلاء يأتون لا تدفعهم حكومة ولا تحرضهم سلطة ، ولا تعينهم بالمـال أو وسائل النقل هيئة ، ثم هم يجتمعون فى بلاد لا تتوافر فيهـا من وسائل الراحة وأسـبابها ما يتوافر فى عواصم أوربا • والمدينة التى تضمهم وقد أشرفوا على المليـون أو جاوزوهلم تبلغ الغاية فى تنظيم الشوارع والميادين وان كانت تحـاول أن تخطـو نحو ذلك • • • قارن هـذا بما تتباهى به العواصم الاوربيـة والامريكية الـكبرى ، اذا انعقد فيها مؤتمر أو جرت على أرضها مباريات أولمبية ، لا يشـهدها من الاجانب الا بضعة الوف ، وكلهم من الاغنيـاء المتعلمين المتحضرين • لكن هل يفيد المسلمون من هذا الاجتماع العالمى الضخم بكل ما ينطوى عليه من منافع جليلة وما يتيحه لهم والعالم من فرص اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية ؟

لقد قلت يوما ان الحجاج يجب أن يستقبلوا فقيـل لى على الفـور : نحن نبـذل كل ما نملك لنحسن استقبالهم • فهم عنى شىء ، وأردت شيئا آخر • قصدت أن نعين الحجاج القادمين من كل قطر على أن يجتمعـوا مع اخوانهم فى هذا القطر ذاته ، ويتحدثوا فى شـئون

دينهم ، وشئون الوطن الذى جاءوا منه فاجتماعهم فى مكة فرصة لن تتاح لهم بعدموسم الحج، فالأندونسيون الذين تتكون بلادهم من ثلاثة الاف جـــزيرة يجب أن يجتمعوا معا ، والباكستانيون الذين ينتسبون الى وطن انشطر الى اقليمين : أحدهما فى الشرق ، والآخر فى الغرب ، يفصـــــل بينهما عدة آلاف من الكيلومترات ، يجب أن يجتمعوا سويا ، والهنود المسلمون الذين تتسع بلادهم حتى تكاد تبلغ مبلغ القارة مســـاحة يجب أن تهيأ لهم فرص اللقـــاء وهم فى موسم الحج . ثم لابد أن يجتمع من كل قطر مع الحجاج المســـلمين زعماؤهم ولا أقصد بالزعمـاء الامراء والملوك ، ورجال الدولة ، انما أقصد علماءهم ، وأســـاتذتهم ، وكبار تجـــارهم ، وصحفييهم ، ورجال المال والاقتصـــاد ، والاطبـــاء ، والمحامين ، وأســـاتذة الجامعات منهم ونطرح عليهم مشكلات العالم الاسلامى ، وندعوهم الى اتصال بعضهم ببعض ، ثم لابد أن تصدر الهيئـــة المشرفة على الحج نشرة فى اعقاب كل موسم حج تبين فيها عدد الحجاج والاوطان التى قدموا منها ، والمحـــافظات والاقســـام الادارية التى ينتسبون اليها فى هـــذه الاوطـــان وما استطاعت الهيئة ان تحصل عليه من بيانات عن عدد مدارس ومساجد وجمعيات المسلمين فى هذه الاوطان وصحفهم ودور نشرهم ، وبالجملة كل صور نشاطهم . وان ما نستطيع أن نجنيه من هذا المهرجان الانسانى الضخم اكثر مما نتخيل والعالم الذى مزقته الخلافات ولا تزال تهدده الحروب فى أشـــد الحاجة الى هـــذا الجهد الانســـانى الذى يدعم الســـلام ويقوى فرصه ، وينفى الحرب ويسد الباب فى وجهها .

إعجاز القرآن

تكلم الفقهاء والعلماء في اعجاز القرآن ، وبحثوا ما اذا كان سر هذا الاعجاز لفظ القرآن ونظمه ، أو معناه ، أو كشفه عن انباء الغيب ، أو رفعه الاستار عما تضمره نفوس الاعداء من الاسرار وما تطويه من شرور .

ويقول السيوطي في الاتقان انه لا خلاف بين العقلاء ان كتاب الله معجز لم يقو أحد على معارضته بعد تحديه بذلك لانه كلام الله فالله تعالى يقول : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله »

ويقول : ان الله تحداهم في أكثر من سورة ، ونلاحظ ان التحدي يتراوح بين الكثرة الى القلة . فقد جاء في القرآن :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ثم جاء فيه : « أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلمه » .

وقال تعالى : « أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بسورة من مثله » .

فالتحدى وقع بالقرآن كله وبعشر سور منه ، وبسورة واحدة .

وقد اختلف الناس كما قلت فى أسباب الاعجاز ، ونوردها هنا باجمال : (١)

١ ـ رأى من يقول ان الاعجاز سببه أن العرب تحدوا بالكلام القديم الذى هو صفة الله العلية فكلفت العرب بذلك ما لايطاق ، وبه وقع عجزها .

٢ ـ وقال النظام ان اعجاز القرآن بالصرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم وكان مقدورا لهم ولكن عاقهم أمر خارجى .

٣ ـ وقال قوم بل اعجازه ما فيه من الاخبار عن الغيوب المستقبلة ، كما تنبأ بهزيمة الروم بعد حين فى سورة الروم ، وتنبأ بأن النبى هو خاتم الانبياء ، وانه سيحفظ القرآن وحفظه ولم يضع منه حرف .

٤ ـ وقال آخرون ، سر اعجازه ما تضمنه من الاخبار عن قصص الاولين .

٥ ـ وقال فريق خامس ، ان اعجازه مرده ماتضمنه من الاخبار عن الضمائر « اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » .

٦ ـ وقال القاضى أبو زيد : وجه اعجازه ما فيه من النظم والتأليف والتصريف ، وانه عن جميع وجوه النظر اعجاز فى كلام العرب .

٧ ـ وقال الامام فخر الدين : وجه الاعجاز الفصاحة وغرابة الاسلوب والسلامة من جميع العيوب .

٨ ـ وقال السكاكى : اعجاز القرآن يدرك ولايمكن وصفه .

---

(١) مختار الاتقان ص ١٩١

٩ ــ وقال بغدادى الفارسى : ان السؤال عن اعجاز القرآن ، فيه حيف على المعنى لانه ليس فى طاقة البشر الاحاطة بأغراض الله فى كلامه .

١٠ ــ وقال الخطابى : قلت فى اعجاز القرآن وجها ذهب عنه الناس وهو صنيعه فى القلوب ، وتأثيره فى النفوس ، قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

١١ ــ وقال الزركشى ، والقاضى عياض ما معناه : ان القرآن معجز بجميع ما سبق أو انه نظر على وجوه اعجاز كثيرة .

ولم يقتنع الفقهاء بكل هذا فاخذوا يسألون : القرآن معجز بكل قدر منه أو انه متعلق بجميع القرآن فقال قائلون : انه متعلق بالسورة طويلة كانت أو قصيرة ، أو ما يساويها فى الكلام . وقال قائلون : ان القرآن لا يحصل الاعجاز فيه بآية ، وقيل ان اعجازه يتعلق بقليل القرآن أو كثيره .

ولقد اوردنا هذا الكلام لمجرد العلم به ، لكنا نلاحظ ان المسلمين الاوائل لم تستوقفهم هذه المباحث وأمثالها فهذه الكتب كلها ومصنفوها ، وهذه الآراء جميعها والقائلون بها متأخرة ، فعلى عهد الرسول والخلفاء الراشدين كان المسلمون يعرفون ان القرآن معجزة وان الله تحدى العرب ان يأتوا بمثله ، أو بعشر سور ، أو بسورة ، وأن شيئا من ذلك لم يحصل وانحسم الامر عند ذلك ولم يروا حاجة مطلقا لان يكلفوا أنفسهم البحث عن سر هذا الاعجاز ، فقد كان عندهم حقيقة واقعة لم يثر حولها خلاف ، ولم يشكك فيها ، وكانت لديهم حوادث حياتهم ، الى انتصاراتهم

الروحية والمـــادية وتسليم العرب كلهم للاســـلام ، ودخولهم فيه قاطبة ، فظهر هذا الاعجاز ، ودليله الذى لا ينكر ، ثم جاءت انتصاراتهم على أعداء العرب خارج حدود جزيرتهم واستقرار الامر للمسلمين ، ونجاحهم فى كل ما تناولوه دليلا جديدا على أن هذا القرآن ، سماوى الهى ، وان ما جاء فيه لا يمكن أن يصدر عن البشر لان البشر لا يستطيعون أن يقيموا نظاما باذخا وصرحا شاهقا، تتعاون وتتداخل فيه الماديات والمعنويات ، وأعمال القادة واجتهاد الائمة وتضـــحيات ألوف الناس وبذلهم المهج والارواح .

وما يمكن أن يخلص المرء اليه أن اعجاز القرآن كان فى واقع الامر استفتاء للمجتمع القرشى ، الغاية منه أن يتقدموا ببرنامج يدانى القرآن وأحكامه فضـــــلا عن أن يسموا عليه أو يفضله . كان القرشيون ينكرون دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام من أن القرآن أوحي به اليه من الله وانه ليس من نظمه ، فتحداهم أن يثبتوا كذب دعواه ، بتقديم كلام مثله ، وأدرك القرشيون وأنصارهم من القبائل ان هذا التحدى عبث لا طائل تحته ، لان القرآن ليس مجرد كلام جميل رائع ، وانما هو اعلان حركة جديدة ، وعقيدة لا عهد لهم بهـــا ، وان الدخول مع الدين الجديد فى منافسة فى هـــذا الميـــدان هى منافسة لا أمل لهم فى النصر فيها ، لانه ليس لديهم ما يقدمونه سوى نظامهم القديم ، وأفكارهم الموروثة ، وعقـــائدهم المتخلفة عن الآباء : « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

ولذلك تحول الصراع الى ميادين القتال .

فاعجاز القرآن ، كما فهمه المســـلمون الاوائل ، هو الجدير بأن يفهمه المســـلمون الاواخر ، فهو اعجــاز مستفاد من الحقيقة الثابتة ، بأن العرب لم ينجحوا في أن يعارضوه بكتاب غيره في مثل نظمه ولفظه ، أو بلفظ ونظم آخرين ، وان المسلمين في ظل هــذا الكتاب ، وعلى القواعد التي اتى بها ، وللغايات التي رسمها ، وبالاخلاق التي شرعها ، وبالمنــاهج التي دعا اليهــا انتصروا على كل من خاصــمهم وعاداهم ، وان كل ما تنبأ به تحقق ، فاعجاز القرآن يبدو أول ما يبدو ، في انه كتاب حركة ناجحة ، بلغت من النجــاح وحالفها من التوفيق ما لم توفق اليه ، أو تظفر به حركة ، استندت الى كتاب ، فلو لم ينجح المسلمون ، ولو لم يدخل الناس في دين الله أفواجا ، لما تحدث أحد عن اعجاز القرآن ، ولا كلف خاطره أن يفتش عن أسراره ولراح القرآن على احسن الفروض نصا أدبيا رائعا ، ولعل المؤرخين وقتذاك كانوا يرون في سمو مثله ، وفي رفعة مناهجه ، سببا من أسباب فشل الدين ، واخفاق الدعوة .

فنجاح الدعوة الاسلامية ، هو اعجــاز القرآن الثابت الذي لا نزاع فيه . وهو ما فطن الى بعضه الخطابي اذ قال : انه ذهب في اعجاز القرآن مذهبا لم يشاركه فيه أحد ، هو صنيعه في القلوب واثره في النفوس . فسر القرآن الاكبر ، انه خلق من جماعة ضعيفة ، مشــتتة بين أطراف الجزيرة وأعطافها ، مبعثرة في نواحيهــا وحواشيها ، أمة متحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة ـ تتناول الكل والتفاصيل ـ وتطيع قائدها طاعة لم يعــرف التاريخ شبيها لها أو نظيرا ، فليس تأثير القــرآن في ألفاظه ، أو معانيه ولا في نظمه أو لفظه ، ولا فيما يتنبأ

به من أخبار الغيب ، ولا ما حدث به من أنباء السلف بل كل ما أحـــدثه فى الجمــوع ، وما حـــركه فى الامم والشعوب لا فى عهـــد أو عصر ، ولا فى قارة أو دولة ، بل فى أجيال بعد أجيال وعصور بعد عصور ، وفى أمكنة بعد أمكنة ، تباعدت مواضـــعها ، وتباينت أجواؤها . والدليل على أن هذا الاعجاز لا يرد الى شكله وعبارته ، انه يؤثر فيمن يعرفون العربية ومن لايعرفونها بين أتباعه وأنصاره ، وأنه يترك أثره فى القلوب ، اذا رتل أو جود ، على من يفهم معانى الكلمات والسور ، ومن لا يحيط بها الا الماما .

فاعجازه واضح ، فى اثره فى حياة الناس ، وفى دفعه للحوادث ، ولا يمكن ان يكون هذا كله بلفظه ولا بنظمه وانما هو بلفظه ومبناه ، وأحكامه وقواعده ، وبالاخلاق التى استطاع ان يقيمها والتى تفرد بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فصمد فى وجه الصـــعاب التى لا تكاد تذلل ، والمخاطر التى لم يسمع عنها من قبـــل وأخلاق من حالفوه ونصروه ، وعزروه ووقروه ، وآمنوا به ، ودافعوا عن دينـــه . ثم جلـــدهم فى الـــكفاح ، واستماتتهم من أجـــل العقيدة ، ولطف أخـــلاقهم ، وسماحة طباعهم ، وميلهم للعلم ، وحبهم للنـــاس ؟ هذا هو اعجاز القرآن ومظهره ودليله ، فى آن ؟

موسيقى القرآن

لست ادرى هـل لاحظ أحـد ان أكثر المشتغلين بالموسيقى والغناء فى بلادنا ، كانوا ممن طلبوا العلم فى الازهر ولبسوا العمامة وحملوا لقب « شـيخ » وحفظوا القرآن ، فجودوه ورتلوه ، وعرفوا أصول قراءاته ..؟

حسبنا ان نذكر منهم الاعلام ، أمثال سلامة حجازى وسيد درويش ، وزكريا احمد ، ومحمـد القصبجى ، وأبو العلا ، وأم كلثوم نفسـها ، حفظت القرآن وأدته ولا يزال أثره واضحا فى أسلوب أدائها ومخارج الفاظها.

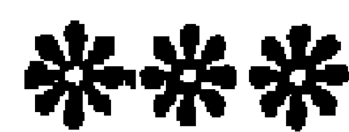
وحتى الذين اشـتهروا بنظم الاغانى كانوا ممن انتسبوا الى الازهر ، فالشـيخ يونس القاضى ، وبيرم التونسى أيضا ، انتسـبوا الى هـذا المعهد العريق ، وطلبوا العلم فيه حينا .

والمسلمون ، وغير المسلمين فى مشـارق الارض ومغـاربها ، يعرفون أثر النظم القرآنى فى نفوسهم ويدركون ما يبعثـه فيها من الشجى ، والنشـوة الوجدانية والروحية وقد سمعت بنفسى سـيدة انجليزية كانت مشغولة بفن « الباليه » وطافت البلاد الاسلامية بحثا عن موضوعات « للباليه » من التراث الاسلامى ، سمعت هذه السيدة وهى تتلو سورة «النجم» وتردد آياتها ورأسها تتمايل مع ايقاع الآيات وتقول :

« والنجم اذا هوى ، ما ضـــل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحي ، علمـه شـديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سـدرة المنتهى » .

وقد خيـــل الى وأنا أسمع هــذا اللفظ القرآنى المبين ، على لسان هــذه الاعجمية التي لا تكاد تنطق القافات ، والعينات ، الا بشق الانفس انني أســمع هذه الســــورة للمرة الاولى ، وحسبت أن هذه الســيدة تصطنع النشوة والبهجة الوجدانية ، لولا ان الانفعــال بقى فترة ، غالبا عليها ، وهي تحاول أن تضبط شعورها وقد مدت يدها خلسة وفيها منديل صغير لتموه عبرة ترقرقت فى عيونها .

وقد روى عن رسول الله أنه قال : « زينوا القرآن بمحاسن أصواتكم » .



كما أورد ابن سعد في طبقاته ، عن « موسى الاشعرى » انه كان حلو الصوت فاذا قرأ القرآن اقتربت نســاء الرسول حتى يستمعن لتلاوته .

وقد أورد الاستاذ زكي مبارك فى كتابه «النثر الفنى» عن فواتح السور مثل « ا لم ، حم ، ا لر ، ص ، ق » ما يلي :

« كنت أتحدث عن فواتح السور مع المسيو بلانشو فعرض على تأويلا جديرا بالدرس والتحقيق ، وفى رأيه ان الحروف « ا لم ، ا لر ، حم ، طسم » ليست

الا اشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون

« وقد كانت الموسـيقى القديمة بسيطة يشار الى الحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكان ذلك كافيا لتوجيه المغنى أو المرتل الى الصوت المقصود .

وفى الكنائس المسيحية باوربا حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى ، وفى اثيوبيـا مثلا يوجـد اصطلاح موسيقى مشـابه لذلك ، فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تقابل « ا لم » فى القرآن A. O. I. فى نشيد رولان .

ويؤيد رأى المسيو بلانشـو أن « الم » تنطق هكذا عند الترتيل « الف .لام . ميم » فهى ليست رمزا كتابيا ، ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمـل ان تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية ومن الواضح ان القرآن لم يكن همه أن يخالف الجاهليين فى كل شيء حتى فى الاصوات الموسيقية . فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور اشارات صوتية لتوجيه الترتيل وان أن تكون متابعة منه لترانيم الجاهلية »

ولست أريد هنا مناقشة هذا الرأى تأييدا أو تفنيدا انما أريد أن أخلص من كل ما سـبق الى أن القرآن وثيق الصـلة بالموسيقى ، وان موسـيقية الفاظه وموسيقية نظمه وموسيقية تكويناته وأسلوب بنائه بين الاسراع والتمهل ، والايجاز والترسـل ، يبعث حب الموسيقى فى نفوس حفـاظه وقرائه ومسـتمعيه ، والمسـتفيدين به ، اذا خلوا الى أنفسهم واذا اجتمعوا وان اثارته لحب الموسيقى فى النفوس وظيفة من وظائفه الحضارية .

فالشعوب التي تعمل الموسيقى فى تكوين جماعاتها وتأسيس بنائها شعوب تتهيأ للنهوض بتبعات خطيرة وجسيمة فى عالمى الحرب والسلام . فالشعوب التى تحب الموسيقى هى اكثر الشعوب تحملا لتكاليف واعباء النظام ، فتصبح جيوشا من أعلى مرتبة . فالنظام فى الجيش هو حجر أساسه ، وركن الزاوية فى بنائه ، والموسيقى نظام محبوك دقيق ورقيق فى آن واحد .

والموسيقى ــ خصوصا موسيقى الجماعات ــ كالاناشيد والمسرحيات الغنائية الكبيرة والصغيرة ــ الاوبرات والاوبريتات ــ وموسيقى الاوركسترا ، كلها عمل جماعى يعمل فيه الجميع عملا متكاملا، فالاوركسترا اشبه شيء بالجيش والآلات المختلفة كالاسلحة المختلفة. فلا بد أن تتعاون الالات النحاسية مع الخشبية ، مع الوترية ، مع آلات النقر والايقاع ، كما لابد أن تتعاون فرق المشاة مع المدفعية مع الفرسان مع الطيران والبحرية

ولا عجب فى ان تكون المانيا هى موطن الموسيقى .

على أن الموسيقي بما تودعه فى العقول والنفوس من بذور التناسق والتناسب تهيىء هذه العقول ، لكل ما تطلبه الحضارة من ذوق ومن استجابة لاصول البحث العلمى التى تقوم على قواعد صارمة من النظام والتكامل والاتساق . لذلك لم يكن دور القرآن مقصورا على الآثار الواضحة التى نعرفها عنه من كونه اداة التبليغ وديوان بلاغة العرب ، ووعاء المعرفة الاسلامية ، وقانون المسلمين وشريعتهم الكبرى فهو الى جانب هذا كله أداة لصقل الاذواق ولبذر بذور التناسب الموسيقى فى دنيا الوجدان والفكر، وفى مجالات الحرب والسلم ، وفى ميادين العلم والبحث .

الإسراء ودلالته الإنسانية

قد يقول قائل : اذا كان الاسلام قد اكد بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل رسـول سبقه تأسيسا على خلافة الانسان لله فى الارض ، وفى قاعدة الاسـلام الاساسية المجملة فى قول الله تعالى « ولقـد كرمنا بنى آدم » فما بال محمد رسـول الاسلام يحدث ابنة عمه هند بنت أبى طالب ، وكان نائما فى دارها بمكة ذات ليلة ما رددته هى فيما بعد قالت :

ان رسول الله نام عندى تلك الليلة فى بيتى فصلى العشاء الاخيرة ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر اهبنا رسول الله ، وصلى الصبح وصلينا معه ·

ثم قال : لقـد صليت معكم العشـاء الاخيرة ، كما رايت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، فقلت له : « يا نبى الله لا تحدث بها الناس فيكذبوك ويؤذوك » . قال : « والله لأحدثهموه » .

فاذا كان محمد رسول الله معتصما ببشريته ، قانعا بها ، غير راغب فى النزول عنها ، أو ادعاء صفة سواها ، فما معنى تحدثه عن رحلة يصعد بها الى السماء ، بعد ان يسرى فى الليل من مكة الى بيت المقدس ، وهى الرحلة التى عرفت « بالاسراء » والتى نزل فيها فى

سورة الاسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله»

وهو الحديث الذى كاد يصدع وحدة المسلمين ، ويفرق صفوفهم ، وهز اعتقاد الكثيرين منهم وأوقعهم فى حرج لم يعرفوه من قبل ، منذ دخلوا فى الدين الجديد .

لقد كان القرشيون يطلبون من الرسول ان ياتى لهم بالمعجزات ، فكان يقول : « سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

وحديث الاسراء جانب من الصورة التى جاء بها الاسلام واكدها واصر عليها ، والتى جاءت فى القرآن وهى تروى رد الرسول مرارا : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى ، انما الهكم اله واحد » .

فحديث الاسراء كما قال الشاعر الباكستانى محمد اقبال هو حديث الصلة التى تربط السماء بالارض ، حديث الانسان الاعلى ، أو الاسمى ، الذى يعيش على الارض ، ولكن أمامه سبل مفتوحة لا تنتهى الى غايات بعيدة لا تدركها الابصار ، ولا تصل اليها العقول ، ولكنها مع ذلك تتطلب سعى الانسان وتستحثه على أن يدب عليها بقدمه قوى العزم ، ثابت الارادة ، فهو واصل الى ما لايخطر له على بال ، والى ما لايساوره حتى فى الاحلام وهو ما نرى كل يوم تحقيقا له ، فنحن اليوم خطونا على أرض القمر ، وغدا على أبواب الزهرة ، وهكذا دواليك .

ورحلة الاسراء عند الاستاذ محمد حسين هيكل (١)

---

(١) ص ١٨٦ من حياة محمد ـ الطبعة الاولى ..

هى ابراز لوحدة الوجود ، فقد تهاوت أمام محمد فى لحظــة الاسراء كل حجب الزمان والمكان ، ولم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المـكان أو غيرهما من الحجب .. تداعت فى هـذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الـكون كله فى روحه .

ولكن في رحلة الاسراء جانبين : أولهمـــا ، هـــذا الاجتماع بين الانبياء والهداة من آدم الى محمد ، فليس أجمل ولا أروع من هذا التآخى بين هذه القافلة الهادية التى ان اجتمع اتباعها ، كما اجتمع قادتها ، تحققت وحدة البشر على أجمـــل ما تتوق اليه روح الاديان الخالصة ، وروح الاخاء الانساني والوحدة الانسانية »

على ان أكبر المعاني فى هذه الرحلة هو ما أكد بشرية محمد رسول الله ، فلقد صـــعد الى الســـماء والتقى بموسى وعيسى وداود وسليمان ونوح ولوط ، ووصـــل الى سدرة المنتهى ، ثم ماذا ... ثم عاد الى الارض .

عاد الى الارض هذا أولا ، وعاد الى الارض كما كان بشرا ، هذا ثانيا ، ومحمد الذى سرى بالليل من الكعبة الى المقدس في أبهى رحلات الروح الانسانية لا ليخرج عن بشريته ، ولا ليدعى صفة اخرى سواها ، ولا ليتغير أسلوبه في مخاطبة الناس ، أو منهجه فى الحياة ، فبقى يقول : أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، بل ان ابنة عمه أم هانىء وجدته حيث نام بعد صلاة العشاء ، لم يغير موضعه فى الفراش ، فهو بين البشر في بيوت ذوي قرباه الفقراء ، فرحلة السماء زادته قربا من الناس واتصالا بهم . فالامر كما ترى ، ليس سوى قصيدة محكمة الاطراف ، أولها يرد الى آخرها ،

وآخرها يرد الى أولها ، الأبيات فيها تتدفق متصلة ، لايشوبها انفصال ويزيد بعضها بعضا وضوحا وبهاء .

صدق الله العظيم : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى ، انما الهكم اله واحد » .

١٠ الدنيا والآخرة

قال الله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » فالدنيا والآخرة ، يتكاملان فى التشريع الاسلامى الذى هو عقيدة وشريعة . وهذا التكامل من مميزات هذا التشريع التى انفرد بها أو كاد

فالدنيا والدار الآخرة ليسا ضدين ، ولكنهما ليسا ندين ، فليست الدنيا ملعونة ، وانما هى سبيل الى الآخرة ، أى طريق يؤدى اليها ويتصل بها اتصالا وثيقا . ولأن الدار الآخرة هى غاية ، فان السبيل اليها يكتسب من اتصاله بها ومن افضائه اليها ، الخطر والمكانة ، لذلك لابد ان تكون هذه السبيل ، أو الطريق نظيفة انيقة مستقيمة ، وليس ما يمنع أن تكون محفوفة بالازهار والرياحين .

فى الاسلام ترتفع الاعمال الدنيوية الى مستوى العبادات ، فلا يعمل الانسان عملا صالحا الا ويثاب عليه ، كما يثاب على الصلاة والصوم ، وحج البيت ، بل ان فى السنة ، من الاحاديث ما يعلى قدر العمل الصالح على العبادة « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ، و « علم ساعة خير من عبادة عشر سنين » « لمداد تريقه اقلام العلماء خير من دماء الشهداء » ، «وان المرء ليثاب علىاللقمةحتى يرفعها الى فم امرأته»

وفى القرآن الكريم : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس»

وتحدث الناس الى الرسول عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ، فسأل : من يقوم عليه ؟.. فقالوا : اخوه . قال : « أخوه أعبد منه » .

وخرج الرسول الى غزوة ، فأفطر بعض من كانوا معه ، ليقوموا بما يلزم من عمل ، فعملوا طوال يومهم . فلما جاء موعد الافطار ، قال الرسول : « لقد ذهب المفطرون بثواب اليوم كله » .

فالسعى فى الحياة الدنيا هو السبيل الى الوصول الى حياة طيبة فى الآخرة ، فلا يمكن القفز الى هذا النعيم من فوق الحياة فى هذه الدنيا واهمالها أو تحقيرها أو الكف عن العمل .

ورأى الرسول يوما يدا ورمت من كثرة العمل ، فأهوى عليها يقبلها ، وهو يقول : « تلك يد يحبها الله ورسوله » ويقول فى نفس المعنى : « من أمسى كالا من عمل يده ، أمسى مغفورا له » وقال : « ان الله يحب العبد المحترف » وقال : « ان من الذنوب ذنوبا لايكفرها الصوم ولا الصلاة » . قيل : « فما يكفرها يارسول الله ؟» قال : « الهموم فى طلب العيش » .

ومر على النبى رجل ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه فى الكسب والارتزاق ماجعلهم يتحدثون فيه ، قالوا : « يارسول الله لو كان هذا فى سبيل الله»

قال : « ان كان خرج ليسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة ، فهو فى سبيل الشيطان » .

ثم ينتقل الرسول الى الدفاع عن النفس والعرض ، فيراه جهادا فى سبيل الله ، يثاب الانسان عليه ثواب من قتل وهو يدافع عن العقيدة والدين ، فقال : « من قتل دون مظلمته فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » ويصل الاسلام الى أقصى الغاية فى هـذا الصدد حينما يقول الرسول : « فى وضـع أحدكم صدقة » أى فى ماء الرجل . فقال صحابة الرسول : « يارسول الله أياتى أحدنا شـهوته ويكون له فيهـا اجر ؟ » فقال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ » قالوا : « نعم » قال : « كذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر » . فكل جهد وعمل وسعى وحركة ومتعة ولذة ، مما يثاب عليه الانسان ، ما دام قد خلا من مضرة الناس ، وأدى الى اسعاد القائم بها ، وجعل الحياة لطيفة ومقبولة ونظيفة .

من كل هذه الاحاديث والآيات ، تتضح الصلة بين الدنيا والآخرة فالنـاس لا يستطيعون أن يقفزوا الى الآخرة من فوق الدنيـا ، اذ لابد لهم أن يسلـكوا الى الآخرة ، طريق الدنيـا ، وأن يسـيروا فيه الى آخره ، ولهذا فلا يحل لهم أن يتركوا فى هذا الطريق أوحالهم وأقذارهم ، فانهم لا يسيرون فيه وحدهم ، انما يسيرون فيه مع غيرهم . ومن ثم وجبت عليهم رعايته ، فكلما وسعوا فيه وجملوا ، جملوا آخرتهم واسعة وجميلة .

صحيح ان الدنيا ، دار سفر ، ولكن ليس ما يمنع أن تكون مع ذلك دارا مريحة . فالانسان لا يعرف كم يطول بقاؤه فيها . « اعمل لاخرتك كأنك تموت غدا ، وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا »

ولقد افاد المسلمون من اتصال دنياهم بآخرتهم اكبر النفع ، ذلك لأن الواحد منهم كان لا يعمل العمل الا ويفكر فى جوانبه المعنوية وآثاره الروحية وفى نتائجه الخلقية . فلم تتجرد الأعمال عن نتائجها ودوافعها عند المسلم قط : « انما الأعمال بالنيات » فارتفعت دنيا المسلمين عن هذا الصراع المادى البحت الذى يود الواحد فيه أن يصل الى غايته ولو على جسد أو عرض او مال أو سمعة الآخرين ..

ففى دنيا غير المسلمين النجاح هو الغاية المقصودة ، بأى سلاح ، ومهما كان الثمن الذى يدفعه الآخرون ، والألم الذى يتحملونه .

فالقواعد والأسس المقررة فى الدار الأولى ، تجعلها أقرب ما تكون من الدار الآخرة ، ففى الدار الآخرة ، يجلس المؤمنون « على سرر متقابلين » نزع من قلوبهم الغل والحسد والضغينة ، فأصبحوا اخوانا متحابين لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما .

فالدار الآخرة هى المثل الاعلى . فالعمل الفردى الذى يقوم به الانسان لا ينظر اليه مجزءا ، بل ينظر اليه على انه حلقة من سلسلة ، غايتها الوصول الى المثل الاعلى . فسعيه من اجل الرزق ، وسعيه من أجل العلم ، وزواجه وطلاقه ، وحربه وسلامه ، وبيعه وتجارته ، وشراؤه ، وايجارته ، وانابته ، ووكالته ، وما يجمع من مال ، وما ينفقه منه . كل ذلك يقاس

بمقياس الآخرة ، ومع انه يجرى فى الدنيا ، فاذا هو قد اكتسب قيمة لم تكن له ، وارتقى درجات عن طبيعته المادية المجردة .

فالمسلمون الذين لا يرفعون أعينهم عن الدار الاخرى كانوا لا يدخرون وسعا فى أن يصلوا بأعمالهم فى الدنيا الى اقصى الغاية من التجويد ، مدفوعين فى ذلك بقول الرسول : « ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا أن يتقنه » .

فالمسلمون ازدادوا حبا لدنياهم ، وادراكا لواجبهم فيها ، وحرصا على أن يسودها جمال ، ويسود علاقاتهم حب ومودة ، ونظام واتساق ، لاتصال هذه الدنيا بالآخرة ، فقد أصبحت لها معنى أكبر من معناها اذا كانت هى غاية فى ذاتها ، ولم تكن وسيلة لشىء أكبر منها وأعظم واخلد .

ومن اتصال الدنيا بالآخرة يؤمن المسلمون بعقائد فهموها على احسن وجوهها ، فعلمتهم المخاطرة ، وغرست فيهم حب المعرفة ، وزينت لهم النظر فى انفسهم ، وفى الآفاق وفى الكون « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم » (١) .

تعلم المسلمون من كون دنياهم طريقا الى آخرتهم ، عقيدة التوكل ، فقد جاء فى القرآن الكريم : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ، « وانى توكلت على الله ربى وربكم » ، « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال الرسول : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تروح خماصا وتعود بطانا » (٢)

---

(١) فصلت : ٥٣ ..

(٢) اورد هذه الايات والاحاديث الشيخ عبد العزيز جاويش فى « الاسلام دين الفطرة والحرية » ص ٨٠ .. وعلق عليها ..

وقد سبق ان قلنا ان معنى هذه الآيات والأحاديث هو ما قررته الآية الكريمة : « قل يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ومعناها ان المؤمن لا يفسح مكانا للخوف والاجفال ، والتردد عن السعي والحركة والمثابرة ، والاجتهاد ، والانتقال من مكان الى مكان ، ومن بلد الى بلد ، ومن مواجهة الظالم ، ومن الدعوة الى الخير ، ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن ما يصيب الانسان ، أمر تقرره قوانين الكون المستقرة الثابتة .

ولعل اكبر ما يخافه الناس هو الموت .. وقد قال الله تعالى : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » (١) . « قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل » .

وقال تعالى : « قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم » (٢) . « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذى كتب عليهم القتل (٣) الى مضاجعهم » ، « لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزى ، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت » .

فالدين اذن يدعو الى التوكل ، ويدعوا الى شيء أوضح منه ، وهو انه لا مبرر للخوف من الموت ، أخطر المخاطر ، وأكره ما يكرهه الانسان ، اذ لا سبيل الى الفرار منه . واذا نزع دين من قلب انسان الخوف من الموت ، فقد ملأه بشجاعة لا حد لها ، ودفعه الى حياة ملأتها المجازفة من أجل أسمى الغايات وأعلاها ولهذا قد حق أن يوصف المسلمون المؤمنون بما وصفهم به

(١) النساء : ٧٨ (٢) الجمعة : ٨ (٣) آل عمران : ١٥٤

القرآن بأنهم : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

فاذا كانت عقيدة التوكل التى كانت احدى قواعد البناء الأخلاقى والروحى فى الاسلام ، قد مسخت ، فادت الى عكس ما قصد بها ، فليس ذلك عيب العقيدة وانما هو عيب الذين يتلقونها الآن بقلوب مريضة ونفوس ضعيفة ، لا تستجيب للعلاج ، ولا ينفع فيها الدواء ، لأن ما اجتمع فى أبدانها من الأمراض والعلل والجراثيم اقوى من ان يقضى عليه الدواء وحده ، اذ لا بد الى جانب الدواء ، تجديد الهواء ، ومضاعفة الغذاء ، وتغيير المكان ، وعزل المريض عن الذين يخالطونه ، لكيلا يلحوا عليه بترديد الاوهام التى تجعله أضعف ايمانا بالطبيب وبالدواء .

وجملة القول ان اتصال حياة المسلمين بآخرتهم رفع من شأن حياتهم ، واسبغ عليها من السمو والرفعة والنظافة والأناقة ، والنظام والاتساق ، ما تسبغه المثل العليا على المتمسكين بها ، والعاملين لها . ونفى عنهم العاهات النفسية ، والآفات الخلقية ، وأعفاهم من الدنايا والمهاترات التى يتردى فيها أبناء المجتمع الذى لا يعرف الا الاغراض الفردية ، والدوافع الشخصية ، والتكالب على المال ، والتنافس الحاد العنيف من أجل السلطة والجاه .

اصبحت حياتهم جميلة يؤنسها أمل ، ويضيئها مثل ويتوجها هدف ، لذلك استطاع المسلمون أن يكونوا علماء يكشفون حقائق الكون ، يؤلفون ويترجمون ، يعطون ويأخذون ، ويجمعون بين ما يأخذونه ، وبين ما يوفقون اليه ، فيخرجون حضارة عربية ، طابعها

انسانى ، وجوهرها عال .

ثم يزودون بالشجاعة فلا يكفون عن مواجهة المخاطر، يخوضون مجاهل البحار والبقـــاع ويخضمون أمواج المحيطات لسفنهم وأساطيلهم ، ويحسون أن هذا العالم قد سخر لهم حقا ، وانهم مدعوون دوما الى الاتصال به والنظر فيــــه ، فأجابوا الدعوة ، وغدوا للأمم قادة وروادا ، وما زال مثلهم يوحى الى النفوس بالايمان والسعى الجميل من أجل أعلى المثل وأبعد الغايات .

قال العلامة درابر (١) : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتـــلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية . أى بعد موت محمد بست سنوات ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الـكتب العلمية اليونانية ، وقدروها قدرها الصحيح » .

الى أن قال : « ولما ولى الخلافة ابو جعفر المنصور فى سنة ٧٥٣ الى سنة ٧٧٥ ميلادية نقل عاصمة الملك الى بغداد وجعلهـــا عاصـــمة فخمة ، ثم بدأ فى نشر العلوم الفلـكية وتأسيس مدارس الطب والشريعة . ولما تولى حفيده هارون الرشيد سنة ٧٨٦ ميـــلادية اقتفى أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر باضافة مدرسة الى كل مسجد فى جميع أرجاء ملـكه ، ولـكن عصر العلم الزاهر فى القارة الاسيوية لم يشرق الا فى خلافة المـأمون الذى تولى الخلافة ســنة ٨١٣ حتى سنة ٨٣٢ ميلادية ، فانه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع اليهـا كتبا لا تحصى ، وقرب اليه العلماء ، وبالغ فى الحفاوة بهم .

هـــذا هو الذى قاد العـــرب الى أن يكونوا أول

(١) الاسلام دين الهداية والاصلاح ـ طبعة دار الهلال ـ ص ١٧٢

الواضعين لعلم الـكيمياء والمستكشفين لعدة أجهـــزة للتقطير والتصعيد والاسالة « اسالة الجوامد » والتعبئة .. الخ ، وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلـكية الآلات المدرجة والسـطوح المعلمة والاسطرلابات « آلات القياس لابعاد الـكواكب » وهو أيضا الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الاوزان النوعية للأجســام والازياج الفلـكية ، وجداول تعرف بها حركات الـكواكب مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقنـــد ، وهو أيضا الذى حقق لهم القدرة الباهرة فى الهندسة ، وحساب المثلثات ، وهو أيضا الذى أدى لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الارقام الهندسية .. هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب ارســطو الاســتدلالى على مقالات افلاطون الاستنتاجية .

ولقد دأبوا على جمع الـكتب بصفة منتظمة وتكوين المـكتبات التى تكلمت عنهـــا ، الى أن قال : « وقد اشتملت مكتبة خلفاء الاندلس على ستمائة ألف مجلد وكانت قائمة اسمائها وحدها واقعة فى أربعة واربعين مجلدا ، وغير هذا ، فقد كان بالاندلس سبعون مكتبة»

ثم قال : « أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة اساتذة الجامعة ان يؤلفوا كتبا فى الفروع العلمية التى تطلب منهم ، وكان لـكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه . ولقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم ، كالتاريخ والشريعة ، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وتراجم الخيول ، والابل .. كل هـذه المؤلفات كانت تنشر بلا رقابة أو حجر » .

مستقبل التشريع الإسلامي

منذ اليوم الاول ، والرسول بين ظهرانى المسلمين فى المدينة وباب الاجتهاد فى الاسلام مفتوح ، والدليل على ذلك حديث الرسول مع معاذ بن جبل حينما ولاه قضاء اليمن ، فقد سأله : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟ قال معاذ : « أقضى بكتاب الله ، فان لم أجد فبسنة رسول الله ، فان لم أجد أجتهد رأيى » . وقد فرح الرسول بهذه الاجابة اذ وفق أصحاب رسول الله الى مايرضى الله ورسوله . فالشريعة الاسلامية وهى فى مطالعها تؤمن بالرأى ، وترحب به ، وهو الاجتهاد ، والاجتهاد حتى فى تعريف علماء الأصول به ، هو بذل الجهد للوصول الى الحكم الشرعى العملى من دليله التفصيلى او هو بذل الجهد للوصول الى الحكم فى واقعة لا نص فيها بالتفكير واستخدام الوسائل التى هدى الشرع اليها للاستنباط بها فيما لا نص فيها (١) .

وقد اجتهد الرسول ، واجتهد الصحابة ، وقد عرفنا أن الرسول أمر بعدم اقامة الحدود فى السفر ، اى فى فترة الحرب مع أعداء الاسلام ، ورأينا كيف أن عمر اجتهد ، فعطل حد السرقة فى واقعة غلمان عبد

(١) مصادر التشريع الاسلامى فيما لانص فيه ـ ص ٧ ـ عبد الوهاب خلاف ..

الرحمن بن حاطب ، كما أوقف حد السرقــة فى عام المجاعة ، وأوقف حكم المؤلفة قلوبهم القاضى باعطائهم نصيبا فى الصدقات ، وهو النصيب الذى كان يعطيهم اياه الرسول ، ثم أعطاهم اياه أبو بكر ، ثم منع زواج المسلمين من الكتابيات مسيحيات ويهوديات مع جوازه شرعا ، وقد سعر الخلفاء والصحابة وتابعوهم ، وقد رفض الرسول أن يسعر أثمان الحاجيات .

ثم أن عمر بن الخطـــاب رضى الله عنـــه كتب الى أبى موسى الاشعرى : « اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عندك » وهو عماد القائلين بقياس الاحوال التى لم يرد فيها نص فى الكتاب والسنة ، على الاحوال التى ورد فيها النص ، عند تشابه العلة فى كليهما .

وعرفنـــا كيف عمل الصحابة والتابعون وتابعو التابعين على مواجهة الاحوال والامور التى لا تتنـاهى بالنصوص التى تتناهى ، بعد أن زودت هذه النصوص بما منحها الحيوية ، فاتسعت ، ومرنت ، واعطت من الاحكام ما كانت تعجز عن اعطائه ، لو أنها بقيت جامدة لم يذهب عنها جمودها الاجماع والقياس ، ومصـــادر الشرع الاخرى كالاستحسان والمصالح المرسلة .. الخ

ثم أصاب المسلمين ما أصابهم ، فذهب سلطانهم ، وجمد علماؤهم ، وانقطعت صلتهم بأجدادهم فأصبحوا اذا قراوا القرآن لم يفهموه ، وان فسروه ملأوا تفاسيرهم بالخرافات ، والخزعبلات ، والاكاذيب ، حتى أضحكوا عليهم الكبار والصغار ، ولم ينصرف عنهم الناس فى بلاد الاسلام وحدها وضعف شـــأن الاســـلام فى نظر الاجانب .

ثم أصبح معروفا ، متداولا ان باب الاجتهاد قفل ،

وراح الناس يتساءلون : من الذي أغلقه ؟.. ولماذا أغلق وهل من سبيل الى فتحه من جديد ؟ ..

والواقع انه لم يغلق ، ولكن المسلمين أنفسهم ضعفوا ، فطالت مهانتهم ، وانقطعت وسائلهم عن الحياة ، وقنعوا بدور التابع والمقلد ، على الرغم من كثرة ما دعاهم القرآن الى التفكير والنظر فى شئون الكون ، وفى أنفسهم ، وعلى الرغم من كثرة ما ندد بالذين يقلدون ويعتزون بما لديهم ، مهما عرض عليهم خير منه ، ومهما بلى فى أيديهم ورث وتعفن .

فالذى ادال على المسلمين واضعفهم ، وملأ قلوبهم بالخوف من الدنيا ، وحبب اليهم ايثار العافية ، واتقاء الابتكار ، والمجازفة ، وأحال عندهم التوكل على الله ، والايمان بأنه لن ينفعهم الفرار ولا الخوف الى تواكل زرى ، هو الذى أغلق باب الاجتهاد ، لان الاجتهاد كما يدل عليه اسمه ، يحتاج الى ارادة تريده ، والى عقل يتأمل ويفكر ، والى نفس تحس وتقبل على ما يعرض عليها ، اقبال الفاحص والمدقق ، ولا شىء من هذا عند أمم ضربت عليها الذلة ، وركبها أعداؤها ، فكبلوا أول ما كبلوا عقلها ، ثم شلوا ارادتها ، ثم عقدوا قلبها ، فأصبح أبناؤها كالخشب المسندة (١) .

---

(١) قال الشيخ عبد الوهاب خلاف ــ فى بيان أسباب جمود الشرع الاسلامى ــ فى كتاب مصادر التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه ــ انه ينظم التشريع الاسلامى باختيار جماعة من المشرعين يكونون مصدر التشريع ولا باختيار مجموعة من احكام الاجتهاد، تكون قانون المسلمين وبهذا الاهمال جمد التشريع الاسلامى ووقف عن مماشاة الزمن ومن التطور بتطور المسلمين ، وزاد هذا الجمود تحجرا ان علماء المسلمين رسموا الاجماع بصورة لاسبيل الى ان تتحقق فى الوجود ، وسموه بانه اتفاق جميع المجتهدين فى الامة الاسلامية ، بعد عهد الرسول على حكم شرعى وقرروا أن الاجماع لا يتحقق الا اذا عرف الجميع ــ

استمروا على هذا المنوال حتى بدات فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين حركات التحرر ، فبدأ الحكم الاجنبى يثقل على المسلمين ، وأخذوا يعالجون هذا العدو ليتخلصوا منه . فلما عادت اليهم الرغبة فى القتال ، أخذت دماؤهم تتحرك فى عروقهم بعد ركود ، فاشتد نبض قلوبهم ، فاذا عيونهم ترى أبعد مما كانت ترى ، وآذانهم تسمع أدق مما كانت تسمع ، وتغير طعم الحياة فى أفواههم ، فحلى ما كان مرا ، وقبح ما كان حسنا ، وفى هذه المرحلة ، الح عليهم الشوق الى ما خلفه لهم الآباء ، فعادوا يقرأون بعض هذه الذخائر التى طمرها التراب وأكل أكثرها دود الاهمال والنسيان ، فأدركوا أن تحت الارض التى يمشون عليها ثروات ، لو أخرجوها ، لاستبدلوا بالمزع التى يلبسونها ، ثيابا أنيقة ، ولتحولت الاعواد الخشبية التى يحملونها الى سيوف تقطع ، ورماح تخز وتخيف .

ولذلك فقد علا تساؤلهم : من الذى أغلق باب

= المجتهدين من المسلمين فى العالم الاسلامى واحصوا؟ وابدى كل واحد منهم رأيه بصراحة فى الواقعة المعروضة وعلم رأى كل واحد منهم ، وعلم ان كل واحد منهم اصر على رايه الى أن تم ابداء كل احد رايه وكانهم ارادوا اجماعا عالميا ، فطمياق الحكم الذى ينعقد لا ما أراده الرسول حين قال لعلى أجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولاتقضوا فيه برأى واحد ، فهو انما اراد ان يكون الرأى للجماعة لا للفرد . ثم قال : فالاجماع الذى رسموا صورته اجماع فرض وهو غير الاجماع الذى انعقد فى عهد الصحابة ، ولذا قال فريق من العلماء انه غير ممكن انعقاده وما انعقد فعلا حتى بالغ بعضهم وقال أنه غير ممكن عقلا اى لا يتصور فى العقل صورة وجوده ، ولعل هذه الصورة غير الحقيقية هى التى رآها من توهم جمود مصادر التشريع ») وما يراه الاستاذ عبد الوهاب خلاف سببا لجمود التشريع الاسلامى ، نراه نتيجة للحالة التى وصل اليها المسلمون سياسيا اولا ثم اجتماعيا

الاجتهاد ؟ .. ولماذا أغلق ؟.. وكيف يفتح ؟ ..

واستطيع أن أقول ان هذا الباب الذى كان مسدودا قد أصبح مواربا ، ولأنه باب ثقيل ضخم ، ولأن مزاليجه علاها الصدأ ، فأصبحت ادارته وتحريكه عبئا أى عبء فان فتحه سيستنفد وقتا ، وسيستهلك جهدا ، ولكنه سيفتح .

وعندما يفتح ، ستعود الحياة الى الشرع الاسلامى ، فيتحرك بعد جمود ، وسيكسب فى كل خطوة يخطوها ، عزما على البر ، وثباتا على الطريق ، وايمانا بالحركة والحياة .

ولعل أى مكابر ، مهما اشتدت مكابرته لا يمكنه أن ينكر أن ما كتب عن الشريعة الاسلامية ، وفقهائها ، ومجدديها ، وأصولها ، وأبوابها المختلفة من معاملات ، وجنايات ، وعن تاريخ صاحب الشريعة وتاريخ أصحابه ، وتابعيهم ، قد فاق فى الخمسين سنة الاخيرة كل ما كتب فى الخمسة قرون السابقة على زماننا وايامنا .

لقد عاد الناس الى معينهم القديم . صحيح انهم عادوا على استحياء ، ولكنهم سيألفون ماءه وسيعرفون الطريق اليه ، ويردون اليه وسيصدرون عنه ، وسيمهدون فى الذهاب والاياب طرقا تسلكها أقدام غيرهم وغيرهم ..

وستكون نهضتهم الحقيقية عندما يطيلون النظر فيما كتبه أجدادهم ، وتطول قاماتهم ، وتتسع صدورهم ، وتشتد سواعدهم ، حينما ينهلون من هذا النبع القديم بالقدر الذى تكمل به الصحة وتعود معه العافية ، ويزول المرض . فما صلح حال أمة ، ولا قامت فيها

نهضة ، ولا اصبحت مشرق نور ، أو مصدر حضارة ، الا عندما تعود الى ماضيها ، وتأخذ منه ، وتنفض عنه الغبار ، وتوائم بينه وبين الحاضر. لا تأخذه على علاته ، فالله وحده هو الذى يبعث الموتى ، وهو وحده الذى يحيى العظام وهى رميم . صحيح ان علمنا القديم ، وعلمنا الأقدم ، ليسا عظاما ، ولاشيئا شبيها بالعظام ، ولكنه على أية حال ليس بعلم اليوم وان كان هو أساس علم اليوم فهو نقطة الابتداء التى لا سبيل الى تجاهلها بحال .

وفى كلمة ان مستقبل الشريعة الاسلامية ، هو مستقبل المسلمين . فان حلت عقدة الكفاح عند المسلمين ، وعاودهم اصرارهم على التحرر والتقدم والبناء ، زادت الشريعة الاسلامية وضوحا، وزاد دورها فى حركة البعث بروزا ، ولما كانت الحياة الانسانية نسيجا مركبا تصبح الاسباب فيه نتائج ، والنتائج أسبابا ، فان الشريعة الاسلامية ، بقدر ما ستكسب من حركة التحرير والمقاومة ، ستعطى هذه الحركة زادا ووقودا .

ولن تستطيع الشريعة الاسلامية أن تحتل مكانها وحدها اللائق بها ، فى حياة المسلمين ، بكل ماتحتويه من كتب تفسير وكتب فقه ، وموسوعات كبيرة فى الاصول ، وفى غيره ، الا اذا سبق الاحتفال بالشريعة ، ومهد لها الاحتفال بالتراث الاسلامى والعربى كله ، من أدب وشعر ، وتاريخ ، وعلوم ، وفلسفة . فهؤلاء جميعا اخوات فى عائلة واحدة ، يمشين معا ، ويتقدمن معا ، ويتأخرن معا .

وعندما تصفو حركتنا من الشوائب التى تشوبها وهى شوائب تخلفت من فترات الانحلال ، وفترات

التهيؤ للمقاومة التى تنازعت نفوسنا خلالهـــا ، دوافع القوة وعوامل الضعف ، فان الاقبال على هذا التراث وادراك قيمته ، ستصل الى الغاية .

واذا كان لى أن أقترح شيئا فى هذا الصدد ، فهو الاسراع بتقديم التراث الى شبابنا فى المدارس مشروحا ومعلقا عليه ، وملحقا بالفهارس ، وبالمقدمات التى تقدم صاحب المؤلف ، وتاريخه ، وقصة عصره وتحلله .

وبتقرير ما وضعه علمـــاؤنا المعـــاصرون فى أبواب الشريعة الاسلامية المختلفة على طلبة كليات الحقوق ، بوصف تلك المؤلفات ، مادة أساسية ، واشهد أن بعض هذه الكتب فى التشريع الجنائى وفى العلاقات الدولية ، وفى المعاملات ، حقق أكثر مما كنا نرجـــوه من هؤلاء العلماء فى خدمة الشريعة وتقريبها لأولادنا ، وتيسيرها عليهم .

ان هذا العبء ، عبء تنقيح أمهات الـكتب الاسلامية والعربية والموسوعات الكبرى التى تركها الآباء والأجداد فى كل فرع من فروع المعرفة الانســـانية بما فى ذلك الرياضة ، والفلك ، والطب ، والطبيعة ، والكيمياء ، والجغرافيا ، وتحقيقها ، وتبويبها ، ودراســـتها ، والمقارنة بين نسخها المختلفة فى أمكنتها المتعددة ، هو العمل الذى يجب أن يبذل له اســـاتذة كليات الازهر اعظم الجهد واكبره ، ولا زلت أرى ان طلبة المعاهـــد الازهرية الثانوية ، يجب أن ينقسموا الى طلبة علوم وطلبة آداب لـــكى يســـتطيعوا ان يحيطوا بكتب العلم والادب التى يحتويها التراث الاسلامى ، ليقدموها لنا وللعالم فى صورة ما يقدمه المستشرقون لنا اليوم من هذا التراث ، هؤلاء المستشرقون الذين كبر دينهم فى

أعناقنا لطول ما أهملنـــا ثرواتنا ، وتخلفنـــا عن أداء الواجب .

على ان الذى أستطيع ان اقطع به ، دون مبالغة فى التفـاؤل ، ان الشريعة الاسلامية ، ستستعيد كل ما فقدته ، وانها ستكون اساسا من أسس حياتنا الفكرية ومن بناء مجتمعنا الجديد ، اذا كتب لنا أن نستأنف حياتنا ، كأمة تخلق المدنيات والثقافات ، وتنبى عليها الحضارات .

واحسب اننا فاعلون ، وفى القريب ، أقرب ما تظنون

... والحياة

جريمتان

جريمتان تقع كل منهما فى شهر ابريل ، وتقع كل منهما على افريقى ، وتقع كل منهما بسبب واحد . فكانهما جريمة واحدة والمجنى عليه فيهما واحد . ومع ذلك فانه يفصل بين موقع الجريمتين آلاف الاميال ، كما يفصل بين موعد ارتكابهما آلاف الايام ، فقد وقعت اولاهما فى السابع عشر من ابريل سنة ١٩٥٧ فى مقديشيو عاصمة الصومال بأفريقيا وارتكبت الثانية سنة ١٩٦٨ فى مدينة ممفيس فى ولاية تنسى بأمريكا ، وقد ذهب ضحية الاولى السفير المصرى محمد كمال الدين صلاح ، وذهب ضحية الثانية الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج قتلتهما يد واحدة بسلاح واحد وان كان كمال قد طعن فى ظهره من الخلف بخنجر وكان اغتيال كنج ببندقية حديثة مزودة بمنظار مقرب . ولكن القاتل فى الحالتين كان الاستعمار الذى يكره الافريقيين والآسيويين ، وكل الشعوب التى فرض عليها الفقر والجهل والتخلف أن تحطم سلاسلها ، وأن تعوض على نفسها ، ما فات من أيام وسنين .

ذهب الدبلوماسى المصرى محمد كمال الدين صلاح الى مقديشيو عاصمة الصومال ليمثل مصر فى المجلس الاستشارى التابع للأمم المتحدة فقد فرض ميثاق

المنظمة العالميـة على الدول التى تدير مستعمرات أو اقاليم غير متمتعة بالحكم الذاتى ، وصاية ، لـكيلا تضع الدول الاجنبية الحاكمة عقبات فى طريق تقدم واستقلال الشعوب المحكومة ، ولـكيلا تعاملها معـاملة غير لائقة بالجنس البشرى وكرامته .

خاض كمال معارك مع الاستعمار طويلة ومريرة ، ولم يكن خصومه هم الادارة الايطالية وحدها فقـد انضم اليها البريطانيون ، وكانوا يطمعون فى أن يضـموا الى الـكومنولث البريطانى دولة ذات موقع فريد تطل على المحيط الهندى وتحرس مدخل البحرالاحمر الجنوبى ، وكان الامريكيون يطمعون فى أن يبسطوا نفوذهم هنالك ، لما فاحت رائحة البترول فى منطقة تفصـل الصومال عن الحبشـة . اجتمع الغرب كله على كمال ، ولـكنه لم يحفل بهذا التحالف غير المقـدس ، وراح يحارب بثبات وهدوء ، أعداء استقلال الأمم وتقدمها. وثار يوما ثورة هائلة لأنه لاحظ ان ادارة البريد الايطالية خصصت نافذة لتوزيع بريد الاوربيين ، وخصصت نافذة أخرى فى مكان حقير لتوزيع بريد الافريقيين ، فاعتذرت الادارة ووحدت النافذة . لاحظ ان الاستعمار يروج لفـكرة نشوء دولة اتحادية فى الصـومال أى دولة مكونة من ولايات ، فسافر آلاف الاميال ليخطب فى زعماء القبائل وفى الشعب محذرا من الانسياق مع هذه الفكرة التى كان يراد منها تفتيت وحدة الصومال ، فقبرت الفكرة فحاول الاسـتعمار أن يغرى الصوماليين بأن يخلقوا لانفسهم من لهجاتهم المحلية غير المكتوبة ، لغة يكتبونها بالحروف اللاتينية ليصرفوهم عن اللغة العربيـة التى يحسن معظم الشعب التكلم بها ، فحارب كمال هـذا

الاتجاه المدمر ونجح فى ان ينص فى دستور الصومال على ان اللغة العربية هى اللغة الرسمية للصومال ، لم استقدم من مصر علماء الازهر والمدرسين ، وخبراء الزراعة والاقتصاد ، وانشأ المراكز الثقافية فانتشر نور العلم والوطنية معا ، فكان على الاستعمار أن يتخلص من كمال فحرض شابا ملتاثا على اغتياله ونفذت الجريمة فازداد الصوماليون ايمانا بما دعا اليه وعمل له كمال الدين صلاح ، واصبح عند الصوماليين واحدا منهم وزعيم حريتهم وبطلا من أبطال وحدتهم .

حدث ذلك كله قبل أن تخوض معركة افريقيا أولى مواقعها ، فكانت معركة مقديشيو فاتحة هذه المعركة النبيلة العظيمة التى توالى بفضلها استقلال الشعوب الافريقية الواحد بعد الآخر وكان لابد لهذا التحرر من صدى عند الزنوج فى امريكا فقد قال مارتن لوثركنج ان دول افريقيا تتقدم بسرعة جبارة نحو استقلالها . أما نحن فنتقدم بسرعة السلحفاة . وقال : « ان حركة التحرير الافريقية ايقظتنا من سباتنا وفتحت أعيننا على الآفاق العظيمة التى يمكن أن يرتقى اليها الاسود »

جريمتان فى الظاهر ولكنهما جريمة واحدة فى الواقع ، هى قتل كمال الدين صلاح فى الصومال ، وقتل مارتن لوثر كنج فى امريكا ، ولكنه قاتل احمق قصير النظر جاهل لانه لا يعرف ان من يعمل للحرية أو يعمل ضدها فانه يعمل لها .

نشيدنا القومى

من المشكلات التى حرت فى امرها ولم أهتد الى حلها مشكلة نشيدنا القومى لذلك آثرت ان أكل اليكم النظر فيها بعد أن أحدثكم قليلا فيما تثيره من الخواطر فى الرأس والنفس معا . لكل امة نشيد يحفظه أكثر ابنائها ويتعلمه الاطفال فى رياضهم ثم لا يجتمع عدد من المواطنين فى مناسبة قومية الا وختموها بهذا النشيد ، يرتلونه فى حماسة وقوة ، فيشعرون بالوحدة التى تربطهم وبالاخوة العامة التى تضمهم ، فيزدادون قوة ، ويزداد معنى الوطن وضوحا فى نفوسهم ، وتزداد الروح الجماعية تأصلا وثباتا ، واتساعا وغنى .

ولقد حاول المصريون ان يكون لهم نشيد فتنافس شعراؤهم الكبار والصغار فى نظم عدد من الاناشيد لم تكتب لها جميعا الحياة ، وان تفاوتت أعمارها فمنها ما مات قبل أن يولد ، ومنها ما كتب له أن يعيش زمنا قصيرا ، ومنها ما كان يموت ثم يبعث فتدب فى أوصاله بعض القوة ، ثم يعود الى الموت. ومن الشعراء من نظم أكثر من نشيد ، ومن الاناشيد ما تبنته الحكومات، ومنها ماتبنته الاحزاب ، وماتبنته الاحداث، ولكنها جميعا تساوت آخر الامر فى الحظ وتشابهت فى المصير ، وبقى المصريون بلا غطاء رأس يلبسونه ، وبلا

نشيد يرتلونه ، كما تفعل الامم والشعوب كافة .

واختفاء النشيد من حياتنا له آثار سيئة على تربيتنا القومية وعلى أذواقنا العامة ، ولـكنه الى جانب ذلك كله يسبب حرجا وضيـــقا لأولادنا حينما يتجاوزون حدود الوطن ويخرجون الى غير بلادهم من البلدان ، فكثيرا ما يطلب اليهم أن ينشـــدوا النشيـــد القومي فيسقط في أيديهم فيضطرون الى الاعتراف بالحقيقة المرة المخجلة حينا ، ويؤثرون الكذب حينا آخر على التسليم بأنهم بلا نشيد فيلقون اغاني الحب والهوى ، مستغلين جهل الاجانب بلغتهم وقد حدثني كثير من الاصـــدقاء انهم اضطروا في بعض المناسبات الى ترديد اغنيـــة :

« خد البزة واسكت » و « شـــم الـكوكايين خلاني مسكين » في حماسة يتفصد لها الجبين بالعرق وتنتزع التصفيق من الاجانب المخـــدوعين والمغرر بهم وقـــد لاحظت ونحن طلاب في الجامعة ان اخواننا في سوريا ولبنان والعراق اغنياء بالاناشيد وانهم لايفرغون من واحد منها الا ويبدأون في الثاني وهي اناشيد شائعة في أقطار العروبة الواقعة شرقي القناة ، واكثرها حظا من الذيوع نشيد « بلاد العرب أوطاني » ولكن لم يبرز من هـــذه الاناشيد واحد يسود عليها جميعا ويتفوق ، وينعقد له لواء الزعامة وهذا ما نريده ونطمع فيه .

ولست أدري ما سر فشل اناشيدنا ؟.. أهو ضعف الروح الجماعية واستبداد الروح الفردية ، أم هو سوء تربيتنا السياسية التي لم تكن تعنى بخلق الجماعات وبتهيئة الجو للعمل المشترك والتي لم تكن تؤمن بالجهد الجماعي الذي يصدر عن التفكير الجماعي أم ان مرد ذلك هو سوء تربيتنا الفنية ، فقد كنا ولا نزال نحب

الاغنية الفردية حبا استباحت معه كل وقتنا ، فالتهمته كله تقريبا . وفى الاغنية الفردية نسـتمع الى مطرب واحد يصول ويجول ، ويقطع أوصال الاغنية كما يشاء له المزاج ولا نرى جماعات تتنوع اصواتها من النساء والرجال وتتعاون فىأخراج عمل فنى واحد. ولذلك لما تاق المستمعون الى المشـاركة الفنية ، كانت هـذه المشاركة صراخا . فحفلاتنا الغنائية صراخ جميل من المطرب يقابله صراخ قبيح من المستمعين ، وهذا الصراخ الذى يصدع الرؤوس ويبدد قوى المتبرعين به ، هو النشيد الوحيد ، الذى نحسنه ، وسيبقى نشـيدنا الوحيد حتى يتم تغيير أسلوب العمل السياسى ، وحتى نتدارك تربيتنا الذوقية بما يجعل للأعمـال الفنيـة الجماعية نصيبا كبيرا الى جانب الغناء الفردى الذى يحتكر نشاطنا الفنى .

البترول وحضارة العرب

لاشك فى ان بعض الارقام يكون أفصح وأبلغ ابانة من كتاب ضخم أو مقال طويل ، وان كان بعض الارقام خادعا ومضللا فقد تحسب مثلا ان دولة من خمسين مليونا أقوى دائما من دولة من خمسة ملايين فقط وليس هذا صحيحا على ما تظهره لنا حقائق التاريخ القديمة والحديثة .

ولكن من الارقام ذات الدلالة الفصيحة التى لا تكذب ما نشر أخيرا عن أرصدة البترول فى العالم مقارنة بأرصدة البترول فى الشرق العربى . تقول هذه الارقام : ان ما يستهلكه العالم يوميا من البترول هو ٣٦ مليون برميل فيكون ما يستهلكه العالم سنويا ثلاثة عشر بليون برميل ، اى ثلاثة عشر الف مليون . ولما كان الموجود الآن على وجه التحقيق من البترول فى باطن الارض أى فى الآبار التى كشف عنها فعلا ويستخرج منها البترول هو ٤١٧ بليونا من البراميل فيكون الرصيد الحالى من البترول كافيا لسد احتياجات العالم منه لمدة اثنتين وثلاثين سنة ، ولكن أهم رقم فى هذه الاحصائية هو نصيب الشرق العربى الاسلامى ــ الذى نسميه بالشرق الاوسط ــ من هذا الرصيد وهو ٢٨٤ بليونا من البراميل ، اى ٥٩ ٪ من رصيد البترول فى

العالم بأسره فى حين ان ما تملكه افريقيا من هذا الرصيد هو ١٠ ٪ وهو نفس نصيب امريكا منه .

ولقد تعبت من كثرة ما قلت ان وجود البترول بهذه الكميات الهائلة فى بلاد العرب ، شرقى القناة وغربها ، لا يمكن ان يكون ظاهرة جغرافية بحتسبة او حقيقة اقتصادية صرفة ففي هذه المنطقة من العالم تلتقى أوربا بآسيا بافريقيا ، وفيها مفاتيح البحار التجارية الكبرى الابيض والاحمر . وقد ولد فى نفس المنطقة من قبل موسى وعيسى ومحمد ، وعلى أرضها دارت أكبر المعارك التى غيرت وجه التاريخ ، ولقد كررت هذا الكلام كثيرا حتى يصيبنى أحيانا بعض الخجل ، اذ اضبط متلبسا باعادته وتكراره ، وانا لا أكرر هذه الحقائق لمجرد ارضاء شعورى الخاص بالزهو والفخر لانى أنتسب الى منطقة يحبها التاريخ حبا جما ويؤثرها على غيرها ، فيجرى على أرضها وفوق ساحتها ، وعند شواطىء بحارها وانهارها أكبر أعماله الحضارية ، بل لانى اريد أن أحرك فى نفوس أهلها شعورهم بالمسئولية وادراكهم لدورهم الحضارى ، فأنا أحزن كثيرا حينما أرى ان بعض أهل هذه المنطقة يعتبر المثل الاعلى ان ننقل الينا الدولة العصرية الحاضرة بكل عيوبها وأخطائها وبكل قصورها وعجزها الروحى ، وبكل مظالمها وموبقاتها العقلية والنفسية مع ان أهل أوربا وامريكا لا يلقون من هذه الدولة الحديثة الا الشقاء والهموم ، ولعلهم يتمنون لو امتدت اليهم يد لتخرجهم من هذه الرمال الناعمة التى غاصت فيها اقدامهم فلم يعد فى مقدورهم ان يخرجوا منها . والذين يستطيعون أن ينشئوا مثالا آخر للدولة وصورة جديدة للمجتمع ، شعوب لها مثل

تجاربنا الحضارية الرفيعة ، ولها أسسنا الروحية التى آمن بها العالم ، وحرص عليها ثم دهمته حضارة البخار والكهرباء والذرة ، حضارة المدفع والصاروخ والقنبلة الهيدروجينية ، فزلزلت نفسه زلزالا فزاغت بصيرته وكفر بكل شيء وبنفسه قبل كل شيء ، ولكن أهل المشرق مطبوعون ، ككل البشر ، على حب تقليد الاقوياء فهم يحسبون انهم لو قلدوهم لاصبحوا فى مثل قوتهم والحقيقة ان هؤلاء الذين نحسبهم أقوياء ليسوا بالقوة وبالقدر الذى نتصوره .

الحقيقة أيضا اننا نستطيع أن نخدمهم ونخدم انفسنا لو تعلمنا علمهم ولم نرفع اعيننا فى الوقت نفسه عما يحتويه تراثنا الروحى والفكرى من ذخائر .

فوجود البترول لدينا ليس مجرد وجود وقود فقد كانت قطرة البترول فى الحرب العالمية الاولى ، توصف بانها كقطرة الدم ، والآن يمكن أن يوصف البترول فى كلمة واحدة هى الحضارة . فالبترول هو الحرب والسلم ، لانه الصناعة والزراعة ، والتجارة والطباعة ، والصحافة والسياحة ، والغذاء والكساء ، ويزداد اعتماد الناس عليه يوما بعد يوم فقد كان استهلاك العالم اليومى من البترول منذ عشر سنوات ١٧ مليونا من البراميل فأصبح استهلاكه اليوم ٣٦ مليونا ، ونحن ننتج فى الشرق العربى من هذه الملايين نحو عشرة ملايين برميل فى حين تنتج الولايات المتحدة اقل من تسعة ملايين . فالمنطقة التى منحت العالم أكبر الضياء روحيا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة تعود فتمنحه الضياء ماديا . فهل ندرك ما فى هذا من ايحاء وهل نستعد له ونتهيأ للقيام بتبعاته ؟ ..

بطلان مجهولان

لا اذكر اثنين من ابطالنا الذين غمطنا حقهما وجحدنا فضلهما ، ونسينا ما طوقا به عنق الوطن من أياد ، حتى أشعر بألم مضن .

اول البطلين الاميرالاى أى العميد محمد عبيد بطـل الثورة العرابية ، وثانيهما هو عبد الرحمن فهمى بطل ثورة سنة ١٩١٩ .

كان محمد عبيد بطل أولى واقعات ثورة سنة ١٨٨٢ ولو لم يقم بهذا الدور مستهدفا الخطر شجاعا حازما حاسما ، لتغير وجه التاريخ .

ولعلنا نذكر أن زعماء الثورة الثلاثة : عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى ، قدموا عريضة الى وكيل وزارة الحربية طلبوا فيها عزل وزير الحربية حينذاك عثمان رفقى الذى كان شركسيا أخذ على عاتقه محاربة المصريين فى الجيش والحيلولة دون ترقيتهم الى الرتب العليا ، ليبقى الجيش المصرى حكرا للأتراك والشراكسة وغيرهم ، فلما عرض وكيل الحربية ـ حينذاك ـ العريضة على رئيس الوزارة رياض باشا ، أبدى رغبته فى أن يرى الزعماء العسكريين الثلاثة ، ثم انعقد مجلس النظـار (الوزراء) برئاسة الخديو توفيق ، وانتهى الرأى بناء على اقتراح عثمان رفقى وزير الحربية ، الى وجوب

اعتقال عرابي وزميليه ومحاكمتهم والحكم عليهم ، ولكن الحكومة كانت أضعف من أن تضطلع بعمـــل متسم بالشجاعة كهذا العمل لذلك احتالت على تنفيذه فأرسلت تدعو الزعماء الثلاثة الى مقر وزارة الحربيـــة وكانت حينذاك في ثكنات قصر النيل التي أزيلت وبنى مكانها فندق هيلتون وقصر الجامعة العربية وادعت الوزارة أن سبب الدعوة هو التحضير لزفاف شقيقة الخديو ، ولـكن ترامى الى علم الزعماء حقيقة الدعوة ، فاتفقوا مع زملائهم من الضباط ، أن يراقبوا مبنى الوزارة وما سيجرى فيه ، ولما وصل عرابي وزميلاه الى الوزارة ، ألفوها غاصة بالضبـاط الموالين للحكومة ، وما كادوا يضعون هناك أقدامهم ، حتى وقع عليهم الاعتقـال ، ونزعت منهم السيوف ، وسيقوا الى السجن ، وسمع الاميرالاى محمد عبيد بهذا فدعا في التو الضباط والجند الى الاحتشاد فاعترضه رئيسه فلم يحفل بالاعتراض وخرج بالآلاى الاول ، وهو آلاى حرس الخديو وأسرع الى وزارة الحربية ، وكان الخديو مطلا من شرفة قصر عابدين فرأى الاميراى محمد عبيد وهو يخرج من ثكنات الحرس المجاورة للقصر ، فأرســـل كبير ياورانه ليثنى البطل عبيد عن عزمه ، فنحاه جانبا وانطلق الى غايته كالسهم ، وحاصر مبنى الوزارة ببعض من كان معه من الجند واقتحم بابها بالباقي منهم وسمع عثمان رفقى وكبار الضباط بأمر هذه الغزوة فوثبوا من النوافذ ، التماسا للنجاة ، وكان من ضـــمن الفارين ، استون ولار وهما ضابطان كبيران من الاجانب ، وبحث عبيـد عن عرابي وأخويه فأفرج عنهم جميعا ، وأسرع الجند الى ميدان عابدين فتولى الفزع الخديو ، واستجاب في

الحال لطلب الزعماء ، فأقال رياض من رئاسة الوزارة وعزل عثمان رفقى من وزارة الحربية .

وقامت الحرب بين بريطانيا ومصر ودارت معركة التل الكبير فقاتل محمد عبيد قتالا مجيدا فى هذه المعركة على راس آلايين من الجنود وبقى يقاتل حتى فنى جنود هذين الاليين جميعا ، ثم استشهد هو وسيفه فى يده ، ثم لم يعثر له على جثة ولم يقم له قبر حتى اليوم .

اما عبد الرحمن فهمى فهو بطل ثورة سنة ١٩١٩ المجحود الفضل الذى كان سكرتير لجنة الوفد المركزية وقد وقع على كتفيه عبء قيادة الثورة فى أشق أدوارها الا وهو دور بدايتها الذى كان فيه زعماء الثورة فى أوربا وكانت الاحكام العرفية البريطانية معلنة وكان بطش الانجليز كأعنف ما يكون . وقد حدثنى المرحوم الاستاذ امين الخولى عما اظهره عبد الرحمن فهمى فى قيادته للثورة من شجاعة نفس ، ورباطة جأش ، وحسن تدبير ، وسهر على المعركة ، وغيرة على جميع الصفوف ، وتوفيق فى كسب ثقة الشبان واهتمام بحركة العمال ، ودفع للعمل السرى ، وقد لفقت له السلطة البريطانية قضية سميت قضية المؤامرة الكبرى واستمرت هذه القضية تنظر من يولية الى اكتوبر سنة ١٩٢٠ ، ثم صدر الحكم باعدامه وخفف الى الاشغال الشاقة .

اين الشوارع والميادين والمدارس التى تحمل اسم البطلين ؟.. أين النصب التى أقيمت تكريما لهما ؟.. اين التماثيل التى صنعت اشادة بفضلهما ؟ .. الا نخجل ونؤدى بعض الواجب لهما بعد طول نسيانه .

طرائف إدارية

قرات فى مجلة « الادارة الدولية » مقالا عن أحد كبار رجال الصناعة فى اليابان هو « ماتسوشيتا » والارقام والحقائق التى تذكرها المجلة عن هذا الرجل تدل على انه من اكبر رجال الصناعة فى بلاده فهو مؤسس ورئيس الشركة الصناعية الكهربائية اليابانية وحسبك ان تعلم ان هذه الشركة قد باعت فى السنة الماضية وحدها ما تزيد قيمته على ٨٢٣ مليونا من الدولارات ، وان صافى ربحها فى السنة ذاتها قد تجاوز الثمانية والثمانين مليونا من الدولارات لتعرف المكانة التى لابد أن تكون لهذا الرجل ، لا بين رجال الصناعة والاقتصاد فحسب بل بين بنى قومه كافة .

ولكنى لا اتحدث عن السيد « ماتسوشيتا » لانه يتمتع بهذه المكانة ، ولا لانه من رجال المال والصناعة الكبار ، ولا لأن أرباحه الصافية وحدها تزيد على ميزانية كثير من الدول ، وانما رشحه للحديث أن للرجل افكارا فى الادارة ليست طريفة فحسب بل وغريبة أيضا . فمن أفكاره مثلا انه يضع فى احدى القاعات بابا مغلقا شبيها بأبواب حجرات الرؤساء فى شركته ثم يسمح للعاملين فى الشركة فى وقت الاستجمام والراحة أن يطرقوا هذا الباب بأيديهم او بأى شىء آخر

تطوله أيديهم كقضيب من حديد مثلا ، وان يستمروا فى الطرق ما شاءوا ، تعبيرا عن الاحتجاج ضد أبواب الرؤساء المغلقة وضد القرارات التى تتخذ خلف هــذه الابواب .

ومن طرائف افــكار الســـيد ماتسوشيتا انه يأمر بصنع تماثيل لرؤســـاء أقسام الشركة وكبار أعوانهم تشبه هؤلاء الرؤساء تماما ، لا ينقصها الا الروح ، ثم تصف هذه التماثيل فى احدى القاعات لا تكريما لهؤلاء الرؤساء ولا اشادة بفضلهم ، أو تنويها بحسن أثرهم بل ان هذه التماثيل تعلق لتستباح حرمتها على أيدى العاملين الغاضبين على رؤسائهم ، اذ ان لهؤلاء العمال اذا شاءوا أن ينهالوا على تلك التماثيل صفعا وركلا حتى تهدأ نفوسهم الثائرة ، وتشعر أعصابهم بالراحة بعد ان تكون قد انتقمت لنفسها من الرؤساء المغضوب عليهم فى شخص تماثيلهم التى تشبههم . وقديما كان السحرة يفعلون شيئا كهذا . فمن غضب على أحــد يلجأ الى الساحر ، الذى يصـــنع لعدوه تمثالا يخزه بالدبابيس ويرشق فيه المسامير أو يحرقه ، ثم يذرو رماده فى الهواء ، فقد كان الناس يعتقدون ان ما يصيب الصورة يصيب صاحبها بعد حين . فما تزال فى نفوسنا رواسب من معتقدات أجدادنا والاعصــاب الهائجة فى حاجة الى ما يرفه عنها . لذلك فقد أعدت بعض مدن الملاهى قاعة توزع فيها على الراغبين فى الترفيــه عن نفوسهم أو التخفيف من ضغط تعانى منه أعصابهم ، أطباق من الصينى ليقذفوا بها الى جدار فتتحطم ويسمع لتحطمها دوى عنيف تطيب له النفس المتعبة وتشعر على أثره بالراحة .

ومن هنا نستطيع ان نرى ان السيد ماتسوشيتا قد علمته ملايينه التي جمعها من الصناعة شيئا كثيرا من عالم النفوس ، فادرك انه ان لم يهيىء للغضب المكتوم في نفوس مرءوسيه متنفسا ، ولو صناعيا ، وان لم يبدد أبخرته المحبوسة ولو بالاستعانة ، بالخيال والتمثال ، انقلب هذا الغضب الى قوة تدمر ، وتقتلع ، وتكتسح ، وتبتلع .

ان السيد ماتسوشيتا ليس رجل صناعة فحسب ، بل انه رجل سياسة أيضا ، فما أدركه هو يغيب عن كثير من رجال السياسة ، فلا يدركونه أبدا أو لا يدركونه الا بعد فوات الميعاد ، ولو وضع هذا الرجل المجرب كتابا يضم آراءه وتجاربه لكان كتابا نافعا ومسليا في آن واحد .

سطور خالدة

يقرأ الانسان آلاف الصفحات نثرا وشعرا فى مختلف الفنون ، وفى مختلف أدوار حيــاته من الطفولة الى الشيخوخة ، ولـكن تبقى سـطور بعينها فى ذاكرته تتقدم سواها وتأبىأن تتوارى أوتحتجب أوتترك مكانها لغيرها يحتله ويظفر به .

من هـذه السطور الباقية ما قرأته عن حادثتين : احداهما وقعت فى افريقيا وفى القرن التاسع عشر ، وثانيتهما وقعت فى أوربا وفى القرن العشرين ، ولـكن يجمعهما جامع واحد ستتبينه بنفسك حالا .

أما السطور الاولى فجرى بها قلم فنان ضابط كان من بين قادة حملة نابليون على مصر فى أخريات القرن التاسع عشر وصف بها كيف استقبل جنود جيش نابليون آثار الاقصر الرائعة حينما وصلوا اليها فى جيش أوفده نابليون ليطارد المملوك مراد بك الذى اتخذ من الصعيد قاعدة لقتاله مع الفرنسيين .

وصل الجنود الفرنسيون بقيادة الجنرال ديزيه الى الاقصر بعد أن لقوا فى زحفهم اليها عناء وشقاء ليس مثلهما عناء أو شقاء . فقد اجتمع عليهم حر الصعيد وعناء الطريق ، وقلة الزاد ، وأهوال الطاعون الذى يقصف العمر ، والرمد الذى يذهب بنور العـين ،

والحنين الى الوطن وضعف الامل فى النصر ، وانقطاع أخبار الاهل ، ولكن « دينون » كان فنانا وكان لا يكف عن رسم وتصوير ما تقع عليه عيناه من آثار بلادنا ولا سيما ما تركه المصريون القدماء منها . وقد كتب يصف شعوره وهو يرى آثار الاقصر : وحت والقلم فى يدى اجرى من أثر الى أثر وقد تجاذبتنى الروائع فيما بينها.

لم يكن لدى ما يكفينى من الاعين والايدى ، ولم تتح لى قوة عقل تعين على أن أرى ، وارسم ، وأصنف ، كل الذى رأيته وهزنى هزا . على انى أخجل من حقارة رسومى اذا قورنت بهذه الاشياء الرائعة التى حاولت تسجيلها

على انه وصف فى موضع آخر حال فرقته العسكرية اذ رأت نفسها فجأة أمام معبدى الاقصر والكرنك ، فقال : لقد توقفت الفرقة كلها عن السير مشدوهة وانطلق اعضاؤها يصفقون فجأة بلا تدبير سابق ، ثم أطلقوا بنادقهم للتحية ، كما انطلقت الطبول والابواق ، ان شعور الجنود فى هذه اللحظة كان كشعور رفاق المكتشف الاسبانى البحار بالبو عندما شاهدوا لاول مرة المحيط الهادى ، مع فارق هو ان بالبو ورفاقه ، خرجوا وغايتهم أن يصلوا الى المحيط الهادى فقد كانوا يرتقبونه ، اما طيبة ، وروائع الاقصر فلم يزحف جيش ديزيه من القاهرة الى الصعيد الاعلى بحثا عنها.

أما السطور الاخرى فقد جاءت من كتاب « الايام العشرة التىهزت العالم» وقد وصف بها صاحب الكتاب عودة الجنود الروس من فنلندا بعد أن قامت الثورة الشيوعية فى اكتوبر سنة ١٩١٧ . كان هؤلاء الجنود فى أسوأ حالات الجنود المحاربين : جياع لا يجدون ما

باكلونه ، عراة تمزقت ثيابهم ، وتعرت صدورهم ، وظهورهم ، فى برد كالجحيم لا يرحم فى حين برزت من احذية بالية ممزقة اصابعهم ، زرقاء تكاد تقع من شدة الضعف والصقيع المدمر الساحق . ولكن لم يكد هؤلاء الجنود الذين استحالوا أشباحا من الجوع والضعف والبؤس ، يصلون الى حدود بلادهم ، حتى اندفعوا الى مواطنيهم لا يسألونهم شيئا ياكلون او غطاء به يتدفأون أو شرابا يبقى فيهم الانفاس القليلة التى تتردد فى صدورهم التى برزت ضلوعها بل طلبوا شيئا يقرأونه .. نعم شيئا يقرأونه فقد طال انقطاعهم عن الوطن ومن اخبار الوطن فتاقوا الى صحيفة او كتاب .

الصورتان، وان باعد التاريخ والجغرافيا بينهما ، الا انهما صورة واحدة.. انه الانسان فى أشد حالات بؤسه وضعفه ومرضه ينتشى للمحة فن جميلة وينسى جوعه وعريه عندما يتجه بقلبه الى بصيص من المعرفة .. انه الانسان العظيم .

مظاهرات الطلبة

كانت الصحف الاستعمارية في بريطانيا تعيرنا ابان البعث الوطني بقيادة الزعيم مصطفى كامل ، بأن حركتنا الوطنية تقوم على اكتاف الطلبة يتصدرون صفوفها ويرفعون لواءها ، وكانت هذه الدوائر الاستعمارية

ترى في هذه الظاهرة دليلا على عدم نضجنا السياسي ، لأن الطلبة فئة لم تتم تعليمها ، وبالتالي لم يكمل نضجها ، فتصدرها لكفاحنا السياسي عكس على هذا الكفاح خصائص الطلاب النفسية والعقلية ، فقدمنا العاطفة على المصلحة ، والخيال على الحقيقة ،

والحماسة على الدراسة ، والعنف على الرفق ، ولم يكترث مصطفى كامل والذين جاءوا بعده من زعمائنا بهذا الارجاف لان حركتنا الوطنية التي كان الطلبة قوامها ضيقت الخناق على الاستعمار والبت الشعب بكل طبقاته عليه وعلى أعوانه .

والآن وبعد اكثر من سبعين عاما مضت على الايام الاولى لكفاحنا بعد الاحتلال البريطاني ، يجتاح العالم بأسره حركة احتجاج يقودها طلاب الجامعة ويدفعون بها الى كل المجالات في حياة شعوبهم ، ويعلنون بها سخطهم علي انظمة الحكم ومناهج التعليم ، وأسلوب الحياة وطرق التفكير . فلم تعد صحف هذه الدول

التي كان يطيب لها أن تلقننا دروسا فى السياسة تبدى تعاليا على حركات الطلاب ، ولم نسمع منها دعوة الى تجاهلها بل على النقيض من ذلك أفسحت صدرها لأنباء حركات الطلبة ، وراحت تحلل وتعلل اسبابها ودوافعها ونافستها فى ذلك دور الاذاعة المسموعة ، والمرئية ، فقد دعت زعماء الطلبـــة فى بلادها ومن بلاد اجنبية ، وندبت أكبر مذيعيها ومعلقيها ليديروا مع هؤلاء الطلاب الاحاديث وكأنهم من كبار القادة .

وهكذا اثبتت الايام ان صحافة هذه الدول الاستعمارية كانت منافقة وكاذبة حينما أظهرت التأفف والاستنكار، بل الازدراء والاحتقار ، لحركات الطلبة فى بلادنا حينما كانت هذه الحركات تكيل للاستعمار الضربات وتعريه عن أثواب التقى والفضل ، التي كان يتخفى تحتها ، لكن يجمل بنا أن نتجاوز هذه الدوائر الاستعمارية وصحفها الى هذه الظاهرة التى فاجأت كل مشتغل بالسياســة ظاهرة انفجار سخط الطلبة فى طول أوربا وعرضها بل فى طول العالم وعرضه .

والرأى عندى ان هذه الحركات هى حركات غضب وتذمر ، ولــكن لا ضد نظام بعينه ، ولا ضد فلسفة بذاتها . انما هى تعبير عن غضب الانســان المجرد ، الانسان الذى لاينتمى الى شعب أو دولة أو يتكلم لغة معينة من اللغات ، بل الانسان ابن الكرة الارضية ، فقد كان الانسان يؤمل بعد مجزرتين بشريتين خضنا فيهما فى الدماء ، الى الركب ، أن نثوب الى عقلنا ونعيش كما يجب أن يعيش الانسان ، وأن ندرك أن الله أعطانا عقلا لنفكر ، ولســانا لنعبر ، فاذا اختلفت افكارنا تناقشنا وتنافسنا فى ميدان الحجة ، والعلم والفن ،

والتجارة ، والصناعة ، ولم نجرد سيوفنا لنذبح بعضنا بعضا كأن السيف والمدفع يقتل فكرة أو يؤيد مذهبا. ولكن هذا الامل الجميل العذب تحطم كما يتحطم كوب زجاج رخيص وتتناثر شظاياه ، وعدنا لنعيش فى رعب الارهاب الذرى، عشنا وراء حدود بلادنا ، كل منا ينتظر القذيفة الهيدروجينية الاولى ليرد عليها فيحترق العالم كله . عدنا ننفق الملايين على انتاج الاسلحة ، وبناء الجيوش ، عدنا الى حروب الضرائب الجمركية ، والسدود ، والى التكتل ، والانقسام ، عدنا الى أفكار التفرقة العنصرية واللونية ، والى الحروب الحارة المحدودة ، والحروب الباردة غير المحدودة ، عدنا الى عالم غنى متغطرس ، وفقراء يعيشون كالجرذان فى بيوتهم ، أو فى أحيائهم ، تلوح لهم السلطة بالعصى ،ويرفع القانون الاعمى اصابعه فى وجوههم . عدنا الي الكذب على الشعوب ، والى اتخاذ الامم المتحدة ، وأعلى المواثيق ، وأرفع الافكار والاديان ، وسائل للكذب والتعصب والايهام . كان العالم منقسما فزاد انقساما. كان هناك شرق وغرب ، فأصبح الشرق أكثر من شرق، والغرب أكثر من غرب ، وأصبح لدينا أكثر من المانيا ، وأكثر من هند ، وأكثر من قبرص ، وأكثر من صين ، وأكثر من كوريا ، وأكثر من فيتنام ، وأكثر من فلسطين .

فى فيتنام يتساقط الناس البسطاء الذين يريدون أن يزرعوا الارض ويبذروا الحب كما يتساقط الذباب وفى الشرق العربى الذى نسميه الشرق الاوسط ــ لسبب لا أدريه ــ تنتهك الحريات وتداس الحرمات .. فمن ذا الذى لا يغضب ومن ذا الذي لا يثور .

الثقافة والحرب

عندما تهزم الامم تعيد النظر فى خططها السياسية والعسكرية ، وتراجع نظمها الادارية والاقتصادية ، وتحاول أن تستزيد من العلم ، فتنقح برامج مدارسها وجامعاتها ، وبالجملة ان الأمم فى أزماتها تدقق فى كل ما كان لديها لتصلحه وتغيره وتستبدل به أفضل منه واقوم ، ولكن قل أن يخطر ببال هذه الامم ان هناك عنصرا أهم واخطر من السياسة والجيوش والاقتصاد والتعليم يفعل فى أفكار المواطنين ، وفى نفوسهم ، ويدفعهم ـ ان صلح ـ للعمل والابتكار ويبث فيهم الامل ، وفضائل الصبر والاحتمال ، ويلقى بهم ـ ان فسد والتوى ـ فى رذائل اليأس والتواكل والشك وحب الذات ، ونعنى بهذا العنصر « الثقافة » .

والثقافة ـ بطبيعة الحال ـ شىء غير العلم ، فالعلم هو غذاء العقول وسبيلها الى كشف حقائق الكون ، وتسخير القوى الكامنة فيه ، فهو لا يخاطب الوجدان ولا يوجه حديثه الى النفوس والقلوب ، ولا يعرف غير الارقام ، ولا يقيم نتائجه الا على ما هو ثابت ، أو ما يجب اثباته ، أما الثقافة فتحتضن الفن والادب وأساطير الأجداد ، وحكايات الاطفال ، وتتسع للموسيقى والغناء والرقص ، وهى لهذا أفعل ، فى تحريك النوازع

الانسانية ، وتوجيهها ، وتلوينها. وهي أقدر على توحيد الامم المبعثرة ، وشد عزائم الجماعات التي صمسادفها سوء الحظ فأفلت منها النصر ، وأحاطت بها المصائب ولعل لطف الثقافة وسحرها ، وكونها فى متناول المتعلم والجاهل ، والغنى ، والفقير ، والصغير ، والكبير ، مما يجنى عليها ، فتبدو لذوى الحل والعقد انها شيء قليل الشان فتهمل ، ولو علموا حقيقة الامر ، لادركوا ان الحروب لا تقوم بين جيوش او شعوب بقدر ما تقوم بين ثقافات ، فاذا ازدهرت الثقافة فى وطن فاضت على من حولها من الشعوب فان ضاقت ثقافات الشعوب الاخرى بتفوق تلك الثقافات وسيادتها قامت الحروب ، فمن كانت ثقافته أقدر على بعث الامل فى المواطنين وعلى بث الايمان فى نفوسهم ، وفى أشعارهم ان لهم دورا فى الحياة كتب له النصر .

كان للفرس والرومان ثقافتان رفيعتان ولكن ما لبثت جذوتهما أن انطفأت فلم يعد لديهما ما يعطيانه للأمم ، فى حين جاء القرآن بثقافة انسانية استطاعت أن تنقى حياة العرب وطقوسهم وتقاليدهم ، من الوثنية الرخيصة ، والجاهلية الجامدة ، وأن تخلق منهم أمة وأن تضع امامهم مثلا أعلى ، وأن تمنيهم بحياة أفضل وأرقى وأسمى ، وأن تقنعهم بأنهم حملة هذه الرسالة الجديدة فاندفعوا كالسيل فأغرقوا فى محيطهم الجديد امبراطوريتى العجم والروم وهم أقل من أهل الامبراطوريتين علما وافقر مالا واضعف جيشا وسلاحا

وقد يبدو لبعض المتعجلين ان التتار بقيادة جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك كانوا ارجالا بشرية كأرجال الجراد ، ادنى الى الحيوان المفترس ، من الانسان

المتحضر ، وانهم آخر الأمر بلا ثقافة .

والواقع غير ذلك تماما فهذه القبائل التى انطلقت من جانب سور الصين الى أوربا الوسطى عند أبواب « فيينـــا » كانت لهم حضـــارتهم التى تعينهم على أنه يقوموا بهذا الغزو الـكاسح ، وأن تتهاوى أمامهم الدول والعروش كبيوت من الورق ، فان ما خلفوه من أسلحة وملابس وطنافس وخيام ينفى عنهم تهمـة التجرد من كل فن . فالنقوش والزخارف التى زينت سـيوفهم وخناجرهم وسروج الخيل وعدتها تشى بفن دقيق ، اما ثقافتهم العسكرية فقد كانت فنا يحتاج الى مرونة الجسم والذهن معا . فالسيف والرمح فى يد الصبى التترى كانا كالفرشاة فى يد الرسام ، والقيثـارة بين اصابع الموسيقى ، وقد كانت رياضتهم للخيل فنا قائما بذاته ، غزوا به الأمم والشعوب . وقد كانت لهم فوق ذلك اغانيهم وأساطيرهم وقد نجحت دولة المماليك التى بذر صلاح الدين أولى بذورها فى أن تقيم فى مصر والبلاد العربية امبراطورية مرهوبة الجانب انزلت الهزيمـة المدمرة بالصليبيين والمغول لان المملوك المجلوب من بلاده فى آسيا الوسطى وعند بحر الخزر كان يلقن أصـول الدين والشريعة ويحفـظ القرآن ويجوده ، ثم يتعلم الفروسية وفنون القتال ، ومن هنا استطاعوا ان يقودوا العرب ، وأن يتركوا فى القاهرة الآثار الجميلة من مساجد وأسبلة وتكايا ومدافن ومدارس ومستشـفيـات .

فنقطة الابتداء فى اصلاح الامم ، هو أصلاح نفوسها وقلوبها ، والسبيل الى ذلك هو بث الحياة فى ثقـافتها القديمة واظهارها لابناء اليوم فى أجمل صورها ، قريبة لهم فى متناول افهامهم وأذواقهم .

حضارة مريضة

اثار اغتيـــال روبرت كيندى تساؤل المشـــتغلين بمستقبل الانسانية فقالوا : أهناك أمل فى أن تشـفى حضارة أوربا وأمريكا المعروفة بالحضارة الغربية ، من الداء الذى ولدت به وعاشت معه وبقى الى اليـــوم طابعها المميز وأعنى به داء العنف الوبيل .

والذين قرأوا تاريخ الحضارات الـكبرى ، كحضارة مصر وبابل ، واشور ، والصين ، والهند واليونان ، والرومان ، لا يذكرون ان حضارة سبقت الحضـــارة الغربية ، قد انهمكت فى قتـــل النـــاس الجماعى كما انهمكت هذه الحضارة الاخيرة فى هذا النشاط الشيطانى المخرب ، فانها لم تقنع قط بقتل الافراد ، أو افنـــاء الجيوش ، فشهيتها لم تكتف بغير التمثيـــل بالشعوب جملة واحدة .

ولا ينكر احد ان التاريخ الإنسيـــانى ملىء بالمذابح والانقلابات والمؤامرات والدسائس الحقيرة والخيانات ، ولـكن أوربا فى خمسة قرون بلدت ما اقترفته الانسانية كلها فى أربعين قرنا من جرائم الابادة والتعذيب وفظائع الاضطهاد والرعب بكل اسم : باسم الدين ، وباســم الحرية ، وباسم الوطنية ، وباسم الاستعمار ، وباسم نشر المدنية ، وكان افظع واقبح ما ارتكب ما تورطت

فيه هذه القارة العجيبة فى ظل كنيسة المسيح الذى دعانا لنحب اعداءنا ولنصلي للذين يلعنوننا . لم يعرف تاريخ الانسانية ما عرفه تاريخ اوربا من مذابح كمذبحة سان برتلمي مثلا التى ذبح فيها الوف بروتستانت فرنسا فى ليلة واحدة كما يذبح الجزار الخراف . ولما رات اوربا انها فى خاجة الى عمل ضخم ، تتوج به هذه المذابح والمجازر ، وتعلن به تفوقها فى التدمير والتخريب واسالة الدماء انهارا ، شنت حرب سنة ١٩١٤ التى دامت اربع سنين والتى دمرت خلالها المدن ، وخرجت منها الامم كسيحة جريحة ، تنزف منها الدماء وتفيض من جروحها صديدها ، وتهذى هذيان المجنون . فقد تحطمت المثل وكفر الانسان بالله وبالزمالة البشرية ، وكلما اشتدت به اوبئة ما بعد الحرب ، من بطالة وجوع وكوارث اقتصادية ، وازمات سياسية اتخذت من الرذيلة مسكنا ، واصبح العزاء والسلوى فى الخروج على كل خلق والتجديف بكل مبدأ ، والسخرية من كل دين ومات فى هذه الحرب من شباب اوربا عشرات الملايين كما جرح فيها عشرون مليونا ، وتيتم فيها تسعة ملايين طفل ، وترملت فيها خمسة ملايين زوجة ، ولو بعث القتلى فى هذه الحرب وساروا صفوفا كل صف اربعة لاستمر سيرهم على هذه الصورة ثمانين يوما بلياليها ، لا يكفون عن السير فيها لحظة واحدة ، فلما وضعت الحرب اوزارها وبعد شبح الحرب بصورته الكالحة خيل لذوى النوايا الحسنة ان هذه هى آخر حرب عالمية تشهدها الانسانية ، ولكن اثبتت الايام انهم كانوا مثلا اعلى للسذاجة فان حرب سنة ١٩١٤ كانت مجرد تجربة لحرب مثلها اندلعت نيرانها فى سنة ١٩٣٩ واستمرت ست سنوات .

ان اسلحة حرب سنة ١٩١٤ كانت بالنسبة لاسلحة سنة ١٩٣٩ كلعب الاطفال ، استأثرت أوربا وحـدها بالمبتكرات المدمرة والمخربة ، فلما شبت ابنتها أمريكا عن الطوق ، وتلقت دروس العنف طبقتهـا فى العـالم الجديد ولم تلبث ان تفوقت على أمها الشريرة وغلبتهـا فقد بدأ الأمريكان حينما غزوا الدنيا الجديدة فى القرن السـادس عشر ، بسحق الهنـود الحمر أهالى أمريكا الاصليين وابادتهم ، فكان ذلك أولى تجاربهم فى الابادة الجماعية ، ثم ثنوا بخطف أطفال الزنوج من افريقيا ، ثم خطف النساء والشيوخ والشباب ، وترحيلهم الى أمريكا فى مراكب كما تساق البهائم ، ثم فرضوا عليهم عبودية ورقا لم تشهد الانسانية شيئا فى مثل قسوتهما وتجردهما من كل عاطفة ، ولذلك كانت أمريكا موطن العنف الاشد هولا، فأصبح القتل رياضة ومتعة، وأصبح القتل تجارة ومهنة ، وأصبح القتل سياسـة وعلما ، وأصبح القتل ابتكارا وفنا ، واصبح القتل وسيلة وغاية وحسبك ان تطالع كشف حساب الجريمة فى أمريكا فى عام واحد لتؤمن بأننا لا نبالغ ولا نسترسل مع الخيال ففى عام واحد وقع فى أمريكا احدى عشر ألف جريمة قتل ، وستون الف جريمة سـطو بالقنـابل والمدافع الرشاشة ، وخمسون ألف اعتداء بالسلاح، أما مايسمى بالحوادث العارضة فقد بلغت عدتها مائة وخمسين ألف حادث . لذلك ليس غريبا ان يقتل فى هذا المجتمـع الاخوان كيندى ، وان يغتال معهما مارتن لوثر كنج ،وأن يستمر تمجيد الجريمة فى أفلام توزع على العالم تنشر فلسفة العنف وتثير خيال الناس بما تؤدى اليه هـذه الفلسفة .

الدولة العصرية

نردد هــذه الايام كثيرا لفظى « الدولة العصرية » فمنذ يونية الاسبق ونحن نلوك هذين اللفظين ، اذ منا من يعتقد ان « الدولة العصرية » احدى الوصــفات السحرية التى تحقق الرجاء وتكتب الشــفاء ، وترد البلاء . ولـكنى ما أكاد أسمع اسم « الدولة العصرية» حتى اتعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ذلك لأن الدولة العصرية مسخ ولد بنصف أعضائه فله يد واحــدة ، وعين واحدة ، وأذن واحدة ، وله نصف عقل ، ونصف قلب وبالتالى نصف ضمير . وقد تسألنى ما المقصود بأن الدولة العصرية هى مسخ لا يزيد عن أن يكون نصف آدمى . فأقول لك انها دولة تقوم فى الظــــاهر على المسيحية وتؤمن فى الواقع بالعنف ، فهى نصف مسيحية ونصف متبربرة وهى بنصف ضمير لانهــا تحب الخير لنفسها وتحب العبودية والضعف لغيرها ، وهى بعد دولة الغرب دون دولة الشرق ، ودولة المــال دون القلب ، ودولة الاقوياء دون الضعفاء ، ودولة المنتصرين دون المنهزمين ، دولة البيض دون الملونين ، ولذلك فهى تقفز الى الفضاء فرارا من مشكلات الارض التى عجزت عن حلها : مشكلات العمل ، والحكم ، والمال ، والتجارة ، والحدود ، والحروب ، مشكلات الاضرابات المتعددة ،

وميزانية المدفوعات العاجزة ، ومخاطر التضخم الفادحة وغلاء المعيشة الساحق والخوف من آسيا وافريقيا المستحكم . وقد تقول لى : أتنكر انها أعطتنا الطيارة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ؟ أقول لك : ما قيمة هذه الطائرات التى تلغى المسافات اذا كان هناك ملايين من البشر كتب عليهم الا يفارقوا القرية التى ولدوا فيها او الجحر الذى القى بهم الدهر فى ظلامه ، اما لفقرهم المدقع ، وضعفهم المحزن ، واما لأنهم يخضعون لحكم يقيد الحركة والهمسة ، ويحصى على الناس لفتات رؤوسهم وخطرات قلوبهم وقد تقول لى : أتنكر أن الدولة العصرية قد أعطتنا السينما والراديو والتليفزيون وانه بات بمقدورك وأنت مستلق على سريرك أن تطوف حول العالم مستمعا الى لغات لا حصر لها ، ولهجات لا علم لك بها ، والى موسيقى الشرق والغرب ، والزنوج والاسكيمو ، وخطب كل المذاهب ، ونداءات كل العقائد وأخبار كل الامم ، فأقول لك ما قيمة هذا كله والناس يزدادون بمدا ، والخوف من الحرب هو قانون وجودهم وباعث نشاطهم ، ومحرك قادتهم وساستهم .

فالدولة العصرية ادارة رائعة المظهر خبيثة المخبر ، تذهل العقول بما تنتج وهى كالساحر تخرج من جعبتها أفانين لا يدركها عقل ، وحيل لا يحيط بها فكر ولكنها تشكو من عيب يحيلها الى أداة قتل وازهاق وتدمير وابادة وتعذيب . والعجيب — وهى كما يقولون دولة العلم — انها تعمل النقيضين فى آن واحد ، تبذل آلاف الجنيهات للبحث عن شخص ضل طريقه فى الصحراء ، أو اختفى قاربه فى الماء ، ثم تقتل فى نفس الوقت مئات الالوف من الابرياء بقنبلة واحدة أو قنابل عديدة وقد استطاعت هذه الدولة ان ترفع مستوى صحة الافراد

بعلم الطب وعلم الصحة ولـكنها مع ذلك حضارة قذرة فلم يسبق للناس ان تجرعوا فى ظل اية حضارة سابقة ما يتجرعه أهل هذه الايام من سموم الخمور والسجائر والسيجار ، فضـلا عن المخدرات والمنومات والعقاقير الهادمة للعقول والنفوس ، وقد خففت هذه الدولة آلام الجراحة بما وفقت اليه من وسائل التخدير والتنويم ، ولـكن ما تسببه هذه الحضارة نفسها من آلام الجوع وأهوال الجروح والبثور بقنابلها السامة وغازاتها الخانقة وميكروبات حروبها شيء يفوق كل وصف وكل بيان وهى مع ذلك ليست الدولة المنتصرة فقد هزمت فى فيتنام مرتين : مرة حينما حاربت فرنسا هناك ، ومرة حينما حاربت فى نفس الميدان امريكا ، كما هزمها الجزائريون وأكثرهم من الفلاحين وأهل الجبال .

ولـكننا اذا لم نكن من المؤمنين بالدولة العصرية الا اننا نؤمن بالعلم وندعو اليه لان من تقاليدنا الدعوة اليه والايمان به ، ولأننا بذلنا فى سبيله وبنينا من قواعده ما لم يبن احد سوانا ، والعلم شيء والدولة العصرية شيء آخر فان العلم قد استحال فى يد الدولة العصرية شقاء وخرابا ودمارا ، لانها دولة مسخها الشيطان الذى اتخذته الها ، والانسانية فى حاجة الى دولة جديدة يحترم فيها العلم الناس ويهديهم ويؤكد ايمانهم بالحق والعدل والحب .

الرءوس الحافية

من المشكلات التى تستحق عنايتنا مشكلة الرءوس الحافية ولست أعني بالرءوس الحافية رءوس الجهال أو رءوس الفارغين الطافين على سطح كل مجتمع ، وان كان العنوان يتسع لهؤلاء ولكنى قصدت فى واقع الامر مشكلة لباس الرأس بعد أن عزل الطربوش عن عرشه الذى كان يتربع فيه فوق الرءوس .

والحق ان مشكلة الرءوس الحافية مشكلة فى بلادنا مزمنة ، فنحن منذ اكثر من أربعين عاما أى منذ قرابة نصف قرن ، والطربوش يؤرقنا ويزعجنا ، ويثير من المناقشات والمناظرات اكثر مما تثيره مشكلات حياتنا الكبرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كان فريق من مفكرينا يقول : كيف يبقى الطربوش على رءوسنا ، وليس هو بلباس قومى فأجدادنا لم يعرفوه لأنه زى يونانى ، نقله الينا الاستعمار العثمانى ، وقد راح فى أوربا رمزا على الفساد الشرقى ، فقد كان الطربوش ولقب « الباشا » عنوانين على ما انتهت اليه سمعة الدولة الشرقية فى أوربا من تدهور ، وقد سخر به وعبث مؤلفو المسرحيات ، ومخرجو الافلام ، وتشبث بالطربوش آخرون ، فقالوا : ان الطربوش أصبح رمزا الى المصريين وبعض العرب والاشمئزاز منه هو فى

واقع الامر شعور بالنقص ، فما أعجب به الاوربيون جميل فى نظرنا ، وما كرهوه قبيح عندنا ، وما تلبسه الامم الاخرى من ازياء أحق بالسخرية من الطربوش .

فما يلبسه الرجال من أهل اسكتلندا أشبه شيء بفساتين السيدات القصيرة ، فهو يكشف من السيقان ويبدو غريبا على رجال غلاظ ذوى شوارب يخوضون أحيانا المعامع ويحملون فى أيديهم السيوف والمقامع، وما يلبسه الرجال من أهل أوربا الشرقية لا يقل عن الزى الاسكتلندى اثارة للضحك ، فمن طراطير الى اثواب فضفاضة تثير لوعة الآنسات اللواتى يحببن الاثواب التى تظهر الخصر النحيف والعود اللطيف وتعين على الخطوة الرشيقة والوثبة الأنيقة ، مع أن أصحاب هذه الاثواب النسائية هم من أشداء الرجال فى الجبال ولكن هؤلاء ملأت الثقة نفوسهم فما عادوا يحفلون بهمزات الساخرين ولا لمزات الناقدين ، وكان كبار مفكرينا يقولون : أن الطربوش هو الذى عاق تقدمنا وجعلنا أمة لا تقاوم أعداءها وقال آخرون : ان الاتراك غزوا أوربا واقتحموا عليها أسوارها وهم يلبسون الطربوش ، ثم هزموا اليونان الذين دفعتهم أيدى لويد جورج وانداده من الاستعماريين فى أوربا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها أى فى سنة ١٩١٩ ، فسحقت جيوش الاتراك بقيادة مصطفى كمال فتريلوس اليونانى وكان الاتراك فى هذه الحرب الاستقلالية يتوجون هاماتهم بالطربوش ،

فلما خلعوا الطربوش وخرجوا على الشريعة الاسلامية ونبذوا الحروف العربية واحلوا محلها الحروف اللاتينية ، وقطعوا صلتهم التقليدية بالعرب عاشوا داخل حدودهم لايؤثرون فى سياسة الدنيا ، ولايساهمون فى انتاج الانسانية الادبى أو الفكرى بقليل أو كثير .

ولكن الطربوش فى بلادنا خلع بأكثر الاساليب ديموقراطية فلم يصدر قانون بتحريمه كما فعل كمال أتاتورك فى بلاده ، ولم ينزعه أحد من فوق رأس مصرى بالقوة ، ولم يسخر به انسان ، ولم تشيعه صحيفة بالهزء ، فمات موتا طبيعيا كآدمى بلغ غاية العمر فلفظ أنفاسه وهو يتثاءب . ولكن لم يستطع أن يحل محله الشاغر غطاء رأس آخر ، فأصبح أشبه شيء بملك أسبانيا الذى خلع وانقضى نصف قرن على خلعه دون أن يرثه ولى عهد ، ودون أن تتحول الملكية الى جمهورية والناس بغير غطاء رأس يتعرضون فى الصيف لضربة الشمس ، وفى الشتاء لزمهرير البرد ، ورذاذ المطر ، وفينا شيوخ لايحتملون تكاليف هذه الروح الرياضية المفروضة عليهم وبقاء مكان الطربوش شاغر يذكرنى بعاهة من عاهاتنا الفكرية وهى عاهة العجز عن اكمال السير الى آخر الطريق ، كأنما نخشى دائما ان ننطق الجملة كاملة ، فاتقاء للمسئولية نبتلع خاتمتها ، والخوف من المسئولية يلاحقنا حتى فى ميادين اللعب الرياضية فنحن نبدأ زحفنا فى ميدان الكرة مصرين حتى اذا بلغ اللاعب منا هدف الاعداء وحانت ساعة التسديد والاصابة ، ارتبك وتعثر فى الكرة ولم يحسن الرماية ، وأفلتت منه الفرصة . ان مشكلة الرءوس الحافية مشكلة روحية وخلقية ، فلنواجهها بشجاعة الشجعان وسنكسب من تلك المواجهة مرانا على حل المشكلات حتى النهاية بغير خوف أو تردد .

بصيرة الأعمى

من الانباء الصغيرة التى لم يلتفت اليها احد ولم أر عليها تعليقا ، بل لم أر لها فى صحفنا أثرا نبأ تسعة من العميان أتوا شيئا عجيبا وعظيما وجديرا بأن تحييه كل صحيفة فى كل بلد وسط مشكلات العالم المتفاقمة التى تزداد تعقيدا ولا نجد لها حلا .

تسعة من المكفوفين الذين نزلت بهم مصيبة العمى فلم تهد لهم عزما ، ولم تصرفهم لا عن التعلق بالحياة فحسب ، بل ولا عن الاستجابة لغريزة الطموح المركبة فى الانسان ، فأقدموا على مشروع يجفل منه المبصرون ولا تساور فكرته الاقوياء الاشداء .

قرر العميان التسعة أن يتسلقوا جبل كلمنجارو فى كينيا وأن يصلوا الى قمته التى تتوجها الثلوج طوال العام ، اذ تعلو عن سطح البحر بنحو ستة آلاف متر

ولا شك عندى فى ان هؤلاء الرياضيين المجازفين لم يقدموا على هذا المشروع الا بعد أن استعدوا له استعدادا طويلا ، تحملوا فيه متاعب التسلق والسقوط والسير على الصراط ، ثم الهبوط وتحسس الطريق فى حالتى الاتساع والضيق ، فارادة هؤلاء الشجعان المؤمنين بأنفسهم لم تعوضهم عن نور البصر فحسب ، بل زودتهم بنور البصيرة أيضا فادركوا على النورين معا ان ليس فى هذا الكون كله أقوى من ارادة الانسان ،

وان الانسان الذى يريد ويعرف ما يريد ، لا تقف فى وجهه العقبات مهما بدت أنها غير قابلة للتذليل .

وتاريخ الانسان كله يشبه محاولة العميان التسعة ، وهم يتسلقون جبل كلمنجارو المرتفع الشاهق ، فالانسان حينما بدأ حياته فى هذه الكرة الارضية فى الكهوف والمغارات عاريا لا يجد ما يرد عنه عوادى البرد والحر ، اعزل لا يجد السلاح الذى يقيه وحوش البر والبحر ، جاهلا كل ما يحيط به لا يعرف ما الرعد ولا ما البرق ، خائفا من هزيم الرياح ، ومن ظلام الليل يشقى شقاء مضنيا ليجد قوت يومه قبل أن يخترع أدوات الصيد ، وأوعية الدار ، وقبل أن يهتدى الى كشفه الاعظم ، الا وهو الزناد الذى قدح شرارة النار الاولى ، فأضاءت له طريقه الى الحضارة ، فجرى فيه اشواطا بعد أشواط ، فعرف البخار والكهرباء والبترول والغاز الطبيعى حتى فجر الطاقة الذرية .

ان عميان كلمنجارو قد سبقتهم الى الطريق الذى سلكوه الى قمة الجبل الشاهقة المتوجة هامتها بالثلوج آخرون مبصرون ولكن الانسان الاول اى جدنا الاعلى سلك طريقه الى الحضارة والمعرفة ، وهو أشد عمى ، وأضعف حيلة ، من أحفاد أحفاده فى كينيا. واذا جاز لنا ان نتصور ان جدنا الاول بعث ثم دعى ليشهد مجازفة عميان كلمنجارو وهم يتسلقون صخور الجبل الوعرة ، ويتخبطون فى ممراته الملتوية ومسالكه المسدودة ، لابتسم ابتسامة عريضة ملؤها الرضا وقال : ان هؤلاء أولادى حقا ، فقد تسلقت جبل الحياة الأشم منذ عهود سحيقة كما يتسلقون جبلهم الشامخ اليوم . فشرارة الحياة التى انقدحت فى نفسى لا تزال متقدة تبعث فى النفوس الطموح الرفيع والأمل الذى يرفض الهزيمة .

أهل الكهف في العصر الحديث

« لا جديد تحت الشمس » عبارة نقولها ولا ندرى انها تمثل الحقيقة بأكثر مما نعتقد ، وقد حقق بعض العلماء أخيرا معناها اذ كرروا قصة أهل الكهف . فدفعوا بشابين الى كهفين تحت الارض وتركوهما وحدهما ، لا يتصلان بأحد ولا يسمعان صوتا بشريا ، وليس معهما ما يستضيئان به أو يدفعان مرارة الملل وآلام السأم وعذاب الوحدة .

وكانت الغاية من هذه التجربة أن يدرسا رد الفعل الانسانى فى الوحدة والسكون ، توطئة لارسال الانسان الى الكواكب البعيدة ، كالمريخ والزهرة ، التى لابد لقطع الرحلة اليهما شهورا طويلة . ماذا يفعل الانسان اذا طالت وحدته ؟.. ماذا يصيب أعصابه ؟.. كيف سيحسب الايام التى ستمضى وتتعاقب ، وهو لا يمر فى ظلام الليل بعد نور النهار ولا يميز السبت من الاحد ولا الربيع من الخريف فى كهفه الذى أعد ليحتفظ بدرجة حرارة معتدلة ومستقرة .

ولست أود أن احدثك عن نتائج هذه التجربة وتفصيلاتها فأنا لم أسمع عنها الا أقل القليل والأمانة العلمية تقتضينى الا احدث الناس الا فى الثابت الصحيح من الوقائع والحقائق. ولكن أود ان أنتفع بهذه التجربة

لغاية غير الغاية التى أعدت لها أريد أن انتفع بها فى اظهار فشل حضارة الانسان فى تهيئة مكان لنفسه يعيش فيه هانئا وهادئا وسعيدا .

فالمدن الحديثة فى عواصم العالم كله ليست الا جحيما الفنا العيش فيه ، حتى أصبحنا لا نشعر بأننا نتقلب فى أحضان لهيبه المتقد . فالثورة الصناعية التى قادت خطى الانسان الى هذا التقدم الهائل الآلى والفنى أتاحت للانسان صنوفا من الراحة والمتعة المادية والذهنية لم يعرفها أجداده ، بل آباؤه . ولكن الانسان الذى يحقق هذه الاجهزة السحرية التى تنقل اليه أصوات الناس وصورهم من أقصى الاماكن ، والتى تنقله هو من مكان الى مكان آخر فى أقصى المعمورة ، بسرعة يسابق بها بساط الريح ويسبقه ، والذى وضعت بين يديه الكتاب الانيق الجيد المصقول المزين بالصور الملونة الباهرة التى تكاد تنطق من فرط جمالها واتقانها ودقتها ، هو الانسان الذى دفعه حب الراحة والرفاهية الى التجمع — فى قصر نظر رهيب ومدمر — فى المراكز التى تتاح فيها الاعمال وتكثر الارزاق فاحتشد وتزاحم تزاحما جنونيا فيما يسمى بالمدن واتسعت رقعة هذه المدن طولا وعرضا وارتفاعا وعمقا ، فأكلت مساحات من الريف الهادىء النظيف وأقامت ناطحات السحاب وشقت الارض لتقيم أنفاق القاطرات الكهربائية والبخارية ، وأقام الانسان فى هذه المدن مصانعه لتقذف فى الهواء بدخانها وقذف هو بدخان سجائره وسيجاره واشتدت الضوضاء وأصبحت السرعة الجنونية فى الاكل والشرب ، والكلام والقراءة ، والتسلية والضحك ، والغضب والرضا ، والحب والكره ، شعار هذه الحياة بل سرها وجوهرها. ان الانسان المثقف المتحضر حطم الغابات

وازالها من الوجود شيئا فشيئا وطارد حيـــواناتها ، وطيورها ، فحل محلها ، ولم يدع وسيلة لتلويث حياته الا فعلها ، حتى البحر والمحيط على اتساعهما لوثهما . ومن الامثلة الصارخة غرق ناقلة البترول « تورى كانون » التى تسربت منها حمولتها من البتـــرول فغطت وجه مساحة من البحر كانت تعيش فيها مئات من الالوف من الطيور البحرية ، وقد ماتت هذه الطيور كلها لأنها لم تستطع أن تطير فى الماء المثقل بالبترول ، ولان الماء الملوث به قتلها . واذ اكتب هذه السطور أسمع أن بئرا للبترول فى المحيط الاطلسى تجاه مدينة كاليفورنيا يتدفق منه البترول فيهدد الحياة فى كاليفورنيا كلها بمخاطر عديدة .

من أجل كل هذا نتمنى ان يذيع علينا العلماء الذين اعادوا تجربة أهـــل الـــكهف وصــــفا لمتع وجـــدها الشابان اللذان عاشا شهورا فى ظلام الـكهوف ووحدتها عساهم يقنعون أهل المدن بأن الحياة الصاخبة الملوثة ليست هى نعيم الانسان الذى يجوز له أن يضحى فى سبيله كل ما حصله فى حياته الطويلة من تجربة وحكمة

الإنسان الخالق

استمر برنامج اذاعي في احدى الاذاعات الاجنبية عشرين سنة كاملة ، وألف المستمعون في طول البلاد التي تذيع محطتها الرئيسية هذا البرنامج وعرضها ، أن يعيشوا مع ابطال هذا البرنامج حتى باتوا يحسون ان هؤلاء الابطال أفراد من العائلة يسرون لأفراحهم ويحزنون لمصائبهم ، ويشتاقون الى من غاب منهم ويفرحون بعودة العائدين ، واصبحت أسماء ابطال هذا البرنامج تجرى على السنة أفراد الشعب يرددها كما يردد اسماء الآدميين الاحياء . ولما تقرر وقف هذا البرنامج لسبب لم اتبينه ، حزن الشعب كما لو فقد عائلة من اعز العائلات عليه عرف افرادها واحدا واحدا ، وعرف مشكلاتهم واعجب بخفيف الظل منهم واحتمل سخف الثقيل من اعضائها . وابنته اكبر الصحف واكثرها وقارا ، وفي عبارة التأبين لهجة حزن بادية . لقد كان البرنامج مذكرات زوجة طبيب استطاع بفضل علمه أن يعرف أسرار العائلات ، واستطاعت زوجته الفضولية أن تعرف هذه الأسرار ، وأن تذيعها ، فعرفها شعب بأسره . وخففت عنه متاعب حياته ، وامدته بالتسلية والعزاء والصحبة المؤنسة .

وهكذا يعطينا الفن دليلا جديدا على انه ساحر

عجيب جدا ، وانه يستطيع ان يحقق مالا يستطيعه العلم أو الحكمة ، فالعلم والحكمة وحدهما بغير الفن لم يكونا قادرين على جعل الحياة الانسانية محتملة . فالفن هو رفيق الانسان فى سيره الطويل فى حياته المديدة المحفوفة بالمتاعب والمكاره والمخاوف والمجهول .

وليس الفن الا آية من آيات قدرة الانسان على الخلق ، وهى القدرة التى تبطره فتجعله يحسب انه اله هذا الكون وسيده . فخيال الانسان حينما كانت الانسانية فى طفولتها هو الذى جرأه على أن يخلق بيديه الآلهة من خشب ، أو حجر ، أو حديد ، ثم يعبدهم ولما تقدم وتهذب فنه جعل هذه الآلهة أفكارا وأساطير وجعل هذه الآلهة تحب وتحارب ، وتحيك المؤامرات وتثير الفتن . ان خيال الانسان هو الذى خلق للعربى اللات والعزى وخلق من قبل للمصرى ايزيس واوزوريس وحوريس وخلق للاغريقى زيوس وفينوس وهكذا .. ولما كبر وشب عن الطوق وعرف كثيرا عن الكون الذى حوله زهد فى هذه الصناعة ، ورأى ان الانسان أكبر من آلهته التى كان يخلقها ، فكانت هذه الشخصيات التى ابدعها المؤلفون والشعراء والقصاصون فعاشت مع الناس أكثر مما عاش الابطال الحقيقيون ، وألهمتهم وأوهمتهم ، وتعصبوا لها ، واختلفوا بسببها ، وألفوا الكتب ووضعوا الرسائل وقاموا بالبحوث والدراسات كمجنون ليلى ، وهاملت وفاوست ، وأحدب نوتردام . هذه الشخصيات أبقى على التاريخ من أبطال التاريخ الحقيقيين الذين عاشوا فى دنيانا وأحبوا وحاربوا وانتصروا وهزموا .

وهؤلاء الابطال الحقيقيون امثال صلاح الدين ، ونابليون ، وقيصر ، وانطونيو ، يعرفهم التاريخ ، ولكن

الناس تعرفهم عن طريق القصص ، والمسرحيات ، والقصائد ، والاساطير ، ففى التاريخ يعيشون كسباع حدائق الحيوانات فى أقفاص يروحون ويغدون ، لا يتجاوزون بضعة أمتار مربعة . أما فى عالم الخيال الفسيح فهم يحلقون فى أجواء الفضاء ، ويقولون كلاما جميلا ، لم يخطر على بالهم ، وينثرون حكما عاشوا وماتوا دون أن يتفوهوا بعشر معشارها ، وفسروا هزائمهم واعتذروا عن أخطائهم ، وبدوا أعظم بطولة ، مما هم . فدين الفن فى أعناقهم لا يرد ، أما دينه فى أعناقنا نحن الآدميين ، فنؤديه بحبنا المتجدد للفن ، هذا الحب الذى نرثه عن الآباء والاجداد ونورثه للأبناء والاحفاد .

الثورة الدائمة

كنا شبانا أقرب أن نكون صبيانا وكان لنا صديق أو زميل يحسب نفسه أديبا كبيرا ، وخطيبا مفوها ، وشاعرا لايشق له غبار ، وفي حقيقة الامر ، أن صاحبنا نموه العقلي توقف بسبب اصابته بحمى شوكية لذلك كان أدبه وشعره هدفا لسخرية الاشقياء من أصحابه ، وقد كانت سخريتهم دائما مدائح مبالغ فيها ، ولكنه لطيبة قلبه كان يعد ذلك ثناء مشروعا يتقبله أحيانا متواضعا واحيانا معقباً عليه بمزيد من المدح يضفيه على نفسه .

وفي ذات ليلة دعينا الى حفلة زفاف فنصب صديقنا نفسه خطيبا فبدأ خطبته بقوله : « في هذه الليلة الليلاء » .. فضج بالضحك الذين يعرفون اللغة العربية ، لأن الليلة الليلاء هي الليلة الحالكة السواد التي تنعقد في سمائها المكفهر سحب الهم والغم ، ولكن صاحبنا كان يحسبها الليلة التي تفيض بالضياء وتتألق بالهناء .

ولست أدري لماذا أذكر صاحبنا المتشاعر كثيرا ، وأذكره بصفة خاصة ، حينما أسمع في احدى الاغاني الشاعر يصف لواعج حبه فيقول للحبيب : « توحشني وانت وياى » .

فهذا الشاعر لابد أن بينه وبين زميل الصبا صلة قربى ولو انه شاعر عظيم لأن هذا ليس سوى أقبح الهجو فى الحبيب وليس بعده ذم وهجو .

فالحبيب هو انس فاذا كان قربه من المحبوب لايزيل عنه الوحشة فانه اشبه شيء بماء البحر يشربه الانسان فيزداد عطشا . فالحبيب جدير بأن يملأ على محبه الدنيا بهجة ، وأن يمتعه بالرى والشبع ، فاذا كان القرب منه على العكس وحشة ، فهو والعياذ بالله حبيب من نوع يحسن ان يفر منه المحبون ، وأن يلتمسوا لأنفسهم النجاة من حبه ، والوقوع فى حبائله .

كذلك اذكر زميل الصبا المتشاعر ، واذكر سخرية الناس به كلما قرأت كاتبا يود أن يثنى على ثورة من الثورات فيقول عنها : « انها ثورة دائمة » لعلمي بأن الثورة الدائمة هى الثورة الخائبة أو الفاشلة ، ذلك لان الثورة هي فى تاريخ الامم بمثابة عملية جراحية تلجأ اليها الأمة حينما يستعصى أصلاح الأنظمة القائمة ، فلا ينفع معها الا الاقتلاع من اساسها والالقاء بها فى الماء ليشاد مكانها بناء جديد لا صلة له بالبناء القديم ويستعمل لفظ الثورة لبيان انها تنقض على أنظمة فاسدة، ولكن هذه الانظمة مع فسادها يسندها الحكم القائم قبل الثورة ويعطيها صفة الشرعية كذبا وبهتانا فاذا نجحت الثورة اصبحت الثورة نظاما مشروعا ، وأصبح عملها شرعيا وجائزا ، وأصبح الانتقاض عليها هو الثورة أو ما نسميه بالثورة المضادة .

فاذا تصورنا انسانا اجريت له عملية جراحية لاستئصال عضو فاسد فيه ثم استمررنا نجرى له عمليات فى نفس الموضع لم يكن من حقنا أن نسمى هذه

العملية الاولى بالعملية الناجحة ولا العمليات التى تليها .

كذلك الثورة الناجحة هى الثورة التى تستأصل الداء ، فان طالت معالجته ، وهو ما يحدث دائما لم يجز أن نسمى هذه المعالجة بالثورة الدائمة لان الاحرار لا يثورون الا ضد الظلم فاذا آلت اليهم مقاليد الامور ، فضد من يثورون وهم أصحاب السلطة الشرعية وكلمتهم أصبحت قانونا . صحيح أن خصوم الثورة لا ييئسون من مهاجمتها ، ولكن اليقظة الدائمة ضد خصوم الثورة ليست ثورة . هي يقظة ، هي جهاد مستمر ، هى روح مقاتلة ، لا تقبل انصاف الحلول ، ولا اشباهها وتكره المهادنة ، وترفض خداع النفس ، ولكنها ليست ثورة ، فالثورة لا تكون الا من جماعة ينكر القانون أو المجتمع انها شرعية .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الجهاد ماض حتى يوم القيامة » وهذا هو التعبير الصحيح والسليم لما يسميه البعض ، خطأ « بالثورة الدائمة » ولسنا ندقق فى الالفاظ ونحقق ، الا لاننا نعتقد أن اللفظ الواضح هو ثمرة الفكر الواضح ، والفكر الواضح لا يلد الا الفاظا واضحة ، فليست الالفاظ مجرد حروف تجتمع وتقترن ، بل انها معان وعقائد ..

الشذوذ الجنسي والموت الهنئ

من الامثال الذائعة عن مجلس العموم البريطـانى انه يستطيع أن يفعل فى بريطانيا كل شىء ، الا أن يحـول الرجل الى امرأة أو يحول المرأة الى رجل • والقصد من هذا المثل ، أن مجلس العموم البريطانى يملك من السلطات فى بلاده أقصى ما تملكه سلطة فهو يكاد يحمى من الانظمة والقواعد والضوابط ما يشاء ويميت منها ما يريد لا مرد لكلمته ولا حد لسلطانه •

وقد ساق هذا المجلس أدلة على هذه السلطة الواسـعة فى الشهور الاخيرة ، فقد تصدى لمشكلة لم تجر العادة ، على أن تكون ضمن ما يناقشه المشرعون وواضعو القوانين ، الا وهى مشكلة الشذوذ الجنسى فقد كان المعروف أن القوانين تصدر لتحارب الرذائل ، وتعاقب مرتكبيها ولم يصدر من قبل قانون ينظم ممارسة رذيلة خصوصا اذا كانت هذه الرذيلة مما لا يتحدث عنها الناس الا رمزاً • فالبغـاء والزنا والرقيق ، كلها رذائل ولكنها من رذائل الطبيعة الانسانية التى توارثتها الاجيال وتساهلت فى شأنهـا حينا وتشددت حينا آخر • أما الشذوذ الجنسى فلم يرد فى قوانين الامم البائدة ولا المعاصرة شىء يتصل به •

ولكن مجلس العموم اعتمادا على واسع سلطته ، وادلالا بعظيم مقامه ، تناول الشذوذ الجنسى بالمناقشة العلنيـة

فسمع الناس القريبون والبعيدون ما دار فى مناقشته والمجلس لا يهتم قليلا أو كثيرا بحمرة الخجل التي اكتست بها بعض الوجوه وعلامات الاحتجاج التى نطقت بها بعض الالسنة وصيحات الاستنكار التى تفجرت على بعض المنابر، فقد هز المجلس رأسه لكل هذا وهو يقول : لا حياء فى الدين ولا نفع فى المكابرة .. فالظاهر أن الشذوذ الجنسى مرض من أمراض المجتمع الحديث ، وقد تورط فيه الكبار أصحاب المناصب تورط الصغار المجهولين واعترف بمقارفته ذوو العقول والاقلام ، فكتبوا فى اعترافاتهم التى يقرؤها الالوف أو الوف الالوف فى بعض الاحيان .

وانتهى المجلس لا الى اباحة الشذوذ الجنسى ولكن الى تحديد منطقة أباحته فاشترط ألا يتم علنا وأن يتم بالرضاء دون الاكراه ولا يقع على قاصر . ثم انتقل المجلس بعد ذلك الى موضوع خطير آخر ، لا يقل خطرا عن آفة الشذوذ الجنسى ولكنه كان هذه المرة موضوعا انسانيا ، لايبعد أن يكون قد ساور الكثيرين جدا منا . ونعنى به موضوع (قتل المريض الميئوس من شفائه)

هل يجوز للطبيب الذى يعلم يقينا وبلا أدنى شبهة من شبهات الشك أن مريضه لا أمل فى شفائه ان يقدم على قتله اذا طلب منه أهل المريض ذلك .

ومبرر هذا التساؤل أن بعض المرضى فى حالات غير قليلة ثبت الا حيلة للطبيب ولا للطب فى علاج حالاتهم . فهم ميتون لا محالة ، ولكن بعد عذاب مستطير والام هائلة لا سبيل الى تخفيفها او ازالتها فهل يجوز أن يترك هذا المسكين التعس ، يتلظى فى نار آلام مرضه ، والجميع يشاهدون ويتألمون ولا يعملون شيئا .

ثم ما هو نفع الابقاء عليه والامل مفقود ؟..

أم من حقنا أن نهيىء له الموت الذى يسمونه « الموت الهنيء »

فقد تقدم للمجلس مشروع قانون يسمح بقتل المريض الذى تبلغ حالته هذا الحد من السوء وانقطاع الامل اذا وافق ثلاثة من الاطباء ، أحدهم طبيب عام على انعـــدام الرجاء فى الشفاء ــ على ألا يتم انقاذ حكم الموت الا بعد شهو الرجاء فى الشفاء ــ على ألا يتم تنفيذ حكم الموت الا بعد شهر من قرار الاطباء ، وقد اعترض المشرع على هـــذا بثلاث حجج :

الاولى : ان الاديان كلها تحرم ازهاق الروح الانسانية باعتبار هذه الروح وديعة من الله عند عباده يستردها سبحانه عندما يريد ولا يجوز لبشر أن يعطل أرادة الله أو يسبقها فهو وحده الذى يحيى ويميت •

الثانية : ان كثير من المرضى الذين يئس الاطبـــاء من شفائهم يفاجأ الاطباء بما يشبه المعجزات فى تخلصهم من المرض ، فكم من عاجز عن الحـركة فقد الامـــل فى استطاعة وقوفه وقف ، وكم من مريض فقد نور عيونه ، وأعلن الاطباء أنه سيبقى فى ظلام العمى ، ثم أبصر •

الثالثة : ان الطب تقدم فى تخفيف الآلام الى الحد الذى لم يعد معه التأثر لآلام المريض مبررا للاسراع بقتل المريض•

فماذا ترى أنت فى الاعتراض على هذا الرأى ؟ ••

الناس عند "أبي سمبل"

لم يكن أحد أسعد منى ، وأنا اقرأ وصفه الاحتفال ، باتمام العمل فى رفع معبد (أبو سمبل) وانقاذه من مياه السد العالى .

ولقد كنت بادىء ذى بدء ، مطمئنا الى أن مياه النيل ، لم تكن لتقبل ، أن تطمر أثرا من أجمل آثار أبناء النيل ، وتخفيـــه عن الاعين والى الابد ، ثم تذهب ، فى تحليله وتفكيكه ، واحالته الى عدم .

النيل ، وابن النيل من القديم ، توأمان ، متلازمان يكمل أحدهما الاخر ، فقد كان النيل مصدر حياة ، ومعبودا ، وخطرا لطيفـــا ، يدعو الى التفكير ، والى التنظيم ، والى التعاون ، والى الوحدة ، ولا يدعو الى شىء كريه مطلقا .

ومثل هذا الزميل الرقيق ، لا يمكن أن يفقد رقتـــه ووداعته ، ويطوى فى أعماقه تحفة من أجمل ما صنع الانسان لا تدل على قدرة الفنان وحده ، بل وعلى قدرة المهندس ، والمنظم ، والحاكم أيضا ، فلم يكن فى وسع الفنان وحده ، أن يبدع هذه التحفة الرائعة ، بغير قدرة دولة هائلة ، يبعد مركزها عن موضع المعبد الاف الكيلومترات ، ومع ذلك ، تستطيع أن تمد الفنان بكل ما يلزمه من أدوات ، وأيد عاملة ، ورؤساء عمال ، وأموال ، ووسائل نقل ، ووسائل مواصلات .

فهذا العمل الرائع ، هو شهادة للمصرى القديم ، بأكثر من موهبة ، والمصرى القديم ، هو من صنع النيل ٠

ولذلك كان الاحتفال برفع معبد (أبو سمبل) عن مستوى مياه السد العالى ، اعلانا عن بقاء الاخوة بين النيل ، وأبناء النيل ، وحضارتهم ، وثقافتهم ، وفنهم ، ومجدهم الادارى ، وعبقريتهم السياسية ٠

ولكن كان فى الاحتفال معان أخرى كثيرة ٠

فانه يشعر العالم كله ، بأن هذا المعبد ، هو ملك الانسانية كلها وأن صنعه المصريون ، فهو اقرار جديد ، بسمو الحضارة المصرية ، وبأنها عند كل الذين يعرفون قدر الانسان ومكانه ـ قمة من القمم التى صعد اليها ، هذا الانسان ، بعد سير طويل ، شاق ، فى صحراء مجدبة ، وصخور تدمى الاقدام ، وقفر لا ماء فيه ، ولا شجر ، وأوحال ومستنقعات ، يكمن الموت فى كل ناحية منها ٠

والمعنى الثالث ، هذا الوئام الروحى ، والائتلاف الوجدانى الذى أوحى به معبد (أبو سمبل) فقرىء القرآن ، ووجد الاب المسيحى فبدت فكرة الاله ، وفكرة الدين ، فى أنقى صورها ، وأبهى حللها ٠

هذا الاله الشامل الكامل ، الذى يحتضن أهل المشارق وأهل المغارب ، أبناء عيسى ومحمد ، والذى بدأ فى المعبد ، وانتهى الى الكنيسة والمسجد ، يبعث فى النفوس ، حب الحياة ، وحب الانسان ، وحب العمل ، وحب كل ما هو جميل ورقيق وعذب ٠

ولكن لا أكتمك أنى لم أستطع ، أن أخفى عجبى من كل ما جرى فى هذا المهرجان الانسانى الجميل ، فالانسان الذى يبدى ألمه ، لتصدع معبد ، أو لاختفاء أثر فنى صغير ، والذى ينفق الملايين للابقاء على لوحته فى جدار متهدم ، او

يعيد بناء صورة يكاد القدم يخفي معالمها ، هو نفســـــه الانسان الذى يصب الحمم ، ويقذف بالمتفجرات والمدمرات ، على المدن ، فيهلك الالوف من أبناء البشر ، في لحظات ، ويفني في الوقت نفسه مالا يقدر بمال من آثار الفن العظيم ، من لوحات ، وجدران ، ونوافير ، وصـــور ، وكتب ، ومكتبات ، ووثائق .

ايكون هذا الانسان المدمر المخرب ، المجنون العاصف ، هو غير هذا الانسان الذى يبكي أمر البكاء على سطر في صفحة من كتاب ، أو خط فني لوحة على جدار ؟ .. ايكون هؤلاء الذين يصنعون المتفجرات والمحرقات ، أناسا لايمتون بصلة الى هؤلاء الذين يعشقون ريشة الفنان وقلم الكاتب ، وصوت المغني ، وحساب العالم ؟

ايكون الناس الذين ينفقون ألوف الجنيهات بحثا عن قارب ضل صاحبه في المحيط ، أو عن فرد ، اختفي في رحلة في الصحراء ، عن اخوانه ورفاقه غير هؤلاء الناس الذين يغرقون السفن الضخمة ، ويحرقون المدن العظيمة ـ فان هذا الانسان الواحد ، هو بلا شك أخ أو ابن أو أب أو جار لهؤلاء الالوف الذين يقتلون ويجزرون بـــلا حساب ـ فكيف غلا ثمنه هو ، ورخصت أعمارهم هم ؟

ألم تدع هذه الظواهر التي لا تفسر ، وهذه الغرائب التي لا تفهم ، العلماء الى أن يدركوا أن طرق تحضـــر الانسان ومدنيته التي اتبعت حتى الآن ، غير منتجة ، وأن يدرسوا الانسان طبيا ومعمليا ، فقد تكون به غدة مجهولة لم تكشف حتى اليوم ، اذا عرفنا كيف تعمل ، وضبطنا سيرها ، وتحكمنا في افرازها ، جنبنا الانسان هذا الجنون المفاجيء ، الذى يستولى عليه بـــلا تمهيد ، فيروح يحطم

ويدمر ، وكأنه يسمع قصيدة عصماء ، أو يشهد منظرا يخلب اللب ٠

ومن يدرى ، فلعلنا ، لو اتجهنا هذا الاتجاه ، نفضنا أيدينا من هذا العبث المخزى ، عبث مفاوضات نزع السلاح ، ومنع التجارب الذرية ، ومنع انتشار الاسلحة النـــووية حققنا خيرا أكثر فان هذه المحاولات جميعا مع احترامنا ، لغايتها من حيث المبدأ ـ الا أنها لا تورث الا الصداع ، ولا تبعث فى النفس الا الشعور بأنها من قبيل لعب الآباء مع الابناء ، يصرفون نظرهم بشىء لا وجود له ، عن شىء واضح ضخم ، لا تخطؤه العين فالحديث عن نزع السلاح والسلام يدور وتدور معه ، حروب ، وتحضير للحروب ٠

المتسول المليونير

ان الشحاذ المليونير الذى أعنيه ، ليس هو بطـل احدى الاساطير التى تتوارثها الاجيال جيلا بعد جيل ، وليس هو بطل ما نرويه للأطفال من حكايات قبل أن يعقد النوم أجفانهم بل هو حقيقة حية لا تزال تعيش فى بريطانيا فى شخص الشحاذ « دون باتريدج » .

و « دون باتريدج » هذا هو موسيقى متجول يكسب من الغناء فى الطرقات والازقة ، حاملا على ظهره طبلة وفى كتفه « ترمبيطة » وفى يده قيثارة . ولـكنه على الرغم من كونه متسولا فهو فنان يحسن العزف والغناء ويستهوى بصوته الاسماع ، ويشنف بموسـيقاه الاذان وقد بدأت أغانيه تعرف وتتناقلها الافواه حتى بلغت واحدة من تلك الاغانى المرتبة العاشرة بين أحسن أغانى بريطانيا .

ولـكن هذا الفنان الموهوب لم يقنع بموهبته الفنية اذ أضاف اليها موهبة اجتماعية واصلاحية ، فـكون من زملائه ، فنانى الشـوارع والازقة رابطة ، ثم استطاع أن يحصل من السلطات على اذن أتاح له أن يقيم حفلة غناء وموسيقى لفنانى الرابطة فى اكبر واشـهر قاعة موسيقية فى لندن وهى قاعة « البرت هول » وفى هذه القاعة وقف الالوف صفوفا ليستطيعوا الحصول

على تذكرة تهيىء لهم مقعدا من بين المقاعد التى تبلغ عدتها ثلاثة آلاف واربعمائة مقعد • وفى الميعاد المخصص للحفلة امتلأت القاعة بالسامعين وقد جلسوا فى ادب ، ينصتون لموسيقى وغناء الشـــوارع لا ينبثون بكلمة ، كعادة محبى الموسيقى فى الغـــرب ، حتى اذا انتهى الفنان او الفنانون من الاغنية او القطعة الموسيقية دوت القاعة بالتصـــفيق والهب الســـامعون اكفهم اعجابا واستحسانا .

ولـكن هذا الفنان المتسول حقق قبل نجاح رابطة الموسيقيين المتسولين فى حفلة « ألبرت هول » نجـــاحا عظيما لنفسه فقد بلغ دخله فى الاسبوع الواحد مائة جنيه ثم وصل هذا الدخل الى ١٥٠٠ جنيه فى الشهر ، ولم يكد ينتهى من الحفلة العظيمة حتى تلقى من الولايات المتحدة دعوة للسفر اليها واقامة حفلات بها مقـابل مبلغ ضخم ، سينقل الموســـــيقى المتســول الى قائمة أصحاب الالوف ، ولن يلبث حسب المالوف فى الغـــرب ان يحتل مكانه بين أصحاب الملايين فيصبح بذلك أول متسول مليونير فى العالم وصل عن طريق الاغنيـــة فى الزقاق والحارة الى الشهرة القومية ثم الى الشـــهرة العالمية .

ولـكن الذى نتوق الى معرفته هل سيخلع الموسيقى المتجول أو المليونير المتســـول مرقعته التى كانت السبب فى الشهرة والمال ، أم انه سيحتفظ بها ثم ســيدور وعلى كتفه وتحت ابطه وفى يده الالات الموسيقية يغنى ويعزف ويلتقط فى قبعته القطع الفضيـــة والبرونزية التى يجود بها السامعون ، أم انه سيهجر هـــذا كله وسيختار لنفسه فيللا انيقة ويشترى سيارة فاخرة ،

ويفتح حسابا فى مصرف من المصارف أو فى أكثر من مصرف ويصبح فنانا لا يغنى الا للطبقة الراقية فى المسارح الغالية ، ثم تتخاطفه شركات السينما والتليفزيون والاذاعة ؟! ..

ولو فرضنا انه سيحتفظ بثوبه القديم وقبعته العالية وأدوات الموسيقى التى صاحبته فى ايام الفقر والفاقة ، هل سيحتفظ صوته بعد أن امتلأ جيبه بالمال وذاع اسمه فى الصحف والاندية بجماله القديم وشجوه المؤثر ، وشدوه الذى يلمس أوتار القلوب ، أم ان المال سينزع العاطفة وسيصبح صوته نحاسيا ، واداؤه مصطنعا تنقصه حرارة الفنان الفقير ؟

كلنا متسولون
وعلى باب الله

من أطرف الاخبار التى سمعتها ، أن مؤسسة أنشئت حديثا فى بريطانيا ، لتقدم للناس أغرب خدمة ، وان كانت خدمة يحتاج الناس اليها حقا ، ولكن قل من يجد الشجاعة عنده ليعترف بحاجته اليهـــا • تلك هى (العطف) • فالناس فى حاجة الى طعام يأكلونه والى مسكن يأوون اليه ، والى ملبس يغطون به أجسادهم ، ولكنهم فى اخر الامر فى حاجة الى الشعور بأنهم مطلوبون ، وليسوا زائدين عن الحاجة ، ومحبوبون ، وليسوا ثقلاء يعيشون ولا أصدقاء لهم • ولكن ليس فى مقدور الانسان ، أن يجد هؤلاء الذين يمدونه بالعطف ، ويزودونه بالرفق ، ويشعرونه بأن له من يفكر فيه ، ويهتم به ، فكيف يوفر لنفسه هذه الحاجة الضرورية التى لا تقل أهمية عن الطعام والمسكن والثياب والزواج ؟ فالانسان يتقدم به العمر ، فيفقد أقرباءه ، أو قدر تباعد الاقدار بينه وبين الاقارب ، فيكون الرجل فى قارة ، وأحد أولاده فى قارة أخرى ، واحدى بناته فى قارة ثالثة ، فتنطبق عليه الوحدة ، كطوق من حديد ، يوضع حول عنقه ، ثم لا يلبث أن يضيق بنفسه شيئا فشيئا ، فماذا يفعل ، وأين يجد حاجته من العطف ، وكيف يؤنس وحشته بسؤال صديق ، عن الصحة والمزاج ؟

لقد اهتدى انسان ذكى الى هذه الحاجة الانسانية التى يتزايد عدد الذين يفتقدونها ، ففى المجتمع الحديث يعيش

الناس ، فى شقق ، كما يعيش السردين الميت فى أحقاق من صفيح ، محكمة الغلق . فكل انسان فى شقة ، لايعرف اسم جاره ، ولا يفكر فى معرفته ، ولا يدرى من أخباره شيئا ، وقد يكون جار الواحد منا مريضا ، يتعذب ، أو خائفا من خطر حقيقى أو من وهم ، وهو لا يفصله عن جاره الا حائط رقيـــق ومع ذلك ، هو يحس بأنه يعيش فى صحراء فسيحة ، ان صرخ لم يسمعه أحد ، وان أدار بصره لم يقع على آدمى اخر .

والفكرة الذكية التى اهتدى اليها الانســان الذكى ، لا تزيد عن جهاز تليفون يجلس وراءه ، رجل أو امرأة ، لهما صوت مؤنس ، ونبرة لطيفــة ، وبراعة فى الكلام البسيط القليل الموجز . ومهمة الرجل أو المرأة ، أن يدير قرص التليفون مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم ، ليسأل عن صحة ومزاج المشترك فى هذه المؤسسة ، مؤسسة « نحن نقدم لك العطف » . ولا يدرى الا المحرومون ، قيمة هذا التليفون الذى يجلجل جرسه ، فى شقة هادئة ساكنة ، ليس فيها الا ساكن أو ساكنة ، منقطعان عن العالم كله .

وليس المشتركون فى هذه المؤسسة هم وحدهم الذين يحتاجون الى رنة هذا التليفون ، فكل منا فى واقع الامر ، يحتاج الى الشعور بالعطف ويفرح بالسؤال عنه ، ولو تأفف بعضنا من كثرة السؤال ، وهرب من الناس .

فالمؤلف الكبير ، والمطرب المشهور ، والممثــل الذائع الصيت ، والفنان العالمى ، والزعيم الذى تحتشد لهالالوف كلما راح أو غدا ، فى حاجة الى العطف والسؤال ، لان هؤلاء يعانون المشقات ، ويكلفون أنفسهم فوق ما يطيقون ليبقى اسمهم مذكورا ، وصورتهم معروفة ، وشهرتهم واسعة ، وقد يخيل الينا أن هؤلاء المشاهير ، يضيقون بالشهرة ، أو يشبعون منها ، والواقع أنهم يتأففون من الناس ، ولكنهم

لا يزهدون في الشهرة ، والا لما قالوا ، أو فعلوا ما يطلبه الناس • فالكبار يحسبون حساب الناس ، وحســـاب كلامهم ، أكثر مما يحسب هذا الحساب ، المجهولون الذين يقنعون بدنياهم الصغيرة •

وقد ينشر عن الشاعر العظيم الكتب الضخمة : تحلل شعره ، وتؤرخ لحياته ، وتضع على رأسه أكاليل الغار ، ثم ينشر عن هذا الشاعر العظيم سطر في صحيفة ـ غير مقروءة ـ فيه نقد ، فيسمم حياة الشاعر ، ويفسد مزاجه • ومن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يلتمسون المدح بكل ثمن ، ويتقون النقد بكل وسيلة ، شاعرنا العظيم أحمد شوقي • وقد عرف هذا الضعف فيه بعض أصحاب المجلات التي لا تبيع من أعدادها شيئا ، فكانوا كلما احتاجوا الى مال يغمزونه بكلمة ، فيتظاهر بعدم الاكتراث ، أمام أصدقائه ، ثم يبحث عن أصحاب هذه الصحف المجهولة فيجزل لهم العطاء سرا •

ولست انسى سطرا كتبه زكي مبارك ، في مقاله الذي كان ينشره في البلاغ ، فيثرثر فيه ، وينتقل من شيء الى شيء ، بلا نظام ولا ضابط • فقد قال يوما ان التليفون دق في شقته ، فأبهجه صوت التليفون • فقد أدركت أن هذا السطر هو من أصدق ما كتبه زكي مبارك •

فليس اذن الذين اشـــتركوا في مؤسسة العطف ،هم وحدهم الذين يلتمسون هذا العطف ، ويشترونه بالثمن ، وانما كل الناس ، تبحث عنه ، وتدفع في سبيله ثمنـــا عاليا ، ولكن أكثرنا يتظاهر بالاستخفاف ، ويدعي أنه لا يريد من الناس الا أن يتركوه •

ولكن هؤلاء كاذبون ، فالناس تتسول العطف وتستجديه كل بأسلوبه ، ولكنهم جميعا على باب الله •

الحرية هى الخلق

قرات فى كتاب الشاعر الباكستانى محمد اقبال كلمة اثارت فى نفسى خواطر شتى ممتعـــة ولذيذة تتعاقب تعاقب الحلقات فى سلسلة من ذهب .

قال الشاعر المسلم ان الخلق أو القدرة على الخلق والابتكار ليست ســوى الحرية بمعنى آخر ، فالذى يخلق يجب أن يأتى بجديد لم يكن موجودا من قبل ، فمن ينقل عن سواه أو يكرر فعل غيره ، أو يردد قوله لا يكون خالقا لانه قدم لنا شيئا موجودا بالفعل . أما من يلد مخلوقا لم يره الناس من قبل ، فهذا هو الخالق فاذا كانت قدرته على الاتيان بالجديد محدودة ، زالت عنه صفة الخالق . فاذا زالت العوائق والموانع التى تحد القدرة على الخلق ، فان معنى ذلك ان الحرية تحققت ، واذا تحققت الحرية أمكن الخلق . ولهذا فان الله الذى خلق كل شىء هو الفعال لما يريد ولو لم يكن فعالاً لمـا يريد ، لما كان أعظم الخالقين . ومن هنا يقول الناس : أن الـكتاب والقراء والفنانين وكل أهل الفكر والعاملين فى ميدان العقل يحتاجون الى الحرية ليبـدعوا أشياء جميلة تبقى بعدهم وتمتع النـــاس على توالى الحقب والاجيال . ذلك لان القيود المفروضة على هؤلاء والتى تحد من حريتهم تحد فى الوقت نفسه من قدرتهم على

الخلق ، لهم لا ينطلقون مع ماتوحى به اليهم عقولهم ، ونفوسهم ، بل يتحرون الارادة الخارجية التى تضغط عليهم وتحدد لهم نطاق العمل أو الفكر . وهذا الضغط لتفاوت اثاره ، فتارة يحطم ارادة الخلق والابتكار عند الكاتب والفنان ، فيصيبه العقم تماما وتارة تخرج مخلوقاته مشوهة بتراء تتحاشاها الانظار وتشمئز منها النفوس ، وقد تخرج سليمة كاملة فى الظاهر ناقصة الروح فى الواقع ، فالشاعر أو الكاتب الذى لا يقول كل ما يريد أو الذى يقوله بغير الاسلوب الذى يرتاح اليه ويطمئن ، يخرج عمله كاملا فى المظهر ناقصا فى الجوهر .

ولكن ليس معنى هذا ان على أهل الفكر ان يطلبوا الحرية وأن يخلدوا الى مضاجعهم فى البيوت ، وأن يسألوا بين الحين والحين ، هل وافت الحرية ؟.. فاذا قيل لهم لم تأت بعد ، غطوا فى نومهم ثم استيقظوا وعادوا يسألون : هل جاءت الحرية ؟ .. فان تكرر الجواب ، استأنفوا نومهم اللذيذ وازدادوا تشبثا بالمخادع الوثيرة ، فانه اذا كانت الحرية هى ضمان الخلق أو هى الخلق ذاته فانها ثمرة عجيبة قل أن توجد فى الاشجار القصيرة التى تطولها أيدى الاقزام وهم سائرون فى الطريق يقطفون منها ما يشاءون ، فياكلون ويتلمظون فهى ثمرة فى شجرة عالية لا يصل اليها الانسان الا اذا تسلق اليها جذعا طويلا مليئا بالاشواك . أو اذا طالت قامته حتى كاد يكون عملاقا .

فاذا كان الخلق هو الحرية فان الذين يبتكرون ويضيفون الى الحياة أشياء جميلة ورائعة يبدأون بخلق حريتهم وحرية المجتمع الذى يعيشون فيه . فالحرية

التى هى ضمان الخلق هى أول ما يبدأ به الخالقون خلقهم ، والمبتكرون ابتكارهم ، والمبـــدعون ابداعهم ٠٠ فكما تستعصى قطع الصـــخر على ازميـــل النحات ، تستعصى الفكرة على الشاعر والـكاتب ، كذلك تستعصى الحرية على طالبيها والخاطبين لودها ، فان لم يمهروها بالعرق المتصبب من الحياة وأحيانا بالدم المتدفق من العروق لم تلب دعوتهم ، ولم تســـتجب لنـــدائهم ، فالخالقون المبتكرون هم الاحرار ، لان أول مبتكراتهم وبدائع آثارهم هى الحرية ذاتها ٠٠ فما من عمل ادبى او فكرى أو فنى جميـــــل ، الا ويوحى بحب الحرية ، وما تحققت الحرية الا وأوحت بالميل الى الابتكار والخلق، وهكذا تجرى الحياة فى دائرة مفرغة لا تعرف أين تبدأ ولا أين تنتهى .

العقول المعارة

كان الانسان ـ حتى الآن ـ يستطيع ان يستعير او يعير لغيره ماله أو مقتنياته الادبية والفنية ، ككتاب أو صورة او آلة موسيقية ، وكان يستطيع ان يضع فى خدمة غيره من بنى الانسان علمه أو خبرته فى شكل نصيحة أو اشراف أو تقرير ، ولكن لم يكن فى وسع الانسان ان يعير الى آخر عقله ، والتجربة التى اختزنها هذا العقل . غير انه يبدو اننا على أبواب عهد سيمكننا نحن أبناء آدم أن نستعير عقول الآخرين ، وأن نعيرهم عقولنا بكل ما فيها من خبرات وتجارب . فلقد أجرى طبيب أمريكى تجربة على الفئران وخلاصة هذه التجربة انه درب فريقا من الفئران على الخوف من الظلام ، وفريقا آخر من الفئران ايضا على الخوف من السلالم ثم امتص سائل المخ من الفريق الاول فحقن به الفريق الثانى كما امتص سائل المخ من الفريق الثانى ، وحقن به الفريق الاول ، فاذا بالفئران جميعا أصبحوا يخافون الظلام والسلالم مع ان كلا من الفريقين قبل التدريب لم يكن يخاف لا من الظلام ولا من السلالم . وبعد التدريب خاف كل منها شيئا واحدا فقط . فلما تم هذا الحقن على هذه الصورة كانت النتيجة خوف الجميع من هذين الامرين معا وليس لهذا الا معنى

واحد هو ان امتصاص السـائل من مخ حيوان ما ، وحقن مخ حيوان آخر به ، هو بمثابة نقـل التجربة والعلم التى حصلها المخ الاول الى المخ الثانى .

ولو ثبتت نتائج هـذه التجربة الاولى على تجارب تجرى على نطاق أوسع ، ولمدى أبعد ، وفى حالات اكثر تعقيدا ، ثم لو ثبت أن ما يحصله العقل الاقل تجربة من العقل الاكثر تجربة سيبقى ولن يزول زوال الكتابة التى نكتبها على سبورة بالطباشـير ، أو على لوح من الاردواز ، فان معنى ذلك ان باب التقدم الانسـانى سيفتح لا على المصاريع فحسب ، بل سيصبح كالبحر متاحا للجميع أن يغترفوا منه دون حد ولا رقابة ولا وصاية .

فلو تصورنا أمة من الامم التى حكم عليها الاستعمار بالتخلف والجمود والجهل ، استطاعت ان تحقن عقول بعض النابهين من أبنائها بسائل المخ المـأخوذ من عقول عدد من كبار الرياضيين وعلمـاء الطبيعـة والـكيمياء والفلك والطب والهندسة وتحقق عددا آخر من عقـول الفنانين التعبيريين كالممثلين والموسـيقيين والمغنين ، لاستطاعت فى فترة وجيزة أن توفر لها خميرة صالحة لنهضة سريعة فى بلادها .

ولو استرسلنا مع الاحلام ــ وهى أحلام لن يطول الامد حتى تتحقق كما تسـاورنا الآن أو كما يطورها العلم والتجربة ــ لجاز لنا أن نقول ان الانسانية ستوفر جهدا كبيرا فى تعليم أولادها ونشر الثقافة فى ربوع هذا الكوكب الذى نعيش فيه ، اذ ليس ضروريا ــ مع امكان نقل العلم والتجربة من عقل الى عقل بمجرد الحقن ــ أن تتعلم الامم نفس العلوم ، بل يحسن يومذاك ان تتخصص

كل امة فى علوم وفنون يثبت تفوق أبنائها فيها لتدع لغيرها من الامم ما يبرع فيه أبناؤها ، ثم يحدث التبادل بين هذه الامم المتخصصة ، فكما تتخصص بلاد فى انتاج القطن الممتاز ذى التيلة الطويلة .. وبلاد فى انتاج الارز ، واقطار فى انتاج قصب السكر ، تتخصص أمم فى فرع من فروع الهندسة ، وأمم فى فرع من فروع القانون ، وشعوب فى شىء من الطب ، وهكذا ثم تجرى عملية الحقن .

ولا يحسبن القارىء الكريم ان هذا الذى نقوله هو هذر لا يستحق الاستماع اليه ، او الاهتمام به ، فاحلام الادباء ، وتأملات الفلاسفة ، وتمنيات الافراد العاديين تحولت مع الزمن الى حقائق . ولكن يقوم الى جانب حق الانسان الشرعى فى أن يحلم ، واجب عليه هو أن يعرف انه لن يأتى اليوم الذى يكون فيه تحصيل العلم او الثقافة بغير جهد مهما سهلت الادوات ويسر التقدم الفنى على الباحثين سبل الدراسة والتحصيل فعلماء اليوم - مع الاجهزة الفنية التى لم تكن تخطر على بال - لا يزالون يبذلون العرق ، واحيانا الدموع ليحققوا التقدم المرجو ، فالعلم والمعرفة والجهد والاحتمال ، اشقاء لا ينفصلون وزملاء لا يترك احدهم صاحبه أبدا .

أجزاخانة الأزهر

مررت وصديق من اصدقائي « بأجزاخانة الازهر » فارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال : « ما أشبه الكثيرين من مؤسساتنا الثقافية والفنية بهذه الصيدلية » ولم افهم ما قال ، ولكنه استرسل في كلامه : « لو مر اجنبى بهذه الصيدلية ، قام في وهمه انها تصنع دواء من وضع علماء الازهر ، وفقوا اليه بفضل كتب كتبها زملاؤهم او كتبها أساتذتهم تطبيقا لطب ازهرى وضع المسلمون والعرب أساسه ، ثم اضاف اليه المحدثون من أبنائهم وأبناء الامم الاخرى اشياء وأشياء » ، والحقيقة أبعد الامور عن هذا الذى نتصوره او الذى كان يجب أن يكون ، ولعل اجزاخانة الازهر مثل « بار اللواء » فقد اتخذ صاحبه من اسم صحيفة مصطفى كامل الوطنية عنوانا له ، وما أبعد الصحيفة عن البار . وصيدلية الازهر تعد دواء من تذاكر كتبت باللغة اللاتينية لأدوية اسمها لاتينى ، وبناء على طب وضع اصوله وألفت كتبه وشرح متنه علماء من امريكا وأوربا ليس فيهم واحد يعرف العربية او يؤمن بالاسلام .

وذكرتني هذه الملاحظة بما رددناه حينما صحت النية على تطوير الازهر ، فقد كنا نطمع في ان يكون

الجامع « لا الجامعة » معهدا يواجه متطلبات الحياة العصرية النظرية والتطبيقية ، ولكن على أسسه القديمة وعلى يد علماء وتلاميذ نشأوا فى أحضانه وتتلمذوا عليه واصبحوا جزءاً منه يفهمون ما يجرى فى دنياهم ، ويتحدثون بلغة أيامهم ، ولكن دون أن تنفصم صلتهم بأصولهم ، فهم كالابن والحفيد من الاب أو الجد .. الابن يلبس زى عصره ، ويتكلم لغة عهده ، ويفكر فيما يجرى فى عالمه ، ولكنه ابن هذا الاب وحفيد هذا الجد « يشبهه ويجرى دمه فى عروقه » .

واذكر اننا حينما كنا نناقش تطوير الازهر ، قال لى شاب ، هو مني بمثابة الابن : « ألم تر الى الراهب المسيحى يضع فوق مسوحه معطف الجراح ، ويجرى بيده العملية الجراحية ، وهو راهب ، انقطع لعلم اللاهوت ، ونذر نفسه لدينه » فقلت له : « هذا بالضبط ما نريده . الجوهر الباقى هو الراهب والمظهر المتغير هو معطف الطبيب ، نريد أزهريين تعلموا فى الازهر ما يتعلمه التلميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية الحكومية والمصرية وخرج منها يعرف الطبيعة والكيمياء والتاريخ والجبر والرسم والهندسة ، وحفظ معها القرآن بأجزائه الثلاثين ، وعرف مبادىء الشريعة والفقه والحديث وقدرا عظيما من قواعد اللغة ونحوها وصرفها وبيانها وبديعها .

ثم يدخل الى الدراسة العليا فى الجامع الازهر لا « الجامعة الازهرية » فيتخصص فى اللغة العربية ، أو فى الشريعة الاسلامية ، أو فى التاريخ الاسلامى ، أو فى أصول الدين والفلسفة الاسلامية ، أو فى الطب أو الهندسة او الزراعة ، ولكن بشرط أن يدرس طالب

الطب الازهرى فى سنى دراسته الجامعية كل ما تركه المسلمون فى الطب بفضل ابن سيناء واشباهه دراسة احاطة وتعمق ، وأن يدرس طالب العلم الازهرى كل ما تركه المسلمون فى العلوم ، بفضل ابن الهيثم ، والبيرونى ، والخوارزمى وأضرابهم ، ويدرس طالب الجغرافيا الازهرى كل ما تركه المسعودى واخوانه فاذا خرج هؤلاء الى الدنيا اطباء وعلماء ومدرسين كانوا طرازا يختلف اختلافا جوهريا عن زملائهم الذين تخرجوا فى جامعاتنا الحديثة . فالطبيب الازهرى ، والمهندس الازهرى ، والجيولوجى الأزهرى ، والصيدلى الازهرى جميعهم حفظوا القرآن ، وعرفوا من الحضارة الاسلامية وفكرها وأدبها وتقاليدها وآثارها ما لايعرفه الطلاب الذين اخذوا العلم فى الجامعات العصرية ، ويصبح ما يعمله الازهر جديرا بأن يضيف الى حياتنا وحياة الناس شيئا جديدا .

وكان السبيل الى تحقيق هذه الغاية أن يتم التطابق بين الدراسة الابتدائية والثانوية فى الازهر والدراسة الابتدائية والثانوية العادية ، فيما عدا تميز الدراسة الازهرية فى هاتين المرحلتين بالمواد الاسلامية ، الأمر الذى يجب أن تطول معه الدراسة الازهرية سنتين أو ثلاث سنوات، على أن يعوض الطالب عنهما آخر الآمر بعلاوة على مرتبه ، ان هو اتم دراسته فى الكليات الحديثة .

فاذا اجتمع لدينا عدد كاف من علمائنا الازهريين الذين حصلوا على اجازاتهم النهائية من الجامعات الحديثة فى مصر والخارج ، كانوا هم نواة الكليات الحديثة فى الازهر ، وكانت هذه الكليات ازهرية بحق ، وكان التطور تطورا بغير شبهة أو جدال .

ان الراهب المسيحى حينما يتناول شيئا من العلم الحديث ، طبا كان او هندسة أو تدريسا أو تأليفا يكون هدفه من هذا أن يخدم عقيدته ، وينشر مذهبه كذلك يجب ان تكون الغاية من تخريج الأطباء والمهندسين والصـــيادلة وغيرهم من الازهريين أن يتصـــل العلم الاسلامى بالعلم الحديث ، وأن تســـاهم الحضـــارة الاسلامية فى الحضـــارة العصرية على يد علمـــاء عرفوا آخر ما وصل اليه الانسان فى دروب المعرفة وطرائقها ، مع صلة وثيقة ووطيدة بالثقافة الاسلامية ، صلة علم ودراسة وصلة فهم واحاطة .

أما الـكليات التقليدية الازهرية ، فخطرها أكبر مما تتصور ، ورسالتها أعظم مما ندرك .. فان افريقيـــــا وآسيا ، فتحت أبوابها بعد أن سقط الـكثير من سلطان الاستعمار وزال الستار الحديدى الذى أبقى هـــذه الدول فى ظلام ما قبل التاريخ. وهذه الشعوب الصديقة والشقيقة فى حاجة الى من يثقف ، ويعلم ، ويأخـــذ باليد ، وليس اليق بهذه المهمة من الازهرى الذى نشر أجداده نور الحضارة فى شرق افريقيـــا وغربها ، وفى جنوب آسيا ، وجنوبها الشرقى ، ولـــكن لـــكى يكون هؤلاء جديرين بالعبء الذى سنلقيه على أكتافهم يجب أن ندقق فى اختيار طلاب هذه الـكليات الاسلامية :

أصول الدين ، واللغة العربية ، والشريعة والقانون ، فنفتح أبوابها لاصحاء البـــدن والعقل ، والممتازين فى الدراسة الثانوية ، فان هؤلاء لن يكونوا موظفين عاديين يجلسون وراء المـكاتب ، أو يعملون بالاسلوب العادى ، بل سيكونون طلائع دعوة وفكر ، يحتاجون الى ثقافة واسعة ، وارادة نافذة ، وحيوية تصـــمد للمتاعب ، وتعلو عليها .

التربية الدينية

لا اذكر اننا تلقينا تربية دينيـــة فى المدارس المصرية الحكومية حينما كنا صبيانا . بل الذى أذكره ان نظام التعليم قام على حرمان التلاميذ من أية تربية دينية ، لان هذا التعليم كان من تصميم ووضع الانجليـــز . والانجليز ، وامثالهم من الاســـتعماريين يحرصون ــ سياسيا ــ على عدم المساس العلنى بالاحســـاسات الدينية للشعب ، ولـكنهم فى الوقت نفســـه يكرهون اشد الـكره أن يتعلم أبناء الشعوب التى يحكمونها ، اى شىء صادق وصحيح عن أديانهم ، سواء كان هـــذا الدين اسلاميا أو مسيحيا .

فالمبشرون الذين يدعون انهم ينشرون المسيحيـــة فى البلاد غير المتمدينة فى افريقيا ، والمتخلفة فى آسيا ، والفطرية فى استراليا ، لا ينشرون المسيحية التى جاء بها السيد المسيح ، وانما ينشرون نوعا غريبـــا من المسيحية صنعته الدوائر الاستعمارية ، الغـــاية منـه تعليم أهل البـــلاد الاصليين لغة البلد الغـــازية . ثم انتزاعهم من البيئة التى يعيشون فيها وينتمون اليها ليكونوا أدوات للاستعمار ، يضربون بها أهلهم ووطنهم ، وقد علمت ان هؤلاء المبشرين فى الصومال كانوا يدخلون اللقطاء الى المسيحية ، وان هؤلاء اللقطاء لم يلبثوا حتى

تركوها ، حينما ترك سادتهم الصومال . فقد كانت مسيحية لخدمة الاستعمار ، لا لخدمة المسيح .

لذلك كله كانت التربية الدينية فى مدارسنا شيئا منبوذا وكريها ، فحصة الدين كانت حصة يتيمة فى الاسبوع ، وكانت توضع فى ذيل اليوم المدرسى ، حتى يشعر التلاميذ بأنها زائدة عن الحاجة ، وكانوا يحشرون فيها تلاميذ فصلين فى حجرة واحدة . على ان المصاب الاكبر كان في مادة هذه الحصة ، فقد كانت هذه التربية الدينية لا تعدو أمرين : حفظ قصار السور ، نتلوها ، وعلى رؤوسنا عصا الاستاذ مشهرة ، تهوى على الاكتاف والاطراف ، لمجرد الخطأ او الشروع فيه ، ولم يكن أحد منا يعرف حرفا واحدا من هذه السور ، فلم يكن فى وسع صبى صغير فى السابعة أو الثامنة أن يعرف ماذا تكون « العاديات » ، ولا ما هو « العهن المنفوش » ولا من هم « المطففون » ، ولم يكلف أحد خاطره ، ليقرب الينا هذه الآيات أو يحببنا فيها ، أو يمد يده نحونا لنتذوقها .

فاذا فرغنا من هذه الآيات ومن الخوف من عصا الاستاذ ، أو من الاصطلاء بنارها فعلا ، بدأنا نتلو فى كتاب اسمه « الديانة والتهذيب » طبع على ورق رخيص مع ان كتب تلك الايام كانت تطبع على ورق مصقول ، وتحلى بصور لا بأس بها . أما هذا الكتاب فكان قاتما خاليا من أية صورة ، كتب بلغة المواعظ المنبرية ، ينهى عن المنكرات التى لا نعرفها ، ويدعونا الى فضائل أكبر من ان نستطيع أن نمارسها .

لذلك خرجنا من الدراسة الابتدائية وليس امامنا مثل اعلى نتطلع اليه ، وقد خلت حياتنا من أى زاد روحى فنتسلح به فى كفاحنا الشخصى أو فى كفاحنا العام .

أما المدارس الثانوية ، فقد أعفت نفسها من هـــذا العبء الـكريه ، فخلت برامجها من التربية الدينية ، مع ان الشباب فى مثل هذه السن أحوج ما يكون الى من يناقش معه مشـكلات هـذه الفترة الحرجة من حياته التى تكثر فيها تساؤلاته ، والتى يتلفت فيهـا يمينا ويسارا ، باحثا عن شخص أكبر منه سنا ، وأكثر منه تجربة يطمئن اليه ، ويفضى بذات نفسه .

ولست أدرى بالضـبط أى جـديد طرأ على مركز التربية الدينية فى مناهج تعليم وتنشئة أولادنا . الا تزال فى المركز الوضيع الذى كانت تحتله فى الماضى أم انها تحسنت وتولاها أحد بالعناية والرعاية .

على أية حال انى أرجو أن يفهم ان التربية الدينية هى أولا وقبل كل شىء تربية انسانية ، وان الغاية منها تعزيز خلق الطفل والصبى وتعويده على النظــر الى الانسانية والـكون العام نظرة فهم وود وتفاؤل وأمل ، فليست التربية الدينية المطلوبة خوضـــا فى مشكلات العقائد ، ولا اثارة لنوازع العصبية .

ومن هنا فانى أقترح أن تقتصر التربيـــة الدينيـــة للصبيان فى سنى الدراسة الاولى على الاناشيد الجميلة التى يسهل على هؤلاء الصـغار التغنى بها ، فتعلمهم مبادىء الغناء ، وتربى ذوقهم الفنى . ويجب أن تقتصر هذه الاناشـيد على الفرح بجمال الـكون ، والسرور بالنظر الى البحر ، والنهر ، والحقل والزهر والقمر والشجر ، ووصف الطيـــور والبساتين ، والســـماء والسحاب ، وفى هذه المرحلة يجب أن يتلقى الاطفـال جميعا هذه الاناشيد فى فصل واحد ، يضم المســلم والمسيحى ، فاذا تقدموا فى السن ، وجب أن توضع فى

أيديهم كتب مطبوعة على احسن ورق ، مزينة بالصور الملونة ، تروى قصص الانبياء ، وتواضعهم ، وحبهم للفقير ، وعطفهم على الضعيف ، وشجاعتهم وصبرهم .

فاذا تقدموا ، وضعت فى أيديهم كتب حسنة الطبع والتصوير والتلوين ، تروى قصة الرسول عليه السلام وقصصا من حياة الخلفاء ، كقصة عمر بن الخطاب مع المراة الفقيرة التى كانت لا تجد ما تطعم به أولادها ، وقد اشتد عليهم الجوع ، وعلا بكاؤهم .. وهكذا تتدرج هذه التربية ، حتى تصل الى فلسفة الدين الاسلامى ، وقواعده الكلية ، ونظرته الشاملة للانسانية ، وحرصه على السلام العام ، وآثاره فى الحضارة الحديثة . وفى الفصول العليا يجب أن تشمل الدراسة تطور علاقة العالم الاسلامي بالمجتمع الدولى فى مختلف الحقب ، ودراسة مستقبل الحضارة الاسلامية ، والدور الذى يمكن ان تلعبه فى الازمة العالمية التى نجتازها .

وبالجملة ، يجب أن نغير نظرتنا الى هذه المادة الحيوية ، وان نجعل منها سبيلا الى توسيع نظرة الصبى والشاب المسلم الى العالم ، وأن نؤكد عنده شعوره بأهمية دوره الحضارى والانسانى .

كتاب القرية العظيم

ما اكاد اذكر او اسمع شيئا عن التربيـــة او عن التعليم ، أو عن مكافحة الامية ، أو عن تنقيح البرامج او عن ضيق التلاميذ بفصولهم ، أو ضيق الفصـــول بتلاميذها ، حتى يتداعى لذهنى اســـم « الكتاب » .

« فالـكتاب » هذا المعهد الصغير ، الفقير المتواضـع الذى نسيه الناس ، وجحدوا فضله ، وانكروا دوره ، وادار له الزمن ظهره ، هو عندي من اكبر المعـــاهد يدا فى عنق بلادنا ، واثرا فى تربية أولادنا وتعليمهم ، ومن ابقاها فضلا على رجولة رجالنا ، ونقاء لغتنـــا ، وتقويم السنتنا .

« فكتاب » القرية بقى رافعا شعلة التعليم ، مبقيا على جذوة اللغة العربية ، مبددا ظلام الجهل والامية ، فى قرانا المصرية ، لولاه لما خرجت هـــذه الصفوف من الادباء والمفكرين ، والخطباء ، والفنانين ، والفقهاء ، والمربين ، والعلماء ، والصحفيين ، فانك لا تقرأ ترجمـــة حياة عظيم من عظماء الادب أو القانون أو السياسة أو الصحافة فى بلادنا ، الا وتجد فى صدر هذه الترجمة ، انه تلقى العلم فى « الـكتاب » وان « سيدنا » هش عليه « بالمقرعة » . صحيح ان بعض هؤلاء ، فروا من « الـكتاب » ، وقد ارهبتهم « الفلقة » التى كانتا

توضع فيها أقدام الصغار ، توطئـــة لجلدهم ، وان بعضهم رأوا فى شخص « سيدنا » رجلا فظا غليظ القلب يكاد لا يعرف التعليم ، بقدر ما يعرف الصفع والركل والجلد . ولكن بعد خصم كل هؤلاء الافراد من قائمة خريجى « الـكتاب » يبقى جيش عرمرم أتقن القراءة والكتابة ، وحفظ أفراده القرآن كله أو بعضه ، وعرفوا القواعد الحسابية الاربع الاصلية ، من جمع ، وطرح ، وضرب ، وقسمة ، فى « الـكتاب » ثم رأوا السنتهم وقد استقامت ، وقدرتهم على القراءة والتحصيـل ، وقد زادت ، وحبهم للمعرفة والتثقيف وقد أقلقتهم ، فدفعت بهم الى الازهر ، ومن الازهر ، عرفوا كيف يؤلفون الـكتب ، ويحررون المقالات ، وكيف يخطبون فيثيرون الجماهير ، ضد الخديو حينا ، وضد الاحتلال حينا آخر ، وضدهما معا حينا ثالثا .

و « للـكتاب » العظيم مزايا يجب أن تذكر وتشكر، فهو أولا متواضع .. يذهب الى التلاميذ ، ولا ينتظر أن يأتوا اليه ، فهو يفتح أبوابه ـ التى لا وجود لها ـ على حصيرة قصيرة ، على شط ترعة أو جدول ، وفى الهواء الطلق ، أو فى حجرة متداعية ، بكوخ مهجور ، يطلق علمه .

ثم هو لا ينتزع أطفـــال القرية من قريتهم ولا من ذويهم . فهم يأتون اليه بملابســـهم القديمة الممزقة ، ويعودون بها ، وحيثما يأتى موسم عمل أيا كان هذا العمل ، جمع قطن أو مقاومة دودة ، أو حصاد غلة ، يتركون « الـكتاب » بلا استئذان أو مراجعــة ، وبلا اجراءات معقدة ، وأخذ ورد .

وما أيسر ما يدفعه هؤلاء التـــلاميذ الى أستاذهم ،

ومربيهم : شيئا من « البتاو » أو قليلا من الفلة ، أو كعكات أو قطائر ، تصر فى منديل وتسلم « لسيدنا » فيأخذها وهو لا يكف عن هز رأسه ، والتلويح بعصاه .

ثم انظر الى هـذه المزية ، وتأمل فيها ولا تنس ، فالاطفال ـ صبيانا وبنـات ـ يجلسون متجاورين ، قبل أن تبدأ الدراسة المشتركة بسنين

ثم انظر ايضا ، ان التعليم فى هذا « الـكتاب » فى الهواء الطلق على أحدث ما تقضى به أصـــول التربية الحديثة ، وسط الحقول ، والمزارع .

ثم لا تنس أن النظريات الحديثة أيضا تنادي بالمدرس الواحد الذى يلقن الاطفال مبادىء العلوم كلها ، فتتوثق الصلة بينه وبين الاطفال ، ولا يكون مدرسا فحسب ، بل وأبا ومرشدا أيضا .

بقى ان أسأل : ما الذى طارد « الـكتاب » واخرجه من حياتنا ، وأى شكوى لنا ضده ، وأى عيب فى أن نعيده الى سابق عهده ، يعاون المدرسة الحديثة ويأخذ الفائض منها ، ونحســـنه قليلا بحيث لا نخرجه عن جوهره العريق ، ولا من دوره الأصيل .

وهل أخطىء اذا دعوت الى أن تكون عودة «الكتاب» دعوة ورسالة ، واذا رجوت أصحاب الاقلام ، ورجال التربية ، والمشتغلين بالسياسة والشئون الاجتماعية ، وحلالى مشكلاتنا الادبية والروحية أن يتفضلوا بنظرة عطف على « الكتاب » .

فهرس

صفحة

الدين ..

.. الحياة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.

هذا الكتاب

لعل خير تعريف بهذا الكتاب ،عناوين موضوعاته وخواطره ، ففى القسم الاول منه ، وهو قسم خواطروافكار حرة فى الدين ، يحدثنا عن خصائص التشريع الاسلامى ، وسماته العالمية ، كما يحدثنا عن نظام الحكم فى الاسلام ، وأسس الحريات فيه ،وعن قانون الكسب غير المشروع ، كما طبقه الرسول والخلفاء الراشدون . وبأسلوب سريع وحار ، يعرض علينا معانى جديدة ، فى الاسراء ودلالاته الانسانية ، ومستقبل التشريع الاسلامى . أما فى القسم الثانى فيتنقل بين معان كثيرة ، تبدو بعيدة بعضها عن بعض ولكن المؤلف يجمع بينها فى اطار عام شامل ، فهو ينتقل من الحديث عن الشذوذ الجنسى ، والموت الهنىء ، الى الرءوس الحافية الى « العقول المعارة » ، الى خواطر مثل « كلنا متسولون وعلى باب الله » و « أهل الكهف فى العصر الحديث » و « المليونير المتسول »

ويتردد فى الكتاب الكثير مما تتناوله الاقلام حديثا مثل « الدولة العصرية » و « الثورة الدائمة » وهو فى كل المشكلات الدقيقة الشائكة يقول رأيه صريحا ، واضحا ، لايدارى ولايجامل

١٠ قروش

كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

الفنون والجنون

في أوربا ١٩٦٩

٢٢٧

الدكتور لويس عوض

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٧ شوال ١٣٨٩ يناير ١٩٧٠

No. 227 - Janvier 1970

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهوريه العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحواله بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

الدكتور لويس عوض

الفنون والجنون في أوربا ١٩٦٩

دار الهلال

رحلة الربيع لتجفيف الدموع

هذه هى رحلتى الرابعة الى أوروبا منذ أن انضممت الى أسرة « الاهرام » لثمان سنوات خلت . كانت الاولى فى صيف ١٩٦٣ حين اشتركت فى مؤتمر الكتاب باسكتلندا ، وكانت الثانية فى صيف ١٩٦٤ حين شهدت مهرجان شكسبير والاحتفال بذكرى مرور اربعمائة سنة على مولده ، وكانت الثالثة فى صيف ١٩٦٦ حين دعيت للاشتراك فى مؤتمر جامعة لندن للتحدث فى التطورات الادبية والثقافية فى مصر منذ ١٩٥٢ . وقد جاءت رحلتى الرابعة هذه فى مطلع صيف ١٩٦٩ بعد ثلاث سنوات أو نحوها مرت وكأنها الدهور . فقد انقضى الآن عامان على محنة الوطن فى يونيو ١٩٦٧ ، تفتت فيهما الزمن ، ففدت الساعات أياما والايام شهورا والشهور أعواما والاعوام آجالا وآجالا ، وتمزقت فيهما الاعصاب وانسحقت بالخزى القلوب وأظلمت باليأس النفوس قبل أن نتعلم أخيرا فضيلة الصبر والمصابرة والثقة فى النفس ، الى أن يقضى الله بيننا وبينهم أمرا كان مفعولا ، فى يوم كيوم الهول بسيف احمس المسلول أو بمعجزة كمعجزة ذلك البرق الذى ومض فى القديم ففتق الظلمة السحماء على قمة طور سينين ، عسى أن يضىء بنور الحق قلب العالمين .

فرحلتى الرابعة اذن كانت رحلة نقاهة . وقد توسل كل منا عبر السنتين الماضيتين بوسيلته الخاصة لنقاهة نفسه . وكلنا يعلم أن زمام الوطن فى أيد أمينة ، وان تماسكنا وصمود قيادتنا قد فوتا على العدو كثيرا من مآربه ، ولكننا نعلم أيضا انه لا برء لأحد من هذا الجرح الدامى ما بقى العدو على شبر من تراب الوطن ، مهما تماسكنا أو تجلت فينا صلابة الرجال .



اما أنا فلم اجد بعد شهرين من المرارة والاحساس بالضياع سبيلا الى اجتياز أحلك الفترات الا الالتجاء الى اليونان ، لعلى أجد فى الفن رقية تشفى أوجاع الحياة ، فانكببت على مآسى اسخيلوس حتى أتممت ترجمة « حاملات القرابين » ثم ترجمت «الصافحات».

وحين أمكننى أن أسترد توازنى كتبت «للاهرام » طائفة من البحوث فى « تاريخ الفكر المصرى الحديث » باحثا عن مأساتنا فى انقطاع ذلك المجرى العظيم الذى حال نضوبه دون استكمالنا مقومات الدولة المصرية ، فلما صدر بيان ٣٠ مارس تجدد الامل فى نفسى وكتبت طائفة من المقالات فى التحديات الثقافية الرهيبة التى سوف تواجه المجالس المتخصصة عند انشائها ولما فرغت جعبتى عدت الى الصمت العميق . فقد تبلور فى ذهنى معنى واحد مزعج : عسير أن أعود فى محنة الوطن الى ما كنت افعله قبل ٥ يونيو فأكتب مقالا فى مسرحية لتوفيق الحكيم أو رواية لنجيب محفوظ أو ديوان لصلاح عبد الصبور . كل هذه الاشياء بدت لى سفاسف لا نفع فيها وسط هذه المحنة القاسية ،

وخيل الى ان كل كلمة تقال او عمل يعمل او خطوة تخطى ينبغى أن تنصرف الى معنى واحد لا ثانى له وهو : كيف ندل الناس على تحرير ما اغتصبه العدو من أرض الوطن . وكانت مشكلتى الكبرى انى أديب ولست كاتبا سياسيا ، ولم أشأ أن أقحم نفسى فيما لا أتقنه ، فكان لزاما على أن أصمت وان يطول صمتى .

كل ذلك ونظرات رئيس التحرير تلاحقنى فى عتاب رقيق ، قائلة : يجب أن تكتب . ان لقرائك عليك حقا. وكنت أضيق بنفسى ولا أعرف لى مخرجا من هـذا الصمت الكئيب . وحين عرضت على رئيس التحرير مشكلتى ختمت كلامى بقولى : باختصار ، أنا أعتقد ان محنتنا ليست عسكرية ولا سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية ولا خلقية ولا روحية ، ولا اى شىء واحد من هذه الاشياء ، وانما هى كل هذه الاشياء مجتمعة : هى محنة « حضارية » . ان مصر كجبل الجليد المشهور فى محيطات القطبين ثمنه ظاهر فوق سطح الماء وسبعة اثمانه غارق فى الاعماق . كذلك حياتنا ثمنها فى نور القرن العشرين وسبعة اثمانها فى ظلام العصورالوسطى. نحن كأوربا أيام انتقالها من العصر الوسيط الى عصر النهضة وقد أحسسنا بآلام المخاض فى القرن التاسع عشر ايام رفاعة الطهطاوى ، ومحمد عبده ، وقاسم امين . ولكن الجنين ـ جنين الدولة المصرية ـ اجهض دون رحمة . وحين تكون الجنين مرة أخرى ايام لطفى السيد ، وطه حسين ، وعلى عبد الرازق ، وسلامة موسى ، أجهض دون رحمة من جديد . ان معركتنا الحقيقية هى معركة بين القديم والجديد ، بين الرجعية والتقدمية . حتى الديمقراطية او الاشتراكية

تبدو مستحيلة بغير الدعوة الانسانية وبغير حركة الاصلاح الدينى وبغير الثورة الثقافية . قال : ولماذا لا تكتب فى كل هذه المعاني ؟.. واتفقنا .

ولكنى لم البث أن اكتشفت ان هذا التحدى اكبر من طاقتى لأنه يحتاج الى فريق عمل ضخم يعمل من كل منابر الرأى ، وليس يكفى فيه مجهود فرد من الافراد .

فهذه الرحلة اذن كانت رحلة نقاهة ، ومع ذلك فقد خرجت منها بصيد ثمين : احدى عشرة مسرحية . لم أر فيها فنا رائعا كرحلاتى السابقة ولكنى رأيت فيها ثلاثة أشياء : رأيت فيها روما ـ ولم أكن قد رأيتها من قبل . ورأيت فيها ثانيا مشاكل الشباب والجيل الجديد على الطبيعة وعلى خشبة المسرح . وشاهدت ذلك التحول السوسيولوجي الخطير الذى يمر به المجتمع الغربى متمثلا فى جيل « الهيبز » الشهير ، يتجلى بين الانجليز فى الحياة والفن ويتجلى بين الفرنسيين فى السياسة والفكر الاجتماعي . ورأيت فيها ثالثا انطباعات مشاكل مصر فى نفوس المثقفين الاوربيين ويالها من انطباعات أليمة . وعدت أهدأ نفسا ، أما النقاهة فهيهات هيهات . فالى أن يخرج آخر جندى اسرائيلى من أرض مصر ، لن تعرف النفس سلاما ولو غسلت فى بحار البلسم أو اطعمت قطر الندى والمن والسلوان . سلام على سيناء مطهرنا ولو أفضت بنا الى عرصات الجحيم .

وهكذا بدأت رحلتى الكئيبة من القاهرة الي بيروت .

فقد تعودت فى السنوات الاخيرة أن امر على بيروت كلما قصدت أوربا لألتقى فيها بأصدقائى من الادباء ، والناشرين ، ونزلت كعادتى بفندق فينسيا ثلاث ليال ، بلغة الفنادق ، كلفتنى ٢٨٦ ليرة لبنانية (أى ٤٥ جنيها مصريا بالسعر الرسمى أو ٧٠ جنيهـــا بالسعر الحر وقتئذ) مجرد المبيت والافطار ومكالمة تليفــونية مع روما لم تتم ، وهو رقم جنونى . ووجدت بيروت مدينة حزينة فقد نزلتها غداة اعلان حظر التـجول بسبب المصادمات الدامية بين الحكومة والفدائيين الفلسطينيين بشأن نشاط الفدائيين من الاراضى اللبنــانية وكانت الشوارع مهجورة أكثر النهار وطول الليل ، وبدا وكأن المدينة ترقد على لغم مكظوم . ومع ذلك فقد خففت قيود التجول فى اليوم التالى . وأمكن لى أن أرى بعض زملائي من أساتذة الجامعة المصرية الذين يدرســون فى جامعة بيروت ، وان اتغدى مع ادونيس ويوسف الخال ، وان أمتع بصحبة أستاذين لبنانيين هما : انطوان ملتقى وجلال خورى ، وهما من المختصين فى المسرح ، وكنت قد تعرفت عليهما فى القاهرة خلال احتفـــالات المسرح العالمى التى نظمها اليونسكو واشـــتركا معا فى هيئة المحكمين المندوبين عن الدول العربية للنظر فى مسابقة « المسرحية العربية » .

وخرجنا الى جبيل ، وهى بيبلوس الشهيرة فى كتب القدماء ، نحو ثلاثين او اربعين كيلومترا شمال بيروت على شاطىء البحر الابيض المتوســط ، نجدد ذكرى أوزيريس ، رب الخصب المصرى الذى روت الاســاطير ان جثمانه فى تابوته طفا اليه بعد مقتله بيد أخيه الشرير ست فى مأدبة الغدر ، طفا على أمواج النيــل حتى بلغ

البحر المالح ثم طفا على أمواج البحر المالح حتى رسا على شاطىء بيبلوس حاضرة فينيقيا ، وهناك ارتفعت من حوله شجرة سامقة واحتوته . فلما رأت الملكة عشتروت ، ربة فينيقيا ، وهى تقابل ايزيس ربة الخصب عند المصريين ، هذه الشجرة السامقة امتلأت بجمالها عيناها ، وأمرت بأن تقطع الشجرة وتوضع كالعمود فى صحن قصرها المنيف . وكانت ايزيس ربة وادى النيل بعد مقتل أخيها وزوجها أوزيريس تجوب الوادى بحثا عن جثمانه الطافى على أمواج النيل ، نائحة مولولة تدق الصدر وتلطم الخد وتصبغ وجهها بالنيلة الزرقاء . فلما جاءها ما جرى للتابوت المقدس هرعت الى بيبلوس واندست فى قصر الربة عشتروت فى زى مربية لولدها . وكانت كلما خلت الى نفسها تتخذ هيئة النسر وتحوم حول العمود المقدس ، فحملت من جثمان زوجها أوزيريس بالروح . وكانت للمربية قدرة السحرة ففاجأتها عشتروت ذات يوم وهى تلقى بوليدها فى النار ، فلما ارتاعت عشتروت كشفت لها المربية عن نفسها قائلة : « لا تجزعى . فأنا ايزيس ربة وادى النيل ، جئت ابحث عن جثمان زوجى أوزيريس ، وقد وجدت تابوته المقدس داخل ذلك العمود الذى يقوم عليه صرحك العظيم ، وما القيت بوليدك فى النار الا لامنحه الخلود اعترافا منى بجميلك الذى لا حد لمداه » . فكرمتها عشتروت تكريما وردت اليها تابوت أوزيريس لتعود به الى مصر . وعادت الربة ايزيس بجثمان زوجها الي مصر فى الزورق عبر البحر المالح ، وعندما قاربت شطئان مصر طبعت على شفتيه قبلة ، فردت انفاسها اليه الحياة . وهكذا

بعث أوزيريس ليخوض الملاحم من جـديد فى صراعه مع أخيه الشرير ست ، ليمزق من جديد . أما ايزيس فقـد جاءها المخاض بين مستنقعات الدلتا ، وولدت وليدها العظيم ، الطفل الالهى حوريس ، الذى قدرت له الاقدار أن يكون الابن المنتقم لابيه .

كلّ هذه الخواطر كانت تنساب فى خاطرى والسيارة تنهب بنا الارض نهبا حتى بلغنا جبيل ، مركز عبـادة أوزيريس فى القديم ، وهو أدونيس فينيقيا ، فلم نر فيها قصراً لعشتروت ولا عمودا باذخا ، وانما رأينا فيها قلعة مسحورة شماء تطل على ثبج البحر المالح وأمواجه الشاحبة ، من طاقاتها المطلة على الجهات الاربع فى كل مستوى يتسع مدار الافق حتى ليخيـل اليك وانت تحدق فى خط البحر والسماء البعيد أنك ترى قبرص ذات الاعناب الـكثيرة مهد افروديت ام الغرام ، أو ترى سـفائن قرصان البحر وجوارى الصـليبيين قادمة من حيث تغرب الشـمس . فالقلعـة فيما يقـال بنيت أيام الصليبيين ، ولـكن فى حرمها آثاراً من عهـد الملك احيرام ومنهـا ناووسه الشهير بنقوشه ، وهى أقدم أبجدية فينيقية ترجع الى ١٢٥٠ ق . م ، كما ان فى حرمها اطـلال مسرح وأعمـدة من العهـد اليونانى الرومانى . وبعد أن تغدينا فى كهف أحيرام ، خرجنا الى المرتفعات الخضراء والمرتفعات الجرداء حيث قرية رشانا وهنـاك تجولنا فى اسـتوديو ثلاثة اخوة كلهم مثالون موهوبون رغم تفاوتهم فى الموهبة ، وكلهم اسمهم بصبوص ، فهذا اسم الاسرة : واشـهد انى أعجبت باكثر ما رأيته من أعمالهم (ومنهـا ما كنت أتمنى أن أقتنيه) ، الا شيئا واحدا وهو ان احـدهم أكد لى

انه منذ شهر أو نحوه بلغ عدد زوار هـذا الاستديو ومشروع مدينة الفنـانين الملحق به ثلثمائة الف زائر عبر خمس سنوات ، وتمنيت الا يكون هـذا صحيحا لانه يتجاوز عدد زوار هرم خـوفو ، وهو فـأل غير حسن .. فهو يوحى بعمولات تذهب وتجيء بين أهل الفن ومكاتب السياحة . ولـكن أيا كان الامر فقـد ليقنت من اننا فى مصر لا نعرف ما فيه الـكفاية عن حالة الفن فى لبنان أو غير لبنان من الدول العربية ، وفى عمل الاخوة بصبوص ما يجعلنى أدعو مطمئنا وزارة الثقافة المصرية أن تقيم لهم معرضا فى القاهرة فى أقرب وقت ممكن .

غير هذا لم أر شيئا او أحدا فى بيروت وحين ركبت طائرتى الى روما فى اليوم الثالث ، لم يبق فى ذاكرتى من هـذه المدينـة الجميلة الا آثار بيبلوس وتماثيـل رشانا وطنين الاحاديث الاليمة التى سمعتها من سائقى التاكسى ومن معارفى اللبنانيين حول موضوع نشـاط الفدائيين الفلسطينيين من الارض اللبنانية .

وبعد سـاعات وجدت نفسى فى روما . وكان الجو مطيرا وحركة المرور فى مطار فيومتشينو الرئيسى سيئة فنزلنا فى مطار تشامبينى القديم ، وحين حملنا أوتوبيس المطار الى محطة نهاية الخط فى قلب المدينة ، طلبت من مكتب الاستعلامات أن يدلنى على فندق « متوسط » لا بذخ فيه ولا خصاصة ، فدلونى على فنـدق اسمه « ايليت » أى « فندق الصفوة » أو « فندق النخبة الممتازة » فى شارع فرانسسكو كريسبى . وحين بلغته وجدته أقرب شيء الى فنادق العتبة وما وراءها شرقا مع فوارق عديدة وهى ان حجرتى كانت ثلاثة أمتار فى

مترين ونصف متر ، وان عرض سريرى كان سبعين سنتيمترا ، وان ايجار الليلة كان ٥٥٠٠ ليرة ، أى نحو أربعة جنيهات . وكنت لارضى بقضائى دون شكوى لو أن حجرتي كان بها تليفون يصلنى بالعالم الخارجى فى هذه المدينة التى لم تطأها من قبل قدماى . قلت لموظف الاستقبال فى الفندق : «أنا أريد حجرة بتليفون» فاذا به يجيبنى غاضبا وفى غلظة جارحة : « أنا أعرف هذه المساومات . اذا لم تعجبك هذه الغرفة فابحث عن فندق آخر » . ولم أفهم ماذا يقصد بهذه الاهانة فأنا لم أساوم ولم أفكر فى المساومة . سألته : « أية مساومة ؟.. أنا أعرف ان لكل شىء ثمنا » . أجاب فى جفاف شديد : « ليس لدينا غير هذه الغرفة . خذها أو اتركها » . فسكت ثم قلت للخادمة : « احملى حقائبى الى الغرفة » فلم يكن ممكنا أن اعود بحقائبى الى الشارع واستوقف «تاسى» أى تاكسى ، كما يسمونه فى ايطاليا ، وأطوف به تحت المطر على فنادق روما باحثا عن فندق ، ولم أجد تفسيرا لسوء أدب هذا الموظف الا أن جنسيتى لم تعجبه ، فقد بدأت معه فى غاية الادب ، ولكنى قررت أن أخرج على الفور بلا حقائب باحثا عن فندق آخر مهما كلفنى الامر .

واستوقفت « تاسى » ووجهته الى الاكاديمية المصرية لاستعين بمديرها صلاح كامل فى البحث عن مسكن آخر . وحين بلغت الاكاديمية فى شارع اوميرو « هوميروس بالايطالية » ، وجدت صلاح كامل واقفا ببابها ، وبعد السلام نظر الى العداد فوجده يقول : ١٥٠٠ ليرة ، أى نحو جنيه ، وظهر العجب على وجهه ودخل فى حوار مع سائق التاكسى أدركت منه ان

السائق استغل غربتى ولف بى فى شوارع المدينة دون مسوغ ، وعرضت مشكلتى على صلاح كامل فقال : « لا داعى للفندق .. انزل ضيفا على الاكاديمية » . فقبلت شاكرا وارسل معى خادما ايطاليا لنعود بالحقائب ، ولم تكن قد مضت ساعة ، فتقاضى منى موظف فندق « الايليت » ..٥٥٠٠ ليرة . وطلبت فاتورة ، فأعطانى اياها ، وطويتها فى جيبى . وحين استقر بى الامر نظرت فيها فوجدت ان الموظف قد كتب فيها انى دفعت ٤٠٠٠ ليرة ، وانه غير رقم حجرتى من رقم ٨ الى رقم ٧ ، وهكذا اضاف الى سوء أدبه اللصوصية والابتزاز . وأنا اذكر كل هذه الوقائع آملا أن يكون فى القنصلية الايطالية بالقاهرة من يعرف العربية ويقرأ هذا الكلام ليبلغ وزارة السياحة الايطالية بهذا الامر فتسترد من « فندق الصفوة الممتازة » مبلغ ٥٥٠٠ ليرة استولى عليها هذا الفندق بغير وجه حق وتعطى المبلغ لاى فقير من فقراء روما . أما تاريخ الفاتورة التى احملها فهو ١٩ ابريل عام ١٩٦٩ ، وهو لابد مدون فى سجلات الفندق . أما الموظف السيىء الادب ، فاذا لم يكن صهيونيا أو ايطاليا من أجانب مصر الذين تفضلوا ونزحوا عنها فى عهد الثورة حين تبينوا أن البقرة الحلوب لم تعد حلوبا ، فمن النافع لوزارة السياحة الايطالية أن تستقصى اسباب شراسته فى معاملة نزيل من النزلاء .

يومان قضيتهما فى روما تركا فى النفس لوعة كلوعة العشاق ساعة الفراق . وقد قضيت فى بلاد الغرب نحو عشر سنوات متصلة ومتفرقة ودخلتها وخرجت منها خمسين مرة على مدى ثلاثين عاما ومع ذلك لم اكن قد

رايت روما ، ولم اكن منزعجا لانى لم ار روما . كنت فى شبابى احس بأن العمر أمامى مديد ومبسوط فلم اكن استعجل هذه الزيارة لانى أبغض ان أهبط مدينة هبوط السياح الامريكان الذين يطوفون بآثار العالم فى اسبوعين ، وأحب أن آخذ كل شيء بالاناة فكنت أركز اقامتى فى انجلترا وفرنسا ، حيث اهتماماتى الدراسية والحضارية ، مطمئنا الى أن الزمن لابد آت حين اجد نفسى مستقرا فى روما وفلورنسا استقرار الدارسين لا مارا مرور العابرين . وكانت البندقية والجندول وجسر التنهدات وكنيسة سان مارك وقصر الدوج والريالتو ومشاهد تاجر البندقية وتهويمات على محمود طه تمر كثيرا فى احلامى ، ولكن حلمى الاكبر كان أن أقيم فترة طويلة بين روما وفلورنسا وأن أعيش بين أطلال السناتو مرددا خطب كاتو وشيشرون ، وأن أقف على درج الكابيتول وأتمثل فى خيالى يوليوس قيصر مضرجا بدمائه تحت خناجر أصدقائه وأعدائه ، وان اصعد على جبل البالاتين حيث كان يسكن الشاعر هوراس ، رفيق شبابى ، وأن أمشى فى طريق كابوا دامع العين على سبارتاكوس مسيح العبيد وأعد غاية الصلبان عليها غابة من العبيد ، وأن أتجول فى الكوليسيوم وأشاهد أشباح العبيد المتصارعين حتى الموت كالديكة لتسلية سادتهم من أشراف الرومان أو أشباح شهداء المسيحية الاول الذين كانوا يلقون الى الاسود لتلتهمهم ترويحا عن نفوس الوثنيين . وفى فلورنسا كنت اتجول مع الشاعر دانتى حيثما ذهب واصعد معه معراجه وأحيا فى مطهره وأهبط جحيمه مع فرانشسكا دار رامينى وكايبس والبابا نيكولا الثالث وكنت اخشع فى

الـكاتدرائيات القوطية الخالدة والتمس شفاعتي عند بياتريس ذات العينين المنقذتين ، وأجالس لورنزودى مديتشى وانصت الى بيكوديللا ميراندولا وما علمه عن الانسان واعاتب مكيافللى وسيزار بورجيا وآل مديتشى الـكرام واللئام ، وكنت الطخ قميصي بألوان بوتيتشللى وليوناردو دافنشي ورفائيـل وعشرة أخر من فنـانى توسكانيا الاقوياء . كل هذا كنت أفعله فى الخيال أو أفعله كلما قرأت كتب بوركهارت أو رسكن أو وولتربايتر فى وصف تلك الحقبة الرائعة من تاريخ البشرية . ومع ذلك فقد كنت كالمرجئة أسوف وأسوف كالواثق من دخول الفردوس . وفى رجولتى تعقـدت حيـاتي قليلا وتعددت وتحددت أسفارى ، ومع ذلك فلم أزر روما ولا فلورنسـا . وتعودت فى كل مرة ان احصل فى جواز سفرى على تأشيرة لدخول ايطاليـا عازما أن أخصص لزيارتها أسبوعا عند عودتى من انجلترا وفرنسا بعـد قضاء مهمتى ، ثم تنفد مهلتى أو تسوء ظروفى فأعود الى مصر دون أن احج الى بلاد العمائر البـاذخة .

فقررت هـذه المرة ان ازور روما قبـل سـفرى الى باريس ولندن ، وياليتنى ما فعلت . فى مأدبة الفنون جلست ونهضت ، رأيت بعينى ولم أذق زادا . ولو كان الامر بيدى لاستنفدت كل رحلتى بين المتـاحف والخرائب .

الاكاديمية المصرية فى فيللا بورجيزى ، فكان طبيعيا ان أبدأ بالجاليريا بورجيزى والفيللاجوليـا . والفيللا بورجيزى ليست مجرد فيللا ، وانما هى أصـلا كانت قصرا صغيرا « بالاتسينا » وسـط حدائق شـاسعة تتسع لحي كامل كانت تملـكها أسرة بورجيزى ، وقد

وضع تصميم القصر المعماري الهولندي فان سانتان ثم بدأ احد شباب الاسرة ، وهو شيبيوني كافريللي الذي غدا فيما بعد الكاردينال بورجيزي المتوفي عام ١٦٣٣ ، في انشاء هذه المجموعة الرائعة من اللوحات من فناني عصره والعصور السابقة قبل عام ١٦٠٠ ، جمع بعضها من كنوز أسرته المتوارثة أبا عن جد واشترى بعضها الآخر ، وكان من بينها روائع خالدة مثل لوحة تيسيان « الحب الالهي والحب الجسدي » ولوحة كوريجيو « بنات داناووس » ولوحة رفائيل « النزول من الصليب » ولوحة دوسو دوسي « الحورية سيرسيه أو غواية الابطال » . وكان الكاردينال بورجيزي الشاب ذواقة في الفن فاكتشف موهبة الفنان الكبير كارافاجيو ، في وقت كان رعاة الفن المترددون يعرضون عن اقتناء لوحاته ، فأضاف الى مجموعته لوحته « مادونا السياس » ولوحة « الفتى وسلة الفواكه » ولوحة « باخوس الشاب عليلا » ولوحة « داود النبي » ولوحة « القديس يوحنا شابا » ، الخ ... كذلك ضم الكاردينال بورجيزي من أعمال تيسيان لوحته « القديس دومنيك » ولوحته « فينوس تغمي الحب » ولوحته « جلد المسيح » ، كما ضم من اعمال فيرونيز « بشارة يوحنا المعمدان » و « الانبا انطونيوس يعظ الاسماك » واعمالا عديدة من الفنانين اقل شأنا . ولكن روائع النحت التي ضمها الكاردينال شيبيوني بورجيزي الى متحفه هي أعمال المثال العظيم جان لورنزو برنيني ، ولا سيما تمثال «داود» وتمثال « ابولو ودافني » وتمثال « انياس وانكيسيس » ، و « اختطاف بروزربين » ومعها بعض تماثيل برنيني

الاب ، بيترو برنيني . وبعد وفاة الكاردينال بورجيزى أتم اخلافه من آل بورجيزى رسالته عبر القـــــرنين السابع عشر والثامن عشر ، فأضافوا وأضافوا ، وزينوا سقف القصر الصغير بالفريسكوات التى استجلبوا لها الفنانين من مختلف بلاد أوربا . وكان آخر عاشق من عشاق الفنون هو الامير كاميللو بورجيزى الذى تزوج من بولين بونابرت أخت فاتح الامصار نابليون بونابرت .

ولـكن يبدو أن عشق كاميللو لبولين كان أكبر من عشقه للفنون ، ففى زمنه نقل من متحف بورجيزى بروما الى داره فى باريس خيرة أعمال تيسيان ودوسي ورفائيل ،

ولـكنها لم تلبث أن أعيدت الى الجاليريا بورجيزى عام ١٨١٦ ، لا شك نتيجة لسقوط نابليون . كـذلك باع البرنس كاميـــــللو بورجيزى الى متحف اللوفر أكثر من مائتى تمثال كلاسيكى كانت أسرته قد اقتنتهـــا وهى لا تزال فى اللوفر الى اليـــوم . غير ان درة المرمر التى تركها فى متحف آل بورجيزى كانت تمثال انطونيـــو كانوفا لزوجته بولين بورجيزى ، وقد نحته عام ١٨٠٥،

وهو التمثال المعروف باســـم « فينـــوس المنتصرة » ــ فيكتريكس ــ (يبدو أن النصر كان حليف نابليون وأخته بولين ، هذا انتصر بأسلحة مارس رب الحرب ،

وتلك انتصرت بأسلحة فينوس ربة الغرام) . ومن بعد الامير كاميللو بورجيزى لم يضيف خلفـــه فرانشسكو بورجيزى الى متحف الاسرة شيئـــا ذا بال الا نسخة مومرية مستحدثة من تمثال الهرمافروديت القـــديم

« الخنثى » . ولـكن تبـديدات الامير كاميللو جعلت الحكومة الايطالية تسن القوانين عام ١٨٣٣ لتمنع تسرب كنوز هذه المجموعة الخاصة الى خارج ايطاليا واخيرا

اشترت المتحف فى جملتــه عام ١٩٠١ وجعلته احـــد متاحف الدولة .

***

مبهورا وقفت امام اللوحة والتمثــال فى الجاليريا بورجيزى . ساعات وقفت اتأمل آيات الفن الكلاسيكى والكلاسيكى الجديد وأتمتم بشعر براونيج امام اعمال اندريا ديل سارتو وتتدفق فى ذاكرتى اساطير اليونان امام عمل برنينى وأحار فى جسدانية فنانى الرنيسانس وهى تتسامى فى موضوعاتهم الروحانية ، وتشتت بصرى بين الذهب واللازورد فى فريسكوات السقف ونقوشــه وبين الزيت الوضىء فى لوحات الخالدين وبين آيات المرمر تغص بها القاعات العظيمة . القصر صــغير . القصر صغير . يكتظ بالجمال وكأنه مخزن تحف ، كما يكتظ المتحف المصرى بالسمو وكأنه مستودع للآلهة والابطال.

لا شىء كاللوفر حيث لـكل اثر ســاحة أو خلفية او مرتفع وفن فى العرض والاضاءة يحرك فى أغبى النفوس الاحساس بجمال ما تراه العين . اما الجاليريا بورجيزى فهو وليمـــة تتخم الحواس . وانا ممن يبتهلون أمام السمو ويسجدون أمام الجمـــال ، ولست كالـكاتب ثاكرى أرى هرم خوفو فأقول : « اعتــرف انه كبير جدا » ومع ذلك فلست أرى ما رآه ستندال حين زار متحف بورجيزى فقال : « انه من الاماكن القليلة فى العالم حيث يستطيع المرء أن يدرس أسلوب الفنــان بأحسن طريقة مرضية » . ان أهــل روما فى ورطة حقيقية ، فقصر بورجيزى الصــغير تحفــة من تحف الزمان ومحتوياته الشوامخ بحاجة الى قصر رحيب .

وفى يومى الثانى زرت الفيللاجــوليا ، وهى متحف

للفن الاتروسكى فى حرم الفيللا بورجيزى ، وقد خصصت له طول الصباح ثم خصصت طول العصر لزيارة مدينة الفاتيكان وخاصة محورها وهو كنيسة سان بيترو « القديس بطرس » . أما الحضارة الاتروسكية فهى الحضارة المجهولة النسب التى كانت قائمة فى ايطاليا قبل مجىء الرومان فيها أى منذ بداية الالف الاولى قبل الميلاد حتى المائة الاولى قبل الميلاد ، وبلغت أوجها نحو القرن السادس ق . م . وتركت آثارا لا حصر لها من الصلصال والبرونز تدل على ان شعب اتروريا كان شعبا فنانا مرهف الحس رقيق التعبير . وقد قرأت ان فى فيللاجوليا أهم مجموعة من هذه الآثار حتى بالنسبة لمجموعة فلورنسا . ويقال ان الاتروسكيين أو الاتروريين غزوا مصر بحرا مع أقوام أخرى قبل ١١٠٠ ق . م . ربما قبل أن يستقروا فى ايطاليا فالنقوش الهيروغليفية تتحدث عن غزاة اسمهم « ط ر ش و » هجموا على مصر مع أقوام « الملوك » و « الدردان » و « الاخايا » و « الفلسطين » و « السردين » و « الصقل » . فان كان هذا صحيحا فأمرهم يهمنا فى مصر ، ولا سيما لما لهم من فضل فى تكوين الابجدية الاوربية .

وأيا كان الامر فالحديث عنهم يطول ، وهو لا يفتن الا العلماء . وحتى لا نتورط فلننتقل الى مدينة الفاتيكان وقد قرأت ان نواتها وضعت نحو عام ٣٢٤ ميلادية ، أى فور اعلان الامبراطور قسطنطين أن المسيحية هى الدين الرسمى لامبراطوريته وبامره ، ببناء كنيسة بدائية تضم ضريح « القديس بطرس » على تل فاتيكانوم بروما ، أى فى نفس المكان الذى كان شهداء

المسيحية الاول يعدمون فيه بالجملة . وبطرس الرسول هو الذى بشر بالمسيحية فى روما وبدمائه ودماء تلاميذه قامت الكنيسة الكاثوليكية . وفى كل عصر كانت تضاف الى هذه النواة عمائر من آيات الفن ، ولكن البابوات المتعاقبين بدءوا ينزعجون على سلامة البناء لكثرة التجديدات والاضافات وقرروا تشييد كنيسة جديدة ، هى الكنيسة الحالية التى وضع حجرها الاساسى البابا يوليوس الثانى فى ١٨ ابريل عام ١٥٠٦

وشيدت بناء على تصميم المعمارى برامانتى وتم بناؤها بما فيها قبتها العجيبة عام ١٥٩٠ فى عهد البابا سيستوس الخامس ، وقد تعاقب على بنائها من الفنانين المعماريين بعد وفاة برامانتى من عام ١٥١٤ رافائيل وفراجيوكوندو وجوليانو داسانجالو وانطونيو داسانجالو وبلشازار وبيروتزى واخيرا بوناروتى وفونتانا وديللابورتا وهم بناة القبة العجيبة . ثم اضيفت الى جسمها من ناحية المدخل اضافات بامر البابا بول الخامس ليصبح رواقها فى هيئة صليب لاتينى طويل بعد ان كان فى هيئة صليب متساوى الاضلاع وبنى واجهتها الفنان العظيم برنينى ، ودشنها او افتتحها رسميا البابا أوربان الثامن فى ١٨ نوفمبر عام ١٦٢٦ . وكنيسة سان بيترو مقامة على مساحة عشرة أفدنة ، داخل مدينة الفاتيكان المقامة على نحو مائة فدان أكثرها حدائق غناء لايؤذن لاحد من المؤمنين أو غير المؤمنين ان يتجول فيها الا رجال الدين الذين لهم صلة بالكرسى البابوى أو أعمال الكنيسة .

وقد كان بابوات الفاتيكان فيما مضى لا يكتفون بسلطانهم الروحى على الناس بل يمارسون عليهم

سلطانا دنيويا ، ومن هنا تجدد الصـــدام بينهم وبين الملوك أو الاباطرة أو الحكام الاقـــوياء ، وكان آخر من اتخذ ضــــدهم اجراءات رادعة نابليون بونابرت الذى « خرب الـكرسى البابوى » بلغة الجبرتى . ثم لم يلبث أن صالحهم على أساس اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فلما مضى نابليون وكانت ايطاليا ممزقة فى هيئــة ولايات مستقلة قويت شوكة البابوات من جديد . ولما ظهر ماتزينى وكافور وجاريبالدى وتزعموا حركة الوحدة الايطالية ، دخل جاريبالدى روما بجيشه ليرغمها على الخضوع للحكومة الاتحادية ويجعل منها عاصمة ايطاليا كما كانت فى القديم أيام الرومان وجرد البــابا من كل سلطة زمنية « دنيوية » بعد أكثر من ألف عام من ملك السموات والارض ، وأعلن البـــابا بيوس التاســـع احتجاجه بأن اعتكف فى الفاتيكان وسجن نفســه فيه بقية حياته ، وحذا خلفاؤه من البابوات حذوه فسجنوا أنفسهم فى مدينة الفاتيكان حتى ١١ فبراير عام ١٩٢٩ حين عقـــد موسولينى مع البــــابا بيوس الحادى عشر معاهدة الصلح بين الدين والدولة على أساس انكماش دولة الدين فى حدود المائة فدان المقامة عليهـــا مدينة الفاتيكان بشرط الا يزيد عدد سكان هذه الدولة فى أى وقت عن ألف نسمة ، واعترفت الحكومة الايطالية بأن الفاتيكان دولة مستقلة ذات سيادة ، وهى بموجب ذلك حق لها أن يكون لها علمها وأن تسك عملتها وتصـدر طوابع بريدها وتنشىء جيشها « وهو الحرس البابوى » كما ان لها حق التمثيل الدبلوماسى مع دول العــالم المختلفة . وبمعاهدة لاتران انتهى الشقاق بين الارض والسماء .

ذهب ومرمر وبرونز ومخمل وأصباغ واقباء وزخارف وعروش وأضرحة بريشة الفن الجبار وبأزميل الفن العظيم من اعمدة برنيني الى قدس الاقداس ، ومحاريب بلا عدد وهياكل اثيلة لفرط جمالها تلهيك عن ذكر الله مجردا وتجسد أمامك أسرار الروح : فمن يقف أمام تمثال « التقوى » لميكلانجلو أو « مادونا » رفائيل أو صورة «القديس جيروم» لليوناردو دافنشى ، او « النزول من الصليب » لكارافاجيو او الف لوحة وتمثال صيغت بيد ارباب الخلق العظيم تصور فصول الانجيل والتوراة وقصص الانبياء من الميلاد الى يوم القيامة لن يستطيع أن يجرد سر الوجود . هنا قهر الناسوت اللاهوت . ومع ذلك فالله موجود فى كل مكان ، وهذه هى معجزة كنيسة سان بيترو . انها كالكون معبد الله . حتى آلهة الوثنية وجدت لها اروقة واجنحة فى هذا المعبد العظيم . فهناك تماثيل للأوكون ولبرسيوس وللنيل العظيم .

دعونا من كل هذا الجمال. لقدجاءت ساعة الرحيل. ولا بد من العودة مهما طال الزمن ، العودة الى هذه المدينة الخالدة التى تضم رفات شاعرى الحبيب شلى ، « قلب القلوب » ورفات ملهم عذابات شبابى الشاعر كيتس ، غصن كسير ذوى فى مطلع الربيع . وقبل أن أمضى مشيت الى نافورة تريفى كما يفعل العشاق والسياح الامريكان واغمضت عينى كما يفعلون وتمنيت أمنية والقيت فى حوض النافورة عملة لرشوة رب الحظ أو رب النوافير لعله يحقق مناى . ولم تكن لامنيتى صلة بالفنون ولا بالقديس بطرس ولا بجريدة « الأهرام » ولا حتى بخروج الهكسوس من أرض مصر ،

وانما كانت امنية صغيرة لقلب صغير واحسست انى فتى العشرين داخل اهاب من الخمسين . وكانت صلاتى أن يتجاوز احتمالى شقائى .. ويا له من مطلب عزيز .

وركبت الطائرة من روما حيث العبادة جمال الى باريس حيث الجمال عبادة .

فى السياسة والحياة

فى الطائرة من روما الى باريس كانت جلستى الى جوار صيدلى فرنسى « محترم » وزوجتـــه الجميلة « المحترمة » ، وتحدثنا ساعة أو بعضها ، وكانا من « البورجوا الطيبين » ، ولم تكن لهما آراء فى مصر او اسرائيل . ولم تكن لهما آراء فى فرنسا أو ديجول ، رغم انهما ممن قالوا : « نعم » لديجول . وكان أمامنا ثلاثة من الشبان فى سن الجامعة ، كلهم غريب الملبس ، وكلهم أطلق شعر رأسه حتى الـكتفين . وكنت أرى أمثال هؤلاء الشباب فى شوارع القاهرة من الســـياح الاجانب ، والاحظ عليهم قذارة الهيئة وتهويش المنظر، وكأنهم من أهل الـكهف مع نسائهم لابسات الميكروجيب أو لابسات البنطلونات المرقعة الزرقاء . وكنت أقرأ عن جماعة « الهيبز » المشهورين فى أمريكا وعن مستعمراتهم الغريبة التى يقوم دستورها على الجنس والمخدرات . ومجمل ما وصلت اليه ان هذه حركة احتجاج كبيرة بين شباب الستينات على حكم الشيوخ الذين ثبت افلاسهم فى ادارة شئون العـالم ، ولم ينتـج عن سـيطرتهم الا سخافات مثل جونسون وحرب فيتنام ، وهكذا رفض الشباب قيم الحضارة الحديثة ، ورجعوا الى حيـــاة الـكهف ، وقرأ المتعلمون منهم الفيلسوف مركوزا ،

وعبدوا اله الحب ونددوا باله الحرب . وفى فرنسا اشتعل شباب الجامعات غضبا على ديجول وعظمة فرنسا واتخذوا مواقعهم وراء المتاريس . أما فى انجلترا فقد اكتفى الطلاب بالاضراب واطلاق الشعر والانحلال .

وكنت دائما اقرن حركة الشباب بالرفض والقذارة والاحتجاج على الحضارة حتى رأيت هؤلاء الشبان الثلاثة . وكانوا غاية فى الصحة والبهاء . كان ملبسهم طبعا غريبا ولكنه كان انيقا . كان شعرهم طبعا مرسلا ، ولكن أحدهم صففه ـ لاشك عند الحلاق ـ فى « بوكل » شقراء لا عدد لها ، كلها جميلة ومنسقة ، فبدا وكأنه تمثال لاله من آلهة اليونان ، أما الآخر فقد مشط شعره الاسود المرسل على كتفيه وسوالفه وجبينه « كالفرانج » وكواه ـ لاشك عند الحلاق ـ فبدا فى هيئة بلزاك جميل . وكانت هذه اول مرة ارى فيها « هيبز » يعنون بهيئتهم وهندامهم . وكانت جارتى الفرنسية تقول فى أسف عميق : « ابنى يفعل مثلهم . وطالما رجوته أن يكون نظيفا وأن يفعل بشعره وزيه ما يشاء ، ولكنه لا يستمع الى كلامى . لقد ضقنا به ذرعا » . قلت : « مهم ان يعرف الآباء عم يبحث الابناء . ان هؤلاء الشباب لاشك يبحثون عن شىء ، فلنحاول أن نفهمهم حتى يخف اللاتفاهم بين الاجيال » . وعرفت ان من واجبى أن أحاول أن أعرف شيئا عما يجرى فى نفوس شباب أوربا .. ان بعضهم يبحث عن مصطلح جديد فى جمال الشكل .

أليس هذا أمرا مشروعا ؟ .. لنا عودة الى هذا الموضوع .

وبلغت طائرتي مطار اورلي بباريس بعد ساعة ونصف ساعة من قيامها من روما . ثم انتقلت بأوتوبيس المطار الى محطة « الانفاليد » فى قلب المدينة ، وهى نهاية الخط . وكانت أول خطـــوة لى ، كعادتى كلما نزلت باريس ، هي زيارة صديقى مصطفى صفوان ، المدرس بجامعة ستراسبورج ، وقد كان أحد شاهدى زواجى فى الحى اللاتينى عام ١٩٤٧ ، وكان الآخر المرحوم بكر حمدى سيف النصر . ووجدت مصطفى صفوان قد ارتقى مسكنا وازداد وزنا بحكم تقدمه فى العمر وفى المناصب وفى الدخل . وجدته قد انتقـــل من الحى اللاتينى حيث يعيش الطلبـــة والاســـاتذة الى حى الشـــانزيلزيه فى شـــارع هاملان حيث يعيش سراة الباريسيين بالقرب من السفارات والقنصليات . وكنت دائما أرى فكرة شهود الزواج فكرة مضـحكة بعد أن اصبحت الحكومة بوثائقهـــا وســـجلاتها الـكثيرة هى الشاهد الاكبر على كل شئ .. فكرة لا تقل تسلية عن فكرة شهود الميلاد أو شهود الوفاة أو شهود الجنسية أو شهود حسن السير والسلوك أو شـــهود الفقر أو شهود البقاء على قيد الحياة . تقليد قديم جدا يرجع الى ما قبل اختراع الابجدية واكتشاف البصمات ، أى منذ أيام أن كان الزواج شـــفويا يحتاج الى شـــهود يفضحون الزوج أمام الناس اذا تنكر لزوجته وتخلى عن أطفاله ، ومع ذلك فقـــد احتفظت به المجتمعات المتمدنة ، وكنت دائما اداعب مصطفى صفوان بمنطق ديكارت فأقول : « انت شاهد اذن فأنا متزوج . الآن وقد مات بكر حمدى سيف النصر ، انت الدليـــل الوحيد على انى متزوج ، فاياك أن تموت !.. »

وبعد نصف ساعة وجدت نفسي مشتبكا مع صديقي كالديكة فى معركة حامية كدنا نتبادل فيها الاهانات .

وكان الموضوع بالطبع السياسة ، أو على الاصح حكاية اسرائيل ، ان كانت حكاية اسرائيل سياسة . وفجر الموقف ما حسبت انه مبالغة مصطفى صفوان فى تصوير دور الفدائيين فى تحرير فلسطين وكان رأيى أن نشاط الفدائيين مهم جدا فى المعركة ، ويجب دعمه ومساندته ولكن قيمته فى نظرى قيمة رمزية ، كقيمة المشعل ، والرمز مهم ، الا اذا تحول الى ثورة عربية شساملة ضارية داخل اسرائيل نفسها . قلت : « لن يحرر الارض العربية الا الجيوش العربية ، عمليات عسكرية نظامية تهزم فيها اسرائيل » . وبدأ صديقى يتحدث باستهانة عن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، قال : « ان ما يسمونه الجيش الاسرائيلى خرافة . ليس هناك جيش اسرائيلى . لقد حدثنى صديقى ريمون اجيون ، وهو شاهد زواجي ، قائلا : أن حكومة اسرائيل نجحت فى اقناع الاسرائيليين بوجود شيء اسمه (زحل) — بفتح الزاى وتسكين الحاء — يعنى الجيش الاسرائيلي والحقيقة ان (زحل) ليس الا مجرد فكرة وهمية لجيش لا وجود له . يدعى الحلاق أو الترزى أو السائق أو السفرجى للجندية ويكلف مع زملائه أو بمفرده بعملية عسكرية ينجزها ، وعندئذ يصدر البيان التالى : ان « زحل » ضرب موقع كذا ، أو قصف موقع كذا ، أو فتش كذا وكذا » قلت : « هذا اخطر لان هذا معناه ان الشعب كله تحت السلاح ، وليس مجرد الجيش العامل . ان صديقك اجيون وهو يهودى — يهون من خطر اسرائيل . ولكنى اعتقد ان المؤسسة

العسكرية حقيقة قائمة ويزيد من خطرها انها شعب وجيش معا ، ولا يفل الجيوش الا الجيوش فى نهاية الامر ، مهما كان دور الفدائيين ضروريا لعمليات الارهاق المستمرة » . وذكرت له ما قاله لنا أوليا نوفسكى عضو اللجنة المركزية وممثل الاتحاد السوفييتى فى مؤتمر نصرة الشعوب . قال : لقد كان لدينا فى روسيا أيام الاحتلال النازى مليونا فدائى من جماعة « البارتيزان » وكان دورهم هاما فى ارهاق العدو ، ومع ذلك فالذى حرر الارض الروسية هو الجيش الاحمر وليس جماعة « البارتيزان » يجب أن يكون اعتمادكم الاساسى فى مصر على بناء جيش مصرى قوى ، ومعه اقتصاد مصرى قوى . ولم يقتنع صديقى بل استشاط غضبا واتهمنى بأنى أقلل من أهمية دور الفدائيين .

قال صديقى : انت مخطىء انهم كذابون وقد نجحوا حتى امس فى ايهام العالم بأنهم ضربوا قناطر نجع حمادى . انظر .. اقرأ هذا .. ودفع الى بصحيفة « الفيجارو » . مراسل « الفيجارو » يقول : أن مدير الاستعلامات فى مصر دعا الصحفيين الاجانب لزيارة نجع حمادى لاثبات كذبهم ، ونفى المراسل انه رأى أى اثر لأى ضرب . وقرأت عمود « الفيجارو » فى خمس دقائق ثم أجبت : فليكن . كل هذا لا يهم . أنا مررت بروما يوم أن جاءت الاخبار بهذه الحملة الوهمية ، وكنت بين جماعة من المصريين الذين قرأوا الانباء فى الصحف الايطالية ، وقد قرأت الوجوم فى عيونهم كأن أمرا جللا قد حدث . وكانوا يتتبعون الاذاعات وكأنهم ينتظرون بلاغات حربية فى قلق شديد وهذا الانزعاج الشديد عندى مثل الفرح الشديد لكل مانشيت من

ضرب مواقع العدو . ما الغريب فى هذا ؟.. السنا فى حالة حرب مع اسرائيل ؟.. يجب ان نكون مستعدين لهذا ولأكثر منه . اما هـذا البنـدول العاطفى بين التفاؤل والتشاؤم ، الفرح المبـالغ فيه لأى انتصـار والكمد المبالغ فيه لأى انكسار ، ليس دليل صحة فى الرأى العام ، وهو يجعل مهمة القيـادة عسيرة . أنا أفضل هدوء الاعصاب أمام الكوارث على هذه التقلبات اليومية العنيفة بين اليأس والرجاء .

ورأيت صديقى يصاب بهياج شديد ويصرخ فى وجهى حرفيا يصرخ فى وجهى قائلا : « أريد جوابا صريحا بلا ، أو نعم . هل نصطلح أو نقاوم ؟.. » والجمتنى الحيرة دقيقة أو دقيقتين ، لأنى لم أفهم علاقة هـذا السؤال بما سقته من كلام . قال وهو يزار : أجب .. أجب .. أريد أن أعرف رأيك .. نحن الآن محتلون.. هل نصطلح أو نقاوم .. أجب فى كلمة واحدة .. ان قلت نصطلح فلا تناقش (قالهـا وكأنه يريد أن يقول اخرج من بيتى) . ولمع فى خاطرى انه يتهمنى بالخيانة

قلت : انت مجنون يا مصطفى . ماذا اصابك ؟.. لا زلت اقول : ان وقائع الصراع يجب أن تكون خبزنا اليومى .. ان نقتلهم ويقتلونا كما يفعل النـاس فى فيتنام ، ولو انها بدأت فى عام ١٩٤٨ لما صار الحال الى ما صار اليه .. يجب أن نألف هـذا الروتين ، ان نقصفهم ويقصفونا .

وكان صديقى يقلب كلامى فى راسه وقد احس بانه تهجم على دون مسوغ لانه يعرفنى كما يعرف نفسه . اما أنا فقد فهمت اضطرابه أو التهابه . فالمصرى الذى يعيش فى الخارج يتعرض لضغوط واستفزازات يومية

من اجهزة الاعلام ومن الراى العام الملون بوجهة نظر اسرائيل ، فصوت اعدائنا هناك اقوى من صوتنا واكثر قدرة على الاقناع . وسأل فى هدوء : وما العمل اذن ؟

قلت فى هدوء : أنا من المؤمنين بتجهيز كل شيء للحل العسكرى مهما طال الزمن مع عدم ايصاد الابواب فى وجه العمل السياسى لانى اخشى ان تكون اسرائيل واصدقاؤها بسبيل اعداد لعبة خطرة وهى التسويف والتسويف فى الجلاء بقصد ايجاد « وضع راهن » فى سيناء وغيرها ، غايته تعديل حدودها بقوة « الامر الواقع» كما فعلت فى حرب عام ١٩٤٨ ، فتجميد الوضع على ما هو عليه لسنوات طويلة سيجعل الحديث مع العالم بعد عشر سنوات عن حدود ٥ يونيو غير ذى موضوع كالحديث عن حدود عام ١٩٤٨ بعد عشر سنوات من قيام دولة اسرائيل . انا أعتقد ان العبء الاكبر فى تحرير الارض العربية كان وسيكون دائما واقعا على كاهل مصر وجيشها الفعال .

عفوا أيها القارىء . لقد استدرجنا العذاب الى هذا الموضوع اللعين ، ولكن ما حيلتنا وهو همنا بالليل ومذلتنا بالنهار ، وهو غصتنا ولو خرجنا الى أطراف الارض . سلام على سيناء حيث عبدنا سيدة الفيروز قبل النبيين . سلام على أرض التين والزيتون وطور سينين . سلام على البرزخ الامين . سلام على فرعون الذى مرج البحرين وسحق « رب الجنود » كما يسحق التنين .

قلت : فلنبحث الآن فيما جئت من اجله . اين دليل المسارح ؟.. وجاءتنى بنته ماجدة ، بالدليل الاسبوعى لمسارح باريس . وتصفحناه معا فوجدنا فى

مسارح باريس السبعين ستين مسرحية معروضة والمسارح العشرة الباقية خالية لسبب او لآخر . ولم تكن هذه المسرحيات الستون كلها جدا فى جد ، وانما كانت منها نسبة لا بأس بها من مسرحيات التسلية الراقية ونسبة لا بأس بها من مسرحيات التسلية الهلس ، كما ان بعضها كان اعادات كما فى الكوميدى فرانسيز حيث كانت تعرض « طرطوف » لموليير و « سيرانو دى برجيراك » لروستان و « الجنتلمان البرجوازى » لموليير و « مفاجأة الحب » لماريفو و « الزبون الجاد » لكورتيلين ، وكلها من الريبرتوار المألوف ، على مدى أيام الاسبوع ، مضافا اليها مسرحيتان غير مشهورتين لبيرانديللو هما : « المغفل » و « شهوة الشرف » . كذلك وجدت ان مسرح لاهوشيت لايزال يقدم، للسنة الثانية عشرة ، مسرحيتى يونسكو : « الدرس » و « المغنية الصلعاء » وكانت هناك « الام شجاعة » لبريخت تقدم فى مسرح بوبينو و « الخباز والخبازة » لجان انوى تقدم فى مسرح الشانزيلزيه . ولهذا كانت مهمتى الاولى هى استبعاد المستهلك أو ما سبق أن شاهدته والتركيز على الجديد ثم غربلة هذا الجديد لاستبعاد عروض التسلية والتركيز على العروض الجادة . ووجدت من مسرحيات التسلية كوميديا « بوينج بوينج » فى عامها التاسع وكوميديا « البيضة البريشت » فى عامها الرابع . أما مسرحيات الكوميديا الراقية الجديدة التى وجدتها فى باريس فهى « حديقة البنجر » لدوبيار و « الفراء المتنقل » و « ٤ غرف على الحديقة » و « الفاتورة » وكلها لكتاب ثانويين . وهكذا حصرت المسرحيات الجديدة الجادة فى

باريس ، فوجدتها الآتيـة : « الثمن » لارثر ميللر ـ امريكي ـ و « صـعود ارتورو وى » لبريخت ـ المانى ـ و « الحرب والسلام فى قهوة سنيفل » لفورلانى ـ ايطالى ـ و « فاندو وليس » لارابال ـ اسبانى ـ و « مجمع الحب » لاوسكار بانيتزا ـ المانى ـ و « بلاتونوف المجنون » لتشيكوف ـ روسى ـ و « الراهبات » لمانيه ـ فرنسى . وهذا ما جعل « باريس » باريس · كلمتا الفن والفكر فيها فوق القوميات . وقررت تأجيل رؤيتى لميللر لأن « الثمن » كانت تعرض فى نفس الوقت فى لندن ، ورأيت أن أرى الست الباقية ، ولكني لسوء حظى لم أتمكن من أن ارى منها الا ثلاثا فى باريس ، وكانت أهم ما فيها ، وهذه هى : « صعود ارتورو وى » لبريخت و «الحرب والسلام فى قهوة سنيفل » لفورلانى و «مجمع الحرب» لاوسكار بانيتزا .

وقد عرفت أثناء اقامتى فى باريس ان الرئيس السابق ديجول منع عرض مسرحية سياسية لارمان جاتى اسمها « آلام الجنرال فرانكو » رغم انها منشورة ومقروءة ، بحجة ان فيها مساسا برئيس دولة صديقة ولم تنجح مرافعات النقاد وحملات الصحف فى حمل الحكومة الفرنسية السابقة على اجازة عرض هذه المسرحية على المسرح . ومع ذلك فقد علمت أيضا أثناء اقامتى فى باريس بأن الحكومة الفرنسية نفسها التى صادرت عملا يعرض بالجنرال فرانكو ابت أن تصادر مسرحية أخرى تعرض بالدين وبالكثلكة رغم تقوى الرئيس السابق ديجول وكثلكته المشهورة ، بل وحمت المسرحية المذكورة عملا بحرية التعبير ، من المظاهرات

المعادية التى قام بها الكاثوليك والمحافظون . فاذا عرفنا ان الرئيس السابق ديجول لم يجترىء فى يوم من الايام على مصـــادرة عمـــل فنى أو غير فنى فيه تعريض بشخصه أو بسياسته ، عملا بحرية التعبير ، عجبنـــا لهذا المفهوم الخاص للحرية عند ديجول : كل شيء مباح فى ظل الجمهورية الخامسة الا الاساءة الى سياسة فرنسا الخارجية التى تقوم عليها « عظمة فرنسا » وقد كان ديجول يحس بها حساسية متطرفة . ولست أستبعد ان هذا الاضطراب فى النظرة الى الحرية ، (وقد بلغ قمته حين طرد وزير الثقافة اندريه مالرو الفنان العظيم جان لويس بارو من منصبه كمدير لمسرح الاوديون لأنه أعلن انحيازه لحركة الشباب فى اضطرابات مايو عام ١٩٦٨) هو الذى جعل الفرنسيين يعدلون موقفهم من الزعيم الاوتوقراطى الديموقراطى ، ويسحبون الثقـــة منه رغم احترامهم له خوفا من أن تبتلع «عظمة فرنسا» ما تبقى لديهم من حريات .

وفى اليوم التالى زرت معرض جاذبية سرى فى صالة الباليتا الزرقاء بشـــارع سين المتفرع من بولفارسان جيرمان . وهو كثير المعارض . وجـــدتها ســـعيدة بمعرضها الذى افتتحه سفير مصر فى باريس ، وأمه الــكثيرون مساء افتتاحه ومنهم عدد من النقـــاد ، وسعدت لسعادتها وقرأت فى كتالوج المعرض التحيـــة التالية للأديب الفرنسى الــكبير ميشيل بيتور :

« عزيزتى جاذبية سرى ..

« ســـعيد أنا بأن أراك ثانيـــة فى فرنسا مع كل منازلك . وفى اللحظـــات الاخيرة من اقامتى بمصر ، كانت كل قرى الوادى وكل ضواحى القاهرة تذكرنى

بك . كل هذا الطوب ، وكل هذه الابواب والشبابيك بمن فيها من السكان ، وكل هذه النظرات والاشباح واشجار البرقوق والروائح ، والصرخات والهمسات والخطى الحثيثة ، يجب أن تجيء كل هذه الاشياء لتلازم جدراننا وفاتريناتنا وأرصفتنا . وانى لأرجو ايضا أن تقع بيوتنا فى فخاخ عينيك وأن تعودى برؤاها حتى القاهرة ، وأن توشوش لنا لوحاتك يوما بهذه الرؤى » .

والمنازل التى يشير اليها بيتور هى صور البيوت الكثيرة ، لا شيء الا البيوت التي تميزت بها موضوعات جاذبية سرى فى مرحلتها الراهنة .

وكان الدكتور ثروت عكاشة فى باريس لدورة اليونسكو وكنت معتزما لقاءه فى هوتيل رفائيل حيث كان يقيم لأعرض عليه بعض المقترحات الخاصة بوزارة الثقافة .

أما ما أردت ان ارى وزير الثقافة بسببه فكان جملة امور : وكان اهمها أن أقترح عليه ، بناء على ماسمعته من صلاح كامل ، مدير الاكاديمية المصرية بروما ، من ان أعمال الانشاء فى الاكاديمية أوشكت أن تتم ، وانها ستفتتح قريبا ، هو أن تحيى مصر ايطاليا بايفاد فرقة مصرية تمثل فى أسبوع الافتتاح مسرحية معربة عن علم من أعلام الادب الرومانى أو الايطالى ، وليكن سنيكا اوجولدونى أو بيرانديللو ، على مسرح الاكاديمية الصغير . فانى أعتقد أن مثقفى ايطاليا سيحسون بهذه اللفتة المصرية ويقدرونها اجمل تقدير . وذكرت لوزير الثقافة انطباعاتى عن الاكاديمية المصرية بروما . قلت : اذا كان دقيقا ما ذكره لى مديرها صلاح كامل من انها

تكلفت اقل من ٣٠٠ الف جنيه ، فالنتيجة التى رايتها باهرة ، رغم ان اللوحات والاعمـــال الفنيـــة المصرية المعروضة فيها فى رأيى من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ولـكن هذه أمرها يسير لأنه من الممكن استبدالها وقد أعد صلاح كامل الاكاديمية لاقامة ٥٠ فنانا وفنانة ومع ذلك لم أر هناك الا أقل من عشرة . فالسرر موجودة والاستعدادات موجودة ، ولـكن البشر الذين من اجلهم اقيمت السرر وأقيمت الاستعدادات غير موجودين .

فنرجو أن تنشط وزارة الثقافة فى ايفاد أبنائنا وبناتنا المتفوقين المتحرقين الى استكمال دراستهم الفنيـــة . الحق ان مارأيته فى أكاديمية روما جيد وجميل والباقى على وزارة الثقافة . وانى لأرجو الا تكون فى الاكاديمية سلبيات كثيرة لم أتبينها بسبب قصر اقامتى فى روما .

كذلك أردت ان أحمل الى الدكتور ثروت عكاشـــة رسالة شفوية حملنى اياها المسيو ريشار موصيرى ، وهو صاحب معرض « الباليتا الزرقاء » الذى أقامت فيه جاذبية سرى معرضها . والمسيو موصيرى يهودى مصرى عجوز جاوز السبعين ، وكان فيما مضى مديرا لبنك موصيرى بالقاهرة ، وقد تركنا من تلقاء نفسه بعد الثورة منذ سنوات ليقيم فى باريس .

وقد أدركت من كلامه معى نحو ساعة انه من عشاق الفنون الجميلة وانه كان على صلة وثيقة بمحمد محمود خليل . وقد تعلمت منه أشياء كثيرة عن آثارنا كنت اجهلها ، وأظن ان الـكثيرين يجهلونها . عرفت منه مثلا ان فى قمة الهرم الاكبر مكان الطرف المـكسور قضيب حديدى يظن أكثر الناس ان ارتفاعه قصـــد به تحديد الارتفاع الاصلى للطرف المـكسور ، أما الحقيقة فهى

ان هذه الحديدة هي احدى ثلاث حدائد ثبتتها مصلحة المساحة فى مثلث ، احداها فى قمة الهرم الأكبر والثانية فى القلعة والثالثة فى المعادى ، لتستعين بها على مسح القاهرة ورسم خريطتها . كذلك عرفت منه ان هناك

لوحة تذكارية عند مدخل الهرم الاكبر لا يلتفت أحد اليها ، وحقيقتها ان واضعها هو العلامة الالماني لبسيوس الذى نقشها فى تحية غليوم الثانى قيصر المانيا

فاذا كان الامر كذلك فأنا اطالب مصلحة الآثار بازالة هذه اللوحة وردها الى سفارة المانيا الغربية أو الشرقية

بحسب مولد العلامة لبسيوس ، لأنه من غير المعقول ان نقرأ على باب فرعون مصر اسم ملك اجنبى . وقال لى ريشار موصيرى : ان أكبر لص من لصوص الآثار عرفه تاريخ مصر الحديث كان القنصل البريطانى كوفنجتون الذى نجد اسمه محفورا فى كل مكان فيه آثار . كذلك

عرفت منه انه نظم عام ١٩٤٩ فى الجمعية الزراعية معرضا للصور الفوتوغرافية النادرة فى مصر منذ أيام ماكسيم ديكامب فى عام ١٨٤٢ ، وكان بينها صور مستعارة من الامير محمد على ومن سكاكينى باشا تمثل

قناطر الخليج المصرى قبل زوالها والحى الافرنجى بالموسكى وكان كالزمالك وجاردن سيتى ، وقد زار الملك فاروق هذا المعرض خفية فى صحبة اثنين أو ثلاثة من معيته ، وامر بنقل الصور الى السراى عن طريق ادجار جلاد باشا . ولكن ريشار موصيرى لم يستطع

تسليم الصور الاصلية التى ائتمنه عليها الامير محمد على وسكاكينى باشا وغيرهما ، فاستمهل رسل الملك اسبوعا أو اسبوعين ، ثم سلمهم ١٥٠٠ صورة كلها نسخ استخرجها على نفقته وكلفته اربعين جنيها لمتقى

غضب مولانا المعظم . وجازت الحيلة على السراى فلم يميزوا بين الاصل والتقليد. انعم وأكرم بهواة الفنون . ولعله يهم وزارة الثقافة أن تعرف أين مستقر هـــذه الصور الاصلية الآن لتجمعها فى متحف ، لتساعد على فهم تاريخ وجغرافية مصر فى القرن التاســـع عشر .

ولعله يهم لجنة القصور المصادرة أن تتثبت الآن من عمر ما صادرته من الصور . ولـــكن أخطر ما قاله لى السيد ريشار موصيرى هو انه قبل الثورة مباشرة كانت هناك مفاوضات بين محمد محمود خليل بك نيابة عن الحكومة المصرية وبين وزارة الخارجية الفرنسية بشأن استرداد مصر لزودياك معبد دندرة المشهور ــ صـــورة الابراج السماوية ــ المعار لمتحف اللوفر لمدة ٩٩ ســنة كاملة مقابل أعارة فرنسا بعض الآثار الاخرى الاقل قيمة ،

وان هذه المفاوضات انتهت بتوقيع بروتوكول بين مصر وفرنسا ، وكان ملف الاتفاقية فى حوزة ريشار موصيرى عند قيام الثورة ــ قبل رحيله عن البــلاد ، وقد نام هذا الموضوع لأن الوثائق الخاصة به غير معروفة .

وهو لا يطلب من الدكتور ثروت عكاشة الا ربع ســاعة من وقته ليدله على أسم الشخص الذى يحفظ ملف هذا الموضوع ، وختم كلامه وهو يتنهد قائلا : « ان كل ما أتمناه فى شيخوختى هذه هو أن أختم حيـــاتى بتقديم خدمة للبلد الذى يضم رفات أبى وأجدادى ، فتسترد مصر هذا الاثر العظيم » . وقد حملت أمنيته ورســـالته الشفوية الى الدكتور ثروت عكاشـــة حين التقيت به فى فندق رفائيل .

وكانت جاذبية سرى قد اقترحت على أن أنتقل من فندقى بشارع المدارس بجوار السوربون الى فنـــدقها

وهو هوتيل ازميرالدا فى شارع ســان جوليان لبوفر المطل على كاتدرائية نوتردام . وبالفعــل انتقلت فى الصباح الباكر فرحا وآسفا فى وقت واحد . فرحا لأن

هوتيل ازميرالدا كان من تلك الفنادق السحرية بباريس التى تذكرك بعصر الفرسان الثلاثة ، حجراته روستيك وأثاثه روستيك ، وكأنك فى خان ريفى مبطنة كل حجراته بالخشب من أيام الـكاردينال ريشــليو . وما دمت تقيم مع ازميرالدا فلا بــد أن تبحث عن كوازيمودو ،

أحدب نوتردام ، وبالفعل تكاد تسمعه يدق فى جنون كل نواقيس نوتردام ، وتنظر أمامك فترى كنيســة عتيقة بها القديس جوليان الفقير الى الله تعالى عليهــا غبار العصور الوسطى وفى اقبائها الجيلوتين الوحيــد الباقى من عهــد الثورة الفرنســية ، هكذا يقولون .

وآسفا لأن كل هذا « الجو » التاريخى كلفنى ٥٥ فرنكا فى الليلة بدلا من ٢٢ فرنكا فى الليلة (اضرب فى ١٠ صــاغ للفرنك اذا أردت أن تعرف القيمة بالعمــلة المصرية) . اما الماكرة جاذبية سرى فقد استطاعت أن تستخلص من صــاحبة اللوكاندة ــ عند الفرنسيين ضعف شديد للفن التشكيلى ــ الغرفة الوحيدة بالفندق التى تصلح لاقامة طالب غلبان أو فنــان يتضور جوعا

وايجارها فى الليلة ١٥ فرنكا بل واستغلت جــدران الفندق فى تعليق الملصقات اعلانا عن معرضــــها دون مقابل ، وكل من فى الفندق معتز باقامتها بينهم ويكاد يدفع لها بدل تشريف للوكاندة ازميرالدا ! ..

وفيما كان التاكسى ينقلنى من الفنــدق الى الفنــدق صدمه تاكسى قادم من خلفه صدمة خفيفة تحطم لها أحد الفوانيس الخلفية . توقف السائقان لحظة أمام

الرصيف ، وخرج كل منهما من سيارته وذهبا يعاينان ما جرى . واذا بالسائق الخلفى يخرج من جيبه ٥ فرنكات ويعطيها لسائقي ويتقبل منه الشكر . كل هذا تم فى هدوء وفى دقيقتين ، وانصرف كل منهما لحال سبيله . وسألت سائقي عما كان بينهما . قال : كسر فانوسي وأعطاني تعويضي . ثمن الفانوس ٥ فرنكات (نحو خمسين قرشا) أليس هذا أفضل من اضاعة الوقت مع عسكرى المرور والمحاضر والمكاتبات مع شركات التأمين لاسترداد ٥ فرنكات ؟.. نحن هنا فى فرنسا نحاول أن نسوى كل شيء بالحسنى ، ونختصر الوقت. سبحان مغير الاحوال . لقد رأيت سواقى فرنسا تحت الجمهورية الثالثة أيام دلادييه لا يكفون عن الشتائم وهز القبضات واهانة الركاب من أجل البقشيش ، ورأيتهم تحت الجمهورية الخامسة أيام ديجول عقلاء مهذبين يلتفت كل منهم الى عمله .. لا غرابة ان جون فوستر دلاس ادلي ببيان منذ سنوات فى الكونجرس قائلا : ان انتاجية العامل الفرنسى أعلى انتاجية فى اوربا ، ولا غرابة ان ديجول استطاع أن يسدد دين فرنسا لأمريكا قبل حلول أجله بثماني سنوات . ولكن يبدو أيضا أن الانتاجية اذا زادت عن حدها انقلبت الى ضدها . وربما كان هذا معنى اضرابات عام ١٩٦٨ ، ومعنى اعتراض البروليتاريا الفرنسية على استمرار ديجول فى الحكم : الاسراف فى النظام يولد الحنين الى التمرد . وقديما قال الشاعر بوالو فى قصيدته عن « فن الشعر » : « قليل من الفوضى اداة من أدوات الفن » وهذا صادق فى السياسة والاقتصاد صدقه فى الآداب والفنون .

على كل حال فى الايام العشرة التى قضيتها فى باريس على مرحلتين ، كنت أفطر على السياســة وأتغدى بالسياسة وأتعشى بالسياسة . حتى المسرح الذى كنت أقصده فى المساء كان ســياسة فى سياســة . قضيت ساعة مع الصــديق الــكريم الســفير محمد حافظ اسماعيل ، سفيرنا فى باريس ، فى مكتبه فلم نتحدث الا فى السياسة . وتغديت على مائدته فى اليوم التالى فى المــادبة التى أقامها بداره تكريما لخالد محيى الدين ، والتقيت فيها ببعض أعضاء البرلمـــان الفرنسى وبعض أساتذة الجامعات وبعض رؤساء تحرير صحف فرنسا ،

فلم يكن هناك حديث الا فى السياسة وفى اليوم التالى تغديت مع الصديق الــكريم جاك بيرك الذى دعا خالد محيى الدين ودعانى الى الغداء فى قهــوة الــكوبول بمونبارناس ، فلم يخرج كل منا عن السياسة . وحين جلست ســـاعتين الى الصـــديق الــكريم ماكســيم رودانسون فى داره لم نتحدث فى العلم أو الحضارات ، ولــكن تحدثنا فى السياسة . وفيما بين هذه اللقاءات كنت ألتقى بالمصريين فى باريس فلا نجد ما نقوله الا فى السياسة . موضوعان لا يتغيران : الديجولية ومصير الجمهورية الخامسة ، وأبعاد المشكلة الاسرائيلية العربية

وقد كنت شخصيا سعيدا لخروج ديجول من السلطة لسببين :

أولهما : من أجل ديجول ، فأنا أحب للعظمــاء ــ وديجول عندى آخر العظماء ، ســـتالين وتشرشـــل وروزفلت ــ أن يعتزلوا فى كرامة وجمال ، تماما كما فعلت جريتا جاربو وهى فى قمة مجدها ، ولا ينتظروا حتى تنحسر من حولهم المياه وتتركهم عرايا بلابيص على

شاطىء الحياة ، أو أن يقعوا فى تناقض مع شعوبهم أو مع شرفهم ، كما حدث للمسكين بيتان . واعتقادى ان متاريس باريس فى مايو عام ١٩٦٨ كانت نذرا كافية لديجول ببداية النهاية ، ولعلها هى التي أوحت اليه بأن يستعجل نهايته . وقد كنت دائما انظر الى ديجول على انه رمز لشرف فرنسا ، واظن ان فيه شيئا من جان دارك يجب المحافظة عليه ، لا من أجل وطنه فحسب ، ولكن من أجل كل الاوطان ، ليجد الاطفال ما يتعلمونه فى المدارس من معانى التضحية فى سبيل الوطن ومن معانى الصلابة فى المحن . ومثل هذا الرمز لا ينبغى أن يتلطخ بدم مواطنيه أو يتحول اسمه الى كابوس يطبق على صدور الناس . لقد غدا واضحا ان ديجول قد أتم عملية « انقاذ » فرنسا فى السلم .والحرب على السواء ، وغدا واضحا ان البورجوازية الفرنسية ظلت متمسكة به اساسا ليدرأ عنها خطر الشيوعية فاذا كانت هذه كل قيمة ديجول اليوم عند ٥٠٪ من مواطنيه ، جبلا شامخا تتكسر عليه رياح اليسار بعد أن كان بطلا قوميا تجسدت فيه روح الامة الفرنسية فخير له فى رأيى أن يذهب فى هدوء .

أما السبب الثانى فهو من أجل فرنسا ، لأن الفرنسيين الفوا أكثر من اللازم الاعتماد على هذا الرجل العظيم فيما يتخذون ، أو على الاصح فيما يتخذ لهم من قرارات ، وهذه حالة غير صحية . أما وقد قارب ديجول الثمانين ، فهو يدنو كل يوم من هرف الشيوخ أو من القبر ، ومن الخير لشعبه أن يتدرب منذ الآن على مواجهة مسئولياته بنفسه واتخاذ قراراته بنفسه ، خشية أن يواجه يوم كريهة ويتطلع الى ـ ماذا أقول ؟

الفوهرر ؟.. ــ فيجده راقدا بين المقاقير الكثيرة فى كولومبى ليه ديزايجليز ، أو يجده يخاطب دجاجسه الجميل فى ريفه الجميل ، وأصبعه فى فمه ، يلقنه كرامة الدجاج الفرنسى وضرورة شموخه على الدجاج الامريكى

مرة واحدة لم أتكلم فيها فى السياسة فى باريس . كنت مع الفنان حامد عبد الله فى قهوة الدوم بمونبارناس وهو من فرقة المصريين المنفيين باختيارهم ، وأقبل علينا الكاتب البير قصيرى ، وهو قصصى بوهيمى مصرى معروف يكتب بالفرنسية ، من طراز هنرى ميلر ووليم بوروز ونورمان مالروفردينان سيلين ، كان من حلقة

رمسيس يونان وكامل التلمسانى فى الاربعينات ونفى نفسه فى باريس منذ ربع قرن ، وأصاب بعض المجد فترجمت مجموعاته القصصية من الفرنسية الى الانجليزية وغيرها من اللغات . قلت : هل كتبت شيئا بعد « بيت الموت المحقق » ــ هذا مصر ــ و « الناس الذين نسيهم الله » ــ وهذا نحن ــ و « الكسالى فى الوادى الخصيب » ــ وهذا نحن أيضا ــ قال : لا ..

قلت : كيف تعيش اذن ؟.. قال : من حقوق نشر كتبى الماضية باللغات المختلفة ومن السيناريوهات التى أكتبها للسينما . انا كسول جدا ، والسيناريوهات تناسبنى : عمل قليل وفلوس كثيرة . قلت : خسارة ، فأنت موهوب . هل انت سعيد فى باريس ؟.. أجاب : طبعا . ولا اعرف كيف تطرق الحديث الى النساء .

ويبدو أن سؤالى عن سعادته أطلق فيه الخواطر الجنسية . وطفق يحدثنا عن البنات . كل بنت تجاوزت الثامنة عشرة عنده مرفوضة من حيث المبدأ . سألته : كم عمرك الآن ؟.. أجاب : ستة وخمسون عاما .

قلت : هل هذه عقدة لوليتا ؟.. قال : انا لا اخدع البنات . لم يحدث أن قلت لبنت انى احبها أو انى منيتها الامانى . كذلك لم يحدث انى طردت بنتا أو صارحتها بألا تعود فى الصباح أقول : ستتصلين بى بالتليفون .. أليس كذلك ؟ .. فتفهم البنت ان هذه هى النهاية . (واضح ان بنات باريس حساسات للغاية وانهن يعرفن اتيكيت الغرام) . كذلك لم يحدث ان اعطيت بنتا شيئا ، لا هدية ولا مالا . (فهمت من نبرته : ولا غدوة ، ولا عشوة) . انظر الى ملابسي . أنا أبدو بالعمد فقيرا حتى لا تنتظر البنات منى شيئا . وتأملت ملبسه فعلا فوجدته زريا ولكن نظيفا . قميصه مغسول ولكنه غير مكوى . بدلته نظيفة ولكنها غير مكوية ، وكأنه ينام فيها كل ليلة . قال : أنا كسول . أنا ملول . أنا مصرى .

وكنت اشعر بالتعب ، فاستأذنت وانصرفت . غدا أسافر الى لندن ، ويجب أن ارتب أوراقى قبل الرحيل يجب أن ارتب ملاحظاتى على ما شاهدت من مسرحيات فى باريس ، على مسرح الفن لا على مسرح السياسة . وهذا بعض ما دونت من ملاحظات .

صعود أرتورو . وى

فى يناير عام ١٩٣٣ وصل هتلر الى الحكم . وفى عام ١٩٣٤ كان بريخت قد التجأ مؤقتا الى بلدة سويندبورج على ساحل الدنمارك وكان يقيم معه بعض الوقت والتر بنجامين الذى اورد فى مذكراته بأحاديثه مع بريخت ، أن بريخت كان حتى ذلك التاريخ يخطط لعمل فنى بالنثر يهاجم فيه النازية . وكان وقتئذ يتأرجح بين مشروعين : مشروع كتاب بعنوان : «وى VI» فيه سخرية بهتلر بأسلوب مؤرخى عصر النهضة الاوروبية ، ومشروع كتاب آخر اسمه : « رواية توى » يجمع فيه شطحات المثقفين الاوربيين. كذلك كان بريخت وقتئذ قد انتهى من كتابة ملحمة شعرية فلسفية ، من نوع الشعر التعليمى يشرح فيها المنطق الجدلى والنقد التجريبى من وجهة نظر الفلسفة اللنينية . ولكن هذه الافكار لم تتبلور بل ظلت مسودات مشروعات فى أوراق بريخت منذ خروجه الى المنفى حتى ربيع عام ١٩٤١ ، وهو الوقت الذى كتب فيه مسرحيته الشعرية « صعود ارتورو وى» فى فنلندا بالتعاون مع مرجريت ستيفين.

هذه التواريخ مهمة لجملة أسباب : منها ان بريخت الاديب كان قد اصاب النضج الفنى عبر هذه السنوات الثمانى بين تفكيره الاول فى هجاء النازية فى عمل روائى

وبين تنفيذ هذه الفكرة فى عام ١٩٤١ ، فهو قد خرج من مرحلة التجريب الاولى فى « رعب الريخ الثالث وشقاؤه » (١٩٣٥ ــ ١٩٣٨) و « بنادق الام كارار » (١٩٣٧) الى مرحلة النضوج التى تبدأ « بحياة جاليليو » (١٩٣٨ ــ ١٩٣٩) و « الام شجاعة » (١٩٣٩) و « السيد بونتيللا وخادمه ماتى » (١٩٤٠) ومع ذلك فان «صعود ارتورو وى» ليست فى اعتقادى من اعمال بريخت الناضجة . كذلك من المهم ان نذكر أن بريخت حين كتب « صعود ارتورو وى » عام ١٩٤١ ، انما كتبها بعد أن كانت الاسطورة النازية نظريا وعمليا قد استقرت فى وجدان الملايين ، فمن الناحية النظرية لم يعد التحليل الماركسى لها بأنها التعبير عن التحالف الاقتصادى بين البورجوازية الصغيرة والرأسمالية الضخمة كافيا لتفنيدها فى خلد رجل الشارع ، بعد أن اتخذت النازية صورة الدين الجديد بكل ما فى الوثنية الجديدة من ثورة الرموز والشعائر والطقوس والاعلام والبنود والصلبان المعقوفة تملأ وجه السماء وفرسان الجرمان سيجفريد وبارسيفال ولوهنجرين وتانهاوزر يدقون طبول الحرب على موسيقى فاجنر العظيم ، وخرافة العبقرية الآرية تملأ وجدان ملايين الفتيان والفتيات بالوحوش المقدسة وتجعل أسباط القوط والهون والفندال يتوهمون انهم أبناء السماء ، وغدت الحياة رعشة عظمى لا مكان فيها للعقل وهذيانا جميلا من صهد الخيال المحموم . وبعد نحو عام من اعلان الحرب كانت جنود العاصفة قد عصفت بأوربا فصارت الاسطورة حقيقة والحقيقة اسطورة ومع ذلك فان بريخت حين كتب فى ربيع ١٩٤١

من « صعود ارتورو وى » ـ هتلر ـ كتب مسرحية ليس فيها أثر واحد لدهشة المسحور بكل هذه الاعاجيب . « فصعود ارتورو وى » مسرحية تصور تاريخ حياة عصابة من البلطجية واللصوص والقتلة السفاحين ، لا فرق بينها وبين عصابة آل كابونى أو جاك ديلنجر التى كانت فى ذلك الوقت تعمل على مسرح الحياة فى أمريكا . باختصار ، فى الثلاثينات ان ما كان الامريكى يفعله على مسرح الحياة كان الالمانى يفعله على مسرح السياسة .

« صعود ارتورو وى » مسرحية سياسية مباشرة ، تحاول أن تستخفى وراء الكناية ، ولا أقول الرموز ، فرموزها شفافة الى درجة تفقد الرمز كل قيمه. حتى احداثها وأسماء أشخاصها شفافة الى حد يجعل ترجمة معادلاتها أمرا يسيرا على أكثر الناس سذاجة واقلهم خبرة فى فهم نصوص الادب . ولأن « صعود ارتورو وى » مسرحية سياسية مباشرة ، فهى تنتمى الى مرحلة بريخت الاولى ، مرحلة ما قبل النضوج : مرحلة « أوبرا البنسات الثلاث » أو « أوبرا قطاع الطرق » (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) ومرحلة الرءوس المستديرة والرءوس المستطيلة » (١٩٣٢ ـ ١٩٣٣) ولانها مسرحية سياسية مباشرة فهى عمل أدبى ردىء وان تكن وثيقة سياسية من أخطر طراز فى القرن العشرين.

ومع ذلك ، فقد كانت المعجزة التى شاهدتها فى «المسرح القومى الشعبى» .T.N.P هى كيف استطاع المخرج جورج ويلسون والممثل روبيرهيرش ـ ارتورو وى ـ وزملاؤه القائمون بأدوار هندنبورج وجورنج ودوهم وجوبلز ودولفوس .. الخ ، أن يحولوا هذا الاثر الادبى

الثـانوى القيمة الى عمل فنى من طراز عظيم ، بقوة الفناء فى روح الفن والقدرة على استخلاص كل خلجة ينبض بها نص بريخت ، وبفضل الدراســة المضنية للشخصية الهتلرية ولروح النازية .

و « صعود ارتورو وى » تدور حوادثها فى شيكاغو فى الثلاثينات أيام أن كانت هذه المدينة الامريكية الشهيرة مسرحا لاعمال العنف التى كانت تقوم بها عصـابة آل كابونى ، البلطجي الشهير ، وامثـاله من البلطجيــة محترفى القتل والابتزاز ، أما أشخاصها فهم أساسـا مجموعتان : أفراد عصابة من البلطجية بزعامة ارتورو وى رئيس العصابة وهو قريب الشـبه من هتلر ، وأهمهم مساعده ارنستو روما ، وهو قريب الشـبه من رويهم رفيق كفاح هتلر فى أيامه الاولى ، وهو الذى اغتـاله هتلر بعد وصوله الى الســلطة بفترة وجيزة لاحساســه بخطره عليه ، ثم ايمانويل جورى ، وهو شــديد الشبه بجورنيج ، ثم جوسيبى جوبولا ، وهو شديد الشبه بجويبلز ، ومن حول ارتورو وى بطبيعة الحال نطاق من صغار البلطجية وهم حرسه الحديدى .

أما فى الطرف الآخر فهناك المجموعة المقابلة من رجال الاعمـال الذين يدخلون فى تعـاون مع اورتورو وى وعصابته ، وهؤلاء هم فليك وكاروثر وملبرى وبوتشر وكلارك ، وهم اقطاب كارتيلة خطيرة او ترست خطير لاحتكار تجارة القرنبـيط والـكرمب ، وقصـتهم مع أرتورو وى شبيهة بقصة رجال الصـناعة الالمانية من أمثال كروب وفولف وتيسن مع هتلر وجماعة النازى ، ومع هؤلاء صاحبهم شيت صانع السفن . وبين ارتورو وى وعصابته وملوك الـكرمب والقرنبـيط ، تتارجح

شخصية خطيرة هى شخصية رجل عجوز طيب اسمه هندسبورو ، حسن السمعة مسموع الكلمة فى المجلس البلدى ، وهو شديد الشبه بالماريشال هندنبورج رئيس جمهورية المانيا الذى سلم السلطة كارها لهتلر وعصابته عام ١٩٣٣ تحت ضغط ظروفه السيئة . ثم هناك شخصيات أخرى عديدة أقل أهمية بعضها نكرات مسرحية كتجار التجزئة فى الخضروات بمدينة شيكاغو

ونظرائهم ببلدة سيسرو المجاورة لشيكاغو . ولكن بينهم أيضا أشخاصا يستحقون أن يذكروا بأسمائهم ، وأهم هؤلاء المتهم السكير فيش الذى يذكرنا بالابله فان در لوبه الذى اتهم باحراق الريشستاج - البرلمان الالمانى - وادين وأعدم ، رغم ان الخاص والعام كان يعرف ان النازى هم الذين أحرقوه ، وكذلك منهم شخصية اجناتيوس دولفوت الذى يذكرنا بدولفوس رئيس النمسا الذى اغتاله النازى ومشوا فى جنازته ، وآخرون وآخرون .

وقد استخدم المخرج جورج ويلسون شاشة السينما كل حين وآخر فى خلفية المسرح ليعلن أنباء الحوادث التى تدور حولها المسرحية ، أو ليعلن المقارنات بينها وبين ما كان يجرى فى المانيا النازية قبل وبعد صعود هتلر الى السلطة فى يناير عام ١٩٣٣ - بمانشيتات شبيهة بمانشيتات الصحف . وهذه أول نشرة للأنباء نقرؤها على شاشة السينما .

« فضيحة اعانات أحواض السفن . الخلاف حول وصية هندسبورو العجوز واعترافاته. مفاجأة مسرحية فى حريق المخازن . البلطجى ارنستو روما يصفيه اصدقاؤه . ارهاب اجناتيوس دولفوت ثم اغتياله . سيسرو تسقط فى يد البلطجية . »

وهكذا تفتتح المأساة على صخب الموسيقى وازيز المتراليوزات وينسحب المطيباتى لنرى انفسنا فى مكان ما بمدينة شيكاغو ، حيث اجتمع خمسة من كبار رجال الاعمال المحتكرين لتجارة القرنبيط ، وهؤلاء هم : فليك وكاروثر وبوتشر وملبرى وكلارك .. ونسمع هؤلاء الخمسة يتشاكون من سوء الاحوال وتدهور الحالة الاقتصادية فى شيكاغو ، فقد شح المال فى أيدى الناس حتى لقد أوشكوا أن يكفوا عن البيع والشراء . وقد اشهر افلاس الكثيرين من أثرياء البلد ، وبين يوم وليلة غدوا من المعدمين بعد أن كانوا يرفلون فى النعيم .

ومن بين زملائهم فى المهنة من تجار الجملة يذكرون اربعة أفلسوا حتى ان اثاث بيوتهم يباع : كلايف وروبر وهويلر وهاقيلوك . أما شيت المسكين فهو يطرق ابواب البنوك عبثا ليجد من يقرضه . وتجار التجزئة اسوا حالا ، فالسعيد من يشترى نصف قرنبيطة من وقت لآخر ، وعلى الحساب . والخضر تتلف فى الصناديق لقلة استهلاكها . ومع ذلك فهناك فى شيكاغو أربعة ملايين معدة تحتاج للطعام ، تحتاج للكرنب والقرنبيط ولذلك يقول لهم بوتشر انه لا ينبغى لهم أن ييأسوا وان يروا كل شىء ظلاما فى ظلام .

هناك مثلا ارتورو وى ، رئيس العصابة ، ومعه صاحبه ارنستو روما ، لقد جاءا ليعرضا خدماتهما عليهم وعلى تجار الجملة . ان كل الناس قد عرفت بتدهور سوق القرنبيط وبتدهور أحوالهم . وارتورو وى يعتقد أن فى امكانه اقناع تجار التجزئة بعدم التعامل مع اى تجار خضر آخرين غير هذه المجموعة الاحتكارية ، والا تعرضت صحتهم الغالية وربما حياتهم

للخطر . ولما كان تجار التجزئة يؤثرون شراء القرنبيط على شراء الاكفان ، فارتورو وى يؤكد انه يستطيع بوساطته الخاصة هذه أن يضاعف من أرباح تجار الجملة . انه نوع جديد من « البلاسيه » يستعمل المتراليوز والقنبلة اليدوية بدلا من استعمال الاقناع فى ترويج البضاعة .

ويرفض كاروثر ان تكون لجماعتهم صلة بهذا البلطجي ويأمر بطرده ، ولكن الجماعة تتخلص من صحبة ارتورو وى برفق ، لانها تعلم انها قد تحتاج اليه فى المستقبل . وتعود الى مناقشة طريقة الخروج من أزمة القرنبيط التى أوشكت ان تخرب بيت كل التجار والزراع . انه لا يزال لديهم أمل فى الحصول على قرض من المجلس البلدى يساعدهم على اجتياز هذه الازمة التى شح فيها المال السائل . انهم يدفعون ضرائب للبلدية . وهم يحاولون اقناع البلدية بمنحهم قرضا لبناء ارصفة فى البحيرات الكبرى تسهل رسو السفن وتخفض من نفقات شحن القرنبيط الى شيكاغو من اجل مصلحة المستهلك . طبعا هذا مشروع وهمي ، لانهم لن يبنوا الارصفة ولن يوسعوا الموانى ، وانما المهم هو أن يحصلوا على المال السائل ليجتازوا به الازمة .

والمطلوب ان تقدم لهم البلدية هذا القرض « على المكشوف » ، أى بناء على كلمة شرف . وهم لن يستطيعوا ان يحصلوا على هذا القرض الا بوساطة العجوز هندسبورو رئيس المجلس البلدى الذى يجله كل الاعضاء وجميع المواطنين لنظافة أسمه وطيبة قلبه وتفانيه فى خدمة المواطنين .

ولكن بوتشر يبلغهم ان العجوز هندسبورو يرفض

أن تكون له صلة بمشروعهم ، لانه يراه مشروعا مريبا ، وهو رجل شريف . وتسخط الجماعة على هندسبورو وتتهمه بالجمود ، فهو قبل اشتغاله بالسياسة وانتخابه فى المجلس البلدى كان يدير كانتين شسيت صاحب أحواض السفن الذى أشرف على الافلاس وقد أصبح أكبر شخصية شعبية بين عمال السفن لا بفضل استقامته وحدها ولكن بفضل ما أنفقه محتكرو القرنبيط فى الدعاية له فى الانتخابات . وتفكر الجماعة فى اللجوء الى شخص آخر ، ولكن بوتشر يهدىء من خاطرهم ويطالبهم بالصبر مع العجوز الطيب هندسبورو ، لانه أنسب من يستطيع تزكيتهم للحصول على هذا القرض ، سيقبل الكل كلمته فلا يسأل أحد أسئلة محرجة ، ولا يفتش أحد فى دفاترهم . انه الآن يرفض . انه الآن يقول : ان الميزانية العامة ليست طبقا يخطف كل منه لقمة . وأهل المدينة عنده ليسوا رجالا يكافحون لدفع ايجارات منازلهم وللحصول على وجبة البفتيك والبطاطس . المدينة عنده فكرة فلسفية ، شىء مقدس ، عبارات غامضة لا يفهمها أحد . ان مشاكل القرنبيط وتجار القرنبيط لا تهمه . ومع ذلك فلا بأس من هذا العجوز الطيب الذى جاوز الثمانين وأحاطت به كل القلوب . الحل عند بوتشر ، وهو أن يقنعوه بالاهتمام بمشاكل القرنبيط وتجار القرنبيط . ان يجعلوه يحس باحساسهم ويتبنى مصالحهم . وبوتشر قد أعد لهذا مشروعا جهنميا مضمون النتائج .

وفى ختام هذا المشهد تظهر على شاشة السينما التعليقات التالية : « ١٩٢٩ — ١٩٣٢ . الازمة العالمية تؤثر فى المانيا بوجه خاص . فى اللحظة الحرجة يحاول

كبار الملاك فى الولايات الشرقيـــة ابتـــزاز قروض من الدولة ، ولـكنهم لم ينجحوا بعد » .

ثم ننتقل الى البورصة لنرى شيت وفليك يتحادثان فى موضوع الازمة . شيت وهو على وشك الافلاس يشرح كيف انه انتقل من صـــديق ممول الى صـــديق ممول دون جدوى . هذا غائب منذ أيام ، وهذا مختف فى الحمام: «هذا زمان لاترى فيه من أصدق صديق الا عجزه والاخ قبل أن يلتقى بأخيه يشترى لنفسه نعلا باليا من دكان الروبابيكيا ، خشية أن يسأله أخوه عن قرض »

ان شيت ، ملك بناء السفن ، غارق فى الديون ، وفى رأى صديقه فليك انه لا منقذ له من الافلاس الا أن يبيع شركته لملوك الـكرنب والقرنبيط . ويرفض شيت هذا العرض بشدة ، يحتج على « اصدقائه » الذين يريدون أن ينتفوا ريشـــه وهو حى بدلا من أن يساعدوه على النهوض من كبوته . ولـكن فليك يحاول أن يقنعه ان ملوك القرنبيط انما يريدون بهذا انتشاله من محنته . كل ذلك وارتورو وى يتجول بالقـــرب من البورصـــة مع مساعده ارنستو روما ومعه حرســـه من البلطجية ، محاولا اقنـــــاع هؤلاء الراسماليين المهددين بالخراب بضرورة التعاون معه ، فهو يستطيع « حمـــايتهم » بطريقتـــه الخاصـــة الفريدة . كل شىء عنـــده يحل بالمسدس ، وهو بالمسدس يستطيع اقناع الناس بضرورة استهلاك القرنبيط . ان ارتورو وى ليس الوحيـــد فى هذا المضمار ، فقد امتلأت شيكاغو بالبلطجية ، وشاعت فيها أعمال النهب والسلب والابتزاز وسفك الدماء .

ثم نرى بوتشر وفليك فى مطعم العجـــوز الطيـــب هندســـبورو ، يحدثانه عن ضـــائقة ملوك الـكرنب

والقرنبيط ويفاتحانه فى موضـــوع القرض من المجلس البلدى ، ولـكن هندسبورو يرفض الاقتراح ويصفه بأنه مريب ، ويؤكد لهمـــا ان زراعة الخضر وتجارتها بخير ، فان كانت هناك ضائقة فهى سحابة صيف عابرة يجب على ملوك الخضر مواجهتها بشجاعة . ويتظاهر بوتشر وقليك بالاقتناع ، ولـكنهما يغزوانه من جانب آخر . ان ملوك الـكرمب والقرنبيط يريدون أن يعبروا له عن امتنانهم العميق لمـــا أســـداه من خدمات لهم وللمدينة ، فهو منذ عشرين ســـنة يدير باخلاص فائق كانتين عمال الموانى الذى يملـكونه ومطعمه ركن ركين فى تصريف الـكرمب والقرنبيط . وهو منذ عشرين سنة يخدم المدينة ومجلسها بأمانة عظيمة تستحق تقـدير الخاص والعام ، وابسط رمز لهذا التقدير هو أن يقدموا له هدية بسيطة لتكريمه ، وهذه الهدية هي ٥١ ٪ من اسهم شركة النقل البحري التي يملـكها شيت . انهم اكراما له ، مستعدون أن يقدموها له مقابل عشرين ألف دولار فقط ، وهى أقل من نصف قيمتها الفعلية .

ويبدو الإضطراب على وجه العجوز هندســبورو . ان الاغراء قوى ، اقوى من قدرته على الاستقامة . ومع ذلك فهو يتردد . هو يتساءل : ماذا وراء هذا السخاء ؟ هل ترتبون شيئا خبيثـــا ؟. . مطلقا . مطلقا . نحن رجال الاعمال لسنا بطبيعتنا عاطفيـــين . ولـكننا لا نكتمك ان ضمائرنا اهتزت امس لنزاهتك العظيمة . عندما ركلت اقتراحنا بأن تتوســـط لنا فى قرض من البلدية شعرنا بوضاعتنا وعضنا الندم . بل ان منا من ادمعت عيناه من فرط التأثر . رأينا فيك كل المثـــل العليا مجسدة فى خدمة المواطنين . وتكفيرا عن دناءتنا

لم نجد ما نفعله للتعبير عن ندمنا الا أن نقدم لك هـذه الهدية . ويضع فليك وبوتشر أمام هندسبورو العجوز ربطة الاوراق المالية . ان هندسبورو لا يصـدق انهم يعرضون عليه اسطولا من سفن الشحن . لابد ان هناك خدعة . هل عشرون الف دولار مبلغ مغالى فيه ؟.. ابدا ، ولـكنى ما زلت لا أفهم . الحقيقة ان عجزنا عن عقد القرض ، كان معناه انه يتحتم علينا أن نبيع بعض اسهمنا ، ونحن لانريد أن نبيع فى العلن لأن هذا سيحدث هزة مالية ، ويضعف الثقة بنا . قلنا : بهذا نحل بعض مشاكلنا المالية وبه أيضا نعبر عن تقديرنا لنزاهتك . انظر الى نفسك . ماذا ستترك لابنك ؟.. ستترك له اسما نظيفا لا اكثر . ولـكن هذا لن يطعمه ولن يكسوه قلنا : ان من حقه عليك أن تؤمن مستقبله كما أن من حقك علينا أن نقدر اخلاصك فى خدمة المدينـة وعمال الميناء .

ان هنـدسبورو العجوز يريد ان يطمئن الى شيء واحد قبل أن يقول نعم : هل هذه الصفقة غير معلقة بشروط ؟ بتاتا . هل عدلتم نهائيا عن طلب القرض ؟ نهائيا . قل : موافق ، تجعلنا أسعد السعداء . نحن بحاجة الى خبرتك . الى آرائك السديدة . اذا قبلت تصبح مثلنا أحد ملوك الـكرمب والقرنبيط . عنـدئذ تستطيع ان تعلمنا كيف تجتاز تجارتنـا هـذه الازمة الطاحنة بالوسائل الشريفة .

ويوافق هندسبورو . وعلى شاشـة السينما يظهر هذا النبأ : « كبار الملاك يهدون ضيعة للرئيس هندنبورج ليتفهم مشاكلهم . كبار الملاك يحصلون أخيرا على القروض المقترحة » .

وهنا تبدأ المتــاعب الحقيقيـــة . ان ارتورو وى وعصابته فشلوا فى اقناع ملوك القرنبيط بأن فى امكانهم حماية احتكار القرنبيط بالطريقة التقليدية وهي اقنــاع الناس بالمسدس بأن استهلاك القرنبيط مفيد للصحة . وقد آثر ملوك القرنبـــيط حـــل مشاكلهم باللجوء الى العجوز الطيب هندسبورو. أما ارتورو وى ورجاله فقد

مروا بأيام عصيبة ، ربما كان خير تعبير عنها ما ورد على شاشة السينما : « فى خـــلال خريف عام ١٩٣٢ أوشك حزب ادولف هتلر وفرق العاصفة على الافلاس، واوشك الحزب أن يحل . وقد كانت انتخابات نوفمبر سيئة النتائج الى حد بالغ بالنســـبة للنازى . وعلى العكس من ذلك ازداد عدد الاصــوات المؤيدة للحزبين العماليين ، الشيوعى والاشتراكى ، زيادة عظيمة » . ونسيت شيكاغو ارتورو وى وما كان يقوم به من اعمال العنف ، فأصيب بكآبة شديدة ، وكان يضع الخطـــة وراء الخطة لاستعادة ســطوته ولــكن دون جدوى ، حتى أن بعض أقطاب عصابته مثل جوبولو أوشك أن ينضم الى عصابة آل كابونى . ولولا خوفه من البوليس

لسطا على البنوك . وكان الحل عند صاحبه ارنستو روما ان تقوم عصابتهم بأعمال العنف ضد تجار الخضر لترغمهم على قبول « حمايتها » ، فتهاجمهم بالسلاح وتحرق متاجرهم ليلا ، ثم يتقدمون اليهم نهارا عارضين خدماتهم . ولكن ارتورو وى فى يأســـــه كان ينتظر معجزة .

وجاءت المعجزة حين عرف من الصـــحفى راج بأن العجوز الطيب هندسبورو اســـتغل نفوذه فى المجلس البلدى لاقناع البلدية بتقديم القروض لملوك القرنبيط .

ثم عرف من رجل اسمه باول ، وكان يشتغل عضو مجلس الادارة المنتدب فى شركة شيت للنقل البحرى للكرمب والقرنبيط ، ثم فصله هندسبورو بعد أن آلت اليه فى الخفاء أسهم الشركة بأن هندسبورو أصبح المالك الحقيقي لأسهم شركة البحيرات الكبرى التى كان يملكها شبت ، وبذلك أصبح عضوا فى ترست ملوك القرنبيط دون أن يعرف أحد ذلك . عرف ارتورو

وى ان هذه فرصته الذهبية . فقد تورط هندسبورو العجوز فى فضيحة أخلاقية يمكن استغلالها ، حين قبل هذه الهدية أو الرشوة من ملوك القرنبيط ليساعدهم بنفوذه وهيبة مكانته وثقة الناس فيه على نهب المال العام باسم الحصول على قرض لتمويل مشروعات وهمية . وهو لم يقبل الاوراق المالية فحسب ، بل قبل من ملوك الخضر بيتا ريفيا جميلا بصفة هدية . لقد بدأ بعض الناس يتهامسون بما جرى ، بل لقد بدأ بعض الناس يطالبون المجلس البلدى باجراء تحقيق فى ملابسات هذا الموضوع ، وفى عدم تنفيذ ملوك القرنبيط للمشروعات التى من أجلها حصلوا على القروض .

ويخف ارتورو وى ، مع مساعده ارنستو روما وحرسه الحديدى ، الى دار هندسبورو طالبا لقاءه . ويرفض هندسبورو مقابلة هذا البلطجى ، ولكن ارتورو وى يفرض نفسه عليه فرضا ؛ فقد تجمع رجاله واحتلوا كل مداخل البيت الريفى ودهاليزه . وحين يأمر هندسبورو بطرده يجد نفسه أسيرا فى يده .

وهكذا يفرض ارتورو وى نفسه على هندسبورو . ان هندسبورو يستفسر عن أسباب هذه الزيارة . ويبدأ ارتورو وى فى شرح مشروعاته : انه رجل مجهول

هند هندسبورو ، فان كان قد سمع به ، فهو قد سمع ما يشين . ان أعداءه يقولون عنه انه بلطجى ، وهو ليس كذلك . ان كل ما جاء ارتورو وى ليطلبه هو أن يثق فيه هندسبورو ، وأن يعرفه على حقيقته ، وأن يزكيه أمام الناس ، ولا سيما أمام البوليس الذى يظن به الظنون . انه يطلب الى هندسبورو أن يضمنه عند البوليس اذا لزم الامر ، واذا اقتنع هندسبورو بوجاهة مشروعاته الخاصة بتجارة الخضروات . ويذهل هندسبورو . وما علاقة ارتورو وى بتجارة الخضروات. هذا ما جاء ارتورو وى ليشرحه ، انه قرر أن يكون حامي تجار الخضروات ، الصغار والكبار . انهم مهددون . الصغار يهددهم البوليس المرتشى كلما خرجوا على التسعيرة ويهددهم البلطجية الذين يهاجمون دكاكينهم ويأخذون ما فى خزائنهم . والكبار مهددون من الصغار الذين لا يسددون ديونهم للكبار ، فكلهم اذن بحاجة الى حمايته مقابل أجر بسيط . ومن قال منهم غير ذلك فهو لا يعرف مصلحته .

ويذهل هندسبورو لما يسمع ، ويسأله قائلا : « وما علاقتى أنا بملوك الخضروات أيها الشاب ؟ . لقد طرقت بمشروعك الغريب هذا بابا غير الباب » . ويصر ارتورو وى على طلبه . انه يطلب حماية هندسبورو ليستطيع أن يحمى ملوك الخضروات وتجارها . انه يرجوه أن يعطيه فرصة واحدة . ان رجاله أنفسهم ينفضون من حوله . انه لن يستطيع أن يواجههم اذا لم يتفق مع هندسبورو . ستكون هذه نهايته . وانه يضرع اليه أن يساعده ويقبله حاميا لتجار الخضروات . ويأمره هندسبورو بأن يكف عن الكلام والا استدعى البوليس

ويزار ارتورو وى . ما دام الرجاء لا يجدى فالعنف سوف يجدى . ان هنـــدسبورو مجرم . مجرد من الشرف .. مرتش رخيص . وهو يملك الدليل . انه يعرف كل شيء عن فضيحة أرصفة الميناء ، ويعرف ان شركة شيت ليست الا شركة هنـــدسبورو ، لسوف

يميط اللثام عن هذه الجريمة . انه يعرف ان تحقيقا سيجرى فى هذا الامر . ويمتقع وجه هندســـبورو ، ولـكنه يتماسك . انه يعلم انه ارتكب خطـــأ فاحشا بقبوله الهدية ، ولـكنه لن يخضع لضغط البلطجيـة

والمجرمين . محال . محال . ويعود ارتورو وى الى ضراعته : نعم ، سيجرى تحقيق . اعطنى فرصـــة واحدة فرصة العمر . سأصرع كل من يمس اسمك بأذى .. ويبكى ارتورو وى كالاطفال . ولكن هندسبورو لا يتزحزح ويجيب : « محال . انه لأهون على أن أفقد كل شيء ، عن أن يقترن اسمى بالبلطجية من أمثالك » .

وعلى الشاشة تقول الانباء : « فى يناير عام ١٩٣٣ رفض الرئيس هندنبورج للمرة الثانية تعيين هتـــلر مستشارا للرايخ ، رغم انه كان بشخصـــه ملوثا فى فضيحة اعانات الملاك فى المناطق الشرقية ، ورغم انه استولى شخصيا من هـــذه العملية على بعض أموال الدولة » .

لم يكن هنـــدسبورو ، العجوز الطيب الذى افنى ثمانين عاما فى خدمة مواطنيه باخلاص ونزاهة ، يتصور ان أحدا سيجترىء على شعره الاشيب الوقور فيطرح للمناقشة أو للتحقيق اى تصرف من تصرفاته . ولـكن ما أن بدأ الهمس فى دار البـــلدية حول نظافة يده وفضيحة قرض شركة النقل فى البحيرات الـكبرى حتى

أصر أصدقاؤه قبل أعدائه على اجراء تحقيق في الموضوع يثبت براءته ويزيل آية شائبة تكون قد علقت في سجله الناصع أمام التاريخ .

لابد من انقاذ الموقف . ويجتمع ملوك القرنبيط بوتشر وكلارك وكاروثر بدار البلدية ومعهم العجوز هندسبورو لقد اتفقوا على أن يأتي شيت ويقرر أمام لجنة التحقيق ان أسهم شركة البحيرات الكبرى للنقل لا تزال ملكا له وليست لهندسبورو ، وانه هو الذى حصل على القرض لبناء أرصفة الميناء الوهمية . طبعا سيقدم للمحاكمة ويسجن خمس سنوات ويتلطخ اسمه . ولكن شيت يتأخر في الوصول . واذا بباعة الصحف يتصايحون : « اغتيال شيت .. شيت يموت .. » لقد وجدوا شيت ميتا في فندق وفي جيبه تذكرة سفر الى كاليفورنيا ويمتقع وجه هندسبورو العجوز . ويضطرب الموقف ، فاوكيزى ، رئيس لجنة التحقيق يبدأ بالقاء الايحاءات ذات المغزى . ان شيت هو مفتاح الموقف . اما وقد مات شيت فأظنكم ستجيبون على كل سؤال : ولماذا لا تسأل شيت ؟.. ان موت شيت بمثابة طوربيد ينسف التحقيق . وحين تكثر شكوك المحقق أوكيزى وايحاءاته بأن شيت قتل لاخفاء الحقيقة . يهدده كلارك بأن في البلاد قوانين تحمي الناس من القذف . ويضيف ملبرى ان هندسبورو قد عين شخصا ممتازا لمعاونة اللجنة على تقصي الحقائق ، وانه سيصل بعد دقائق ، فيحسن الانتظار بدلا من كل هذا التخبط في الظلام . وبالفعل يصل مندوب هندسبورو الى مقر اللجنة ، واذا به ارتورو وى بين جماعته الشهيرة ، ارنستو روما وهونائبه ومعه حرسه

الحديدى . ويسأل اوكيزى عاجبا : اهذا مندوبك يا هندسبورو ؟ فلا يجيب هندسبورو وانما يجيب ملوك القرنبيط بتهكم : هل لديك عليه اعتراض ؟ ويعلو اللغط فى القاعة بين مراسلى الصحف ، فقد كان ارتورو وى معروفا للجميع .

ووسط دهشة المحققين يبدأ اوكيزى التحقيق : فليكن : أين العقود يا مستر ارتورو وى ؟ اية عقود ؟ العقود التى وقعها شيت مع المقاولين لبناء ارصفة الميناء . هذه وحدها تثبت جدية القرض . ويجيب ارتورو وى : انا لم اسمع بهذه العقود . ويسأله أوكيزى : ألم تقابل شيت ؟ فيهز ارتورو وى رأسه علامة النفى . ويسأل اوكيزى : لماذا لم تفعل ؟ ألم ينتدبك هندسبورو لتقصى الحقائق ؟ فيجيب ارتورو وى : نعم ، فعلت ، وقد وصلت الى نتيجة محزنة ، وهى ان أموال البلدية ، أموال دافع الضرائب المسكين قد ذهبت الى شركة ملاحة شيت ، وانها اختلست ، وان مختلسها هو شيت . ويقول أوكيزى : ان شيت قد مات ، وهو لن يستطيع أن يدافع عن نفسه . ويجيب ارتورو وى : لم اكن اعلم أنه مات . انا كنت فى سيسيرو ، فلم اسمع بشىء . وكان معى روما .. ايها السادة .. أن هذه ليست مصادفة . ان انتحار شيت نتيجة لجريمته الشنعاء . وينبهه أوكيزى بأن شيت قتل ولم ينتحر . على كل حال لقد كان ارتورو وى فى سيسيرو وليس فى شيكاغو ، وهو لا يعرف شيئا عن هذا . كل ما يعرفه أن شيت كان نصابا . وهنا يبدأ اوكيزى فى الاتهام الصريح : ولماذا لا يكون هندسبورو نفسه هو النصاب ؟ ان لديه شهودا بأن

الاسم كان لشيت والفعل كان لهندسبورو ، فهو الذى كان يملك أسهم شركة شيت وقت عقد القرض . ويعلو الهرج والمرج فى القاعة . والعجوز الطيب هندسبورو ممتقع الوجه لا ينبس بكلمة . ويصيح اوكيزى : استدعوا الشاهد باول . لابد انه وصل . نعم لقد وصل . وفى الخارج تسمع انفجارات وطلقات . فليدخل الشاهد باول . ويدخل رجال البوليس حاملين جثة باول الذى خر صريعا على درج البلدية برصاص العصابة السوداء .

وعلى شاشة السينما يظهر هذا النبأ : « الاضطراب يستمر . الازمة تدفع جماهير العمال كل يوم الى حافة الثورة . رأس المال الضخم يدعم هتلر بأموال كثيرة ، ويرغم الرئيس هندنبورج على تعيينه مستشارا للرايخ » .

وحين يخرج هندسبورو العجوز من دار البلدية معتمدا على ذراع ارتورو وى ، نحس بأن ارتورو وى قد غدا السلطة الحقيقية فى بلدية شيكاغو . ولا نلبث ان نراه يستقدم ممثلا معدما ليعلمه فن الالقاء الدراماتيكى وطريقة المشى والجلوس فى هيئة العظماء ، وكأنه يعد نفسه لمواجهة الجماهير فى تمثيليات لا نهاية لها . ولا نلبث ان نراه يتدرب على هذا التمثيل أمام مرآة جسيمة كل يوم ــ قيل ان هتلر استقدم ممثلا مغمورا اسمه بازيل ليعلمه فن الالقاء ــ ثم لا نلبث أن نرى ارتورو وى يجرب نفسه فى أول تمثيلية له أمام بقالى شيكاغو فيخطب فيهم منددا باختلال الامن فى المدينة وحاجتهم الى حام يحميهم ويحمى دكاكينهم مقابل ٣٠٪ من ارباحهم وحين يحتجون بأن هذا يكلف ،

يصيح فيهم ارتورو وى قائلا : « الموت وحده بالمجان ، وكل ما عداه يكلف » . وحين يحتجون بأن دكاكينهم فى أمن منذ شهور يذكرهم بالحانات التى تحطمت واجهاتها كل يوم وتسيل منها غالى الخمور ، وفى هدوء يخرج رجاله ويشعلون النار فى بعض المخازن القريبة قبلما ينفض الاجتماع ، فيتملكهم الرعب وتأتى اللمسة الاخيرة لهذا المشهد حين تدخل الارملة الحزينة ، نينى زهرة الميناء ، ارملة الشاهد باول المقتول ، ومعها طفلتها الصغيرة لتشكر ارتورو وى أمام المجتمعين على ما ارسله من باقات الزهر على قبر زوجها الراحل وما اسبغه عليها من رعاية منذ وفاته . يقتله ويمشى فى جنازته كما نقول نحن فى مصر .

وعلى شاشة السينما يظهر البيان التالى : « ٣٠ يناير عام ١٩٣٣ : هندنبورج يسلم السلطة لهتلر . حفظ التحقيق فى فضيحة اعانات الدولة لكبار الملاك فى المنطقة الشرقية . اشاعة الرعب فى صفوف اليسار الالمانى . فى الشهر التالى حريق الريشستاج ــ البرلمان الالمانى ــ هتلر يتهم الشيوعيين ويعطى الاشارة ببدء ليلة السكاكين الطويلة »

يلى هذا مشهد حزين ، يتخلل مقاطعه الاظلام التام وموسيقى المارش الجنائزى لشوبان ، وكأننا نشهد جناز القضاء الالمانى . فقد جاءوا فى المحكمة بشاب ابله لا يفيق من السكر يدعى فيش ، واتهموه باحراق مخازن الميناء ، رغم وجود شهود رأوا جورى وعصابته يحملون صفائح البترول ويدخلون بها المخازن وقت اجتماع ارتورو وى بتجار التجزئة ، ورغم وجود شهود بأن سيارة جورى كانت تقف أمام المخازن لساعات

قبل الحريق ، ورغم وجود شــــهود رأوا الابله فيش مخمورا فى مطعم هندسبورو وقت حدوث الحريق ، وقد فقد وعيه من السكر ، فجروه وقـــذفوا به الى الخارج ، فاذا بالطبيب الشرعى يعلن بأن فيش ليس معتوها ولـكن يدعى العته ثم تطفأ الانوار ثم تضـاء فاذا بالشـــهود تحيط برءوسهم الضمادات وبعظـامهم الاربطة ، ويمكن للقاضى أن يصـدق أن جورى كان فى سيسيرو وفى شيكاغو فى وقت واحد . وما دامت عيون الشهود متورمة وقت المحاكمة فكيف يميزون جـورنج من قان در لوبه — جورى من فيش — ؟ وفى مقدمة شهود الاثبات الجميلة نينى زهرة الميناء ، أرملة باول لقد حفظت اسطوانة تلتها فى المحكمة مؤداها ان الشاب فيش هو الذى اغتال زوجها على درج البلدية وانه هو الذى أحرق مخازن الميناء .

وعلى الشاشة يقول البيان : « فى القضية الـكبرى لحريق الريشستاج حكمت محكمة ليبزيج العليا بالاعدام على عاطل يرجح أنه كان مخدرا وقت اشتعال الحريق . أما الجناة الحقيقيون فلم يزعجهم احد ، ومنـــذ ذلك التاريخ والقضاء الالمانى أصبح اداة فى يد هتلر »

وبعد أن اســـتقر حكم شيكاغو فى يد ارتورو وى وعصابته بدأ الشقاق يدب بين أفـراد العصـــابة . فهندسبورو العجوز عليـل يمزقه الندم على ارتبـاطه بهذه الجماعة البلطجية ، وهم ينتظرون وفاته من شهر الى شهر ، ويتحدثون عن « وصيتـــه » التى يطبخها جوبولا فى بيت ارتورو وى . ويلاحظ جوبولا ان جورى ملازم للعجوز هندسبورو ، يقيم فى داره ولا يترك اذنه ولا فمه ، ويوحى الى ارتورو وى بان جورى يدبر مع

العجوز شيئا من وراء ظهر « الزعيم » وحين يصل جوري يصاب بهياج لان الوصية المزعومة تعين روما رئيسا للبوليس ـ كان روهم رئيس فرقة العاصفة النازية المشهورة ـ وحين يصل روما يستحكم الشجار بينه وبين جوري ، ويتهم روما جوري بانه يتردد كثيرا على هندسبورو العجوز وعلى كلارك وبقية ملوك القرنبيط ـ الرأسمالية الضخمة ـ لاستخدام ارتورو وى وجماعته أدوات فى خدمة الاحتكار. ويشتكي جوري

وجوبولا لارتورو وى من أن مساعده ارنستو روما وحرسه المسلحين يفسدون كل شيء ، فهم قد هاجموا بالمتراليوزات لوريات كاروثر ملك القرنبيط ، مما احنق ملوك القرنبيط وجعلهم يهددون القرنبيط ، معا ارتورو وى . ويثور روما ويخرج مسدسه ويرغم جوري وجوبولا على رفع الايدى ، ويحذر ارتورو وى من انهما يعملان لحساب ملوك المال واحتكاريي الخضر. انهما حانقان لان رجاله هاجموا لوريات كاروثر ، وهو يسأل : ولماذا لا يهاجمون تجار الجملة ؟ لماذا يهاجمون دائما تجار التجزئة . هل هم أدوات فى أيدى الرأسمالية الضخمة ؟ ان رجاله المسلحين الفقراء بدأوا يتساءلون : لقد روض لارتورو وى برشاشاته تجار التجزئة ، ولابد من ترويض تجار الجملة . ويطرد روما جوري وجوبولا وينفرد بارتورو وى الذى ينهار اعياء وكمدا . ان رجاله يقتتلون على سفاسف ، لم يعودوا يثقون فيه ثقة عمياء ، وهو لايرضى بأقل من الثقة العمياء . ثم يسبح ارتورو وى فى بحرين . أن لديه مشروعات عظيمة تغنيهم عن هذه السفاسف .. لقد استولوا على شيكاغو ، والآن فى استطاعتهم

الاستيلاء على سيسيرو . ويسأله روما : كيف ؟ كيف ؟ فيجيبه ارتورو وى : « من الباب الرئيسى ، من الباب الخلفى ، من الشبابيك . سيان أن أطرد أو ادعى ، سيان ان يحتفوا بى او يصرخوا فى وجهى . بالوعيد أو بالضراعة . بالملق أو بالسباب . بالعنف الرفيق ، بالقبلة الحديدية . باختصار .. كما فعلنا هنا » وهذه ستكون « بروفة » لما بعدها . ليست هناك الا صعوبة واحدة . فى سيسيرو تجار الخضر خائفون من ارتورو وى وجماعته . يقولون انه يعمل لحساب ملوك الخضر فى شيكاغو . بل ان ملوك الخضر فى سيسيرو انفسهم يريدون الاشتراك فى ترست شيكاغو من هيئة المحتكرين وزعيمتهم مدام دولفوت اكبر مستوردة للخضر، يريدون الاتحاد مع الترست ولكن من غير ارتورو وى وجماعته هذه هى المشكلة .

ويشرح روما لارتورو وى ما يجرى فى الخفاء . ان دار هندسبورو هي الوكر الذى تدبر فيه كل عمليات « الترست » أو احتكاريى الخضر ، وجورى يعاونهم فى خططهم من وراء ظهر زعيمه . انهم يريدون ابعاد ارتورو وى عن عملية سيسيرو بحجة انهم جماعة من البلطجية . وبالفعل تتحقق نظرية ارنستو روما حين يصل جورى ومعه كلارك ومدام دولفوت ملكة القرنبيط فى سيسيرو ، ويبلغون ارتورو وى ان مفاوضاتهم لادماج احتكار الخضر فى سيسيرو مع احتكار الخضر فى شيكاغو قد تمت بنجاح فى كل النقط الا نقطة واحدة وهى ضرورة استبعاد العصابات المسلحة التى تشيع الارهاب بين المواطنين . ان مستر دولفوت قد تزعم فى سيسيرو حملة ضارية ضد هذه العصابات التى قلبت الحياة

جحيما فى شيكاغو ، ولكن مدام دولفوت تؤكد لارتورو وى ان هذه الحملة ليست موجهة ضده وانما هى موجهة ضد العصابات المسلحة . وتذكره بما كان من اغتيال شيت الذى سموه « انتصارا » ، وما كان من الاعتداء على لوريات كاروثر ، وكلاهما ، أيا كان الرأى فيهما ، شخصيــة فى الهيئة الاجتماعية وليس مجرد رقم من آحاد الناس . كل من فى سيسيرو يعرف ان قرنبيط الترست ملطخ بالدم ، وان بعض رجاله مسئولون عن ذلك . باختصار لابد من ابعاد المشاغب روما وحرسه المسلحين اذا أراد ارتورو وى اتحاد ممولى سيسيرو وممولى شيكاغو . هـذا هو الاعتراض الوحيد الذى اثاره اجناطيوس دولفوت وهو سيقاوم الى آخر قطرة من دمه ظهور رجال من أمثال روما فى سيسيرو .

وحين يسمع ارتورو وى هذا الكلام يثور ويطلب اليهم أن يكفوا عن الكلام . ان روما موضــع ثقته التامة ، وهو يتمسك به الى النهاية . ويحذره جورى مما سيلقاه من مقاومة هندسبورو وانصاره والصحافة والرأى العام كله . ولكن ارتورو وى يجيب : لست بحاجة الى نصائح . انا أعرف واجبى .

وعلى شاشة السينما يظهر البيان التالى : « بعـد استيلاء النازى على السلطة نشبت بينهم خـلافات ضارية : رويهم ، صديق هتلر وقائد فرقة العاصفة ، يطالب بان تكون يد فرقة العاصفة هى العليا على يد الجيش الالمانى . جورنج يؤيد هندنبورج وقواد الجيش الذين يطالبون بحل فرقة العاصفة . هتلر يجهز لاحتلال النمسا » .

ويقترح ارنستو روما على ارتورو وى ان يفوضه فى

تصفية هذا الموقف على طريقته الخاصة . ان كل ما يطلبه هو الاذن بتنظيف شامل يبدأ بهندسبورو العجوز وينتهى بملوك الخضر وعملائهم جورى وجوبولا.ويوافق ارتورو وى ويتواعد معه على اللقاء الرهيب ذات ليلة ليلاء فى أحد المخازن ، حيث يجهز روما كل شيء للفتك بأعدائه . وفى تلك الليلة ينتظر روما برجاله ورشاشاته فى المخزن المحدد قدوم ارتورو وى . ويصل ارتورو وى بين عربتين مصفحتين ، ولكنه لا يصل وحيدا ، وانما يصل فى صحبة جوبولا واتبـاع كثيرين مسلحين . ويستقبله روما فرحا ، رغم عجبـه لرؤية جوبولا فى صحبة زعيمه . لقد دنت ساعة العمل . ويتقدم ارتورو وى من روما ويمد له يده ليصافحه ، ويشد على يده بقوة . وفى أسرع من البرق يخرج جوبولا مسدسـه ويطلقه على روما فيرديه صريعا وسط رجاله المذهولين، وقبل أن يفتح رجال جوبولا الرشاشـات على رجال روما ، يقول لهم ارتورو وى : «لقد افتضحت مؤامرتكم الحقيرة ضـدى . كذلك افتضحت مؤامرتـكم ضـد هندسبورو . لقد سبقتكم بخمس دقائق . لا فائدة من المقاومة . سوف ترون عاقبة خيانتى » .

وعلى شاشة السينما يظهر هذا البيان : « فى ليلة ٣٠ يونيو عام ١٩٣٤ يهاجم هتلر فجاة صديقه رويهم فى فندق كان ينتظره فيه ليقوم معه بانقـلاب ضـد هندنبورج وجورنج » .

اما وقد خرج ارنستو روما من المسرح ، فقد كان ينبغى أن يطرب اجناطيوس دولفوت وزوجتـه بيتى دولفوت ومعهم اهل سيسيرو ويبـادروا الى الاتحاد مع ملوك الخضر فى شيكاغو . وفى اللقاء الاليم بين آل

دولفوت ، من سيسيرو ، وبين آل ارتورو وى ، من شيكاغو ، نجد أن كآبة دولفوت قد اشتدت لأن اختفاء روما من المسرح ، وهو امنية حياته ، كان مجرد تكرار لاختفاء شيت وباول من قبل . ورغم تأكيدات ارتورو وى ووعوده المعسولة بأن عصر العنف قد انتهى ، لم يستطع دولفوت ان يخفى كآبته وتحفظه . ولم تفلح زوجته الجميلة المخدوعة بجميل الـكلام أن تزيل ما بين الرجلين من فتور وانعدام ثقة متبــادل . وحين يرى دولفوت يد ارتورو وى تســـتقر على كتف زوجتــه الجميلة فى غزل كغزل النمر مع الغزالة يمتقع وجهــه غضبا ، ويأخذ زوجته وينصرف ولا يجد ارتورو وى ما يقوله سوى : «هذا الرجل لا يعجبنى» . ثم يعقب هذا مشهد حزين لجنازة دولفوت ، وأمام ضريحه نجد جوبولا المنافق يضع اكليلا من الزهور على قبره ويجد ارتورو وى واقفا بين المشيعين يحاول عبثــا أن يقدم العزاء لزوجته المـكلومة التى أطار الحزن لبها فذهبت تصب اللعنات على هـــذا السفاح ، وتصرخ فى الرياح الاربع : « حطموا ارتورو وى ! حطموا ارتورو وى » .

وعلى شاشة السينما يظهر هذا البيان : « فى يوليو عام ١٩٣٤ دبر هتلر اغتيال انجلبرت دولفوس ، رئيس النمسا ، ومن بعدها جدد النازى جهودهم التى لا تعرف الـكلل ليخطبوا ود النمساويين » .

وبعد قليل ، فى جو من الرعب القاتل اجتمعت جماعة التجار فى بلدة سيسيرو المجاورة لمدينة شيكاغو لتقرر مصير بلدتهم : هل تقبل « حماية » ارتورو وى ، أم ترفضها . كانوا صــفر الوجوه وكان بعضهم يرتعد فرقا . فقد دارت عليهم الـكأس التى دارت على أهل

شيكافو من قبل ، قبل صعود ارتورو وى. كان واضحا ان القاعة محاطة بالرشاشات . وأكد لهم ارتورو وى فى الميكروفون الصاخب انهم احرار فى الاختيار ، ولكنه لم ينس أن يضيف : « انى لاكره قول نعم بقلب ثقيل. فلتقولوا نعم بقلب مفعم بالحماس . هذا ما امر به » .

وعندئذ تساق الارملة الحزينة بيتى دولفوت ، وهى لا تزال فى ثياب الحداد ، الى المنصة كالاسيرة لتلقى برأيها لمواطنيها ، فتقول فى عبارة غامضة : « نصيحتى اليكم ما دمت بعد الان لا أملك لكم عونا ، أن تثقوا فى السيد ارتورو وى ، مثلما وضعت انا ثقتى فيه بعد أن علمتنى آلام هذه اللحظات ان اعرف حقيقته » . ويطلب جوبولا اخذ الاصوات برفع الايدى . ويسأل أحد تجار سيسيرو أن كان فى امكانه ان ينصرف ، فيقال له انه حر يستطيع أن يفعل ما بدا له . وحين يبلغ الباب الخارجى تدوى طلقة . ويسأل جودى : والان الينا بالقرار بمنتهى الحرية . فيرفع كل من الحاضرين اليدين معا وتكون مناسبة عظيمة يخطب فيها ارتورو وى فى ابناء سيسيرو ليحييهم على قرارهم التاريخى ويختمها بقوله : « الان سيحل السلام على سيسيرو كما حل على شيكاغو من قبل . ولضمان هذا السلام قد أمرت على الفور باقامة الرشاشات والمصفحات وما يلزم من المسدسات وأدوات القمع . ان سيسيرو، بعد شيكاغو ، تطالب بحمايتها . كذلك تطالب المدن الاخرى : توليدو ! برنستون ! بتسبيرج ! سنسناتى ! اولبانى ! واشنطون ! كل مدينة يباع فيها القرنبيط تطالب بحمايتها ! فلينت ! بوسطون ! كانساس سيتى! دنفر ! سانت لويس ! ليتل روك ! ميامى ! كولومبوس!

شارلستون ! نيويورك ! كل هذه تطالب بحمايتها .. ولا شيء يقف فى طريق ارتورو وى » .

وتختلط كلماته الاخيرة بدق الطبول وبنداء النفير .

وعلى شاشة السينما يظهر هذا البيان : « فى ١١ مارس عام ١٩٣٨ ، دخل هتلر النمسا وبهذا بدأ سلسلة اغتصابه فى اوربا : ففزا على التوالى تشيكوسلوفاكيا ثم بولندا ثم النرويج ثم هولندا ثم بلجيكا ثم لكسمبورج ثم فرنسا ثم يوجوسلافيا ثم اليونان ثم الاتحاد السوفييتى » .

وهكذا تنتهى مأساة « صعود ارتورو وى » . خطوة بخطوة تتبع فيها بريخت صعود هتلر وحزبه النازى منذ الازمة العالمية حتى جلوسه على قمة اوربا عام ١٩٤١ ، قبل قعقعة انهياره العظيم . شفافة كل شخصيات هذه المأساة الشعرية وكل احداثها وكل رموزها .

هذه المسرحية المحيرة تتحدى كل تقييم : ان قرأتها ضقت بها وبصاحبها بريخت ، وعجبت كيف ان هذا الكاتب العظيم عجز عن ترجمة التجربة الفاشية ـ النازية الى تجربة فنية أكثر ابعادا وأعمق مغزى ، وان رأيتها على المسرح ذهلت من توترها المسرحي ومما يسرى فيها من كهرباء وصواعق . ولست أشك فى ان مصدر ذلك عبقرية المخرج جورج ويلسون الذى احكم ربط لوحاتها السبع عشرة وعبقرية الممثل روبير هيرش الذى تقمص شخصية ذلك المجرم العبقرى أو العبقرى المجرم ، ادولف هتلر بكل ما كان ينتابه من نوبات الصرع ومن نزوات السادية ومن مكر الثعالب وضراوة النمور حتى لتكاد تحسب ان داخل جلده شخصان

متعانقان متقاتلان ، وهو ما لا تجده في النص الصريح الذي يصور هتلر في صورة البلطجي الرهيب لا اكثر ولا أقل .

والمشكلة عندي هي : هل كان هتلر عبقريا مجرما او مجرما عبقريا ؟.. وبريخت بطبيعة الحال قد اختار لهتلر صورة آل كابوني وجاك ديلينجر ، وهو بهذا في إعتقادي قد بسط تحليل الفاشية اكثر مما ينبغي . مما جعله لا يرى في خصومه الا ذلك الجانب المادى الساذج الخسيس ، جانب البلطجي او فتوة الحي الذي يفرض الاتاوات على الناس مقابل حمايتهم بالاكراه وينسى ان قادة الامم وزعماء الجماهير ، بل ومحامى الطبقات ، مهما كانوا من عتاة المجرمين ، فان الذى يؤهلهم لثقة النـاس حتى الموت ليس مجرد اجرامهم ولا مجرد دهاؤهم ، ولكن هبات طبيعيـة في تكوينهم النفسي والعقلي تجعلهم يترجمون المصالح الى فلسفات ، والفلسفات الى أساطير ، والاساطير الى حقائق . فبالمعنى الماركسى الاصيل ، أو ما يسمونه بالجبرية التاريخية ، ليس هناك بين صانعي التاريخ وقادة الشعوب من لم ينصب نفسه « حاميا » للمجتمع البشرى او لشريحة من شرائحه ، تلك التى نسميها طبقة ، من الاسكندر الاكبر الى يوليوس العظيم الى روبسبيير الذى لا سبيل الى افساده الى نابليون فاتح الامصار الى جلادستون رسول الديمقراطية الى لنكولن محرر العبيد الى لينين وستالين محررى البروليتاريا الى موسولينى وهتلر حصنى الراسمالية المنيعين ، فكل من هؤلاء قد نصب نفسه أو توهم نفسه « حاميا » لمجتمع من المجتمعات أو محاميا في قضية من القضايا . ولا فرق

بين عظيم مصلح وعظيم مجرم الا ان احـدهما عاش ومات فى سبيل قضية عادلة ، بينما الاخر عاش ومات فى سبيل قضية ظالمة . ولا فرق بين عظيم مصلح وعظيم مجرم الا ان أحدهما تخير الوسائل العظيمة فى سبيل الغايات العظيمة ، بينما الاخر استحل الوسائل الوضيعة فى سبيل الغايات العظيمة . فاذا نحن لم ننظر هذه النظرة الى سيكولوجية هتلر وموسوليني ، وجدنا صعوبة قصوى فى فهم التفاف الملايين من البشر ، حتى تحت الضغط والاكراه ، حول ما نسجا من اساطير .
أما ارتورو وى عند بريخت فقد كان محض بلطجى خطير يسعى بأوضع الوسائل لتحقيق اوضع الغايات . . كان كابونى بلا أحلام . . كان كابونى بلا أساطير ، برغم نوبات التشنج والصرع الكثيرة التى كانت تعتريه ، وقد كانت كفيلة بأن تنقله الى عوالم من الرؤى الرائعة ولو كان تتجول فى اطباق الجحيم .

الحرب والسلام..
فى قهوة سنيفل

نحن فى قهوة بجوار محطـــة ليون بباريس ، وهى محطة الجنوب ، لا نخرج منها طوال الفصول الاربعة فى هذه المسرحية . الفصل الاول يقع يوم اعلان الحرب عام ١٩٣٩ ، والفصل الثانى يقع يوم دخول الالمـــان باريس عام ١٩٤٠ ، ودخول أيطاليا الحرب غدرا بعد أن يقنت أن فرنسا قد جثت على ركبتيها أمام الالمان ، والفصل الثالث يقع ذات ليلة من ليالى الشتـــاء أيام احتلال النازى لباريس ، والفصل الرابع يقع يوم انتهاء الحرب عام ١٩٤٤ . اما شخصيات المأساة فهم ماتيلدا صاحبة قهوة سنيفل ، وهى امراة فى الخامسة والثلاثين ظلت عذراء حتى الفصل الثالث ، ومعها نيكولا جرسون القهوة ، وهو شاب فى سن الجندية طلب فعلا للخدمة العسكرية فى التعبئة العامة ، ثم رواد هـذه القهوة أو هذا البار ، ففى فرنسا كل قهوة بار أيضا ، وأهمهم البابو وهو عامل ايطالى سكير ضخم الجثـــة تجاوز الخمسين ، وزميله العامل الايطالى نيوفيت ، ومعهما يهودى ضئيل الجسم وديع الطبـــع اسمه كروسكى ، والبولاك وهو رجل بولندى ليس له صنعة محددة ولا ســـن محددة ، ثم بائع جـــوال فرنسى من سريحة الـــكرافتات يعمل دون ترخيص اسمه بارابلوى ، وفى

وقت ما يدخل المارشال بيتان بشخصه فى قهوة سنيفل ثم يمضى من حيث أتى ، وفى وقت ما يظهر جندى المانى او جنود من الحلفاء ، وفى نهاية المأساة تظهر جثة موسولينى ويكون لظهورها اثر كبير فى تغيير مجرى الامور . وفى مقدمة كل فصل منشد ـ مضحك ـ يتحفنا بقوافيه عن قصة الحرب والسلام .

وفى البداية ينشدنا المنشد قائلا :
عندما يكون أبى جائعا .

يغنى دائما هذه الاغنية المرحة :
لا تحمل الهم ، ينبغى أن تضحك .

ولندع الارض فى دورتها تدور .

ثم يختفى المنشد ، وترى فى قهوة سنيفل صاحبتها ماتيلدا جالسة خلف الخزنة والجرسون نيكولا يرتب زجاجات النبيذ ، وحول احدى الموائد نرى البابو الايطالى والبولاك البولندى وبارابلوى البائع السريح الفرنسى يلعبون الورق . ويثير نشيد المنشد اشجان ماتيلدا ونيكولا ، فيتذكر كل أباه المتوفى . أما ماتيلدا فذكرياتها عن ابيها جميلة وسعيدة :

ـ كان بائع سجائر وكان يدللها وهى صغيرة قائلا : انها جميلة وانه يريد أن يتزوجها ، وكان يسميها حمامته ويمامته وعروسته التى يلعب بها كالاطفال ، وكان مؤمنا . وحين مات أبوها حزنت حزنا شديدا لان الترام لم يتوقف عن المسير فهى لم تركب الترام الا معه . انها كثيرا ما تحلم بأبيها وتسمع نداءه الجميل لها اثناء النوم . اما نيكولا فهو ايضا يحلم بأبيه ، ولكنه يأتيه كالكابوس المخيف . كان قاسيا ، وكان حلاقا ، ومع ذلك فنيكولا لا يذكر راسه ولا يذكر

صوته ، ولـكنه يسمعه فى الجبانة يناديه ، فيلتفت نيكولا ولـكنه لا يرى أحدا أو شيئا غير الصلبان والقبور فيعدو فى هلع ، ومع ذلك فهو يعرف ان أباه يناديه من بين القبور .

وهكذا غير صوت المنشد المضحك نسمع صوتين منذ البداية : احـــدهما يفيض بالامل وعذب الذكريات ، وهو صوت المرأة حين تتذكر اباها وكأنه رمز الحيـــاة ، والآخر يجيش بالرعب وصور العدم وهو صوت الرجل حين يتذكر أباه وكأنه رمز الموت . وهكذا نشتبه منذ البداية فى ان ماتيلدا ونيكولا لا يتحدث كل عن أبيـــه الحقيقى ، ولـكن يرسم صورته الخاصة عن الـكون وخالقه .

وحول المائدة يلعب البابو والبولاك والسريح بارابلوى الورق ويدخل عليهم اليهودى كروسكى ويكسب البابو الدور ، ويصيح : « بصرة ! » واذا بهذا السكير الايطالى يتهيج وينسى نفسه ويتصـــور أن انتصـــاره عليهم فى الـكوتشينة مقدمة لانتصار الايطاليين على الفرنسيين فى الحرب . ويذهب يشتم الفرنســيين ويعيرهم بأنهم قوم مترفون ، عمالهم لا يشتغلون بل يخرجون للنزهة فى الضـــواحى على البســـكليتات أو يتجمهـــرون فى الاجتماعات السياسية أو يمشون فى المظــاهرات وهم يغنون الانترناسيونال ، تحكمهم الجبهة الشعبية وتحكم الجبهة الشعبية موسكو . باريس ملأها الزنوج . غدا يستولون عليها فلا يجد عامل فيها عملا . غدا يستولى عليها النجاشى هيلاسلاسى ويقطع السود اعضاء التذكير فيهم . هذه ذكريات البابو عن حملة موسولينى على الحبشة . ولـكن القمصان السود ــ النازى من المانيا

والفاشيست من ايطاليا ــ سوف يزحفون على باريس بالملايين وينصبون مدافعهم فى شوارعها وآلاف المصفحات. سـوف تحترق باريس . تقدم تقدم يا موسـوليني وعندما يتقدم موسوليني لن يستطيع احد فى باريس ان يهينه بقوله : يا مكرونة ! انه جاء الى فرنسا ليـأكل لقمة ومع ذلك فالـكل يهينه . ثم تختلط الصـور فى عقل البابو المخمور فيتصـــور النجاشي والزنوج قد استولوا على باريس ، والجنس الابيض كله اما مخصى او مسحوق . لقد انتهت فرنسـا . التهمها الزنوج التهمها اليهود والصينيون والقمل والقراد والدود ،وملايين القنابل تسقط من السماء والصواعق والبراز والظـلام والقنابل تسقط . تسقط على باريس .

انه اشبه شيء بسفر الرؤيا ، رؤيا كلهـا وحوش وفظائع ، يتنبأ بها البابو المخمور ويتنبأ بنهاية فرنسا فى شماتة تعلمها من الفاشيست والنـازى . وحين يعرف أن كروسكى يهودى يهينه ويبالغ فى اهانته . اليهود والشيوعيون ... لابد من قتلهم . اذا كان هتلر يقتل اليهود فى برلين فهم يستحقون القتل فى كل مكان. وكذلك الشيوعيون الذين يحلمون بأن الرفيق ستالين يدهن سندويتشات العمال الفقراء بزبد الاغنياء . انهم واهمون لان بابا ستالين يأكل وحده السندويتشات فى الـكرملين .

ويدخل العامل الايطالى نيوفيت لاهثا مذعورا انهم يطاردونه فى الخارج ويقـذفونه بالحجارة ويصيحون وراءه : طليانى ! مكرونة ! طليانى ! مكرونة ! لماذا ؟ لان الحرب قامت بسبب دانتزج . بسبب بولنـدا . بسبب النمسا . ويصاب الـكل بوجوم . ولكن البابو

يقول : الم اقل لـكم ؟.. لقد صدقت نبوءتى . تقدم يا هتلر . تقدم ياموسولينى ويقول اليهودى كروسكى : «من أجل من الحرب ؟ ليست من أجلى ولا من أجلك»

فيجيب البابو : « انها من أجلك يا شلخت ، ومن أجلك يا بولاك ومن أجل دالاديبه ومن أجل النجاشى» ويجيب كروسكى : « انت لا تحب اليهــود . انت لا تحب

الناس » . ويؤلب البابو كل الحاضرين على اليهودى كروسكى فيقول نيوفيت ســوف تموت ونستولى على زوجتك « راشيل » ويقول الجرسون نيكولا : « لقد انتهت المـكائد . انتهت المضاربات . انت تسمن ونحن نمصمص العظام » . ويقول ثالث : « صحيح . نحن لم

نر يهوديا يشتغل فى مصنـــع ، لم نر عاملا يهوديا » ويضيف قائل : « كل المـكاسب منذ قرون من نصيب يهوذا وأبنـــائه » . ومن قائل : « هيــا اخرج أيها اليهودى » . ومن قائل : « سأسحقك أيها اليهودى

كما تسحق القملة » . ويقول البابو : « عندما يتقدم الدوتشى سيكنس كل اليهود . الدوتشى موســولينى سيكسب الحرب سيكنس كروسكى » . ويتهيأ البابو فى وقفة عسكرية هو ونيوفيت وتبدو عليهما القســوة ويتقدمان من كروسكى ، ويقول البابو : « سوف تدفع الثمن غاليا » .. « ثمن ماذا ؟ » .. « ثمن يهوديتك» « اليهودية ليست جريمة » .. « اليهودية سفالة » .. « انا لا أرى أين خطئى » .. « انت يهــودى كما ان

النجاشى اسود .. اركع » .. « انت تريد اذلالى » . قلت : « اركع » ويحاول كروسكى ، شاحب الوجه مرتعد الفرائص أن يتسلل الى الباب فيقطع نيوفيت طريقه صارخا بالايطالية : « تقدموا ياجنود ! تقدموا

ياجنود ايطاليا ! هيا اركع واطلب العفو ثم يصفعها بقوة فيترنح كروسكي ويرتطم بالكونتوار ، وتترقرق الدموع فى عينيه ويرق له قلب ماتيلدا فتعاتب نيوفيت وكذا يعاتبه البولاك . ويجيب البابو : لانه مسئول عن الحرب . مسئول عن الدم الذى سيسيل . ليس جداول الدم ولكن أنهار الدم . دم الازواج القتلى ودم أراملهم . هل رايتم من قبل برميلا من النبيذ الاحمر ينفجر ؟.. النبيذ الاحمر يجرى كنهر من الدم . انه نهر السين . انه نهر الراين . انه يجرى كثيفا ، وادعا ، ثقيلا اسود .. أهو نبيذ ؟.. أهو دم ؟.. وكيف نعرف ؟.. عندما يتجمد الدم ، ويتسلل اليهودى خارجا

ويصمت البابو ويتم شرب كأسه فى هدوء ويسترسل فى ذكرياته الخاصة . وهنا يدخل ولده الصغير ريمو وهو فى العاشرة ، ويتحدث حديث الصبية عن الحرب : « لقد قالت لى مدام باتى ان الألمان اذا دخلوا سيقطعون يدى وسيحرقون زوجات الجنود وهن أحياء» فيصححه أبوه البابو قائلا : « ان هذه أحاديث مخرفين » ويؤكد بارابلوى ان الالمان فعلوا ذلك فى حرب ١٩١٤ ، وتؤكد ماتيلدا ان الالمان اغتصبوا البنك فى حرب ١٩١٤ ، فيجيبهم البابو ساخرا : « كذلك أحرقوا جان دارك . كذلك استولوا على الباستيل » .

ولا تلبث ان تدخل القهوة باتى العجوز بنت العمة وهى تحمل صرة كدست فيها المؤن . ان كل المحلات قد أغلقت ابوابها ولكنها لم تنس نفسها فاشترت كل ما يمكن أن تحتاج اليه قبل اغلاق المحلات : الخبز والملح والسكر والزيت والفلفل والكمون والكزبرة والصابون والارز والنشادر والسلمون والمناديل

والانشوجة والمحبوب أيضا لعصافيرها . وقبل أن تقبل عليهم رأت روبير ابن الجيران فى نوبة هستيرية يصرخ ويقول : « انها الحرب ! » ثم يتناول سكينا ويقطع به خصيته . وقبل أن تقبـل عليهم رأت آلاف الجنود محشورين فى القطـارات وفى عربات المترو . وترتفع صفارات الانذار فى سـماء باريس لاول مرة وتنطلق المدفعية المضادة للطائرات فتسقط الزجاجات من البار فيهلع الجميع . ويقول البابو مسرورا لولده ريمو : « لا تخف ، لن يقتلونا .. نحن من الاصدقاء » ويهم بالخروج من قهوة سنيفل ، ولـكنه يصطدم فى مدخلها باليهودى كروسكى وقد عاد أدراجه الى القهوة يحتمى بها ويقصف دوى المدافع فى الخارج فتهتز جـدران قهوة سنيفل ويثبت كل مكانه .

ثم ننتقل الى عام ١٩٤٠ ، عندما دخل الالمان باريس وطعنت ايطاليا فرنسا فى ظهرها بأن اعلنت عليها الحرب وقبل ان تدخل من جديد قهوة سنيفل نسمع اغنيـة للمنشد المضحك تقول :

« لـكم تفاخر هتلر بشجاعته
بقصته وبشاربه

ورغم هذا فنحن لا نخاف غراب المقاتة

لسوف نهزمهم .. وهذا مؤكد .. الخ »

لقد ذهب الجرسون نيكولا الى الحرب ولم يعد ، وترك ماتيلدا وحدها وراء الكونتوار فى قهوة سنيفل . وهى الآن تخدم الزبائن . وترى السريح بارابلوى فى بدلة المجندين ومعه البولاك يلاعبه الـكوتشينة . وتفهم من بارابلوى أن اورطته قد هربت . كلهم ركبوا القطار وتركوه فى باريس . والبيـان الرسمى يصف هـذا

« الفكـكان » بأنه خطة استراتيجية . الذعر . الذعر . الذعر • كلهم فروا من باريس وتركوه ، وبهذا يكون هو وحده الجندى الهارب ، أو بلغة بارابلوى :

« رأيت كولونيل يسرق دراجة
من غلام لـكى يصل الى كان .

رايت قومندان يتخفى فى زى راهبـة ويقود عربة موتى من فرط ذعره .

.. على روحهم .. الاسهال يصنع تلالا .. الاسهال يصنع جبالا .

رأيت أمة بأسرها تهرب .

امة بأسرها تعد حقائبها .

الاسهال . الاسهال . الاسهال » .

وتعلق ماتيلدا على هذا الوصف بقولها : ان الخوف طبيعى فالالمان نزلوا كأسراب الجراد . وحين يحذره البولاك من ان الالمان ان وجدوه اعدموه رميا بالرصاص، يجيب بارابلوى بقوله فى مزيج من التهكم والتصديق : « لا . لن يقتلوا أحدا يابولاك ففى هـــذه اللحظة كل الشجعان غادروا ولم يبق الا الهاربون . الشجعان فى طولون ، فى نيس ، فى جزر الـكنارى . تركوا باريس ليتمكنوا من استردادها .. ايها الالمان : « ادخلوا .. تفضلوا .. تفضل ياهرهتلر .. سندافع عن باريس فى موسم المشمش والى أن يأتى ذلك الحين .. تفضـــلوا ادخلوا » وتقول ماتيلدا حزينة : « الالمـــان ما عبروا السين قط » ويقول البولاك : « أنا لست فرنسيا ، ولست جنديا ، ولـكنى اوثر الموت على مشاهدة هزيمة البلد الذى آوانى » . فيكون رد بارابلوى على ذلك انه يخلع خوذته ويلبس كاسـكتة البولاك ، قائلا : « وما

جدوى جندى بلا بندقية ؟.. انت تعرف ان الجندى أقل تصرفا من المدنى» . « بل يجب أن نبحث عن سلاح يجب ان نقيم المتاريس . رؤية الالمان فى باريس تسبب لى الغثيان » . فيجيب بارابلوى : « بلاش دوشة .. انت تفقع .. ان مرضنا الحقيقى .. كلنا .. كلنا .. هو الخوف .. غدا تلعق فرنسا كلها أحذية الالمان .. المدنيون والعسكريون الجندى المجهول نفسه سيلعق احذية الالمان . كلنا . كلنا . كلنا » .

ويدخل البابو ونيوفيت محملان بفياسكات الكيانتى وبالسلامى وبالبطاطس ويستاء بارابلوى والبولاك من مجيئهما . ان السنيور مكرونة — موسولينى — أعلن الحرب على فرنسا فى وقت تراجعها امام الالمان . ويسأل البولاك : هل قرات الصحف ؟.. أتعرف ان ايطاليا أعلنت الحرب ؟.. ويجيب البابو : « نحن مظلومون . هذا الكلب موسولينى » .. « أتشتم زعيمك ؟.. أتنكر وطنك ؟.. ألم تكن بالامس تصفه بأنه اله .. بأنه رب الارباب ؟ » ويجيب البابو انه يريد أن يعيش . انه لايستطيع الحياة فى الخارج لان كل الناس تبغضه ويودون أن يقتلوه . انه يقرأ الكراهية فى عيون الناس أينما ذهب ، وفى القهوة كان يلعب الكونكان مع نيوفيت فاعتدوا عليهما وحاولوا شنقهما.

انه غير مسئول عما يفعله موسولينى أو هتلر . ولكن الحقيقة ان البابو يباهى بادولف هتلر ويصعر خده للفرنسيين ويتوعدهم منذ اعلان الحرب. كان يعد نفسه من أصدقاء الالمان . وهو الآن يتنكر لزعيمه الدوتشى ولمبادئه ولصديقه هتلر . انه محاط بالاعداء أينما ذهب

لقد قرر بارابلوى وبولاك قتل البابو عقابا له على

اهانته اياهم ووعيده لهم وشماتته فيهم عندما غزيت فرنسا. انه فاشيستي. انه من الاعداء . والاعداء يجب قتلهم . ويصوب بارابلوى اليه البندقية . وتتوسط ماتيلدا دون جدوى لكي يتركا البابو وشأنه . وينتهز الايطالي الآخر نيوفيت فرصة انشغالهم ويلوذ بباب القهوة ، ويدعو البابو ان ينصرف معه وينجو بجلده .

لكن البابو لا يجد فرقا بين قهوة سـيفل وغيرها من الاماكن وينطلق نيوفيت . أما البابو فهو يحاول أن يفوز بحياته ببلاغة الايطاليين وبمكر الثعالب . انه لا يحب هتلر ، ولا موسوليني ، انـه يحب نفسه . يجب أن يشربوا وأن يشكروا الله انهم لا زالوا أحياء ، ولا داعي لكل هذه البغضاء . يجب أن ينسوا تهديده ووعيده لانه كان يداعبهم لا أكثر .

وهنا تدخل عليهم باتي العجوز ، ابنة العمة وهي في حالة من الهياج الشديد صائحة : « الالمـان دخلوا باريس . انهم في كل مكان . في المصفحات. على الاقدام. في كل مكان». وتسألها ماتيلدا : « هل يقتلون الناس؟ » فتجيبها باتي : « لا .. انهم يتجولون في كل مكان ، حتى دار البلدية رفعوا عليها العلم الالماني » .

وهنا تنقلب الاوضاع ، واذا بالبابو يستأسد . لقد دخل الالمان باريس ، فهو السيد هنا . ووسط ذهول الجميع يتناول البابو بندقية بارابلوى ويصوبها نحوه ونحو البولاك ويهددهما بالقتل . ويسخر من هـذين الرجلين اللذين حكما عليه بالاعدام منذ دقيقة واحدة. انه هو الذي يحكم عليهما الآن بالاعدام . ويهلل البابو في شماتة : « يالها من حرب رائعة ! اعلنت في ٣٩ ، وخسرت في ٤٠ ، رائعة . اصدقائي النازيون ركبوكم

كما تركب الحريم . لسوف يحتلون كل مكان ، أوربا ثم آسيا . انتهى . انتهى . لقد كسبنا الحرب » .

ويقول بارابلوى انه يحب أن يعتكف فى بيته لانه يخشى بنادق الالمان . كذلك يقول البولاك انه يعرف اين يختبىء فيتركهما البابو يرحلان . وتسأل باتى البابو : « وانت يا بابو ، الا تنوى أن ترحل ؟ » فيجيبها : « انما يرحل من خسروا الحرب . لماذا أرحل اذا كنت قد انتصرت ؟

كل ما سنراه من استعراضات ومن هتاف ومن تكريم سيقام لى » . انه سيقيم فى قهوة سنيفل وهو يطلب من ماتيلدا أن تغلق عليهم القهوة فترخى ماتيلدا الباب الصاج .

ومع ذلك ، فرغم انتصاره نعلم ان فى حيـاة البابو ماساة صغيرة . فزوجته الفرنسية وولده ريمو قد رحلا عن باريس عند دخول الالمان ، رحلا عنهمـا فى غبش الفجر مع مئات الالاف من الراحلين . لقد كان يوما رهيبا كيوم «الخروج». كل من فى المدينة غادرها وتركها قاعا صفصفا . هذا الصباح صعد ولده ريمو بالخبز واللبن والجرائد . وقراوا فى المانشيتات : « ايطاليـا تخوننا . موسولينى هو يهوذا الجديد . موسـولينى

طعننا فى الظهر » فلما قرأت زوجته الفرنسية هـذا بصقت فى وجهه وحملت شنطتها وخرجت. وولده ريمو أيضا لبس البيريه وخرج مع أمه . لقد كسب البـابو الحرب ولـكنه خسر أسرته . ومع ذلك فهو هادىء

النفس يدخن سيجارته الجولواز ويشرب كأس البرنو فى استرخاء . انه سعيد بانتصار الالمان ، وكأنه انتصار شخصى له ، ومع ذلك فهو يدرك ان هذا سيكون بداية المتاعب بالنسبة له . كل من حوله يريد ان يفتك به .

ان ما رآه هو البداية ، بداية شيء سوف يستمر مائة عام .. حتى ماتيلدا وباتى تريدان فى تصوره أن تفتكا به . التيوتون دخلوا باريس ، وهم سوف يغتصبون باتى العجوز قبلما ينقضي الليل. سيغتصبون كل النساء.

هذه أصول اللعبة .. هذه قواعد الحرب . حتى وهم مستحكمون وراء خط سيجفريد كانوا يحلمون بعيون الباريسيات وبنهودهن وبخصورهن الجميلة. وما دامت باريس مدينة مفتوحة ، فكل فراش فيها مفتوح. غدا تصبح كل بنات باريس عاهرات . بهذا الكلام ومثله اراد البابو أن يرهب ماتيلدا وباتى .

وتقول ماتيلدا انها تؤثر الموت على هذا . وتقول باتى انها تؤثر الرحيل . ولكن اين الفرار ؟.. كل الطرق مسدودة . تعالى يا باتى لاعبيني الكوتشينة بالرهان ان كسبت اخذتك وان خسرت أعفيتك . لقد خسرت الحرب فيجب أن تخسرى عفتك أيضا . وتزجر ماتيلدا البابو على هذره الثقيل . انه ليس جنديا حتى يغتصب النساء . انه مجرد مدنى . ولكن البابو لا يرعوى ويمضى فى هذيانه الثقيل . خير لهما ان يستسلما للايطاليين من أن يستسلما للألمان ، فالايطاليون على الاقل خبراء فى فنون الغرام ، اما الالمان فهم اجلاف متوحشون . ثم يخيم على قهوة سنيفل صمت ثقيل ، بعد ان نفدت جعبة البابو من الكلام . لا صوت فى الداخل ولا فى الخارج . كأنما باريس مدينة مهجورة .

حتى قطط الشوارع هجرتها . فظيع كل هذا الصمت لا تسمع فيه الا كعوب النازى على الارصفة بين الحين والحين : « اسمعى الصمت يا ماتيلدا .. صمت كصمت الابد. صمت كصمت الموت .. لقد ماتت باريس .. »

ولـكن ماتيلدا تجيب : « كلا ان باريس نائمة .. تحلم وسوف تصحو من جديد » لا أحد يسير فى الشارع . الـكل خائف . لا احد يجرؤ على الخروج . حتى البابو خائف ولا يجرؤ على الخروج وحين تســأله ماتيلدا : « وماذا يخيفك من الخروج ؟.. انت ايطالى .. انت صديقهم » يجيبها البابو : « لو خرجت انطلقت على الرشاشات أولا . وبعد أن أسقط سيبحثون فى جثتى عن بطاقتى الشخصية . سيتأسفون طبعا لموتى. ولكنى أفضل أن أحيا على أن أتقبل أسفهم . لا . لا . نحن باقون هنا معا » ومن هذيان البـــابو ندرك انه ، رغم تشدقه بأمجاد الدوتشي والفوهرر ، لا يقل اسهالا عن الباقين وسط هذا الرعب العظيم . وهو يقول صراحة انه لا يملك الا جلده ، وهو ينوى ان يحافظ عليه .. فلتمت باريس ، فليمت أصدقاؤه فليمت الجميع . كل هذا لا يهم ما دام هو محتفظا بحياته . حتى هتلر : « فليكسب او يخسر كما يشاء ، المهم هو ان انقذ هذا القلب وهذا الرأس وهذا العجز » ان فرائصــه ترتعد أمام فكرة الموت .انه مســتعد أن يجثو على ركبتيه ويصلى لله ان ينقذ حياته اذا حاصره الموت . وبالفعل يندمج البابو من فرط الهلع فى الموقف ويجثو على ركبتيه ويصلى لله وللمسيح وللعذراء الا يتخلوا عنه ويتركوه يموت ، ويعد بأن يقدم القناديل يقول « أنا لست شيوعيا » أنا اواظب على حضور الجنازات ، انا تناولت القربان المقدس فى سن العاشرة ، وفى الجمعة الحزينة من كل عام آكل الفسيخ ، وكلما قابلت يهوديا رفسته فى عجزه كن منقذى يا يسوع الوديع ! » .

وتسرى عدوى الرعب فى المرأتين ، فاذا بباتى تحدو

حذوه وتتمتم بالصلاة ، واذا بماتيلدا تصـــاب بنوبة هستيرية وتنطلق نحو البـــاب الصاج تريد أن ترفعه وتخرج فيحول البابو بينها وبين ذلك .

وقد ظل البابو يقيم فى بدرون ماتيلدا ثمانيةعشرشهرا متصلة يتحفها كل يوم ببذاءاته وفحش عباراته دون ان يمس من بكارتها شيئا ولـكن ذات مســاء اغبر نزلت ماتيلدا الى بدرونها للبحث عن شيء فأمسكها البـابو وضعفت أمامه وكان سرير عرسها زكيبة الفحم . ومنذ ذلك اليوم وقلبها يفيض بالبغض والحب له . فى كل يوم تعقد عزيمتها على الا ترى وجهه ثانية ، وفى كل ليلة تنزل اليه فى البـــدرون كأنما تجـــذبها اليه قوة مغناطيسـية .

وتسمع طرقات عنيفة حازمة على الباب وترفع باتى الباب الصاج فيدخل الماريشـــال العجوز بيتان وقد لبس لحية مستعارة فبدا مثـــل بابا نويل ويقول انه يتجول فى باريس متخفيا ليطلع على حال الرعية كما كان هارون الرشيد يتجول فى شوارع بغداد .

وفيما هما يتحدثان يقتحم قهوة سنيفل جنـــدى ألمانى مسلح ويسأل عن السبب فى هذا النـــور المكشوف الذى يمكن ان يساعد الانجليز على ضرب هـدفهم ، فيقول الماريشال انه وحده المسئول عن هذا الخطأ . وتستفز باتى من غلظة الجندى الالمانى فتهينـــه وتحاول طرده . ويتدخل الماريشال لتهدئة الجو قائلا ان الجندى الالمانى يؤدى واجبه . وتتهكم باتى على هتلر . ويتأزم الموقف . ويقرر الجندى الالمانى أن يقتلهما معا ، ويحشو بندقيته فى هدوء ، ولكن قبل أن يطلق الرصاص يرتفع غطاء كوة البدرون وتخرج منه ماتيلدا وتردى الجندى الالمانى قتيلا

بقذيفة من كارابينة قديمة. ويقف الماريشال فى احترام ويدق الكعبين أمام جثة الجندى الالمانى الذى مات فى أداء الواجب ، ثم ينحنى ويقبل يد باتى وماتيلدا اللتين قامتا أيضاً بأداء الواجب .. وينصرف من قهوة سنيفل .

وتنزل المرأتان جثة الجندى الالمانى من فتحة الارضية فتهوى الجثة فى البدرون . ويهلع البـــابو فى مخبئه ويحسب القنابل تنهمر عليه . وحين يعرف انه سيقيم مع جثة يزداد هلعه ويخرج الى سطح الارض وعيناه زائغتان كالمجذوب . وينطلق كالمجنون خارجا من قهوة سنيفل .

وتنتهى الحرب . وفى يوم انتهائها نسمع المنشـــد المضحك ينشد :

« الالمان اخذوا علقة ساخنة
فى ضواحى ستالنجراد .
انهم يركضون . انهم يهربون ،
وانا اهتف : عاش ستالين !
« وبما انى لا احب المجازفة
فقد قلبت معطفى :
اقول : المتعاونون قوم خونة ،
عاش الانجليز ، عاش الامريكان !
« طالما هتفت : عاش بيتان !
ولـكن بما ان بى لمسة من الدعارة
نقلت بندقيتى على الـكتف الآخر
والآن اهتف : عاش ديجول » .

لقد انتهت الحرب . وفى قهوة سنيفل يتجمع الشمل من جديد ويكون اول العائدين الى القهوة الجرسـون نيكولا الذى ما ان تستقبله ماتيلدا بعد غيبة اربع سنوات

حتى يمطرها بالاسئلة عن مصير جيرانه ومعارفه واحدا واحدا ، ويعلم منها ان هذا مات فى روسيا وذاك فر الى اسبانيا وتلك مشت مع الالمان فحلق الفرنسيون شعرها يوم التحرير.. الخ ، وتعلم ماتيلدا من الجرسون نيكولا انه غدا مليونيرا ، فبعد انهيار باريس انسحب مع المنسحبين الى جنوب فرنسا ، وخلع الكاكى وبدا يتاجر فى التموين وبدا ببطاقته . كف عن شرب النبيذ المقيىء الذي كان يتجشؤه الفرنسيون أثناء الحرب فأخذ يبيع حصته يوميا للمواطنين وكذلك فعل مع القهوة « الارزاتس » المصنوعة من الحمص المحمص وسجائر القش وبالصابون الحجرى .. الخ ، وكان يضع المارك على المارك حتى استطاع فى اجل وجيز ان يفتح خمارة اخذ يتردد عليها الجنود الالمان. والخمارة فتحت خمارة والثانية فتحت ثالثة واستأجر فرقة موسيقية لحانته فوفدت النساء وعسكر الالمان من كل جانب ، واذا بالحانة تتحول الى ماخور ، واستأجر فيه للألمان غلاما ألبسه ملابس النساء وكان يرى جنود الجنس المختار يبيعون ثيابهم مرضاة لهذا الغلام . وهكذا مضى نيكولا يتاجر فى كل شيء : فى الخمور ، فى التموين ، فى الاعراض فى اليهود .. حتى غدا مليونيرا . ولو استمرت الحرب عامين آخرين لاشترى برلين نفسها وباعها فى المزاد . اما ماتيلدا فتقول انها اغلقت قهوتها فترة ثم فتحتها لتستقبل الجنود الالمان . وهنا يدخل البابو ومن ورائه اليهودى كروسكى . ونعرف من كروسكى ان النازى قبضوا عليه قبل عامين ووضعوه فى معسكر اعتقال ففقد اسمه وكان رقمه ٦٣٠٠ ، وقد نجا بمعجزة لانه ساعة نداء الاسماء لارسال دفعته من المعتقلين الى غرف

الفاز كان فى التواليت يبول فلم يسمع اسمه ولم يلتفتوا لغيابه . اما البابو فيروى كيف انه منذ ان خرج من قهوة سنيفل ظل يجوب طرقات باريس ككلب ضال يأكل من صفائح الزبالة وينام على الدكك فى الحدائق والشوارع . وقد كان من نقائض الحياة انهم اشتبهوا فيه وحسبوه من الماكى – رجال المقاومة الفرنسية – فطاردوه واختبأ ثلاثة أيام فى سينما واخيرا وضعوا الكلبشات فى يديه واحتجزوه وعذبوه ليقر بأسماء من يعرفهم من رجال المقاومة ، ولكن دون جدوى . وكان كلما سمعهم يهتفون : « يحيا بيتان » يزايد عليهم ويصيح بصوت أعلى : « يحيا هتلر » ولما يئسوا منه اطلقوا سراحه . فتشرد من جديد فى شوارع باريس ، وكان يسلم رجال المقاومة للبوليس فيعدمون رميا بالرصاص ، ولكن اهم ما فى الموضوع ان البابو انقذ جلده .

ثم يهبط على قهوة سنيفل ثلاثة من مشوهى الحرب ، أعور وأكتع وأعرج ووسط الانخاب يتذاكرون امجادهم فى القتل وسفك الدماء ، وكلما ارادوا اسكاتهم ثاروا وتداولوا تفاصيل تقشعر لها الابدان . انهم يتحدثون عن القتل بشهوة كشهوة الجنس . ان كل من فى قهوة سنيفل يريد أن ينسى الحرب عدا مشوهى الحرب .

ويقول نيكولا : « المحاربون القدماء شىء جميل فى الاستعراضات ، ولكنهم عندما يبدأون الكلام ينفتحون كالمجرور . أما البابو فهو يعرف مستقبله من ماضيه . انه لن يبحث عن عمل . وينظر الى ماتيلدا ويقول : « ان من اطعمنى بالامس سيطعمنى غدا .. أليس كذلك يا جميلتى ؟ » .

وهنا يدخل نيوفيت الفاشستى الايطالى سابقا وهو فى زى رجال المقاومة ، وعلى ظهره يحمل جثـــة من الخرق والقش هى جثة موسولينى ، ويضعها على كرسى ، ويقول انه كسبها فى رهان . ويقول كروسكى : « يجب ان تدفنوه . لقدكان كاثوليكيا» ويقول مشوهو الحرب :

« انه من نصيبنا . فهذه جمهورية » ويقول نيكولا : « يجب تحنيطه . انا اشتريه منك » وهنا يعلق نيوفيت جثة موسولينى فى النجفة على الوضع الذى وضعه أهل ميلانو ، أى راسه الى اسفل . وهنا يتقدم البابو من جثة موسولينى فى انفعـــال شـــديد ويقول للدوتشى مستعطفا : « مستحيل .. مستحيل .. أهـــذا انت ياسيد ايطاليا .. يا مرعب النجاشى ! اجبنى . أجبنى ! يا اكبر الرومان .. يا قيصر القيـــاصرة ! اجبنى .. ولــكنى أراك جثـــة هامدة » . وتسخر الجماعة من البابو وتنهال باللعنات على الدوتشى ويثور البابو وينادى بأعلى صوته : « لقد كنت من انصاره ، ولا أزال » . وتحاول ماتيلدا ان تسكته وتهدئه . لقد انتهت الحرب ويجب ان ننسى كل شىء . فلنشرب . فلنغن . فلنرقص لقد انتهت الحرب . وهكذا يبدأ العزف والغناء واذا بالبابو يزأر كالمجنون ويأمر الجميع بالتوقف . انه يسمع من بعيد أصواتا . انه يسمع صـــفارات الانذار ، ان الحرب قـــد بدات من جـــديد . وينظر اليه الجميع نظرهم الى مجنون . انهم لا يسمعون شيئا . الحرب ؟ أين ؟ وضد من ؟ ويجيب البابو : « فى اى مكان . فى الســـودان . فى البلجيك . فى كوريا . فى الهنـــد الصينية » . وينظر مشوهو الحرب بعضهم الى بعض ثم ينظرون الى الجثة المعلقة ، ويقولون : « كل هـــذ

بسببه . بسبب السيد موسوليني » . ويزايد عليهم نيوفيت فيبصق على الجثة . ويرتاع البابو . ويقول احد مشوهي الحرب : « لا . البصق لا يكفى » . ثم يخرج مسدسه ويصوبه نحو الجثة ، وهنا يتـدخل البابو لمنعه وهو يصيح : « لا . لا . الموتى لايقتلون» ويتوسط بين الجندى وجثة الدوتشي المعلقة . ويطلق الجندى النار على البابو ، فيترنح البابو ويحتضن جثة الدوتشي ثم يلفظ أنفاسه الاخيرة ، وهو يقول انه رأى النور أخيراً . ولا ينسي قبـل موته انه يطمئن الجميع قائلا : « لا تخافوا . لا حروب بعد اليوم . لا فى كوريا ولا فى الجزائر ولا فى الهند الصينية . وحين تسـألـه ماتيلدا : « أحقا سترحل عنا ؟ » يجيبها البـابو : « نعم . نعم . وعندما تسامين اصعدى لزيارتى فى السماء . لقد انتهى كل شيء يانيكولا. انتهت الكوميديا» ويقول نيكولا : « فلنشرب نخب هـذا . لا فظائع لا حروب » .

وهكذا تنتهى حياة انذل واجبن رجل فى العـالم نهاية ابطال المآسي : داس على اعناق الرجال وعاش على مكاسب النساء ودفن نفسه حيا حتى لا يواجه رصاصة طائشة ، ومع ذلك فقد قدر له من حيث لا يحتسب ان يموت خطأ فى سبيل مثله الاعلى ، أن يموت بعـد الاوان . كان البابو يمثل الانانية مجسدة ولكن كان هناك فى موضع سحيق من قلبه ، موضع لا ينفذ اليه النور، مكان لبعض المقدسـات ، فكان فى مصرعه شيء من الجلال . كذلك الامر مع الباقين لا تعرف أحيـاء هم أم اموات، ولكن الصورة التى رسمها المؤلف فورلانى لانهيار فرنسا بين ١٩٣٩ و ١٩٤٤ صـورة من أروع ما خطت

يد الفنان فى وصف بشاعة الانسان وضعف الانسان وعجز الانسان عن أن يتجاوز ذاته . ومع ذلك فنحن نحب أبطاله ونرثى لهم ، لاننا نحس بأنهم جميعا ، الغالب منهم والمغلوب ، دمى فى يد قدر لايرحم ، هو القدر الذى وضع الدودة فى فاكهة الفردوس كما يقول البابو ، واعد مجازر الهند الصينية وكوريا والجزائر والفيتنام وكوبا والشرق الاوسط حتى قبلما تجف دماء الحرب العالمية الثانية .

آلام الجنرال فرانكو

وهذه مسرحية غريبة لارمان جاتي تسمى بالفرنسية La Passion du Général Franco ولا أدرى أأسميها : « آلام الجنرال فرانكو » أو « صليب الجنرال فرانكو » . فالباسيون عند الاوربيين ، غيرمعانيها الاخرى المألوفة ، تعنى آلام المسيح وهو على الصليب ، أو باختصار صلب المسيح . والذى يموت على الصليب فى هذه المسرحية ليس الجنرال فرانكو ، ولكن الذى يبعث حيا هو أيضا ليس الجنرال فرانكو ، وانما البسطاء من أفراد الانسانية الممثلين فى أشخاص المسرحية العديدين ، وهم أربع مجموعات من الاسبان المنفيين المشتتين فى الارض . وقد كان لجلجثة المسيح طريق واحد يعرف بطريق العذاب ، أما جلجثة الجنرال فرانكو فان لها فى هذه المسرحية اربعة طرق ، أو أربعة خطوط يسلكها المنفيون ، أو أربع رحلات هى : رحلة مدريد ــ فرانكفورت ، بألمانيا ، ورحلة هافانا ــ المكسيك ، بأمريكا اللاتينية ، ورحلة كييف ــ كراسنويارسك ، بروسيا ، ورحلة تولوز ــ مدريد، بين فرنسا واسبانيا. وهذه الرحلات هى رحلات الاسبان المنفيين أواللاجئين الفارين من اسبانيا منذ هزيمة الجمهوريين وانتصار فرانكو فى الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٨ .

اما المؤلف ارمان جاتى ، فهـــــو كاتب فرنسى فى الخامسة والاربعين من عمره ، فقد ولد عام ١٩٢٤ ، وقد اشتهر كصحفى وكاتب سيناريو ومؤلف مسرحى ذى نزعة يسارية واضحة . وقد زار كوبا واشتغل فى مدينة تولوز بفرنسا زمنا وفيها خالط عددا كبيرا من المهاجرين الاسبان من أنصار « الدولية » وقد كتب هذا النص أولا كمسرحية اثارية لتمثلها فرقة من العمـال الاسبان المهاجرين والمنفيين باللغة الاسبانية ، ثم اعاد صياغتها لتمثلها الفرق المحترفة . وقد مثلت « آلام الجنرال فرانكو » فى مدينة كاسل فى المانيا فاجتذبت لمشاهدتها كل الاسبان المهاجرين المقيمين فى المانيا فرارا من الحياة فى اسبانيا الفرانكية . ومن مسرحيات جاتى الاخرى « السمكة السوداء » و « رحلة تشو الكبير » و « الوجود الثانى لمعسكر تاتنبرج » و « نشيد أم أمام كرسـيين كهربائيين » و « ف كما فى فوز أو كما فى فيتنام » .. الخ .. وقد اصطبغ منهجه فى التأليف المسرحى بتكنيك السـيناريو السـينمائى ، فقصرت مشاهده المسرحية وتعددت وانجدلت فى ضفائر حتى اوشكت أن تماثل لقطات الافلام .

بانشو ـ ٥٠ سنة ـ وجيل ـ ٤٥ سنة ـ رئيسـا عمـال ، وماتيو (٣٠ سنة) مهندس ، الثلاثة من الاسبان اللاجئين وابنائهم فى الاتحاد السوفييتى ، بعد خمس وعشرين عاما من انتهاء الحرب الاهلية الأسبانية ، وهم فى المطار ينتظرون الطائرة التى ستنقلهم من كييف الى كراسنويارسك فى سيبيريا للعمـل هناك ، مرورا بموسكو . ومن كلامهم نعلم أنهم جيلان : جيل الثورة الاسبانية الذى لا يتقن اللغة الروسية رغم أنه اقام فى

روسيا نحو ربع قرن ، ولا ينفك ينظر فى حنين ويأس الى الوراء ، الى جهاده ايام الحرب الاهلية الاسبانية ، الى ما يسميه الثورة « الضائعة » التى تحاول ان تتعلق باذيال الثورة « الناجحة » ـ البلشفية ـ وجيل شاب بلا ذكريات عن اسبانيا ، يمثله هـــذا المهندس ماتيو الذى يعتقد ان وطن الانسان هو مكان عمله ، وبالتالى فهو يعد الاتحاد السوفيتى وطنا له ، وهو يستطيع أن يلوح بجريدة « برافدا » ويتحدث فى زهو عن انطلاق الصاروخ الروسى نحو القمر . وهو يعلم انه ســيرى القمر قبل أن يرى اسبانيا رغم انه لايزال اسبانيا .

أما الجيل القديم فيجيبه فى مرارة : « فليكن. الصاروخ الروسى ربما انطلق الى القمر ، ولـكن فرانكو باق على الارض » . او كما يقول جيل ان ثلاثتهم فى خروجه للعمل فى سيبيريا ، هو فى حقيقته خارج فى حرب صليبية ضـــد الجنرال فرانسيسكو فرانكو ، والفرق هو أن البعض يظنونهـــا مضت وانقضت . اما البعض الآخر فهو يعيشها فى كل يوم من ايام حياته . أو كما يقول بانشو : « هى حرب صليبية وطريق العذاب فيهـــا بلا نهاية ، عليه عشرات الآلاف من الصلبان ، (يقصد المنفيين) ، فهى آلام شعب ، وهى شعب بأسره على الصليب » .

فاذا ما نحن انتقلنـــا من روسيا الى فرنسا لنلتقى بمجموعة المنفيين أو اللاجئين الاسبان فى تولوز، وجدنا نفس الشىء تقريبا . فهناك مارينو وخوان من الثوار القدماء فى نحو الخمسين ، ومارينو صـناعته نجار ، فوضـــوى ، وخوان صنــــاعته موظـف تأمين ؛ ومعهما الفتاة دولوريس بنت خوان ، وهى فى التاسعة

غشرة ، تكاد أن تكون فرنسية فى كل شىء رغم أسمها الاسبانى ودمها الاسبانى . الرجلان من رفقة السلاح فى قـــديم الايام ، أو كما تقول عنهمـــا دولوريس : « يناملن مع ذكرياتهما المشتركة القديمة ، ويستيقظان معها ويستحمان معها ويشتغلان معها ويأكلان معها ، وفى يوم الاحد من كل أسبوع يسكران معهـــا . ومن حسن حظى انى ساقضى اجازتى فى مدريد ، وآمل أن اقتل فيها ذكريات أبى وذكريات مارينو ، فهى ذكريات كالامتعة الزائدة لا يستطيـــع المرء أن يجد لها مكانا » ولان دولوريس فى طريقها من تولوز الى مدريد ، فان مارينو وخوان يصـــدان خـــط تولوز ـ مدريد طريق عذابهما ، فالخط يمر بمدينة بلباو فى شمال اسبانيـــا حيث كانت آخر معاركهما فى الحرب الاهلية ، وفى هذه المدينة ترك كل منهما الجزء الاكبر من نفسه .

فاذا ما نحن انتقلنا الى هافانا بكوبا التقينـــا بالمنفى ميجيل ـ ٥٠ سنة ـ ومعه الفتاة سوليداد ـ ٢٤ سنة ـ والشـــاب الطالب يواقيم الذى جاء الى كوبا مؤخرا لان الثورة الكوبية سحرته ثم لم يلبث ان طرح على نفسه هذا السؤال : « أتراه جـــاء من أجـــل الثورة الكوبية أم من أجل الفتـــاة سوليداد ؟ » اما الجميلة سوليداد فقد انتخبوها فى هافانا ملـــكة الجمـــال فى مهرجان التبغ ، وأما عمهـــا المجاهد القديم فهو يلازم الحانات ولا حـــديث له الا تكتيك جمـــاعته شـــبه التروتسيكية أيام الحرب الاسبانية ، وهى جماعة مطاردة عبر البحار من كل الاحزاب الشيوعية ، من الاستالينيين ومن التروتسيكيين على السواء . وهؤلاء الثلاثة يقيمون فى اسبانيا بعيدة غريبة واقعة فى مكان ما ، مكان خطر ،

على خط هافانا الثورية ـ المكسيك الرجعية .

وفى مدريد نفسها نلتقي بالمجموعة الرابعة من اشباح الاسبان حيث نرى مانويلا ـ وهى فى الستين ـ دائما فى ثياب الحداد ، وهى تتأهب لوداع ولدها لويس (٢٣ سنة) وهو من فتية الجنرال فرانكو ـ ذوى القمصان الزرقاء ـ حزب الفالانج ، قاصدا فرانكفورت بألمانيا للعمل من أجل المال فى مصانع الكيمياء ، كما قصد أبوه المانيا من قبل ولكنه لم يعد قط الى مدريد . ونسمع مانويلا تعاتب ابنها لانه يحدثها عن مكاسبه المستقبلة ولا يحدثها حديث الشجعان كما كان أبوه يفعل قبل ان يموت فى الحرب الاهلية من أجل فرانكو .

كل هؤلاء رغم تشتتهم فى أرجاء الارض ، ومعهم غيرهم كثيرون ، ينشدون نشيد مدريد الهائمة :

« مدريد يا بلدنا
أبناؤك يهربون منك
لقد رأيتهم يرحلون
من خلف اكداس الاطلال
وذكرى الشعارات
التى غدت محتقرة ...
يا من يقض نشيجك
نوم أوربا
حيث تغرب الشمس
ونوم امريكا
حيث لا تغرب أبدا ...
واها على أسود
اجنحتها كسيرة
جاءت من اعماق العصور

تبحث عن مأوى
فى فصول تاريخ فريد
لم يعد أحد يستطيع تدوينه
بين فصوله البيضاء
وفصوله الناقصة
تهيمين بحثا
عن أطفالك ...
فى الف طريق
كلها تقود
الى نفس الصليب ... »

وفى محطة تولوز تركب دولوريس القطار القاصد الى مدريد لقضاء عطلتها ، وفى وداعها يقف ابوها خوان ورفيقه مارينو . وتحمل دولوريس مع مجلاتها أمنية مارينو : « ان نزلت فى بلباو فاشترى لى تمثالا صغيرا للقديس فرانسيس مما يصنعه الفلاحون » وبعد رحيلها نرى مارينو فى غرفته بتولوز ساهرا ساهدا سهاد التفكير ، ونرى طيف القديس فرنسيس قد زاره فى تلك الليلة . فقد رجع بذاكرته الى يونيو عام ١٩٣٧ ، حين كان ثوار الباسك فى جبال البرانس وثوار استوريا يتسابقون على التسليم للفرق المغربية والايطالية والنافارية والالمانية المقاتلة تحت لواء الجنرال فرانكو والتى كانت تخرب بقنابلها مدينة بلباو بشمال اسبانيا.

وهو يذكر تلك الايام البشعة التى حدث فى ختامها ان اربعة من الجنود المغاربة اقتحموا بيتا واغتصبوا فيه بنتا اسمها لوز ، وكانت فى الحادية عشرة من عمرها ، ثم غرس رابعهم السونكى فى عنقها . وكانت أمها وقطتها بورو قد اختفيا تحت قصف المدافع ، وكان مارينو على

جبل سايجان يحارب الفاشست فلم يشهد مأساة البنت لوز غير القديس فرانسيس فقد كان تمثاله أو صورته قائما فى دارها . ويعاتب مارينو القديس فرانسيس لانه لم يتدخل لانقاذ لوز . ويجيب القديس فرانسيس ان كل شيء قد ضاع ما خلا ضراعة البنت لوز ، وأن القديسين يبحثون لها عن مكان بينهم فى محاريب الكنيسة ، لانها شهيدة بين الشهداء .

ولكنهم لم يجدوا لها بعد مكانا لان المحل ازدحم بالشهداء والقديسين منذ فرانسيسكو فرانكو . وقد كان الامر مختلفا في الماضى . ففى الماضى كان كل قديس يذوق كاس الشهادة بنفسه ويقتل فى سبيل الله ، أما منذ فرانكو فالشهداء هم دائما الآخرون. ويعود مارينو

الى لومه للقديس فرانسيس ، لأنه دلل الفاشيست فكان يسميهم : « يا اخوتى الذئاب » ـ القديس فرانسيس هو الولى صديق العجماوات الذى يرعى مملكة الحيوان ، وكان يخالط الذئاب والوحوش الضارية فتستأنس له ـ وفى هذه الرؤيا الغريبة ،

يأتى اثنان من الحرس الاهلى التابع للفالانج ويسوقان القديس فرانسيس الى الكوريدا فى بلباو ـ حلبة مصارعة الثيران فىاسبانيا ـ ليبارك الحيوانات وليتجدد فيها استشهاده ، ويلبسونه قناع ثور ، ويغرس رجال الفالانج من ذوى القمصان الزرقاء الحراب الصغيرة فى ظهره كما يفعلون فى مصارعة الثيران فيخر صريعا عند قدمى الاسقف المشرف على الحفل ، وهو ينطق باسم لوز قبل ان يلفظ أنفاسه الاخيرة ..

ثم نجد أنفسنا فى مدريد ، حيث نرى الفتاة دولوريس وهى تشترك فى مظاهرة نسائية يفرقها

البوليس بوحشيـة ويقبض على المتظـاهرات ويجمع اللافتات التى كتبت عليها شعارات مثل : « غدا يبلغ سعر البطاطس سعر الماس » . ووسط هذه المظاهرة نرى امرأة اسمها دونا كارمن جاثية تصلى للعذراء أن تمكنها من الحصول على العقد الماسى الفريد الذى كانت تلبسه ايفيتا بيرون ، زوجـة الدكتاتور الارجنتينى الـكولونيل بيرون الذى طرد من الارجنتين فى عام ١٩٥٥ وتقسم دونا كارمن انها تنذر هذا العقد للسيدة العذراء وتقول : « انها ستضعه حول جيدها » ومن وراء دونا كارمن يقف رجل أعمالها سانكيز سانكو الذى نفهم من كلامه انه لم يعد موضع رضا الجنرال فرانكو ، لانه ينتقد خطبه وتصريحاته . ولـكن دونا كارمن تطمئنه قائلة : « ان غضب الجنرال عليه لن يطول . كل ما فى الامر انه متعب لانه كثير التفكير ، كثير التفكير فى الامن الداخلى ، رغم ان أجهزة الامن لا تطلعه على ما يحاك ضده من مؤامرات الا أقلهـا وأخطرها . لقـد تغير فرانسيسكو فرانكو كثيرا ، فعندما كان فى مراكش جمع جنوده غداة الهجوم على اسبانيا وخطب فيهم قائلا : « أنا لا أريد النساء ولا الصلوات » . ولـكن فرانكو تغير كثيرا منذ ذلك العهد البعيد . لقد تهذبت طبـاعه مع النساء وغدا يتعاون مع الـكهنوت ، وأصبح رجلا كثير التأمل ، ولهذا فهو سيعفو عنه لانها سترجوه أن يعفو عنه .

ان دونا كارمن تحلم بشىء واحد وهو أن يكون لهـا العقـد الماسى الفريد الذى تملكه آيفيتا بيرون . أو بلغتها هى : « ان مغنيـة فى كاباريه تحكم دولة ليست بحاجة الى مثل هذا العقد » . ثم ان هـذه توجيهات

السيدة العذراء التى تتجلى لها فى الرؤيا . وسانكيز سانكو رجل أعمالها مسافر الى الارجنتين ليجد طريقه الى العقد الفريد . ومن هناك نسمعه يقول لدونا كارمن بالتليفون ويبلغها أن الامر فيه جديد لان ايفيتا بيرون قد توفيت . فتأمره بأن يبلغ عزاء الجنرال فرانكو للكولونيل بيرون وأن يطلب منه عقد زوجته الماسى الفريد ، خشية ان يفكر فى دفنه معها فى قبرها . ويسقط فى يد سانكيز سانكو لانه بالفعل خاطب بيرون فى هذا الامر ، فلم يجد لديه استجابة ، بل أجاب ان جواهر زوجته باقية فى الارجنتين لانها جزء من اسطورة ايفيتا بيرون فى خيال الشعب الارجنتينى .

ثم تأتى الانباء بحدوث انقلاب فى الارجنتين وبسقوط الكولونيل بيرون . وهنا نرى الكولونيل جرينوى — ضفدعة — وهو أخو ايفيتا بيرون — ومعه الجنرال غوريللا فى اسبانيا وقد جاءا بالعقد الفريد الذى يسمونه « نهر الماس » لبيعه بعد أن عرفا ان هناك اهتماما به فى أسبانيا . ويعرضانه على الداو ، تاجر المجوهرات الكبير ، لتثمينه ، فما أن يراه الداو حتى يوشك أن يغمى عليه ، فقد عرف انه العقد الذى تبحث عنه كارمن ، ويستأذنهما فى الانتظار ، ويختفى ويتصل بسانكيز سانكو ليبلغه بأن « نهر الماس » قد وصل الى حانوته . وبعد دقائق نرى رجلين من رجال البوليس يقتحمان الحانوت شاهرى السلاح ويعتقلان الكولونيل ضفدعة والجنرال غوريلا — ثم يقرأ الناس فى الصحف ان البوليس اعتقل اثنين من أخطر بلطجية الارجنتين وهما يتاجران فى مجوهرات مسروقة .

وهكذا يئول العقد الفريد الى سانكيز سانكو ومنه الى

دونا كارمن دون مقابل . أما الكولونيل ضفدعة والجنرال غوريللا فيقدمان الى المحاكمة ، ولكن الشرطة تعقد معهما صفقة : أن يلزما الصمت التام حول كل ما جري مقابل الافراج عنهما وترحيلهما الى الحدود الفرنسية ، فيقبلان صاغرين . وعندما يبلغان الحدود يطلق عليهما الحرس المرافق النار فيسقطان قتيلين .

اما فى تولوز فنان مارينو النجار بعد أن تأتيه دولوريس من بلباو بتمثال القديس فرانسيس الذى طلبه نراه يخشع أمامه ويستغرق فى بحران فتنكشف أمامه رؤيا غريبة لا يفهم كنهها حقا الا من درس العقلية الاسبانية والمعتقدات الاسبانية . فهو لانه نجار، ربما تصور نفسه مثل يوسف النجار ، خطيب مريم العذراء ، ويخيل اليه أن ورشته تغص بالصلبان ، وعلى كل صليب صورة مسيح مصلوب ، كل منها يمثل اقليما من أقاليم اسبانيا ، وكأنه ولى الله الحامى لهذا الاقليم على عادة كاثوليك أوربا حين يتبركون فى كل اقليم أو بلد بقديس أو قديسة فينذروا كنيستهم له أو لها ، ويتبركون خاصة بمريم والمسيح . وهكذا يرى مارينو النجار فى رؤياه ان هذه المعبودات تجمعت فى ورشته من كل مكان فى اسبانيا ، فهناك مسيح سرقوسة ، ومسيح جاليسيا ، ومسيح اشبيلية ، ومسيح فالنسيا الخ .. اجتمعوا لينظروا فى أمر اسبانيا وما آلت اليه تحت حكم الجنرال فرانكو ، وشهد اجتماعهم الاساقفة والكرادلة ورتل من الراهبات . ثم يكتشفون انه قد اندست بينهم معبودات مزيفة لا علاقة لها بصورة المسيح : يجدون بينهم مسيحا من ذوى القمصان

الزرقاء ـ حزب الفالانج ، وهو حزب فرانكو ـ يسمى « مسيح النصر » ، وهو الولي الخاص بنقابات العمال. كذلك يجدون مسيحا للفلاحين ، ومسيحا للسجناء ، ومسيحا عصريا للتجار ورجال الاعمال يسر لرؤيته الامريكان والانجليز والالمان ، ومسيحا للسياح عليه رموز الكوريدا ـ حلبة مصارعة الثيران ـ ومسيحا خاصا لعمال المناجم فى استوريا هيئته تخيف المثقفين باختصار فان المؤلف ارمان جاتى يريد أن يقول ان الكنيسة منذ فرانكو فصلت من المسيحية الوانا واشكالا وأزياء تناسب كل الطبقات وكل العقليات . ثم نرى صور المسيح الاصيلة تحتج لوجود هذه الصور الدخيلة فيما بينها ، وتطالب بتكوين نقابة لتمنع الدخلاء من اصطناع صورة المسيح ، بل وتهدد بالاضراب العام وبالنزول من على الصليب . ولكن رجال الدين يهددونهم بالعقاب ان هم اقدموا على الاضراب وينذرونهم بأن بابا روما خليق بان يصدر عليهم قرار الحرمان أن هم فعلوا ذلك . وتثور صور المسيح الاصلية وتندد برجال الكهنوت وتصر على الاضراب احتجاجا على امتهان الدين المسيحي ، فيتدخل البوليس ويفض هذا الاعتصاب بقنابل الغاز الضاحك آنا ، وبالقنابل المسيلة للدموع آنا . وأخيرا يعلن الاسقف بأن الجنرال فرانكو قد أذن لهم بتكوين نقابة ولكنها نقابة رأسية لا نقابة أفقية ، لان النقابات الرأسية لا تسمح بالاضراب . ويقرأ عليهم المادة الثالثة من قرار الجنرال : « الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يقف رأسيا ، وهذه آية كرامته . والنقابات ، ان ارادت أن تكون لها كرامة ، ينبغى أن

لكون راسية » . ويختم هذا المشهد المقلق بالنشيد القومى .

وفى تولوز نرى أخيرا مارينو وخوان معا ، ومارينو ساهرا فى وقفة الديدبان التى كان يقفها أيام أن كان عضوا فى الميليشيا ابان الحرب الاهلية الاسبانية ، ولكن وقفته هذه المرة تطول ، فهو يصل الليل بالنهار فى هذه الحراسة الوهمية المجنونة . وحين يطلب اليه خوان أن يستريح ، يجيب مارينو : « لا .. نحن رسالة لا يمكن نقلها .. نحن مسمرون كحشرة على ثلاث صفحات من التاريخ ، ولكنها حشرة فرغت منها الحياة ، فلا أشجار ولا عبير ولا هواء يهب مطلقا فيسكر الانفاس » . ويذكره خوان بأن الحرب مضت وانقضت وانهم الآن فى تولوز ، وان وقفة الديدبان بغير عدو ولا كر وفر لا معنى لها ، فيجيبه مارينو : « هذا أدعى ليقظة الحراس . تماما كيوم أن خرجت الصغيرة لوز الى الدكان ومعها ورقة بعشرة قروش . فسقطت منها الورقة فاذا بامرأة واقفة تدوس عليها بحذائها قائلة :

هذه لى ! وعبثا حاولت لوز ، وعبثا استعطفت ، وعبثا بكت . والكل واقف من حولها مبتسما أو متشاغلا أو غير مكترث كأن الامر لا يعنيه ، يعرف الحقيقة ولا يتدخل . وهكذا وقفت الطفلة وحدها فى مواجهة الكون ... هكذا نحن . لقد ماتت مدريد .. لقد ماتت بلباو .. لقد ماتت دولوريس فى مظاهرة النساء .. ولم يبق أمامنا الا وقفة الديدبان » .

هذه كانت الرحلة فى خط تولوز ـ مدريد . فلنر الآن كيف كانت الرحلة فى خط هافانا ـ المكسيك . فى ملهى ليلى كانت سوليداد هرنانديز الجميلة تجلس الى

مائدة بقلب واجف فى انتظار اعلان نتيجة مسابقة ملكة الجمال ، والى جوارها عاشقها الشاب يواقيم . فلما أعلنوا انها الفائزة بلقب ملكة الجمال طارت فرحا ، وأغمي على بعض الجميلات الاخريات ، ودوت القاعة بتصفيق المعجبين وارتفعت بعض أصوات الاحتجاج فقالت بنت اسمها ايديث : « يا للعار ! ان ملكة الجمال يجب أن تكون كوبية ، وهذه اسبانية » .

واجاب رجل من منظمي الحفل وهو من رجال الميليشيا : « هناك جميلات من غير كوبا ، ومع ذلك فان كان لديك شكوى فقدميها للمسئولين » . وقال يواقيم صاحب سوليداد : « هذه اهانة ولن أسمح لاحد بأن يهين بنت الفيوليتيرا » . وسأله المنظم متهكما : « ومن تكون هذه ؟ » فأجاب يواقيم : « لا تبـاه بجهلك . كان والد سوليداد أحد المجاهدين المطلوب القبض عليهم بعد انتهاء الحرب الاهلية . وفى غيابه قبضوا على زوجته الفيوليتيرا لانها كانت تساعد أعداء النظام . كان فى امكانها أن تنكر . وبعد شهر اكتشفوا انها حامل فى ثلاثة أشهر . وعندما سألوا الاب اعترفت بأنها حامل من زوجها . وحكم عليها بالاعدام ، ولكنهم من باب الانسانية لم يرموها بالرصاص الا يوم ميلاد سوليداد » . قال رجل الميليشيا : « هذه اعتبارات لا تدخل فى قواعد المسابقة » . أما يواقيم فقد كان رأيه ان كل ثورى حقيقي ينبغى ان يكون دوليا . ان سوليداد جاءت كوبا قبل الثورة الكوبية بفترة طويلة ، جاءت مع خالها ميجيل اخى الفيوليتيرا . نحن مع الكوبيين لاننا اسبان . ليس لنا خيار . ويتعهد رجل الميليشيا بالرد على المعترضين حتى لا يتناقض مع

ثوريته . ويحيط بسوليداد المصورون ويجد يواقيم صعوبة فى الوصول اليها ، فيناديها قائلا : «سوليداد!» فتجيب : « لا . لا . » بمعنى دعنى وشأنى .

ويغضب العاشق يواقيم ويقول : « الأنهم انتخبوك ملكة ؟.. ان كل أسرتك ملكيون ولكنى لست ملكيا » . ثم ينصرف . وهنا يبرز رجل من رجال البوليس ويبدأ فى مجادلة رجل الميليشيا ، فيجيبه : « انا ثورى ، اذن فأنا دولى ، ليس بالاقوال فقط ولكن بالافعال أيضا . اذا كنت غير راض هيا بنا الى فيديل نعرض عليه الامر » . فاذا برجل البوليس يجيبه :

« ليس هذا هو الموضوع . المسألة ان خالها أبلغنا اليوم انه راحل عن كوبا الى المكسيك بعد اسبوعين ، ويجب تجنب برقيات مراسل اليونايتدبرس التى ستقول : « ملكة الجمال اختارت الحرية » ، « أهى من انصار الثورة المضادة ؟ » ، « ليس بالضبط . خالها من المجاهدين القدماء » ، « السجن فى اسبانيا . السجن فى فرنسا . معسكر الاعتقال فى المانيا . وهو قد بدأ يتعب . وبنت أخته تتبعه . يجب تجنب الفضيحة » .

وهكذا تفقد سوليداد ملكة الجمال تاجها وصولجانها وتقول لخالها وليواقيم انها لا تعرف انهما يتحكمان فى مستقبلها ولكنها هذه المرة لن تغادر كوبا . وينهرها خالها ميجيل بقوله : انها غدت ستالينية لمجرد أن جماعة من الحركيين الذين لم يقرأوا كتابا جادا واحدا فى الماركسية جعلوا منها ملكة جمال . وتنصرف سوليداد ببطاقات التموين الخاصة بهم لصرف حصتهم من الاغذية ، وبعد أن تخرج يقول الخال ميجيل للشاب

العاشق يواقيم ضاحكا : « لابد أن سوليداد عاشقة. هذا هو التفسير الوحيد لرفضها السفر الى المكسيك . انه مشتبه فى أنها تعشق رجل الميليشيا ، ولكنه يعتقد انها ستبرأ من حبه » .

ويعلن يواقيم انه باق أيضا فى كوبا . ان مناخها الثورى يلائمه . فيجيبه الخال ميجيل متهكما : « لو انك عرفت ثورتنا لقلت لك انك ترضى بالقليل » . ويبدى يواقيم اعجابه بثوار كوبا الحمراء الاشداء ذوى المظهر الخشن الذين يذكرونه بالحمر الاسبان ، ممن كانوا يخيفونه بهم وهو طفل صغير فيجيبه ميجيل بقوله : « كيف يكونون حمرا ويقيمون علاقات مع فرانكو ؟ » ولا يجد يواقيم ما يقوله الا : « يجب انقاذ الثورة أولا » . أما الخال ميجيل فهو من نوع آخر. من جيل قديم لا يفهم الحلول الوسط وهو يقول :

« ان من يصنعون انصاف الثورات يحفرون لانفسهم قبرا . نحن اسبان ، ولهذا يجب أن نرحل » . ويسأله يواقيم : « ولماذا اخترت المكسيك ؟ » فيجيب الخال ميجيل : « لأن فيها حكومة المنفى .. انت تقول انها مجرد نصب تذكارى .. ولكنها الحكومة الوحيدة الشرعية . ان فرانكو يستطيع أن يفعل ما يشاء ، ولكن قراراته باطلة قانونا . انها غير موجودة » . ان ميجيل يعيش بأمل واحد : فى يوم من الأيام .. هذه الحكومة على الورق ، سوف تكون نواة الحكومة الحقيقية حين يتاح لهم ـ للملكيين ـ أن يعودوا الى اسبانيا ليقوموا بثورتهم .

وينخرط يواقيم فى صفوف الثوار الكوبيين ويحمل معهم السلاح . ان الامريكيين لن يتركوا كوبا فى سلام .

كل يوم غزوة بالبر أو بالبحر أو من الجو . وفى هذا الجو المضطرب تقول سوليداد انها راحلة الى المكسيك.

ويحاول يواقيم أن يثنيها عن عزمها ولكنه يفشل فيقف حائرا بين غرامه وولائه للسلاح . ويصارحها بأنه يحبها وتصارحه بأنها لا تحبه . ومن بعض الجنود الإسبان يسمعان هذه الاغنية التى تحمل أصداء قديمة واملا غامضا :

« مدريد تحترق ..
مدريد صامدة
جدرانها تحطمت ، ولكن معنوياتها باقية
مدريد مدينة الرماد حيث تتجول الظلال
ليس فيها من آثار الحياة
الا الكلاكسات وأزيز الرصاص
وقصف المدافع
وصيحات تعلو : جاسوس !.. جاسوس !..
فى مدريد كل الانظار تتجه الى السماء ..
فى مدريد يدفن الناس موتاهم بلا دموع ...
وفى كل باب من أبوابها تشمخ
مدريد مدينة الرماد الثائر » ..
ويسأل يواقيم سوليداد :

ـ أتعرفين عم تبحثين فى ليالى هافانا ياسوليداد ؟
فتجيبه :

ـ انا ابحث عن أمي يا يواقيم . أما أنت فتبحث عن اسبانيا . ولكن أية اسبانيا ؟.. هذا ما يعجزني فهمه . انت تعتقد انك تحبني ، ولكنك فى الحقيقة تبحث عن اسبانيا .

يلى هذا مشهد عاصف بين سوليداد وخالها ميجيل

وعاشقها الحزين يواقيم . انهم جميعا على ظهر باخرة فى طريقها من هافانا الى المكسيك . وسوليداد تحمل ربطات مشترياتها على السفينة وتحلم فى اليقظة بأنها تسمع اغنية الفيوليتيرا : « ليت قلبى أشد حزنا .. لكن كل ما فيه قد نفد .. ها انذا اطلقك ايتها السمكة الذهبية .. كبير هو البحر ، ما أكبره .. فلا بد من الرحيل ، وانى لراحلة » . وتسمع سوليداد نشيد امها الشجى الحزين فتستغرق فى الرؤيا الحزينة . انها ما رأت أمها قط ، ومع ذلك فهى تتمثلها امامها وتناجيها . وتفيق على خالها ميجيل وهو يحدثها عما ستجده فى المكسيك من سلع جميلة وفيرة تعوض عليها ما تركته فى هافانا من بطاقات التموين ، فتثور ثورتها . انها تركت هافانا بقلب ثقيل ، لانها تركت فيها قلبها . وهذا خالها يجرها وراءه حيثما ذهب لثوراته الوهمية التى لا تتجاوز جدران اجتماعاته الصغيرة التى يعقدها مع امثاله من المجانين المعقدين . انها تفضل بطاقات التموين فى هافانا على رخاء المكسيك السقيم . وحين يؤنبها خالها ميجيل قائلا : « اهذه بنت الفيوليتيرا تقول هذا الكلام ؟ » تجيبه فى تحد : « دع امى وشأنها . لقد سوت مشاكلها بقدر ما استطاعت . وانت ؟.. ماذا سويت من مشاكل ؟ » ويلتهب الخال غضبا لهذه القحة فيتقدم نحوها ويصفعها قائلا : « هذه المشكلة أولا » . فتقذفه سوليداد بما تحمله من ربطات وتهجم عليه لتنشب أظافرها فى وجهه فيقبض على ساعدها ويصفعها من جديد . وتستنجد سوليداد بيواقيم وتصرخ قائلة : « انها ستعود الى هافانا بأول باخرة » . ان يواقيم

سوف يرافقها . ولـكن يواقيم يجيبها فى حزن : « بل انا راجع الى اسبانيا ، ربما الى السجن ولـكن طريقك غير طريقى . أما عن الحب فأنا لا أزال أحبـــــك من الاعماق ، غير انى أطوى حبى فى قلبى لانى اعرف ان قدرنا لايرصد فى نجم واحد . فالوداع يا سوليداد ، الوداع »

ويعود يواقيم الى اسبانيا ، اما سوليداد فتبقى مع خالها ميجيل فى المـكسيك . وتأتى الانباء فى الصحف بأن يواقيم زج فى السجن مع زمرة كبيرة بتهمة التآمر على الجيش . مثل مع اخوانه أمام المحكمة العسكرية فبرأتهم . ولـكن الـكولونيـل ايمار رئيس البوليس الحربى يجدد الضغط على المحكمة العسكرية ، ويطالب باعادة المحاكمة لما استجد من وقائع جـــديدة . وحين يرفض الـكولونيل رئيس المحكمة هـــذا الطلب يتهمه الـكولونيل ايمار بالتواطؤ مع المتهمين فى مؤامرتهم ضد الجيش وبالحنث فى يمين الطاعة للـكوديللو ، أى القائد الاعلى – فرانكو . أن ايمار لا يرضى بأقل من الســـــجن ثلاثة عشرة عاما للمتهمين . ولماذا لم تحاكمهم بنفسك ؟ لماذا يقدمون الى المحكمة ؟.. احتراما للشرعية طبعا . وفى هذه المشادة الـكلامية يتقدم رئيس البوليس الحربى وينزع الرتب العســـكرية من على كتف رئيس المحكمة العسكرية ليثبت له انه صاحب السلطة الحقيقية ويأمر الحرس باعتقاله مع بقية هيئة المحكمة من الضباط .. فيقول يواقيم عاجبا : « ان قانون التوازن الحرج يؤدى احيانا الى نتائج عجيبة . ليس كل الشعب يكره فرانكو . فالبعض يحتملونه ، والبعض يحتـــرمونه ، والبعض يحبونه . وليس كل الضباط قتلة » . ويقدم الجميع

الىمحكمة عسكرية قضاتها جنرالات، ويبرىء الجنرالات الكولونيلات ويحكمون بالسجن ثلاثة عشر شهرا على المتهمين المدنيين . ويتدخل ايمار من جديد لتعديل الحكم . ويقاوم الجنرالات قليلا ثم تكون مناقشات على انفراد . وأيا كانت نتيجة هذه المناقشات ، فهذا مانشرته الصحف : « نظرا لثبوت تهمة التآمر ضد الجيش ، حكمت المحكمة العسكرية بعد المداولة على كل منالمتهمين بالسجن ثلاثة عشر عاما مع النفاذ ومع ايقاف التنفيذ بالنسبة للعسكريين » .

هذه هي الانباء التي يقرؤها الخال ميجيل وسوليداد وهما فى المكسيك عما جرى ليواقيم وأصحابه من سجناء أوكانا ، وهذه هى الانباء التى لم يقرأها شباب وشيوخ يلتقون فى السجن ، وفى السجن تتعاصر الاجيال أما سوليداد فتفكر طويلا فى يواقيم السجين ويهصر قلبها الالم . وتتمتم بأغنية المنفيين الاسبان : «سأرحل عن مدريد لاكون الى جوارك » ، فتخرج من شفتيها معكوسة الكلمات : « سأعود الى مدريد لاكون الى جوارك » . لقد تقمصتها روح الفيوليتيرا .

وهكذا الامر فى الرحلتين الاخريين فى هذه المسرحية العجيبة : الرحلة على خط مدريد ـ فرانكفورت ، والرحلة على خط كييف ـ كراسنويارسك . الاسبان المنفيون أو الاسبان اللاجئون أو الاسبان الفاشيست أو الاسبان الجواسيس يعيشون كالاشباح بين أبناء الامم الاخرى ، وكلهم يحمل اسبانيا فرانكو على ظهره وكأنه يحمل صليبه ، لا تعرف ان كانوا أحياء أو أمواتا ، فالجيل الاب لا يريد أن ينسى ما حدث فى عام ١٩٣٧ ، والجيل الابن يعيش لذكرى ثورة قام بها أسلافه

وخسرها أســـلافه . وحين يتجمع المنفيون من أركان الدنيا الاربعة فى كراستويـــارسك بسيبيريا يجدون فى انتظارهم أفواجا من عمال مناجم استوريا الذين أبادتهم الملــكية بالآلاف ، وكان فرانكو قائد جيشـــها ، فلما حكمت الجمهورية أبادتهم بالآلاف من جــديد ، وكان فرانكو أيضا قائد جيشــــها ، والزمتهم بأن ينزووا فى مناجمهم تحت الارض. فلما وثب فرانكو على الجمهورية خرجوا من جحورهم للدفاع عنها وقاتلوا عنها فى كل ركن من أركان اسبانيا حتى أسوار مدريد . والآن وهم اشتات فى بلاد الله ، فهم قد اتخذوا أوطانا من كل وطن آواهم ، وهم يحلمون ببعث جديد بعد مسيرتهم الطويلة فى طريق العذاب .

مجمع الحب

في كلمتين : اذا اردنا ان نعرف ماذا يجرى فى المسرح الباريسى الجاد لم نجد الا موضوعين هما السياسة والجنس . السياسة فى « صعود ارتورو وى » لبريخت وفى « الحرب والسلام فى قهوة سنيفل » لفولارنى ، وفى « آلام الجنرال فرانكو » لجاتى ، تلك المسرحية التى يقرؤها الناس ، ولكن احدا لم يرها لان عرضها منع فى باريس ، والجنس فى قنبلة الموسم ، وهى « مجمع الحب » لطبيب شاعر كاتب المانى ، ايطالى الاب فرنسى الام ، لم يسمع به أحد وهو أوسكار بانيتزا (١٨٥٣ — ١٩٢١) ظل مجهولا حتى قدمه المخرج الارجنتينى جورج لافيللى على خشبة « التياتر دى بارى » هذا الموسم . مسرحية مجنونة لكاتب مجنون . مجنون لا بالمجاز ولكنه بالفعل ، كتبها بانيتزا عام ١٨٩٥ وصودرت وأحرقت وحوكم صاحبها بانيتزا أمام محكمة ميونيخ وحكم عليه بسببها بالسجن سنة مع النفاذ ، واصدرت عليه الكنيسة الكاثوليكية قرار الحرمان فأسدل على اسمه وأعماله ستار كثيف من الصمت لانهما كانا من المحرمات . وبعد خروجه من السجن انتقل الى باريس ومنها اخذ يهاجم غليوم الثانى قيصر المانيا ويسمى الالمان « هذا القطيع من الجاموس الذى

يقوده ثور واحد ، ثور أبله » . فصدر فى المانيا امر بالقبض عليه ووضع أمواله تحت الحراسة . وعاد الى المانيا ليدافع عن نفسه ويحاول استرداد أملاكه ولكنه اصيب بالجنون ــ الجنون فى الاسرة ــ فوضع فى مستشفى الامراض العقلية التى كان يعمل فيها طبيبا . وفى صحوة من مرضه رجع الى باريس واستأنف الكتابة ، ولكن الجنون عاوده فعاد الى المانيا ودخل من جديد مستشفى المجاذيب ثم وضع فى سنة ١٩٠٥ تحت رعاية عمه وبعض المهتمين به ، وكان أول مصدر لجنونه عقدة الاضطهاد . وظل مجنونا حتى مات فى سنة ١٩٢١ ،

قيل ولم يعرف حتى ان حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ نشبت وانتهت . وهكذا لمع اوسكار بانيتزا كالشهاب وانطفأ كالشهاب بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ فى بافاريا ، ولم يجدد احد نشر اعماله لان اسرته كانت تعارض فى ذلك فضلا من السلطات المدنية والروحية ، وهكذا اندثر اسمه تماما من تاريخ الادب الالمانى حتى احياه الناقد الشاعر الالمانى فالتر ميهرنج فى كتابه « المكتبة الضائعة » منذ سنوات قليلة فالتفتت اليه الانظار ، وهو الآن حديث الملايين فى فرنسا وخارج فرنسا .

فماذا قال بانيتزا فى «مجمع الحب» ليستحق كل هذا الرفض وكل هذا القبول ؟

الحق ان « مجمع الحب » تراجيديا سماوية برغم ما جاء فيها من تهجم على بعض المقدسات الاساسية ، وهى فى صميمها مسرحية اخلاقية من الدرجة الاولى . بل هى لمن يتأملها ، شكلا ومضمونا ، مجرد تجربة جديدة بلغة القرن التاسع عشر للمسرحيات الاخلاقية ومسرحيات « الاسرار » و « المعجزات » التى كانت

شائعة فى العصور الوسطى تؤلف وتمثل تحت جناح الكنيسة وفى كنفها . وهى تتناول عادة فصلا من القصص الدينى فيه مغزى اخلاقى او ميتافزيقى .

فمسرحية بانيتزا صيغة جديدة من « فاوست » ، وهى الاسطورة المفضلة عند الألمان ، ومحورها وضع الانسان بين الله والشيطان ، ولكنها محددة بسقوط الانسان وخرابه بسبب الحب الجنسى ، واداة هلاك الانسان هى المرأة التى أودع الشيطان فى جسدها جراثيم الشر باذن من الله عقابا للبشرية على فسوقها وتهالكها على الملذات ، وهو نوع مخفف من الطوفان الذى أرسله الله لابادة البشرية الاولى العاصية ، توطئة لتجديد العالم بجيل جديد يكون أكثر تمسكا بالفضيلة.

ولو كان اليونان يتناولون هذا الموضوع لكانت اسطورتهم المفضلة هى اسطورة باندورا ، المرأة التى خلقتها كل الآلهة وحبتها بكل ما فى الكون من فتنة وبهاء واهدتها صندوقا مغلقا ، أو اناء مغلقا وأرسلتها الى الانسان غواية له ، فاستقبلها الانسان فرحا رغم ان عقله الاعلى حذره من قبول هدية الآلهة . وكان الصندوق أو الاناء تحفة من تحف الزمان ، فاستبد الفضول بالانسان وفتح غطاءه ليعرف ما فيه فخرجت كل الاوبئة والشرور وطارت الى اركان الارض ، ولكن باندورا بادرت فأغلقت الصندوق أو الاناء بعد ان خرج كل ما فيه ، ولم يبق فى قاعه غير شىء واحد هو : « الامل » .

أما الاطار الذى اختاره اوسكار بانيتزا ليعبر عن هذا المعنى الاخلاقى فهو الاطار التاريخى دون ان يتنازل عن مقومات الاسطورة الفاوستية الجميلة ، مع اختلاف خطير واحد ، وهو أن فاوست رغم اجترائه على ذات

الله واعلانه استقلال الانسان وسيادته على الـكون ورغم عقوده وعهوده مع الشيطان ان يبيعه روحه لقاء ملك الارض ومعرفة أسرار الوجود ، كان بطلا شـامخا نأسى لمصرعه حين ينتهى أجل عقده وتحمله الزبانية لتقذف به فى الجحيم . أما الشخصية الرئيسية التى اختـارها بانيتزا محورا لمسرحيته « مجمع الحب » فهى شخصية وغد اصطلح بعض المؤرخين على أنه قل من كان أوغد منه ، الا وهو روديريجو بورجيا الذى اعتلى الكرسى البابوى تحت اسم البابا اسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٢) وتصفه المعاجم بأنه « من بابوات عصر النهضة الاوربية ، انصرف الى السياسة والتهى بأباطيل العالم ولكنه بقى دوما مستقيم الايمان » .

اما هذا الوباء الذى يقول بانيتزا ان السماء أرسلته الى البشر عقابا لهم على استسلامهم لشهوات الجسد ، فهو داء السفلس ـ الزهرى ـ الذى ظهر وتفشى لاول مرة فى اوربا نحو عام ١٥٠٠ وكان يعرف يومئذ فى المانيا باسم « المرض الفرنسى » ، وقيل أن بحارة كولومبوس عادوا به من امريكا بعد اكتشافها فى ١٢ نوفمبر ١٤٩٢ واقدم رسالة معروفة فى هذا المرض كتبها فراكسفورو باللاتينية وظهرت عام ١٥٠٥ بعنوان « السفلس » أو « المرض الغالى » ـ من غاليا الاسم القديم لفرنسا ـ وتلتها رسالة للفارس المفكر الالمانى الـكبير ، أحد اقطاب حركة الهومانزم ، أولريخ فون هوتن ، نشرته عام ١٥١٩ بعنوان : « فى المرض الفرنسى، أو السفلس » وقد كان لظهور السفلس فى اوربا لاول مرة دوى عظيم جعل الاوربيين يرتعدون فرقا من هذا المرض الجديد المجهول ويحيكون حوله الاساطير . وعلى كل فان

ما نسميه نحن الامراض التناسليـــة يسميه الاوربيون « امراض فينوس » ، ربة الحب ، وهو اسم شـــاعرى يصور فكرة الانسان عن منشئه ، وقد حافظت العربية على هذه الشاعرية حين سمته « مرض الزهرى » ،

وحقيقتها « المرض الزهرى » اى النابع من الزهرة ـ بضم الزاى لا فتحها ـ وهو اسم الـكوكب اللامع الذى تسكنه فينوس ربة الحب فى اساطير القدماء . هـــذا الوباء الجديد عند بانيتزا هو العقاب الذى أرسله الله على البشرية ، أو على الاقل على العالم المسيحى ، عقابا له على آثام البـــابا الفاسق اسكندر السادس ، على طريقة : الجزاء من جنس العمل . أما زمان المسرحية فهو محدد بربيع عام ١٤٩٥ ، عام ظهور السفلس لأول مرة فى أوربا ، وهو موافق تقريبا لموت البابا اسكندر السادس والايحاء طبعا انه كان أول ضحية من ضحاياه.

اسكندر بورجيا ، البابا ذو المحظيات العديدة ، منهن لافانوتسا ومنهن جوليا فارنيزى وغيرهما ممن لم تحفظ اسماءهن صحائف التـــاريخ ، كان له من محظيـــاته المعروفات وغير المعروفات أبنـــاء وبنـــات عديدون ، بالضبط تسعة ، يظهرون جميعا على المسرح ، ولـــكن أشهرهم هما الامير سيزار بورجيا والاميرة لوكريتسيا بورجيا اللذان روى المؤرخون وكتاب السير عنهما جرائم تقشعر لهولها الابدان وآثاما يندى لها جبين الشرفاء .

أما مكان الاحداث فهو ينتقل من السماء الى الارض ومن الارض الى السماء . ومن السماء تأتى الرسل من الملائكة بأنباء عن الشرور التى اســـتفحلت على وجه الارض . ففى ايطاليا ولاسيما فى نابولى فجر الرجال والنساء ، وكان يحاصرها شارل ملك فرنسا ، وأهل

المدينة غارقون فى ملذاتهم البهيمية الى حد الجنون ، حتى رجال الكهنوت الكاثوليكى غدوا من الفاسقين يرتكبون المعاصى فى بيوت الله . ويتجه الرأى أولا الى ضرورة ابادة البشر وتكرار تجربة الطوفان ، ولكن الراى يستقر أخيرا على الاكتفاء بعقابهم العقاب الرادع الذى يفسد عليهم ملذاتهم البهيمية ويجعلهم يحجمون عنها ان أرادوا النجاة .

ثم ننتقل الى روما حيث نرى البابا اسكندر السادس فى قصره وسط ابنائه وبناته التسعة . غير الشرعيين طبعا لان البابوات لا يتزوجون ، فى مأدبة عظيمة ليلة عيد القيامة ومعهم الكرادلة وحاشية البابا ، ومن أحاديثهم نفهم أشياء عما كان يجرى فى المجال العام وفى المجال الخاص . أما فى المجال العام فنعرف ان الراهب الثائر المشهور سافونارولا وأتباعه من الرهبان الدومينيكان فى فلورنسا وغيرها قد اشتطوا فى تأليب الناس على البابا الفاسق وكرادلته الفاسدين ، وانهم يطالبون بتطهير الكنيسة والعالم المسيحى من الرذائل، ويختصون النساء بغضبهم لكثرة تبرجهن وخروجهن على الفضيلة ، بل ويهاجمونهن ويجردوهن من رياشهن التي يحرقونها فى الاسواق . ولقد استدعى البابا اسكندر السادس الراهب الثائرسافونارولا الى الفاتيكان ليؤنبه على شططه ولكن سافونارولا خرج عن طاعته ورفض المثول أمامه ، محتميا بالامير لورنزودى مديتشى حاكم فلورنسا الذى كان أشهر من تفلسف من أمراء ايطاليا ودعا الى الدنيوية واهتلاب لذات الحياة ، ثم تاب واناب وغدا لا هم له الا أن يسأل سافونارولا ان كان قد بقى له امل فى دخول الجنة . أما الاميرة الشابة

الجميلة لوكريتسيا بورجيا ، بنت البابا فهى لا تكف عن أكل البونبون طول الوقت بينما اخواها سيزار بورجيا وجوفروا بورجيا يتدارسان وسيلة التخلص من سافوناورولا بدس السم له على الطريقة التى الفها آل بورجيا فى التخلص من الاعداء . ومن حديث بلاط البابا نعرف ان الدوق بيزاليا ، زوج لوكريتسيا بورجيا ، قد وثب عليه من ذبحه فى الليلة السالفة وهو خارج من الفاتيكان ثم القى بجثته فى نهر التيبر ، ومع ذلك فزوجته الشابة الجميلة لوكريتسيا تبدو فى غاية المرح وهى تمص البونبون وتتالق وكأنها فى ليلة زفافها . أما أبوها فهو لا يعرف شيئا عن هذا الامر ويعرف كل شيء . ذلك ان له شخصيتين ، فالبابا اسكندرالسادس لا يعرف شيئا ولكن رودريجو بورجيا يعرف كل شيء من أجل هذا فهو سيقيم قداسا على روح الدوق الراحل ، وسيرسل فى الوقت نفسه الى أمير فيرارا من ينبئه بأن بنته لوكريتسيا قد غدت عزبة وان فى امكانه أن يتقدم . وفى مأدبة عيد القيامة يدخل المهرجون والمهرجات ليسلوا البابا اسكندر السادس ومعيته ويمثلون رواية هزلية بذيئة تذكرنا بفجور أباطرة الرومان الذين حدثنا عنهم المؤرخ جيبون . كلها تدور حول اغواء المهرج بولبشينيل لكولومبين زوجة الرجل المخدوع بانتالون وتدخلها رقصات داعرة مما عرفه الايطاليون فى كرنفالات أعياد الخصب أيام الوثنية الاولى . وفى الخارج نسمع قداس عيد القيامة يتلى وينشد ويرتل باللاتينية على جموع المصلين فى صلاة العيد . والكردينال بوركهارت ، تشريفاتى البابا ، يسر له أن الجموع فى انتظاره فى الكنيسة المتاخمة

لتتلقى بركته ، فينتقل البابا جيئة وذهابا بين احتفاله الخاص والاحتفال العام . القداس الديني في الخارج لا يتوقف والقداس الاسود على انغام الموسيقى الراقصة في الداخل لا يتوقف . وبعـــد ان يفرغ المهرجون من عرضهم ، يامر البابا بادخال الغواني ، فيدخلن في دلال،

اثنتي عشرة جميلة من أجمل الجميلات ، في أردية شفافة كأنها من نسيج العناكب ويستعرض مفاتنهن وقد أجلس بنته لوكريتسيا على ركبته وذهب يداعبها ، وباشارة منه تتجرد الغواني ، فيسقط عن كل ثوبها في لمح البصر .

ويلقي السـقاة لهن بالـكستناء على الارض فتزحف الفتيات ويتزاحمن لتجمع كل منهن ما يمكنها جمعه من الحبات وتفوز أقدرهن بالجائزة . ثم باشارة منه يدخل المصارعون ، اثنا عشر مصارعا ، يدخلون زوجا زوجا ،

وكلما صرع واحد منهم أخاه تلقي جائزته وهي أن يختار أجمل الغانيات وسط التهليل والتصفيق . كل هـذه الطقوس السوداء ليست من بنـات خيـال اوبيكاري بانيتزا ، وانما استقى تفاصيلها من المدونة اللاتينية أو « اليوميات » التي كتبها الـكاردينال بوركهارت كبير تشريفاتية البابا إسكندر السادس ، ومن كتاب المؤرخ ايريارتي « آل بورجيا » الذي صـدر في باريس في ١٨٨٩ .

كل هـذا الانحلال ينبغي ان يعاقب . هكذا تقول الاصوات في السماء : لا ان يمحق البشر ولـكن يتلقوا رادع الجزاء لـكي يعودوا الى الطريق القويم ، طريق الفضيلة . والشيطان هو أداة السماء لصب نقمتها على البشر فهذه هي الحكمة في وجوده ، والا لـكان الله قد محقه منذ الازل وخلص العـالم من شروره . ويبتكر

الشيطان بمكره الواسع اردع عقاب للرذيلة ينفر الناس من التهالك على ملذات الجنس ويرعب أهل نابولى وروما الفجار ويجعلهم عبرة لمن يريد أن يعتبر . وما دام الرجال يعبدون أجساد النساء ، فلتكن المرأة هى وسيلة الانتقام الالهى من الفجار . انه سيضع فيها جرثومة الزهرى ، مرض فينوس ، ربة الحب الجسدى . ولتكن المرأة هى الفخ الذى يقع فيه هؤلاء الفجار . سوف يسمم الشيطان للناس ينابيع الحب الجسدى . ولتكن هذه المرأة جميلة آية فى الجمال متمرسة فى فنون العشق ، ان رآها الرجال فقدوا صوابهم ، وساروا معها على الدرب الى المهالك . فليأت لهذا البابا الفاسق بأجمل جميلة فى الوجود وباعظم فتنة تفتن عقله المسموم ، لتكون رمزا للغواية الجديدة .

وهنا يستعرض الشيطان اشهر العاشقات فى التاريخ ممن صرعن أعظم الرجال . ويتجول فى الجحيم لينتقى منهن واحدة يتزوجها وينفث فيها سم الزهرى وينجب منها بنتا أروع منها جمالا واعظم فتنة . ولتمش ابنة الشيطان هذه على الارض لتعيث فيها فسادا . ان فاوست عندما التمس بلوغ التحقق الكامل للحب الجسدى طلب الى مفيستو فيليس ان يبعث له هيلانة طروادة ، تلك التى تحرك لها ألف من الجوارى المنشئات فى البحر كالاعلام . وفى الجحيم ، مملكة الموتى ، يرى الشيطان أطياف العشرات من أشهر فاسقات النساء ، ويحار بينهن فلا يعرف أيا منهن يصطفيها زوجة له ليستولدها هذه البنت التى ستكون لعنة على البشر : فكلهن جميلات وكلهن فاتنات وكلهن يقطرن بالشهوانية والغواية .

ويبدأ بهيلانة اليونانية التي فرت من زوجها الملك منيلاس مع عشيقها باريس أمير طروادة . ويدعوها فتخف اليه ، ويبدأ في مساءلتها : لم هربت مع أمير طروادة ؟ اكنت تحبينه حقا ؟ فتهز هيلانة رأسها علامة النفي . ويعجب الشيطان ويسأل : اذن لماذا هربت معه ؟ هل كان ذلك بدافع الفضول ؟ فتفكر هيلانة قليلا ثم تهز رأسها علامة الايجاب . اذن فقد كان كل ما جرى من باب التسلية ؟ فتقول برأسها : نعم . ولم تفكري أبعد من هذا ؟ لا . انها لم تفكر أبعد من هذا .

وحين نشبت الحرب الضروس ، هل فكرت ؟ فتجيب نعم ، ولكنها لا تلبث ان تجيب : لا. ولكن الشيطان يدرك أن لديها بقية من ضمير ، فيقول : اجل ، لقد فكرت . عودى الى رقادك بين الموتى أيتها الغبية .

ثم يدعو الشيطان طيف الغانية فرينا ، فرينا الاثينية ، اشهر غوانى اليونان فتمثل أمامه ويسألها : انها اجتذبت الى جمالها آلاف الرجال ، وتركت كلا منهم حطاما لا يملك شروى نقير . انها افسدت عقول الفلاسفة وضمائر القضاة وانتهكت كل قوانين المدينة واشعلت الحروب وكدست جبال المال وتألهت فعبدها الناس وجعلتهم يقيمون لها المعابد والتماثيل في كورينث

وارادت أن ينقش اسمها على جدران طيبة ، ثم انتهت بأن أعدمت في المعبد الذى اعتصمت فيه أثناء غضب الجماهير . ترى ماذا دفعها الى كل ذلك ؟ .. أهو الحب ؟ لا . أهى الشهوة ؟ لا . أهى النزوة ؟ نعم .

لانها كانت اجمل من كل الجميلات ؟ نعم . ولكنها لم تفكر ولم تدبر ولم تبيت ولم تخطط . لا . لم تفكر ولم تدبر ولم تبيت ولم تخطط ولكنها تركت كل شيء

يجرى فى مجراه . نعـــم . تركت كل شىء يجرى فى مجراه . كلا . كلا . ان فرينا الاثينية ليس فيهـا شىء مما يبحث عنه . انها مجرد امرأة جميلة لاهيـة لا تضمر خيرا ولا شرا وانما تدع الاقدار تجرى فى أعنتها. انها لا تصلح زوجة للشيطان . ويقول الشيطان : ارجعى الى مكانك بين الموتى أيتها المسكينة ، فأنت بريئة وانا لا احب الابرياء .

ثم يدعو الشيطان هلويزا صاحبة ابيلار فيأتيه طيفها من دار الاطياف . انها سلبت لب استاذها ابيلار ، سراج عصره فى العلم والتقوى ، فسار معها فى طريق الغواية ، وثارت على أهلها فوثبوا عليه وأزالوا منـه أعضاء الرجال تنكيلا به ثم سجنوها فى الدير الى يوم الوفاة . فكانت تكتب له الرسائل الملتهبة تبثه فيهـا غرامها الذى تحدثت بذكره الركبان. أليست هى القائلة :

« لخير لى ان اكون عشيقة ابيلار من ان اكون زوجة شرعية لملك البلاد » ؟ وعندما مات ابيلار جاءت بجثته ودفنته بيديها ، وظلت تعشقه ميتا عشرين عاما متصلة كما كانت تعشقه حيا الى أن أدركتها الوفاة . ترى لم فعلت هلويزا كل ذلك ؟ أهو الحب الذى دفعها الى ذلك؟

نعم . نعم . الحب النقى ؟ نعم . نعم . لقد أخطـأ الشيطان التقدير : ان هذه الراهبة طاهرة رغم كل ما عرفته من أشواق الجسد . وحين ينفخ فى الصور سوف تكون أول من تدعوه الملائكة لدخول الفردوس . كلا . ان هلويزا لا تصلح له زوجا . فلتعد هلويزا الى مرقدها فى عالم الاطياف .

ثم يدعو الشيطان الامبراطورة اجريبينا سفاكة الدماء ام الامبراطور نيرون محرق المدن . لقد ارادت ان تفتك

بأخيها الامبراطور كاليجولا لتجلس عشيقها لبيـدوس على عرش روما ، ولـكنهـا لم تنجح . وحـين كان كلوديوس قيصر يجلس على عرش روما ، دفعتـه الى ذبح زوجته الامبراطورة مسالينا ثم تزوجته وجلست مكانها على العرش ، ثم دست السم لزوجها الامبراطور كلوديوس وأعلنت ولدها نيرون امبراطورا مكانه ، وما لبثت تدس السم لـكل غريم بين الرجال والنساء حتى اغتالها ولدها نيرون وخلص العالم من شرورها . ان الشيطان نفسـه بعد أن دعاها ندم على دعوتها . انه لا يجد فى كل هذه الانهار الجارية من الدماء اى آية من آيات الجمال . باختصار : انها مقززة . انها مريضة.

فى هـذه الايام ترتب الامور بطريقة أخرى غير طريقة السفاحين . جريمة واحدة نظيفة كان يمكن أن تغنى عن كل هذه الجرائم ـ أو لعل الشيطان خاف على نفسه من اجريبنا ؟ ـ كلا . ان اجريبنا لا تنفعه فى شيء فلتعد الى مرقدها بين الموتى .

لقد وجد الشيطان أخيرا ضـالته المنشودة : انها سالومى، الراقصة الجميلة سالومى. انها ابنة هيرودس ملك اليهود . لقد رقصت فأبدعت وحين سألها أبوها ان تطلب هديتها طلبت راس يوحنا المعمدان فجاءها به على طبق . وكانت سـعيدة أسـعد ما تكون طالما كان الرأس ساخنا يسيل دمه بغزارة . فلما مات الرأس فقدت شهيتها له وأعطته لامها . ان سالومى لم تعرف الحب قط . انهـا لم تحب اباهـا هيرودس ولا أمها هيروديا ولا حتى يوحنا المعمدان . انها أحبت شيئا واحدا هو الرأس المقطوع . هذا هو مصدر سعادتها : أن ترى رؤوس الرجال مقطوعة ! وساخنة . ليس هناك

سبب معين ولا غاية معينة . الشر للشر . يا للبشاعة ؟ ! حتى الشيطان نفسه يقفز من مكانه فى تلذذ ويصيح : يا للشيطان ! بشعة هذه المرأة ولكنها اقل بشاعة فى نظره من اجريبينا التى كانت تقتل من أجل اطماعها ، وهذا ممل . لقد وجد الشيطان امرأة من معدنه .

امرأة تصلح له ويصلح لها. قال : هيا اتبعيني الى مخدعي منذ الآن أنت زوجتي !.. ثم تتغير لهجته ويبدأ فى استخدام نون الجلالة :

اننا نعقد عليك آمالا كبارا ! لسوف تكونين رأس سلالة مجيدة لا يطاولها فى الشرف أشرف شريف ! وفى عروق أخلافك سوف تجرى دماء لا هى بالحمراء ولا هى بالزرقاء ، ولكنها ستكون عجيبة العجائب . ليس غيرك يعمر مملكتى العظيمة ، فمواهبك الفريدة ليس لها نظير . عندما عثر الشيطان على سالومى عاوده شموخه القديم ، وبدا يحس ويتكلم بلغة الملك القادر والفنان المبدع الخلاق .

وهكذا انجب الشيطان من سالومى « المرأة » ودس فى عروقها سمه الزعاف ، وحين ساق ابنته ليعرضها على الانظار ارتاع كل من فى الدنيا لجمالها . كانت آية عجبا . وضيئة كلألاء النجوم ساخنة يذيب صهدها الحجر . والبسها غلالة تشف عن كل شىء ومع ذلك تتمنى ان تمزقها العيون . وساقها الى روما ، الى قصر البابا الذى لوثت سيرته صحائف التاريخ . وكان وسط القداس المهيب بين أبنائه التسعة وكرادلته والكاهن يتلو باللاتينية صلوات القربان المقدس : لان هذا جسدى .. ولان هذا كأس دمى ، من العهد الجديد عهدى الى الابد ، سر العقيدة .. القربان الطاهر ،

القربان المقدس ، القـــربان آلذى لا يعرف الدنس . الخبز المقدس خبز الحياة الابدية والـكأس كأس السلام الابدى .. والجمع فى الخارج يرد « آمين » . وحين يبلغ الـكاهن قوله فى صوت خفيض : « يا حمل الله الذى يحمل خطايا العالم » .. تدخـــل « المرأة » فى ثوبها الابيض وكأنها تمثال الطهارة .. يحيط بها ضياء ليس من ضياء الشموع . فيرتفع صوت الـكاهن قائلا: « يارب ارحمنا ! ؟ » وهنا يكثر اللغط بين المصلين .

أما الرجال فيصيحون عجبا لآية الدهر ، وأما النساء فتنطلق منهن اللعنات . ثم يبـــدأ الشغب فى الخارج وتتعالى صـــيحات تقول : « النجدة .. النجدة ! » وتخرج الخناجر من جرابها ويرتفع صراخ النســـاء : « اطردوها .. اطردوها » وأخرى تصيح فى اختناق : « لنت السبب ! لبت السبب ! » وثالثة تصيح : « أنها الأخرى ! انها الاخرى ! » وأصـــوات متعددة تنادى : « الى السلاح ! الى السلاح ! » فكانما أحس الجميع بأن ظهور هذه « المرأة » كان ايذانا بوباء اجتاح العالم . ويقطع الشغب الصـــلاة فيطفىء الشمامسة الشموع ، وينصرف الجميع آلا البابا اسكندر السادس الذى اصطحب هذه المرأة الملعونة الى مخدعه فى هدوء .

وفى غبش الفجر البارد الحزين تخرج المرأة من جناح البابا فى هدوء شعثاء الهيئة لم تصلح بعد من زيها وعلى وجهها امارات الاعياء الشديد . وتغلق البـــاب من ورائها فى هدوء . ويبرز لها الشيطان الذى كان يقبع فى انتظارها ويأمرها كمولى يحرك دميته : « والآن .. الى فراشهم جميعا ! السلسلة العظمى . ابدئى بالكبير وانتهى بالصغير .. وبعد أن تفرغى منهم اتجهى الى

حثالة البشر . وحــاولى دائما أن تحترمى الســلم الاجتماعي . هيا .. سيرى .. سيرى .. سيرى .. سيرى بلا توقف ! »

وهكذا نزلت نقمة السماء ببنى الانسان : عبـدوا الزهرة ربة الحب الجسدى فأحاق بهم مرض الزهرة ، وباء الحب الجسدى. وواضح ان هذا المضمون مضمون اخلاقي لا لبس فيه لايقل اخلاقية عن مضمون المسرحيات الدينية التى كانت الـكنيسة تتبنــاها فى العصــور الوسطى . كذلك لا يغض من اخلاقية « مجمع الحب » تصويرها لمخازى البابا اسكندر بورجيا ، أو اسكندر السادس وآثامه الكثيرة ، فحتى الـكاثوليك المحافظون المستنيرون يتبرأون من هذه الشخصية الراسبوتينية التى شغلت الـكرسى البابوى سنوات قليلة نحو عام ١٥٠٠ ، وروى التاريخ عنها وعن آل بورجيا عامة ما يقشعر له الضمير الدينى ولا يفترضون العصــمة فى بشرى مهما علا مقامه الروحى أو تسلسلت فيه «نعمة» الخلافة الرسولية وضياء بطرس العظيم . وانما الذى استفز السلطات والرأى العام فى مملـكة بافاريا فى عام ١٨٩٥ وجعلها تصادر مسرحية «مجمع الحب» وتسجن صاحبها وتحكم عليه بالموت الادبى ، هو تجنيه وتهجمه الساخر على الثالوث المسيحى وهو من اسس العقيدة المسيحية . وقد عرفت أوربا منـذ الرينسانس حتى القرن التاسع عشر الوانا من التجديف الدينى القائم على الفكر الجاد والدراســة العلمية ومع ذلك فقـد تجاوزت عن اجتهادات الفلاسفة والعلماء او شطحاتهم لانها تخاطب عقل العقلاء وثقافة المثقفين . أما عمــل بانيترا فقد تناول الثالوث المسيحى بسخرية الكاريكاتير،

فنسي معاصروه دعوته الاخلاقية بسبب هذه السفاسف الفنية . أما الآن ، فلأن العالم أوسع صدرا واكثر تسامحا ، فقد تعلم أن يتجاوز عن السفاسف ويركز على الجوهر ، وبهذا استطاع أن يرى فى عمل بانيتزا ابعادا فاوستية أصيلة وأن ينقذ هذه المسرحية « الدينية » من العدم رغم ما فيها من تجديف .

ومأساة بانيتزا الحقيقية هى أنه نشأ فى أسرة جمعت بين افظع نقيضين فى تكوين الفكر الاوربى : اب ايطالى كاثوليكى متعصب للكاثوليكية وأم فرنسية من طائفة الهوجونوت متعصبة للبروتستانتية . كل منهما يحاول ان يصوغ روح اوسكار الصغير . وقد كان صباه وشبابه مسرحا لمعارك رهيبة بين أبيه وأمه حول تنشئته الدينية بلغت قاعات المحاكم ودواوين الحكومة ، حتى حسم الامر أخيرا وسلم الولد لامه البروتستانتية المشتعلة ببغض الكثلكة والتثليث . وفى وسط هذه الصراعات الروحية العنيفة فقد أوسكان بانيتزا توازنه فرفض الميتافيزيقا المسيحية جملة ولكنه احتفظ بالاخلاق المسيحية القائمة على ازدواج الروح والجسد فى تكوين الانسان . أو على الاصح قبل الميتافيزيقا البروتستانتية الرافضة للتثليث فى أحد درجاتها التوحيدية وقبل الاخلاق الكاثوليكية التى تزرى بالجسد الى حد الاضطهاد وتعتبره وجودا دنسا مليئا بخسيس الشهوات التى يجب على روح الانسان صعقها ومحقها حتى تعود الروح الى بارئها . وفى ثورته العارمة على الميتافيزيقا الكاثوليكية تقمصته روح الهوجونوت فركز سخطه على البابوية ، وفى تمسكه الشديد بالاخلاق الكاثوليكية تقمصته روح راهب من رهبان العصور

الوسطى صب جام غضبه على الجسد وركز سخطه على « المرأة » وعدها أداة الشيطان لافساد الكون • والحصيلة النهائية لكل هذا فوضى فكرية بلا نهاية وجدت فى الفن بعض النظام • واعتقادى أن الفن كان كفيلا بأن ينقذ أوسكار بانيتزا من الجنون لو أنه ترك لينضج مواهبه ولم يلاق كل هذا العنت من سلطات الدين والدولة •

برودواي تغزو مسارح لندن ..

الاربعاء السابع من مايو ١٩٦٩ طرت من باريس الى لندن . فرغت من الغداء مع جاك بيرك وخالد محيي الدين وانطلقت فورا الى مطار اورلي . وكان أول ما لفت نظري ان ضابط الجوازات الفرنسي فى مطار اورلي نظر فى جواز سفري وسلمني اياه دون ان يختمه كالعادة بما يدل على انى غادرت باريس فى تاريخ محدد مكتفيا ببطاقة البيانات الصغيرة التى ملأتها باسمي وجنسيتي ومكان قدومي ووجهتي ، تماما كما فعل ضابط الجوازات فى مطار اورلي عند وصولي باريس من روما قبل ذلك بأسبوع . واستنتجت فى الحالين ان عدم ختم جواز سفرى فى باريس كان سببه انى احمل تأشيرة لدخول فرنسا عدة مرات أثناء رحلتي . وفى الطائرة لمدة ساعة كان لدىما أفكر فيه : طنين المناقشات السياسية التى لم تنقطع فى باريس وانطباعاتى عما شاهدته من مسرحيات ، ولكن أيضا هذا الشيء الغريب ، وهو انى دخلت فرنسا وخرجت منها دون ان يظهر فى جواز سفرى ما يثبت انى وطئت الاراضى الفرنسية .

وقضيت نحو نصف ساعة احاول ان احل هذا اللغز الناتج من الرغبة فى تبسيط الاجراءات وتوفير

الاختام على الجوازات حتى لا تمتلىء صفحاتها بسرعة.

وبعد مجهود استنتجت ان البوليس الفرنسى اذكى منى : لانه ما دام لديه ختم خروجى من ايطاليا وختم دخولى الى لندن وبطاقتا البيانات عند الدخول والخروج فى ومن مطار باريس وقوائم ركاب كل طائرة تدخل أو تخرج ، فانه يستطيع ان يستنتج اية معلومات يبحث عنها حول تحركاتى العامة . انهم هناك يحاولون تبسط كل الاجراءات امام المسافرين . حتى تفتيش الامتعة فى الجمرك كفوا عنه تماما منذ عشر سنوات على الاقل توفيرا للوقت ومنعا لازعاج المسافرين ، الا طبعا أمتعة « المراقبين العتاة » أو من تاتى عنهم « اخباريات » من المهربين . الدول التى تعرف قيمة الوقت والجهد ولا تزعج الناس بالبحث عن خرطوشة سجائر زائدة أو قطعتى صوف انجليزى لتفرض عليها رسوما جمركية ، وتدخر الاجراءات للصيد الثمين .

نفس الامر بالنسبة لمطار لندن . لا تفتيش أمتعة ولا اقرارات مكتوبة . لا شيء غير الطابور أمام ضابط الجوازات ليتسلم بطاقة البيانات ويختم الجواز . ولكن الانجليز لا يكونون انجليزا اذا كانوا كالفرنسيين . كنت أحمل تأشيرة دخول لمدة ثلاثة اشهر من القنصلية البريطانية فى القاهرة . وحين جاء دورى سألنى ضابط الجوازات : كم ستقضى فى لندن ؟.. أجبت : نحو اسبوعين . وهم أن يكتب فى جواز سفرى : الاقامة اسبوعان فقط . قلت فى ضيق : الا ترى التأشيرة من قنصلكم فى القاهرة تقول : ثلاثة أشهر ؟ أجاب فى أدب شديد : نعم . ولكنك تقول اسبوعين . قلت : فلنفرض انى احتجت لاكثر من اسبوعين ؟ اجاب فى

أدب شد : اذهب الى وزارة الداخليــــة للتجديد . قلت : أكتب اذن شهرا واذا احتجت سأجـدد . وكتب شهرا . وكانت فى غاية الامتعاض فلم اشكره حين سلمنى جوازى .

نفس العقلية كما كانوا منذ ثلاثين سنة . ضـــابط الهجرة الانجليزى يقف فى مداخل انجلترا وكأنه رضوان واقفا على باب الجنة . بل أكثر من هذا ، وكأنه رضوان مفوض للمنع والمنح رغم حســـاب الملـكين . كانوا فى شبابى يعلموننى ان ضباط الهجرة فى انجلترا يتمتعون بسلطات واسعة ، وانهم يستطيعون منعك من دخول البلاد لو ارادوا رغم تأشـــيرة الدخول أو الاقامة التى تحملها من قنصل بريطانيا فى بلادك . فاذا كان هـــذا صحيحا فهذا نظام سقيم ومتخلف من بقايا العصـــور الوسطى قبـــل استقرار تقاليد التمثيـــل الدبلوماسى والقنصلى ، كما ان فيه اهـــدارا لـكرامة القنصـــل البريطانى فى بلاد الغير واستهانة بارتباطاته وتوقيعاته. والحق انى فى غاية الحرج وأنا أكتب هـــذا الـكلام لان قنصل بريطانيا العام فى القـــاهرة كان غاية فى الرقة والـكرم فتفضل ومنحنى تأشيرة دخول « مجانية » لمدة ثلاثة شهور تكريما على الاقل لجريدة « الاهرام » الكبيرة التى أعمل فيها ، ثم يأتى ضابط الهجرة فى مطار لندن ويسلب منى بعض هذا الحق بحجة أنى قد لا أمارسه كله ، وكأنى ضيف غير مرغوب فيه تعد عليه أيام الاقامة فى انجلترا .

والمهم فى نظرى هو أن يراجع قنصل بريطانيا العام فى القاهرة وزارة الخارجية البريطانية فى مسألة هـــذا المبدأ العام .

هل يجوز لضابط الهجرة أن يراجعه فيما يمنح من تأشيرات ؟ وما حدود هذه المراجعة ؟ وكيف تتفق مع هيبة ممثل بريطانيا فى غيرها من البلاد ؟ كذلك اطرح على وزارة الخارجية المصرية هذا السؤال : هل هناك وسائل تستطيع أن تتحقق بها من أن الرعايا المصريين فى الخارج يعاملون «بالفعل» ومن «جميع الوجوه» معاملة الرعايا الامريكيين أو الفرنسيين أو الالمان ؟ أم ان هناك تمييزا فى المعاملة بين أبناء البلاد المتقدمة وأبناء البلاد النامية ؟

المهم أن تجتاز البوابة ، بوابة انجلترا . بعد هذا كل شىء يسير فى منتهى الجمال . وحيث بلغ اوتوبيس المطار محطة نهاية الخط فى كروموبل رود كانت الامطار الغزيرة والسحب الثقيلة الداكنة قد جللت لندن بحلة رمادية قاتمة أطفأت وهج العصر ونشرت غبش المساء قبل الاوان . وسألت سائق التاكسى ان يقودنى الى فندق متوسط فقادنى الى فندق اسمه سانت جورج فى جلوستر بليس بالقرب من بيكر ستريت القيت فيه حقائبى ، ولم أجد فى هذا الفندق حجرة ايجارها اقل من خمسة جنيهات استرلينية ، رغم انه فندق متوسط فعلا ولكنى وجدت حجرتى واسعة بمساحة حجرتين كبيرتين ووجدت بها ثلاثة أو أربعة سرر ! واكتشفت ان صاحب الفندق قبرصى أو مالطى ممن كانوا يعيشون فى الاسكندرية ثم هاجروا بعد الثورة وطفق يحدثنى عن ذكرياته وكان ودودا . وأدركت من الحالة العامة انه يؤجر كثيرا من هذه الحجرات للعائلات العربية والسعودية والكويتية .

ولما كان من المستحيل على ان ادفع نصف ميزانيتى اليومية فى السكن أو ان اقيم مع ثلاثة سرر شاغرة ،

فقد اتصلت بصديق ليبحث لى عن مقام مناسب . وقد كان . وفى اليوم التالى وجدت نفسى فى ٤٢ لكسهام جاردنز- فى الحى الغربى ٨ - وكانت مفاجأة . قيل لى ان مصريا اسمه قدرى راغب يدير فنـــدقا فى لندن ، وانه قد حجز لى غرفة فى فندقه . وكانت المفاجأة انى حين حملت حقائبى الى الفندق وجدت نفسى وجها لوجه امام صديق من أصدقاء الطفولة والصبا لم أكن أتصور مطلقا انه هو نفس الشخص الذى يدير فندقا فى لندن كنا هو وأخوه المرحوم الضابط جمال راغب وأنا تلامذة معا فى الابتدائى والثانوى فى المنيا ، وكنا جيرانا فى حى أرض السراى . وكانا من أبنـــاء الذوات المنعمين من اصحاب الـكاريتات والسيارات نحو عام ١٩٢٥ . وكان الاب محمد بك راغب - بك رسمى - من اغنياء المنيـا يملك ميدان بالاس ويتاجر مثل شيكوريل فى المانيفاتورة ، ولا تزال تطن فى أذنى الى الان مظاهرات الصبية الحفاة بالجلاليب ، نحو عشرين أو ثلاثين صبيا فى سن العاشرة أو نحوها من فقراء المدينة ، كانوا يستأجرونهم ليسيروا فى شوارع المنيا وحواريها من أم درمان الى جنينة سلطان باشا وهم يرددون وراء رجل يقودهم : « فرصة عظيمة ف محلات راغب بيه». وكان الهتاف ذا رنة موسيقية. طريقة اوريجينال فى الاعلان قبل انتشـــار الملصقات - فالمنيا لم تعرف الملصقات يومئذ الا بمجىء الفرق المسرحية من القاهرة - أو على الاصح تجديد طريف فى وظيفـــة المنادى الذى عرفته العصور الوسطى بتحويله الى كوراس وقائد كوراس . بل ومن الغرائب ان المعلم الذى يقود الصبيان اهتدى بالفطرة الى توزيع الـكوراس على طريقة الدراما اليونانية ، فكان يهتف : « فرصـــة عظيمة » ،

فيردد نصف الـكوراس الاول ــ نصف الصبيـــة ــ : « ف محلات » ويردد نصف الكورس الثانى : « راغب بيه » . كل هذه الاصوات التى لا زالت تتردد فى أذنى عبر أربعين أو خمس واربعين سنة عادت الى ذاكرتى فجأة بعد أن التقيت بقـدرى راغب ، وكذلك تجددت فى خيالى صورة قصرهم الاخضر المنيف ذى الحديقـــة الشاسعة الخطيرة وكأنها غابة من المـــانجو والليـــمون والـكمثرى بجوار بيتنا المتواضع وتجددت ذكرى الكاريتة والسيارة وذكريات الصبا الجميلة فى المدرسة والشارع.

وعرفنى وعرفته للوهلة الاولى كأنما اربعين عاما لم تمر ، وذكرنا اننا التقينا لآخر مرة منذ نحو ٣٠ سنة . وكان فندقه صغيرا ــ ١٧ غرفة فقط ــ ونظيفا ومرتبا ومريحا وجميلا فى بساطة أهل الذوق ، وفوق هذا وذاك كان هادئا . وكان واضحا انه كان ناجحا فى عمله . كان اثاثه انجليزيا ولـكن فى كل غرفة وعلى كل جدار علق طبقا محفورا لنفرتيتى ــ فيما بعـــد اكتشفت انه رغم مرحه الدائم الظاهر يحمل مصر فى قلبـــه وكأنه يحمل صليبا ــ وكدت أصرخ عند لقائه : « يخرب عقلك ! ماذا تفعل هنا ؟ » وفهم من نظرة خاطفة ما يجول فى عينى فأوجز حياته فى كلمتين : « انت تذكر انى كنت تلميذا « شقيا » وقد تركتكم فى المنيا لأن أبى أدخلنى المدارس الفرنسية الداخلية ثم المدارس الانجليزية . وقد مررت بها جميعا فى القاهرة والاسكندرية لانى كنت افصـــل بمعدل مرتين فى السنة بسبب شقاوتى . احرق العنبر. اثير الشغب . اعاكس المدرسين .. الخ .. فى كل سنة حادث أو حادثين . وبعد الشـــانوى جئت الى انجلترا ودخلت الاكاديمية البحرية وتخرجت منها ضابطا بحريا ،

وتطوعت اثناء الحرب فى البحرية البريطانية وحاربت فى اليابان . وبعد الحرب عدت الى مصر ولكن امورها لم تعجبنى فقررت أن أستوطن نهائيا فى انجلترا فى عام ١٩٤٦ أو عام ١٩٤٧ . وقد كان . وحصلت هنا على الجنسية برجوع البريد بسبب خدمتي المتازة في البحرية البريطانية أثناء الحرب. وقد تزوجت من المانية. وأنا هنا سعيد. أزور مصر فى فترات متباعدة ، ولكنى لا أزال محافظا على صداقاتي الاولى . كلهم يجيئون . كلهم يسلمون . وبعضهم يتراسلون » . كان صديقى قدرى راغب ، رغم انه قارب الخمسين يتفجر بالحيوية ويتدفق بالحماس فى كل شيء يتحدث عنه وكأنه شاب فى العشرين وكان يتهكم من كل شيء . ولكن يبدو ان الايام والليالى او الانجليز فى بلادهم علمته أشياء كثيرة لان صخبه كان هادئا ، وتكاد تلمح وراء صخبه الهادىء الولد الشقى الذى كان يحرق عنابر كلية سان مارك والخرنفش . كان مصريا قوطيا ـ هذا النوع مألوف بين أبناء المنيا ـ كأنه شخصية خارجة بكاملها من روايات جوزيف كونراد ، أو كأنه طلل من اطلال الارستقراطية الفرنسية فى روايات هنرى جيمس أو كأنه فارس قديم من فيلق دون كيشوت . ولاءات مصرية مائة فى المائة وأفكار وسلوك من غير ما يصنع من تربة مصر. فجوة دائمة بين الرغبة والقدرة ، ومع ذلك فلا مصالحة أبدا مع الحياة.

هذا نمط من المصريين المغتربين أو المنفيين باختيارهم، وقد عرفت منهم عشرات فى لندن وباريس ، ومنهم من تربطنى بهم صداقات حميمة . منهم العالم ومنهم الاديب ومنهم الفنان ومنهم الصحفي ومنهم المترجم ومنهم التاجر ومنهم رجل الاعلام المثقف أو غير المثقف . منهم طالب

الهدوء ومنهم طالب الاضواء ومنهم طالب المـال ومنهم طالب العلم أو الفكر ومنهم طالب الحياة اليسيرة . ورغم تعدد ما يطلبون يجمعهم شيئان : انهم جميعـا يحملون مصر على ظهورهم أينما هربوا ، بل يحملونها فى مخادعهم وينامون بها تحت أجفانهم ويأرقون بها ولها فى صحوهم والمنام ، لانهم لا يستطيعون أن يهربوا من أنفسهم . كل منهم يحمل ندبا عميقـا كندب الحب الاول اليائس العظيم ، وكلما عمق الجرح عرفت ان الحب كان عظيما ، وكلما اشتد الرفض وعلا الاحتجاج عرفت ان الامل كان قويا . ألبوم كامل من الشـخصيات الكافكاوية بحاجة الى فنان قدير يرصدها ويصورها لنعرف منها قسمات مصر الاخرى فيما وراء البحار .

وكان اول عمل قمت به فى لندن هو زيارة السفارة المصرية لتحية السفير والسلام على اصدقائى فى السفارة. وكان ثانى عمل هو البحث عما يجرى فى مسارح لندن ، فخرجت مع صديقى تحسين بشـير الى أقرب مكتب لحجز تذاكر المسرح ، وفى دليـل المسارح وجدنا نحو اربعين مسرحا تعرض أربعين مسرحيـة . ووجـدنا « المصيدة » لاجاثا كريستى فى عامها السابع عشر فى مسرح الامباسادور ووجدنا عددا عظيما من الفودفيل والمسليات الجديدة التى لا نفع فيها وبعض الكوميديات الموسيقية كان انجحها فى لندن « عازف على السطوح » ــ وهى أمريكية ــ فى مسرح هارماجستيز و « اقفل على بناتك » فى مسرح الميرميد و « حكايات كانتربيرى » فى مسرح « الفينيكس » ولكن اختياراتى فى النهـاية تحددت بسبع مسرحيات رأيتهـا تمثل الوجوه المختلفة للحركة الفنية « الجادة » فى لندن ، والغريب ان اربعا

من السبع التى رايتها تمثل كانت مسرحيات امريكية ، وهــذه هى « الثمن » لارثر ميلر ــ فرقة برودواى ــ وكانت تمثل فى مسرح الديوك اوف يورك ، و « اغنية عفريت لوزيتانيا » لبيتر فايس على مسرح الاولدويتش وكانت تمثلها فرقة من زنوج امريكا اســمها النيجرو انسامبل ، و «هير» (الشعر) على مسرح شافتسورى و « عيال الزفة » على مسرح ويندهام . فاذا عرفت ان « عازف على السطوح » امريكية ، وان جنجر روجرز كانت تشغل مسرحا ــ درورى لين ــ وان بيتى جريبل كانت تشغل مسرحا ــ بالاس ــ أدركت أن هناك غزوا أمريكيا حقيقيا للمسرح الانجليزى ، وبدأت تتساءل : « ماذا يفعل الانجليز ؟ » وقد سألت نفسى هذا السؤال فعلا ، فوجدت ان الانجليز الآن يحافظون على «التراث» فمسرح الاولدفيك يقدم «خاب سعى العشاق» لشكسبير و « طريق العالم » لــكونجريف ــ ق ١٧ ــ ومسرح جاريك يقدم « تمسكنت حتى تمكنت » لجولد سميث ــ ق١٨ــ واشهد ان مارايته فى الجاريك من تجسيد لعمل جولد سميث كان روعة رائعة ، وان ما ســمعته عن تجسيد كونجريف فى الاولدفيك جعلنى أحزن لتخلفى عن مشــاهدته . ولــكن حين لا تجد أمة جــديدا تقوله فتشتغل بالمحافظة على التراث ، ولا تجــد الا التراث تتشبث به فان هذه علامة سيئة ونذير شــؤم ، لان التشبث بالتراث كالتشبث بالحياة ، يوحى بأن السفينة تشرف على الغرق .

وربما كنت مبالغا فى تفكيرى ، ولــكنى حين جلست اتغدى مع صديقى الــكاتب الــكبير هوارد نيوبى ، وهو مدير البرنامج الثالث فى الاذاعة البريطانية ، واخــذنا

نستعرض أهم ما صدر من روايات قصصية فى الاعوام القليلة الماضية لم يجد ما يذكره غير رواية لروث اسمها « شكوى بورتنوى » صـــدرت فى ابريل عام ١٩٦٩ ، ورواية للكاتب الامريكى جون ابدايك أسمها «الازواج» صدرت فى نوفمبر عام ١٩٦٨ ، ورواية لبول بيلو اسمها « هيرتزوج » صدرت منـــذ أربع سنوات . كذلك حين جلست اتغدى مع صـــديقى الناشر الـــكبير رينر انوين صاحب « جورج الن اند انوين » قال لى : « كل الناس تحس بأن الغاضبين ــ حركة جون اوزبورن ونظرائه ــ قد فقدوا غضبهم ، وانهم بعد نجاحهم أصبحوا جزءا من المؤسسة الاجتماعية أو فلنقل من التراث . لقد فقدوا حيويتهم والادب الانجليزى الآن بحاجة الى دم جديد ».

نفس الشعور أحسست به حين جلست اتعشى مع صديقى الشاعر تيرينس تيلر ، ولـكن بالنسبة للشعر. فالموجة التى تدفقت منذ عشرين عاما أى بعد الحرب العالميـة الثانية موجة اوزبورن وبينتر وويسكر وبولت وسمسون الخ .. فى المسرح ، وموجة لوردسنو وانحوس ويلسون وايريس ميردوخ ووليم جولدنج وسيليتو وجون وين وجون برين وكنجسلى ايميس الخ .. فى الرواية وموجة توم جن وفيليب لاركن الخ .. فى الشعر ، قد استنفدت قوتها بعد جيـــل كامل . وهو أمر طبيعى والارض فى انجلترا الان ممهدة لظهور جيل جديد . ولعل هذا الذبول العام هو الذى حدا باتحاد الناشرين فى انجلترا أن يقيم لاول مرة فى تاريخ انجلترا جائزة للقصة تشبها بالفرنسيين الذين ابتدعوا الجوائز الادبية والفنية الشهيرة منذ زمن طويل لتكريم الادباء والفنانين . وقـــد فاز بأول جائزة للقصة فى أوائل عام ١٩٦٩ ، وقيمتها خمسة الاف جنيه

استرلينى ، صديقى هوارد نيوبى عن رواية اسمها : « شيء موضع مساءلة » تتناول مأساة حرب السويس فى عام ١٩٥٦ . قلت لصديقى رينر انوين : « الحمد لله ان الانجليز بدأوا يتمدنون ، يكرمون الادباء والفنانين كما يفعل الفرنسيون » . فأجاب صديقى بضحكة طيبة خبيثة معا أضاءت وجهه مع ما كنا نشربه من النبيذ : « لا تتسرع فى الحكم ليس هذا حبا فى الفنون والاداب . الناشرون الانجليز لا يزالون كأجدادهم تجارا مهرة . فهم يعلمون ان ما سيقام من ضجة فى الصحف والنوادى ومختلف وسائل الاعلام والدعاية حول القصة الفائزة يساوى أكثر من خمسة الاف جنيه . وقد اثبتت رواية صديقنا نيوبى الفائزة صدق هذا الحساب » . وبهذه المناسبة ، اذا لم تخنى الذاكرة ، فصديقى رينر انوين انتخب رئيسا لاتحاد الناشرين فى انجلترا فهو يعرف ما يقول .

وقد غمرنى سفيرنا فى لندن ، احمد حسن الفقى ، بعطفه وكرمه ـ العطف لى والتكريم للاهرام ـ فأقام لى فى السفارة حفلة غداء دعا اليها طائفة من الاساتذة الادباء والصحفيين ، لبى الدعوة منهم الاستاذ برنارد لويس بجامعة لندن والروائى الكبير انجوس ويلسون ، وهوارد نيوبى مدير البرنامج الثالث بالاذاعة البريطانية و أ. هـ. ويليامز مدير المجلس البريطانى وكيث كايل من التليفزيون البريطانى وتيرنس كيلمارتن المحرر الادبى لمجلة « الاوبزرفر » وباتريك سيل مراسل « الاوبزرفر » السابق فى الشرق الاوسط . وحين بحثت السفارة عن المحرر الادبى « للتايمز » وعن المحرر الادبى « للصنداى تايمز » والمحرر الادبى « للنيوستيتسمان » وجدتهم فى

الريف وقد التقيت بهم فرادى . أما الناقد كينيث تينان وعدد لابأس به من أعلام الادباء فقـــد كانوا موزعين بين امريكا والقارة الاوربية .

وحين تفضلت السفارة وسألتنى ان كنت أرغب فى رؤية شخص أو أشخاص معينين ذكرت لهم انى أحب ان التقى بأستاذين لى فى كامبريدج لهما مكان خاص فى نفسى هما : جورج رايلاندز و ف.ل. لوكاس ، وقد تعودت ان أزورهما فى كليتى بكامبريدج كلما زرت انجلترا . وقد سببت هذه الدعوة لنا بعض الحرج المضحك المحزن معا ، حرجا من ذلك النوع الذى لا يمكن ان تجده الا فى بلاد الانجليز ، بل وفى الجامعات الارستقراطيــة التقاليــد مثل اكسفورد وكامبريدج بالذات . فقد طلبت احــدى السكرتيرات فى السفارة كلية كنجز فى كامبريدج بالتليفون ترنك فردت عليها البوابة كالعادة ـ بوابة كل كلية هى مكتب استعلاماتها الحقيقى ـ فأجابها أحد البـــوابين .

قالت السكرتيرة : « أود أن أكلم مستر ف.ل. لوكاس » أجاب البواب : «مستر لوكاس ليس فى الكلية ياسيدتى» قالت السكرتيرة : « هل تســـتطيع ان تحولنى لمستر رايلاندز؟» وكان رايلاندز فعلافى جناحه أومايسمى«غرفه» فى كامبريدج . ودعته السكرتيرة فأجاب : « آسف فأنا أسجل تمثيلية للاذاعة فى الوقت المحدد للحفلة . احملى للدكتور عوض تحياتى القلبيـــة » . قالت السكرتيرة : « أتعرف ياسيدى كيف أستطيع الاتصال بمسترلوكاس؟» فأجابها رايلاندز : « يؤسفنى ابلاغك ان مستر لوكاس قد توفى منـــذ شـــهور » . وانتهت المكالمة وعجبت السكرتيرة لبواب الكلية الذى اخفى خبر موت الاستاذ لوكاس وكأنه سر من الاسرار العسكرية ، ففسرت لهـــا

الامر : ان الرجل لم يكذب ولم يتعمد الاخفاء ، فمستر لوكاس طبعا لم يكن فى الـكلية لانه كان فى العالم الآخر. وخدم الارستقراطية هم ارستقراطية الخدم وليسوا من صنف الخدم الذين وصفهم ارسطوفانيس وصور شبقهم لاذاعة اسرار مخدوميهم . وهم مدربون منذ صباهم على الحرص فى الـكلام . السؤال على قدر الجواب ، ولا داعى لاعطاء السائل معلومات لم يطلبها . ثم ان عمله الاساسى هو أن يجيب السائلين ان كان فلان أو علان مؤجودا فى الـكلية أو غير موجود ، وهو قد قام بعمله . شخصيـــة البواب أو الساقى أو كبير الخدم فى القصور ـ البتلر ـ كانت دائما شخصية نمطية فى الافلام الانجليزية ، وقد كنا نحسب انها انقرضت ، ولـكن لا ، فهى لا تزال باقية .

وقد كان الحديث قبل الغداء وأثناء الغداء وبعد الغداء مزيجا غريبا من السياسة والفن . أما السياسة فمفهومة ولـكننا قضينا وقتا طويلا نتأمل سقف الصالون الـكبير فى السفارة ، فقد كانت تغطيـــه لوحة نادرة كبيرة من لوحات الفنان الايطالى الكبير تييبولو (ق ١٨) تحيط بها فى الاركان الاربعة اربع لوحات صغيرة بيضـاوية فى هيئة الـكاميه الجسيم . وكانت اللوحات الخمس صورا زيتية رمزية مرسومة فى تقاليد الفريسك ولـكنها رغم هذا لوحات بالمعنى الـكامل أو على الاصـــح بانوهات للسقف : وكانت الكبرى (٣ أمتار فى ٢ متر و ١٠ سم تمثل فينوس ـ ربة الحب ـ وهى تسلم ولدها المجنح كيوبيد ـ رب الحب ـ للزمن وديعـــة فى يديه ، أما ميداليات أو عوينات الاركان فكانت أحداها تمثل تجسيدا « للسلام والعدل » والثانية تمثل تجسيدا « للاستحقاق

والحرص » والثالثة تمثل تجسيدا «للشجاعة والحكمة» والرابعة تمثل تجسيدا « للتقشف والثراء » ، وواضح ان تييبولو كان يرى جميع النقيضين فى كل لوحة من لوحاته ، وكأنه يجسد باللون والخط أفكار ارسطو فى « علم الاخلاق لنيقوماخوس » . حتى اللوحة الكبرى تريد أن تقول ان الزمن هو عدو الحب ، ولذلك نرى فينوس تستودع ولدها كيوبيد فى يد الزمن لعله يتبناه فتعرف الانسانية حبا لايبليه مرور الايام .

وعرفنا من سفيرنا المتأمل الصموت . ان هذه اللوحات التى تملكها السفارة ، كانت تزين سقفها منذ أن اشترت مصر مبنى السفارة عام ١٩٢٣ دون أن يعلم بقيمتها أحد، وان امرها اكتشف منذ خمس أو ست سنوات لا اكثر فقد كان دافيد كاريت أحد مديرى شركة كريستى ، وهو أكبر تاجر للفن فى انجلترا ، يدرس كاتالوجا حديثا بأعمال تييبولو فلاحظ ان مجموعة لوحات تييبولو التى باعها كريستى بالمزاد عام ١٩٢٦ ورد معها ذكر هذه البانوهات المعلقة الضائعة التى ذكر عنها الكاتالوج انها « فى مكان غير معروف » ولكن آخر مرة شوهدت فيها كان ضمن مجموعة فرديناند بيشوفسهايم . ومن هذا الخيط الضئيل بدأ دافيد كاريت بحثه فاستفسر من السفارة المصرية عما اذا كانت بها بانوهات معلقة ، فلما جاء الرد بالايجاب ، فحصها فاكتشف ان هذه اللوحات النادرة هى لوحات تييبولو الضائعة التى تقدر قيمتها بمئات الالاف من الجنيهات . وكانت مراسلات بين سفارتنا فى لندن والمسئولين فى القاهرة ، استقر فيها الرأى على أن يعرض كريستى لوحات تييبولو للبيع فى المزاد العلنى بقاعته الشهيرة بلندن . وقد تحدد للبيع

تاريخ ٢٧ يونيو عام ١٩٦٩ ، وقد بيعت فعلا الصورة الكبرى وحدها بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠ الف و ٥٠٠ الف جنيه استرليني .

وكنت أسمع هذه القصة وقلبى يفيض بالحزن لضياع هذا الكنز الثمين من يد مصر .

ثلاث ساعات قضيناها فى السفارة مع ضيوفنا الانجليز ، لا حديث لنا الا اسرائيل وتيبولو . غير هذا لم يحدث شيء الا ان وقتى كان مقسما بين اصدقائى من الاساتذة والكتاب الانجليز ظهرا وبين المسرح مساء . ولو انى كنت كذابا أو تاجر أوهام لقلت ان الضمير الانجليزى مؤرق بسببنا ، أما الحقيقة فهى عكس هذا على خط مستقيم . وقد كان أشد ما أفزعنى ان اصدقائى الانجليز أنفسهم ، ومنهم عدد لا بأس به من المحبين لمصر كانوا يتحدثون عما يجرى فى الشرق الاوسط بلا مبالاة تامة ، العداء السافر خير منها ، وكنت كلما عتبت على صديق من اصدقائى هذا الموقف كان يجيب :

« ليس هناك ما يمكن عمله ، فحكايتكم بغير حل » . اما من كان منهم يتفتح لى فكان يجيبنى فى صراحة انه يرى وجهة نظر اسرائيل أكثر مما يرى وجهة نظر مصر . وانا اذكر هذه الحقائق عن الرأى العام الانجليزى ليرى من لا يريد ان يرى ان حل قضيتنا بأيدينا ، بأيدينا وحدنا. ان كنت أفهم شيئا عن العقلية الانجليزية وعن النفسية الانجليزية ، فان ما رأيته بين المثقفين الانجليز ، العشرات والعشرات والعشرات ممن لقيتهم فى لندن واكسفورد وكامبريدج خلال شهر مايو عام ١٩٦٩ ، ليس لا مبالاة بل ادعاء اللامبالاة ، وهو موقف عدائى لا لبس فيه ، أو على الاقل موقف غير صديق فلنكن على بينة من أمرنا.

لقد أوشك الحوار بيننا وبين نصف العالم المتحضر أن ينقطع ولم يعد عندى أدنى شك فى اننا ، الى جانب منطق السلاح ، يجب ان نختار مائة من « عقلائنا » ـ أقصد من « عقلائنا » ـ ونبثهم أعواما فى عواصم العالم المتحضر وفى حواضره الثقافية ، ليجادلوا مثقفيه شفاها وبالقلم ، رجلا برجل ومن خلال اجهزة التعليم والاعلام ، عسى أن نجدد هذا الحوار الذى انقطع بيننا وبين العالم ، أو أوشك أن ينقطع . فاسرائيل لم تهزمنا بالبارود وحده ولكن هزمتنا فى معركة الدعوة والفكر ولقاء العقول .

أما مسارح لندن فهذا ما رأيته فيها : « الثمن » لارثر ميللر فى مسرح الديوك اوف يورك . « الطبقة الحاكمة » لبيتر بارنز فى مسرح بيكاديللى و « هادريان السابع » لبيتر لوك فى مسرح الهايماركيت . «هير» ـ الشعر ـ فى مسرح شافتسبورى ، لمؤلفين هما جيروم راجنى ، وجيمس رادو وللملحنيين هما : جالت ماكديرموت ، وجولى ارينال . « غول لوزيتانيا » لبيتر فايس على مسرح الاولدويتش . « عيال الزفة » لمارت كرولى على مسرح الويندهام . هذا غير « تمسكنت حتى تمكنت » لجولد سميث التى رأيتها على مسرح الجاريك و « الخال فانيا » لتشيكوف التى رأيتها فى اكسفورد على مسرح المدينة ، وقد كانت عملا لا بأس به ملأ رأسى بالمقارنات بين هذا العرض وعرض المخرج الروسى لسلى بلاتون لتشيكوف فى القاهرة منذ سنوات وفى هذه المقارنات تفوقت القاهرة (عبد الله غيث ـ سميحة أيوب ـ سهير البابلى ـ محمد الدفراوى) على اكسفورد من جميع الوجوه . حتى جمهور القاهرة تفوق على جمهور أكسفورد من حيث الاصغاء والخشوع أمام فن تشيكوف العظيم .

ومنذ أن وطئت قدماى أرض لندن وقفت حائرا امام ذلك العالم الغريب حيث كرنفال الشباب الدائم ، عالم الشعر الطويل المسدل على الكتفين للشبان والميكروجيب للفتيات ، آلاف مؤلفة منهم ومنهن تتسكع الليل والنهار ـ بصفة خاصة ـ فى المنطقة الواقعة بين ميدان بيكاديللى وميدان الطرف الاغر . وتنتشر كالجراد فى حى سوهو وما جاوره من الاحياء . وقد كان هذا فى نظرى أهم ما استجد فى لندن منذ سنتين ، وقد عرفت انجلترا الخنافس منذ نحو عشر سنوات ، ولكن حركة البيتلز قد تحولت الى تيار اجتماعى جارف يكاد يتناول جيلا كاملا من الشباب ومن يعيشون على هامش الشباب ، واتخذت هذه الحركة كثيرا من السمات المأثورة عن الهيبز فى أمريكا . حتى الحشيش والماريجوانا بدأت تتفشى بينهم تفشيها بين الرافضة من شباب أمريكا . وكان أكثرهم من انصار الكهف ولكن بعضهم كان من مدرسة الهندام الجديد . وخيل الى انى لو استطعت أن أقيم حوارا مع هؤلاء الشباب لاعرف حقيقة ما يجرى فى أدمغتهم وقلوبهم من أفكار وعواطف لخرجت من رحلتى الانجليزية بما هو أنفع من فنون المسرح . وكنت كلما سألت : « أين أجدهم فى مرابضهم الطبيعية ؟ » يقال لى : « اذهب الى تشلسى ـ قديما حى الفنانين ـ تجدهم متراصين على القهاوى » بمثل ما يقال : « اذهب الى حديقة الحيوان تر الحمار الوحشى والتيتل والزرافة والخرتيت » . ولكن ما الى هذا قصدت فهذه شيمة السياح . انما قصدت أن أجلس اليهم كما يجلس الناس الى الناس وأفتح قلبى وعقلى لهم لأفهم شيئا من التحول الحضارى الكبير الذى يبدو ان بذوره بدأت تنبت منذ الآن فى مجتمع القرن العشرين .

ماذا يريد هؤلاء الشبان ؟ لم يشتكون ؟ ماذا يطلبون من الحياة ؟ ما فكرتهم عن الحب وعن الحرب ؟ كيف يرون تكوين الاسرة وكيف يرون علاقة الفرد بالدولة ؟ ما فكرتهم عن الدين وعن تراث الانســانية من الاداب والفنون وعن غايات الوجود الفردى والاجتماعى ؟ كيف يتصورون مستقبل الانسان ؟ الى غير ذلك من الاسئلة الـكثيرة الخطيرة التى يتوقف عليها الحاضر القريب ، والمستقبل القريب . أترى فى رؤوسهم شىء واضح ام انه مجرد قلق غامض وتلمس فى الضبـــاب لمـــا لا تراه العيون ؟

وحين دخلت مسرحية « هير » ـ الشعر ـ وجــدت الاجابة على كثير من أسئلتى الحائرة ، وأغنتنى مشاهدتها ـ ولو مؤقتا ـ عن البحث عن الهيبز فى حى تشلسى وعن قراءة البحوث المطولة فى هذا الذى يصوره بعض الناس على انه « مرض القرن » .

« هير » الشعر

ظاهرة عامة تستحق التسجيل فى مسارح لندن الانجلو امريكية خلال موسم عام ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ ، وهى الانصراف عن « الدراما » بالمعنى التقليدى ، والاتجاه الى مسرح الانشاد . فالى جانب الكوميديات الموسيقية المألوفة ، وهى غزيرة ومسلية وبغير قيمة فنية تذكر ، ظهر نوع جديد من المسرحيات يمكن أن نسميه « بالتراجيديات الموسيقية » : وهى أعمال جادة ذات طابع ماسوى تقوم على الاغانى الكورالية والاغانى السولو التي ترتبط فيما بينها بتلاوات أشبه بالشعر أو النثر المرتل . ومثل هذه مسرحية « هير » أو «الشعر» ومسرحية « غول لوزيتانيا » التى كتبها بيتر فايس لتمثلها فرقة من زنوج أمريكا .

والحق ان هذه التراجيديات الموسيقية لمن يتأملها ، ليست فنا جديدا من فنون الادب المسرحى ، فهى لا تخرج عن ان تكون احياء لتقليد قديم فى التراجيديا ضاع من الانسانية نحو الفى سنة ، ما بين اليونان والقرن العشرين ، أو فلنقل انها احياء بلغة نهاية القرن العشرين وباهتمامات نهاية القرن العشرين للدراما الكورالية التى عرفها اليونان فى زمن طقوس العبادة الديونيزية ، أى ما قبل اسخيلوس ، حين كانت الدراما لا تزال شيئا

غامضا مشحونا بأناشيد الابتهال لاله الخصب ولغير اله الخصب ، وممزوجا بالرقص الهستيرى الذى كانت تقدمه عذارى باخوس ، اله الخمر ، أو الباكانت كما كن يسمين ، ورقص الميانيد الشرسة الشريرة التى كانت تمزق باخوس أو ديونيزوس . وأهم ما فى هذا الموضوع ان هذا الاحياء لم يقصد به الاحياء عن عمد ودراسة وانما هو بعث عفوى نابع من لا وعى المجموع لذلك الهياج المقدس أو الجنون المقدس الذى كان قوام الفن فى عصور ما قبل الحضارات . وكل هذا الفن قادم من امريكا ، من بلاد الهيبز والآلام والغضب المرور والتياتين والمردة التى تتجول سعيدة لاهية بين الكواكب وتكاد تتقاذف بالشهب كما يتقاذف الاطفال بكرات الثلوج ، باختصار: ان ما نراه الآن على المسرح من فن الهيبى هو اعادة للديثرامب وللدراما الساتيرية ــ دراما التيوس ــ التى كانت قبل ان يولد منهما فن الدراما . فكأنما دورة حضارية قد انتهت لان العقل الارسطاطاليسى الذى حكم الحضارة اكثر من الفى عام قد استنفد قوته واستسلم امام الوحوش الجميلة التى كانت تملأ العالم قبل الطوفان .

ومسرحية « هير » أو « الشعر » ليس فيها قصة تحكي أو حادثة تروى ، وانما مجرد « سبكتاكل » أو عرض يقوم على سلسلة طويلة من الاناشيد الجماعية والاغانى الفردية ، كلها على نغمات البلوز والجيرك والكالبسو والسيكولوجى وغير ذلك من رقصات الزار الامريكى التى ظهرت بعد انقراض التويست والروك اندرول . وكل هذه الاناشيد والاغانى موقعة على كوريوجرافية باليهات مجنونة مصممة لمجموعات من

شباب الهيبى فى أوضاعها المختلفة معبرة عن أحزانهم العجيبة وأشواقهم لاشياء بعيدة مكانها ما تحت التربة وما وراء النجوم ، وصاخبة شكاواهم مما آلت اليه حال الانسان فى القرن العشرين . وهــذه المجموعات من شباب الهيبى تسمى « قبائل » على طريقة الهنود الحمر أو على طريقة زنوج افريقيا ، وهذه القبائل مع رؤسائها ورئيساتها تتبادل الانشــاد وبهـذا يتكون الحدث . فاذا أردت أن تعرف عم يغنى قبائل الهيبى فانظر الى عناوين هــذه الاغانى : « برج الدلو » . « دونا » . « الحشيش » . « اللواط » . « الجاروف الملون » . « مانشستر » . « ليس لدى » . « اومن بالحب » . « الاجتماع » . « اغنية » . « الحروف الاولى » . « املك الحيــاة » . « الشــعر » . « اعتقادى » . « ما أسهل القسوة » . « لا تخفض العلم » . « صاحبى فرانك ميلز » . « ايان أذهب » .

وبهذا ينتهى الفصل الاول . والفصل الثانى الاناشيد والاغانى فيه هى : « البلوز الـكهربائية » . « الفتيان السود » . « الفتيان البيض » . « السير فى الفضاء » . « البنت آبى » . « خطاب جنيسبرج » . « ثلاثة خمسة صفر صفر » . « ما أروع الانسان فى الخليقة » . « صــباح الخير ياضوء النجوم » . « الفراش » . « نظرة أخيرة ياعينى » . « خيبة الجسد » . وعلى هذه يسدل الستار . واكثر موضوعات هــذه الاغانى والاناشيد يمكن استنتاجه من عناوينها . وواضح أيضا ان بعضها معارضات بلغة الهيبى وتعليقات بمنطق الهيبى على بعض الاشعار الشهيرة : كأغنيــة « نظرة اخيرة يا عينى » هى منولوج روميو قبل انتحاره قرب جسد

جولييت النائمة بفعل الشراب السحرى . واغنية : «ما أروع الانسان فى الخليقة» هى مونولوج هاملت وهو يحمل جمجمة المهرج يوريك بين القبور قبل دفن اوفيليا . و « خطبة جتسبرج » هى خطبة ابراهام لنكولن الشهيرة التى عرف فيها الديمقراطية بقوله انها حكومة الشعب بالشعب وللشعب ، واغنية « اومن بالحب » تنويع على شهادة المسيحيين « أومن بالله » الخ . وأخيرا فان من يتأمل أعمار الممثلين يلاحظ ان اكثرهم فى الثالثة والعشرين .

وهذه هى الاغنية التى أعطت اسمها للمسرحية :

اعطينى راسا عليه شعر ،
شعر طويل جميل ،
مضىء ،
يرفرف ،
أشقر ،
غزيرا ،
ناعما .
اعطنى شعرا ينسدل حتى هنا ،
طويلا حتى كتفى .

ههنا حبيبتى
وهناك أمى
وابى ، ابى فى كل مكان .
الشعر الشعر

الشعر الشعر الشعر
الشعر الشعر الشعر
اجعله يرفرف
اظهره للملأ

طويلا بقدر ما يسخو به الله
آه يا شعرى !

فاذا استطعت أن تعرف الام يرمز الشعر فى هـذا الابتهال ـ الابتهال فى الصلاة المسيحية : اعطنا خبزنا اليومى أو اعطنا خبزنا كفافنا ـ عرفت ماذا يطلب هذا الفتى ـ كلود فى المسرحية ـ من الله . وعندى انه يرمز الى رياش الطاووس والى جاذبية الجنس وهما شىء واحد فى نهاية الامر فى لغة الطبيعة البكر قبـل ظهور المدنيات وما ابتكرت من محركات لشهية الجسد ومن زينة للذكور والاناث ، وهو يطلبه « طويلا بقدر مايسخو به الله » . وحين نسمع كلود يغنى « وأبى ، أبى فى كل مكان » نبدأ نحس بأنه لا يتحدث عن أبيه الحقيقى، ولـكن عن أبيه فى الصلاة المسيحية الذى يهب الخبز اليومى . أما أمه فهى الطبيعة . وبهذا يبدو ما لهذه الاغنية الساذجة من معان تتجاوز الحرف .

وفى اغنية « اومن بالحب » نحس بأن المعادلة مكتملة فى اذهان شباب الهيبى لان بقيتها تقول : « أؤمن بالله» وتقول ان الله هو الحب ، وكلاهما من قول الانجيل . فهؤلاء الفتية اذن لا يفكرون فى الحب الجسدى بالمعنى المـألوف ولـكن يفكرون فىذلك المبدأ الـكلى الذى يحكم كل ما فى الوجود والذى به وحـده يتحقق انسجام الوجود والذى بغيره ينفرط عقد الـكون وتتصادم فيه الافلاك . الحب الذى يبحث عنه هؤلاء الفتية هو الحب المتضمن فى هذا النشيد :

عندما يكون القمر فى المنزل السابع
ويتحاذى كوكب المشترى مع كوكب المريخ
عندئذ سوف يقود السلام الافلاك

ويوجه الحب سفينة النجوم :
بهذا يقترب عصر الدلو
عصر الدلو ،
برج الدلو
برج الدلو

سوف يسود الانسجام والتفاهم ،
والتعاطف والثقة ينتشران ،
ولن يكون هناك زيف ولا احتقار .
سوف تنتشر الاحلام الذهبية الدفاقة ،
احلام الرؤى ،
الهام الصوفية البللورى
محررة العقل أصدق تحرير .

برج الدلو
برج الدلو
عندما يكون القمر فى المنزل السابع
ويتحاذى كوكب المشترى مع كوكب المريخ ،
عندئذ سوف يقود السلام الافلاك
ويوجه الحب سفينة النجوم
بهذا يقترب عصر الدلو

عصر الدلو ،
برج الدلو
برج الدلو
برج الدلو
برج الدلو

ولو قرأنا هذا الكلام فى الشاعر شيلى لقلنا ببساطة : هذه رؤيا الجنة ، وفى شيلى فعلا شيء من هذا القبيل فى مشهد عشق الارض للقمر ودخول الانسان فى فردوس

السعادة الدائمة . وبالمثل لو قرأنا مثل هذا الكلام فى سفر الرؤيا أو فى « ثيوجونيا » همسيود أو فى الاكلوج الرابع لفرجيل أو فى وصف هوراس للعصر الذهبى ــ وصف الجنة عند القدماء ، حيث الشباب دائم والربيع دائم والسلام دائم ، حيث لا موت ولا مرض ولا شقاء ، حيث تتآخى الذئاب والحملان ــ لقلنا ان هذه رؤيا صوفية لجنة الميعاد حيث الشر قد اختفى تماما . وانها لكذلك ، بتعبير أهل اليازرجة والطالع والتنجيم ، دون أن تتنازل عن الرموز التى كانت تستخدمها أساطير القدماء .

ومن يتأمل جيدا هذا الكلام يجد انه من أبلغ ما قيل فى التنديد بالحرب وفى الدعوة للسلام . فالمريخ ، وهو الكوكب الاحمر ، هو مسكن مارس رب الحرب ، والمشترى هو مسكن جوبيتر كبير الآلهة . وما فى الدنيا من خلل وشرور ناجم من ان المريخ فى فلك أعلى من فلك المشترى . وحين يرتفع المشترى ، وهو الكوكب الاكبر القهار ، الى سمت المريخ ، سوف يحجب نوره الصافى لهيب المريخ الاحمر القانى ، وينخسف رب الحرب ويسود الكون السلام . « وعندئذ سوف يقود السلام الافلاك ، ويوجه الحب سفينة النجوم » . فالعصر الذهبى الجديد سيكون فى عصر برج الدلو وهو منزل من منازل النجوم .

وهذا معنى قول الاغنية من اغانى الهيبى : « الحب ليس هو الجنس » ، فمن يتصور ان هؤلاء الشباب مجرد جيل منحل يبحث بحثا ساذجا عن المخدرات وعن الجنس لاشباع شهواته الحسية فهو واهم . انما هم اشبه شىء بطريقة من الطرق الصوفية التى تريد

« الوصول » بالانجذاب أو بهذا الذى يسميه نشيد اكواريوس ــ برج الدلو ــ « تحرير العقل أصدق تحرير » بالهام الصوفية البللورى . والشاعر منشىء نشيد « برج الدلو » لا سذاجة فيه ، وانما فيه اطلاع عميق على تراث الانسانية الروحاني ، وفيه تأثرات واضحة بشعر شيلي وبكل من حاولوا بلوغ رؤيا الفردوس الارضى . ونحن مع هؤلاء الشباب قريبون جدا من تلك العبادات الجماعية العجيبة التى عرفتها الانسانية فى المشرق والمغرب وفى عصور مختلفة .

قريبون من رياضة الهنود لبلوغ « النرفانا » أو الصفاء الابدى من خلال الجنس وطقوسه ، أو الغاء الحواس من خلال الحواس ، قريبون من عبادة اليوسيس الشهيرة المليئة بالاسرار فى اليونان القديمة حيث « الميستاى » أو الصوفية كانوا ينتشرون بمناسبك معينة ويحملون المشاعل فى مواكبهم ويدعون بالرقص المحموم والغناء المجنون باكوس الشاب الالهى لكي يقود خطاهم الى الفردوس ، قريبون من فرق الحشاشين فى العصور الوسطى الاسلامية ، قريبون من هذيان المسيحيين الاول فى فاتحة المسيحية .

وقد قال المؤرخ الكبير ارنولد توينبى فى مجلة لايف ــ عدد ٨ ديسمبر عام ١٩٦٨ ــ يصف شباب امريكا :

« (الحب) هو شعارهم ، أليس كذلك ؟ وما المانع ؟ الله محبة . المسيحيون الاوائل . أنظروا الى المسيحيين الاوائل . ارجعوا الى الفصول الاولى من أعمال الرسل . فى عيد العنصرة ، اليوم الخمسين بعد قيامة المسيح حين حل الروح القدس على الرسل ، كانوا يبدون

كالمجاذيب : تبلبلت السنتهم فكانوا يتكلمون بلغات غير مفهومة . وتساءل الناس : أترى هؤلاء الرجال سكارى ؟ فقال بطرس : نحن الآن فى الساعة التاسعة صباحا ومن غير المعقول ان نكون سكارى حتى ولو كنا من السكيرين .

« وتوقف الجميع عن العمل . ومن كان منهم يملك أملاكا باعها ووزع ثمنها على الجماعة . كل هذا شبيه بما فعله الهيبز . ثم قال الرسل : نحن لا يجب أن نزعج أنفسنا بهذه المادة . سوف نعين بعض الحفارين ليحفظوها . وسموهم الشمامسة .

« ثم تغير حال المسيحيين عندما كانوا يستولون على الامبراطورية الرومانية ، نحو القرن الثانى أو الثالث . ظلوا مسيحيين ، ولكن ألسنتهم لم تعد تتبلبل بحلول الروح القدس ولم يعودوا يهذون بلغات لا تفهم ، ولم يعيشوا دون عمل . فقد كانت هذه الحالة بينهم حالة مؤقتة . بدأوا بداية الهيبى ولكنهم تحولوا الى شيء ايجابى ، وبالطبع أصبحوا أكثر اقبالا على الدنيا .

« ولو اننا كنا أحياء يومئذ وتأملنا أولئك المسيحيين الأوائل لقلنا : ان كل هذا هيبى للغاية ، ولن يثمر شيئا . ولكننا مخطئون » .

فهؤلاء الشباب اذن يبحثون عن الاتحاد بالوجود ، ويسألون عن عبادة جديدة اسمها دين الحب ، أو يحاولون احياء وجوه قديمة فى الاديان السائدة انطمست واندثرت ، ولا يجدون سبيلا الى هذا « الوصول » الا بتحرير العقل ، أى باطلاق اللاعقل من عقاله ، عن طريق المخدرات . ومعنى هذا انهم يعلنون افلاس العقل الذى لم تجن منه الانسانية الا الحروب العالمية ومجازر

كوريا وفيتنام ، ويفتشون عن جوهر آخر غير العقل فى فطرة الانسان يتآخى به الابيض والاسود والاصفر والاحمر ، وهذا الجوهر هو « الحب » ، الحب لا بمعنى الجنس ولكن بأشمل معنى ، بمعنى قريب جدا مما كان القدماء يسمونه « انسجام الافلاك » أو تسبيحها حول عرش الله فى الديانة الفيثاغورية وديانة اليوسيس.

ولا شك ان الحب الجنسى عند هؤلاء الفتية قد غدا الرمز المجسد لهذا الحب المجرد الشامل لانه أوضح شيء يعرفونه يتجلى فيه الاندماج والاتحاد والتآخى بين البشر . ولا لوم عليهم فى ذلك . أنظر الى المتصوفة كيف تختلط فى رؤوسهم هذه المعانى حين يتحدثون عن العشق الالهى حديث العاشق المعمود ، ويتحدثون عن الخمر الالهية حديثهم عن المعراج . فحركة الهيبى اذن هى نوع من « الباطنية الجديدة » . والمؤرخ توينبى لا يجد فرقا بينها وبين المسيحية فى نشأتها الاولى ، فقد كانت المسيحية فى أول عهدها اشبه شيء بجمعية سرية انخرط فى سلكها المعذبون فى الارض أيام الامبراطورية الرومانية والمحتجون على حضارة الرومان . ومجمل قول توينبى هو أن شباب الهيبى يجب الا يكون مصدر ارتياع للعقلاء بسبب ما هو فيه الآن من هذيان وصورة محمومة ، فهم الآن مجذوبون ممتلئون بالروح القدس ، وغدا يرتفع عنهم الروح القدس ويتحولون الى كنيسة منظمة يحكمها العقل والقوانين والطقوس والكهنة ويقودها قادة روحانيون مثل البابوات والكهنة وقادة فلاسفة مثل توماس الاكوينى . وانا شخصيا لا أدرى ان كان هذا نذير خير ام نذير شر ، فلست أعتقد ان

الانسانية بحاجة الى دين جديد أو الى عبادة جديدة قبل أن تهضم ما لديها من أديان وتصفى ما لديها من عبادات ، وأيا كان الامر فتشخيص توينبى فى جوهره سليم ، ولكن مهما كنا نقبل حركة الهيبى كحركة احتجاج على افلاس الحضارة الحديثة ، فلست أظن أن لديها من الايجابيات الجديدة ما يزكيها لأن تتحول الى مؤسسة انسانية .

وعندما تسمع أغانى هؤلاء الفتية والفتيات تدرك أن أشد ما يغضبهم فى الحياة هو الحرب ، والسياسات الحمقاء التى تثير شعبا على شعب وتغتال الامم وسعادة البشر . وقد أثر عنهم ذلك القول المأثور الذى يخطونه على لافتاتهم : « اعمل الحب ولا تعمل الحرب » ، فكأنهم وضعوا الحب بديلا للحرب . ورغم ما يوحى به اصطلاح « عمل الحب » فى اللغة الانجليزية وغيرها من اللغات الاوربية بالعلاقة بين الرجل والمرأة فنحن ندرك ان للحب عندهم معنى أشمل من هذا . وهذا تلخيصهم لحرب فيتنام فى مسرحية « هير » . « التجنيد هو ان البيض يرسلون السود ليحاربوا الصفر دفاعا عن بلاد سرقت من الحمر » . وهم يسخرون من الاجتماعات السياسية الزائفة التى تعقد فى انجلترا ، على طريقة الشيوخ ـ برتراند راسل ـ وفى أمريكا دفاعا عن السلام ، ويقدمون لمواطنيهم هذا الاقتراح البديل :

« غدا صباحا سوف تمتص دار البلدية اجتماعا مهولا من أجل السلام . فهاتوا بطاطينكم ومعكم شىء تمصونه» وفى أغنية أخرى تراهم يسخرون من سياسة جونسون صاحب فيتنام ، بلغة المعادلات ، فينشدون فى وصف الحالة فى أمريكا هذه المعادلة السهلة :

« ال بي‌جي ـ اي ليندون بي‌جونسون = يو اس ايه (الولايات المتحدة الامريكية) = ال اس دى (المخدر الـكيميائى الذى يتعاطاه الهيبز) = اف بى اى (مكتب المباحث الفيدرالى) = سى اى ايه (الوكالة المركزية للمخابرات) = ال بي‌جي = يو اس ايه = ال اس‌دى = اف بى اى = سى اى ايه ، الخ .. وهكذا تنتهى الحلقة ونبدأ من جديد ، ومعنى هذا باختصار ان هـذه هي الآلهة الجديدة التى تحكم امريكا : جونسون والمخابرات والمباحث ، وبسببها يتعاطى الشباب المخدرات هربا من كل هذه الاشياء .. وفى غيبوبة اليوفوريا بتأثير مخدر الـ « ال اس دى » أو الحشيش أو الماريجوانا يحلمون ببرج الدلو وبالفردوس الارضى .

وعلى المسرح نراهم ، عشرات من الشبان والفتيات من قبائل الهيبى ، مطروحين أرضـا بين نائم ومغف ومسطول ، بين متكىء ومضطجع ومنحن كالـكومة على أحلامه ، وقد غمرهم ضوء كضوء القمر .

وجماعة الهيبى تحس احساسا ايجابيا بشىء خطير تقذف به فى وجه جونسون وملوك الحرب من ناحية ، وفى وجه البلوتوقراط أو ملوك المال من جهة أخرى ، وهذا هو أن كلا منهم يملك شيئا واحـدا هاما هو الحياة ، وان كلا منهم مجرد من كل ملـكية غير ملـكية الحياة . استمع اليهم ينشدون :

أنا أملك شعرى
وأملك راسى
وأملك أذنى
أنا أملك عينى
وأملك أنفى

وأملك فمى
وانا أملك لسانى
وأملك عنقى

وأملك حلمتى
انا أملك قلبى
وأملك روحى

وأملك ظهرى
وأملك عجزى
انا أملك ذراعى

واملك يدى
واملك دمى
انا أملك أحشائى

انا أملك عضلاتى
انا أملك الحياة ، الحياة ، الحياة ،
انا أملك الحياة

وبمعنى آخر ، ان كلا منهم يقول : صحيح انى لا املك شيئا ، لا أملك آبار بترول فى تكساس ولا ناطحة سحاب فى نيويورك ولا أسهم ولا سندات ولا حسابا فى البنك بل ولا بيتا ولا سيارة ، حتى السرير الذى أنام عليه بالايجار .. ولكنى أملك ما هو أهم من ذلك كله : أملك شعرى ورأسى وقلبى وعجزى وحلمتى وكل عضو من اعضائى وكل قطرة من دم فى عروقى . أملك الحياة ، وأملك الشجاعة ايضا لانى أملك احشائى ـ فالاصطلاح الانجليزى يرادف ملكية الشجاعة بملكية الاحشاء ـ وأملك القدرة أيضا على تنفيذ ما أريد لانى املك عضلاتى . والنقائض مفهومة ضمنا : انتم أعداء الحياة تدخلون فى عداد الموتى رغم كثرة ما تملكون ،

لانكم لا تملكون شيئا من هذه الاشياء ، أو لعلكم تملكون كل شيء ولكنكم لا تملكون الحياة . فاذا تغيرت الاضاءة على المسرح تغير المعنى تغيرا تاما وغدا شيئا كالآتي : وافرحا بالحياة ! انا لازلت أملك شعرى ورأسي ومخي وأذنى وعينى .. الخ .. لان رصاصة من رصاص فيتنام لم تصبنى ولم تسلبنى الشيء الوحيد الذى أملكه حقا ، والذى لا يمكن أن يشك احد فى ملكيتى له ، الا وهو الحياة . الحق ان السعادة بهذا المنطق لا تحتاج الى أشياء كثيرة ، بل لا تحتاج الى شيء البتة الا مجرد الاحساس بأننا أحياء ، وبهذا الاكتفاء الذاتى يمكن لافقر فقير أن يزهو على اغنى الاغنياء .

السترة الجلدية والسلسلة الذهبية التى تعلق على هذه السترة من شارات الهيبى فى امريكا واوربا — وهم يلبسون السلسلة على طريقتين : اما على الصدر مدلاة من حول العنق كالسلسلة على صدر هاملت ، واما حول الخصر ، والسلسلة فى الحالين جسيمة تبدو فى سمك الاصفاد الخفيفة وليس كالسلاسل التى قصد بها التجميل ، وهى ليست عادة من ذهب مهما كانت مطلية . ومن رموزهم أيضا الصليب المعقوف ، اعتقد لمجرد اغاظة الجيل الاب الذى كسب الحرب العالمية الثانية وخسر السلم . ولم أجد شخصيا تفسيرا لانتشار الجاكتات الجلدية فيما بين شباب الهيبى الا انها احياء لتقليد ارتداء جلد الماعز التى كان عبدة ديونيزوس يلبسونها فى طقوس أعياد الاخصاب والانجذاب كأنما المراد أن يقال ان شباب الهيبى هم تيوس سيلينوس .

والمسرحية ملأى بالاغانى فى تمجيد الحب ، والسلام، وحب البيض للسود وحب السود للبيض على المستوى الجنسي ـ يبدو ان حماس الهيبى لامتزاج البيض والسود جنسيا له علاقة رمزية بحل متناقضات الجنس البشرى ـ وفى تمجيد الجنس وفى تمجيد الحرية والانطلاق على كل مستوى . وهى تنتهى بدعوة من يشاء من المشاهدين أن يرقص مع الممثلين على المسرح ، وبهذا يكتمل الزار العام . هذه هى المسرحية التى كتب نصها وأغانيها ممثلان من مسارح الخاصة فى برودواى ، هما : جيروم راجنى وجيمس رادو الامريكيان ، ولحن موسيقاها شاب كندى تعلم فى جنوب افريقيا هو جالت ماكديرموت . ومن رأى رقصاتها الهيستيرية فى تكوينات الباليه الجديد وسمع زحار الشباب فى أغانيها وأناشيدها يفيض بالشكوى من سلبيات الحضارة الحديثة وبالحنين الى فردوس أرضى يسهل تحقيقه من خلال المخدرات يحس بمأساة الحضارة الحديثة التى لم تترك للجيل الجديد الا اليأس من تجديد الحياة على المستوى الاجتماعى فلجأوا الى انقاذ النفس ـ أو ما بقى منها ـ على المستوى الفردى بأحلام اليقظة وبضباب الافكار والحواس . والمسرحية رغم انها كرنفال عظيم ، الا انها ذات طابع مأسوى حزين ، كل من فيها بطل وكل بطل فيها يمزق نفسه بأظافره .

هادريان السابع

فردريك رولف رجل ايرلندى فى الاربعين من عمره من مدينة بلفاست ضئيل الجسم غريب الاطوار حاد الطباع سليط اللسان ، تقى نقى زاهد متقشف ، قضى شبابه فى الرهبانية ودراسة اللاهوت ، واعد نفسه ليكون قسا كاثوليكيا ، ولكن رؤساء الكنيسة الكاثوليكية فى ايرلندا وانجلترا رفضوا عدة مرات ان يرسموه قسا لغرابة اطواره ـ هذا رايهم ، او لخستهم وبعدهم عن روح الدين ـ هذا رايه .

ونحن الآن نراه فى غرفته الحقيرة بلندن ، وقد قبع فى ركن فيها وهو يرتجف من البرد ، فموقد الغاز بجواره ولكنه لا يملك ستة بنسات ليضعها فى العداد للتدفئة ، ومع ذلك فهو يحاول ان يستمر فى كتابة مذكراته . وفجأة تسمع مسز كرو ، صاحبة البنسيون تدق الباب وتنادى مستر فردريك رولف فى اصرار ، فيفتحه لها على مضض ، فتبلغه ان شخصين يطلبان مقابلته فى امر شخصى .

ان مستر رولف ينتظر هذه الزيارة منذ زمن طويل، ينتظرها لانها الزيارة التى ستصلح كل شىء فى حياته. لا شك ان الزائرين هما الكاردينال كورتلى ، كبير اساقفة بمليكو ، والدكتور تالاكرين اسقف كرليون ،

ولا شك انهما جاءا اليه ليعتذرا عن الخطأ الجسيم الذى ارتكبته معه الكنيسة الكاثوليكية برفضه المرة بعد المرة . ويتأهب مستر رولف للقاء هذين الضيفين الخطيرين فيصطنع جلسة الحبر الجليل والكاتب الخطير وحين تدخل عليه مسز كرو بالضيفين ، يصرفها فى أدب السادة المهذبين قائلا : « اشكرك يا مسز كرو .. يمكنك أن تنصرفى » . فتنصرف مسز كرو كارهة لانها كانت تحب ان تتصنت لما يقال .

وحين يسأل فردريك رولف زائريه عن سبب تشريفهما . ينظر أولهما فى أوراقه ثم يسأل : هل انت مستر كورفو ؟ فيجيب رولف : كلا ، اقصد البارون كورفو ؟ كلا هذا ليس اسمى ولامستر ف. هوخهايمر؟ كلا . ولا مستر ف . اوستن ؟.. اذن فلا شك انك مستر فريدريك وليم رولف ؟ نعم هذا اسمى ، ولكن من انتما ؟.. انهما محضران من المحكمة ، وقد جاءا لاجراء الحجز التحفظى على متاعه بناء على طلب عدد من الدائنين . ومطلوب منه أن يقوم بالسداد فى المحكمة على الفور والا بيعت أشياؤه فى المزاد العلنى .

وبعد انصرافهما تدخل مسز كرو فتجد رولف فى حالة من الهياج الشديد . وتستفسر عن زائريه فيجيبها فى خشونة : ان عقد الايجار ليس فيه نص يلزمه بالافضاء لها بأسماء زواره . وتدرك مسز كرو الموقف وتحاول أن تستغل متاعبه المالية ، فتقترب منه فى شبق وتقول : « لماذا لا تدعنى اساعدك ؟ انا أستطيع مساعدتك .. لو اردت منى ذلك . أنت تعلم انى كنت دائما أود أن أكون صديقتك . الا أستطيع أن أكون كذلك الآن ؟.. لقد تركنى مستر كرو فى رخاء تام كما تعلم » . وحين تمتد

يدها الى ذراعه لتلمسه ينفر منها فزعا واشمئزازا . وتغضب الارملة الشبقة غضبا شديدا حين يجرح كبرياؤها ، وتذهب تعير رولف بفقره وتذكره بأنه لم يدفع لها ايجار غرفته ثلاثة شهور ، وتهدده بالطرد اذا لم يدفع الايجار المتأخر عليه قبل نهاية الاسبوع. انها تزمع أن تؤجر الغرفة لصديقه اللدود ، مستر جيرميا سانت ، وهو نقيضه على خط مستقيم ، فهو رجل أعمال بروتستانتي متعصب للبروتستانتية كان جارا لمستر فردريك رولف في جلنجال ستريت بمدينة بلفاست حيث العداء الديني بين البروتستانت والكاثوليك يبلغ مبلغ المذابح بين الحين والحين ، لانه في حقيقته ليس عداء دينيا بل عداء سياسيا : فغلبة البروتستانت في شمال ايرلندا ـ الستر ـ معناها استمرار تبعية الستر لبريطانيا . بينما غلبة الكاثوليك فيها معناها خطر انفصالها من بريطانيا وانضمامها لجمهورية ايرة الكاثوليكية ، أو على الاصح لبقية ايرلندا . ويثور

رولف عندما يسمع بمجيء سانت الذى لا يذكر عنه شيئا بعد كل هذه السنوات الطويلة من الفراق الا انه مشاغب ديني بروتستانتي . ولكن مسز كرو تكرر عليه وعيدها : « الدفع أو الاخلاء » . ثم تخرج فيصيح رولف من ورائها : « أيتها الأنثى الخبيثة اللزجة ! .. انك لن تستطيعي أن تحصلى على سباخ من حصان خشبي ! »



ويجد رولف تحت عقب بابه خطابا من مكتب كبير الأساقفة يحرك مرآه أشجانه القديمة . ويفتحه بيد مرتعشة فيجد انهم رفضوا طلبه أن يرسم قسيسا في

الكنيسة الكاثوليكية للمرة الرابعة . وبعد أن يسب الكرادلة الاغبياء ويلعن الاساقفة المنحلين نراه يتجه الى الصليب المعلق فى غرفته ويضرع الى الله قائلا : « يا الهى ان كنت تحبنى ولو مثقال ذرة فاستمع لى . انهم رفضوا رسامتى مرة اخرى . انك يا الهى لا تعطينى فرصة ابدا .. ابدا .. استمع لى !.. كيف أخدمك وأنت تبقيني فى هذا العزل الابدى ؟.. أنت خالقى يا الهى ، وأنت وهبتنى الذكاء ، ولكن ما قيمة الذكاء اذا لم يكن فعالا وقويا . أما أنا فقد فرض على العجز وقلة الفاعلية . عقيم أنا فى وحدتى . يا الهى !.. لم خلقتنى شاذا غريبا لا يفهمنى الناس كلغز مغلق . أترى أنا وغد عظيم حتى استحق أن ينبذونى نبذا تاما ؟ .. لقد جردتنى من القدرة على الحب ، فلست أحب أحدا ولا أحد يحبنى » .

وفيما هو يلتهم اللبن والخبز والجريدة التى جاءته بها ايجنيس الطيبة يقع بصره على خبر يضطرب له ، هو خبر وفاة البابا ودعوة مجلس الكرادلة لانتخاب البابا الجديد . ويكون تعليق ايجنيس الطيبة : « لقد آن الأوان أن يغيروا ما بهم وينتخبوا بابا انجليزيا » . ثم تنصرف بعد تنظيف الغرفة .

ويبادر رولف الى كتاب تاريخ البابوات ويقرأ فيه بصوت عال : البابا هادريان الاول ٧٧١ ـ ٧٩٥ ، البابا هادريان الرابع ١١٥٤ ـ ١١٥٩ ، انجليزى الأصل ، ابن راهب (!) ، اسمه الاصلى نيكولاس بريكسبير ، أول وآخر بابا انجليزى ، هادريان الخامس من جنوا !.. هادريان السادس من اوتريخت وهكذا يسبح خيال فردريك رولف فى سموات عالية.

ويفاجأ فردريك رولف بزيارة الدكتور كورتلى كاردينال الكاثوليك والدكتور تالاكرين أسقف كرليون

ويجرى بين رولف وبينهما حوار غريب ينتهى برسامته قسيسا فى الكنيسة الكاثوليكية . لقد جاء هذان الحبران ليصححا كل ما أفسده الغير خلال عشرين عاما بعد أن تأكد لهما ان فردريك رولف قد ظلم ظلما مجحفا .

فالكاردينال يقول انه قد نما الى علمه كل ما حاق بمستر رولف ، ولكنه لم يعرف الا مؤخرا بأن مستر رولف كان دائما محتجا على قرار حرمانه من دخول الكهنوت . فيجيب رولف انه سيظل محتجا عليه الى آخر يوم فى حياته ، ولكنه لا يحمل حقدا لرؤسائه او لاحد ، بل ولن يطالب بتحقيق العدالة . انه راض بحياة العزلة التى يحياها وبتجنب اخوته فى الكاثوليكية كلما مروا فى طريقه . انهم صراصير ، وهو لن يقتل الصراصير . ويحس الكاردينال بالحرج حين يسمع هذه النعوت الخارجة ولكنه لا يغضب لانه يدرك ان فردريك رولف قد قاسى كثيرا من ظلم رؤسائه فى الكهنوت ، ويسأله : « وكيف كان أثر كل ذلك على روحك ؟ » فيجيبه رولف : « فظيع ! فظيع ! » لقد فقدت ايمانى بالانسان . لقد فقدت قدرتى على الحب. لقد أصبحت كالهائم بغير دليل . وحين يبدى الكاردينال كورتلى الم لما آلت اليه حال رولف ، يجيبه رولف بقوله انه بوصفه الرئيس الاعلى للطائفة الكاثوليكية هو المسئول الاول عن تدمير روحه ، أما عن بطانته من كبار الاحبار فهو يبصق عليهم ويعده بأن يحاربهم ويكشف فسادهم الى آخر يوم فى حياته ما دام فى يده

قلم يكتب .

ورغم هذه اللغة الجارحة لا يغضب الكاردينال ، بل يستمع اليه فى صبر وهو يقول انه كان دائما يرى فى الكنيسة الكاثوليكية الرسولية شيئا حيا عظيما لانها تتبنى العلم والجمال ، ومن أجل ذلك وهب نفسه لدراسة اللاهوت ليصبح خادما فى هذه الكنيسة الجامعة . فدخل أولا كلية اوسكوت ولكنه تركها حين رأى الصراصير (يقصد زملاءه من الطلاب المجاورين) تملأ عنابرها وتتجمع فيها من أجل الجراية والطعام المجانى ، وعميدها يرى كل ذلك ولا يوقفه . اناس دنيويون لا صلة لهم بالدين ولا بالروحانية . ومنحه كبير أساقفة اجنيدا منحة ليتعلم اللاهوت فى كلية القديس اندراوس بروما فشد رحاله اليها ، ولكن كبير الاساقفة لم يدفع مليما واحدا لتعليمه ، فتجمعت عليه ديون هائلة ، مئات الجنيهات ، ثم لم يلبث أن طرد من الكلية بعد شهور لان زملاءه أشاعوا عنه انه يجهل اللاتينية ، وانه خال من الاستعداد الروحى (غالبا بسبب لسانه الجارح وصراحته التى تشبه صراحة الاطفال) . وتكررت نفس التجربة فى دير القديسة وينفريد فى ويلز سنتين أخريين ، حيث كان رئيس الدير المشقوق الظلف (هذه صورة الشيطان) يدنس محراب القديسة ، وقد أجهز على رولف فى النهاية بحرمانه من تناول القربان المقدس . وهكذا خرج رولف الى لندن سيرا على الأقدام . مشى مائتين واربعة عشر ميلا فى ثمانية عشر يوما .

ولكنه منذ ذلك اليوم وهو ينتظر أن يأذن الله فيتمكن من أداء رسالته .

ويسأله الكاردينال كورنني ان كان لايزال كاثوليكيا فالملاحظ ان كل من رفضت رسامته ارتد عن الكاثوليكية فيجيبه رولف مستنكرا : « يا صاحب النيافة ، ثق انني ثائر على المؤمنين وليس على الايمان » . ويعود الكاردينال يسأل : « ما أريد أن أعرفه هو : هل عدلت كل هذه الالام موقفك من رسالتك أم لا ؟ » . فيكون الجواب : « لا .. ان موقفي من رسالتي كقسيس تكون وانا صبي في الخامسة عشرة . وأنا لم اتخل ابدا عن موهبتي الالهية » . انه الآن يرتزق من قلمه ، ولكنه سيكف عن الكتابة بمجرد أن يتمكن من سداد ديونه . عندئذ سيذهب الى روما ليؤدب الاساقفة والقساوسة الفاسقين الذين حطموا حياته . ولكن الاسقف تالاكرين يؤكد للكاردينال ان فريدريك رولف رجل طيب لايستطيع ان يقتل بعوضة ، وانما هي تهديدات فارغة أملاها عليه الغضب والاثم . ويشخص الكاردينال في الفراغ مبهورا ، فهو ليس بحاجة لمن يؤكد له ذلك ، فقد لمس بنفسه ان مستر رولف رجل في براءة الاطفال ثم يقول :

— فريدريك وليم رولف ، انا اطالبك أن تسلم نفسك لي .

***

ويفترق الكاردينال والاسقف على هذا الموعد . ويقترب فريدريك رولف من المرآة ليتطلع الى وجهه الجديد الذي سيصبح غدا وجه قس كاثوليكي ، واذا به يلمح في المرآة خيال صديقه اللدود جيرميا سانت . ويلاحقه الوجود فيبلغه جيرميا سانت انه جاء ليتفقد مسكنه الجديد . ويكظم رولف غضبه قائلا : انه

سيترك الغرفة على كل حال لانه دعي ليدخل سلك الكهنوت ، فيعلق سانت ساخرا بقوله : « بل قل سلك المشاة كعادتك القديمة » وهو يشير بذلك الى ان مسز كرو ستطرده فيعود الى تجواله الدائم القديم . ويسأله رولف : « أريد أن أعرف . لماذا تطاردني بهذه المثابرة يا سانت ؟ » فيجيبه سانت : « سأروى عليك حدوتة من حواديت الاطفال . عندما كنا صغارا في بلفاست كنا نسكن في شارع بروتستانتي وكنت انت تسكن في الشارع الكاثوليكي المجاور . وفي يوم من الايام خرج أخي الأصغر من شارعنا الى شارعكم ، وكان لا يتجاوز الحادية عشرة . ودخل الغلام في شجار واشترك في المشاجرة بعض الاولاد الكبار وطرحوه أرضا وظلوا يرفسونه حتى فقد الوعي . وظنوا انه مات ، ولكنه لم يمت . كلما زرت بلفاست زرته في المصحة . انه الآن في الثانية والثلاثين . ولكن عقله عقل صبي في الحادية عشرة . وقد كان في الايام الاخيرة يبول في فراشه . هذه فعالكم أيها الكاثوليك » . وحين يسمع رولف هذه القصة يبدى أسفه لهذه المأساة قائلا : « ان أعمال الغوغاء تولد أعمال الغوغاء » ، ولكن سانت يجيبه : « ربما ، ولكن الله يقول : « العين بالعين والسن بالسن » . وأنا انتظر لحظة انتقامي . ثم ينصرف سانت وهو يلعن الكاثوليك والبابا . ومن بعده يخرج رولف حاملا بشكيرا في طريقه الى حمامه التركي استعدادا لحياته الجديدة .

ويرسم رولف قسيسا . ثم نراه بعد ذلك قد انتقل الى روما في صحبة الأسقف تالاكرين . ونراهما في الفاتيكان يتجولان في محراب من محاريب كنيسة

القديس بطرس يتاملان فى انبهــار ما صـــاغته يد الفن فى جنباتها من آثار الجمال والتقوى . وهما فى انتظــار النبــأ العظيم .

فالـــكرادلة التســـعة مجتمعون فى المجمع المقـــدس لانتخاب البابا الجديد . وفجأة يظهر موكب الـــكرادلة فى طيالسهم الارجوانية ومن حولهم الشمامسة يحملون الصلبان ويرتلون باللاتينية ، فيعلم الجميع أن مجلسهم قد انفض ، وانهم جاءوا ليعلنوا اسم البابا الجديد ، ومعهم مشى شماس يحمل وســـادة من مخمل عليهـــا التاج البابوى . وبعد أن ينحنوا أمام الهيكل يســـير الموكب حتى يصل قبـــــالة القسيس رولف والاسقف تالاكرين فيتوقف الموكب فى سيره . ويتوقف الترتيل ، ويركع الجميـــع الا رولف . ويقول الـــكاردينال قائد موكب الـــكرادلة :

ــ يا صاحب النيافة : لقد اختارك المجمع المقدس لتكون خليفة القديس بطرس . أتوافق على الجلوس على الـــكرسى البابوى ؟ ..

ويحسب رولف انهم يوجهون الـــكلام للاســـــــقف تالاكرين ، فلا يجيب ، وينظـــر الى تالاكرين فيجده لا يزال راكعا الى جواره . ويسود الصمت ويعود قائد موكب الـــكرادلة الى سؤاله الرهيب :

ــ يا صاحب النيافة : لقد اختارك المجمع المقـــدس لتكون خليفة القديس بطرس . أتوافق على الجلوس على الـــكرسى البابوى ؟ ..

ويسود الصمت مرة اخرى ، وحين يتلفت فردريك رولف حوله فيرى الـــكل جثاة أمامه ومن حوله يدرك الحقيقة الرهيبة ، ان هذا الخطاب موجه اليه. ويرتبك

قليلا . ويقول له الأسقف تالاكرين فى صوت هامس : « ان الجواب ينبغى أن يكون باللاتينيـــة : (فولو) (أوافق) أو (نولو) (لا أوافق) » . وبعد شهيق عميق يجمع رولف راحتيه فوق صدره ويجيب :

ـ أوافق .

ويرتفع صوت الارغن فيملأ جنبات كنيسة القديس بطرس . وهكذا يصـــبح فردريك وليم رولف البـــابا هادريان السابع .

وبهذا تنتهى متاعبه الصغرى وتبدأ متاعبه الـكبرى بين الـكاثوليك والبروتستانت حتى تنتهى حياته على الارض .

ففى جانب نراه يدخـــل فى صراع رهيب مع الـكاردينالات فى الفاتيكان. فمنهم كالـكاردينال راجنى من كان يعده دخيلا ويغار من بلوغه مرتبة القداسة . ومنهم ، كالـكاردينـال كورتلى من كان يتملمـــل من اسرافه فى الطهارة ومن دعوته لتجريد الـكهنوت من متاع الدنيا . فما أن جلس هادريان السابع علىالكرسى البابوى حتى بدأ رسالته الروحية العظيمة التى سببت له كل هذه المتاعب فى حياته المدنية وجعلته يجفو صحبة الناس وجعلت الناس تنظر اليه نظرها الى مخلوق شاذ من صـنف غير صنف البشر ويكون أول قرار بابوى يصدره هو تنازل البابا والـكنيسة الـكاثوليكية معـه عن كل سلطة زمنية (دنيوية) والاقتصار على السلطة الروحية ، استنادا الى قول المسيح : « مملـكتى ليست من هذا العالم » . ويصاب الـكرادلة بذعر عظيم ولكنه يبشر فيهم قائلا : « ان العالم مريض لان الـكنيسة لا تقوم بواجباتها الروحية وتنصرف الى الدنيويات . ان

الملايين بحاجة الى قيادة روحية واخلاقية جديدة تقودهم الى تحرير الانسان فى كل مكان من طغيان المال والسلطان ، وليست بحاجة الى كهنوت يقتصر على فرض القوانين الكنسية الجامدة . انه يريد العودة الى بساطة الرسل ، والى بساطة بطرس الصياد ويدعو أئمة الكنيسة الى خلع طيالس الارجوان » . ويكون القرار الثانى الذى يتخذه هو انفاق كنوز الفاتيكان فى سبيل البر . ويكون ثالث قرار يتخذه هو تطهير الكنيسة الكاثوليكية فى انجلترا مما داخلها من اقبال على المادة ، فالمؤمنون هناك يستأجرون المقاعد فى الكنيسة لحضور قداس الاعياد ، والصعاليك والبغايا يحال بينهم وبين مجاورة المؤمنين المحترمين ، رغم ان الصعاليك والبغايا أحوج الى كلمة الله من سواهم .

ويذعر الكرادلة أولا لكل هذه القرارات التى يعتقدون انها ستجر الخراب على الكنيسة وتجردها من متاع الدنيا ، ولكنهم لا يلبثون أن يقتنعوا أو يخضعوا دون اقتناع ، حتى يتعرض هادريان السابع لمحنة تفجر الازمة من جديد .



فهناك جيرميا سانت ، ذلك الايرلندى البروتستانتى المتعصب الذى يمقت الكاثوليك والبابوية مقتا أسود كالموت ، وهو يتربص بفردريك وليم رولف وينتظر لحظة انتقامه لما نزل بأخيه المسكين فى شوارع بلفاست منذ عشرين عاما . وجيرميا سانت تاجر المانيفاتورة الثرى يشتغل ايضا بالسياسة ويؤلب البروتستانت على الكاثوليك فى الستر (شمال ايرلندا) وهو خطيب خطير من خطباء الرعاع ، ولهذا انتخبوه رئيسا لجماعة

« اخوان الانفصال الديني » التى تحارب اختلاط الكاثوليك بالبروتستانت فى ايرلندا عامة وفى الستر بصفة خاصة ، لان اندماج الاغلبية البروتستانتية بالاقلية الكاثوليكية فى الستر معناه غلبة الكاثوليك على البروتستانت فى ايرلندا الكاثوليكية عامة باستثناء حركة توحيد ايرلندا وسلخ الستر الانجليزية عن بريطانيا وضمها الى جمهورية اير . وقد تمثل لبروتستانت بلفاست ، عاصمة الستر ، فى اختيار بابا روما من بين كاثوليك ايرلندا نذير الشر الوشيك ، وغدا هادريان السابع فى نظرهم يجسد كل هذه المعانى التى يبغضونها .

وهناك مسز كرو الارملة الشبقة التى كانت تعرض نفسها عرضا على نزيلها فردريك رولف ولكنه كان يصدها بجفاف وهى الآن تحب ان تثأر لكبريائها المجروح وهى تزعم أمام عشيقها سانت الذى أنزلته فى غرفة رولف ان رولف قد أغواها حتى قبل وفاة زوجها المرحوم مستر كرو ، لتلهب الغيرة فى صدر سانت ، ولقد نجحت فى ذلك فأقسم امامها أن يعاقب هذا الكاثوليكى الوغد الذى اجترأ على تدنيس شرف امرأة بروتستانتية .

ويرحل سانت ومسز كرو الى روما للثأر من البابا هادريان السابع . ويرسل سانت الى هادريان السابع خطابا غامض العبارات يطلب فيه تعويضا عما لحق به من أضرار ويطلب مقابلة ليشرح فيها هذه الاضرار . ولما كان هادريان السابع يعلم انه لم يلحق بسانت أو بمسز كرو اية اضرار فهو يهمل الرد على الخطاب الذى يدخل فى باب الابتزاز ، لان سانت يهدد فيه باذاعة

أسرار يعرفها عن حياة فريدريك رولف الخاصة قبلما يجلس على الكرسي البابوى . وحين يطول انتظار سانت دون جدوى ينشر فى صحيفة ايرلندية وفى أخرى ايطالية مقالا مسموما كله تشهير بقداسة البابا قبل أن تحل عليه القداسة ، فيصوره بأنه نصاب فاسق طرد مرتين من كليات اللاهوت لفساد خلقه ، وبأنه كان ينتحل لنفسه فى ايطاليا اسم البارون كورفو أيام أن كان يخالل الدوقة سفورزا ـ تشيزارينى من أجل مالها ، وينتحل لنفسه فى انجلترا وايرلندا أسماء أخرى لينصب بها على خلق الله ، وبأنه كان يعيش حياة داعرة وينفق عن بذخ على حياة الترف ويترك وراءه الديون فى كل مكان يتركه . وحين تنشر الصحف هذه الاتهامات يضطرب كرادلة الفاتيكان ويستيقظ فى فئة منهم سخطهم القديم عليه ، وتبدأ المواجهة . ويأبى هادريان السابع المفترى عليه أن يواجه كرادلته بوصفه قداسة البابا ، لان العصمة مفترضة فى البابوات ؛ فيخلع خاتم البابوية ويضعه على مقعد عرشه وينزل الى رجاله يواجههم مواجهة رجل بسيط لا سلطان له هو فردريك وليم رولف : ان هذه الاتهامات كاذبة لانها انصاف حقائق . ولانها انصاف حقائق فأهون منها الكذب الصريح . نعم ، انه طرد من كلية اللاهوت مرتين لانه يقول « للأعور فى عينه انت أعور » ، ورجال الكنيسة لم يعجبهم ذلك . أما انه استدان بضعة مئات من الجنيهات فهذا صحيح لان كاردينال انجلترا وعده بدفع نفقات تعليمه ثم أخلف وعده وكل ديونه من سذاجته لانه كان يصدق وعود الناس المحترمين ، والكاردينال كورتلى والأسقف تالاكرين أمامكم يعرفان

القصة كلها ويمكنكم أن تسألوهما عن ذلك ، وهو لم يخف عنهما شيئا حين جاءاه يدعوانه لاداء رسالته الدينية . أما انه انتحل أسماء غير اسمه فهذا صحيح ، ولكنه عمد الى ذلك بعد طرده من كلية اللاهوت ليزاول مهنا دنيوية قد تعرضه للزلل أو للصغار ، وهو لم يشأ أن يمسخ صورة القسيس فيه فى أعين الناس ، فقد كان واثقا من ان الله سوف يعينه مهما طال الزمن على ان يدخل سلك الكهنوت لان الله حدد له هذه الرسالة العظيمة وهكذا اصطنع اسم البارون كورفو حين اصطنع الكتابة والرسم والتصوير الفوتوغرافى ، واصطنع اسم ف . اوستن حين اشتغل مصمم ديكور، واصطنع اسم فرانك هوخهايمر حين زاول مهنة الصحافة ، كل ذلك لكى يحافظ على اسم فردريك رولف أبيض ناصعا لا تشوبه شائبة ، وليس للنصب كما يزعم صاحب المقال المسموم . أما عن الافراح والليالى الملاح والمآدب الفاخرة وقوائم الطعام الخاصة التى كان يصر على اعدادها له من كتاب « فن الطهاة فى مآدب السراة » فقد كانت له قوائم طعام خاصة بالفعل لانه نباتى لا يقرب اللحم ، وهو متخصص فى العدس والفول والجزر وكل ما ثقل حمله وخف ثمنه ، والترف الوحيد الذى استمتع به فى حياته ، هو انه كان يشترى الصابون وأدوات النظافة ان حدث ان جريدة سخت معه فى ثمن مقال . انه يذكر كل هذه الحقائق لا ليدافع عن نفسه ولكن لانه يعتقد ان من حق الكرادلة أن يعرفوا الحقائق .

ويصاب الكل بوجوم حين يروى فردريك رولف عليهم قصة حياته ، أو على الاصح قصة عذابه ،

وتتحول قلوبهم اليه ويطلبـون المغفرة عما خامرهم من شكوك فيغفر لهم ، ويعود الى الـكرسى البابوى فيلبس الخاتم المقدس ويجلس على عرش هادريان السابع .

ثم تتجدد العاصفة مرة اخرى حين يقرر هادريان السابع أن يستقبل جيرميا سانت ومسز كرو ليؤنبهما على سلوكهما المشين . ويستقبلهما فى حضور الـكرادلة التسعة والحرس السويسرى حتى يطلع الجميع على كل ما يجرى بينه وبينهما من حوار . ويدخل ســانت وهو يزفر لهبا ومعه مسز كرو التى ترتبك أولا لمشهد هذه المراسم ، ولـكن سانت لا يفتأ يقويها حتى تعود الى قحتها الاولى . ويحتج سانت على هـــذا المحفل المهيب ويصر على مقابلة خاصة فيصرف هادريان السابع كل من فى القاعة ، رغم توسلهم اليه أن يلازموه خوفا على حياته او حماية لشخصــه من المهــانة ، وينفرد بجيرميا سانت وبمسز كرو ، ويسأل بجفاف : « ماذا تريدان منى ؟ » ويجيب سانت : « اربعين الف جنيه والا فضحناك فى الصـــحف وفى كل مكان » . ويسأل هادريان السابع عاجبا : « ولماذا تطلبان هذا المبلغ ؟ » فيجيبه سانت : « عشرين الفا تعويضا لى ، وعشرين الفا تعويضا لها » . « عن ماذا ؟ » . أنا انتظرت هنا ثمانية أشهر فى انتظار مقابلتك وأغلقت محلى خلالها ، وقد تكبدت فيها كذا وكيت . ثلاثة آلاف جنـــيه . والباقى تعويض . « تعويض عن ماذا ؟ » . انت تعرف تعويضا عن ماذا ؟.. (سانت لا يذكر تعويضا عن ماذا ؟ ولـكنه يتكلم بطريقة توحى بأن هناك محلا للتعويض) بمعنى : تعويض عن انك كاثوليكى كنت تعيش وسط البروتستانت . أو ربما بمعنى : تعويض عن عاهـــة

اخى لما نزل به على يد اخوتك الكاثوليك . والسيدة ؟ هى تطلب عشرين ألف جنيه تعويضا . « تعويضا عن ماذا ؟ » انه حقا كان مدينا لها بايجار ثلاثة شهور عندما حجزوا على متاعه فى بيتها ، ولكنه أرسل لها حقوقها بعد ذلك ومعه ايصال بذلك .

ويقول هادريان السابع انه ليس مدينا لأى منهما ببنس واحد ، وانه لن يدفع بنسا واحدا ، فهو لم يطلب الى سانت أن يجىء الى روما أو أن يضيع وقته فيها . انه يسمى هذا ابتزازا وهذه درجة عالية من الانحطاط الروحي. ان سانت عدو نفسه لانه يستمرىء الشر ، وكل ما نزل به من أضرار نتيجة لحماقته ووضاعة تفكيره . انه بحاجة الى أن ينقذ روحه ، وهادريان السابع يعده أن يهديه فى طريق الخير وييسر له حياة الفضيلة أن هو رغب فى ذلك .

ويصاب سانت بهياج شديد . هذا الكاثوليكى الوقح ينقذ روح بروتستانتى يعرف الله ؟ وفى هياجه يخرج سانت مسدسه ويطلق منه الرصاص على البابا فردريك وليم رولف فيرديه قتيلا . لقد انتقم لبروتستانت ايرلندا من كاثوليك ايرلندا . وقبل أن يلفظ البابا هادريان السابع أنفاسه الاخيرة يصلى الى الله أن يغفر لسانت ولكل المذنبين ويتمتم : « يايسوع لا تكن ديانا بل مخلصا » .

***

ثم نجد أنفسنا من جديد فى بيت مسز كرو بلندن ، بل وفى غرفة رولف مرة أخرى . ونرى رولف ممسكا مخطوط كتابه يقترب من المدفاة . وتدخل مسز كرو لابلاغه ان هناك سيدين يسألان عنه فيقول : ادخليهما.

ويستغرق فى أحلامه . انهما لا شك الـكاردينال كورتلى والأسقف تالاكرين . ويدخـل الرجـلان فاذا بهما المحضران ، وقد جاءا لينفـذا أمر الحجز على رولف . وبعد أن ينقلا متاع الغرفة القليل (حتى الصليب المعلق يرسل الى المزاد) يلاحظ أحدهما ما يحمله من أوراق ويسأله : « وماذا يكون هـذا ؟ » فيجيبه رولف : «مسودة كتاب» . « أأنت كاتب ؟ » « نعم » . « وما موضوع الـكتاب ؟» . « سيرة رجل عاش قبل زمانه » . « وماذا يساوى ؟ » . « انه من روائع الادب ، ولذا فالارجح أنه لايساوى شيئا !» . ويبدو على المحضرين عدم الفهم ، فيضيف رولف : « ومع ذلك فربما تجاوزت قيمته كل ما نعرف » . ويزداد الامر غموضـا على المحضرين ، ويخرجان بعد أن أتما كل الاجراءات . ولكن أحدهما لا يلبث أن يعود ، وينزع مسودة الكتاب من يد رولف ، قائلا : « اخذا بالاحوط . اخذا بالاحوط . ربما كنت على صواب» . ويخرج بمسودة « هادريان السابع » ليلقيها فى المزاد مع الكرسى والمائدة والمرآة والصليب ..

العنف والجنس .. على المسرح الإنجليزي

شاهدت فى لندن ثلاث مسرحيات كلها تدور حول العنف والجنس وكانت الاولى على مسرح البيكاديللى شيئا اسمه « الطبقة الحاكمة » لبيتر بارنز ذكرتنى بما الفنا ان نجده على المسرح المصرى : مسرحية بلا جمهور ، كل الناس يتحدثون عنها ولا أحد يشاهدها. وبالفعل رفعت هذه المسرحية بعد شهرين من عرضها لعدم اقبال الجمهور : وقد شاهدتها فى آخر ليلة من ليالى عرضها ، فوجدت المسرح غاصا ، ولكن بالمودعين الفضوليين من امثالى . ولم استطع ان أتم مشاهدتها فانصرفت فى منتصف العرض ، على عادتي ان عجزت عن الاقتناع . ولم تكن المسرحية منفرة ، بل على العكس من ذلك كانت مسلية ، ولا سيما لمن يفهم روح الدعابة الخاصة التى تميز بها الانجليز ، حين يسرون لفكاهات تضحكهم وحدهم ، ولا تشاركهم فيها بقية الشعوب . انصرفت لانى وجدت المسرحية مسطحة بلا أبعاد ، تعتمد على المبالغة الكاريكاتورية ولا تحاول أن تتغلغل فى الاعماق . وانا فى العادة لا أؤم المسرح للتسلية ، وانما أؤمه لاتعلم شيئا أو لاشارك فى تجربة ذات قيمة انسانية أو اجتماعية .

كانت « الطبقة الحاكمة » مسرحية اجتماعية تريد

ان تصور ما آلت اليه الطبقة الحاكمة فى انجلترا من الانحلال والانحراف والاشعبية ، والتمسك ببقايا امتياز طبقى بقى شكله وخلا من المضمون ، وكلنا نذكر ما كانت ترويه الصحف عن زمرة اللورد بروفيومو وكرستين كيلر ونانسى رايس ديفيز وحفلات الانحراف الجنسي حيث يضرب النساء الرجال او يضرب الرجال النساء بالسياط استفزازا للاشتهاء الجنسي مدفوعين بما يسميه علماء النفس « السادية » اى لذة تعذيب الغير ، والماسوكية ، اى لذة تعذيب النفس ، من كل ما نعرفه من سيرة الماركيز دى ساد الشهيرة ومن كتاباته الغريبة. ومن شاهد فيلم « الخادم » الذى وضع السيناريو الخاص به الكاتب الكبير هارولد بنتر يستطيع أن يلج هذا العالم النفسى الغريب الذى يعيش فيه لوردات انجلترا . ولست أقصد بهذا ان مسرحية « الطبقة الحاكمة » تصور حياة اللورد بروفيومو أو أن فيها شيئا من القضايا التى يعالجها فيلم « الخادم » ، فموضوعها مختلف كل الاختلاف . فهى تصور حياة لورد انجليزى شاب هو ايرل جيرنى ، ورث اللقب والجاه العريض حديثا ، ومعهما المقعد التقليدى فى مجلس اللوردات ومن حوله جماعة من ذويه الارستقراطيين الذين يضعون الخطط ليسيطروا عليه وعلى أمواله بالوصاية ومختلف الوان الحجر أو المداهنة . وينجح الايرل أو اللورد الشاب فى ايهامهم بأنه شاب ساذج ، ثم نكتشف انه ثعلب ماكر ومعذب كبير ، وسفاح يقتل النساء ويضع الجثث فى الدواليب . وقد عجزت هذه الميلودراما عن اقناع الانجليز أنفسهم رغم أنهم من اكثر شعوب الارض كلفا بالتندر برذائل سادتهم السرية

والتلصص على شذوذهم الباطني . واعتقادي ان سبب فشل هذه المسرحية رغم كونها مسلية هو انها قد حاولت أن تقول عدة أشياء في وقت واحد ، فلم يكتف مؤلفها بالنقد الاجتماعي للطبقة الحاكمة في انجلترا ، ولكن أقحم نفسه في الاغوار السيكولوجية لانفصام الشخصية ولجرائم الجنس ولعقد السادية والماسوكية، وخلط هذه بذاك فكانت فوضى فنية عظيمة وميلودراما مسطحة بلا أبعاد .



وفي مسرح الاولدويتش شاهدت مسرحية هي : « أنشودة غول لوزيناتيا » (١٩٦٧) للكاتب الالماني الكبير بيتر فايس الذى لمع اسمه في السنوات الاخيرة بسبب رائعته العظيمة « مارا ـ ساد » أو « اضطهاد واغتيال جان بول مارا كما قدمته فرقة مصحة شارنتون تحت اشراف المسيو دي ساد » (١٩٦٤) ، وقد ترجم المسرحيتين الى العربية الاديب الشاب الدكتور يسرى خميس الذى تفضل واعارني النص الالماني « لغول لوزيتانيا » وترجمته العربية وأذن لي في استخدامها .

أما الغرض الذى انشئت الفرقة من أجله فهو ببساطة انشاء فن زنجي لجمهور زنجي ، وقد نجحت الفرقة في تحقيق هذا الهدف لان رواد مسرح «النيجرو السامبل » من الزنوج قد ارتفعت نسبتهم من ١٠ ٪ الى ٦٥ ٪ وفي ظني ـ وأرجو أن أكون مخطئا ـ ان هذا الاتجاه يحقق ولو بطريقة عفوية المخطط الذى يبدو أن مؤسسة فورد قد رسمته ، وهو المزيد من عزل زنوج أمريكا عن بيض أمريكا ، حتى يكون لهم فنهم

الخاص بهم ويصلون فى وقت واحد الى تحقيق الاكتفاء الذاتى فنيا وادبيا فلا يعودون يحسون بالحاجة الى التطفل على عالم البيض أو ازعاج البيض فى مسارحهم. هذا الاتجاه الى تدعيم « النيجرتيود » كما يسمونها ، أى « الزنجية » باسم خلق حضارة زنجية وثقافة زنجية ، قد يكون مفهوما فى افريقيا السوداء ـ وهى بيئته الطبيعية ـ ولكن امتداده الى زنوج امريكا وزنوج جنوب افريقيا وزنوج استراليا . حيث الزنجى نبات مشتول ، خليق بأن يؤكد هذه العزلة فى مجتمعات التمييز السلالى . وهو عندى المقابل الروحى لمنع زواج السود بالبيض وللعزل السلالى الذى تمارسه بعض المجتمعات البيضاء . بينما الطريق الذى ينبغى للعالم سلوكه هو ازالة الحواجز بين السود والبيض بحيث يأتى يوم يرى فيه البيض « هاملت » أسود واوفيليا سوداء دون أن يحسوا بقلق يذكر ، وتتجاوز قدرات الممثل الاسود اطار عطيل وشكسبير والامبراطور جونز لاوجين اونيل . الطريق هو ان يطلع البيض على « مشاكل » السود وان يشاركوا بقلوبهم فى الوجدان الاسود ، فلا يصبح السود مجرد مجتمع صغير مغلق على نفسه ، ان بكى بكى لنفسه وان طرب طرب لافراحه الخاصة وان غضب تردد زئيره فى الاجمة السوداء وكأنه ليث الغاب لا يجسر على الخروج الى السهول المكشوفة .

أما « لوزيتانيا » فهى الاسم الكلاسيكى للبرتغال ، وغول لوزيتانيا هو الاستعمار البرتغالى فى انجولا ، وممثلوه من رجال السلطة والرأسماليين .. الخ .. و « غول لوزيتانيا » تراجيديا موسيقية من الصعب تبويبها بحسب فنون الدراما التى نعرفها فهى عبارة

عن مسلسلة من الاغاني الكورالية والاغاني السولو ، بلهجة الجاز عن الاستغلال الرأسمالي والارهاب الاستعماري والطغيان العنصري . وليس في هذه المسرحية شيء يحدث الا « عرض الحال » ، عرض حال زنوج انجولا الذين يسحقهم البرتغاليون ، على لسان سبعة من هؤلاء السود ، وعرض حال بيض انجولا الذين يسحقون السود ، على لسان سبعة من هؤلاء البيض . والممثلون السبعة ليست لهم اسماء وانما لهم ارقام ، وهم اربعة (١ و ٢ و ٣ و ٤) من النساء وثلاثة (٥ و ٦ و ٧) من الرجال .

ونرى على المسرح منذ البداية حتى النهاية غول لوزيتانيا : انه ليس وحشا حيا ولا رجلا ولكنه وحش معدني صنع من الحديد الخردة والصفيح الصدىء والخرق البالية « ما يملكه الآن كان ملقى في القمامة » .. الصفيح والعاج والخرق والقش لم يعد يمكن اخفاؤها ، كما يقول الممثل رقم ٥ ، وهو مصنوع من « الخزى والعار والخوف والفزع » . وعقله مركب من « الخديعة والخيانة والاكاذيب » وكلماته مركبة من « الكراهية والخيانة والروائح القذرة » هذا هو حاكم انجولا الذى يمثل الاستعمار البرتغالى ؛ وهذا رأى أحد الثوار فيه (الممثل رقم ٥) ، هذا الغول الصفيح يعلق عليه المواطنون كيسبا من الفحم (سترة السهرة) وشريطا من النياشين « وفى النهاية يعلق شارة الصليب التى لا يساوى بدونها شيئا » . ونعرف من نشيد الممثل رقم ٥ ان الغول : « هيكل متداع » وانه « على حافة الهاوية » .

وحين يتكلم الغول نجد أن له رأيا آخر :

الغول : انني أتلقى الاوامر من الرب
ان مهمة لوزيتانيا هي نشر رسالة الرب على الارض.
دائما وأبدا يؤكد التاريخ

ان الانسان غير قادر على قيادة نفسه
وانه يحتاج لان تقوده سلطة ما
لتحميه من السقوط فى الانانية والمادية

ومن اناشيد الغول واناشيد جماعته من البيض نعرف أن جماعة السود (المخادعين والقتلة والمأجورين) متربصون عند كل منعطف بالغول ورجاله البيض وحالة التربص هذه تثير عندهم الرغبة فى ابادة السود بالجملة حتى يستتب النظام ، وتبرر كذلك حرمان السود من التعليم ، لأن التعليم هو رأس الفتنة. الممثلون والممثلات رقم ١ ورقم ٥ ورقم ٦ ، ويردد الكوراس شعارات الغول : « الله والوطن والاسرة » ، « لوزيتانيا تحكم البحار » الخ .. لا فرق بين من يمثلون البيض ومن يمثلون السود ، فمن السود من تربوا فى مدرسة الاستعمار حتى غدوا يرددون شعاراته ، وهؤلاء يسميهم بيتر فايس « المتكيفين » على غرار من كنا نسميهم « المتفرنجين » .

وتبدأ ثورة السود فى انجولا فنسمع الغول البرتغالى يزار :

البربرية تهدد العالم
العدو يقترب من بلدنا

موزعا سم العالمية ، مهددا حق الملكية المقدس ،
محاولا تحطيم اخلاقيات الاسرة
وهدم الدين الموقر !

نفس التهم التقليدية التى يسندها الاستعمار فى كل

مكان للحركات الوطنية ثم اعتقـــالات بالآلاف واعدام بالجملة . ويتشدق البيض بالخـــــدمات التى أداها الاستعمار : مائة الف منهم يمدنون خمسة ملايين من السود ويفتحون كنوز الارض بأيدى السود ويستخرجون منها القمح والذرة والارز والسمسم والســكر والبن والتبغ والماس والبترول والمنجنيز .

والنتيجة ؟ بعد خمســـمائة سنة من الاســـتعمار البرتغالى : من مليون طفل فى سن التعليم ١٠٠،٠٠٠ فقط يذهبون الى المدرسة والباقون يتعلمون فى الحقول، ومن ١٠٠،٠٠٠ يدخلون المدارس الالزاميـــة ١٢،٠٠٠ فقط يدخلون المدارس الابتدائيـــة ومن هؤلاء لا يتم الدراسة الثانوية سنويا الا ١٠٠ انجولى ، ومن هؤلاء المائة لا ينفذ الى الجامعة الا اثنان . وحين يأتى وفد من أهالى احدى المقاطعات ويلتـمس من القول « بكل احترام » أن يأذن لهم فى فتح مدارسهم الخاصة لتعليم أبنائهم على نفقتهم ، ويكون الجواب : اكتبوا عريضـــة وبعد أن ترفع العريضة تمر سيارة لورى ويجمع فيها موقعو العريضة ويعدمون وتحمل الطائرة أشلاءهم فى ركائبهم وتلقى بها فى البحر . ويسجل التاريخ ١٥ مارس عام ١٩٦١ بدء الجهاد الوطنى فى انجولا . قادة السود يسجنون وينـكل بهم فينــــــــــدلع لهيب الثورة . وينسف السود الـكبارى والسكك الحديدية وأنابيب البترول ويهاجمون مراكز البوليس ليحرروا زعماءهم ويعلن الميكروفون ان البيض يتراجعون ، ولم يبق الا تشديد النكير عليهم لطردهم فى البحر . ولـكن نفس الميكروفون لا يلبث أن يعلن أن الثورة قد اخمدت بفضل صلابة الطيران اللوزيتانى ، وبفضـــل مساعدات حلف

الاطلنطي ، ولا سيما المعونة الامريكية الواردة من قاعدة جزر الازور (جزر الخالدات) : أسلحة للبيض واغذية للشعب المقهور . ويعود كل شيء مستتبا كما كان ، ولكن فى الظاهر فقط . ففى الطرف المقابل من افريقيا نسمع همهمات نساء سود يولولن لمغيب ازواجهن وابنائهن . وفى انجولا نفسها يأتى صوت الكوراس كنذير بالغضب المكظوم : الثوار يجتمعون :

سوف يتكاثرون باستمرار
سوف ترونهم
لقد تجمع الكثيرون بالفعل فى المدن
وفى الغابات والجبال
يجهزون اسلحتهم ويخططون بدقة
من اجل التحرير
القريب !

وهكذا تبدأ هذه المأساة الموسيقية وتبلغ ذروتها دون أن يحدث فيها حدث ما الا عن طريق السرد : سرد الاحداث لا تجسيدها على نحو ما ألفناه فى الدراما التقليدية . ومن هنا شك بعض النقاد فى أن انتاج بيتر فايس ومن جرى مجراه يدخل فى باب الدراما أصلا ، ووصفوه بأنه مجرد عرض موسيقى أو ريفيو ذى طابع حزين فلنقل اذن ان هذه التراجيديا الموسيقية القائمة على سرد الاحداث بدلا من تجسيد الاحداث ، والقائمة على الشخصيات النمطية ، التى بلغت من النمطية وتجسيد النماذج المتكررة والافكار المجردة درجة العموم والتجريد التى تسمح بترقيمها ، بدلا من أن تقوم على الشخصيات الحية المنفردة المبنية بلبنات السلوك والافعال شأن الدراما التقليدية ، لا تخرج عن كونها

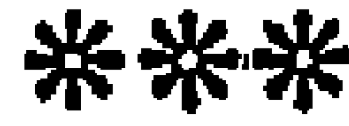
تجربة فى الدراما الملحمية التى اســـتحدثها بريخت فى الادب ومجرد امتداد لمدرسته فى الانشاء .

ومع ذلك فالامر ليس على هذه الدرجة من البساطة. لان فن بريخت يستخدم الاسطورة أو ما يدخل فى حكمها ليبني الدراما الملحمية ويعبر بها فى معتقداته الاساسية فى السياسة والاجتماع والاخلاق ، بينما نجد ان بيتر فايس يعتمد على « الريبورتاج » ليصل الى نتيجة مشابهة ، كما يعتمد على شيء قريب من مونتاج وديكوباج (تقطيع) السينما فى فنية مسرحه . هذا هو « المسرح التسجيلى » الذى يتحدثون عنه الآن فى أوربا وأمريكا وهو ينقل تكنيك الافلام التسجيلية الى الانشاء المسرحى . وليس بيتر فايس وحده فى هذا المجال ، فانما هو أحد أقطاب مدرسة جديدة استحدثت ثورة فى فنية المسرح منذ أوائل الستينات واهمهم الكاتب الالمانى هوخهوت الذى احدث ضجة كبرى فى عام ١٩٦٣ بمسرحيته « النائب » تلك المسرحية التى أبرز فيها دور الكنيسة الكاثوليكية فى خدمة النازية الالمانية . ومن هذا القبيل مسرحية « التحقيق » التى تصور تدبير تشرشل عملية اغتيال الجنرال سيكورسكى (ديجول بولندا فى الحرب العالمية الثانية) باسقاط طائرته المقلعة من جبل طارق فور طيرانها لأن سيكورسكى بدا يناوىء الاتحاد السوفييتى فى مرحلة حرجة من تاريخ الحرب لاقتناعه بأن السوفييت قاموا بابادة مواطنيه بالجملة فى بولندا أثناء العمليات العسكرية . ومع هوخهوت وبيتر فايس هناك الكاتب الالمانى كيبارت صاحب « محاكمة اوبنهايمر » والكاتب الالمانى مارتن فالتزر صاحب « البجعة السوداء » والكاتب الالمانى

جونتر جراس ، وربما كان أسبق هؤلاء جميعا الكاتب الفرنسى ارمان جاتى الذى اصدر مسرحية « تقارير من كوكب سيار» فى عام ١٩٦٢ ثم مسرحية «الحياة الخيالية لأوجيست جى» ، ثم مسرحية «عرض عام أمام كرسيين كهربائيين» ، ثم مسرحية « آلام الجنرال فرانكو» . ويعد البعض ارمان جاتى المؤسس الحقيقى للمسرح التسجيلى .

وأيا كان الامر فهذه الكوكبة من كتاب المسرح التسجيلى تلتقى فى جملة أشياء فهم من ناحية المضمون عمد المسرح السياسى الذى نادى به بريخت العظيم والمخرج الكبير بيسكاتور ، وهم بهذا المعنى الورثه الطبيعيون لبريخت وبيسكاتور وجماعة الادب الهادف بأرقى المعانى . وهم يلتقون فى حمل مضمونهم السياسى بلغة الشعر او فى تجديد تقاليد المسرح الشعرى بحيث تستطيع ان تضطلع بالتعبير عن مشاكل الحاضر السياسى والاجتماعى والاقتصادى وبذلك يحملون لغة الشعارات والاحصاءات على اجنحة الخيال ، وبهذا يكونون قد تجاوزوا بريخت الذى آثر قالب الاسطورة التقليدية والحدوتة التقليدية ، حين عمدوا الى منهج الريبورتاج الشعرى . وبهذا المعنى لا أرى فرقا بين نسيج مسرحية « هير » الامريكية ومسرحيات المسرح التسجيلى . وأخيرا فهم يلتقون فى الاستغناء عن التقليد الارسطاطاليسى الشهير ، تقليد البداية والوسط والنهاية ، بمنهج المونتاج والتقطيع السينمائى ، وبهذا يهدمون البناء الدرامى المعمارى ويجعلون المشهد المسرحي مرادفا للقطة السينمائية وفى ظنى ان ما فعلته مدرسة الرواية الجديدة (روب جرييه ــ ناتالى ــ ساروت ــ مرجريت دورا ــ روبير بانجيه ــ ميشيل

بيتور .. الخ) بفن الرواية كان له أثر مباشر فى ظهور المسرح التسجيلى. وهذه الثورة الادبية نتيجة الميكساج للفنون وهو الذى تقوم عليه تكنية السينما .



وعلى مسرح الويندهام شاهدت مأساة من طراز عجيب جرىء رغم انها فى قالب تقليدى اسمها « عيال الزفة » للكاتب الامريكى مارت كرولى ، وهو من الاسماء الجديدة فى عالم المسرح . وقد احدثت هذه المسرحية ضجة كبرى فى امريكا عندما عرضت لاول مرة فى نيويورك فى ابريل عام ١٩٦٨ ، لانها تعالج مشكلة عويصة هى مشكلة الشذوذ الجنسى فى صراحة تامة تصدمنا لاول وهلة صدمة فظيعة حتى نكاد نصاب بالغثيان ، ولكننا لا نلبث ان نتحملها فى شجاعة اذا كنا ممن ينظرون الى الانحرافات الجنسية فى السيكولوجية الانسانية والسلوك الانسانى على انها أمراض نفسية تستحق الدراسة والتحليل. والانسان المتمدن قد الف أن ينظر هذه النظرة الموضوعية الى بعض الانحرافات الخطيرة الاخرى كالاجرام أو البغاء او تعاطى المخدرات بل وبعض العقد الجنسية كمركب أوديب ومركب اليكترا ويقبل ان يواجهها موضوعا للأدب والفن وموضوعا للتحليل العلمى ولكن هذه أول مرة يواجه فيها موضوع الشذوذ الجنسى هذه المواجهة المباشرة فى مسرحية تدور حول مجتمع صغير ــ نموذج لمجتمع اكبر منه فى كل بلد من بلاد العالم ــ مؤلف من تسعة شبان امريكيين من الشواذ جنسيا تتراوح اعمارهم بين الثامنة والعشرين والثانية والثلاثين وليس معهم امراة واحدة. وهؤلاء هم : مابكل رب الدار التى تدور فيها احداث

المسرحية ، وهارولد الذى اقام له « عيال الزفة » ، أو مجموعة الشواذ هذه ، حفلة عيد ميلاد فى بيت مايكل هذا ، ودونالد وايمورى ولارى وهانك وفتى من رعاة البقر (كاوبوى) وزنجى اســـمه برنارد ، وهؤلاء هم بقية الجماعة ، ويضاف اليهم ضيف اســـمه آلان ، يبدو أول الامر انه رجل سوى محترم كـكل الرجال ثم تكتشف انه على شاكلتهم ولـكن بطريقته الخاصة.

ثم يتوافد المدعوون فرادى وازواجا . ومنذ البداية نعرف من الحوار بين مايكل وصاحبه دونالد ان دونالد يصاب بنوبات من القلق والـكآبة التى تبلغ مبلغ الانهيار العصبى من حين لحين ، وانه لهذا يتردد على الطبيب النفسانى للعلاج . وندرك انه يحمل معه عقدا عميقة ، فهو رغم استسلامه للشـــذوذ الجنسى يقتـــل نفسه بالشراب وكأنه يريد أن يهرب من شىء مخيف ، وهو يحس بأنه شاب فاشل لا يصلح لشىء فى الحياة ، وكلما زاول عملا لم يلبث أن يزهد فيه وهو ما أتم شيئا بدأه قط . ان كارثته جاءته من أمه وابيه . فأمه غمرته منذ يوم أن ولد بنوع من الحب الاقتنائى الاعمى الذى دمر حياته . فهى قد دللته ولم تكف عن تدليله حتى بعد أن كبر وبلغ مبلغ الرجال . كانت تخاف عليه من النسيم ، ولم تكن تفارقه لحظة واحدة . كانت تأخذه معها كلما ذهبت الى الـكوافير وهناك تكوى شعره كما تكوى شعرها ويعملون له المـــانيكير كما يعمـــلون لها المانيكير . كان هزيلا نحيلا شـــاحبا وكانت تحب فيه هزاله ونحوله وشحوبه وتقول له دائما : « كان ينبغى أن تكون بنتا يا دونالد » . كان لا ينام الا بين عرائسه ولعبه ومن حوله زجاجات الماء الساخن. كانت أمه تدلك

صدره بالطيوب وتدهن وجهه بالكريم وتتغزل فى عينيه الجميلتين وفى شفتيه البديعتين . وكان يستحم معها فى بانيو واحد حتى كبر وصار غلاما وجعلته ينام معها فى فراش واحد حتى بلغ سن الرابعة عشرة ، وأخيرا ثار عليها وقرر أن يبتعد عنها برغمها ولكن بعد أن فات الاوان . وكان أبوه يرى كل ما يجرى له ولا يفعل شيئا لانقاذه من حب أمه المجنون ، بل كان يأتيه باللعب والعرائس وكل ما يشيع فيه الطراوة . وأخيرا أدرك ان حب أمه له كان لتملأ فراغ الحرمان الذى كانت تعيش فيه . كانت دائما تقول : « ستظل دائما طفلى ولو بلغت السبعين » انه الآن فى الثلاثين ولكنه مجرد طفل كبير ، لقد كانت حياته كلها تدريبا على الضعف والفشل ، وهو يحس انه كلما ازداد ضعفه وفشله ازداد حب أمه له ، وكأنها تسعد بعجزه حتى لا ينفصل عنها . ان أمه هى أول من قاد خطواته على طريق الانوثة .

وهكذا فى لحظات اكتئابه ـ وهى لحظات يقظته الحقيقية ـ كان دونالد يرثى نفسه ويقترب من الانتحار . ولكنه لم يكن يلبث أن تبتلعه حياة السكر والشذوذ ، فكأنما له روحان فى جسد واحد . ويحاول صاحبه مايكل أن يسرى عنه . ان مايكل نفسه قد غدا مصفحا منذ أن تخرج من الجامعة ، ولم يعد يفكر فى هذه الاشياء . كلهم يلقون اللوم على ماما وبابا ، وهذه عنده ميوعة ، فكل انسان عنده مسئول عن نفسه . لقد كان وهو طالب يخجل من شذوذه وفى كل مواجهة للنفس أو للغير يوهم نفسه بأنه كان سكران الى درجة فقدان الوعى . وكان يسكر حقا ولكنه كان يعلم بينه

وبين نفسه انه غير فاقد لوعيه . لقد خرج من مرحلة النفاق منذ تخرج من الجامعة . انه يعـــرف من هو وماذا يفعل . انه لا يبحث عن شخص او شيء يعلق عليه انحرافه . حتى الشراب والتدخين لقد أقلع عنهما تماما منذ شهر كامل . لقد كان مثله يتعذب حين تدهمه ساعات الاحساس بالذنب وكان يعيش فى جحيم . لقد كان مثله يتردد على المحلل النفسانى . وقد ســاعده المحلل النفسانى فعلا على الخروج من ازمته ، لا بالكف عن الشذوذ ولكن بالتخلص من الاحســـاس بالـذنب والاعتراف بالامر الواقع .

وتتوافد الشلة كل يحمل هديته : ايموری الرقيـع والرفيقان لارى وهانك ثم برنارد الزنجى ثم الـكابوى الذى جاء به ايمورى الرقيع ليكون هديتــه لهارولد المحتفى به فى عيد ميلاده. ويكون هارولد آخر القادمين . جماعة غريبة حديثها غريب : كل منهم يســمى الآخر « الملـكة » أو « الحورية » أو « الملـكة الحورية » ، وكل منهم حين يتحدث عن الآخر يقول : « هى » بدلا من أن يقول : « هو » ويسمون بعضهم البعض بأسماء البنات « مارى . لورا . هارييت .. الخ » .

وفيما هم يرقصون معا على انغــام جرس التليفون اذا بالمتحدث الآن وهو صديق حميم لمـايكل صــاحب البيت منذ أيام الدراسة ، ولـكنه ليس من الشـلة ولا من الفصيلة . ويقول آلان فى التليفون لمايكل بصوت متهدج انه يريد مقابلته على وجـــه السرعة لامر هام جدا . ويرتبك مايكل فهو يعلم ان صــديقه آلان من النوع المستقيم ، وانه رجل محترم لا شأن له بكل هذا الجو المنحرف . ويعتذر مايكل لآلان بأنه لا يستطيع أن

يدعوه الى حفلته لانها حفلة « خاصـــة » ويحدد له موعدا فى اليوم التالى . واذا بآلان يجهش بالبكاء ولا يستطيع أن يكتم أنينه فى التليفون ، فيدرك مايكل أن صديقه يجتاز أزمة نفسية حادة ويلح فى حضوره على الفور ، ولـكن آلان يتمسك بموعد الغد .

غير أن حالة آلان النفسية فيما يبدو تجعله يغيـــر رأيه ويهبط على الجماعة دون انذار فيجدهم فى مرحهم وتبذلهم يتراقصون ويهرجون فى غير حياء . ويسقط فى يد مايكل ويحاول أن يعيد جو الاحتشام الى أصحابه . وعندما يسود جو الاحتشام قليلا نرى هـــذا المحامى المحترم ، آلان ، ينجذب بقوة مغناطيسية الى شاب من الجماعة هو هانك ، فيقترب منه ويبدى اهتماما خاصا به ، فيعرف منه أنه مدرس رياضيات وانه كان متزوجا وله ولد فى التاسعة وبنت فى السابعة ، وانه الآن قد انفصل عن زوجته منتظرا اجراءات الطلاق وانه يعيش مؤقتا مع صاحبه لارى وهو فنان اعلانات . ويعرف هانك من آلان انه محـــام فى واشنطن وانه متزوج وله بنتان ويحاول مايكل أن ينفرد بآلان ليعرف منه سر أزمته فينفرد به فى غرفة أخرى . وهنـــاك يحاول أن يعتذر له عما رآه وســـمعه من رفاقه ، فهو فى غاية الحرج وهذا هو السبب فى انه أجل دعوته الى الغد . ولـكن آلان يحاول أن يزيل حرجه بقوله انه لا يعلق شيئا على ما رآه فحياة الانسان الخاصة هى حيـــاته الخاصة . ويدهش مايكل حين يسمع هذا الـكلام ، فهو يعرف ان آلان رجل متزمت وانه لم يكن فى يوم من الايام من الناس المتسامحين مع الغير فى أى شىء يمكن أن يخدش الاخلاق أو الاحترام أو المظاهر . ويحاول

أن يعرف منه سر بكائه فى التليفون ، فاذا بالآن ينسحب داخل نفسه ويرفض الاجابة . انه آسف لأنه أزعجه ، آسف لما بدا عليه من الانهيار ، وهو يكاد يموت خجلا من اظهار ضعفه أمام مايكل . انه يطلب من مايكل أن ينسى مكالمته التليفونية . ويصاب الآن بنوبة من الغثيان فيسرع الى الحمام ويفرغ ما فى جوفه .

ووسط الصخب والمزاح نبدأ نتكشف ان هذه الجماعة من الشواذ لها أعماق سحيقة ، فمنهم من يتعذب فى داخله الى درجة الرغبة فى الموت ولكنه يحاول أن يخفى عذابه الداخلى بمرح مصطنع . ومنهم من كان مثل مايكل يحمل عقدة ذنب لا برء منها وانما يجد فى الدين بلسما يخفف من حدتها : « نعم ، انا أحد أولئك الكاثوليك المتعفنين الذين يسكرون ويذنبون طول الليل ثم يقصدون الى الكنيسة فى الصباح » أو ، اليهودى هارولد الذى يحس بالعمر يدهمه فيتحدث عن جمال الروح أو جمال العقل ورفعته على جمال الجسد ، ولكنه فى حقيقته يعلم انه مشرف على هوة ستبتلعه عاجلا أو آجلا فتراه يجمع الحبوب المنومة والحبوب المهدئة والحبوب المخدرة ويجهز نفسه ليوم يقفز فيه القفزة الكبرى بارادته . وهكذا .

ثم تعود الجماعة من حديث الثقافة والتأمل الى الصخب والمرح فيأكلون التورتة ويطفئون الشموع ويفتح هارولد صندوق هداياه وينهون المساء بلعبة غريبة قاسية وحشية فى قسوتها تفتق عنها خيال مايكل واللعبة هى ان يمسك كل منهم فى دوره بالتليفون ويطلب الشخص الوحيد الذى عرفه فى حياته فعشقه

عشقا حقيقيا ، لا مجرد الرغبة الحسية ، ويعترف له بحبه له : وهنا تنكشف مأساتهم جميعا . ويتردد منهم من يتردد ويحتج من يحتج ولكنهم أخيرا يرضخون ازاء اصرار مايكل . انه يريدهم أن يواجهوا أنفسهم فى شجاعة ويعلنوا ذلتهم على رءوس الاشهاد وهكذا تخرج من أعماق الماضي السحيق أشباح كانت تنام فى سكون وما كان ينبغى أن توقظ فى قبورها .

ويشاء الحظ أن ينقذ هذه الجماعة من الحرج الاعظم ، فمنهم من لا يجد « معشوقه » فى داره ، ومنهم من ترد عليه زوجة معشوقه عنه ، ومنهم من لم يذكر معشوقه عنه شيئا فقفل التليفون فى وجهه قبل أن يفضى باعترافه العظيم . ومع ذلك فليس بينهم من لا يحس بالانسحاق الكامل أمام هذه التجربة الغريبة .

وأخيرا يأتى الدور على آلان ، ولكنه يرفض رفضا باتا الاشتراك فى هذه اللعبة الخطرة . وحين ييأس مايكل من استدراجه اليها ينتابه غضب شديد ويصارح آلان بأنه يعرف حقيقته التى يخفيها وراء كل هذه المظاهر من الاحترام والاحتشام . انه كان أيام المدرسة يحب زميلهما الفتى جستين ستيوارت وكانت بينهما اشياء حقيقية اعترف بها جستين لمايكل . ان آلان فى حقيقته لا يفضل هؤلاء السفلة الذين يتعالى عليهم بالفضيلة وحسن السلوك . بل ان زوجته فرانسين نفسها كادت أن تشتبه فى أن بينهما شيئا ولا يبعد أن هذا سر أزمته مع زوجته التى جعلته اليوم يهيم على وجهه وينتهى الى زمرتهم . بل ها هو ذا آلان يعجز عن كتمان شذوذه فهو قد لاحظته منذ بدء المساء يتمحك ويتحكك فى هانك ، ولكن هانك بعيد المنال لانه يعشق

صاحبه لارى عشقا حقيقيا حتى لقد هجر زوجته واطفاله من أجله . ويحاول آلان أن ينكر كل شيء ولكن مايكل يحاصره حتى يكاد ينهار . وأخيرا يمسك آلان بالتليفون ويحسبه مايكل انه قد انهار تماما . ولكنه سرعان ما يكتشف ان آلان لم يطلب رقم جستين ستيوارت بل طلب زوجته فى واشنطن واخذ يستعطفها ان تغفر له ما بدر منه ويؤكد لها حبه الذى لا يموت ويعدها بأنه عائد اليها بأول طائرة .

ويصاب الكل بالوجوم وينصرفون مثنى وفرادى ، فلا يبقى الا مايكل وصاحبه دونالد . ويبدأ انهيار مايكل . انه عذب الآخرين بما فيه الكفاية فهلهل كبرياءهم وايقظ فى نفوسهم وحوشا جميلة كانت نائمة . وينخرط مايكل فى البكاء ويصيح : « دونالد! دونالد ! يا الهى ! ماذا فعلت ! » لقد جاءته نوبة الانهيار العصبى ، وهو يسعى كالهائج بحثا عن زجاجة الحبوب المهدئة ليبتلعها دفعة واحدة ، ولكن دونالد يغالبه حتى يغلبه ويحول بينه وبين الانتحار . وحين يهدأ مايكل قليلا يقول لدونالد : « هناك قداس نصف الليل فى كنيسة القديس ملاخيا يحضره كل الارتستات . سأتمشى الى الكنيسة واحاول أن أدرك القداس قبل أن ينتهى » .

الثمن

هذه خاتمة المطاف ، فقد كانت مسرحية « الثمن » آخر ما رأيت على المسرح الانجليزى فى رحلتى الاوربية هذا العام . شاهدتها على مسرح « الديوك اوف يورك » ، وكانت تعرض فى الوقت نفسه على مسارح باريس . وارثر ميللر ليس بحاجة الى بطاقة تقدمه الى الجمهور المصرى . فقد ترجمت أهم أعماله الى العربية وقدم له المسرح القومى « مشهد من الجسر » منذ سنوات ، وشرع فى تقديم « موت قومسيونجى » . هذه التى يسمونها « موت بائع متجول » من أجل سلامة اللغة العربية ، وهو شيء مختلف تماما . ولكن المشروع تعثر لاسباب غير معروفة . أو لعلها كسابقتها قدمت فى الخفاء ورفعت فى الخفاء فلم يحس أحد بظهورها ولا باختفائها . ولكن الجمهور المصرى يعرف آرثر ميللر على نطاق أوسع بسبب زواجه من المرحومة مارلين مونرو ، وقد اعتنقت اليهودية بسببه ثم انتحرت بالاقراص المنومة لا أحد يدرى ان كان بسببه أو بسبب آخر .

ومع ذلك فهذه بطاقته . ولد آرثر ميللر فى نيويورك عام ١٩١٥ وتخرج من جامعة ميتشيجان حيث درس التأليف المسرحى ، وعاد الى نيويورك حيث بدأ تجربته

العملية بكتابة التمثيليات الاذاعية . ثم طاف بمعسكرات الجيش الامريكى أثناء الحرب العالمية الثانيـــة ليجمع المادة اللازمة لفيلم عن حياة الجنود الامريكان ، وكان ذلك بتكليف من أحد أستوديوهات هوليوود . ثم نشر مذكراته عن هذا الموضوع عام ١٩٤٤ بعنوان « الموقف عادى » . ثم نشرت روايتـــه « البؤرة » عام ١٩٤٥ وهى حول موضوع عداء السامية (أى كراهية اليهود). وكانت أول مسرحية عرضت له هى « الرجـل الذى حالفه الحظ » ، وقـــــد عرضت فى برودواى فى عام ١٩٤١ ، وفشلت فى اجتذاب الجمهور ورفعت بعـد اربع ليال . وفى عام ١٩٤٧ نالت مسرحيته «كل أبنائى» جائزة نقاد المسرح وغيرها . وفى عام ١٩٤٩ عرضت فى برودواى مسرحيته « موت قومســـيونجى » ونالت جائزة بوليتزر وغيرها . ثم « البوتقة » فى عام ١٩٥٣ وجائزة أخرى . ثم « ذكرى يومى اثنين » و « مشهد من الجسر » فى عام ١٩٥٥ . ومن بعدها «بعد السقوط» أو « بعد الخريف » ثم « حادث فى فيشى » . ولآرثر ميللر مجموعتان قصصيتان عادتا عليه أيضا بالجوائز. فهو أديب الجوائز ، قـد كانت آخر جائزة نالها هى مارلين مونرو ، ولـكنها ضاعت منه .

ليس فى « الثمن » الا أربعة أشخاص هم : فيكتور فرانز وزوجته استر فرانز وأخوه والتر فرانز وخبير مثمن عجوز جدا جدا جدا هو جريجورى سولومون . فالمسألة اذن مسألة عائلية .

بيت فى مانهاتان بنيويورك عمره ١٥٠ ســـنة تقــرر هدمه لقدمه ولانشـــاء عمارة جديدة مكانه . والبيت المهجـــور يملـكه الاخوان فيكتور ووالتر . وقـــد

انقطعت صلتهما به منذ ستة عشر عاما أو يزيد . أما وقد تقرر هدمه ، فقد كان لابد من العودة الى الماضى وبيع الاثاث لتاجر من تجار الموبيليا ، وهذا دور اليهودى العجوز جريجورى سولومون . وفى قاعة البيت نرى اثاث عشر حجرات قد جمع فى هـــذه القاعة الواسعة وكدس كالتلال . ومع ذلك نستطيع أن نتبين فى وسط القاعة «فوتيلا» وثيرا وعددا مبعثرا من«الفوتيلات»والكتب والشيزلونجات والمكاتب والكراسى الصغيرة والدواليب ودواليب الـكتب والسجاجيد الملفوفة والشـمعدانات الـكريستال ومائدة طعام مهولة بكراسيها وثلاجة .. الخ .. أما محتويات غرفة النوم فبقيت فى الغرفـــة المجاورة على حالها ، وفى الناحية الاخرى باب الشقة . اثاث المانى ثقيل وكانه صنع ليتحدى الزمن . ولـكن افخم ما فى الاثاث كان آلة الهـارب ، الآلة الموسيقية الجسيمة ذات الاوتار ، قائمة على مقربة من الفوتيـل الاوسط ومن الفونوغراف اليدوى الذى يدور بالزنبلك.

وفى وسط هذه الفوضى نرى الجاويش فيكتور فرانز فى بدلة البوليس يتمشى فى انتظارتاجرالاثاث ، ويتفحص الاشياء المعروضة التى جددت فيه ذكريات شبابه فهو الآن فى الخمسين . ويعبث قليلا بأوتار الهـارب التى كانت أمه تعزف عليها فى صالون الاسرة . ثم يختـار اسطوانة ويضعها على الفونوغراف ويبتسـم . انها الاسـطوانة الضاحكة التى كانت فى ملايين البيوت فى اوائل العشرينات ، وليس فيها الا صوت رجلين أصيبا بنوبة من الضحك الهستيرى ويحاولان ان يتما جمـلة واحدة فيعجزان بسبب نوبة الضـحك العصـبى التى تنتابهما . ويبتسم الجاويش فيكتور أولا ، ثم تصيبه

عدوى الضحك فيشارك فيه . وهنا تفاجئه زوجته استر التى تحسب أن هناك حفلة ، ولكن فيكتور يوقف الاسطوانة فى شىء من الارتباك .

ويلاحظ فيكتور أن زوجته منتعشة بالشراب فيؤنبها ، فتؤكد له انها لم تشرب الا كأسا واحدة وهى فى طريق العودة من عند الطبيب الذى يفحصها . ان تاجر الاثاث تأخر ، أما أخوه الدكتور والتر فهو لن يحضر . لقد طلبه فى التليفون أكثر من مرة فكان يجده فى كل مرة مشغولا بالكشف على مرضاه ، أخيرا ترك له خبرا مع ممرضته ببيع المنقولات وبموعد البيع . فهو على علم ، وما دام على علم فالامر لا يهم سواء حضر أم لم يحضر . ان استر تضيق بكل هذا وتحاول أن تنصرف فيستبقيها فيكتور ، فتبقى على شرط ان يخرجا معا الى مطعم فاخر بعد الانتهاء من هذه العملية. انها سئمت رؤيته فى زى رجل البوليس ، وهى تراه وسيما بل وابن ناس فى بدلته المدنية . ان هيئته البوليسية تستفزها وتجعلها دائما عصبية. وهو ينصحها بأن تكف عن الشراب ما دام الشراب يسبب لها كل هذه الكآبة . ان شيئا ما يدور فى حياتهما ، فهما زوجان متحابان ، ولكن شيئا غير السأم يفسد عليهما الحياة. انها تريده أن يطلب معاشه ويترك خدمة البوليس ويبدأ مهنة جديدة . ولكنه يسوف ويسوف وكأنه خائف من شىء .

ومع ذلك فهى تؤمن انه ذكى وقادر أن ينجح لو أراد ، وفى كل يوم يدخل عليها ببدلة الشرطة تحس بالاختناق وتغرق حزنها فى الشراب . لقد ضاعت حياتها فى الآمال الخائبة . انها تأتيه كل يوم بحيوان

جديد ، كلب ، أو قطة وهو يحتمل صابرا . انه يعلم انها بحاجة الى شىء يملأ فراغ حياتها بعد أن تركهما ابنهما ويتشارد ودخل الجامعة ، ولهذا يجب عليها أن تجد لنفسها عمـــلا تتسلى به . ولـكن استـــر تجد راحتها فى الشراب وفى تربية الحيوانات .

وحين يبلغ فيكتور زوجتـــه استر بما كان من أمر أخيه والتر تغضب . انها لا تفهم منطق زوجها أبدا . هذا أخوه الطبيب العظيم الدكتور والتر ، لا يكلف نفسه أن يرد عليه فى التليفون بعد ستة عشر عاما من القطيعة بحجة انه مشغول مع مرضـــاه ومع ذلك فان فيكتور يلتمس له المعاذير ويقول انه سيرســـل له نصيبه فى التركة . ان فيكتور دفع مستقبله ثمنا لنجاح والتر ، فوالتر مدين له بكل ما أصابه من علم ومن مجد فى عالم الطب . لقد قطع فيكتور تعليمه الجامعى لينفق عليه فى الدراسة ولينفق على أبيهما الذى حطمتـــه الازمة العالمية فى عام ١٩٣٠ فأفلس بين يوم وليلة رغم انه كان أذكى وأقدر من فيكتور فى الدراســـة . ووالتر الآن مليونير فهو ليس بحاجة الى حصـــته من حصيلة بيع منقولات الاسرة . ومع ذلك ففيكتـــور يقول انه تدبر الامر ووجد أن والتـــر غير مدين له بشىء ، وهو لن يقبل منه احسانا . ان استر كانت تنتظر من فيكتور أن ينظر الى هذا المال نظره الى حق استرده . انهما يتحدثان كثيرا عن استقالته من خدمة البوليس والبدء بحياة جديدة ، وربما ساعده هذا المـــال على ذلك . انها كانت تنتظر منه أن يكتب الى والتر ويطـــالبه ان يساعده بنفوذه الواسع على أن يجد عملا آخر . أما فيكتور فيرى ان استر تبســـط الامور . كيف يكتب

لاخيه اذا كان اخوه لم يكترث ان يطلبه مرة واحدة فى التليفون منذ ست عشرة سنة ؟.. انه مجروح وجرحه عميق عميق لايراه احد . جرح عميق ولـكنه جرح هادىء . جرح هادىء ولـكن لا برء منه .

وتنصرف استر لتعود بالبدلة المدنية التى سيلبسها فيكتور بعد ان ينتهى من البيع والشراء ويصـل تاجر الاثاث جريجورى سولومون فاذا به رجـل طاعن فى السن قارب التسعين ومع ذلك فهو مسـتقيم القامة حاضر الذهن ثابت الـكلمات . وينـدهش أولا حين يجد نفسه فى بيت من بيوت الاكابر وريثهم جاويش فى البوليس . ويسأل سولومون فيكتور ان كانت هنـاك أوراق تثبت ملـكيته للأثاث ، فيجيب انه ليس لديه أوراق ولـكنه المـالك . يقصـد لا اخوة ولا اخوات يمكن ان ينازعوه الملـكية ؟ نعم ، ان له أخا واحـدا ولكن ، لن تكون هناك مشاكل بشـأن هـذا الاثاث فى أسرتهم ، ومع ذلك فاذا أحب فسيأتيه بورقة من أخيه تسوى كل شيء . ويقول سولومون : هذا شيء لازم . انت لا تتصور المنازعات على المواريث حتى فى الطبقـة الراقية ـ المحامون ، اسـاتذة الجامعـات ، نجوم التليفزيون ـ تراهم يدفعون ٥٠٠ دولار للمحـامى فى نزاعهم حول رف كتب لا يساوى ٥٠ سنتا ، فكل منهم يريد أن يكون رقم ١ .

ويتفقد سولومون الاثاث بعين خبـير ، وهو يفيض بالاطراء لـكل ما يراه . دولاب ملابس مثل هذا لم يكن أحد يشتريه منذ ثلاثين سنة ، والآن كل الناس تريده لانه الموضة . وهذه الشيفونيرة لن تبقى فى محله أكثر من أسبوع . وغرفة النوم من الخشب الفاخر المحفور

الذى صنع فى اوربا والسفرة العظيمة ، طراز أسبانى ، كانت فى عام ١٩٢١ تساوى ١٢٠٠ دولار . الهـــارب وحدها تساوى الآن ٤٠٠ دولار . ويسر فيكتور بما يسمعه . انه دعا تاجر أثاث يفهم قيمة الاثاث ، وهو يظن ان الرجل سيحدد له ثمنا معقولا. ولــكن سولومون العجوز لا يحدد شيئا ، وكلما طلب اليه فيكتور أن يتكلم وينهى الموضوع ، أجاب : فورا فورا ، ولــكنه ينتقل الى موضوع آخر . يرى القناع والفلوريه فيقول: أرى انك كنت تلعب الشـــيش وأنت شـــاب . نعم الاسطوانات القديمة تذكره بالماضى البعيد ، وقــد كان يعرف كل هؤلاء المطربين . لقد اشتغل فى ألف مهنة فى شبابه . كان ممثلا ومغنيـــا وبهلوانا ، وتنقل بين خمس دول . ولد يهوديا روسيا ثم عاش فى بولنـــدا والمانيا وخدم فى البحرية البريطانية .. الخ . كل ذلك وفيكتور فى غاية الضيق . انه رجـــل جاد لا يحسن الـكلام ، فهو يجيب فى اقتضـــاب ويحاول أن يمنع العجوز اليهودى سولومون من الاسترسال فى أسئلته وذكرياته . ويحاول سولومون العجوز اقناع فيكتور ان المسألة ليست مسألة بيع وشراء ولـكن ان يعرف الانسان أخاه الانسان . ولــكن فيكتور لا يريد أن ينشىء معه علاقة انسانية ولايرى مناسبة لذلك. ان سولومون العجوز يتكلم فى كل شىء الا ما جاء من أجله . لقــد جاء ليثمن الاثاث فليؤد مهمته أو فليمض .

وحين لا يجد ســـولومون مناصـــا من الدخول فى الموضوع يعود الى فحص الاثاث وفى يده الورقة والقلم ، ثم تأخذ ملاحظاته الاتجاه المضاد . ان عمارات اليوم حجراتها صغيرة وهذه الدواليب الجسيمة لن تدخـل

من أبوابها الضيقة .. لا .. انه لن يجد مشتريا وقد تظل الاشياء فى مخزنه سنوات قبل ان يتمكن من بيعها ، وهو الآن فى التسعين ، وربما مات قبل ان يتخلص منها . ان كل هذا الاثاث المتين مصنوع ليعيش الى الابد ، والناس الآن لا تشترى الا السلع السريعة الاستهلاك . انظر الى هذه المائدة .. انت لا تستطيع ان تحركها . اذا جلس الرجل اليها فهو يحس ليس فقط بأنه متزوج ، ولكن بأنه يجب ان يبقى متزوجا .

ما مفتاح عقلية الانسان الحديث ؟ شراء ما يمكن الاستغناء عنه . اى شىء كلما سهل التخلص منه ازداد جمالا : السيارة ، الاثاث ، الزوجة ، الاطفال . لماذا ؟ لان أهم شىء اليوم هو التبضيع . فى الماضى اذا كان الانسان تعيسا لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه . كان يذهب الى الكنيسة أو يشعل ثورة أو يبدأ اى شىء . أما اليوم فهو يجد خلاصه فى التبضيع من المحلات .

والحق ان فيكتور حائر من هذا اليهودى العجوز ، فهو ثعلب ماكر وهو فيلسوف طريف . وهو فى نهاية الامر شيخ طاعن فى السن قارب التسعين . واخيرا يفتح سولومون العجوز فمه ويقول : ألف ومائة دولار . لكل شىء ؟ نعم . لكل شىء . ويرضخ فيكتور ويقبل ، على الاقل تجنبا لمزيد من الصداع . ويخرج سولومون العجوز من حافظته رزمة من أوراق البنكنوت من فئة المائة ، ويبدأ فى تسليمه الثمن ، وبعد أن يسلمه فى يده سبعمائة دولار تحدث مفاجأة .

فوالتر يدخل . لقد جاء متأخرا ولكنه جاء . ويدهش فيكتور لمجيئه ولكنه يستقبله بحرارة . ويستفسر والتر عن أحوال الاسرة : استر والابن

زيتشارد . أستر فى خير حال ، وريتشارد يتعلم فى معهد التكنولوجيا بمنحة تفوق . ويستفسر فيكتور عن أحوال الاسرة فيعلم من والتر انه طلق زوجته دوروثى منذ شهور . ثم يعودان الى الموضوع . وحين يعلم والتر من فيكتور انه باع كل الاثاث بألف ومائة دولار لايبدى اكتراثا . انه لم يأت لشىء ، وانما جاء ليسلم . وربما اخذ تذكارا أو تذكارين . ويتجه والتر الى الهارب فيحتج سولومون العجوز قائلا : انه لا يفرط فى الهارب . ويحس فيكتور بالخجل قليلا ، فلعله قبل ثمنا تافها لا يرضى به والتر . انه لا يعرف كيف يساوم. ولكن والتر يؤكد له انه لا يحب أن يتدخل . ما كان كان . وعلى كل حال فهو لم يأت الا ليسلم ، وهو لا يريد مالا . ولكن سولومون العجوز يحس من الجو بأنه متهم بأنه لص كبير وانه استغل بساطة الشرطى فيكتور ، ويدافع سولومون العجوز عن نفسه قائلا : انه اشتغل خبيرا مثمنا خمسين سنة وهو الذى وضع أخلاقيات المهنة بعد أن كانت غابة تؤمها الوحوش الضارية ولهذا انتخبوه نائب رئيس اتحاد المثمنين .

وهنا تصل استر وحين تعلم بما جرى تكاد تصرخ فزعا . ويطلب والتر من سولومون العجوز أن يراجع نفسه ويرفع السعر ، ولكن سولومون يتمسك بالاتفاق وتكاد استر أن تنفجر بالبكاء ، انهم بحاجة الى هذا المال . ويقول والتر ، لو ان المال كان مالى .. فتجيب استر : انه مالك بقدر ما هو مال فيكتور . (تقولها بمعنى : لذلك يجب أن تتدخل) ويعود والتر الى تأكيده الاول : انه لم يأت لشىء ، انما جاء لمجرد السلام . وتفرح استر وتبدأ تشكره ، ولكن فيكتور

يتدخل قائلا : « كلا يا والتر ، ستأخذ النصف » ويصر والتر على تنازله قائلا : « لا . لا ، انه كله لك . انك تستحقه » ويحس فيكتور بأن هذه صفعة لكبريائه ، كأنما والتر يقول : « ٥٥٠ دولارا ، النصف ، هذا ثمن تضحياتك السابقة بما فيها انك حرمت نفسك من التعليم الجامعى لاصبح طبيبا ، بما فيها انك أنفقت على ابينا عشر سنوات بعد أن عصفت الازمة العالمية بكل ما يملك . » ويصر على الاقتسام . ولكن والتر يجيب : سنسوى هذه المسألة فيما بعد . ثم يلتفت الى سولومون العجوز قائلا : فى رأيى ان هذا الاثاث يساوى على الاقل ٣٠٠٠ دولار . ويحتج سولومون العجوز بأن الصفقة تمت ولا رجعة فيها وان القانون يلزم باتمامها لان البائع قبض نصف الثمن فينهره والتر قائلا : انه طرف فى الصفقة ولن يسمح باتمامها على هذا النحو . ويصاب سولومون العجوز بدوار ويترنح فيسنده الطبيب والتر ويأخذه الى غرفة النوم ويمدده ليقيس نبضه وضغطه .

وفى أثناء غيابهما يحتدم الشجار بين فيكتور وزوجته استر . هو يصر على اعطاء والتر نصيبه وهى غاضبة لذلك ، ولا تفهم لماذا هذا الاصرار . انهـا لا تفهم أن زوجها مجروح فى أعمق اعماقه . ان أخاه فيكتور لم يكترث بأن يكلمه فى التليفون مرة واحدة منذ ستة عشر عاما . انه طلبه فى التليفون عدة مرات فى الاسبوع الاخير فلم يكترث حتى بالرد عليه . لقد جاء وعلى وجهه ابتسامة . أهذا يكفى ؟ انه لا يستطيع أن يتصرف وكأن شيئا لم يحدث بينهما . ان والتر جاء منذ عشر دقائق لا أكثر وفيكتور لا يستطيع أن يدير ظهره لثمانية وعشرين عاما .

ويعود اليهما والتر وهو عاجب من قوة هذا الثعلب العجوز سولومون . ويقدم اقتراحا جديدا اربح كثيرا من كل هذه المساومات . ان سولومون العجوز خبير متمن مسجل رسميا ، ووالتر يستطيع أن يتفق معه على التبرع بهذا الاثاث كهبة من والتر لاية مؤسسة ، مثمنا على أساس سعر التجزئة وهو ٢٥ ألف دولار ، فهذا هو ثمنه الحقيقى . وفى هذه الحالة يوفر والتر نحو ١٢٫٠٠٠ دولار من ضريبة المهن الحرة المستحقة عليه هذا العام ، ويقتسم هو وفيكتور هذا الفرق بالطريقة التي يراها فيكتور . هذه عند والتر الطريقة المعقولة للانتفاع من الاثاث . انه بالفعل فاتح سولومون العجوز فى هذا ، وهو طبعا يفضل شراء الاثاث ، ولكنه غالبا سيقبل مضطرا ويأخذ أجره نحو ستين دولارا عن اتمام الاجراءات ، فاذا رفض فهناك غيره . وهكذا اثبت الدكتور والتر بمظهره الهادىء البشوش المحترم انه ثعلب أمكر من سولومون العجوز ، ولا يقل عنه تساهلا فى الاخلاقيات . وهكذا اتضح كيف أصبح الدكتور والتر الطبيب المليونير والمليونير الطبيب .

ويدعو سولومون العجوز الدكتور والتر مرة أخرى الى غرفة النوم ، فيعود الزوجان الى الشجار . ان فيكتور الذي قضى حياته فى خدمة الشرطة رجل جاد بسيط مستقيم ولا يفهم هذه الالاعيب مهما كانت جائزة من وجهة نظر القانون ، وهو يتردد فى قبول هذا العرض . واستر فى حالة من الانفعال الشديد لا ترى الا شيئا واحدا وهو أن زوجها رجل فاشل عاجز عن فهم الحياة ، وهو دائما يلقى تبعة فشله وعجزه على الآخرين أو على الله أو على الظروف . انه لن يقبل

من فيكتور مليما واحدا الا اذا صـــفى ما بينهما من رواسب الماضى . وفى انفعال بارد تقول له اسـبتر : « اسمع كلامى . خذ هذا المال . فاذا لم تأخذه فاعتبر ان هذه هى النهاية . أتســـمع ما أقول ؟ اذا بقيت مغروسا فى الوحل فليس معنى هذا انى مضطرة لان أبقى . هذا نهائى » باختصار : هى تهدد بالطلاق .

ويعود والتر من غرفة النوم ، فتبدأ المعاتبة الكبرى، ان والتر لا يتكلم الا فى المال ولـكن فيكتور لا يريد أن يتكلم الا فى العلاقة الاخوية .

انه يريد تسوية ما حدث فى الماضى . انه طلبـه فى التليفون عدة مرات فلماذا لم يجب . لقد كان مشغولا مع مرضاه . فليكن . ولـكن الممرضة كانت ترد عليه وكأنه وباء وهى لا يمكن أن تتصرف هكذا الا اذا كانت قد أحست ان هذا رأيه . لا . ان الممرضة كثيرا ما تكلم الناس بجفاف وهو لم يفه أبدا بشىء يوحى اليها بأنه يتأفف منه . ويحاول والتر أن يقفل الموضـوع بابتسامة وربما برشوة ، ان سولومون العجوز مستعد أن يثمن الاثاث بمبلغ ٢٥ الف دولار لتخصم الهبة من دخله الخاضع للضريبة ، واذا أراد فيكتور فانه سيترك له كل المبلغ المتوفر ١٢ الف دولار . لابد ان فيكتور قارب سن المعاش وهو سيجد هذا المبلغ نافعا . وتنظر استر الى زوجها ، ولـكنه بدلا من أن يتكلم يحدج والتر بنظرة . ويجدد والتر عرضه ويضيف انه ليس بحاجة الى هذا المبلغ فهو ثرى . ويعود فيـــكتور الى نبش الماضى . انه حاول أن يتصل به مرارا منذ سنوات ، ولـكن دون جدوى . ويجيب والتر انه كان مريضا ، كان فى المستشفى ، لم يزاول مهنة الطب ثلاث سنوات ،

ولكنه الآن والحمد لله بخير وسعيد ، انه الآن مكتف بالمستشفى والعيادة وقد ترك مصحات الشيخوخة التى كان يملكها ، وترك المضاربات فى الاسهم والسندات ، كل هذا جاءه بمال وفير ولكنه سبب له انهيارا وأوشك أن يصاب بالجنون . مال بلا جدوى . آلاف الابناء لا يعرفون كيف يتخلصون من آبائهم العجائز فيضعونهم بأى ثمن فى مصحات الشيخوخة. ولكنه الآن انسان آخر،

لقد تغير تماما . كان يعيش بلا أصدقاء والآن هو ينعم بصداقة الناس . كان أولا يركز على شىء واحد وهو كيف يصبح فى مقدمة الاطباء فلما أصبح فى مقدمة الاطباء ركز على شىء واحد وهو كيف يستغل تخصصه ليكون من أغنى الاغنياء . وقد أصبح . ولكنه اكتشف فى النهاية انه لم يعد فقط يتخصص فى شىء ، ولكن شيئا غدا يتخصص فيه . غدا اداة لانتزاع المال من جيوب الناس ولانتزاع الشهرة من أفواه العالم .

واصبح واسع السلطان . وأخذ يعتقد ان الناس تحبه لانه كان يخيفهم . وكانت هذه غباوة منه . بل أخذ يعتقد انه يحب الناس لأنه يخيفهم . كل شىء يحكمه الخوف. وذات ليلة وجد نفسه سكران لا يعى شيئا وفى يده مدية يحاول ان يقتل بها زوجته . ولكنه الآن قد تغير . تغير بفضل ما تعلمه من فيكتور .

وفيكتور لا يفهم ولا يعرف انه علمه شيئا . ولكن والتر يفسر له الامر . أنه ظل فترة طويلة لا يفهم لماذا قضى فيكتور على مستقبله بنفسه رغم انه كان اذكى منه فى المدرسة وفى الجامعة ، ولماذا رضى بأن يبقى رجلا بسيطا فقيرا مغمورا ، مجرد شرطى فى البوليس . ولكنه اكتشف السبب وهو راقد فى المستشفى . ان

فيكتور أراد الحياة الحقيقية واختارها بنفسه .. أراد السعادة ... الهدوء .. الخير .. وهـذه كلها أشياء تكلف كثيرا . أشياء لها ثمن باهظ ، وقد دفع ثمنها راضيا . ويشير والتر الى الفوتيل الشاغر وسط القاعة ، الفوتيل الذى كان يجلس عليه أبوهما المحطم .

ان كليهما كان مذعورا. كان يريد أن يهرب من شبح هذا الرجل المحطم . اما فيكتور فقد وجد سلامه النفسى فى البساطة والتواضع ولكن والتر بحث عن سلامه النفسى فى المال والجاه .. كلاهما أراد أن يتجنب مصير هذا الرجل المحطم الذى مسحته الازمة فىأسبوعين، اما فيكتور فقد حل المشكلة بألا يملك شيئا يمكن أن يفقده ولكن والتر حلها بأن يملك كل شىء ، وقد قاده هذا الطريق الى المستشفى . هذا ما اكتشفه أخيرا .

وكان والتر كلما ألقى عبارة من عباراته الجميلة البليغة ينظر الى وجه أخيه فيكتور نظرة فاحصة أو نظرة مسترقة ــ بحسب الحالة ــ ليرى اثر كلامه فى نفسه ، فلا تعرف ان كان ممثلا بارعا أو تائبا صادقا

او مريضا خطرا . بل هو يعرض على فيكتور فرصة جديدة للحياة : أن يأخذ معاشه من البوليس ويشتغل موظفا فنيا فى المستشفى الذى يديره . ولكن فيكتور يقلب الامر على طريقته الخاصة ويتردد طويلا . ان نوايا أخيه والتر غير واضحة لديه . بل انه يحول قصة ما حدث فى الاسرة فى الثلاثينات الى مشكلة فلسفية كونية والمسألة ابسط من هذا بكثير . ان فيكتور لم يهدم مستقبله باختياره ولم يترك الجامعة باختياره ، ولم يدخل البوليس باختياره .كان يجب أن يتم تعليمه ويشتغل بالعلوم الطبيعية والكيميائية . ان والتر

يتخلى عن أبيه المحطم ليواصل دراسته ، ولم يكن معقولا ولا أخلاقيا أن يترك هو أيضا أباه وأمه بلا موارد ولا عائل ومن أجل هذا قطع فيكتور تعليمه ليقيم أود والديه . ان ما كان ليس من اختياره ولكن فرض عليه فرضا . ويجيب والتر أن فيكتور مسئول عن تصرفه فوالدهما لم يكن كسيحا أو قعيدا وقد كان يستطيع أن يخرج للعمل وأن يبدأ الحياة من جديد وهو قد نصحه شخصيا في حضور استر بأن يتشبه به ويتم تعليمه مهما كانت النتائج. ويستنكر فيكتور هذا الكلام، لأن أباهما كان بلا خبرة ولا مال : وفي عام ١٩٢٦ حين كان في الولايات المتحدة ١٢ مليون عامل عاطل . ما هذا الكلام الفارغ ؟ هذا الكلام ليس فارغا وقد كان في امريكا يومئذ ١٥٠ مليون أمريكي يواجهون نفس الازمة وقد تغلبوا عليها .

ثم هناك أمر آخر . بعد أن ماتت الام وخف العبء قليلا وأراد فيكتور ان يواصل دراسته ويحصل على البكالوريوس طلب من أخيه والتر قرضا قيمته خمسمائة دولار ولكنه لم يجبه الى طلبه . ان استر تفتح هذا الموضوع وتعتقد ان هذا هو الحائط الحقيقي الذي يقف بين الاخوين فهل يستطيع والتر ان يبرر سلوكه ؟ ويخجل والتر لنبش الماضي ، ويخجل فيكتور لان زوجته ذكرته بانه طلب مساعدة من أخيه في يوم من الايام ، ويحتج قائلا ان والتر معذور لانه كان يومئذ في بداية السلم . (وهذا طبعا غير صحيح لان والتر كان يومئذ طبيبا مشهورا) .

وتضغط استر على هذا الموضوع فيجيب والتر بأنه بعد أن رفض أحس بخطئه فاتصل تليفونيا بأبيهما ليبلغه

موافقته بعد أيام فعرف من أبيهما ان فيكتور التحق بخدمة الشرطة ، فلما لام والتر أباه على السماح لفيكتور بذلك اجاب الاب : « فيكتور يريد ان يساعدني وانا لا أستطيع أن أمنعه » . ويذهل فيكتور لان أباه لم يشر بكلمة واحدة الى هذا الموضوع . انه غير مقتنع بهذا الكلام ، ووالتر ببساطة لم يعطه المال اللازم لانه لم يكن راغبا فى ذلك ، وهذا من حقه . فلا داعى للف والدوران ، فلو انه كان حقا يريد ان يساعده لفعل . ان فيكتور سئم الكلام فى هذه الموضوعات .

ولكن والتر يصر قائلا : « الا تريد للجروح أن تندمل ؟ » وتتدخل استر قائلة : « اسمع يا فيكتور. واضح ان والتر يريد صداقتك » . فيصدمها فيكتور بقوله : « صداقتى ؟ مقابل ١٢ الف دولار ووظيفة فى المستشفى ؟.. ان والتر ليس بحاجة الى أن يعرض مقابلا لينال صداقتى . من يسمع كلامه يظن انى بحاجة الى يد منقذة » انه لن يقبل الوظيفة لان العرض ملفق، فهو قد نسى كل ما تعلمه فى الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا منذ ثلاثين سنة ، وهو لا يستطيع ان يبدأ من جديد بعد الخمسين . انه لا يفهم اصرار والتر ولا ماذا يريد على وجه التحديد .

واخيرا ييأس والتر ، ولكنه لا يستسلم فى هدوء . انه ما أراد الا أن يكون نافعا لفيكتور بعد أن علمته الحياة أشياء غيرت من تفكيره . واذا كان فيكتور يرفض ما يعرضه عليه فهو الجانى على نفسه . انه يجنى الآن على نفسه وعلى استر كما فعل منذ ثلاثين عاما .

ويغضب فيكتور : ان والتر يحاول افهامه ان كل ما بذله من تضحيات فى الماضى كان وهما أو حلما . انه

يتناسى انهم كانوا يأكلون من قمامة المطاعم فى تلك الايام التعيسة . وهنا يفاجئه والتر بقوله : الا تذكر انى قلت لك يومئذ اطلب المال من أبينا ؟ ألم تسأل نفسك لماذا قلت لك هذا الكلام ؟.. ان ابانا لم يكن مفلسا كما كنت تتصور . لقد كان يخزن اربعة الاف دولار ويدعى الافلاس التام. كان يملك أربعة الاف دولار أيام ان كنتم تأكلون من قمامة المطاعم . كان لديه من الاثاث ما يساوى عشرة أمثال ذلك . وهذه الهارب وحدها كان ثمنها يكفى لتعليمك فى الجامعة . وفيكتور نفسه يعلم ان أباه لم يكن مفلسا تماما فاذا أراد أن يستمر فى هذا الوهم فهذا شأنه .

وحين تسمع استر هذا الكلام تثور : انها مهزلة.. أمن أجل هذا رضيت بحياة الفرف المفروشة ليقتطع زوجها من مرتبه الصغير ما يرسله الى هذا الاب الانانى ؟.. أمن أجل هذا كان فيكتور يؤجل انجاب الاطفال ليطعم هذا الاشعبى المخادع . انها لم تعد تفهم زوجها .

ويعترف فيكتور بأنه كان يعرف ان أباه كان يملك دريهمات قليلة ولكنه لم يكن يتصور مطلقا انه كان يملك اربعة الاف دولار . وعلى كل حال فقد كان يقول دائما انه لا يملك شيئا . وحين سأله فيكتور عما قاله والتر ، ولماذا لا تطلب المال من أبيك ؟ .. كان يجلس على نفس هذا الفوتيل الكبير . وانفجر ضاحكا وكأنه سمع نكتة عظيمة ، وظلت ضحكته تجلجل فى سمع فيكتور أسبوعا كاملا . وحين كان فيكتور يخرج ويرى المئات من أمثال أبيه ممن طحنهم الانهيار الاقتصادى يتسكعون فى الطرقات وينامون على الحشيش فى

المتنزهات صدق انه لا يملك شيئا وفهم معنى ضحكته الفريبة . ثم ماذا يهم ان كان أبوهما يملك شيئا أو لا يملك . المهم انه كان رجلا محطما ، فقـد كل ايمانه بالناس . حتى أقرب الناس اليه ، زوجته ، أمهما ، حين أبلغها ان الازمة مسحته تماما ، بدلا من ان تواسيه وتقف الى جواره ، أصيبت بنوبة من القيء لا تنقطع وظلت تتجشأ على سترته نحو ساعة . لقد كان ابوهما كالـكلب الذليل لا يجرؤ على مواجهة الشارع .

وهـذا بالضبط ما ادركه والتر : أدرك ان اسرتهم اسرة لم تعرف الحب ابدا ، أسرة تقوم على الرمال ، وكل ما فيها ملفق ، الاب كان رأسماليا مخادعا لا يفهم الا لغة المال . وحين أراد ابنه أن يستعين به استغرق فى الضحك ساخرا منه. والأم امراة سطحية حين احتاج اليها زوجها فى محنته تقيأت فى وجهـه . هـذا هو الجحيم الذى كان يعيش فيه وقرر الخروج منه . وقد خرج ليبنى عالمه الخاص ، ويخلق شخصـه بنفسه .

أما عالمه الوهمى الخاص فقد كان عالم المجد والمال . وهذا بالضبط ما فعله أخوه فيكتور . أراد ان يخرج من هذا الجحيم الذى لا توجد فيه ذرة من الحب أو الايمان بالغير فخلق لنفسه عالما وهميا من انكار الذات ، ليثبت لنفسه ان صورته غير صورة أبيه . والتر ركل أهله بقدمه لينقذ نفسه وفيكتور ضحى بنفسه من أجل أهله لينقذ نفسه أيضا . وهما طريقان مختلفان لنفس الغاية .

اذن فكل هذه أوهام . ولـكن فيكتور غير مقتنع . ما الحقيقة اذن ؟ ان والتر لا يعرف الحقيقة حتى يدله عليهـا . كل ما يملـكه ليعطيه هو ١٢ الف دولار

ووظيفة . ولكن هذه ليست الحقيقة . الحقيقة ان والتر جاء من اجل شيء آخر . جاء من اجل هزة اليد الساخنة بين الاخوة حين يتصافحان في صفاء الاخوة ؛ ليخرج بعد ذلك مرتاح الضمير مغتبطا بنفسه وكأنه لم ينزل بأحد ضررا في حياته . ولكنه لن يحصل عليها ، وسيعود كما اتى رجلا محترما ولامعا وثريا ولكنه مؤرق الضمير . انه يحسب ان لكل شيء ثمنا ؟ ولكن هنالك من الاشياء ما لا يشترى بالمال .

***

يا له من انتقام رهيب . هكذا يقول والتر ، أن فيكتور يضحي للمرة الثانية بمستقبله ليثبت نذالة والتر ، وهذا هو الحسد العظيم ولاشك . انه ماض الى حيث جاء . لقد التقى الاخوان وفي كل منهما شوق ليصفو لاخيه ، ومع ذلك فقد افترقا دون طائل رغم انهما اقتربا واقتربا في لحظات الى حد التماس . وهكذا لا يبقى على المسرح الا اليهودي العجوز الخالد الذي يعرف كيف يثمن اغلى الاشياء بأبخس الاثمان . نعم ، ويبقى شيء آخر وهو استر مقيمة على حب فيكتور ، فرغم يأسها من تعليمه منطق الدنيا فهي لا تزال ترى ان طريقه خير من طريق والتر ، لانه طريق البسطاء .

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال



هذا الكتاب

فى شهر مايو ١٩٦٩ أوفد «الاهرام» الاستاذ الدكتور لويس عوض الى انجلترا وفرنسا للاطلاع على آخر تطورات الحركة المسرحية فى هذين البلدين . وقد أتيح للدكتور لويس عوض ان يشاهد زهاء خمس عشرة مسرحية فى لندن وباريس ، وكلها تمثل التجارب الجديدة فى هذا الفن الهام ، وهذه التجارب هى موضوع هذا الكتاب : شاهد نماذج عديدة من المسرح السياسى ممثلة فى « صعود ارتورو وى » لبرتولد بريخت وفى « الحرب والسلام فى قهوة سنيفل » لفورلانى ، وهو موهبة جديدة ، وفى « غول لوزيتانيا » لبيتر فايس ، وفى « هادريان السابع » لبيتر لوك وغيرها . كذلك شاهد نماذج من المسرح الجنسى ممثلة فى « هير » (الشعر) وهى عمل جماعى ، وفى « مجمع الحب » لاوسكار بانيتزا ، وفى « عيال الزفة » لمارت كرولى ، الخ .. كذلك شاهد آخر مسرحية لآرثر ميللر وهى « الثمن » الى جانب ما شاهده من مسرحيات تقليدية .

ولكن أخطر ما فى هذا الكتاب هو الدراسة التى قام بها الاستاذ الدكتور لويس عوض لثورة الشباب الاوروبى والامريكى التى تبلورت فى حركة « الهيبيز » ، وما نبع عنها من فن وفكر وسلوك ، وقد حاول أن يؤصل هذا الغليان الجنونى بين شباب اليوم فى أزمة المجتمعات الغربية ازاء التحديات الحضارية الخطيرة التى تواجهها هذه المجتمعات . وقد عرض قضيتهم بعقل متفهم ورغبة صادقة فى الاهتداء الى الحقيقة : بماذا يحسون ؟ فيم يفكرون ؟ كيف يرون حاضر العالم ومستقبله ؟ ماذا يريدون لانفسهم وللجنس البشرى . ومن خلال دراسته لحركات الشباب طرح الاستاذ الدكتور لويس عوض هذا السؤال الذى طرحه ارنولد توينبى من قبل : هل العالم يقف الآن بازاء رسالة جديدة تبشر أو تنذر بظهور حضارة جديدة ؟



سلسلة
ثقافية
شهرية

من أسرار الساسة والسياسة

بقلم محمد التابعي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٨ ـ ذو القعدة ١٣٨٩ ـ فبراير ١٩٧٠

No. 228 - Février 1970

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل او بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان جمال قطب

محمد التابعي

من أسرار الساسة والسياسة

مصر ما قبل الثورة

دار الهلال

مقدمة

الأمانة الصحفية
وسر المهنة

اقترح على كثيرون من الاصدقاء أن أكتب مذكراتى عن الساسة والزعماء والنساء والرجال الذين عرفتهم فى حياتى وعن الحوادث والازمات .. الى آخره ..

ورفضت .. وكانت حجتى اننى لم أدون مذكراتى الا فى فترات متقطعة .. متباعدة .. فالتسلسل مفقود والسياق مضطرب والدقة فى الرواية غير مأمونة أو مضمونة .

ثم شىء آخر وهو الأهم عندى .. من الذى يستطيع دائما أن يقول الحق .. كل الحق ولا شىء غير الحق .

واذا نشرت مذكراتى فهل أقول فيها كل ما أعرف ، وكل ما سمعت ، وكل ما رأيت .. وبين الذين سوف تتناولهم هذه المذكرات أشخاص قد انتقلوا الى رحمة الله ، ونحن اليوم نحيطهم بهالة من الاجلال والاكبار. وبينهم من لايزال على قيد الحياة ومن هو معدود من الأعلام والصفوة الممتازة فى هذا البلد .. هل أقول كل ما أعرف عن هؤلاء وهؤلاء ؟ ..

هل أروى مثلا حديث الزعيم فلان عن الزعيم فلان ؟ وهو حديث مملوء غيرة وحقدا .. ؟ وهل أروى مثلا وأصف صور الضعف والاستهتار .. صور الخنوع والذل والاستمساك بالحكم بأى ثمن ؟.. وصور الطمع

والجشع والنفاق وعدم الوفاء ؟.. وقصص الخلاعة والمجون وابطالها زعماء وساسة مبرزون .. ؟

ثم مسألة اخرى.. ما هو الحد الفاصل بين ما يجوز نشره وما لايجوز نشره ؟.. والامانة الصحفية وسر المهنة ؟.. ما هي حدود هذه الامانة وهذه السرية..؟

لقد اشتغلت بالصحافة ثلاثين عاما ، وعرفت فيها عشرات وعشرات من الزعماء والساسة وربطتني ببعضهم أواصر الصداقة والثقة ، وبوحى هذه الصداقة والثقة أفضى الى بعضهم بأسرار كثيرة .. وكشف أمامى بعضهم عن مكنون صدره بل وعن خفايا ضعفه .. فهل أروى اليوم كل ما سمعت أو بعض ما سمعت ..؟

ورواية الكل قد تنفع المجموع ، وتؤذى الفرد ، ورواية البعض قد لا تفيد المجموع ولا تؤذى الفرد اى الزعيم المروى عنه .. واذن ما الفائدة وما الغاية من نشر رواية ناقصة أو مبتورة ..؟

وفى نشر الرواية كلها فضيحة أو خيانة للأمانة .

وفى خلال هذه الثلاثين عاما التى اشتغلت فيها بالصحافة قابلت كثيرين من الساسة وقادة الراى العام فى مصر وفى بلاد غير مصر ، بل وقابلت رؤساء دول ورؤساء حكومات ، وكثيرا ما تحدث الى الواحد منهم وأطال الحديث ثم قال :

ـ تستطيع ان تنشر كذا وكذا .. ولكن لا تنشر كيت وكيت .

وبعض هذه الاحاديث قد مر عليها عشر سنوات أو عشرون سنة .. وأتساءل اليوم : هل «حظر النشر» لايزال قائما ؟

هل «سرية المهنة» سرية مطلقة مؤبدة .. أو موقوتة بفترة من الزمن .. وما طول هذه الفترة ؟ هل تكفى

مثلا العشرة أعوام أو العشرون عاما لكى تحل الصحفى من وعده بعدم النشر ، أى هل أستطيع أن أنشر اليوم ما وعدت منذ عشرين عاما بعدم نشره ؟

هل استطيع ان أنشره دون أن يتهمنى أحد بخيانة الامانة والخروج عن مبدأ سرية المهنة وهو المبدأ الذى تقدسه الصحافة ويحترمه الصحفيون ؟

***

ثم اعتراض رابع أوخامس.. هل يستطيع الصحفى أن يقدم دائما واجب المهنة على كل اعتبار ؟ هل يستطيع أن يذكر دائما انه صحفى .. وينسى دائما انه انسان ؟

لقد قابلت مثلا ملك الافغان الاسبق الملك أمان الله ، قابلته مرتين .. فى سويسرا فى مدينتى مونتريه وزيوريخ .. وكان أمان الله فى المقابلتين رجلا كسير الخاطر محطم الآمال .. كان يمشى تحت وابل المطر.. يتسكع ـ كما قال هو نفسه ـ ليقتل الوقت .

وكتبت عنه فى المرتين ورويت الحديث الذى دار بيننا .. الا جزءا منه .. الا جزءا خاصا بزوجته السابقة الملكة ثريا .. لقد أبقيته حتى اليوم فى صدرى . هذا الجزء من حديث الرجل الكسير الخاطر المحطم الآمال .. كتمته ولم أنشره لأننى لم أستطع أن أنسى اننى ـ قبل أن اكون صحفيا ـ اننى انسان .

***

وفاروق الطاغية .. فاروق هذا نفسه لا أستطيع ان أكتب واروى عنه كل ما أعرف لأننى .. انسان .

لقد قاومت طغيانه وحاربته قدر ما استطعت .. وهو ملك وحاكم بأمره فكتبت مثلا مقالا عنوانه : « يحيا الظلم » فى مجلة « آخر ساعة » عدد ١١ اكتوبر سنة ١٩٥٠ ، قلت فيه بين ما قلت :

نعم .. « يحيا الظلم » .. ظلم كل جبار عاتية معتز بسلطانه وسطوته يدوس القوانين ولا يبالى ، وظلم كل كبير فاسق وكل عظيم فاجر يسرق ولا يبالى ويختلس ولا يبالى.. ويثلم الأعراض ولا يبالى.. ويهدر الكرامات ودم الوطن ويجعل من مصر أمثولة السوء وبصقة كريهة فى فم الزمن .

نعم .. « يحيا الظلم » .. ظلم كل مطالب باحترام القانون ولا يحترمه .. وكل قادر على حماية القانون ولا يحميه .. وظلم كل عابث ماجن اباحى مستهتر يضرب للناس أسوأ الأمثال .

نعم .. « يحيا الظلم » .. لأنه خير مرب للنفوس.. ونفوس المصريين تجيش اليوم بمعنى واحد : لقد صبرنا طويلا ولن نصبر بعد اليوم.. وتحملنا كثيرا ولن نتحمل بعد اليوم .

***

وقرأ فاروق المقال ، وأشر بالقلم على هذه العبارات ثم سأل بعض رجال ديوانه « الملكى » ـ ولا داعى لذكر أسمائهم ـ سألهم : « من العظيم الفاجر الذى يسرق ويعتدى على الأعراض ؟ »

وسكتوا عن الرد .. وعاد يسألهم : « من الذى يعنيه التابعي ؟ » ولم يجب احد منهم .. وابتسم فاروق ابتسامة صفراء لأنه عرف بكل تأكيد من سكوت رجال حاشيته .. انه هو المقصود .

***

وكتبت عن فاروق بعد خلعه وطرده .. كتبت ولم ارحمه ، واسهبت فى سرد قصص مخازيه وفضائحه ، ومع ذلك فاننى لم أنس فى كل ما كتبت أننى انسان .. فلم اذكر مثلا لماذا بكى ذات يوم فى دار صغيرة فى حى

جناكليس برمل الاسكندرية فى صيف عام ١٩٣٧ ؟

وكان فاروق يومئذ لايزال الملك المأمول .. لم تفسده الدنيا ، ولم ينس ربه ودينه .. بكى كالطفل الصغير حتى بلل الدمع خديه .

لم اكتب ولم أذكر التفاصيل ، لأن فاروق بكى ساعتئذ كانسان .. لا كملك .. ولأننى لا أستطيع أن أنسى دائما اننى انسان .

***

الذكريات كثيرة .. وما أعرفه كثير .. وما وقع لى فى حياتى مختلف الألوان .. والصعوبة فى الاختيار .. أيها يصلح للنشر .. وأيها لا يصلح ؟

أيها يجوز نشره ؟ وأيها لا يجوز؟ وأيها يرضى أصحابه واشخاصه وأبطاله .. أو يسكتون عن نشره .. وأيها الذى لايرضيهم نشره ؟ هل أروى مثلا ما سمعته من الدكتور محمد صلاح الدين أيام اشتداد الخلاف بين رئيس الوفد مصطفى النحاس وسكرتير الوفد مكرم عبيد ؟

ومن هم الذين سعوا مخلصين لتسوية أسباب الخلاف والابقاء على وحدة الوفد .. ومن هم الذين سعوا وعملوا على توسيع شقة الخلاف بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد ؟..

وهؤلاء وهؤلاء من أعضاء الوفد أو من كبار الوفديين

وهل استطيع مثلا أن أروى تفاصيل حديث دار فى مسكنى ذات مساء فى شهر مايو أو يونية عام ١٩٤٢ ، بين فؤاد سراج الدين وبينى عن مكرم عبيد ؟ وهل من الصواب فصله الآن من الوفد أو الانتظار .. والاسباب « الوجيهة » التى أبداها الاستاذ فؤاد سراج الدين للتعجيل بفصل الاستاذ مكرم عبيد ؟

وهل أذكر الحديث الذى دار بالتليفون بين مصطفى النحاس وكان فى فندق مينا هاوس ، ومكرم عبيد وكان فى المنيا ذات مساء ابان الاستعداد للانتخابات التى جرت بعد قيام وزارة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ ؟

وهل أروى ما سمعته من فم رئيس الوفد ورئيس الوزارة مصطفى النحاس عن « الملك فاروق » وموقف الوزارة منه ومن الانجليز ؟

وهل من الامانة الصحفية ان أروى حديثا أو كلاما لم يقله مصطفى النحاس أمامى الا وهو مطمئن الى وواثق منى ! ؟

وهل استطيع ان أروى كل ما أعرف وكل ماسمعته من صديق راحل كريم هو أحمد محمد حسنين ، وللصداقة حقوق ، وعليها واجبات ؟

وهل مما يستقيم مع حقوق الصديق ولا يتنافى مع واجبات الصداقة أن أروى وأذكر كل ما عرفت وكل ما سمعت ؟

***

هذه هى الصعوبة ، بل هذا هو الصراع بين الصحفى والامانة الصحفية .. وبينه وبين سرية المهنة .. ثم الصراع بين الصحفى والانسان .

الكتاب الاول

أحمد محمد حسنين
فى الحياة الخاصة

هذا الرجل الغامض..
هل هو بطل؟.. هل هو خائن؟

قلت فى المقدمة اننى لا أكتب هنا « مذكرات » بالمعنى المعروف ، بل هى صور وقصص من حياتى وحياة الآخرين .. صور وقصص بلا تسلسل أو ترتيب .

وقد اخترت أن أبدأ بصورة للمرحوم أحمد حسنين باشا ، لا لسبب الا لأن شخصيته كانت موضوع خلاف بين الذين عرفوه .

هل هو بطل ؟ ومصرى وطنى مخلص يقدم مصلحة بلاده على كل ما عداها ؟ أم هو خائن وصنيعة للانجليز؟ ولا بأس من أن يضحى بمصلحة مصر فى سبيل مصلحة ذاتية يحققها له الاستعمار ؟ هل هو السبب المباشر فى فساد الحكم وفساد فاروق ؟ وفساد الأسرة المالكة ؟ والفضائح التى وقعت فى السنوات القليلة السابقة على قيام الثورة ؟

تباينت الآراء واختلفت فى هذا الرجل .. احمد محمد حسنين .

وأحمد محمد حسنين ابن الشيخ الازهرى محمد حسنين .. ومع ذلك ! ومع ذلك فهو خريج جامعة اكسفورد .. وصهر الأسرة المالكة !

ولقد عدوها أعجوبة من عجائب العصر يوم تزوج سعد زغلول الازهرى النشأة وابن الفلاح المصرى من ابنة مصطفى فهمى باشا التركى الأصل ، ورئيس

الوزارة المصرية .

وها هو ذا مصرى آخر وابن فلاح وشيخ ازهرى يتزوج من ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد وحفيده محمد على مؤسس الأسرة المالكة !

انها اذن أعجوبة العجائب ! وكانت أعجوبة اخرى ان هـذا المصرى ـ ابن الفلاح ـ يطلق فيما بعد طواعية واختيارا زوجته هذه لطفية ابنة الأميرة شويكار التى كان مقدرا لها أن ترث الملايين .. وهو الفقير المعدم الغارق فى الديون !

كيف كان هذا ؟ ولماذا ؟

هل طلق حسنين زوجته كرها فيها ؟ وحبا فى نازلى ملكة مصر ؟ أم انه طلقها وهو يبكى وقلبه يقطر دما ؟ ولماذا طلقها اذن ؟

***

احمد محمد حسنين خريج جامعات انجلترا ، والمفتش بوزارة الداخلية ابان الحرب العالمية الاولى ، والسكرتير بسفارة مصر فى واشنجطون ، والامين الثانى للملك فؤاد .

ورائد صاحب السمو الملكى الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد .

والامين الاول لجلالة الملك ، ثم رئيس ديوان جلالة الملك فاروق .

والرجل الذى كان يمسك بخطوط السياسة المصرية فى فترة حرجة حالكة فى تاريخ مصر ما بين عام ١٩٤٠ ، وعام ١٩٤٦ .

الرجل الذى كان يقيم الوزارات ويسقط الوزارات ، وهو فى نفس الوقت حريص على أن يبدو فى تصرفاته واقواله كرجل لا يعرف شيئا مما يقع فى البلد ! ولا

يد له فى اى امر يقع . بل ويؤكد لمعارفه انه لا يفهم شيئا فى السياسة !

***

كان فى وقت ما بطل مصر فى « الشيش » او المبارزة بالسيف ، ونازل أبطال هذه اللعبة فى أوروبا وانتصر على كثيرين منهم .

وحاول فى يوم ما أن يكون أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من اوروبا الى مصر .. وسقطت به الطائرة مرتين فى فرنسا ، وفى ايطاليا .. ونجا من الموت مرتين ، وأصلح عطب الطائرة واستأنف طيرانه .. لولا ان الملك فؤاد أرسل اليه برقية يأمره فيها بالعدول عن الطيران الى مصر والعودة بأول باخرة .

وجاب مجاهل الصحراء الغربية مع الرحالة الانجليزية السيدة روزيتافوربس ، وكان حسنين صاحب الفكرة ومنظم الرحلة وعقلها المدبر وقائدها .. وقد تستر على زميلته الانجليزية فزعم أنها مسلمة وأنها زوجته ، وألبسها ثيابا عربية وأسدل على وجهها حجابا كثيفا.. والا لما سمح زعماء القبائل لهذه المسيحية الاجنبية بالتوغل في مجال سلطانهم والتعرف على أسرار الصحراء .

وعاش احمد حسنين مع روزيتافوربس اسابيع عديدة فى مجاهل الصحراء . وكانا ينامان فى خيمة واحدة .. ولكنه لم يحاول أن ينال منها .. اما هى فقد حاولت .. ولكنه أبى وأعرض .

وسألته مرة :

ـ وهل قدت قميصك من دبر !

وضحك رحمه الله وقال :

ـ كلا .. فان المسألة لم تصل الى هذا الحد .

قلت : لكننى لا افهم !.. لقد كنت يومئذ فى عنفوان

شبابك .. وروزيتا امرأة جميلة تشتهى .. وكنتما فى الصحراء أسابيع عديدة .. ووحدكما عشرات الليالى فى خيمة واحدة .. وكان مرافقوك من البدو يعتقدون انها زوجتك .. وما انت دائما بولى الله أو قديس .. ماذا اذن ؟

وضحك مرة اخرى وقال :

ـ لأن الازهر انتصر فى هذه المرة على اكسفورد ..!

وكان أبوه الشيخ محمد حسنين من علماء الازهر الأجلاء .. والمعنى الذى اراده حسنين هو ان النشأة الدينية فى دار أبيه وما ورثه فى دمه عن أبيه العالم الازهرى المتمسك بأحكام دينه الحنيف .. كل هذا انتصر على عوامل التحرر أو التحلل التى تركتها فى نفسه دراسته فى جامعة اكسفورد .

سألته :

ـ وهل انتصر الازهر دائما فى جميع المعارك الشبيهة التى نازلت فيها امرأة أو تحدتك فيها امرأة ؟

قال : كلا .. ولكننى فى هذه المرة كنت حريصا على رضاء ربى ورحمته ، فقد كنا فى صحراء مجهولة .. وأسباب الهلاك تحيط بنا من كل جانب .. وكنت أعد نفسى مسئولا عن سلامة القافلة ونجاة أفرادها .

وضحكت بدورى وقلت :

ـ اذن فقد تأبيت واعرضت لا زهدا فى روزيتا .. وانما خوفا من أن يحل بك غضب الله وانت فى جوف الصحراء ؟!

قال : نعم ..

قلت : ولولا هذا ؟

قال : لا تكن لحوحا !

وعادت روزيتا الى انجلترا ووضعت كتابا عن الرحلة ، وأشارت فيه اشارة عابرة ــ فى سطور ــ الى احمد حسنين وكيف انه كان أجيرها ومترجما لها أثناء الرحلة المذكورة .. وانه لم يكن يعنى الا ببيجـــامات نومه الحريرية وزجاجات الكولونيا التى حملها معه فى رحلته عبر الصحراء !

وانها هى كانت كل شيء وصاحبة الفضل فى كل شيء وهو لا شيء ! واخذت بروايتها صحف عديدة فى انجلترا وأوروبا وأمريكا .. وهكذا غلب كبرياء المرأة .. فضيلة الصدق !

وألح بعض كبراء الانجليز من أصدقاء حسنين الذين كانوا يعرفون حقائق الرحلة وان حسنين هو صــاحب الدور الرئيسي وصاحب الفضل الاول والاخير فيها .. ألحوا عليه أن يرد على روزيتافوربس ويفند مزاعمها ولـكنه رفض .

رفض أن ينازل امرأة .. أو «يقد قميصها من قبل!» سكت اذن ونفسه مملوءة ألما وحزنا ومرارة .

ولـكنه قام فى العام التالى ــ وبمفرده ــ برحلة ثانية فى جوف الصـــحراء واكتشف واحة الكفرة .. وكان لاكتشافه الخطير دوى كبير فى جميع أنحاء العالم .. واجتمعت الجمعية الجغرافية الملـكية فى لندن ومنحته ميداليتها الذهبية وهى أسمى وسام يمكن للجمعية أن تقدمه لـكبار المـكتشفين ..

وانهالت عليه الأوسمة والنياشين من مختلف الدول تقديرا لهذا الاكتشاف . ومنها وسام سان لازار الذى أنعمت به عليه حكومة ايطاليا وهو من ارفع الأوســمة شأنا فى ايطاليا .

وفى حفلة ساهرة أقيمت فى روما التقى احمد محمد

حسنين مع روزيتافوربس .. وكان يعلق على صدر سترته وسام سان لازار الرفيع الشأن .

واقتربت منه روزيتا وحيته ثم سألته ساخرة :

ـ هذا وسام سان لازار؟.. ترى اى عمل استحققت عليه هذا الوسام ؟

واجابها حسنين ، بالانجليزية طبعا :

For my Chastity Rosita

أى استحققته بفضل طهارتى يا روزيتا !

وامتقع لون روزيتافوربس .. وولته ظهرها ! فقد كانت الغمزة صريحة مكشوفة مفهومة !

وقال لى حسنين :

ـ نعم .. لقد ثأرت لنفسى ، ولكنه كان انتقاما خسيسا ندمت عليه فيما بعد .. بل ان العبارة لم تكد تخرج من بين شفتى حتى أدركت اننى تصرفت بخسة وفظاظة .. وندمت وفكرت فى أن أعتذر اليها ولكنى اشفقت من ان اعتذارى قد يزيد فى جروحها وألمها .

***

وسافرت الى واشنجطون ليتولى منصبه فى سفارة مصر وعرضت عليه احدى الهيئات أن يقوم برحلة يطوف فيها ببعض المدن الامريكية الكبيرة ويلقى فيها محاضرات عن رحلته فى الصحراء .

وعرضوا عليه مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار وكانت تساوى وقتئذ خمسة آلاف جنيه مصرى ، وفى مقابل اثنتى عشرة محاضرة .

واشترطوا عليه أن يلقى هذه المحاضرات وهو يرتدى الثياب البدوية التى كان يرتديها فى الصحراء أثناء رحلة الاستكشاف .

ورفض أحمد حسنين هذا العرض .

وكان يومئذ ـ كما كان دائما ـ فقيرا ومدينا لأحد

زملائه فى السفارة بمبلغ خمسين دولارا !
ولكنه رفض أن يكون « أراجوز » كما قال لى .. لكى يرضي فضول الامريكان ويكسب خمسة آلاف جنيه .
وارتداء ثياب البدو فى الصحراء شيء .. والظهور بها على مسرح فى مدن أمريكا شيء آخر .

***

هذه لمحات خاطفة ــ وتافهة ربما ــ من حياة حسنين
واذا كنت قد وقفت عندها بعض الوقت فما ذلك الا لأنها ــ فى رايى ــ تلقى شيئا من الضوء على خلق حسنين وعقليته ونفسيته ومذهبه فى الحياة .
يرفض امرأة ويتأبى عليها .. لأنه يخاف غضب الله فى وقت كان فيه أحوج ما يكون الى استرضاء الله ، واستجلاب عطفه ورحمته .. والا .. !

ويرفض أن ينازل امرأة أو يهاجمها أو يكذبها علنا .. ولكنه ــ فيما بينها وبينه ــ يجرحها ــ كما يقول هو نفسه ــ بخسة وفظاظة لأنه ذكرها بأنها عرضت جسدها عليه ولكنه رفض وظل طاهرا .
ويرفض ــ وهو الفقير المدين ــ يرفض خمسة آلاف جنيه لأنه يأبى أن يظهر على المسرح فى ثياب قد تثير ضحك الامريكان .

***

لمحات خاطفة ، وربما تافهة ، ولكنها تساعد على رسم صورة لأحمد حسنين الذى اختلفت فيه آراء الناس وتعددت الصور التى يرسمونها له .

الذين عرفوه واحبوه .. رسموا له صورة بطل !
وبعض الذين لم يعرفوه رسموا له صورة كريهة قاتمة .. صورة صنيعة الانجليز .. الخائن الذى يخدم مصلحة خصوم بلاده من المستعمرين !

وبعض الذين عرفوه وكرهوه .. أو لم يحبوه جعلوا منه شيطانا رجيما .. ومنافقا لئيما .. ونفعيا وصوليا نهازا للفرص !

وغير هؤلاء وهؤلاء .. فريقمن الساسة والصحفيين رسموا لأحمد محمد حسنين صورة الرجل المدين بكل شيء للصدفة .. الرجل العادى .. الكسول .. الذى يحب العيش الهنيء .. والذى لم يؤت من الذكاء والعلم الا قليلا ، ولا يفهم فى السياسة شيئا .. بل سار فى دروبها ليخبط خبط عشواء .

وهذه الصورة هى الصورة التى كان حسنين باشا نفسه يحرص على أن يطبعها فى نفوس جميع الذين كان يلقاهم من الساسة والزعماء !

كان رحمه الله يحب أن يعتقد الناس فيه الغباء بل « الهبل » !.. وانه رجل لا يخشى شره !.. أوطرطور! أو ساعى بريد ينقل اليهم « الأوامر السامية » من جلالة الملك .. أو « يرفع » آراءهم ونصائحهم الى « السدة العلية الكريمة » .. ومن غير أن يكون له هو رأى أو مشورة فى الموضوع .

وصدقه بعضهم فى أول الأمر . ثم اكتشفوا الحقيقة وعرفوه .. وكرهوه !

وآخرون عرفوا الحقيقة عندما عرفوه .. فأحبوه ! وغير هؤلاء فريق من الساسة الذين « كشفهم » حسنين باشا أمام فاروق .. وكشف عن ألاعيبهم ومناوراتهم وأطماعهم وأكاذيبهم .

كشفهم وأضاع عليهم نفوذهم عند فاروق .. وفوت عليهم فرص الفوز بمقاعد الحكم وجاه السلطان .

ويبقى السؤال قائما .. هلكان احمد محمد حسنين بطلا ومصريا وطنيا وخادما أمينا لبلاده ؟

أم كان خائنا وصنيعة أو ذنبا من أذناب الاستعمار؟ الرأى عندى انه ـ رحمه الله ـ لم يكن هذا ولا ذاك .

لم يكن بطلا .. ولم يكن خائنا لبلاده .. وانما كان رجلا ذا مطامع واسعة كثيرا ما افلح فى اخفائها وراء قناع من الزهد فى المناصب .. والجهل بالسياسة وأسرارها .

كان يطمع فى أن يكون رئيس الوزارة والرجل الاول فى الدولة .

ولكنه لم يمض الى هذا الهدف مباشرة وفى خط مستقيم .. كلا .. فان هذه لم تكن سياسة احمد محمد حسنين الذى كتب عنه مرة زميله فى الدراسة وصديقه حفنى محمود فقال : « انه فاجأه مرة وهو يقرأ كتابا ما .. »

وحاول حسنين أن يخفى الكتاب عن صديقه حفنى محمود . ولكن حفنى استطاع أن يقرأ عنوان الكتاب.

وكان الكتاب هو « الأمير » لمؤلفه السياسى الداهية «ماكيافيللى» ! الذى وضع كتابه على أساس ان الغاية تبرر اتخاذ كل وسيلة ! وهكذا فضح حفنى محمود سياسة صديقه حسنين « السياسة الماكيافيللية ! » سياسة الخبث واللف والدوران..وكل وسيلة مشروعة فى سبيل تحقيق الغرض والوصول الى الهدف !

وكل غرض شريف ما دام فى خدمة الأمير .. اى الحاكم .

وكان الأمير يومئذ هو الدولة .. والدولة هى الأمير.

قصة نازلي

ملكة مصر سابقا

وأحمد محمد حسنين

قلت ان حسنين باشا لم يكن بطلا معدودا من ابطال الوطنية المصرية .. ولم يكن خائنا لبلاده أو صنيعة للاستعمار كما اتهمه بعض خصومه ، وبعض الذين لم يعرفوه .. أو الذين عرفوه ولم يحبوه .

ولكنه كان رجلا ذا مطامع واسعة ، وكان كل نجاح يلقاه يغريه بالتماس نجاح آخر .. وكل منصب يرقى اليه يغريه بالسعى وراء منصب آخر يفوقه سلطة ونفوذا .

وكانت خطواته مطردة دائما الى الامام ، لم يتعثر مرة واحدة ، ولم يقف أو يتقهقر أو يرتد الى الوراء مرة واحدة . دائما الى الامام ، والى ما هو أعلى واقوى وأوسع نفوذا .

كانت حياته سلسلة من الانتصارات .. ولم يعرف الهزيمة سوى مرة واحدة .. وكان ذلك فى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، ولكنه استطاع أن يثأر لنفسه بعد عامين يوم دبر اقالة وزارة مصطفى النحاس فى ٨ اكتوبر سنة ١٩٤٤ .

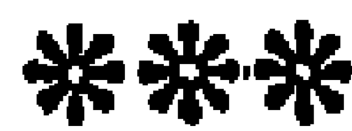
وهكذا رد اللطمة للسفير البريطانى سير مايلز لامبسون أو لورد اوف كيلرن .. كما ردها مضاعفة للسيد مصطفى النحاس .

وكان أحمد محمد حسنين يضع خططه بدقة واحكام

وينفذها بكياسة ومهارة وحذر ، ولا يضيق صدره ولا يخونه صبره مهما طال الأجل .. أو لاقى من صعوبات

وكانت الخطة الاولى أو الخطوة الاولى الواسعة فى طريق تحقيق مطامعه هى مصاهرة الأسرة المالكة ..

ولقد استطاع الشاب النحيل القامة الوسيم الطلعة الأنيق فى ملبسه .. الساحر فى حديثه .. الرشيق فى حركاته .. الرياضى البطل فى دنيا الرياضة والمغامرات والرحالة الذى جاب مجاهل الصحراء وواجه الموت مرارا فى رمالها المحرقة وفيافيها الجدباء والذى أغدقت عليه صحف العالم من الثناء والاعجاب ما لم تغدق مثله الا على قليلين من كبار المكتشفين .



استطاع هذا الشاب احمد محمد حسنين ـ ابن الشيخ محمد حسنين المدرس بصحن الازهر الشريف استطاع أن يفتن ويخلب لب الفتاة لطفية كريمة صاحبة السمو الأميرة شويكار مطلقة الملك أحمد فؤاد وأم ابنته صاحبة السمو الملكى الأميرة فوقية .

وتزوج حسنين من لطفية وأصبح من أصهار الأسرة المالكة وزوجا لأخت الأميرة فوقية كريمة الملك فؤاد.

وكان فؤاد قد تصالح قبل ذلك بسنوات مع مطلقته شويكار .

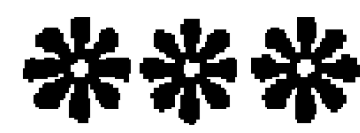
وهكذا عزز حسنين مركزه وثبت قدمه على أولى درجات السلطة فى دنيا المناصب والجاه والنفوذ .. والا فأى رئيس أو وزير ، بل وأمير كان يجسر يومئذ أن يتجاهل هذا الشاب ـ احمد محمد حسنين ـ صهر الأسرة المالكة وزوج كريمة الزوجة الاولى لصاحب العرش والتاج ؟

كانت هذه هى الخطة أو الخطوة الاولى .

وقد اسميتها خطة أو خطوة لأنها كانت مرسومة ، ولأن الزواج لم يكن مقصودا لذاته ، بل كان وسـيلة للوصول الى غرض أو هدف مقصود فى طريق النجاح وتحقيق المطامع الواسعة .

والدليل الذى لا يحتاج معه أو بعده الى دليل آخر ان حسنين يوم تزوج من المغفور لها السيدة لطفية لم يكن يحبها .

لقد أستطاع أن يفتنها ويخلب لبها ويوقعها فى حبه. اما قلبه هو فكان خاليا من أى حب لها .



صحيح انه لم يكن يكرهها .. كلا .. ولكنه لم يكن يحبها يوم خطبها ويوم تزوج منها .. وبعد الزواج ــ لا قبله ــ وبعد المعاشرة أو « العشرة » وبعد أن أنجبت له أولاده .. أحبها حسنين.. أو كما قال لى هو نفسه « ان لطفية كريمة رقيقة حنون تستحق كل حب وهى أم مثالية .. ولقد أحببتها بعد الزواج كما لم أحب امرأة أخرى » !

والآن وقد عرفنا كيف ولماذا تزوج حسنين من لطفية ابنة الأميرة شويكار .. يبقى أن نعرف لماذا طلقها مع انه ــ باعترافه ــ كان يحبها كما لم يحب امرأة سواها ؟

كان زواجه منهـا خطوة فى سبيل تحقيق مطامعه الواسعة وكان طلاقه لها خطوة أخرى فى نفس الطريق .. وسأذكر الطريق فيما بعد .

ونعود الآن الى يوم توفى الملك احمـد فؤاد فى ٢٦ ابريل عام ١٩٣٦ .

لم تمض أسابيع قليلة على وفاته حتى كثر الهمس بين موظفى القصر وفى الاوساط الخاصة المتصلة به ، ان « السجينة » قد حطمت قيودها وانطلقت ــ وهى

لا تزال بعد ترتدى ثيـــاب الحداد ــ انطلقت تمرح وتحـــاول أن تعوض ما فاتهـــا وتنهـــل من عيون الحيـــاة وينابيعها .

وكانت « السجينة » المذكورة هى الملـكة نازلى .. وهى نفسها التى كانت تقول لـكل من يقابلها وتأمن جانبه : « أنا سجينة الملك فؤاد » .

ولقد تعددت الروايات واختلفتعن زواج «السلطان» احمد فؤاد من نازلى كريمة المرحوم عبد الرحيم صبرى باشا . ولكن الذى سمعته من رواة ثقات من أقاربها هو انها أرغمت على هذا الزواج .. وانها كانت تحب شابا من أقربائها واكتفى بذكر الحروف الاولى من اسمه « ش . ش » لأنه لايزال بيننا على قيد الحياة .

كانت نازلى تحب قريبها الشـــاب ، وكان أملها فى الزواج منه كبيرا الى أن خطبهـــا « عظمة السلطان » احمد فؤاد من أبيها .

وفى اليوم المحدد لعقـــد القران هربت نازلى ــ فى الصباح الباكر ــ من قصر ابيها ، ولجأت الى حبيبها « ش . ش » .

وراح الفتى يتنقل ــ وهى معه ــ طول اليوم من دار صديق الى دار صديق .. خوفا من مطارديه فقـــد انطلق الأقارب وسلطات الدولة كلها تبحث فى كل مكان عن خطيبة « عظمة السلطان » .

وأخيرا أدرك الفتى ألا فائدة ! ولعله كذلك خاف مما قد يصيبه من بطش « السلطان » فأركبها عربة حنطور وأعادها الى قصر أبيها .. فى المساء .

وعقد القران .. وأصبحت نازلى صاحبة « العظمة السلطانة » سلطانة .. ولـكنها حبيسة فى القصر .. عليها فى كل ردهة وكل رواق وغرفة عيون وأرصـــاد

ولا تغادر القصر الا باذن .. ولا تزور ولا تزار الا باذن .. فقد كان أحمد فؤاد شـــديد الغيرة على زوجته الشابة الجميلة .

ولقد أصاب نازلى من فؤاد عدة أمراض ليس أقلها شأنا تقيح اللثة أو « البيورى » .

قال لى الدكتور ستانكيفتش طبيب الاسنان ، وهو روسى الاصل ، وكان متزوجا من اميرة بولونية .. وكان طبيب الاسنان الخاص للملك فؤاد وأسرته .. قال لى مرة بعد وفاة الملك فؤاد أن فى فم الملكة نازلى تسع أسنان « عايمة » أو « ملخلخة » بسبب تقيح اللثة .. ولما كان يعرف أن الملك فؤاد عنده نفس الداء « تقيح اللثة » فقـــد سألها ذات يوم لـكى يتأكد من أصـــل العدوى وسببها .. سألها :

ـ هل جلالة الملك يقبلك فى فمك ؟

وضاقت عيناها قليلاً وقد بدا فيهما حقد وسخط ، وقالت :

ـ يقبلنى فى فمى ؟.. انه لا يكتفى بمجرد التقبيل !

وكانت عيناها وصـــوتها وقسمات وجههـــا تنطق بالاشمئزاز والكراهية .. هذه رواية دكتور ستانكيفتش وقد أيدتها مصادر أخرى وهى أن نازلى لم تكن تحب زوجها أحمد فؤاد .

***

وبقيت نازلى سجينة القصر أو فى «قفص من ذهب» سبعة عشر عاما هى الربيع وخير ما فى العمر وسنوات الصبا والشباب .

وأخيرا تحررت يوم مات «سجانها» الملك أحمد فؤاد . وكان ربيع عمرها ولى ومن بعده الصيف أوشك كذلك أو يكاد .

وانطلقت نازلى ـ بشراهة ونهم ـ تنهل من عيون الحياة وتطفىء نار الظمأ الذى أحرق أحشاءها السنوات الطوال !

وكثر الهمس ، وذكرت أسماء بعض ضباط الحرس وموظفى القصر ، ثم تركزت الاشاعات حول اسمين اثنين ، وهما : احمد محمد حسنين ، والياور « البكباشى يومئذ » عمر فتحى .

***

وما من شك فى أن ملكة مصر يومئذ ـ نازلى ـ كانت تريد أن تلهو بالرجلين وأن تضرب أو تضارب أحدهما بالآخر وأن تثير الغيرة فى صدر هذا ضد ذاك وأن تتلذذ بمشاهدة الغيرة والمنافسة بين رجل الحاشية الوسيم وضابط الحرس الرشيق .. وأن تعبث وتلهو .

ولقد سمعت من حسنين هذه الحكاية : طلبت منه الملكة نازلى ذات يوم أن يمر عليها فى الساعة كذا لكى يصحبها الى حفلة ما فى المساء .

وذهب حسنين فى الموعد المحدد ووقف ينتظر .. واخيرا سأل عن جلالة الملكة .. وطلب من احدى الوصيفات أن تذكر صاحبة الجلالة بموعد الحفلة وان حسنين فى الانتظار ! ..

وقالت الوصيفة : « ولكن جلالة الملكة غادرت القصر منذ ساعة وذهبت فعلا الى الحفلة » .

وسألها حسنين :

ـ ذهبت وحدها ؟

قالت الوصيفة :

ـ كلا .. فقد صحبها عمر فتحى بك !

روى لى حسنين هذه الواقعة وقال :

ـ ولقد سألت الوصيفة عما اذا كانت جلالة الملكة

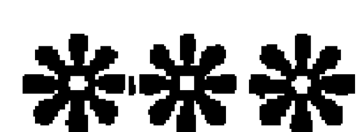
خرجت وحدها وأنا أعرف مقدما ان الجواب سيكون : انها خرجت مع عمر فتحى .. فلم تكن تلك أول مره تحاول فيها أن توقع بينى وبين صديقى عمر فتحى .

ومن ذلك أيضا انها دعت مرة عمرفتحى لكى يصحبها الى «المكس» لتتناول طعام العشاء فى مطعم هناك اشتهر بطهى أصناف السمك .

واعتذر عمر فتحى من عدم تلبية طلبها لأن جلالة الملك متوعك المزاج وان عليه ــ على عمر فتحى ــ أن يلازمه هذا المساء .

وهزت نازلى كتفيها برشاقة ونظرت الى الياور عمر فتحى بطرف عينيها وقالت :

ــ على كيفك !.. اذا كنت مش فاضى .. حسنين دايما فاضى علشانى !



ولكن لعبتها لم تطل لأن أحد الرجلين ــ عمرفتحى ــ لم تكن له مطامع ، ولأنه طول خدمته فى القصر كان حريصا دائما على أن يكون فى « حاله » وأن يؤدى واجبات منصبه فقط .. ومن ثم فقد انسحب باختياره وترك الميدان خاليا أمام حسنين .

هذا من جهة .. ومن جهة أخرى فان احمد محمد حسنين كان أدهى بكثير مما قدرت نازلى ملكة مصر .

لقد كان فى قصر « كنرى هاوس » بلندن فى معية صاحب السمو الملكى التلميذ الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد يوم جاءهم نبأ وفاة الملك فؤاد والمناداة بفاروق ملكا على مصر .

وعاد حسنين فى صحبة الملك الجديد الى مصر وفى رأسه خطة مدروسة مرسومة محكمة التفاصيل .

كان يعرف عن نازلى أكثر مما يعرف أى موظف آخر

من موظفى القصر .. كان يعرف الكثير عن «سجنها» وعذابها وغيرة زوجها الملك فؤاد وحسرتها وتلهفها على الحياة المرحة الطليقة .. ومن هنا عاد الى مصر — والى القصر — وقد قرر فى نفسه أمرا .. أن يتركها — يترك نازلى — تشده وتصده .. وتعرض وتقبل .. وتروح وتعود .. وأن تغازل هذا و « تستلطف » ذاك .. وهو دائما هادىء يبتسم .. لا يغار ولا يثور .

وأن يمد لها فى حبال الصبر كما يمد الصياد الماهر المجرب فى خيط الصنارة .. التى علقت بها سمكة عنيدة .

السمكة تشد وتجذب وتقفز .. وتغوص وتطفو .. وتقاوم .. والصياد يرخى من خيط الصنارة حينا .. ويشده حينا .. وهكذا الى أن تخور قوى السمكة وتستسلم .

وهكذا فعل حسنين ..

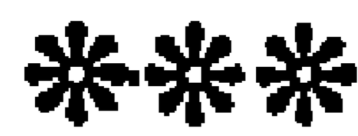
الى أن تعبت نازلى واستسلمت أو أسلمت قيادها لأحمد حسنين .. وبدأت هى التى تغار والتى تحاسب حسنين أين كان ! ومع من ؟ وماذا فعل ؟ وكيف أمضى سهرته !..

الى آخر ما تفعله المرأة التى تحب بعد أن تكون قد جاوزت سن الشباب .

وهو ؟.. هل كان يحب نازلى ؟

كلا .. ولكنه كان حريصا على استرضاء « ملكة مصر » .. وأم ملك مصر .. وصاحبة النفوذ الأعلى عند ابنها فاروق فقد كان فاروق يومئذ يحب أمه ويحترمها بل ويخشاها ويخشى غضبها ويعمل لها حسابا ولا يخالف لها أمرا .. وكان حسنين يعرف هذا كله ..

ويدرك ان الذى يسيطر على نازلى يستطيع ـ عن طريقها ـ أن يسيطر فى نفس الوقت على الملك فاروق.



عاد فاروق من انجلترا ـ حيث كان بدأ دراسته ـ عاد فى الاسبوع الاول من شهر مايو عام ١٩٣٦ .

وكان هناك مجلس وصاية على العرش مؤلفا من صاحب السمو الملكى الأميرمحمدعلى توفيق وصاحبى المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا ومحمد شريف صبرى باشا خال فاروق .

وكانت الوزارة يومئذ وفدية برئاسة « صاحب المقام الرفيع » مصطفى النحاس « باشا » .

واقترح الأمير محمد على ـ وهذه شهادة حق أقررها للتاريخ ـ اقترح رفع سن الرشد للملك الى سن ٢٥ سنة وأن يعود فاروق الى انجلترا ليكمل دراسته .

ولكن الوزارة رفضت هذا الاقتراح ، وأعلن السيد مصطفى النحاس ان وزارته تحترم وتستمسك بأحكام الشريعة والقانون والدستور .. وان هذه جميعها تقرر أن سن الثامنة عشرة هلالية هى سن الرشد والبلوغ . وان جلالة الملك يتولى ويمارس سلطاته الدستورية والحالة هذه فى يوم ٢٨ يولية عام ١٩٣٧ .

ولم يكن الاستمساك بأحكام الشريعة والقانون والدستور سوى ذريعة أو حجة . والحقيقة ان زعماء الوفد كانوا يعتقدون ـ بعد أن أراحهم الموت من خصمهم العنيد أحمد فؤاد ـ كانوا يعتقدون أن فى امكانهم أن يضعوا فاروق الملك الشاب فى « جيوبهم وأن يسيروه ويوجهوه كما يريدون .

ما حاجتهم اذن بمجلس وصاية يمارس سلطات الملك سبع سنوات ؟ ما حاجتهم الى هذا المجلس الذى

براسه أمير من الطراز التركى القديم ؟.. أمير كثير الطلبات .. كثير المعارضة .. يخرف حينا .. ويثرثر حينا .. ولا يمل الحديث عن أجداده العظام .. واذا ذكرت حقوق الشعب أمامه تململ أو هز كتفيه استخفافا !

كلا .. سن الرشد هى الثامنة عشرة .. وهلالية لا ميلادية .. ويتولى فاروق سلطاته كملك دستورى بعد عشرة شهور لا سبعة أعوام .



وهنا رؤى أن يقوم الملك الشاب نصف الأمى والذى لم يكمل دراسته ولم يحصل من العلم الا أقل القليل.. رؤى أن يقوم برحلة طويلة الى أوروبا لعل الرحلة تزيد فى تجاربه ومعلوماته ولو قليلا .

وتقرر أن يصحبه فى هذه الرحلة أمه الملكة نازلى وشقيقاته الأميرات فوزية وفايزة وفايقة وفتحية ، ومعهن المربيتان الانجليزيتان وأستاذهن للغة العربية الرجل الطيب الاستاذ أحمد يوسف ، ومستر فورد مدرس التاريخ والجغرافيا للملك الشاب .

والسيدة الجليلة زينب ذو الفقار بصفتها « السيدة المرافقة » للملكة نازلى ، وكريمتها الآنسة صافيناز ذو الفقار .

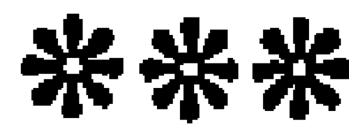
وخال الملك فاروق حسين باشا صبرى والسيدة الكريمة زوجته شهيرة الدرمللى .

وعلى رأس الحاشية « رائد الملك » أحمد محمد حسنين ، ومعه ياور الملك الخاص عمر فتحى « وقد أنعم عليه برتبة القائمقام المحلية » وطبيب الخاصة الملكية دكتور عباس الكفراوى والأمين الثالث على رشيد « وهو اليوم كبير الامناء » ودكتور حسين حسنى

مساعد السكرتير الخاص للملك .

وأوفدت وزارة الداخلية اثنين من ضباط البوليس ليكونا في حراسة الملك .. وهما اليوزباشى أحمد الطاهر واليوزباشي أحمد كامل الذى أصبح فيما بعد الاميرالاى وقائد قوات بوليس السراى . وتحدد يوم ٢٧ فبراير عام ١٩٣٧ للسفر من بورسعيد على ظهر الباخرة « فايسروى اوف انديا » .

وكانت ثورة قد قامت فى بيت أحمد محمد حسنين



كان ترامي الى سمع زوجته الرقيقة الطيبة التى تحبه ، اشاعات وأخبار وروايات وحكايات عما بين ملكة مصر نازلى ، وبين زوجها احمد حسنين .

وطلبت لطفية من حسنين أن تسافر معه فى هذه الرحلة ، ووعدها حسنين بعرض الأمر على فاروق .

ولكنه لم يعرض الأمر على فاروق ، بل تحدث فيه مع نازلى .. ورفضت نازلى طبعا ، وعاد حسنين وأبلغ زوجته ان جلالة الملك لايوافق على سفرها لأن الرحلة شبه رسمية ولا مكان فيها لزوجات الموظفين من رجال الحاشية .

ولكن لطفية ـ رحمها الله ـ لم تقتنع ، وذهبت تسأل وتستقصى الى أن علمت وتأكدت أن زوجها لم يحدث فاروق فى أمرها وان فاروق خالى الذهن تماما من هذا الموضوع .

وهنا ادركت ان نازلى هى التى تعارض فى سفرها ! أو لعله هو ـ حسنين ـ الذى لايريد أن تسافر معه.. مراعاة لخاطر الملكة !

والاشاعات اذن صحيحة ، ونشبت الثورة .. وعلا الصراخ والبكاء فى بيت أحمد محمد حسنين وانفجرت

الزوجة الرقيقة الطيبة القلب .

وكان أحمد محمد حسنين ـ كما قلت في فصل سابق ـ يحب زوجته لطفية حبا أكيدا .. ولكنه كان يحب السلطة والمجد أكثر مما يحب زوجته . ولقد عرفت حسنين اثنتى عشرة سنة واختلطت به عن قرب وكثيرا ما رفعنا « الكلفة » في مناسبات عديدة وفتح كل منا قلبه لصاحبه .. واستطيع اليوم أن أقول ان حسنين باشا رحمه الله لم يكن الرجل الذى يلبى نداء قلبه ويعرض عن حكم العقل ! كلا !

***

كان العقل عنده دائما مقدما على القلب .

والخطة التى درسها ورسم خيوطها لابد أن تنجح ولو كان الثمن على حساب حبه وحب زوجته .

ومن أجل أن تنجح هذه الخطة كان لابد أن تبقى زوجته لطفية في مصر .. بل لو ان الملكة نازلى نفسها كانت طلبت من حسنين أن تصحبه زوجته في هذه الرحلة ولو من باب التعمية وذر الرماد في العيون لكان حسنين رفض طلب نازلى وأصر على أن تبقى زوجته في مصر . ذلك لأنه كان يعرف زوجته حق المعرفة ويعرف مقدار حبها له وغيرتها عليه ، وأنها ـ وهى ابنة الأميرة شويكار ومن أفراد البيت المالك ـ لن تبالى اذا اضطرمت نار غيرتها أن تقذف بالاتهام في وجه نازلى ملكة مصر !.. وبعد .. من تكون نازلى هذه ؟ ابنة عبد الرحيم باشا صبرى المدير السابق لمديرية المنوفية ! أما هى ـ لطفية ـ فانها ابنة شويكار وحفيدة محمد على !..

وهذا كلام سبق أن سمعه حسنين من فم زوجته لطفية ! ماذا يحدث اذن لو انه سمح لها بالسفر معه الى أوروبا .. ولاحظت هى ـ باحساس الغيرة المرهف

وعيني الزوجة المفتوحتين ـ ماذا يحدث لو لاحظت ما هنالك أو بعض ما هنالك بين نازلي وحسنين ؟

سوف تكون فضيحة ومشهدا مثيرا ، وتفشل الخطة التي رسمها ليحقق مطامعه وهي أن يصبح الرجل الاول في الدولة .. بعد الملك ، وأن يسيطر على الملك فاروق عن طريق أمه نازلي !..

كلا ، لابد أن تبقى لطفية في مصر .

وهكذا كان .. وخرج حسنين من داره في يوم ٢٧ فبراير عام ١٩٣٧ ليرافق الملك في القطار الخاص الى بورسعيد .. والباخرة .. وأوروبا .. وترك وراءه زوجة ثائرة تسب وتشتم وتهدد وتتوعد بأنها لن تسكت على نازلي .. كلا .. ولا ألف مثل نازلي !

***

وكان الوزراء ورئيسهم « رفعة » مصطفى النحاس باشا قد رافقوا فاروق في القطار الخاص الى بورسعيد ثم صعدوا الى ظهر الباخرة وودعوه .

وفوجيء النحاس باشا ومكرم باشا برؤيتي على ظهر الباخرة مع أفراد الحاشية التي ترافق فاروق في رحلته الي أوروبا .

وصاح النحاس باشا بلهجته المعروفة :

ـ تسافر !.. ازاى الكلام ده .. ازاى.. ازاي..

وكررها نحو عشر مرات .

ـ وسايب الجرنال لمين ؟

قلت : البركة في محمود وكريم .

وقال « رفعته » : محمود وكريم ! محمود وكريم ! لا ..لا .. لا .. ياسي التابعي .. لا .. لا .. لا ياسي التابعي .

وكررها نحو عشر مرات .. وتدخل مكرم باشا وقال

وهو يهدىء من غضب رئيس الوفد :

ـ صحيح الاستاذ التابعى غلطان .. كان يجب يقول لنا ويستأذن من «رفعتك».. لكن انت تعرف يا باشا ان الاستاذ التابعى يحب السفر .. والتهييص .. هذا وهو يضحك ويربت على كتفى .

ولكن النحاس باشا انطلق مرة أخرى يقول :

ـ التهييص .. التهييص .. تهييص ايه .. تهييص ايه ؟

وكررها نحو عشر مرات .. ثم عاد وانطلق :

ـ والجرنال .. والجرنال يا مكرم ؟

ذلك لأن النحاس باشا لم تكن له يومئذ أقل ثقة فى صدق أو اخلاص وفدية شريكى الاثنين : محمود أبو الفتح ، وكريم ثابت ـ وخصوصا محمود ـ وكنا نحن الثلاثة قد أصدرنا فى شهر أكتوبر السابق أى منذ نحو خمسة أشهر جريدة «المصرى» على « مبادىء وسياسة الوفد المصرى » .

والتفت « رفعته » يسألنى مرة أخرى :

ـ ومسافر وسايب الجرنال لمحمود وكريم ؟ !.. وعاوزنى أقول لك ايه ؟ !.. أقول لك مع السلامة ياسى التابعى ؟ ! طيب مع السلامة ياسى التابعى !.. آه .. مع السلامة.. مع السلامة.. آه .. وادى كمان بوسة ياسى التابعى .

وعانقنى الرجل الطيب القلب وقبلنى .. وغادر « رفعته » والوزراء والمودعون السفينة .

وبعد منتصف الليل بقليل تحركت السفينة « فايسروى أوف انديا » وغادرت الميناء .

***

وكان على واجب يجب أن أؤديه .

كانت « المصرى » قد أوفدت ـ فيما أذكر ـ الاستاذ عبد الحليم الغمراوى ليوافيها بانباء الرحلة الملـكية من القاهرة الى ساعة قيام الباخرة من بورسعيد .

وكان على أن أوافى الجريدة بأنباء الرحلة بعد قيام الباخرة .. وماذا فعل الملك والملـكة والأميرات وأين تناولوا العشاء وكيف أمضوا السهرة الاولى على ظهر الباخرة .. الى آخره .

ورحت أطوف بالباخرة واجمع المعلومات والتفاصيل بعضها بالمشاهدة ، وبعضها الآخر من رجال الحاشية ثم كتبت البرقية التىكان‌على أن أرسلها فورا عن طريق اللاسلـكى الى جريدة « المصرى » لتظهـــر فى عدد الصباح .

ولـكن أين مكتب اللاسلكى فى هذه الباخرة الضخمة وهى من عابرات المحيط وكانت قادمة من استراليا وفى طريقها الى انجلترا ؟

وسألت .. وقيل لى انه فى أعلى سطح السفينة .. حيث توجد غرفة القيادة وغرفة نوم القبطان .. وبعض زوارق النجاة .. ولا شىء آخر .

وتسلقت عددا كبيرا من السلالم الضـــيقة ـ ذات الدرجات الحديدية بين سطح وسطح ـ الى أن وصلت الى السطح الأعلى .

وكان الظلام تاما وشاملا الا من نور خافت ينبعث من غرفة مكتب تلغراف اللاسلـكى .

ودخلت وناولت البرقية الى عامل اللاسلكى وانتظرت حتى قرأها .. وخرجت .. ووقفت قليلا ريثما تعتاد عيناى الظلام .

وهنا تبينت ـ على مســـافة غير بعيدة ـ شبحين مستندين الى حاجز الباخرة .. وكأنهما كانا يتفرجان

على أنوار بورسعيد وهى تومض من بعيد.. وكانا الملكة وأحمد حسنين ! ولم يكن فى وقفتهما معا شىء يريب .. الملكة تريد أن تتفرج على بورسعيد من على ظهر الباخرة او لعلها كانت تريد أن تلقى نظرة أخيرة على شاطىء الوطن ! ويصاحبها كبير الحاشية ورائد ابنها الملك .

لا شىء عجيب أو مريب فى هذا كله .. فقط !

فقط كانت الملكة تتكىء على حاجز السفينة.. وكانت يد حسنين تتكىء على كتفها !

وكانت هذه أول « علامة » اكدت عندي صدق الاشاعات !

وحدث ذات مساء ـ أثناء رحلتنا بالباخرة وكنا فى قاعة الرقص ـ ان تقدم انجليزى كان قد تناول من الخمر أكثر مما يحتمل راسه ـ وكانت الباخرة مزدحمة بالانجليز العائدين من استراليا والهند وعدن ـ تقدم هذا الانجليزى المخمور من السيدة زينب ذو الفقار وانحنى أمامها باحترام وهو يكاد يفقد توازنه من فرط السكر والتمس من « جلالتهـا » أن تسمح له بهذه الرقصة !

وكانت اوركسترا الباخرة تعزف موسيقى رقص.. وتلفتت زينب هانم حولها .. كأنها تبحث عن منقذ أو منفذ للنجاة .. فلم تجد !

وكان الرجل مخمورا ـ كما قلت ـ ولحوحا ولو ان الحاحه كان فى أدب يليق بمن يقف أمام « صاحبة الجلالةملكة مصر » !

ورات زينب هانم انه من الافضل الا تثير ضجة او تلفت الانظار فقامت وراقصت الرجل .. ثم غادرت القاعة فورا .

هذا والرجل يعتقد واصحابه يعتقدون أن السيدة

التى رقص معها هي ملـكة مصر !

واتصل الخبر بفاروق فغضب غضبا شديدا وتساءل أين كان حسنين ؟ ولماذا لم يتدخل ويوقف الرجل عند حده أو يأمر ضباط السفينة بطرده من القاعة ؟ الى آخره .

ولـكن حسنين كان كالعادة يلازم الملـكة نازلى .. أو يتنزه معها فى مكان ما أو ركن ما على ظهر الباخرة الضخمة !

وفى الصباح ذهب حسنين الى الانجليزى المذكـور .. وكان قد فاق من سكره وقال له أمام أصحابه انه أخطأ مرتين :

أولا ــ أخطأ لأنه الح على سيدة ما بأن ترقص معه

وثانيا ــ أخطأ لأن هذه السيدة ليست ملـكة مصر ــ كما يعتقد ــ بل هى السيدة المرافقة لجلالة ملـكة مصر !

واعتذر الرجل .. وعرض ان يقدم اعتذاره لملـكة مصر ، وللسـيدة التى رقص معها ، ولـكن حسنين اكتفى بقبول الاعتذار بالنيابة عنهما .

وعاد حسـنين وأبلغ فاروق النتيجة .. وغضب فاروق وصاح فى حسنين :

ــ كان لازم تضربه قلمين !

واجاب حسنين :

ــ وهل كان يسكت على القلمين ؟.. أبدا .. كان ضربنى بوكس ! وكنت ضربته بوكس ووقعنا فى خناقة وفضيحة على ظهر الباخرة ! وكان الخبر طار باللاسلكى الى صحف أوربا وأمريكا .. والحـكاية كبرت .. والاشاعات كثرت عن سبب الخناقة .. وكانت ألف حكاية وحكاية خرجت تتحدث وتروى ما حدث وما لم

يحدث عن الرجل السكران الذى رقص مع ملكة مصر !

***

وكانت أول مرحلة فى الرحلة الملكية سويسرا .. وسان موريتز التى كانت تغطيها الثلوج فقد كنا لا نزال فى موسم الشتاء .

وحاول فاروق فى أول الأمر أن يتعلم « السكى » Ski أى الزحلقة على الجليد ولكنه وجدها رياضة شاقة وخطرة فانصرف عنها الى اللهو ومغازلة من فى الفندق ـ فندق سوفريتا ـ من فتيات .. ولكنه كان غزل أطفال وأشهد أن وجه فاروق كان يومئذ يعرف الحياء والاحمرار .. وكان يرتبك اذا ابتسمت له فتاة أو وقفت تتحدث اليه .. وكان لا يعرف ماذا يفعل بيديه ! فكان يشبك اصابعهما حينا .. ثم يضع احداهما فى جيب البنطلون .. ثم يخرجها ويمسك باصبعين منها طرف جيب الصديرى .. هذا وهو يضع ثقله حينا على قدمه اليمنى .. وحينا آخر على قدمه اليسرى .. وهكذا !

وكانت أول غزوة له مع شقيقتين من نبيلات السويد فكان يخرج معهما للنزهة على ظهور الجياد .

وبعد أن سافرت الشقيقتان السويديتان .. أخذ « يلتفت » الى فتاة مجرية ولكنه لم يلبث أن سئمها وتضايق منها لأنها كانت تلاحقه فى كل مكان يذهب اليه

وكان حسنين باشا يرى ويسمع ويراقب ولكن فى حذر شديد ، بل كان يتظاهر ـ وأمام فاروق ـ بأنه لايرى ولا يسمع ولا يعرف شيئا عن مغازلات ومغامرات صاحب الجلالة .

وقال لى مرة :

ـ ان الملك لايزال ينظر الى ـ ومنذ أيامنا فى لندن ـ

نظرة التلميذ الى الاستاذ .. وبيننا الآن ما يكون بين الاثنين من كلفة وتحفظ.. وهذا كما أعتقد من مصلحته ومصلحتي .. ويوم يشعر فاروق انني أعرف كل شيء عن مغازلاته ومغامراته هو يوم تزول الكلفة ويخرج على المكشوف ويفقد كل احترامه لي ولا يبالي بعدها بشيء .

وفي مرة أخرى قال لي وعلى فمه ابتسامة ساخرة :

ـ عقب وفاة الملك فؤاد وعودتنا من لندن اتصلت بي سيدات كثيرات من هوانم مصر وبنات أعرق الأسر فيها .. اتصلن بي وتحدثن الي في لباقة ودبلوماسية رفيعة عن الملك .. الشاب الممتلئة عروقه بدم الشباب الحار.. وعن صحته وما تتطلبه هذه الصحة الغالية.. وتحدثن كذلك عن السن الحرجة ـ سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة ـ وعن المتعة الصحية التي لابد منها لشاب موفور الصحة مثل « مولانا الملك » .. وعرضن ـ بكل لباقة ورقة وكياسة ـ وبكل أمانة وحرص وحذر عرضن خدماتهن على جلالة الملك .. وأبدين استعدادهن لأن يقدمن « البضاعة الصحية » اما في قصورهن .. أو الى القصر الملكي مباشرة .. كما يشاء !

وروى لي حسنين رحمه الله تفاصيل كثيرة واسماء كثيرة .. الى آخر ما لايمكن ولا يجوز أن يشار اليه ولو تلميحا أو من بعيد .

وقال :

ـ وكنت اقول لهؤلاء الهوانم ان « مولانا الملك » لن يرضى ولن يوافق اذا عرف أن لي دخلا في هذا الموضوع أو انني مطلع على أسراره « الصحية » وان الافضل والحالة هذه أن يحاولن الاتصال بجلالة الملك وعرض

خدماتهن عليه من طريق آخر غير طريقى .

***

ولعل رجولة أحمد حسنين ـ وما من أحد حتى من خصومه أنكر عليه رجولته ـ أقول لعل رجولته نفرت وأبت عليه أن ينزل الى القيام بمثل هذا الدور أو هذه الوساطة .

وبعد .. لقد كانت خطة حسنين تفرض عليه ـ اذا قدر لها النجاح ـ أن يكون قائد الملك .. لا قواده !.. أن يكون الرجل القوى الذى يوجه الملك ويرشده ويسيطر عليه ـ عن طريق أمه الملكة نازلى ـ لا الرجل الذليل الرخيص الذى يشترك فى « توريد البضاعة أو المتعة الصحية » للملك الشاب !

وهل كانت نازلى كامرأة لها كبرياؤها .. هل كانت ترضى عن حسنين وتخضع له وتأتمر بأوامره ، لو انه قام لابنها بدور القواد .. لا دور القائد ؟

كل شىء اذن .. وكل مصلحة .. وكل سبب .. فضلا عن دواعى الرجولة والخلق القوى .. كل شىء اذن كان يفرض على أحمد حسنين أن يبتعد عن هذا الجانب من حياة فاروق .

ولعل فى هذه الصفحة الموجزة ردا على الذين زعموا ان حسنين هو الذى علم فاروق الفسق والفجور !

***

وكان حسنين طول هـــذه الرحلة حريصا على مقامه واحترامه فى نفس فاروق .. وحريصا فى نفس الوقت على تقوية قبضته على نازلى الملكة وام فاروق .

وكانت الأميرات الشقيقات قد بدأن يتعلمن فى ساحة الفندق المغطاة بالجليد .. الزحلقة بالقبقاب

وكانت اكثرهن حماســة ورغبة فى التعليم فتحية التى

كانت لا تزال يومئذ فى السابعة من عمرها .. ولم تكن تبالى أن تقع عشر مرات أو عشرين مرة فى كل صباح .

وذات يوم نزلت الملكة نازلى نفسها تريد أن تتعلم هى أيضا .. وأمسك المدرب بذراعها .. وأحاط خصرها بيده .. وراح يعلمها كيف تنقل قدميها والقبقاب فوق الجليد .

وصاحبة الجلالة تتثنى وتتمايل ، والمصورون يلتقطون لها الصور فى هذه الاوضاع !

***

ووقف حسنين على درج السلم الخشبى الموصل بين الشرفة وساحة الزحلقة .. ومضت دقائق والملكة نازلى تحاول أن تتعلم وتمشى بالقبقاب.. وتحفظ توازنها.. وتضحك .. وأخيرا عادت أدراجها وخلعت قبقابها .

هذا وحسنين واقف ينتظر وعلى عينيه نظارة تحمى البصر من وهج الثلوج .

واقبلت نازلى ..

وانفجر حسنين .. ولكن صوته لم يعل عن طبقته العادية : لا .. لا .. مش كده ياست !.. مش كده أبدا .. بكره راح نسمع كلام فارغ كتير بسببك !

ولم تزد هى — صاحبة الجلالة — عن أن تبتسم فى وجهه .. وهى تصعد اليه درجات السلم الخشبى .. حتى اذا وصلت أخذت بذراعه وهى تقول :

— طيب خلاص .. مرة وفاتت !

وعجبت لهذه اللهجة التى يخاطب بها موظف القصر صاحبة الجلالة الملكة وأم ملك مصر ! ؟

وعجبت أكثر وأكثر لخضوع صاحبة الجلالة ! فهى لم تغضب .. بل اعتذرت .. وتابت !

وكان ما خاف حسنين أن يكون ... ونشرت صحف

مصر بعض هذه الصور التى ظهرت فيها الملكة نازلى وهى تتزحلق على الجليد .
وقامت مظاهرة من طلبة الازهر الشريف وتعالت فيها أصوات الاحتجاج والمناداة بالحياة والسقوط .
وبادر رئيس مجلس الوصاية وولى العهد الأمير محمد على توفيق وأرسل الى حسنين باشا خطابا شديد اللهجة يوبخه فيه بقسوة على سماحه للمصورين بالتقاط هذه الصور .. وعلى سماحه للملكة مصر بالزحلقة على الجليد .. وعلى .. وعلى .. الخ .
وهز فاروق كتفيه .. وقهقه ضاحكا .. أما نازلى فقد غضبت وثارت وعلا صوتها وهى تصيح :
ـ كفايه بقى .. كفايه سبعتاشر سنة وأنا محبوسة ! خدوا الكورونا من على راسى .. مش عاوزاها .. « والكورونا معناها التاج » !
غضبت الملكة نازلى من خطاب الأمير محمد على توفيق واعلنت انها وقد امضت فى سجن الملك فؤاد سبعة عشر عاما تريد اليوم أن تكون حرة .. والا فانها لا تريد هذا التاج على رأسها ثم انطلقت تسب الازهر والازهريين وتدعو الله أن يصيب « البرنس » محمد على بكذا وكذا وكيت .
ولزمت صاحبة الجلالة جناحها الخاص بالفندق يومين غاضبة .. وانقطعت عن تلقى دروسها فى الزحلقة على الجليد .
وفى نفس الوقت تلقيت « أمرا ملكيا » من فاروق أن أكتب الى زملائى الصحفيين فى مصر وأطلب منهم أن يكفوا عن نشر أية صور لجلالة الملكة نازلى .. اللهم الا الصور التى تظهر فيها مع جلالة الملك فاروق .
أما صورها وحدها ، أو مع الأميرات فممنوع النشر

وصدعت بالأمر الملكى وكتبت فى هذا المعنى خطابات خاصة الى « الاهرام والمقطم والمصرى ودار الهلال واللطائف المصورة » الى آخره .

واستجاب الزملاء لرجائى ولم يشر أحد منهم الى خطابى الخاص .. ما عدا المرحوم اسكندر مكاريوس صاحب مجلة « اللطائف المصورة » فقد نشر على صفحة كاملة من مجلته خلاصة لخطابى الخاص وتعليقا له قال فيه : ان الصحافة حرة ، فى حدود القانون ، واننا فى القرن العشرين وعصر الديمقراطية وحقوق الانسان ، وان « صاحبة الجلالة » الصحافة حرة فى نشر ما يحلو لها من صور أصحاب وصاحبات الجلالة .. ولتفعل بنا القوة ما تشاء !..

وكلاما فخما كثيرا فى هذا المعنى ! ومن يومها حرمت « اللطائف المصورة » وصاحبها من العطف الملكى السامى ! فلم تدع أو يدع صاحبها الى أية حفلة من الحفلات التى كانت تدعى اليها الصحف وأصحابها ورؤساء تحريرها فى قصر عابدين .

***

غضبت الملكة نازلى ، ولزمت جناحها الخاص .. وشكا جميع من كانوا معها من « عصبيتها » وحدة لسانها .

وذات صباح تلقى فاروق من مصر برقية تقول أن صاحب السمو الملكى الأمير محمد على قد أصيب بذبحة صدرية وأن حالته خطرة .

وهنا عادت الابتسامة الى شفتى الملكة نازلى وقالت لمن حولها : « أبواب السما كانت مفتوحة لما دعيت عليه ! دنا دعايا ما ينزلش الارض ! » .

وغادرنا سان موريتز فى مساء ٢٥ مارس الى جنيف

فوصلنا اليها صباح اليوم التالى ٢٦ مارس .

وجنيف مدينة تتوافر فيها أسباب اللهو لمن يريد أن يلهو .. وفيها أركان منعزلة ، ومحلات أنيقة لتناول الشاى ، وصالونات خاصة ، ونزهات بالسيارة خارج المدينة ، أو بزورق بخارى فى بحيرة ليمان الشهيرة .

وفى جنيف بدأنا نلاحظ كثرة خروج احمد حسنين مع الملكة نازلى وحدهما .. وأحيانا معهما السيدة الجليلة زينب ذو الفقار .

ثم فوجئنا بخبر سفر حسين صبرى باشا خال فاروق مع السيدة الكريمة زوجته عائدين الى مصر مع انه كان مقررا انهما سيلازمان الملك والملكة طول الرحلة فى أوروبا .

ودار همس خفى بأنهما سافرا لأنهما غير راضيين عن سلوك الملكة نازلى معهما ! فقط ؟ أم هناك شىء آخر ؟

لا أعرف . ولقد بقى السر معهما حتى اليوم !

***

وهكذا .. أقمنا أياما فى مدينة جنيف.. وكان أحمد حسنين يخرج مع الملكة !

والقائمقام عمر فتحى يخرج مع الملك !

ولم يخرج الاربعة معا الا فيما ندر !

وذات صباح ـ وكنا وقوفا فى بهو الفندق ننتظر نزول صاحب الجلالة من جناحه الخاص ـ اقبل علينا فاروق وعلى وجهه مسحة من الحزن والجد والقى علينا تحية الصباح ثم قال :

ـ البقية فى حياتكم .. الأمير محمد على مات !

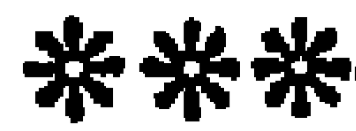
وأسدل كل منا على وجهه نقابا من الحزن واطرقنا برءوسنا كما كان ينبغى أن نفعل .. وتمتم بعضنا بعبارات العزاء والدعاء لله أن يطيل فى عمر مولانا .

وتسللت أنا على أطراف أصابعى الى غرفة مجاورة فيها مكتب وأدوات للكتابة وجلست أكتب صيغة برقية الى جريدة « المصرى » وأصف فيها كيف وقع الخبر الأليم فى نفس جلالة الملك وماذا فعل وماذا قال وكيف قدم اليه أفراد الحاشية عزاءهم ضارعين الى الله أن .. الى آخره .

وبينما أنا كذلك دخل على حسنين باشا وسألنى ماذا أفعل ؟ وعلى وجهه ابتسامة .. وقلت اننى أكتب برقية لجريدة « المصرى » بما حدث !

قال رحمه الله :

ـ برقية ايه يامدب ! مولانا ضحك عليكم والنهارده أول ابريل !..



وفى نفس اليوم ـ على ما أذكر ـ استأذنت من فاروق فى السفر الى « مونتريه » لكى أوافى جريدة «المصرى» بأخبار مؤتمر الغاء الامتيازات الاجنبية ريثما يصل الاستاذ محمود أبو الفتح الذى كان أرسل لى برقية يقول فيها انه مضطر للبقاء فى مدينة ميلانو بضعة أيام بسبب اصابته بعرق النسا !

وأذن لى فاروق بالسفر وطلب منى أن أبلغ تحياته الى « رفعة » النحاس باشا وزملائه وتمنيات جلالته لهم بالتوفيق .

وسافرت الى « مونتريه » وبقيت فيها عشرة أيام ، وكان عجيبا حقا أن أسمع هناك ـ لأول مرة ـ ومن الدكتور أحمد ماهر ـ رحمه الله ـ أول اشاعة تربط بين اسم فاروق واسم صافيناز .. فقد خرجنا ذات مساء ـ أنا والدكتور أحمد ماهر وجورج دومانى بك ـ وكلاهما عضو فى وفد مصر لدى مؤتمر الغاء الامتيازات

الاجنبية .

خرجنا نتمشى على ضفة بحيرة ليمان فى الطريق الى « فيفيه » .

وسألنى أحمد ماهر :

ـ صحيح جلالة الملك راح يتجوز الآنسة صافيناز؟

ودهشت ، وعجبت من أين جاءت هذه الاشاعة ؟ فقد كان مضى على شهر كامل أرى فى كل يوم فيه الملك فاروق والآنسة صافيناز ذو الفقار دون أن الاحظ شيئا ..

كان فاروق يعاملها كما يعامل شقيقاته الصغيرات.. وكان أفراد الحاشية ـ وأنا معهم ـ يعاملونها بأدب جم ولكن بدون كلفة .

كنا مثلا نبتسم اذا لقيناها ونحييها .

ـ بونجور مدموازيل ، أو بونجور « فافيت » !

و « فافيت » تدليع صافيناز .. وكانت هى ترد التحية بأدب واحتشام وتقول :

ـ بونجور اكسلانس .. أو بونجور يا أستاذ !

ولم يخطر ببال أحدنا ـ أو بالى أنا على الأقل ـ ان هناك شيئا ما بين فاروق وصافيناز .. أو أن « فافيت » هى ملكة مصر القادمة !

دهشت أذن وعجبت ، سألت الدكتور احمد ماهر من أين سمع هذا الخبر ؟

وضحك رحمه الله وقد ظن انني قد وقفت على هذا السر بحكم ملازمتى لحاشية الملك ، ولكننى أرى من واجبى أن أكتم سر الملك وصافيناز .

وضحك وقال :

ـ طيب ما تعملش عبيط ! الحكاية سمعناها فى مصر .

اى ان الخبر طار الى مصر من قبل أن نلاحظ شيئا نحن الذين كنا مع فاروق وصافيناز ؟

والتفسير الوحيد عندي هو أن حسين صبرى خال الملك والسيدة زوجته هما اللذان أذاعا السر فى مصر .

***

وكان فاروق ومن معه قد غادروا جنيف الى مدينة برن .

وفى برن ـ كما علمت فيما بعد من أصدقائى رجال الحاشية ـ بدت من فاروق أول اشارة تدل على حقيقة عواطفه نحو الآنسة صافيناز .

كانت صافيناز تتناول طعامها دائما مع الأميرات : فوزية وفايزة وفايقة وفتحية .. ثم تنسحب معهن بعد تناول العشاء مباشرة لتأوى كل منهن الى غرفتها .

وكان غير مسموح لهن بالسهر .

ولكن حدث فى برن ـ ولأول مرة ـ أن نزلت الآنسة صافيناز وهي ترتدى ثوبا من ثياب السهرة .

ولم تنسحب بعد تناول العشاء مع الأميرات كما كانت تفعل ، بل بقيت فى قاعة الفندق الكبرى .

ثم دعاها فاروق للرقص معه .. ورقص الاثنان معا اكثر من مرة فى تلك السهرة .. وكانت تلك اول مرة ـ كما قلت ـ وكانت هذه أول اشارة او أول خطوة خطاها فاروق الى صافيناز .

ولم تحدث هذه الاشارة أو هذه الخطوة الا فى « برن » .. ولكن اشاعة الزواج كانت فى مصر قبل أن يصل فاروق وصافيناز الى «برن» وقبل أن يرقصا معا !..

وانهيت مأموريتى فى مونتسريه ولحقت بفاروق

وحاشــيته فى مدينة زيوريخ ، وبعد أيام سافرنا الى باريس ! باريس التى كانت نازلى ـ كما قالت مرارا ـ تشتهى أن تزورها قبل أن تموت !

وكنا جميعا قد انتهينا الى تقرير امرين أو حقيقتين وهما :

فاروق يحب صافيناز ..

ونازلى تحب حسنين ..

وحسنين ؟ هل كان يحب نازلى ؟

لا أعتقد ولا أحد غيرى كان يعتقد هذا ، والحقيقة ان الاثر الذى انطبع يومئذ فى نفوسنا هو ان نازلى هى التى تجرى وراء حسنين .. وان حسنين « تقيل » ! ثم لعله كان يتعمد أن يثير غيرتها عليه فى بعض الظروف فقد لاحظت أن حسنين كان يحرص على التودد والتظرف والتحدث مع كل سيدة أو آنسة جميلة يلقاها فى قاعة الفندق .. اذا كانت الملكة نازلى موجودة !

بل كان يطلب منا اذا رأى مع أحدنا فتاة جميلة من المقيمات بالفندق .. كان يطلب منا أن نقدمه اليها .. ثم يدعوها للرقص .. أو لتناول شراب ما ..

كل هـــذا اذا كانت الملكة نازلى موجودة .. ترى وتسجل وتنقر بأصابعها على المائدة الصغيرة أو على ذراعى المقعد بغضب وعصبية !

أما اذا لم تكن موجودة فان حسنين كان قليـــل الاكتراث بالسيدات والآنسات .. وكان لا يتحرك لدخول أية جميلة مهما كان جمالها يبهر الأبصار أو يلفت الأنظار !

وحدث مرة ـ وكنا لا نزال فى سان موريتز ـ أن قام حسنين يراقص فتاة ألمانية كنت أعرفها واسمها « جوى جيجل » وكانت معدودة يومئذ من أبطـــال

التنس فى المانيا وحسنين راقص رشيق بارع .
والفتاة الالمانية طويلة القامة هيفاء العود .
وطال رقص الاثنين ..
وانتفضت الملكة نازلى واقفة .. ونادت بصوت ينم عن الغضب :
ـ حسنين !
وارخى حسنين على الفور ذراعه التى كانت تطوق خصر الفتاة وأسرع الى الملكة نازلى .
ـ أفندم ما جستيه ..
أى أفندم يا صاحبة الجلالة ؟
وخرجت « ماجستيه » من قاعة الرقص ، ووراءها أحمد حسنين ! ..
وتبادل بعضنا النظرات ..

***

اما فاروق فكان يرقص ساعتئذ مع شهيرة هانم زوجة خاله حسين صبرى باشا ولعله لم يلاحظ شيئا
وأكبر ظنى أن فاروق لم يكن يومئذ يخامره أى شك فى سلوك أمه أو فى حقيقة علاقتها بأحمد حسنين .
كان فاروق يومئذ لايزال يحسن الظن بأمه .. ويحسن الظن برائده أحمد حسنين .
قلت ان أحدا منا لم يكن يعتقد أن حسنين باشا ممثل بارع ، وان كل اشارة منه بحساب وكل خطوة بحساب وكل نظرة وكل عبارة موزونة بالدرهم والمثقال وانه ـ فى كلمة واحدة ـ لا يفعل شيئا اعتباطا أو « لوجه الله » .
انه لم يكن يحب نازلى ، وهذا أمر كان مفروغا منه عند الذين يعرفون أحمد حسنين .
ولكنه كان حريصا على أن تحبه هى .. ومن هنا كان

يتعمد ـ كما ذكرت ـ أن يثير غيرتها .

لماذا ؟ لماذا يحملها على أن تحبه ، بينما هو لايحبها ؟ لـكي يخضعها لارادته ، ويسيطر عليهـــا .. وقديما قالوا : « ان الأقوى بين كل محبين اثنين هو الذى يحب أقل من صاحبه » . والذى يسيطر على نازلى يسهل عليه أن يسيطر ـ من ورائها ـ على فاروق .

وكان الأمر واضحا لكل ذى عينين ومنـــذ كنا فى أوروبا فى صيف عام ١٩٣٧ .

***

وكان حســـنين يعامل نازلى أمامنا معاملة الموظف المرءوس لصاحبة الجلالة .. أى بكل الاحترام والطاعة والأدب .

رغم ذلك كانت تبـــدو منه ـ ربما عفوا ـ بعض الاشارات أو العبارات التي وان كانت لا تتنافى مـــع الاحترام والأدب الا أنها كانت تنم بكل تأكيد عن القوة ، أو السيطرة ، وانه هو الأقوى ، وان كلمته هى التى يجب أن تنفذ !

دخلت عليه مرة ذات صـــباح فى غرفته بفنـــدق « بلاتزا اتنيه » حيث كان ينزل الملك والملكة والأميرات والحاشية ـ وكان حسنين مسترخيا فى فراشه يتناول قهوة الصباح . وجلست فى مقعد الى جانب الفراش.

وكنا فى أوائل شهر يونية ، وهو من أجمل شـــهور السنة فى باريس .

وكان اليوم يوم « أحد » .. وراح حسنين يحدثنى عن أيام شبابه وذكرياته فى باريس يوم أقام فيها وعدل عن الدراســـة فى أكسفورد .. وقرر أن يدرس فن الرسم فى الحى اللاتينى .

وحسنين ـ حين يريد ـ كان يستطيع أن يتحدث

كشاعر وأن يحلق بسامعه فى سماوات الأحلام ..
ودق جرس التليفون الموضوع بجانب السرير .. وتناول حسنين السماعة .. وسمعت صوتا نسائيا .. واعتدل حسنين فى فراشه وقال :
ـ صباح الخير ماجستيه .

وادركت أن التى تكلمه هى الملكة نازلى .. ووقفت أريد الانسحاب ولكنه أشار الى بيده أن اجلس .. فجلست .

وكان صوت الملكة نازلى مسموعا وواضحا تماما كما يحدث أحيانا فى بعض آلات التليفون .

وكانت جلالتها تريد أن تذهب مع « البنات » ـ كما كانت تسمى الأميرات ـ الى ملهى « لونابارك » .

وقال حسنين :
ـ مستحيل ماجستيه !...

ومضى يقول ان اليوم « الاحـــد » وان لونابارك سيكون مزدحما بمختلف طبقات الشعب وكل من هب ودب .. فكيف تذهب ملكة مصر وصاحبات السمو الملكى شقيقات ملك مصر الى ملهى شعبى كهذا فى يوم الاحد ؟

وسمعت الملكة تضحك وهى تقول :
ـ يظهر انك عجزت خلاص ياحسنين ؟
وألحت فى الذهاب ..
وأصر هو على الرفض ؟
وكان له ما أراد .. وعدلت نازلى عن الذهاب الى لونابارك !

ولكن هل كان اعتراض حسنين على ذهاب نازلى الى ملهى لونابارك يوحى من اخلاصه وواجبه كرائد لابنها الملك ورئيس الحاشية الحريص على سلامتها

وسلامة الأميرات .. وحريص على مكانها كملكة مصر .
ام ان إعتراضه كان لمجرد الإعتراض .. ومجرد الرفض .. ومجرد خلق فرصة او مناسبة يقول فيها : « لا » .. ويرغمها ـ ملكة مصر ـ على أن تخضع وتقول له : « نعم » ؟ !

كان هذا هو الواقع .. واعتراض حسنين كان من باب « الترويض » .

كانت نازلي ـ كما قلت ـ تتحرق شوقا الى باريس ، ومشاهدة كل ما فى باريس .. ومن هنا كانت تضيق احيانا بمعارضة حسنين وتغضب وتثور .

وكان هو اذا رأى ان ثورتها توشك أن تنفجر .. فتح قبضة يده وارخى لها الزمام .. حتى اذا تعبت من العدو عاد وجمع الزمام فى قبضة يده القوية .

وهكذا رأيت حسنين الذي عارض فى ذهاب الملكة الى لونابارك ، رأيته يصحبها بنفسه الى ما هو شر بكثير من لونابارك .. رأيته يصحبها الى سهرات فى حانات و « صناديق الليل » فى أحياء مونمارتر ومونبارناس .

وكان يوجد وقتئذ فى حى مونبارناس ملهى او على الاصح « ماخورة » اسمها « سفنكس » .. ترقص فيها فتيات وهن عاريات الجسد تماما حتى من ورقة شجرة التوت !

وذهبت ذات مساء مع صديقين من رجال الحاشية الى «سفنكس» المذكور .. وأشهد ان نفوسنا اشمأزت مما رأيناه فغادرنا الملهى أو « الماخورة » مسرعين .

ولكنى سمعت بعد ذلك ان « سفنكس » كان من بين ملاهى مونبارناس التى زارتها صاحبة الجلالة ملكة مصر وفي معيتها أحمد حسنين !

والذى يستطيع أن يفهم .. يستطيع أن يعذر !

كانت نازلى بطبعها وطبيعتها ميالة للمرح والاستمتاع بكل ما فى الدنيا وكل ما فى سنوات الصبا والشباب .

ولقد حرمت من الشاب الذى أحبته وحرمت كذلك من حق شبابها وصباها .

وأمضت أحلى سنوات العمر سجينة فى قفص ، أو فى قصر فخم منيف سجانه الملك فؤاد .

ومات السجان .. وتحررت السجينة .. وانطلقت ـ كما سبق أن قلت ـ انطلقت تنهل ملء راحتيها من عيون الحياة .. وهى تشعر انه لم يبق لها من سنوات « ما بعد الصبا » الا القليل .. ولم يبق بينها وبين الكهولة المرة الباردة الا القليل .

وكان حسنين الخبير بطباع النفوس يعرف هـذا ويقدره .. ويعمل له حسابا.. ولو انه كان وقف دائما فى وجههـا يعترض ويقول : « لا » .. لانتهى الأمر بثورة عاصفة جامحة .. ومن هنا كان يشـد حينـا ، ويرخى حينا .. وهكذا استطاع أن يحفظ المظاهر ـ ولو الى حد ما ـ وأن ينقذ ملكة مصر من انهيار خلقى نفسانى فظيع .

ولسوف يقول التاريخ الحق ان نازلى ملـكة مصر لم تنفجر و « تفجر » الا بعد موت مروضها احمد محمد حسنين .

وذات مسـاء ذهب فاروق ـ ومعه بعض رجـال الحاشية ـ الى ملهى « بال تابران » فى مونمارتر ولم يجدوا مقصورة خالية او مقاعد من مقاعد الدرجة الاولى أو الثانية .

فقد كان الملهى المذكور كعادته مكتظا بالمئات .

واخيرا وقف فاروق واصحابه فى المحل المخصص

للدرجة الثالثة .

وفى صباح اليوم التالي صدرت جريدة باريسية ـ وهى « انتراسيجان » وفيها « ريبورتاج » أو وصف مسهب التفاصيل لزيارة ملك مصر للملهى بال تاباران .

وعنوان المقال مقتبس من قصة فيكتور هيجو المشهورة « الملك يلهو » Le roi s'amuse وكنت جالسا ـ فى نفس الصباح ـ فى بهو فندق «بلاتزا اتنيه» مع اليوزباشى احمد الطاهر ونزل المصعد الكهربائى .. وفتح بابه.. وخرجت منه الملكة نازلى ووراءها وصيفتها الفرنسية وفى يدها عدد جريدة « الانتراسيجان » .

اذن فقد قرأت صاحبة الجلالة مقال الصحيفة الباريسية عن ابنها .. الملك يلهو !

واذا كان فاروق .. الشاب الذى لا تزال الحياة أمامه فسيحة ممتدة .. اذا كان ينتهز فرصة وجوده بباريس ليلهو ويلعب فأولى بها هى ـ بل ومن حقها ـ أن تلهو وتلعب ولم يبق بينها وبين الكهولة وسن اليأس الا القليل .

لعل شيئا من هذا كان يدور برأسها حين تقدم منها احمد الطاهر وانحنى .. ومدت اليه يدها فقبلها .

وسمعته يقول :

ـ كل عام ومولاتنا بخير .

وابتسمت هى وقالت :

ـ خلاص يا كابتن عجزنا .. ولا بقاش الا القليل !

وكنت قد وقفت بدورى .. ولكننى بقيت واقفا حيث كنت « زى اللوح » ولم أتحرك .. ولم أقدم لجلالتها التهانى لسبب بسيط ، وهو اننى لم أكن أعرف مناسبة التهنئة !

وقال يوزباشى أحمد الطاهر :

ـ النهارده عيد ميلاد الملكة نازلى .

***

وقد دار الطاهى يومئذ على سيدات ورجال الحاشية يسأل كلا منهم وكلا منهن عن عدد الشموع التى يضعها فى « تورتة » عيد مولد صاحبة الجلالة .. وكل شمعة بسنة من سنى حياتها المديدة .

وتهربوا جميعا من الرجل .. ومن السؤال .

واخيرا قيل له : « ضع نفس عدد الشموع التى وضعتها فى العام الماضى » .

وكان عددها اربعا واربعين ! اى ان الملكة نازلى كان عمرها فى صيف ١٩٣٧ خمسة واربعين عاما !

لا عجب !

وحدث أثناء اقامتنا فى باريس أن وصل وفد مصر لدى مؤتمر الغاء الامتيازات فى مونتريه بعد توفيقه فى مهمته وهى موافقة الدول الاجنبية ذات الشأن على الغاء الامتيازات والتنازل عن جميع حقوقها لسلطات القضاء المصرى .

وكان الوفد المذكور ـ كما ذكرت فى الفصل السابق ـ برئاسة رئيس الوزارة يومئذ مصطفى النحاس باشا وكان من بين أعضاء الوفد الاستاذان مكرم عبيد باشا والدكتور أحمد ماهر .

ونزل النحاس باشا والسيدة قرينته فى جناح كبير بفندق جورج الخامس .

ونزل معه فى نفس الفندق الاستاذ مكرم عبيد والسيدة قرينته . أما الدكتور احمد ماهر فقد اختار رحمه الله فندقا من فنادق الدرجة الثانية بميدان « بيراميد » ـ أى الاهرام ـ المقام فيه تمثال لجان دارك ، بشارع ريفولى ، وهو فندق ريجينا ونزل به

مع صديقه المرحوم السيد عبد الحميد البنان .

وطلب منى حسنين باشا أن أدبر له اجتماعا مع مكرم عبيد باشا .. وكلمت الاستاذ مكرم فوافق ورحب بالاجتماع بحسنين ، ولكنه سألنى :

ــ ما تعرفش عايز يقابلنى ليه ؟

قلت : لا أعرف .. ولكن لعله يريد أن يقول لك ما سبق أن قاله لى مرارا وهو ان الملك فؤاد مات .. وان من حسن السياسة أن يدفن الوفد خصومته القديمة للملك فؤاد وأن ينسى مخاوفه وشكوكه من القصر ورجال القصر .. لأن العهد قد تغير .

واجتمع الرجلان بعد ظهر أحد الايام فى مطعم ــ مقهى « البافيون ده روز » بشارع الشانزليزيه .

وصح ما توقعته وبدأ حسنين الحديث عن فاروق ، وكيف أنه وطنى ومؤمن بحقوق بلاده وحقوق شعبه.. ومتحمس لمصر وكل ما هو « مصرى » الى آخره .. ورجا من الوفد ــ فى شخص مكرم عبيد ــ أن ينسى الماضى وما كان فيه من خصومات .. وأن يبدأ مع الملك والقصر ،ورجال القصر ، عهدا جديدا يقوم على التعاون فى خدمة مصر واحترام ما للشعب من حقوق وما للملك من حقوق .

ثم قال حسنين : انه يعتقد ان لا شىء أعظم وأجدى من الصراحة .. وانه شخصيا ليس من رجال السياسة ولا يفهم فى السياسة ، بل ولا يريد أن يفهم فيها أو يشتغل بها ، ولكنه مع ذلك يقول : انه اذا قدر عليه ــ لا قدر الله ــ أن يشتغل فى يوم ما بالسياسة فانه سوف يجعل الصراحة مبدأه الذى لا يحيد عنه .. ولهذا فانه يرجو من رجال الوفد ــ ومن مكرم باشا بالذات ــ أن يصارحوا القصر ورجال الملك دائما بما

يريدون ويقترحون وبأية ملاحظات لهم . وانه ـ اى حسنين ـ يعد بأنه من جانبه سوف يكون دائما معهم فى منتهى الصراحة .. وسوف يعمل من جانبه على تحاشى كل سبب من أسباب الخلاف ويحرص علي تسوية كل مشكلة وكل نزاع على أساس احترام حقوق الشعب ، وحقوق الملك كما حددها الدستور .

هـذا ـ وحسـنين ـ يفرد يديه أمامه تواضعا واستصغارا لشأن نفسه وشأن منصبه .

ثم يقول :

ـ ولو اننى كما قلت لا اشتغل بالسياسة ولا افهم فيهـا كما ان منصبى فى القصر ليس من المناصب السياسية والحمد لله !

ورد مكرم باشا فقال ما خلاصته ان الوفد قد دفن الماضى ونسى خصوماته حتى ومن قبـل وفاة المرحوم الملك فؤاد .. وان النحاس باشا فى آخر مقابلة له مع الملك فؤاد وهو على فراش الموت أكد له اخلاص الوفد للعرش وان الملك فؤاد قال يومئذ للنحاس باشـا انه تأكد الآن من ان مصطفى النحاس هو أخلص رجل له فى مصر .. الى آخره .

وان النحاس باشا وجميع أعضاء الوفد يحبون الملك فاروق ويستبشرون خيرا على يديه ، وانهم يخلصون له كل الاخلاص وليس أدل على اخلاصـهم لشخصه الكريم من ان الوزارة ـ « وزارة الوفد » ـ رفضت الاقتراح الذى تقدم به البرنس محمد على رئيس مجلس الوصاية برفع سن الرشد للملك من ١٨ الى ٢٥ عاما ، وعودة الملك فاروق الى انجلترا ليستأنف دراسته الى أن يبلغ سن الخامسة والعشرين .

وقال مكرم انه يعد حسنين بأنه هو ايضا من جانبه

سيعمل دائما بصراحة واخلاص من أجل تسوية كل مشكلة وكل نزاع قد يقوم فى المستقبل بين القصر والحكومة الدستورية النيابية.. الى آخره.. الىآخره

وافترق الرجلان وهما يبتسمان ويؤكدان — كل منهما لصاحبه — ان كل شيء سوف يسير باذن الله على ما يرام !

وانصرف حسنين وتركنى مع مكرم عبيد ، وقال مكرم وهو يطلق ضحكته التهكمية القصيرة :

ـ ايه ؟ حسنين عايز يفهمني انه عبيط خالص ولا يعرفش حاجه أبدا فى السياسة ؟

قلت : جايز ..

قال : لكن غرضه ايه ؟

قلت : الذى فهمته من حديثه انه خايف منكم على الملك فاروق ويريد أن يطمئن على حسن نواياكم .

وقال مكرم : طيب وايه حكاية التعاون دى بيننا وبينه ؟

قلت : ولم لا ؟ انه الآن رائد الملك وأقرب رجال القصر اليه .. بل هو صاحب النفوذ الاول فى القصر.

وعاد مكرم وأطلق مرة أخرى ضحكته القصيرة وقال وهو يضغط على ذراعى بيده :

ـ والملكة نازلى .. هيه ؟

قلت : نعم .. والحكاية معروفة .. وحسنين باشا ـ كما قلت معاليك ـ صاحب النفوذ الاول عند الملكة نازلى .

***

واعترف اننى لم أفهم تماما غرض حسنين باشا من مقابلة مكرم باشا الا فى ضوء الحوادث التالية ، وسوف اعرض لها فى الوقت المناسب ، ولكننى لا ارى بأسا

فى أن اكشف السر منذ الآن وأقول ان حسنين باشا رحمه الله كان يمهد السبيل للحصول على منصب رئيس الديوان .. وهو المنصب الذى كان قد بقى شاغرا منذ استقالة احمد زيور باشا فى حياة الملك فؤاد .

كان يمهد السبيل عن طريق اقناع مكرم عبيد ــ سكرتير الوفد والرجل الاول فى الوفد وصاحب الكلمة التى لا ترد عند رئيس الوفد مصطفى النحاس كما كان يعرف الجميع .. عن طريق اقناع مكرم عبيد بأنه ــ أى حسنين ــ رجل لا يفهم فى السياسة .. هذا أولا ، وثانيا ، انه رجل مسالم حريص على حسن العلاقات بين حكومة الاغلبية الوفدية والقصر.. وثالثا ، ان عهد الملك فؤاد قد مضى وراح بخصوماته ومؤامراته ودسائسه .. وان العهد الجديد شىء آخر ورجاله ــ الذين فى القصر ــ رجال آخرون لا يتمنون شيئا أكثر من احترام حقوق الشعب ، والمحافظة على حقوق الملك التى كفلها الدستور ولا شىء آخر .

وهذا ما كان يتمناه الوفديون ويطالبون به من زمن طويل .. وها هو ذا حسنين يعرض عليهم خدماته !.. حسنين « العبيط » الذى لا يفهم فى السياسة فهو اذن رجل مأمون لا يخشى شره ويمكن الوثوق به والاطمئنان اليه .

ولكنه ــ كما حرص على أن يقول لمكرم ــ فى منصب ليس من المناصب السياسية التى تجيز له الاشتغال بالسياسة أو التدخل فى الشئون أو المشاكل السياسية !

وأفهم اذن يامكرم باشا !.. ضعوا حسنين فى منصب سياسى بالقصر وهو كفيل بالعمل على احترام الدستور واحترام حقوق الشعب والبرلمان والحكومة الدستورية واحترام حقوق الملك فى الحدود التي رسمها الدستور !

وفى كلمة واحدة .. سوف يضمن لكم احمد محمد حسنين سياسة التعاون المخلص الصريح التى كنتم تتمنونها من زمن طويل !

وحسنين قادر على الوفاء بوعده لأنه ــ كما لابد أن سمعتم يا زعماء الوفد ــ صاحب النفوذ الاول عند فاروق ، وعند الملكة نازلى وهى بدورها صاحبة النفوذ الاول يومئذ عند ابنها الملك فاروق .

كان هذا هو تقدير حسنين باشا . ولاشك انه تقدير سليم أو تقدير مقبول عند الساسة المسالمين أو الزعماء الذين لا يعتدون كثيرا بقوتهم أو بحقوقهم التى ينص عليها الدستور .

ولكن ــ كما اننى لم أفهم يومئذ غرض حسنين من هذه المقابلة ومن حديثه الطويل ، كذلك مكرم لم يفهم قصد حسنين .

ويوم فهم الوفد ــ ومكرم باشا بالذات ــ غرض حسنين وهو انه يرشح نفسه لمنصب رئيس ديوان جلالة الملك .

رفض الوفد ان يزكى هذا الترشيح بحجة ان حسنين لم يدرس القانون ، ورئيس الديوان يجب أن يكون من رجال القانون !

وحجة أخرى وهى ان حسنين ليس من رجال السياسة وهو باعترافه لا يفهم فى السياسة ، ورئيس الديوان يجب أن يكون من رجال السياسة !

ومع ذلك .. فانه اذا كانت مصر قد أنجبت سياسيا

واحدا من الطراز الاول بعد عبد الخالق ثروت واسماعيل صدقى .. فان هذا السياسى هو أحمد محمد حسنين . ولكنه ــ كما قلت ــ كان دائما حريصا على أن يقول لكل من يلقاه انه لا يفهم فى السياسة ولا يريد ان يفهم

فيها أو يشتغل بها من باب التمويه والتضليل ولكى يحمل الساسة والزعماء على أن يطمئنوا اليه ولا يحسبوا له حسابا !

وكان حسنين رحمه الله يسر كثيرا ويفرك يديه فرحا عندما يسمع أن فلانا من الزعماء أو الساسة يقول عنه انه « عبيط »

***

وقرر فاروق أن يسافر الى لندن .

وفى نفس الوقت تقرر أن يعود وفد مصر برئاسة النحاس « باشا » الى سويسرا لكى يشهد اجتماع « المرحومة » عصبة الأمم فى جنيف ويقدم طلبا بانضمام مصر الى الهيئة المذكورة .

وتحدد موعد « يتشرف » فيه النحاس « باشا » وأصحابه أعضاء وفد مصر بمقابلة جلالة الملك بمناسبة سفرهم الى جنيف .

وفى الموعد المحدد أقبل فاروق على « الصالون » الخاص الملحق بجناحه فى الفندق ووقف حوله كبار رجال حاشيته فى انتظار وصول رئيس الوزراء .

ولكن النحاس باشا ـ كعادته ـ تأخر نحو ربع ساعة وكان فاروق يتأفف ويظهر غضبه ويقول انه قرأ مرة ان دقة المواعيد من آداب الملوك ، ولكنه يريد أن يقرأ ان اخلاف المواعيد يعد قلة أدب من رؤساء الوزارات !

وفى هذا المعنى بالذات ـ وبعد شهرين اثنين أوثلاثة شهور ـ كتبت جريدة « البلاغ » أكثر من مقال واحد بامضاء صاحبها المغفور له عبد القادر حمزة باشا .. وكان رحمه الله يومئذ لسان حال القصر بعد أن بدات أسباب الخصومة والخلاف تتعدد وتشتد بين القصر ورجاله من جانب وعلى رأسهم رئيس الديوان على ماهر

باشا ، وبين حكومة الاغلبية الوفدية ورئيسها مصطفى النحاس • ولكننى أسرع الخطى واستبق التاريخ

***

أقبل النحاس باشا متـــأخرا عن الموعد المحدد نحو ربع ساعة واستقبله فاروق .

ولم أشهد بطبيعة الحال هذه المقابلة لأننى كنت واقفا أنتظر فى غرفة أخرى ملحقة بالصالون مع بعض أفراد الحاشية .

ولم تطل المقابلة أكثر من دقائق .

وفتح باب « الصالون » وخرج منه النحاس ومكرم ومن معهما .

وكان النحاس « باشـــا » متجهم الوجـــه مقطب الحاجبين .. ولم يكد يرانى حتى أشار الى أن اتبعه .

ونزلت معهم الى بهو الفندق وأخذ النحاس «باشا» بذراعى وقال :

ــ اللعب بدأ من دلوقت ..

قلت : خيرا يا رفعة الباشا ؟

قال : لا .. مش خير أبدا .. أبدا .. الملك كلمنى عن حفلات التولية التى ستقام بعد عودته الى مصر ، وعاوز حفلة تقام فى القلعة .. آه فى القلعة .. وشيخ الازهر .. سامع ياسى التـــابعى ! شيخ الازهر يقلده فيها .. فى الحفلة دى سيف جده محمد على .. آه .. محمد على .. والأمراء .. الأمراء يكونوا حاضرين الحفلة ولابســـين الهدوم اللى كان جدودهم بيلبســـوها أيام محمد على .. وفى الحفـــلة دى مش عارف مين ومين رايحين يقســـموا له يمين الولاء والاخـــلاص ! .. أيوه ياسيدى .. حفلة فى القلعة .. انت عارف ياسى التابعى الدستور بيقول ايه ؟

ولم تسعفنى ذاكرتى بأحكام الدستور ونصوصه فى هذا الموضوع وقلت :

ــ لا .. ما اعرفش يا رفعة الباشا ..

وقال رفعته :

ــ ما تعرفش ؟.. طيب أنا أقول لك .. الدستور بيقول ان الملك قبل أن يتولى سلطاته ويباشرها يقسم اليمين الدستورية أمام الهيئة المشتركة من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب .. آه .. أهو ده اللى بيقوله الدستور .. ولا فيش حاجه فيه عن سيف جده محمد على .. ولا عن الأمراء وهدوم الأمراء .. ولا عن شيخ الازهر .. وانا مش فاهم شيخ الازهر ماله ومال مباشرة الملك لسلطاته الدستورية !

وكان شيخ الازهر يومئذ المغفور له الشيخ المراغى ولم تكن العلاقات بينه وبين الوفديين فى اى يوم .. على ما يرام .. فقد كانوا يخشونه .. وكان هو من جانبه لا يحسن الظن بهم .

وتدخل مكرم باشا فى الحديث ، وقال :

ــ البركة فى الاستاذ التابعى .. يحل لنا الاشكال ده

وقال النحاس باشا وهو يتجه الى السيارة الفخمة التى كانت تنتظره أمام الفندق :

ــ ايوه خلص لنا الحكاية دى .. وزى ما قلت : ما فيش غير أداء اليمين الدستورية ، تحت قبة البرلمان ولا قلعة ولا سيف محمد على ، ولا أمراء ، ولا حاجه من دى أبدا .. آه .. اللى فى الدستور وبس .

وأخذت مكرم باشا الى جانب وقلت له :

ــ ولكن الملك يسافر اليوم الى لندن .. وانا قاعد فى باريس .. لان لنا مراسلا فى لندن يمكنه أن يوافى « المصرى » بأخبار الملك والرحلة الملكية فى انجلترا .

وقال مكرم :

ـ معلهش علشان خاطرنا تسافر لندن وتسوى لنا هذه المشكلة .. واحنـــا عارفين ان جلالة الملك يحبك ويثق فيك .

***

وكانت حكاية القلعة وسيف محمد على الذي يقدمه شيخ الازهر الى فاروق .. ووقوف أمراء اسرة محمد على فى صفين وهم مرتدون ثياب الامارة فى القـــرن التاسع عشر الى آخره .. كانت هذه كلها « تقليعة » من تقاليع الأمير محمد على رئيس مجلس الوصاية وقد أفضى بها الى صحفى يعمل فى جريدة الاهرام فنشرها ، وغذاها ، وقوى الدعاية لها .. وكبرت الفكرة فى راس الأمير محمد على وبقية الأمراء .

ولا أعرف هل كان الأمير محمد على كتب الى فاروق فى هذا الموضوع أم ان فاروق قرأ الموضوع فى جريدة الاهرام فطابت له الفكرة ، وكانت الصحف والمجلات ترســـل من مصر بالطائرة وبانتظـــام الى فاروق وكان سكرتيره الخاص دكتور حسنى يقرأها ويعرض عليه ما يرى وجوب عرضه .

أما أنا فقد كان ذهنى خاليا تماما من الموضوع لأننى لم أكن أطلع على صحف مصر ! حتى جريدة «المصرى» التى كنت يومئذ احد أصحابها ومجلة « آخر ساعة » التى كنت صاحبها ، لم تكونا ترسلان الى فى أوروبا ، لأننى لم أطلبهما !..

***

وسافر فاروق الى لندن هو وامه وشقيقاته وجميع افراد الحاشية .. ونزل فاروق وأفراد الحاشية من الرجال ـ ما عدا الاستاذ أحمد يوسف مدرس اللغة

العربية للأميرات ـ نزلوا فى قصر « كنرى هاوس » فى كنجستون ، وهو القصر الذى كان يقيم فيه فاروق ايام دراسته القصيرة فى انجلترا .

أما الملكة نازلى وبناتها الأميرات وسيدات الحاشية ومنهن السيدة زينب ذوالفقار وكريمتها الآنسة صافيناز، فقد نزلن فى قصر استؤجر خصيصا لهن واسمه قصر « بالاردكوم » ويبعد عن قصر « كنرى هاوس » نحو كيلومترين .

وأقام معهن فى القصر المذكور الاستاذ أحمد يوسف وسافرت الى لندن بعد أيام قليلة ، ونزلت فى فندق « اثانيوم كورت » فى حى بيكاديللى .

واتصلت بالتليفون فور وصولى بحسنين باشا .

وذهبت الى « كنرى هاوس » وعرضت عليه المسألة ووجهة نظر مصطفى النحاس باشا .

وقال حسنين ان هذه مسألة سياسية ولا شأن له بالسياسة واقترح على أن اتحدث فى الموضوع مع دكتور حسنى بك سكرتير الملك .

وكان هـذا شأن حسنين دائما !.. كان يتحاشى المسائل الشائكة التى لا مصلحة له فيها . وقد كان الموضوع ولا شك شائكا .. فهو اقتراح من الامير محمد على أكبر الامراء سنا ومقاما .. والملك فاروق متحمس للفكرة وللموضوع ، ورئيس الوزراء وزعيم الاغلبية البرلمانية يعارض ويرفض العمل بالاقتراح .. هو اذن موضوع شائك . ولا مصلحة فيه لحسنين .

اذا هو لم يستطع اقناع الملك بالتخلى عن حفلة القلعة اغضب الوفديين وزعيمهم مصطفى النحاس .

واذا هو نجح فى تسوية المسألة واقناع فاروق ، فانه يغضب الامير محمد على ..

وتحدثت مع دكتور حسنى فى الموضوع ، وكان مما قلته ان هذه الحفلة ومراسيمها ليست من مصلحة جلالة الملك لأنها شبيهة بتتويج ملوك المسيحية ، وخصوصا حفلة تتويج ملك انجلترا .. « وكان تتويج ملك انجلترا الراحل جورج السادس فى نفس الشهر وتفاصيل الحفلات التى أقيمت عالقة بالاذهان » . وقلت :

ـ ومن ذلك القلعة ويقابلها فى حفلة جورج السادس كنيسة «وستمنستر آبى».. ورئيس أساقفة كنتربرى ويقابله عندنا شيخ الازهر .

كلا .. ياحسنى .. هذه الحفلة ليست فى مصلحة « مولانا » .. هذا من جهة .. ومن جهة أخرى فان الوزارة الوفدية متمسكة بأحكام الدستور ، وهذه الحفلة مخالفة سافرة لأحكام الدستور .. الخ .

***

وفى اليوم التالى عدت الى « كنرى هاوس » .

ونزلت من التاكسى عند « البوابة » الخارجية للقصر وكان يحرسها جندى من رجال بوليس لندن . واستوقفنى كالعادة ليتحقق من شخصيتى قبل أن يأذن لى بالدخول .

وفى هذه اللحظة رأيت فاروق راكبا دراجة « بسكليت » وصافيناز فوق دراجة أخرى والاثنان ينطلقان فى الطريق الى المروج الخضراء الممتدة بين « كنرى هاوس » وقصر « بالاردكوم » .

اذن فقصة الحب التى بدأت فى برن « سويسرا » تسير سيرا طبيعيا . ولقد سررت كثيرا . فقد كنا جميعا نحترم ونكبر الصفات الممتازة التى تتحلى بها الآنسة صافيناز ذو الفقار .

وتناولت الغداء مع رجال الحاشية . وبعد أن انتهينا

خرجت مع حسنى نتمشى فى حدائق القصر الواسعة .

وقال حسنى انه نجح ، والحمد لله ، وان «مولانا» قد تنازل عن فكرة حفلة القلعة وان برنامج حفلات التولية سوف تقتصر على حفلة أداء اليمين الدستورية امام أعضاء البرلمان .

وفى مساء نفس اليوم تقام حفلة عشاء تعقبها حفلة ساهرة فى قصر عابدين .

واليوم التالى حفلة استعراض الجيش .

ثم يستقبل الملك فى اليوم الثالث الامراء ورجال السلك السياسى والوزراء الحاليين والسابقين والشيوخ والنواب وكبار الموظفين وطوائف وهيئات من أعيان البلاد واطبائها ومحاميها وصحفييها .. الى آخره .. الى آخره ..

وفى أول يوم جمعة يؤدى جلالة الملك صلاة الجمعة فى مسجد الازهر الشريف ..

هذا هو البرنامج .

وقلت أنا : عال.. ولا أظن ان لأى أحد أقل اعتراض عليه ؟..

ولكننى كنت استبق الحوادث ، ومتفائلا أكثر مما ينبغى .. وكان حسنى بك لم ينته بعد من كلامه .. فقد قال : ان « مولانا » سوف يسره جدا أن يقدم له الشعب تاجا ، وأن تقام حفلة تتويج كبرى يدعى لحضورها ملوك ورؤساء دول العالم .

ومضى حسنى فى شرح الفكرة أو المشروع ، فقال :

ـ ولما كان جلالة الملك ديمقراطيا بطبعه ، وحريصا على أحكام الدستور التى تقول ان الأمة مصدر السلطات فانه يرى أن تكتتب جميع طبقات الأمة بثمن هذا التاج ، وان الذى يضع التاج على راسه هو رئيس

مجلس الشيوخ .. ويضعه باسم الأمة .. وهكذا يكون التاج من الأمة ، ويوضع على راس جلالة الملك باسم الأمة .. واعترف انني تحمست يومئذ لهذا المشروع ، ووعدت دكتور حسنى بتأييده .

***

واسرعت عائدا الى الفندق وطلبت بالتليفون مكرم عبيد باشا فى فندق « ده برج » فى جنيف وأبلغته تنازل الملك فاروق عن فكرة الحفلة الدينيـــة فى القلعة التى يقلده فيها شيخ الازهر سيف جده محمد على .. وقلت أن صاحب الجلالة يقترح أن تقتصر حفلات التولية على اداء اليمين الدستورية أمام شيوخ ونواب الأمة واقامة مأدبة عشاء تعقبها حفـــلة ساهرة فى قصر عابدين .. الى آخر البرنامج الذى ذكرته .

وانطلق مكرم باشا ـ وفى صوته رنين الفرح ـ انطلق يهنئنى على توفيقى فى مهمتى ويقول :

ـ عظيم .. عظيم خالص .. ده توفيق من الله .. وكلنا نشكرك يا استاذ تابعى ..

قلت :

ـ ولــكن حســنى بك كلمنى فى مشروع آخر وأنا وافقت عليه ووعدته بتأييد المشروع عندكم ..

وسألنى الاستاذ مكرم : وما هو المشروع ؟

ورويت له حديث الدكتور حسنى عن التاج الذى تكتتب بثمنه جميع طبقات الأمة .. ثم يضعه رئيس مجلس الشيوخ باسم الأمة على رأس فاروق فى حفلة يدعى اليها ملوك ورؤساء الدول .. الى آخره ..

وقلت انني أعتقد ان جلالة الملك نفسه هو صاحب فكرة التاج وانه فرح جدا بفكرته هذه وخصوصا بعد

ان عرضها على رجال حاشيته فتحمسوا لها ووافقوه عليها .

ورويت لمكرم ما سمعته فى معرض التأييد وهو ان مصر الفرعونيـــة القديمة كان لها « تاج » .. لا تزال آثارها وجدران هياكلها ومسلاتها تحمل رســومه .. وقد فقدت مصر « تاجها » بعد أن فقدت استقلالها .. أما اليوم وقد استردت مصر اســتقلالها بعد عشرات القرون فقد وجب أن تسترد مصر تاجهــا القديم .. الى آخره ..

وكانت الاشارة الى « استقلال » مصر الذى استردته بعد عشرات القرون اشارة الى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، أو معاهدة الشرف والاستقلال كما قيل عنها يومئذ !

واصغى مكرم باشا الى حديثى ، ثم قال :

ــ وهو كذلك ..

وهنا سألته :

ــ يعنى أقول لهم ان معاليك موافق ؟

قال : ما فيش مانع !

قلت : ومسألة أخرى .. ان الضجة لا تزال قائمة فى الصحف الوفدية حول الحفلة الدينيـــة فى القلعة وانا أخشى ان هى استمرت أن تفســد الجو فأرجوكم أن تعملوا على ايقافها .

قال : طبعا .. طبعا ..

ثم اتفقنا على أن أرسل الى جريدة « المصرى » برقية تضع حدا لهذه الضجة وللجدل القائم حول هذه الحفلة الدينية بين الصحف التى تؤيد اقامة هــذه الحفلة ــ وهى الصحف التى كانت متصلة بالاميرمحمد على توفيق وكانت تعمل وتكتب بوحى منه ــ وبين الصحف الوفدية التى كانت تعارض فى اقامة الحفلة فى القلعة .

وان اقول فى برقيتى الى جريدة « المصرى » اننى اتصلت برفعة الرئيس وبمعالي مكرم باشا فى جنيف ، وسألتهما عن رأيهما فى جدل الصحف المصرية حول هذه الحفلة الدينية ففوضا الى ان أذيع ان هـذا الجدل أصبح لا معنى له ولا سبب ، وان الوزارة حريصة على تحقيق رغبات جلالة الملك وان الثقة والتفاهم الكامل متبادلان لحسن الحظ بين جلالة الملك « المحبوب » ووزرائه المخلصين !

وأرسلت فعلا هذه البرقية الى جريدة « المصرى » .

ولـكن الحملة استمرت مع ذلك .. كما سترى فيما بعد .. واعود الى أصل الحديث :

انتهى حديثى بالتليفون مع مكرم باشا وبادرت وابلغت حسنى بك فى قصر « كنرى هاوس » خبر موافقة مكرم باشا على مشروع التاج ، ودعوته هو وزميله من رجال الحاشية على رشيد بك « وهو كبير الامناء فى القصر الجمهورى » لتمضية السهرة معى فى لندن .

واجتمعنا فى المساء ، وعلمت من حسنى بك انه ذهب مباشرة عقب محادثتى التليفونية وأبلغ «مولانا» موافقة مكرم باشا على مشروع التاج ، وان فاروق سر جدا بهذا الخبر .

وسمعت بين ما سمعته أثنـاء السهرة ، ان جلالة الملـكة نازلى قد كرهت لنـدن وانها ضيقة الصـدر وعصبية المزاج فى هذه الايام .. وانها تشكو من وحدتها فى قصر « بالاردكوم » مع « البنات » ـ اى الاميرات ـ وان احدا لا يعنى بها أو يهتم بالسؤال عنها أو الخروج معها .. وان جلالة الملك ابنها يكتفى بالسـؤال عنها بالتليفون ، لأنه مشغول بصـافيناز ، أو بنزهاته فى سيارته .. والقائمقام عمر فتحى مريض طريح الفراش

فى أحد المستشفيات .. وأما حسنين باشا ؟ ..

وهنا تقول الملكة نازلى :

ــ حسنين مش فاضى لنا دلوقت .. لأنه مشغول مع حبايبه فى لندن وعلى راى المثل : « من يلقى أحبابه ينسى أصحابه » .. وحبايب حسنين فى لندن كتير !..

ولم يكن عجيبا أن يجد حسنين باشا فى لندن ونواديها ومنتدياتها ودور كبرائها .. أو فى الريف الانجليزى الجميل القريب من لندن .. لم يكن عجيبا أن يجد حسنين فى هذا كله ما يشغله ويملأ وقته ويصرفه عن الاهتمام بالملكة نازلى وارضاء نزواتها .. ذلك ان حسنين كان ــ كما ذكرت فى الفصول السابقة ــ قد امضى أحلى سنى الشباب فى لندن أيام كان يتلقى دراسته فى جامعة اكسفورد .. ولقد كانت له صداقات كثيرة ومعارف أكثر فى لندن وفى الأسر الانجليزية الكبيرة التى تعيش فى الريف القريب من لندن .

ومن هنا انصرف حسنين عن الملكة نازلى .. لكى يعيش فى ذكريات أيام الدراسة والشباب الخالية ..

***

أما القائمقام عمر فتحى بك ، فقد كان أصيب ذات مساء ــ أثناء السهرة مع بعض رجال الحاشية فى أحد نوادى لندن الليلية ــ أصيب لأول مرة بالذبحة الصدرية وحملوه الى أحد المستشفيات .. ولما سمع فاروق بالخبر أسرع الى المستشفى وأمضى الليل الى جانب فراش ياوره الخاص الأمين وهو يبكى !

وكان فاروق لايزال وقتئذ رقيق الاحساس والشعور

***

وتناولت طعام الغداء فى اليوم التالى فى قصر «كنترى هاوس » .. وبعد الغداء صحبنى الدكتور عباس

الكفراوى – طبيب الملك الخاص .. وكانت له مكانة خاصة عند فاروق – صحبنى الى حديقة القصر لكى يتحدث الى عن منصب رئيس الديوان الذى كان شاغرا منذ استقالة صاحب الدولة احمد زيور باشا .

وقال الدكتور الكفراوى كلاما كثيرا لا أذكره بحروفه وكلماته ولكنه فى هذا المعنى .. قال :

– ان جلالة الملك – كما تعلم – لايزال صغير السن قليل الخبرة وهو فى حالته هذه فى حاجة الى رئيس ديوان يكون له بمثابة المرشد والمعلم .. رئيس ديوان واسع الخبرة متعدد الكفاءات .. تقلب بين مناصب الحكومة المختلفة من ادارية وقضائية ومالية وسياسية .. ولست اعرف رجلا تتوافر فيه جميع هذه الصفات خيرا من نجيب الهلالى بك .. فما رأيك ؟

قلت : انا لا اعرف الهلالى بك شخصيا ، ولكننى سمعت عنه كل خير ..

قال : اذن هل تكلم مكرم باشا فى هذا الموضوع ؟

قلت : وهو كذلك ..

وكان المعروف يومئذ ان الاستاذ مكرم باشا سكرتير الوفد والذراع اليمنى لرئيس الوفد ورئيس الحكومة .. هو كل شيء فى الوفد وفى الحكومة وانه صاحب الكلمة العليا فى الوفد وفى الحكومة !

***

وعدت الى الفندق .. ومرة أخرى طلبت بالتليفون مكرم باشا بفندق « ده برج » فى جنيف .. ولكنه لم يكد يسمع صوتى حتى قال :

– عملت طيب يا أستاذ تابعى اللى كلمتنى بالتليفون انا كنت رايح اطلبك حالا دلوقت بالتليفون ..

قلت : خيرا يا باشا ؟..

قال : حكاية التــاج دى اصرف نظر عنها .. رفعة الرئيس « يقصد النحاس باشا » زعل منها جدا وهاج ! واخواننا كلهم هنا مش موافقين عليها .. حتى على باشا الشمسي حضر لزيارتنا اليوم ولما سمع بها قال : « ده كلام فارغ ! » .. وأنا اضطررت أن أدافع عنك عنــد النحاس باشا .. فقلت له ان الاستاذ التابعى أحرجوه ووسطوه .. فمن فضلك شوف لك طريقة تقفل بها حكاية التاج دى ؟ !

وأسقط فى يدى .. ماذا أفعل ؟

وقلت لمكرم باشا وبصوت كان فيه شيء كثير من الغيظ والحرج :

ـ طريقة أيه يا باشا !.. يعني عايزني أروح «كنترى هاوس » أقول لهم ايه !.. أقول لهم أنا كذبت عليكم عندما قلت لــكم أن مكرم باشا موافق ! ؟

وضحك مكرم باشا ضحكته القصيرة اياها ، وقال :

ـ لا .. لا .. لاسمح الله .. ولكن قل لهم ان مكرم مش كل حاجة !.. وان موافقة مكرم ليست كل شيء فهناك رئيس الوفد والحكومة .. وهناك زملاؤنا الوزراء واخواننا أعضاء الوفد .. وحكاية التاج دى ليست من المسائل السهلة التي يجوز لى أن أقطع فيها برأى .. وأنا قلت لك ان اخواننا هنا كلهم ضدها .. ومصطفى باشا زعلان جدا منها ..

وقلت أنا :

ـ ومن الذى يصدقنى هنا اذا قلت ان مكرم باشا ليس كل شيء وان موافقته ليست كل شيء ؟ ولا أحد من رجال الملك سوف يصدق هذا الــكلام !.. وأنت تعرف يا باشا انهم جميعا يعتقدون انك تستطيع دائما أن تقنع النحاس باشا بكل رأى تراه .. فاذا ذهبت

اليوم وقلت لهم ان النحاس باشـــا لا يوافق ، فانهم سوف يفهمون من هذا ، اما انك عدت وعدلت عن موافقتك لسبب مجهول .. أو انك لم تحاول اقنـــاع رفعة الرئيس برأيك لأنك لا تهتم بتلبية رغبة جلالة الملك مع انني قلت لمعاليك ان فكرة التاج فكرته وانه مهتم جدا بها ..

وقال مكرم :

ــ ما اعرفش ! انا قلت الموقف ايه هنا .. وانت تتصرف ..

وقلت أنا :

ــ لن أقول شيئا.. ولن أفعل شيئا.. ولقد أبلغتهم بالامس خبر موافقتك ، فاذا شئت معاليك أن تتصل بهم فى « كنرى هاوس » مباشرة وتبلغهم ما قلته لى الآن .. فافعل !.. أما أنا فلن أقول شيئا !

وانتهى حديثنا بالتليفون ..

وكان موضوع الاســـتاذ نجيب الهلالى وترشيحه لمنصب رئيس الديوان قد طار من راسى تماما !

وعدت الى باريس ..

وبعد أيام عاد فاروق ومن معه الى باريس لكى يرأس حفلة افتتاح القسم المصرى فى معرض باريس الدولى وبحضور رئيس جمهورية فرنسا مسيو لوبران .

وتنفست الملـكة نازلى الصعداء بعد أن عادت الى باريس التى تحبها .. واستأنفت حياة المرح والسهر فى ملاهى باريس .. مع حسنين باشا اذا أمكن !

ومع غير حسنين باشا اذا لزم الأمر !

وهنا بدت على « جلالتها » أعراض مرض التصابى ! فقد انطلقت تزور « صالونات » التجميل وصبغ الشعر تجرب فى كل يومين تقريبا صبغة جديدة ولونا جديدا

لشعرها الذى كانت قد بدأت تظهر فيه شعرات بيضاء ! !

ولاحظنا نحن ان حسنين بدأ يقتصد — الى حد ما — فى « اخلاصه وتفانيه » فى خدمة الملكة نازلى والسير فى ركابها حيث تريد فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار .

وهكذا اصبحنا نراه بيننا — ومعنا — اكثر من اى وقت مضى فى هذه الرحلة .

لماذا ؟ هل كان يخشى افتضاح علاقته بالملكة الوالدة ؟ وان يسمع ابنها الملك أو يلاحظ شيئا مريبا على أمه ورائده الأمين ؟

أم ترى حسنين قد رأى ان الوقت قد حان لكى ينتقل من الفصل الاول الى الفصل الثانى .. أى من اظهار الحب والتفانى .. الى اظهار « التقل » والتحفظ والبرود ؟.. وهى السياسة التى كان حسنين — رحمه الله — يجيد تطبيقها كل الاجادة مع هذا الصنف من النساء ؟ النساء اللاتى جاوزن مرحلة الشباب واخذن فى استقبال شمس المغيب !

وهذا الفصل الثانى — فصل « التقل » والتحفظ والبرود — يزيد الوجد والشوق ويشعل فى صدر المرأة نارا فوق نار !.. نارا تأكل ما بقى للمرأة من عزة وكبرياء .. حتى اذا عاد اليها الرجل.. أسلمته قيادها فى خضوع واستسلام !

هذا هو الرأى الأرجح ..

***

وعرفنا ونحن فى باريس ان عصبة الأمم قد قبلت مصر عضوا فى هيئتها .. وان وفد مصر برئاسة « النحاس » قد عاد الى القاهرة

وذات صباح قال لى الدكتور حسنى بك ان جلالة الملك متألم من استمرار الصحف الوفدية فى الكتابة عن الحفلة الدينية فى القلعة مع ان هذه الكتابة أصبحت غير ذات موضوع بعد تنازلَ جلالته عن اقامة هذه الحفلة.. وأضاف حسنى بك ، ان مكرم باشا لم يف بوعده لى بالتليفون وهو وقف هذه الحملات الصحفية وخصوصا فى جريدة « المصرى » كبرى صحف الوفد وقتئذ .

ثم قال بلهجة ذات معنى :

ـ وأنا شخصيا أعرف انك لا شـأن لك بما يكتب الآن وينشر فى جريدة « المصرى » لأنك معنا هنا وغائب عن مصر .. ولكن من الصعب أن يقتنع جلالة الملك بانك وانت أحد اصحاب الجريدة لا تستطيع وقف هذه الحملات فى جريدتك ..

وارسلت يومئذ برقية الى محمود ابو الفتح أطلب فيها الكف تماما عن الكتابة فى أمر هذه الحفلة الدينية واقول اننى فى حرج شديد وان جريدة « المصرى » لم تراع الوضع الذى أنا فيه ، بوصفى الصحفى الوحيد المرافق للملك فاروق فى رحلته .

ومع ذلك استمرت الحملة فى جريدة « المصرى » وغيرها من صحف الوفد ..

وتلقيت خطابا من محمود أبو الفتح يعتذر فيه عن استمرار هذه الحملة ويقول : أن لا شأن له بها وانه عاجز عن وقفها ، وان القائم بهذه الحملة فى جريدة «المصرى» والذى يكتب المقالات الخاصة بالحفلة الدينية هو شريكنا الثالث الاستاذ كريم ثابت .. وان كريم يتلقى تعليماته وتوجيهاته مباشرة من الاستاذ يوسف الجندى الوكيل البرلمانى لوزارة الداخلية .. وانه ـ اى محمود أبو الفتح ـ لايمكنه أن يرفض نشر مقالات

موعز بنشرها من وفدى كبير مثل يوسف الجندى الذى هو فى نفس الوقت وكيل وزارة ومفروض فيه انه ينفذ تعليمات سياسة الوزارة العليا !

وسكت .. ولم أطلع أحدا على هـذا الخطاب .. واستمرت الحملة ! واليوم أعجب ـ وتعجبون معى ـ لسخرية القدر !

كريم ثابت الذى اغضبت مقالاته فاروق فى عام ١٩٣٧ يختاره فاروق صديقا له فى عام ١٩٤٣ ، ثم يعينه مستشارا صحفيا له فى عام ١٩٤٦

***

وحل يوم السفر ـ ٢٧ يونية ـ من باريس الى « فيشي » مدينة المياه المعدنية المشهورة . وقيل يومئذ اننا نذهب الى فيشي لأن جلالة الملكة نازلى تريد أن تعالج كليتها المريضة .

وركبنا قطارا خاصا .. وذهبت الى عربة «البولمان» الخالية وجلست الى احدى الموائد .. ثم حضر حسنين باشا وجلس فى المقعد المقابل .. وبعد قليل انضم الينا محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض يومئذ فى فرنسا وسويسرا .

ودار بيننا الحديث عن مصر وسير الأمور فيها وقال حسنين باشا : ان الحملة على الحفلة الدينية فى القلعة لا تزال مستمرة وانها قد امتدت وتناولت تأدية « مولانا » لصلاة الجمعة فى مسجد الازهر الشريف .. الى آخره .

وبينما نحن كذلك دخل فاروق عربة « البولمان » ووراءه « اليوزباشي » أحمد الطاهر .

واقبل فاروق علينا ووقف أمام مائدتنا فوقفنا احتراما .. وكان بيده رزمة من صحف مصر ، كانت

قد وصلت فى صباح نفس اليوم .

ورمى بها أمامى على المائدة ، وهو يقول :

ــ الاستاذ التابعى قرأ الكلام المكتوب فى جريدة « المصرى » ؟

وكان من علامات « الرضـــا السامى » أن ينادينى فاروق باسمى مجردا من لقب أستاذ .

ومن علامات « الغضب الملكى» أن ينادينى يا أستاذ تابعى !

وسكت .. ولكنى ألقيت نظرة علىجريدة «المصرى» وقرأت على صفحتها الاولى ــ وبالبنط الكبير ــ عبارة فحواها ان مصدرا رسميا كبيرا صرح لمنـــدوبها بأن الوزارة قررت عدم اقامة حفلة دينية ..

واتجه فاروق الى المائدة المحاذية لمائدتنا فى الجانب الآخر من العربة وجلس اليها وهو يقول :

ــ الحالة فى مصر بقت « صلطة » ..

وقال فخرى باشا :

ــ « صلطة » خالص يا افندم ..

وقال فاروق :

ــ ايوه .. « صلطة » وعليها « سكر » ..

وهنا قال حسنين :

ــ أن شاء الله يا «مولانا» تصبح الحالة كلها «سكر»

والتفت الى فاروق من مقعده .. وسألنى بسخرية :

ــ هيه .. والاســـتاذ التـــابعى جاى معانا برضه فيشى ؟

وأحسست ان الدم صـعد الى رأسى .. فقد كان المعنى واضحا سافرا ، وهو ان الملك غاضب على ولا يريد أن أسافر معهم الى فيشى ..

ومع ذلك فاننى لم اكلفه ولم اكلف حكومته اوخاصته

الملكية مليما واحدا من نفقاتى طوال الرحلة لأننى كنت ادفع جميع نفقاتى فى الفنادق وغيرها .. بل وثمن تذكرتى فى القطار الخاص كنت أدفعه الى مندوب شركة « كوك » التى كانت تتولى شئون الرحلة وتنقلاتنا فى اوروبا .. وجميع أفراد الحاشية كانوا يعرفون هذا .. وكدت أسأل « جلالته » : هل هو يظن اننى اسافر معهم على حسابه أو على حساب الحكومة ؟

ولكننى سكت تأدبا واحتراما .

والواقع ان جميع نفقاتى فى تلك الرحلة التى دامت نحو خمسة اشهر كانت من جيبى الخاص .. حتى جريدة « المصرى » التى سافرت من أجلها لم تدفع لى قرشا واحدا .. لأن ميزانيتها لم تكن تسمح يومئذ ، وفى أول عام من حياتها بدفع نفقاتى فى رحلة كهذه .. سكت اذن ولكن الجالسين لاحظوا ولا شك امتقاع لون وجهى واحمرار اذنى ..

ووقف حسنين باشا ، واستأذن من « مولانا » وانسحب من عربة « البولمان » ولعله ذهب الى صالون جلالة الملكة والأميرات .

ومن بعده .. انسحب فخرى باشا بعد أن انحنى ومشى خطوات بظهره الى الوراء ..

وبقيت وحدى فى مقعدى .. وفاروق جالس الى مائدته .. ومن خلفه أحمد الطاهر جالس الى مائدة أخرى ..

وساد الصمت بضع دقائق .. وكان فاروق يتسلى بعد حفنة من أوراق « البنكنوت » الفرنسية .. كان يعدها ويضعها فى جيب سترته .. ثم يخرجها ويعدها مرة أخرى .. وهكذا ..

واخيرا وقف .. ووقفنا ..

والتفت الى .. وقال :

ـ اظن نروح بقى عربة الاكل علشان الغدا ..

ولما لم أرد ، قال :

ـ مش جاى تتغدى ؟..

قلت : ان شاء الله يا افندم ..

وغادر العربة ، ووراءه يوزباشى احمد الطاهر ..

وادركت أنا ان فاروق قد أحس بأنه جرحنى ، وانه اراد بدعوتى لتناول الغداء أن « يطيب خاطرى » .

ولكنى كنت نويت أمرا ، وهو أن أؤدى واجبى الصحفى فى « فيشى » فأرسل برقيتى الى جريدة « المصرى » بوصف استقبال الملك والملكة ، ثم أغادر فيشى على الفور ..

وتناولت طعام الغداء بمفردى فى عربة « البولمان » .

***

وصلنا « فيشى » فى الساعة الرابعة بعد الظهر .. وارسلت برقيتى الى جريدة « المصرى » بوصف الاستقبال .

ثم ذهبت الى مكتب « كوك » واشتريت تذاكر السفر اللازمة الى « فيينا » فى النمسا .. وأبدلت مبلغا من المال بالعملة النمسوية .. الى آخره ..

وعرف حسنين باشا ورجال الحاشية بالخبر فأقبلوا يطيبون خاطرى ويؤكدون لى ان « مولانا » لم يقصد اهانتى .. الخ ..

ولكننى صممت على السفر ..

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ركبت القطار الى زيوريخ ومنها الى فيينا .

وغادرت مدينة « فيشى » بقطار الصباح وصحبنى الى المحطة الاستاذان على رشيد ، واحمد يوسف ..

وعاود الاثنان الكرة لكى يحملانى على العدول عن السفر .. واخيرا قلت لهما اننى فى الحقيقة أريد ان أتحرى فى « فيينا » حكاية توفيق نسيم باشا والفتاة النمساوية مارى هوبنر ، لكى أوافى جريدة «المصرى» بالتفاصيل .

وكانت الاخبار قد جاءتنا ان توفيق نسيم باشا ، رئيس الوزراء الاسبق ــ رحمه الله ــ قد أحب فتاة نمسوية من عامة الشعب وهى ابنة صاحب فندق صغير وانه ينوى الاقتران بها .

وتمنى لى الصديقان سفرا سعيدا موفقا .



ووصلت « فيينا » بعد ظهر اليوم التالى ، وكانت « فيينا » يومئذ عاصمة بلا دولة ، أو كانت هناك دولة صغيرة .. فقد كانت النمسا خرجت من الحرب العالمية الاولى فقيرة مفلسة ، فقدت امبراطوريتها الواسعة ، وفقدت معها كل شىء .. وبعد أن كانت « فيينا » عاصمة لامبراطورية تضم نحو سبعين مليونا من السكان امست عاصمة لدولة مقصوصة الاطراف يسكنها نحو ستة ملايين .

وكان يسكن « فيينا » ثلاثة من هذه الملايين الستة . وكان الزائر الاجنبى يشهد مظاهر الفقر والبؤس والجوع فى كل ركن من أركان المدينة الجميلة الانيقة المشرقة .. مدينة الموسيقى والهوى والجمال .

وبالمال .. قليل من المال كان الزائر يستطيع أن يشترى كل شىء ، وأى شىء بثمن رخيص ، أو ثمن معقول مقبول .

حتى الجمال والشباب كانت « أسعارهما » فى العاصمة الجميلة الفقيرة رخيصة اذا قيست بأسعار

لندن وباريس !

وكنا لا نزال فى شهر يولية عام ١٩٣٧ ، أى قبل ان يزحف هتلر على النمسا ويعلن ضمها الى الرايخ الثالث أو المانيا الكبرى ، وهو الأمر الذى وقع بعد ذلك بثمانية شهور ، أى فى شهر مارس عام ١٩٣٨ .

***

ولم تطل اقامتى فى « فيينا » أكثر من بضعة أيام .. كذلك لم أحاول أن أتحرى أو أستقصى شيئا عن حكاية توفيق نسيم باشا ، والفتاة مارى هوبنر .. ولكننى تذكرت حديث الدكتور عباس الكفراوى وترشيحه للأستاذ نجيب الهلالى ليكون رئيسا لديوان الملك فكتبت خطابا لمكرم عبيد باشا رويت فيه تفاصيل الحديث ، وارسلت الخطاب الى عنوانه فى رمل الاسكندرية لأننى كنت أعرف انه والنحاس باشا وزملاءهما قد عادوا الى مصر .. ولابد أنهم يقضون الصيف فى بولكلى برمل الاسكندرية .

وغادرت « فيينا » وذهبت الى الريف بالقرب من مدينة « لنز » مسقط رأس هتلر واقمت فى فندق بسيط بقرية صغيرة نحو أسبوع .. ثم ركبت القطار عائدا الى « فيشى » فقد كان على أن أؤدى واجبى الصحفي حتى النهاية وأن أصحب الملك فاروق فى عودته من رحلته الى مصر .

ووصلت « فيشى » ونزلت فى فندق «ماجستيك» الذى كان يقيم فيه فاروق وأمه وحاشيته .

وفى المساء نزلت الى بهو الفندق وجلست فى مقعد .. وكان يجلس فى مواجهتى السيد عبد الحميد الشواربى والسيدة الكريمة زوجته .. وكان يوجد يومئذ فى « فيشى » عدد كبير من المصريين الذين يزورون مدينة

المياه المعدنية للاستشفاء .
واقبـــل فاروق من باب فى صـــدر البهو ، ووراءه يوزباشي احمد كامل ..
ورآنى « صاحب الجلالة » فابتسم ولوح بيده ، واقبل نحوى .. ووقفت ..

وتقدم منى ووضع يده على كتفى ، وقال :
ـ حمد الله على السلامة ..
قلت : الله يسلمك يا افندم ..
قال : لسه زعلان ؟
قلت : استغفر الله يا افندم .. !
قال : وايهحكاية توفيق نسيم .. صحيحة الحكاية ؟
قلت : ايوه .. صحيحة ..

ولم ازد ، لأننى ـ كما قلت ـ لم احاول ان اتحرى عن التفاصيل .
قال ، وهو ينظر من طرف عينيه الى فتاة شـــقراء جميلة كانت ترتدى ثوب السهرة ، وكانت جالسة فى مقعد قريب منى ولعله ظن أنها جالسة معى :
ـ طيب .. بعد العشا نبقى نشوفك .. يوجد هنا محل لطيف اســـمه « لوازيه » ـ أى الواحة ـ فيه مزيكة ورقص ، قريب من اللوكاندة .. نشوفك فيه بعد العشا ..
قلت : ان شاء الله يا افندم ..
ولـكنى لم أذهب ..

***

وكان « القائمقام » عمر فتحى بك الذى كنا تركناه مريضا فى احد مستشفيات لندن قد شفى ولحق بالركب الملـكى فى « فيشى » ومعه السيدة زوجته التى كانت طارت الى لندن عندما سمعت بخبر مرضـــه واقامت

بجانبه ..

واجتمعت بعمر فتحي وبأصدقائي من أفراد الحاشية وجلسنا نتحدث عن مصر ، وأخبار مصر .. وعرفت منهم ان مراد محسن باشا حضر الى «فيشي» ــ اثناء غيابي في النمسا ــ وقابل فاروق .. ثم عاد الى مصر..

لماذا حضر .. ؟

ها هي ذي التفاصيل :

***

قلت : ان فاروق رمى برزمة من صحف مصر على المائدة أمامي ونحن في القطار في طريقنا الى « فيشي » وسألني ما اذا كنت قرأت الكلام المكتوب في جريدة « المصري » ؟ ..

وانني ألقيت نظرة على جريدة « المصري » فقرأت على صفحتها الاولى ــ وبالبنط الكبير ــ عبارة فحواها ان مصدرا رسميا كبيرا صرح لمندوبها بأن الوزارة قررت عدم اقامة حفلة دينية ..

وقد عد فاروق هذا الالحاح في النشر تحرشا به وتحديا لسلطاته .. فانه ــ أولاً ــ لم يطلب بصفة رسمية اقامة حفلة دينية ، ثم هو ــ ثانياً ــ قد تنازل عن فكرة اقامة هذه الحفلة وأبلغ رئيس الحكومة خبر هذا التنازل ، وأبلغه في نفس الوقت برنامج الحفلات التي تقام بمناسبة توليه سلطاته الدستورية ، وليس في هذا البرنامج ذكر لاقامة حفلة دينية .. فعلى من اذن كان المصدر الكبير الرسمي الذي أشارت اليه جريدة « المصري » لسان حال الوفد والحكومة .. على من كان يرد بتصريحه المذكور .. ؟

وما هي الجهة الرسمية التي كانت تقدمت بطلب رسمي لاقامة حفلة دينية حتى تتخذ الوزارة قرارها

هذا وتنشره فى صدر صحيفتها ـ بالبنط الكبير ـ ..

أم ترى كانت الوزارة النحاسية الوفدية تريد أن تعلن عن قوتها وشدة بأسها بهذا القرار فتوهم الناس أن هناك اصرارا من احدى الجهات على اقامة الحفلة الدينية ، ولكن لما كانت الوزارة هى وحدها التى تقر ماتريد وترفض مالا تريد ـ بدون مراجعة أو تعقيب ـ فانها رأت أن تتخذ هذا القرار .. ؟

هذا هو الذى فهمه فاروق ورجال حاشيته ..

وقامت الأزمة.. وطار خبرها الى مصر.. واضطربت الوزارة .

اضطربت ـ لان النحاس باشا كان قد لاحظ هو واصحابه بعد عودتهم من أوروبا ان الأمور لا تسير ـ بالنسبة لهم ـ على ما يرام .. فالازهر هائج مضطرب ، وأحزاب المعارضة ـ الاحرار الدستوريون ، والحزب الوطنى ، وحزب الاتحاد ، اذ لم يكن هناك يومئذ شىء اسمه الحزب السعدى ـ أحزاب المعارضة وخصوم الوفد يحركون خيوط الفتنة هنا وهناك ..

وصاحب السمو الامير محمد على توفيق رئيس مجلس الوصاية يصر على اقامة حفلة دينية وحفلة مبايعة يقلد فيها الملك فاروق سيف جده الاكبر محمد على ، وتتبع فى هذه الحفلة طقوس وتقاليد جديدة لم تعرف من قبل ..

وقد تبين بعدئذ انه لايوجد سيف لمحمد على الكبير باقيا حتى اليوم ! ..

وأخيرا ذهب النحاس باشا وقابل الامير محمد على توفيق وقال له انه لم يبق موجب لاستمرار الحديث فى هذه الحفلة الدينية لأن جلالة الملك لم يطلبها ولا يتمسك بها ، وان جلالته قد أبلغ الوزارة برنامج الاحتفال

وليس فى هذا البرنامج شىء عن اقامة حفلة دينية ..

ولـكن الامير محمد على اصر مع ذلك على طلبه واعلن انه حتى ولو كان الملك فاروق قد تنازل عن اقامة هذه الحفلة فان هذه المسألة تهم الأسرة المالـكة كلها وان سموه بصفته الشخصية وبصفته نائبا عن افراد الأسرة يرى أن يسن هذا التقليد الجديد وأن تقام حفلة دينية وحفلة مبايعة يتقلد فيهـــا فاروق سيف جده الاكبر محمد على .

***

وكان موقف محمد على توفيق ـ رحمه الله ـ وعناده واصراره على برنامج معين يخالف البرنامج الذى وافق عليه فاروق وأبلغته أنا للوزارة .. هـــذا الموقف من جانب الامير رئيس مجلس الوصاية زاد فى سوء الحالة وتفاقم الازمة ..

وكانت هناك صحف ـ غير وفدية ـ على اتصـــال بالامير ورجال دائرته .. وكانت الصحف المذكورة تؤكد للجمهور فى كل يوم ان هناك حفلة دينية سوف تقـام شاءت الوزارة او لم تشأ ! ..

وتجمعت السحب فى الافق السياسى ، وطال الاخذ والرد بين الصحف الوفدية .. والصحف غير الوفدية.

وفى هـــذا الجو ـ جو التوتر والشكوك ـ راحت السلطات تحسب أيام حفلات التولية وتحدد لكل حفلة تاريخها ويومها ، وهنا فقط عرفوا ان أيام الاحتفـــال الثلاثة اى ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ يولية تقع فى أيام الخميس والجمعة والسبت .

وأبدى الامير محمـــد على توفيق رغبته فى أن يؤدى فاروق صلاة الجمعة فى ثانى يوم من أيام الحفلات فى جامع الازهر الشريف وأن يتلو شيخ الازهر دعاء خاصا

.. وابلغ فاروق هذا فوافق عليه .

ولكن النحاس باشا راى فى هذه الصلاة وفى هذا الدعاء الخاص رجوعا الى الحفلة الدينية عن طريق ملتو ملفوفه !.. واعترض النحاس ورفض .. رفض ان يوافق على أن يؤدى فاروق صلاة الجمعة فى الازهر الشريف ..!

وقال فاروق ، وكان فى فيشي :

ـ لم اكن وانا تحت الوصاية استشير أحدا فى امر المسجد الذى أؤدى فيه صلاة الجمعة ، فهل يراد منى الآن وبعد أن اتولى سلطاتى كملك ان استاذن رئيس حكومتى فى اختيار المسجد الذى أؤدى فيه هذه الصلاة ؟

ولكن الوزارة كانت ترى من جهتها أن تادية فاروق صلاة الجمعة فى الازهر واستقبال شيخ الازهر وعلماء وشيوخ الازهر الشريف لفاروق ووقوفهم بعد انتهاء الصلاة ـ كما قيل يومئذ ـ لكى يتلوا دعاء خاصا .. كانت الوزارة ترى فى هذا كله عودة الى الحفلة الدينية بشكل آخر وان فيه أيضا تشجيعا لحركة الصاخبين الثائرين على الحكومة وضربة تذل الوزارة وتنال منها وتضعفها أمام المعارضة .

***

تفاقمت الازمة .. ودارت المخابرات بالتلغراف والتليفون والبريد بين الملك وحاشيته فى باريس وفيشى وبين مجلس الوصاية والوزارة فى مصر ..

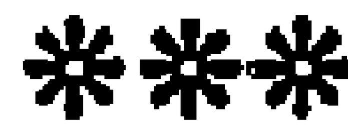
وتمسكت كل جهة برايها ورفضت كل راى سواه ..

واخيرا عرض مراد محسن باشا على مصطفى النحاس باشا أن يسافر الى فيشي لكى يعرض بنفسه على فاروق وجهة نظر الوزارة .. واكد للنحاس « باشا » انه مقتنع بوجهة نظر الحكومة وانه سوف يؤيدها عند فاروق ..

ووافق النحاس « باشا » ، وسافر مراد محسن باشا فعلا الى فيشى وقابل فاروق ..

وكان « المرحوم » مراد محسن باشا جارا لمصطفى النحاس فى مصر الجديدة .. وكانت هناك علاقة مودة بين الجارين ..

هذا أولا .. وثانيا : كان مراد محسن باشا ينافس حسنين باشا على السلطة وعلى مركز «الرجل الاول» فى القصر .. ولقد راى فى هذه المهمة فرصة طيبة لأن يكسب صداقة الوفد والحكومة واعترافهما بجميله .. ويكسب فى نفس الوقت ثقة فاروق ، وأن يظهر حسنين امام الحكومة الوفدية بمظهر الرجل الذى يعجز عن أداء خدمة لها أو تسوية أزمة تقوم بينها وبين الملك .. ويظهره أمام فاروق بمظهر الرجل الذى لا « يسد » ولا ينفع فى الملمات ..



واستقبل فاروق مراد محسن باشا .. ورفض فى أول الأمر أن تكون مسألة صلاته فى الازهر الشريف أو فى أى مسجد آخر يختاره موضع حديث أو أخذ ورد لأنه يعد صلاته والمسجد الذى يؤديها فيه مسألة تخصه هو وحده دون ان يكون للوزارة او غير الوزارة اية كلمة فى الموضوع ..

وكان المرحوم مراد محسن باشا لا تعوزه الكياسة واللباقة فقد قال على الفور انه يوافق صاحب الجلالة على هذا الرأى ، وان النحاس باشا نفسه يسلم تماما بوجهة نظر جلالة الملك المعظم .. بل ان حق « مولانا » فى اختيار المسجد الذى يؤدى فيه الصلاة لم يكن موضع بحث على الاطلاق وان النحاس « باشا » أول من يقول بحق جلالته فى هذا ، وأول من يحترم ويحافظ على

حقوق « مولانا » .. الى آخره .

ولكن النحاس باشا يلتمس من جلالة الملك ان يقدر الظروف القائمة ودسائس خصومه وحملات صحف المعارضة وأن يتفضل ويظهر عطفه السامى الكريم على رئيس وزرائه فلا يشمت فيه خصومه ، وهذه الشماتة لا محالة واقعة اذا تحقق صدق ما قالته صحف المعارضة وهو ان هذه الحفلة الدينية سوف تقام ولو رغم أنف الوزارة ..!

وعاد مراد محسن باشا وأكد لفاروق ان النحاس باشا يلتمس هذه المكرمة من جلالة الملك ..!

وقال فاروق :

ـ النحاس باشا قال كده ؟.. اذن أطلبه بالتليفون أمامى وقل له هذا الراى الذى قلته لى الآن ..

وفعلا اتصل مراد محسن باشا بالتليفون من فندق الماجستيك فى فيشى بالنحاس باشا فى مصر ..

وكان فاروق حاضرا ..

واعاد مراد محسن بالتليفون على مصطفى النحاس حرفا بحرف كل حديثه الى فاروق ..

وأمن النحاس « باشا » على أقوال مراد محسن باشا ودعا لصاحب الجلالة بالعز والتأييد ..

وقال فاروق لمراد محسن :

ـ وهو كذلك .. ولكن قل للنحاس « باشا » اننى قبلت علشان خاطره هوه بسّ ..!

وخرج مراد محسن فرحا مسرورا وعاد الى مصر.. عاد الى مصر ليبشر النحاس « باشا » ووزراءه بأنه نجح فى مهمته عند فاروق ..

ثم يروى فى داره وبين أقاربه وأصهاره ــ وجميعهم من أصدقاء السيدة لطفية زوجة حسنين باشا ــ يروى

لهم ما رآه وما سمعه فى فيشى ..

وكان بين ما رآه وسمعه شىء كثير وكلام أكثر عن الملكة نازلى واحمد حسنين وكيف توثقت العلاقة بينهما .. وكيف .. وكيف .. الى آخر ما هنالك ..

وكان طبيعيا أن تسمع زوجة حسنين بهذه الحكايات والتفاصيل ..

واشتعلت نيران الغيرة فى صدر الزوجة «المهجورة» المتروكة فى مصر .. خصوصا وكانت ــ رحمها الله ــ قد سمعت أن زوجة القائمقام عمر فتحى قد لحقت بزوجها فى لندن ..

وأن زوجة يوزباشى احمد كامل قد لحقت بزوجها فى فرنسا ..

وان زوجة عبد المنعم رافت ، والذى كان يتولى حسابات الرحلة قد لحقت بزوجها فى فيشى ..

وهكذا .. كل من اراد من أفراد الحاشية أن يستدعى زوجته .. قد استدعاها دون أن يعترض أحد ..

ما عدا « هى » .. ومع ذلك فانها أكبر مقاما من زوجات رجال الحاشية .. وزوجها ــ أحمد حسنين ــ اكبر مقاما ونفوذا من جميع أفراد الحاشية ..

اذن لابد أن يكون الاعتراض على سفرها اما من زوجها نفسه .. أو من الملكة نازلى .. وعلى كل حال فان نازلى صبرى هى السبب ..

وانطلقت السيدة لطفية يسرى كريمة الاميرة شويكار تسب وتشتم وتطلق لسانها فى كل مجلس وكل منتدى ضد صاحبة الجلالة نازلى ملكة مصر ، وضد ابنها فاروق ! وتروى عن نازلى أو « العجوز المتصابية » ــ كما أسمتها ــ تروى عنها القصص والحكايات ..

وهكذا تطور الموقف وتحول الى « الوضع الصعب أو

الوضع المستحيل » كما وصفه حسنين باشا بعد ذلك بنحو شهرين .

***

وبعد عودتي من النمسا الى فيشي بيومين اثنين تحدد موعد سفرنا في اليوم التالي الى مارسيليا .. ومنهـــا بالباخرة « النيل » عائدين الى مصر ..

واراد فاروق ، الذى كان يتضـايق من حراســة البوليس الفرنسى له وتتبعه لكل خطواته وتنقلاته .. أراد أن ينتقم من رجال البوليس هؤلاء وأن يسخر منهم ويشهر بهم ، فذهب الى مطبخ فنـــدق الماجستيك واستعار من الطهـاة عددا من الاوانى النحاسـية مثل « الكساروﻻت » وما أشبه .. وربطهـا جميعا بطرف حبل ثم طلب من خادميه الايطاليين بترو ، وجارو ، ان يتسللا الى السيارة الصغيرة التي كان يركبها البوليس الفرنسي ويتبع فيها فاروق.. وأن يربطا الطرف الثانى للحبل فى مؤخرة السيارة من غير أن يشعر بهم البوليس وكانت سيارة البوليس واقفة على مقربة من الفندق بينما كان رجال البوليس واقفين بباب الفندق .. حتى اذا خرج فاروق أسرعوا الى سيارتهم الصغيرة وتبعوه !

ونجح بترو ، وجارو فى مهمتهما .. وعادا الى الفندق وأبلغا فاروق ..

وأسرع فاروق بالخروج .. وقفز فى سيارته وأطلق لها العنان ، وهرول رجال البوليس الى ســيارتهم ووثبوا الى مقاعدها .. واطلقوا لها العنان وراء سيارة فاروق ..

ومضى فاروق بسيارته يلف ويدورحول الميدان الكبير القائمة حوله متاجر فيشى وحاناتها ودور السينما .. والمزدحم دائما بالسائرين ..

مضى يدور ويلف .. ووراءه سيارة البوليس تجر وراءها الاواني النحاسية على بلاط الميدان .. !

وللقارىء أن يتصور الاصوات التى كانت تحدثها هذه الاوانى النحاسية عند ارتطامها بالاسفلت والبلاط !

ووقف المارة فى الطرق وفى الميدان .. يضحكون ، ويصفرون .. ويسخرون من رجال البوليس ..

وعاد فاروق الى الفندق .. ووراءه سيارة رجال البوليس ونزل رئيس قوة بوليس الحراسة من السيارة وفك الحبل الذىكان يربط الاوانى النحاسية الى مؤخر السيارة ورمى بالاوانى أمام باب الفندق ..

وأخرج الرجل منديلا كبيرا من جيبه مسح به العرق الذى كان يتصبب من وجهه وقال ـ دون أن يوجه كلامه الى أحد معين ـ قال بالفرنسية ما معناه :

ـ ده لعب عيال .. والذى فعل فينا هذه الفعلة يستحق أن يضرب « علقة » على .. ؟

وذكر الرجل اسم جزء الجسم الذى يؤدب فيه الصغار ..!

***

وفى اليوم التالى غادرنا فيشى الى مارسيليا ..

وكانت الباخرة « النيل » مزينة بالاعلام المصرية .. وقد وقف عند أول درجات السلم المرحوم مدحت يكن باشا ، ودكتور فؤاد سلطان ، وكان بنك مصر وشركاته قد أوفدهما لكى يكونا فى خدمة فاروق على ظهر الباخرة

وسمعنا ـ وفرحنا ـ ان المغفور له طلعت حرب باشا أرسل كذلك عددا من الطهاة المشهورين بطهى الالوان الشرقية .. ومعهم « العاصي » المشهور بعمل الطعمية والفول المدمس اكراما لفاروق ..!

وتحركت « النيل » فى المساء وأذكر من حديث

للمرحوم حسنين باشا أثناء الايام الاربعة التى مضيناها على ظهر الباخرة « النيل » .. أذكر حديثا قال فيه ما خلاصته ومعناه :

ـ لقد كنا فى أوروبا محيطين بالملك .. وكان هو يعمل برأينا ويصغى لمشورتنا .. ولكننا نعود الآن الى مصر .. وأولاد الحرام هناك كثيرون .. ولن نستطيع أن « نحلق » على « مولانا » كما كنا نفعل فى أوروبا .. ولن يمكننا أن نمنعه من الاتصال بهذا وذاك .. كذلك لن نستطيع أن نمنع أولاد الحرام هؤلاء من مقابلته .. وأرجو منك ، وقد أصبحت واحدا منا « كذا » أن تساعدنى عند أصحابك الوفديين وأن تقنعهم بأن فاروق غير فؤاد .. وأن سياسة الشدة والعنف مع فاروق لا تنفع ، لأنه عنيد وذو كبرياء ، وقد لمست أنت هذا بنفسك ..!

وفى حديث آخر قال رحمه الله :

ـ قل لأصحابك الوفديين ! « وكانت هذه عبارته دائما كلما تحدث عن الوفديين ! » انه ليس فى مصلحتهم ولا فى مصلحة البلد أن يسير « مولانا » فى نفس الطريق الذي سار فيه أبوه الملك فؤاد .. وكن واثقا انه اذا اضطر « مولانا » أن يقيل الوزارة مرة واحدة .. أو يحل البرلمان مرة واحدة .. فانه سـوف « يستحلى » ـ وهذا تعبيره باللفظ ! ـ سوف « يستحلى » الحكاية ويمشي فيها .. على طول !.. ونصيحتى أن يمشوا معه بالذوق واللين .. وليذكروا دائما ان اولاد الحرام كثيرون وان الطامعين فى السلطة والوزارة كثيرون ..

***

ووصلنا الاسكندرية عند فجر يوم الاحد ٢٥ يولية عام ١٩٣٧

وكانت مئات الزوارق تملأ ميناء الاسكندرية .. وفيها فرق موسيقى وطبل وزمر وهتافات.. ودعوات تتصاعد بحياة فاروق .. والملك المحبوب ..

كان الشعب يومئذ يعلق آماله على الملك الغلام .. ولكن ان هى الا سنوات تقل عن عدد أصابع اليدين حتى استحال الحب الى نقمة .. والدعوات الطيبات الى لعنات يصبها الشعب على رأس الفاجر الطاغية فاروق ..!

عاد فاروق الى مصر بعد رحلته التى استغرقت نحو خمسة شهور والتى تنقل فيها بين سويسرا وفرنسا وانجلترا ، واستقبله الشعب بزينات الفرح والموسيقى والهتاف والدعاء « للملك المحبوب » !..

وعاد حسنين باشا ليجد النار مشبوبة فى بيت الزوجية .. والالغام مهيأة للانفجار.. وزوجته فى ثورة عاصفة مجنونة ضد الملكة نازلى ، وضد كل من يمت اليها بصلة أو بسبب .. حتى الملك نفسه .. فاروق !

ثم سمع حسنين من بعض أصدقائه ومن بعض رجال القصر الذين كانوا أقاموا فى مصر ولم يصحبوا فاروق فى رحلته الى أوروبا .. سمع من هؤلاء وهؤلاء أن زوجته السيدة لطفية قالت : « كذا وكذا » عن جلالة الملكة .. وقالت : « كيت وكيت » عن جلالة الملك.. وكيف انها ــ زوجة حسنين باشا ــ تحدثت فى مجلس خاص فى دار فلان باشا.. وقصر فلانة هانم.. واتهمت جلالة الملكة نازلى بأنها « ماشيه » مع حسنين ، وأن الملكة عملت « كذا وكذا » فى باريس .. و « كيت وكيت » فى جنيف ولندن وفيشى .. وان الملك فاروق مغفل .. مثل أبيه الملك أحمد فؤاد ..!

سمع حسنين بهذا .. ثم سمع بما هو أدهى واخطر

واليك التفاصيل :

كانت زوجته السيدة لطفية ـ رحمها الله ـ تزور ذات يوم سيدة من الأسرة اليكنية ، وكانت ـ كعادتها في تلك الايام ـ تنتهز كل فرصة لكى تطعن فى الملكة نازلى وفى سلوكها وتروى عنها القصص والحكايات .. ومنها قصة زواجها بالملك أحمد فؤاد .. وكيف هربت نازلى .. وكيف « ضبطوها » الى آخره .. والاشاعات التى أحاطت بالزواج المذكور .. ثم الاشــاعات التى انتشرت بعد مولد فاروق .. الى آخره ..

***

وهنا اشترك فى الحديث محام شاب وقال ان أديبا اسمه بيرم التونسي كان سجل هذه الاشاعات فى أزجال رددتها شوارع الاسكندرية والقـاهرة وتغنت بها ابان ثورة عام ١٩١٩ ، وان الاديب المذكور قد نفى خارج البلاد بسبب هذه الازجال ..

وكادت لطفيـــة تقفز فرحا .. وطلبت من المحامى الشاب ـ والحت فىالرجاء ـ أن يحصل لها على نصوص الازجال المذكورة ..

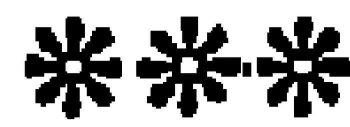
واستطاع المحامى بعد جهد أن يحصل على أزجال الاديب الشاعر بيرم التونسى ..

وطبعت لطفية هانم بضعة آلاف نسخة من الازجال المذكورة فى شكل نشرة صغيرة وعملت على توزيعها يوم عودة فاروق وأمه نازلى من رحلتهما الى أوروبا ..

ولـكن هذه النشرة ، أو هـذه الازجال لم تحدث اثرا أو ضجة .. لأن الذين وقعت فى أيديهم اما انهم لم يفهموا الـكنايات ، والتلميحات التى جاءت فيها .. واما انهم فهموا ، ولـكنهم مزقوها سخطا واشمئزازا لأن فاروق ـ كما قلت ـ كان يومئذ «ملكا محبوبا » !

ولأن أمه الملكة نازلى لم تكن قد خرجت بعد على المكشوف ، أو المألوف . وكانت حكاياتها أوقصصها لا تزال محصورة فى نطاق ضيق محدود !. ولم تخرج بعد الى الشوارع لتصبح مضغة فى الأفواه وحديث الناس .

سمع حسنين بهذا كله .. وقبل أن أمضى فى سياق الحديث أرى ـ من باب التسجيل ـ أن أقف عند أزجال الاستاذ الاديب بيرم التونسى لكى أعطى القراء فكرة عن انفعالات الشعب فى ثورة عام ١٩١٩ والنظرة التى كان ينظر بها الى العرش وصاحبه السلطان أحمد فؤاد .. وابنه وولى عهده فاروق ..



وكانت نظرة الشعب نظرة زراية وسخط واستخفاف ثم كانت سلسلة « المسكنات والمرطبات والمهدئات » .. من دستور ، وبرلمان ، وتمثيل سياسي ، ومقاعد وزارية ومقاعد نيابية ، ووظائف سياسية ودبلوماسية .. ازدحم رجالات مصر حولها وتكالبوا عليها ..!

وهدأت ثورة الغضب .. واستكان الشعب واستطاع احمد فؤاد أن يملك ويحكم سبعة عشر عاما .. وأن يصبح ابنه ـ الذى هزأ الشاعر وتغنى ساخرا بمولده يوم ولد ـ يصبح ملكا محبوبا يدعو له الشعب بالعز والتأييد ..

واتصلت بالاستاذ الاديب بيرم التونسي وسألته أن يبعث الى بهذه الازجال مع كلمة منه عن الظروف التى كتبت فيها ..

وقال الاستاذ بيرم انه يذكر منها زجلين اثنين : الاول عن زواج أحمد فؤاد ونازلى .. والآخر عن مولد فاروق وما أحاط بالحادثين من شكوك واشاعات ..

وتفضل وكتب الى يقول :

اخى ...

طلبت الى ان احدثك عن ثورة عام ١٩١٩ ، كانت يا ولدى ثورة من النوع الذى لايبقى ولا يذر .. ولقد تركها الانجليز تتأجج وتتآكل الى ان يخمد أوارها ثم تعالج بالطرق الناعمة ..

أيقن الشعب ان أمانيه الوطنية أصبحت فى يديه ، وقال الانجليز : « نعم .. وها هو ذا سلطانكم المستقل وبرلمانكم وما عليكم الا ارسال السفراء والقناصل الى كافة نواحى العالم » ..

وكانت جريدة «المقطم» لسان القائد العام الانجليزى بدأت تتحدث عن الامير أحمد فؤاد الذى سوف يسند اليه منصب خطير فى الدولة المصرية ..

وتساءل النـــاس عن الامير فؤاد ، لأن رجال ذلك البيت وأميراته لم يكونوا يومئذ موضوعا تخوض فيه الصحف الا بقدر معلوم ..

فقال القائلون :

ـ آه .. أحمد فؤاد المقامر الذى لا ترحب به أندية القمار لأنه مفلس ولا يسدد ديون القمار ..

ـ أحمد فؤاد الذى يركب « الحنطور » ولا يدفع للحوذى أجرته !..

ـ أحمد فؤاد الذى يفتح منازل أصدقائه ليلا ويطلب الطعام !..

***

وذات يوم مر موكب عظمة السلطان أحمد فؤاد من شارع رأس التين ، وقد جلس فى مركبته التى تجرها ستة من الجياد ، وفى شمائل وزينة القرون الوسطى..

فلما مضى الموكب أخذ الشعب السكندرى يقول :

ـ عامل زى قبانية مينا البصل .. ده أصله شيخ زامة !..

ـ شنباته زى « شنكل » الجزار ..

الى آخره ..

***

وأدرك العارفون أن الحركة الوطنية قد تحولت الى « زفة » عريسها السلطان أحمد فؤاد وموائدها كراسى البرلمان ووظائف السلك السياسى ..

ثم أذاعت جريدة « المقطم » عزم السلطان « التقى » على الزواج ودقت طبول العرس بين ضجيج المعارك القائمة بين البوليس بقيادة ضباطه الانجليز وبين جماعات الشعب فى كل عاصمة وقرية ..

وأخذ الناس يتحدثون عن العروس « نازلى صبرى » وأسرتها وجدها الاول .. وكيف خطفت وكيف حبست وكيف هربت .. واختلطت أحاديث الناس عن زواج السلطان بأحاديثهم عن بطولة البلاد التى قامت فيها الثورة ..

ما أشجع طنطا .. وما أعظم وطنية دمنهور .. ولله در أسيوط ومدن الصعيد ..

ولم أسمع من يقول : « لله در الانفوشى » وهو مسقط راسى فى حى راس التين .. وفيه يعيش منذ خمسة آلاف عام أرذل انواع البشر كما قال علماء الشعوب ..

ولم أكن من هواة تحطيم المصابيح أو اشعال النار فى الترام لأنى لا أحب أن أموت « فطيس » برصاصة عسكرى ..

ولكننى أردت أن أشارك الثورة .. وطبقت فرخ الورق « جاير الجاير » على ثمانية أوجه وسميته : « المسلة » .. ولما كان بدون رخصة كتبت فى الرأس :

« المسلة ... لا جريدة ، ولا مجلة ! »

ولكن ماذا أكتب فى « المسلة » وأنا لا اعرف شيئا فى الدساتير أو فى السياسة ! ؟ ..

سلكت طريقة « فتوات الانفوشي » عندما يقررون هدم العرس .. يكفى أن تحطم « الـكلوب » أو تضع لغما تحت « الموتور » الذى يدير المصنع .. لكى يمسى العرس فى ظلام دامس .. ويتعطل المصنع كله عن العمل

و « الموتور » هو السلطان أحمد فؤاد .. والمناسبة حاضرة وهى قصة نازلى وما يقال عنها .. وعن ظروف زواجه بها ..

ومن هنا كانت افتتاحية « المسلة » !..

وهى على وزن أغنية سورية كانت جاءت حديثا الى مصر وانتشرت فيها ، ومطلعها :

مرمر زمانى .. يا زمانى مرمر .. قلبى تولع فى هواك يا الاسمر .. ولها نغمة عذبة مرسلة فلم تحتج الثورة « البامية السلطانى » الى ملحن أو موسيقار.. وها هى ذى الانشودة :

البنت ماشيه من زمان تتمخطـــــــر
والغفلة زارع فى الديوان قرع أخضر
يا راكب الفيتون وقلبـــك حامى
أسبق على القبـــة وطير قدامى
تلقى العروسة شبه محمل شامى
وجوزها يشبه فى الشوارب عنتر

***

وحط زهر الفـــل فوقهـــا وفوقك
وهات لها الشبشب يكون على ذوقك
ونزل « النونو » القديم من طوقك
يطلع فى طوعك لا الولد يتكبر

العطفة من قبل النظام مفتوحة
والوزة من قبـل الفرح مدبوحة

الى آخره .. الى آخره ..

والاشارات والتلميحات مفهومة .. فالبنت هي نازلي والغفلة هو أحمد فؤاد وكانت شـواربه مبرومة مدببة الاطراف .. !

وأما «النونو» القديم ، والعطفة ، والوزة .. فأمرها متروك لذكاء القراء ..

***

أما الزجل الثاني الذى نظمه بيرم التونسي بعد مولد فاروق .. فقد جاء فيه :

البامية فى البستان تهز القرون
وجنبهـا القرع الملوكى اللطيف
والديدبان يرمح يجيـب الزبون
وربة الجـارية تجيـب الرغيف
شوف الميراث حصـل ولاد البطون
ودخـل الاغراب « فاميليـة » على

***

يا باديشـاه دا أنت ابنك ظهر
ربك يبـارك لك فى عمر الغلام
نزل « يلعلط » تحت برج القمر
ياخسارة بس الشهر كان مش تمام

***

وكان أحمد فؤاد قبل اعتلائه العرش يقيم فى قصر اسمه قصر البستان ..

و « فاميلية » على .. يعنى أسرة محمد على ..

و « باديشاه » كلمة فارسـية أو تركية ومعنـاها سلطان ! ..

والشهر كان مش تمام ! ليست فى حاجة الى تفسير، ومعناها ان فاروق ولد قبل مضى تسعة أشهر على الزواج !

والقى البوليس القبض على الاستاذ بيرم التونسي ووضعوه على ظهر باخرة مسافرة الى فرنسا .. وبقى بيرم فى المنفى نحو عشرين عاما ..

***

وهذه هى بعض أزجال ثورة عام ١٩١٩ ، وقد طارت من الاسكندرية الى القاهرة .. وتغنى بها الشعب وقتئذ فى الشوارع والمظاهرات ..

وهذه هى الازجال التى طبعتها ـ المرحومة لطفية ـ زوجة حسنين ووزعتها يوم عودة فاروق وأمه الملكة نازلى ..

سمع حسنين باشا بهذا .. ثم لم يلبث أن جاءه الخبر بأن الملكة نازلى قد سمعت هى أيضا بمطاعن السيدة لطفية ضدها.. وبالنشرات التى طبعتها ووزعتها وفيها ما فيها من تعريض بها وبزوجها الملك أحمد فؤاد وابنها الملك فاروق .. وان الملكة نازلى ـ ومن غير أن تقول شيئا لحسنين ـ ذهبت وأبلغت الأمر لابنها الملك فاروق ..

وهكذا تعجلت الملكة نازلى سير الامور .. ووضعت حسنين فى مأزق حرج ، وفرضت عليه ان يختار بين أحد أمرين :

اما أن يختارها هى ويختار معها منصبه ونفوذه فى القصر الى جانب الملك .. واما ان يختار زوجته وشريكة حياته وأم أولاده ؟

ثم لم يلبث أن استدعاه فاروق ليقول له :

ـ مراتك اتجننت ياحسنين ؟.. شوف لك طريقة معاها .. وبسرعة !

وذهب حسنين الى زوجته وقال لها انها ارتكبت جريمة العيب فى الذات الملكية .. وانها عابت فى ذات الملك أحمد فؤاد .. وعابت فى ذات الملكة نازلى .. وعابت فى ذات الملك فاروق .. وان أقل ما يجب عليها أن تفعله الآن انقاذا للموقف ـ وللمظاهر ـ هو أن تلتمس مقابلة الملكة نازلى وتنكر أمامها كل ما هو منسوب اليها .. وتؤكد اخلاصها وولاءها لها ولجلالة الملك ..

ولكن لطفية لم تتركه يتم حديثه .. بل صاحت فيه :

ـ انا ... أنا أروح لنازلى ؟

واندفعت تسب وتشتم .. فى نازلى وتقول :

ـ واذا كنت عايزنى أروح لها .. أنا مستعدة أروح .. بس راح أقول لها كل الكلام اللى قلته عنها فى غيابها ..

وتركها حسنين وخرج ليفكر فى هذا الوضع الصعب أو الوضع المستحيل الذى يجد نفسه فيه ..

رائد الملك .. ثم أمينه الأول ..

ولكن زوجته تطعن فى ذات الملك .. وفى ذات أمه الملكة ..

احتفاظه بزوجته .. وبمنصبه فى القصر .. أمر مستحيل .. ليس أمامه الا أن يضحى بزوجته أو بمنصبه ..

وضحى بزوجته ..

واوقع يمين الطلاق .. واحتفظ بمنصبه ..!

***

وكثير من أصدقاء حسنين ـ وأنا منهم ـ لم يسمعوا

ولم يعرفوا الا بعد وقوع الطلاق بعدة أسابيع ..

وكان سماعي بالخبر من حسنين نفسه ، فقد ذهبت لزيارته ذات يوم .. وجلسنا نتحدث فى شتى الامور.. وسألنى فجأة :

ـ هل تذكر « البارور » الياقوت الذى اشتريته فى باريس هدية لزوجتى ؟

و « البارور » طقم مكون من حلق واسورة وخاتم .

قلت : نعم ..

قال : وقد دفعت فيه ثمانمائة جنيه .. استدنتها لأننى ـ كما تعرف ـ فقير ..

وحنيت راسى موافقا ..

ومضى حسنين يقول بمرارة :

ـ هل تظن أن الذى يستدين ثمانمائة جنيه لكى يشترى بها من باريس هدية لزوجته .. يعود الى مصر وفى نيته أن يطلق زوجته ..؟ ولكن هذا ما يقوله أولاد الحلال ! ؟

وسألته :

ـ ومن الذى طلق زوجته ؟.. انت ! ؟

قال : نعم ..

ولأول مرة منذ عرفت أحمد حسنين .. رأيت فى عينيه دمعة حائرة تترقرق ..

وبعد لحظات استرد هدوءه ، واستأنف حديثه ، وقص على كثيرا من التفاصيل التى ذكرت بعضها فيما تقدم ، ومنها انه لما قدم لزوجته لطفية هدية « طقم الياقوت » رمت بها الى الارض وصاحت فى وجهه قائلة :

ـ جايب لى هدية من نازلى ؟ أنا عارفه انك فقير.. يبقى مين اللى دفع الثمن واشتراها ؟.. لازم نازلى !

عايزة تشتريني وتشترى سكوتى ؟.. والا انت عايز تعميني بالهديه وتفهمني انك لسه بتحبنى ؟..

ومشهد آخر من مشاهد الغيرة المجنونة ..

***

وقال حسنين بين ما قاله :

ـ كتر خيره مراد باشا عمل الواجب وزيادة !..

قالها بسخرية ومرارة ..

وفهمت منه أن مراد محسن باشا والروايات والحكايات التى نقلها من « فيشى » الى مصر وحرص على أن يرويها أمام أصدقاء وصديقات لطفية لكى تبلغها .. هذه الحكايات والروايات هي التى «شعللت» النار وأخرجت لطفية عن صوابها فانطلق لسانها بالسب والطعن والقذف فى حق الملكة .. والملك ..

ولقد قلت فيما سبق ان مراد محسن باشا كان ينافس حسنين على مركز الرجل الاول فى القصر .. وكان حسنين يعرف هذا .. وكان بين الرجلين منافسة وغيرة فى أكثر من ميدان واحد ..

ومن هنا كان طبيعيا أن يعتقد حسنين أن مراد محسن قد عمل عامدا متعمدا على « شعللة » النار فى صدر زوجته لطفية ..

وكانت آخر عبارة قالها فى هذا الموضوع ، وعلى شفتيه ابتسامة باهتة .. قال :

ـ وكان الرسول فى مفاوضات الطلاق بينى وبين لطفية هو الاستاذ ابراهيم رشيد ..

والاستاذ ابراهيم رشيد المحامى هو صهر المرحوم مراد محسن باشا ..

وهكذا .. طلق حسنين باشا زوجته السيدة لطفية ابنة الاميرة شويكار وسيف الله يسرى باشا .. طلقها

والدموع فى عينيه .. بعد أن أطلقت لسانها وقذفت فى حق الملك والملكة .. أو ـ على حد قوله رحمه الله ـ عابت فى ذوات ملوك ثلاثة ..

ثم رفضت أن تنكر التهمة وتنفى ما نسب اليها .. ورفضت ان تعتذر ..

ورأى حسنين انه أصبح فى وضع صعب ، بل مستحيل .. وانه لايمكنه أن يحتفظ بزوجته ويحتفظ معها فى نفس الوقت بمنصبه فى القصر ..

اما الزوجة ، واما الوظيفة والمنصب وما اليهما من جاه وسلطان .. ولقد اختار الوظيفة ..

والذين يعرفون حسنين وظروفه لا يستطيعون أن يقسوا عليه بسبب هذا الاختيار ..

ماذا كان يفعل لو انه آثر الاحتفاظ بزوجته وأم أولاده وضحى بالوظيفة والمنصب ؟

كيف يعيش ؟ ومن أين ينفق ؟ لقد كان حسنين طوال عمره فقيرا ، بل ومدينا لا يملك سوى مرتبه من وظيفته .. وكان جزء من مرتبه يذهب فى سداد الديون

وكانت زوجته السيدة لطفية فقيرة مثله الآن أمها الاميرة شويكار لم تكن قد ورثت بعد ملايين شقيقها الامير سيف الدين ، بل الذى أعرفه ان الاميرة شويكار كانت فى ذلك الوقت فقيرة تعيش على الاعانة أو المرتب الشهرى الذى يدفع لها بوصفها احدى اميرات البيت المالك .. وكانت كثيرا ما تلجأ الى الحكومة تطلب منها النجدة العاجلة فى ازمة مالية طارئة .. ولقد رأيتها فى محطة باريس فى ربيع نفس العام ١٩٣٧ ، وقد جاءت هى وزوجها الهامى حسين ليودعا النحاس « باشا » والسيدة حرمه عند سفرهما .. ورأيت شويكار الاميرة حفيدة محمد على تنحنى فوق يد مصطفى النحاس ..

وفوق يد السيدة حرمه مودعة محبية ! ذلك لأنها ـ كما سمعت يومئذ ـ كانت فى حاجة ملحة الى معونة مالية سريعة من الحكومة .. وكان حسنين بعد هذا أو ذاك قد أعتاد الحياة السهلة حياة الترف والدعة فى القصور الملكية وهى التى كانت من حقه بحكم منصبه فى القصر .. فكيف يتخلى عنها أو ينسحب ويستقيل منها ليواجه المستقبل المجهول وهو الفقير الغارق فى الديون ! ؟

ولقد تساءل بعض أصدقاء حسنين ـ وأنا منهم ـ لماذا لم يذهب حسنين الى فاروق ويطلب ـ أو بلغة العهد ـ « يلتمس » منه اعادته الى السلك السياسى الذى كان نقل منه الى منصبه فى السراى فى عهد الملك فؤاد !.. وكانت درجته ومرتبه يؤهلانه يومئذ لمنصب وزير مفوض من الدرجة الاولى !..

وهكذا يخرج حسنين من مصر ، وتخرج معه زوجته لطفية المغضوب عليها ؟..

واذن لاستطاع حسنين أن يحتفظ بزوجته وأن يحتفظ معها بوظيفته ومصدر رزقه الوحيد !

ولكن هل كانت الملكة نازلى ، وابنها الملك فاروق يرضيان بهذا الحل أو يكتفيان بهذه الترضية .. وهى ابعاد السيدة لطفية عن مصر ؟..

ربما كان فاروق قد قبل .. أما نازلى فمن المؤكد قطعا انها كانت ترفض .. ولا أقل من الطلاق ..

والى هنا وقد حاولت أن أنصف حسنين .. وأسجل ما كان لفقره وديونه من وزن وأثر فى قراره ..

ولكننى مطالب كذلك بانصاف الحقيقة والمنطق .. والحقيقة تقول ان حسنين كان ذا مطامع واسعة ، وانه كان رسم سياسة لتحقيقها ، وان من أسس هذه

السياسة بقاءه فى القصر الى جانب صاحب العرش .. وسيطرته فى نفس الوقت على الملكة أم الملك وصاحبة النفوذ والاحترام يومئذ عند ابنها الملك ..

كيف اذن يغادر مصر ، والقصر والملك والملكة ويرضى أن يذهب الى الخارج سفيرا أو وزيرا مفوضا لبلاده ؟..

وهو الذى كان حريصا من اجل تحقيق مطامعه على البقاء فى مصر وفى القصر بالذات حيث يسهل عليه وضع أصبعه فى أى وقت على نبض الحوادث ومتابعة سير الامور وانتهاز الفرص كلما لاحت فرصة سانحة ؟ !

هذا كله .. تقوله الحقيقة .. وهنا يقول المنطق أن حسنين نفسه كان يرفض مغادرة مصر والقصر الى الخارج لو أن اقتراحا بهذا المعنى كان عرض عليه !

وهكذا .. وكيفما قلبت الامر على أى وجه فانك تصل الى هذه النتيجة وهى أن حسنين لم يكن أمامه سوى أن يطلق زوجته ..

وقد فعل وفى حلقه غصة وفى عينيه دمعة حائرة !

لقد كان يحب زوجته شريكة حياته وأم أولاده ..

ولكن حبه لمطامعه كان أكبر وأعمق .. ولقد كان حسنين - كما سبق أن قلت - يلبى دائما نداء العقل ويصم أذنيه عن صراخ القلب والعاطفة مهما كانت الظروف .. وكان عقله حليف مطامعه ..

***

وانتقل الآن الى مشهد جديد فى هذه المسرحية ..

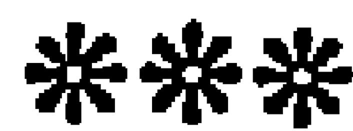
الآن وقد طلق زوجته .. وأصبح حرا طليقا .. هل تراه ذهب وأخذ الملكة نازلى بين ذراعيه .. أو تركها تأخذه بين ذراعيها ؟

لم تكن هذه سياسة أحمد حسنين .. حسنين العالم العليم بطبائع النساء ، وخصوصا من تجاوزت منهن مثل

الملكة نازلى سن الشباب .. ومن كانت لها ـ مثل نازلى ـ أهواء ونزوات !.. جارية رقيقة أسيرة هوى فى المساء وملكة مستعلية متكبرة فى الصباح ..

تعنصر الثمرة .. وتلفظ نواها.. وترشف الخمر.. وتكسر القدح .. امرأة تسير على هواها .. وهواها ألا تحفظ عهد هوى ..

وكان حسنين يعرف هذا ويقيم له كل وزن فى خططه وحسابه ..



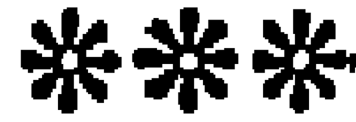
وهنا اترك الحديث لمراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية وتقريرا للواقع أحب أن أقول ان حديث المرحوم مراد باشا لم يكن معى ، بل كان مع شخص موثوق به ولست فى حل من ذكر اسمه لأنه لا يريد أن يذكر اسمه فى هذه القصة ..

تحدث مراد محسن باشا فى يوم الجمعة ٥ يولية عام ١٩٤٠ الى الشخص الموثوق به المذكور وعاد بحديثه نحو ثلاث سنوات الى الوراء .. وهذا الحديث مسجل مكتوب ـ حرفا بحرف ـ كما أفضى به صاحبه

قال مراد محسن باشا :

ـ ان حسنين باشا أخطر رجل فى مصر ، وهو ممثل يجيد التمثيل خيرا من يوسف وهبى ، وأنا لا أنسى يوم جاءتنى الملكة نازلى تقول : انها تحب حسنين ولا تستطيع الحياة بدونه ، وانها تعسة لأن حسنين صارحها بأنه لايستطيع أن يقربها لأنه لايحب الحرام .. ثم قالت الملكة نازلى انها كانت أوفدت الى حسنين احدى وصيفاتها لتسأله عن سر بروده مع صاحبة الجلالة ؟.. فقال لها : انه يتعذب وانه يمسك بعواطفه لأنه يحبها ـ أى يحب الملكة نازلى ـ ولكنه لايستطيع أن يفعل

شيئا يغضب الله .. وانطلقت الملكة نازلى فى شكواها لمراد محسن باشا تقول :
ـ يعنى اعمل ايه أنا ؟.. لا هو يسمح لى أن أعرف رجلا سواه .. ولا هو يريد أن « يأخذنى ! » لا عاوز يرحم ولا يخلى رحمة ربنا تنزل ! « واستغفر الله للمرأة الآثمة » ..



ومضي مراد محسن باشا فى حديثه يقول :
ـ ولقد دهشت من هذا التصرف من حسنين ، فأنا أعرفه جيدا وأعرف انه فى حياته الخاصة وسلوكه الشخصى ليس شيخ الازهر ! ولكن حسنين كان يمثل دورا .. وكانت النتيجة أن ازداد وجد الملكة نازلى وتضاعف هواها وحبها له وأصبحت تعتقد انه رجل غريب.. رجل يجد ملكة بين يديه ويرفض أن يقربها !
وذات يوم قالت له :
ـ انا أعطيك انذارا نهائيا ، اما أن تعاملنى كامرأة ، واما سأقطع كل علاقة بيننا وأصبح حرة أفعل ما أشاء
وأجاب حسنين ـ وهو يتظاهر بالبكاء ـ انه لايستطيع أن يقربها الا اذا تزوجها على شرع الله وسنة رسوله..
ثم أسرع يقول :
ـ وغير معقول أن أتزوج الملكة ..
وهنا صاحت الملكة نازلى :
ـ طظ فى لقب الملكة !
ولكن حسنين قال :
ـ معنى هذا ان جلالة الملك سيطردنى وأنا أفقر من أن أستطيع العيش على معاشى لأن الديون تأخذ جانبا كبيرا منه ..
قالت الملكة نازلى :

ـ انا مستعدة لأن أضع ثروتى كلها بين يديك ..

قال :

ـ ولكننى لا أستطيع أن أعيش على حساب زوجتى وسوف أشعر بمرارة انك دفعت لى ثمن هذا الزواج ..

وصاحت هى :

ـ يعنى عايزني اعمل ايه ؟ زوجة .. لا !.. لا !.. رفيقة لا !.. عاوزنى أبقى ايه ؟ ! ..

قال حسنين :

ـ عاوز ملكة ! ..

قالت :

ـ يعنى قطعة جماد !.. طوب .. حجارة ؟.. لا ياسيدى .. انا بنى آدم .. انا دم ولحم .. انا امرأة ، انا حرمت كل حياتى من الحياة .. عاوزه اعيش .. سيبنى اعيش ..

قال حسنين :

ـ انا خايف على سمعتك وسمعة السراى ، والا لتركتك تفعلين ما تشائين ..

***

وهنا انفجرت قائلة :

ـ طيب !.. سابهدل سمعة السراى !.. انا اخذت ايه من السرايات .. غير المرض والبؤس والشقاء !.. انا عشت تمنتاشر سنة فى ثلاجة ..

ولكن حسنين أصر أمامها على انه يخشى الله ولا يستطيع أن يفعل شيئا يغضب الله !..

وهنا قالت الملكة نازلى :

ـ اذن سأذهب الى فاروق واقول له اننى سأتزوجك

قال حسنين :

ـ اذهبى ... ولكنه سيرفض ..

ومضى مراد محسن باشا فى حديثه يقول :

ــ وذهبت الملــكة نازلى فعلا الى الملك فاروق .. وكانت مقابلة عاصفة !.. فقد قالت لابنها انها تحب حسنين باشا وتريد أن تتزوجه ..

وقال فاروق :

ــ رافقيه أحسن !..

قالت : انه يرفض أن يكون عشيق الملــكة !..

قال صاحب الجلالة :

ــ سأصدر اليه أمرا ملــكيا بذلك !

ولعل فاروق كان يسخر من أمه !

***

وعلى كل حال فانه لم يفاتح حسنين فى هذا الموضوع وكان طبيعيا أن اعتقد ان الملك سوف يغضب ويحقد على حسنين ويطرده من السراى ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. ولعل جلالته آمن باخلاص حسنين باشا وان هذا الاخلاص هو الذى يحول بينه وبين أن تكون له بالملــكة علاقة غير شريفة !

وكان الملك لايزال يثق فى حسنين وفى اخلاصه .. فقد حدث أيام كان الملك وأمه الملــكة نازلى فى لندن أن أرادت الملــكة أن تذهب الى ناد ليلى معين لترقص فيه فذهب اليها حسنين وقال لها : « اذا رقصت فى هذا النادى فسوف أضعك هنا فى مستشفى المجاذيب » .. وذهبت الملكة نازلى تشكو حسنين الى فاروق وتهديده اياها .. ولكن الملك فاروق لم يفعل شيئا ولم يقل شيئا لحسنين .. وهذا هو الامر العجيب الذى يحيرنى ! ؟

ثم قال مراد محسن باشا :

ــ ومع ذلك فأنا أعرف ــ أكيدا ــ ان الملك يكره حسنين فى قرارة نفسه ، ولــكنه ــ كما يظهر ويبدو من

تصرفاته ـ يخافه ويتقي شره !.. وحسنين يعرف ذلك ومن هنا يعمل من جانبه على اتقاء بطش الملك به عن طريق السيطرة التامة على أم الملك .. الملكة نازلى !

وذات يوم جاءتنى الملكة نازلى تقول : انها قررت أن تهب حسنين باشا خمسمائة فدان ، وطلبت منى ، بصفتى ناظر الخاصة ووكيلا عنها ، أن أعد العقود الخاصة بهذه الهبة ونقل الملكية ، وحاولت أن أراجعها فى قرارها ، ولكنها أصرت عليه .. وهنا ذهبت الى الملك فاروق وابلغته الخبر ، فثار وهاج وقال لى :

ـ ان هذه الخمسمائة فدان بتاعتى أنا .. لأننى أنا الذى أرث الملكة ..

ولكنه لم يفعل شيئا ولم يحدث أمه أو حسنين فى هذا الموضوع ، واكتفى بأن طلب منى أن أذهب الى « رفعة » شريف صبرى باشا شقيق الملكة واروى له الحكاية .. وذهبت الى شريف باشا وقلت له : ان جلالة الملكة تريد أن تهب حسنين باشا خمسمائة فدان ..

ولكن شريف صبرى لم يفعل شيئا .. وبينما أنا فى حيرة ماذا أفعل ؟ اتصل بى حسنين باشا ليقول لى انه يرفض هذه الخمسمائة فدان ..

وبعده بقليل ، اتصلت بى الملكة نازلى وقالت : ان حسنين باشا شتمها وقال لها : « انتى عاوزه تهزئينى أمام رجال السراى ؟ انتى عاوزه تنتقمى منى ؟ كيف تتصورين أنآخذ منك أنا فدادين؟ انتى امرأة مجنونة !»

***

ومضى مراد محسن باشا فى حديثه يقول :

ـ وهكذا استطاع حسنين باشا برفضه هذه الهبة الكبيرة أن يزيد فى قوته ومقامه فى عين الملكة نازلى ، وأن يشعرها انه من الانبياء والقديسين لا تمكن رشوته

وأنا أعتقد ان سياسته أو هدفه الذى كان يسعى اليه فى آخر الامر هو أن يحمل الملك فاروق على أن يرجوه بنفسه أن يتزوج أمه الملكة نازلى زواجا عرفيا .. وعندئذ ينحنى أمام رغبة « مولانا » ويصدع بالامر بحجة انه انما يخدم الملك والأسرة بهذا الزواج ! ! وأما اذا رفض أن يكون عشيقا للملكة نازلى ، فربما خوفا من بطش الملك .. أو ربما لأنه كان يعرف حق المعرفة انه لو رضي أن يكون عشيقا للملكة لزهدت فيه بعد شهر واحد أو شهرين وتخلصت منه وتركته .. ومن هذا رسم لنفسه هذه السياسة.. سياسة التعالى والخوف والبعد عن كل ما يغضب الله .. وهكذا .. يضمن أن يبقى الملكة نازلى ملهوفة عليه والهة ويضمن بواسطتها نفوذه عند الملك وبقاء السلطة طول حياته فى يده .. ولكنى لا أعرف .. هل يستطيع حسنين أن يستمر طوال حياته فى تمثيل هذا الدور ، ولعب البهلوان ، والمشي على السلك المشدود ، أم انه سيقع يوما وتندق رقبته ..

***

قال مراد محسن باشا :

ـ وكان الملك فاروق يغضب أحيانا ويستبد به الغضب ويثور بسبب حب أمه الملكة نازلى لحسنين ، هذا الحب المفضوح الذى أصبح حديث جميع من فى القصر .. بل حديث أعضاء الأسرة المالكة .. كان يثور ويقسم انه سوف يضرب حسنين بالرصاص!.. ولكننى كنت أدخل عليه مكتبه فى اليوم التالى فأجده جالسا يمزح ويضحك مع حسنين !..

وحدث مرة فى العام الماضى ـ أى عام ١٩٣٩ ـ أن تلقى جلالة الملك تقريرا جاء فيه : ان جلالة الملكة

نازلى تسهر الى الصباح عند حسنين ، وقرر الملك أن يضبطهما معا متلبسين وأخذ معه خادمه الارناؤوطى محمد عبد الله وذهب الى بيت حسنين باشا وترك سيارته بعيدا عن الدار .. ثم دخل البيت من احدى النوافذ وعرف ان الملكة وحسنين فى الدور العلوى .. واعتقد انهما فى غرفة النوم !.. وصعد السلم على أطراف أصابعه .. وهو يضع دائما فى قدميه حذاء ذا نعل من « الكاوتش » لا يحدث صوتا .. وتسلل الى غرفة النوم .. وفتح بابها فوجدها خالية .. وفتح الغرفة التى بجوارها فرأى منظرا أذهله ! ؟ رأى حسنين باشا جالسا على الارض وأمامه الملكة نازلى جالسة كما تجلس التلميذة أمام أستاذها .. وكان حسنين يتلو عليها آى الذكر الحكيم من مصحف بين يديه !

وذهل الملك من هول المفاجأة .. فلم يجد شيئا يقوله .. وأغلق عليهما الباب وغادر الدار !..

ومضى مراد محسن باشا فى حديثه فقال :

ـ وعندما سمعت هذه القصة من الملك ازداد اعتقادى بأن هذا الرجل ـ يقصد حسنين باشا ـ بهلوان ! والا فكيف استطاع أن يمثل دور الرجل الصوفى المتدين مع الملكة نازلى .. وأن يحملها على الجلوس أمامه تصغى الى تلاوته للقرآن وهى التى لاتكاد تجلس فى مكان ما دقائق معدودات حتى تهب واقفة وهى تصيح : « أنا أختنق هنا !.. تعالوا نبحث عن سهرة نرقص فيها ! » ..

ثم قال :

ـ انجلالة الملك يعتقد انحسنين هو الرجل الوحيد الذى تخافه الملكة وتطيعه .. والرجل الوحيد القادر على ترويض الملكة باعتباره مروض وحوش أو انه اذا

خرج حسنين من القصر فان الملكة نازلى سوف تنفجر وتترك هى أيضا السراى.. و «تمشي على حل شعرها» !
ولكننى لست من هذا الرأى ، بل أعتقد ان حسنين هو الذى يضفى على نفسه كل هذه الاهمية .. بحركاته وتمثيله وبهلوانيته والا فما الذى تستطيع أن تفعله الملكة نازلى اذا وضعها الملك فى قصر وأغلقه عليها ؟..
ولكن الملك يرفض المناقشة فى هذا الموضوع .. وهو كلما يسمع أن الملكة تريد أن ترتكب حماقة صاح : « الحقونى بحسنين » ! ؟

***

انتهى حديث المرحوم مراد محسن باشا ..
وقد برهنت حوادث الايام والسنوات التالية على انه ـ رحمه الله ـ كان مخطئا فى رأيه وفى التهوين من شأن أحمد حسنين لأنه لم يكد حسنين يلقى حتفه ويوارى فى التراب حتى انطلقت نازلى « على حل شعرها » ..

***

تدلهت ملكة مصر وتهتكت فى حب حسنين ، ولم تخجل من أن تعلن حبها له أمام رجال القصر .. ثم أمام ابنها الملك فاروق .. تنسى مقامها كملكة ، وأرملة ملك وأم ملك ! ونسيت حرمة سنها وقد جاوزت الاربعين !
وكانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة على فاروق الذى كان يومئذ فى الثامنة عشرة من عمره .. ميلادية ! أو التاسعة عشرة هجرية !..
وكان فاروق يحب أمه .. ولم يكن يفوق حبه سوى احترامه لها .. كانت تناديه أمامنا وأمام رجال الحاشية وخدم الفنادق « فاروق » .. وكان هو يخاطبها أو يناديها دائما « ماجستيه » أى صاحبة الجلالة !
وكان يخشاها ويتقى غضبها ويعمل لها حسابا ..

وكانت كلمتها عنده لا ترد ..

كثيرا ما سمعتها ـ أثناء رحلتنا الى سويسرا وفرنسا وانجلترا ـ سمعتها تنهاه أمامنا علنا عن قيادة سيارته بنفسه .. أو تنهره وتطلب منه أن يترك سيارته ويركب معها فى سيارتها لأنها كانت تخاف عليه من تهوره فى قيادة السيارات بسرعة جنونية ..

وكان يخضع دائما ويطيعها .. ولا يرى غضاضة أو بأسا ـ وهو الملك ـ فى أن ينزل على ارادتها مثل أى طفل صغير !

هكذا كان مقدار حب فاروق واحترامه لأمه نازلى.. ثم ها هى ذى تتدله وتتهتك فى حب موظف من موظفى القصر .. وتذهب تشكو حبها لناظر الخاصة ولا تخجل من أن تعلن أمام موظفى القصر انها عاشقة ملهوفة على أحمد حسنين .. بل ولا تخجل من أن تصارحه هو ـ ابنها الملك ـ بأنها تحب هذا الموظف أحمد حسنين ..

وانها قدمت نفسها وجسمها ، ولكنه يرفض !.. ثم تصرخ وتصيح : انها من لحم ودم !.. وتطلب من ابنها ان يزوجها من حسنين !

كانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة .. على فاروق وتهاوت المثل العليا التى كان يراها فى أمه ـ صاحبة الجلالة ـ تهاوت وتحطمت تحت قدميه .. وكان كما ـ أسلفت ـ لايزال فى سن الثامنة عشرة !..

وكانت مثل عليا أخرى قد أخذت تتهاوى وتتحطم فى نفس الوقت تحت أقدام فاروق ..

زعماء البلاد الكبار وشيوخها الكبار وساستها الكبار .. رآهم فاروق واحدا بعد واحد ، ينحنون فوق يده ويقبلونها وينسحبون من « حضرته الملكية العلية » وهم يمشون بظهورهم الى الوراء ..

وسمعهم واحدا بعد واحد ، يقولون له : انهم جاءوا ليلتمسوا منه « توجيهاته السامية وارشاداته الغالية »

وقرأ لهم جميعا فى الصحف تصريحات أفضوا بها ، وقالوا فيها : انهم « تشرفوا بمقابلته ليتلقوا نصائحه الغالية وارشاداته الحكيمة » ..

ولم يكن فاروق غبيا .. كلا .. فقد كان يعرف انه لم ينل من العلم الا قليلا .. وانه جاهل أو نصف أمي .. وأن تشدق هؤلاء الساسة والزعماء الكبار بحكمته ونصائحه ليس سوى نفاق ورياء .. وأن كل ما يسعون اليه هو الحكم وكراسي الحكم !..

وهكذا !.. المثل العليا .. فى أمه .. وفى رجال مصر تهاوت وتحطمت .. ودخلت المرارة فى نفس الفتى ابن الثامنة عشرة ..

ومع المرارة والسخرية والاستهتار بالمثل العليا ــ وأين هى ؟ ــ وبالمبادىء والقيم والاخلاق .. وبكل ما فى هذه الدنيا من نبل وعلاء !..

لم يجدها فاروق في أمه .. ولم يجدها فى رجال دولته .. لا فى الساسة ولا فى الزعماء .. ! ؟

وانطلق فاروق يسخر ويهزأ بكل شىء .. ويدوس بقدمه كل مقدسات هذا البلد ..

ولقد كنت كتبت مقالا مطولا فى هذا المعنى فى أعقاب الثورة ، وبعد خلع فاروق فى صيف عام ١٩٥٢ ، وكان عنوان المقال : « مأساة الملك فاروق » ..

وعدت اليوم الى نفس المعنى أو الموضوع ، لكى أقرر هذه الحقيقة مرة أخرى ..

وهى أن هذه القصة أو هذه الفضيحة ــ فضيحة نازلي وتهتكها ــ كانت من العوامل الرئيسية التى حولت فاروق من ملك محبوب مأمول الى طاغية ، وفاجر ،

ومستهتر .. أو مخلوق بلا أخلاق ولا مبادىء ولا مثل عليا ! وان شئت فقل : « حيوان فى رسم انسان »..

***

واعود الى سياق الحديث أو القصة :

انتهت نازلى ملـكة مصر الى هـذه النتيجة ، وهي ان حسنين يرفض أن يعاملها كامرأة ، ويتخذها عشيقة لأنه ـ كما قال لها ولوصيفتها ـ يخاف الله ، ولايستطيع أن يقربها الا على شرع الله وسنة رسـوله .. ثم هو لايستطيع أن يتزوجها خوفا من أن يطرده الملك فاروق وهو ـ أى حسنين ـ رجل فقير لايملك سوى مرتبه الذي يناله من وظيفته ..

اذن ماذا ؟

كان حسنين فى الواقع يرمى من وراء هـذا الدور الذى مثله بمهارة عجيبة ـ كان يرمي وكما قال المرحوم مراد محسن باشا ـ الى أن يحمل الملك فاروق على أن يستدعيه ويأمره أو يرجوه أن يتزوج أمه الملكة نازلى !

واذن .. يصدع حسنين بأمر «مولانا الملك» ويتزوج من جلالة الملـكة !

كان هذا هو الهدف الذى يسعى اليه حسنين ، ولم يكن تحقيقه مستحيلا أو صعب المنـال ، لأن حسنين باشا ـ رحمه الله ـ كان قد أفلح فى اقناع فاروق ـ بطريق غير مباشر ـ بأنه ـ أىحسنين ـ الرجل الوحيد فى مصر ، أو فى القصر ، القادر على كبح جماح الملكة نازلى .. وانها لولاه ولولا نفوذه عليها « لخرجت على حل شعرها » وتركت السراى وانطلقت على هواها !

هذا ما كان يعتقـده فاروق كما قرر مراد محسن باشا .. ولهذا لم يكن امرا مستحيلا أن يطرح فاروق عواطفه ويصغى لحكم العقل والحكمة ويطلب منحسنين

أن يتزوج جلالة الملكة !

ولكن فاروق لم يفعل .. وحسنين لم يتراجع أو يتزحزح عن موقفه .. اذن ماذا ؟.. ماذا تفعل الملكة التى تريد أن تعامل كامرأة .. من لحم ودم ؟

***

هزت نازلي كتفيها فى وجه حسنين ، وشقت عصا الطاعة.. وانطلقت تغازل وتمرح وتسهر وتشرب وترقص مع من يعجبها من شبان.. ووقع اختيارها أول ما وقع على تشريفاتى بالقصر كان ملحقا بحاشيتها ..

وبدأت الاشاعات والحكايات تخرج من القصر ودوائر القصر الي الاندية والقصور ..

الملكة نازلى « ماشيه »مع «ح.التشريفاتى» ! الملكة نازلى أمضت ليلة أمس فى الزمالك فى شقة فلان صديق «ح» الذى كان موجودا .. الى آخره .. الى آخره !

لعل أحمد حسنين يفار ويغضب ويثور ، ويعاتبها وينتهى الامر بتسوية !

ولكن احمد حسنين عرف كيف يصبر ويسكت .. بل ويبتسم رثاء لها اذا ما قابلها فى احدى حفلات السراى !

وكان فاروق هو الذى غضب وثار ، وكان لسان حاله يقول : « لم يبق الا التشريفاتية وصغار الموظفين » ! تقرن اسماؤهم باسم أمه الملكة .. وتروى عنهم وعنها قصص الغزل والمرح والسهرات والشراب ! ؟

وقابل فاروق ذات صباح التشريفاتى المذكور «ح» فى احدى ردهات القصر ، فاستوقفه وصاح فيه :

ـــ حضرتك عامل ايه فى حواجبك ؟.. ناتف شعرها زى الستات !.. وكمان يظهر أنك بتحط بودرة واحمر؟.

واصـــدر أمرا ملكيا بنقل التشريفاتى الى احدى

وظائف وزارة الخارجية ..

وخشى الرجل عاقبة لهوه مع الملكة نازلى ، فانقطع عنها .. ولعل حظه الحسن هو الذى جر عليه غضب فاروق لأنه لم يلبث أن استقال من خدمة الحكومة ، واشتغل بالاعمال الحرة وأثرى وأصبح من كبار رجال الاعمال والشركات ..

ورأت الملكة نازلى ان ابنها فاروق يضيق عليها الخناق ، وأن حسنين مصر على موقفه منها .. فهزت اكتافها مرة أخرى وسافرت الى أوروبا ..

***

ومرت شهور الصيف ومن بعده الخريف ، واقترب موعد سفرى الى أوروبا ، فقد كنت اعتدت أن أمضى فصل الشتاء فى سويسرا .. وقرأت فى الصحف ان جلالة الملكة نازلى تزمع العودة من رحلتها فى أوروبا الى مصر ، وانها تغادر ميناء مرسيليا فى يوم « كذا » فتصل الاسكندرية فى يوم « كيت » من شهر نوفمبر ..

وركبت انا الباخرة من ميناء بورسعيد فى مساء ٧ نوفمبر .. وقدرت انني سوف أصل الى مرسيليا فى نفس اليوم الذى تصل فيه الملكة نازلى الى الاسكندرية

ومن مرسيليا أخذت القطار الى باريس ، فوصلتها بعد منتصف الليل .. وذهبت الى الفندق الذى كنت اعتدت النزول فيه وهو فندق جورج سانك ، أو جورج الخامس ..

ورأيت علم مصر الاخضر يرفرف على الباب الرئيسى للفندق ، وعجبت .. ترى من يكون الزائر المصرى الكبير المقيم بالفندق والذى يرفع الفندق علم مصر تكريما له ؟

وسألت موظف الفندق ـ وأنا اسجل اسمى فى

الدفتر ــ فقال :

ــ جلالة ملــكة مصر !

اذن فالملــكة نازلى لا تزال فى باريس .. وصحف مصر كانت مخطئة فى نشر خبر عودتها ؟

كذلك لم أكن أعرف ان جلالتها تنزل فى فندق جورج الخامس لأنها سبق لها أن زارت باريس مع ابنها ، ثم وحدها وأقامت مرة بفندق ده كريون ، ومرة بفنــدق ريتز ، والمرة الثالثة والاخيرة بفندق بلاتزا اتنيه .. وها هى ذى فى فندق جورج الخامس ..

ولو عرفت .. لــكنت ذهبت الى فندق آخر، وذلك لأن العلاقات يومئذ بين فاروق والوفد كانت ســيئة للغاية .. وكنت وفديا ومجلتى « آخر ساعة » وفدية وكان فاروق غاضبا على ..

وكنت حريصا فى تلك الايام على أن أتحاشى القصر والذين فى القصر وكل أحد له علاقة بالقصر أو فاروق

وهأنذا أنزل فى نفس الفنـــــدق الذى تقيم فيه أم فاروق وأفراد حاشيتها !

***

وفى مســـاء اليوم التالى ــ وكنت جالسا فى أحـــد صالونات الفندق ــ دخل تشريفاتى الملكة نازلى محمود أسعد بك ومعه زوجته السيدة فتحية أبو اصبع ... ولحق بهما بعد قليل الاستاذ حسنى نجيب وزوجته السيدة نايلة سلطان ..

وتبادلنا التحية .. واذ نحن نتحدث أقبل من يعلن نزول جلالة الملــكة .. من جناحها الخاص ..

ووقف الجميع ودعونى للذهاب معهم لقضاء السهرة ولــكنى اعتـــذرت من عدم الذهاب بحجة التعب .. وأسرعوا بالخروج ليلحقوا بجلالة الملــكة ولم أر وجه

الملكة نازلى .. ولقد حرصت بعدئذ على عدم الجلوس فى صالونات حتى لا اقابلها أو اقابل أحدا من أفراد حاشيتها .. وكنت اغادر الفندق فى الصباح .. وأعود فى المساء الى غرفتى مباشرة ..

وهكذا امضيت نحو أسبوعين فى باريس ، ثم سافرت الى زيوريخ فأقمت فيها بضعة أيام ومنها الى سان موريتز ..

ووجدت فيها خطابا من مصطفى أمين ، وكان الخطاب محولا من فندق جورج الخامس ..

وفى الخطاب يقول مصطفى : ان النقراشي باشا ـ رحمه الله ـ وكان يومئذ وزيرا للداخلية استدعاه الى مكتبه وقال له : ان التابعى فى باريس ويقيم فى فندق جورج الخامس الذى تقيم فيه جلالة الملكة نازلى .. وانه ـ اى النقراشي باشا ـ يطلب منى أن لا أثير متاعب له ولنفسى .. ومن ثم يرجونى أن أغادر باريس على الفور ، أو على الاقل اترك فندق جورج الخامس .. الى فندق آخر ..

وهذه خلاصة الخطاب .. ويظهر ـ على الارجح ـ انه كان يوجد بين حاشية الملكة نازلى من كان يرسل تقارير الى فاروق .. عن أمه الملكة وماذا تفعل ومن تقابل ومع من تخرج .. الى آخره ..

وعرف فاروق اننى أقيم فى نفس الفندق .. ولعله خشى أن أعرف عن أمه وسيرتها فى باريس ما لايصح ان يعرفه أحد وخصوصا وانا صحفى وفدى .. وكانت الخصومة ـ كما قدمت ـ على أشند ما تكون وقتئذ بين فاروق والوفد ..

خشى فاروق أن أطلع على أمور قد يستعملها الوفد فى دعايته ضده ، فطلب من النقراشي أن يعمل على

ابعادى عن باريس .. الى آخره ..

وهذا ما فهمته من خطاب الصديق مصطفى امين ..

وعلى كل حال فقد كانت الاشاعات يومئذ فى مصر كثيرة .. ومنها مثلا ، اننى غادرت مصر الى أوروبا منفيا بأمر من الملك فاروق .. ومنهـا كذلك ، أن فاروق طلب من الوزارة تجريدى من الجنسية المصرية الى آخره .. الى آخره ..

ولما عدت الى مصر وسمعت بهذه الاشاعات كتبت عنها فى مجلة « آخر ساعة » وسخرت منها ومن الذين اختلقوها وأذاعوها ..

***

وكانت الملكة نازلى ـ كما عرفت وسمعت فى سويسرا ـ قد زارت « فيينا » و « بودابست » ..

وفى « بودابست » عرفت شابا جميلا هو ابن الاميرال هورتى الوصى يومئذ على عرش المجر .. وقد قتل بعد ذلك فى حادث طائرة فى روسيا عام ١٩٤٣ ..

وطابت لها الاقامة فى «بودابست» .. بعد أن وجدت فيها الرجل الذى يرضى أن يعاملها كامرأة من لحم ودم !

ثم غادرتها الى باريس .. حيث وجدتها .. ثم عادت جلالتها مرة أخرى الى بودابست ..

وأخيرا عادت الى مصر ولحق بها الشاب هورتى ، وجاء مصر ونزل فى فندق شبرد ..

وكانت حكايتها مكشوفة .. وأكثر من مكشوفة !

ومرة أخرى صاح فاروق : « الحقونى بحسنين » !..

واصدر صاحب الجلالة أمره الملكى الى حسنين : « أن يشوف له طريقة مع جلالة الملكة نازلى .. ويضع حدا لحكايتها مع الشاب هورتى .. لأن الحكاية أصبحت فضيحة مكشوفة » ..

وصدع حسنين بالامر .. ونزولا على ارادة « مولانا » ذهب حسنين واسترضي الملكة نازلي وتصالح معها..

وبعد أيام من عقد الصلح أحس الشاب هورتي ابن الوصي على عرش المجر أن بقاءه في القاهرة أصبح أمرا غير مرغوب فيه من الملكة نازلي نفسها .. ومن سلطات مصر العليا .. فغادر مصر عائدا الى بلاده !

واجتمع «الشمل» وكثرت الحفلات والسهرات التى كان يقيمها أصدقاء الملكة نازلي أو أصدقاء حسنين.. لكي يجتمع فيها الحبيبان : نازلي ، وأحمد حسنين

وذات يوم ذهب الامير محمد على الى القصر يشكو لفاروق من تصرفات أمه الملكة نازلي وكيف ان سيرتها مع حسنين باشا أصبحت على كل لسان !

***

وقد ورث فاروق عن أبيه الملك أحمد فؤاد كرهه للأمير محمد على توفيق ونفوره منه ..

وكان أحمد فؤاد يعمل دائما على مضايقة ابن أخيه الامير محمد على .. وكان محمد على يلجأ الى «المندوب السامى البريطاني» في مصر أو الى السلطات البريطانية العليا في لندن لكى تأخذ له حقوقه من عمه الملك أحمد فؤاد .. ولكى توقفه عند حده وتأمره بالكف عن مضايقة صديقها الامير محمد على توفيق ..

روى المرحوم عبد العظيم راشد باشا وزير الاشغال الاسبق في مذكراته « التى لم تطبع ولم تنشر » — روى في مذكراته — ان اللورد لويد المندوب السامى البريطانى قال له : انه ذهب مرة وقابل الملك فؤاد ووبخه بسبب بعض تصرفاته مع الامير محمد على ، وان الملك فؤاد بكى ساعتئذ بكاء شديدا ، ثم قال لورد لويد :

ـ وماذا أستطيع أن أفعل مع ملك يبكى كلما وبخته وذكرته بواجباته كملك ؟ !

***

كان الملك فؤاد يكره ابن أخيه محمد على توفيق ، وقد ورث فاروق عنه هذه الكراهية ..

وكان الامير محمد على توفيق لا يكف عن انتقاد أسرة عمه الملك فؤاد أفرادا وجماعات ، وكان يشهر بها وبتصرفاتها فى مجالس الأسرة ..

وكان فاروق يعرف هذا ..

حدث مرة أن اقيمت مأدبة كبيرة فى قصر عابدين وحضرها الامير محمد على توفيق وكان جالسا الى يمين الملك فاروق ، وأبدى « سموه الملكى » اعجابه بنقوش وزينة سقف قاعة الطعام ..

وهنا التفت اليه فاروق وقال وهو يغمز بعينه للحاضرين من كبار رجال القصر :

ـ الحمد لله اللى وجدت عندنا حاجه تعجبك !

وفهم الامير غمزة الملك .. وابتسم الحاضرون ..

***

وسمع الامير محمد على توفيق بالحكايات التى تروى عن الملكة نازلى وعلاقتها بحسنين باشا ..

وكان طبيعيا أن ينتهز هذه الفرصة لكى يشهر ويندد بتصرفات عائلة احمد فؤاد ..

وذهب « سموه الملكى » وقابل رئيس الديوان «رفعة» على ماهر باشا وقال له ان سمعة الملكة نازلى « زفت » بسبب علاقتها بحسنين .. وطلب من السيد على ماهر ابعاد أحمد حسنين عن السراى ..

ولكن على ماهر « باشا » كان أحرص وأذكى من أن يقحم نفسه فى مسألة شائكة كهذه ، ومن هنا لم يجد

الامير محمد على بدا من أن يذهب ويقابل الملك فاروق نفسه ويشكو اليه أمه الملكة وكيف ان الناس تقول انها أصبحت عشيقة أمينه الاول أحمد محمد حسنين ! ؟

وقال فاروق :

ـ أنا سمعت الاشاعة .. وحققت فيها بنفسى وتأكدت انها غير صحيحة ..

ولكن الامير محمد على أصر على الاتهام ، وقال :

ـ أنا واثق ان بين حسنين والملكة نازلى علاقات غير شريفة ..

***

وسمع حسنين ـ رحمه الله ـ بهذه المقابلة وبالحديث الذى دار فيها ، فأرسل الى الامير محمد على يقول له :

ـ أنا آسف اذ أرانى مضطرا لأن أنسى انى موظف فى السراى وانك ولى العهد ، ولهذا ، فانى أدعوك للمبارزة كما يفعل أى رجل واترك لك حرية اختيار السلاح وشهودك ..

ولم يكد الامير محمد على يتلقى رسالة حسنين حتى فزع واستنجد بالامير عمر طوسن ..

واتصل الامير عمر طوسن بحسنين باشا ، وساله كيف يجوز للأمين الاول لجلالة الملك أن يبارز ابن عمه وولى عهده ؟

وقال حسنين : ان هذا الامر ليست له حقيقة سابقة فى « البرتوكول » .. ولكن لم يسبق كذلك لولى عهد اى بلد أن قال كلاما كاذبا فى حق رجل آخر دون أن يتحمل مسئوليته ..

ثم قال حسنين : انه رغبة فى عدم احراج اى أحد ، فقد رفع الى جلالة الملك الخطاب الآتى :

« لما كان ولى عهدك قد أهاننى ، ولما كنت لا أقبل

هذه الاهانة ، ولمـــا كان وجودى فى خدمتك يقيدنى ، فاننى أقدم اســـتقالتى من منصبى لــكى أستطيع أن أعامل ولى العهد معاملة رجل حر لرجل حر » ..

وهنا قال الامير عمر طوسن :

ــ لــكن ولى العهد يرفض المبارزة ..

وأجابه حسـنين :

ــ فى هذه الحالة سوف أنتهز فرصة وجوده فى نادى محمد على والطمه على وجهه وأعتبر الحادث منتهيا !

***

واتصل الامير عمر طوسن بالملك فاروق ورجاه أن يتوسط فى الامر ، ولــكن فاروق أجابه بأن حسـنين قد استقال من منصبه ولم يعد فى خدمته !

وكان فاروق يضحك ويريد أن يسخر من ابن عمه محمد على توفيق ، ثم يرى الى أى مدى سوف يدفعه جبنه وخوفه !

وعندئذ اتصل عمر طوسن بالامير محمد على ، وقال له : ان حسـنين مصمم على مبارزتك ، وهو قد استقال من منصبه فى السراى ولم يعد فى خدمة الملك .. ولقد وسطت الملك ، ولــكنه اعتذر من عدم الوساطة لهذا السبب ..

وهنا ركب الامير محمد على سيارته وقصد الى دار حســـنين باشا وكان ــ رحمه الله ــ يسكن وقتئذ فى مصر الجديدة ..

ودخل سموه على حسـنين باشا يقول انه جاء لــكى يقدم اعتذاره .. وقال حسـنين : أن هذا لايكفى !.. ويجب أن يذهب سموه ويقدم اعتذاره لجلالة الملــكة نازلى ..

وخرج الامير محمد على وذهب بســـيارته الى قصر

القبة واستقبلته احدى الوصيفات .. وقدم اعتذاره ، ورجا من الوصيفة أن تبلغ اعتذاره هذا لجلالة الملكة نازلى مع التماسه مقابلتها ..

وعادت الوصيفة تقول : ان جلالة الملكة ترفض مقابلته !

وازداد الامير محمد على رعبا وخوفا فعاد وزار حسنين مرة أخرى ، وسأله أن يتوسط لدى الملكة نازلى لكى ترضى بمقابلته ولكنها أصرت على الرفض ..

***

ثم حدث بعد ذلك أن تقابل مع الملكة نازلى عند الاميرة نعمت مختار ، وانتهزت نازلى الفرصة لكى تهزأ منه ، فقالت له :

ـ ان حسنين باشا ليس عشيقى ـ كما تقول ـ لا لأننى لا أريد أن أكون عشيقة له ، بل لأنه هو يرفض ان يكون عشيقا لى !

وراح صاحب السمو الملكى يعتذر، ويعتذر وينحنى امام الملكة نازلى ويردد عبارات الأسف والندم والاعتذار !

وكان من نتائج هذا الدرس الذى أعطاه اياه حسنين باشا أن مكث الامير محمد على ستة أشهر لا يفتح فمه بكلمة واحدة عن السراى وما يجرى فى السراى ، بل عن اى شخص كبير ، او صغير فى السراى !

كذلك كان ـ رحمه الله ـ كلما سمع حكاية أو كلمة تروى أو تقال فى [illegible]ى محمد على عن حسنين باشا ، أسرع يبلغه اياها وكيف ان الوزير فلان يقول عنك ـ اى من حسنين ـ كذا .. وكذا .. وكيف ان النبيل علان يقول كيت .. وكيت !

وذات يوم ذهب الامير محمد على وزار حسنين باشا

وقال له :

ـ لقد انتهزت فرصة مقابلتى أمس لجلالة الملك ، وقلت له انك أشرف رجل فى مصر ، وان وجودك فى السراى نعمة من الله !

وقال حسنين :

ـ كتر خير أفندينا !.. لقد خربت بيتى !

وانزعج أفندينا محمد على ، وقال :

ـ كيف خربت بيتك .. وأنا مدحت فيك ؟

قال حسنين :

ـ هذا بالضبط ما لا أريده .. لأن مدحك يضرنى ويؤذينى !

وسأله الامير فى لهفة ماذا يفعل الآن لكى يصلح خطأه ؟..

وقال له حسنين :

ـ اذهب الى الملك ، وقل له انك اكتشفت اننى رجل خائن ويجب التخلص منى وطردى من السراى !..

واستعاذ الامير محمد على بالله من الشيطان الرجيم وقال انه لا يستطيع أن يقول هذا ..

ولكن حسنين قال :

ـ اذا أردت حقيقة أن تنفعنى وتصلح خطأك ، فاذهب للملك وقل له هذا ..

***

وعاد الامير وطلب مقابلة فاروق .. وقال له :

ـ لقد قلت لجلالتكم فى مقابلتى الاخيرة ان حسنين مخلص ، ولكن جاءتنى بعد ذلك معلومات أكيدة تثبت انه خائن وغير مخلص ..

وكان فاروق يستمع اليه وهو يكتم ضحكة بصعوبة لأن حسنين كان أطلعه أولا بأول على كل ما دار بينه

وبين ولى العهد الامير محمد على توفيق ! ..

وخرج محمد على توفيق من مقابلة الملك ، وذهب الى حسنين ، وقال له :

ـ لقد فعلت كل ما طلبته مني ..

ثم سكت قليلا قبل أن يقول :

ـ ولـكني لا أفهمك .. عندما أشتمك تدعونى الى المبارزة .. وعندما أمدحك تقول انى خربت بيتك ..؟

قل لى : ماذا تريد ؟..

***

وجلس حسنين ـ رحمه الله ـ يروى هذه التفاصيل فى يوم الاثنين ١٨ ابريل عام ١٩٤٠ ، ويعود بنا وبالذاكرة الى حوادث عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، ثم قال :

ـ ولم أجب طبعا على سؤال الامير محمد على وهو ماذا أريد .. ولم أقل له ان كل ما كنت اريده هو أن أسخر منه واكشفه امام الملك ، وامـام امراء الاسرة ، وكيف انه رجل لا اخلاق ولا قيمة له مطلقا وان «كلمة توديه .. وكلمة تجيبه » ..

ومع ان الامراء كانوا جميعا يكرهون الامير محمد على توفيق بسبب بخله الشديد وتزمته واستعلائه عليهم ، الا ان الامير عمر طوسن انتهز مع ذلك أول فرصة ، تقابل فيها مع حسنين باشا ، ليقول له : ان الامراء زعلانين منه ـ اى من حسنين ـ اذ كيف يجرؤ مصرى على أن يطلب اميرا ووليا للعهد للمبارزة ؟ !

أما فاروق فانه لم يذكر لحسنين شيئا عن غضب وزعل الامراء منه ..

وكان كل ما قاله له :

ـ الا تعرف ياحسنين ان القانون يحمى ولى العهد وان ذاته مصونة لا تمس ؟..

وأجاب حسنين :

ـ اعرف هذا يامولانا .. ولـكن عندما يشتم ولى العهد الناس ، فانه بذلك يتنازل عن مركزه وحصانته ويصبح من حقى ان أرد عليه شتائمه ، وأن أعامله كأى فرد مساو لى فى الحقوق !

***

والآن ، وقد لخصنا فى الفصول السابقة قصة الملكة نازلى ، وأحمد محمد حسنين خلال السنوات الثلاث التى تلت وفاة الملك أحمد فؤاد .. وعرضنا للحوادث والمناورات والتمثيليات التى تخللت فصول القصة ..

والآن ، نصل بالقراء الى أوائل عام ١٩٤٠ ، وكان الموقف كما يأتى :

عرف الناس أن هناك شيئا ما ، أو علاقة ما ، بين ملـكة مصر نازلى وبين احمد حسنين باشا ، وأصبحت هذه العلاقة موضوع حديث فى النوادى والمجتمعات ، والسهرات ..

أما الخاصة ـ دوائر القصر ، واوساط الأسرة المالكة ـ فكانت تعرف أن نازلى هى التى تحب حسـنين و « تجرى وراه » وتعرض نفسها عليه وتطلبه زوجا لها وتقدم له مئات الافدنة من أراضيها هدية خالصة وانه يرفض ويعرض عنها ويتأبى عليها ويستغفر الله ، ويعلن انه رجل يكره الحرام ويخاف الله ولا يمكنه أن يقرب امرأة الا على شرع الله وسنة الرسول !

وان الملـكة نازلى ثارت وهددت .. ثم حاولت أن تثير الغيرة فى صدر حسنين ، ولـكنه لم يأبه ولم يتحرك وان الملك فاروق كان يفزع الى حسـنين ويطلب منه النجدة فى كل مرة يخشى فيها أن تخرج أمه الملـكة على العرف المـألوف ومقامها السامى كأرملة ملك وأم ملك

وان حسنين يلبى نداء الملك ويسرع الى نازلى ويفلح فى تهدئتها وكبح جماح أعصابها الثائرة ..

وان نازلى صارحت صاحب السمو الامير محمد على ولى العهد بأنها عرضت نفسها عشيقة على حسنين ، وان حسنين رفض ..

وان الامير محمد على آمن بنبل وشرف حسنين وان وجوده فى خدمة الملك وفى السراى نعمة من الله ..

وان فاروق نفسه حاول أن يجد شيئا ضد حسنين .. كان يضبطه مثلا فى موقف مريب مع أمه نازلى فلم يوفق بل على العكس ..

فقد وجدهما فى خلوة وراء باب مغلق فى دار حسنين

ولكن !.. كان حسنين يتلو القرآن الكريم من مصحف بين يديه ، بينما كانت نازلى جالسة أمامه فى خشوع تصغى لآيات الذكر الحكيم ! ؟ وهكذا بدا حسنين أمام الملك وولى العهد وأمراء وأميرات البيت المالك كرجل شريف أبى النفس مخلص لمولاه والبيت المالك ، حريص على سمعة البيت وكرامة الملك ..

وانه .. أهل للثقة .. ولولاه ولولا نفوذه على الملكة نازلى لكانت نازلى هذه قد خرجت على العرف والتقاليد واثارت فضائح لا حد لها ..

كان هذا رأى الجميع ما عدا قلة لا تذكر ، ومن بينها مراد محسن باشا ناظر الخاصة الذى كان ينافس حسنين على نفوذه فى القصر ويغار منه ويتهمه بأنه ممثل قدير ، وانه يلعب دوره مع الملكة نازلى بمهارة يحسده عليها يوسف وهبى !

والملك فاروق ؟ ! بماذا كان يشعر نحو امينه الاول ورائده احمد حسنين ؟..

قلت انه كان يلجأ الى حسنين فى كل مرة تثور فيها

نازلى وينادى : « الحقونى بحسنين » ! وقلت انه لم يجد ما يأخذه على حسنين ..

ولـكن ما من شك فى انه بدأ ـ منذ ذلك التاريخ ـ يكره حسنين ! كان يكفى أن يسمع من فم أمه نفسها أنها تحب حسنين وتريده .. وانحسنين يعرض عنها !

كان يكفى فاروق أن يسمع من أمه هذا الكلام لـكى يكره هذا الرجل الذى تريده أمه والذى « تمرمط » من أجله كرامتها وسمعتها .. حتى ولو كان موقف هذا الرجل لا غبار عليه ..

من يومها بدأ فاروق يكره حسنين ..

يكرهه ويخشاه فى وقت واحد ..

يكرهه للسبب الذى ذكرته ..

ويخشاه لانه محتاج اليه .. لانه الرجل الوحيد القادر على كبح جماح أمه الملـكة نازلى .. والرجل الوحيـد الذى كانت تخشاه نازلى وتطيعه وتصدع بأمره ، وكان فاروق لايزال يومئذ حريصـا على سمعة أمه وسمعة القصر وسمعة البيت المالك .. بل وسمعة مصر !..

وكان حسنين وحده ـ هكذا كان فاروق يؤمن ـ كان حسنين وحـده وبيـده القوية الممسكة بزمام نازلى واعصابها ، القادر على انقاذ هذه السمعات جميعا !

ومن هنا ، وبسبب هـذا الخوف كان فاروق يعمل لحسنين حسابا .. وينزل الى حـد كبير على رأيه ومشورته ويحرص على الا يفعل شـيئا لايرضى عنه حسنين .. وان فعل أوصى من حوله أن يكتموا الأمر عن حسنين !..

واذا سمع حسنين بما حدث أسرع اليه فاروق يعتذر ويعد بالا يعود مرة أخرى الى ما فعل !

وهكذا يمكن للمؤرخ الساخر أن يزعم ـ وهو على

حق ـ ان علاقة نازلي بحسنين وسيطرته عليها ونتيجة هذا وهي خوف فاروق من أمينه الاول ـ كان هذا كله نعمة « على مصر » نعمة لأجـــل محدود !.. اذ انها أخرت انفجار الفضائح وانفجار فاروق بضع سنوات..

ولقد توفى حسنين فى ٩ فبراير عام ١٩٤٦ ، وقبـــل وفاة حسنين ، وقبل فبراير عام ١٩٤٦ ، لم يكن فاروق يغشي أندية القمار ويمضي سهراته حتى مطلع الفجر فى أندية الميسر ولم يكن يزور الراقصات فى دورهن ..

ولم يكن قد تمادى فى السرقة والاختلاس من أموال الدولة ..

ولم يكن يهرب أمواله الى الخارج .. ولم يكن قد تمادى فى الاعتداء على الاعراض وانتهـــاك الحرمات ، والعبث بكل مقدسات البلاد ..

ولم يكن اسم مصر قد أمسى فى الحضيض ..

ولم تكن صحف العالم ـ وصحف أمريكا بوجه خاص ـ قد نشرت تقول ان رجال الاعمـــال أصبحوا ينفرون من ممارسة أى نشاط تجارى أو صناعى فى مصر ، لأن جميع من فى مصر من أكبر عظيم فيها فما دون ذلك ، يطلبون « العمولة أو البقشيش » ! نعم .. شيء من هذا لم يكن قد حدث قبل وفاة حسنين ، لأن حسنين ـ رحمه الله ـ كان « الفرملة » الوحيدة القادرة على وقف فاروق ..

وبعد وفاته انطلق فاروق !.. أما قبل وفاته فقد كان كل ما يفعله فاروق هو التردد على بعض المطاعم فى شارع الهرم والحلمية حيث الرقص والموسيقى .. ومع ذلك فانه لم ينج من تقريع حسنـــين . وقد اضطر فاروق أن يوعز الى أحد أفراد حاشيته أو خاصته أن يضع كتابا ـ يطبعه وينشره ـ ويقول فيه : « مولانا

جلالة الملك فاروق » ليس الملك الوحيـد الذى يزور المطاعم العامة لأن ملك يوغوسـلافيا ، وملك اليونان ، يترددان فى معظم سهرات الاسبوع على مطعم الاوبرج بشارع الاهرام .. وكان الملكان المذكوران يقيمان يومئذ فى القاهرة بعد فرارهما من بلديهما اثر احتلال الالمـان ليوغوسلافيا واليونان ..

وقال لى زميل ـ كان متصلا يومئذ بالقصر ورجاله ـ ان فاروق كان يريد أن يطلق زوجته « الملـكة فريدة » منذ عام ١٩٤٢ ، لولا معارضة حسـنين ، وانه ـ اى فاروق ـ هم اكثر من مرة بطلاق فريدة ، ولـكن حسنين وقف أمامه يعارض ويبصره بالنتائج الوخيمة التى تنجم عن هذا الطلاق ..

ولـكنه طلقها بعد وفاة حسـنين !

واذهب الى ابعد من هذا فأقول انه لو كان حسنين قد امتد به الاجل وعاش لمـا سـافرت الملـكة نازلى وبناتها الى أوروبا وامريكا لتثير من المشاكل والفضـائح ما زلزل قوائم العرش وهى لم تسافر الا لأنها لم تعد تطيق الحياة فى مصر بعد وفاة حسـنين !

ولما وقعت المخازى التى جعلت اسم مصر سبة فى الأفواه ومنها مثلا ما ارتكب من جنايات فى حق الوطن وحق الجيش ابان حرب فلسطين .. ولكن حسنين لم يعش وكأنما موته كان دقة الناقوس التى أنذرت بقرب هبوب العاصفة على العرش وأسرة محمد على !

حقائق سريعة موجزة مركزة ، فيها الرد على الذين زعموا أو يزعمون ان حسنين كان المسئول عن فسق وفجور فاروق ... وانه كان عامل الانحلال والفساد فى حكم فاروق .. وانا هنا ـ فى هذه الفصول ـ اقول ما للرجل وما عليه ، ومع ذلك فانا اعرف اننى قـد

اغضبت أصدقاء حسنين .. وأغضبت خصوم حسنين :!
اغضبت هؤلاء لأنني انصفت الحقيقة ولم أهتف مع الهاتفين بأن حسنين كان بطلا وشهيدا وقديسا مبرأ من كل عيب !

وأغضبت أولئك لأنني فندت اتهامهم ، وهو ان حسنين كان المسئول الاول عن فساد فاروق ! ولأنني قلت ان حسنين كان مرشدا وهاديا وقائدا ، لا قوادا لفاروق !

***

ونصل الآن الى اوائل عام ١٩٤٠ ..

وفى العام المذكور عرف حسنين المطربة اسمهان ، واعجب بها ـ كما قالت هى ـ وكما احس اصدقاؤه ، أو أعجب بصوتها فقط ـ كما قال هو ـ !

وكانت أسمهان ـ يوم عرفها حسنين ـ تقيم بفندق مينا هاوس .. وكان حسنين يزورها فى الفندق المذكور وكان اذا لم يجدها يترك لها رسالة بخطه .. وعرف نزلاء الفندق والموظفون ان كبير رجال حاشية الملك فاروق يتردد على المطربة الشابة ، وكان طبيعيا أن يخرج هذا الخبر من فندق مينا هاوس وينتشر هنا وهناك ، الى أن يصل الى القصر والذين فيه ! ودهش الذين يعرفون حسنين ويعرفون مبلغ حذره وحرصه وتكتمه .. دهشوا لقلة احتياطه ولعدم مبالاته ان يعرف الناس أن له علاقة بالمطربة اسمهان .. وذات مساء ـ وكان حسنين رحمه الله ـ جالسا فى غرفة مكتبه بقصر عابدين ـ انطلق صوت اسمهان باحدى اغنياتها المعروفة !

وروى لى حسنين نفسه التفاصيل فقال : وظننت ان أحد اجهزة الراديو العديدة فى السراى هى مصدر

الصوت وانها تنقله من محطة الاذاعة.. وانتهت الاغنية واعقبتها اغنية أخرى لاسمهان .. ثم اغنية ثالثة .. عجبت وقلت : ترى هل تذيع محطة الاذاعة هذه الليلة برنامجا خاصا لاسمهان ! ؟ ولـكن عندما انطلق صوت اسمهان بأغنية رابعة وخامسة ، شككت فى الامر وقمت من أمام المـكتب ومشيت الى النافذة وأطللت منها ، فرايت « جلالة الملك » واقفا وامامه على مائدة صغيرة جهاز فونوغراف ، والى جانبه احـــد خدم القصر يحمل بضع اسطوانات .. ورفع الملك راســه ورآنى وقهقه ضاحكا وصاح :

ـ مبسوط يا حسنين ؟

***

وادرك حســنين ان حكايته مع اسمهان أو اعجابه بصوتها ـ كما كان يقول ـ لابد أن تكون قد وصلت الى مسامع الملـكة نازلى ..

فهــل جزع أو اهتم ؟ كلا ! بل استمر فى اعجابه وفى تردده على اسمهان ..

وليس لهذا التصرف من جانبه سوى تفسير واحد وهو انه كان يتعمد اثارة غيرة الملـكة نازلى .. جريا على سياسته معها وهى اثارتها واثارة غيرتها ووجدها والتياعها اليه من وقت الى آخر ، والا ـ وكان رحمه الله يعرف طبيعة الملـكة نازلى حق المعرفة ـ فان نار الشوق التى فى صدرها لا تلبث أن تهدأ ثم تبرد وتجمد وتموت !

ولم يكن موت هذه النار من برنامج سياسته !

وذات يوم جاءتنى اسمهان تشكو وتقول :

ـ ايه حكاية صاحبك ده ؟

قلت :

ـ صاحبى مين ؟
قالت :
ـ صاحبك اللى اسمه حسنين !
ضحكت أنا .. وقلت :
ـ دلوقتى بقى اسمه «صاحبى اللى اسمه حسنين» !
وعمل ايه صاحبى اللى اسمه حسنين ؟ !
قالت :
ـ كلمنى اليوم بالتليفون ومن غير بونجور أو سعيدة او سلامات قال : « قولى لى يا مدام اطرش .. هل صحيح اننى أزورك فى بيتك ؟ » وقبل أن أستطيع الرد أو سؤاله عن ايه الحكاية .. عاد يسألنى :
ـ وهل صحيح انك بتزورينى فى بيتى ؟ !
وقبل أن أرد مضى يجيب هو على نفسه ويقول :
ـ مش كده .. لا أنا أزورك.. ولا انت تزورينى ! الحمد لله .. متشكر يامدام اطرش !.. وأنهى المحادثة واقفل التليفون !
وضحكت أنا طويلا وقلت لها :
ـ ولم تفهمى ايه الحكاية ؟
قالت :
ـ لا .. لم أفهم ؟
قلت :
ـ حسنين كان يكلمك ، والى جانبه شخص آخر ، لابد انه كان يحقق معه فى علاقتك به .. ولقد أراد حسنين أن يبرىء نفسه من هذه التهمة ، فطلبك فى التليفون ووجه اليك الاسئلة وتولى هو الاجابة عليها ولكن بطريقة يفهم منها الشخص المذكور انها اجابتك انت ..
وصاحت اسمهان غاضبة :

ـ تهمة !.. معرفتي تهمة ؟..

وانطلقت ـ رحمها الله ـ تسب وتشتم .. ثم كأنها تذكرت شيئا كانت نسيته .. فسألتني :

ـ ومن يكون هذا الشخص الذى يحقق مع حسنين؟

قلت :

ـ الملكة نازلى ..

وزال فى الحال غضب اسمهان ، وابتسمت غبطة وسرورا !.. فقد ارضى كبرياءها أن تكون غريمتها التى تغار منها صاحبة الجلالة الملكة نازلى ..

واضطر حسنين بعدئذ أن يقتصد فى اعجابه بأسمهان وأن يكف عن زيارتها فى دارها واستقبالها فى داره ..

وقابلت اسمهان هذا الفتور من جانب حسنين بعدم المبالاة ، أو على الاقل تظاهرت بعدم المبالاة ومع ذلك فقد كان لا يمر شهر دون أن يتحدث الاثنان معا بالتليفون .. وكان هذا الحديث بالتليفون يطول ساعات

كان يسمع لها مثلا اغنية جديدة من الاذاعة فيطلبها فى دارها بالتليفون ويبدى اعجابه بالاغنية .. أو يشرح لها ما فى الاغنية من قوة أو ضعف .. ويقترح عليها كذا وكيت .. وقال لها ذات مرة : ان صوتها هو أصلح صوت لغناء قصائد المرحوم الشيخ على محمود ، بل انها تغنى قصيدة : « يا نسيم الصبا تحمل سلامى » خيرا مما يغنيها الشيخ على محمود نفسه !

وكانت اسمهان تلقاه مثلا فى حفلة ساهرة تغنى فيها ويكون هو من بين المدعوين اليها .. ثم تلاحظ انه غادر الحفلة قبل نهايتها .. فتعود الى مسكنها وتطلبه بالتليفون لتعاتبه وتسأله : هل صوتها لم يعد يعجبه ؟ والا فلماذا غادر الحفلة قبل أن يسمع الوصلة الاخيرة ؟

وهكذا .. ولكنهما كفا عن تبادل الزيارات .. ومع

ذلك فان الملكة نازلي لم تكن مطمئنة تماما الى وفاء حسنين .. ولم تكن غيرتها وشكوكها تهدأ يوما الا لتثور أياما ، وذلك لأن حسنين لم يكن «أولا» حريصا على اطمئنان الملكة نازلي وثقتها فى وفائه ، بل العكس هو الصحيح ، أى انه كان حريصا على أن يثير دائما غيرتها عليه وشكها فى اخلاصه ووفائه .. ولأنه «ثانيا» كان يجتاز مرحلة السن الحرجة التى يمر بها كل رجل وامراة . وكان ــ رحمه الله ــ يومئذ فى الخمسين من عمره

وكان حسنين طوال عمره موضع اعجاب النساء ، فقد كان فيه كل ما يعجب المرأة .. كان ممشوق القامة ، حلو الحديث ، حسن الهندام ، جذابا ، مؤدبا .. اذا اقبل على سيدة يتحدث معها خيل اليها ان حسنين لايرى سواها ولا يهتم بسواها .. وكان الى جانب هذا رياضيا ممتازا وبطلا مبرزا من أبطال السيف ، ورحالة مشهورا جاب مجاهل الصحراء وجابه أخطارها ، واكتشف واحة أو واحتين ودوى نبأ اكتشافاته فى جوانب العالم ، وكرمته الدول والهيئات العلمية العالمية .. ونال من الاوسمة والنياشين الاجنبية ما لم ينل مصرى فى مثل سنه ..

وكانت ثقافته واسعة متعددة الالوان .. كان يستطيع أن يتحدث بسهولة وانطلاق ــ مثلا ــ فى الشعر العربى القديم ، والشعر العربى الحديث ، وفى المسرح ، والفرق بين المدرسة الانجليزية فى التمثيل ، والمدرسة الفرنسية وفى الصيد والقنص ، وفى الطيران ، وكان يتحدث فى « الموضة » وتطوراتها ، وكان يمكنه أن يناقش ــ وعلى قدم المساواة ــ أية سيدة خبيرة فى الازياء !

لم يكن عجيبا اذن أن تقبل عليه السيدات ، وأن يلقى عندهن من الحظوة والقبول ما لايلقاه كثير من الرجال !

وقد قالت عنه ابنــة رامزى ماكدونالد زعيم حزب العمال السابق ، ورئيس أول وزارة بريطانية للعمال ، قالت عن حسنين انه اجمل رجل قابلته فى حياتها ..

وقالت عنه الرحالة الانجليزية روزويتا فوربس : انه ساحر خطر مخيف !

كان يمكنه اذن ، وبحكم منصبه الرفيع ، وبفضــل الاوساط والبيئات التى يتحرك فيها .. كان يمكنه أن يختار اى عدد يشاء من الصداقات والصديقات من بين من نسميهن « سيدات الطبقة الراقية » ولكن حســنين كان « ذواقة » وكان ذوقه شعبيا أصيلا !

كان يجد راحة ومتعة ما بعـــدهما راحة ومتعة فى الجلوس — فى غير كلفة — مع بنات الشعب من الراقصات والمغنيات !

وكان حديثه ممتعا حقا وهو يشرح لون الجمال أو « الحلاوة » فى كل منهن !..

ما أجمل المطربة لـ ... مثلا ما أجملها لو لبست « الملاية اللف وعقصت منديل الظرافة على جبينها فوق الحاجبين » .. ودقات « شبشبها » مع رنة الخلخال !

ويحاول — رحمه الله — أن يقنع المطربة المذكورة ، بلبس « الملاية اللف » ومن تحتها القميص « التوللى » !

وهكذا .. دخلت اسمهان ، ثم خرجت من حياته ولو الى حين !

ودخل معها فى نفس الوقت عدد عديد من المغنيـات والراقصات ..

وامسى رجال القصر والحاشية يتندرون «بغزوات» حسنين .. مع الراقصة فلانة .. أو المطربة علانة ..

ووجد فاروق فى هذه القصص مادة يتشفى بها من امــه الملكة نازلى التى جحدت ذكرى ابيه الملك احمـــد

فؤاد .. وفرطت فى واجبات مقامها السامى بصفتها أم ملك مصر ..

مضى فاروق يتشفى ـ ولم يدر انه يخدم مصلحة حسنين بنقل هذه الاخبار الى أمه الملكة نازلى ..

وأخيرا .. فاضت كأس الصبر ، وحزمت الملكة نازلى حقائبها وسافرت غاضبة ثائرة الى فلسطين ..

ولم يكن فى وسعها ـ والحرب العالمية الثانية قائمة ـ أن تسافر الى أوروبا ..

سافرت اذن الى فلسطين وأقامت فى القدس بفندق الملك داود .. وكان هذا فى أواخر عام ١٩٤٢ ..

وطالت غيبتها عن مصر .. وبدأت الاخبار ترد على القصر ، وكيف ان صاحبة الجلالة نازلى ملكة مصر أمضت السهرة فى رقص متواصل مع بعض الضباط الانجليز ..!

وكنا ـ كما قلت ـ فى زمن الحرب .. وكانت القدس مملوءة بالضباط الشبان الانجليز !..

ومرة أخرى لجأ فاروق الى حسنين وطلب منه أن ينقذ الموقف وأن يسافر الى القدس ويعود ومعه الملكة نازلى ..

ولكن حسنين رفض هذه المرة ان يلبى نداء « مولاه » وينقذ الموقف . واعتذر من عدم السفر بأسباب شتى لم يكن من بينها السبب الصحيح ..

وكان السبب الصحيح لامتناعه عن السفر الى القدس هو خوفه من ان يقابل اسمهان فى فندق الملك داود ، فان اسمهان كانت قد عادت الى زوجها حسن الاطرش أمير جبل الدروز وعقد قران الاثنين فى شهر أغسطس عام ١٩٤١ فى حفلة كبيرة أقيمت فى دمشق وشهدها الجنرال كاترو ..

وكانت اسمهان تضيق بالحياة مع زوجها.. وبالحياة فى جبل الدروز .. ومن ثم كانت تقوم برحلات عديدة فى كل شهر تقريبا الى القدس وبيروت .. وخصوصا القدس وكانت تختار الاقامة بفندق الملك داود ..

وكان حسنين يعرف هذا .. ومن هنا اعتذر من عدم السفر الي القدس .. والا فماذا يكون الموقف ، أو ماذا يكون موقفه وماذا يفعل اذا التقى بأسمهان ؟.. هل يتجاهلها ؟.. أو يحييها كما يجب أن يحيى الصديق صديقه ؟ !

وماذا يكون موقفه اذا وجد نفسه فى احدى قاعات الفندق .. أو فى قاعة الرقص مع نازلى ملكة مصر .. واسمهان أميرة جبل الدروز ؟

وكانت اسمهان اذا دار الشراب برأسها قادرة على عمل كل شيء .. جسورة جريئة لا تهاب أحدا ولا تبالى بشيء ..

وكان حسنين يعرف هذا .. ومن هنا رفض أن يسافر لأنه خاف من أن تنتهز اسمهان فرصة وجوده ووجود الملكة نازلى لكى تفتح « محضر تحقيق » مع نازلى .. تحقق فيه معها فى موضوع «محضرالتحقيق» الذى كانت جلالتها اجرته بشأنها مع حسنين .. !

وتظهر الحقيقة ويقع حسنين بين مطرقة الملكة نازلى وسندان اسمهان !

وهكذا .. اعتذر حسنين من عدم السفر .. ولكنه اقترح على الملك فاروق أن يعهد بهذه المهمة الى «رفعة» رئيس الوزراء مصطفى النحاس « باشا » وقال : ان رفعته هو خير من يصلح للقيام بهذه المهمة لأن جلالة الملكة نازلى وفدية « هكذا ! » مثل المرحوم والدها عبد الرحيم صبرى باشا الذى كان من اخلص الوفديين

وأصدقهم تأييدا للزعيم سعد زغلول .. ولأنها تحترم النحاس « باشا » وتكن له صداقة أكيدة .. ومن هنا لن ترفض لرفعته طلبا أو مشورة ..

وفوتح مصطفى النحاس « باشا » فى الامر .. وسر « رفعته » سرورا كبيرا وقال : انه يعد هذا التكليف من جانب « الفـــاروق » شرفا وثقة يعتز بهما مدى الحياة !

وسافر السيد مصطفى النحاس ومعه السيدة حرمه الى القدس .. ونجح فى مهمته ، واستجابت الملـكة نازلى فعلا لرجائه ، وعادت الى مصر ..

عادت ، ولـكن على شرط .. ولا أعرف ما اذا كانت نازلى قد فاتحت النحاس «باشا» فى موضوع «شرطها» هذا أو لم تفاتحه .. ولـكنى أعرف انها لم تكد تعود الى مصر حتى فاتحت ابنها الملك فاروق فى أمر زواجها برئيس ديوانه أحمد محمد حسنين .. وطلبت منه أن يصدر أمره الى حسنين بأن يتزوجها !.. لأن حسنين ـ كما سبق أن قدمت ـ كان صارحها بأنه لا يمكن أن يتزوجها خوفا من أن يطرده الملك من خدمته وهو رجل فقير .. الى آخره ..

ولـكن اذا أمره الملك أن يتزوجها فلا خوف عليه اذن من الطرد .. وهل يطرد فاروق زوج أمه ؟ !

ولم يشأ فاروق أن يتقهقر أمام أمه نازلى أو يسلم لها بطلبها دون قيد أو شرط .. لأنه وافق ، ولـكن بشرط .. !

وهذا الشرط أن تكتفى نازلى بعقد زواج عرفى !..

وهكذا كان .. وتزوج احمـد حسنين ابن المرحوم الشيخ محمد حسنين العالم الازهرى بالملـكة نازلى ، أرملة الملك أحمد فؤاد ، ووالدة صاحب الجلالة فاروق

الاول ملك مصر ..
وكان احد شهود عقد الزواج المرحوم الاستاذ سليمان نجيب مدير دار الاوبرا .. وكان حسنين يثق كل الثقة فى حذره وكتمانه .. ومثله الملك فاروق ..

ولقد حاولت أن أعرف اسم الشاهد أو الشهود الآخرين .. وكذلك اسم المحامى الشرعى الذى عقد هذا الزواج العرفى ، فلم أوفق ..

وربما كان الشاهد الآخر هو المرحوم مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية .. أو لعله كان أحد خدم فاروق المقربين ..

ربما .. وربما .. ولكنى لا أستطيع أن أقطع بقول

***

واختارت الملكة نازلى سراى الدقى التى ورثتها عن ابيها عبد الرحيم صبرى لتكون دارا للزوجية .. تقابل فيها « عريسها » حسنين !.. لأن نازلى ـ ولعلها المرة الاولى ـ خجلت أو استحيت من ابنها أن تقابل زوجها فى جناحها بقصر القبة أو بقصر عابدين حيث كان يجتمع بها زوجها الاول الراحل .. أحمد فؤاد !..

ولم تمض شهور معدودات على عقد هذا الزواج ، حتى بدت أولى ثمراته .. يوم رشح فاروق رئيس ديوانه أحمد حسنين باشا للوزارة الجديدة التى كان مقدرا لها أن تخلف وزارة النحاس باشا فى شهر ابريل عام ١٩٤٣ ..

وسوف اتناول بالتفصيل هذه المرحلة من حياة احمد حسنين حين أعرض للجانب السياسى منها واكتفى الآن بعرض رءوس المسائل أو العناوين :

١ ـ قامت وزارة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ ، برئاسة مصطفى النحاس « باشا » على كره من الملك فاروق ،

وحسنين الذى كان يعد حادث ٤ فبراير لطمة على وجهه وفشلا مخجلا لسياسته كرئيس لديوان الملك ..

٢ ـ أقسم حسنين لفاروق على أن يرد له اعتباره .. وأن ينتقم من السفير البريطانى مايلز لامبسون .. ومن رئيس الوفد مصطفى النحاس ..

٣ ـ قدر حسنين ان الفرصة مواتية لاقالة مصطفى النحاس ووزارته من الحكم .. فى ابريل عام ١٩٤٣ ..

٤ ـ قال فاروق لحسنين باشـا انه يطلق يده فى الموضـوع وانه يعهـد اليه شخصيا بتشكيل الوزارة الجديدة التى تقوم بالحكم بعد اقالة مصطفى النحاس باشا ووزارته ..

٥ ـ اختار حسنين باشا فعلا أعضـاء وزارته .. وأعد كشفا بأسمائهم ..

***

وبينما اجراءات الاقالة وتشكيل الوزارة الجديدة فى مراحلها الاخيرة .. كانت عيون الانجليز بالمرصاد !

واتصل الخبر بمايلز لامبسون .. وأبرق الى لندن بالتفاصيل .. وجاء الرد فورا من لندن فى شكل انذار وهو ان الحكومة البريطانية ترى أن الحرب توشك أن تدخل فى مرحلة دقيقة حاسمة وهى غزو أوروبا التى تحتلها جيوش هتلر ومن ثم فانها ـ اى لندن ـ لاتسمح باجراء أى تغيير أو تعديل فى الاوضاع القائمة فى مصر .. وتنصح ببقاء وزارة الوفد ومصطفى النحاس باشا فى الحكم !

وحمل السفير البريطانى مايلز لامبسون هذا الانذار الى الملك فاروق ..

وطويت وزارة حسنين باشا !

وكنت أود أن أقف بالحديث هنا عن قصة نازلى ،

وحسنين .. وحسنين واسمهان .. وان أنتقل الى الجانب السياسى من حياة أحمد حسنين باشا ..

ولكننى وقد عرضت لعلاقة حسنين باسمهان .. ارى أن أمضى فى القصة الى نهايتها.. وكيف ان اسمهان عادت واتصلت بحسنين فى عام ١٩٤٤، وما كان لهذا الاتصال من أثر فى حياة زوجها المرحوم أحمد سالم.. وبسببه أطلق عليها الرصاص، ثم حاول الانتحار .. الى آخره ..

وما كان لهذا كله من أثر فى العلاقة بين الزوجين : الملكة نازلى، وحسنين ..

والقال والقيل .. اللذان أحاطا بحسنين عقب حادثة احمد سالم وأسمهان ..

ووزارة الوفد، وكيف أرادت أن تستغل هذه « الفضيحة » ضد عدوها رئيس الديوان احمد حسنين؟

وهل كان هذا كله ـ أى لحكاية حسنين، واسمهان، واحمد سالم ـ هل كان سببا لعدم اختيار حسنين باشا لرئاسة الوزارة التى خلفت وزارة النحاس باشا التى أقيلت فى ٨ أكتوبر عام ١٩٤٤ ؟ مع انه كان المرشح الوحيد لرئاسة الوزارة قبل ذلك بعام أو نحو ذلك فى ابريل عام ١٩٤٣ ..

كانت اسمهان قد ضاقت بحياة الزوجية وقيودها.. وضاقت بغيرة زوجها حسن الاطرش .. وضاقت بالحياة المملة الرتيبة فى قصر زوجها بالسويداء عاصمة جبل الدروز .. ومن هنا راحت تلتمس أوهى الاسباب للسفر حينا الى بيروت، وحينا الى القدس .. حيث الحياة مرحة طليقة لا قيود ولا رقابة زوج محب غيور!

بل وأمكنها أن تقنع زوجها الامير حسن الاطرش، بالحضور معها الى مصر مرة ومرتين.. ونشرت الصحف

خبر حضور سعادة الامير حسن الاطرش محافظ جبل الدروز ومعه زوجته الاميرة آمال الاطرش !

وآمال هو اسمها الحقيقي .. أما « اسمهان » فاسم مستعار لدنيا المسرح والفناء ..

***

عادت اذن الى مصر .. فى صحبة زوجها ، وفى يدها جواز سفر دبلوماسي أعطتها اياه سلطة الانتداب الفرنسي فى سوريا بصفتها زوجة زعيم درزى كبير ، ومحافظ لجبل الدروز ..

وكان الاستاذ زكي سعد أحد مديرى البنك الدولى الآن .. كان يومئذ مديرا لادارة الجوازات والجنسية ، وأنا أعرف - ومما سمعته منه شخصيا - انه لم يكن يحسن الظن كثيرا بالمطربة اسمهان ، وانه كان يعارض فى اقامتها بمصر .. وكان يرفض تجديد الاذن لها بالاقامة .. بل وحدث مرة أنه استمضى رئيس الوزراء والحاكم العسكرى العام - وكان يومئذ صاحب الدولة حسين سرى باشا - استمضاه أمرا باخراج أسمهان من الديار المصرية ..

وجاءتنى أسمهان يومئذ تبكى !.. وزرت « صاحب الدولة » رئيس الوزراء فى مكتبه .. وتفضل الرجل يومها واستجاب لوساطتى وألغى أمر الاخراج ، وأمر وكيل وزارة الداخلية بتجديد اذن الاقامة لاسمهان لمدة عام !..

وها هى ذى أسمهان تعود الى مصر .. والاستاذ زكي سعد لايستطيع أن يمنعها من الدخول ، فقد عادت بصفتها زوجة لرجل له جاهه ونفوذه ومقامه الرسمى فى قطر عربى شقيق ..

وطابت لها الاقامة فى مصر .. ولما عادت الى سوريا

مع زوجهــا بعد الزيارة الاولى .. غادرت مصر وهى كارهة ..

وفى الزيارة الثانية لمصر .. كانت اسمهان قد انتوت امرا ، وهو أن لا تعود مع زوجها الى جبل الدروز..

وطلبت منه أن يطلقها .. ورفض هو الطــلاق .. وهنا فعلت ما كانت تفعله فى كل مرة تريد فيها الطلاق وهو محاولة الانتحار ، وتناولت عددا كبيرا من أقراص الاسبيرين .. وطلقها زوجها حسن الاطرش .. وتركها فى القاهرة وعاد وحده الى جبل الدروز ..

وغاب عن اسمهان أن زواجها كان « حصانة » لها عند سلطات الامن العام وادارة الجوازات .. فلما طلقت سقطت عنها « الحصانة » المذكورة ..

ولم يتردد الاستاذ زكى سعد فى أن يصــــدر أمره بخروجها من مصر ..

وخرجت اسمهان من مصر .. وسافرت الى القدس واقامت كعادتها فى فندق الملك داود ..

وكانت تمضى أيامها فى التنقل بين بيروت « فنـــدق سان جورج » وبين القدس .. ولــكنها لم تجرؤ على العودة الى سوريا أو جبل الدروز ، لأنها كانت تعلم ان زوجها السابق الامير حسن الاطرش حاقد عليها ، وانه صاحب نفوذ وسلطان وأتباع موالين مخلصين مطيعين طاعة عمياء ..

وان رصاصة طائشة ـ أو يقال عنها كذلك فى محضر التحقيق ـ قد تصيب منها مقتلا !

ومن هنا وزعت أيامها ـ كما قلت ـ بين القدس ، وبيروت .. ولم يلبث المال الذى كان بيدها أن تبـــدد فقد كانت ـ رحمها الله ـ مسرفة كل الاسراف .. وجاء يوم عجزت فيه عن تسديد حساب الفندق ..

وحجزت ادارة فندق الملك داود على حقائب ثيابها واضطرت اسـمهان أن تبيع الحلى القليلة التى كانت تقتنيها وأن تقترض من هنا ومن هناك ..

***

وبينما هى فى هذه الورطة أو هذه المحنة زار القدس الاستاذ اسكندر الوهابى وكان يشـغل يومئذ منصبا كبيرا بوزارة الخارجية المصرية .. وأعجب باسمهان ، وسحره صوتها وفتنتها ..

وكان طبيعيا أن ترجوه اسمهان أن يتوسط بما له من نفوذ فى أمر السماح لها بالعودة الى مصر .. لـكى تستأنف الغناء والعمل فى السينما .. وعاد الاستـاذ اسكندر الوهابى الى مصر ، وتحدث الى الاستاذ حسين سعيد خال الملـكة فريدة ـ وكانت لا تزال يومئذ ملكة مصر ـ واطنب له فى وصف اسمهان وفى جمال صوتها وفى فتنتها وسحرها .. الخ ..

وكان الاستاذ حسين سـعيد يشغل يومئذ منصب مدير ستوديو مصر للسينما وسافر حسين سعيد الى القدس وقابل اسمهان ..

ووقع بدوره أسير فتنتها وسحر صوتها ..

ووقع معها ـ بالنيابة عن ستوديو مصر ـ عقـدا للعمل فى الافلام التى تنتجها وتخرجهـا شركة مصر للسينما والتمثيل ونص فى العقد على ان أجر اسمهان عن عملها فى أول فيلم هو ثلاثة عشر ألف جنيه ، وهو مبلغ يزيد كثيرا على الاجر الذى كانت تحصـل عليه كبيرات الممثلات والمطربات فى ذلك الوقت ..

وعاد الاسـتاذ حسين سعيد الى القاهرة ليبـذل مساعيه الحميدة من أجل الاذن لاسمهان بالعودة الى مصر ، وسمعنا يومئذ انه بذل هذه المساعى عند السيدة

حرم « رفعة » رئيس الوزراء يومئذ مصطفى النحاس « باشا » ..

ونترك القاهرة .. ونعود الى القدس .. حيث كانت اسمهان لا تزال مقيمة بفنــدق الملك داود فى انتظار وصول الاذن لها بالعودة الى مصر ..

هذا .. وقد ســددت ديونها للفندق من العربون السخي الذى حصلت عليه بموجب نصوص عقدها مع شركة مصر للسينما والتمثيل ..

وذات يوم نزل بالفندق الاستاذ احمد سالم والفنانة المعروفة تحية كاريوكا ، وكلاهما كان صديقا لاسمهان

غير أن تحية لم تلبث أن غادرت القدس الى لبنان وحلب لاحياء بعض حفلات الرقص التى كانت تعاقدت عليها ..

وتركت احمــد سالم فى القدس ينتظر عودتها .. ولـكنها عندما عادت من حلب وجدت ان احمد سالم قد تزوج اسمهان بعقد زواج شرعى صحيح ..

***

ونعود الآن الى القاهرة والى ادارة الجوازات والجنسية .. وجدت الادارة المذكورة ان امامها طلبا قويا مؤيدا بأسباب قوية مشروعة .. هذه السيدة ــ اسمهان ــ كانت تعمل فى مصر وفى محطة الاذاعة كمطربة محترفة .. وافراد أسرتها .. ووالدتها وشقيقاها الاثنان يقيمون فى مصر ..

وبيدها عقد اتفاق على العمل مع شركة مصر للسينما والتمثيل ..

ثم هى أصبحت بموجب عقد شرعى صحيح زوجة لمصرى ، هو أحمد سالم رحمة الله .

وفوق هذا وذاك لا يمكن لها ان تغفل وســاطة أو

شفاعة السيدة حرم رئيس الوزراء ..

واخيرا ، لا آخرا ، بسبب قوى آخر ، لعله أقوى الاسباب وقد قص على الاستاذ زكى سعد نفسه هذه التفاصيل ونحن فى قطار القاهرة ـ دمياط ذات يوم فى صيف عام ١٩٤٥ ـ قال سيادته ـ وهو كما قدمت ـ لم يكن يحسن الظن كثيرا بأسمهان ، قال لى :

ـ كان فى امكانى الا اقيم اى وزن لعقد اسمهان مع ستوديو مصر للسينما ، وأن أرفض الاذن لها بالعودة الى مصر .. كذلك لم يكن لزواجها من أحمد سالم أى وزن من الجهة القانونية لأن اسمهان رعية اجنبية والقانون القائم يومئذ لا يعترف بزواج المصرى من أجنبية الا بعد موافقة وزارتى العدل والداخلية .. فاذا لم يحصل الزوجان على هذه الموافقة فان زواجهما لا يمكن أن تترتب عليه أية نتائج بالنسبة لنا فى ادارة الجوازات والجنسية ..

ومضى الاستاذ زكى سعد فى حديثه وقال :

ـ كان يمكننى اذن أن أرفض الاذن لها بالدخول الى مصر ، ولكننى تلقيت تقريرا من قنصلية مصر بالقدس جاء فيه : ان الأمير حسن الاطرش أقام قناصة من الدروز على الحدود بين فلسطين وسوريا وامرهم باطلاق الرصاص على زوجته السابقة اسمهان اذا هى حاولت العودة الى سوريا . وهذا الخطر القاتل قد يكمن لها كذلك عند حدود لبنان ـ فلسطين ! ولهذا السبب راجعت نفسى وضميرى اذ لم يكن فى استطاعتى أن أحكم بالنفى المؤبد على اسمهان فى القدس ، أو بالموت اذا هى حاولت مغادرة فلسطين الى سوريا أو لبنان..

راجعت نفسى وسمحت لها بدخول مصر والاقامة فيها وقد زارتنى فى مكتبى عقب وصولها الى القاهرة ،

فحدثتها طويلا عن السبب الحقيقى الذى حملنى على السماح لها بدخول مصر ، ثم قلت لها : « اننا نعدك ابنة لمصر لأنك أمضيت فيها من سنى حياتك أكثر مما أمضيت فى وطنك .. ولا مانع عندنا مطلقا من أن تقيمى فى مصر ما طابت لك الاقامة فيها ، ولكن على شرط أن لا تسمع عنك السلطات الا ما يسر » ..

***

وهكذا عادت أسمهان الى مصر ..

ولقد فهمت هى من حديث الاستاذ زكى سعد معها ان السماح لها بالعودة الى مصر لم يكن بسبب عقدها مع ستديو مصر ، ولا بسبب زواجها من أحمد سالم.. وكانت تزوجته لكى تستطيع العودة الى مصر ..

ولكن هذا الزواج لا دخل له بموضوع اقامتها فى مصر ، ولا يقدم ولا يؤخر ، كما فهمت من حديث مدير الجوازات والجنسية ..

وكان لهذه الحقيقة اثر فى نفس أسمهان ، اثر لم يلبث أن بدأ فى سلوكها مع زوجها أحمد سالم ، وذلك أن أسمهان بدأت تضيق بحياة الزوجية وبقيود الزواج وبغيرة أحمد سالم وبسؤاله أين كانت ؟ وأين أمضت سهرتها ؟ ومع من ؟ ومن الذى كان يحدثها بالتليفون؟ ولماذا قطعت حديثها التليفونى عندما دخل ؟ !

وبدأ الخلاف والخصام بين الزوجين ..

وذات يوم ، ذهبت أسمهان الى مسكن تحية كاريوكا تطلب مقابلتها ..

وكان طبيعيا أن تعجب تحية وتدهش .. ما سر هذه الزيارة وما وراءها ؟..

لقد كانت آخر مقابلة بينهما ـ بين تحية واسمهان ـ بفندق الملك داود بالقدس ، يوم عادت تحية من حلب

« سوريا » ووجدت أسمهان قد اختطفت منها أحمد سالم وتزوجته ..

وكان شتم وسب وخصام بين اسمهان وتحية !..

وها هى ذى أسمهان تزور تحية .. وتطلب مقابلتها ! وتحية طيبة القلب .. ولقد رحبت بأسمهان وأحسنت استقبالها ..

وقالت أسمهان :

ـ عاوزة منك خدمة ؟..

ـ بكل سرور ..

قالت :

ـ عاوزه تطلبي أحمد سالم اليوم بالتليفون فى الساعة كذا .. وسوف أرد أنا على التليفون .. وتطلبى منى أن تكلمى زوجى أحمد سالم ..

وشرحت أسمهان لتحية السر والسبب ..

ووافقت تحية .. وأية امرأة لا توافق فى مثل ظروفها على السخرية والهزء من رجل كان تخلى عنها من أجل امرأة أخرى ..

وكانت أسمهان وأحمد سالم يعيشان معا فى ذلك الوقت فى « فيللا » استأجرتها أسمهان بشارع الهرم ..

***

وفى الساعة المحددة دق جرس التليفون عند أسمهان وكان زوجها أحمد سالم موجودا معها .. وتناولت هى السماعة ..

وسمعها أحمد سالم تقول : « أيوه موجود !.. ومين عاوزه ؟ ! وعايزاه ليه ؟ طيب .. حاضر .. ما تزعليش آهو جاى يكلمك ! »

ثم التفتت الى أحمد سالم وقالت بابتسامة ذات معنى أو معان :

ـ تحية كاريوكا عايزه تكلمك ياسى أحمد !

وكانت مفاجأة للمسكين .. وقام وتنـاول سماعة التليفون وقد وقفت بجانبـه أسـمهان .. تنصت الى الحديث ..

ولم يكد أحمد سالم يقول : « آلو » حتى انطلقت تحية بصوت عال مجلجل تعاتبـه وتوبخه على اخلافه وعوده ومواعيده وتقول له انها لم تطلب مقابلته ، وانه هو الذى طلب مقابلتهـا والح والحف فى الرجاء حتى قبلت .. وحددت له الساعة .. فلماذا لم يحضر فى الميعاد المتفق عليه .. ودى مش أخلاق .. ومش آداب الى آخره ..

هذا .. والمسكين فافر فاه ـ وقد أخذته المفاجأة ـ لا يعرف ماذا يقول ! ؟

وانهت تحية حديثها وقطعت المواصلة التليفونية .. ولم تترك له أسمهان وقتا يفيق فيه من دهشته .. بل أخذت بخناقه تهزه بعنف وتقول له :

ـ يا أنا .. يا انت فى البيت ! مش ممكن أعيش معاك .. طلقنى !

ومشهد عاصف .. وبكاء ودموع .. واقسام وايمان واسرع أحمد سالم ـ رحمه الله ـ الى غرفة الحمام ، وتناول زجاجة ما ، فيها مطهر مما يستعمله النساء فى بعض أمورهن وأفرغ ما فى الزجاجة فى جوفه ، يريد الانتحار ..

وعلا الصراخ والعويل .. ودقت تليفونات .. واسرع الى « الفيللا » أصدقاء وصديقات الزوجين ..

وحضر الطبيب على عجل .. وغسلت معدة الزوج المسكين وتم الصلح بين أحمد واسمهان ..

وخرجت اسمهان من المعركة .. فى شكل «شهيدة»

يخونها زوجها .. ويغازل امرأة أخرى .. ومع ذلك تصفح عنه وتغفر له وترضى بالحياة معه !..

ومن حق هذه الزوجة بعد ذلك أن تقول لزوجها : « حسبك » ولا تشدد معى فى الحساب أين كنت ؟ ومع من كنت ! ؟

ولكن احمد سالم لم يكن ذلك الزوج .. فقد مضي يدقق فى الحساب ويحاسب زوجته عن كل كبيرة وصغيرة وعن كل ساعة لا تمضيها معه .. أين كانت ؟ ومع من كانت ؟ !

وأخيرا داخله الشك فى أمرها.. ولكنه لم يصارحها بشكوكه .. بل مضى يراقبها ويتبعها دون أن تعلم !..

ورآها ـ دون أن تراه ـ رآها تخرج من دار حسنين باشا بميدان عبد المنعم فى الدقى ..

وذهب الى دكان بقالة قريب ، وطلب حسنين باشا بالتليفون فى داره .. ولما رد حسنين قال له انه لايعرف كيف يبدأ حديثه ؟.. فهو يحترم حسنين باشا ويقدر صفاته الممتازة .. ولكنه كزوج يغار على زوجته وله حقوق .. ثم قال :

ـ ومن حقى أن أسأل رفعتك ماذا كانت تفعل زوجتى عندك ؟ ولماذا تزورك من غير علمى ومن غير اذن منى ؟ بل ـ وأنت جنتلمان ـ لماذا تستقبل فى دارك سيدة متزوجة من غير أن يكون زوجها معها ؟..

فاذا كنت دعوتها لزيارتك ، فان من حقى أن أسألك لماذا لم تدعنى معها ؟.. واذا كانت هى قد زارتك من غير ان تدعوها فان المسألة تحتاج الى تحقيق فى الاسباب والظروف ..

الى آخره ..

وأصغى حسنين الى «عتاب» أو حساب احمد سالم

فى صبر حليم .. ولما تكلم كان فى صوته حزن وأسف !
حزن واسف المظلوم البرىء الذى اتهمه أحمد سالم فى اغلى ما يعتز به وهو شرفه وعفته ونزاهته !

قال ـ رحمه الله ـ بصوت هادىء حزين :
ـ عيب يا أحمد ! دا انت زى ابنى .. ومراتك زى بنتى .. وانا كنت فاكر انها قالت لك ، وانك عارف بزيارتها لى ..
ومضى حسنين يقول : انه ـ مثل جميع من فى البلد ـ يعجب بصوت آمال « اسم أسمهان الحقيقى » ويهمه حقيقة أن لا تغنى الا ما يوافق طبقات صوتها ..

ومضى حسنين باشا ـ رحمه الله ـ فى حديث فنى عن الموسيقى والاغانى والصوت وطبقاته ..

ثم قال : ان آمال زارته لكى تستأنس برأيه فى أغانى فيلمها الجديد القادم : فيلم « غرام وانتقام » ..
وانتهت المحادثة !
وتظاهر أحمد سالم بأنه صدق حسنين واقتنع .. ولكنه ـ طبعا ـ لم يصدق حرفا مما قاله حسنين ..

وعاد الى داره ، أو دار اسمهان ليسألها : لماذا زارت حسنين باشا ، ولماذا لم تستأذنه فى هذه الزيارة ؟

واجابت : بأن حسنين صديق قديم ، وانها عرفته من قبل أن تعرف احمد سالم ، وليس فى نيتها أن تقاطع أصدقاءها القدامى من أجله .. كما انه ليس من عادتها او طبعها أن تستأذن أحدا فى زياراتها .. وانها حرة تزور من تشاء فى أى وقت تشاء ..

ـ واذا لم يعجبك .. فانت حر ! وطلقنى وارح بالك وبالى ..
وكلام كثير فى هذا المعنى ..

ومرة اخرى حاول المسكين الانتحار .. وأسعفوه وأنقذوه ..

وبدأ أحمد سالم يسرف فى شرابه .. يحاول أن يخدر أعصابه الثائرة ..

وكانت أسمهان كذلك تدمن الشراب ..

وهكذا مضت الحياة بينهما فى شراب وعراك ..

وذات مساء انتصف الليل ولم تعد أسمهان .. وجلس أحمد سالم ينتظر ..

والساعة الاولى صباحا ، ولم تعد أسمهان ، وتناول أحمد سالم التليفون وسأل عنها فى دار صديقة لها ــ كانت تكثر يومئذ من التردد عليها ــ وقالت الصديقة المذكورة ان أسمهان كانت زارتها بعد ظهر اليوم ولكنها انصرفت قبل الثامنة مساء ..

وأخيرا .. وفى نحو الساعة الثالثة صباحا ، عادت أسمهان ووجدت زوجها قائما ينتظر ! وشىء ما فى عينيه أخافها وحبس ألفاظ التحدى فى فمها ..

سألها أين كانت ؟ فتلعثمت واضطربت .. واخيرا قالت : انها كانت عند صديقتها فلانة !

وذكرت اسم الصديقة التى كان أحمد سالم سألها ، وعرف منها أن أسمهان تركتها قبل الساعة الثامنة مساء !

قال ــ رحمه الله ــ وهو يصر على أسنانه :

ــ كنت عندها لدلوقت ؟..

قالت : نعم ..

قال : ولكنى سألتها عنك فقالت انك انصرفت من قبل الساعة الثامنة ..

وسكتت أسمهان .. فقد أحست للمرة الاولى بالخوف من زوجها أحمد سالم !

وعاد يسألها :
ـ كنت فين لدلوقت ؟.. عند حسنين ؟
ووثب واقفا .. ولكنها كانت أسرع منه الى الباب !
وكان ـ رحمه الله ـ قد أخرج من جيبه مسدسا .. صوبه اليها وهي تجرى وأطلق النار ، ولكنه لم يصبها وهربت أسمهان ولجأت الى دار أحد جيرانها حيث أمضت ما بقي من الليل ..
واتصلت بالتليفون باللواء سليم زكي حكمدار بوليس القاهرة يومئذ وكانت صديقة له ولأسرته وأبلغته أن زوجها احمد سالم أطلق عليها الرصاص يريد قتلها ، وطلبت منه أن يحميها ..
وأوفد اللواء سليم زكي ـ رحمه الله ـ الاميرالاى امام ابراهيم ليحاول اصلاح الامر ما بين الزوجين ، وكان سليم زكي يعرف بحكم صداقة أسرته لأسمهان أو آمال الأطرش .. كان يعرف كل ما يحدث فى بيت الزوجية.

***

وذهب الاميرالاى امام إبراهيم الى « الفيللا » التى كانت أسمهان تقيم فيها هى وزوجها أحمد سالم ..
ووجد إحمد سالم متمددا فوق فراشه .. وقد شد فوقه الغطاء .. وكأنه يحاول أن يخفى تحته شيئا ما كان بيده !
وانطلق أحمد سالم يسب ويشتم فى أسمهان وفى حسنين وحاول امام ابراهيم أن يهدىء من ثورته ، ثم حاول أن يقترب منه ولكن احمد سالم صاح به أن يقف فى مكانه ولايقترب وأعلن أن بيده مسدسا وانه سوف يطلق الرصاص على كل من يحاول القبض عليه !
ودارت مناقشة بين الرجلين ..
امام ابراهيم يتكلم بهدوء ولطف يحاول أن يهدىء من

ثورة أحمد سالم وأن يقنعه أن ليس هناك ما يخشاه .. ويحاول فى نفس الوقت أن يقترب قدما بقدم وخطوة بخطوة من الفراش الممدد فوقه أحمد سالم ..!

وأحمد سالم يصف أسمهان بأقبح النعوت ويروى ما فعلته وما تزال تفعله معه وكيف انها تخونه مع حسنين !

وفى لحظة ما .. اعتقد امام ابراهيم انه أصبح على قرب كاف من الفراش ، فوثب على أحمد سالم محاولا الامساك بيده التى تمسك بالمسدس ..

وانطلقت رصاصة أصابت الاميرالاى امام ابراهيم ، وأعقبتها رصاصة أخرى دخلت فى صدر أحمد سالم ، واستكنت فى احدى رئتيه !

***

وكانت الضجة الكبرى ، وخرجت الصحف تحمل العناوين بالبنط الكبير وتروى مأساة احمدسالم وأسمهان ولكن الصحف لم تنشر شيئا من أقوال أحمد سالم عن احمد محمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك .. لأن البوليس والسلطات كتمت الامر عن الصحف ..

ونقل احمدسالم تحت الحراسة ـ أو مقبوضا عليه ـ الى القصر العينى ، وقد بقى أياماً طويلة فى خطرالموت.. وقد وجهت اليه تهمة الشروع فى قتل زوجته أسمهان وتهمة مقاومة واطلاق الرصاص على الاميرالاى امام ابراهيم اثناء القيام بواجبه ..

***

قلت ان الصحف لم تنشر شيئا من أقوال احمدسالم عن احمد حسنين لأن البوليس كتم الامر عن الصحف ، والنيابة لم تستطع استجواب احمدسالم لخطورة حالته ولكن الحكومة ـ حكومة الوفد أو وزارة ٤ فبراير ـ سمعت طبعا بكافة التفاصيل وكذلك سمع بها القصر

وجميع من فى القصر ..

وعرفت نازلى ان زوجها احمد حسنين قد «عاد» الى اسمهان .. أو أن أسمهان قد عادت الى حسنين !

أما الوفديون فقد سروا سرورا كبيرا وحمدوا الله الذى مكن لهم من عدوهم رئيس الديوان احمد حسنين

وأعود هنا بالقارىء الى الوراء ..

سبق أن قلت ان حسنين كان أقسم بعد حادث ٤ فبراير الذى عده لطمة على وجهه.. أقسم على أن ينتقم للقصر ولنفسه من سفير بريطانيا ومن مصطفى النحاس

وانه اعتقد فى شهر ابريل ١٩٤٣ ان الفرصة مواتية للانتقام ولاقالة الوزارة ، ورد اللطمة للسفير وللنحاس

ولكن لندن أرسلت انذارا الى القصر تقول فيه : انها لا تسمح فى الظروف الحاضرة بتغيير الوزارة أو اجراء أى تعديل فى الاوضاع ..

وعرف الوفديون يومئذ ان انقلابا أو اقالة كانت توشك أن تقع .. وان وراءها حسنين باشا رئيس الديوان !

واضمروا الشر للرجل ..

وأصبح العداء سافرا بين حكومة الوفد ورئيس الديوان

وذات يوم ــ وقبل حادث أحمد سالم وأسمهان بشهور قليلة ــ ذات يوم تقدم نائب وفدى الى «معالى» وزير المعارف بسؤال عن المدارس الصناعية التابعة لوزارته وعن نشاط « ورشها » فى صناعة الاثاث والرياش .. وهل لهذه المدارس ديون عند بعض كبار الموظفين ؟..

ووقف وزير المعارف يجيب على السؤال ويقول ان الموظف الكبير الوحيد المدين لاحدى المدارس الصناعية هو صاحب المقام الرفيع احمد حسنين باشا رئيس الديوان وان رفعته كان أوصى احدى المدارس الصناعية على صنع طقم كذا وعدد موائد ومقاعد كيت ..

وان المدرسة الصناعية المذكورة انجزت الطلب وأرسلت الاثاث المطلوب الى حسنين باشا.. وبعثت معه بالفاتورة وقدرها كذا جنيها وكذا مليمات ..

ولكن حسنين لم يدفع وان المدرسة طالبته مرة ومرتين .. فلم يدفع ..

وأخيرا حولت المدرسة الاوراق الى وزارة المعارف ومضى وزير المعارف يقول ان الوزارة قد بح صوتها من مطالبة حسنين باشا بسداد الدين .. ولكنه لم يدفع !

وكانت فرصة !.. ووقف أكثر من نائب وفدى ليخرج لسانه لرئيس الديوان ويسخر منه ويشمت به ويطالب الحكومة بأن تكون حازمة وأن تفعل كذا وكذا مع هذا المدين المماطل الذى اسمه أحمد محمد حسنين !

ووقف النائب الاستاذ فكرى أباظة يدافع عن حسنين باشا ويقول للنواب الوفديين ـ وكان صديقنا يومئذ كما كان دائما من نواب المعارضة ـ وقف يقول لهم ما معناه ان هذا الدين ينهض دليلا على شرف ونزاهة وامانة أحمد محمد حسنين !.. وان هذا الرجل الذى يشغل هذا المنصب الكبير الخطير فى القصر والذى كان يمكنه أن يستغل منصبه ـ كما فعل آخرون غيره ـ ليجمع ثروة طائلة .. هذا الرجل عاجز عن سداد دين لايزيد عن مائة أو مائتين من الجنيهات ..

عاجز عن سداد الدين لأنه رجل فقير وشريف ونزيه وأمين ..

وهاج النواب الوفديون ضد صديقنا فكرى أباظة.. وعاد هو يقول ان حملتهم هذه ضد رئيس الديوان هى صفار فى صفار !..

واشتد هياجهم وصاح بعضهم ان فكرى أباظة يشتم المجلس ..

واستمر فكرى أباظة فى الـكلام ..
وأخيرا طلب منه رئيس المجلس أن يكف عن الـكلام وأن يجلس ..
ولـكن فكرى مضى فى كلامه ولم يجلس ..

هذا وثورة النواب تزداد وهياجهم يزداد وفكرى أباظة ماض فى الكلام والدفاع عن رئيس الديوان وأخيرا أمره رئيس المجلس بأن يخرج ويغادر قاعة المجلس ورفض فكرى اباظة أن يخرج ..
ودقت الاجراس.. وأسرع حرس المجلس.. وأمرهم الرئيس باخراج النائب المحترم فكرى أباظة من قاعة الجلسة ..
وحمل الحراس صديقنا فكرى أباظة .. وخرجوا به وهو يصيح بأعلى صوته مخاطبا نواب الوفد : «يامساكين انكم تلعبون بالنار .. انكم تلعبون بالنار ! »

***

وبعد ساعة واحدة من هذا الحادث فى جلسة مجلس النواب ذهب سير والتر سمارت الموظف الكبير يومئذ بالسفارة البريطانية وقابل رئيس الوزارة مصطفى النحاس وقال له مامعناه ان الحكومة البريطانية التى تؤيد بقاء وزارة رفعته ضد رغبات القصر تعد نفسها والحالة هذه مسئولة عن تصرفات الوزارة .. وانها لا تقر تصرفات نوابه فى جلسة اليوم وتنظر الى هذه الحملة ضد رئيس الديوان بعدم الارتياح .. وترجو من رفعة رئيس الوزارة أن يعمل شيئا يزيل به الاثر السىء الذى خلفته هـذه الحملة الظالمة فى النفوس ..
واقترح جنابه أن يحذف من مضبطة الجلسة كل ما دار وكل ما قيل حول هذا السؤال وحول حسنين باشا
ووافق السيد مصطفى النحاس ..

وفى اليوم التالى اجتمع مجلس النواب .. ووقف النائب فكرى أباظة وبيده مضبطة الجلسة السابقة وقال ان فى المضبطة نقصا يريد أن ينبه اليه !

وسأله رئيس المجلس عن النقص المذكور ، فقال :

ـ لم أجد شيئا فى مضبطة الجلسة عن حادث طردى من المجلس ! ..

وصاح النواب المحترمون :

ـ ماحصلش ..

وسألهم فكرى أباظة :

ـ ألم تطردونى من الجلسة ؟

ـ أبدا .. ماحصلش !..

ـ والكلام اللى قلتوه عن حسنين باشا ؟

ـ ما حصلش ...

ـ والكلام اللى قلته أنا ؟

ـ ما حصلش ...

وفهم فكرى أباظة .. وسأل قبل أن يجلس :

ـ يعنى ما حصلش سؤال .. وما حصلش جواب من وزير المعارف .. وما حصلش حاجه أبدا ؟..

وصاحوا جميعا :

ـ برافو عليك .. ادنت فهمت !.. ما حصلش !

وهكذا انتهت هذه المهزلة .. ولكنها خلفت وراءها فى نفوس الوفديين حقدا جديدا ـ ان جاز هذا التعبير ـ ضد رئيس الديوان حسنين باشا لأن حذف كل ما دار حوله فى الجلسة السابقة قد فوت على الوفديين غرضهم فى النشر والتشهير به !

ومن هنا كان سرورهم كبيرا بحادث أحمد سالم وبأسمهان .. وبالدور الذى لعبه عدوهم حسنين باشا فى الحادث المذكور ..

وأرسلوا أحدهم الى احمد سالم فى مستشفى قصر العيني يعرض عليه أن يوكل عنه أحد كبار المحامين الوفديين

وكان غرض الوفديين هو أن يقف المحامي الوفدى الوكيل عن احمد سالم .. يقف فى محكمة الجنايات ويروى علنا وعلى رءوس الاشهاد قصة حسنين واسمهان وكيف ان احمد سالم هو الضحية المسكينة لرئيس الديوان الى آخره .. الى آخره ..

***

وما من شك فى انها كانت تكون الضربة القاضية على احمد حسنين !

ولكن القدر شاء غير ما دبر الوفديون .. ذلك انه لم تمر أيام على الحادث المذكور حتي سافرت أسمهان بسيارتها الى رأس البر .. وانقلبت بها السيارة فى الترعة .. وغرقت ولاقت منيتها قبل الاوان ..

وكان هذا فى شهر يولية ..

وفى شهر اكتوبر – وقبل أن تعرض قضية احمد سالم على محكمة الجنايات أقيلت وزارة الوفد . وهكذا نجا احمد حسنين من أكبر فضيحة كان يمكن أن تهدد مستقبله ولكنه لم ينج من أثرها وكان من آثارها انه بعد أن كان فى شهر ابريل ١٩٤٣ المرشح الوحيد لرئاسة الوزارة التي تخلف وزارة الوفد .. عدل عن اختياره الى اختيار المرحوم الدكتور أحمد ماهر ..

وكانت ثورة الغضب فى صدر أحمد سالم قد ماتت بموت أسمهان .. ومن هنا لم يقل شيئا عن حسنين باشا عندما نظرت قضيته أمام محكمة الجنايات ..

الكتاب الثانى

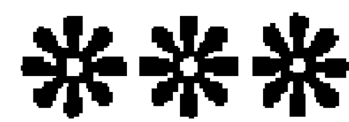
أحمد محمد حسنين
فى الحياة العامة

على ماهر .. والاعتداء على الدستور والحياة النيابية

المذكرات التى أدونها هنا نقلا عن أحمد حسنين باشا لم أسمعها منه فى جلسة واحدة أو فى جلستين بل فى عدة جلسات تمت بين عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ .

والذى لاحظته — وأسجله هنا — أن حسنين كان حريصا أو محترسا الى حد ما فى حديثه عن على ماهر أيام كان هذا رئيسا للديوان ثم رئيسا للوزارة . ولم يتحدث حسنين معى بصراحة ويفرغ ما فى صدره أو معظم ما فى صدره عن على ماهر الا بعد خروج على ماهر من رياسة الوزارة .

كذلك ربما كان لموقف المعارضة الشديدة الذى وقفته دائما من على ماهر أثر فى اطمئنان حسنين الى وهو يتحدث عن صاحب المقام الرفيع .



١ — قال لى حسنين بصراحة انه هو المسئول الى حد كبير عن تعيين على ماهر رئيسا لديوان الملك وانه قال لفاروق ذات يوم : « أظن يامولانا انه قد حان الوقت لكى نعين على ماهر رئيسا للديوان » .

٢ — وان على ماهر أخطأ فى اقالة الوزارة النحاسية الوفدية فى ديسمبر ١٩٣٧ لأنه كان من رأيه — رأى حسنين — ان يبقى النحاس فى الحكم أطول مدة ممكنة

حتى «تبان» سيئات حكمه وحكم الوفديين أمام الشعب بشكل قاطع حاسم .

٣ ـ وان الملك فاروق كان يثق فى أول الامر فى على ماهر وكان لعلى ماهر عند فاروق نفس النفوذ الذى كان يتمتع به مكرم عند النحاس . ولكن على ماهر بدأ يدس لمحمد محمود رئيس الوزراء بعد اسبوعين اثنين من أيام وزارته ..

٤ ـ وان على ماهر كان دائما يدس لخصومه على اساس ان هذا ذو ميول انجليزية وان ذاك كذلك .. فبعد ثلاثة اسابيع بدأ على ماهر يصب فى أذن فاروق كلاما عن محمد محمود وكيف انه ذو ميول انجليزية . وهكذا نجح فى اضعاف ثقة فاروق فى محمد محمود .

٥ ـ وان على ماهر عندما تولى منصب رئيس الديوان كان له نفوذ كبير عند فاروق الى درجة أن فاروق كان يخافه ويعمل له حسابا . بل كان اذا تأخر دقائق عن موعد ما مع على ماهر أقبل يعتذر لعلى ماهر عن تأخره عن الميعاد .

ويقول احمد حسنين ان على ماهر نجح كرئيس للديوان فى أول الامر نجاحا كبيرا .. « ويومئذ حمدت الله » .. هكذا يقول حسنين .. فقد وفيت الدين الذى وضعه الملك فؤاد فى عنقى وأديت أمانتى وهأنذا قد نجحت فى تعيين رئيس ديوان يعرف واجبه .

٦ ـ يعتقد حسنين ان على ماهر كان أفضل رئيس ديوان وانه لولا مطامعه وشهوته فى تولى رياسة الوزارة لكان خيرا له ولفاروق وللبلد لو بقى رئيسا للديوان .

٧ ـ بعد أقل من شهر واحد من تولية محمد محمود رياسة الوزارة ـ بعد اقالة وزارة النحاس ـ بدأ على ماهر يدس له عند فاروق ويضع العراقيل فى طريق الوزارة

وعندما وضح الهدف الذى يسعى اليه علىماهر وهو اسقاط محمد محمود لكى يتولى هو رياسة الوزارة . وأدرك فاروق ماهنالك هبطت قيمة على ماهر فى نظره الى حد ما .. بعد أن عرف ان على ماهر له مطامع شخصية وشهوات وأغراض مثل غيره من زعماء مصر.

ومن هنا فقد على ماهر كثيرا من نفوذه عند فاروق وبعد أن كان فاروق يعتمد على «على ماهر» أمسى على ماهر هو الذى يعتمد على تأييد فاروق .

٨ ـ كانعلىماهر هو الذىأشار باقالة وزارة النحاس فى شهر ديسمبر ١٩٣٧ وباسناد رئاسة الوزارة الى محمد محمود . ومع ذلك فقد سعى ـ بعد شهور قليلة ـ الى مقابلة النحاس سرا وفى ظلام الليل علىكورنيش رملالاسكندرية لكى يتآمر معه على اسقاط وزارة محمد محمود . ولما عرف فاروق بخبر هذه المقابلة مط شفتيه .. وتوالى هبوط أسهم على ماهر .

٩ ـ كان على ماهر وهو رئيس للوزارة يقول لفاروق « جاءنى السفير مايلز لمبسون اليوم وطلب منى كذا ولكننى رفضت وقلت له مش ممكن ..» ثم يعود بعد يومين ويقول لفاروق « جاءنى السفير اليوم وطلب منى كيت وكيت.. واظن يامولانا نقدر نساوم ونعطيه ماكان طلبه منذ يومين فى مقابل أن يتنازل عن طلباته الاخيرة »

وهكذا أدركنا فى القصر ان على ماهر كان يلبى طلبات الانجليز بينما هويتظاهر بأنهصامد امامهم كالطودالشامخ

١٠ ـ لما توفى حسن صبرى باشا كان على ماهر هو السياسى الوحيد الذى استشاره فاروق يومئذ فى الموقف . ولم يعرف أحد بهذا الخبر أو بمقابلة على ماهر لفاروق لأن المقابلة لم تنشر فى بلاغ ديوان كبير الامناء .

ولقد خرج على ماهر يومئذ من مقابلة فاروق وقال

لخاصــته « الوزارة فى جيبى » ويظهر انه كان رشح لرئاسة الوزارة صديقه محمد محمود خليل الذى اشاع الخبر بين أصدقائه وتلقى منهم التهانى .

١١ ـ ولكن حسنين رشح لرئاسة الوزارة حسين سرى . وكانت مفاجأة غير سارة لعلى ماهر .

هذه هى المذكرات التى وجدتها مدونة فى كراسة . ولعل القراء قد لاحظوا انها مدونة بأسلوب أشبه مايكون بالاختزال .. بل هى تكاد تكون رءوس موضوعات .. كل رأس منها يصلح موضوعا لحديث مستفيض .

ولكننى أكتب هنا قصة أحمد محمد حسنين لا قصة على ماهر أو مصطفى النحاس أو محمد محمود . ومن هنا لن أعرض لأحد من هؤلاء الا بالقدر الذى يقتضيه الحديث عن المرحوم أحمد حسنين .

وأبدأ برئاسة الديوان ..

***

قلت فى الفصول السابقة ان المرحوم احمد حسنين كان ذا مطامع واسعة . وكان يسعى لأن يكون الرجل الاول فى الدولة بعد الملك .. وكان البرنامج الذى وضعه ذا خطوات ..

الخطوة الاولى رئاسة ديوان الملك .

الخطوة الثانية رئاسة الوزارة .

وبين الخطوتين .. خطوة لابد منها للتثبيت والتأمين ودعم المركز .. وهى الزواج من نازلى أم الملك ..

ولكن بعض أصدقاء حسنين ينكر على قولى انه كان ذا مطامع .. وانه كان يريد رئاسة الوزارة .. ويحاول أن يدفع عن حسنين هــذه « التهمة » كأنما الطموح نقيصة أو سبة يجب أن تدفع وتفند ..

وقد يجد هذا البعض من أصدقاء حسنين فى صدر

هذا الفصل مايؤيد قوله .. فيسألني لماذا أشار حسنين علي فاروق بتعيين علي ماهر رئيسا للديوان .. ولم يطلب المنصب لنفسه اذا كان ـ كما تقول ـ طموحا طامعا في المناصب ؟

والجواب : ان حسنين كان يعرف يومئذ ـ في أواخر عام ١٩٣٧ ـ ان الوقت لم يحن بعد لتوليه المنصب المذكور.. وان فاروق يحب علي ماهر ويثق فيه الى حد كبير باعتباره « رجل أبيه » الملك أحمد فؤاد وموضع ثقته .. وان فاروق يريد أن يعين علي ماهر رئيسا للديوان لكي يقف بجانبه كما وقف الى جانب أبيه أحمد فؤاد .

وكانت الخصومة وأسباب الخلاف قدظهرت وتعددت بين فاروق وحكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس.. وكانت رئاسة الديوان في حاجة يومئذ الى رجل قوي أو « ازرق الناب » في السياسة ومناوراتها لكي يستطيع الوقوف في وجه الاغلبية الوفدية الكبيرة .. ولم تكن لفاروق ثقة كبيرة يومئذ في كفاءة حسنين كسياسي ومناور أزرق الناب .

كذلك لم يكن من مصلحة احمد حسنين أن يصطدم يومئذ بالوفد وحكومة الوفد ومصطفى النحاس وهو الاصطدام الذي كان لابد من وقوعه بين الوفد وبين الذي يتولى رئاسة الديوان .

وأمر آخر يعرفه كل الذين عرفوا احمد حسنين ودرسوا اخلاقه .. وهو انه كان يريد الشيء .. ولكنه ينكر انه يريده أو يشتهيه .. وكان يتطلع الى المنصب ولكنه يزعم انه زاهد فيه لايريده .

كانت سياسته ـ اذا أراد أو اشتهى أمرا ما ـ أن يناور ويداور ويحاول أن يحمل أصحاب الشأن على أن

يعرضوا عليه الامر أو الشيء الذي يريده ويشتهيه .. تماما كما فعل في أمر زواجه من الملكة نازلي .

اما أن يطلب الشيء صراحة ، فلا .. لم يكن هذا من خلق أو سياسة حسنين .. وفي ضوء هذه الحقائق وهذه الاخلاق وهذه السياسة نفهم لماذا تطوع حسنين واشار على فاروق بتعيين على ماهر رئيسا للديوان .

لأن فاروق كان يحب ويثق الى حد كبير في على ماهر ولأن على ماهر كان الوارث الطبيعي للمنصب المذكور .. ثم سبب آخر وهو أهمها جميعا .. كان حسنين يعرف على ماهر ، ويعرف عنه ما لايعرفه فاروق .. وكانت الوسيلة الوحيدة لأن «ينكشف» على ماهر أو «يكشف عن حقيقة نفسه » هي تعيينه في منصب رئيس الديوان بالقرب من فاروق ..

أو بعبارة أخرى كان تعيين على ماهر في رئاسة الديوان هو الخطوة الاولى للقضاء على نفوذ على ماهر عند فاروق

وقد صح ما توقعه حسنين .. ونجحت سياسته و «انكشف» على ماهر أمام فاروق .. وهبطت أسهمه هبطت أثناء توليه رئاسة الديوان .. وتوالى هبوطها بعد توليه رئاسة الوزارة ..

ثم لم يمض عام ١٩٤١ حتى كان على ماهر قد فقد نفوذه القديم عند فاروق ..

وأعود الآن الى بداية الحديث عن رئاسة الديوان ..

قلت في فصل سابق ان الدكتور عباس الكفراوي طبيب فاروق فاتحني ذات يوم وكنا في قصر كنري هاوس بالقرب من لندن — في أمر منصب رئيس الديوان الشاغر واقترح على أن أفاتح حكومة الوفد في أمر تعيين الاستاذ نجيب الهلالي في المنصب المذكور .

واعتقد ان عباس الكفراوي لم يرشح نجيب الهلالي

لرئاسة الديوان الا بعلم واذن فاروق . ولكن حكومة الوفد لم توافق على هذا الترشيح لأن الاستاذ نجيب الهلالى لم يكن يومئذ وفديا صميما بل كان لايزال حديث العهد بالوفدية ..

ولأنه كان خصما للأستاذ محمود فهمى النقراشى الذى كان له نفوذه ولم يكن قد خرج أو أخرج بعد من الوفد.

وثالثا وأخيرا لأن حكومة الوفد كانت ترغب فى تعيين الاستاذ عبد الفتاح الطويل المحامى المعروف رئيسا للديوان . وكان الاستاذ الطويل قد تولى من قبل منصب الوكيل البرلمانى لشئون القصر .

***

وكان حسنين ــ اذا عرضنا قبل عودتنا الى مصر لحديث المنصب الشاغر وأسماء المرشحين لرئاسة الديوان ــ كان يقول : « ياريتنى كنت أنفع . لكن ياخسارة ما انفعش أبدا لأنى يامحمد زى ما انت عارف ما افهمش حاجة فى السياسة . وده منصب سياسى عاوز واحد يفهم فى السياسة » .

وكان يكررها لعل وعسى أن أقاطعه وأقول : « بل انت تنفع .. أو انت خير من يصلح رئيسا للديوان » ؟

وعدنا الى مصر فى أواخر شهر يولية ١٩٣٧ وواجهت حكومة الوفد فى أول شهر من تولية فاروق سلطاته الدستورية عدة مسائل أو مشاكل منها حكاية المرحوم يوسف الجندى ويمين الولاء التى يقسمها الجيش وهل تكون للملك وحده أو للملك والدستور .. وحكاية التاج التى أشرت اليها فى فصل سابق .. ثم منصب رئيس الديوان ..

وقد رشحت حكومة الوفد على التوالى للمنصب المذكور الاستاذ عبد الفتاح الطويل . الاستاذ نجيب

الهلالى . الدكتور حافظ عفيفى . الاستاذ محمد أمين يوسف .

ورفض فاروق هذه الاسماء ورشح من جانبه على ماهر . ورفضت حكومة الوفد هذا الترشيح .

***

قالت نازلى ملكة مصر السابقة ذات يوم عقب وفاة زوجها الملك أحمد فؤاد .. قالت لشقيقها حسين صبرى :

ــ ان فاروق طفل وعنيد ، وانا أخاف عليه من هذا « الطقم » القديم الموجود فى السراى «طقم» سعيد ذو الفقار وشوقي وعبد الوهاب طلعت وغيرهم .. وأخشى أن يملأوا رأسه بالكلام الفارغ ضد الوفديين أو يوغروا صدره ضد مصطفى النحاس كما كانوا يفعلون مع «المرحوم» ابيه .. وهذه تكون مصيبة لأن فاروق اذا اصطدم بالوفد فسوف يأكله مصطفى النحاس .. وانا أعلم ان لك أصدقاء بين كبار الوفديين وأطلب منك أن تذهب وتقول لهم بلسانى ونيابة عنى ان نازلى تقول لكم : « فاروق ابنكم فخذوه وربوه وعلموه . وانها تضعه أمانة فى أيديكم ولكنها تنصحكم فى نفس الوقت أن تبعدوا عنه بل وعن السراى كل هذا « الطقم القديم » ..

وهكذا قدرت الملكة الأم انها تستطيع أن تنقذ ابنهـــا الغلام وتنقذ عرشه اذا هى أسلمته أمانة الى الوفديين الأقوياء أصحاب الحكم والاغلبية « يربونه ويعلمونه » .. ويبعدون عنه رجال « الطقم » القديم .

أو بعبارة أخرى لقد أرادت نازلى أن تلجأ الى شهامة الوفديين . وكان رجال « الطقم » القديم ــ كما أسمتهم ــ هم : سعيد ذو الفقار كبير الامناء ، وشوقى باشـــا السكرتير الخاص ، وعبد الوهاب طلعت باشـــا مدير الادارة العربية .

وذهب حسين صبرى باشا الى صديقه السيد عبد الحميد البنان وأبلغه رسالة شقيقته الملكة السابقة ونقل عبد الحميد البنان الرسالة الى أحمد ماهر ومصطفى النحاس ..

ولكن الوفد أو حكومة الوفد لم تعمل بمشورة نازلى فلم تطلب اقصاء أو طرد أى موظف كبير من موظفى القصر.. بل أبقوا القديم على حاله . ولو أنهم كانوا عملوا بنصيحة نازلى وتقدموا الى مجلس الوصاية طالبين فصل أو نقل فلان وفلان وفلان من كبار موظفى السراى لأجابهم مجلس الوصاية الى طلبهم .. خصوصا ان رئيس المجلس المذكور الامير محمد على توفيق كان يكره جميع كبار موظفى السراى بالجملة والقطاعى .

وشريف صبرى عضو المجلس هو شقيق الملكة السابقة نازلى . وكان طبيعيا أن ينفذ مشورة شقيقته. والعضو الثالث عبد العزيز عزت باشا كان رجلا مسالما ويميل — اذا مال — الى جانب الوفديين .

ولكن حكومة النحاس الوفدية أهملت أولعلها استهانت بالامر كله ولم تر داعيا أو ضرورة لعمل أى شىء .

وكان الوفديون يعتقدون يومئذ ان الجو قد صفا لهم. وانهم باقون فى الحكم الى ما شاء الله .. فخصمهم القوى العنيد الملك أحمد فؤاد قد مات .. وأسباب الخصام والصدام بينهم وبين الانجليز الذين كانوا أصحاب الكلمة الاولى فى شئون مصر وحكم مصر .. هذه الاسباب قد زالت بعد عقد معاهدة عام ١٩٣٦ ، وعلى العرش غلام صغير أو «ولد» كما كانوا يصفون فاروق فى مجالسهم الخاصة — ولد صغير لايجرؤ على الوقوف أمامهم .. وهم أصحاب الاغلبية الساحقة فى مجلسى البرلمان .

صفا لهم الجو اذن وطاب .. فما الحاجة اذن وما

الضرورة لاجراء عملية قاسية مثل فصل أو طرد عدد من كبار موظفى السراى ..

وهكذا بقى « الطقم » القديم . وتولى فاروق سلطاته الدستورية وليس فى القصر كله مسئول واحد أو موظف كبير واحد يحب الوفديين أو يرضى أن يقول فيهم كلمة واحدة طيبة .. حتى ولو كانت كلمة يفرضها العدل والانصاف .. لأنهم جميعا كانوا من رجال الملك أحمد فؤاد .. الطاغية المستبد الذى لم يكن يؤمن بشىء اسمه الشعب أو حقوق الشعب أو الدستور أو الحياة النيابية وكان «رجاله» هؤلاء من نفس رأى «مولاهم» احمد فؤاد

واقترحت حكومة الوفد أول ما اقترحت تعيين الاستاذ عبد الفتاح الطويل رئيسا لديوان جلالة الملك . وقالت فى تأييد أو فى تزكية هذا الاقتراح ان الاستاذ الطويل سبق له أن تولى منصب الوكيل البرلمانى لوزارة شئون القصر .. وانه والحالة هذه على علم وخبرة بهذه الشئون وانه على علاقات طيبة مع جميع موظفى القصر .. الذين يذكرونه ويذكرون العمل معه بالحمد والثناء .

وهنـــا قال كبار موظفى القصر : نعوذ بالله من عبد الفتاح الطويل والعمل مع عبد الفتاح الطويل .

لقد كان كذا وكذا .. ولقد قاسينا من العمل معه كيت وكيت .. ثم .. ما معنى أن يكون رئيس الديوان وفديا من صميم الوفديين ..

وكان هذا هو اعتراض فاروق .. فقد قال : ان رئيس الديوان بطبيعة عمله ومنصبه هو حلقة الاتصال بين الملك أى رئيس الدولة وبين الوزارة .. وهو الحكم والميزان .. وهو مطالب بتسوية أى مشكلة أو خلاف فى الرأى قد يقوم بين القصر والوزراء .. ومن هنا يجب أن يكون رجلا مستقل الرأى محايدا لا يميل مع الهوى

لا رجل حزب قد أقسم يمين الولاء والطاعة لرئيس حزبه مصطفى النحاس .. والا فكيف يمكن لرجل حزبى مثل عبد الفتاح الطويل اذا اختلف القصر مع الوزارة فى أمر من الامور .. كيف يمكن له أن يتحرر من هواه الحزبى والا يميل بكفة الميزان ؟ غير معقول .

ثم قال فاروق :

ـ انا أريد أن يكون الى جانبى رئيس ديوان يقول دائما كلمة الحق .. ويسوى المشاكل ويصون حقوقى .. لا رجل وفدى سوف يكون همه أن يأخذ منى لكى يعطى حكومة حزبه .. واذا وقعت فى خلاف مع النحاس وجدت اننى قد وقعت فى خلاف مع النحاس وعبد الفتاح الطويل .. وتصبح المشكلة مشكلة مع رئيس الحكومة ومع رئيس الديوان .

وطبعا لم يكن هذا الرد المنطقى القوى من تفكير فاروق الذى كانت سنه يومئذ ثمانية عشر عاما هلالية .. أو سبعة عشر عاما ميلادية .. والذى كان نصف أمى لم ينل من العلم الا قشورا بل أقل من القشور .. والواقع أنه كان الرد الذى لقنه اياه السيد عبد الوهاب طلعت

وكان عبد الوهاب طلعت لايزال يومئذ الصديق المخلص للسيد على ماهر .. وكان يقوم بدور همزة الوصل أو « ضابط الاتصال » بين على ماهر وفاروق .. ينقل الى على ماهر أولا بأول كل ما يدور بين القصر والوزارة .. ويعود بآراء علي ماهر وفتاواه فى المشاكل وبما ينبغى أن يقوله فاروق لرئيس الحكومة .

وعدل مصطفى النحاس عن ترشيح الاستاذ عبد الفتاح الطويل . وعرض بدلا منه اسم دكتور حافظ عفيفى سفير مصر يومئذ فى لندن وهو يقول :

ـ لقد اعترضتم على تعيين رجل وفدى فى منصب

رئيس الديوان.. وهاهو حافظ عفيفى.. رجل مستقل كان موضع ثقة المرحوم الملك احمد فؤاد .. ولم يكن وفديا فى يوم من الايام .. بل لقد كان فى وقت ما حرا دستوريا ومن الد خصوم الوفد والوفديين .

وجاء الرد من القصر :

ـ كله الا كده .. كله الا حافظ عفيفى .. انه رجل متهم بالعيب فى الذات الملكية .

وكيف ذلك ؟

كان فاروق قد زار انجلترا صيف عام ١٩٣٧ قبل عودته الى مصر . وكان الدكتور حافظ عفيفى قد « تشرف » بالمقابلة بصفته سفير مصر هناك ..

وجاء « ابن الحلال » الذى قال لفاروق ان حافظ عفيفى خرج بعد المقابلة يقول : « ده لسه عيل صغير وبكره الوفديين يحطوه فى جيبهم » وهذه هى تهمة العيب فى الذات الملكية التى تمنع من تعيين حافظ عفيفى فى منصب رئيس الديوان .

وكيف تطلبون تعيين حافظ عفيفى رئيسا لديوان الملك وهو الذى قال عن الملك انه : « لسه عيل ؟ » .

واثناء هذه المفاوضات والمناقشات حول رئيس الديوان ومن يرشح له.. كان الخلاف قد بدأ بين الاستاذ مكرم عبيد وعثمان محرم من جانب ، والنقراشى ومحمود غالب من الجانب الآخر .

وتطور الخلاف واشتد .. وقرر النحاس أو مكرم عبيد أو كلاهما معا ان التعاون مع النقراشى وزميله محمود غالب داخل هيئة الوزارة أصبح أمرا مستحيلا . وانتهى الامر بخروج الاثنين من الوزارة .

ورأى الوفد ـ أو النحاس ومكرم عبيد ـ أن من الصواب استرضاء النقراشى الذى كان معدودا يومئذ

من كبار أقطاب الوفد وله نفوذه وله أنصاره وخصوصا بين شباب الوفد وأعضاء الهيئة الوفدية .. رأوا أن يسترضوه فعرضوا عليه منصب مندوب الحكومة المصرية لدى شركة قناة السويس وكان المنصب شاغرا يومئذ. ولمن يشغل هذه الوظيفة أو هذا المنصب مكافأة سنوية قدرها خمسة آلاف جنيه .

وتم العرض فى « بيت الامة » وفى مكتب سعد زغلول وكان الوفد لايزال يجتمع ويعقد اجتماعاته فى بيت سعد وكان رئيس الوفد مصطفى النحاس يستقبل زائريه فى مكتب سعد زغلول .

وفى هذا المكتب استقبل النحاس «زميله» النقراشي وعرض عليه المنصب المذكور وأبدى النقراشي شكره وقد بدا عليه التأثر الشديد وقام وعانق مصطفى النحاس . واعتقد الجميع ان المسألة قد سويت .. وان السحابة انقشعت وان خروج النقراشي من الوزارة لن يؤثر على علاقاته مع زملائه أعضاء الوفد .. أو على مركزه فى هيئة الوفد .

ولكن جريدة « البلاغ » لم تسكت بل انتهزت هذه الفرصة وخرجت بمقال لصاحبها الصحفي الكبير تعاتب فيه ـ أو تعيب فيه ـ على النقراشي قبوله للمنصب ذى الخمسة آلاف جنيه .

وجريدة « البلاغ » كانت معدودة يومئذ لسان حال القصر وكان صاحبها المرحوم الاستاذ عبد القادر حمزة قد بدأ يشن هجومه العنيف على الوفد ورئيس الوفد وحكومة الوفد ..

وقالت الجريدة فى مقالها المذكور انها لا تصدق هذا الخبر بل وترفض أن تصدق ان رجلا مشهودا له بالنزاهة والاعتزاز بالنفس مثل محمود فهمى النقراشي

يرضى أن يساوم على مبادئه وعلى نزاهته .. فيتراجع عن خطوة خطاها .. الى آخره .

وكلاما كثيرا فى هـذه المعـانى . وكان للمقال أثره المقصود .. وأعلن النقراشي ـ رحمه الله ـ انه لم يقبل المنصب المعروض وانه ماض فى سياسته وفى معارضـة مشروعات عثمان محرم وزير الاشغال .

وتكهرب الجو من جديد .. وعاد الخلاف الى ماكان عليه .. وبدا ان فصـل محمود النقراشي من عضوية الوفد المصرى أمر لابد منه .. وهنا ارتفعت أسـهم الاستاذ عثمان محرم الذى كان اختلف مع النقراشي .. ومكرم عبيد الذى كان اختلف مع محمود غالب .. وارتفعت كذلك اسهم نجيب الهلالى .. لأنه ـ كما ذكرت فى مقال سابق ـ كان خصما للنقراشي وكان بين الاثنين عداء أو كراهية لا يعرف أحد على وجه التحقيق كيف بدأت ..

ارتفعت أسهم الاستاذ الهلالى فى دوائر الوفد .. وبين يوم ويوم أصبح مقربا من رئيس الوفد مصطفى النحاس وسكرتير الوفد مكرم عبيد ومعدودا من كبار أقطاب الوفديين ..

وتذكر النحاس ومكرم عبيد ان محمد التابعى كان ارسل اليهما من انجلترا خطابا ذكر فيه خلاصة حديث دار بينه وبين الدكتور عباس الكفراوى طبيب فاروق الخاص .. وكيف ان طبيب الملك يرشح نجيب الهلالى لمنصب رئيس الديوان .. تذكرا هذا الخطاب وهـذا الترشيح .. فتقدما الى القصر يقترحان تعيين الاستاذ الهلالى رئيسا للديوان .

وقال فاروق : « اشمعني دلوقت ؟ لقـد رفضتم تعيين الهلالى أيام كان مستقلا والآن ترشحونه بعد أن

أصبح وفديا ؟.. كلا .. »
وأصر فاروق على ان رئيس الديوان يجب ان يكون رجلا مستقلا .. ومن غير رجال الاحزاب ..

***

وعادت حكومة الوفد ورشحت لمنصب رئيس الديوان المرحوم الاستاذ محمد أمين يوسف الذى كان يشغل منصب وزير مصر المفوض فى واشنطون وكان موجودا يومئذ « فى اجازة » .

وعاد رسول الوفد يحمل رد القصر على هذا الترشيح بالرفض .. لماذا ؟ لأن فاروق كان قد اجتمع بمحمد أمين يوسف على ظهر الباخرة النيل أثناء عودة «جلالته» من رحلته الي أوروبا .. وعودة المرشح المذكور بالاجازة من أمريكا وقد لاحظ فاروق ان وزيره المفوض كثيرا ما يرفع الكلفة بينه وبين « مولانا » فيضحك مثلا أمامه بصوت عال . وفى كلمة واحدة فان «مولانا» لم يستخف دم الاستاذ محمد أمين يوسف ..

***

وانتهى الوفد الى هذه النتيجة وهى ان فاروق مصمم على رفض أى مرشح وكل مرشح تقدمه حكومة الوفد. لأنه يريد تعيين علي ماهر رئيسا للديوان ..

وبعث مصطفى النحاس رسولا الى القصر يقول بلسانه ان علي ماهر رجل «مستحيل» والتعاون معه أمر مستحيل كما تدل السوابق.. وان حكومة الوفد النيابية الدستورية لايمكنها أن تقر تعيين السيد على ماهر فى هذا المنصب الخطير لأنه رجل سبق له أن اشترك مع محمد محمود باشا ثم مع اسماعيل صدقى باشا ومن قبلهما مع احمد زيور باشا فى الاعتداء على الحياة النيابية وعلى الدستور والوفد حامى الحريات وحامى الحياة النيابية وحامى

الدستور لايستطيع أن يوافق على تعيين هـذا الذى اعتدى على الحريات وعلى الحياة النيابية وعلى الدستور

وتأزم الموقف بين فاروق وحكومة الوفد . ولم يكن الخلاف حول الذى يعين رئيسا للديوان سوى سبب واحد أو مصدر واحد من مصـادر الخلاف فقد كان هناك أكثر من مصدر وأكثر من سبب واحد ..

كان هناك مثلا « القمصان الزرق » وهى الهيئة أو المنظمة التى أنشأها الوفد على غرار القمصان السود فى ايطاليا الفاشية و«القمصان البنى» فى المانيا النازية . وقال فاروق يومئذ ـ أو قيل له ـ ان النحاس باشا يمهد بقمصانه الزرق لاقامة نظام ديكتاتورى يحكم به مصر كما يحكم موسولينى فى ايطاليا وهتلر فى المانيا .

وكانت هناك مسألة التاج الذى يشتهيه فاروق وكان يريد أن تقام له حفلة كبرى يدعى اليها ملوك ورؤسـاء الدول فى العـالم .. وكان المفروض أن تكتتب جميـع الطوائف والطبقات بتكاليف صنع هذا التاج .

وكان الوفد ـ أو حكومة الوفد ـ يعارض أولا فى حكاية التاج هذه ويقول ان التاج أمر مخالف للشريعة الاسلامية ، ولكن فاروق طلب من المرحوم الاستاذ الشيخ المراغى شيخ الجامع الازهر يومئذ أن يعلن ان ليس فى « التاج » شىء يخالف الاسلام . وتحدث شيخ الازهر فعلا الى جريدة « المصرى » فى هـذا المعنى وأعلن ان الاسلام عرف ولايزال يعرف التاج والتيجان وأن ليس فى حمل التاج ما يخالف تعاليم الاسلام . « وكان الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ كما هو معروف رجل القصر » .

وهنا تراجع الوفد .. ووافق على مشروع التاج ، ولـكن موافقته كانت من طرف اللسان !

وخاف خصوم الوفد أن تكون حكاية التاج هذه سببا

فى اطالة عمر وزارة الوفد اذ ان جمع المال اللازم من طبقات الشعب قد يستغرق شهورا .. وعمل التاج ـ وكان المقرر أن يكلف بصنعه محل «كارتييه» الجواهرجى الشهير فى باريس ـ سوف يستغرق شهورا .. ثم الاستعدادات الضخمة لحفلة التتويج التى سوف يدعى اليها ملوك ورؤساء حكومات العالم .. الى آخره .. كل هذا قد يستغرق عاما أو عامين ..

خاف اذن خصوم الوفد أن يكون مشروع التاج سببا فى اطالة عمر وزارة مصطفى النحاس فقالوا لفاروق أن الوفد لم يعدل عن معارضته ويوافق على تقديم التاج الا لأنه يجد فيه فرصة طيبة لتحريض الشعب ضد « مولانا » ونشر أسباب التذمر والشكوى من صاحب الجلالة .. ذلك لأن فى البلاد أزمة اقتصادية وأسعار القطن فى هبوط .. ولسوف يجمع أعوان الحكومة والوفد المال من الاهالى ومن الفلاحين بالقوة والاكراه ويقولون لهم ان هذه أوامر الملك الشاب لأنه يريد أن يضع على رأسه تاجا وتقام له « زفة » يدعى اليها ملوك العالم ؟

واقتنع فاروق .. وأمر باصدار بلاغ الى الصحف يعلن فيه عدم رغبته فى التاج مراعاة للحالة الاقتصادية فى البلاد وشفقة ورحمة برعاياه المخلصين .

ولكن فاروق أحس مرارة الخيبة فى فمه فقد كان يشتهى فعلا تاجا يضعه على رأسه ومن ثم ازداد كرهه للوفد ولمصطفى النحاس الذى كان السبب فى حرمانه من تاجه المنشود .

وأدركت مما كنت أسمعه من أفراد الحاشية المقربين الى فاروق ان الامور تسير من سيىء الى أسوأ . وكنت يومئذ أقوم ـ بصفة غير رسمية ـ بما يشبه مهمة « ضابط الاتصال » بين فاروق وحكومة الوفد .

وكنا فى أوائل شهر سبتمبر . وذات مساء زرت «رفعة» رئيس الوفد ورئيس الحكومة فى داره فى سيدى بشر برمل الاسكندرية وكان يجلس مع «رفعته» الدكتور محمد صلاح الدين ..

ولكننى لم أكد أبدأ الحديث فيما جئت من أجله حتى أشار النحاس الى صلاح الدين أن ينسحب فانسحب .

وتحدثت طويلا الى « رفعته » وكان حديثى كله فى معنى واحد وهو ان « جلالة الملك » قد بدأ يسىء الظن بالوفد ورئيسه لأنه أصبح يعتقد ان النحاس باشا يكرهه ويريد الاعتداء على حقوقه .. وان بعض كبار الوفديين يتحدث فى المجالس الخاصة عن فرصة الانتقام من الملك فاروق لما فعله معهم أبوه الملك فؤاد .

ورفع النحاس باشا يديه واستعاذ بالله وقال ان هذه كلها أكاذيب من صنع خصومه وانه ـ وأقسم بالله العظيم ـ « يحب فاروق ويستبشر به ويرى الخير فى وجهه » .

ثم استطرد يقول :

ـ وأنا لا أفكر ، ومعاذ الله أن أفكر فى الاعتداء على حق واحد من حقوقه الدستورية ، ولكننى فى نفس الوقت لا ولن أفرط فى حق واحد من حقوق الامة وحقوق حكومتها النيابية التى كفلها الدستور .

وكان « رفعته » يشير الى مسألة تعيين رئيس الديوان وحق الحكومة فى اختيار الذى يعين فى المنصب المذكور.

ثم قال انه لا يستطيع أن يمنع « بالقوة » تعيين على ماهر باشا رئيسا للديوان ولكن ....

ـ وليكن هذا مفهوما منذ الآن .. ولكننى لن أوافق على هذا التعيين ..

قلت :

وامر آخر يأخذونه عليكم وهو ان الوزارة لم تقم حتى الآن بعمل ما تظهر به ارتياحها وسرورها بخطبة جلالة الملك .

وكان فاروق قد أعلن خطبة الآنسة صافينازذوالفقار قال وهو يدق بيده المائدة الصغيرة :

ـ أهي دى معاهم حق فيها .. أيوه معاهم حق .. تمام معاهم حق ..

ثم قال انه سوف يقيم بعد غد حفلة شاى فى حديقة انطونيادس ابتهاجا بالخطبة الملكية السعيدة .

وأقيمت الحفلة ودعى اليها جميع الشيوخ والنواب وكبار موظفى القصر . وتخلف عن حضور الحفلة مكرم « باشا » عبيد بسبب وعكة أصابته .

وحضر الحفلة النقراشى « باشا » .. وما أن رآه الشيوخ والنواب الوفديون حتى أحاط به عدد كبير منهم يرحبون به ويرجونه أن يسوى الخلافات التى بينه وبين زملائه أعضاء الوفد .

وبينما هم كذلك أقبل مصطفى النحاس ، ورأى النقراشي فتقدم منه ومد اليه يده ، وتصافح الرجلان ، وصفق الحاضرون وهتف الاستاذ حسن يس بحياة النحاس

وردد الحاضرون الهتاف ثم هتف بحياة النقراشي ، وردد الحاضرون الهتاف ، وهنا تعانق النحاس والنقراشي ودوى التصفيق الحاد وعلا الهتاف .

وتفاءل الحاضرون خيرا واستبشروا بعودة المياه الى مجاريها بين النقراشي ومصطفى النحاس .

وبعد الحفلة ذهبت أعود الاستاذ مكرم عبيد فى داره وصعدت اليه فى غرفة نومه وكان مستلقيا فى فراشه ولا بد ان احدهم كان أبلغه بالتليفون خبر مقابلة النحاس مع النقراشي وكيف تصافحا وتعانقا وصفق لهما الشيوخ

والنواب ، لأنه سألني عن التفاصيل فرويتها له ..
وعلت فمه ابتسامة يعرفها أصدقاؤه .. وقال :
ــ كده .. طيب لما نشوف ..
ثم تناول سماعة التليفون الموضوع بجانب فراشه وطلب دار « رفعة » الرئيس ، وكان النحاس باشا قد عاد الى داره مباشرة بعد انتهاء حفلة الشاى ، وبعد حديث قصير عن وعكة مكرم وما الذى يشكو منه قال الاستاذ مكرم وهو يضحك ضحكته القصيرة المتقطعة :
ــ مبروك يا باشا ..
ولابد ان النحاس باشا سأله « مبروك على ايه ؟ » لأنه قال مع الضحكة القصيرة المتقطعة ــ مبروك الصلح مع النقراشى ..
ولم أسمع طبعا ماذا قال مصطفى النحاس ، ولكننى فهمت من رد مكرم عبيد ان النحاس انكر أن هناك صلحا لأن مكرم قال :
ــ أنا كمان استغربت الخبر وقلت مش معقول ..
وانتهى الحديث ، وعادت الابتسامة الطبيعية المشرقة الى فم الاستاذ مكرم عبيد .. ذلك لأن الاستاذ مكرم عبيد كان لايزال يؤمن الايمان كله فى ذلك الوقت ان كل عضو يختلف مع رئيس الوفد مصطفى النحاس يجب أن يبتر من جسم الوفد بلا تردد أو رحمة ..
كان هذا هو مبدا مكرم عبيد فى عام ١٩٣٧ وهو نفس المبدا الذى طبقه عليه مصطفى النحاس فى عام ١٩٤٢ .
ولقد كان لاختلاف النقراشى مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد نتيجة لم تخطر ببال أحد فى أول الامر .
لقد توقعوا مثلا ــ وهو ما حدث فعلا ــ أن يغضب أحمد ماهر لغضب صديقه وزميله النقراشى وأن يقف الى جانبه يؤيده ويدافع عنه وعن رأيه .. ولكن أحدا

لم يتوقع أن تغضب السيدة الجليلة صفية زغلول كل هذا الغضب من اجل النقراشي الى حد ان تهدد باغلاق بيت الامة أو بيت سعد فى وجه الوفد ومصطفىالنحاس اذا استمر هذا الخلاف .. وهو ماحدث فعلا بعد ذلك ببضعة شهور .

ان أحدا من اعضاء الوفد لم يكن يتوقع هذه الغضبة من جانب « أم المصريين » . ولكنها غضبت ولم تخف انتقادها المر لمصطفى النحاس ومكرم عبيد وسياسة الاثنين التى توشك أن تمزق الوفد ـ تراث سعد ـ شيعا وأحزابا ..

وقيل يومئذ ان السيدة الجليلة لم تكن تنتظر سوى حادث ما ـ أى حادث ـ لكى تعلن سخطها وغضبها على مصطفى النحاس ومكرم عبيد .. وان حكاية النقراشى لم تكن السبب الحقيقى وان كانت السبب المباشر لغضب السيدة أم المصريين .

وقال لى الاستاذ مكرم عبيد فى حديث طويل ان السيدة الجليلة غاضبة من الوفد منــذ زمن طويل وانها كانت تتحين الفرصة التى تعلن فيها هذا الغضب ..

قال : لقد أدخلوا فى روعها انها «جان دارك» مصر ..
سألته : من هم الذين أدخلوا هذا فى روعها ؟
قال : بعض أقاربها وانسابها ..
ومضى الاستاذ مكرم عبيد فى حديثه فقال :

ـ لقد قالوا لها اننا أخطأنا فى حقها يوم سافرنا الى لندن لامضاء المعاهدة « معاهدة ١٩٣٦ » ولم نصحبها معنا لكى تشترك مع بقية زعماء مصر فى امضاء المعاهدة بصفتها أرملة سعد زغلول .. ولقد عاتبتنا حضرتها على هذا .. كما لامنا بعض الناس اننا لم نطلب من مجلس الوصاية الانعام عليها بالوشاح الاكبر من نيشان محمد

على .. أسوة بالذين أنعم عليهم منا بالوشاح المذكور..
وذات مرة استدعتنى الى مقابلتها وقالت لى انها لاحظت اننا لم نعد نستشيرها فى أمورنا وفى شئون البلد كما كنا نفعل من قبل .. وانها قد أصبحت فى نظرنا كمية مهملة

قال مكرم :

ـ واستغفرت الله وأكدت لها انها ما زالت عندنا كما كانت موضع الاحترام والتقدير ولكن اذا كنا لم نعد نستشيرها كما كنا نفعل فذلك لأنه ليس هناك ما نستشيرها فيه .. وقد كنا نسألها الرأى أيام كنا فى المعارضة وكنا نعرض عليها بيانات الوفد ونداءات رئيس الوفد الى الامة وما أشبه ..

أما اليوم ففى أى الامور أستشيرها أنا مثلا ؟ هل اذهب اليها كوزير للماليةواستشيرها فى امر الاعتماد المخصص لبناء دار جديدة لمحكمة مصر الشرعية ؟ أو يذهب اليها زميلى وزير الخارجية ويستشيرها فى أمر فتح قنصلية جديدة لمصر فى مدينة ميلانو ..

اذن فقدكانت السيدة الجليلة ـ يرحمها الله ـ غاضبة ساخطة على الوفد ورئيسه وسكرتيره ولم تكن تنتظر سوى الفرصة الملائمة لاعلان هذا الغضب ..

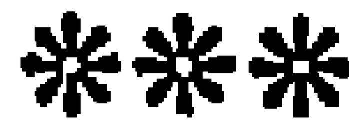
وقدسنحت الفرصة وأعلنت أم المصريين غضبها وانها تقف الى جانب النقراشى وكان النقراشى ـ رحمه الله ـ من أنسبائها وزوجا لسيدة كريمة من بنات الأسرة ..

وهكذا .. كسب النحاس ومكرم خصما جديدا قويا فى شخص زوج سعد وأم المصريين وكانت صفية هانم زغلول صديقة لنازلى ملكة مصر .. وكانت نازلى تحترم أم المصريين احتراما شديدا .. ولا عجب فقد كانت الآنسة نازلى صبرى تقبل يد صفية هانم زغلول قبل أن تصبح سلطانة مصر وزوج السلطان أحمد فؤاد ..

وزارت أم المصريين القصر .. واستقبلها فاروق وأمه نازلى بالتحية والاكرام ..

ولم تخف السيدة الجليلة رأيها وخيبة أملها فى مصطفى النحاس ومكرم عبيد وسياستهما التى توشك أن تمزق الوفد شيعا وأحزابا ..

وأدرك فاروق انه اذا وقع خلاف بينه وبين الوفد وحكومة الوفد فان أرملة سعد زغلول أم المصريين سوف تقف الى جانبه وتؤيده أمام الشعب الذى كان ولايزال يقدس ذكرى زوجها الراحل العظيم .



وهكذا .. لم يكن قدمضى على عودة فاروق من رحلته الى أوروبا وممارسته لسلطاته وحقوقه الدستورية شهران اثنان ـ من ٢٨ يولية الى آخر سبتمبر ١٩٣٧ـ حتى كانت حكومة الاغلبية الوفدية تواجه جبهة قوية معارضة مكونة من :

رأس الدولة فاروق

جميع كبار موظفى القصر أو «الطاقم» القديم الذى ترعرع ونما فى عهد الطاغية أحمد فؤاد .

على ماهر وأعوانه وأذنابه فى القصر وخارج القصر .

أحزاب الاقليـة . الاحرار الدستوريين والوطنيين والاتحاديين « ولم يكن حزب السعديين قد تكون بعد » .

وفوق هذا وذلك خلاف فى صفوف الوفد يوشك أن ينتهى بخروج النقراشى واحمد ماهر ومعهما عدد من الشيوخ والنواب .

كل هذه العوامل مجتمعة أضعفت هيبة الوفد فى نفس فاروق .

ومن ثم أقدم على ما كان مترددا فى الاقدام عليه خوفا من صولة الوفد وشوكته .. وتحدى حكومة الوفد ،

وأصدر أمره «الكريم» بتعيين علي ماهر رئيسا للديوان. وكان هذا فى شهر اكتوبر ١٩٣٧ ...

اذن فقد أقدم فاروق على اتخاذ الخطوة التى كان مترددا فى اتخاذها .. فأصدر أمره بتعيين على ماهر باشا رئيسا لديوانه .

وكان هذا التعيين أو هذه الخطوة ايذانا بسياسة التحدى التى سار عليها فاروق ورجاله .. سياسة التحدى للوفد ورئيس الوفد وحكومة الوفد وأغلبيتها الماحقة فى مجلسى البرلمان .. وايذانا بسياسة الاستهانة والاستهتار بسلطة البرلمان وحقوق الشيوخ والنواب ممثلى الامة.. أو بعبارة أخرى : سياسة استهانة القصر واستخفافه بالحكم النيابى وحقوق وحريات وسلطات الشعب .

ولسوف يقول التاريخ ان المسئول عن هذه السياسة وهذا الاتجاه الخطير الذى سارت فيه سياسة القصر ابتداء من خريف عام ١٩٣٧ .. المسئول هو رئيس الديوان السيد على ماهر ...

ولقد سمعتها بنفسى من جميع كبار موظفى القصر ولا أحب أن أذكر هنا أسماء حتى لا أحرج أحدا منهم .

وكان احمد حسنين ــ رحمه الله ــ قال لى ذات يوم ونحن على ظهر الباخرة « النيل » فى طريق عودتنا مع فاروق الى مصر ــ وقد اكون أشرت الى هذا الحديث ــ قال :

ــ ان أخشى ما أخشاه أن يسير فاروق فى نفس الطريق التى سار فيها أبوه من قبل.. ولقد صحبتنا خمسة شهور وعرفت الملك ودرست أخلاقه عن قرب ولعلك لاحظت انه عنيد وانه اذا داس أحد على طرفه شب على قدميه وضرب المعتدى بشدة وعنف.. ولهذا

ارجوك أن تقنع أصحابك الوفديين بأن فؤاد قد مات.. وان فاروق لا ماضى له معهم وانه فى امكانهم بشىء من السياسة والكياسة أن يكسبوه . وعليهم أن يقدروا مركزه وشعوره بأنه لايزال غلاما وان أقاربه الأمراء سوف يضحكون ويسخرون منه ويعيرونه بحداثة سنه وقلة خبرته اذا هو أظهر ضعفا أمام الوفديين ويعقدون المقارنات بينه وبين أبيه .. قل للوفديين أن يجعلوا لهذه المسألة تقديرا فى حسابهم فلا يقدموا على عمل يكشف عن ضعف هذا الملك الشاب أو يثير سخرية أقاربه الأمراء .. والا فانه لن يسكت بل سوف يشب على قدميه ويرد الصاع صاعين.. ويوم يسير فاروق فى نفس الطريق التى سار فيها أبوه الملك احمد فؤاد أى طريق اقالة الوزارات وحل مجالس النواب فانه سوف يسير فى الطريق ويندفع فيها الى نهاية الشوط لأنه شاب وعنيد ومعتز بحب الشعب له والتفافه حوله .. وليس له – ما كان لأبيه – من خبرة ومرونة ودهاء ..

وهذه هي خلاصة حديث احمد محمد حسنين على ظهر الباخرة « النيل » قبل وصولنا الى الاسكندرية بيومين اثنين .

وفى اليوم السابق على وصولنا الى الاسكندرية .. وكنت متكئا بذراعى على حاجز السفينة شعرت بيد على كتفى فالتفت واذا به فاروق. وألقيت فى الماء بالسيجارة التى كانت فى يدى .

وقال فاروق :

– لعلك كنت «سارحا» فى مصر التى نصل اليها غدا وانا أيضا افكر فيها كثيرا فى هذه الايام وفى المسئوليات التى سوف أحملها على كتفى .

ثم قال – من حديث طويل – انه لايعرف شيئا عن

احوال البلد ولم يدرس بعد سياسة البلد وسياسة الاحزاب وان امامه خمس سنوات سوف يقضيها فى الدرس والبحث .. وانه لن يتدخل فى شئون الحكم الا باقل قدر ممكن ثم ـ وهذه كلماته بحروفها :

ـ وفى البلد اغلبية تحكم وسوف اتركها تحكم .. والشعب وحده هو الذى يغيرها اذا شاء ..

***

ووصلنا الى الاسكندرية فى صباح اليوم التالى . وارتدى فاروق ورجال حاشيته سترة الردنجوت .

وكان أول من صعد الى ظهر الباخرة المرحوم سعيد ذو الفقار باشا كبير الامناء وخلفه المرحوم مراد محسن باشا ناظر الخاصة ..

وأسرع فاروق ليقابل كبير امنائه الشيخ فى منتصف الطريق احتراما من الفتى للشيخ العجوز ورحمة به..

ومد فاروق يده ليصافح كبير أمنائه وعلى فمه ابتسامة ترحيب .. واذا بالشيخ كبير الامناء ينحنى فوق يد فاروق ويلثمها .. وأشهد ان فاروق حاول فى رفق أن يسحب يده حتى لايلثمها الشيخ العجوز.. ثم تركها ..

وتقدم مراد محسن باشا ولثم بدوره يد الملك .. وتراجع الرجلان بظهريهما الى الوراء ..

ثم صعد رئيس الوزراء والوزراء .. وبعضهم اكتفى بالانحناء فوق يد الملك الغلام .. وبعضهم الآخر لثم « اليد الكريمة » .

وأعتقد ان هذه اللحظة كانت نقطة التحول فى أخلاق فاروق أو فى نظرته الى البلد وكبار البلد من ساسة وزعماء .. فقد كانت هذه أول مرة ينحنى فيها شيوخ مسنون فى مثل سن أبيه أو جده ويلثمون يده .

ثم لم يمض يومان أوثلاثةحتى تحدث مصطفىالنحاس رئيس الوزراء عن « حكمة جلالة الملك المحبوب وعن ارشاداته السامية ونصائحه الغالية » ..

حكمة وارشادات ونصائح غلام أمي أو نصف أمي ؟ وكان فاروق يعرف عن نفسه وعن جهله أكثر مما يعرف الناس.. ماذا كان ينتظر من شاب حديث السن والخبرة ورث الملك والعرش والسلطان والثروة الطائلة والصحة والشباب والوسامة ـ يومئذ ـ ووجد من حب الشعب وتهليله ما وجد.. ومن خضـوع كبار البلد وزعمائه ولثمهم ليده وتراجعهم بظهورهم الى الوراء أمامه ..

ماذا كان ينتظر منه الا أن يدور رأسه وتنقلب فيـه الاوضاع والموازين ؟! ..

وأعود الى أصل الحديث : كان تعيين على ماهر رئيسا للديوان بالرغم من معارضة حكومة الاغلبية الدستورية ايذانا ببدء سياسة التحدى والاستهانة بالحكم النيابى وبالدستور .

وبدأت سياسة المرمطة المقصودة ، وراسم خطوطها « رفعة » رئيس الديوان على ماهر « باشا » .

كل طلب تتقدم به حكومة الوفد مرفوض ، المراسيم التي ترسلها الوزارة الى القصر للامضاء .. تعطل وتبقى فى الديوان .

وفى الصحف ـ بين الحين والحين ـ غمز ولمز فى حكومة الوفديين

وفى جريدة «البلاغ» بالذات ـ وكانت يومئذ كماسبق أن قلت لسان حال القصر وعلى ماهر رئيس الديوان ـ فيها وبقلم صاحبها الصحفى الكبير القدير مقالات نقد مرير لمصطفى النحاس وحكومته .

مثلا : مصطفى النحاس رجل مصاب بلوثة فى عقله !

ومصطفى النحاس يهدف لقلب نظام الحكم ويسلح عصابات قمصانه الزرق بالخناجر ! ومصطفى النحاس قليل الادب فى حق «سيد البلاد» لأنه يتأخر عن مواعيده مع فاروق ، ولأنه يخلع طربوشه ويمسح عرقه أمام فاروق .. الى آخره .. الى آخره .

وكنا نعرف ان وراء هذه الحملة السيد على ماهر رئيس الديوان ، ثم بدأ الخلاف بين الوزارة ورئيس الديوان حول مدى حقوق الملك الدستورية .. وما هى التعيينات التى تتم بمراسيم والتعيينات التى ينفرد بها الملك ويصدر بها « أمرا ملكيا كريما » .

وتمسكت الوزارة بنصوص الدستور .. وخصوصا بالنص القائل ان الملك يحكم بواسطة وزرائه ، لانه غير مسئول .. وان الملك يسود ولا يحكم ..

وقال على ماهر ان الملك يسود ويحكم معا .

وهكذا مضى رئيس الديوان « ينفخ » فى رأس الملك الشاب ، ويفهمه ــ بالقول والعمل ــ أن ليس فى البلد كله مخلص لجلالته سواه ، لأنه حريص على حقوقه .. ولأنه ينزع له فى كل يوم حقوقا جديدة تزيد فى سلطة الملك وسلطانه .

وهكذا وضع على ماهر أساس سياسة المزايدة فى حقوق الملك على حساب حقوق الشعب والبرلمان .

هذا بينما وقفت احزاب الاقلية المعارضة وزعماؤها يتفرجون شامتين فى الوفد وحكومة الوفد مسرورين فرحين بالمرمطة التى يتلقاها مصطفى النحاس .

ولقد نسوا انه اذا كان هذا هو نصيب الاغلبية من الاحترام والتقدير أو الهزء والاستهانة فماذا يكون مصيرهم ونصيبهم هم اذا تولوا الحكم ؟

ولكنهم لم يفكروا ولم يقدروا ، أولم يهتموا لأن شهوة

الحكم كانت عندهم أقوى من كل شيء .. وكان كل همهم أن يحطموا الوفد والوفديين حتى ولو حطموا معهم حقوق البلد ودستور البلد أو باعوها للجلاد ثمنا لرءوس الوفد والوفديين .

***

وكان الخلاف بين الوفد والنقراشي باشا قد بلغ مداه وأصدر الوفد قرارا بفصل النقراشي من عضوية الوفد.

واتخذ النقراشي «مكتبا» له بشارع المدابغ — شريف الآن — ولم يكن المكتب للتجارة أو السمسرة أو المحاماة أو لعمل ما مما تفتح المكاتب من أجله ، ولكنه كان للمعارضة

وهكذا كان مكتب المرحوم النقراشي باشا أول مكتب فيما أعلم يفتح للمعارضة .. وكان النقراشي يقابل أنصاره في المكتب المذكور ..

وبدأ الناس يتحدثون عن أحمد ماهر وكيف انه ضالع مع صديقه وزميله النقراشي وانه ينتظر الفرصة لاعلان خروجه على زعامة مصطفى النحاس ..

وكان المرحوم أحمد ماهر يومئذ رئيسا لمجلس النواب

***

وكانت الوزارة تتخبط في سياستها أو قل ان شئت انه لم تكن لها سياسة مرسومة . كانت مثلا تعارض فاروق في مسائل صغيرة وكانت ترفض له طلبات صغيرة وتقف منه موقف « العناد » ومن ثم تحمله على الاعتماد على دعاة السوء من خصوم الوفد وتغريه بالاصغاء اليهم والى مشورتهم . هذا بينما كانت في نفس الوقت تتساهل في امور خطيرة وترفض أن تتخذ قرارات حاسمة أو تخطو خطوات جريئة يفرضها الموقف المضطرب مخافة أن يكون في هذه القرارات أو هذه الخطوات ما يخالف نصوص الدستور أو روحه ومعناه .

وضعفت هيبة الحكومة ، وارتفع مقام القصر وراح كل موظف كبير فى الدولة يتطلع الى القصر ويلتمس رضا القصر ، وعمت الفوضى .

واذكر انني كتبت يومئذ مقالا فى «آخرساعة» وجهت فيه الحديث الى «رفعة» مصطفى النحاس باشا وقلت فيه ما معناه : « أخشى من فرط حرصك على الدستور أن تضيع الدستور » .

وكان أعوان على ماهر باشا يتحدثون صراحة فى كل مجلس عن قرب سقوط وزارة الأغلبية البرلمانية الوفدية وكان الأحرار الدستوريون يتحدثون عن قرب عودتهم الى الحكم ..

وسافرت أنا الى أوروبا فى مساء ٢٧ نوفمبر عام ١٩٣٧ على ظهر احدى البواخر . وفى صباح اليوم التالى دخل على خادم الباخرة يحمل الشاى ونسخة من البرقيات التى أذاعها ماركونى أثناء الليل .

وبينها برقية من القاهرة تقول ان مصريا اسمه كذا أطلق الرصاص على رئيس وزراء مصر ، بينما كان فى سيارته فى طريقه الى حفلة عامة .

وارسلت برقية الى النحاس باشا هنأته فيها بنجاته ثم قلت له : « احكم أو اترك الحكم » .

***

وفى يوم ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ أصدر فاروق أمره الملكى باقالة وزارة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا.

وهكذا تحققت مخاوف أحمد محمد حسنين . وخطا فاروق اول خطوة فى نفس الطريق التى سار فيها أبوه أحمد فؤاد .

خطاها بمشورة رئيس ديوانه السيد على ماهر .

ونفس السيد على ماهر كان مستشار الملك أحمد

فؤاد ورجله الاول فى حزب الاتحاد أو حزب السراى او حزب « القش » كما سماه الزعيم الخالد سعد زغلول. وكان هو صاحب الفتوى فى اقالة وزارة النحاس الاولى فى يونية عام ١٩٢٨ . وكانت هذه اول اقالة فى تاريخ الحكم النيابى فى مصر . فالسيد علي ماهر الذى أفتي وفتح باب الاقالات أمام أحمد فؤاد فى عام ١٩٢٨ ، هو نفس السيد على ماهر الذى أفتي وكتب صيغة الاقالة وفتح نفس الباب أمام فاروق فى آخر ديسمبر ١٩٣٧ .

واندفع فاروق فىنفسالطريق حتى بلغ نهاية الشوط فلا حرمة للدستور ولا للبرلمان ولا للشعب وممثليه ولا لحقوق الاغلبية ..

أمر كريم مكتوب بخط جميل على ورق مصقول وممهور بامضاء «سيدالبلاد» فاروق يكفى لشل الدستور وتعطيل نصوصه لفظا ومبنى ومعنى وطرد الحكومة التى اختارها الشعب لغير ما سبب سوى السبب الذى يفتى به رئيس الديوان .. على هواه .

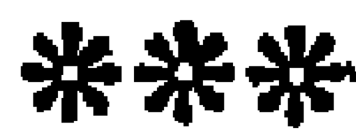
***

ولم يفاجأ الوفديون بهذه الاقالة ، فان شائعات اقالة الوزارة كانت قد ملأت الجو . كما كان أنصار على ماهر وزعماء الاحرار الدستوريين ـ كما سبق انذكرت ـ قد ملأوا البلاد أخبارا عن قرب سقوط حكومة الوفد ، وعودتهم هم الى الحكم .

ولكن الوفديين لم يكونوا قد فقدوا كل أمل .. ذلك ان موظفا من موظفى وزارة المالية اسمه أمين عثمان كان نجمه بدأ يلمع لا لسبب الا لأنه صديق شخصي للسفير البريطانى سير مايلز لامبسون ولرجال السفارة ولكبار رجال الانجليز فى مصر .

وكان هذا الموظف أو النجم الصاعد من «محاسيب»

الاستاذ مكرم عبيد الذى كان أتى به من وظيفته المتواضعة فى الاسكندرية وأسبغ عليه رعايته وعطفه .
وكان أمين عثمان يقوم بدور الوسيط ويسهل أو يسوى الأمور بين الوزارة والسفير البريطانى وقال أمين عثمان للوفديين : « لا تصدقوا هذه الشائعات . وعندى تأكيد من سير مايلز لمبسون ان حكومته لن تسمح باقالة الوزارة » .
قالها المرحوم أمين عثمان لمصطفى النحاس . وقالها لمكرم عبيد . وقالها لكل من قابله من أعضاء الوفد ..
وبدا يومئذ ان الأمر سباق بين على ماهر رئيس الديوان وبين أمين عثمان وسيط الوفد أيهما الذى يسبق صاحبه ويفوز بثقة وتأييد السفارة البريطانية . هل يفوز على ماهر فتطلق السفارة يده فى اقالة الوزارة وتقف على الحياد ؟ أو يفوز أمين عثمان وتتدخل السفارة وتحول دون الاقالة ؟
وهكذا كان الأمر .. اكبر سلطتين فى الدولة .. القصر والوزارة الدستورية البرلمانية كلاهما يلتمس تأييد السفارة والسفير البريطانى .
وفاز على ماهر فوزا مبينا .. على أمين عثمان ..
وكانت الاقالة ..



واجتمع مجلس النواب .. وأمر رئيس المجلس أحمد ماهر بتلاوة مرسوم الاقالة ثم قال انه لايسمح بالتعليق عليها .. وهاج النواب الوفديون .. ووقف أكثر من واحد منهم يعلق ويعقب على الاقالة ..
وأحمد ماهر يدق جرس الرياسة ويطلب من النواب عدم الكلام .. واشتد هياج النواب .. وكانت جلسة صاخبة .. وأخيرا أمر أحمد ماهر بوليس المجلس باطفاء

الانوار .. ورفع الجلسة وغادر منصة الرئاسة .

واضطر النواب أن يغادروا المجلس، ومن هناك ذهبوا الى النادى السعدى ، ولم يتردد المرحوم احمد ماهر فى الذهاب معهم فقد كان رحمه الله لا تنقصه الشجاعة

ووقف أحمد ماهر بين صيحات الغضب والاستنكار والسخط والشتائم والاتهام بالخيانة وقف يهاجم سياسة مصطفى النحاس الخاطئة التى ادت الى اقالة الوزارة ..

واشتد هياج النواب وهياج أعضاء الوفد ..

وغادر أحمد ماهر قاعة الاجتماع ، وانسحب معه تسعة وعشرون شيخا ونائبا من أعضاء الهيئة الوفدية.

خرج ، وخرجوا ولم يعودوا لأنهم أسسوا الحزب السعدى وانتخبوا أحمد ماهر رئيسا للحزب ومحمود فهمى النقراشى وكيلا للحزب .

واعلنت المغفور لها صفية هانم زغلول انها كانت فتحت بيت الامة أو بيت سعد لأبناء سعد يجتمعون فيه .. ولكنهم ـ وقد اختلفوا وتفرقوا ـ فانها تغلق بيت سعد ولا تسمح لأحد منهم بعقد أى اجتماع فيه ..

واقيلت وزارة الاغلبيــة الوفدية بفتوى من رئيس الديوان على ماهر .. وكانت الفتوى « ان أعمال الوزارة تجافى روح الدستور » .

لأن الوزارة قالت : ان الملك يسود ولا يحكم .. بينما روح الدستور ـ هكذا يزعم رئيس الديوان ـ تنص على أن الملك يسود ويحكم .

واذن ففى موقف الوزارة مجافاة لروح الدستور.. وهكذا أقيلت وزارة مصطفى النحاس وخلفتها فى الحكم وزارة مؤلفة من الأحرار الدستوريين ومن كبار المستقلين برياسة المرحوم محمد محمود باشا .

وكان محمد محمود هو « الوريث » السياسي الطبيعي لمصطفى النحاس . فقد كان حزبه هو حزب المعارضة. وكان ـ رحمه الله ـ زعيم المعارضة .

ومن هنا لم يكن فى استطاعة على ماهر ان يقفز الى رياسة الوزارة مباشرة بعد اقالة مصطفى النحاس . والا لكانت المسألة « مكشوفة » ..

ترك « رفعته » اذن محمد محمود يتولى رياسة الوزارة .. ولكن الى حين !

***

واستصدرت الوزارة أمرا بحل مجلس النواب .. واجريت انتخابات جديدة وكانت «جديدة» حقا فى نوعها فان التنافس بين المرشحين الوفديين وخصومهم من رجال الاحزاب الاخرى لم يكن يدور حول مبادىء أو اختلاف فى السياسة الداخلية أو الخارجية . كلا .. بل كان يدور حول مدى اخلاص الطرفين لفاروق ..

وكان بعض المرشحين يلصقون اعلانات الدعاية لأنفسهم على جدران القاهرة مكتوبا فيها « انتخبوا فلانا مرشح السراى » ، أو « لا تنتخبوا فلانا لأنه مغضوب عليه من جلالة الملك المحبوب » ، ولم تجر الحكومة المؤتلفة هذه الانتخابات فى يوم واحد .. بل أجرتها على عدة أيام ..

أجرتها أولا فى الوجه القبلى ثم اجرتها فى الوجه البحرى ..

وحشدت قوات من الجيش ورجال البوليس وبعثت بها الى مراكز الانتخابات فى الوجه القبلى للمحافظة على الامن العام ..

ثم عادت ونقلت نفس القوات الى الوجه البحرى للمحافظة على الامن العام وكان واضحا ان قصد الحكومة هو الارهاب والتأثير فى حرية الانتخابات .. وادرك رجال

الادارة فى الاقاليم ان المطلوب هو اسقاط مرشحي الوفد فعملوا على اسقاطهم .. وأسفرت نتائج الانتخابات الاولى ـ فى الوجه القبلى ـ عما يشبه الفوز لحزب الاحرار الدستوريين دون السعديين ..

وهنا شكا السعديون الى السراى من أن رجال الادارة المؤتمرين بأوامر رئيس الوزارة وزعيم الاحرار الدستوريين محمد محمود يضطهدونهم ويعملون على اسقاطهم لكى ينجح مرشحو الاحرار الدستوريين .

***

وصدرت الاوامر من رياسة الديوان رأسا الى مديرى الاقاليم « بمساعدة » مرشحى حزب السعديين ..

وانقلبت الموازين فى انتخابات الوجه البحرى ورجحت كفة السعديين . اما حزب الوفد فقد سقط جميع مرشحيه فى الوجهين البحرى والقبلى ماعدا اثنى عشر مرشحا فقط ..

اثنى عشر نائبا للوفد بعد أن كان له فى المجلس السابق المنحل فوق المائتى نائب .. وسقط فى هذه الانتخابات زعيم الوفديين مصطفى النحاس وسكرتير الوفد مكرم عبيد وجميع أعضاء الوفد وكبار الوفديين ..

ولم ينجح من الوفديين البارزين سوى الاستاذ عبد الحميد عبد الحق الذى تولى زعامة المعارضة فى مجلس النواب الجديد ..

واجتمع المجلس الجديد فى شهر ابريل عام ١٩٣٨ .

وفى شهر يولية ـ على ما أذكر ـ بعث السيد على ماهر رئيس الديوان الى السيد مصطفى النحاس رئيس الوفد يطلب منه أن يقابله سرا على الكورنيش فى مكان ما برمل الاسكندرية .. وفى ظلام الليل ...

اما لماذا طلب أن تكون المقابلة على الكورنيش .. لا فى

دار أحدهما فان السبب بسيط ..

خاف «رفعته» أن يراه أحد وهو يدخل دار مصطفى النحاس .. أو ان أحدا يرى النحاس وهو يدخل داره وسوف يكون من الصعب تفسير أو تبرير هذه الزيارة.

أما اذا رآهما أحد معا وهما يتحدثان على الكورنيش فان من السهل أن يقال ساعتئذ ان المقابلة تمت بطريق الصدفة ..

النحاس باشا يحب المشي على قدميه .. وكذلك « رفعة » رئيس الديوان فاية غرابة فى أن يلتقى الاثنان مصادفة على الكورنيش بينما كل منهما يتنزه سائرا على قدميه ؟



وكان غرض على ماهر من هذه المقابلة هو «التفاهم» مع زعيم الوفديين . والتفاهم على أساس اسقاط وزارة محمد محمود خصم الوفد العنيد !

وهكذا ولما يمض على وزارة محمد محمود ستة شهور بدأ السيد على ماهر يعمل على اسقاط الوزارة التى كان قد جاء بها وداس بها على الاغلبية البرلمانية وعلى جسد الدستور !..

لماذا ؟ لكى يتولى هو رياسة الوزارة ..

ولا أطيل الحديث ...

نفس العقبات ونفس العراقيل التى كانت توضع فى طريق مصطفى النحاس .. وضعت فى طريق محمد محمود .. ونفس الاشاعات التى كان يذيعها ويروج لها اعوان وأذناب على ماهر فى عهد وزارة مصطفى النحاس، عادت وبعثت من جديد ..

وأحس محمد محمود ــ رحمه الله ــ وكان المرض أنهك قواه وأعصابه ــ أحس أن بقاءه غير مرغوب فيه فاستقال

ونال على ماهر مشتهاه ، وانتقل من رياسة الديوان الى رياسة الوزارة . وكانت الحرب العالمية الثانية على الابواب .. وهتلر يدق طبول الحرب فى كل صباح ، وموسولينى يخطب فى كل يوم عن حرابه التى عددها ثمانية ملايين والتى تنتظر اشارة منه بالهجوم ..

***

وكان وضع على ماهر فريدا فى بابه فهو رئيس وزارة حزبية برلمانية ولكنه لاينتسب الى حزب ما وليس له فى البرلمان حزب ما ..

على من كان يعتمد اذن ؟ على من كان اعتماده فى بقائه رئيسا للوزارة ؟ على فاروق .. وعطف فاروق .. لا على البرلمان . فقد كان الاحرار الدستوريون ـ احد شقى حكومته المؤتلفة ـ ناقمين عليه بسبب مؤامرته ضد زعيمهم محمد محمود . وكان نفس شقيقه المرحوم الدكتور أحمد ماهر زعيم السعديين اى الشق الآخر من حكومة على ماهر . كان أحمد ماهر ضده فى السياسة فقد كان ينادى بوجوب دخول مصر الحرب الى جانب الحلفاء بريطانيا وفرنسا .. بينما كان شقيقه على ماهر يقول بوجوب تجنيب مصر ويلات الحرب . ولم يكن هذا رأيه فى أول الامر كما سوف نرى ..

ولكن الحزبين ـ الاحرار الدستوريين والسعديين ـ صدعا بأمر القصر وأذعنا لمشيئة فاروق وأيدا سياسة على ماهر ..

ومن هنا أصبح على ماهر يعتمد على فاروق .. بعد أن كان فاروق يعتمد على السيد على ماهر ..

وأصبح فرضا على رفعة رئيس الوزارة أن يعمل ما يمكن عمله استبقاء لعطف فاروق اذا هو شاء الاحتفاظ بمنصبه فى رياسة الوزارة ..

وأعلنت الحرب فى أول سبتمبر ١٩٣٩ ، وفى اليوم التالى دعا على ماهر باشا مجلس الوزراء للاجتماع .. وقال لزملائه الوزراء انه دعاهم للاتفاق على صيغة قرار اعلان الحرب ضد المانيا !..

وبهت الوزراء .. وقال أحدهم وهو الاستاذ عبد الرحمن عزام :

ـ ولكن لماذا نعلن الحرب يا رفعة الباشا ؟ !

أجاب رفعة الباشا :

ـ طبقا لنصوص معاهدة عام ١٩٣٦

وانبرى الاستاذ عبد الرحمن عزام يفند هذا الرأى ويفسرمواد معاهدة ١٩٣٦ وأن ليس فى المعاهدة المذكورة شيء يلزم مصر بدخول الحرب الى جانب بريطانيا ؟ !

***

وبعد مناقشة طويلة طلب عبد الرحمن عزام من على ماهر أن يترك له هذه المسألة ليسويها مع السفير البريطانى سير مايلز لامبسون ..

ووافق على ماهر ، وذهب عبد الرحمن عزام وقابل مايلز لامبسون وناقشه طويلا فى نصوص المعاهدة ، واستطاع أن يقنعه ان من مصلحة بريطانيا نفسها عدم اعلان مصر الحرب ... على المانيا ..

وهكذا سويت المسألة ..

ومع ذلك فان السيد على ماهر زعم فيما بعد انه صاحب الفضل فى تقرير سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب . ولقد رأيتم كيف كان يريد أن تعلن مصر الحرب ضد ألمانيا غداة اعلان الحرب !..

والواقع ان على ماهر باشا لم تكن له سياسة معينة ازاء الحرب العالمية الثانية .. أو لعل سياسته ازاء الحرب والدول المتحاربة كانت مثل سياسته الداخلية

ازاء الاحزاب وزعماء الاحزاب أى سياسة انتهازية ..
كان يعتقد فى أول الامر ، اى فى أول شهور الحرب ان النصر لبريطانيا وفرنسا ومن هنا أراد كما رأينا ان تعلن مصر الحرب ضد ألمانيا ثم عدل عن هذا الرأى مكتفيا بتقديم جميع المساعدات والتسهيلات الممكنة لبريطانيا.

ولقد أعلن فيما بعد - وبعد خروجه من الوزارة - أعلن ان السيد على ماهر تلقى خلال الشهور العشرة التى تولى فيها الحكم ثلاثة وثلاثين خطاب شكر من الجنرال ويلسون القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط ..
وقد شكر فيها القائد البريطانى رفعة رئيس وزراء مصر على الولاء الصادق والتعاون المخلص الذى يلقاه منه

ولقد ظل على ماهر على ولائه واخلاصه لبريطانيا وقضية بريطانيا من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ الى شهر يونية ١٩٤٠ ..
أما من شهر يونية والشهور التالية فان رفعته نقل ولاءه واخلاصه من بريطانيا وحلفائها الى المانيا وحليفتها ايطاليا ..
لماذا ؟..
كان على ماهر يعتقد فى أول الحرب كما قلت ان النصر لبريطانيا وفرنسا.. ولكن انتصارات المحور بدأت تتوالى وراحت دول أوروبا تسقط واحدة بعد واحدة تحت سنابك جحافل هتلر ..
بولندة ، الدانمرك ، النرويج ، هولندة ، بلجيكا ، وظل على ماهر على ولائه واخلاصه لأنه كان يعقد الامل على فرنسا وخط دفاعها المشهور « ماجينو » ..
ولكن هتلر حطم «ماجينو» وانهارت فرنسا واستسلمت ولم يحل منتصف يونية ١٩٤٠ حتى كان هتلر يدخل

باريس والى جانبه جورنج مارين من تحت قوس النصر فى ميدان « الاتوال » ..

وهنا تحول على ماهر باخلاصه وولائه الى المانيا . ولا أستطيع أن الوم الرجل . فلعله كمصرى مخلص كان يطلب الخير والامان لبلاده ومن هنا حرص على أن يقف دائما الى جانب الفريق الغالب المنتصر ..

وعلى كل حال فان على ماهر باشا لم يضيع وقتا قبل أن يطلق لسانه بالسخرية والتشهير ببريطانيا وفرنسا وضعف جيوشهما ..

وصرح ذات مساء فى مجلسه الخاص بأنه لن يمضى شهر واحد حتى تستسلم بريطانيا ..

ورد عليه وزير حربيته اللواء صالح حرب باشا :

ــ بل شــــهران يا رفعة الرئيس ، فسوف تقاوم انجلترا شهرين ، ثم تسقط ..

واتصل خبر هذا الحديث بالسلطات البريطانية فى مصر

وكان فاروق بدوره قد بدأ يسخر من بريطانيا وفرنسا و«ينكت» عليهما فى مجالسه. وكان يحيط به يومئذ بعض الامراء الشبان من المتحمسين لألمانيا النازية مثل عمر الفاروق وعباس حليم ..

كذلك كان خدمه الخصوصيون من الايطاليين مثل بوللى وبيترو . ويروى أن فاروق خرج مرة للصيد . وكان معه بعض رجال السلك السياسى الاجنبى ومنهم السفير البريطانى مايلز لامبسون ..

وأراد سير مايلز لامبسون أن يطرى مهارة فاروق فى اصابة الهدف . فقال له عبارة اعجاب فى هذا المعنى..

وعلى الفور قال له فاروق :

ــ طبعا لأن بندقيتى صناعة المانية ..

ثم قهقه فاروق. . وقهقه معه مدعووه من الامراء الشبان

ورات حكومة لندن ان علي ماهر باشا الذى كان قائدها جنرال ويلسون قد شكره فى ثلاثة وثلاثين خطابا على صادق ولائه وحسن تعاونه .. قد انقلب الى النقيض واخذ يقيم العراقيل والعقبات أمام السلطات البريطانية العسكرية فى مصر ..

وها هو ذا ملك البلاد يقفو اثره .. وارسل وزير خارجية بريطانيا يومئذ لوردهاليفاكس برقيته المشهورة « على ماهر يجب ان يخرج » ..

وكان هذا أول انذار بريطاني او أول تدخل مكشوف واعتداء مفضوح علي سيادة مصر المستقلة منذ عقد معاهدة ١٩٣٦ أومعاهدة الشرف والاستقلال كما اسموها

وذهب السفير البريطاني سيرمايلزلامبسون الى القصر وقابل فاروق وأبلغه نص البرقية أو الانذار ، ثم قال :

انه ينصح بقيام وزارة وفدية أوعلى الاقل وزارة يرضى عنها الوفد ويؤيدها وبادر فاروق وارسل عبد الوهاب طلعت « باشا » لمقابلة النحاس « باشا » فى كفر عشما وعرض ظروف الموقف عليه ..

وكان رفعة رئيس الوفد قد ترك القاهرة خوفا من الغارات الجوية ولجأ الى ضيافة أصهار السيدة زوجته فى كفر عشما ..

وقابله عبد الوهاب طلعت «باشا» وأبلغه نص برقية لورد هاليفاكس ونصيحة سيرمايلزلامبسون ، ثم قال ان « جلالة الملك » يستشيره فيما يجب أن يفعله ..

ولكن .. بينما كان مصطفى النحاس «باشا» يتأهب للعودة الى القاهرة وجمع أعضاء الوفد وعرض الامر عليهم واستصدار قرار برأى الوفد وما يجب عمله .. اذا بالامر الملكى يصدر الى حسن صبرى بتشكيل الوزارة ، وكانت مفاجأة للوفد ، ومفاجأة للسفير البريطانى ..

مفاجأة أغضبت النحاس كما أغضبت سيرمايلزلامبسون.

وأسرع احمد حسنين الى السفارة وقابل السفير ليسأله عن سبب غضبه ؟ وقال سير مايلز : « وهذه التفاصيل التى أرويها هنا قصها على المرحوم حسنين » قال :

ـ لقدكان كلامي واضحا وهو ان الحكومة البريطانية تنصح باسناد الحكم الى وزارة وفدية أو على الاقل الى وزارة يؤيدها الوفد ..

وقال حسنين وقد تظاهر بالدهشة :

ـ ولكن حسن صبرى باشا صديقكم .. وقد اخترناه بالذات لهذا السبب ..

قال السفير :

ـ نعم حسن صبرى صديقى .. ولكن يا باشا الصداقة شيء والسياسة شيء آخر .. ووزارة حسن صبرى لا هى وزارة وفدية ولا هى وزارة يؤيدها الوفد

وأجاب حسنين وهو يمعن فى اظهار الدهشة والاسف :

ـ اذن فهذه غلطتى أنا ، وأنا المسئول عن هذا الخطأ ولكننى أقول انصافا لنفسي اننى حرصت عند اختيار اعضاء الوزارة على أن يكونوا جميعا من أصدقائكم .. حرصا على توافر التعاون الذى لابدمن وجوده فى الظروف الحاضرة بين السلطات البريطانية والسلطات المصرية.. ومن هنا اخترنا حسن صبرى.. ومحمود فهمى القيسى اليس صديقا لكم ؟..

وراح حسنين باشا يذكر اسماء أعضاء الوزارة الجديدة ويشفع كل اسم منها بنفس السؤال : « أليس صديقا لكم ؟» ثم أنهى حديثه ودفاعه بأن الغلطة غلطته هو.. وانه المسئول عن هذا الخطأ المؤسف ولكن يشفع له حسن نيته ..

ورضى سير مايلز أو تظاهر بالرضا ، ووقفت المسألة عند هذا الحد ..



وكان على ماهر باشا مغيظا حانقا .. بسبب ارغامه على الاستقالة وترك الحكم ..

واشاع أنصاره وذيوله انه ذهب ضحية شجاعته ووطنيته ومواقفه ضد مطالب الانجليز.. وصدق فريق كبير من الجمهور هذه الدعوى.. وتمتع على ماهر باشا « بالبطولة » ولقب « البطل » بضعة أسابيع ..

ولكن الحقائق لم تلبث أن تكشفت فعرف الجمهور ان السيد على ماهر كان يريد ـ غداة قيام الحرب ـ أن تعلن مصر الحرب ضد المانيا وتقف الى جانب بريطانيا وفرنسا.. وان السيد على ماهر تلقى خلال الشهور التى أمضاها فى رئاسة الحكم ثلاثة وثلاثين خطابا من الجنرال ويلسون يشكر فيها رفعته على ولائه وصادق تعاونه مع السلطات البريطانية ..

تكشفت هذه الحقائق .. وسقط ثوب البطولة عن رفعة الرئيس السابق ..

ومع ذلك فان على ماهر « باشا » لم يسكت.. بل انطلق يقيم العراقيل ويخلق المتاعب فى طريق وزارة حسن صبرى وكان رفعته لايزال محتفظا بشىء من نفوذه عند فاروق ..

وذهب عبد الوهاب طلعت «باشا» صديق على ماهر أو الذى كان صديقه الى يوم استقالته من رياسة الوزارة. ذهب الى حسن صبرى باشا وقال له ان على ماهر يشنع عليك ويتهمك بانك صنيعة الانجليز .. وانك ..

ولكن المرحوم حسن صبرى باشا لم يتركه يتم حديثه بل قال له :

ـ أن علي ماهر صديقي .. وأنا لا أسمح لك بأن تطعن فى أخلاقه امامى. وخصوصا أنك كنت صديقا له

***

وقال حسنين باشا وهو ينهى هذه التفاصيل :

ـ وهكذا ألقى حسن صبرى باشا درسا فى الاخلاق على عبد الوهاب طلعت .. وعلى ماهر فى الوقت نفسه.

ثم حدثني ـ رحمه الله ـ عن سبب اختيار حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة .. وعدم الاخذ بنصيحة سير مايلز لامبسون وهى اسناد الحكم الى وزارة وفدية أو وزارة يؤيدها الوفد .. قال :

ـ لقد كان رأيى دائما أن الوفد هو القوة الشعبية الوحيدة فى هذا البلد وانه بهذه الصفة أحق بالحكم من جميع الاحزاب الاخرى لأنه يتمتع بثقة الناخبين . وأنا اعتقد كذلك أن الوفد قوة يمكن استغلالها فى استخلاص حقوق البلاد من الانجليز.. ولقد عملت ولا أزال أعمل على تسوية جميع الخلافات بين الملك ومصطفى النحاس وازالة أسباب سوء التفاهم التى خلفها عام ١٩٣٧ وما تلاه .. وهذه خطوة لابد منها قبل عودة المياه الى مجاريها الطبيعية اى قبل عودة الوفد الى تولى الحكم. ومن هنا تفهم لماذا رفضت أن أعمل بنصيحة سيرمايلز لامبسون .. لأن العمل بهذه النصيحة كان معناه أن الوفد .. وهو القوة الشعبية الوحيدة ، وقوتها فى استخلاص حقوقنا من انجلترا ، انما يعود الى الحكم بارادة الانجليز وهذا أمر ليس فى مصلحة البلاد ولا فى مصلحة الملك ولا فى مصلحة الوفد نفسه .. واظن انك توافق على انه من مصلحتنا جميعا انه اذا عاد الوفد الى الحكم فيجب ان يعود بالطريق الشرعى السليم أو بموافقة صاحب العرش .. لا بارادة الانجليز ..

ثم قال ـ رحمه الله ـ وهو يبتسم :
ـ ورأيت أن نقوم بمناورة تمويه وتضليل ذرا للرماد فى عيون السفير البريطانى فطلبت من الملك أن يوفد عبد الوهاب طلعت لمقابلة النحاس «باشا» فى كفرعشما .. لكي الفت أنظار السفارة وعيونها الى كفرعشما وأصرفها عما يجرى فى القاهرة .. وهكذا بينما كان عبد الوهاب طلعت فى كفرعشما كنت أنا قد اتصلت بحسن صبرى وأعضاء وزارته وأعددت المراسيم بتشكيل الوزارة .. وفوجىء السفير البريطانى بوزارة حسن صبرى وبالامر الواقع.. صحيح أن حسن صبرى باشا صديق للسفير وللانجليز ولقد اخترناه لهذا السبب كسرا لحدة التحدى فقد كان اغفال نصـــيحة السفير البريطانى تحديا منا لاشك فيه .. ولـكن حسن صبرى مع ذلك مصرى وطنى مخلص لبلاده قبل كل شىء ..

***

هذا هو مجمل حديث المرحوم احمد محمد حسنين عن الظروف والاسباب التى دعت لاختيارالمرحوم حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة فى شهر يونية عام ١٩٤٠ ، وللتاريخ وحده أن يحكم على سياسة حسنين باشا .. وهل أصاب فيها أو أخطأ ؟.. وهل قيام وزارة وفدية أو وزارة يؤيدها الوفد فى يونية ١٩٤٠ ، كان يجنب مصر مذلة حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وهل اغفال «نصيحة» السفير البريطانى كان السبب فى وقوع الحادث المشئوم المذكور أم لا ؟..

كل هذه الاسئلة فرضية سوف يجيب عنها التاريخ.

تولت اذن وزارة حسن صبرى باشا الحكم .. وكان اول طلب جاءها من السلطات البريطانية هو « اعتقال علىماهر بسبب نشاطه العدائىضد بريطانيا وحلفائها»

ورفض حسن صبرى هذا الطلب بالرغم مما كان يعرفه عن نشاط على ماهر ضد وزارته ومساعيه لاسقاطها ، والاشاعات التى كان يذيعها عنه وعن الوزارة ..

ولكنه - أى حسن صبرى - أوفد رسولا الى على ماهر يبلغه ماحدث وينصحه بالاخلاد للسكينة والكف عن « التشنيع » فى مجالسه الخاصة على بريطانيا وحلفائها

ولم يعمل السيد على ماهر بالنصيحة .. بل استمر فى نشاطه العدائى ضد الانجليز وضد حسن صبرى الذى رفض أن يعتقله ..

وعاد المرحوم حسن صبرى وأوفد رسولا آخر الى السيد على ماهر وكان الرسول فى هذه المرة هو الدكتور احمد ماهر شقيق على ماهر ..

وكانت النصيحة هذه المرة أن يغادر على ماهر باشا القاهرة الى قصره الاخضر فى ريف البحيرة ..

وعمل على ماهر بالنصيحة وسافر الى القصر الاخضر وأقام فيه يومين اثنين ثم عاد الى القاهرة ..

***

ولا أعرف لماذا أو كيف ؟ ولكن حسن صبرى باشا - وبعد شهر واحد من توليه الحكم - تقدم الى فاروق يلتمس تعيين أحمد حسنين باشا رئيسا للديوان .. وكانت حجته ان المنصب المذكور شاغر منذ عام .. وانه ما دام حسنين باشا هو الذى يقوم فعلا بأعمال رئيس الديوان فان من المرغوب فيه أن يعين رسميا فى المنصب المذكور ..

وأعتقد - وان كنت اعترف أن ليس تحت يدى دليل يبرر هذا الاعتقاد - أعتقد أن حسن صبرى باشا انما تقدم بهذا الطلب استجابة لرغبة وتلميح من حسنين باشا . او لعله أراد أن يكافىء حسنين على حسن صنيعه

يوم أشار باختياره رئيسا للوزارة التى خلفت وزارة علي ماهر ..

وعلى كل حال فان فاروق رفض فى أول الامر ان يمين حسنين رئيسا للديوان .. لأنه كان يريد أن يحتفظ بالمنصب المذكور لعلى ماهر باشا .. ولم يكن ينتظر سوى الفرصة المناسبة التى تتحسن فيها العلاقات بين الانجليز وعلى ماهر.. لكى يعيده رئيسا للديوان ..

ولكن حسن صبرى لم يسكت بل مضى يكرر هـذا الطلب أو هذا الترشيح .. وفاروق يرفض .. حتى نشأ ما يشبه الازمة الوزارية لأن حسن صبرى جعل بقاءه فى رئاسة الوزارة رهنا بتعيين احمدحسنين رئيسا للديوان ..

واخيرا ـ وكان ذلك فى شهر اغسطس ١٩٤٠ على ما أذكر ـ وافق فاروق وصدر الامر بتعيين احمد محمد حسنين باشا رئيسا لديوان « جلالة الملك » ..

وتحقق لحسنين باشا ما كان يتمناه منذ عام ١٩٣٧

***

ولكن الأجل لم يطل بالمرحوم حسن صبرى باشا.. فبينما كان يلقى « خطاب العرش » فى يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر ١٩٤٠ أصيب بنوبة قلبية .. وفاضت روحه ـ رحمه الله ـ فى قاعة مجلس النواب.

وفى مساء نفس اليوم صدر مرسوم ملكى يكل الى عبد الحميد سليمان باشا القيام بأعمال رئيس الوزارة. ريثما تتم المباحثات والاستشارات بشأن اختيار الذى يخلف حسن صبرى باشا فى رئاسة الوزارة ..

وكان هذا المرسوم مناورة تمويه وتضليل أخرى من حسنين باشا رئيس الديوان لأن السـفارة البريطانية فهمت ـ كما فهم الناس ـ من انابة عبد الحميدسليمان

باشا للقيام بأعمال رئيس الوزراء أن أمر اختيار الرئيس الجديد للوزارة قد يطول ويستغرق بضعة أيام ..
ولكن السفارة والسفير والوفد والاحزاب .. كل هؤلاء فوجئوا بعد يوم واحد باختيار حسين سرى « باشا » رئيسا للوزارة ..

***

وقص على حسنين ـ رحمه الله ـ تفاصيل ماحدث فى مساء يوم وفاة حسن صبرى باشا ، فقال :
ـ كلمنى الملك بالتليفون فقلت له : « هل يأذن لى مولانا بمقابلته ؟ » . فقال : « أيوه .. لكن خليك فى مكتبك وأنا جاى عندك » ..
وجاء فاروق وجلس وقد تكلف هيئة الجد.. وعرض على رياسة الوزارة .. وكان على ماهر باشا هو السياسى الوحيد الذى استقبله الملك سرا بعد وفاة حسن صبرى باشا واستشاره فى الموقف .. وأدركت أن ترشيحى لرياسة الوزارة جاء من جانب على ماهر.. وانه مقلب من رفعته .. لكى يتخلص منى نهائيا .. يعنى أبقى رئيسا للوزارة أسبوعين أو شهرا ، ثم أقال أو أرغم على الاستقالة وأخرج من السراى الى دارى لأبقى فيها نهائيا
أدركت هذا بالبديهة.. ولأن فاروق الذى كان يعارض ويرفض تعيينى رئيسا للديوان لايمكن أن يكون هو صاحب فكرة تعيينى رئيسا للوزارة .. الفكرة اذن فكرة على ماهر ولغرض خفى ..
ومضى حسنين فى حديثه ، فقال :
ـ واعتذرت بأدب من عدم قبول المنصب الكبير..
وقال لى الملك : « لا تتسرع .. فكر شويه كمان ، وسوف أعود اليك » ..
وتركنى وانصرف ... وهنا دخل على عبد الوهاب

طلعت باشا فطلبت منه أن يواتينى بدوسيهات رؤساء الوزارات والوزراء السابقين ..

وفى ادارة المحفوظات بقصر عابدين ملف أو«دوسيه» خاص لكل رئيس وزارة سابق وكل وزير سابق وكل زعيم سياسى من الساسة المصريين ..

وعاد الملك وسألنى :

ـ هيه ؟..

وقلت له :

ـ يا تقعدنى جنبك .. يا تخرجنى من السراى ...

قال : يعنى ايه ؟..

قلت : أنا لا أصلح لهذا المنصب .. ثم ان النـاس سوف تقول ان حسنين ربى فاروق وكسب نفوذا عنده لكى يستغل هذا النفوذ ويعمل نفسه رئيس وزارة .. بينما فى البلد عشرات ممن يصلحون خيرا منه لهذا المنصب

وهنا تساءل فاروق : زى مين يعنى ؟..

قال حسنين : هذا ما أبحث فيه الآن ..

قال فاروق : ضرورى هذا المساء .. تقول لى مين..

قلت : سمعا وطاعة .. سوف أقدم اسم المرشح هذا المساء ..

***

وخرج فاروق.. ووضعت أمامى «الدوسيهات» التى كان جاءنى بها عبد الوهاب طلعت.. وفتحت بعضها.. حتى يظن من يدخل وينظر اليها اننى كنت أبحث فيها.. ولكننى لم أحاول أن أبحث لأننى كنت اخترت فعلا اسم المرشح لرياسة الوزارة ..

وعاد فاروق بعد نحو ساعة وسألنى : « مين بقى ياسيدى اللذى ترشحه ؟ »

قلت : حسين سرى ..

وصاح فاروق : « أعوذ بالله ، ده راجل بتاع الانجليز مش ممكن .. شوف لك حد تانى .. »

وتركنى وخرج ..

وجلست أنتظر عودته .. وكنت اعرف ان فاروق لايستريح الي حسين سرى ولا يحبه رغم وجود صلة النسب العائلية ورغم اجتماعه به مرارا فى سهرات الأسرة ، فقد كان حسين سرى زوجا للسيدة خالة « الملكة فريدة » ..

كنت أعرف هذا ولكننى مع ذلك صممت على التمسك بترشيح حسين سرى لرياسة الوزارة ..

وعاد فاروق وسألنى : « هيه ؟ وجدت مين غير حسين سرى ؟ »

قلت : مش لاقى حد تانى يامولانا .. مافيش أمامى غير حسين سرى ..

وانفجر فاروق غضبا وصاح :

ـ ايه الحكاية ؟ دى مؤامرة انجليزية والا ايه ؟..

وطفرت دمعة من عينى ـ هكذا قال لى حسنين .. ولا أدرى هل كانت دمعة صادقة أم كانت دمعة تمثيل ، فقد كان حسنين ـ رحمه الله ـ يجيد التمثيل ويعرف كيف يندمج فى دوره ..

وتأثر فاروق ـ فقد كنا لانزال فى عام ١٩٤٠ وكان قلب فاروق لم يتحجر بعد ـ تأثر فاروق وتقدم من حسنين وقبله واعتذر اليه ..

ثم قال : لكن ياحسنين مش فاهم سر تمسكك بحسين سرى .. اشمعنى يعنى حسين سرى وده بتاع الانجليز ؟

وأجاب حسنين :

ـ معاذ الله أن أرغم مولانا على قبول أمر ما ، ولكننى

اعتقد انني استطيع ان اخدم جلالتك واخدم البلد وانا فى منصب رئيس الديوان وحسين سرى فى منصب رئيس الوزراء .. فاذا لم يوافق مولانا فانى التمس منه أن يتركنى أروح بيتى ..

ـ يعنى أيه .. تفوتنى ؟..

قال حسنين :

ـ لا يامولانا .. وانما علشان يكون مولانا حر فى اختياره وفى سياسته ..

وعاد فاروق يتساءل :

ـ يعنى عايز تسيبنى دلوقت ؟..

وهنا انطلق حسنين يتحدث عن حبه واخلاصه لفاروق وعن الخدمات التى اداها له .. وعن كيف كان يأمل انه قد كسب ثقة «مولاه» الملك.. ولكنه قد أدرك مع الاسف من حديث اليوم أن « مولاه » لا يثق فيه ..

واغرورقت عيناه مرة أخرى ..

واغرورقت عينا فاروق .. وقبل حسنين مرة أخرى وهنا راح حسنين يشرح لفاروق سبب ترشيحه لحسين سرى .. فقال :

ـ يعرف مولاى ان سياستى هى هى لم تتغير منذ أول يوم استلمتك فيه وانت أمير. وسياستى هى أن تكون لك حقوقك.. وحسين سرى مهما يكن رأى مولانا فيه فانه نسيبك وهو أحرص الناس على حقوقك .. ونحن فى ظروف حرب عالمية ومفاجآت دولية خطيرة.. والحكم الآن فى أيدى أحزاب أقلية لا تمثل البلاد.. والوفد صاحب الاغلبية الحقيقية مقصى عن الحكم .. وتعيين رجل مستقل غير حزبى مثل حسين سرى فى رياسة الوزارة قد يخفف ولو قليلا من حدة خصومة الوفد للسراى .. ثم ان حسين سرى رجل مقبول عند الانجليز.

وسوف يسكتون على تعيينه كما سبق ان سكتوا على تعيين حسن صبرى ولا يلحون ولا يندرون بوجوب قيام وزارة وفدية .. يعنى اننا بتعيين حسين باشا سرى نتفادى الاصطدام الآن بالانجليز.. وحسين سرى كذلك هو الوحيد الذى سوف يرضى بتنفيذ سياستى ، بل ويرضى بمساعدتى فيها .. وسياستى هى التمهيد لعودة الوفد الىالحكم بعد أن يقدم الوفد لمولانا الترضية الكافية والضمانات الكافية على عدم تكرارما فعلوه فى سنة ١٩٣٧ ..

ولما انتهى حسنين من بيانه أو من دفاعه .. هز فاروق رأسه موافقا وقال :

ـ وهو كذلك .. فتشوا على حسين سرى ..

وكان الوقت بعد منتصف الليل ..

وراح الرسل والتليفونات تبحث عن حسين سرى.. ووقف عبد الوهاب طلعت باشا بباب السراى ينتظر وصول رئيس الوزارة الجديد .. فلما وصل استقبله بالاحضان وهناه .. فكان أول المهنئين ..

قال حسنين : « ويظهر أن عبد الوهاب باشا أراد أن يفهم حسين سرى انه هو صاحب الفكرة أو صاحب الفضل فى اختياره لرياسة الوزارة .. »

وأشهد ان حسنين ـ رحمه الله ـ كان مخلصا فى تنفيذ سياسة التمهيد لعودة الوفد الى الحكم .. وكان يصارح بها الساسة والزعماء الذين يطمئن اليهم ويثق فى سلامة تقديرهم وحكمهم ومنهم الدكتور محمدحسين هيكل رئيس حزب الاحرار الدستوريين ..

روى لى حسنين أن الدكتور هيكل زاره ذات يوم بعد قيام وزارة حسين سرى وقال له :

ـ قل لى بقى يا أبو الحسن .. وسيبك من شغل

المشيخه والدروشه بتاعتك .. ايه بالضبط سياستك دلوقت ؟..

فشرحت له سياستي وهي التمهيد لعودة الوفد الى الحكم لأنه صاحب الاغلبية الحقيقية .. هذا مع قيام حياة نيابية سليمة ووجود معارضة صالحة قوية تؤدى مهمتها على الوجه الصحيح .. هذا مع الحد من طغيان الاغلبية والعمل على وجود معارضة قوية ..

ووافقني الدكتور هيكل على سياستي هذه وتمنى لى التوفيق فى تنفيذها ..

***

قامت وزارة حسين سرى فى نوفمبر عام ١٩٤٠ ، وأقبل صيف ١٩٤١ ، وذهب مصطفى النحاس باشا ، ومكرم باشا الى مصيف رأس البر ليمضيا الصيف .. فى أمان من الغارات الجوية ..

وذات يوم هبط على رأس البر الاستاذ مصطفى امين الذى كان يومئذ رئيسا لتحرير مجلة « الاثنين » ..

وقال مصطفى أمين للأستاذ مكرم عُبيد انه جاء يحمل رسالة من رئيس الديوان أحمد حسنين باشا . وفحوى هذه الرسالة انه اذا التمس « رفعة » رئيس الوفد مصطفى النحاس باشا مقابلة «جلالة الملك» فان التماسه سوف يجاب فى الحال ..

وكان مصطفى النحاس لم يقابل الملك فاروق منذ أقيلت وزارته فى ديسمبر ١٩٣٧ وكان المعنى الواضح من هذه الرسالة أو هذه المقابلة المطلوبة ان السراى تخطو الخطوة الاولى فى سبيل التمهيد لعودة المياه الى مجاريها بين صاحب العرش ، وبين الوفد صاحب الاغلبية فى البلاد

ورحب الاستاذ مكرم عبيد بهذا الطلب .. وذهب لفوره وأبلغه للسيد مصطفى النحاس ..

ولكن النحاس باشــا تشكك فى صدق الرسالة وفى صدق الرسول مصطفى أمين وقال ما معناه : « ان هذا كله كلام فارغ وتخدير أعصـاب » ..

وكان رفعته ولاشك متأثرا بمناورة كفر عشما يوم زاره عبد الوهاب طلعت باشا ليستشيره باسم فاروق فى الموقف السياسى بعد تلغراف لورد هاليفاكس .. وكيف فوجىء بعدها بتأليف وزارة حسن صبرى باشا

تشكك اذن مصطفى النحاس باشا فى جدية رســالة الاستاذ مصطفى أمين ..

واخيرا قال الاستاذ مكرم عبيد : ان الدليل على جدية او عدم جدية الرسالة هو أن يطلب الاستاذ مصطفى امين بالتليفون حسنين باشا ويحدثه أمامنا فى الموضوع

ووافق مصطفى النحاس باشا وطلب مصطفى أمين قصر عابدين بالتليفون .. وقال : اعطونى حسنين باشا وأعطوه حسنين باشا ..

وقال مصطفى :

ـ مكرم باشا واقف جنبى وعاوز يسمع منك الكلام الذى طلبت منى ابلاغه لمصطفى النحاس باشا ..

وناول مصطفى أمين سماعة التليفون لمكرم باشا عبيد وقال حسنين لمكرم نفس الـكلام الذى كان نقله اليه مصطفى أمين . وأضـاف ان مقابلة النحاس للملك أمر مرغوب فيه وخطوة أولى لابد منها ..

وسأله الاستاذ مكرم عبيد :

ـ وهل أحضر أنا أيضا الى القاهرة مع مصطفى باشا ؟

وقال حسنين باشا :

ـ نعم .. يستحسن لو معاليك جضرت كمان ..

وهنا قال مكرم باشا :

ـ اذن وأنا ألتمس مقابلة جلالة الملك باسم مصطفى

النحاس وياسمى ..

واجاب حسنين باشا :

ــ والالتماس مقبول ..

وحدد حسنين موعدا للمقابلة « الملـكية الكريمة » .

***

وغادر النحاس باشا ومكرم باشا مصيف راس البر الى القاهرة ..

وفى القاهرة عرف مكرم باشا ان المقابلة مقصورة على النحاس باشا وحده ..

وغضب مكرم وتساءل عن معنى دعوته للحضور الى القاهرة وهل دعوه للحضور لكى يبلغوه ان الملك يريد أن يستقبل النحاس باشا وحده ؟..

***

وتمت المقابلة .. بين فاروق والنحاس ..

وتحدث فاروق عن الموقف وعما يلقاه من عنت الانجليز واضطهادهم له وسأل رئيس الوفد هل يقف الوفد الى جانبه اذا اصطدم يوما بالانجليز ؟..

وتحمس مصطفى النحاس وأعلن انه وجميع الوفديين يفتدون « الملك » بدمائهم ورقابهم ..

ومرر «رفعته» يده علي عنقه تأكيدا لمعنى الفـــداء ، ثم أخرج من جيبه مصحفا واقسم عليه انه ورجال الوفد مخلصون لفاروق وانهم .. وانهم .. الى آخره ..

وهكذا محت هذه المقابلة جميع الآثار السيئة التى كانت خلفتها اقالة وزارة النحاس باشا فى ديسمبر ١٩٣٧ .

وخرج النحاس باشا من مقابلة فاروق ، وهو يدعو له ولعرشه بالعز والتأييد ..

***

وعاد النحاس ومكرم الى مصيف راس البر ..

ولم يمض على عودتهما أيام معدودة حتى أقام بعض كبار الوفديين من المصيفين حفلة تكريم لمصطفى النحاس ــ ولعلها كانت حفلة موعزا باقامتها ــ وقام النحاس والقى خطبة شن فيها على الانجليز حملة شعواء . وأذكر انه قال بين ما قاله ان انجلترا تزعم انها تحارب من اجل الديمقراطية والحريات ، بينما هي تحارب الديمقراطية وتضطهد الحريات في مصر ..

ثم دعا رئيس الوفد لجلالة الملك المفدى .. فاروق ، وأعلن اخلاصه واخلاص الوفديين لصاحب العرش المجيد

***

وكان هذا ــ كما قلت ــ في أواخر صيف عام ١٩٤١ واهتزت مقاعد وزارة حسين سرى تحت أصحابها .. وحسب الناس ان أيام هذه الوزارة «الائتلافية» المؤلفة من أحزاب الاقليات .. حسبوا أن ايامها معدودة وان الوفد يوشك أن يعود الى الحكم ولكن ..

***

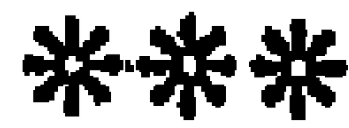
ولكنني أعود اليوم الى الحديث عن سياسة حسنين وهي التمهيد لعودة الوفد الى الحكم وكيف سار فيها وكيف عمل على تنفيذها .. وهل هو أخطأ في مماطلته وتسويفه ؟..

قال لي المرحوم حسنين باشا في حديث طويل في مساء يوم ٩ مارس عام ١٩٤٢ :

ــ لقد كان دائما من رأيي أن نظام الحكم القائم في مصر نظام غير طبيعي وغير مأمون ولا مرغوب فيه ، اذ ان الحكم كان في يد أحزاب الاقلية .. بينما تقوم الاغلبية بمهمة المعارضة .. وهذا وضع مقلوب ومن هنا بدأت أعمل لتصحيح الاوضاع واعادة الامور الى سيرها الطبيعي .. أي اغلبية تحكم واقلية تعارض ..

وذات يوم ـ وقد أحسست ان الجو المناسب مهيأ تماما قلت للملك : « أظن يامولانا ان وزارة حسين سرى تعبت خلاص »

فقال لى : « أيوه.. والورقة اللى فاضلة هى مصطفى النحاس » ..



وكنا فى اواخر صيف ١٩٤١ وكانت أحاديث الخلاف بين السعديين والدستوريين وبينهم وبين رئيس الوزارة حسين سرى على الالسنة فى الاندية والمجتمعات.. وكان حسين سرى يرسل من وقت لآخر لسانه بكلام مقذع شديد فى حق بعض أقطاب السعديين حتى انه تحدث مرة امام بعض الكبراء فقال عن قطب سعدى كبير انه يأوى اللصوص فى عزبته ويحميهم وان له دوسيها خاصا بين دوسيهات المشبوهين بوزارة الداخلية .. ومع ذلك ـ هكذا قال حسين سرى ـ ومع ذلك فان السعديين يطلبون منى تعيين « المشبوه المذكور » وزيرا ! ؟..

ومضى حسنين يقول : وكانت اخبــار هذا الخلاف تصل الى الملك أولا بأول . ومن هنا وافقنى على رأيى عندما قلت له ان وزارة حسين سرى تعبت خلاص..

ثم قال حسنين :

ـ لكن الملك دخل على فى صباح اليوم التالى لحديثنا وقال انه يرحب بقيام وزارة على رأسها مصطفى النحاس بس بشرط أن تكون وزارة ائتلاف تمثل فيها جميع الاحزاب ..

ولابد أن يكون الملك قد أفضى برأيه هذا ـ أو بحديثنا كله ـ الى آخرين من رجال الحاشية لأن الخبر بلغ رئيس الوزارة حسين سرى باشا فقد زارنى فى مكتبى وقال لى بلهجة غضب وعتاب مر :

ـ طيب يا اخى ما تجيب أصحابك الوفديين فى الحكم وتخلص مرة واحدة بدل ما تمرمط فى كده ..

***

والآن نلخص الموقف فى أواخر صيف ١٩٤١ :

فاروق تصالح مع مصطفى النحاس ..

مصطفى النحاس يخطب ويمتدح « المليك المفدى فاروق » ويسب الانجليز أعداء البلاد ..

فاروق يفوض رئيس ديوانه حسنين فى اعادة الوفديين الى الحكم على شرط أن تكون الوزارة ائتلافية تمثل فيها الاحزاب تحت رئاسة مصطفى النحاس ..

وبدأ حسنين فى تنفيذ الخطوات الاخيرة وهى اقناع الوفد والاحزاب الاخرى بالاتفاق على هدنة وقبول الاشتراك فى الحكم ..

وقيل يومئذ ان الاستاذ مكرم عبيد تعهد باقناع النحاس باشا بقبول رئاسة الوزارة الائتلافية ..

واقتنع النحاس باشا فى وقت ما وأعلن فى حديث له انه يمد يده الي الجميع من اجل العمل فى هذه الظروف الخطيرة لمصلحة البلاد العليا ..

ولما لم تجب الاحزاب على هذه الدعوة عاد «رفعته» وأعلن انه «قبض يده المدودة» وان الحكم للأمة وللناخبين اى انه رفض الائتلاف وتوزيع كراسى الوزارة .. وعاد الى طلبه القديم وهو الاحتكام للشعب فى انتخابات تجرى والحكم يكون لمن يفوز ..

***

ومر عام ١٩٤١ ..

واقبل عام ١٩٤٢ ، وقد بدأ ثعلب الصحراء المراوغ ماريشال روميل كما وصفه يومئذ ونستون تشرشل.. بدأ يتحرك من مكمنه ..

وكان الانجليز قد سمعوا طبعا وعرفوا بمساعي حسنين لاعادة الوفديين الى الحكم .. وسمعوا طبعا وعرفوا بمقابلة فاروق لمصطفى النحاس.. وسمعوا طبعا بخطبة النحاس باشا فى رأس البر وكيف انه حمل عليهم واسماهم أعداء الديمقراطية وجلادى الحريات .. وان رفعته القى هذه الخطبة بعد مقابلته لفاروق ..

اذن .. فان فاروق ضدهم ، والوفد ورئيســه ضدهم ، والرأى العام فى مصر ضدهم ..

***

وأحس حسنين أنه فى سباق مع الزمن فذهب الى فاروق يقول ان السعديين والدســتوريين قد ركبهم الغرور أو لعلهم قد استمذبوا الحكم بعد بقائهم فيه أربع سنوات ، ومن هنا لايريدون أن يخطوا من جانبهم خطوة الى الوفديين ، بل ذهبوا يتدللون ويشترطون قبل قبولهم الائتلاف أن ينزل لهم الوفد عن كذا وكذا من الدوائر ، وأن يكون لهم فى الوزارة كذا وكذا من المقاعد .. وأن النحاس باشا يرفض وقد عدل عن رأيه وعاد واسترد يده الممدودة .. فماذا نعمل ؟..

وقال فاروق .. « وهذا كلام حسنين باشا » :

ـ اذن هات النحاس باشا على شروطه ..

أى أن فاروق رضي بعودة النحاس باشا والوفد الى الحكم بلا قيد ولا شرط ..

ولكن حسنين لم يصدع بأمر فاروق.. ولم يبادر الى الاجهاز على وزارة حسين سرى المتعبة.. والعمل على عودة النحاس الى رياسة الحكم بدون قيد أوشرط بل استأنف مساعيه عند الوفد وعند الاحزاب من أجل الاتفاق والائتلاف ..

وكأنما عز عليه أن يسلم بفشــله فى تأليف الوزارة

القومية .. ومن هنا عاود الكرة ..

وقد يتساءل قارىء : ولماذا اذن كان قد ذهب الى فاروق وأبلغه ان النحاس قد استرد يده الممدودة وانه يرفض الائتلاف؟ وبالغ فى وصف الصعوبات التى يلقاها ؟

والرد : لكى يحمل فاروق على اعطائه تفويضا مطلقا بالعمل .. أو بعبارة أخرى لكى يحصل على تفويض على بياض ..

اذا نجحت مساعيه وأفلح فى حمل الوفد والاحزاب على الاتفاق فيما بينهم وتأليف وزارة قومية عاد الى فاروق ــ وقد تضاعف فوزه وقدره ــ وقال : « لقد حققت لمولانا رغبته ومع ان مولانا قد فوضنى فى عودة النحاس الى الحكم على شروطه فاننى قد نجحت فى عودة النحاس الى الحكم على شروط مولانا .. »

واذا لم تنجح مساعيه وأصرت الاحزاب على موقفها ومساوماتها .. وأصر النحاس باشا على استرداد يده التى كان مدها الى الاحزاب .. عاد حسنين الى فاروق وقال : « لقد صدعت بأمر مولانا واعدت النحاس باشا الى الحكم بدون قيد أو شرط »

فى الحالة الاولى : يكسب حسنين كثيرا لأنه جاء فاروق بكسب يفوق ماكان يطلبه. وفى الحالة الاخرى ، لايخسر حسنين شيئا لأنه لم يفعل شيئا سوى تنفيذ أوامر « مولانا » فاروق ..

تلك أخلاق حسنين .. أو تلك كانت سياسته ..

حـــادث ٤ فبـــرايـــر

وهكذا .. مضت الايام ، وحسنين يسعى ويفاوض ويساوم رجال الاحزاب ، لأنه كان حريصا على الفوز وعدم الهزيمة ..

ولكن خوفه من هذه الهزيمة كان سببا فى اصابته بأكبر هزيمة حلت به فى حياته السياسية ، واعنى حادث ٤ فبراير ..

ذلك انه اغفل الحقيقة التى كان أدركها منذ اسابيع او منذ شهور قليلة ، وهى انه فى سباق مع الزمن .. او لعله لم يقدر سرعة هذا الزمن ..

أو لعل انتصاره على مايلز لامبسون يوم فاجأه بالامر الواقع وتعيين حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة ، ويوم فاجأه مرة ثانية بوزارة حسين سرى .. لعل انتصاره فى هذين الحادثين ملأه ثقة بنفسه ، ومن ثم اراد أن يفاجىء الانجليز بقيام الوزارة الوفدية التى طالما الحوا فيها وتمنوا قيامها .. ولكنها وزارة وفدية تأتى الى الحكم بارادة فاروق ..

وبفضل من فاروق لا بارادة الانجليز أو بمشورتهم أو بفضل منهم ..!

ويا له من انتصار لأحمد محمد حسنين !.. هاكم وزارة الوفد برياسة مصطفى النحاس ..

هاكم الوزارة التى تطلبونها وتقدمون لنا الانذارات بسببها .. ولكنها وزارة تلى الحكم وهى تلعنكم وتلعن

سياستكم وتتهم حكومتكم بأنها تحارب الديمقراطيــة والحريات ..

نعم يا له من انتصار لأحمد حسنين .. أو هكذا قدر أحمد حسنين ..

ولكن رئيس الديوان المناور الداهية اخطأ هذه المرة فى الحساب ، وفى تقدير مدى خبث السياسة البريطانية أو المدى الذى يمكن أن تذهب اليه اذا تحرجت الإمور واحست ان مصالح بريطانيا فى خطر ..

اخطأ فى الحساب والتقدير وترك الانجليز يسبقونه.

***

قلت ان ثعلب الصحراء ماريشال روميل تحرك من مكمنه ..

وفى شهر يناير سنة ١٩٤٢ بدأ روميل هجوما عنيفا على الجيش البريطانى فى الصحراء ، وأوفدت لندن وزير الدولة مستر ليتلتون الى القاهرة لـكى يساعد وجوده فى منطقة الخطر على اتخاذ قرارات سريعة من غير حاجة الى استشارة لندن فى كل كبيرة وصغيرة ..

وطلب مايلزلامبسون من السراى تحديد موعد يتشرف فيه وزير الدولة البريطانى مستر ليتلتون بمقابلة «جلالة الملك » ..

ولكن السراى أبقت وزير الدولة والسفير ثلاثة أيام فى انتظار الرد ..

وكانت اهانة أغضبت الوزير والسفير .. أو هكذا قال لى حسنين رحمه الله وهو يشرح لى أسباب حادث ٤ فبراير ..

روميل يشن هجوما عنيفا فى الصحراء الغربية وهزائم الجيش البريطانى تتوالى .. ومواقعه الحصينة تسقط تباعا فى أيدى جيش روميل ..

النحاس باشا يخطب ضد الانجليز.. وزارة حسين سري استقالت بسبب الازمة التي كان بطلها الاستاذ صليب سامى وزير الخارجية يومئذ وهى الازمة التى عرفت باسم ازمة وزير فيشى المفوض .. الرأى العام فى مصر هائج ضد الانجليز.. يصفق ويهتف لكل انتصار يحرزه روميل وكل هزيمة تقع بالانجليز.. والمظاهرات تطوف بشوارع القاهرة تهتف بسقوط انجلترا وحياة روميل ..

وكان انقلاب بطله رشيد عالى الكيلانى وقع منذ شهور فى العراق .. واضطر الوصى على العرش يومئذ الامير عبد الاله أن يغادر بغداد ويلجأ الى البصرة .. والسيد نورى السعيد أن يسافر من بغداد ويلجأ الى القاهرة .. لأن الانقلاب كان ضد الانجليز وضد أعوانهم فى العراق ..

وخشى الانجليز أن تمتد هذه النار او هذه المظاهرات من القاهرة الى الارياف .. وأن يحدث فى مصر ماحدث فى العراق.. فتكون الضربة قاضية على خطوط مواصلاتهم الخلفية بينما هم يحاربون روميل .. ومن هنا قرروا أن يعملوا .. وبسرعة ..

والمصرى الوحيد الذى كان على علم سابق بما ينوى الانجليز عمله هو المرحوم أمين عثمان .. بل لعلهم استشاروه أو لعله هو الذى أشار عليهم بما يفعلونه..

أريد أن أقول ان مصطفى النحاس ومكرم عبيد كانا بريئين تماما من جريمة تدبير حادث ٤ فبراير ..

ولكننى لا أستطيع أن أنفى عن مصطفى النحاس انه استفاد من الحادث المذكور ..

***

وعقد كبار الانجليز فى مصر مجلسا برئاسة مستر

ليتلتون وحضور السفيرمايلزلامبسون وكبارقواد الجيش البريطانى .. وفى الجلسة المذكورة تقرر تقديم الانذار البريطانى المعروف الى فاروق بوجوب تكليف مصطفى النحاس بتشكيل الوزارة .. والا ..

وحاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين ..

وقبل النحاس باشا رياسة الوزآرة رغم الحاح الزعماء عليه بعدم القبول فى هذه الظروف أو على الاقل بتأليف وزارة قومية انقاذاً للمظاهر لوجه مصر وحتى لا يقال اننا خضعنا .. للانذار البريطانى ونفذناه بحروفه ..

***

واليكم التفاصيل :

قلت فى الفصول السابقة ان السفير البريطانى كان طلب من رئيس الديوان أحمد محمد حسنين قيام وزارة وفدية أو على الاقل وزارة يؤيدها الوفد.. وان حسنين ناور وداور وفاجأ مايلزلامبسون بوزارة على رأسها حسن صبرى باشا .. ومرة أخرى بوزارة حسين سرى باشا وسكت السفير البريطانى ، ولكن على مضض .. وقد اضمر فى نفسه شيئاً ..

وفى نفس الوقت كانت الهزائم تتوالى على الجيش البريطانى فى الصحراء الغربية.. وكانت المظاهرات تطوف بشوارع القاهرة تهتف بحياة المانيا وسقوط بريطانيا.. وسقوط جورج السادس ..

واحس الانجليز ان الشعب ـ شعب مصر ـ ضدهم وفاروق ضدهم .. وصديقهم مصطفى النحاس قد مل الانتظار .. فانقلب هو بدوره ضدهم ..

ومن هنا قرروا ـ وبنصيحة أمين عثمان غفر الله له ـ قرروا أن يضربوا ضربتهم ..

وفى نفس الوقت ـ ومرة أخرى ! ـ كان احمد محمد حسنين يسعى لتأليف وزارة قومية .. هذا وبالرغم من ان مصطفى النحاس كان أعلن مرة ومرارا انه يرفض أن يضع يده فى يد خصومه السياسيين.. ويرفض الاشتراك فى وزارة قومية.. وانه لا يرأس الا وزارة وفدية خالصة

وكذلك بالرغم من ان فاروق كان قد رضي بقيام وزارة وفدية وقال لحسنين : «فليكن.. وهات النحاس باشا على شروطه» ..

رغم هذا كله لم يشأ احمد محمد حسنين أن يسلم بالهزيمة أمام مصطفى النحاس أو مايلز لامبسون ، فقد كان من خلقه عدم اليأس وعدم التسليم بالهزيمة.. وما دام فاروق كان يفضل قيام وزارة قومية أو وزارة ائتلافية فليحاول حسنين المستحيل من اجل تحقيق رغبة مولاه !..

وبينما حسنين باشا لا يزال فى محاولاته ومداولاته ومفاوضاته مع زعماء الاحزاب .. وبعض كبار الوفديين ـ وكأنما نسى انه فى سباق مع الزمن ـ بينما هو كذلك ضرب الانجليز ضربتهم ..

وفى يوم الاثنين٢ فبراير١٩٤٢ استقالت وزارة حسين سرى باشا ، وأرسل مايلز لامبسون الى فاروق يطلب منه أن يكلف مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة.. أو يقبل اسناد رياسة الوزارة الى من يختاره مصطفى النحاس ويعد بتأييده ..

وأرسل فاروق واستدعى لمقابلته رؤساء الوزارات السابقين ، ورؤساء الاحزاب والرؤساء السابقين لمجلس الشيوخ ومجلس النواب .. الى آخره ..

وشاورهم فى الامر وطلب منهم أن يختاروا من بينهم وزارة قومية تواجه الاحداث الخطيرة التى تمر بالبلاد.

وقبلوا جميعهم أن يشتركوا فى وزارة يرأسها مصطفى النحاس ..

ولكن مصطفى النحاس اصر على موقفه أو على رفضه

وفى اليوم التالى ـ الثلاثاء ٣ فبراير ـ ذهب مايلز لامبسون الى قصر عابدين وقابل رئيس الديوان احمد محمد حسنين وقال له انه علم ان مصطفى النحاس باشا يرفض الاشتراك فى وزارة قومية ولهذا فانه ـ السفير البريطاني ـ يطلب من حسنين باشا أن يقدم هذه النصيحة للملك فاروق وهى أن يعهد الى النحاس باشا بتأليف وزارة وفدية ..

ومرة أخرى عز على حسنين باشا أن يسلم بالهزيمة ! ومن ثم فقد قال للسفير البريطانى ان المشاورات لاتزال جارية مع رؤساء الاحزاب لتأليف وزارة قومية وانه واثق من ان وطنية الزعماء سوف تتغلب على كل شيء .

وانصرف مايلز لامبسون ..

انصرف لكى يعود منذ ظهر اليوم التالى ـ الاربعاء ـ ويسلم حسنين باشا هذا الانذار ..

وهذا نص الانذار :

اذا لم أعلم قبل السادسة مساء ان النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة فان الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعات ما يحدث ..

***

ومرة أخرى لم ييأس احمد محمد حسنين .. ولم يشأ أن يسلم بالهزيمة ـ بل لم يتردد فى مواجهة الموقف الخطير ..

واستدعى الزعماء للاجتماع بقصر عابدين ..

وطال اجتماعهم .. وطالت مناقشاتهم ..

ودخل عليهم حسنين باشا مرة ومرتين لكى يذكرهم

ان عليه أن يرد على الانذار البريطانى وأن يرسل جواب الملك فاروق قبل السادسة مساء ..

ولكن اجتماع الزعماء لم ينته الى النتيجة المرجوة بسبب اصرار النحاس باشا على موقفه ..

والوحيد بين رؤساء الوزارات السابقين الذى انضم فى الرأى الى مصطفى النحاس كان احمد زيور باشا صاحب العبارة المشهورة : « انقاذ ما يمكن انقاذه » ..

وغادر الزعماء والرؤساء السابقون قصر عابدين على أن يستأنفوا الاجتماع مرة أخرى .. ولكن ..

حوالى الساعة التاسعة مساء امتلأ ميدان عابدين « ميدان الجمهورية الآن » بآلاف الجنود البريطانيين ، وهم بملابس الميدان .. وبعشرات الدبابات ..

وطوقت الدبابات البريطانية قصر عابدين من جميع الجهات .. وصوبت اليه مدافعها .. وتقدمت احداها وحطمت الباب الرئيسى ــ أو كما كان يسمى « الباب الملكى » ــ ودخلت منه الى حرم القصر ..

ودخلت وراءها سيارة تحمل السفير البريطانى ومعه جنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر ..

ووقفت السيارة أمام باب القصر الداخلى ونزل منها مايلز لامبسون والقائد البريطانى ..

ودخلا القصر ، بينما كان يسير أمامهما ثمانية ضباط بريطانيين ومسدساتهم فى أيديهم ..

وتقدم كبير الامناء بالنيابة يومئذ اسماعيل تيمور باشا يسألهم ماذا يريدون .. ولكن مايلز لامبسون نحاه بيده من طريقه وهو يقول :

ــ أنا أعرف طريقى ! ..

وكان الجنود البريطانيون قد هاجموا حراس القصر وجردوهم من السلاح ، وحاصروا ثكنات الحرس ..

وقاوم بعض افراد الحرس ، ولكن البريطانيين تكاثروا وتغلبوا عليهم وأصيب بعض جنود الحرس بكسور فى العظام وبجروح مختلفة ..

وصدر أمر من القصر الى رجال الحرس بعدم المقاومة حتى لا تحدث مذبحة أمام قصر عابدين !..

وفى نفس الوقت كانت الطائرات البريطانية واقفة على قدم الاستعداد للتحليق فوق ثكنات الجيش المصرى ومعسكراته وقذفها بالقنابل وتدميرها اذا بدرت من الجيش أية مقاومة ..

وحاصر الجنود الانجليز كذلك أقسام البوليس فى القاهرة وقطعوا جميع الاسلاك التليفونية بين قصر عابدين والخارج ..

كما حاصروا محطة الاذاعة المصرية لكى يمنعوا وصول الخبر الى الشعب ..

***

ودخل سير مايلز لامبسون « الذى كوفىء فيما بعد على عدوانه الشنيع بلقب لورد كليرن » .. دخل على فاروق وكان واقفا فى غرفة مكتبه والى جانبه رئيس ديوانه أحمد محمد حسنين ..

وكان يقف وراء السفير البريطانى جنرال ستون . بينما وقف خارج الغرفة الضباط الانجليز يحرسون الباب وفى أيديهم المسدسات ..

وقال السفير البريطانى لفاروق ما خلاصته انه يخيره بين التنازل عن العرش .. أو تكليف مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة ..

وقبل فاروق أن يعهد الى رئيس الوفد بتشكيل الوزارة ..

وقال مايلز لامبسون :

ـ الآن .. هذا المساء

ووعده فاروق بذلك !

وانصرف مايلز لامبسون ومن معه ..

ولكن الدبابات البريطانية ظلت تحاصر القصر وثكنات الحرس ..

***

ومرة اخرى ـ وفى نفس المساء ـ ارسل حسنين باشا واستدعى الزعماء والرؤساء السابقين .. الى آخره

وتوافدوا على قصر عابدين ورأوا الدبابات البريطانية تحاصر القصر ..

وقال لهم فاروق انه قد قبل الانذار البريطانى وانه يعهد الى مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة ..

وهنا قال الدكتور أحمد ماهر :

ـ اسمع يامصطفى باشا .. اننى اقول لك أمام جلالة الملك وزعماء مصر انك تتولى الحكم مسنودا بالدبابات والحراب البريطانية ..

وقال اسماعيل صدقى باشا :

ـ نعم .. مسنودا بالحراب البريطانية حقيقة لامجازا وقد رأيناها بأعيننا فى الميدان ..

وهنا قال مصطفى النحاس باشا انه لم ير شيئا من هذا .. لأن الدنيا كانت ضلمة !

ثم قال فاروق :

ـ ولى عندك رجاء يامصطفى باشا .. وهو أن تذهب الآن الى السفير البريطانى وتبلغه اننى قد عهدت اليك بتأليف الوزارة ..

قال مصطفى النحاس :

ـ ولكن الوقت متأخر يامولاى ..

ولكن فاروق ألح .. وقال :

ـ سوف تجد سير مايلز فى انتظارك !

***

ومنعت الرقابة نشر أى خبر عن هذا العدوان فى مصر كما انها منعت ارسال أية برقية فى هذا الموضوع الى خارج مصر ..

وفى صباح اليوم التالى ـ ٥ فبراير ١٩٤٢ ـ توجه مصطفى النحاس الى مكتبه برياسة مجلس الوزراء ..

وكانت اللجان الوفدية قد استدعيت من مختلف جهات القطر لتهنئة « الرئيس الجليل » ..

وكان الشعب يجهل تماما ما حدث فى مساء ٤ فبراير وانطلقت المظاهرات .. وسارت الى دار الرياسة تهتف بحياة النحاس باشا ..

وأقبل السفير البريطانى ليهنىء النحاس باشا ..

ثم خرج الاثنان معا الى الشرفة .. مصطفى النحاس ومايلز لامبسون وأيديهما متشابكة ..

وهنا خرج أحد أذناب الوفد يصيح بجموع المحتشدين أن تهتف بحياة السفير البريطانى الصديق ! ! !

وهتفت الجماهير .. ولما غادر مايلز لامبسون دار رياسة مجلس الوزراء حمله بعض شباب الوفد على الاعناق

وأسرعت محطة اذاعة لندن وأذاعت هذا الخبر وقالت ان الشعب المصرى قد حمل سفير بريطانيا على الاعناق!

***

وفى يوم ٧ فبراير ـ أى بعد الحادث بثلاثة أيام ـ تناولت الغداء مع حسنين باشا فى داره ، وقص على كثيرا من التفاصيل التى أوردتها هنا .. ومن بينها ان فاروق ـ عندما رأى اصرار مصطفى النحاس على الانفراد بالحكم ورفض كل اقتراح خاص بقيام وزارة قومية أو ائتلافيـــة أو محايدة تجرى انتخابات جديدة ـ قال

لحسنين باللغة الانجليزية :

ــ يظهر ان النحاس باشا واثق من الارض التى يقف عليها ..

أى واثق من تأييد الانجليز له !..

وقال : ان فاروق قال لرجال حاشيته عقب الحادث :

ــ يظهر ان الانجليز وقد خسروا معركة بنى غازى أرادوا أن يكسبوا معركة عابدين !..

وكان الجيش البريطانى قد اخلى مدينة بنى غازى وتراجع امام جيش روميل ..

واقف قليلا عند حادث ٤ فبراير ..

على كثرة ما كتب ونشر عن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، فانه لا تزال هناك تفاصيل واسرار لم تنشر بعد . كما ان احداً من الذين كتبوا عن الحادث المذكور لم يحاول أن يجلو هذه النقطة وهى :

هل كان اعتداء الانجليز على السيادة المصرية وعرش مصر فى حادث ٤ فبراير نتيجة قرار اتخذ فجأة عندما توالت انتصارات قوات المحور بقيادة الماريشال روميل فى الصحراء الغربية واشتد خطر غزو المحور ؟..

أم كان هذا الاعتداء ــ حادث ٤ فبراير ــ نتيجة سياسية تقررت ورسمت قبل ذلك بوقت طويل ؟.. بعامين أو بعام واحد على الاقل ؟..

ثم من هم الذين رسموا أو قرروا هذه السياسة أو هذا الاعتداء على سيادة مصر وعرشها ؟..

هل هم الساسة.. تشرشل وايدن فى لندن.. ووزير الدولة مستر ليتلتون وسفير بريطانيا سيرمايلزلامبسون فى القاهرة ؟.. أو رجال الجيش البريطانى فى مصر والشرق الاوسط .. جنرال ويلسون وزملاؤه ..؟

ثم ما هو السبب أو الاسباب التى حاولت السياسة

البريطانية ان تبرر بها هذا الاعتداء الشنيع على سيادة وعرش بلد مستقل ؟

هذه النقطة أو النقط لا تزال ملفوفة فى غموض كثير.

***

ذات يوم فى أوائل شهر يونية عام ١٩٤٠ تقابلت صدفة فى محل « جروبى » مع مستر جرافتى سميث السكرتير الشرقى وقتئذ بالسفارة البريطانية ..

وجلسنا نتحدث عن معركة فرنسا وانهيار مقاومة الجيش الفرنسى وعن دخول ايطاليا الحرب . وشكا جرافتى سميث مما تلقاه السلطات البريطانية من معاكسات السلطات المصرية وكيف ان الحكومة المصرية قد انقلبت فى الايام الاخيرة من حكومة صديقة تنفذ المعاهدة ـ معاهدة ١٩٣٦ ـ باخلاص وتعاون .. الامر الذى شكرها عليه الجنرال ويلسون فى نحو ثلاثين خطابا ارسلها الى رئيس الحكومة « صاحب المقام الرفيع » على ماهر باشا .. انقلبت من هذا الى حكومة تضع العقبات والعراقيل ولا تبالى فى طريق السلطات البريطانية . ومن ذلك انها رفضت اعتقال عدد كبير من وكلاء المحور ممن كانوا يشغلون مناصب مدنية أو يقومون فى الظاهر بأعمال تجارية بريئة بينما هم فى الحقيقة يؤلفون شعبة تابعة لأقلام مخابرات العدو السرية .. أى الجاسوسية ..

ثم قال مستر جرافتى سميث : ان سنيور دودونى مدير وكالة الانباء الايطالية هو فى الحقيقة رئيس الجاسوسية الايطالية فى مصر ، ولقد طلبت السلطات البريطانية اعتقاله وعدم تمكينه من مغادرة مصر والعودة الى ايطاليا لأن المعلومات التى جمعها اثناء اقامته فى مصر تفيد ولا شك القيادة العليا للمحور فائدة كبيرة ..

ومضى جرافتى سميث فى حديثه يقول :

ـ ولقد قدر حسن فهمي رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية طلبنا هذا حق قدره وفهم الاسباب التى تبرره ولهذا فانه ماطل سنيور دودونى عندما تقدم بطلب تأشيرة الخروج من مصر وابقى طلبه تحت البحث والنظر ورفض فى نفس الوقت أن يعيد اليه جواز سفره . ولقد أراد حسن فهمي باشا من هذه المماطلة والتسويف أن يتيح للسلطات البريطانية الوقت الكافى لاقناع الحكومة المصرية بوجهة نظرها وهي وجوب اعتقال سنيور دودونى

ولكن رئيس الحكومة على ماهر باشا تكلم بنفسه مع ادارة الجوازات وألح فى استعجال اتمام اجراءات (الفيزا) أو لاذن بمغادرة الاراضى المصرية الى سنيور دودونى !

بل لم يكتف على ماهر باشا بهذا وذهب بنفسه الى ادارة الجوازات ولم يبرحها الا بعد أن تمت اجراءات (الفيزا) وغادر المكتب ومعه جواز سفر سنيور دودونى وقد سلمه اليه بيده . واستطاع السنيور أن يغادر مصر تحت أنفنا وبصرنا ونحن مكتوفو الأيدى لانستطيع شيئا

وكان الغيظ واضحا فى نبرات صوت السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية وهو يروى لى هذه القصة ثم يتساءل أين الاخلاص والتعاون اللذان كانت السلطات البريطانية تلقاهما من قبل من حكومة على ماهر؟ ! وهل هذه العقبات والعراقيل التى تضعها حكومة مصر أمام المجهود الحربى البريطانى مما يتفق مع المعاهدة المعقودة بين البلدين ؟..

وانصرف مستر جرافتى سميث وهو يقول لى ما معناه ان للصبر حدودا ، وان دوام هذه الحال من المحال

***

ولقد تلقت السلطات البريطانية فى مصر يومئذ تقارير فحواها ان الوزارة المصرية قد قلبت سياستها رأسا على عقب .. وان سياستها التى كانت تجرى ـ قبل انهيار

فرنسا ـ على أساس الاخلاص والتعاون مع انجلترا قد انقلبت واصبحت تقوم على أساس ان النصر لدولتى المحور المانيا وايطاليا .. وان الهزيمة لبريطانيا . وان بعض الوزراء المصريين قدصرحوا فى مجالسهم وفىحضور وبموافقة «رفعة» رئيسهم بما يفهم منه هذا ، بل لقد ذهب أحدهم وهو صالح حرب باشا الى حد القول بأن أيام بريطانيا معدودة وأن مقاومتها لالمانيا لن تزيد على شهرين اثنين ..

وكان أن خطت انجلترا خطوتها الاولى فى الاعتداء على سيادة مصر واستقلالها وارسلت انذارها الاول مصحوبا بالبرقية المشهورة التى ارسلها لورد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية الى سفير بريطانيا فى مصر سير مايلز لامبسون وفيها يقول :

وترجمتها حرفيا : « على ماهر يجب أن يذهب » .. أى يترك الحكم !..

***

واستقالت وزارة علىماهر باشا.. وفوجىء الانجليز كما سبقأنقلت باختيارحسنصبرى باشا رئيسا للوزارة

***

وهكذا يمكن القول بأن الاعتداء على سيادة مصر وعرشها كان قد بدأ فعلا ـ وبصورة ما ـ فى صيف عام ١٩٤٠ ، ولم يكن هناك يومئذ خطر داهم على مصر لأن القائد البريطانى الجنرال ويفيل كان منتصرا فعلا على الجيش الايطالى فى الصحراء الغربية ..

والتفكير فى فرض وزارة مصرية معينة وزعيم مصرى معين يتولى الحكم كان قد بدأ فى صيف عام ١٩٤٠ .

ومن ثم يمكنالقول وعلىأساس من الاستنتاج المنطقى السليم ان حادث ٤ فبراير لم يكن نتيجة قرار أوسياسة

اتخذت فجاة وتحت ضغط خطر داهم.. وانماكان الفصل الاخير، أوالخاتمة لسياسة مرسومة كان قد بدأ تنفيذها

أو قل ان شئت ان حادث ٤ فبراير كان تحقيق او تنفيذ الفكرة او « المشورة » التى تقدم بها مايلز لامبسون فى يونيةعام ١٩٤٠! وهى أن تتولى الحكم وزارة يؤيدها الوفد

***

وفى منتصف شهر ابريل عام ١٩٤٥ — وكانت الحرب العالمية لاتزال دائرة — قمت برحلة الى تركيا مارا بلبنان

وتفضل صاحب الدولة السيد حسين العوينى — وقد قابلته فى بيروت — وأعطانى خطاب تقدمة وتوصية الى صديقه سعادة السيد فؤاد حمزة وزير المملكة السعودية العربية فى انقرة ..

وكان السيد فؤاد حمزة — رحمه الله — مستودع أسرار كبير ولا اعرف بين دبلوماسيى العرب وساستهم من يفوقه علما والماما بأسرار ما يجرى وراء الستار . ولعل مما ساعد على هذا المامه واتقانه لأكثر من لغة أجنبية واحدة ، وهو لبنانى الاصل، وكان مغرما بالاسفار

وكان أثناء الحرب العالمية الاخيرة وزيرا مفوضا لدولته لدى حكومة ماريشال بيتان فى فيشي وحكومة الاتحاد السويسرى فى برن .. ثم لدى حكومة تركيا فى انقرة .

ولقد تمكن فى هذه المناصب فى البلدان الثلاثة من الوقوف على أسرار كثيرة منها ما يتصل مباشرة بحادث ٤ فبراير .. وأنا هنا أنقل مباشرة عن مذكراتى :

حدثنى سعادة فؤاد حمزة بك الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية فقال انه لما كان فى زيوريخ (سويسرا) فى عام ١٩٤٢ — بعد وقوع حادث ٤ فبراير — قابله اللورد .... الذى كان يدير فى الخفاء قلم المخابرات البريطانية فى سويسرا وقال : ان الحكومة البريطانية قد هالها ما

يجرى ويقع فى مصر فقررت خلع الملك فاروق وان الصعوبة كانت فى اختيار الذى يخلفه على العرش.. ولقد فكرت الحكومة البريطانية فى أول الامر فى حفيد الخديو عباس حلمى ــ اى نجل الامير السابق محمد عبد المنعم وكان لايزال يومئذ فى سن الرضاعة ــ على أن يكون هناك وصى كما هو الحال فى العراق ، ثم انتهى الرأى الى مفاوضة الخديو عباس حلمى فاتصلوا به فى سويسرا وسافرسموه ــ رحمه الله ــ الى استانبول لكى يكون على مقربة من مجرى الحوادث !..

وفى استانبول قابله مستر مرتون وسلمه رسالة من الحكومة البريطانية ..

ومستر مرتون هذا عاش معظم سنى حياته فى مصر وكان يعرف البلاد ويعرف أعيانها وساستها حق المعرفة كما كان يجيد الحديث باللغة العربية .. وكان فى أول أمره موظفا بوزارة الزراعة المصرية ثم استقال وعمل مندوبا لجريدة المورننج بوست ثم مندوبا لجريدة الديلى تلغراف ..

وكان بحكم عمله الصحفى أثناء الحرب كثير التجول والتنقل بين ميادين الحرب فى الشرقين الادنى والاوسط وقد قتل فى حادث انقلاب سيارة فى الصحراء الغربية. وقتل معه فى نفس الحادث قائد انجليزى مشهور اسمه جون كامبل ..

***

قلت ان الخديو عباس حلمى غادر سويسرا الى استانبول حيث قابله مستر موروتون وتحدث معه وسلمه رسالة من حكومة لندن ..

واقام الخديو السابق ينتظر « الاشارة » أو الخطوة الثانية .. ولكن قلم المخابرات الالمانية أحس أن هناك

شيئا مريبا يجرى ..

وكذلك احس الخديو ان الالمان يشكون فيه .. وان عيونهم فى استانبول يرقبون حركاته.. ويشكون فى سبب قدومه الى استانبول واتصاله بأعدائهم الانجليز، فخشى الخطر على نفسه ، وأسرع بمغادرة استانبول عائدا الى مقره الامين فى سويسرا ..

وقلت لفؤاد حمزة بك :

ـ ولماذا لم يرشح الانجليز لعرش مصر «ولى العهد» الامير محمد على توفيق وهو صديقهم الحميم ..؟

قال : فى الواقع ان ترشيح البرنس محمدعلى للعرش لم يكن محل تفكير فى أى وقت لأن الانجليز كانوا يعرفون انه غير محبوب وليست له أقل شعبية فى مصر.. ولقد فكروا فى الخديو عباس حلمى لأنه كان محبوبا الى حد ما وكانت له شعبية.. ثم هو الرجل الذى كان الانجليز اغتصبوا منه العرش وأعطوه لحسين كامل ثم لأحمد فؤاد .. ومن هنا رأوا أن يعيدوه أو يعيدوا اليه عرشه ترضية لشعب مصر حتى لايثور أو يقوم باضطرابات عند خلع الملك فاروق المحبوب ؟ !..

***

قلت ان حسنين باشا أكد للسفير البريطانى مايلز لامبسون الذى لم يكن قد انعم عليه بعد بلقب لوردكلين انه قد روعى فى اختيار حسن صبرى باشا وجميع أعضاء وزارته انهم أصدقاء مخلصون لبريطانيا والا لما كان الاختيار قد وقع عليهم ..

وسكت مايلز لامبسون او اطمأن الى هذا التفسير . ولكن رئيس الحكومة الجديدة حسن صبرى باشا لم يطل به الامر حتى بدا يشكو لمن يلقاهم من كبارالانجليز

من انه لايستطيع القيام بكل ما يقتضيه تنفيذ المعاهدة بصدق وتعاون واخلاص لأن خصومه السياسيين اقوى منه واوسع نفوذا وان على رأس هؤلاء الخصوم علي ماهر

وطلب منه الانجليز اعتقال علي ماهر باشا ولكنه رفض ثم توفى حسن صبرى باشا فجأة بينما كان يلقى خطاب العرش فى حفلة افتتاح البرلمان فى نوفمبر عام ١٩٤٠

ومرة أخرى طلب فاروق من احمد حسنين البحث عن رئيس جديد للحكومة ..

ومرة اخرى فوجىء الانجليز بقيام وزارة ليست وفدية او يؤيدها الوفديون كما كانوا يطلبون ..!

***

ولكن حسين سرى ــ هو أيضا ــ لم يكد يسير فى الحكم أسابيع حتى ذهب يشكو لكل من يلقاه هنا وهناك من كثرة العراقيل التى توضع فى سبيله ومن مناورات ودسائس بعض الساسة المصريين بقصد اضعافه وشل يده

وكانت السلطات البريطانية فى ذلك الوقت كثيرة الشكوى من نشاط بعض الساسة والكبراء المصريين فى مصر.. وفى خارج مصر وهو نشاط وصفه الانجليز يومئذ بأنه نشاط «محورى» يعمل لمصلحة دول المحور.. أوعلى الاقل هو نشاط معاد للسياسة البريطانية ومعرقل لجهودها الحربية ضد أعدائها ..

وكان بين أسماء الكبراء الذين يقومون بهذا النشاط خارج مصر: «سعادة مراد سيد احمد باشا» ــ رحمه الله ــ الذى كان وزيرا مفوضا لمصر فى روما عند اعلان الحرب.. ولقد رفض يومئذ أن يعود الى مصر.. ومضى يتنقل بين ايطاليا وسويسرا والمانيا ! وتركه الالمان والايطاليون حرا بينما اعتقلوا مئات من الرعايا المصريين

هذا وقد لفت أنظار أقلام المخابرات البريطانية الى

نشاط مراد سيد أحمد باشا ..

وهنا تذكرت السلطات البريطانية ان مراد سيد احمد باشا صديق حميم لعلى ماهر باشا ، وان على ماهر باشا كان اختاره وزيرا فى وزارته ثم وزيرا مفوضا لمصر ..

وازداد الشك وسوء الظن فى على ماهر ..

وتساءلت السلطات البريطانية يومئذ لماذا لا تتخذ السلطات المصرية اجراء ما ضد سيد احمد باشا ولو بوصفه موظفا كبيرا فى المعاش ؟..

واذا كان كونت شيانو ـ وزير خارجية ايطاليا يومئذ وصهير موسولينى ـ قد كتب فى مذكراته التى نشرت بعد وفاته ونشرت ترجمتها زميلتنا الاهرام ، شيئا عن حديث دار ـ أثناء الحرب طبعا ـ بين مراد سيد احمد باشا وبين وزير ايطاليا المفوض لدى الفاتيكان وقد قال مراد سيد أحمد باشا فى هذا الحديث ان الملك فاروق يميل الى المحور ويكره البريطانيين « وقد اغفلت جريدة الاهرام يومئذ نشر ترجمة هذا القسم من المذكرات».. فان أقلام المخابرات البريطانية كان لديها أقوال أكثر خطورة منسوبة ان صدقا وان كذبا الى مراد سيد احمد باشا ..

ولقــد كان فى مقدور السلطات البريطانية أن تفهم وتقدر نشاط هؤلاء الكبراء المصريين .. لا على انه خيانة لقضية بريطانيا وحلفائها.. وانما على انه اخلاص لقضية مصر واستقلالها ، وان المصريين هؤلاء ذوى النشــاط «المحورى» لا يحبون المحور لسواد عينيه ولا يكرهون الانجليز لذاتهم .. ولكنهم كانوا يعملون لمصر ولتحقيق ما يعتقدون باخلاص انه فى مصلحة مصر . ولقد كانت الدول المحايدة أو معظمها على الاقل تؤمن يومئذ ايمانا راسخا بأن النصر للمحور، وان الهزيمة مكتوبة لبريطانيا

ولم يكن اذن هذا النفر من الساسة والكبراء المصريين هم وحدهم الذين يؤمنون بانتصار المانيا ومحورها.. فقد كان هناك اخوان لهم فى فلسطين والعراق وسوريا يرون نفس الرأى ..

بل وفى اسبانيا والبرتغال وسويسرا والسويد وأمريكا الجنوبية.. وفى الهند ، بل وفى فرنسا نفسها كان يوجد كثيرون ممن يؤمنون بأن النصر لدول المحور ..

وفى جميع هذه الدول كان يوجد ساسة يحبون بلادهم ، وكانوا يرون من بعد النظر وحسن الاحتياط أن يؤيدوا المحور ويعملوا معه لكي يضمنوا السلامة لبلادهم ويضمنوا معها استقلالها وتحقيق أمانيها المشروعة يوم يتم النصر للمحور ويعود السلام ..

لم تكن هناك اذن خيانة لقضية الديمقراطية ، وانتصار أو تعاون مع قضية النازية والفاشية وانما كان هناك اخلاص لقضية البلاد وحرص على تحقيق أمانيهـــا فى العزة والسيادة والاستقلال ..

والبريطانى الكبير الوحيد الذى فهم الموقف على حقيقته وقدر وجهة نظر هؤلاء الساسة المصريين.. كان الجنرال «الآن فيلد مارشال» هنرى ميتلاند ويلسون ومن هنا فقد نظر الى نشاطهم «المحورى» ـ كما وصفوه يومئذ ـ بشيء غير قليل من سعة الصدر وقال عن الصدام الذى وقع بين السياسة البريطانية وبين هذا النشاط المصرى المحورى انه نشاط بين ولاءين !..

بين ولاء الساسة المصريين لقضية بلادهم واستقلالهم وبين ولائهم لقضية الحلفاء والديمقراطية ..

ولكن زملاءه وأنداده من القادة البريطانيين سواء فى لندن أو فى القاهرة لم ينظروا الى الموقف بنفس العين. بل نظروا الى نشاط هذا النفر من الساسة والكبراء

المصريين على انه نشاط خطر بالغ الخطورة ..

واستدارت بريطانيا فى سياستها نحو مصر وكان هذا فى اوائـــل يونية عام ١٩٤٠ ، وأرسلت برقية وانذارا بوجوب تخلى السيد على ماهر عن رئاسة الوزارة .. واسناد الحكم الى وزارة وفدية برئاسة السيد مصطفى النحاس أو على الاقل وزارة يؤيدها الوفد ومصطفى النحاس ..

وكان منطق حجة بريطانيا فى هذا ان مصطفى النحاس هو المساهم الاول فى عقد معاهدة ١٩٣٦ ، وانه اذن المسئول الاول عن تنفيذها نصا وروحا بولاء ووفاء واخلاص

ولكن السلطات البريطانية فوجئت باختيار المرحوم حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة ..

ثم فوجئت مرة أخرى باختيار حسين سرى باشـــا خلفا له فى رئاسة الوزارة ..

ثم جاءت حكاية البوليس الخاص ووضعه تحت قيادة محمد طاهر « باشا » ..

وطاهر « باشا » كان من بين الذين طلبت السلطات البريطانية اعتقالهم بدعوى «نشاطهم المحورى» وكانت هذه السلطات تتلقى تقارير يومية عما يجرى فى نادى السيارات « الملكى » وعن الاحاديث المنسوبة الى بعض كبار أعضائه مثل النبيل «السابق» عباس حليم ومحمد طاهر « باشا » .. وكانت التقارير المذكورة تزعم ان الرجلين وغيرهما يفضون بأحاديث مملوءة بالعـــداء المر للانجليز وبالتأييد الصريح لدول المحور ...

فلما شكل البوليس الخاص وعلى رأسه طاهر «باشا» رفضت السلطات البريطانية أن تصدق ان مهمة هـــذا البوليس الخاص هى مساعدة البوليس المصرى أثنـــاء الغارات.. الى آخر ما قيل ونشر يومئذ عن الفرض

من تشكيله ..

رفض الانجليز أن يصدقوا هذا وزعموا ان هــذا البوليس الخاص انما أنشيء خصيصا لــكى يسهل على قوات المحور مهمتها يوم تدخل مصر .. ويمهد لهــا ويعاونها أثناء فترة الانتقال المضطربة وهى الفترة التى لابد منها أثناء انسحاب البريطانيين.. ودخول الالمان والايطاليين ..

وان هناك ــ كما جاءهم من استانبول ــ نظاما خاصا للاشارات والتعليمات متفقا عليه بين هذا البوليس الخاص وبين الالمان .. وكان الانجليز يعتقدون ــ فوق هذا وذاك ــ ان فى مصر محطات لاسلكية سرية للاستقبــال والارسال .. أى محطات تستطيع أن تلتقط الرســائل وترسل الرسائل من مصر بدون أن تمر الرسائل المذكورة بالرقابة العسكرية ..!

وان هذه المحطات اللاسلكية السرية كانت ترسل الى « وكلاء المحور وسلطاته الحربية » تفاصيل عن بعض ما يجرى فى مصر وما تحرص السلطات البريطانية كل الحرص على كتمانه كل الكتمان ، كما انها ــ أى هــذه المحطات السرية ــ كانت تتلقى من وكلاء المحور وسلطاته الحربية التعليمات عما يجب عمله ..

وبعبارة أخرى كانت السلطات البريطانية تعتقد أن هذه المحطات اللاسلكية السرية جزء من « النشاط المحورى » الذى يقوم به « طابور خامس » يتزعمه نفر من كبــار الساسة المصريين ..

وأثناء هذا وذاك ــ اى فى الفترة ما بين يونية ١٩٤٠، وأواخر عام ١٩٤١ ــ تلقت السلطات البريطانية تقارير من أقلام مخابراتها فى مصر وفى انقرة واستانبول ولبنان وقد جاء فيها :

١ ــ ان سمير ذو الفقار بك التشريفاتي السابق ــ واحد أصدقاء على ماهر باشا ــ قد سافر أكثر من مرة الى تركيا بحجة التجارة فى الجلود والتبغ وانه اجتمع بسفير المانيا فى انقرة فون بابن عدة مرات ، وانه قابل أيضا بعض وكلاء الالمان فى لبنان وانه لما عاد الى مصر اجتمع بفلان وفلان من الساسة وكبار رجال الدولة !

٢ ــ وان شوقى الهان وزير تركيا المفوض يومئذ فى مصر قد سافر أكثر من مرة الى تركيا بحجة الاجازة او مراجعة حكومته فى بعض الشئون ، بينما هو سافر فى الحقيقة موفدا من « سلطات مصرية عليا » للاتصال بالسلطات الالمانية فى تركيا وابلاغها كذا وكيت .. لكى تبلغها هى بدورها الى « السلطات العليا » فى برلين .

وكانت تركيا يومئذ اى فى عام ١٩٤١ على الحياد.. ولكنه كان حيادا مشوبا بالميل لألمانيا وتأييد المحور .. وكان فريق كبير من ساستها وقوادها العسكريين يؤمن بأن النصر للمحور ..

٣ ــ وان الآنســـة دولورس دى بدروزو الملحقة السياسية بمفوضية اسبانيا فى القاهرة كانت «واسطة» اتصال بين فريق الكبراء المصريين الموالين للمحور .. وبين سفارة المانيا فى مدريد ..

وكانت اسبانيا يومئذ على الحياد .. ولكنها كانت تؤيد المحور صراحة ..

٤ ــ وان مسيو بوتزى الوزير المفوض لحكومة فيشى الفرنسية فى القاهرة يقوم بنفس الدور ..

وحكومة فيشى كانت تتعاون مع الالمان ...

كانت السلطات البريطانية تتلقى هذه التقارير فى عام ١٩٤١ ، وكانت تؤمن بصحة ما فيها .. هذا بينما كانت الحرب تمر بمرحلة من أخطر مراحلها ، بالنسبة لانجلترا

وحلفائها فقد كانت بريطانيا تحارب فى الواقع وظهـرها الى الجدار وقد توالت عليها الهزائم .. ثم اذا باليابان تقوم بهجومها المفاجىء فى نهاية العام ـ عام ١٩٤١ ـ وتجتاح المعاقل البريطانية فى الشرق الاقصى ..

وتوالت انتصـارات اليابان فى البر والبحر ضـد البريطانيين وحلفائهم الامريكان. وسقطت جزر الباسفيك والملايو وجزر الهند الشرقية وبورما وسنغافورة .. ثم بدأ زحف اليابانيين صوب الهند ..

واضطرت بريطانيا أن تعيد توزيع قواتها المنهكة ..

كان هذا هو الموقف فى الشرق الاقصى ..

اما فى أوروبا فان الجيوش الالمانية كانت تحاصر موسكو ولينينجراد ·· وتعدو عدوا صوب آبار البترول فى القوقاز

وفى كلمة موجزة كان هتلر قد سحق أوروبا تحت حذائه العسكرى من النرويج الى اليونان ومن شاطىء الاطلنطى الى نهر الفولجا وجبال الاورال ..

وفى افريقيا وعلى حدود مصر الغربيـة كان الثعلب المراوغ الماريشال روميل ـ كما أسماه يومئذ تشرشل ـ كان لايتراجع مرة الا ليرتد بعدها ـ مثل وتر القوس ـ وهو أكثر شدة وقسوة وعنفا ليكيل للبريطانيين ضربات قاصمة !

وكانت انجلترا قد هرعت خلال العام ـ عام ١٩٤١ ـ الى التدخل فى العراق لتحبط الانقلاب الذى قام به السيد رشيد عالى الكيلانى الذى كان متهما بانه ضالع مع المحور ..

وتدخلت كذلك فى ايران ـ بالاتفاق مع حليفتها روسيا ـ وخلعت شاه ايران رضا بهلوى ونفته الى جزر سيشل

وفى كلمة موجزة كانت أعصاب الانجليز متوترة .. وصوابهم يكاد أن يطيش.. ما بين هزائم متوالية ..

وانقلابات فى بلدان صديقة موالية ..

وكانت السلطات البريطانيـــة فى مصر تخشى ان يقع هنا انقلاب كالذى وقع فى العراق ..

انقلاب يخرج به الامر نهائيا من أيدى الساسة المصريين «أصدقاء» بريطانيا الى أيدى الساسة المصريين خصومها الذين يعملون على احباط مجهودها الحربى فى مصر وفى الشرق الاوسط ويمهدون لانتصار المحور ..

وكانت تقارير أقلام المخابرات البريطانية كما سبق أن ذكرت تزعم ان ساسة وكبراء مصريين يترقبون الفرصة للقيام بانقلاب فى الوقت الذى يتفق عليه بينهم وبين وكلاء المحور وعيونه فى مصر.. وان الفرض من هذا الانقلاب هو احراج البريطانيين فى الوقت المناسب الذى يشن فيه روميل هجوما عنيفا على مصر فيضطر البريطانيون الى توزيع قواتهم بين مصر وميدان القتال فى الصحراء الغربية .. وتضطرب خطوط التموين وتقطع خطوط المواصلات مع جبهة القتال ...

كان الموقف اذن خطيرا بالغ الخطورة وكانت السياسة البريطانية قد فقدت اتزانها وطاش صوابها وكانت تتعثر وهى تتلمس أسباب النجاة .. وكان ساسة بريطانيا وقوادها ورجال سفارتها فى مصر يشعرون ان شعب مصر يكرههم وان عواطفه كلها مع المانيا وهتلر.. وكانت عيون السفارة ورجال أقلام المخابرات البريطانيون يقدمون تقارير فيها ان رواد المقاهى فى الاحياء الشعبية فى القاهرة واسكندرية ومدن القطر يجتمعون كل مساء حول أجهزة الراديو وينصتون للاذاعات العربية من محطات المحور، وخصوصا محطة برلين ..

وتناقلت الالسن يومئذ نكتة او عبارة مشهورة قالها المرحوم احمد زيور باشا عندما سئل عن رأيه فى الحالة.

فقد قال : « حالة ايه يا مونشير ! ٠٠ شعب مصر المانى ٠٠ وملك مصر طليانى ٠٠ والحكومة انجليزية »

اى أن عواطف الشعب مع الالمان ..

والملك السابق فاروق ضالع مع الايطاليين بحكم نشأة أبيه والصداقة الموروثة والحاشية الايطالية التى تحوطه بينما الحكومة تتعاون مع الانجليز !

كان الانجليز يدركون هـذا ويشعرون ان المصريين ضدهم .. والملك فاروق ضدهم ..

وان هناك « نشاطا محوريا » ـ كما وصفوه ـ يقوم به نفر من كبار المصريين فى مصر وفى خارج مصر.. وان هناك اتصالات سرية تجرى بين السلطات المصرية العليا ـ اى فاروق ورجاله ـ وبين السلطات العليا فى برلين.. وان بين الذين يقومون بهذه الوساطة ويسهلون هـذه الاتصالات وزير تركيا المفوض فى مصر شوقى الهان .. والآنسة بدروزو الملحقة بالمفوضية الاسبانية ، ومسيو بوتزى وزير حكومة فيشى المفوض فى مصر ..

وان هناك خطة مرسومة لاحداث انقلاب فى مصر عندما يشدد روميل هجومه على مصر ..

كانت هذه هى حال البريطانيين وكان هذا موقفهم.. والمعلومات التى تجمعت لديهم ..

ومن ثم كانوا يوجسون شرا ويخشون أن يقع فى مصر ما سبق أن وقع فى العراق وأن يفاجأوا فى ساعة الخطر ـ وهجوم روميل ـ بوقوع انقلاب فى مصر يتولى على أثره الحكم أحد الساسة الموالين للمحور ذوى «النشاط المحورى » الذى سبق أن أشرت اليه ..

وكان الانجليز يرون أن الحل الوحيد لعلاج الموقف هو أن يتولى الوفديون الحكم.. وهو ما سبق أن أشاروا به فى صيف عام ١٩٤٠ ثم عادوا وأشاروا به بعد وفاة

المرحوم حسن صبرى باشا .. ولكن مشورتهم لم يعمل بها فى المرتين ..

وكان الاعتقاد السائد فى لندن وفى الدوائر البريطانية فى القاهرة ان «رفعة» مصطفى النحاس باشا هو وحده الزعيم الشعبى القادر على «تحويل الدفة» دفة عواطف الشعب .. من الاتجاه الى المانيا الى الاتجاه الى بريطانيا وحلفائها !

ومرت شهور الصيف.. والخريف.. واقبل الشتاء وبدأ روميل يتحرك بجيوشه فى الصحراء الغربية صوب مصر ...

واستعرض الانجليز الموقف فاذا به :

الملك ضدهم ...

والشعب المصرى او الراى العام فى مصر ضدهم ..

وحزب الاغلبية الشعبية ـ اى الوفد ـ ضدهم بعد خطبة النحاس باشا المشهورة فى راس البر. وانه ـ اى الوفد ـ ينتظر من فاروق ـ ومن يوم لآخر ـ أن يعيده الى الحكم ..

وكان الانجليز ـ طبعا ـ يعرفون جميع الخطوات التى تمت من أجل عودة المياه الى مجاريها بين الملك فاروق وحزب الاغلبية الوفدية ..

ومن هنا قدرت السياسة البريطانية انه اذا تولى الوفد الحكم فسوف يتولاه وهو يشعر بأنه مدين بهذا « الفضل » لفاروق !..

فاروق الذى كان ممالئا او نصيرا لسياسة المحور.. وان الوفد والحالة هذه سوف يسيرعلى نفس السياسة أى سياسة العداء لبريطانيا وممالأة أعدائها دول المحور!

واسرع الانجليز وانتهزوا فرصة حوادث آخر يناير ١٩٤٢ ـ ازمة فيشى واستقالة وزارة حسين سرى باشا

ـ أسرعوا وضربوا ضربتهم التى فرقوا بها بين الملك ، والوفد .. وكسبوا فيها الوفد وأغلبيته الى جانبهم ..

وفى غداة حادث ٤ فبراير ، هتف الشعب ـ شعب الوفد ـ لسفير بريطانيا وهو فى طريقه الى رياسة مجلس الوزراء ..

وهتف وصفق له طويلا عندما أطل عليه السفير سير مايلزلامبسون والى جانبه رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا من شرفة رياسة مجلس الوزراء !

وأحس الوفديون يومئذ أنهم مدينون فعلا «بالفضل» فضل توليهم الحكم ـ بعد حرمانهم منه زهاء أربع سنوات ـ مدينون بهذا « الفضل » لبريطانيا وسفيرها سيرمايلز لامبسون .. لا لفاروق أو أحمد حسنين !

وكانت أكبر هزيمة منى بها حسنين فى حياته السياسية فقد ترك الانجليز يسبقونه وينتزعون منه النحاس والوفديين من بين يديه ..

وقال لى يوم قابلته بعد حادث ٤ فبراير بثلاثة أيام : « القلم » كان جامد يامحمد .. لسه بيرن على صدغى .. شغل ثمانية اشهر راح فاشوش ..

وكان يقصد مساعيه من أجل عودة الوفد الى الحكم .. ولكن لا بهذه الطريقة بل بالطريق الشرعى السليم .

وتنهد حسنين وقال :

ـ آه لو كنت قابلت ليتلتون قبلها ولو بأربع وعشرين ساعة بس .. ما كنش حصل حاجة من دى ..

وحدثنى طويلا عن تفصيلات الحادث والانذارات التى سبقته وعن اجتماعات الزعماء فى قصرعابدين ثم محاصرة الدبابات البريطانية للقصر وحضور السفيرمايلزلامبسون .. الخ ..

ولقد خرجت يومئذ من هذا الحديث بهذا الاثر وهو

ان حسنين كان لايزال حائرا لايعرف كيف وقعت هذه الضربة .. ولا من اين جاءت ؟ هل من السفير ، أو من مستر ليتلتون وزير الدولة ؟ وهل النحاس باشا برىء كما يقول من تبعة هذا الحادث ومن الاشتراك فى تدبيره ؟ واذا كان هو بريئا ، فهل مكرم ، وأمين عثمان بريئان كذلك؟ أم تراهما اتفقا مع الانجليز من وراء ظهرمصطفى النحاس .. الى آخره ؟..

كان حسنين لايزال حائرا يوم قابلته عقب الحادث فى يوم ٧ فبراير.. ولكنه عاد بعد أيام وفى مقابلة اخرى وقال انه اقتنع بأن النحاس ومكرم بريئان وانه أفلح فى اقناع فاروق بذلك ..

ولكننى اتساءل اليوم – وفى ضوء تصرفات حسنين التالية مع مصطفى النحاس – أتساءل هل كان حسنين قد اقتنع حقا ببراءة النحاس أو انه قال لى هذا الكلام لكى انقله الى مصطفى النحاس فيطمئن الى حسنين ولا يأخذ منه حذره ؟

وأخرج من هذا السؤال أو هذا التساؤل بحقيقة قررها ويشهد كثيرون على صحتها وهى ان حسنين باشا – رحمه الله – اقسم بعد حادث ٤ فبراير على الانتقام من مايلز لامبسون ومن مصطفى النحاس ..

القسم على الانتقام من رئيس الوفد ينهض دليلا على ان حسنين لم يكن يؤمن ببراءة مصطفى النحاس ..

ولكننى أترك المنطق والاستنتاج وأروى حديثه أو احاديثه كما سمعتها منه ..

فى حديث له افضى به الى فى جلسة لنا بداره فى مساء ٢٧ مارس عام ١٩٤٢ ، قال : أن فاروق قال له عقب الحادث مباشرة : « حصل اللى حصل وعلى كل حال أنا أعطيت النحاس كلمة انى سوف أساعده .. وجم

الحكم خلاص ولازم أشتغل معاهم » ..

قال حسنين :

ـ وكان على بصفتى رئيسا للديوان أن أقيم سياستى على هذا الاساس.. وهو التعاون مع حكومة الوفد .. والتعاون مع السلطة التى جاءت بها الى الحكم .. أى الانجليز .. وأن أنسى عواطفي الشخصية ..

واشهد انه قال هذه العبارة بمرارة فلم تكن الهزيمة امرا سهلا على حسنين وأية هزيمة أكبر وأشنع من هزيمته السياسية فيحادث ٤ فبراير.. وهو الذى طالما باهى وفاخر بانتصاره على السفير لامبسون وكيفكسب منه الجولة يوم فاجأه بوزارة حسن صبرى باشا ..

ويوم كسب منه الجولة الثانية يوم واجهه بالامر الواقع ووزارة حسين سرى .. وها هو ذا السفير مايلز لامبسون يكسب الجولة الاخيرة الحاسمة ويفاجئه بالدبابات تحيط بالقصر .. وبوزارة الوفد بفرضها على فاروق فرضا والا ..؟

وزاد فى مرارة حسنين وفىحدة شعوره بالهزيمة علمه ان الشامتين فيه كثيرون .. وان الساخرين منه ومن سياسته قد أطلقوا فيه ألسنتهم فى كل ناد ومجلس .. وان خصومه فى داخل القصر وفى خارج القصر قد بدأوا يستخفون به ولايبالون أن يعلنوها صراحة انه ـ أى حسنين ـ لايصلح لمنصب رئيس الديوان.. وانأحدهم وهو على ماهر باشا ـ قد سأل بعض أصدقاء حسنين بلهجة اصطنع فيها الدهشة والعجب.كيف انحسنين باشا لم يستقل من منصبه حتى الآن ؟

ويستطيع القارىء أن يدرك من هذه التفصيلات ان حسنين باشا لم يكن شريكا فى جريمة تدبير حادث ٤ فبراير.. ولم يكن مطية للسفير أو غيره من الانجليز..

بل كان ضحية من ضحايا الحادث الشنيع المشئوم .. وان كل ما قيل عن تآمره مع الانجليز فى الحادث المذكور كان محض افتراء أذاعه عنه الحاقدون المفرضون ..

وأمشى الآن فى سرد الحوادث كما رواها لى أحمد حسنين .. ولقد اتفق معه على ترتيب الوقائع ولكنى أختلف معه قطعا فى الاسباب والنتائج ..

ومن ذلك ... قال لى ــ رحمه الله ــ :

ــ ورغبة منى فى تصفية الجو بين الملك والوزارة ، وتحسين العلاقات بينهما سعيت عند الملك حتى وافق على مقابلة مكرم وامين عثمان .. وذلك لكى تعرف البلد ان الملك لايكره مكرم أو أمين عثمان كما يذاع ويشاع.. ولاننا كنا جميعا نعرف أن مكرم باشا هو ذراع النحاس اليمنى ومستشاره فى الشئون الداخلية والمالية .. وان امين عثمان هو ذراعه اليسرى ومستشاره فى الشئون الخارجية ، فكان من المرغوب فيه والحالة هذه أن نوثق علاقتنا بهذين الذراعين أو بالرجلين المقربين الى رئيس الحكومة .. وهكذا طلبت من مكرم باشا أن «يلتمس» مقابلة جلالة الملك لسبب ما .. وسألنى مكرم « سبب زى ايه ؟ » وسكت مكرم قليلا ثم قال :

ــ وجدت السبب .. لقد أعددنا أوراق نقد جديدة واحب أن أعرض الرسم الجديد على جلالة الملك قبل البدء فى طبعها ..

قلت : عظيم .. والسبب وجيه ..

وتمت المقابلة فعلا .. وقد نجح مكرم باشا واستطاع أن يكسب عطف الملك وخصوصا بعد أن قال له : أنا أعرف يامولاى ان من السهل جدا مهاجمتى وتحميلى مسئولية كل ما يقع من الوفد.. وأنا والله شهيد برىء

وكذلك تمت مقابلة الملك بأمين عثمان .. ولكن المقابلة لم تنجح ..

الخلاف بين..
مصطفى النحاس ومكرم عبيد

اذن قان حسنين السياسي الداهية يزعم انه سعى لدى فاروق حتى أقنعه بالموافقة على مقابلة مكرم عبيد رغبة منه فى « تصفية الجو وتحسين العلاقات بين الوفد وفاروق » ..

هذا ما قاله أو ما زعمه حسنين غفر الله له ..

والحقيقة ان غرض حسنين كان أبعد ما يكون عن الصفاء والوئام والسلام ..

لقد كان غرض رئيس الديوان – فى تنفيذ أو تحقيق سياسة الانتقام من مصطفى النحاس – كان غرضه أن يوقع بين النحاس ومكرم وبين النحاس وأمين عثمان.. او بعبارة اخرى ان ينتزع من رئيس الوفد ذراعيه الاثنتين اللذين يستند اليهما فى ادارة شئون البلاد الداخلية والخارجية

ويا له من انتصار يمحو عار هزيمة ٤ فبراير يوم ينجح حسنين فى ضم مكرم وأمين عثمان الى جانب القصر .. ضد الوفد ومصطفى النحاس ..

أو على أقل القليل يوم يستطيع أن يستغل نفوذ مكرم عند النحاس فى تحقيق أغراض السراى والموافقة على طلباتها .. ويوم يستطيع أن يستغل حظوة أمين عثمان عند الانجليز فى اقناعهم بتعديل سياستهم الجافة أو موقفهم المتعنت المتشدد من القصر ..

كان هذا هو الفرض الحقيقى من هذه الخطوة التى خطاها حسنين وجمع فيها بين فاروق ومكرم .. وبينه وبين أمين عثمان ..

ولقد نجح فوق ما كان يأمل.. ويوم عرف مصطفى النحاس ان السراى قدحددت موعدا يتشرف فيه معالى وزيرالمالية مكرم عبيد باشا بمقابلة جلالة الملك فاروق.. قال النحاس باشا لجلسائه : « أنا عارف انهم عايزين يفرقوا بينى وبين مكرم » ..

ثم عاد وقالها لمكرم نفسه . قال : « يامكرم خد بالك .. عاوزين يفرقوا بيننا »

ومشت الحوادث سريعة تلهث ، خرج مكرم باشا من مقابلة فاروق مغتبطا مسرورا واتصل به زميل كان يعمل فى «الاهرام» وسأله عن المقابلة وما دار فيها واثرها فى نفس«معاليه».. وكان اتصاله بناء على ايحاء من حسنين باشا وكان مكرم كما قلت مغتبطا مسرورا ومن هنا أفاض فى وصف العطف السامى الكريم الذى لقيه الى آخره..

وقال مكرم باشا انه سيملى الجريدة تصريحا مكتوبا

وكان هذا هو الفصل الثانى فى المؤامرة أوالشباك التى نصبها احمد حسنين لمصطفى النحاس ومكرم عبيد ولم تكن العادة قد جرت بأن يخرج الوزير — أى وزير من مقابلة الملك — أى ملك فى أى بلد — ويصف المقابلة فى مقال ينشر فى الصحف ..

ولكن هذا هو ماحدث.. فقد طلعت جريدة «الاهرام» فى عددها الصادر بتاريخ يوم الجمعة ١٣ مارس عام ١٩٤٢ ، وفيها الكلمة أو المقال الآتى :

وزير المالية .. فى الحضرة الملكية

تشرف معالى الاستاذ مكرم عبيد باشا وزير المالية بمقابلة صاحب الجلالة الملك بعد ظهر أمس فعرض على

المسامع الملكية بعض الشئون المالية والاقتصادية فلقى من لدن جلالته كل عطف ورعاية وقد أفضى معاليه الى مندوب « الاهرام » بالتصريح الآتى :

« تشرفت مساء أمس بمقابلة جلالة المليك المحبوب ، وعرضت على مسامعه الكريمة أهم شئون التموين ، والسياسة التى ندرسها الآن تمهيداً لاقرارها وتطبيقها على محصول القمح الجديد كما عرضت علىجلالته بعض التعديلات فى الميزانية التى أعتزم عرضها على مجلس الوزراء وفى مقدمتها المشروع الذى يرمى الى تخفيف الاعباء المالية عن صغارالفلاحين والمزارعين ورفع مستوى معيشتهم وغير ذلك من المشاريع التى تؤدى ، او أرجو أن تؤدى الى موازنة الميزانية موازنة حقيقية لاحسابية بحيث لا تهمل المشاريع الحيوية وتكون جباية المـــال وانفاقه فى حدود العدالة الاجتماعية ..

ثم تشرفت بعرض ماتم فى مسألة القطن والحبوب ، ومبلغ ما وفقت اليه حكومة جلالته فى هذا الصدد .. بالتعاون مع الدولة الحليفة ..

واطلعت جلالته على نموذج من أوراق النقد الجديدة التى لوحظ فى طبعها واعدادها تعذر تزييفها ، فنـالت رضاءه السامى ..

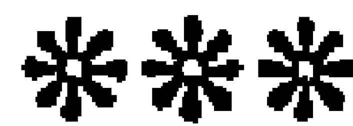
وقصارى القول ، فقد تناول حديثى فىحضرة جلالته حالة البلاد المالية من مختلف وجوهها ـ وهى حالة بفضل الله مرضية ـ ولقيت من جلالته لا مجرد عطف فحسب او تشجيع فحسب ـ مما ألهج لسانى بالشكر والحمد ـ بل لقيت ما هو أعظم من ذلك واهم ، فقد لقيت اطلاعا واسـعا ، وارشـادا نافعا ونظرة دقيقة وعميقة الى جوهر المسائل المعروضة رغم تباينها وبعد نواحيها ، فلم البث طويلا حتى أدركت ان ملكنا الشاب

قد ملك زمام الامور ، بفضل ما أوتى من رجولة مبكرة وخبرة منوعة نادرة ، قلما أتيحت لملك من الملوك ..

ولذلك لم يلبث الحديث طويلا حتى انتقلت دفته الى يديه الكريمتين ، فكان ينتقل من موضوع الى آخر ومن نصح الى نصح فى عطف ووداعة وصراحة اخاذه ونفاذة معا

وغاية القول انه قد أتيح لى فى هذه المقابلة الملكية السامية أن أعرف الرجل الملك فكان الرجل فى رجولته لا يقل جلالة عن الملك فى مملكته ..

وقد تفضل جلالته فأكد لى فى بساطة وديمقراطية انه ملك للجميع ، لا يفرق بين طوائف أو أحزاب أو طبقات فى شعبه الوفى وقد خرجت من لدنه وهذا اعتقادى ، بل ويقينى ..



وكان النحاس باشا يقيم هو والسيدة حرمه فى جناح خاص بفندق مينا هاوس وتصادف اننى ذهبت أزوره فى مساء نفس اليوم الذى ظهرت فى صباحه كلمة الاستاذ مكرم عبيد بجريدة الاهرام ..

وبينما نحن نتحدث دق جرس التليفون الموضوع فوق مائدة صغيرة بجوار «رفعته» وكان المتكلم الاستاذ مكرم عبيد وكان يتكلم من مدينة المنيا ..

وفهمت من الحديث الذى دار بينـه وبين السيد مصطفى النحاس ان مكرم كان قد سافر فى صباح نفس اليوم الى المنيا لـكى يسوى خلافا خاصا بترشيحات الوفد لانتخاب مجلس النواب وكان الخلاف بين مرشحين وفديين أحدهما الاستاذ ابراهيم الشريعى ..

وبينما كان مكرم يتحدث ، ولم أسمع حديثه طبعا وان أكن قد فهمت بعض ما قاله من تعليق أو رد مصطفى النحاس .. أقول بينما كان يتحدث قاطعـه النحاس

وهو يقول :

ـ لكن سيبك من ده كله وقول لي ايه الكلام ده يامكرم اللي انت كاتبه في اهرام النهاردة ؟

ويظهر أن مكرم باشا أبدى دهشته أو عجبه من استنكار النحاس باشا أوقال مامعناه انهم جميعا يقولون مثل هذا الكلام عن الملك في كل يوم ، لأن النحاس قال :

ـ أيوه .. لكن لما أقوله أنا باقوله في مقابل شيء .. باقوله وآخد حاجه في مقابل كده .. لكن انت تقوله ليه ؟ ثم علشان ايه ما عرضتوش علي قبل نشره ؟ دي غريبة ! لأنك دايما بتاخد رايي في أحاديثك وتصريحاتك قبل نشرها .. اشمعنى المرة دي لأ ؟

ويظهر ان مكرم قال ان الساعة كانت متأخرة وانه لم يرد ازعاج «رفعته» أو ايقاظه من نومه ، لأن النحاس قال :

ـ يعني ايه ؟ عايز تقول انك كتبت الكلام ده نص الليل .. وقبل كده ما كنتش لسه كتبت حاجة ؟

***

وانتهت المحادثة بين الصديقين : رئيس الوفد وسكرتير الوفد ، وكانت لهجة الحديث في نهايته قد اشتدت واحتدت ..

ولاحظت عندما أنهى النحاس باشا الحديث وأعاد سماعة التليفون الى مكانها أن علامات الغضب كانت مرسومة واضحة على وجهه وفي عينيه وقال «رفعته» :

ـ ده كلام مايكتبوش الا العبيد ، أقول ايه للانجليز اللي جابونا علشان نقف في وشه «يقصد الوقوف في وجه فاروق» أقول لهم ايه ؟ أقول لهم بعد جمعة والتانية بقينا أمامه عبيد نتكلم عنه بلهجة العبيد ؟..

***

ولم يكن احمد محمد حسنين سبب الخلاف بين

رئيس الوفد وسكرتير الوفد السيد مصطفى النحاس ، والاستاذ مكرم عبيد .. ولكنه كان احد الذين عملوا بمهارة و « شطارة » على توسيع شقة الخلاف ..

وكان حسنين ـ كما سبق أن ذكرت ـ قد أقسم بعد حادث ٤ فبراير على الانتقام من مصطفى النحاس ، ومن هنا سعى الى اضعاف مصطفى النحاس ـ ولا اقول هدمه ـ عن طريق التفريق بينه وبين أخلص صديق له وأقوى أعضاء الوفد نفوذا وأقربهم الى قلب الشعب ، وهو مكرم عبيد ..

وما من شك في ان الخلاف بين الصديقين القديمين والذى انتهى الى خروج أو اخراج مكرم عبيد من الوفد ثم هجومه وحملاته الشديدة على مصطفى النحاس .. ما من شك في ان هذا كله كان ضربة قاسية للوفديين عامة ، ولمصطفى النحاس بوجه خاص ..

أما عن أسباب الخلاف الاصلية أو الاصيلة .. فقد قال لى دكتور محمد صلاح الدين الذى كان من اخلص الوفديين لمصطفى النحاس وكان أقربهم اليه وكان موضع ثقته والذى عهد اليه النحاس باشا بمنصب وزير الخارجية فى وزارة الوفد فيما بعد .. قال لى ذات يوم اثناء الخلاف بين مكرم ومصطفى النحاس :

ـ ان مصطفى باشا بحكم طبيعته لابد أن يسيطر عليه شخص ما .. ولقد كان هذا الشخص فى وقت ما هو مكرم عبيد .. أما الآن فانها زوجته زينب هانم التى تسيطر عليه وتسيره كما تريد ..

ثم قال :

ـ وزينب هانم تتدخل الآن فى شئون الحكم ومع ذلك فقد قالت لى فى أول أسبوع من قيام هذه الوزارة كلاما سررت منه جدا وتفاءلت منه خيرا .. قالت : « لازم

نتعظ بأخطــاء الماضى ونمشى فى الحكم كويس ، وأنا سأستعمل نفوذى عند الباشا ـ تقصد زوجها ـ من أجل هذا » ولكنها للأسف سرعان مانسيت وعدها وعملت على العكس ..



اذن فقد كان مكرم عبيد صاحب السيطرة والنفوذ.. الى ان زحزحته أو أزاحته السيدة زينب الوكيل ..

وكان طبيعيا أن تتطور المنافسة بين الاثنين الى عداء أو ما يشبه العداء .. وأن يطلق كل من الاثنين لسانه فى صاحبه ..

وامتلأت المجالس والاندية بالاشاعات و«التشنيعات» وسمع الجمهور لأول مرة ان السيدة حرم رئيس الوفد ورئيس الوزراء تستغل نفوذ زوجها ونفوذ الوزارة من أجل الثراء السريع ، وانها ليست وحدها ، بل ومعها عدد من أقاربها وأصهارها ..

وعرف النحاس باشا والسيدة حرمه ان مكرم عبيد وأقاربه وأنصاره هم مصدر هذه الاشاعات ..

وسمع الناس ان مكرم باشا يقول فى مجالسه الخاصة ان زينب هانم تحاربه بسبب نزاهته ولأنه ـ وهو وزير المالية ـ رفض أن يوافق على طلباتها وطلبات شقيقها السيد احمد الوكيل الخاصة بأذونات التصدير والاستيراد

وهذا فضلا عن الخلاف الذى شجر حول الاستثناءات والترقيات والعلاوات ..

واحب ان اعفى قلمى هنا من الخوض فى حديث الفساد واستغلال النفوذ وما قيل يومئذ ، وبعدئذ .. فما أظن ان قلمى أو أى قلم آخر يمكنه ان يكتب اليوم أكثر مما كتب أو يقول اليوم شيئا جديدا لم يسبق قوله ونشره ، ولكنى حريص مع ذلك على تقرير حقيقة منصفة وهى

ان الاستاذ مكرم عبيد سبق أن دافع دفاعا بليغا قويا عن الاستثناءات والترقيات فى عام ١٩٣٧ ، فما باله يحاربها فى عام ١٩٤٢ ؟

الحقيقة المنصفة هى ان السيدة حرم النحاس باشا واقاربها ارادوا أن يحملوا نزاهة مكرم عبيد فوق ماتطيق

أنا شخصيا أعتقد ان مكرم باشا لم يكن ليمانع او يعارض كثيرا أوطويلا فى اجابة بعض الطلبات الصغيرة التى ــ معمخالفتها للقوانين ــ لا تثير ضجة وقالا وقيلا .. وذلك حرصا منه على رضاء صديقه النحاس باشا ، وثمنا لسكوتها عنه أو تأييدها له عند زوجها .. ولقد سبق أن تساهل أو أغمض عينيه ..

ولكنه فى هذه المرة وجد ان المطلوب منه ــ او الحمل على نزاهته ــ ثقيل وفوق ما تطيق .. فرفض ..

ثم تشدد بعد أن اشتد الخلاف وراح يتعنت ويرفض الطلب الصغير اليسير كما يرفض الموافقة على الطلب الكبير الخطير ..

أى ان الامر كله أصبح بين السيدة حرم رئيس الوفد والوزراء ومكرم عبيد نوعا من العناد ..

***

هذا سبب ..

وسبب آخر وهو ان كثيرين من أعضاء الوفد كانت صدورهم ضاقتبالنفوذ الاكبرالذى يتمتع به «زميلهم» مكرم عبيد دونهم جميعا عند «رئيسهم» مصطفىالنحاس وبالسلطات الواسعة التى كانت له فى كل شأن من شئون الوفد وخصوصا بعد خروج احمد ماهر والنقراشى من الوفد ..

هؤلاء الاعضاء رأوا ان الخلاف بين زينب هانم ومكرم عبيد فرصةطيبة أوفرصةسانحة يحسن بهم أن ينتهزوها

لكى يتخلصوا من مكرم عبيد ومن نفوذه الطاغى فى الوفد، او كما قال لى أحدهم : « نريد أن نكون أرقاما صحيحة لا اصفارا الى اليسار » ..

وقال لى الدكتور محمد صلاح الدين أثناء الخلاف : « ان صبرى باشا أبوعلم ونجيب باشا الهلالى يعملان على توسيع شقة الخلاف بين مصطفى باشا ومكرم باشا .. وليس هناك من يعمل معى على تسوية الخلاف سوى الاستاذ محمود سليمان غنام »

وتناول الاستاذ فؤاد سراج الدين العشاء معى مرة فى مسكنى ، وكنا وحدنا .. وكان يومئذ وزيرا للزراعة ، وسألنى : « ايه رأيك فى فصل مكرم باشا من الوفد ؟ »

وقبل ان أجيب مضى يقول :

ــ أظن ان الاحسن فصله دلوقت ، لأن الخلاف استفحل ومستحيل بعد كده تصفى القلوب ، أو يتصالح تانى مع مصطفى باشا وزينب هانم .. واذا فصلنا مكرم دلوقت مش راح يقدر يعمل حاجة لأن الوفد فى الحكم وتحت يدنا الرقابة .. لكن اذا سبناه جايز نخرج من الحكم .. ويخرج هوه بعدها علينا ويحاربنا ...

***

وهكذا .. السيدة حرم رئيس الوفد تحارب مكرم وتعمل على خروجه أو اخراجه من الوزارة والوفد ... وكل من فى الوفد أو معظم اعضاء الوفد يعمل كذلك على اخراج مكرم عبيد ..

وكذلك «القصر» أو الرجل الاول فى القصر ورئيس الديوان احمد محمدحسنين .. أسباب وعوامل تضافرت جميعا على التفريق بين الصديقين الحميمين القديمين النحاس ومكرم عبيد ..

وكانت الوزارة قد تقدمت بطلب عدد من الاستثناءات والترقيات لبعض الموظفين الوفديين الذين اضطهدوا .. كما قالت الوزارة ــ فى عهد الوزارات غير الوفدية ..

ورفض وزير المالية ــ مكرم عبيد ــ الموافقة على هذه الطلبات ..

ولما راجعه رئيس الوزارة مصطفى النحاس فى الامر احال مكرم المسألة كلها على اللجنة المالية ..

وطال الاخذ والرد .. وتطور الخلاف فى الرأى الى ازمة .. كل هذا وعوامل التفريق التى أشرت اليها تسعى وتعمل ..

وفى مساء ١٨ مايو عام ١٩٤٢ اقمت فى دارى حفلة بمناسبة عيد مولدى وغنت فيها أم كلثوم ..

وكان بين المدعوين الاساتذة صبرى أبوعلم ونجيب الهلالى واحمد حمزة ودكتور محمد صلاح الدين وعدد من الشيوخ والنواب الوفديين وبعض الزملاء الصحفيين ومنهم انطون الجميل ومحمود ابوالفتح ومصطفى امين وعلى امين وحسن الاعور وكان يومئذ مديرا لمكتب وزير المالية الاستاذ مكرم عبيد ..

ولاحظت اثناء السهرة « حركة » او نشاطا بين بعض المدعوين .. لاحظت مثـــلا ان محمود ابو الفتح تكلم بالتليفون بصوت خافت مرة أو مرتين ..

وان حسن الاعور وعلى أمين اختليا فى غرفة مكتبى بمكرم باشا .. وأخيرا عرفنا ان مكرم باشا كان أرسل الى جريدة المصرى بصـــورة من المذكرة التى وضعتها اللجنة المالية وفيها قرارها برفض جميع الاستثناءات.

وان جريدة المصرى أدركت خطورة نشر هذه المذكرة ــ لأنها تخالف رأى الوزارة ورأى رئيســـها مصطفى النحاس ــ فاتصلت بصاحبها الاستاذ ابوالفتح فى مسكنى

وأراد الاستاذ أن يتخلص من مسئولية ابداء رأيه ، فطلب من جريدته أن تعرض المذكرة على الرقيب «وكانت الرقابة مفروضة يومئذ على الصحافة بحكم حالة الحرب»

وسمع مكرم باشا بهذا كله فثار وهاج وتساءل : « منذ متى كان للرقابة سلطان على الوزراء وما يريد الوزراء نشره ؟ . . »

واتصل مكرم باشا بالتليفون بالاستاذ محمود سليمان غنام الذى كان موكولا اليه أمر الإشراف على شئون الرقابة وأبلغه انه سوف يستقيل من الوزارة اذا لم تنشر جريدة المصرى المذكرة كما هى ..

وكان سليمان غنام كما سبق أن قلت أحد القليلين الذين كانوا يسعون لتسوية الخلاف بين النحاس ومكرم ولقد خشى أن ينفذ مكرم وعيده ويستقيل .. فأمر بنشر المذكرة ..

سمعنا أثناء السهرة بهذا كله فأشفقنا من عواقب النشر .. وراح على أمين وحسن الاعور يرجوان الاستاذ مكرم عبيد أن يعدل عن نشر المذكرة حتى لايثير نشرها مصطفى النحاس ..

الى آخره .. الى آخره .. وخرجت «المصرى» فى الصباح وفيها مذكرة اللجنة المالية ومكرم عبيد برفض طلبات الاستثناءات ..

وكانت القاضية على كل أمل فى الصلح أو تسوية الخلاف ، وثار مصطفى النحاس وأعلن انها مؤامرة ضده وضد الوزارة وان صاحب المصرى محمود أبو الفتح شريك فى المؤامرة ولابد من «شلحه» من الهيئة الوفدية واصدار قرار من الوفد بأن المصرى لم يعد يعبر عن رأى الوفد .. وكان هذا القرار يومئذ شبيه بقرار الحرمان الذى يصدره باباوات روما ضد المغضوب عليهم

من أعداء الـكنيسـة ..

واختفى محمود أبو الفتح بضعة أيام ، ريثما تهدأ العاصفة وثورة « الرئيس الجليل » ثم عاد من مخبئه وذهب وقابل النحاس باشا .. وكانت أول مرة يلقاه فيها بعد نشر المذكرة وكان النحاس باشا هائجا ثائرا ضده وقال :

ــ أرجو من رفعتك أن تطول بالك شوية .. وأن يتسع حلمك لما أقول ..

وقال النحاس باشا ساخرا :

ــ حلمي ياسي محمود .. طيب قول ياسي محمود..

وقال محمود أبو الفتح :

ــ ما هو أساس حملة التشهير التى يقوم بها مكرم باشا ضدك ؟ .. اليس اساس هذه الحملة المحسوبية التى يزعم ان اقارب رفعتك يتمتعون بها ؟.. أليست الاستثناءات التى يرفضها ويجعل منهـا أساسا لحملة التشهير .. أليست مطلوبة لأقارب وانصار رفعتك ؟..

وأليس شقيقى متزوجا من بنت شقيق رفعتك ؟..

ألسنا اذن من أقارب رفعتك المقصودين بالتشهير ؟ فكيف اذن يخطر ببال رفعتك اننى أتآمر ضدك مع مكرم باشا ؟.. ثم اذا انهار مصطفى النحاس وضاع نفوذه الا ننهار نحن ايضا معه ونفقد نفوذنا ؟.. اننا الآن نستمد جاهنا من جاهك فاما ارتفعنا معك واما سقطنا معك .. فكيف اذن يمكن أن أعمل عملا يؤذى أو يحط من قدر رفعتك ؟.. ورفعتك تعرف أنمكرم عدوى وانه يكرهنى وكان دائما يشككم فى وفى اخلاصى لكم وفى ولاء المصرى لرفعتكم .. وانا لم انشر المذكرة الا كارها وقد رفضت نشرها ولكن ازاء الحاحه أحلت الامر على الاستاذ غنام فصرح بالنشر ..

ولما انتهى الاستاذ محمود ابو الفتح من دفاعه قام

النحاس باشا وضمه الى صدره وتعانقا ..

***

واقف هنا قليلا لأتساءل مرة أخرى : لماذا نشرمحمود ابوالفتح هذه المذكرة مع علمه بخطورة ووخامة العاقبة ؟

واذا كنت الح فى هذا السؤال فذلك لان المذكرة كما وصفتها ـ كانت القاضية ـ وكانت السبب المباشر لاخراج مكرم عبيد من الوزارة أولا .. ثم اخراجه من هيئة الوفد ثانيا ..

لقد قرأتم دفاع الاستاذ ابوالفتح عن نفسه وهو دفاع ضعيف عند الذين يعرفون الحقائق ، وكان من السهل جدا على صاحب «المصرى» أن يرفض نشر المذكرة بعد أن رفض الرقيب اجازة النشر . أما اعتذار أبو الفتح بأن الاستاذ سليمان غنام أجاز النشر فمردود عليه بأنه لم يسمح بالنشر الا لكى يحول دون استقالة مكرم عبيد

فهل كان الاستاذ أبوالفتح حريصا مثله على عدم استقالة مكرم عبيد .. بالعكس كما سترون مما يأتى.. ثم لماذا لم يختصر الاستاذ أبو الفتح ليلتئذ الطريق .. ويتحدث مباشرة بالتليفون مع النحاس باشا ويعرض عليه الامر .. واذن لكان سمعها من رئيس الحكومة ، ورئيس الوفد حاسمة قاطعة بعدم نشر المذكرة .. ولكنه لم يفعل .. واستتر وراء الأستاذ غنام !

ومرة أخرى ، لماذا نشر المذكرة ؟ هل مراعاة أومجاملة لمكرم عبيد ؟ هذا احتمال ولكنه كما سترون أضعف الاحتمالات ..

أم لأنه كان يعلم أن نشر المذكرة سوف يوسع الهوة بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومن هنا نشرها لكى تكون القاضية ؟..

وهذا هو الاحتمال الراجح ، لأن أصدقاء أبو الفتح

كانوا يعرفون يومئذ انه حانق مفيظ لعدم دخوله الوزارة وقدكان اذاع أواذاع له بعض أصدقائه وبعض الصحفيين ـ والمحوا الى الخبر فعلا فى صحفهم ـ انه سوف يدخل الوزارة ..

وفى هذا سألت مرة الاستاذ فؤاد سراج الدين ـ وكنا فى النادى الاهلى ـ فقال وهو يضحك :

ـ وبتصدق برضه الكلام الفارغ ده .. طيب دحنا رفضنا ان نرشحه وكيلا لمجلس الشيوخ فكيف اذن نقبل دخوله معنا فى الوزارة ؟..

اذن فقد كان فؤاد سراج الدين أحد الذين عارضوا فى ترشيح صاحب المصرى لكرسى الوزارة .. ولكن الاستاذ أبوالفتح لم يكن يعرف هذه الحقيقة ، بل كان يعتقد ان الذى عارض فى دخوله الوزارة هو الاستاذ مكرم عبيد .. ومن هنا نشر المذكرة لكى تكون القاضية على كل أمل فى تسوية الخلاف بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد..

هذه هى الحقيقة ..

واكثر من هذا ..

قال لى الاستاذ الشافعى البنا ـ رحمه الله ـ انه كان فى وقت ما رئيسا لتحرير جريدة المصرى أيام كان الوفد فى المعارضة .. وكان يحدث أن يطلب الوفد نشر مقال معين فى موضوع معين .. وكان أبوالفتح يماطل فى نشر المقال اما خوفا من أن تبطش الحكومة القائمة «بالمصرى» واما لأن له مصلحة معينة فى عدم النشر وكان سكرتير الوفد مكرم عبيد يتكلم بالتليفون ويلح فى نشر المقال ثم يهدد ويتوعد ويقول : «قولوا للأستاذ ابوالفتح انه اذا لم ينشر المقال غدا فى المصرى فان الوفد سوف يصدر بيانا يعلن فيه ان جريدة المصرى لا تعبر عن رأى الوفد»

وكنت أشفق من عواقب هذا التهديد وأذهب الى

ابوالفتح أرجوه أن ينشر المقال المطلوب فكان يبتسم ويقول : «ماتخافش ، بس سيبني أنا بكره يشتمونا شتمتين ويزعلوا منا يومين وبعدها الحكاية تفوت » .. وحكاية أخرى ..

قال لي الاستاذ فؤادسراج الدين في نفس المعنى ونفس الموضوع انه حدث مرة وكان موجودا في مصيف رأس البر مع النحاس باشا ومكرم باشا أن نشر « المصرى » مقالا فيه دعاية قوية لوزارة حسين سري من أجل اتفاقية القطن التي كانت عقدتها مع الانجليز. وغضب مكرم باشا وثار ثورة عنيفة وطلب من محمود أبوالفتح أن ينشر « المصرى » مقالا تنقض فيه المقال الاول ولكنه ماطل ولم ينشر .. وهنا أعلن مكرم باشا : اما ان يشلح أبو الفتح من الهيئة الوفدية واما أن يستقيل هو من الوفد ..

ومضى الاستاذ فؤاد سراج الدين يقول :

ـ لقد أمضيت يوما وليلة وأنا أهدىء من ثورة مكرم باشا ضد المصرى وصاحبه ..

خلاصة القول اذن ـ وهذه جرأة أبوالفتح في نشر ما يريد أو عدم نشر ما لايريد رغم الوفد وزعماء الوفد ـ خلاصة القول اذن ان أبوالفتح كان يمكنه أن يرفض نشر المذكرة .. ولو كان في رفضه ما يغضب مكرم عبيد ..

ولكنه نشرها .. لأنه كان يريد أن تنشر ..

حدث مرة في عام ١٩٣٨ وكان السعديون والدستوريون في الحكم والنقراشي باشا وزيرا للداخلية .. حدث أن اعتدى رجال البوليس على «موكب» النحاس باشا أثناء سيره من المحطة الى داره .. وكان مكرم باشا يجلس بجوار النحاس باشا في السيارة ..

واصابت هراوة أحد رجال البوليس رأس مكرم باشا واحدثت فيه جرحا عميقا . وحملت الصحف الوفدية

حملات عنيفة على الحكومة وطالبت بمحاكمة ضباط البوليس المسئولين ..

وقال لى حسين أبوالفتح شقيق محمود أبوالفتح ان شقيقه قال يومها : «معلوم، يجب أن يحاكموا العسكرى ابن ... اللى ضرب مكرم لأنه ماعرفش يضرب مكرم ضربة جامدة كفاية تخلص عليه وتريحنا منه »

قلت انجريدة «المصرى» نشرت المذكرة التى وضعتها اللجنة المالية ووزير المالية مكرم عبيد وقد رفضت فيها الموافقة على الاستثناءات التىطلبها النحاس باشا وبعض زملائه الوزراء لطائفةمنالوطنيينالوفديين.. وكان رفض اللجنة مسهبا ومقرونا بالاسماء والاسباب ..

وكانت القاضية.. واعلن السيد مصطفى النحاس ان التعاون بينه وبين مكرم باشا أصبح مستحيلا.. ومن ثم فهو يطلب منه أن يبر بوعده ويستقيل ..

ولهذا «الوعد» حكاية اذكرها بايجاز.. ذلك انه كان حدث ،قبل ذلك ببضعة أسابيع ـ اى فى بدء الخلاف وأيام كان العتاب لايزال مقبولا بين الرجلين ـ حدث فى احدى جلسات العتاب أن أعلن الاستاذ مكرم عبيد انه لايزال الصديق الوفى والوفدى المخلص لرئيس الوفد مصطفى النحاس وانه ـ معاذ الله ـ لن يسمح لنفسه بالخروج على الوفد أو زعيمه مصطفى النحاس .. وانه مستعد فى أى وقت ، اثباتا لولائه واخلاصه ، ان يقدم استقالته من الوزارة وفى أى وقت يطلبها منه مصطفى النحاس ..

وهكذا .. أوفد النحاس باشا وزير الاشغال عثمان محرم باشا بصفته أكبر الوزراء سنا وأقدمهم عهدا بالوزارة .. أوفده الى الاستاذ مكرم لكى يطلب منه ان يفى بوعده ويستقيل ..

ولكن مكرم باشا لم يكد يرى عثمان محرم داخلا عليه فى داره حتى صاح :

ـ أنا عارف انت جاى ليه .. علشان تطلب منى ان استقيل لكننى أرفض .. ولن أستقيل.. فاذهب وقل لمن أرسلك أن يقيلنى من الوزارة اذا استطاع ..

وحاول عثمان محرم أن يقنع مكرم عبيد بالنزول على رغبة مصطفى النحاس والاستقالة ويقول له : « ولو الى حين تهدأ ثائرة النفوس ويصفو الجو .. وليس من المستحيل أن تعود وتدخل الوزارة الى آخره » ..

ولكن مكرم رفض أن يصغى ورفض أن يستقيل ..

وسمع النحاس باشا . وكانت مصادر أخبار السوء ووسطاء السوء يومئذ كثيرة كما أن الساعين لاخراج مكرم من الوزارة ومن الوفد ـ وقد أشرت اليهم ـ لم يقصروا جهدا فى نقل الاخبار التى توسع الهوة بين النحاس ومكرم ..

وسمع النحاس ان مكرم لم يرفض الاستقالة الا لانه موحى اليه أو موعز اليه بهذا الرفض .. وان مصدر الايحاء أو الايعاز هو رئيس الديوان احمد محمدحسنين

وازداد النحاس غضبا وثورة .. وأعلن انه اذا لم يستقل مكرم عبيد طوعا فسوف يخرج من الوزارة مقالا

هذا ومكرم يخرج لسانه ساخرا ويتحدث الى بعض الصحف الافرنجية فى مصر والى مندوبى وكالات الانباء ويعلن انه لن يستقيل .. وليفعل النحاس باشا أقصى ما يستطيع ..

وذهب النحاس باشا الى القصر يطلب اقالة وزير المالية مكرم عبيد ..

وحاول فاروق أن يهدىء من ثائرة رئيس وزرائه ضد وزير المالية وأن يسوى ويصلح مابين الرجلين والصديقين القديمين.. ولكن عبثا !

وما من شك فى انها «مناورة» أوسياسة مرسومة.. وان فاروق مثل رئيس ديوانه احمد حسنين كان يريد التفرقة بين الرجلين والصديقين القديمين.. واضعاف الوفد وقسمته شيعا واحزابا ..

أصر اذن النحاس على اقالة مكرم عبيد من منصب وزير المالية .. وأخيرا قال له فاروق :

ـ طيب بلاش الاقالة ..

واقترح أن يقدم النحاس باشا استقالة الوزارة .. فيكلفه باعادة تشكيلها .. وهنا يمكنه أن يعيد تشكيل الوزارة من غير مكرم عبيد ..

ولم يعجب هذا الاقتراح السيد مصطفى النحاس.. لم يعجبه لأنه كان أولا يريد «مرمطة» مكرم عبيد والانتقام منه باخراجه من الوزارة مطرودا أو مقالا ..

ولم تعجبه ثانيا لأنه خشى أن ينتهز فاروق الفرصة فيقبل استقالته هو وأعضاء وزارته .. ويكلف زعيما آخر بتشكيل الوزارة الجديدة ..

وتململ مصطفى النحاس .. ولكن فاروق ثبت على رأيه وقال :

ـ لا.. لا.. كله الا الاقالة.. بلاش حكاية الاقالة دى

واضطر مصطفى النحاس أن يتراجع وأن يذعن .. وقدم استقالته ثم أعاد الوزارة بدون مكرم عبيد ..

خرج مكرم عبيد من الوزارة ولكن خروجه لم يهدىء من ثورة مصطفى النحاس ، بل على العكس.. فقد ازداد حنقا وغضبا لأن «خصوم الامة» على حد تعبيره ـ الذين فى السراى وعلى رأسهم رئيس الديوان أحمد حسنين حالوا بينه وبين طرد مكرم عبيد ولم يمكنوه من اقالة مكرم عبيد ..

ومضى النحاس باشا يتحدث فى مجالسه وبين شيوخه

ونوابه عن المؤامرات التى تحاك ضده والتى يدبرها رئيس الديوان بمساعدة بعض خصومه ـ خصوم النحاس باشا ـ من رجال الصحافة وغيرهم ..

وأنقل هنا من مذكراتى :

زرت حسنين باشا بنـــاء على موعد سابق حددناه بالتليفون وبقيت معه نحو ساعتين ..

وقلت له : ان النحاس باشا يعتقد انك ضالع مع مكرم عبيد ، وهو يكره بعض الصحفيين الذين يعارضونه ولما كان بعض هؤلاء صديقا لك ومتصلا بك ويستقى اخباره منك وهو ينشر دعاية واسعة لمكرم باشا وينشر فى الوقت نفسه دعاية ضد النحاس باشا ـ كما تقول التقارير التى يقدمها رجال البوليس السرى لرفعته ـ فان « رفعته » معذور اذا هو اعتقـــد ان بعض هؤلاء الصحفيين انما يفعل ما يفعله بايعاز منك ومن السراى

فقال حسنين : وأنا مالى ؟ ما هو مصطفى النحاس ومكرم عبيد اللى كانوا بيبعتوا لى هؤلاء الصحفيين فى كل حاجة ..

ثم أخذ حسنين يدافع عن نفسه دفاعا طويلا فقال :

ـ لقد كانت سياستى بعد حادث ٤ فبراير وقيام وزارة مصطفى النحاس ان ماجرى قد جرى واللى فات فات .. وانه لابد من التعـــاون مع الوزارة ورئيسها مصطفى النحاس وان «مولانا» الملك قد أعطى النحاس كلمة بمساعدته ..

ولقد رأيت ان هناك رجلين من ألصق الناس بالنحاس باشا وهما مكرم وأمين عثمان وان العلاقات بين الرجلين وبين الملك والقصر ليست على مايرام لأن الاشاعات كانت دائما كثيرة عنهما . كما ان الاشاعات فى البلد كانت تزعم ان الملك لايحب مكرم عبيد ولا يحب أمين عثمان . ومن

هنا أردت أن أخدم الوزارة وأخدم النحاس باشا نفسه بل وأخدم أمين عثمان ومكرم عبيد . وذلك بأن أجعل الملك يقابلهما ويظهر عطفه عليهما فيخرج الاثنان راضيين شاكرين لكي يعرف البلد ان هذه الاشاعات ليست صحيحة وان الرجلين أو ذراعي النحاس ومستشاريه والصق الناس به ليسا مغضوبا عليهما بل على العكس يتمتعان برضاء الملك وعطفه .. ولقد خرج مكرم من مقابلة الملك راضيا مسرورا ، وكذلك أمين عثمان ، فهل يلومني النحاس على هذا ؟

وهكذا خرج حسنين ــ رحمه الله ــ عن الموضوع الذي زرته من أجله ..

وقلت : ولكن النحاس باشا ليس غاضبا بسبب مقابلة الملك لمكرم وأمين عثمان ..

قال : صبرك على شوية ..

ثم مضى يقول : ان هذه لم تكن محاولته الاولى من أجل تقريب مكرم من الملك وذلك انه أثناء الازمة أول فبراير « أى الازمة التى انتهت بحادث ٤ فبراير» اقترح حسنين على الملك دعوة مكرم عبيد مع الزعماء الذين استدعاهم القصر للمشاورة فى الموقف السياسى ولكن فاروق عارض وقال ان الدعوة مقصورة على طبقة من الزعماء وهى طبقة رؤساء الوزارات السابقين ورؤساء الاحزاب السياسية فكيف اذن يمكن دعوة مكرم عبيد وهو ليس من هؤلاء أو هؤلاء ؟

قال حسنين :

ــ لكننى استطعت فى آخر الامر أن أحصل على موافقة الملك بدعوة مكرم باشا . وكان فى النية استدعاؤه فعلا الى القصر للاشتراك فى مناقشات الزعماء بصفته السكرتير العام لأكبر هيئة سياسية فى البلاد .. ولكن الازمة

تطورت بسرعة والحوادث أسرعت وكان ما كان ..

ثم تحدث حسنين عن مقابلة فاروق لمكرم عبيد باشا مرة أخرى فى يوم الثلاثاء ٢٦ مايو . وقد تمت المقابلة المذكورة من غير علم مصطفى النحاس وأثناء اشتداد الازمة بينه وبين مكرم عبيد والحاح النحاس باشا فى اقالة مكرم من الوزارة ..

قال حسنين :

ـ لم يكن من مصلحة أحد ولا من مصلحتى كرئيس الديوان أن أتصرف أى تصرف يبدو منه انني ضالع مع النحاس ضد مكرم ، بل كان من واجبى أن أحافظ على الحياد الدقيق . وانه اذا كان النحاس باشا سوف يقابل الملك لكى يعرض عليه اقالة مكرم من الوزارة ويبسط الاسباب فانه من واجبى ـ ومقتضيات الحياد ـ ان أمكن مكرم كذلك من مقابلة الملك لكى يعرض عليه وجهة نظره فى الخلاف الذى نشب بينه وبين رئيسه مصطفى النحاس . كذلك كنت أرجو أن نتمكن من تسوية الامر وازالة أسباب الخلاف بين الرجلين الصديقين القديمين «كذا ؟» ولهذا السبب أشرت على الملك بدعوة مكرم باشا لمقابلته .. ولم يعلم النحاس باشا بهذه الدعوة الا فيما بعد وبلغنى ان رفعته غضب جدا يومها ولكن مالوش حق .

ثم قال حسنين ان فاروق قال له بعد مقابلة النحاس «مافيش فايدة .. لقد حاولت ولكنه مصمم على خروج مكرم من الوزارة » ..

لقد قالها فاروق وهو «بيشوح» بذراعيه شأن الذى أفرغ كل ما فى جعبته ولم يفلح ..

ثم قال حسنين انه هو الذى أشار على فاروق برفض طلب النحاس الخاص باقالة مكرم عبيد وقال فى هذا :

ـ ان اقالة مكرم كانت ستفرح النحاس باشا يوما

واحدا وهو يوم تنشر فى الصحف ولكن هذه الاقالة كانت ستدفع مكرم الى «التشليت» للنحاس باشا .. فهل كان هذا فى مصلحة رفعته كرئيس للحكومة ورئيس للوفد ؟ ثم لماذا الاقالة وتوسيع الهوة بين الرجلين؟ فليخرج مكرم من الوزارة ما دام النحاس مصمما على اخراجه . ولكن أليس من الافضل ان يخرج بطريقة لا توغر صدره وتملأه حقدا ونقمة على مصطفى النحاس ؟..

ثم قال حسنين ان هذه الشكوك لم تتولد ضده فى صدر مصطفى النحاس الا بسبب زينب هانم ..

قال حسنين باشا ان السيدة زينب الوكيل هى التى أوغرت صدر النحاس باشا ضده بسبب موقفه منها فى مشروع كبير . ثم مضى يقول : لا كلمة ولا رأى للنحاس باشا عند زوجته وانها تسيطر عليه تماما ! وهى امرأة ذكية الفؤاد و « شاطرة جدا » وواسعة الافق . وهى اذا اقتنعت برأى سارت فيه الى النهاية ولقد ساعدتنى فى عدة مسائل فكثيرا ماكنت أذهب لمقابلة النحاس باشا فى فندق مينا هاوس أثناء اقامته فيه فكانت تستقبلنى وتجلس معى الى أن ينتهى «رفعته» من ارتداء ملابسه. وكانت تقدم لى القهوة وتتبسط معى فى الحديث ، وكنت فى بعض الاحيان أتحدث معهـــا فى المسألة أو الموضوع الشائك الذى يشغل بالنا والذى جئت أتحدث فيه مع زوجها وكنت أبسط وجه المصلحة ووجهة نظرنا فكانت اذا اقتنعت برأيى ساعدتنى واقنعت زوجهـا النحاس باشا بأن المصلحة فيما أقوله أو أطلبه ..

ومضى حسنين يقول :

ـ ولكن زينب هانم بالرغم من ذكائها فانها امرأة على كل حال . ومن عيوب المرأة انها اذا جرحت فى كبريائها اختل ميزانها وحسن تقديرها للأمور . كنا نتحدث ذات يوم

من الرتب والالقاب عندما ضحكت وعرضت لما أسمته «رتب الجزم» وهي الرتب التى كان أنعم بها جلالة الملك على الذين تبرعوا لمشروع مقاومة الحفاء .. ثم قالت ان عندها مشروعا تستطيع أن تجمع به نصف مليون جنيه. وان هناك أشخاصا مستعدون لأن يتبرع الواحد منهم بعشرة آلاف جنيه.. بس على شرط أن ينعم عليهم برتبة الباشوية .. ولقد سألتها : « زى مين ؟ » فقالت : توفيق مفرج ، وصبحى الشوربجى ، ولكننى أشرت عليها بتأجيل هذا المشروع وان الافضل عدم الخوض فيه الآن لأن الظروف غير مناسبة ..

ولكن زينب هانم لم تستمع لنصحى ومشت فى مشروعها واعلنت عنه فى الصحف وأصبح «مشروع البر» الذى تتولاه زينب هانم حديث الناس فى كل مجلس وناد .. ولقد كنت أوثر ـ ولمصلحتها هى بالذات ـ ما دامت قد مضت فى مشروعها أن تترك أمر جمع التبرعات للجنة منظمة وأن يكون هناك بنك يشرف على هذه العمليات كلها .. ولكن زينب هانم والذين معها تركوا الامر فوضى بلا ضابط ولا رقيب ولا حساب .. وازدادت اشاعات السوء انتشارا . ولقد كانت أقاويل الفساد والرشوة واستغلال النفوذ موجودة قبل مشروع البر .. ثم جاء هذا المشروع وضاعف فى انتشارها .. ففيم كان هذا التصرف ؟ ولمصلحة من ؟

ثم استطرد حسنين يقول :

ـ وفى هذا الجو .. جو الاشاعات والقيل والقال .. والاتهامات التى ترمى من هنا ومن هناك طلبت منى زينب هانم أن يتفضل «جلالة الملك» بحضور الحفلة التى اقيمت لمشروع البر فى دار الاوبرا .. ومن حسن الحظ ـ حتى لا أصدم بها ـ كان الملك غائبا عن القاهرة فى رحلة فى

سيناء .. ومع ذلك فقد بذلت وساطتي ارضاء لها وحضرت الملكتان فريدة ونازلى الحفلة فى الاوبرا .. وعاد الملك من سيناء .. وعادت زينب هانم تطلب منى أن يحضر الملك حفلة الشاى التى تقيمها فى فندق مينا هاوس ..

وقلت لها ان هذا أمر مستحيل بحكم التقاليد .. وحاولت ان أقنعها بأن هذا الامر ليس له سابقة ولكن عبثا

قلت لها ان الملك لايمكنه أن يجلس الى مائدة الشاى وبجانبه حرم رئيس الوزراء الا اذا كانت جلالة الملكة موجودة وان جلالة الملكة لايمكنها أن تحضر حفلة يدعى اليها السفير البريطانى وسفراء الدول والوزراء ورجال الدولة ، لأن حضورها يكون ثورة على جميع التقاليد..

ولكن زينب هانم لم تقتنع بحجتى وقالت ان الملك سبق أن حضر حفلة أقامتها هدى هانم شعراوى .. « واشمعنى يحضر حفلة الولية العجوزة الوحشة دى ، ولا يحضرش حفلتى ؟.. »

قلت لها ان الملك حضر حفلة هدى هانم شعراوى «متنكرا» ـ اى بصفة غير رسمية ـ ولقدمنعت الصحف من ذكر خبر حضوره الحفلة .. ومع ذلك فهناك فرق كبير بين الحفلتين ، فحفلة هدى هانم لم تكن شبه رسمية مثل حفلتك .. والملكتان فريدة ونازلى حضرتاها .. وأما حفلتك انت فان لها طابعا رسميا أو شبه رسمى.. الى آخره ..

ولكن زينب هانم لم تقتنع وأسرتها ضدى فى نفسها

وذات يوم أرادت أن تضاربنى بعبد الوهاب طلعت باشا وكان هذا ذكاء رخيصا منها .. فقد قالت لى : « تعرف مين جانا النهارده ؟ » عبد الوهاب طلعت باشا جه علشان يقول لى انه مستعد لأى خدمة ويقدر يعمل لى كل اللى أطلبه منه ولكنى قلت له : « أبدا ، واننى

لم أطلب حاجه من حد الا من حسنين باشا بس .. »

وقال حسنين انه قال مرة لزينب هانم : « قولى بس انت عاوزه منى ايه وأنا أعمله علشان خاطرك .. »

قالت : « عاوزاك تكسر لى ، كذا وكذا ، وكيت » ـ سلسلة من النعوت والشتائم ـ وكانت تقصد مكرم عبيد

وسألها حسنين : « وليه عاوزه تكسريه ؟ »

قالت : لانه بيكره الملك ..

ومرة أخرى كان ذكاؤها رخيصا ..

وانصرفت من مقابلة حسنين باشا الى مكتبى ، ومن هناك كلمت فؤاد سراج الدين باشا بالتليفون واتفقت معه على أن نتقابل في المساء في فندق مينا هاوس ، وكان النحاس باشا يقيم وقتئذ بالفندق المذكور ، وكذلك الاستاذ فؤاد سراج الدين ..

وتقابلنا فى الموعد المحدد ، وجلسنا الى احدى الموائد الموضوعة حول حوض السباحة ، وتناول فؤاد باشا طعام العشاء ، بينما كنت ألخص له دفاع حسنين باشا عن نفسه كما سمعته منه فى الصباح ..

ثم قلت ـ ووافقنى هو على رأيى ـ ان حسنين برىء مما يتهمه به النحاس باشا ، وعلى كل حال « أية مصلحة للنحاس باشا فى محاربة حسنين ومجاهرته بالعداء ؟ بل هل من المصلحة أن نحارب فى جبهتين ؟ جبهة حسنين ومن معه من رجال القصر ؟ وجبهة المعارضة من الاحرار الدستوريين والسعديين ؟..

وبعد تناول العشاء قمنا وصعدنا الى غرفة فؤاد باشا وتركنى فيها وغاب نحو نصف ساعة لأن «رفعة» الرئيس كان يتناول العشاء مع حرمه زينب هانم والسيدة حماته وحميه عبد الواحد باشا الوكيل ..

وعاد فؤاد سراج الدين وصحبنى الى غرفة الجلوس

فى الجناح الخاص الذى كان النـــحاس يقيم فيه هو والسيدة حرمه ..

وكان النحاس باشا متربعا فوق كنبة .. ولاحظت انه مشغول الخاطر معكر المزاج ..

وبدأت الحديث فقلت له : ان حسنين صديقى وأنا أعرفه جيدا . واستطيع ان اثق فيما يقول لى كصديق. وهو برىء ..

وسردت ــ أو حاولت أن اسرد حجج حسنين ومنها ، ان النحاس باشا ومكرم باشا هما اللذان كانا يرسلان اليه الوسطاء من أصدقائه ..

وهنا قاطعنى النحاس باشا بحدة ، وبدأ هو يتكلم ، ولم يترك لى بعدها فرصة للكلام واتمام دفاعى عن حسنين

والذين يعرفون الرئيس الســابق مصطفى النحاس يوافقوننى على انه لا فائدة من مقاطعة « رفعتــه » اذا اندفع يتحدث ..

وهكذا سكت ... وتركته يتكلم :

قال : هــذا غير صحيح فأنا عمرى ما أرسلت له وسطاء ، ربما مكرم هو الذى أرسلهم ، اما انا فلم أرسلهم ولا مرة واحدة لأننى أكرههم ولا أثق فيهم والذى حدث اننا كنا فى مصيف رأس البر فى الصيف الماضى وجاء أحد أصدقاء حسنين يقول لمكرم انه حاضر موفد من قبل الملك لكى يدعونا لمقابلة جلالته .. وجاء مكرم فقلت له : « يا مكرم بلاش فلان لانى لا أثق فيه » ..

قال : صحيح .. ولكن ما الضرر ان نسمع كلامه .. ثم قص رفعته التفاصيل وهى لا تخرج عما سبق أن ذكرته ..

ثم استطرد النحاس باشا يقول :

ـ وسافرت أنا ومكرم الى القــاهرة وقابلنى جلالة

الملك ولكنه لم يقـــابل مكرم ، وغضب مكرم وقال : « وعلشان ايه جابوني بقى ؟ يعنى أنا طيشة » . هذه ياسى التابعى هى المرة الوحيدة اللى جاءنا فيها صديق لحسنين باشا .. ولقد جاءنا كما رأيت من حسنين ..

ثم قال بحدة وانفعال شديد :

ــ ده كلام فارغ دول بيلعبوا بالنار.. هؤلاء العكاريت الى آخره .. الى آخره ..

وبعد أن هدأ قليلا انتقل الى الحديث عن مقابلة فاروق لمكرم عقب تأليف الوزارة وهى المقابلة التى أثارت شكوك النحاس فى مكرم عبيد ولقد سبق أن أشرت الى هذه المقابلة وقلت انها كانت مناورة أو مؤامرة من حسنين باشا للتفريق بين النحاس ومكرم ..

وأعود الآن وأثبت هنا رواية النحاس باشا نفسه عن المقابلة المذكورة ..

قال : بعد تأليف الوزارة بأيام جاءنى مكرم باشا وقال ان حسنين طلب منه أن يلتمس مقابلة الملك ، وانه ــ أى مكرم ــ قال له ان ليس عنده سبب يبنى عليه طلب المقابلة. ولكن حسنين قال له : « فتش على حاجة » وأخيرا قال له مكرم أن عنده رسم الورق الجديد البنكنوت من فئة عشرة قروش وخمسة قروش ، فهل يطلب المقابلة ليعرضه على الملك ؟ ووافق حسنين ..

ومضى النحاس باشا فى روايته ، وأنا أسجلها هنا بحروفها نقلا عن مذكرات مكتوبة .. قال :

ــ ولما قال لى مكرم هذا رأيت انها حاجة غريبة .. وأحسست ان فى الامر شيئا غير برىء ، فقلت لمكرم باشا : « وهو كذلك .. روح .. ولكن كن على حذر.. دول يا مكرم عاوزين يفرقوا بيننا ، وابقى فوت على بعد المقابلة أو كلمنى بالتليفون وقل لى على الحديث اللى دار فيها .. »

وانتظرته فى المساء .. الساعة التاسعة .. تسعة ونصف .. عشرة ونصف .. وكنت كلما طلبته بالتليفون وجدت نمرته مشغولة .. وأخيرا وكانت الساعة منتصف الليل تقريبا دخلت ونمت ..

وفى الصباح أحضروا الى «نوتة» أو رسالة منه كان أملاها بالتليفون بعد نومى ـ أى بعد منتصف الليل ، وفيها يقول ان المقابلة كانت «عال وعظيمة» وانه سوف يقص على التفاصيل بعد عودته من الفشن ..

وفى نفس الصباح قرأت فى احدى الجرائد بيانا لمكرم عن مقابلته للملك .. وهو بيان لايكتبه سوى عبد .. وماذا يقول الانجليز الآن ؟ أمن أجل هذا جاءوا بنا الى الحكم ؟ لقد جاءوا بنا ظنا منهم اننا وحدنا الذين نستطيع الوقوف فى وجه الملك .. فماذا يقولون اليوم بعد هذا البيان الذى لا يكتبه سوى عبد ؟

ثم كلمنى مكرم بالتليفون من الفشن بخصوص المسألة اللى كان سافر من أجلها . وسألته ايه الكلمة اللى كتبتها دى فى الجرايد يامكرم ؟ فقال : « ايه رأيك فيها ؟ » قلت له : « زفت وقطران » لما ترجع واقابلك نتكلم فيها ..

وعاد مكرم وقابلنى ، وقال انه لايرى رأيى وانه لم ير ضررا فى كتابة الكلمة المذكورة لأننا سبق أن كتبنا مثلها ومدحنا الملك بأعظم منها ، فقلت له : «فليكن .. ولكن أنا الذى أكتب وأمدح لا انت » لأننى أنا أقدر الظروف . وأنا اذا مدحت فأنا أتقاضى فى مقابل المدح ثمنا .. أنا اللى باخد من الملك واللى باعامل الملك مش انت .. ولكن قل لى لماذا لم تأخذ رأيى فيها وتستشرنى قبل نشرها ؟»

قال : « فى الحقيقة حسنين باشا طلب منى بعد خروجى من مقابلة الملك ان أكتب كلمة كويسة عن الملك وأنشرها »

فقلت له : « هذا سبب كان أدعى لأن يحملك على أن

تأخذ رأيى وانت دائما تأخذ رأيى فى كلّ مسألة فلماذا لم تفعل هذه المرة ؟ هذا سعى للتفريق بيننا وبكره تشوف يا مكرم »

ثم قال النحاس باشا انه عرض بلباقة لهذه المسألة فى اجتماع لمجلس الوزراء وعاتب مكرم ثم قال له أمام زملائه الوزراء انه يشفق أن تصبح المسألة مسابقة أو مزايدة بين الوزراء كل واحد منهم يسابق زملاءه الى مدح الملك ويزيد فى المدح عما قاله الذى سبقه ..

ثم انتقل النحاس باشا الى الحديث عن اخراج مكرم من الوزارة ، فقال انه كان يعرف قبلها بشهر ان مكرم باشا ينوى أن يجعل من «الاستثناءات» ميدانا للمعركة. وانه ـ أى النحاس باشا ـ أفضى برأيه هذا الى بعض الوزراء فقال لهم : « مكرم مش ناوى يقعد معنا وبكره تشوفوا » .. وان نجيب الهلالى ذهب يومئذ الى مكرم وسأله فى هذا فأنكر مكرم ان فى نيته شيئا من هذا وأكد اخلاصه للنحاس . وتضامنه مع زملائه أعضاء الوزارة ، ولكن النحاس باشا ظل متمسكا برأيه وهو « ان مكرم مش ناوى يقعد معانا »

الى أن كانت مسألة الاستثناءات التى كان رئيس الوزراء والوزراء طلبوها لعدد كبير من الموظفين الوفديين ومن الانصار والاقارب والمحسوبين .. وهنا أخذ وزير المالية مكرم عبيد يسوف ويماطل فى الرد على طلبات النحاس والوزراء ، وكان ـ عندما يعجله النحاس باشا بالرد ـ كان يقول له : «طول بالك شوية لأن اللجنة المالية بتعارض وأنا باعمل جهدى علشان أقنعها بالموافقة » ..

ومضى النحاس باشا فى حديثه يقول :

ـ ولكننى قلت له : المهم ان ترسلوا لنا ردكم أيا كان بالموافقة أو بالرفض مش مهم .. بس ردوا علينا الآن

الحركة واقفة ، وهناك حركة أخرى سوف تتلو هذه الترقيات المطلوبة ومش ممكن عملها الا بعدها.. واخيرا جاء رد اللجنة المالية وقال مكرم انه لم يكتبه وان اللجنة المالية هي التي كتبته.. وفي جلسة مجلس الوزراء التي عرضت فيها مذكرة اللجنة المالية بعدم الموافقة على الاستثناءات المطلوبة ــ وقد رفض المجلس هذه المذكرة

ــ قال مكرم انه لايرتب اية نتيجة على رفض مجلس الوزراء مذكرة اللجنة المالية ، وانه يضع استقالته تحت تصرفي ، ولكننا تصافينا في الجلسة ، وعند مغادرتنا لقاعة اجتماع مجلس الوزراء دعاني مكرم لتناول الغداء معه في داره ولكني اعتذرت بمرضي وانني أتناول ادوية معينة لم تكن معي ، وقلت له : انني سوف أتناول الغداء عنده في فرصة أخرى ..

ولكن مكرم ــ وقد كنا تصافينا كما قلت ــ نشر مذكرة اللجنة المالية بقصد التشنيع علي وعلى أقاربي ولكي يحرجني ويحرج زملاءه الوزراء أمام الرأي العام ، وهنا رأيت ان التعاون بيننا لم يعد ممكنا وقررت اخراجه من الوزارة ومن منصب سكرتير الوفد ، لأن دي مسألة ثقة وتعاون بين رئيس الوفد وسكرتير الوفد ، ولكن ليس في نيتي اخراجه من هيئة الوفد أو من الهيئة الوفدية ، وأرسلت اليه عثمان محرم باشا بصفته أقدم الوزراء لكي يذكره بوعده ويطلب منه أن يستقيل ، ولكن مكرم لم يكد يرى عثمان باشا حتى صاح : « أنا عارف انت جاي ليه ، لكن مش راح أستقيل ، وخلي النحاس يقيلني اذا كان يقدر »

ومعنى هذا ان مكرم كان واثقا من مركزه ، وكان يعرف مقدما ومن حسنين و«شلته» ان الملك سوف يرفض أن يقيله من الوزارة ..

ثم انتقل النحاس باشا بالحديث الى مقابلته لفاروق فى يوم الثلاثاء ٢٦ مايو عام ١٩٤٢

ولقد تمت المقابلة المذكورة بينماكان مكرم باشا جالسا فى احدى غرف القصر ينتظر دوره للمقابلة «الملكية» ولكن النحاس باشا لم يكن يعرف ان مكرم موجود فى السراى وانه سيقابل الملك ..

قال النحاس عن مقابلته لفاروق :

ـ ولما قابلت الملك التمست منه اقالة مكرم وشرحت لجلالته حكم الدستور فى هذا الشأن وكذلك حكم السوابق الدستورية ومنها اقالة عبد العزيز فهمى باشا ولكن جلالته قال : « لا .. لا .. بلاش السابقة دى .. شوف لنا يامصطفى باشا طريقة ثانية غير الاقالة » ..

قلت لجلالته : حسنين باشا هوه اللى تخن ودن مكرم علشان بعت له مع حسن الاعور يطلب منه الا يستقيل، فقل جلالتك لحسنين باشا ان يطلب من مكرم أن يستقيل أو أحسن من كده يبعت يجيبه فى السراى ويطلب منه باسم جلالتك أن يستقيل .. فقال الملك : دى فكرة عال ولكن نفرض ان مكرم رفض أن يستقيل يبقى الحل ايه ؟ أظن الاوفق يامصطفى باشا أن تقدم استقالة الوزارة ، وأنا أعدك ان خطاب التأليف بتشكيل الوزارة يصلك فى نفس اليوم ..

ومضى النحاس باشا فى روايته فقال :

ـ ولما رآنى الملك ترددت قال : « والا انت خايف منى ومش واثق فى كلامى » ، وأسرعت أقول له : معاذ الله يامولانا ، وانا أؤكد لمولاى اننى لم أقبل الوزارة الا اجابة لرغبتك ورغبة منى فى خدمتك وانا الآن احترق بالنار فى كل يوم ولا انام الليل ، وثق يامولاى أن أهنأ يوم فى حياتى هو يوم يقبل جلالة الملك استقالتى ويعفينى من

أعباء الوزارة وأنا مريض وصحتي متعبة ..

وقال فاروق : لو تعلق الامر بصحتك فقط لما كان هناك مانع من اعفائك من اعباء الحكم ، ولكن الظروف لا تسمح ..

ثم قال النحاس باشا ان مكرم قال لبعض الشيوخ والنواب الذين زاروه انني ـ أي النحاس ـ طلبت من الملك اقالته وان الملك رفض .. فمن الذي أخبر مكرم بهذا وبما دار بين الملك وبيني .. لازم يكون حسنين باشا .. وهي مؤامرة بينه وبين مكرم ..

وأصبحت وكلمت حسنين باشا بالتليفون ، قلت له : « النحاس باشا هايج جدا ويصر على اتهامك انت وبعض أصدقائك بكذا وكذا » ..

واحتد حسنين باشـــا ، ولعلها كانت المرة الوحيدة التي سمح فيها لنفسه بأن ينفعل وان يحتد، ولعله خشي العاقبة ، وأشفق من محاربة النحاس باشا له وقد كان يعرف ان مركز النحاس يومئذ كان قويا مؤيدا ، وانه اذا ركب النحاس راسه وأعلن الحرب على حسنين وقال مثلا : « اما انا .. واما حسنين » فقد يتدخل الانجليز مرة أخرى وقد يسفر تدخلهم عن نتائج لا تسر رئيس الديوان أحمد محمد حسنين ..

ومن هنا بدا الانفعال واضحا في صوت حسنين وهو يقول : « شوف يا محمد ، انا زي ما قلت لك ، لابد لي فيما حدث ، وليس في برنامجي أن أحارب النحاس باشا ، ولكن اذا كان عايز يهاجمني فسوف أضطر أن أشب على قدمي وأرد الضربة ضربتين .. »

ثم تواعدنا على اللقاء في بحر الاسبوع على أن أكلمه بالتليفون قبلها ..

ووجدت ان الحالة خطيرة وان الشد من الطرفين قد

يؤدى الى قطيعة أو ينتهي باصطدام ، وكلمت فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون وقلت له : ان مقابلتي معالنحاس باشا مساء أمس لم تنته الى النتيجة التى كنا نرجوها ، واننى اضطررت الى التظاهر بالموافقة على رأيه لأنى أدركت أن لا فائدة من مناقشة « رفعته » .. وقلت :

ـ وانت تعرف النحاس باشا وتعرف عناده وانه اذا انطلق فى حديث ، فليس هناك من يستطيع أن يقاطعه أو يوقفه ، وأنا فى الحقيقة لا أوافقه على رأيه فى حسنين وبعد ، هل منحسن السياسة مبادرة حسنين بالعداء ؟ فأرجوك يا باشا أن تعمل من ناحيتك على اقناع النحاس باشا بهذا الرأى ..

ووافقنى فؤاد سراج الدين وقال انه يفكر فى دعوة النحاس باشا والسيدة حرمه وحسنين باشا لتناول العشاء معه فى داره.. ولعلهذا الاجتماع العائلى يساعد على تهدئة الجو بين الطرفين ..

ومر يومان أو ثلاثة ، ولما لم اتصل بحسنين بالتليفون كما كنت وعدته سأل عنى هو مرتين وزرته فى داره فى صباح السبت وقلت له ان فؤاد سراج الدين يفكر فى دعوتك مع النحاس باشا لتناول العشاء فى داره ، فقال انه يفضل أن يبدأ هو بدعوة النحاس باشا والسيدة حرمه لتناول الغداء أو العشاء معه .. ثم عاد وقال :

ـ الافضل أن تتناول الغداء معى انت وفؤاد باشا أولا ..

وقمت الى التليفون وكلمت فؤاد باشا واتفقنا على ان نتناول الغداء مع حسنين باشا بعد غد أى يوم الاثنين.

وجلسنا حول مائدة الغداء فى دار حسنين باشا بميدان عبد المنعم بالدقى ..

وانقل هنا ـ بشيء من الايجاز ـ ما دونته يومئذ في

مذكراتى بتاريخ الاثنين ٨ يونية عام ١٩٤٢ :

قص علينا فؤاد باشا ــ ويظهر انه كان أعد مقدما حديثه ــ قص علينا بوادر الخلاف بين النحاس ومكرم ولو انني أعتقد ان هذه الحكاية لم تكن أول بادرة من بوادر الخلاف .. قال :

ــ ذات يوم وكان النحاس باشا لايزال يقيم فى الباخرة محاسن .. قالت زينب هانم للأستاذ قاسم جودة الذى كان يزورها كلاما كثيرا معناه انه وغيره من الصحفيين يسرفون فى الكتابة عن مكرم باشا وعن حركاته وسكناته بينما رئيس الوزراء نفسه وبقية الوزراء لا يكتب عنهم نصف ما يكتب عن مكرم عبيد ..

ويظهر ان الاستاذ قاسم جودة أبلغ مكرم باشا ما قالته زينب هانم لأن مكرم ذهب وقابل النحاس باشا وقال له ان زينب هانم تسيء اليه وتطعن فى حقه وعاتبه فى هذا .. وقال له النحاس باشا انه يستبعد صحة الخبر وسأله عن اسم الذى أبلغه هذا ، ولكن مكرم رفض أن يبوح باسمه ..

وأبلغ النحاس باشا السيدة زوجته أن مكرم عاتب عليها ، وروى لها ما سمعه منه ، وكانت السيدة مريضة فى فراشها ، ولكنها كلمت مكرم بالتليفون وطلبت منه أن يزورها ففعل ..

ولما دخل عليها قالت له ان مصطفى باشا أبلغها عتابه ولكنها تنكر أنها طعنت فيه أو أساءت اليه فى أى حديث لها ، وسألته عن اسم الذى نقل اليه هذه الرواية فقال : « شخص أثق فيه كل الثقة وهو لايكذب » ، ورفض أن يذكر اسمه ..

وطال الحديث والعتاب ، وبدرت من مكرم باشا هذه العبارة : « يظهر انك خايفه على مركز جوزك مني »..

وهنا انتفضت زينب هانم غاضبة وصاحت بصوت عال : « منك انت .. أخاف منك على مصطفى النحاس؟ ايه اللى تقدر عليه ؟ تقدر تعمل رئيس وزارة ، لكن هل تقدر تكسب الزعامة أو الحب الذى تكنه الأمة لمصطفى النحاس ؟ جوزى هو اللى خلقك ؟..

وقال مكرم : « اللى خلقنى ربنا مش جوزك .. وانا اللى كونت نفسى بجهادى وتضحياتى »

وكان النحاس باشا قد آثر أن يترك مكرم باشا وزينب هانم وحدهما يتعاتبان ، ولكنه أقبل على صياحهما ، فوجد زوجته تبكى غيظا وغضبا ، ولما سأل عن السبب التفت الى مكرم وقال : « انت غلطان ، قوم بوس راس أختك وصالحها » وقام مكرم وقبل رأسها ويدها.. وتصالحا وتصافيا ..

ثم قال فؤاد باشا ان زينب هانم اتفقت مع النحاس باشا على كتمان هذا الحادث عن جميع الناس حتى انه لما ذهب نجيب الهلالى باشا وأحد الوزراء الى والدها عبد الواحد الوكيل لكى يوسطاه فى الصلح بين ابنته ومكرم باشا ، وجدا ان الرجل لم يكن يعرف شيئا مطلقا ولم يكن قد سمع أى شىء مطلقا عن وجود أى خلاف أو سوء تفاهم بين ابنته زينب هانم ومكرم عبيد ..

ثم قال فؤاد باشا : ولكن مكرم خرج يقول لأصدقائه ان زينب هانم شتمته وأهانته ..

ثم انتقل فؤاد باشا سراج الدين الى نقطة أخرى فقال ان النحاس باشا كان قال للوزراء قبلها بشهر : ان مكرم باشا مش ناوى يقعد معانا ، وانه سوف يختار ميدان المعركة حول الاستثناءات ..

وانكر الوزراء على رفعته هذا القول وذهب نجيب الهلالى الى مكرم وسأله فى هذا فأنكر مكرم وأكد أن

لا شيء من هذا يدور بخاطره ، واكد مرة أخرى اخلاصه وولاءه لمصطفى النحاس ..

ولكن النحاس أصر على رأيه واتهامه لاخلاص مكرم وان الاستثناءات هي الميدان الذى سوف يختاره لمهاجمة الوزارة .. ثم قال النحاس : « وبكره تشوفوا ، وانا اقبل منازلته في الميدان الذى يختاره »

وتحدث فؤادسراج الدين بعد ذلك عن وزارة التموين والخلاف الذى كان ناشئا بسببها وأنكر على مكرم عبيد دعواه ، وهى انه فوجىء بها في خطاب العرش ، وقال ان الحديث في اعادة الوزارات الثلاث دار في احدى جلسات مجلس الوزراء وان مكرم عارض بشدة في سحب وزارة التموين منه ولكن النحاس باشا أقنعه بضرورة تخليه عن الوزارة المذكورة ، وهنا تظاهر مكرم بأنه قد اقتنع ، وبعدئذ طلب مكرم تأجيل تعيين وزير لوزارة التموين لمدة شهر واحد فأجابه النحاس باشا الى طلبه

وكان المفهوم ــ بل والمتفق عليه ــ أن يتقدم مكرم بعد انتهاء الشهر ويقول ان صحته متعبة وانه لايستطيع القيام بأعباء العمل في وزارتى المالية والتموين ومن ثم فهو يرجو اعفاءه من منصب وزير التموين ــ وكان هذا هو المتفق عليه ــ وهكذا ينقذ المظاهر أمام الناس ويعتقد الجميع انه ــ مكرم ــ هو الذى تخلى بمحض ارادته عن وزارة التموين ، ولكن الشهر الذى كان طلبه انقضى ولم يحرك مكرم ساكنا وبقى محتفظا بالوزارتين : المالية ، والتموين . وكان النحاس باشا قد وعد الملك بتعيين وزراء للوزارات الثلاث في بحر اسبوعين ..

واستدعى النحاس باشا مكرم وساله : متى يعلن رغبته في ترك وزارة التموين ؟

وقال مكرم : انه لن يترك وزارة التموين ..

وقال له النحاس : ازاى يا مكرم ؟ واقول للملك ايه ؟ اقول له أنا كذاب ؟ فأجابه مكرم : لا .. قل له أنا اللى كذاب .. !

وبعدها انتقل فؤاد سراج الدين الى الحديث عن البيان الذى قدم به مكرم الميزانية فقال ان البيان المذكور كان مفاجأة للنحاس وللوزراء لأن مكرم باشا لم يكن قد أطلع عليه أحدا منهم مع انه تعرض فى البيان لكل وزارة ولعمل كل وزير ، وارتبط فى هذا البيان أمام البرلمان بوعود لايرجع أمر تحقيقها اليه وحده بل يعود الى الوزارة كلها والى جميع الوزراء .. مثال ذلك انه أعلن فى بيانه ان ثمانية أوامر عسكرية سوف تصدر من الحاكم العسكرى العام ــ وهو النحاس باشا ــ فى مسائل كذا وكذا وكيت فهل كان سأل الحاكم العسكرى أولا عن رأيه قبل اعلان النبأ أمام البرلمان ؟

وأعلن كذلك فى بيانه ان قوانين كذا وكذا سوف تصدر فهل كان سأل الوزراء المختصين عن رأيهم .. مثال ذلك وهو أمر سبب حرجا كبيرا للوزارة .. انه أعلن فى بيان الميزانية ومن غير أن يستشير زميله وزير العدل ان البيوع الجبرية سوف توقف .. وصفق البرلمان طويلا لهذا النبأ ..

ولقد حدث بعد أيام معدودة من القاء البيان انه كانت هناك بيوع جبرية فى المحاكم المختلطة ، واستند المدينون الذين سوف تباع أملاكهم الى ما جاء فى بيان وزير المالية أمام البرلمان .. ولكن المحاكم المختلطة قالت أن بيان الوزير لايربطها لأن ما جاء فيه لم يصدر به قانون ..

وفزع المدينون الى وزير العدل ، وكان أن اضطر الوزير ــ صبرى أبوعلم ــ الى أن يتصل بالنائب العمومى لدى المحاكم المختلطة وبصفة شخصية ودية ويرجوه ان

يتدخل وينقذ الوزارة من هذا الحرج ..

واتفق الرأى على أن يحضر وكلاء النيابة جلسات البيوع الجبريه ويطلبوا التاجيل للاطلاع .. الى أن يصدر القانون المطلوب ..

وقال فؤاد باشا ان بيان مكرم كان طويلا ، وكان النحاس يتململ ويظهر ضجره وامتعاضه من بعض ماجاء فى البيان ولما طال القاء البيان وكانت الساعه قد جاوزت العاشرة مساء الى الحادية عشرة .. هم النحاس باشا بمغادرة الجلسة « مجلس النواب » ولكننى — فؤاد سراج الدين — همست فى أذنه انه لايليق أن يغادر الجلسه قبل ان ينتهى مكرم من القاء بيانه ، وجلس ..

ولما انتهى مكرم من القاء البيان قام اليه النحاس باشا من باب المجاملة — وقبله وقال له : « برافو يا مكرم » فكانت تحية بل ومجهودا يشكر عليه النحاس باشا ..

ومضى الاستاذ فؤاد سراج الدين فى روايته فقال :

— وفى صباح اليوم التالى استدعى النحاس باشا مكرم وعاتبه على ماجاء فى بيانه من وعود وعهود قيد بها الوزارة من غير أن يستأذن او يستأنس برأى أحد من زملائه الوزراء ، فضحك مكرم وقال له :

— نبقى خالصين .. زى حكاية وزارة التموين فى خطبة العرش أى ان هذه مفاجأة لكم ، وتلك كانت مفاجاة لى

ثم تكلم فؤاد سراج الدين عن مذكرة اللجنة المالية عن الاستثناءات التى كانت السبب المباشر فى اخراج مكرم من الوزارة فقال ان النحاس — كما سبق الذكر — كان يعرف ان مكرم سوف يختار هذا الميدان بالذات فكان يستعجله رد وزارة المالية على طلبات الترقية المطلوبه فى وزارة الداخلية وكان مكرم يقول انها لاتزال قيد البحث و«طول بالك يا باشا لأنى الاقى صعوبة مع اللجنة المالية»

واخيرا قال له النحاس باشا : «ردوا علينا كما تريدون المهم ابعتوا ردكم بالرفض او الموافقة علشان نقدر نتصرف»

واخيرا جاءت المذكرة ..

وكانت جريدة المقطم فى مساء الاربعاء ، وجريدة الاهرام فى صباح الخميس قد أشارتا الى هذه المذكره المقدمة من اللجنة المالية انها تتضمن رفض الموافقة على الترقيات والاستثناءات المطلوبة وقد اغضب نشر الخبر النحاس باشا

وكان الجو مكهربا ، وكنا جميعا نخشى من الانفجار ..

وتحدث بعض الوزراء فى هذا المعنى مع مكرم فأكد لهم ان المسألة مسألة «روتين» وان ليس فى نيته أى شيء خبيء ..

ودخل الوزراء قاعة اجتماع مجلس الوزراء وقلوبهم واجفة وما دار فى الجلسة المذكورة مدون فى محضر الجلسة الذى نشر ببلاغ رسمى ..

ولقد تصافى النحاس ومكرم فى ختام الجلسة « وقد رويت التفاصيل » وظن الوزراء ان الجو صفا ..

ولكن خاب ظننا فقد ذهب مكرم بنفسه الى جريدة المصرى ومعه مذكرة اللجنة المالية يطلب نشرها .. ويلح ويتوعد ويهدد اذا لم تنشر ..

وكان النحاس باشا قال أثناء جلسة مجلس الوزراء التى عرضت فيها المذكرة ان مذكرة اللجنة المالية هذه مقصود منها التشنيع عليه بالذات فقال له مكرم : « لو كنت عاوز ياباشا أشنع عليك كنت نشرت الامثلة والاسماء»

وهاهو قد نشر فعلا الامثلة والاسماء فى المذكرة التى نشرت بجريدة المصرى فى يوم السبت التالى لانعقاد جلسة مجلس الوزراء .. وهكذا سقطت حجة مكرم فى عدم رغبته فى التشنيع على مصطفى النحاس ..

وانتهى فؤاد سراج الدين من حديثه الذى لخص فيه

اسباب الخلاف بين النحاس ومكرم ..
وبدا حسنين باشا حديثه او دفاعه عن نفسه ، وعن سياسته فاستهل كلامه بعبارته «الاكلشيهية» المعروفة وهى انه لايشتغل بالسياسة ولا يفهم فى السياسة وقال ـ وهو يلتفت الى ـ كأنه يستشهد بى :
« ومحمد يعرف كده !.. مش كده يامحمد ؟ » ..
وابتسمت وقلت : بقى اسمع ما تحرجنيش وبلاش أسئلة علشان ما تسمعش منى أجوبة صريحة ..
وضحك .. وضحكنا ..
وبدا الحديث ورواية التاريخ منذ عام ١٩٣٧ ، وكيف انه كان زاهدا «كذا» فى منصب رئيس الديوان وكيف ان الملك ارغمه على قبول هذا المنصب فى عام ١٩٤٠ !
ثم شرح سياسته ، وقد سبق أن أفضت فيها وفى شرحها ، ولكننى أعود فألخص هنا حديثه فيما يلى :
قال :
١ ـ انسياسته قائمةعلىانالاغلبية ـ وهى الوفديين ـ تحكم ، وهذه سياسته منذ ان ولى رئاسة الديوان اى منذ عامين ..
٢ ـ انه عمل ومن قبل ان يلى الوفديون الحكم على اقناع الملك بأن الوفديين قد سالموه ، لا طمعا فى الحكم وانما اعترافا منهم بخطئهم فىالماضى«اى فى وزارة ١٩٣٧»
٣ ـ انهصارححسينسرى والدكتورهيكل والسعديين بأنسياسته تقوم على ان يتولىالوفديون ـ وهم الاغلبية ـ الحكم .. بينما الاحرار الدستوريون والسعديون يقومون بمعارضة قوية نزيهة ..
٤ ـ اسهب فى ذكر الخدمات التى أداها للوزارة الوفدية منذ تولت الحكم فى شهرفبراير الماضى ، وتحدث عن الصعاب العديدة التى ذللها من طريق الوزارة ..

٥ ـ أفاض فى وصف اعجابه بذكاء وظرف زينب هانم الوكيل ..

٦ ـ قارن بين الاشاعات السخيفة والتى لا يقوم دليل واحد على صدقها .. وهى الاشاعات التى يسمعها النحاس باشا ضده ـ ضد حسنين ـ وبين هذه الخدمات والحقائق البارزة التى دلل بها على حسن نواياه نحو النحاس باشا ..

هذه هى خلاصة حديث أو دفاع حسنين اجملتها فى عبارات أو عناوين .. ولكننى أحب أن أذكر «طرائف» جاءت فى التفاصيل التى لم أذكرها ..

كان حسنين عرض فى حديثه لمشروع البر والحفلات التى أقامتها زينب هانم للمشروع المذكور وقال ان فاروق لم يحضر الحفلات المذكورة حرصا على التقاليد ..

وهنا قلت أنا انه لو كان الملك حضر حفلة الشاى فى فندق مينا هاوس وجلس الى جانب زينب هانم حرم رئيس الوزراء لكانت الخطوة الثانية المنطقية أن تدعى حرم رئيس الوزراء وزوجات الوزراء الى حفلات السرأى الرسمية وكن يومئذ يختلطن بالمدعوين من سفراء ووزراء .. وهذا خرق للتقاليد .. ولكننا سوف نصل اليه قريبا وبالتدريج ..

وهنا قال حسنين ان الملكتين نازلى وفريدة تقولان انه لم تبق فى مصر سيدة تلبس «اليشمك» سواهما .. وان اللى عاوز يتفرج على حاجة انتيكة فى مصر يروح يتفرج عليهما وهما « باليشمك » ..

ولقد عرض حسنين أثناء حديثه الطويل لعلى ماهر وذكر رأيه فيه وفى سياسته وقد عرضت لهذا كله ..

وكان مما قاله ان السيد على ماهر لم يهنئه على تعيينه رئيسا للديوان ، ولكنه أرسل اليه الاستاذ ناصر

شاويش يقول له : « ان على ماهر باشا لم يحضر لتهنئتك لأنه مش عاوز ييجى السراى خوفا من ان يرى وجه عبد الوهاب طلعت » ..

ثم قال حسنين : ولقد كان عبد الوهاب طلعت الذراع اليمني لعلى ماهر.. ولكنه ــ بعد خروج علي ماهر من رياسة الديوان ومن الوزارة ــ راح يطعن فيه ويشهر به أمام جميع الكبراء الذين كان يلقاهم ..

ثم ذكر لنا حسنين كيف ان على ماهر ــ بالرغم من ذلك وبالرغم من طعن وتشهير عبد الوهاب طلعت ــ كان لايتردد فى الاستعانة بعبد الوهاب طلعت على الدس لحسن صبرى لدى فاروق حتى أن حسن صبرى ــ رحمه الله ــ مات محصورا مجزورا من على ماهر ..

وقد قال حسنين هذه العبارة وهو يمر بيده على رقبته ليرينا كيف ذبح على ماهر المرحوم حسن صبرى باشا

وروى لنا تفاصيل آخر دسيسة أو الدسيسة التى قضت ــ فى زعمه ــ على حياة حسن صبرى باشا ــ رحمه الله ..

قال : حدث قبل افتتاح الدورة البرلمانية فى نوفمبر عام ١٩٤٠ « وكان حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة» أن ذهب اليه أحد الوزراء وهو الدكتور عبد الحميد بدوى باشا واقترح عليه مراعاة لظروف الحرب الاقتصاد فى مظاهر الأبهة والفخامة والبهرج والموكب الملكى والزينات والاعلام .. الى آخره وأن يكتفى بأن يلقى رئيس الوزراء ــ أى حسن صبرى ــ خطبة العرش بالنيابة عن الملك ومن غير حضور الملك ..

وسرعان ما طار خبر هذا الاقتراح الى السراى ودخل على فاروق من صور له الأمر على انه خيانة عظمى « لصاحب الجلالة » ..

واصبح حسن صبرى متهما بالخيانة العظمى ، ولكن عبد الحميد بدوى ذهب الى حسنين وقال له فى صراحة تامة انه هو صاحب الاقتراح وان حسن صبرى لم يقبل اقتراحه على علاته بل طلب منه أن يتحدث فيه مع رئيس الديوان ..

وعرف فاروق ان حسن صبرى مظلوم .. فقلده بيده وقبيل حفلة افتتاح الدورة البرلمانية الوشاح الاكبر من نيشان محمد على ..

وتوفى حسن صبرى بعد ذلك بخمس وعشرين دقيقة

وكان الساسة من خصوم الوفد ومصطفى النحاس يرون أن رئيس الديوان احمد محمد حسنين لم يعرف أن ينتهز فرصة هذا الخلاف الذى نشب فى صفوف الوفد وفرق بين رئيسه مصطفى النحاس وسكرتيره العام مكرم عبيد .. وانه كان من واجب حسنين باشا أن ينتهز الفرصة ليطوح بالوزارة كلها وينتقم لحادث ٤ فبراير.

وكان من بين أصحاب هذا الرأى السيد على ماهر باشا الذى كان معتقلا يومئذ فى السرو. فقد قابلت أحد أصدقاء على ماهر فى جريدة الاهرام وقال لى : أن محمد على ماهر زار أباه على ماهر فى معتقله بالسرو وقد وجد أباه مسرورا جدا من تطور الحوادث ـ أى من الخلاف الذى وقع فى صفوف الوفد ـ وقد قال له أبوه على ماهر باشا : « لو كنت اليوم رئيسا للديوان لكنت طيرت مصطفى النحاس من الوزارة فى ٢٤ ساعة .. ولكن فى رئاسة الديوان دلوقت واحد خرنج » ..

و«خرنج» معناه عبيط أومعتوه ضعيف ، وكان يقصد حسنين باشا .. وكان من راى على ماهر باشا انه كان يجب على «الخرنج» احمد حسنين أن يشير على الملك فاروق يوم قدم اليه النحاس باشا استقالة الوزارة

باستدعاء زعماء الوفد ــ وزعماء الاحزاب الاخــــرى ــ لاستشارتهم فى الموقف على أساس ان هناك انشقاقا فى الوفد وهو الهيئة التى تستند اليها الوزارة فى الحكم.. ثم يشير على الملك باخراج النحاس ومكرم معا من الوزارة

ولكن «الخرنج» لم يعرف كيف ينتهز هذه الفرصة ، وقال لى صديق على ماهر باشا انه يقول كذلك : «التابعى كف عن الكتابة عنى لأنه احس بأن الرأى العام معى »..

وقلت انا : « كلا.. لقد كففت عن الكتابة عن رفعته لا لأن الرأى العام معه كما يقول .. بل لانه معتقل الآن ولا حول له ولا قوة » ..

وفى مقابلة اخرى قال لى بعض أصدقاء على ماهر باشا انه يشكو من آلام شديدة فى أسنانه وانه يصرخ أحيانا من شدة الألم ويقسم على انه سوف ينتقم من مصطفى النحاس الذى اعتقله ويعلن انه سوف يحاكمه أمام محكمة عسكرية بتهمة الخيانة العظمى وان المحكمة سوف تحكم على مصطفى النحاس بالاعدام ..

وكانت الاشاعات الذائعة يومئذ فى دوائر القصر وبين أنصار وأصدقاء على ماهر ان رفعته هو المرشح الوحيد لرياسة الوزارة بعد دخول جيوش المحور مصر.. وهزيمة الجيش البريطانى وانسحابه من مصر .. وكان الرأى السائد يومئذ ان الانجليز لابد مغلوبون على أمرهم وان روميل سوف يدخل مصر ...

المارشال روميل على أبواب مصر

وكان روميل قد بدأ يتحرك فى شهر يناير ..

ومضت المعارك مائعة بقية فصل الشتاء ، فلما أقبل الربيع بدأت الحالة تتطور بسرعة فى مصلحة جيش المحور — المانيا وايطاليا — وضد صالح بريطانيا وحلفائها ..

ومنى الجيش البريطانى بسلسلة من الهزائم ، لعل أشدها وأخطرها كانت معركة جسر الفرسان التى خسر فيها الجيش البريطانى معظم دباباته وانسحب تاركا الطريق مفتوحا أمام الماريشال روميل ..

وأحس كل من فى مصر ان الحالة خطيرة جدا .. فقد سقطت طبرق الحصن المنيع بدون مقاومة تذكر .. ومن بعدها سقطت الضبعة .. واحتل الجيش الالمانى السلوم .. وزحفت طلائعه نحو مرسى مطروح .. والاسكندرية ..

وفى صباح السبت ٢٧ يونية ١٩٤٢ — وكانت الشائعات المزعجة تملأ البلد — زرت حسنين فى داره فلم أجده .. وقيل لى انه ذهب يعود ابنه هشام فى المستشفى فقد أجريت له عملية الزائدة الدودية .. وانتظرت حتى حضر حسنين وقلت له اننى سألت هذا الصباح وزير العدل صبرى باشا أبوعلم عما اذا كان النحاس باشا قد أبلغ جلالة الملك تطورات الموقف فى الصحراء الغربية وأعطاه

صورة صحيحة عن الحالة ، أم تركه يستقى الاخبار من الخارج كما حدث يوم اغلاق الحدود .. وهل هو مثلا ابلغ الملك تفاصيل مادار فى الاجتماع الذى عقده «رفعته» فى يوم الاثنين الماضى ٢٢ يونية مع السفير مايلزلامبسون والجنرال ستون ؟ وان صبرى ابوعلم باشا قال لى : ان النحاس باشا قد أدى فى هذه المرة واجبه وانه ابلغك — انت ياحسنين باشا — كافة التفاصيل ..

قلت هذا لحسنين فابتسم بمرارة وقال : أبدا !

ثم مضى يقص على التفاصيل .. قال :

— عرفت ان النحاس باشا عقد اجتماعا مع من ذكرت وانتظرت أن يتصل بى فور انتهاء الاجتماع ولكنه لم يفعل ومضى العصر .. ثم المغرب .. واقبل الليل ورفعته لم يتصل بى .. وسألنى الملك : « هل اتصل بك رئيس الوزراء ؟ فقلت كلا .. ولعله يجمع الاخبار والتفاصيل وكل ما يمكن جمعه لكى يعطينا صورة كاملة عن الموقف»

« ولكن هذا كان فى الحقيقة اعتذار منى عن النحاس باشا لأننى كنت انتظر أن يتصل بى ويطلب مقابلة الملك لكى يبلغه ماحدث . ولكن الذى حدث أن رفعته أصدر بلاغا رسميا عن الاجتماع المذكور.. ونشرت الصحف البلاغ .. وكان ذلك قبل أن يطلع الملك على شىء ما »

وهكذا قرأ الملك البلاغ الرسمى فى الصحف مثل سائر الناس ومضى حسنين باشا فى روايته يقول :

« وفى صباح اليوم التالى لم أستطع صبرا ، والواقع اننى أهملت أو تهاملت فى أداء واجبى كرئيس للديوان لأنه كان يجب على أن أتصل بالنحاس باشا قبل ذلك وأسأله .. ولكننى راعيت الذوق الحسن فلم أفعل... ولكنى وجدت انه لم يبق موجب للــذوق .. فكلمت بالتليفون أمين عثمان باشا وبسطت له وجهة نظرى ..

وبعدها بقليل اتصل بى النحاس باشا وقال لى : « انت فين ؟ أنا بافتش عليك » .. وكلمنى كلاما عموميا عن الحالة ، وانها مطمئنة .. وسألنى اذا كنت أريد أن اقابله فقلت له : نعم أحب أن اقابل رفعتك.. قال : « بس أنا عندى برلمان النهاردة » قلت له : « اذن ففى اى وقت يناسبك » .. ثم حدثنى عن البيان الذى سيلقيه فى البرلمان وسألنى : هل يرسل لى نسخة منه فقلت : واكون شاكرا لو فعلت .. »

« وهكذا انتهى حديث النحاس باشا معى بالتليفون. وبعدها بقليل كلمنى أمين عثمان بالتليفون وقال لى : « انت مش عايز تقابل النحاس باشا ؟ » فقلت له : « ازاى » بالعكس.. أنا عاوز أقابله . قال : « هوه فهم كده » . فقلت : « فهم غلط .. وأنا غايته أحببت أن لاأربطه بموعد أوميعاد وتركت له اختيارالوقتالمناسب»

واتفقنا على موعد المقابلة ثم أبدى حسنين باشا رأيه فى البيان الذى القاه النحاس باشا فى البرلمان فقال انه فيما عدا ثلاث أو اربع نقط فان البيان المذكور يبدو كأنما قد كتب فى السفارة البريطانية . وانها لعجيبة أن يقولالنحاس باشا فى بيانه أنه مطمئن، بينما الانجليز انفسهم يسمون ماحدث «كارثة» ويصفون الحالة بأنها خطيرة وجرائد اليوم تقول نقلا عنجرائد لندن انالزحف الالمانى لو أوقف يكون هبة من الله .. ومع ذلك فان النحاس باشا يقول : انه مطمئن !..

***

ولم يقل النحاس باشا فى أول الامر لحسنين أكثر مما جاء فى البيان الذى القاه أمام مجلسى البرلمان وهو أن الحالة مطمئنة وان الانجليز سوف يدافعون عن مصر.. الى آخر مدى .. ولقد حاول حسنين أن يعرف من

النحاس باشا حدود « هذا المدى » وهل هو يقف مثلا عند مرسى مطروح ؟ أم أن الدفاع « الى آخر مـــدى » معناه أن الحرب سوف تجرى فى داخل البلاد ؟..

ولكن النحاس باشا رفض المناقشة فى امكان وقوع هذا الاحتمال .. وهنا يقول حسنين – رحمه الله – قلت له : « نفرض لا قدر الله ، لاسمح الله ، يعنى لو دخل الالمان مرسى مطروح او لو زحفوا بعدها ! » ..

ولكن النحاس باشا قال : مش ممكن ..

وعاد حسنين باشا يقول : « يعنى لاسمح الله ، لا قدر الله ، وربنا ما يقدر .. انما يعنى لو حصل ؟ ! »

فقال النحاس باشا : « يمكن نخلى المدنيين ساعتها يتركون المدن الى القرى .. »

يعنى الحرب تدخل مصر .. وهذا هو الخراب ..

***

وكان حسنين يروى لى تفاصيل هذا الحديث وهو منفعل وحائر فى فهم عقلية النحاس باشا .. وكيف انه أصبح آلة فى يد الانجليز.. وقد تحدث حسنين طويلا فى هذا المعنى وكان مما قاله : « النحاس باشا فى يد الانجليز خالص ، لانه يعرف انه لو كان الامر بيد البلد لما بقى فى رياسة الوزارة خمس دقائق .. »

ثم انتقل حسنين بالحديث الى الشائعات التى تقول بأن الجيش الانجليزى فى الصحراء الغربية لايريد ان يحارب .. وقارن بين موقفهم اليوم وموقف الجنود الايطاليين أيام الجنرال ويفل أيام كان جنود بريطانيا يحاربون بشجاعة .. وجنود ايطاليا يهربون .. [illegible] ذى الآية قد انعكست .. فأصبح الانجليز يهربون .. وجنود ايطاليا والمانيا وراءهم .. ثم قال : ان طيارا انجليزيا كان زاره فى داره وورطه حسنين فى الحديث

حتى اعترف له بأن هناك أمرا مريبا فى استسلام حصن طبرق الحصين فقد قال :

There is something fishy وان هذا الشيء المريب ــ كما قال حسنين ــ هو ان الجيش البريطانى رفض أن يقاوم وسلم للألمان من غير قتال ومضى حسنين يقول :

ــ فاذا كانت هذه هى الحالة فكيف يكون النحاس مطمئنا كما يقول ؟ بل لعل روميل على علم بحقيقة الحالة وانهيار معنوية الجيش البريطانى ولهذا السبب نراه يسرع فى زحفه حتى لايعطى الانجليز فرصة لجمع جموعهم ولم شملهم .. وقد لا يبعد أن يدخل على ــ فى أى وقت ــ فى مكتبى ضابط ألمانى يرفع يده بالتحية ويقول : هيل هتلر ! ..

ومضى حسنين باشا فى حديثه فقال فى معرض التدليل على خطورة الحالة التى يصر النحاس باشا على وصفها بأنها «مطمئنة» قال : ان هناك خطا قد أنشىء بين أمريكا ومصر لنقل الصور الفوتوغرافية باللاسلكى وقد افتتحه مستر روزفلت بارسال صورة له مع محمود حسن بك وزير مصر المفوض فى واشنجطون وقد نشرت الصحف المصرية الصورة المذكورة .. ورؤى بعدها أن ترسل القاهرة ردها على هذه التحية الى واشنجطون بارسال صورة الملك فاروق مع مستر كيرك وزير أمريكا المفوض فى القاهرة ..

ثم قال حسنين :

ــ ووقفت منذ أيام فى احدى الحفلات أتحدث مع مستر كيرك فى مسائل عادية فقلت له : اننى زرت أمريكا منذ سنوات ، وتعرفت برجالها وقلت لهم يومئذ ان أمريكا سوف تأخذ فى يوم مكانها فى قيادة العالم والمدنية الحديثة واننى لسعيد لأن نبوءتى قد تحققت .. وكنت

اظن ان مستر كيرك سوف يسر بكلامى هذا أو يعلق عليه بشيء ما ولكن الرجل ظل شارد الذهن ينظر الى بعينين « فارغتين » وكأنه لا يسمع حرفا مما أقول .. ذلك لانه كان يدرك خطورة الحالة ومدى الكارثة التى حلت بجيش الحلفاء فى الصحراء الغربية .. بينما انا لم أكن قد أدركت بعد هذه الحقيقة ومع ذلك فان النحاس يقول : ان الحالة « مطمئنة » ..

وعلا صوت حسنين وهو يقول :

ـ بقى دى بلد .. البلد كلها تهتز علشان النحاس اختلف مع مكرم .. ومافيش حديث فى البلد كلها الا عن خلاف مكرم والنحاس .. بينما الألمان على ابواب البلد والبلد مهددة بالخراب اذا قرر الانجليز المقاومة فى دلتا النيل وريف مصر ..

***

ثم عاد حسنين وتحدث عن عقلية النحاس باشا فقال انه قابله فى اليوم التالى لسقوط طبرق فى أيدى الالمان وكان ينتظر أن يحدثه النحاس باشا عن هذه الكارثة المروعة التى حلت بالانجليز وفتحت أمام الالمان الطريق الى الاسكندرية .. ولكن النحاس باشا سأله عن براءات رتبة الباشوية للوزراء ولماذا لم يرسلها الديوان حتى الآن ؟ وقال له حسنين : ان البراءات أرسلت فعلا ولكن النحاس أنكر وصولها . فأكد له حسنين انها أرسلت يوم كذا .. وهنا استدعى النحاس باشا الدكتور محمد صلاح الدين وسأله فى هذا فقال صلاح الدين ان البراءات قد وصلت حقيقة .. وضحك النحاس باشا وقال لحسنين «شوف ازاى أنا مش عارف ؟ البراءات عندى ومش عارف وكنت كلمت الملك عنها .. حتى ونكت معاه وقلت له : ايوه خلوها عندكم علشان اضحك على الوزراء واغيظهم

واقول لهم البراءات مش جايه وانتم مش باشوات» . .

ثم تحدث حسنين عن دقة وحرج مركزه وكيف انه يخشى أن يقال عنه «طابورخامس» ومن ثم يعرض مركز الملك للخطر اذا ذهب مثلا وطلب من السفير البريطانى ضمانات على عدم جر الحرب الى القاهرة ودلتا النيل . . أو طلب منه تفسيرات لعبارة « المقاومة الى آخر مدى » كذلك اذا أشار على الملك بدعوة زعماء البلد واستشارتهم فى الموقف فانه يخشى أن يقول الانجليز ان فاروق قد بدأ يستعد لتأليف وزارة ممالئة للمحور . .

وهز حسنين كتفيه وقال : انه حاول أن يجس نبض الزعماء فاجتمع مع بعضهم وتحدث معهم فى الموقف وخطورته وصواب الحصول على ضمانات بعدم تعريض البلد للخراب ولكن أحدا من الزعماء ـ ولا النحاس نفسه ـ يقبل أن يخطو هذه الخطوة فيقابل السفير البريطانى ويحدثه فى هذا الموضوع . . لأنهم جميعا يخافون من غضب الانجليز وشكوكهم . . أو غضب الالمان وانتقامهم

ثم قال بانفعال :

ـ ودينى وما أملك لقد تحققت من ان البلد دى كلها ما فيش فيها رجل واحد . . وأقسم بربى لو الحالة صفيت وربنا أنقذ البلد وأعطانى الملك «كارت بلانش» فى تأليف الوزارة فاننى لن أختار ولا واحدا من هـذا الطقم ابدا . . بل سوف أعمل وزارة من الشباب . . وأنا متأكد انهم لو غلطوا فان غلطاتهم تبقى أرحم بكثير من غلطات حضرات الزعماء الكبار . .

ثم قال بمرارة :

ـ زعماء ايه ياشيخ ؟ دول ما فيش فيهم ولا راجل واحد . .

وفهمت من حديثه ـ تلميحا واستنتاجا ـ ان النحاس باشا وقد تورط الى أبعد حد فى تأييد الانجليز والدعوة والدعاية لهم ليس بالرجل الذى يمكن أن يتفاهم معه الالمان اذا دخلوا البلد .. أو الرجل الذى يمكنه ان ينقذ ما يمكن انقاذه .. وان واجب النحاس باشا اذن هو أن يتخلى من تلقاء نفسه عن الحكم حتى يخلى السبيل لقيام وزارة أخرى لم يتورط رئيسها وأعضاؤها مع الانجليز الى هذا الحد .. ومن ثم يمكنها الى حد ما أن تتفاهم مع الالمان . ثم قال ، ولا أدرى هل هذا هو رأيه شخصيا أم رأى فاروق وقد اقتبسه فى حديثه ، قال : اننا شعب مستعبد فأين هى الوزارة التى تستطيع أن تودع الانجليز اذا خرجوا .. وتستطيع أن تستقبل الالمان اذا دخلوا ؟ وتقول للانجليز : وداعا يا أسيادى .. ثم تقول للألمان : أهلا وسهلا يا أسيادى ..

قال : يجب اعداد هذه الوزارة ..

***

قلت له : لقد عرضت عليك رئاسة الوزارة ثلاث مرات ورفضتها ، ولكنى اظن ان واجبك الآن أن تتولى الحكم وساعتها تقدر تكلم الانجليز وتتفاهم معهم على عدم خراب البلد ..

قال : ان الانجليز يتهموننى بأن سياستى «ماكيافيلية» فلن يطمئنوا الى . ان واجبى هو أن ابقى الى جانب الملك

قلت : ما انت برضه جنب الملك وانت رئيس وزارة ؟

ولكنه ـ ومن غير أن يتكلم كثيرا ـ راوغ فى الرد . وقدرت انه اما انه خائف مشفق من المسئولية .. واما اننى أصبت الهدف عن غير قصد وكانت منى رمية من غير رام .. أى انه قد فكر فعلا وقدر هذا الاحتمال وهو أن يتولى رئاسة الوزارة ولكنه لايريد أن يقولها لى الآن

أو احتمال ثالث وهو أن رئاسته للوزارة لا تفيد الملك فى شىء لأنه منسوب أو محسوب على الملك فكل خطوة منه سوف تفسر عند الانجليز بأنها ايعاز من فاروق.. وانه يمهد لدخول الالمان .. أو انه على الاقل يعمـــل بتصرفاته وخطواته هذه على نشر الفزع والقلق وروح الهزيمة فى البـــلد ..

وأراد حسنين ــ رحمه الله ــ أن يتخلص من الحديث فى هذا الموضوع وقد أحس بالحرج .. فقال :

ــ وهناك أمر عندما افكر فيه ترتجف ركبتاى ، وهو ان الانجليز اذا اضطروا الى الانسحاب من مصر فقد يأخذون معهم الملك ..

قلت : هذا أمر محتمل جدا.. ويبقى زى الملك بطرس ملك يوغوسلافيا وجورج الثانى ملك اليونان وساعتها يتخذه الانجليز مادة للدعاية ويقولون انه انضم اليهم وترك مصر هاربا من طغيان الالمان .. ويذيعون بيانات ونداءات باسمه ..

ثم قلت : ولماذا لا يفكر الملك فى الهرب ساعة الخطر ثم يعود الى مصر بعد دخول الالمان ؟

قال : مش ممكن لأن الملك تحت الرقابة الشديدة ..

قلت : وهل بلغ الامر الى هذا الحد ؟

قال : نعم .. للأسف لايجد احدا يطمئن اليه .. حتى ولا حكومته لأنها ضالعة مع الانجليز . ثم قال : ونفرض ان الملك اســـتطاع الهرب ، ثم حدثت بعدها معجزة وأمكن للانجليز صد زحف جيوش روميل يبقى مركز الملك فاروق ايه بعد أن هرب ؟.. لن يستطيع العودة الى مصر.. ان الصعوبة هى فى تحديد اليوم أو الموقف الذى يصح للمرء أن يقول فيه انكل أمل للانجليز فى كسب المعركة قد ضاع.. وانهم لابد أن يخرجوا من

مصر.. وان هذه هى الساعة .. أو هذا هو اليوم.. كيف نحدده ؟..

قلت : يوم يجتاز الالمان خطوط مرسى مطروح ..

قال : كلا .. فلو فرضنا واستولى الالمان على مرسى مطروح فان الانجليز ينوون مواصلة الدفاع .. ومنه تدمير خزان اسوان وقناطر محمدعلى لكى يغرقوا اراضى الدلتا ويجعلوها بحرا من الطين تغوص فيه دبابات الالمان

قلت : كلام فارغ .. مرسى مطروح اذا ضاعت .. ضاع كل شىء ، ولابد يومئذ من انسحابهم ودخول الالمان

قال : يعنى راية الخطر.. الراية الحمراء هى سقوط مرسى مطروح ؟! ..

قلت : نعم .. دون شك ..

وسكت حسنين يفكر قليلا ..

وقلت : ومن يعرف .. اذا تمكنوا من حمل الملك معهم قسرا ، فربما صحبوا معهم أيضا النحاس ووزراءه لتكوين حكومة مصر « الشرعية أو الحرة » خارج مصر مثل حكومات بولندة والنرويج وهولندة .. الى آخره ..

قال : صحيح ..

***

وانهارت تماما مقاومة الانجليز فى الصحراء الغربية ، وسقطت خطوط دفاعهم الواحد بعد الآخر وكان الجنود الالمان يجدون مشقة فى اللحاق بالجنود البريطانيين بسبب سرعة انسحابهم ..

وسقطت مرسى مطروح فى ايدى الالمان ..

وتقدمت بعدها قوات المحور .. ثم توقفت بسبب نفاد الوقود أو البترول الذى لا غنى عنه فى حرب الدبابات وكان توقفها عند « عنق الزجاجة » الذى اختاره البريطانيون خطا لدفاعهم الاخير قبل الاسكندرية ..

وكان « عنق الزجاجة » هذا ـ أو خط الدفاع ـ يمتد ما بين البحر عند محطة العلمين ومنخفض القطارة ويبعد عن المكس ـ احدى ضواحي الاسكندرية ـ بنحو أربعين كيلومترا ..

وبدأ أهالى الاسكندرية يسمعون دوى المدافع وهى تطرق أبواب دلتا النيل .. وساد الذعر والرعب والفزع وخصوصا بين يهود مصر الذين أسرعوا الى بضائعهم المكدسة فى المخازن يعرضونها للبيع بأرخص الاسعار .. وكان المارة فى شارع جامع شركس بالقاهرة يشاهدون يومئذ عشرات منهم يحاصرون قنصلية بريطانيا ليحاولوا الحصول على « فيزا » أو اذن بدخول فلسطين أو جنوب افريقيا

كانت بحق أيام الذعر والفزع وكان من الصعب أن يصدق أحد ان شيئا ما سوف يوقف الزحف الالمانى ويحول دون دخولهم الاسكندرية والقاهرة ..

اللهم الا اذا وقعت معجزة ، ولكن سلطات الحلفاء لم تكن فيما يظهر تؤمن أو حتى ترجو يومئذ وقوع هذه المعجزة .. فقد كان المارة فى ميدان قصر الدوبارة والشوارع المحيطة به يرون أعمدة الدخان تتصاعد من مداخن السفارة البريطانية والسفارة الامريكية وبعض المباني والدور والعمارات التي كانت تشغلها ادارات مختلفة تابعة لقيادة الجيش البريطانى ..

وكانت أعمدة الدخان تتصاعد ليلا ونهارا ، أياما متوالية .. وعرف سكان القاهرة ان رجال السفارتين والقيادة البريطانية يحرقون أوراقهم السرية استعدادا لمغادرة القاهرة ..

وسافر بعض كبار الماليين والادباء والصحفيين ممن كانوا يحملون يومئذ على هتلر والنازية ، أو كانت لهم علاقات بمجهود بريطانيا الحربى .. سافروا الى اسوان

ومنها الى الخرطوم ..
وقابلت ذات صباح الاستاذ محمود أبوالفتح وسألنى .
ـ راح تودى فلوسك فين ؟..
قلت : فلوسى كلها احملها فى جيبى ..
وابتسم وقال انه ارسل«فلوسه» الى جنوب افريقيا وفى مساء نفس اليوم وكنت فىجريدة الاهرام أسأل عن آخر الاخبار ، سألنى رئيس التحرير الاستاذ انطون الجميل باشا ماذا يفعل بأمواله المودعة فى البنوك ؟ !..

وقلت له ان محمود أبو الفتح أرسل أمواله الى جنوب افريقيا .. وابتسم ـ رحمه الله ـ بمرارة ، وقال :
ـ وهو يعنى جنوب افريقيا اللى مأمون ومضمون ..

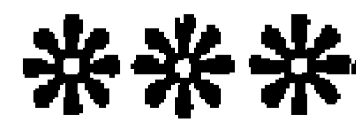
وكان الاستاذ انطون الجميل يعتقد انه اذا سقطت مصر فى أيدى الالمان فلن يقف بعدئذ شىء فى طريقهم .. بل سوف يكتسحون وادى النيل الى جنوب افريقيا.. ويشقون طريقهم شرقا كما تشـــق السكين طريقها فى قالب الزبد عبر فلسطين ولبنان وسوريا والعراق ..

وقص على المرحوم الاستاذ توفيق دوس باشا المحامى ورئيس مجلس ادارة شركة الفنادق المصرية .. قال :
ـ وذات صباح دق جرس التليفون فى مكتبى واذا بالمتكلم أحد رجال السفارة البريطانية وطلب منى باسم السفارة واسم القيادة البريطانية ان اعمل فى ظرف ٢٤ ساعة لا أكثر على فتح واعداد فندق ونتر بلاس بالاقصر وكان الفندق المذكور مغلقا يومئذ لأننا فى الصيف ـ شهر يولية ـ والفندق لا يفتح الا فى موسم الشتاء ..
وقلت للمتحدث باسم السفارة والقيـادة ان هــذا مستحيـــل .. لأنه يجب أولا جمـــع عشرات الخدم والسفرجية والطهــاة الى آخره .. لتنظيف الفنــدق واعداده .. ولكن المتحدث قاطعنى قائلا : ان لا ضرورة

لشيء من هـــذا .. بل لا ضرورة لوجود أى خدم أو سفرجية على الاطلاق.. لأن البنات سوف يقمن بتنظيف الفندق وخدمة أنفسهن بأنفسهن.. بل وطهى طعامهن. والمهم هو فتح الفندق فورا لأن قطارا خاصا يغادر القاهرة مساء اليوم وهو يحمل خمسمائة من فتيات « الانسا » والمجندات البريطانيات الى الاقصر.. ومنها ــ اذا لزم الامر ــ الى الخرطوم ..

قال توفيق دوس باشا :

ــ ثم ضحك محدثى من السفارة البريطانية وهو يقول : ولعلك توافق على انه من غير المرغوب فيه أن نترك وراءنا فى القاهرة كل هذه المتعة وأسباب السرور غنيمة للجنود الالمان ..



وفتيات « الانسا » فرقة كانت مخصصة للترفيه عن الجنود البريطانيين فكانت تقيم لهم فى مختلف المعسكرات حفلات الغناء والموسيقى والتمثيل ..

اذن فقد كان الخطر خطرا حقيقيا ، لا مبالغة فيه.. وها هى ذى السلطات العليا التى تعرف الحقائق تحرق أوراقها .. وتسرع وترسل الفتيات البريطانيات المجندات بعيدا عن القاهرة ــ الميئوس من انقاذها ــ الى الأقصر منطقة الامان ولو الى حين ..

ثم انتشرت اشاعة تبين فيما بعد انها خبر صحيح ، وفحواها ان السلطات البريطانية العسكرية طلبت بالحاح من الحكومة المصرية اغراق غرب الدلتا أومديرية البحيرة وما الى جنوبها .. لكى تحول هذه الاراضى الى بحر من الطين تغوص فيه دبابات الجيش الالمانى وعربات النقل وســياراته ومدرعاته ومصــفحاته .. وتعرقل زحف روميل على دلتا النيل ..

وبدات الوف من المهاجرين تفد على القـــاهرة من الاسكندرية والبحيرة وشمال الدلتا .. وارسل الضابط المصرى قائد منطقة الاسكندرية خطابا سريا الى وزارة الحربية المصرية فى القاهرة .. يسالها فيه عما يجب عليه عمله فى حالة دخول قوات المحور من الالمان والايطاليين. هل يجب عليه أن يقاوم هو وجنوده ؟ أم يستسلم ويسلم سلاحه وذخيرته ؟..

وعرض الخطاب أو السؤال المذكور على وزير الحربية يومئذ المرحوم الفريق حمدى سيف النصر باشا فقال :

ـــ ما تردوش عليه ..

ولكن قائد الاسكندرية عاد وأرسل بعد يومين رسالة سرية أخرى كتب عليها « مستعجل جدا » ويكرر فيها نفس السؤال ويلح فى الجواب .. فقال وزير الحربية :

ـــ انقلوا ابن الـ . . . ده من اسكندرية وارسلوه حته تانيه وابعتوا واحد تانى محله .. هو عاوز يودينى فى داهية ..

ذلك أن حمدى باشا ـــ رحمه الله ـــ كان يخشى اذا أمر قائد الاسكندرية بالمقاومة ثم دخل الالمان ، أن يحاكمه الالمان أمام مجلس عسكرى .. واذا أمره بالاستســلام للألمـــان ثم نجح الانجليز فى صد الالمان .. أن يحاكمه الانجليز بتهمة الخيانة ..

ومن هنا رفض أن يرد على رســـالة قائد منطقـــة الاسكندرية ..

وفى هذا الجو من التوتر والفزع .. اجتمع مجلس الوزراء برياسة «صاحب المقام الرفيع» مصطفى النحاس باشا وقال رفعته فى بداية الاجتماع انه رأى بسبب خطورة الحالة وتطورها السريع أن يدعو المجلس للنظر فيما يجب عليه اتخاذه لتأمين سلامة البلاد ..

بينما كان «رفعته» يؤكد منذ أيام قلائل ان الحالة «مطمئنة» ! وبعد أن تناقش الوزراء طويلا فى الموقف وقدروا جميع الاحتمالات قرروا أن يرسل مجلس الوزراء خطابا بامضاء « رفعة » رئيس الحكومة الى الماريشال روميل ..

وعهدوا الى الاستاذ نجيب الهلالى باشا بوضع صيغة الخطاب المذكور ، وكتب الاستاذ الوزير الاديب الخطاب المذكور ــ وقد تكون صورة من هذا الخطاب التاريخى محفوظة فى سجلات مجلس الوزراء ..

***

وقد جاء فى الخطاب : ان مصر دولة غير محاربة وان جميع الاجراءات العسكرية التى اتخذتها السلطات العسكرية البريطانية فى مصر قد تمت كرها أو على غير رغبة من الحكومة المصرية ..

وان مصر حكومة وشعبا تحب السلام وتستمسك به وان حكومة مصر قد اتخذت الآن جميع الاجراءات لحفظ الامن والحيلولة دون وقوع أية اضطرابات ..

وهذه هى خلاصة الخطاب المذكور كما استقيتها من أوثق المصادر ..

واتفق رأى مجلس الوزراء على أن يكون رسولهم الذى يحمل هذا الخطاب الى الماريشال روميل هو محافظ الاسكندرية وكان يومئذ عبد الخالق حسونة باشا الامين العام ــ الآن ــ لمجلس جامعة الدول العربية ..

ونزولا على حكم «البروتوكول» والعرف والتقاليد.. وتقديرا لخطورة الحالة وخطورة المهمة قرر المجلس أن يعهد الى أكبر أعضائه سنا وأقدمهم عهدا بالمنصب الوزارى وهو عثمان محرم باشا بالاتصال بمحافظ الاسكندرية عبد الخالق حسونة باشا .. ليبلغه خبر المهمة الجليلة

الخطيرة التى يعهد بها اليه مجلس الوزراء !..

واتصل عثمان محرم باشا بمحافظ الاسكندرية عبد الخالق حسونة باشا وأبلغه قرار مجلس الوزراء وقال ان خطاب رفعة النحاس باشا الى الماريشال روميل سوف يرسل اليه مع رسول خاص ..

ولا بد ان السيد عبد الخالق حسونة ففر فاه دهشة وهو يتلقى تفاصيل هذه المهمة العجيبة التى يكلفه بها مجلس الوزراء ..

ولكنه سأل وزير الاشغال :

ــ وكيف السبيل للوصول الى الماريشال روميل ، وتسليمه خطاب رئيس الحكومة ؟..

وأجاب عثمان محرم باشا :

ــ تركب يا أخى سيارتك وتخرج بها الى أن تقابل روميل وهو قادم فى طريقه الى الاسكندرية ..

وهنا لم يستطع السيد عبد الخالق حسونة أن يخفى السخرية من لهجته وهو يسأل او يتساءل :

ــ هل حصلتم يا معالى الباشا من الجيش الانجليزى على تصريح لى بالمرور بسيارتى ؟..

وسكت « معالى » الباشا الوزير ..

وعاد محافظ الاسكندرية يقول :

ــ ان بينى وبين الوصول الى الجيش الالمانى قوات الجيش البريطانى المنتشرة على طول الخط .. وهناك كذلك أسلاك شائكة وحقول الغام.. ثم ليس من الضرورى ان يكون الماريشال روميل موجودا فى مقدمة جيشه .. فقد يكون فى مقر قيادته فى المؤخرة وراء الخطوط .. وسوف يلزمنى فى هذه الحالة جواز أمان من القيادة الالمانية بخلاف جواز المرور والامان من القيادة البريطانية فهل فكرتم فى هذا كله يا معالى الباشا ؟..

وضاق صدر عثمان محرم باشا بكل هـذه الاسئلة وهذه الاعتراضات التيأثارها محافظ الاسكندرية والتى لم تكن موضع بحث أو مناقشة فى مجلس الوزراء .. لأن أحدا من أصحاب الرفعة والمعالى الوزراء لم يخطر بباله ان مقابلة روميل ستكون بمثل هذه الصعوبة ..

ضاق صدر معاليه فقال :

ـ على كل حال الخطاب جاى لك .. واحفظه عندك لحد ما تقابل روميل وتسلمه له يدا بيد ..

وعاد محافظ الاسكندرية يسأل :

ـ ولـكن اقابل روميل ازاى ؟ !..

وأجاب وزير الاشغال :

ـ لما يدخل الآسكندرية .. روح قابله واعطى له الجواب ..

وهكذا انتهت هذه المحادثة التاريخية العجيبة ..

ولحسن حظ السيد عبد الخالق حسونة .. وسوء حظ التاريخ .. لم يدخل روميل الاسكندرية ويتسلم الخطاب الممهور بامضاء السيد مصطفى النحاس ..

وأنقل هنا من مذكراتى المكتوبة فى مساء السبت ٢٧ يونية سنة ١٩٤٢ :

كلمت فؤاد سراج الدين باشا بالتليفون واتفقنا على أن نتقابل فى «جروبى» الساعة الثامنة مساء .. ولكنه عاد وكلمنى فى منتصف الساعة السابعة واقترح أن تكون المقابلة فى داره فى نفس الميعاد ..

وكانت هذه أول مرة أدخل فيها داره الفخمة فى جاردن سيتى ..

وسألنى عما اذا كنت سمعت بخطـــاب مكرم باشا فقلت : لا .. لم أسمع شيئا .. قال : ان مكرم باشـــا أرسل الى النحاس باشا أول أمس خطابا منه ومن عشرين

نائبا يطلب فيه عقد الهيئة الوفدية فى صباح يوم الاثنين « بعد غد ٢٩ يونية » للنظر والمناقشة فى المسائل الآتية :

١ ــ الموقف الحربى الحالى ..

٢ ــ الاستثناءات التى لا تزال الوزارة سادرة فيها..

٣ ــ التصريحات بتصدير بعض المواد الاولية التى ترخص بها الوزارة لبعض أنصارها والمحسوبين عليها..

٤ ــ مراقبة دار مكرم عبيد والحصار المضروب حولها

٥ ــ تحديد مركز مكرم باشا فى الوفد ومنصب سكرتير الوفد وهذا بسبب تصريحات النحاس باشا فى اجتماعات عديدة أعلن فيها ان مكرم لم يعد سكرتيرا للوفد ..

ثم قال فؤاد سراج الدين باشا ان النحاس باشا قال بعد أن قرأ خطاب مكرم انه لن يرد عليه وانه ــ أى فؤاد باشا ــ وافقه على رأيه .. ولكن النحاس باشا عدل عن رأيه وأرسل الدكتور محمد صلاح الدين لكى يبلغ رد النحاس باشا وهو :

ان النحاس باشا يطلب من الذين ارسلوا هذا الخطاب أن يقابلوه لكى يعرف منهم شخصيا الاسباب التى يريدون من أجلها عقد الهيئة الوفدية ..

ثم .. عن :

١ ــ غير ممكن أن يقول النحاس باشا عن الموقف الحربى أكثر مما قاله فى مجلس النواب ..

٢ ــ لقد أبديت يامكرم باشا رأيك فى الاستثناءات وأبديت أنا رأيى ، وأيدنى الوزراء فى رأيى .. وهناك استجواب مقدم وسوف ينظر فى يوم الاثنين ويمكنك يومئذ أن تقول كل ما تريده أثناء مناقشة الاستجواب فى مجلس النواب ..

وعن ٣ ــ غير صحيح ..

وعن ٤ ــ غير صحيح ..

وأما عن ٥ — فانك يا مكرم لست سكرتيرا للوفد ، لأنك لم تعد سكرتيرا للوفد .. وبناء عليه أرفض طلب عقد الهيئة الوفدية ..

ثم قال فؤاد سراج الدين تعليقا على خطاب مكرم :

— ان مكرم كان يعرف مقدما ان النحاس باشا لن يوافق على دعوة الهيئة الوفدية للاجتماع فى صباح بعد غد الاثنين للمناقشة فى المسائل التى ذكرها هو واصحابه فى الخطاب ومنها مسألة الاستثناءات التى قدم عنهسا استجوابا تحدد لنظره جلسة نفس اليوم الاثنين ، ولكن مكرم أراد ان يقوم بمناورة بارعة يستبق بها الحوادث ويبرر موقفه فى هذه الجلسة القادمة لأن فى نيته أن يهاجم النحاس باشا ويحمــل على الوزارة فى الجلسة المذكورة .. ولكنه يشفق من عتاب العاتبين ولوم اللائمين ومن أن يقال له : «كيف — وأنت لاتزال عضوا فى الوفد والهيئة الوفدية — كيف تهاجم رئيس الهيئة ورئيسك وتحمل على وزارة الهيئة التى تنتمى اليها ؟ » ومن هنا ارسل خطابه لكى يمكنه أن يقول للعاتبين واللائمين : « لقد حاولت أن أناقش مصطفى باشا فى هذه المسائل فى الهيئة الوفدية اى فى اجتماع عائلى فيما بيننا ولكنه رفض .. فلا تلومونى اذن اذا تكلمت علانية فى جلسة مجلس النواب » ..

هذه هى مناورة مكرم البارعة ، لأنه كان يعرف مقدما ان النحاس باشا لن يوافق على عقد الهيئة الوفدية..

وكنت ذكرت راى الاستاذ فؤاد سراج الدين وهو انه كان يرى ان من الاصوب فصل مكرم عبيد من الوفد « الآن » أثناء وجود النحاس باشا فى رياسة الوزارة وفى يده سلطات الرقابة المفروضة على النشر والصحافة خير من السكوت عليه ، اذ قد يضطر الوفد فيما بعد الى

فصله ، وقد يكون النحاس باشا يومئذ خارج الحكم ولاسلطان له على الرقابة ولاسلطة له فى منع نشر ما لا يرضيه اذا حمل عليه مكرم فى الصحف ..

ولقد عاد فؤاد باشا هذا المساء ـ مساء ٢٧ يونية ـ الى نفس الموضوع ونفس المعنى ، فقال :

ـ ان مكرم لايزال عضوا فى هيئة الوفد ، ولهذا السبب فان مهاجمته أو الحملة عليه ليست ممكنة الآن، بل ان اعضاء الهيئة الوفدية والوفديين جميعا الموالين المخلصين للنحاس باشا يمسكون بأعصابهم والسنتهم ولا يسمحون لأنفسهم بالحملة عليه احتراما منهم لعضويته فى الوفد والهيئة الوفدية ولكن يوم يعلن فصل مكرم من الوفد فان المانع يزول وتنطلق السنة الجميع ضد مكرم عبيد ..

وانتهى فؤاد سراج الدين من الحديث عن خطاب مكرم عبيد ..

وكنت أصغى اليه وانا أعجب كيف يمكن لرجال مصر المسئولين ان يشغلوا انفسهم بأمر الخلاف بين النحاس ومكرم .. وجيوش روميل تطرق أبواب مصر ، ودلتا النيل مهددة بالخراب ؟

وقلت لفؤاد باشا اننى زرت حسنين «رئيس الديوان الملكى» هذا الصباح ووجدته مشغول البال على ابنه هشام الذى اجريت له أول أمس عملية المصران الاعور، واننى فهمت من حديث حسنين ان كل من فى القصر ـ من الملك الى أصغر فرد فى الحاشية ـ جميعهم خائفون جزعون قلقون من تطور الموقف الحربى من سيىء الى أسوأ.. وانهم جميعا يتساءلون عن نوايا الانجليز وخططهم والى اى مدى ينوون الدفاع والمقاومة ؟ هل يذهبون فى هذا المدى الى حد نقل الحرب الى دلتا النيل معتمدين

كما قال احد نقادهم العسكريين على فروع النيل وقنواته في تعطيل زحف الالمان ..

ثم سألته : لم لايطلب النحاس باشا مقابلة الملك شخصيا لكي يبلغه آخر تطورات الحالة ويطمئنه ان كان عند رفعته أسباب تدعو الى الاطمئنان؟ ووافقنى فؤاد باشا على رأيي وقال انه يحبذ مقابلة النحاس للملك وانه اذا كان النحاس لم يطلب حتى اليوم مقابلة فاروق ، فذلك لانه كان يخشى أن يرفض فاروق مقابلته أو يسوف فيها كما سبق أن حدث ..

ثم قال انه سيقابل النحاس باشا الآن لأنهم مدعوون عند الاستاذ حسن يس لتناول العشاء وسوف يقول لرفعته ان هذا هو رأيي من غير أن يدخل في التفاصيل.

وتركت فؤاد سراج الدين وعدت الى دارى ، ومنها سألت بالتليفون عن حسنين باشا فقيل لى انه لم يعد بعد

وكلمنى هو بالتليفون في منتصف الساعة الحادية عشرة مساء .. ورويت له ما دار بين فؤاد باشا وبينى .. واننى اقترحت أن يطلب النحاس باشا مقابلة الملك .. الى آخره .. الى آخره ..

وقال حسنين : عال خالص ..

وشكرنى بحرارة ..

وأصبحنا يوم الاحد ٢٨ يونية ..

وكلمت صبرى أبو علم باشا فى مسألة تخص أحد الزملاء الصحفيين وكان الزميل المذكور وسطنى فيها لدى صبرى أبو علم باشا رحمه الله

وعرفت من صبرى باشا أثناء الحديث ان « رفعة الرئيس » موجود الآن مع جلالة الملك . وان رفعته كان « التمس » المقابلة هذا الصباح فأجيب طلبه فى الحال .. واستقبله فاروق فى نفس الصباح ..

وكلمت حسنين فى مكتبه بالقصر وسألته عن الحالة فقال : « أيوه .. وصاحبك هنا ـ يقصد النحاس باشا ـ لكن اظن فات الوقت لأن الاخبار وحشة .. وبعدين أقول لك » .

و « الاخبار الوحشة » التى كان يشير اليها لابد أن تكون أخبار الموقعة الحربية الدائرة عند مرسى مطروح.

ولم يكن فى امكان حسنين أن يفسر اكثر من ذلك بالتليفون .. لأن موظفي تليفونات قصر عابدين ـ كما كان قد قال لى هو بنفسه ـ كانوا ينصتون للاحاديث وينقلون الاخبار التي يسمعونها .. ؟

ثم عاد حسنين وكلمنى بالتليفون فى ساعة متأخرة من المساء وكنت فى دارى .. وقال : ان النحاس لم يطلع الملك فى مقابلة الصباح على شيء جديد .. وانه وان تكن الاشاعات مزعجة .. الا ان أخبار «اخواننا» هنا مطمئنة

ولم يزد على هذا . . وكعادتى معه لم ألح فى الاستفسار أو طلب المزيد من التفاصيل ولا أعرف من هم الذين يقصدهم «باخواننا» ؟ هل يقصد الانجليز ، أم يقصد النحاس باشا ووزرائه ؟..

ولم يكن فى نيتى أن أخرج هذا المساء ، ولكنى ذهبت الى جريدة الاهرام لكى أسأل عن آخر الاخبار الواردة من جبهة القتال .. وقابلت فى مكتب رئيس التحرير الدكتور محمود عزمى والسيدة قرينته ..

وقالت السيدة أو على الاصح سألتني : ما اذا كنت سمعت ان فلانا قد طلق زوجته فلانة ؟..

وفلان هذا كان من نجوم السينما وابناء الذوات وقد توفاه الله منذ سنوات .. أما فلانة فلا تزال على قيد الحياة .. قلت انني لم أسمع شيئا عن هذا الطلاق..

قالت السيدة حرم الدكتور محمود عزمى ان فلانة

هذه هى الآن «صديقة» الجنرال ريتشى قائد الجيوش البريطانية فى الصحراء الغربية .. وان الجنرال لم يسافر الى الميدان بل يدير المعركة بالتليفون ، والى جانبه صديقته فلانة المذكورة ..

وقال المرحوم محمود عزمى :

ــ على كل حال الثابت ان الجنرال ريتشى كان يزور الاسكندرية مرة فى كل اسبوع وينزل بفندق بوريفاج حيث كانت تقابله فلانة المذكورة ..

وقلت أنا ان الاشاعات كثيرة عن فلانة هذه ومعظمها غير صحيح ..

ثم سألت الدكتور محمود عزمى عن رأيه فى الحالة ، وفى دفاع الانجليز ؟ فقال : ان الانجليز ينوون الدفاع عن مصر الى آخر رمق وان خطتهم وخطوط دفاعهم هى :

١ ــ مرسى مطروح ..
٢ ــ الضبعة ..
٣ ــ الخطاطبة « فى مديرية البحيرة » ..
٤ ــ من الاهرام الى الزمالك ..
٥ ــ قناة السويس ..

قلت : والاسكندرية .. والقاهرة ؟ ..

قال : لم يتخذ بشأنهما بعد أى قرار ..

قلت : على أى حال اذا كانت هذه هى خطة الانجليز فانها تعنى خراب مصر ..

قالت السيدة حرم محمود عزمى :

ــ نعم .. الدفاع شبرا شبرا كما فعل الروس فى مدينة سباستبول ..

وأنقل عن مذكراتى بتاريخ ٢٩ يونية عام ١٩٤٢ :

الحالة تزداد خطورة ، واشاعات مزعجة تملأ البلد ..

وسمعت اليوم من مصادر مختلفة ان الانجليز استطاعوا

ان يردوا قوات المحور عند مرسى مطروح وان يرغموها على التقهقر مسافة عشرة كيلومترات وأن يآخذوا منها خمسة عشر ألف أسير ..

ثم اعلنت وكالات الانباء فى المساء ان شيئا من هذا لم يحدث ، وان الذى حدث فعلا هو سقوط مرسى مطروح فى ايدى قوات المحور من الالمان ..

ومررت بجريدة الاهرام ودخلت غرفة رئيس التحرير الاستاذ انطون الجميل ، وكان بين الموجودين الاستاذ توفيق اليازجى «المعروف بميوله المحورية» وكان الحديث بينهم عما عسى أن يفعل الملك فاروق وهل هو يحاول الهرب من مصر خوفا من أن يرغمه الانجليز على الخروج معهم عند انسحابهم ؟

وقلت للحاضرين ما اعرفه وهو ان الانجليز أقاموا حول الملك مراقبة شديدة دقيقة حتى لا يكاد ينتقل من قصر الى قصر الا وعندهم الخبر ..

وكان الاستاذ توفيق اليازجى يبتسم ابتسامة هادئة ناعمة .. وقالت سيدة من الموجودين أن الامبراطورية البريطانية قد شاخت ودب الانحلال فى عظامها تماما مثل روما فى آخر عهدها بالمجد والسلطان .. فقد كانت روما عندما أشرفت على نهايتها .. كانت تحارب بأبناء جميع أمم الارض الا أبناء روما .. وكذلك الحال اليوم مع بريطانيا التى تخوض المعارك وتحارب بجنود من استراليا ونيوزيلندا والهند وبورما وجنوب افريقيا وفلسطين ، بل ولبنان « وكان فريق من ابنائه قد التحق بقوات ديجول الحرة » .. ولكنك تبحث عن جنود الانجليز فلا تجدهم ..

وحدثت مساء اليوم فى مجلس النواب فضيحة ، ولا أعنى ان الاستثناءات كانت فضيحة .. وهى قد كانت

كذلك .. ولكننى اقصد ان نظرها والمناقشة فيها فى هذا اليوم وهذه الظروف بالذات هى التى كانت فضيحة.. فبينما الجيوش تتطاحن على أبواب مصر، ودوى المدافع والقنابل يسمع بوضوح فى الاسكندرية وطائرات جيوش المحور تحلق فوق الاراضى المصرية .. أصر رئيس الوزراء النحاس باشا عند افتتاح جلسة مجلس النواب على نظر الاستجوابات المقدمة عن الاستثناءات وغيرها رغم أن أصحاب هذه الاستجوابات طلبوا تأجيل النظر فيها مراعاة للحالة وتقديرا منها لخطورة الموقف ..

ولكن « رفعة الرئيس » أصر على نظرها ..

وقامت « خناقة » حامية بينه وبين مكرم عبيد .. وأعلن النحاس باشا فى الجلسة أمام النواب ان مكرم لم يعد سكرتيرا للوفد ..

٣٠ يونية عام ١٩٤٢ :

وكان للأقاويل والاشاعات التى ينشرها فى القاهرة المهاجرون القادمون من الاسكندرية والبحيرة ، أثرها فى الجمهور ، فقد انتشر الذعر بين سكان القاهرة ..

وكلمت النحاس باشا بالتليفون وتحدثت اليه عن جلسة أمس وأبديت رأيى فى الطريقة التى نشرت بها جريدة « المصرى » ما دار فى الجلسة المذكورة ..

ثم سألته عن الحالة ، فقال : انها مطمئنة وليس فيها ما يدعو للذعر والقلق ..

وكلمت فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون وعرفت منه انه لم يكن فى نية الانجليز أن يدافعوا عن مرسى مطروح وان قرار التخلى عنها والانسحاب منها كان معروفا للوزراء منذ أربعة أيام .. وان خط دفاع الانجليز هو عند العلمين « وقد كتبتها فى مذكراتى بالألف «العالمين» لاننى لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل .. »

وعرفت فى المساء من الاستاذ انطون الجميل ان قوات المحور قد اجتازت مرسى مطروح وجاوزت فوكه والضبعة وأمست أمام العلمين ..

اول يولية عام ١٩٤٢ :

الذعر شديد ... والاشاعات كثيرة ....

والجمهور يحاصر محال البقالة ومواد التموين لكى يشترى منها حاجته ويخزنها للطوارىء .. واضطر محل بقالة «لاباس» فى شارع قصر النيل ان يغلق ابوابه بسبب شدة الزحام ..

ونفدت فى يومين اثنين جميع الدراجات والبسكليتات من محال بيعها فى القاهرة فقد أقبل الجمهور على شرائها بسبب اشاعة تقول ان الانجليز سوف يحرقون مستودعات البنزين قبل انسحابهم حتى لا تقع فى أيدى الالمان .. ومعنى هذا أنه سوف يستحيل استعمال السيارات فى الانتقال

ومن اشاعات اليوم ان الانجليز طلبوا من الملك الانتقال الى فلسطين .. بل الى اسيوط .. بل الى السودان ومعه الوزارة .. اشاعات كثيرة مختلفة ..

ولكن هناك خبرا اكيدا واحدا وهو ان الانجليز رفضوا أن يعلنوا ان القاهرة مدينة مفتوحة .. وكنت سمعت هذا الخبر من احدى اذاعات راديو برلين منذ يومين ..

ومعنى هذا انهم سيدافعون عن القاهرة وسيدور القتال فى القاهرة من حى الى حى ، ومن شارع الى شارع بل ومن عمارة الى عمارة .. وسمعت كذلك ان الانجليز نصبوا اوكار المدافع على طول شارع الهرم ، وبعض أوكار المدافع هذه قد أقيم خلف بعض الدور والفيللات فى الشارع المذكور ..

وكانت النتيجة أن هجرها أصحابها .. الى مساكن

أخرى فى القاهرة أو فى الريف ..
وذاع اليوم أن مسيو كابسيس الوزير المفوض لحكومة اليونان الحرة قد غادر مصر هربا من قوات المحور ..
وكذلك مسيو جاكيه وزير بلجيكا المفوض.. ثم عدت وسمعت انهما لم يهربا بل إعدا فقط جوازات سفرهما.
وذاع فى المساء ان قوات الاحتــلال قد وصلت الى العامريه والمكس ، وان شركة مصر للطيران قد أوقفت سفر طائراتها الى الاسكندرية ..
وان مستر كازى وزير الدولة فى الشرق الاوسط غادر مصر
عقد البرلمان بمجلسيه : مجلس الشيوخ ، ومجلس النواب ، جلسة سرية أعلن فيها النحاس باشا :
١ ــ مصر حصلت على غطاء الذهب ..
٢ ــ فى كل بلد مؤونة تكفيها لمدة شهر واحد ..
٣ ــ الانجليز رفضوا الموافقة على جعل القــاهرة مدينة مفتوحة .. ولكن الوزارة اتخذت كافة الاجراءات وقامت بجميع اللازم لتأمين المدنيين وحمايتهم ..
٤ــ كذب « رفعته » الاشاعات الخاصة بانتقال الملك والحكومة الى اى بلد آخر ..
وأقف هنا قليلا ــ وأترك مذكراتى ــ وأروى حديثــا قصيرا سمعته من أمين عثمان باشا بعد ذلك بعام أو نحو ذلك .. اى فى عام ١٩٤٣ ..
وكان المرض قد اشتد على رفعة النحاس باشا فى عام ١٩٤٣ حتى خيف على حياته وزارنى ذات يوم صديق لى كان يومئذ مديرا لمكتب أمين عثمان وزير المالية وقال لى ان أمين باشا يهمه أن يعرف رأيى فيمن سوف يتولى زعامة الوفد بعد النحاس باشــا .. اذا أصابه مكروه لاسمح الله .. وان أمين باشا يريد أن يزورنى ويتحدث الى فى هذا الموضوع ..

وزارني فعلا أمين عثمان في مكتبي بمجلة «آخرساعة» ولكنه لم يعرض في حديثه لموضوع الزعامة ورئاسة الوفد والى من تؤول بعد النحاس باشا ..

ولعله كان عرف رايي مما كنت قلته لصديقي مدير مكتبه ، بل جلس يتحدث عن العام الماضي وحوادثه ، وازماته ـ عام ١٩٤٢ ـ وايام العلمين.. وكان مما قاله ـ وهو ما يخالف قول النحاس باشا أمام مجلس البرلمان ـ ان الانجليز طلبوا فعلا من النحاس باشا مغادرة مصر

قال أمين عثمان باشا : ان السفير البريطاني مايلز لامبسون زار النحاس باشا ايام اشتداد الخطر وقال له ان الحكومة البريطانية تنصح لحكومة جلالة ملك مصر بالانتقال الى الخرطوم .. خصوصا ان السودان أرض مصرية «كذا !» فلن يضيرها في شيء أمام الشعب ان تنتقل من جزء من مصر الى جزء آخر من مصر ..

ومضى المرحوم امين عثمان في روايته يقول : ان النحاس باشا استطاع أن يتخلص بلباقة من هذا الاحراج اذ قال للسفير انه وأعضاء الوزارة رهن مشيئة الملك فاذا قرر جلالته مغادرة مصر الى السودان فانهم سوف ينتقلون معه .. واذا قرر البقاء في مصر فانهم باقون معه ..

وكان النحاس باشا قد اتفق سرا مع فاروق على البقاء وعدم مغادرة البلاد ..

هذه رواية المرحوم امين عثمان.. وانا أصدقها .. بل لعل اتفاق النحاس مع فاروق على البقاء في مصر وعدم الهرب .. لعله يفسر سر الخطاب العجيب الذي أمر النحاس باشا باعداده .. وارساله الى الماريشال روميل مؤكدا فيه ان مصر لا ناقة لها في الحرب ولا جمل .. وانه وزملاءه كانوا مكرهين مرغمين على التعاون مع الانجليز ! ..

وأعود الآن الى مذكراتى .. وانقل منها :

يوم ٢ يولية عام ١٩٤٢ :

خف الذعر قليلا فى الصباح ، ثم عاد واشتد فى المساء فقد اذاعت محطات الاذاعة فى برلين وروما وانقرة «وكانت تركيا يومئذ محورية تشيد بانتصارات هتلر ثم عادت وانقلبت عليه وأمست امريكانية بريطانية » ..

اذاعت المحطــات المذكورة ان قوات المحور اخترقت استحكامات العلمين وانها تطارد الجيش البريطانى فى انحاء الدلتا ..

ثم نفت شركة روتر الخبر المذكور ..

وعرف اليوم ان السفير البريطانى قابل الملك .. وانه طلب من جلالته مغادرة القاهرة .. ولكن الى أين ؟..

ثم قابل السفير النحاس باشــا وطالت المقابلة أربع ساعات وانعقد بعدها مجلس الوزراء ودام الاجتماع الى الساعة الواحدة صباحا .. وسمعنا فى نفس المساء ان النحاس باشا هائج ساخط على الانجليز لأنهم لم يفوا بعهودهم ووعودهم له ومنها مثلا عدم تدمير المنشآت ، مثل القناطر الخيرية والكبارى ومستودعات البترول .. الى آخره ..

وكان «رفعته» أعلن فى الجلسة السرية التى عقدها البرلمان انه أخذ وعدا بذلك من الانجليز ولكن يبدو أن السفير مايلز لامبسون عاد وراوغ فى الوعود التى كان أعطاها ولهذا السبب هاج النحاس وثار ..

ومررت فى المســـاء بجريدة الاهرام جريا على عادتى فى الايام الاخيرة .. وبينما نحن نتحدث فى الحالة دخل احمد الالفى عطية وقطع علينا حديثنا لكى يسألنا :

ـ أنا طول عمرى محسوبكم .. ترجمتها ايه باللغة الالمانية ؟ ..

وضحكنا .. وقال انه كان كتب خطابا مفتوحا الى هتلر ونشرته « الاهرام » .. وكان خطابا قليل الادب.. وانه نادم الآن .. وهل ينفع الندم ؟..

وكان النحاس باشا دعانى لمقابلته فى الساعة العاشرة مساء فى دار فؤاد سراج الدين بجاردن سيتى ، ولكنى لم أذهب بسبب طول اجتمـــاع الوزراء ، وقد دامت الجلسة الى الساعة الاولى صباحا ..

وعرفنا اليوم ان ذهب مصر لايزال فى البنك الاهلى.. مع ان النحاس باشا كان أعلن فى جلسة البرلمان ان ذهب مصر فى أيد مصرية وحراسة مصرية ..

« هذا ما وجدته مسجلا فى مذكراتى ، ولا اذكر اليوم ماذا كنت اقصــــد بالبنك الاهلى ؟ هل البنك الموجود بشارع قصر النيل بالقاهرة ؟.. أم مركز البنك الاهلى القائم فى لندن ؟ » ..

وعرفنا كذلك ان الجنود البريطانية هى التى تتولى حراسة القناطر الخيرية ابتداء من اليوم .. لماذا ؟ لابد ان الغرض هو نسفها وتدميرها عند انسحابهم لـكى يغرقوا دلتا النيل أو يحيلوها الى بحر من الوحل ..

وانقل عن مذكراتى بتاريخ ٣ يولية عام ١٩٤٢ :

كنت أنوى السفر اليوم الى راس البر ، وقد أعددت فعلا حقيبتى .. ثم كلمت وزير التجارة الاستاذ محمود سليمان غنام بالتليفون وسألته عن « الحالة » فقال انها « وحشة » وان الانجليز انما تولوا حراســـة القناطر الخيرية لكى يدلوا سياراتهم التى تمر هناك على الطريق!

لابد انه يعتقد اننى ساذج أبله حتى أصدق مثل هذا التفسير ..

وكلمت زميله وزير التموين الاستاذ احمد حمزة ، فقال : « الحالة وحشة » وربنا يلطف ولما سألته عن

سبب حراسة الجنود للقناطر الخيرية قال انهم يتولون حراستها لكي يقاوموا جنود «الباراشوت» ـ المظلات ـ الالمان فى حالة ما اذا حاول هذا السلاح الاستيلاء على المنشآت المصرية ، لأن جنود الجيش المصرى مشغولون الآن بحفظ الامن فى الاقاليم ..

ومضى الاستاذ احمد حمزة يقول :

ـ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه اذا هبط جنود المظلات وقاومهم الجيش المصرى اشتبكت مصر فى حرب مع دولتى المحور .. ولهذا السبب رأى الانجليز أن يتولوا حراسة القناطر الخيرية بأنفسهم ..

انتهى كلام الوزير .. ومعناه أن الانجليز يشفقون من اشتباك مصر فى حرب مع المانيا ، ويحرصون على تجنيب مصر خطر دخول الحرب ضد المانيا ..

ولكن من الذى يصدق هذا الكلام ؟ وهل قبل وزراؤنا هذا السبب وصدقوه ؟

ثم كلمت فؤاد سراج الدين بالتليفون فطلب منى أن أمر عليه ..

ومررت عليه ودار بيننا حديث طويل الخصه فيما يلى :

قلت له : ان الملك يود أن ينحى النحاس باشا عن رياسة الوزارة لكى يتولاها من هو أقدر منه على التفاهم مع الالمان ولكنه يخشى أن ينتقم منه الانجليز لأنه نحى « رجلهم » عن الحكم .. فهل فكر النحاس فى تأليف وزارة قومية قادرة على مواجهة الموقف ؟ أو فكر فى التنحى من تلقاء نفسه عن الحكم لكى يفسح الطريق أمام سواه من الذين ـ كما يقول الملك ـ لم يتورطوا فى تأييد الانجليز ؟

وقال فؤاد سراج الدين ان النحاس باشا يطلع الملك الآن أولا بأول على تطورات الموقف وكل شىء ولا يخفى عنه شيئا ..

أما الوزارة القومية فان رفعته لا يفكر فيها ولا يقبلها ولا يوافق عليها مطلقا لأنه يرى ان قبوله لها يناقض ما سبق أن قاله ضدها ..

ولقد دار البحث أمس فى اجتماع مجلس الوزراء فى دعوة الجبهة الوطنية « وهى الهيئة الممثل فيها زعماء جميع الاحزاب السياسية فى مصر وجماعة المستقلين والتى تولت المفاوضات مع انجلترا فى عام ١٩٣٦ وانتهت الى عقد المعاهدة المعروفة » .. ولكن اعترض على دعوة الجبهة المذكورة بما يأتى :

١ - فى دعوة الجبهة انتقاص من قدر ومكانة البرلمان القائم ، لأن دعوتها تعنى ان هذا البرلمان لا يمثل الامة التمثيل الكافى ..

٢ - جميع أعضاء الجبهة الوطنية موجودون فعلا اما فى مجلس الشيوخ واما فى مجلس النواب ما عدا أربعة أو خمسة ، منهم : اسماعيل صدقى ، واحمد ماهر ، والنقراشى. وهذان الاخيران لهما ممثلوحزبهما السعدى فى البرلمان ويستطيعون مناقشة الحكومة فى كل شىء ..

٣ - نفرض ان البرلمان قرر أمرا ، وقررت الجبهة أمرا آخر ضده ، فماذا يكون الحل والرأى ؟

مضى فؤاد سراج الدين فى كلامه أو فى بيانه فقال :

- ان النحاس باشا لن يستقيل ولن يتنحى من تلقاء نفسه عن الحكم ، واذا شاء الملك فليقله .. ولو انهم جميعا يتمنون ترك الحكم من كل قلوبهم ، أو على الاقل أن يشترك معهم سواهم فى تحمل المسئولية .. « وبدل ما نبقى ١٤ وزيرا نبقى حتى ١٤٠ » .. ولقد قال محمود غنام أمس فى اجتماع مجلس الوزراء : «ياريت يا اخواننا يريحونا من مسئولية الحكم .. أو حتى يعتقلونا .. »

وأما لماذا يرفض النحاس باشا أن يستقيل ، فذلك لأنه ظل ثلاثة أعوام أى منذ قيام الحرب يطالب بالحكم للأغلبية ــ أى له وللوفديين ــ بحجة ان البلد فى ظروف حرب خطيرة وان الاغلبية هى التى يجب أن تتولى الحكم وتمسك بالدفة وتقود السفينة الى بر الإمان .. فهل اذا جد الجد وحل الخطر يتنحى الربان ويترك السفينة وسط الانواء ويهرب ؟..

واستطرد فؤاد سراج الدين يقول : انه اذا دخل الالمان مصر فان النحاس باشا سوف يقول لهم اننا دولة غير محاربة . وانه انما نفذ المعاهدة التى كان أمضاها منذ ست سنوات مع الانجليز وانه بذلك حفظ كلمة مصر وشرف امضائها فهو لم يفعل الا ما يفعله كل سياسى شريف

وسوف يقول لهم كذلك انه قاوم كثيرا من المطالب الانجليزية وأبى عليهم أن يجر مصر الى الحرب مهما كانت الظروف بعكس على ماهر الذى كان يريد غداة قيام الحرب أن تعلن مصر الحرب ضد المانيا .. والذى وعد الانجليز بعد ذلك بدخول مصر الحرب ضد دولتى المحور «اذا توغلت قوات المحور فى الاراضى المصرية مبتدئة» ..

وهذا الشرط قد تحقق وبناء عليه كانت مصر قد دخلت الحرب الآن ضد دولتى المحور لو كان على ماهر بقى حتى اليوم رئيسا للوزارة ..

ثم قال انه متعب من العمل وانه لم يستطع امس حضور حفلة قران شقيقه ، بسبب انهماكه فى العمل وطول جلسة مجلس الوزراء التى لم تنته الا فى الساعة الثانية صباحا ..

ولما ذهب بعدها الى « بيت الفرح » وجد ان المصابيح قد أطفئت وكل شىء قد انتهى ..

وانه ينام الآن والتليفون الى جانبه ، لأن الحالة خطيرة خالص .. ثم نصحنى بأن اسحب اموالى من البنوك ..

وضحكت وقلت ان جيب «جاكتتى» يتسع لأموالى كلها وهنا قال :

ـ والله الواحد مش عارف يعمل ايه بفلوسه اللى فى البنوك ؟ فأشرت عليه بما كنت سمعته فى حجرة رئيس تحرير الاهرام انطون الجميل وهو انه يحسن بأصحاب الاموال « السائلة » أن يشتروا باموالهم هـذه اسهم شركات صناعية أو أراضى لأنه اذا نجح الانجليز فى صد الالمان ارتفعت قيمة الاسهم .. واذا دخل الالمان مصر هبط سعر الجنيه الاسترلينى ـ والجنيه المصرى .. بالتبعية ـ الى الحضيض .. وارتفعت اسعار الاسهم بطبيعة الحال وبنسبة هذا الهبوط ..

وهز فؤاد سراج الدين راسه ، وبدا عليه انه لم يفهم هذه النظرية الاقتصادية .. ولا انا .. فهمتها ..

القى مستر تشرشل فى مجلس العموم خطبة طويلة نقلها البرق الى مصر.. حوالى منتصف الليل.. وكان مجلس الوزراء مجتمعا فى تلك الساعة ولكن الوزراء لم يطلعوا على الخطبة ولم يسمعوا بما جاء فيها مع ان فى غرفة سكرتيرية الدكتور محمدصلاح الدين جهازا خاصا لنقل برقيات روتر ..

ولو ان تشرشل كان اعلن مثلا عزم بريطانيا على الانسحاب من مصر لما كان وزراؤنا سمعوا بالنبأ ، ولظلوا يتناقشون فى الحالة وهم فى جهل تام بما يدور ..

وجاء فى خطبة تشرشل المذكورة :

١ ـ ان هذه المعركة بدأت فى يوم ٢٦ مايو ..

٢ ـ كان الانجليز على أتم استعداد ، وكانوا ينوون

البدء بالهجوم ولكن الالمان سبقوهم بأيام معدودة، الى الهجوم ..

٣ ـ كانت قوة سلاح الطيران أقوى من قوة سلاح الطيران الالمانى بنسبة ٨ الى ٥ ، وقوة دباباتهم أقوى من دبابات الالمان بنسبة ٧ الى ٥ ومع ذلك خسروا المعركة وهزموا امام الالمان ..

والنتيجة ان الالمان لم ينتصروا بسبب تفوقهم فى السلاح أو فى العدد ، وانما انتصروا بسبب علو الروح المعنوية عندهم .. وبفضل قيادتهم البارعة الحكيمة..

وكانت قيادة الجيش البريطانى فى يد جنرال ريتشى الذى كان يدير المعركة بالتليفون تارة من القاهرة وتارة من الاسكندرية والى جواره صديقته المصرية الحسناء !

وسمعت من الاستاذ انطون الجميل ان تدهور الروح المعنوية وانعدام النظام فى صفوف جنود بريطانيا كانا بدون شك من أسباب الهزيمة وخسارة المعركة ..

وقص على طرائف ومنها :

ـ نقلا عن الاستاذ توفيق دياب ـ وقد أقسم صديقنا الكاتب الكبير على صحة الرواية ـ ان أحد الفلاحين فى مركز منيا القمح اشترى مدفعا رشاشا من الجنود البريطانيين

ـ نقلا عن الاستاذ مصطفى أمين ـ ان جنديا هنديا كان يسير فى الشارع وهو يدفع أمامه فردتى «كاوتش» للسيارة وقد عرضهما على صديقنا بدولارين اثنين ..

ـ نقلا عن الاستاذ حسين أبو الفتح ـ ان بعض الضباط البريطانيين أبدى استعداده لأن يورد له أى عدد يشاء من سيارات الجيش البريطانى بسعر مائتى جنيه للسيارة الواحدة ..

ـ نقلا عن الاستاذ حفنى محمود ـ ان سيارة حربية

حضرت مرة من السويس الى القاهرة لكى تشترى ورق ابر و « جلاس وجاتو » من جروبى ..

ـ انجنود البوليس الحربى البريطانى ـ أثناء طوافهم بالمحال العامة ـ طلبوا من بعض الجنود الذين كانوا يرقصون فى قاعة الرقص «بجروبى» أن ينصرفوا الى ثكناتهم لأن الساعة جاوزت التاسعة مساء ، ولكنهم رفضوا واستمروا فى الرقص .. !

وكلمت حسنين باشا بالتليفون وقلت له اننى انوى السفر الى راس البر لأستريح فيها بضعة أيام ، ولكنه صرخ فى وقال : انت اتجننت والا ايه ؟..

ثم نصحنى بعدم السفر الآن الى أن ينجلى الموقف ، وقال :

ـ يظهر ان العلمين كمان سقطت فى أيدى الالمان.. والانجليز ينوون تنفيذ خطة التدمير الشامل التام ومنها نسف الكبارى وقد تقطع خطوط المواصلات فى ساعات معدودة .. فكيف تسافر ياسى محمد الى رأس البر ؟

عدلت عن السفر الى رأس البر ..

ولما كانمسكنى فىالزمالك ، وقد يدمرالانجليزالكبارى وهكذا تقطع المواصلات بين الجزيرة والقاهرة فقد رأيت ان من الخطر العودة الى مسكنى ، ومن ثم ذهبت بحقائبى الى فندق فى المدينة وحجزت لى غرفة فيه ..

مررت علىجريدة الاهرام وقابلت مصطفى أمين الذى قال لى ان مستر كيرك وزير امريكا المفوض ورجال المفوضية غادروا القاهرة.. وان اشاعة سفر أمينعثمان باشا صحيحة لانه صحباسرته الىفلسطين ثم عاد اليوم

وانه ـ اى مصطفى أمين ـ قابل جنرال ستون أمس وان ستون قال له ان النحاس باشا أعصابه تعبانة ..

فقد اجتمع به أمس وكان معهما السفيرمايلزلامبسون ومستشار السفارة سمارت . وقد تكلم السفير ربع ساعة ، وتكلم هو ـ أى ستون خمس دقائق ـ وتكلم سمارت دقيقتين ـ أما النحاس باشا فقد تكلم ثلاث ساعات ..

وقال جنرال ستون ان تدمير المنشآت أوعدم تدميرها مسألة تبت فيها وزارة الحرب وان القيادة هنا لا تملك حق اتخاذ قرار فيها .. ثم قال انهم اذا كانوا وعدوا النحاس باشا بشيء ما منذ يومين فان الامور تتطور من يوم الى يوم ، والوعد الذى يعطى فى ضوء حالة ما فى يوم ما قد يجوز نقضه فى ضوء حالة جديدة ..

وقال لى مصطفى أمين كذلك : ان سفيرنا فى لندن حسن نشأت باشا أرسل تلغرافا يقول فيه : انه نظرا لاحتمال دخول قوات المحور مصر وانقطاع الاتصال بينه وبين مصر ، فانه يطالب بارسال خمسين الف جنيه لتغطية نفقات السفارة لمدة عامين .. وقد أرسل اليه المبلغ المطلوب ..

وساد الذعر فى الاوساط المالية ، وهرع الناس الى البنوك يسحبون أموالهم المودعة فيها .. ويظهر ان البنك الأهلى تأثر أكثر من سواه وقد لجأ مديره الى وزير المالية ليجد له مخرجا من هذا المأزق ..

وقال لى أحد موظفى وزارة المالية ان وزيرها كامل صدقى باشا أشار على مدير البنك الأهلى ـ ولكن بصفة غير رسمية ـ أن يوعز الى بعض موظفى البنك بالانقطاع عن العمل .. أو بالتغيب بسبب المرض .. أو حتى بالاضراب عن العمل .. لكى يتخذ من غيابهم وقلة عدد الموظفين الموجودين عذرا يبرر به عدم استطاعته صرف جميع المبالغ المطلوب سحبها من البنك ..

وأنقل عن مذكراتي بتاريخ السبت ٤ يولية ١٩٤٣ :

قابلت أحمد الوكيل صباح اليوم فى «جروبى» وقلت له : « قل لى بقى ايه الاخبار اللى ما قالهاش مصطفى باشا للوزراء ؟.. »

فقال : الانجليزطلبوا منه أن ينتقل معهم هو والوزارة ولكنه رفض وقال لهم : انه قاعد فى البلد واللى يجرى على البلد يجرى عليه .. فتضايق الانجليز منه وبدأوا معه سياسة « القريفة » ..

وذهبت الى مكتبى فى مجلة « آخر ساعة » فوجدت انطون الجميل ينتظرنى ، ورويت له ما سمعته فقال : ان الخبر صحيح وان الوزراء الذين تصدوا لنفى الخبر اما انهم كاذبون واما انهم لايعرفون الحقيقة لأن مصطفى النحاس أخفاها عنهم ، والحقيقة هى أن السفير البريطانى عرض الأمر بلباقة على الملك فاروق فقال له : ان الخطر محتمل وان الالمان قد يدخلون مصر وفى هذه الحالة ، ربما فكر جلالة الملك فى الانتقال الى مكان آخر ، فاذا استقر رأى جلالته على هـــذا فانهم ـــ أى الانجليز ـ مستعدون لأن يقدموا لجلالته جميع التسهيلات ويضعوا خدماتهم تحت تصرفه ولجلالته أن يختار المكان الذى يشاء .. وقد رد فاروق شاكرا ، ولكنه قال : انه لا ينوى مغادرة مصر ..

وفاتح السفير البريطانى النحاس باشا فى نفس الموضوع فقال له النحاس : لا .. لن تخرج الوزارة من مصر .. وعلى كل حال فانها تحت أمر جلالة الملك وما يريده سوف انفذه ..

وهو رد بارع من النحاس باشا لانه أولا أثبت ولاءه واخلاصه للملك.. وثانيا ألقى المسئولية على الملك فاروق

ثم تحدثنا ـ انطون الجميل وانا ـ عمن عساه يكون «رجل الساعة» الذي يستطيع مواجهة الموقف باخطاره واحتمالاته والذى يمكنه أعداد العدة لكل احتمال ..

وقال انطون بك : انه يعتقد ان اسماعيل صدقى باشا هو أقدر الزعماء جميعا على مواجهة الموقف وانه «رجل الساعة» لأنه أولا معروف بصداقته الطويلة للسياسة الانجليزية ومع الساسة الانجليز ..

ولكنه لم يتورط معهم أثناء الحرب .. ولأنه ثانيا ابدى نوعا من الميل أو الصداقة لالمانيا فى بداية الحرب. وهو ما اكسبه ثناء الاذاعة الالمانية دون أن يفقده حسن ظن الانجليز به ..

ومضى انطون الجميل يقول : انه لو كان اسماعيل صدقى على رأس الحكومة الآن لاستطاع أن يجلو الموقف من كل الوجوه ولكان ارسل بصفته رئيس الحكومة المصرية رسالة الى روميل يشرح فيها موقف مصر المستقلة من هذه الحرب ومن الوجهة الدولية ، ثم يطلب منه أن يحدد موقفه ونوايا حكومته ـ المانيا ـ تجاه مصر.

وكان النحاس باشا قد صرح فى البرلمان وفى مجالسه وأمام انصاره أكثر من مرة ان الحالة مطمئنة ، ثم تبين بعد ذلك ان الحالة ليست مرضية ولا هى تدعو الى الاطمئنان ، وهذا من وجهة النظر الانجليزية . وظن كثيرون ان النحاس باشا كذب على الامة وخدعها وخدع البرلمان ، أو على الاقل انه ضحية الانجليز الذين كذبوا عليه وخدعوه . ولكنى بت أعتقد أن الامر ليس كذلك . وان الانجليز لم يكذبوا على النحاس ولم يخدعوه .. وان الحقيقة هى انهم أنفسهم كانوا مخدوعين ..

وهذه هى الحقيقة كما وضحت من خطبة مستر

تشرشل التى قال فيها بصراحة : ان السرعة الخاطفة التى زحف بها جنرال روميل أفسدت على القيادة البريطانية خططها فقدكان الانجليز يحسبون أنهم بانسحابهم مسافة مائة وخمسين ميلا سوف يكسبون اسبوعين او ثلاثة أسابيع يرتاحون فيها ويجمعون قواهم ويعيدون تنظيم قواتهم ثم يعودون ويكرون على قوات روميل ..

ولكن روميل دفع قواته وراءهم بسرعة خاطفة ولم يترك لهم يوما واحدا للراحة .. ثم فوجئوا بوجوده أمامهم عند العلمين بعد خمسة أيام فقط من بدء انسحابهم .. أى انه استطاع أن ينقل جيشه وجميع معداته وأسلحته مسافة مائة وخمسين ميلا فى خمسة أيام

هذا ما أعلنه تشرشل فى خطبته ، ومن هنا نفهم لماذا كان الانجليز متفائلين ومطمئنين الى الحالة . ولكن تطور الموقف بسرعة زحف روميل .. قلب خططهم واطمئنانهم راسا على عقب .. وهنا اضطروا أن يطلعوا النحاس باشا على الحقيقة أو على جانب منها وان يصارحوه بأن الحالة ليست مرضية ولا تدعو الى الاطمئنان .. وان الخطر المحتمل هو دخول قوات المحور الاراضى المصرية وكانت نقطة التحول من الاطمئنان الى القلق هى طلبهم من النحاس الخروج معهم هو ووزرائه ..

وقد لاحظ كثيرون انه بينما جميع طبقات الشعب حتى أولئك الذين عرفوا بميولهم نحو المحور ـ المانيا وايطاليا ـ فى حالة فزع وقلق من المستقبل المجهول .. ومن الاخطار التى سوف تتعرض لها مصر فى فترة الانتقال من احتلال بريطانى الى احتلال المانى ايطالى . ومن انسحاب جيوش مدحورة ودخول جيوش ظافرة .. فان بعض المواطنين الشرقيين فرحون لا يخفون سرورهم ..

وسر فرحهم ان الفرصة قد حانت أخيرا للتخلص من منافسيهم فى أسـواق المـال والتجارة والسمسرة فى البورصة .. وهم اليهود ..

ولقد اسـتغل هؤلاء الشرقيون حالة الذعر والهلع التى أصبح فيها اليهود واشتروا منهم بضـائع كثيرة بأسعار لا تزيد كثيرا على سعر التراب .. وبعد أن كانت أسعار بضائع كثيرة بدأت تهبط بسبب كثرة البضائع التى أخرجها اليهود من مخازنهم وطرحوها فى السوق عادت الاسعار وارتفعت من جديد بعد أن انتقلت هـذه البضائع الى أيدى اخواننا الشرقيين هؤلاء ..

أما المصريون أبناء البلد فقد أضاعوا الفرصة وأمضوا الوقت فى تبادل الاخبار والاشاعات والنكات على حساب الانجليز تارة .. وتارة على حساب الالمان ..

وفى المساء قابلت مصطفى أمين فى جريدة الاهرام ، ودار الحديث عما عسى أن يحدث للوزارة اذا دخل الالمان مصر ؟ ..

وقلت ان النحاس باشا يرفض أن يستقيل لأنه يعد استقالته الآن فرارا من الميدان .. وان الملك لايريد أن يأخذ على نفسه مسئولية اقالة النحاس باشا لأنه يخشى الانجليز فى حالة ما اذا نجحوا فى وقف زحف الالمان ، وردوهم عن مصر .. كذلك لا أظن ان الملك فى حالة دخول الالمان سوف يختار من تلقاء نفسه على ماهر باشا رئيسا للوزارة لأنه سوف يؤيد بهذا الاختيار صحة ماشاع عنه وهو انه ــ فاروق ــ ضالع مع الايطاليين والالمان .. وقد يحاسبه الانجليز على هذا اذا قدر لهم النصر وعادوا وطردوا الالمان من مصر .. ولهذه الاسباب كلها أصبحت أرى رأى انطون الجميل وهو ان الملك سـوف يختار

اسماعيل صدقى رئيسا للوزارة بعد دخول الالمان ..

ولكن مصطفى امين لم يوافقنى على هذا الراى ، وقال ـ بل اكد ـ ان على ماهر هو رئيس الوزارة القادمة ، وان الأمر متفق عليه منذ أسابيع وان التصريح المشترك الذى اذاعته سلطات الاذاعة فى برلين وروما وبارى ، وأعلنت فيه ان قوات المحور ـ المانيا وايطاليا ـ التى تدخل مصر سوف تدخل لكى تحرر مصر من استعمار بريطانيا وتعطينا استقلالنا كاملا وانه ليس عند المانيا أو ايطاليا اية نية للانتقاص من استقلالنا ..

وقال مصطفى أمين ان هذا التصريح الذى اشتركت فى صياغته واعلانه حكومتا المانيا وايطاليا قد تم بفضل مساعى مراد سيد احمد باشا الصديق الحميم لعلىماهر باشا واللدى يقيم منذ بداية الحرب فى مدينة جنيف فى سويسرا « وكان سعادته وزيرا مفوضا لمصر فى روما عند اعلان الحرب وقد طلبت منه الحكومة ان يعود الى مصر ولكنه رفض العودة وآثر ان يقيم فى أوروبا متنقلا بين ايطاليا وسويسرا والمانيا .. »

ثم قال مصطفى أمين ان على ماهر باشا ثائر هائج فى المعتقل وانه يقول انه عندما يتولى الحكم سوف يشنق مصطفى النحاس .. وفى هذا يقول : « ولن أحاكمه امام محكمة عسكرية ، بل سوف أحاكمه أمام محكمة مشكلة منمستشارىالنقض والابرام..وتهمته الخيانة العظمى» ثم يصرخ ـ وكان رفعته مريضا بأسنانه ـ يصرخ : «أسنانى ، اسنانى ياعالم ، بس ابن الـ..حابسنىليه؟»

وكان فريق من الراى العام يعطف يومئذعلىعلى ماهر باشا ويعد اعتقاله عملا غير قانونى.. وان النحاس باشا اعتقله نزولا على ارادة الانجليز ..

والواقع ان السلطات البريطانية كانت طلبت من كل حكومة مصرية تولت الحكم بعد يونية عام ١٩٤٠ اعتقال على ماهر باشا . بسبب ميوله المحورية ونشاطه ونشاط بعض أصدقائه العدائي ضد الحلفاء .. وقد تقدمت بهذا الطلب في وزارة حسن صبري باشا .. وفي وزارة حسين سري باشا .. ولكن حسن صبري وحسين سري رفضا أن يعتقلا على ماهر ، واستطاع الاثنان في كل مرة ان يسويا الأمر وأن يقنعا على ماهر باشا بمغادرة القاهرة والاقامة في قصره الاخضر في الريف .. ولكن رفعته كان يعود دائما الى القاهرة بعد بضعة أيام أو بضعة أسابيع

اما صديقه اللواء صالح حرب باشا فقد عمل بنصيحة الحكومة وترك القاهرة وأقام في اسوان ..

زرت حسنين باشا في داره ، وبدأت الحديث فقلت : اما ان الوزراء يكذبون ، واما ان النحاس باشا لايطلعهم على الحقائق وذلك أن اثنين منهم أكدا لي انه ليس صحيحا ان الانجليز طلبوا من النحاس باشا انتقال الوزارة معهم الى بلد آخر ، بينما سمعت من مصدر موثوق بصدق اخباره ان الخبر صحيح .. فما هي الحقيقة ؟

وقال حسنين باشا : أن الخبر صحيح . وقص علي تفاصيل كثيرة ومنها الحديث الذي دار بين الملك فاروق والسفير البريطاني مايلز لامبسون في هذا الموضوع وكيف ان فاروق رفض أن يغادر الاراضي المصرية ... الخ..

ومضى حسنين يقول :

ـ ولما عرض النحاس باشا الموضوع على الملك قال : اولا انه رفض طلب الانجليز وانه قال للسفير ان الوزارة لن تغادر مصر وانهم « قاعدين » مهما حدث .. ثم عاد وقال ثانيا : « وعلى كل حال لا اريد أن اؤثر على جلالتكم

اقل تأثير فيما اذا رأيتم رأيا آخر » ..

وتساءل حسنين ما معنى هذا ؟ ثم أليس النحاس باشا رئيس الحكومة وكبير مستشارى الملك ومن واجبه أن يقول رأيه صريحا واضحا فى مثل هذه المواقف الخطيرة فما معنى تردده وتراجعه .. مع انه سبق الاتفاق مع « رفعته » على عدم خروج الملك والوزارة من مصر.. اللهم الا أن يكون رفعته يريد جس نبض الملك و«توقيعه» ليرى هل هو لايزال مصمما حقيقة على البقاء فى مصر أو هو يفكر فى الهرب من الانجليز ومغادرة مصر سرا الى بلد آخر.. ولمصلحة من هذا المكر من جانب النحاس باشا؟

وهنا قلت لحسنين باشا : انني لم أفهم أين هو « مكر » النحاس باشا ؟

وازداد حسنين حدة وانفعالا وقال :

ــ المكر ياسى محمد فى قوله للملك انه لايريد أن يؤثر عليه فى حالة ما اذا كان له راى آخر.. يعنى يا جلالة الملك أنا زى ابوك .. قل لى ولا تخبيش على .. اذا كنت عايز تهرب من الانجليز وتخرج من البلد قل لى وأنا أساعدك.. أهو ده «المكر» ياسيدى .. عاوز يعرف علشان يجرى للانجليز ويقول لهم : الحقوا الملك فاروق راح يهرب من مصر ..

وانكرت على حسنين باشا رأيه هذا فى النحاس باشا. وقلت له : « مش للدرجة دى يا باشا حرام عليك ..»

وقال : حرام على ؟ يظهر انك عبيط .. ان النحاس باشا أصبح اليوم فى قبضة الانجليز تماما .. ولقد قاوم فى اول الأمر شيئا ما ولكنه انتهى بالاســـتسلام لهم استسلاما تاما والفضل فى ذلك لأمين عثمان باشا ..

ثم قال حسنين :

ـ حدث مرة فى احدى جلسات مجلس الوزراء وكانت المعارك الحربية بدات تتطور من سيىء الى أسوأ ، أن قال النحاس باشا للوزراء : « يظهر ان الانجليز ينوون عمل شيء خفيف من التدمير » وصرخ الوزراء وصاحوا فى وجهه : «كيف؟» وهنا تراجع رفعته وقال : ده اللى فهمه وجايز يكون غلطان. لكن الوزراء قالوا له : « لازم تستدعى بكره السفير والجنرال ستون وتناقشهما وتأخذ منهما وعدا صريحا بعدم تدمير أى شيء .. »

واستطرد حسنين يقول :

ـ وكان فى وسع النحاس باشا أن يذهب الى البرلمان ويواجهه بالحقيقة ويطلعه على كل ما يعرفه عن نوايا الانجليز.. أو على الاقل لا يكمم البرلمان ولا يخدعه ولا يضلله بالأكاذيب بل يتركه يتكلم ويثور ويحتج.. ويتخذ من ثورة البرلمان سندا له يستند اليه فى أحاديثه ومفاوضاته مع السلطات البريطانية فيقول لها مثلا ان البرلمان وهو من انصار الوفديين ـ هائج ثائر ضده ، فكيف يحكم ونفس أنصاره وشيوخه ونوابه ثائرون ضده .. وكان فى وسعه أن يطلب منهم ضمانات مطمئنة يواجه بها البرلمان ويهدىء بها من ثورة البرلمان .. ولكن رفعته لم يفعل بل فعل العكس فقد ذهب الى البرلمان والقى بتصريحات مطمئنة وهو يعلم انها غير صحيحة .. وان الانجليز ينوون تنفيذ خطة التدمير التام .. وعلى أساس هذه التصريحات الكاذبة المطمئنة نال رفعته ثقة البرلمان بينما كانت المصلحة كل المصلحة هى فى أن يخرج من البرلمان مدحورا لكى يستطيع أن يوقف الانجليز عند حدهم .. ولكن يظهر ان امين عثمان سحر النحاس وخدره تماما وأصبح يفعل به ما يشاء ..

ثم قال حسنين ان بين ما ينوى الانجليز عمله ـ عند انسحابهم ـ اطلاق الماء المالح فى ترعة المحمودية لـكى تغرق جميع الاراضى الزراعية الواقعة على ضفتيها . وهذه العملية اذا اريد اصلاح الضرر الناشىء عنها تكلف مصر اربعين مليونا من الجنيهات ..

ووصف حسنين باشا مقابلة له مع النحاس وروى الحديث الذى دار بينهما ، قال :

ـ قال النحاس باشا : ان الانجليز خانوه وكذبوا عليه وحنثوا فى عهودهم معه ، واردت أن استدرجه فى الحديث ، فقلت له : انني أستبعد يا رفعة الباشا صحة هذه الاشاعات ، وان فى نية الانجليز تدمير كذا وكيت.. ولكنه صاح فى وجهى : « بل هى الحقيقة يا حسنين باشا .. التدمير التام والخراب التام .. »

فقلت له : سوف نسجل احتجاجنا ..

ثم سألته : وبعدين ؟..

قال : وبعدها يفعل الله بنا ما يشاء ..

واتهم حسنين باشا وزير الاشغال عثمان محرم بانه أمر رجاله سرا بمساعدة الانجليز فى تنفيذ خططهم ..

ثم قال حسنين : انه لم يأت يوم على مصر كانت فيه محتلة احتلالا تاما كما هى الآن . فقـد كان الانجليز يحاولون منذ شهور الحصول على نصيب فى حق حراسة بعض الطرق والمنشآت ولكن طلباتهم فى هذا الشأن كانت ترفض دائما .. ولكنهم الآن وبموافقة النحاس باشا قد تغلغلوا فى صميم الريف وأصبح كل شىء فى مصر فى قبضة يدهم فاذا أزفت الساعة التى يتبينون فيها انهم خسروا المعركة فانهم سوف يدمرون كل شىء .. وكل شىء الآن تحت أيديهم وفى حراستهم .. وليس لمصر يومئذ ان

تعترض لأنهم سوف يقولون ان ما تم قد تم بالاتفاق مع رئيس الحكومة ..

وقال حسنين : انه تحدث مع بعض أصدقائه من الانجليز فى هذا الموضوع فقال لهم : « ثقوا اذا دمرتم كل هذا فسوف أكون أنا أول من يهب لقتالكم لأنكم تكونون قد خربتم بلدى خرابا تاما . واذا دخل الالمان مصر فسوف يهرع كل مصرى لاستقبالهم ، وليطلب منهم أن يسمحوا له بالقتال فى صفوفهم ضدكم أنتم الذين دمرتم بلده . .واذا قدر لكم أن تعودوا الى مصر فسوف يهب المصريون لصدكم وقتالكم » ..

ومضى حسنين يقول : انه اذا نفذ الانجليز خططهم فان النتيجة هى خراب الدلتا أى الوجه البحرى . ولقد قال لهم قائد من خيرة قواد الجيش الفرنسي وهو الجنرال كاترو : أن كل ما يهمهم فى مصر هو قناة السويس .. وان خط الدفاع عن قناة السويس ليس فى الصحراء . بل على ضفاف النيل وفى الدلتا .. ذلك لأن الدلتا تعد من الوجهة الحربية هبة لا تقدر للقائد الذى يدافع عنها اذ انها بعشرات القنوات والمصارف التى تشقها وتخترقها طولا وعرضا .. وبأرضها الهشة الطرية وبقناطرها التى يمكن تدميرها عند الحاجة .. تعطل وتعوق سير الجيش الذى يهاجم ويحاول التقدم .. وهكذا تصبح الدلتا ميدانا للمعارك .. ويحل الخراب وويلات الحرب من كر وفر بكل بلدة .. وكل قرية فيها ..

وهنا قلت لحسنين باشا :

ـ اذن ليس هناك أمل الا فى ثورة تنفجر فى البرلمان ويقوم معها الشعب فيضطر النحاس باشا والانجليز أن يتمهلوا ويراجعوا موقفهم ويترددوا فى هذه الخطة ..

قال : ربما كان هذا ممكنا منذ عشرة أيام قبل أن يضع الانجليز أيديهم على كل شيء .. كان هناك أمل فى أن يتمهل الانجليز وان يحجموا عن التدمير أو لو أن الجيش المصرى كان هو الذى تولى حراسة المنشآت.. لأن الانجليز كانوا يفكرون ساعتها طويلا قبل تدمير هذه المنشآت والمجازفة بوقوع تصادم بينهم وبين الجيش المصرى . أما الآن فقد ضاعت الفرصة ولم يبق هناك ما يخشاه الانجليز لأنهم هم الذين يحرسون ويتحكمون فى جميع المنشآت ..

وقال حسنين :

ـ لقد قال لى النحاس باشا أثناء حديثى معه : « تصور ياحسنين باشا ان الانجليز عاوزين يدافعوا عن القاهرة .. من النوافذ والبلكونات والسطوح ، بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية ، وأنا قلت لهم : وفايدة ده ايه؟

وتنهد حسنين وهو يقول :

ـ اذا قدر لك أن تكتب يوما عن هذه الايام فاكتب وقل ان شيوخ البلد ونوابها قيل لهم ان هناك خطرا يهدد بيوتهم بالحرق ، ويهدد أراضيهم بالغرق ويهدد ريف مصر وقرى مصر بالدمار .. ولكنهم سكتوا خوفا على الاربعين جنيها التى تصرف لهم من البرلمان ..

ووقفت أتهيأ للخروج ، وهنا سألنى حسنين باشا وهو يسير معى الى الباب :

ـ هل تظن ان هناك خطرا على الملك ، أن يأخذه الانجليز معهم رغم انفه ؟ ..

قلت : لا اظن ان القباوة تصل الى هذا الحد بهم ، ما الفائدة التى تعود عليهم ؟ ..

قال : ليس الخطر فى انه ملك ، ولكن الخطر فى أن

مصر وملكها لهما مكانة فى العالم العربى والعالم الاسلامى وقد يخشى الانجليز من أن يستغل الالمان هذه المكانة ويبنوا عليها دعاية واسعة فى مصلحتهم وضد الانجليز. ولهذا قد يفكر الانجليز فى أن يأخذوا الملك معهم .. ولو بالقوة لا ليفيدوا منه ، ولكن لكى يحرموا الالمان منه .. ومن استغلاله فى دعايتهم ..

وانقل من مذكراتى بتاريخ ٦ يولية عام ١٩٤٢ :

عقد مجلس النواب جلسة سرية ، وبعد انفضاضها اجتمع الوفد وأصدر قرارا بفصل مكرم باشا وراغب حنا بك من الوفد ومن الهيئة الوفدية ..

وقال لى فؤاد سراج الدين انه قرار حكيم وعادل وان الرأى العام يؤيده بل كان يطالب به ، وان المعارضة نفسها استهجنت موقف مكرم عبيد باشا ، فبينما الحرب على أبواب مصر والحالة تزداد خطورة ساعة بعد ساعة .. والمعارضة نفسها تنسى خلافاتها مع الوزارة وتؤيدها فى موقفها فى الدفاع عن البلاد.. يقف مكرم باشا فى مجلس النواب يطلب المناقشة فى الاستثناءات وفى سوء استعمال سيارات الحكومة ويقول ان اسبوع البر «مشروع زينب هانم الوكيل» ضريبة من غير قانون .. ثم يتهم الوزارة بالتفريط فى حقوق البلاد ..

***

عن مذكراتى بتاريخ الثلاثاء ٧ يولية عام ١٩٤٢ :

قابلت فى جريدة الاهرام الاستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشئون الاجتماعية. وعند انصرافنا دعانى للركوب معه فى سيارته لأنه يريد أن يحدثنى فى أمر ما.

ولقد تحدث عن حيرته واى موقف ينبغى له ان يتخذ بين صديقه القديم مكرم عبيد وبين زعيمه ورئيسه مصطفى النحاس

وافاض طويلا فى الحديث عن صداقته القوية لمكرم عبيد وكيف ان ضميره غير مستريح وقال ان كثيرين كانوا ينتظرون منه أن يقف بجانب مكرم عبيد باشا وأن يؤيده ضد النحاس ولكنه اختار موقف الحياد بين الاثنين.. ودلل على حياده بانه منذ خروج مكرم من الوزارة لم يزر النحاس باشا فى داره أو فى مكتبه وانه اعتذر عن عدم حضور جميع الحفلات التى اقامها الشيوخ والنواب للنحاس باشا وذلك لكيلا يسمع طعنا أو سبابا فى صديقه مكرم عبيد ..

وانه انقطع كذلك عن زيارة مكرم باشا حتى لايسمع اي طعن أو سباب فى مصطفى النحاس ..

وانه منصرف الآن الى تأدية عمله كوزير ليس الا ولا شأن له بالخلاف وأسباب الخلاف بين النحاس ومكرم.

ثم سألنى : هل انصح له بالاستقالة من الوزارة ؟

قلت : كلا ..

ثم سألته : اية فائدة بل اى معنى يكون لاستقالتك ؟ هل تريد ان تستقيل تضامنا مع مكرم باشا لأنه خرج من الوزارة ومن الوفد ؟.. ولكنك قبلت أن تدخل الوزارة بعد أن خرج منها مكرم عبيد .. ثم انت دخلت الوزارة وأنت تدرك تماما خطورة الخلاف بين النحاس ومكرم ، وان الانفجار لابد ان يقع .. ومع ذلك قبلت المنصب ودخلت الوزارة وقبولك معناه انك كنت تنوى البقاء مع مصطفى النحاس حتى ولو خرج مكرم عبيد .. واذا استقلت اليوم فان الناس ستقول انك دخلت الوزارة لكى تحصل على لقب «وزير سابق» ثم تخرج منها فى أول فرصة .. وهذا ما لايرضاه أصدقاؤك ، ونصيحتى ان تبقى فى الوزارة تؤدى ـ كما قلت ـ عملك كوزير ليس الا .. ثم ان للنحاس باشا حقا عليك فقد وثق بك

واختارك وزيرا معه وانت قبلت فلا «تخلو» به هكذا..

قال : انت غلطان ، فالنحاس باشا لايحبني .. وهو ادخلني الوزارة لـكي يبعدني عن مكرم ..

سألته : ولماذا قبلت المنصب اذن مادام هذا هو رايك؟

قال بعد تردد ، وبابتسامة باهتة فيها استحياء :

ـ الحقيقة انني لم أكن أريددخول الوزارة ولكن بعض من يهمني أمرهم من أقرب الناس الى الحوا على بقبول المنصب لأنهم يريدون أن يروني وزيرا ..

وقال الاستاذ عبد الحميد عبد الحق انه لا يستطيع كسب ثقة او حب النحاس باشا لأن النحاس باشا يحب التملق وهو ـ عبد الحميد ـ يكره ان يتملق احدا .. ثم قال : ان صبرى ابوعلم ، ومحمود غنام ، يزوران النحاس باشا دائما ويتملقانه ، ومن هنا استطاعا أن يكسبا ثقته وحبه ..

ثم قال ان صبرى ابوعلم لايجيد الخطابة كما يجيدها هو ، وان فؤاد سراج الدين لايعرف كيف يتكلم ، ومثله محمود غنام. . اما هو ـ عبد الحميد عبد الحق ـ فانه برلماني متمرن كما اثبت فى مجلس النواب أيام كان زعيما للمعارضة «مابين عامي ١٩٣٨و١٩٤٢» وان فى امكانه أن يعرض فى البرلمان وجهات نظر الوزارة على أفضل وجه ولكنه مضرب عن هذا اكراما لخاطر مكرم باشا .. كما انه تغيب عمدا عن حضور جلسات البرلمان التى كان يتوقع فيها اصطداما بين النحاس ومكرم ..

وأوصلني بسيارته الى مسكني وقال وأنا أغادر السيارة :

ـ فكر كمان ، وابقى قل لى أعمل ايه ؟ ..

ويظهر أن النحاس باشا أصبح يخاف أو يغار على رجاله من الملك فاروق ، فقد قابلت «رفعته» اليوم فى

مكتبه برياسة مجلس الوزراء لكى أشكو اليه من عنت الرقابة .. وقبل أن ادخل عليه جلس معى الاستاذ ابراهيم فرج وتحدثت اليه فى موضوع الرقابة وكيف ان بين الاخبار التى منعت الرقابة نشرها خبرا عن « عطف جلالة الملك على وزير التجارة الاستاذ محمود غنام »..

وهنا ابتسم ابراهيم فرج وقال : ان النحاس باشا نفسه هو الذى امر بمنع نشر الخبر المذكور ..

وابديت دهشتى ... وسألته : لماذا ؟ !

وتردد طويلا، ثم قال كلاما ملفوفا غامضا ولكنى فهمت منه ان النحاس باشا غير راض تماما عن محمود غنام ، والححت على ابراهيم فرج أن يطلعنى على السبب ..

وأخيرا قال : انه لما ذهب محمود غنام وقابل الملك فاروق ليرفع اليه فروض الشكر على تعيينه وكيلا لوزارة الداخلية استبقاه الملك فى حضرته ثلاثة ارباع الساعة.. وذكرت الصحف ان الاستاذ غنام كان موضع عطف المليك وسكت ..

قلت : وماذا فى هذا ؟ ..

قال : ان مصطفى النحاس اصبح يشك فى كل شىء ويتوجس شرا من كل شىء بعد خلافه مع مكرم باشا.. وما قيل وما نشر يومئذ عن عطفه على مكرم باشا ، ثم ماحدث بعد ذلك وكيف كتب مكرم باشا فى الاهرام مقالا رفع فيه الملك الى السماء ..

ولهذا السبب اصبح مصطفى باشا يخاف من تأثير هذا العطف الملكى على رجاله .. وهو لايريد ان يخسر محمود غنام كما خسر من قبله مكرم عبيد ..

وضحك الاستاذ ابراهيم فرج .. وضحكت معه ..

ولكن النحاس باشا عاد بعد ذلك وعين محمود غنام

وزيرا للتجارة .. لا حبا ولا ثقة فيه .. ولكن لكى يبعده عن مكرم عبيد ..

تماما كما فعل مع عبد الحميد عبد الحق ..

***

قابلت فى ميدان سليمان باشا مستر نابيير الملحق بادارة النشر والصحافة بالسفارة البريطانية وبعد تبادل التحية انطلق يتكلم ضد النحاس باشا وزينب هانم بنفس اللهجة التى يتكلم بها واحد من خصوم الوفد.. وأفاض فى الحديث عن فضائح أقارب النحاس وأصهاره ، واستغلالهم لنفوذه فى الحصول على امتيازات وعقد صفقات .. ثم قال :

ـ لماذا لايشلح الوفديون النحاس باشا من زعامة الوفد ؟ ولماذا لا يعود أحمد ماهر وأصحابه الى الوفد وينتخبون احمد ماهر رئيسا للوفد ؟ ..

ثم قال انه يسلم بأن مكرم عبيد لايستطيع أن يجمع حوله كلمة الامة ولكن احمد ماهر يستطيع وان النحاس باشا أخذ يفقد نفوذه ..

وسألته : هل هذا هو رأيه الشخصى أو رأى السفارة ؟

ونظر الى طويلا ، ثم هز كتفيه .. وسار فى طريقه ، وأثناء حديثه معى كانت رائحة الخمر تفوح من فمه ..

***

كلمت فؤاد سراج الدين بالتليفون وقلت له اننى أسافر اليوم الى رأس البر ورجوته اذا تطور الموقف إلى أسوأ وأصبحت الحالة خطيرة حقيقة أو خيف من تدمير المواصلات أن يكلمنى بالتليفون فى رأس البر ..

ولكنه قال : لا .. بلاش الكلام فى التليفون وسوف أرسل لك فى هذه الحالة تلغرافا بامضاء جميل اقول لك فيه : « احضر حالا بسبب القضية » وانت تفهم ..

وسافرت بالسيارة الى راس البر ..

« نقلا عن مذكراتى بتاريخ الاثنين ٢٠ يولية » :

كنت كلمت حسنين باشا بالتليفون من راس البر لكى اسأله عن تطورات الموقف وسألنى هو متى أعود الى القاهرة . وفهمت من لهجته ان عنده شيئا يريد أن يقوله لى ، وعدت أمس من راس البر ، وكلمته بالتليفون صباح اليوم . فدعانى لمقابلته فورا ..

وقابلته فى داره وبقيت معه نحو ساعة ..

بدأ حديثه معى بالانجليزية بسبب وجود احد الخدم معنا فى حجرة الاستقبال ، فقال ما معناه : ان الانجليز قد لعبوا أوراقهم بمهارة .. وعرفوا كيف يلعبونها ..

ثم مضى يقول انهم لم يكونوا يستطيعون أن يحصلوا من اى رئيس وزارة مهما كان ضالعا معهم على اكثر مما حصلوا عليه من مصطفى النحاس.. وتبدو مهارتهم فى انهم حصلوا من النحاس باشا على كل مايريدون وفى نفس الوقت جعلوه يعتقد انه هو الذى «دحلبهم» ومكر بهم وحصل منهم على مايريد.. اوعلى الاقل لم يعطهم شيئا

واستطرد حسنين يقول :

ـ وهكذا اذا قدر لهم أن ينتصروا على الالمان ، فانهم سوف يمكنهم ان يقسموا للنحاس بالطلاق «كذا» على انهم لم يفكروا أبدا فى القيام بأى تدمير بوادى النيل.. اما اذا قدرت عليهم الهزيمة فانهم سوف يكونون فى حل من تدمير كل مايريدون بحجة الضرورات العسكرية ، وكذلك بحجة انهم قد اتفقوا على ذلك مع رئيس الحكومة مصطفى النحاس .. اوعلى الاقل بحجة انهم لم يعدوه بشىء مخالف اى لم يتفقوا معه على عدم التدمير ..

ويومها سوف يقول النحاس ان الانجليز قد خانوا كلمتهم معه وحنثوا بوعدهم له .. ولكن ما الفائدة ؟..

ثم مضى يقول :

ـ ولقد كان المفهوم ان دفاعهم ينتهى عند العلمين اى عند الحدود ، ولكنهم استطاعوا أن «يجرجروا» النحاس الى الحديث فى الدفاع عن الاسكندرية والقاهرة والدلتا وقناة السويس .. وهذا هو الخطر وهنا بدت مهارتهم

ثم قال :

ـ ولم يفاتحوا الملك مرة اخرى فى أمر مغادرة البلاد ، ولكن مادام فى نيتهم الدفاع عن القاهرة ورفض الموافقة على اعلانها مدينة مفتوحة فانه سوف يكفى أن تسقط قنبلة المانية فى ميدان عابدين أوعلى مقربة من قصر القبة لكى يقولوا يومئذ للملك ـ ومعهم حق ـ ان هناك خطرا على «حياته الغالية» فيجب أن يبتعد عن موطن الخطر. أى عن القاهرة ، وسوف يشتركون معه فى اختيار المكان الامين الذى يحسن به أن يلجأ اليه ..

ثم قال حسنين وهو يضحك :

ـ وفى يوم ٢ يولية كانت العلمين على وشك السقوط فى أيدى الالمان .. بل لقد أذاع الالمان يومها انهم اخترقوا الخطوط وانهم يطاردون الانجليز فى اتجاه دلتا النيل.. ويومها كاد النحاس يوشك أن يغمى عليه ولكن الله سلم «وعبارة يغمى عليه من عندى أنا ، أما العبارة المدونة فى مذكراتى والتى استعملها المرحوم حسنين باشا فى حديثه فان الحياء يحول دون نشرها » ..

واستمر حسنين يقول وهو لايزال يضحك :

ـ ست ساعات فقط وكان النحاس « اغمى عليه » ولكن الله سلم فقد قال له الانجليز فى المساء ان الحالة خطرة جدا ولكنه تجلد طول الليـــل وتماسك .. فلما اصبح الصباح قالوا له : ان الحالة أقل خطورة نوعا ما ، فاطمأن ولم « يغم عليه » .. ولكنه أطلق لسانه يومها

فى الانجليز ، فقال انهم كذبوا عليه وأخفوا حقيقة الحالة وظل لسانه ملفوتا ضدهم الى أن عاد أمين عثمان من فلسطين وكان سافر اليها مع زوجته التى تركها هناك.. وبعودة أمين‌عثمان عاد نفوذ الانجليز من جديد على رفعة النحاس باشا . الذىعاد واطمأن واستكان الى الانجليز

ثم قال حسنين ان تصرفات الانجليز لا تبعث على الاطمئنان والا لو كانوا واثقين من قوة مراكزهم وخطوط دفاعهم فى العلمين فلماذا طلبوا اخلاء الاسكندرية ؟.. واخلاؤها سوف يتم قريبا ..

ثم قال :

ــ لقد سمعت من احدكبارضباطهم وكان صديقا وزميلا لى أيام الدراسة فى اكسفورد انعندهم أوامر سرية تقضى بترحيل جميع البريطانيين المدنيين وخروجهم فورا من الاسكندرية والقاهرة متى وصل الالمان الى نقطة معينة لم يذكرها لى طبعا صديقى الضابط المذكور ..

ثم قال :

وقد قابلنى هذا الضابط منذ ثلاثة أيام وقال لى :

ــ وانا اترجم هنا عن الانجليزية ــ « راقب الموقف بدقة وامعان اثناء العشرة أو الخمسة عشر يوما القادمة .. فقد يحدث شيء ما فجأة ويجب أن تكون مستعدا » ..

ومضى حسنين يقول :

ــ ان الانجليز تلقوا امدادات من‌الطائرات ومن‌الاسلحة الاخرى بقدر كاف لاباس به .. ما عدا الدبابات وهذا هو السبب فى عجزهم عن القيام بأى هجوم وكان احد ضباطهم قال لى يوم اشتداد الخطر على العلمين « فى ٢٠ يولية » انه اذا استطاع الجيش الثامن البريطانى ان يصمد اسبوعا واحدا فانهم سوف يكرون بعد ذلك ، ويشنون هجوما على‌الالمان . ولقد مر اسبوع واسبوعان

ودخلنا فى الاسبوع الثالث ولم يهجموا .. فما السبب الا انهم غير مستعدين !

***

وبعد ...

هذه هى الايام الخطيرة المليئة بالاحداث والاحتمالات التى مرت بمصر فى صيف عام ١٩٤٢ ، وأحسب انني وفيتها حقها من الوصف .. وأعطيت صورة صادقة لحالة الفوضى والذعر التى تخبطت فيها الوزارة القائمة بالحكم يومئذ ..

ولقد تمت المعجزة واستطاع الجيش الثامن أن يصمد أمام الالمان خلال بقية الصيف .. ثم شن مونتجمرى هجوما فى الخريف « اكتوبر ــ نوفمبر » وحصل الحلفاء على أول انتصار لهم ذى قيمة فى الحرب العالمية الاخيرة ..

ويومئذ ــ ولأول مرة ــ أمر ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية بأن تقرع كنائس انجلترا وسكوتلاندة أجراسها احتفالا بهذا النصر العظيم ..

ويعد المؤرخون معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب الاخيرة .. تحول النصر والحظ من الالمان الى الانجليز وحلفائهم الروس والامريكان ..

حرب الدعاية

انتهت الحرب فى أوروبا فى ٨ مايو ١٩٤٥ ، وكنت يومئذ فى انقره «تركيا» ، وعدت الى مصر ثم غادرتها فى يوم ٣ نوفمبر ١٩٤٦ الى أوروبا وزرت فرنسا وايطاليا وسويسرا والنمسا وألمانيا . وطالت رحلتى هذه نحو تسعة شهور ، وفى باريس فى شهر نوفمبر عام ١٩٤٦ تناولت العشاء مع صديقة قديمة وهى طبيبة فرنسية من اصل برازيلى وزوجها الموسيقار وهو فرنسى الجنسية اسبانى الاصل ..

وقد تناولت العشاء فى مطعم اسبانى كان افتتح حديثا فى شارع فيكتورهيجو «باريس» .. واسم المطعم «ايبريا» وهو فى حجم بطاقة البريد .. وأما بار المطعم ففى حجم طابع البريد .. وفى المطعم المذكور نحو عشر موائد ليس الا .. وفى صدره منصة مرتفعة بضعة اقدام وهى المسرح ومساحته مع المبالغة متران فى متر ..

ومن هنا فان مطعم «ايبريا» لايتسع الا لعدد محدود جدا من الزبائن هواة الطعام الاسبانى والرقص الاسبانى

ومن هنا كذلك كانت أسعار الطعام فيه تبلغ ثلاثة اضعاف أمثالها فى اى مطعم آخر فى باريس وأصحاب المطعم فريق من نجوم اسبانيا فى الرقص والغناء ..

وتناولنا طعامنا وكان من لحم الدجاج المخلوط بالارز

والطماطم والجبن والشطة والفلفل الاحمر وبهارات اخرى ! هذا بينما كان يتوالى على المسرح الوان من الرقص والغناء وكان فى هذا الغناء ما يشبه الى حد كبير اغانى الصعيد وحزنها الدفين العميق ..

وقال صاحبى الموسيقار الاسبانى الاصل الفرنسى الجنسية .. قال مازحا :

ـ انظروا أيها العرب .. ماذا فعلتم بأوروبا ؟ مشيرا الى الرقص والغناء وكلاهما لايزال يحمل الطابع العربى الاصيل ..

قلت : ماذا فعلنا ؟ لقد أعطينا اسبانيا فنا جميلا رفيعا .. عاش وما زال يعيش حتى اليوم بعد اثنى عشر قرنا ..

قال : كذلك اثينا وروما ..

قلت : واين هو أثر الفن الاغريقى او فن روما .. هل تجد لهما أثرا اليوم على مسارح لندن وباريس أو واشنطون ؟ ولكن هذا الرقص والغناء العربى الاسبانى تلقاه فى عواصم العالم ويعجب به الناس فى كل مكان.. أما فنك الاغريقى أو الرومانى فلم يبق له أثر الا فى المتاحف وقاعات المحاضرات ..

وجرنا الحديث الى الغناء فى مصر .. والى أم كلثوم وعبد الوهاب .. وكان صديقى الموسيقار المذكور قد زار مصر اثناء الحرب مع جنود الجنرال ديجول ، وكان يعمل فى اقلام المخابرات ..

وقص على هذه الحكاية التى سمعتها يومئذ لاول مرة قال ـ ومعلوماته التى يرويها هنا مستقاة كما قال من زملائه فى اقلام المخابرات البريطانية ـ قال : انه عندما لاح شبح الحرب فى صيف عام ١٩٣٩ ، لاحظ رجال المخابرات البريطانية فى الشرق الاوسط ان وكلاء المحور

ـ المانيا وايطاليا ـ راحوا يجمعون من الاســواق فى القاهرة وتل‌أبيب ويافا والقدس وبيروت ودمشق وحلب الخ .. جميع الاسطوانات العربية وخصوصا اسطوانات عبد الوهاب وام كلثوم ..

وهنافطن رجال المخابرات البريطانية الى ان المحور يستعد لحرب الدعاية .. ونشطوا هم كذلك الى شراء هذه الاسطوانات .. وكان سباقا حارا بين الفريقين..

ومضي صديقى الموسيقار الاسبانى الاصل الفرنسى الجنسية .. مضى يقول :

ـ وسرهذه الدعاية هو ان‌الدعاية الالمانية اوالبريطانية سوف تضمن استماع البلدان العربية لها اذا هى بدات بأغنية لعبد الوهاب .. ثم قال :

ـ واقبل عام ١٩٤٢ وبدأ روميل هجومه فى يناير ، واستخلص مدينة بنغازى من البريطانيين .. ثم توالت هجماته وتتابعت هزائم البريطانيين.. وسقطت‌طبرق.. وانطلق روميل والفيلق الافريقى صوب دلتا النيل... ولعلك ـ وانت صحفى مصرى ـ أدرى منى بالاجراءات التى كانت السلطات البريطانية تنوى اتخاذها وتنفيذها فى حالة اضطرارها الى الانسحاب من مصر الى فلسطين والسودان .. ولكن هناك اجراء واحدا لم يذع سره حتى اليوم ..

وسكت لحظة وهو يبتسم لكى يرى وقع كلامه فى نفسى ..

قلت : ارغام الحكومة المصرية على الخــروج مع البريطانيين من مصر لكى تقوم فى الخارج « حكومة مصر الحرة ؟ »

قال : كلا .. فان البريطانيين لم يلحوا كثيرا فى هذا الشأن .. ولكن وزارة الاستعلامات البريطانية الحت فى

امر واحد وامرت رجالها فى مصر باتخاذ هذا التدبير مهما كان الثمن ومهما كانت العقبات ..

وسكت مرة أخرى ، ثم قال : خروج أم كلثوم وعبد الوهاب من مصر بالرضا أو بالاكراه ..

وبدت الدهشة على وجهى ثم ضحكت .. وفهم هو من ضحكى اننى أشك فى روايته فقال بلهجة كلها جد :

ـ صدقنى هي الحقيقة ما أقول .. لقد كان فى نية السلطات البريطانية اذا ما اضطرت الى الانسحاب من مصر أن تأخذ معها ـ طوعا أو كرها ـ عبد الوهاب ، وام كلثوم لأنها كانت تخشى أن تستغلهما الدعاية الالمانية الى أبعد حدود الاستغلال .. ولقد كان يكفى أن يعلن راديو القاهرة التى يحتلها الالمان .. ان أم كلثوم أو عبد الوهاب سوف يغنى هذا المساء لكى ينصت العالم العربى كله الى اذاعة راديو القاهرة الذى يسيطر عليه الالمان . وهذا هو الخطر فى حرب الدعاية ..

قلت : ولكن من كان يضمن ان أم كلثوم وعبد الوهاب سوف يوافقان على الغناء ؟ ..

ابتسم صديقى الفرنسى وقال :

ـ محال أن تكون جادا فى سؤالك هذا .. والا فأنت لا تعرف النازيين .. لقد كان أمرا ممكنا جدا أن يجلس عبد الوهاب وأمامه ميكروفون الاذاعة ، ووراءه يقف جندى المانى «ينخزه» بطرف السونكى اذا توقف عن الغناء

***

ومن فرنسا ذهبت الى ايطاليا وزرت ميلانو وفلورنسا وروما ..

ولم يكن من السهل أن احمل القوم فى ايطاليا على أن يتحدثوا الى ـ الصحفى المصرى ـ بصراحة عما كان سيحدث لمصر لو نجحت جيوش المحور فى دخول مصر

فى صيف عام ١٩٤٢ ..

ولكن كان من السهل ان يتحدثوا بمنتهى الصراحة ، وبكثير من مرارة خيبة الامل عن سير الحرب وتطورها لو كان غزو مصر قد نجح وتمكنت جيوش المحور من اختراق استحكامات العلمين فى يولية أو فى سبتمبر عام ١٩٤٢ ، وكان روميل قام بهجومه الاول فى أول يولية. ثم شن هجومه الثانى والاخير فى شهر سبتمبر ، وبعدها فقد القائد الالمانى عامل المبادأة .. الى أن فاجأه القائد البريطانى مونتجمرى بالهجوم بعد شهر واحد .. اى فى اكتوبر من نفس العام ..

قال القوم فى روما : لو ان روميل كان نجح فى الوصول الى الاسكندرية ودلتا النيل والقاهرة لكانت الحرب قد انتهت بانتصار دول المحور بعد عام واحد ، أى فى عام ١٩٤٣ ، ذلك انه كان مقررا طبقا للخطة العامة التى وضعتها أركان الحرب المشتركة من الايطاليين والالمان ان ينفصل قسم من الجيوش المحورية ويذهب جنوبا الى صعيد مصر والسودان والحبشة . ويسترد اريتريا والصومال .. الخ وهدفه الاخير الوصول الى جنوب افريقيا وتطهير « القارة السوداء » ـ أى افريقيا من البريطانيين وانشاء قواعد للفواصات الالمانية والايطالية فى موانىء افريقيا الجنوبية والشرقية .. والعمل على قطع طريق بحار الجنوب أى طريق راس الرجاء الصالح الى الهند واستراليا . وهذا طبعا بعد أن يكون طريق قنال السويس قد اقفل هو ايضا فى وجه الاسطول البريطانى

ومعنى هـــذا خنق مواصلات بريطانيا مع استراليا والشرق الاقصى والهند وبورما اللتين كانتا يومئذ تحت التاج البريطانى ..

كانت هذه مهمة الجيش الذى ينفصل عن جسم جيوش

المحور الرئيسية .. وبقيت مهمة الجيش الرئيسي .. كانت مهمة هذا الجيش أولا القضاء على مقاومة البريطانيين في دلتا النيل.. وكانوا يقدرون صعوبة هذه المهمة بسبب اضطرارهم للهجوم أثناء فيضان النيل وتعدد قنوات شبك الرى فى الدلتا واستفادة الانجليز منها فى دفاعهم و«تعويق» زحف المحور.. ولكنهم كانوا واثقين من طرد البريطانيين تماما من الدلتا وقناة السويس مع حلول الخريف ..

وبعدها كانت مهمة هذا الجيش الرئيسي أن ينطلق عبر قناة السويس الى فلسطين ـ التى كما يؤكدون كانت ستسقط فى لحظة عين ـ ومن بعدها سوريا ولبنان والعراق

وكان المحور يعتمد الى حد كبير على «صداقة العرب» وعلى انتفاضهم وقيامهم بثورات فى مؤخرة البريطانيين ، تعرقل حركاتهم وتعوق انسحابهم ..

ولا اريد أن أسهب هنا فى وصف خطة المحور ولا فى الاحاطة بتطورات الحرب وسيرها لو كان روميل قد نجح فى غزو مصر ..

واكتفى بأن أذكر فى عبارات وجيزة بعض التطورات الحاسمة فى سير الحرب التى كان مقدرا أن تقع ..

١ ـ الوصول الى ايران وقطع خط امداد وتموين روسيا بالذخائر والمهمات وهو الخط الذى أنشأه الامريكيون والبريطانيون من خليج العجم الى القوقاز..

٢ ـ انضمام تركيا الى المانيا وايطاليا ضد الحلفاء . وهذا أمر كان مقطوعا به . فقد أبدت تركيا منذ اليوم الاول للحرب.. أبدت صداقتها لألمانيا.. وراحت تنتظر « الوقت المناسب » لكى تدخل الحرب الى جانب المانيا. وقد فسر فون بابن سفير المانيا يومئذ فى انقره عبارة

« الوقت المناسب » هذه فى احد تقاريره السرية فقال : ان الاتراك ما زالوا ــ حتى عام ١٩٤٢ ــ غير واثقين من انتصار المانيا ، وانهم يفضلون أن يتريثوا قبل أن ينحازوا الى جانبها خوفا من سوء المصير ومن أن يصيبهم ما اصابهم فى الحرب السابقة « بعد هزيمة المانيا فى عام ١٩١٨ » .. ولكن نجاح جيوش المحور فى دخول مصر وطرد البريطانيين منها ومن فلسطين وسوريا ولبنان والعراق .. ثم الوصول الى ايران .. كل هذا كان كفيلا باقناع الاتراك بأن « الوقت المناسب » قد حان.. وكان دخول تركيا الحرب بعد قطع خط تموين روسيا من الجنوب ــ كان كفيلا بقلب ميزان المعركة فى الجبهة الشرقية ضد روسيا .. ولقد كانت الجيوش الروسية تعانى يومئذ من الشدائد فى القوقاز.. وفى محاصرة ستالينجراد وموسكو وليننجراد ..

٣ ــ القيام بحركة كماشة من الجنوب الشرقى والغرب ضد الجيوش الحمراء .. الى آخره ..

لهذا لم يكن كثيرا ان يؤمل المحور فى النصر النهائى ووضع حد للحرب فى عام ١٩٤٣ ..

***

كان موسولينى يطمع فى دخول الاسكندرية والقاهرة فى موكب يرد التاريخ القهقرى الى عصر أمجاد روما ومواكب قوادها الغزاة وعودتهم من ميادين القتال معقودة حول رؤوسهم اكاليل الغار ..

وهنا عكف « الدوتشى » على وضع نظام وترتيب « موكب النصر » الذى سوف يسير على رأسه .. فى شوارع الاسكندرية والقاهرة ..

واصدر اوامره ان يرسل جواده الاصيل الابيض الملون

الى بنى غازى . ومنها الى العلمين .. لـكى يمتطيه الدوتشي فى اليوم الموعود . ووقفت طيارة حربية خاصة على قدم الاستعداد فى مطار روما لكى تحمل موسولينى ـ عند الساعة المرتقبة ـ الى أبواب الاسكندرية .. حيث ينتظره موكب النصر وجواده الابيض الاصيل ..

حتى قائمة الطعام ، الذى سيقدم فى المأدبة الكبرى أعدها الدوتشي بنفسه !

وكان فى نيته أن يقيم مأدبة عشاء وحفلة ساهرة فى الاسكندرية .. ومأدبة أخرى وحفلة ساهرة فى القاهرة

وقد تم الاتفاق بينه وبين السلطات الالمانية على أن يكون فندق مينا هاوس هو مقر القيادة الايطالية فى القاهرة ..

وكانت قائمة الطعام الذى سيقدم فى مينا هاوس فى اول يوم يصل فيه موسولينى وقواده الغزاة كما يلى :

حساء سمك النيل ..

دجاج الفيوم ..

حمل مشوى على الطريقة البدوية ..

وحلوى ألف ليلة ..

وفاكهة الموسم « بطيخ ، وعنب ، ومانجو » ..

قهوة شرقية ..

والى هذا الحد كانت الآمال كبيرة والثقة فى النصر لا ريب فيها ..

النهايـــة

وانتقل الآن الى الفصل الاخير من حياة احمد محمد حسنين ..

كان حسنين باشا يعد حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ ، لطمة أصابته هو بالذات .. لطمة لكرامته ولسياسته ولطمة لواجبه نحو العرش ونحو مصر ..

واقسم حسنين يومها على ان يثار لنفسه وللبلاد من رجلين عدهما مسئولين عن هذه اللطمة ، وهما : مايلز لامبسون سفير بريطانيا ، ومصطفى النحاس رئيس الوفد .. ورئيس الوزراء ولقد حاول حسنين باشا فى عام ١٩٤٣ ، أن يقيل مصطفى النحاس ووزارته ، ولكن الانجليز لم يمكنوه .. فقد بادر يومئذ السفير البريطانى فى مصر وانذر فاروق ان الحكومة البريطانية تعلنه ان لا تغيير فى الوزارة No change وفى الاوضاع القائمة فعلا . وكانت حجة الانجليز يومئذ انهم وحلفاءهم قادمون على فتح جبهة جديدة فى جنوب اوروبا ــ او بطن أوروبا السفلى ــ حسب تعبير ونستون تشرشل ..

جبهة جديدة ينفذون منها الى قلعة هتلر فى وسط أوروبا .. ومن هنا فانهم ــ اى الانجليز ــ لايسمحون بأى تغيير فى مصر مخافة وقوع رد فعل او قلقلة خلف خطوطهم .. اى فى مصر ..

واستكان حسنين وتظاهر بالرضا والتسليم ..

ولكنه لم يسكت .. بل أخذ يراقب سير الحوادث ويتحين الفرص. وانتهت معركة افريقيا باندحار الجيوش الالمانية وأسر مئات الالوف منها فى تونس والجزائر ومراكش ولا أدخل فى التفاصيل ..

ونقل الحلفاء ــ بريطانيا وأمريكا ــ جيوشهم من افريقيا الى جزيرة صقلية .. ومن هذه الى ايطاليا ..

واستسلمت ايطاليا فى سبتمبر من نفس العام ١٩٤٣ وفى يونية ١٩٤٤ أنزل الحلفاء جنــودهم فى نورماندى بشمال فرنسا ..

وبدأ تحرير القارة .. ودك قلعة هتلر من الجنوب والشرق والغرب ، ودخل الحلفاء باريس فى اغسطس .

وكانت الجيوش الروسية قد حررت دول البلطيــق وجزءا من بولنده وزحفت نحو النمسا الى آخره .. الى آخره ..

وكما قلت : ليس فى نيتى أن أدخل فى التفاصيل .. ولكن بدا يومئذ واضحا كل الوضوح ان نصر الحلفاء أمر مؤكد .. وان الحرب قد دخلت فى دورها الاخير وان الحلفاء يمسكون بزمام الموقف .. وان البريطانيين لم يعد أمامهم ــ أو وراءهم فى مصر ــ ما يخشون منه على سير الحرب ..

وانتهز حسنين الفرصة وواتاه الحظ ان مايلز لامبسون سافر فى اجازة قصيرة الى جنوب افريقيا ..

وضرب حسنين ضربته المفاجئة وكانت مسرحية مثيرة ومن فصولها :

تعليمات سرية الى الدكتور احمد ماهر بالا يغادر داره فى يوم الاحد ٨ أكتوبر بل يبقى فيها ينتظر رسالة من جلالة الملك فاروق ، وأوامر سرية الى حكمدار بوليس

القاهرة ومدير ادارة الامن العام بأن تكون قوات الامن على استعداد لحفظ النظام وقمع أية حركة تقوم للاخلال بالامن والنظام ..

وكانت هذه الاوامر السرية صادرة مباشرة من السراى لأن السراى كانت مصدر جميع السلطات ..

جرى كل هذا والوزراء ورئيسهم ـ وكانوا فى رمل الاسكندرية ـ لايعرفون شيئا .. ثلاثة أو اربعة فقط من الصحفيين من خصوم الوفد هم الذين كانوا على علم بما يعده احمد محمد حسنين رئيس الديوان ..

وفى صباح يوم الاحد ٨ أكتوبر عام ١٩٤٤ استقل حسن يوسف بك وكيل الديوان الملكى قطار الصباح من الاسكندرية الى القاهرة ..

ودخل عربة البولمان فوجد أمامه محرم باشا وزير الاشغال فابتسم وحياه ولكنه جلس الى مائدة بعيدة عن المائدة التى كان يجلس اليها وزير الاشغال ..

ولعله ـ حسن يوسف بك ـ خشى أن يقرأ عثمان محرم باشا شيئا ما فى وجهه .. شيئا ما يكشف سر سفره فى الصباح الباكر الى القاهرة .. ذلك أن وكيل الديوان كان يحمل فى جيبه امرا ملكيا صادرا الى الدكتور احمد ماهر بتشكيل الوزارة ..

وأمرا ملكيا آخر الى مصطفى النحاس باقالة الوزارة

ووصل حسن يوسف الى القاهرة وانهى مهمته فيها ثم عاد بالسيارة الى الاسكندرية ..

وفى الساعة الخامسة بعد ظهر نفس اليوم الاحد ٨ اكتوبر .. وحسب التعليمات والاوامر .. وطبقا للخطة المسرحية التى وضعها حسنين باشا ..

غادر الدكتور احمد ماهر داره ، الى دار رياسة مجلس الوزراء وصعد توا الى غرفة رئيس الوزراء وأمر السعاة

والحجاب ان يفتحوا أمامه الابواب .. وأعلنهم انه رئيس الوزارة الجديد ..

وفى نفس اللحظة ـ وطبقا للأوامر والتعليمات ـ فتح المعتقل أبوابه وخرج منه مكرم عبيد ..

خرج من المعتقل وذهب مباشرة الى وزارة المالية التى عين وزيرا لها فى الوزارة الجديدة ..

وفى نفس الساعة ـ الساعة الخامسة ـ كان حسن يوسف يصعد الى الطابق الثانى بفندق سيسيل بالاسكندرية حيث كان يقيم مصطفى النحاس.. ويسلم رفعته خطاب الاقالة ، وكان امين عثمان قد أقبل على فندق سيسيل لزيارة مصطفى النحاس .. فقيل له ان الوزارة أقيلت وكانت فى يده سلسلة ذهبية يعبث بها ويلفها على أصابعه ثم يعود ويفردها.. وتوقف فى طريقه وسقطت السلسلة من يده .. ولكنه خرج وارسل برقية الى احمد حسنين يقول له فيها ـ باللغة الانجليزية ـ « أهنئك لقد ربحت الجولة الاخيرة » ..

ذلك لأنها كانت حربا أو مباراة بين الرجلين : رجل الانجليز أمين عثمان ، ورجل القصر أحمد حسنين ..

وكانت المباراة حول مصطفى النحاس هل يبقى رئيسا للوزارة كما يريد الانجليز ؟ أو يخرج كما يريد القصر؟ وقد انتصر رجل القصر أحمد حسنين ..

***

وأمشي سريعا بين الحوادث الى أن أصل الى عام ١٩٤٦ وكانت الوزارة البريطانيـــة يومئذ من حزب العمال . وكان وزير الخارجية أرنست بيفن ..

وعرف حسنين كيف يوجه صديقه عبد الفتاح عمرو سفير مصر فى لندن الى استغلال صداقته مع مستر بيفن وكان أن استدعت وزارة الخارجية البريطانية سفيرها

مايلز لامبسون من مصر ..
وهكذا بر حسنين بوعده أو بقسمه وثأر لنفسه من الرجلين : مايلز لامبسون ، ومصطفى النحاس ..
ثم لقى منيته بعد ذلك بأسبوعين اثنين ، وكان موته ـ رحمه الله ـ مفاجأة مثيرة كما كانت حياته سلسلة من المفاجآت المثيرة ..

***

وكان امضى سهرة يوم الاحد ١٧ فبراير عام ١٩٤٦ فى مسكنى مع بعض الاصدقاء ومنهم ام كلثوم .. وغنت ام كلثوم « سلوا قلبى » وحمل حسنين مقعدا صغيرا جلس فيه بين يدى ام كلثوم وكان ينصت لها بكل جوارحه وامتدت السهرة حتى مطلع الفجر .. يوم الاثنين وشيعته الى باب المصعد وكانت هذه آخر مرة اراه فيها ..

وفى يوم الثلاثاء ١٩ فبراير كان حسنين مدعوا لتناول الغداء عند اسرة صديقة فى المطرية .. ولكن تراكم الاعمال ابقاه فى مكتبه بقصر عابدين الى الساعة الثالثة بعد الظهر وراى ـ رحمه الله ـ انه تاخر كثيرا عن الموعد فاعتذر لاصحاب الدعوة بالتليفون ..
واستقل سيارته عائدا الى داره بالدقى وكانت السماء تمطر ، وبينما كانت سيارته تجتاز كوبرى قصر النيل فى طريقها الى الدقى اقبلت سيارة لورى بريطانية من الجهة المضادة .. وانزلقت عجلات السيارة البريطانية بفعل المطر .. ولفت اللورى نصف لفة على الكوبرى وصدمت سيارة حسنين من الخلف صدمة شديدة ..
وسمع سائق السيارة صوت حسنين باشا خلفه وهو يقول : « ياساتر .. ياساتر يارب .. »
والتفت السائق خلفه فراى الدم يسيل من فم حسنين باشا .. واوقف السائق السيارة ، ونزل منها يصيح

ويطلب المساعدة .. ومرت مصادفة فى نفس اللحظة سيارة وزير الزراعة أحمد عبد الغفارباشا صديق حسنين وزميله أيام الدراسة فى اكسفورد ..

واسرع أحمد عبد الغفار وحمل صديقه الى مستشفى الانجلو أمريكان القريب من مكان الحادث ..

ولكن حسنين كان أسلم الروح .. فنقلوه الى داره..

***

وطار الخبر الى القصر .. وأسرع فاروق ـ وكان يرتدى بيجامة وفوقها « روب دى شامبر » وفى قدميه شبشب ـ أسرع بملابسه هذه واستقل احدى سياراته الى دار حسنين فى الدقى ..

ووقف فاروق لحظة أمام جثمان حسنين ، رائده وأستاذه ومربيه ثم رئيس ديوانه ..

ثم قال : «مسكين ياحسنين» وسأل بعدها عن مفاتيح مكتب حسنين.. وتناولها ودخل غرفة المكتب وأغلق وراءه الباب .. وكان فاروق يبحث عن أية مذكرات يكون حسنين قد كتبها .. وعن عقد زواجه بأمه الملكة نازلى .. وعن أية أوراق هامة أخرى قد يكون تركها وراءه ..

***

وبعد وفاة حسنين بأسبوعين او ثلاثة اسابيع ذهب فاروق يزور أمه نازلى فى قصرها الذى ورثته عن أبيها فى الدقى .. ودخل عليها فى قاعة القصر الكبرى .. وتسمرت قدماه عند الباب ..

فقد رأى أمامه فى صدر القاعة صورة لاحمد محمد حسنين بالحجم الطبيعى وقد جللت بالسواد ..

وأمام الصورة ـ وعلى الارض ـ جلست امه «الملكة» نازلى وحولها سيدات حاشيتها وخادمات القصر ،

وجميعهن متشحات بالسواد ..

وعلى جانبى القاعة الكبيرة جلس نحو عشرين شيخا يتلون الاوراد ويدعون بالرحمة للراحل الكريم ..

توقف فاروق لحظة عند باب القاعة .. وقد عقدت الدهشة لسانه ، ثم مشى الى حيث كانت تجلس أمه وقال لها وهو يشير بيده الى الصورة والى السيدات ، والمشايخ قال : ايه ده كله ؟ وعلشان ايه ده كله ؟ مات .. خلاص مات .. فلزوم ده ايه ؟

وانتفضت نازلى واقفة على قدميها وانفجرت فى ابنها تصيح : ده ؟.. ده اللى عملك راجل.. ده اللى حافظ لك على عرشك .. بكره راح تشوف يجرى لك ايه ؟.. بعد موت حسنين .. الى آخره .. الى آخره ..

وهز فاروق كتفيه ساخرا وانصرف ..

***

وان هى الا اسابيع معدودة حتى غادرت نازلى مصر الى اوروبا للعلاج والراحة كما زعمت ..

ولكنها غادرت مصر وفى نيتها الا تعود .. وكان منها ما يذكره القراء .. وكان كذلك ما كان من فاروق .. وكيف استهتر الى ابعد حدود الاستهتار وطغى وبغى.. ثم كانت الثورة التى طوحت به وحطمت عرشه ..

ولعله تذكر يومئذ وهو يوقع وثيقة تنازله عن العرش قول أمه : « بكره تشوف راح يجرى لك ايه بعد موت حسنين ؟..» ..

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.

هذا الكتاب

يقدم الكاتب الكبير محمد التابعى فى هذا الكتاب صفحات مجهولة ومثيرة فى السياسة المصرية قبل ٢٣ يوليو . وقد عاش محمد التابعى هذه الحياة وعرف أسرارها ، حيث كان واحدا من ألمع الصحفيين والكتاب المتصلين بهذه الحياة عن قرب

والصفحات التى يكشفها التابعى هنا هى جزء هام من تاريخنا ، ومن خلال هذه الصفحات نعرف كيف كانت مصر تحكم ، وكيف كان هناك طبقة سياسية تتصارع فيما بينها صراعا عنيفا محوره المصالح الشخصية لا المصالح العامة . ولقد كان النظام السياسى القديم كله يعانى من هذا المرض الاساسى .. مرض البعد عن الشعب ومشاكله ، والاقتتال حول المناصب والثروات المختلفة حتى ولو كان الشعب غارقا فى المحن الوطنية والاقتصادية والسياسية

ان هذا الكتاب يعتبر وثيقة تاريخية على غاية من الاهمية والقيمة .. انه وثيقة للباحثين والدارسين يستطيعون ان يكتشفوا من خلالها تلك الخبايا التى لم يكن احد يعرفها ، حيث انها كانت كلها تدور فى الظلام ومن وراء أستار كثيفة . وهذا الكتاب ايضا وثيقة بالنسبة للمواطنين جميعا يعرفون من خلالها صورة واضحة عن فترة تاريخية خطيرة مرت بها مصر . وقد أتيح للحقائق التى يكشفها هذا الكتاب قلم ساحر هو قلم الاستاذ التابعى، عميد المدرسة اللامعة فى الكتابة الصحفية، وهى المدرسة التى جعلت من الصحافة أدبا رفيعا قريبا من قلوب الالاف الذين عرفوا التابعى وأحبوا اسلوبه وتابعوا رحلته الصحفية الرائدة

١٥ قرشا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

الفلسفة القرآنية

عباس محمود العقاد





كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٩ – ذو الحجة ١٣٨٩ – مارس ١٩٧٠

No. 229 - Mars 1970

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

فيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية او ٤٠ شلنا – والقيمة تسـدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية : فى الخـارج بتحويل او بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشــــة
ـ الفنـــان حلمي التوني

عباس محمود العقاد

الفلسفة القرآنية

دار الهلال

مقدمة

الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية ..

ولم يكن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية لأنه مصلحة وطنية ، أو حاجة نوعية .. لأن الدين قد وجد قبل وجود الاوطان .. ولأن الحاجة النوعية «بيولوجية» تتحقق أغراضها فى كل زمن ، وتتوافر أسبابها فى كل حالة ، ولا يزال الانسان بعد تحقق أغراضها ، وتوافر وسائلها فى حاجة الى الدين

وغرائز الانسان النوعية واحدة فى كل فرد من افراد النوع ، وكل سلالة من سلالاته ... ولكنه فى الدين يختلف أكبر اختلاف ، لأنه يتجه من الدين الى غاية لا تنحصر فى النوع ولا تتوقف على غرائزه دون غيرها ، وليس الغرض منها حفظ النوع وكفى ... بل تقرير مكانه فى هذا الكون ، أو فى هذه الحياة

فالانسان يتعلق من النوع بالحياة . ولكنه يتعلق من الدين بمعنى الحياة ..

ولن يوجد انسان ليس له نوع ، أو غريزة نوع ، أو آداب نوع ، لأن وشيجة النوع ليست مما ينفصل عنه باختياره . ولكن قد يوجد انسان يفوته معنى الحياة ، وقد يوجد انسان يفهم معنى الحياة على أنه اعراض عن الحياة الفردية ، وعن الحياة النوعية ،

وتوجه الى ضرب آخر من الحياة ..

وقد يتحول الانسان من عقيدة الى عقيدة ، فلا يقال اذن انه تحول من غريزة نوعية الى غريزة نوعية ، لأن هذه الغريزة لا تقبل التحول ولا التحويل ، بل يقال اذن انه آمن بعلاقة جديدة بين الخلائق جميعا ، وبين الحياة أو مصدر الحياة

والانسان اذا طلب من الدين الحياة الأبدية ، فهو لا يطلب ذلك لأنه فرد من أفراد نوع .. فان النوع قد يبقى ألوف السنين ، وقد يقدر الانســان انه مكفول البقاء بغير انتهاء ، ثم لا يغنيه كل ذلك عن طلب الحياة الأبدية ، لأنه يريد لحياته معنى لايزول ، ويريد أن يتصل بحياة الـكون كله فى أوسع مداه

وليست العقيدة لازمة من لوازم الجماعات البشرية لأنهم يريدون منها دروسا علمية أو حيلا صناعية ..

فان قوة الصناعة والعلم كامنة فى الانسان ، لا تلجئه الى قوة خارج الانسان ..

وان ألف انسان قد يعلمون علما واحدا ، ولا يعتقدون عقيدةواحدة، بل ينكر أحدهمعقيدة الآخر اشد الانكار

كما ان العلاقة بين العالم والمعلوم قد تكون علاقة غريب بغريب . وقد يعلم الانسان أسرارا من الكون ، وهو يشعر بأنه غريب عنه أو عارض فيه .. فاذا اعتقد فانما يعتقد لأنه يريد أن يشعر بأنه ليس فى الـكون بالغريب ، ويؤمن بأنه موصول الحياة بحياته وليس بالعارض فيه ..

وليس مقياس العقيــدة الصالحة مقياس الدروس العلميــة والحيل الصــناعية ، وانما حسب العقيــدة الصالحة من صلاح انها تنهض بالعقل والقريحة ، ولا تصدهما عن سبيل العلم والصــناعة ، ولا تحول بين

معتقديها ، وبين التقدم فى الحضارة ، واطوار الاجتماع

وينبغى أن يلاحظ فى هذا الصلاح أن الجماعات البشرية لا تعيش عمر انسان واحد ، ولا تنحصر فى طبقة واحدة

فالعقيدة التى تصلح لعشرة أجيال ، يشترك فيها عشرة أجيال يختلفون فى كثير من الأحوال والعادات ..

والعقيدة التى يدين بها الملايين ، يشترك فيها الخاصة والعامة والأعلياء والأدنياء ، ولا تصاغ منها نسخة مستقلة لكل طبقة أو لكل فريق

فالذى يطلب من العقيدة الصالحة أن تصلح لكل هؤلاء مجتمعين ، وأن تصلح لأعمار بعد أعمار لأنها ليس مما يخلع تارة بعد تارة ، ولا مما يستبدل ببرامج السنوات ونصوص الدساتير .

وموضوع هذا الكتاب هو صلاح العقيدة الإسلامية ــ أو الفلسفة القرآنية ــ لحياة الجماعات البشرية ، وأن الجماعات التى تدين بها تستمد منها حاجتها من الدين الذى لا غنى عنه ، ثم لا تفوتها منها حاجتها الى العلم والحضارة ، ولا استعدادها لمجاراة الزمن حيثما اتجه بها مجراه ..

كنا نتحدث مع بعض الفضلاء فى موضوع الدين والفلسفة ، فقلنا : ان العقيدة الدينية هى فلسفة الحياة بالنسبة الى الأمم التى تدين بها ، وانها لا تعارض الفلسفة فى جوهرها ، وان الفلسفة تصلح للاعتقاد كما تصلح العقيدة للفلسفة ، واستشهدنا على ذلك بآيات كثيرة من القرآن الكريم يستخرج منها المسلم فلسفة قرآنية ، لاتحول بينه وبين البحث فى غرض من أغراض الفكر والضمير

وأيا كانت العلاقة بين موضوع الفلسفة ، وموضوع الدين ، فليس فى وسع فيلسوف صادق النظر أن ينسى أن الأديان قد وجدت بين جميع البشر ، وأنها ــ من

ثم ـ حقيقة كونية لا يستخف بها عقل يفقه معنى ما يراه من ظواهر هذه الحياة

فاقترح على بعضهم أن يكون هـذا البحث موضوع كتاب .. فألفت هذا الكتاب فى هذا الموضوع ، وسميته باسم « الفلسفة القرآنية » لأنه أقرب الاسماء الى بيان غرضه ، وكان اسم « فلسفة القرآن » من الأسماء التى اقترحت فى سياق ذلك الحديث . فخطر لى ان هذا الاسم قد يوحى الى الذهن اننا نتخذ القرآن موضوعا لدراسة فلسفية كدراسة فلسفة النحو ، أو البيان ، أو التاريخ ، وليس هذا هو المقصود مما كنا نتحدث عنه ، وانما المقصود منه أن القرآن الكريم يشتمل على مباحث فلسفية فى جملة المسائل التى عالجها الفلاسفة من قديم الزمن ، وان هـذه الفلسفة القرآنيـة تغنى الجماعة الاسلامية فى باب الاعتقاد ، ولا تصدها عن سبيل المعرفة والتقدم . وهى لذلك تحقق ضرورة الاعتقاد ، وتمنع الضرر الذى يبتلى به من تصدهم عقائدهم عن حرية الفكر ، وحرية الضمير ..

وليس للعلماء ولا للفلاسفة أن يطلبوا من الدين غير هذا.

فمهما يكن من رأيهم فى الايمان بالله ، فهم لا يجهلون ولا يستطيعون أن يجهلوا أن الايمان ـ كما قدمنا ـ ضرورة كونية ، لا تخلقها مشيئة أحد من الآحاد ، ولو كان فى قدرة الرسل والأنبياء ..

فاذا أجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم فى الجنس ، والزمن ، والموطن ، والمصلحة ـ فليس هذا عمل فرد ، ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضا واتفاقا من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوى الكون ، لا يفلح الرسل والأنبياء فى نشر دعوته ما لم يكن فى تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق ، وسر التكوين.

وكل اعتراض يعترض به المنكرون على حقائق الأديان لا يقام له وزن ، فى مواجهة هذه الظاهرة الواقعة التى لا شك فيها ..

بل هو لا ينفي الوحي الالهى كما تخيلوه ، أو كما يمكن أن يتخيلوه . ولا يبطل ضرورة الاعتقاد بين الجماعات البشرية بحال من الأحوال ..

انهم يتخذون من عقائد بعض العامة ، أو عقائد بعض الخاصة ، دليلا على انها أمور لا تصدر من عند الله ، الذى يصفه أصحاب الأديان بالعلم والحكمة والقدرة على هداية العقول الى الصواب فى الكبير والصغير ..

فاذا كان هذا هو المبطل للوحى الالهى ، فكيف يثبت الوحى الالهى فى قياس أولئك الفلاسفة أو العلماء ؟..

أيثبت بعقيدة يدين بها العامة كما يدين بها الخاصة ، وتطابق الدروس العلمية اليوم ، كما تطابقها عندما تنقض نفسها بكشف جديد ؟..

أيثبت بعقيدة تدخل المعمل الصناعى — أو العلمى — كل سنة أو كل بضع سنوات للفحص والامتحان ؟..

أيثبت بعقيدة ليست بعقيدة ، ولكنها مجموعة من الأزياء الموسمية التى يغيرها الانسان تارة بعد تارة ، ولا يمزجها ببواطن الضمير ؟ ..

كلا .. فان الوحى الالهى — متى يثبت — لا يثبت على النحو الذى تخيلوه بل على النحو الذى عهدنا عليه الأديان ، مع اختلاف العقول واختلاف الأجيال واختلاف المعلومات ..

عقيدةهىعقيدة ، وايمان هو ايمان..وبعدذلك موافقة لدواعى الحياة ومطالب الفكر وخلجات الشعور. وهكذا تصح العقيدة ، ان صحت على الاطلاق ، وهكذا يكون الايمان ، ان كان ايمان ..

وقد رايت اناسا يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية ، فاذا بهم يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصه ، وكل لازمة من لوازمه ، ولايستغنون عما فيه من عناصر الايمان والاعتقاد ، التى لا سند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى اعماق النفس ، لأنهم اصطنعوه اصطناعا ، ولم يرجعوا به الى مصدره الأصيل ..

فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية ، يطلبون من شيعتهم ان يكفروا بكل شيء غير المادة ، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ من هذه المادة ، فى دورات مسلسلة ، تنحل كل دورة منها فى نهايتها لتعود الى التركيب فى دورة جديدة ، وهكذا دواليك ، ثم دواليك الى غير انتهاء ..

ويطلبون منهم ان ينتظروا النعيم المقيم ، على هذه الأرض ، متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية .. فان زالت الطبقات الاجتماعية فى هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدى ، الذى يدوم ما دامت الأرض والسماوات ، وتنتهى اليه أطوار التاريخ ، كما تنتهى بيوم القيامة ، فى عقيدة المؤمنين بالأديان ..

ولا يكلف دين من الأديان اتباعه تصديقا اغرب من هذا التصديق ، ولا تسليما اتم من هذا التسليم ..

ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ، وهو « الراسمالية » الخبيثة العسراء .. فكل ما فى الدنيا من عمل سوء ، او فكرة سوء ، فهو كيد من هذا الشيطان الماكر المريد ..

وكل ما فيها من عمل سوء أو فكرة سوء يزول ويحول ، وتحل فى مكانه بركات الفلسفة المادية ورضوانها ، متى سار الامر الى ملائكة الرحمة ، وذهب

ذلك الشيطان الى قرارة الجحيم ..

ولما طبقت هذه العقيدة فى البلاد الروسية - على ايدى أصحاب الفلسفة المادية - خيل اليهم أنهم ظفروا بحقيقة الحقائق واستغنوا بها عن كل ما اعتقده الانسان فى جميع الأزمان ، ولا سيما عقائد الأديان والاوطان..

وادخروها للزمن كله ، بل للأبد كله .. ولكنهم لم يصطدموا صدمتهم الأولى فى الحرب العالمية الأخيرة حتى أفلست « عقيدة الأبد » كل الافلاس ولجأوا الى الوطن يستعيدون مثله ، والى الديانة يستجدونها ويتمسحون بها . فنادوا « بالجهاد القومى » ورحبوا بالصلوات فى المعابد ، وشجعوا المصلين على ارتيادها ، واجتمع رؤساء القساوسة فى حضرة زعماء المذهب الشيوعى ليعلنوا العودة بمجلس الكنيسة الى نظامه القديم ..

وفحوى هذه العبرة البالغة ان أسرار العقيدة أعمق وأصدق مما يدور بأوهام منكريها ، وانها ذخيرة من القوة وحوافز الحياة تمد الجماعات البشرية بزاد صالح لا تستمده من غيرها ، وان هذه الذخيرة « الضرورية » خلقت لتعمل عملها ، ولم تخلق ليعبث بها العابثون ، كلما طاف بأحدهم طائف من الوهم ، أو طارت برأسه نزعة عارضة ، لا تثبت على امتحان ..

وفى هذا العصر الذى تتصارع فيه معانى الحياة بين الايمان والتعطيل ، وبين الروح والمادة ، وبين الأمل والقنوط ، تلوذ الجماعات الاسلامية بعقيدتها المثلى ولا تخطىء الملاذ .. لأنها عقيدة تعطيها كل ما يعطيه الدين من خير ، ولا تحرمها شيئا من خيرات العلم والحضارة

وهذا الذى نرجو أن نبينه فى هذا الكتاب ..

عباس محمود العقاد

الفصل الأول

القرآن والعلم

تتجدد العلوم الانسانية مع الزمن على سنة التقدم ، فلا تزال بين ناقص يتم ، وغامض يتضح ، وموزع يتجمع ، وخطأ يقترب من الصواب ، وتخمين يترقى الى اليقين . ولا يندر فى القواعد العلمية أن تتقوض بعد رسوخ ، أو تتزعزع بعد ثبوت .. ويستأنف الباحثون تجاربهم فيها بعد ان حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدة قرون ..

فلا يطلب من كتب العقيدة أن تطابق مسائل العلم .. كلما ظهرت مسألة منها لجيل من أجيال البشر ، ولا يطلب من معتقديها أن يستخرجوا من كتبهم تفصيلات تلك العلوم ، كما تعرض عليهم فى معامل التجربة والدراسة ، لأن هذه التفصيلات تتوقف على محاولات الانسان وجهوده ، كما تتوقف على حاجاته ، وأحوال زمانه ..

وقد أخطأ أناس فى العصور الأخيرة لأنهم أنكروا القول بدوران الارض واستدارتها ، اعتمادا على ما فهموه من ألفاظ بعض الآيات ..

وجاء أناس بعدهم فأخطأوا مثل خطئهم حين فسروا السماوات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، ثم ظهر أنها عشر ، لا سبع ، وأن « الأرضين السبع »

اذا صح تفسيرهم لا تزال فى حاجة الى التفسير ..

ولا يقل عن هؤلاء فى الخطأ أولئك الذين زعموا أن مذهب التطور والارتقاء ثابت من بعض آيات القرآن كقوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » أو قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » ..

لأن الآيتين تؤيدان تنازع البقاء ، وبقاء الاصلح ، ولكن مذهب التطور والارتقاء لايزال بعد ذلك عرضة لكثير من الشكوك والتصحيحات ، بل عرضة لسنة التطور والارتقاء التى تنتقل به من تفسير الى تفسير ..

ومن الخطأ كذلك أن يقال : ان الأوربيين أخذوا من القرآن كل ما اخترعوه من السلاح الحديث ، لان القرآن الكريم جاء فيه حثا للمسلمين : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .. فقد يقال ان المسلمين سمعوا هذه الآيات مئات السنين فلم يخترعوا تلك الأسلحة ، وان الأوربيين لم يسمعوها فاخترعوها

فهل الاسلام اذن لازم أو غير لازم ؟.. وهل يضير الأوربيين أن يجهلوه ، أو ليس بضائرهم أن يخترعوا ما اخترعوه ولم يتبعوه ؟ ..

وخليق بأمثال هؤلاء المعتسفين أن يحسبوا من الصديق الجاهل ، لأنهم يسيئون من حيث يقدرون الاحسان .. ويحملون على عقيدة اسلامية وزر أنفسهم ، وهم لا يشعرون ..

كلا .. لا حاجة بالقرآن الكريم الى مثل هذا الادعاء ، لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ، ولا يتضمن حكما من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ،

او يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ، ما استطاع حيثما استطاع .. وكل هذا مكفول للمسلم فى كتابه ، كما لم يكفل قط فى كتاب من كتب الأديان .. فهو يجعل التفكير السليم ، والنظر الصحيح الى آيات خلقه وسيلة من وسائل الايمان بالله :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار » ..

وهو يحث المسلم على أن يفكر فى عالم النفس كما يفكر فى عالم الطبيعة .. « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى » ..

وهو يعظ المخالفين والمصدقين عظة واحدة ، وهى التفكير الذى يغنى عن جميع العظات :

« قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا »

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ..

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ..

« ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ..

« قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » ..

ولا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم :

«يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات»..

«قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون»..

ولا يسأل المسلم ربه نعمة هى أقوم وألزم من العلم :

« وقل ربى زدنى علما »

« انما يخشى الله من عباده العلماء » ..

فالقرآن الكريم يطابق العلم ، أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة ، ولا تتعرض للنقائض والأظانين ، كلما تبدلت القواعد العلمية ، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم ، أو يبطل التخمين

***

وفضيلة الاسلام الكبرى أن يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ، ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها ، وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن ، وتجدد أدوات الكشف ووسائل التعليم . وليست فضيلته الكبرى أنه يقعدهم عن الطلب ، وينهاهم عن التوسع فى البحث والنظر ، لأنهم يعتقدون أنهم حاصلون على جميع العلوم

الأسباب والخلق

من المتفق عليه اقتران الحوادث بالأسباب . يقول بذلك العلماء والفلاسفة ، كما يقول به عامة الناس فى أقوالهم التى تجرى مجرى العادة فالأسباب موجودة لا خلاف فيها من أحد .. ولكن الخلاف الأكبر فى السبب ما هو ، وماذا يعمل ؟.. وهل الأسباب العاملة عنصر مستقل فى الكون ، والحوادث المعمولة عنصر آخر يخالفه فى الكنه والقوة ؟.. وهل السببية قوة تنتقل بين الأشياء والحوادث ، أو هى قوة خاصة ببعض الأشياء والحوادث؟

لكل شيء سبب ، ما فى ذلك خلاف ..
ولكن ما هو السبب ؟..

هل هو موجد الشيء الذى خلقه ولولاه لم يخلق ؟..
أو هو حادث سابق للشيء ، أو مقترن به يلازمه كلما حدث على نسق واحد ؟ ..

اما ان السبب هو موجد الشيء ، فيمنعه فى العقل اعتراضات قوية كأقوى ما يكون الاعتراض فى المسائل الفكرية ..

فكل ما يقرره العقل وهو واثق منه أن سبب الشيء يسبقه ، أو يقترن به كلما حدث على نسق واحد ..

ولكن السبق لا يستلزم الايجاد .. ويضربون لذلك مثل النور والصوت فى قذيفة المدفع . فان العين ترى

النور قبل أن تسمع الأذن صوت القذيفة ، ولا يقول أحد : ان النور هو سبب الصوت . أو انه هو سبب القذيفة ، وان تكررت رؤيته وسماع الصوت بعده مئات المرات أو ألوف المرات . وكذلك صياح الديكة قبل طلوع النهار ، ووصول قطار الصبح قبل قطار الضحى ، ودخول المرءوسين فى الصباح قبل دخول الرئيس الى الديوان ، وغير ذلك من المتلاحقات التى تقترن على ترتيب واحد ، ولا يستلزم تلاحقها أن يكون السابق منها موجدا لما لحقه ، بأى معنى من معانى الايجاد ..

كذلك يعترض العقل على السببية على المعنى المتقدم بأن التلازم بين الأسباب والنتائج فى وقائع الطبيعة ليس تلازما عقليا ، كتلازم المقدمة والنتيجة فى القضايا العقلية . وانما هو تلازم المشاهدة والاحصاء ، وغاية ما نملكه فيه أن نسجل هذه المشاهدة أو هذا الاحصاء ..

فحدوث الصوت من القذيفة يقع على التواتر كما نسمعه . ولكن لا يلزم عقلا من تسلسل الحوادث التى تقع مع القذيفة أن نسمع ذلك الصوت . وانما تستلزم حدوثه لأنه قد حدث قبل ذلك مرات ، ولا زيادة على ذلك من دواعى الاستلزام ..

فكل ما هنالك ـ مما يسمى بالأسباب الطبيعية ـ انما هو مقارنات فى الحدوث .. ولا تفسير فيها أمام العقل لتعليل الايجاد ..

قال الامام الغزالى يرد على الفلاسفة :

« ان الخصم يدعى أن فاعل الاحتراق هو النار فقط . وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه .. ولكن هذا غير صحيح . اذ ان فاعل الاحتراق هو الله تعالى بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، واما النار فهى جماد لا فعل لها . وليس للفلاسفة من دليل على

قولهم الا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشـــاهدة تدل على الحصول عنـــده ولا تدل على الحصول به » ..

ويقرب من رأى الغزالى هـذا قول نيوتن صاحب مذهب الجاذبية فى ملحق التعريفات ..

فانه يضرب المثل بجسم يتحرك من الف الى باء ، ومن باء الى جيم ، ومن جيم الى دال .. فلا يمكن ان يقال فى هذه الحالة ان حركة الجسم من ألف الى باء هى سبب حركته التالية من باء الى جيم ، أو من جيم الى دال .. ويشبه هذا المثل اصحاب ديكارت عن ســاعة تدق ، وساعة أخرى تدق بعدها على الدوام ، فلا يمكن ان يقال : ان دقات الساعة الأولى هى سبب منشىء لدقات الساعة الثانية ، وهكذا كل تلاحق فى الحوادث والمشاهدات ..

وقد ظهر الفيلسوف الانجليزى دافيد هيوم بعـد هؤلاء ، فبسط القول فى مسألة السببية بسطا وافيا يفسر هذه الآراء المجملة ، ولا يخرج عن فحوى ماقدمناه

واذا نظرنا الى أصول الأسباب الكبرى تعذرعلى العقل ان ينسب الظواهر الطبيعية الى هـذه الأسباب التى تلازمها ثم يقف عندها . فمن العسير على العقــل ان يسلم أن الظواهر المادية هى اسباب الحوادث بطبيعة مستمدة منها ملازمة لها ، مستقرة فيها .. لأن التسليم بهذا تسليم بوجود مئات أو الوف من المــادات ، كلها خالد ، وكلها موجود بذاته ، وكلها مع ذلك مؤثر فى غيره ، وهو مستحيل ..

فهل هناك الوف من المادات ، او هناك مادة واحدة ؟ ان كان هناك الوف من المــادات كلها خالد بصـفاته وطبائعه ، لمن العجيب فى العقل ان يكون الخالد مؤثرا

فى خالد مثله ، وأن يوجد الشيء منـــذ الأزل بطبيعته وخصائصه ليؤثر فى شيء آخر موجود مثله منذ الأزل بغير تلك الخصائص وغير تلك الصفات ..

أما أن كانت هذه الخصائص تحولات ترجع الى مادة واحدة فى القدم ، فقد بطل أنها هى أسباب الحوادث بطبعها وتعين أن تكون عارضة تؤثر بما أودع فيها على حسب تلك التحولات ، التى ترجع فى النهاية الى مصدر واحد لا تعدوه

فالعقل ينتهى فى مسألة الأسباب الى نتيجة واحدة تصح عنده بعد كل نتيجة : وهى ان الأسباب ليست هى موجدات الحوادث ، ولا هى مقدمة عليهـــا بقوة تخصها ، دون ســائر الموجودات ، ولـكنها مقارنات تصاحبها ولا تغنى عن تقدير المصــدر الأول ، لجميع الأسباب وجميع الـكائنات ..

وهذا هو حكم القرآن الـكريم ..

هناك سنة فى الطبيعة « سنة الله فى الذين خلوا » .. « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .. « ولا تجد لسنتنا تحويلا » ..

ولكن الخلق كله مرجعه الى ارادة الله ، أو الى كلمة الله

« انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» ..

« انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون» ..

« سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون» ..

وكل شيء فى السماء والأرض باذن الله ..

« وهو الذى يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلـكم تذكرون » ..

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه » ..

« لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » ..

« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » ..

***

والذى ينساق عندنا فى مساق العقل أن الحوادث كبيرها وصغيرها لا يمكن ان تحدث الا بأمر الخلق المباشر من ارادة الله ...

فلا ينساق عندنا فى مساق العقل أن الحادثة تحدث بفعل الأسباب أو النواميس ثم بفعل الارادة الالهية ، لأن الناموس لا يملك وحده قدرة الانطباق والتوافق التى يسبب بها الف حادث على نسق واحد ، ولا بد له من القدرة التى يتابع بها هذا التسبب مرة مرة ، وحادثا حادثا ، بلا فرق هنا بين الجملة والتفصيل ..

فلا فرق هنا بين الحادث الذى يقع مرة واحدة ، والحادث الذى يقع ملايين المرات .. فكلها تتوقف فى بادىء الأمر على ارادة الخلق والانشاء ..

« كن فيكون » ..

وانما « كن فيكون » تقريب الى الذهن فى المجاز ، والأمر أهون من ذلك جدا فى ارادة الخلاق ..

وانما يهال الذهن المغلق بهذا التقدير لأنه يظن أن مسألة الخلق مسألة حمل وانتقال ، وتحريك أثقال ، وحيرة بين الأرقام والمقادير الموزعة فى آفاق الفضاء السحيق . وهى — على هذا الظن — شىء تختلف فيه القدرة على القليل ، والقدرة على الكثير ..

ولكننا نحن — معشر البشر — قد رأينا بأنفسنا أن الموجودات المادية تنتهى فى حسابنا الى معان ومعادلات رياضية .. فالايجاد اذن بالنسبة لصاحب الوجود المطلق هو مسألة معقولات تقع لأنها قائمة فى العقل المحيط

بجميع الكائنات ، ولا فرق بين ما يقع منها كثيرا متواترا أو يقع قليلا نادرا ، ولا بين البعيد منها والقريب ، لأنه لا بعيد فى العقل المطلق ولا قريب ، ولا حاجة الى انتقال ولا حمل أثقال !..

***

وتأتى هنا مسألة المعجزات : فما هى المعجزات ، وما هو موقعها من التفكير السليم ؟ ..

موقعها على ما قدمناه أنها شيء لا يخالف العقل ، ولكنه يخالف المألوف والمتواتر فى المحسوس ..

فاذا كان كل عمل من الاعمال خلقا مباشرا فى ارادة الله ، فلا فرق فى حكم العقل بين وقوع المعجزة ، ووقوع المشاهدات المتكررة فى كل لحظة . ولا يكون الاعتراض على المعجز أنها شيء يرفضه العقل ، ولا يجوز فى التفكير ، وانما يكون الاعتراض الصحيح : هل هى وقعت فعلا أو لم تقع !.. وهل هى لازمة أو غير لازمة للاقناع ؟..

فلا يمتنع عقلا أن تقع المعجزة ، وانما الذى يمتنع عقلا أن تقع عبثا لغير ضرورة مع امكان الاستغناء عنها ، اذا تبين أن اقناع المكابرين كان ممكنا بغيرها ..

هل يمكن أن تتغير نواميس الكون ، وقوانين الطبيعة كلها دفعة واحدة ؟ ..

نعم يمكن ...

ولا فرق فى ذلك بين تغييرها فى فترة ما ، وتغييرها فى جميع هذه الآفاق والأكوان ..

ولكن الذى لا يمكن هو وقوع التغيير عبثا ، مع امكان اجتنابه والاستغناء عنه .. وهكذا ينبغى أن يكون البحث فى حقائق المعجزات ..

لأن تغيير الحوادث كلها فى قدرة العقل المطلق أهون من قضية عقلية مجردة يستوى فيها حساب الكثير

وحساب القليل . ولكن الشيء الذى لا يقع فى العقل المطلق هو العبث الذى لا يساغ فى العقل المطلق ، ولا فى سائر العقول ..

وقد اشار القرآن الكريم الى الخوارق من باب الاعجاز، او من باب السحر ، فردها كلها الى السبب الأخير ، الذى ترد اليه جميع الأسباب ، وهو ارادة الخالق او اذن الله ..

« انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله » ..

« ... وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر . فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله » ..

فكان هاروت وماروت يفعلان ما يفعله أصحاب الحيل العجيبة وهم يقولون قبل ذلك انها من خفة اليد ، أو استهواء الأبصار ، وفتنة العقول ..

وأيا كان ما فعلاه فالحكم فيه وفى جميع الخوارق ان العقل لا يمنع وقوعه منعه للمستحيل ، وأن المرجع فيه الى مطابقته للحكمة الالهية ، وضرورة التوسل به أو امكان التوسل بغيره فى مقام الاقناع ..

الأخلاق في القرآن

قيل فى تعليل نشأة الأخلاق انها مصلحة اجتماعية تتمثل فى عادات الأفراد لتيسير العلاقات بينهم ، وهم متعاونون فى جماعة واحدة ..

فلو انطلق كل فرد فى ارضاء نزعاته ، وتحقيق منافعه دون غيره ، لتعذر قيام الجماعة ، وانتهى الأمر بفوات المصلحة الفردية نفسها .. لتعرض كل فرد لعدوان الآخرين وعجزه عن تدبير منافعه كلها ، وهى تتوقف على اعمال كثيرة موزعة بين الأفراد الكثيرين على اختلاف الصناعات ..

ومن هنا وجب على كل فرد أن ينزل عن بعض نفعه ويعدل عن بعض هواه ، لكى يضمن بهذا النزول المختار اكبر قسط مستطاع من الحرية والأمان ..

***

وليس من اللازم أن يتم هذا النزول المختار بالتفاهم والتشاور ، أو عن علم سابق بالنتيجة التى يصل اليها المجتمع بعد هذا النزول الاجماعى ، الذى يشترك فيه جميع الأفراد ..

ولكنه يتم اضطرارا بعد المحاولة والتجربة وتصحيح الأخطاء بالعبرة والعقاب ..

وأيا كان مذهب القائلين فى تعليل الأخلاق ، فهما

لا مشـــاحة عليه أن الأخلاق مصلحة اجتماعية ، وأن الجماعات تختلف بينها فى العادات ، وأصول العرف ، على حسب اختلافها فى أحوال الاجتماع ..

لكنك خليق أن تسأل : اذا تعادل خلقـــان فى النفع الاجتماعى الا يوجد هنالك مقياس نرجع اليه فى تفضيل احدهما على الآخر ؟.. اليس لحاسة الجمال أو لنزوع الانسان الى الكمال شأن فى تفضيل بعض الأخلاق على بعض ، أو فى تمييز بعضـــها بالاستحسان والايثار ، وبعضها بالمقت والاستنكار ؟..

ان الوجوه كلها نافعة ، بما فيها من الحواس التى تؤدى وظائف الحياة ، ولكننا نرى وجها واحدا من بينها يعلو بروعة الحسن على ألوف الوجوه ، ويفدى بألوف الوجوه ، ولعله من جانب المنفعة التى تستفيدها وظائف الجسم اقل من تلك الوجوه فى بعض المزايا ، وأحوج منها الى العلاج والتصحيح ..

***

فهل يدخل اعتبار الجمال الى جانب المنفعة فى وصف الجسد الانسانى ، ولا يحسب له اعتبار فى خصائص النفس أو خصائص المزاج ؟ ..

وهل نعتبـر كل اعجاب بخلق من الأخـلاق ميزانا حسابيا للمنفعة والخسارة ، وتقديرا تجاريا لصفقة من الصفقات ؟ ..

وهل يروعنا كل خلق بمقدار ما ينفعنا ، سواء نظرنا الى المنفعة المعلومة المحسوبة ، أو نظرنا الى المنفعة التى تتحقق على طول الزمن فى أطوار الاجتماع ؟ ..

لابد أن يخطر على البال أن « لحاسة الجمال » شأنا هنا كشأنها فى الاعجاب بمحاسن الاجسام ، بل كشأنها فى الاعجاب بمحاسن الجماد ، أيا كان القول فى أصـل الشعور بالجمال ..

وقيل فى تعليل نشأة الأخلاق ، انها ترجع الى مصدرين فى كل جماعة بشرية لا الى مصدر واحد ، وانها ترجع الى مصلحتين لا الى مصلحة واحدة ، وقد تكون احداهما على نقيض الأخرى ، فيما تمليه وفيما تستمليه ..

قيل انها ترجع فى ناحية منها الى مصلحة السادة ، وترجع فى ناحية أخرى الى مصلحة العبيد ، وقد يقولون أخلاق الأقوياء والضعفاء ، بدلان من أخلاق السادة والعبيد ..

والمرجح ان التفرقة بين أخلاق الكرام الأحرار ، وبين أخلاق اللئام الهجناء ، ملحوظ فيها هذا المعنى فى اللغة العربية بين العرب الأقدمين ، فكانوا يفهمون من وصف الأخلاق بالكريمة انها أخلاق السادة الأحرار ، ومن وصفها باللئيمة انها أخلاق قوم ليست لهم أعراق وليس لهم خلاق ..

واحدث القائلين بهذه التفرقة بين المفكرين من الأوربيين فردريك نيتشه المعروف بمذهبه المشهور عن « ارادة القوة » التى يعارض بها الاكتفاء بمجرد ارادة الحياة ، وهى قوام أخلاق الضعفاء ممن لا مطمع لهم فيما وراء عيش الكفاف أو عيش الأمان ..

***

ولكن ما هى الأخلاق القوية ؟.. هل هى أن يفعل القوى ما يشاء ، لأنه قادر على أن يفعله ، ولأن الضعفاء عاجزون عن صده والوقوف فى سبيله ؟ ..

وهل كل ما يفعله الاقوياء خلق حميد محبوب ؟..

واذا قلنا ان أخلاق القوة هى أخلاق القوى أمام الضعفاء ، فما هى أخلاق القوى أمام القوى مثله ؟ .. وما هو الضابط الذى يجعل للقوى عملا يليق به وعملا

آخر لا يليق ؟ ..

قديما فسر « هوبس » الفيلسوف الانجليزى كل خلق حميد بأنه قوة أو دليل على قوة ..

فالصبر قوة ، لأن الضعيف يجزع ، ولا يقوى على الصبر والاحتمال ..

والكرم قوة ، لأن الكريم يثق من قدرته على البذل ، ويعطي من هو محتاج الى عطائه ، وهو ضعيف ..

والشجاعة قوة لأنها ترفض الجبن والاستخذاء ..

والعدل قوة ، لأنه غلبة الانسان العادل ، على نوازع طمعه ودوافع هواه ..

والعفة قوة ، لأنها تقاوم الشهوة والاغراء ..

والحلم قوة ، لأنه مزيج من الصبر والثقة ، وقد ينطوى علي شيء من الترفع والاستخفاف بالمسيء ..

والرحمة قوة ، لأنها انقاذ لمن يستحق الرحمة من المرضى أو العجزة أو الصغار الموكولين الى رعاية الكبار

***

وقس على ذلك كل خلق حميد تفسره على هذا النحو من التفسير ..

وفحواه ان القوى تحمد منه أعمال ولا تحمد منه أعمال .. وأيا كان الظن بصواب هذا الفحوى أو هذا التفسير ، فليس فى وسع أحد أن يقول : ان القوى يفعل ما يشاء ، ويندفع مع قوته كما يشاء ، وان كل ما يفعله وكل ما يندفع اليه حميد جميل ..

.. فما هو الضابط اذن للأخلاق القوية ؟ .. أهو الاستطاعة ؟.. أكل ما يستطيعه القوى حميد وكل ما لايستطيعه ذميم ؟.. ان معنى هذا ابطال مذهب القوة من أساسه ، والرجوع الى العجز وقلة الاستطاعة فى خاتمة المطاف...

ولماذا يشاء القوى أمرا ، ولا يشاء أمرا آخر ؟..
ألأنه يشاء ما يليق ؟ أو يشاء ما يقدر عليه أو يشاء بلا ضابط من القدرة واللياقة ؟ ..

كل ذلك لا تفسره كلمة « القوة » وحدها ، ولا تغنى فيه عن تفسير يقترن بالقوة ، ويميز لنا ما هو جميل من أعمالها ، وما هو شائن قبيح ..

***

ونعود الى مذهب المنفعة فى الأخلاق ، فنسأل : هل نرتضى أخلاق الجزع ، أو أخلاق الغدر ، أو أخلاق المشاكسة ، ولو لم يكن لها علاقة بمصالح الاجتماع ؟..

أليس فى رؤية الرجل الجزوع قبح تنفر منه النفس ، ولو كانت فيه سلامة صاحبه ، ولم يكن للخلق فى ذاته علاقة بالفضائل الاجتماعية ؟ ..

أليس لنا مقياس آخر، غيرمقياس المنفعة الاجتماعية ، أو مقياس التفرقة بين الأقوياء والضعفاء ؟ ..

بلى .. هناك مقياس لابد من الرجوع اليه فى جميع هذه الأحوال ، وهو صحة النفس ، وصحة الجسد على السواء ..

فالنفس الصحيحة تصدر عنها أخلاق صحيحة ، والجسد الصحيح يصدر عنه عمل صحيح ، أيا كان أثر الأخلاق والاعمال فى حياة الجماعة ، أوحياة الافراد.

ان القوى الذى يفعل ما يشاء ليس بصحيح ، لأن النفس الصحيحة لا تنطلق كما تنطلق الآلة التى تملؤها قوة البخار، أوقوة الكهرباء ، فتصدم وتهشم ، وتخبط خبط عشواء حيث تحملها القوة العمياء ..

لا صحة بغير ضابط أيا كان حكم الاجتماع ومطلب الاجتماع ..

وكل ضابط معناه القدرة على الامتناع ، ورد النفس

عن بعض ما تشاء ، وليس معناه القدرة على العمل فحسب ، ولا المضى مع النفس فى كل ما تشاء ..

***

وهذا قبل كل شيء هو مصدر الجمال فى الأخلاق : مصدره ان القوة النفسية أرفع من القوة الآلية .. مصدره أن يتصرف الانسان كما يليق بالكرامة الانسانية ولا يتصرف كما تحمله القوة الحيوانية ، أو القوة التى يستسلم لها استسلام الآلات ..

مصدره أن يكون الانسان سيد نفسه ، وأن يعلم انه يريد فيعمل أو يمتنع عن العمل ، وليس قصاراه انه يساق الى ما يراد ..

ان المجتمع قد يملى على الانسان ما يليق وما لايليق، ولكنه لا يغنيه عن هذا الضابط الذى تناط به جميع الأخلاق ، كما تناط به حاسة الجمال ، لأنه دليل على صحة التكوين ، وخلو النفس من الخلل والتشويه ..

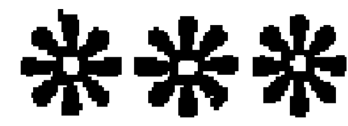
وبهذا الضابط الذى لا غنى عنه فى كل خلق من الأخلاق يتحدى الانسان فرائض المجتمع كله ، اذا فرضت عليه ما ينفر منه طبعه ، أو يجرح فيه حاسة الجمال ، وسليقة الشوق الى الكمال . فيعلو على المجتمع فى كثير من الأحيان ، ولا يكون قصاراه أن ينقاد لما يمليه عليه.. بل يخلق الآداب الاجتماعية الجديدة ، ولا يكون فى أعماله ومقاييسه مخلوقا للمجتمع فى جميع الأحوال ..

مصدر الجمال فى الأخلاق هو أن يشعر الانسان بالتبعة ، وأن يدين نفسه بها لأنه يأبى أن يشين نفسه ، ويعتبر « الشين » غاية ما يخشاه من عقاب ..

مصدر الأخلاق الجميلة هو «عزم الأمور» كما سماه القرآن الكريم ، وهو مصدر كل خلق جميل حثت عليه شريعة القرآن الكريم ..

فالشخصية الانسانية فى الجمال الأخلاقى ، كلما ارتقت فى الاستعداد « للتبعة » ومحاسبة النفس على حدود الأخلاق ..

وليس للتفاوت فى جمال الخلق مقياس أصدق من هذا المقياس ، ولا أعم منه فى جميع الحالات ، وفى جميع المقابلات بين الخصال المحمودة ، أو بين أصحاب تلك الخصال ..



وقد ألمعنا الى ذلك فى كتابنا « هتلر .. فى الميزان » حيث قلنا : ان « مقاييس التقدم كثيرة ، يقع فيها الاختلاف والاختلال .. فاذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتاح السعادة للحقير ، ويحرمها العظيم . واذا قسناه بالغنى ، فقد يغنى الجاهل ، ويفتقر العالم . واذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة ، وتجهل الأمم الوثيقة الفتية .. الا مقياسا واحدا ، لا يقع فيه الاختلاف والاختلال ، وهو مقياس المسئولية واحتمال التبعة ، فانك لا تضاهى بين رجلين ، أو أمتين الا وجدت ان الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية .. وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته ، والاضطلاع بحقوقه وواجباته . ولا اختلاف فى هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر ، والرجل الرشيد ، أو بين الهمجي والمدنى ، أو بين المجنون والعاقل ، أو بين الجاهل والعالم ، أو بين العبد والسيد ، أو بين العاجز والقادر ، أو بين كل مفضول ، وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل » ..

والقرآن الكريم يقرر التبعة الفردية ، وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق ..

« ... ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى » ..

« ... كل نفس بما كسبت رهينة » ..

« ... لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت » ..

« ... قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل » ..

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم الا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسانى ، أو بمقدار ما يطلبه الانسان من نفسه ، ولا يضطره أحد الى طلبه.

فالحق الذى تعطيه ، ولا يضطرك أحد اليه هو اجمل الحقوق ، واكرمها على الله ، واخلقهـا بالفضيلة الانسانية ..

فلا قدرة للمسكين ، ولا لليتيم ، ولا للأسير على تقاضى الحسنة المختارة ، ولا يحث القرآن الكريم على البر بأحد كما يحث على البر بهؤلاء وأمثال هؤلاء ..

« ... ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا » ..

« ... فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر » ..

***

ولا تحسب على الأمة لعنة تحيق بها ، وتستحق النكال من أجلها كلعنة التهاون فى رعاية اليتامى والمساكين

« ... كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » ..

ومن واجب القوى القادر أن يجود بروحه فى سبيل الله كما يجود بها فى سبيل هؤلاء :

« ... ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » ..

واحب البر بالوالدين هو البر بهما حين يضعفان ، او يعجزان عن التأديب والجزاء ..

« ... وقضى ربك الا تعبـدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهمـا ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » ..

ولا يرجع هذا الى ضعف صاحب الحق فى الرحمة والاحسـان ، بل الى مرجع الفضـل كله من النفس الانسانية : وهو ضبط النفس ، وملك زمامها ، وعزم الأمور ، واتخاذ الوازع منها حين لا وازع من غيرها ..

فالعدو القوى المقاتل له فى هذه الفضيلة حق كحق الضعيف المستسلم الذليل :

« ... وقاتلوا فى سـبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ..

« ... فمن اعتـدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ..

***

ولا تسقط الضرورة ولا الغضب هـذا الواجب عن كاهل انسان ينشد الكمال ويروض نفسه على الأفضل من الخصال .. فعلى الغاضب أن يغفر للمغضوب عليه وعلى المضطر أن يتجنب البغى والعدوان : « ... واذا ما غضبوا هم يغفرون » ..

« ... فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » ..

***

وغنى عن التفصـيل ان الفضائل المثلى التى يحض عليها القرآن الكريم هى الفضائل التى ترتفع الى هذا

المصدر ، وتجرى فى نسقه ، وتجمل بمن يروض نفسه على هذا الوازع ويحاسب نفسه هذا الحساب ..

فالصبر والصدق ، والعدل والاحسان ، والمحاسنة ، والأمل ، والحلم ، والعفو ، هى مثال الكمال الذى يطلبه لنفسه من يزع نفسه ، ويختار لها أحسن الخيرة ، ويأبى لها ان يهبط بها مكاناً دون مكان الجميل الكامل من الخصال ومن الفعال ..

« ... ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » ..

« ... فاصبر على ما يقولون » ..

« ... وقل رب أدخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق » ..

« ... والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ..

« ... ان الله يأمر بالعدل والاحسان » ..

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، أعدلوا هو اقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » ..

« ... لا تقنطوا من رحمة الله » ..

***

وهذا الأدب عينه هو الذى يملى على الكبير أن يتواضع للصغير ، ويملى على الصغير أن يحفظ مكانة الكبير ، ويملى على الكبار والصغار اجمعين أن يتجنبوا الاساءة ، ويتعمدوا المحاسنة ، ويأخذ بعضهم بعضاً بالرفق والأدب وطيب العشرة وأحسان المقال ..

« ... واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ..

« ... ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ..
« ... وقولوا للناس حسنا » ..
« ... قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غنى حليم » ..
« ... ان الله لا يحب كل مختال فخور » ..
« ... ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » ..
« ... والله لا يحب كل مختال فخور » ..
« ... ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ..

ويجب على المسلم احسان القول فى المغيب كما يحسنه فى الحضور :

« ... ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » ..

***

وجماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التى اتصف بها الخالق نفسه فى أسمائه الحسنى ، وكلها مما يحمد للانسان أن يروض نفسه عليه ، وأن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود ، فيما عدا الصفات التى خص بها الخالق دون سواه ..

***

وان المسلم ليؤمن بمصدر هذه الأخلاق المثلى ، ويؤمن بأنها جميعا مفروضة عليه بأمر من الله ..

ولكن المسلم وغير المسلم يستطيعان أن يقولا معا انها صفات لا ترجع الى مصدر غير المصدر الالهى ، الذى تصدر منه جميع الأشياء ، لأن مناطها الاعلى لم يتعلق بمنفعة المجتمع ، ولا باستطاعة القوة ، ولا بالقانون والسلطان ، ولكنه تعلق بما فى الانسان من حب للجمال وشنوق الى الكمال ، وكلاهما نفحة من الخالق يهتدى بها الأحياء عامة فى معارج الرفعة والارتقاء ..

الفصل الثاني

الحكومة في القرآن

اذا وصفت الحكومة التي نص عليها القرآن الكريم بصفة من صـفات الحكومة العصرية ، فهي الحكومة الديمقراطية فى اصلح اوضاعها .. لأنها حكومة الشورى والمساواة ومنع « السيطرة الفردية » ..

« ... وأمرهم شورى بينهم » ..

« ... وشاورهم فى الأمر » ..

« ... واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ..

« ... انما المؤمنون اخوة » ..

« ... انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد » ..

« ... يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله » ..

« ... وما انت عليهم بجبار » ..

***

وجملة ما يقال انها هى الحكومة لمصلحة المحكومين ، لا لمصلحة الحاكمين .. يطاع الحاكم ما أطاع الله ، فان لم يطعه فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ..

«... أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم»

«... واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »..

فكل أركان «حكم الأمة للأمة» قائمة فى هذه الحكومة القرآنية ، ولكن لا يفهم من هذا بداهة ان الأمر فيها لكثرة العدد ، أو للطبقة الكثيرة من بين سائرالطبقات..

لأن القرآن الكريم قد تكررت فيه الآيات التى تنص على ان الرأى والفضل والذمة والعلم ليست من صفات أكثر الناس على التعميم . وهذه أمثلة من تلك الآيات تتكرر احيانا بلفظها وأحيانا بمعناها فى مواضع شتى من السور ، التى تصف الناس عامة كما تصفهم بعد البعثة المحمدية ..

« ... وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ..

« ... أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » ..

« ... وما يتبع أكثرهم الا ظنا » ..

« ... وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين » ..

« ... ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » ..

« ... ولكن أكثرهم يجهلون » ..

« ... ولكن أكثرهم للحق كارهون » ..

***

واذا كانت طاعة أكثر الناس تضل عن سبيل الله ، فليس من الرشد لهم ولا لغيرهم أن يكون لهم الحكم المطاع . وانما تقع تبعات الحكم على الأمة كلها بجميع عناصرها ، وترجع الشورى الى أهل الشورى ، وهى لا تكون لغير ذى رأى أو ذى حكمة . ويصبح المؤمنون كالأخوة فى المعاملة : « ... انما المؤمنون اخوة » ..

ولكن الذين يعلمون منهم احق بالطاعة من الذين لا يعلمون ..

« ... قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » ..

ولهذا كانت أمانة الحكم فى الأمة مقرونة بأمانة مثلها لا تقل عنها شأنا ، ولا يستقيم أمر الأمم بغيرها ، وهى امانة الدعوة والارشاد ..

« ... ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ..

وشر ما تبتلى به جماعة بشرية من سوء المصير انما مرجعه الى بطلان هذه الدعوة ، والتغاضى عن المنكرات. وكذلك كان مصير الضالين من بنىاسرائيل : « ... كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » ..

وعلى ابنـــاء الأمة جميعا ان يتعاونوا على المصلحة العامة ، واقامة الفرائض والفضائل ..

« ... وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ..

فالحاكمون والمحكومون جميـــعا متعاونون فى امانة الحكم وأمانة الاصلاح .. كل بما يستطيع ، وكل بما يصلح له ، وما يصلح عليه ، ولا حق فى الطغيان لفرد جبار ، ولا لجماعة كثيرة العدد .. بل الحق كله للجماعة كلها ، بين التشاور والتعاون ، والتنبيه والارشـــاد والاسترشاد ..

وما من جماعة بشرية تتم فيها أمانة الشورى ، وأمانة الاصلاح ، وأمانة التعاون ، ثم يعروها انحلال او يخشى عليها من فساد ..

ويلحق بقواعد الحكم قواعد توزيع الثروة ، وهى فى القرآن الكريم تمنع الاسراف وتمنع الحرمان ..

فاختزان الأموال محرم كل التحريم .. وانما جعل المال للانفاق فى سبيل الله ، وفى طيبات العيش ، وفى

رافق الحياة ..

« ... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ..

والمحرومون العاجزون عن العمل محسوب لهم حسابهم فى الثروة العامة ، فريضة لازمة لا تبرعا يختاره من يختار ..

« ... خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »

« ... وآتوا الزكاة » .. أمر موجه الى كل مسلم قادر عليه .. وفى سبيلها حارب الخليفة الأول جموع المرتدين ، وهم أوفر عددا ، وأكمل عدة من المسلمين..

وقلما تمتحن أمة بالبلاء ، فى نظامها ، وقواعدحكمها ، الا من قبيل هاتين الآفتين : أموال مخزونة لا تنفق فى وجوهها ، وفقراء محرومون لا يفتح لهم باب العمل ، ولا باب الاحسان ..

وكلتا الآفتين ممنوعة متقاة فى حكومة القرآن ..

الطبقات والمساواة

اقر القرآن الكريم سنة التفاوت بين الناس فى جميع المزايا التي يتفاضلون بها ، وينتظم عليها العمل فى الجماعة البشرية ..

فهم متفاوتون فى العلم والفضيلة ..

« ... هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون»

« ... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ..

وهم متفاوتون فى الجهاد الروحي والقدرة على الاصلاح

« ... تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ..

« ... لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .. فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة»

وهم متفاوتون فى الرزق واسباب المعيشة ..

« ... نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ..

« ... والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » ..

« ... ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض»

ولكن هذا التفاوت لايرجع الى عصبية فى الجنس أو الأسرة .. اذ لا فرق فى ذلك بين انسان وانسان ..

« ... انما المؤمنون اخوة » ..

ولا فرق بين أمة وامة ، ولا بين قبيلة وقبيلة ، ولا بين أحد واحد ، الا برعاية الحقوق والواجبات ..

« ... يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » ..

فالتعددفىالأمم وسيلةالتعارفوالتعاون، وليسبوسيلة للادعاء والتنابذ والتعصبللأجناس والتعالى بالعصبيات

وقد فسر النبى عليه السلام هذه الآيات البينات بأحاديث فى معناها فقال :

« ... لا فضل لعربى على عجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » ..

وقال : « ... اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشىكأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى»

وكان عمر رضى الله عنه يتكلم عن الصديق ، ويشير الى بلال الحبشى فيقول : « هو سيدنا واعتق سيدنا »

فالقرآن الكريم ــ بهذه الأحكام المفصلة ــ قد أعطى المساواة حقها ، وأعطى التفاوت بين الآحاد والطبقات حقه .. فلا يمتنع التفاوت ولا يكون مع هذا سببا للظلم والاجحاف بالحقوق ، بل سببا لاعطاء كل ذى حقحقه ، ولو كان من المستضعفين فى الجنس ، أو المستضعفين فى المنزلة الاجتماعية ..

وباقرار التفاوت ، أقر القرآن الكريم أصلح النظم التى تستقيم عليها حياة الفرد والجماعة ، لأن سنة الاختلاف بين الأحياء اعمق من حياة البشر واعمق من نظم الاجتماع ، أو نظم الاقتصاد ..

فالحيــــاة تتمثل فى الوف من الأنواع والأجنـــاس والفصائل ، وكل نوع أو جنس أو فصيلة يتألف من آحاد يعدون بالألوف والملايين ، ولا يتشابهون فى الشكل،

ولا فى اللون ، ولا فى القوة والمزية . ومهما يقل القائلون عن أسباب ذلك فى الزمن القديم ، فالحقيقة الماثلة امامنا ان التنوع سنة الحياة وغايتها . وانها تنزع الى تفاوت المزايا ، ولا تنزع الى التشابه والتساوى فى مظاهرها الانسانية . ولا فى مظاهرها الحيوانية ، ويوشك أن يعم ذلك عالم الجماد ، قبل عالم الحيوان او الانسان ..

وحكمة التفاوت ظاهرة ، وآفة التشابه والتساوى اظهر .. لأن الحياة تفتقر الى المزايا اذا قصرت حركتها على تكرير صورة واحدة فى كل فرد من الأفراد ، وجعلتهم كلهم نسخة واحدة ، لا فضل لبيئة منهم على بيئة ، ولا لمجموعة منهم على مجموعة . ولكنها تزخر بالمزايا المتجددة ، وتستزيد من الملكات المتعددة ، كلما طرأ بينها التفاوت فى الصفات والتفاوت فى الأنصبة ، وكان للتفاوت بين آحادها فضل يحرصون عليه ، ويتطلعون الى بلوغه ، والتقدم فيه ..

ولا معنى للتفاوت اذا تساوى القادر والعاجز ، وتساوى العامل والكسلان ، واصبح الكسلان يكسل ولا يخاف على وجوده ، والعامل يعمل ولا يطمح الى رجحان ، واطمأن المجردون من المزايا كاطمئنان الممتازين عليهم بأشرف المزايا واعلاها ــ فان القدرة تكاليفها ثقيلة ، واعباؤها جسيمة ، ومطالبها كثيرة . والناس خلقاء ان يتهيبوها ، وينكصوا عنها اذا لم يكن لهم وازع من الخوف ودافع من الطموح ، وان العاجزين الكسالى ليقعدهم العجز ، ويطيب لهم الكسل ان لم يكن فيه ما يحذرونه ويخافون عقباه ، وما هم بكسالى اذا كانوا يعملون وهم مستطيعون ان يتركوا العمل بغير خوف من عواقب تركه ، أو كان العجز مأمونا فى كل حال ، لا يصيبهم فى رزقهم ومنزلتهم بما يقلق ويثير ..

فالتفاوت موجود ..
والتفاوت لازم ..
ولكنه لا لزوم له ولا فائدة اذا لم يقترن به رجاء واشفاق، ووثوق من الرزق والجاه وشك فى هذا وذاك
وهذه هى شريعة الحياة منذ كانت ..
وهذه هى شريعة الحياة كيفما تكون ، وحيثما تكون
وكل صورة من الصور تناقض هذه الصورة التى عرفنا حالها منذ كانت ، وحيث كانت ، فهى صورة لا تستقر فى العقل أو الخيال ، فضلا عن استقرارها فى الواقع الذى يقبل « التطبيق » ويقبل الدوام ..
على أننا لا نعرف صورة تناقضها فى العقل أو الخيال غير تلك الصورة التى خلقها الوهم فى أخلاد جماعة من الهدامين الذين يسمون أنفسهم بالماركسيين أو بالشيوعيين
فهؤلاء الماركسيون يتصـــورون أن تفاوت الحظوظ والأرزاق حيلة من حيل الأسواق ، وشرك من اشراك المرابين ، وطلاب الأرباح ..
ويزعمون أن الناس قد تفاوتوا فى الحظوظ الأولى والأرزاق ، لأنهم قد انقسموا منذ بداية التاريخ الى مســتغلين ومسخرين ، وأن المسخرين هم العمـــال المأجورون ، فاذا إنتهى التاريخ الى مرحلة من المراحل يسود فيها العمال المأجورون فقد انتهى الاستغلال ، وانتهى التفاوت فى الحظوظ والأرزاق ، وعمت المساواة بين جميع الآحاد وجميع الطبقات الى آخر الزمان ..
وفحوى ذلك أن المذهب الشيوعى يتقرر مثلا فى قطر من الأقطار عام ١٩١٧ للميلاد ..
ثم يستقر فى جميع الأقطار عام ١٩٥٠ ، أو قل عام ١٩٧٠ ، أو قل عام الفين ، أو قل عام ثلاثة آلاف ..
ثم ماذا ؟ ..

ثم يقف سباق الحياة فى الجماعات البشرية ، ثم ينقطع التبديل والتغيير فى تكوين تلك الجماعات ، ثم تستقر الشعوب البشرية على هذه الحالة من النظام الاجتماعى دهر الداهرين وابد الآبدين ..

الى متى ؟ ..

الى عام خمسة آلاف ؟.. الى عام عشرة آلاف ؟.. الى عام مائة الف بعد الميلاد ؟.. الى عام مليون ؟.. الى عام عشرة مليون ؟..

كلا .. الى أن يفنى البشر وينهار بناء الكون ..

ولماذا يقع التبديل فى الجماعات البشرية بعد عام الفين للميلاد مثلا أو عام ثلاثة آلاف ؟ ..

لماذا التغيير والتبديل بعد شيوع المذهب الشيوعى فى كل قطر من اقطار الكرة الارضية ؟ ..

المسألة كلها « لعبة سماسرة » وقد انكشفت هذه اللعبة وارتفع الغطاء ..

كل ما حدث من اطوار الجماعات ، واطوار الدول ، واطوار العقائد والدعوات فهو « مناورة سوق » ، ودسيسة فريق من حزب الصعود ، وفريق من حزب الهبوط . بطلت الدسيسة بفراسة كارل ماركس اللبيب واتباعه الأيقاظ .. فلا أطوار ، ولا مناورات ، ولا صعود ، ولا هبوط ، ولا سبيل للجماعات البشرية الى تبديل أو تغيير ، لأن الحكاية كلها حكاية استغلال وتسخير . وقد بطل الاستغلال والتسخير فى هذا الطور الأخير ، ووقف دولاب الحياة الاجتماعية فلا مصير لها غير هذا المصير ! ..

واصحاب هذه النحلة يسمون انفسهم احيانا بالماديين التاريخيين لأنهم يدعون لأنفسهم أنهم يستلهمون أسرار التاريخ ، ويسبرون غوره ، ويحيطون بآفاقه فى ماضيه

وحاضره ومصيره ، ولكنك ترى مما تقدم اى ضيق واى صغر يلازمان نظرتهم الى عوامل التاريخ الانسـاني في آباده المترامية الي غير انتهاء معلوم الحدود .. فما اضيق هذه الآفاق !.. وما أصغر هذا التاريخ !.. الذى تتقيد خطاه بتنظيم الأجور في مرحلة من مراحل السياسة ، فلا تنحرف بعد ذلك يمنة ولا يسرة ، ولا يكون لها متجه غير المتجه الذى رسمه لها « المـاديون التاريخيون » ..

واضيق من هذه النظرة الى أطوار التاريخ نظرتهم الى دوافع الحياة التي تنوع مظاهرها ، وتعدد جوانبها ، فلا شيء غير نضوب الحياة ، وضحالة الاحسـاس بها يخيل الى أحد من الناس أن مسألة التفاوت بين الأحياء عامة ــ وبين البشر خاصة ــ مسألة عارضة أو تلفيقة من تلفيقات الأسواق ، وأحبولة من أحابيل الاستغلال ، وأن هذا التفاوت لا يعمل عمله في بيئة المجتمع من جديد اذا عولجت مسألة الأجور على نظام من النظم كائنا ما كان .. فان تفاوت الأرزاق أو الأجور نتيجة لا محيص عنهـــا للتفاوت في أقدار الحياة ، ولن يمتنع تفاوت الأرزاق ولو منعته جميع القوانين التى في طاقة الحكومات او الجماعات ..

على أنه لو امتنع يوما من الأيام بحيلة من الحيل الحكومية لبقي التفاوت الذى لا حيلة فيه لحكومة قط ، ولا تعدله في قيم الحياة قيمة تتعلق بالأرزاق أو بالأموال، لأنه هو التفاوت الذى يسعد ويشقي ، ويرفع ويضع ، وتناط به الآمال والجهود ، والغبطة والرجاء ..

فقد يولد الانسان بوجه جميل ، يفتح له القلوب ، ويسخر له اللذات ، ويتمناه الألوف ، فلا هو قادر على أن ينزل عنه ، ولا هم قادرون على أن يأخذوه..

وقد يمتاز الانسان بالقوة التي تقاوم العلل، وتستغني بالقليل من الطعام والكساء عن الكثير الذي لا ينفع الآخرين.

وقد يمتاز بالذرية التي تعز على غيره ، أو يساوي غيره بالذرية ويمتاز عليهم بنجابة الأبناء ..

وقد يمتاز بالعبقرية والنبوغ ، وقد يمتاز بالفصاحة وذرابة اللسان ، وقد يمتاز بالظرف والفكاهة والايناس، وقد يمتاز بطول الأجل والرضا عن العيش ، واعتدال المزاج ، وقد يمتاز بالهيبة ووجاهة المحضر وبروز « الشخصية » بين الأنداد والأقران ..

فلا بد أن يكون الانسان مشغولا جدا بالعملة والنقد حتى يتخيل أن النقود وحدها هي التي خلقت الدرجات الاجتماعية بين هذه الفوارق التي لا تقبل الاحصاء ولابد ان يكون محسور النظر، حين ينظر الى المستقبل القريب والبعيد ، فيحسب أن هذه المزايا معطلة العمل في خلق الدرجات والطبقات ، وستظل معطلة العمل عشرات السنين ، ومئات السنين وآلاف السنين الى أبد الآبدين

وما كان بالناس من حاجة الى انتظار آلاف السنين ، ليروا أن هذه وأشباهها قد تعمل عملها ، في ظل كل نظام وعلى الرغم من كل نظام ..

فقد تأسس النظام الشيوعي في البلاد الروسية منذ ثلاثين سنة ، فحاول جهد المستميت أن يقضي على الطبقات والدرجات ، فما هي الا سنوات حتى ظهرت بوادر التفاوت بينها ، بعد نشأة الصناعة الحكومية ، وهي قيد انملة في أشواط الحياة الاجتماعية اذا قيست بالتاريخ المنتظر في الدهور بعد الدهور ..

ظهرت بوادر هذا التفاوت بين اناس يرغبون جميعا في منعه ، ويؤمنون جميعا ببطلانه ، ويدينون بما تدين به حكومتهم من اسباب الفوارق بين الطبقات في حظوظ المعاش

وقد دانوا بما تدين به حكومتهم لأنهم ولدوا فى ظلها ، ولم يسمعوا رأيا غير رأيها ، ولا فلسفة للتاريخ غير فلسفتها ، اذ كان الجيل العامل فى البلاد الروسية من أبناء العشرين الى أبناء الخامسة والاربعين قد ولدوا بعد نشأة النظام الشيوعى ، أو تعلموا دروس الطفولة والصبا على يديه ، فليس فى وسع نظام أن يطمع فى معونة أصدق من هذه المعونة بين الحكومة والشعب ، لتحقيق التجربة التى يؤمنون بها ويكرهون اخفاقها ، ويعلقون عليها الرجاء الاكبر فى الوجود كله ، لأنها هى عقيدتهم فى الوجود ..

ولكنهم بدأوا التجربة فلم يتقدموا فيها خطوتهم الأولى ، حتى تبين لهم الخطر من التسوية بين المطبوع على العمل ، والمطبوع على الكسل ، واحتاجوا الى حفز الهمم وحث الخطا بالتمييز بين المجتهد والمهمل ، وبين السريع والبطىء ، وبين من يركن الى الكفاف ، ومن يطمح الى التفوق والبروز ..

فلم ينفعهم هذا التمييز فى الأجور ، لأن صاحب الأجر الكبير كصاحب الأجر الصغير فى القدرة على الشراء ، فكلاهما يشترى الحاجيات ، ولا يؤذن له بشراء « الكماليات » التى حسبوها من شرور الادخار ، أو نظام رأس المال ..

فسمحوا بشراء الكماليات مكرهين ، وأضافوا التفاوت فى حظوظ المعيشة ، وفى مراتب الشرف الى التفاوت فى الأجور والمكافآت ، وأنشأوا الطبقات باليمين وهم يحاربونها باليسار ..

وكان هذا ما استفادته الأمة الروسية من هذه التجربة الدامية ، التى كلفتها نيفا وعشرين مليونا من النفوس

البشرية ، بين قتلى الثورة وفرائس الاضطهاد ، وصرعى المجاعة والوباء ، عدا خسارة الأمة فى الحرية ، واستقلال الفكر والشعور ..

وقد فعلت مدابرة الطبيعة فعلهـــا فى جميع نوازع الحياة ، وفى مقدمتها عبقرية الأمة وملكاتها الانسانية ، وهو أول ما يصاب بمدابرة الطبيعة ، واكراه العقول والقرائح على نحو من الأنحاء ..

فان مدابرة الطبيعة شر على عبقرية الأمة من الطغيان والاستبداد ، لأن عبقرية الأمة الروسية لم تحرم فى عهد القياصرة افذاذا من نوابغ الادب ، أمثال دستيفسكى ، وتولستوى ، وترجنيف ، وشيخوف ، وآرتزيباشف ، وجوركى ، ونخبة من الموسيقيين والدعاة . ولكنها عقمت فلم تخرج واحدا من طبقة هؤلاء فى عهد النظام الشيوعى ، على وفرة الـكتب المطبوعة وكثرة القراءة بين جميـع الطبقات ، ومن بلغ من ادباء الروس نصيبا من النبوغ يقارب تلك المنزلة كان مآله الى الخمول أو الانتحار..

وهكذا يفعل الحجر على سباق الحياة ، حيثما جرب ، وفى أى من الأوضاع تمثل للناس ، فلم يكن الحجر على تكوين الطبقات فى ظل النظام الشيوعى أرحم ولا أعدل من الحجر على تكوينها فى ظل العقائد البرهميـــة بين الهنود .. لأنه منع الصـــعود ، ولم يمنع الهبوط ، وضاعف المشقة فى طريق العناصر الصالحة للتقدم ، ولم يخفف شيئا من الضواغط القاسرة التى ترين على النفوس فتهوى بها الى الحضيض ..

وكثيرا ما تسمع من دعاة « المادية » كلاما عن الظلم الاجتماعى ، والعدالة الاجتماعية .. لأنهم يزعمون أنهم يحاربون الظلم ، ويقررون العدالة ، ولكنك لن تتخيل فى الدنيا ظلما أوبل من ظلم التسوية بين غير المتساوين..

فانه يجور على الأصلح ، ولا يحمى المجرد من الصلاح ، ويقيم العقبات فى سبيل تجديد القوى ، واستفزاز الهمم ، وتنشيط الكسالى ، وتقرير الثقة فى نفوس العاملين

بل ليس أظلم للطبقة السفلى نفسها ممن يحسبها « طبقة سفلى » الى آخر الزمان ، ولا يفتح باب الرجاء فى الصعود والترقى لطائفة من أبنائها فى حاضرهم الراهن ، أو مستقبلهم القريب أو البعيد . فهو يأخذهم بشريعة اليأس ، ولا يأخذهم بشريعة الأمل . ويحرك فيهم الحسد والخسة ، ولا يحرك فيهم الهمة والطموح ..

وفى ذلك الجور كل الجور على جميع الطبقات .. فيه الجور كل الجور على القادرين المستعدين للصعود .. وفيه الجور كل الجور على العاجزين الحاسدين الذين لايصعدون ولا يحبون لغيرهم أن يصعدوا وهم قاعدون . ولو لم تشايعهم الدعوة المادية على حسدهم لأنفوا منه وأنكروه ، ولكنهم يجدون من يمثل لهم تلك الرذيلة فى صورة العدل والتجديد ، أو صورة «الناموس» الدائم الذى يسيطر على مستقبل الجماعات والآحاد ، فيعلنون ما يخجل ويفخرون بما يشين ..

وانما العدل الحق فى مسألة الطبقات أن الناس متفاوتون بالفطرة فينبغى ان يظلوا متفاوتين ، وينبغى أن يتفاوتوا بالفضل والجدارة ، ولا يتفاوتوا بالمظهر والتقليد ، وأن لهم من الحقوق بمقدار ما عليهم من الواجبات وهم فى غير ذلك سواء ، وتلك هى شريعة القرآن الكريم : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . « انما المؤمنون اخوة »

وعلى هذا تصلح الحياة ويستقيم العدل ، ويرتفع من يستحق الرفعة ، ويمضى التفاوت بين الأحياء الى معناه ، ولا يمضى بغير معنى فى تكوين الجماعات ..

الفصل الثالث

المرأة

« ... ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ..

« ... الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم » ..

« ... للذكر مثل حظ الأنثيين » ..

« ... انه من كيدكن ان كيدكن عظيم » ..

« ... والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن واكن من الجاهلين » ..

ميزان العدل الصحيح هو التسوية بين حقوق المرء وواجباته ..

فليس من العدل أن تسوى بين اثنين مختلفين فى الحقوق والواجبات .. ذلك هو الظلم بعينه ، بل هو شر من الظلم أيا كانت العاقبة التى يؤدى اليها ، لأنه هو وضع الشيء فى غير موضعه .. وهو الخطل والاختلال

والتسوية بين الحقوق والواجبات هى العدل الذى فرضته الفلسفة القرآنية للمرأة ، وهو وضع المرأة فى موضعها الصحيح ، من الطبيعة ومن المجتمع ، ومن الحياة الفردية ..

فمن اللجاجة الفارغة أن يقال : ان الرجل والمرأة سواء فى جميع الحقوق ، وجميع الواجبات ..

لأن الطبيعة لا تنشىء جنسين مختلفين ، لتكون لهما صفات الجنس الواحد ، ومؤهلاته ، وأعماله ، وغايات حياته ..

وفى حكم التاريخ الطويل ، ما يغنى عن الاحتكام الى التقديرات والفروض فيما تتوخاه الطبيعة من الاختلاف بين الذكر والأنثى فى نوع الانسان ..

فلم يكن جنس النساء سواء لجنس الرجال قط فى تاريخ أمة من الأمم ، التى عاشت فوق هذه الكرة الأرضية على اختلاف البيئات والحضارات ..

وكل ما يقال فى تعليل ذلك يرجع الى علة واحدة : وهى تفوق الرجل على المرأة فى القدرة والتأثير على العموم ..

فليست جهالة القرون الأولى سببا صالحا لتعليل هذه الفوارق العقلية بين الرجال والنساء فى جميع الأمم ، لأن الجهل كان حظا مشتركا بين الجنسين ، ولم يكن مفروضا على النساء وحدهن دون الرجال ، ومن زعم أن الرجل فرض الجهل على المرأة فقبلته وأذعنت له ، فقد قال انه أقدر من المرأة ، أو انه أحوج الى العلم وأحرص عليه منها ..

وليس الاستبداد فى القرون الأولى سببا صالحا لتعليل تلك الفوارق ، لأن استبداد الحكومات كان يصيب الرجل فى الحياة العامة ، قبل أن يصيب المرأة فى حياتها العامة أو حياتها البيتية ، ولم يمنع الاستبداد طائفة من العبيد المسخرين ان ينبغ فيهم العامل الصناع ، والشاعر اللبق ، والواعظ الحكيم ، والأديب الطريف ..

وليس عجز المرأة عن مجاراة الرجل فى الأعمال العامة ناشئا من قلة المزاولة لتلك الأعمال ، لأنها زاولت أعمال البيت ألوف السنين ، ولايزال الرجل يبزها فى هذه

الأعمال كلما اشتغل بصناعاتها .. فهو أقدر منها فى الطهو ، وفى تفصيل الثياب ، وفنون التجميل ، وتركيب الاثاث ، وكل ما يشتركان فيه من أعمال البيوت ..

وقد يرجع الأمر الى الخصائص النفسية ، فيحتفظ الرجل فيها بتفوقه على الرغم من استعداد المرأة بتلك الخصائص من أقدم عصور التاريخ ..

فالنواح على الموتى عادة تفرغت لها المرأة ، منذ عرف الناس الحداد على الأموات . ولكن الآداب النسوية لم تخرج لنا يوما قصيدة من قصائد الرثاء تضارع ما نظمه الشعراء الرجال ، سواء منهم الأميون والمتعلمون ، وقد كان أكثر الشعراء فى العهود القديمة من الأميين ..

بل هناك خاصة نفسية ، لا تتوقف على العلم ، ولا على الحرية ، ولا نوع العمل أو الوظيفة ، فى المجتمعات أو البيوت .. وهى خاصة الفكاهة ، وخلق الصور الهزلية ، والنكات التى يلجأ اليها الناس ، حين يحال بينهم وبين التعبير الصريح ..

وربما كان الاستبداد ، أو الضغط الاجتماعى من دواعى تنشيط هذا « السلاح » النفسى فى قرائح المستعبدين والمغلوبين .. لأنه السلاح الذى ينتقم به المغلوب لضعفه ، والمنفذ الذى يفرج به عن ضيقه وخوفه . وقد كان ضغط الرجال على النساء خليقا أن يغريهن باستخدام هذا السلاح لتعويض القوة المفقودة ، والانتقام للحرية المسلوبة ، ولكن الآداب والنوادر لم تسجل لنا فكاهة واحدة أطلقها النساء على الرجال ، كما فعل الرجال المغلوبون فى الأمم الحاكمة ، أوالمحكومة على السواء ، أو كما فعلوا فى تصوير رياء المرأة ، واحتيالها على اخفاء رغباتها ، وتزويق علاقاتها بالرجال

وهذه الملكة ـ ملكة الفكاهة ـ خاصة نفسية لم يقتلعها

من طبائع الرجال ظلم ، ولا جهل ، ولا فاقة ، ولا عجز عن العمل فى ميدان الحياة ..

فمن اللجاجة أن يتجاهل المتجاهلون هذه الفوارق ، وهى أثبت من كل ما يثبته العلم والعلماء .. وما كان للعلم أن يوجد شيئا لم يكن له وجود فى الوقائع أو فى تفكير العقول ، وانما هو أبدا فى مقام التسجيل ، أو مقام التفسير ..



وقد أقام القرآن الكريم الفارق بين الجنسين على الأساسين اللذين يقيمانه ، ويقيمان كل فارق عادل من نوعه : وهما أساس الاستعداد الطبيعى ، وأساس التكاليف الاجتماعية ..

« ... الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » ..

فحق القوامة مستمد من التفوق الطبيعى فى استعداد الرجل ، ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع ، وتكاليف الحياة البيتية ..

فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ، ولو كانت مثله فى القدرة العقلية والجسدية ، لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسرا فى فترة الحمل والرضاعة ..

وهو الكفيل بتدبير معاشها ، وتوفير الوقت لها فى المنزل لتربية الأبناء ، وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة البيتية ..

وكلاهما فارق ضرورى ، تقضى به وظائف الجنسين ، ويقضى به توزيع العمل فى البيئة الانسانية ، كلما تقدم الانسان ، واتسعت فى نفسه وفى مجتمعه عوامل العطف ، وملكات العقل ، وخصائص المزاج . ويقضى به اختلاف الحقوق والواجبات : ذلك اختلاف لم يخلق لالقاء

الفوارق بل للاعتراف بها ، وتوجيهها الى وجهتها المعقولة ، ولا نحسب أن المجتمع الانساني ناج من مشكلاته المعقدة ، فى سياسة الأمة ، وسياسة البيت ، وسياسة الحياة الفردية ، حتى يثوب الى هذا التقسيم الطبيعى الذى لا محيص عنه .. فيعمل الرجال عمل الرجال ، ويعمل النساء عمل النساء . وتقام دولة المرأة فى البيت ، ودولة الرجال فى معترك الحياة ..

***

فالمجتمع الذى يتزاحم فيه النساء والرجال على عمل واحد فى المصانع والأسواق لن يكون مجتمعا صالحا ، مستقيما على سواء الفطرة ، مستجمعا لأسباب الرضى والاستقرار بين بناته وبنيه ، لأنه مجتمع يبذر جهوده تبذير السرف والخطل على غير طائل ، ويختل فيه نظام العمل والسوق ، كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت..

فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة ، والقدرة على فهمها وافهامها ، والسهر على رعايتها فى أطوارها الأولى ، لتهجر البيت ، وتلقى بنفسها فى غمار الأسواق والدكاكين ..

وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنا ، ولا بأخطر عاقبة من سياسة البيت ، لأنهما عدلان متقابلان ، عالم العراك والجهاد ، يقابله عالم السكينة والاطمئنان . وتدبير الجيل الحاضر يقابله تدبير الجيل المقبل.. وكلاهما فى اللزوم وجلالة الخطر سواء ..

وانما الآفة كلها من حب المحاكاة بغير نظر الى معنى المحاكاة .. فان المرأة يخيل اليها انها لا ترفع الضعة عن نفسها الا اذا عملت عمل الرجال ، وطالبت بحقوق الرجال ، وقيل ان النساء والرجال سواء فى جميع الأعمال والأحوال ..

ولولا مركب النقص لكان للمرأة فخر بمملكة البيت ، وتنشئة «المستقبل» فيه لا يقل عن فخر الرجل بسياسة «الحاضر» ، وحسن القيام على مشكلات المجتمع التى تحتاج الى الجهد والكفاح . وهى لو رجعت الى سليقتها لأحست أن زهوها بالأمومة أغلى لديها ، وألصق بطبعها، من الزهو بولاية الحكم ورئاسة الديوان .. فليس فى العواطف الانسانية شعور يملأ فراغ قلب المرأة كما يملؤه الشعور بالتوفيق فى الزواج ، والتوفيق فى انماء البنين الصالحين ، والبنات الصالحات ..

***

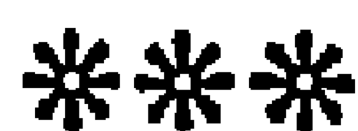
وقد لوحظ هذا الاعتبار فى تقسيم الميراث بين الذكور والاناث ، فأعطى الذكر مثل حظ الأنثيين ، وبنيت هذه القسمة قبل كل شيء على اعتبار واحد : وهو ان الرجل يتكفل بمعيشة المرأة ، وهى مشغولة بأمر البيت ورعاية الأسرة ، وانه هو الذى يجمع الثروة ويكدح فى طلب المال ، فمن العدل أن يعطى منه نصيبين ، على قدر سعيه فى تحصيله ، وعلى قدر حاجاته التى تشتمل على حاجة النساء ، ومن يعولهم من الزوجات والأبناء ..

***

ووصف القرآن الكريم المرأة بالكيد العظيم ..

وهو وصف لايناقض رجحان الرجل عليها فى العقل والتدبير ، لأن سلاحها فى هذا الكيد من أسلحة الطبيعة التى تستميل بها الرجل اليها ، وتغرس فى نفسه حب الاستجابة لغوايتها . ولم تزل الحيلة عوضا عن القدرة ، ودليلا على نقصها فى ناحية من نواحيها . ومن المشاهدات المحسوسة ان المرأة تصر على طلبتها ، وتلح فى اصرارها لأنها تعجز عن صرف الفكرة من رأسها ، اذا خطرت لها ، وهجست فى ضميرها .. فهى تطرد الفكرة من هنا

فتعاودها من هناك ، وهى تعالج الخلاص منها فلا تفلح فى علاجها ، ولا تزال فريسة لهواجسها ، فى يقظتها ومنامها حتى تستريح منها بالانجاز والتنفيذ . فهى تثابر على الطلب لأنها عاجزة عن الخلاص من الحاجة والتغلب على معاوداته ومراجعاته . وهى تستمد القوة من هذا الضعف الذى يتعقبها فلا يرحمها ولا يريحها . . فتبدو كالمطاردة وهى طريدة ، وتتراءى كالغالبة وهى مغلوبة .. فتجمع بين الضعف العظيم ، والكيد العظيم . وتعتمد على غواية الطبيعة فى نجاح كيدها حين يخذلها الضعف ويسلمها للنزوة الملحة ، والوسواس المقيم ..



على ان هذه التفرقة بين الجنسين لا تتعدى تكاليف المعيشة وعلاقات المجتمع ، الى تكاليف العقيدة وفضائل الأخلاق ومطالب الروح .. لأن المرأة تخاطب فى القرآن الكريم كما يخاطب الرجل فى هذه الأمور ، وتندب لكل ما يندب له من الفرائض والأخلاق التى تجمل بذوى الخير والصلاح . ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب :

« ... ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » ..

ولهذا كانت المرأة تشهد الصلاة الجامعة فى المساجد ، وتؤدى فريضة الحج سافرة غير مقنعة ، وتبايع النبى عليه السلام كما بايعه الرجال ..

أما الحجاب الذى كثر فيه اللغط كما كثر فيه الغلط ،

فالقرآن الكريم لم يتعرض له الا بمقدار ما يحق لكل مجتمع سليم أن يتعرض لحياطة الأخلاق والأعراض ، لأن شهوات الجنس أخطر من كثير من الاضرار التى تحتاط لها الجماعات البشرية بالحد من الحرية فى بعض الأحوال . وقد سمحت القوانين بالحد من الحرية فى سبيل تأمين الأموال ، وحراسة الطرق ، والمواصلات ، ووقاية السابلة من أخطار المركبات والسيارات ، فمن السخف أن يقال : ان الفرد يحظر عليه الانطلاق على هواه فى شئون كهذه ، ويبـاح له أن ينطلق فى أهواء الشهوة الجنسية بغير ضابط من قبيل الحيطة والرقابة التى لا تعوقه عن مباح ..

واذا رجعنا الى نصوص القرآن الكريم ، لم نر فيها ما يحرم على المرأة شيئا لا يجب على القانون أن يحرمه فى أحدث المجتمعات ..

فلا يجوز للمرأة ان تتبرج تبرج الجاهلية الأولى ، وفصلت آية الحجاب ذلك فى سورة النور فجاء فيها :

« ... وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » ..

وفحوى ذلك ان المرأة لا يجوز لها أن تخرج بزينة جسدها لتتصدى للغواية بين الغرباء ، وهى فى حل بعد ذلك أن تلقى من تشاء ممن تجمعها بهم مجالس الأسرة

من الرجال أو النساء ..

وما من عقل سليم يرى أن الشرائع تتخطى حدودها حين تعرض لمنع التبذل والغواية على هذا النحو الصريح ، وما من عقل سليم يبدو له أن حراسة الأعراض والأخلاق بمثل هذه الحيطة فضول من الشرائع والقوانين ، أو تصرف لا نظير له فى المجتمعات البشرية التى تتكفل بحراسة الأموال والأرواح ..

فلا فائدة للرجال ولا للمرأة ولا للأمة فى جملتها من هذا الرياء الذى يجزم باستحالة الأخطاء الشهوانية حين تستثار بغواية الزينة المكشوفة ، وهو فى الوقت نفسه لا ينزه النفس البشرية من سرقة الدراهم والسلع اذا عرضت بغير حيطة لكل من يمد اليها يديه . ومن حاول التفرقة بين الأمرين بالتفرقة بين الطمع فى الجماد ، والطمع فى مخلوق انساني ، يؤكد ضرورة الحيطة هنا من حيث يريد أن يبطلها أو يضعفها .. لأن الخطر الذى تلتقى فيه الرغبة من الجانبين أولى بالحيطة من خطر مقصور على رغبة السارق دون الجماد المسروق ..

ولعل الغربيين قد لمسوا من أضرار الاباحة المطلقة فى مقابلات الجنسين ما يميل بهم الى الصواب فى مسألة « الحجاب » فيفهموا الحكمة فى الاعتدال ، بين الاباحة المطلقة والقسر الشديد ، فى هذه المسألة التى لا يغنى فيها الرياء عن الحقيقة . ويدركوا أن اخطار الشهوات الجنسية شىء يحسب له حساب فى الشرائع والآداب ، لأنه حساب الأعراض والانساب ..

وخير ما يطلب من الشريعة عدل وصحة تقدير .. ونحن لا نلتزم العدل ولا صحة التقدير حين نتجاوز بالكائن الحى طبيعته فى حقوقه وواجباته ، أو حين نطلب من الطبيعة ما لايستطاع ..

الزواج

من الأوهام الشائعة بحكم العادة ان الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية ..

وهذا وهم قد سرى الى الاخلاد بحكم العادة كما اسلفنا .. لأن الواقع الذى تدل عليه كتب الاسرائيليين والمسيحيين ان تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعا عند أنبياء بنى اسرائيل وملوكهم ، فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى فى حرم واحد ، وروى «وستر مارك» (١) العالم الحجة فى شئون الزواج على اختلاف النظم الانسانية ، ان الكنيسة والدولة معا كانتا تقران تعدد الزوجات الى منتصف القرن السابع عشر، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الأسر الكبيرة ..

وكل ما حدث فى القرن الأول للمسيحية ، ان الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين أن يقنع بزوجة واحدة .. وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بتة . فكانت الفكرة التى دعت الى استحسان الزواج الموحد ، هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور .. فان لم تتيسر الرهبانية

(١) Westermark

فامرأة واحدة أهون شرا من امرأتين . وكانت المرأة على الاطلاق شرا محضا ، وحبالة من حبالات الشيطان ، بل اخطر هذه الحبالات ، واستكثر اناس من آباء الكنيسة وفقهائها أن تكون لها روح علوية ، فبحثوا فى ذلك وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا حياة له بعد فناء جسده ..

فكان تعدد الزوجات مُباحا فى الأديان الكتابية جميعا. ولم يحرم ـ حين حرم ـ اكبارا للمرأة وتنزيها لها عن قبول المشاركة فى زوجها بل كانت الفكرة الأولى فى تحريمه ان المرأة شر يكتفى منه بأقل ما يستطاع ..

***

ومن المحقق ان الشريعة الصالحة للزواج هى الشريعة التى تراعى فيها حقيقة الزواج فى جميع حالاته الواقعة أو التى تحتمل الوقوع ..

فليس الزواج علاقة حيوانية بين حيوانين ..

وليس الزواج علاقة روحية بين ملكين ..

ولكنه علاقة انسانية فى المجتمع بين الذكور والاناث من البشر الذين يزاولون المعاش ويتمرسون بضرورة دنياهم صباح مساء ..

ولم يستطع خيال الشعراء فى ابعد سبحاته أن يجعل من الزواج علاقة شعرية ـ رومانتيكية ـ تدوم بين الزوجين مدى الحياة على سنة الوفاء والقداسة التى نتخيلها للملائكة والأرواح العلوية.. فهذه حالات يتمناها الناس ، ويحلمون بها ، ويصورونها لأنفسهم فى عالم الخيال ، ولكن الشرائع لا توضع للأمانى والأحلام ، بل للوقائع والمحسوسات . وتلاحظ فيها اكثر الوقائع والمحسوسات لا أقلها واندرها بين النزر القليل الذى لا يقاس عليه ..

واتفاق الزوجين على الوفاء والعشرة الدائمة كمال روحاني مفضل على العلاقة بين رجل واحد وعدة زوجات . ولكن الكمال الروحاني لا يفرض بقوة القانون. وليس الفضل فيه أن يكتفى الرجل بزوجة واحدة لأنه لا يستطيع التزوج من اثنتين أو ثلاث ، وانما الفضل فيه انه يستطيع ولا يفعل.. وانه يمتنع عنه لأن سعادته الروحية فى الامتناع عنه باختياره . فاذا حدثت وحدة الزوجة كرها فلا فرق فى هذه الحالة بين الوحدة والتعدد . وقد يتصل الرجل بأكثر من امرأة واحدة ، وهو مقصور على زوجة واحدة.. فيضيف نقض الشريعة الى نقض الآداب الروحية ، ولا يستفيد هو ولا الزوجة ولا المجتمع من هذا الرياء ..

والطرف الثانى لهذه المبالغة فى تنزيه الزواج هو طرف العلاقة الحيوانية التى لا يرتبط فيها الزوجان بأكثر من العلاقة بين ذكر الحيوان وأنثاه ، بل يكون فيها الزواج أحيانا أهون شأنا من علاقة الذكور والاناث عند بعض الاحياء ، لأن بعض الاحياء تكون عندهم المودة بين الذكر والأنثى ، وتبلغ حد التلازم فى أكثر من موسم واحد من مواسم التناسل .. فهى أفضل من العلاقة التى تنفصم فى كل ساعة اذا خطر لأحد الزوجين أن يفصمها منقادا لهواه . وهذه هى شريعة الزواج فى رأى الشيوعيين أو الماركسيين ... وهم الذين يتناقضون فى هذه الشريعة بين اطلاق الحرية لأهواء الفرد العارضة على الرغم من المصلحة النوعية ، وبين تغليب مصلحة الجماعة على أهواء الآحاد . وهو أساس الشيوعية وأساس المذاهب الاشتراكية جمعاء ..

فمن انكار الواقع والمصلحة أن نجعل الزواج علاقة بين ملكين ..

ومن انكار الواقع والمصــــلحة ان نجعله علاقة بين حيوانين ..

واقامة الشرائع على انكار الواقع من طرفيه نقض للشريعة من الاساس ، وانما تقوم الشريعة على أساسها حين تبنى على الواقع وتصلح للتطبيق فى أوسع نطاق ، فتعترف بتفضيل الزواج الموحد ولاتقضى بتحريم الزواج المعدد ، لأن تحريم ما دون الكمال يوقعنا فى مغالطة لاشك فيها ، وهى ان النـــاس جميعا كاملون او يستطيعون العيش على سنة الـكمال ..

وهكذا صنعت شريعة الاسلام .. اعترفت بأن الزوجة الواحدة ادنى الى العدل والاحسان ، واباحت تعدد الزوجات لأنه حالة لابد من حسبانها فى الشرائع الاجتماعية، ولا يستطيع احد ان ينكر وقوعها بموافقة القانون او بالاحتيال على القانون والخروج عليه ..

اباحت شريعة الاسلام تعدد الزوجات ، ولم تفرضه كما يبدر الى أخلاد المتكلمين فى هذا الموضوع من الغربيين

فقد يخيل اليك وانت تسمع بعض الغربيين يتكلم فى موضوع الزواج الاسلامى أن الاســلام قد أوجب تعدد الزوجات على كل مسلم ، واستنكر منه أن يقنع بزوجة واحدة مدى الحياة ..

ذلك وهم شائع كالوهم الذى شاع فى تحريم الأديان الـكتابية الاخرى لتعدد الزوجات ..

فلا الأديان الكتابية حرمت تعــــدد الزوجات ، ولا الاســلام حرم توحيد الزوجة واوجب على المسلم ان يتزوج أكثر من واحدة . وانما اباح تعدد الزوجات مع ضمان العدل بين النساء ، واستبعد العدل على طبيعة الانسان فقال القرآن الكريم : « ... ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ..

فالأقوال متفقة على ان انعقاد الزواج من ذكر وانثى هو الزواج المثالى المفضل على غيره ..

ولكنه « زواج مثالى » وليس بزواج يتكرر بين كل ذكر وانثى من نوع الانسان ، لأننا لا نستطيع ان نجعل من كل رجل زوجا مثاليا ومن كل امراة زوجة مثالية.. ومعنى أنه « زواج مثالى » انه عمل من أعمال الفضائل الاختيارية ، وليس بعمل من أعمال الشرائع المفروضة على جميع الرجال وجميع النساء . ولا حاجة بالشرائع الى أن تفرضه على من يصلح له ويتقبله ويفضله على غيره ، لأنه يؤثره على كل علاقة متعددة ولو أباحتها الشرائع أو حسنتها لمن يطلبونها ، ولا فرق فى ذلك بين الرجل والمراة متى اتفقت بينهما أواصر المودة وتبادل العطف والرعاية ..

واذا كان « الزواج الحيوانى » هو المثل الأدنى للزواج بين أبناء النوع الانسانى ، فمن حق الشرائع أن تمنعه ولا تقبله على وجه التعليل ولا على وجه الاستثناء ..

ونعنى « بالزواج الحيوانى » ذلك الزواج الذى يقوم على هوى الجسدين ، ولا تبقى فيه بقية للألفة ودوام العلاقة بين الزوجين ، متى نفر بالزوج هواه أو نفر بالزوجة هواها ..

فلا نقسر الناس على ادب الملائكة ، ولا نقبل منهم خسة الحيوانية . وقوام الأمر بين الحالتين هو ماقضت به شريعة القرآن الكريم : تفضيل الزواج الموحد ، وعصمة الزواج من أهواء الساعة وعوارض النفور والسآمة : « ... وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ..

ولم يجاوز القرآن الكريم بتعدد الزوجات أن وضعه فى نصابه ، فاعترف بامكان وقوعه او ضرورة وقوعه فى

بعض الأحوال . وهى حالة معترف بها ولا شك فى الحياة الانسانية حيث كانت من أقدم الأزمان الى هذا الزمان .. ولكنه اعتراف التواطؤ والاغضاء الذى يحدث فى غفلة الشريعة ، ويصبح فى العرف المصطلح عليه شريعة مفعولة تهرب من وضح النهار ولا يعوزها الا التقرير والتصريح .. فكم من زوجة بين من يحرمون تعدد الزوجات تعلم ان «فلانة» بعينها خليلة لزوجها وتدعوها الى بيتها وتزورها وتتجاهل الحقيقة التى لا تجهلها ولا يجهلها أحد من بيئتها .. ولكنها تقبل هذا التواطؤ لأنها تقابله بمثله ، وتذهب فى المجتمع باسم زوجة « فلان » وخليلة «فلان» !.. ويحدث من جراء ذلك ما يحدث من التناقض الوبيل بين شريعة الواقع وشريعة الدين أو شريعة الدولة : مغالطات ومخادعات أهون منهـــا كل احساس يتولد من تعدد الزوجات ، لأنه يضيف الى الغيرة والنكد اكاذيب الاخلاق ومحاولات التهرب والاحتيال فى مسائل الذرية ومسائل الأسر والقرابات ..

وما هو الاحساس الذى يتولد من تعدد الزوجات ؟

هو على التحقيق احساس لا ترضاه النساء .. ولكن اين هو المجتمع الذى يتكفل لكل انسان بالرضى كله ، ويعفيه من كل ما يسوءه ويخالف هواه ؟..

فالمرأة تلاقى فى حياتها كثيرا من المحزنات والمغضبات التى لا حيلة فيها للمجتمع ولا للشريعة . وقد يهون احتمال الضرة لديها اذا قيس بما تحتمله فى كثير من مآزق الحياة . وقد تفضل المشاركة فى زوج من الازواج على الحرمان منه فى بعض الأحايين . ويصدق هذا على المرأة التى ملكت كل حريتها فى أمم الحضارة الحديثة ، كما يصدق على المرأة الجاهلة فى الأمم التى انكرت على النساء أكثر الحقوق . ولا نظن ان امرأة بلغت من الحرية

فى اختيار الازواج والعشراء ما بلغته المرأة الامريكية فى القرن العشرين ، ولا سيما الفتيات اللاتى ملكن كل أسباب الطلاقة من سيطرة الآباء والأولياء . ومن هؤلاء من سئلن رأيهن فى تعدد الزوجات ، فقالت احداهن فى مجلة « الحوار » (١) : « اننى وان كنت أعتقد أن تعدد الزوجات يوافق الرجال أكثر مما يوافق النساء ، أحسبه شيئا لا يخلو من الطرافة والغرابة . ولست من الطفولة بحيث يخفى على أن كواكب الصور المتحركة يعشقهم كثيرمن النساء ويعلمن — وهن يعشقنهم — أنهن لايسيطرن على قلوبهم ومشيئتهم . ومهما يكن رأيك مثلا فى « ايرول فلن » فانك لن تجهل الواقع الذى لاشك فيه من أمره وهو أن كثيرا من النساء يقبلن الشركة فيه ، نعم ليس كل الرجال فى وسامة «ايرول فلن» ، أو «فكتورماتيور» ، أو «فان جونسون» ، أو «كلارك جابل» . ولكن الرجال الذين لهم نصيب من الوسامة والقسامة كثيرون فى كل مكان . فلماذا لا تشترك فى قربهم عدة نساء ؟ انهن ينفردن فى الحجرات متى كبر الأطفال ، وتتقدم السنون فتبرد حرارة الشباب ، وتهدأ مرارة الغيرة ، ولا يبعد أن يجد هؤلاء الشريكات مواطن للتسلية والمقارنة فى التحدث عن ذلك الرجل الذى ارتبطن به جميعا برابطة الزواج ... ولقد عشت معظم أيامى فى ضاحية مدينة كبيرة ، فلا أحسب صديقاتى الا مستغربات عاتبات لو أصبح من حظى غدا أن أكون واحدة من هؤلاء الزوجات المشتركات .. ولكن هب الرجل كان مليح الشمائل قادرا على ايوائنا جميعا ، الا يخطر لك أن اللاغطات بحديث زواجى يلغطن اذن من الغيرة لا من الانكار ... »

---

(١) Debate

ومهما يكن من احســـاس المراة لمشاركة الضرائر فى زوجها ، فهو من احاسيس الحياة الطبيعية التى تحدث فى الزواج وفى غير الزواج وليس هو بأقسى من مهانة العمل ، أو مهانة الحاجة ، او مهانة الدمامة ، أو مهانة الغيرة اليائسة ، او مهانة الابتذال . وليس فى وسع الشرائع أن تزعم انها تعفى النساء او الرجال من امثال هذه العوارض والمنغصات ..

ولتصنع الشرائع ماتصنع من ضروب التحريم والتحليل، فلا مناص للمراة ولا للرجل على السواء من مواجهة الحياة بمسراتها ومنغصاتها ، ومن قبول ما لا يقبل ، والرضى بما لا يرضى به فى حالة القدرة والاختيار ..

وهل يخطر على بال أحد ان عشرة مرءوسين يتنافسون على ارضاء رئيس واحد حالة أيسر أو اندر من حالة امراتين تتنافسان على مرضاة زوج ؟.. وهل لا يحدث فى الحياة ان خمسة ابناء يتنافسون على حنان اب وام فى اسرة واحدة ؟.. وهل يندر فى الدنيا تنافس الساسة على كسب الجماهير ، او تنافس العلماء والمصلحين على كسب الأنصار والمريدين ؟..

اما المسوغات لتعدد الزوجات فكثيرة ، ترجع تارة الى خصائص الطبيعة وتارة الى ضرورات المعيشة الاجتماعية ..

فالرجل يؤدى وظيفة النسل طوال أيام السنة ، ولا تؤديها المراة وهى حامل زهاء تسعة شهور ..

والرجل يلد بعد الستين ، وقد يلد بعد السبعين ، وقلما تلد المراة بعد الخامسة والاربعين او الخمسين ..

ويستقل الرجل بمعاشه ولا تستقل المراة به ، ولا سيما فى اثناء الحمل والرضاع وتربية الأطفال ..

وقد تقرر من احصاءات الامم أن عدد النساء يربى

على عدد الرجال فى أوقات السلم فضلاً عن أوقات الحروب ..

وأول ما تستلزمه هذه الخصائص الطبيعية أن يدخل تعدد الزوجات فى حساب الشرائع وحساب المجتمعات البشرية ..

وقد تقضى ضرورات المعيشة أو ضرورات الأسرة بحسبان الحساب لهذا التعدد فى بعض الأحوال ، فربما عقمت المراة او اصيبت بمرض عضال او ذهبت عنها جميع المغريات الحسية والنفسية ، فيضيرها الطلاق فى هذه الحالة أضعاف ما تضيرها المشاركة فى زوجها . ولا تجنى هذه العلاقة العقيمة على الزوج فى نسله ، ولا على النوع الانسانى فى بنيه ..

ولا خطرمن التمادى فى الاباحة ، لأنالتناسب الطبيعى بين عدد الذكور والاناث يأبى أن تعم الرخصة فيصبح لكل رجل زوجتان ، أو يعدد الزوجات كل من أراد ، مع اشتراط القدرة على تكاليف الأسر والأبناء ..

***

ومتى استوفت الشريعة أمانتها من حياطة الأسرة ، وضمان النفقة عليها ، بقيت أمانة العرف الاجتماعية يتولاها على حساب الآداب والمصالح والضرورات التى تغلب على المجتمعات بين أمة وأمة وبين جيل وجيل . وفى هذا العرف الاجتماعى الكفاية للاشراف على تنظيم الزواج من ناحيته ، بعد أن قالت الشريعة كلمتها ، واضطلعت بأمانتها التى تطلب منها ..

فمن امثلة التنظيم الذى يتولاه العرف الاجتماعى فى مسألة تعدد الزوجات ، انه يحد من رغبات الطبقة الغنية فى هذه المسألة كما يحد من رغبات الطبقة الفقيرة فيها ، على اختلاف أنواع الحدود ..

فالطبقة الغنية اقدر على الانفاق ، واقدر من ثم على تعدد الزوجات . ولـكن الرجل الغني يأبى لبنته ان تعيش مع ضرة أو ضرائر متعددات . والمرأة الغنية تطلب لنفسها ولأبنائها نفقات ترتفع مع ارتفاع درجة الغنى ، حتى يشعر الأغنياء انفسهم بثقلها اذا تعددت بين زوجات كثيرات . فلا ينطلق الزوج الغني في رغباته على حسب غناه ، بل يقيم له العرف حدودا وموانع من عنده تكف من رغباته لتثوب به الى الاعتدال . ولهذا نرى في الواقع ان الطبقات الغنية تكتفي بزوجة واحدة في معظم الاحيان ، وربما كان للاختيار نصيب من ذلك كنصيب الاضطرار ، لأن الأغنياء يستوفون حظوظهم من العلم والثقـافة . فيدركون بلطف الذوق مزايا العطف المتبادل بين زوجين متكافئين في الـكرامة والشعور ..

***

والطبقة الفقيرة لا ترفض المراة فيها ما ترفضه المراة الغنية من معيشة الضرائر . ولكن العجز عن الانفاق يمنعها أن تنطلق مع الرغبة كما تشاء ، فلا تستبيح تعديد الزوجات بغير حدود ..

وهكذا تقوم الشريعة في تعدد الزوجات بما عليها ، ويقوم العرف الاجتماعي بما عليه . ويقع الالزام حيث ينبغي أن يقع مع الرغبة والاختيار ..

على ان تعريف الزواج نفسه اهم من تنظيم الانفراد او التعدد في الزوجات ! ..

فما هو تعريف الزواج قبل ان نعرفه القرآن الكريم ؟ ،

هل هو صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة ؟..

هل هو وسيلة من وسائل الضرورة لاسكات صيحات الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية ؟ ..

هل هو تسويغ الشهوة بمسوغ الشريعة ؟ . .

هل هو علاقة عدمها خير من وجودها ، اذا تأتى للرجل أو للمرأة أن يستغنيا عنها ؟ ..

كان هـذا وأشباهه أعلى ما تصورته المجتمعات والعقائد من صور الزواج قبل الايحاء بالقرآن الكريم..

ولكن الزواج فى القرآن الكريم هو «الزواج الانسانى» فى وضعه الصحيح من وجهة المجتمع ومن وجهة الأفراد

فهو واجب اجتماعى من وجهة المجتمع ، وسكن نفسانى من وجهة الفرد ، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء ..

فكان خطاب القرآن فى تدبيرالزواج موجها الى المجتمع كله لأنها مسألة تناط به ويصلح أو يفسد من ناحيتها :

« ... وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم. ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ... »

وقد سماه القرآن ميثاقا كما سماه نكاحا.. والنكاح على خلاف ما يفهم بعض العامة هو الانفاق والمخالطة على اطلاقها . يقال نكح المطر الأرض ان خالطها ، ونكح الدواء المريض أى سرى فى أوصاله .. فهو ميثاق بين الأزواج والزوجات ..

وفضيلة هذه العلاقة بين الرجال والنساء انها علاقة «سكن» تستريح فيها النفوس الى النفوس وتتصل بها المودة والرحمة : «... ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .. « ... هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ..

ومن ثم يراد الزواج ـ فضلا عن بقاء النوع ـ لتهذيب النفس الانسانية ، واستزادة ثروتها من الرحم والرحمة ،

ومن العطف والمودة ؛ ومن مساجلة الشعور بين الجنسين بما ركب فيهما من تنوع الاحساس وتنوع العاطفة وتنوع القدرة على الحب والايناس ..

ولهذا كان اختيار الزوجات مقصورا على النساء اللاتى يوجدن المودة من طريق العشرة الزوجية دون غيرها .. فلا زواج بين رجل وامراة تتصل المودة بينه وبينها من طريق القرابة ومحارم الأسرة . وكل النساء المحرمات فى الزواج من هذا القبيل : « ... حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وامهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما » ..

فالغرض من شمول هؤلاء النساء جميعا بالتحريم ظاهر .. وهو زيادة ثروة الانسان من العطف والمودة ، وتعويده أن يعرف الوانا من الشعور غير شعور الذكور والاناث فى عالم الحيوان . وكل هؤلاء القريبات أو أشباه القريبات قد جعلت المودة بينهن وبين اقربائهن من الرجال ، فلا موجب لخلطها بالمودة التى تنشأ من العلاقة الجنسية ، ولا لتعريضها للجفاء الذى يعرض احيانا بين الأزواج والزوجات ..

ومما يؤكد هذا المعنى ان التحريم هنا لا يجرى على سنة التحريم فى شريعة القبائل التى تدين ابناءها باختيار الزوجات من الأباعد دون الأقربين ؛ وتسمى شريعتها فى علم الاجتماع « بالاوكسوجامى » (١) ..

---

(١) Exogamy

لان العلاقة هنا تقوم على علاقة الألفة والمودة ، لا على علاقة الدم ووشائج النسب الأصيل .. فلا قرابة بين الرضعاء ولا بين الربائب ، ولا تحريم للجمع بين الأخت وأختها فى شريعة القبائل التى تختار الزوجات من الأباعد دون الأقربين .. لأن الزوجة وأختها سواء فى القرب والبعد ، سواء كانتا من القبيلة نفسها أو من قبيلة غريبة عنها ، وانما هى قرابة أدبية يحترمها الذوق المهذب ، ولا يقع احترامها من وشائج الدم وأواصر الأنساب ..

كذلك لم تكن هذه المحرمات جميعا مرعية فى الشريعة الاسرائيلية ، لأنها لا تنص على التحريمات التى ترجع الى العلاقات الأدبيـــة أو علاقات الألفة والمودة .. بل روت التوراة ان ابراهيم عليه السلام تزوج من سارة أخته لأبيه ، واوشكت تامار أن تتزوج أخاها عمنون . وجاء منع الزواج بين الأخوين بعد ذلك على ســـبيل الكراهية والاستهجان ، ثم على ســبيل الالزام ، ولم تتعرض له الشريعة ..

وقـــد تقررت تحريمات الدم من قديم الأزمنة ، وعرفتها شرائع القبيلة كما عرفتها شريعة الدولة وشريعة العقيدة ، ولكن شمول المنع لقرابة الألفة « الأدبية » هو الذى وسع آفاق العطف بين الجنسين ، وخرج بها من حصرها القديم فى شهوة الجسد أو تجديد النوع بالذرية

فعلى خلاف الأقاويل المدعاة على ســنن الزواج فى القرآن الكريم ، لم تكن العلاقة بين الجنسين ــ حسب هذه السنن ــ محصورة فى علاقة الجسد أوعلاقة النوع ، بل كان فيها متسع لألوان من العواطف الانسانية لم تعرفها شرائع كثيرة بين الأقدمين والمحدثين ، وكانت خليقة أن تعلم بنى الانسان آدابا من العطف بين الرجل والمرأة تنشأ بينهما من غير صلات النسب ، وغير صلات

النوع ووظائف بجديده . فلا تدخل فى أواصر القرابة ولا فى أواصر الزواج ..

***

وهكذا كانت شريعة القرآن مطابقة لحقيقة الزواج فى معانيه الانسانية ومعانيه النوعية والاجتماعية ..

فاستحسنت الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، ولكنها جعلته فضيلة يختارها الزوجان . ولم تفرضها عليهما بغير فضل يرجع الى الزوج او الزوجة ..

وأباحت تعدد الزوجات مع اشتراط العدل لمن استطاعه . وحسبت للدواعى النوعية والاجتماعية التى تبيح تعدد الزوجات فى بعض الأحوال كل ما ينبغى ان تحسبه شريعة تسرى بين ابناء البشر ، فى دنياهم هذه التى تطلب المثل الأعلى ولا تصل اليه فى كل حين ..

* أما معاملة الزوجات ، فهى فى الشريعة القرآنية موافقة لهذا التقدير الصحيح لطبيعة الزواج ..

فليس الزوج سيدا للزوجة .. ولكنه وليها وله حقوق الولى وعليه واجباته ، ومنها حمايتها والانفاق عليها ..

وللمرأة فيما عدا الولاية مثل الذى عليها : « .. ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ..

ومعاشهن مثل معاش الرجل : سكن حيث سكن ، ويرزقن من حيث رزق : « ... اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم » .. « ... وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » ..

وفى حالة الغضب يجوز للرجل ان يقوم خطأ امرأته بالوعظ والنصيحة ، أو بالاعراض والهجر فى المضاجع ، أو بالضرب ، أو بالتحكيم بين أهله وأهلها اذا استعصى الوفاق بينهما : « ... واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا

عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » ..

وليس معنى اباحة الضرب ايجابه فى كل حالة ومع كل امرأة ، فقد كان النبى عليه السلام ـ وهو أول المؤتمرين بأوامر القرآن ـ يكره الضرب ويعيبه ويقول فى حديثه المأثور : « أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟.. يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ؟ » .. فلم يضرب زوجة قط ، بل لم يضرب أمة من الصغار ولا من الكبار ، وأغضبته جارية صغيرة مرة فكان غاية ما أدبها به أن هز فى وجهها سواكا وقال لها : « لولا انى أخاف الله لأوجعتك بهذا السواك » ..

وانما يباح الضرب لأن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره . ومن اعترض على اجازته من المتحذلقين بين أبناء العصر الحديث ، فانما يجرى اعتراضه مجرى التهويش فى المناورات السياسية ، ولا يجرى مجرى المناقشة فى مسائل الحياة وأخلاق الناس ، لأن الاعتراض على اباحة الضرب بين العقوبات لا يصح الا على اعتبار واحد : وهو ان الله لم يخلق نساء قط يؤدبن بالضرب ولا يجدى معهن فى بعض الحالات غيره . ومن قال ذلك فهو ينسى أن الضرب عقوبة معترف بها فى الجيوش والمدارس ، وبين الجنود والتلاميذ ، وهم أحق أن ترعى معهم دواعى الكرامة والنخوة اذا جاء الاعتراض من جانب الكرامة والنخوة .. وان رؤساءهم ليملكون من العقوبات المادية والأدبية ، ومن وسائل الحرمان والمكافأة ، ما ليس يملكه الأزواج فى نطاق البيوت المحدودة ..

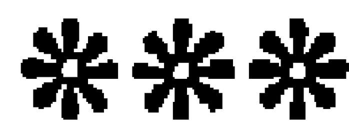
وقد يهزأ النساء بهذه الحذلقة التى تخلط بين مظاهر السهرات فى الأندية وبين وقائع العيش ومشكلات البيوت

فى ناحية من نواحى الضنك والضرورة .. فان النساء ليعلمن ان عقوبة الضرب عند المرأة العصية الناشزة ليست من الهول والغرابة بهذه الصورة المزعومة فى بيئات الأندية والســـهرات . فربما كان من انيقات الأندية والسهرات انفسهن من يعرفن عن هذه الحقيقة ما يجهله المتحذلقون والمتزوقون فى مجامع اللهو والبطالة بزواق الفروسية و « اللطافة » المستعارة .. فيعلمن ويعلم الكثيرون ــ كما قلنا فى كتابنا عبقرية محمد ــ « أن هؤلاء النساء الناشزات لا يكرهنه ولا يسترذلنه . وليس من الضرورى أن يكن من اولئك العصبيات المريضات اللاتى يشتهين الضرب كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب »



وقد بينا فى ذلك الكتاب أيضا حقيقة الغرض من عقوبة الهجر فى المضاجع لأنها تبدو للكثيرين كأنها عقوبة جسدية ، غاية ما يؤلم المرأة منها انها تحرمها من لذة الجسد بضعة ايام أو بضعة أسابيع .. الا انها فى الحقيقة لا تؤلمها لهذا السبب ، ولو كان هذا سبب ايلامها لكانت عقوبة للرجل كما كانت عقوبة للمرأة . ولكنها فى الواقع عقوبة نفسية فى الصميم ، لأن أبلغ العقوبات كما قلنا فى كتاب ــ عبقرية محمد ــ « هى العقوبة التى تمس الانسان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه : فى المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه . والمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت انها فاتنة له ، وانها غالبة بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق اليها ورغبة فيها .. فليكن له ما شاء من قوة ، فلها هى ما تشاء من سحر وفتنة .. وعزاؤها الأكبر عن ضعفها ان فتنتها لا تقاوم ، وحسبها انها لا تقاوم بديلا من القوة والضلاعة فى الأجساد والعقول .

فاذا قاربت الرجل مضاجعة له ، وهى فى أشد حالاتها اغراء بالفتنة ، ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها ، فما الذى يقع فى وقرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها؟ أفوات سرور؟.. أحنين الى السؤال والمعاتبة ؟.. كلا بل يقع فى وقرها أن تشك فى صميم أنوثتها ، وأن ترى الرجل فى أقدر حالاته جديرا بهيبتها اذعانا وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة .. فهو مالك أمره الى جانبها ، وهى الى جانبه لا تملك شيئا الا أن تثوب الى التسليم ، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها ، فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد .. بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح لأنها جربت أمضى سلاح فى يديها فارتدت بعده الى الهزيمة التى لا تكابر نفسها فيها .. فانما تكابر ضعفها حين تلوذ بفتنتها ، فاذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذلك . وهنا حكمة العقوبة البالغة التى لا تقاس بفوات متعة ، ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة .. وانما العقوبة ابطال العصيان ، ولن يبطل العصيان بشىء كما يبطل باحساس العاصى غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه .. »



وجملة القول ان هذه الوسائل تستنفد كل حيلة فى الوسع للابقاء على صلة الزواج واتقاء الفرقة بين الزوجين .. فعلى الرجل أن يغالب كراهته للمرأة اذا تحول قلبه عنها عسى أن يكره شيئا ويجعل الله الخير فيه . وعليه أن يجرب النصيحة والهجر والتاديب بالضرب والتحكيم بين الأسرتين ، فان أفلحت هذه الوسائل بقيت الصلة ودامت المودة والألفة .. والا فالطلاق حل لا مناص منه

فى النهاية بعد استنفاد جميع الحلول ..

وقد عالجت امم كثيرة من امم الحضارة ان تستغنى عن الطلاق وتحرمه فى جميع الأحوال .. فاظهرت التجارب المتوالية ان الخطر على الزواج من تحريمه أفدح واعضل من كل خطر يأتى من اباحته والاعتراف بلزومه فى كثير من الحالات ..

والقرآن يخول المراة ان تطلب الطلاق اذا كرهت البقاء فى عصمة زوجها : « ... وان امراة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، واحضرت الأنفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » ..

فاذا تصالحا على الفراق ، فذلك خير من البقاء على الشقاق الدائم . وخير من الفراق على عداوة ونقمة . وكل ما يطلب من المرأة فى هذه الحالة أن تعفى الزوج من النفقة وترد اليه ماله .. فليس لها أن تترك الرجل وتمسك ماله وتفرض النفقة عليه ..

وقد جاءت امراة الى النبى عليه السلام ، وشكت اليه انها لا تطيق زوجها ــ ثابت بن قيس ــ فسألها : هل تردين اليه مهره ؟.. فقبلت أن ترده ، فنصح لثابت أن يطلقها اذا كان لا خير له فى استبقائها ، وتم الطلاق « على وفاق » ..

ولم يوضع الطلاق بغير حدود ، ولا أبيح كل الاباحة لغير ضرورة .. فهو حيلة من لا حيلة له فى الوفاق . وهو مع ذلك ابغض الحلال عند الله كما جاء عن النبى عليه السلام . ومن أقواله صلوات الله عليه : « لعن الله كل ذواق مطلاق » . « ولعن الله الذواقين والذواقات » « ولعن الله كل مزواج مطلاق » ..

ويراجع الرجل نفسه فى حالة الغضب : « لا طلاق

ولا اعتاق فى اغلاق » ولا يقع من السكران أو المكره أو المحرج أو غير الرشيد ..

فاذا وجب وقوعه وجب باحسان ورفق ومروءة : « ... الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا الا يقيما حدود الله .. » . « ... وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » ..

وللمرأة اذا طلقت وهى حامل أن تطالب زوجها بالانفاق عليها حتى تضع حملها « ... وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » .. فاذا وضعت حملها ، فلها أن ترضع ولدها سنتين ، وعلى الرجل أن ينفق عليها طول مدة الرضاع « ... والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لا تكلف نفس الا وسعها . لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » ..

وهذه فى جملتها وتفصيلها خير الحدود التى ترعاها الجماعة البشرية بين الزوجين فى حالى الوفاق والفراق

ونعتقد أن الأمم المتحضرة سترجع الى كثير من مأثورات الزواج فى صدر الاسلام لعلاج بعض المشكلات التى خلقتها أطوار الحياة الصناعية والثقافية فى السنين الأخيرة من العصر الحديث ..

فمن الكتاب والمصلحين فى أوربا وأمريكا من يكتبون عن الزواج فى هذا العصر كأنه نظام منحل أو على وشك الانحلال

ومنهم من يغرب فى آرائه لعلاج مشكلة الزواج حتى يصبح علاجه بمثابة الاعتراف بالمرض والاسترسال فيه

ومنهم من يقول شيئا يجوز النظر فيه ، ومن يقول

شيئا لا يستحق نظرا ولا يرجى الوصول منه الى علاج ولا تمهيد للعلاج ..

فالكاتب الانجليزى «ولز» يشير بولاية الأمة للأطفال ، ويسمى ذلك اعتاقا للأبناء من ربقة الآباء والأمهات . وفى رأى «ولز» هذا رجوع الى رأى افلاطون القديم الذى استحسن فيه ان ينشأ الولد باعين المربين الأفاضل والمربيات الفضليات . وهو لا يعلم من امه ومن أبوه

وآفة هؤلاء المفكرين وأمثالهم انهم يقدرون ان الناس يرتقون من جانب ؛ ويلبثون على الجهل والنقص فى غير ذلك الجانب .. فيقدرون أن الجماعة البشرية تبلغ من التهذيب والفطنة والأريحية والعلم بفنون التربية ان يؤتمن فيها الرجل والمرأة على تنشئة اطفال لا تربطهم بهم صلة نسب ولا قرابة .. الا الآباء والأمهات !.. فانهم سيظلون على هذا الارتقاء العميم غير اهل لأمانة التربية والسهر على الأبناء !.. فلماذا نستثنى الآباء والأمهات وحدهم من فيض الارتقاء العميم ؟.. ولماذا لا يكون الآباء والأمهات الذين شملهم الارتقاء اصلح من غيرهم للتربية مع مزية الحنان المطبوع ومزية العواطف الانسانية التى تخلقها الأسرة ، ولا نعرف لها أصلا فى الانسان غير وشائج القرابة بين الآباء والأبناء والاخوة والأخوات؟

ورأى وزير فرنسى مسموع الكلمة وأديب معروف المكانة بين الأدباء وهو ــ ليون بلوم ــ ان الزواج فى العصر الحاضر علاقة لاينتظم عليها بقاء ، وان الخيانة فيه بين الأزواج ليست مما تغليب عليه العشرة والطمأنينة فى اسرة سعيدة ؛ وليست مما يمتنع بسلطان القانون لاتساع مجال الحيل التى يحتال بها على مخالفته ، وانطلاق الرجال والنساء فى حرية نفسية واجتماعية تستعصى على الحجر والرقابة . فلا مناص للمجتمع

البشرى من الاعتراف بهذه الحالة وتقـديرها فى نظام الزواج . وعنده اننا نعطى هذه الحالة حقها من التقدير اذا أخرنا سن الزواج الى الثلاثين أو ما بعد الثلاثين . وأغضينا عما يجرى قبل ذلك بين الفتيان والفتيات لأنهم خلقاء بعد تجربة اللهو ، واشباع الشهوات منه ، أن يسأموه ويثوبوا الى الحياة الزوجية وهم زاهدون فيه صالحون للوفاء صلاح القناعة والاكتفاء ، وصلاح القدرة على التعاون وتربية الأبناء

والذى يسبق الى الذهن من كلام «بلوم» ان الاباحة وابتذال الشهوات أمر لا يعاب لذاته ، ولا يستنكر فى الذوق والخلق والآداب الاجتماعية ، لولا انه معطـل للزواج أو مخل بأمانة الزوجين . ولكن الواقع ان ابتذال الشهوات مرض معيب يدل على شىء غير سليم فى بنية الفرد ، كما يدل على شىء غير سليم فى بنية الجماعة . فلو لم يكن فى الدنيا زواج أو نظام للأسرة لكانت الاباحة خليقة بالعلاج لذاتها ، كما يعالج كل نقص فى تكوين العقل والارادة واستعداد المرء للعمل الجدى فى الحياة الخاصة والحياة العامة .. وخير لنا من التعويل على سـآمة الفرد للشهوات واللذات أن نعول على سـآمة المجتمع كله لهذه الآفة ، وأن نتخذ من هذه السآمة دليلا على خطأ المبادىء التى تسمح للحرية الفردية أن تنطلق فى العلاقات الجنسـية بغير وازع ولا رقيب ، فنحد من الاختلاط بين الجنسين بعض الحد ونقيم الآداب الجنسـية أو النوعية على أساس غير أساس الحرية المطلقة لآحاد الرجال أو آحاد النساء . وقد نثوب بهذا الى نظام قريب من نظام الآداب القرآنية فى الحجر على كل انطلاق يفسد العلاقة السليمة بين جنس الذكور وجنس الاناث

ومن الفلاسفة المحدثين الذين عرضوا لمسألة الزواج

نابغة انجليزى من نوابغ الرياضة والفلسفة هو «برتراند رسل» الذى اشتهر بالجرأة فى الرأى والاستقلال فى شئون السياسة والدين ..

فهذا الفيلسوف يرى أن سن الزواج قد تأخرت بغير اختيار وتدبير فان الطالب كان يستوفى علومه قبل مائة سنة ، أو مائتين ، فى نحو الثامنة عشرة أوالعشرين.. فيتأهب للزواج فى سن الرجولة الناضجة ، ولا يطول به عهد الانتظار الا اذا آثر الانقطاع للعلم مدى الحياة ، وقل من يؤثر ذلك بين المئات والألوف من الشبان ..

أما فى العصر الحاضر فالطلاب يتخصصون لعلومهم وصناعاتهم بعد الثامنة عشرة أو العشرين ، ويحتاجون بعد التخرج من الجامعات الى زمن يستعدون فيه لكسب الرزق من طريق التجارة أوالأعمال الصناعية والاقتصادية ولا يتسنى لهم الزواج وتأسيس البيوت قبل الثلاثين ، فهناك فترة طويلة يقضيها الشاب بين سن البلوغ وبين سن الزواج لم يحسب لها حسابها فى التربية القديمة. وهذه الفترة هى فترة النموالجنسى، والرغبة الجامحة ، وصعوبة المقاومة للمغريات .. فهل من المستطاع أن نسقط حساب هذه الفترة من نظام المجتمع الانسانى ، كما أسقطها الأقدمون وابناء القرون الوسطى ؟ ..

يقول الفيلسوف ان ذلك غير مستطاع ، واننا اذا أسقطناها من الحساب فنتيجة ذلك شيوع الفساد والعبث بالنسل والصحة بين الشبان والشابات ، وانما الرأى عنده أن تسمح القوانين فى هذه السن بضرب من الزواج بين الشبان والشابات لايؤودهم بتكاليف الأسرة ولا يتركهم لعبث الشهوات والموبقات وما يعقبه من العلل والمحرجات. وهذا ما سماه بالزواج بغيرأطفال (١) وأراد

(١) Childless marriage

أن يكون عاصما من الابتذال ومدربا على المعيشة المزدوجة قبل السن التى تسمح بتأسيس البيوت

وفى قاموس الاسلام الذى ألفه «توماس باتريك هيوز»(١) بحث عن الزواج الاسلامى يقول فيه عن زواج المتعة : « ان هذه الزيجات الموقوتة هى ولاريب أعظم الوصمات فى تشريع محمد الأخلاقى ، ولن تقبل المعذرة بحال من الأحوال » ..

وزواج المتعة هذا ضرب من الزواج الموقوت يروى عن النبى عليه السلام انه أذن به فى احدى الغزوات للصحابة الذين انقطعوا عن أوطانهم وطالت غيبتهم عن بيوتهم . ثم اختلفت الروايات فى تحريمه ، وقال بعض الفقهاء من الشيعة على الأكثر انه مباح الى الآن لبعض الضرورات

قلنا ونحن نقرأ تعقيب مؤلف القاموس على زواج المتعة ، لقد كان من النافع للرجل أن يعيش حتى يرى فيلسوفا من أكبر فلاسفة قومه يدرس مشكلة الجنسين فى الحضارة الحديثة درس الفلاسفة المحققين، فلا يهديه الرأى فيها الى حل غير زواج المتعة أو ما هو من قبيله.. فقد كان خليقا به اذن أن يتهيب مشكلة الجنس والأسرة قليلا من التهيب ، وأن يدرك ـ مكرها أو طائعا ـ انها ليست باللعبة التى يلعب بها المتطلعون الى سمعة اللطافة والفروسية المصطنعة فى الأندية والمحافل ، وان مشكلات النوع الانسانى الضخام قد تلجىء أساتذة العصر الى مقام المتعلمين من أبناء العصور الماضية ، فيتعلمون ان الحذلقة أسهل شىء على طلاب المظاهر وأدعياء اللطافة ، ولكنها سهولة لن تنفع البشر فى المعضلات الصعاب ، التى تتجدد مع الزمان وتستفحل على تعاقب الأجيال..

---

(١) Hughes

الميراث

أثبت القرآن الكريم نظام المواريث بتفصيلاته لجميع ذوى القربى ، واعتبر الارث حقا مشروعا للوارث لايجوز حرمانه منه بحيلة من حيل التهريب ..

واجماع المفسرين منعقد على ذلك ، لم يخالفهم فيه الا فئة من فقهاء « الظاهرية » قالوا بمنع ميراث الارض خاصة ، واباحة الميراث من العروض والأموال، لاعتقادهم ان الارض لله : « ... انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون » ..

ولكنه تفسير يخالفهم فيه جملة الفقهاء من جميع المذاهب ، لأن كون الارض لله لا يمنع أن يرثها الصالحون من عباده : « ... يورثها من يشاء » .. « ... ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون » . فهى ومن عليها لله : « ... ولله ميراث السموات والارض » .. وهذا هو المعنى المقصود بميراث الله لكل ما فى الكون ، وليس المقصود به منع أجزاء من الارض أن يملكها آحاد من الناس ..

والميراث حق وعدل ومصلحة من وجوه كثيرة .. أقواها فى رأى المدافعين عن نظام التوريث انه نظام لاينفصل عن نظام الأسرة ، وان الأسرة دعامة من أكبر دعائم الاجتماع .. لا تنعقد ثم تنفرط مرة فى كل جيل ،

بل هى وحدة تناط بالدوام ..

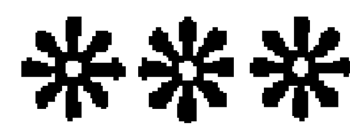
ومن الواضح أن الأسرة هى منبت العواطف الانسانية فى المجتمع على اتساعه ، وان الصلة التى بين الآحاد فى الأمة لا تغنى عن وشائج اللحم والدم بين الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأخوة وبنى العمومة والخئولة.. فان «المجتمع» فى نطاقه الواسع «كم مبهم» فى نظر كل فرد من أفراده ، وانما الصلة العاطفية بين الأفراد هى صلة النسب والقربى فى هذه « الخلية » التى تتركب منها بنية كل قبيل وكل جمهور كبير ..

فالمجتمع الذى يجعل العلاقة بين الوالد والولد كالعلاقة بين كل فرد وكل فرد آخر ، أقل ما يقال فيه انه مجتمع «غير طبيعى» وغير متماسك الاجزاء . ومهما يقل القائلون عن واجبات الأمة على الفرد ، فلن تكون هذه الواجبات أقوى ولا ألزم من واجبات النوع على أفراده. وهى مع هذا الوجوب لم تفرضها الطبيعة على الفرد الا من طريق استهوائه بلذته وعاطفته ومصلحته التى تمتزج بمصالح ذويه . فليس للاجتماع أن يدعى لنفسه من القدرة على تسخير أفراده دعوى تعجز عنها الطبيعة التى يتكون منها اللحم والدم والحس والعاطفة .. فانما هو ادعاء لا محصل له غير الألفاظ الجوفاء

ومن الاجتماعيين من ينكر الميراث ، وينكر الأسرة معه ، لأنهما يغريان بتضخم الثروة وتحكم رءوس الأموال فى جهود العاملين ..

ولكن هؤلاء الاجتماعيين يترجمون المسألة كلها بلغة المال ، ويقفون عندها ، فلا يتجاوزونها الى لغة الحياة أو الدوافع الحيوية • وهى لو ترجمت بهذه اللغة لكان معناها ان الفرد يأتى بغاية ما يستطيع حين يعمل للأسرة وينظر الى توريث أبنائه ، ولا يكتفى من العمل بأدنى

حدود الكفاية أو بأيسر ما يتيسر فى حدود الطاقة . ومعنى ذلك أيضا انه سيخصص قريحته وجهده وكفاءته الى الغاية التى يقوى عليها ، وانه لا يحسب قواه العقلية والنفسية حساب الشح والضنانة بل حساب السعة والسخاء . فيعمل أضعاف ما يعمل بغيرهذه الوسيلة ، ويفكر أضعاف ما يفكر ، ويحس أضعاف ما يحسه وهو يقبض على ذخائر قواه فى وجه العالم كله فلا ينفق منها الا بمقدار ما يعنيه فى سنوات عمره ، وليس هذا بالخسارة على العالم ولا عليه .. ولكنه ربح للحياة الانسانية كلها ، وليس بالربح المقصور على الورثة أو الموروثين ..



واذا قيل ان هذا المال يؤخذ من المجتمع ليتحول الى أفراد منه ، فالذين يقولون ذلك يتخيلون ان الأسرة تخرج بميراثها من البيئة الاجتماعية التى تعيش فيها لتنقطع به فى عزلة عن تلك البيئة المغصوبة ، وينسون ان الميراث يبقى فى المجتمع كماكان . . فان أحسن أصحابه تدبيره صرفوه فى وجوه نافعة ، وان أساءوا خرج من أيديهم وآل على الرغم منهم الى حيث ينبغى أن يؤول

أما تضخيم الثروة فقد يعالج بوسائل شتى غير وسيلة القضاء على نظام الأسرة ونظام التوريث . وما من شريعة تحول بين المجتمع وبين فرض الضرائب على التركات بالمقدار الذى يراه ، فيأخذ المجتمع نصيبه المقدور ، ولا ينزع من الأفراد حوافز العمل التى يعملون بها كأحسن ما يعملون ..

وللميراث جانب من العدل الطبيعى ، كما ان له هذا الجانب من الحق والمصلحة .. لأن الولد يأخذ من أبويه ما حسن وما قبح من الصفات والطبائع ، ويأخذ منهما

ما فيهما من استعداد للمرض والخلائق المرذولة. وليس فى وسع الأمة أن تحميه من هذه الوراثة الطبيعية التى لا تفارقه من مولده الى مماته ، فليس من العدل أن تدع له هذا الميراث وتنزع منه ميراث المال . وهو مفضل فيه على غيره ، ولا يتساوى فيه مع أبناء القاعدين عن الكسب والادخار ..

هذا نظام يوافق حركة السعى والنشاط فى الجماعات البشرية ، ولا يعوقها عن التقدم الذى تستحقه بسعيها ونشاطها .. بل يرجع اليه الفضل أكبر الفضل فيما بلغته من الحضارة والارتقاء . ولو عمل الناس لأنفسهم منذ القدم آحادا متفرقين ، ولم يعملوا كما عملوا أسرا متكافلات لما بلغوا شيئا مما بلغوه اليوم من أطوار المعاش وآداب الاجتماع ، ولا مما بلغوه من المعارف والصناعات ، ولا مما بلغوه من العواطف المشتركة ومقاييس العرف والشعور

وقد نظر القرآن الى الميراث فى نطاق أوسع من هذا النطاق ، وهو نطاق الميراث الذى تتلقاه الأجيال عن الأجيال ، أو الأعقاب عن الاسلاف ..

فأنكر من هذا الميراث ما يعوق التقدم ويحجر على العقول ويقيم العادات و « التقاليد » سدا بين الانسان وحرية الفكر والارتياء ..

ولم ينكر القرآن شيئا كما أنكر الاحتجاج بالعادات الموروثة لمقاومة كل جديد مستحدث ، فى غير تمييز ولا تبصر ولا موازنة بين الجديد المستنكر والقديم المأثور . وكان أشد هذا الانكار « للمترفين » الذين يتخذون من عراقة البيوت حجة للبقاء على ما ألفوه ودرجوا عليه :

«... وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم

مقتدون ، قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجـدتم عليه آباءكم ؟.. قالوا انا بما أرسلتم به كافرون » ..

***

«... واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » ..

«... واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباؤنا والله أمرنا بها قل أن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون » ..

***

ولما استحسن اتباع الآباء استحسنه لأنه تمييز بين عقيدة خاطئة وعقيدة أكرم منها وأحرى بالاتباع :

«... انى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » ..

***

واذا كانت شريعة الميراث تحمى الأسرة ولا تحجر على حرية الأجيال فهى على هذا أصلح ما تصلح به الجماعات البشرية من نظام

الفصل الرابع

الأسر أو الرق

مضى على انتهاء الحرب العالمية اكثر من سنتين ، ولا تزال الدول الغالبة توالي البحث فى مسألة الأسرى ، وتحاول أن تشرع لهم نظاما جديدا يوافق العلاقات الانسانية التى تقررها بين الغالبين والمغلوبين وبين الأمم كافة على التعميم ..

ولاتزال اخبارالأسرى ومحاكماتهم تتردد فى الصحف، وتنقلها الأنباء البرقية احيانا كأنها من المألوفات التى لا تحتاج الى تعليق ..

ومن تلك الأخبار أن الأسرى من أبناء الامم المغلوبة ينقلون بالالوف وعشرات الالوف من بلادهم الى بلاد الامم الغالبة أو مستعمراتها وتوابعها حيث يعيشون هناك فى المعتقلات عيشة الأرقاء السجناء ، ويسامون العمل فى تعمير الخرائب واصلاح الارض الموات وادارة المصانع التى يعملون فيها بالكفاف أو بما دون الكفاف ، ولا يؤذن لهم فى أثناء ذلك بحرية الاقامة أو حرية الانتقال ..

ومن تلك الأخبار محاكمة بعض الأسرى المسئولين عن سوء معاملة الشعوب التى كانوا يحكمونها ، أوالقسوة على من كان فى حراستهم من الأسرى التابعين للأمم الغالبة ، وفى بعض التهم التى يحاكمون من أجلها انهم ازهقوا بقسوتهم أو بسوء معاملتهم مئات وآلافا من

الابرياء الذين لا ناصر لهم ولا يعزى اليهم ذنب يلامون عليه غير وقوعهم فى الأسر والقائهم سلاح القتال فى الميدان . وقد حكم على بعض أولئك المتهمين بالموت أو بالسجن آمادا طوالا لثبوت التهمة عليهم بمختلف أدلة الثبوت ..

يقع هذا فى أعقاب حرب عالمية يراد على آثارها تصحيح الآداب الانسانية فى معاملة الاسرى والمغلوبين ، ويعترف الساسة والمفكرون بضرورة هذا التصحيح من وجهة النظر الى الواجب والمروءة ، ومن وجهة النظر الى المصلحة العالمية ، لتحسين العلاقات بين أمم الحضارة وتدبير الوسائل التى تمنع تجديد الحروب وتتكفل بمحو آثارها من النفوس واستلال الضغائن التى تثيرها بين الموتورين والمنكوبين ..

وهذا غاية ما وصلت اليه المساعى فى مسألة الأسرى بعد ألفى سنة من عصر المسيحية الأولى ، وبعد التفاهم على ضرورة النظر فيها من جديد على ضياء المصلحة العالمية وعلى قواعد الآداب الانسانية التى تجمل بعهد الحضارة ورجاء البشر فى التقدم والسلام ..

على ان النظرة العقلية أو الروحانية التى نظر بها حكماء الغرب ومصلحوه عند نشأة الفلسفة ، أو نشأة الدين ، أو نشأة البحث المجرد فى الحكومة المثالية ، لم تسبق هذه النتيجة الواقعية بشىء كثير، ولو من قبيل النصح والاستحسان والمحاولة التى تجدى كثيرا أوقليلا فى السعى الى الكمال ..

فالفيلسوف « افلاطون » قد اعتبر نظام الاسترقاق نظاما ملازما للجمهورية الفاضلة او للحكومة الانسانية فى مثلها الأعلى ، وحرم على الرقيق حقوق « المواطنة » والمساواة . وقضى على الرقيق الذى يتطاول على سيد

غريب غير سيده بتسليمه الى ذلك السيد للاقتصاص منه على هواه ، ولا يجوز فكاكه من العقوبة الا بمشيئته ورضاه. واذا وجبت الرحمة بالرقيق فانما تجب الرحمة به من قبيل الترفع عن الاساءة الى مخلوق حقير لايحسن بالسيد أن يهتم بالاساءة اليه ..

والفيلسوف «ارسطو» جعل الرق نظاما من الأنظمة اللازمة لطبائع الخليقة البشرية .. فلا يزال فى العالم أناس مخلوقون للسيادة ، وأناس مخلوقون للطاعة والخضوع ... وحكمهم فى ذلك حكم الآلات « الحية » التي تساق الى العمل ولا تدرى فيم تساق اليه. وغاية ما أوصى به أن يتفضل السادة بتشجيع هذه الآلات على الترقى من منزلة الآلة المسخرة الى منزلة الآلة المتصرفة ، كلما بدت منها بوادر الفهم والتمييز ..

***

ولما ظهرت المسيحية فى بلاد اليونان كتب القديس بولس الى أهل « أفسس » رسالة يأمر فيها العبيد بالاخلاص فى اطاعة السادة ، كما يخلصون فى اطاعة السيد المسيح . وكان الحوارى بطرس يأمر العبيد بمثل هذا الأمر ، وجرت الكنيسة على منهجه ، وقبلت نظام الرق وزكاه الفيلسوف «توما الاكوينى» أكبر حكماء الكنيسة لأنه أخذ فيه بمذهب أستاذه ارسطو ، وزاد عليه أن القناعة بأبخس المنازل من المعيشة الدنيوية لا تناقض فضائل الايمان ..

ولابد من المقابلة بين تلك النتائج العملية وتلك التقديرات الفلسفية وبين أحكام القرآن فى مسألة الرق ، لبيان كسب الانسان الذى بلغته الحضارة البشرية من تقرير تلك الأحكام ، لغير ضرورة توجبها دواعى الاقتصاد أو دواعى السياسة فى مأزق الحروب الكبرى ..

فالقرآن قد أباح استخدام الأسرى ، لأن الاسر حالة لابد من دخولها فى الحساب ما دامت فى الدنيا حروب ، وما دام فيها غالب ومغلوب .. ولكنه حث المسلمين على فك الأسرى كرما ومنا ، أو قبول الفدية من أوليـائهم أو منهم ، ومعاونتهم على تيسيرها كلما استطيع التيسير: « ... فاما منا بعـد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .. «... والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ..

وأوصى بالاحسان الى الأرقاء ، كما أوصى بالاحسان الى الوالدين وذوى القربى فى آية واحدة : « وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لايحب من كان مختالا فخورا »

وقد تمم الاسلام هذه الأحكام ــ كما بينا فى كتاب « داعى السماء » ــ « فجعل الاعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئات ، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات واطعام المساكين » .. وكانت وصية النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين قبل وفاته : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وتكررت منه عليه السلام فى أحاديثه حتى قال فى بعض الأحاديث : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم » ... وتجاوز الاشفاق عليهم من الكلمة الجارحة ، فكان عليه السلام يقول : « لا يقل أحدكم عبدى أمتى.. وليقل فتاى وغلامى » أما ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل فهو ذنب كفارته العتق ، أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه» فاذا قتله فهو يقتل به فى قول أشهر الفقهاء ..

ان الباحثين الاجتماعيين من الأوربيين انفسهم قد عللوا حركة التحرير ــ تحرير الأرقاء ــ بعلل كثيرة من ضرورات « الاقتصاد » .. فذكروا ان المطالبين بتحرير الرقيق لم يفعلوا ذلك الا احتيالا على الكسب ، ومنعا للمنافسة التجارية التي تيسر لأصحاب العبيد ومسخريهم فى الصناعات أرباحا لا تتيسر لمن يستأجرون الأحرار ويبذلون لهم ما يرتضونه من الأجور . ولم تزل معاملة السود فى أمريكا الشمالية ــ بعد تحريرهم من الرق ــ أسوأ معاملة يسامها بنو آدم فى هذا الزمان . وذلك بعد أن دان المسلمون اربعة عشر قرنا بشريعة المساواة بين الأجناس ، وعلموا أن فضل العربى القرشي على العبد الحبشي انما هو فضل التقوى والصلاح دون فضل العصبية واللون ..

ولم يأخذ الاسلام اتباعه بهذا الكرم المحض مجاراة لضرورات الاقتصاد ، بل اخذهم به على الرغم من تلك الضرورات ، وعلى الرغم من شح الأنفس بالأموال وما تملك الايمان .. وتلك هى مزية الاسلام الكبرى في السبق الي هذا الأدب الرفيع ..

العلاقات الدولية

من المستحسن فى كتاب عن عقيدة الجماعة الاسلامية أن نلم بأصول الأدب التى يتعلمها المسلمون من كتابهم فى معاملاتهم مع الأمم الاخرى ..

ولباب ما يقال فى هذا الصدد أن المعاملات الدولية كلها تقوم على العهود والوفاء بها وخلوص النية فى التزامها

وقد أوجب القرآن الكريم على المسلمين الوفاء بعهودهم فى كثير من الآيات فقال : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » . وذكر صفات المؤمنين ثم قال : « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ... » وجعل الخروج من فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الانسانية كلها حيث قال جل شأنه : « أن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون . فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين »

وقد غدر المشركون غير مرة بعهودهم كما جاء فى الآية ، فلم يكن ذلك موجبا لسقوط العهد مع من استقام منهم على عهده ، كما بينت هذه الآيات : «كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ . الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان

الله يحب المتقين . كيف وان يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم الا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون » ..

على ان القرآن الكريم يأمر المؤمنين به أن يعاملوا الخائن بمثل عمله ، ولا يتعدوه الى الجور والتنكيل ، ويزين لهم الصبر اذا آثروه على العقاب : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ..

وقد غدر بعض المشركين بصلح الحديبية ـ وهو المقصود بالعهد « عند المسجد الحرام » ـ فلم يبطل النبى عليه السلام عهد سائرهم ، ولم يقبل عنده قرشيا مشركا يجيئه فى أثناء قيام العهد عملا بما اتفق عليه المسلمون والمشركون . قال أبو رافع مولى رسول الله : « بعثتنى قريش الى النبى صلى الله عليه وسلم فلما رايت النبى وقع فى قلبى الاسلام . فقلت : يارسول الله لا أرجع اليهم . قال : انى لا اخيس بالعهد ، ولا احبس البرد . ولكن ارجع اليهم ، فان كان فى قلبك الذى فيه الآن فارجع »

بل روى فى الوفاء بالعهد ما هو أكثر من ذلك ، لأنه عهد بين آحاد فى مثل حالة الاكراه ، كما جاء فى حديث حذيفة بن اليمان حيث قال : « ما منعنى أن أشهد بدرا الا أننى خرجت أنا وأبى الحسيل فأخذنا كفار قريش ، فقالوا : انكم تريدون محمدا . فقلنا : ما نريده . وما نريد الا المدينة . فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننطلق الى المدينة ولا نقاتل معه . فأتينا رسول الله فأخبرناه الخبر فقال : انصرفا نفى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم »

وقد أوجب القرآن الكريم اتمام العهود الى مدتها ،

ان كانت موقوتة بأجل متفق عليه. وأوجب اعلان بطلانها متى صحت النية على ابطالها ..

« واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ان الله برىء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم . وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم . ان الله يحب المتقين »

ولا نعرف اشاعة أكذب من قول القائلين ــ جهلا منهم أو تجاهلا بالقرآن الكريم ــ ان الاسلام دين سيف ، وان العلاقة بينه وبين الأمم علاقة حرب وقتال

فان شريعة القرآن لم تضع السيف قط فى غير موضعه ، ولم تستخدمه قط حيث يستغنى عنه بغيره.

وقد نشأت الدعوة الاسلامية بين أقوام يحاربونها ويكيدون لها ويصدون الناس عنها . وأمر المسلمون بقتال من يقاتلونهم فى غير عدوان ولا شطط : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

وكانت جزيرة العرب جزيرة بالمعنى السياسى ــ لا بالمعنى الجغرافى وحده ــ اذا نظرنا الى الدول التى أحدقت بها فى عهد الدعوة الاسلامية ، وتربصت بها الدوائر للايقاع بالدعوة ودعاتها فى ابان نشأتها . وكان على رأس تلك الدول أصحاب السلطان الذين يصدون عن سبيل الله ذيادا عن عروشهم ، واستئثارا بمنافعهم واطالة فى أمد سلطانهم ، ولا يرجعون فى ذلك الى الحجة والبيان بل الى السيوف والرماح . فاذا حورب هؤلاء فانما يحاربون بسلاحهم ولا يحاربون بالجدل والبينة الحسنة .. السيف للسيف ، فاذا انكسر سيف السلطان بقى

رعايا الدول أحرارا فيما يختارون لأنفسهم من دين آبائهم أو من الدين الجديد : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم »

فمن اختار الدين الجديد ، فهو مسلم كالمسلمين فيما له وفيما عليه . ومن بقى على دين آبائه ، فليس عليه غير ضريبة المحكوم للحاكم . ويمنعه الحاكم بعد ذلك مما يمنع منه المسلمين ، ويحميه كما يحميهم ، ويعوله كما يعولهم ثم لا يطلب منه جهاد ولا ذياد كما يطلب من المسلمين ..

« قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »

ولم يقل الكتاب قاتلوهم حتى يسلموا كرها ان كانوا لا يسلمون .. وكل ما هنالك من حكم السيف انه قد ابطل حكم السيف الذى لايدين بالحجة ولا بالرأى وترك الناس لضمائرهم يدينون بما اختاروه من دين ..

ولو اننا رجعنا الى حروب العقائد من الوجهة العملية ، لوجدنا ان أصحاب الأديان الاخرى قد شنوا على غيرهم من الحروب « المقدسة » أضعاف ما أثر عن تاريخ الاسلام . وقد رأينا فى عصرنا هذا من دعاة الاصلاح من يؤلب الأمم على حرب كل حكومة تدين بمبادىء الطغيان فى الحكم ولا تؤمن بمبادىء الحكم والشورى . ومن لم يسمع هذه الدعوة باختياره سمعها على قسر واضطرار ، كما حدث فى الحروب بين بلاد الفاشية والنازية وبين المنكرين لقواعد الحكم فى تلك البلاد

وعلاقات الحرب بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم

هى أرفع معاملة عرفت فى عصور الحضارة الانسانية : أمن الطريق ، وامان الوادعين المسالمين ، وفتح المسالك للأرزاق والذهاب والمآب ، وتنظيم ذلك كله بالعهود والمواثيق ، مع حث المسلمين على رعايتها ، ومسامحة الغادرين فى غدرهم اذا أمنوا العاقبة ولم تلجئهم الضرورة الى مقابلة الغدر بمثله ، دفعا للهلاك وصونا للحدود والحرمات

وقد سبق الاسلام أمم الحضارة الحديثة الى كل خير فى معاملة الأسرى والرسل والجواسيس ..

فالأسير يفتدى ، والرسول لايخشى على نفسه وماله ، والجاسوس يعاقب بعقابه المصطلح عليه فى كل زمان ، ويعفى عنه اذا حسنت نيته واعتذر من عمله بعذر مقبول

جاء ابن النواحة وابن آثال ، رسولا مسيلمة ، الى النبى فقال لهما : أتشهدان انى رسول الله ؟.. قالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال رسول الله : آمنت بالله ورسوله . ولو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما . فمضت السنة بتأمين الرسل والبرد

وروى على رضى الله عنه قال : « بعثنى رسول الله أنا والزبير والمقداد بن الأسود .. قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة ، ومعها كتاب ، فخذوه منها . فانطلقنا تتهادى بنا خيلنا حتى انتهينا الى الروضة ، فاذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى من كتاب !.. فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة الى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله . فقال رسول الله : ياحاطب !.. ماهذا ؟.. قال : يارسول الله لا تعجل على ، انى كنت امرءا ملصقا

فى قريش ، ولم أكن من انفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم . فأحببت اذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي . وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا ولا رضي بالكفر بعد الاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد صدقكم . فقال عمر : يارسول الله !.. دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال : انه قد شهد بدرا . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ... »

فقوام المعاملات كلها فى هذه العلاقات على الرفق ما امكن الرفق ، ثم على القوة المنصفة لاتقاء ما لا يتقى بغيرها

وعلى مثل هذه المعاملة تصلح العلاقات بين الأمم والحكومات .. وفيها كل ما يهيىء الأسباب للوحدة العالمية بين الناس كافة ، وهم الذين يعمهم القرآن الكريم بالخطاب ولا يخص المسلمين وحدهم حين يقول : «... يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ان الله عليم خبير » ..

وليس من مانع يعوق الوحدة العالمية عند أصحاب دين يصدقون الرسل جميعا ، ويعتبرون الناس كلهم أمة واحدة كما جاء فى القرآن الكريم : «... شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ».. «... يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم . وان هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون ... »

العقوبات في القرآن

من المبادىء المتفق عليها فى عصرنا ان الجريمة فساد فى نفس المجرم ، وان العقوبة اصلاح له أو وقاية للمجتمع من فساده ، وان مصلحة المجتمع مقدمة على مصلحة الفرد ، ولكن لا تغفل مصلحة الفرد فى سبيل مصلحة المجتمع الا اذا كانت احدى المصلحتين معارضة للأخرى ، وان القصاص مصلحة اجتماعية ، وان تأويل الشبهة انما يكون لمصلحة المتهم ، فلا يدان المتهم اذا وقع الشك فى أدلة الادانة

وهذه المبادىء كلها مسلمة فى شريعة القرآن .. فلا وزر على القاصر ، ولا على المكره ، ولا على المجنون ، ولا وزر على من تاب وصلح على التوبة ..

« ... ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » ..

وفى كل ذلك تدرأ الحدود بالشبهات ..

***

والعقوبات فى الاسلام قسمان : قسم التعزير، وقسم الحدود ..

فالتعزير يتناول الزجر والغرامة والحبس والجلد دون مقدار الحدود . قال الامام ابن تيمية فى رسالته من الحسبة : « منها عقوبات غير مقدرة ، وقد تسمى التعزير، وتختلف مقاديرها وصفاتها بحسب كبر الذنوب

وصفرها ، وبحسب حال المذنب ، وبحسب حال الذنب في قلته وكثرته .. والتعزير أجناس ، فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ، ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن ، ومنه ما يكون بالضرب ... والتعزير بالعقوبات المالية مشروع أيضا فى مواضع مخصوصة فى مذهب مالك فى المشهور عنه ، ومذهب احمد فى مواضع بلا نزاع ، وفى مواضع فيها نزاع ، والشافعى فى قول وان تنازعوا فى تفصيل ذلك كما دلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل اباحته سلب الذى يصطاد فى حرم المدينة لمن وجده .. ومثل تضعيفه صلى الله عليه وسلم الفرم على من سرق من غير حرز.. ومثل اخذ شطر مانع الزكاة ... ومن قال ان العقوبات المالية منسوخة ، وأطلق عن أصحاب مالك وأحمد فقد غلط على مذهبهما ، ومن قال مطلقا عن أى مذهب كان ، فقد قال قولا بلا دليل » ..

اما الحدود فهى فى عقوبات العيث بالفساد والقتل واتلاف الجوارح والاعضاء ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ..

فالقاتل يقتل .. وشريعة القرآن الكريم فى ذلك قائمة على أمتن الأصول ، وهو صيانة البشر جميعا ، لأن القاتل يعتدى على الحياة الانسانية كلها ولا يقع عدوانه على نفس المقتول وحده ..

«... من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »

والذين يعيثون فى الارض فسادا « فيحاربون » ويحملون السلاح ويأخذون على الناس سبلهم ، ويقتلونهم طمعا فى أموالهم أو أعراضهم فجزاؤهم القتل والصلب

أو ما دونه اذا سلبوا ولم يقتلوا : « ... انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفـوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم »

وقال الحسن البصرى وسعيد بن المسيب ومجاهد ــ وقال ابن عباس فى رواية ــ ان « أو » هنا للتخير ، اى ان الامام ان شاء قتل وان شاء قطع الأيدى والأرجل ، وان شاء نفى

والنفى عند ابى حنيفة وكثير من المفسرين والفقهاء هو العزل او الحبس ، ولا يلزم منه الاقصاء الى بلد آخر .. لأن هذا البلد الآخر ان كان دار اسلام ، فحكمه وحكم كل بلد اسلامى سواء ، وان كان دار كفر فالنفى اليه حمل على الارتداد ..

ويجزى القتل بالقتل واتلاف الاعضاء بمثله ..

« ... وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له »

ومعنى التصدق به العفو من ولى الدم ، وهو كفـارة عن اقامة الحد ، ولكنه لايمنع ولى أمر المسلمين عن تعزير الجانى ومعاقبته بما يرى فيه صلاحا له وصلاحا للأمة . ويشمل هذا التعزير ــ كما تقدم ــ حكم السجن وحكم الجلد وحكم الغرامة

أما السرقة فحكمها فى هذه الآية من سورة المـائدة ايضا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه أن الله غفور رحيم . »

واجمال الآية هنا فيه مجال لتفصيل يتناول هذه الأمور :

« أولا » ـ ما هى السرقة ؟.. وما هو المسروق ؟.. وهل حكم المسروق المحروز كحكم المسروق غير المحروز؟ المتفق عليه ان السرقة لا تسمى بذلك الا أن تكون فيها مسارقة لعين المالك على شيء هو محل الشح والضنة..

« ثانيا » ـ من هو السارق ؟.. هل هو من يسرق مرة واحدة ، أو من تعود السرقة ؟.. فان كلمة الكاتب مثلا لا تطلق على كل من يكتب ويقرأ ، وانما تطلق على من تعود الكتابة وأكثر منها . والاشارة الى النكال والى عزة الله فى الآية الكريمة قد تفيد معنى الاستشراء والاستفحال الذى يقضى بالنكال

وايا كان القول فى المقصود بالسارق فى الآية الكريمة ، فالتوبة والاستصلاح تعفيان من اقامة الحد ، ويوكل الأمر فيهما الى الامام فى رأى جملة الفقهاء ..

« ثالثا » ـ ما هو المسروق ؟.. وما مقداره ؟..

وقد روى عن النبى عليه السلام انه قال : « لا قطع الا فى ثمن المجن » وانه « لا قطع الا فى ربع دينار » وربع الدينار وثمن المجن محل اختلاف بين العلماء فى التقدير على حسب البلدان والأوقات ..

وايا كان المقدار المسروق فالأئمة : أبو حنيفة ، والثورى ، واسحاق ، يقولون بأن من يسرق شيئا يلزم غرمه ، ولا يجمع بين القطع والغرم فان غرم فلا قطع ، وان قطع فلا غرم ..

وقد اعتبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان الاضطرار من الاكراه الذى يعفى من الحد ، ان كان لا يعفى من التعزير ، فلم يقم الحد على غلمان حاطب بن أبى بلتعة ، لأنهم سرقوا فى عام المجاعة

« رابعا » ــ ما هى اليد التى تقطع ؟.. هل هى الكف أو الأصابع أو اليد اليمنى أو اليسرى ؟ ..

والاختلاف على هذا المعنى قليل بين الفقهاء ..

***

أما الزنا فعقوبته على المحصنة والمحصن مائة جلدة :

« ... الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »(١)

وتثبت جريمة الزنا بشهادة أربعة عدول مجتمعين ، فان تخلف واحد منهم بطلت شهادة الآخرين . ولا يقام الحد الا اذا شهدوا جميعا بوقوع الفعل لابمجرد الشروع فيه ، ولا حد على من لم يبلغ الحلم ولم يدن بالاسلام . ولا حد كذلك مع قيام الشبهة . وعلى القاضى لدفع كل شبهة فى الاكراه أن يراجع المقر بالزنا أربع مرات ، وأن يستثبت من وقوع الزنا فيسأله : لعلك قبلت ؟.. لعلك عانقت ؟.. لعلك لمست ؟.. حتى يصر على الاقرار بعد تكرار المراجعة والسؤال .. فان عدل عن اقراره سقط عنه الحد ، وجاز أن يعاقب بالتعزير

***

وقد نهى الاسلام عن الخمر ، وجاء فى القرآن الكريم جوابا لمن يسألون عنها وعن القمار : « ... يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » وشمل حكم النهى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فى سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل

(١) هذا ماورد فى القرآن الكريم وهو موضوع هذا الكتاب « الفلسفة القرآنية » ويرجع الى تفصيلات هذا الحكم فى كتب الاحاديث وكتب الفقه

الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضــــاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ؟ »

والمتفق عليه منذ صدر الاسلام ان عقوبة شرب الخمر ثمانون جلدة ، ويقام الحد اذا شــهد على الشــارب شاهدان عدلان وأخذ ورائحة الخمر تفوح من فمه ، وانتفت كل شبهة فى تعاطيها خطأ أو للعلاج

***

وفيما أحصـــيناه هنا أسس العقوبات فى الشريعة القرآنية ..

ولا يخفى ان الشرائع الدينية تستمد ســلطانها من مصدر أكبر من مصدر الأمة أو ولاة الأمر فيها ، لانها تستمده من أمر الله ..

ولكن مباديء التشريع التى تقوم على مصلحة الأمة لا تعارض مباديء الاسلام التى عمل بها المسلمون أو يمكن أن يتفق على العمل بها ..

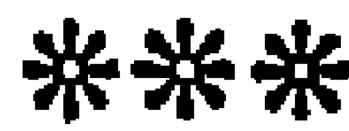
فالامام هو المسئول عن اقامة الحدود والأخذ فيها بالتشديد أو التخفيف ، ولكنه مسئول أمام الجماعة ، واجماع المسلمين مصدر من مصادر التشريع ..

والعقوبات القرآنية تكفل للمجتمع حاجته التي تغنيه من العقوبة ، وهى قيام الوازع ورهبة المحذور .. ولكنها لا تحرم الفرد حقا من حقوقه فى الضمان الوثيق والفرصة النافعة . وأول ضمان للفرد فيها شدة التحرج فى اثبات التهمة ، وتأويل الشبهة لمصلحته فى جميع الأحوال ، وتمكينه من الصلاح والتوبة اذا كان فيه مستصلح ومتاب

واذا خيف أن يؤدى التشدد فى حماية الفرد الى اسقاط العقوبات والاجتــراء على المحظورات ، فالامام موكل بالنظر فى منع تلك المحظورات من طريق الزجر والتعزير.

وقد تقدم أن التعزير يتناول الحبس والضرب والغرامة المالية ، ويعاقب به فيما دون الحدود

وقد يرى الامام ان اجتماع الشهود الذين يثبتون التهمة غير ميسور فى بعض الأزمنة ، اما للخوف والتحرج أو لشيوع الباطل والزور ، أو لاختلاط المسلمين بغير المسلمين أولاتخاذ الأماكن التى تدارى فيها المحظورات ، أو لغير ذلك من الأسباب .. فان راى ذلك ورأى أن الاعفاء من الحد مضرة ومفسدة ، فله أن يجمع بين ضمان الامة وحمايتها وبين اعطاء الفرد حقه من الضمان ، والحماية ، فيعاقب بما يراه صالحا للأمرين من ضروب التعزير



وأيا كان القول برعاية الحرية الشخصية فى فرض العقوبات ، فليس فى وسع غال من غلاتها أن يقطع بأن مسألة الزنا أو مسألة السكر من المسائل الفردية التى يترك فيها الامر كله لآحاد الناس • ففى الزنا والسكر مساس بقوام الأسر وأخلاق الجماعة ، وسلامة الذرية لا مراء فيه . ومتى بلغ من الزانى أن يشهده أربعة شهود عدول ، وبلغ من السكير أن يصل الى القاضى بين شاهدين عدلين والخمر تفوح من فمه ، فليست هنا مسألة فرد يفعل ما يحلو له بينه وبين نفسه ، ولكنها مسألة المجتمع كله فى كيانه وأخلاقه وأسباب الأمن والطمأنينة فيه ، وقد تبدو من هذا حكمة من حكم الشرائط التى اشترط الشرع الاسلامى توافرها ، لاقامة الحدود العلنية بين الناس

وننتهى من ذلك كله الى نتيجتين يقل فيهما الخلاف حتى بين المسلمين وغير المسلمين ، وهما : ان قواعد العقوبات الاسلامية قامت عليها شئون جماعات من البشر

آلاف السنين ، وهي لا تعاني كل ما تعانيه الجماعات المحدثة من الجرائم والآفات ، وان قواعـــد العقوبات المحدثة لم تكن تصلح للتطبيق قبل ألف سنة ، وكانت تنافر مقتضيات العصر في ذلك الحين ، ولكن القواعد القرآنية بما فيها من الحيطة والضمان ومباحات التصرف الملائم للزمان والمكان ، قد صلحت للتطبيق قبل ألف سنة ، وتصلح للتطبيق في هذه الأيام ، وبعد هذه الأيام

الفصل الخامس

العقيدة الإلهية

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » ..

« هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم »

« كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون »

« خالق كل شيء »

« وكان الله على كل شيء قديرا »

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »

« والله بصير بما تعملون »

« الا انه بكل شيء محيط »

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »

« والله غفور رحيم »

« ليس كمثله شيء »

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »

***

فى هـذه الآيات القرآنية مجمل العقيدة الالهية فى الاسلام ..

وهى اكمل عقيدة فى العقل
وهى اكمل عقيدة فى الدين ..

خالق واحد ، لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شىء ، عليم بكل شىء ، محيط بكل شىء ، وليس كمثله شىء ..

وعالم مخلوق ، خلقه الله ، ويرجع الى الله ، ويفنى كما يوجد بمشيئة الله ..

واذا عبرنا عن هذه العقيدة بلغة الفلسفة قلنا : انهما وجودان ، وجود الأبد ووجود الزمان ..

ومن الوهم أن يقع فى الأخلاد أن الزمان قد يكون جزءا من الأبد ، نمده أو نمطه من أوله فاذا هو ازل ، ونمده أو نمطه من آخره ، فاذا هو سرمد لا ينقضى على الدوام ..

فالحقيقة ان الزمان غير الأبد ، ننقصه كله فلا ينقص من الأبد شىء ، ونزيده كله فلا يزيد على الأبد شىء ، لأنهما وجودان مختلفان فى الكنه والجوهر ، مختلفان فى التصور والادراك ..

فالأبد وجود لا نتصور فيه الحركة ..
والزمان وجود لا نتصوره بغير الحركة ..

واذا ثبت أحد الوجودين ثبوتا لاشك فيه ، فالوجود الأبدى هو الثابت عقلا ، وهو وحده الذى يقبل التصور بغير احالة فى الذهن والخيال ، لأننا نذهب لنفرض أولا للوجود فنقع فى الاحالة ، وكذلك نقع فى الاحالة حين نذهب لنفرض له آخرا أو عمقا أو امتدادا على نحو من الأنحاء .. ولكننا لا نقع فى احالة ما اذا تصورنا الأبد بغير ابتداء ولا انتهاء ، ولا كيف ، ولا قياس على شىء من الأشياء ..

وهكذا يؤمن المسلم بوجود الاله ..

ولا يسع العقل أن يبلغ من الايمان به فوق مبلغ الاسلام ..

وليس بنا أن نطيل القول فى قدم العالم وحدوثه ، فلا حاجة بنا الى ذلك فيما نحن فيه . وكل ما قيل عن قدم العالم خلف ليس له طائل ، ولا يبطل عقيدة واحدة من عقائد الاسلام ..

ان قيل ان الزمان أبدى ، فهذا خلط فى التفكير وخلط فى الكلام ..

وان قيل ان الزمان هو مقياس القدم ، فنحن حين نقول ان الزمان قديم فكأنما نقول ان الزمان هو الزمان، أو ان الزمان وجد حين وجد ، ولم يوجد زمانان مفترقين

وان سأل سائل : لم وجد الزمان حين وجد ، ولم يوجد فى حين قبله ، فكأنما يفرض زمانا موجودا قبل وجود الزمان ..

ويكفى المسلم أن يعلم ان الزمان لم يوجد أبديا ، وان وجود الأبد أكمل من الوجود الموقوت ، وهذا هو غاية التنزيه الذى يفرضه الاسلام على معتقديه ، وهذا ـ أيضا ـ هو غاية ما ينتهى اليه تمييز العقول ..

ولا اعضال فى فهم الصلة بين الوجودين : الوجود الأبدى ، والوجود فى الزمان ..

فالوجود الأبدى كامل مطلق الكمال ..

ولا يكون الكمال المطلق بغير قدرة وانعام ، ولا تكون القدرة والانعام بغير خلق وابداع ..

ومن العبث أن يقال ان الخلق اذن اضطرار ..

لأننا لا نقول ان الله جل وعلا مضطر حين نقول انه كامل مطلق الكمال ، وانه لا يقبل النقص والعيب ، وان الخلق من كمال وجوده وقدرته واحسانه .. اذ ليس بالمعقول اننا ننفى الاضطرار عن الله حين نجعله ناقصا

فى قدرة الخلق والابداع ، بل نحن فى هذه الحالة ننفى عنه مقتضيات الـكمال ..

ويستطرد بنا هذا الى الكلام على صفات الله تعالى فى القرآن الكريم ، فان هذه الصفات هى الصفات التى تنبغى لكل كمال مطلق منزه عن الحدود ..

والكمال المطلق واحد لا يتجزأ ، ولا يكون كمالا مطلقا الا اذا كان غاية فى القــدرة والعلم والرحمــة والعدل والاحسان والتصريف

وعلة الزلل كله أن نحصر هذه الصفات وهى لا تقبل الحصر ، أو نقيسها على شىء وهى أعلى وأكمل من كل شىء .. فأصدق الايمان ـ وأصدق التفكير معا فى هذا الصدد ـ ان الله ليس كمثله شىء ، وانه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار ..

وخير لنا من الخوض فى تقسيمات الصفات النفسية ، أو الصفات الثبوتية ، أو الصفات السلبية ، أن نضرب مثلا واحدا لخطأ العقول فى استلزام بعض الصــفات وبطلان بعض الصفات ، فيما هومحسوس قابل للامتحان والاختبار : وهو علاقة الجوهر البسيط بصفة البقاء ، أو صفة التنزه عن الانحلال ..

فالاقدمون ـ أو أكثــر الاقدمين ـ متفقــون على أن الكائنات العلوية ، كالشموس والأفلاك ، خالدة لا تقبل الفناء لأنها من نور ، والنور جوهر بسيط ، والجوهر البسيط لا يقبل التركيب .. وهو من ثم لا يقبل الانحلال

وها نحن قد رأينا فى عصرنا هذا أن الاجسام كلها ذرات ، وأن الذرات كلها تنفلق أو تنحل فتصير الى شعاع أو تصير الى نور ..

ومع هذا تألفت من هذا النور عناصر ، وتألفت من هذه العناصر أجسام ، وتألفت فى هذه الاجسام الوان

واشكال واطوار واحوال ، هي هذه المادة أو هذه الهيولى التي قيل في المذاهب القديمة انها معدن الفساد المنحل ، ونقيض الجوهر البسيط

فاذا كان هذا حكمنا على بساطة المادة ، فمن أين لنا ان نحكم على بساطة الجوهر الالهى حكما نجريه مجرى اللزوم لما ينبغى ان يكون عليه ؟.. ومن أين لنا أن نقول ان الوجود الأبدى يفعل هذا ولا يفعل هذا ، ويكون من المناقض له أن تنسب اليه هذه الصفة أو يحدث منه الخلق على هذا المثال ؟..

غاية الغايات أن نقول ان الوجود الأبدى أكمل وجود، وان أكمل وجود يخلق وجودا آخر دونه فى الكمال ، وان الوجودين لا ينعزلان ..

فاذا كانت كيفية ذلك تعزب عن أذهاننا ، فقد عزبت عن أذهاننا كيفيات ما نراه ونحده بالأبصار ، فلا جرم تعزب عنا الكيفيات فيما يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار

وهل من الكيفيات المفهومة أن نقول مثلا ان الوجود الكامل لا يقدر على الايجاد أو على منح الوجود ؟.. أو هل من الكيفيات المفهومة أن نقول ان الوجود كله طبقة واحدة بين ما كان أزليا أبديا وبين ما كان ذا زمان ..

أو هل من الكيفيات المفهومة أن نقول ان الوجودين منعزلان لا علاقة بينهما بحال من الأحوال ؟..

أو هل من الكيفيات المفهومة أن نقول ان هذه العلاقة تقف عند حد لا تتعداه ، كما قال ارسطو حين زعم أن الله حرك العالم ووقفت علاقته به بعد ذلك ؟..

كل أولئك غير مفهوم فى العقل ولا مفهوم فى الايمان..

ولكننا نفهم ولا نشك ـ دينا وعقلا ـ ان الوجود الكامل المطلق يصنع شيئا يقتضيه ، وان الصانع أكمل من المصنوع ، وان المصنوع لا ينعزل عن الصانع ، وان

أعيانا أن نحصر الصلة بينهما حصر الاحاطة والاستيعاب
والأديان جميعا تؤمن بهذه العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ولكنها تفرق بين علاقة الخالق بالمخلوقات ، وبين علاقة السبب المادى بالمسببات المادية ، أو علاقة الحتم « الآلي » بين المقدمات والنتائج في القياس ..

فالأسباب المادية — بالغة ما بلغت من العظمة — لا تنشيء دينا ولا تقر طمأنينة الايمان في قلب انسان ..

والكون عظيم واسع لاشك في عظمته واتساعه ، ولكن الانسان لا يقنع بعظمته واتساعه ليؤمن به ويطمئن اليه ، وانما يركن الى الايمان حين يبحث عن ارادة حية وراء الكون كله ووراء الأسباب فيه والمسببات ..

فعلاقة الدين علاقة حية بين خالق واع ومخلوقات واعية ، تدعوه فيستجيب وتصلى اليه وتؤمن بجدوى الصلاة ..

والقرآن صريح في اثبات هـذه العلاقة بين المعبود والعباد : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان . فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »

والقرآن صريح كذلك في حث الناس على الاستعانة بأنفسهم ، والاعتماد على قوتهم ، مع اعتمادهم على القوة الالهية في مقام الدعاء والصلاة ، فلا يقبل من انسان أن يفرط في مستطاعه ومستطاع عمله ، ولا يحرمه مع ذلك رجاءه في معونة القدرة الالهية حين لايستطيع .. وذلك قصارى ما يعطيه الدين من قوة الصبر وقوة الرجاء ..

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . ان الله مع الصابرين »

فهو يلهم الناس أن الله لايخذلهم ان نصروا أنفسهم ، ولايحرمهم الطاقة التى تفوق الطاقة حين يتجهون الى الله

وكل دين لا يكفل لأصحابه هـذا الرجاء فهو دين لا معنى له ولا حاجة اليه ، وان وجوده وعدمه سواء

وليس المراد من ذلك ان الايمان بالله قائم على الحاجة اليه ، وانما المراد به ان الايمان بقدرته وكماله وعدله وسلطانه فى الوجود واتصاله بهذا الوجود . فان لم يكن المعبود كذلك فما هو بأهل للايمان به ، على الاستغناء عنه أو على الحاجة اليه

واكثر ما يعترض به المعترضون على حكمة الصلاة انها لا توافق الايمان بنظـام الـكون واطراد حركاته وسكناته على سنة واحدة أو قانون واحد مقدور الأعمال والآثار من ازل الآزال ..

وهو اعتراض يقبـل على فرض واحد ، وذاك ان الصلاة عمـل خارج من الكون غير داخل فيه ، فهى لا تنبعث من نظامه ولا تؤثر فى نظامه ، ولا يكون لها شأن حقيق بها غير الشذوذ والاهمال

فأما اذا كانت الصلاة داخلة فى حساب الكون ـ كما هي فى الواقع ـ فشأنها فى الآثار والمؤثرات كشأن جميع الأعمال والحركات . فلا يقال للناس كفوا عن الصلاة لأنها لا تفيد ، الا كما يقال لهم كفوا عن التعرض لقوانين الطبيعة بالاختراع والصناعة لأنها قوانين مقدورة الأعمال والآثار من أول الآزال

ولا مانع مطلقا من تأثير العوامل الروحية فى احداث الكون ، ولو قصرنا التأثير على النحو الذى نعانيه كل يوم فى هذه المحسوسات فضلا عن الغيوب والمعقولات

قال الامام الغزالى فى تهافت الفلاسفة : « لو لم ير انسان المغناطيس وجذبه للحديد ، وحكى له ذلك ، لاستنكره وقال : لايتصور جذب الحديد الا بخيط يشد عليه ويجذب به ، فانه المشاهد فى الجذب ، حتى اذا

شاهده تعجب منه وعلم انعلمه قاصرعنعجائب القدرة»

وذلك بعد أن قال عن المؤثرات الروحية : « ذلك يكون بأسباب ، ولكن ليس من شرط أن يكون السبب هو هذا المعهود .. بل فى خزانة المقدورات عجائب وغرائب لم يطلع عليها ، ينكرها من يظن ألا وجود الا لما شاهده» ..

ومايقال‌عن‌جذب المغناطيس يقال عن جذب الاجسام ، ولاسيما جذب الكواكب أو تجاذبها على هذه الأبعاد الشاسعة من السماء ، فان انتقال التأثير من الجاذب الى المجذوب‌حقيقة لاريب فيها ، ولكنها لاتفسر الا بالفروض والتخمينات وتقدير الوسائط التى لايثبتها العيان ولا يقطع بها البرهان ..

والعجيب ان أدعياء العلم والعقل يشاهدون هذا وأمثاله ، ويسمعون تعليله الذى يختلف فرضا بعد فرض ، وتخمينا بعد تخمين ، فيسكتون ويسلمون انه معقول ومفهوم ، ولكنهم يستكثرون تأثيرالروح فى‌الأرواح وتأثير العقل فى العقول ، لأنهم يريدون أن يلمسوا بأيديهم كيف تؤثر وكيف تتأثر ، ولايقبلون هنا ما يقبلونه فى عالم الحس والعيان ..

كذلك لا مانع مطلقا من تفاوت الأرواح والعقول فى قدرة التأثير بالصلاة بالدعاء والايحاء ..

لأن الوجود كما أسلفنا طبقات وليس بطبقة واحدة ، منها ما هو أقرب الى الخصائص الالهية ، ومنها ما هو أقرب الى الخصائص الطبيعية ، وليست كلها فى التأثير سواء

فالوجود الكامل يوجد غيره ،وهو جميع هذه الكائنات ولكن هذه الكائنات درجات : فما يعى منها وجوده ويشعر بأنه موجود ، أرفع من الكائن الذى لايعى وجوده ولا يشعر بأنه موجود ..

والكائن الواعى الذى يشعر بموجده أو يشعر بالوجود المطلق الكمال أرفع من الكائن الواعى الذى لايعى غير ذاته أو ماحوى من المحسوسات ..

واذا كانت قدرة الايجاد تختلف باختلاف طبقات الوجود ، فأقرب الكائنات الى الله هو الكائن الذى يعى ذاته ويعى موجده ، ويستمد منه قبسا من القدرة الالهية يقصر عنه من دونه من هذه الكائنات ..

ووعى الموجود لموجده كذلك درجات : فمن كان أكمل وعيا كان أكمل اقتباسا من قدرة الله وأقرب لياذا به وبحكمته وتدبيره وعمله . ولا يعقل أن تخلو الكائنات الروحية من هذه الفوارق ، ولا يعقل أن تكون بينها هذه الفوارق عبثا كأن وجودها وعدمها سواء ، ولا يعقل أن يكون منها ما هو أقرب الى الله ولا يقدر على شىء يختص به فى أحداث هذا الكون على نحو يناسب القرب من قدرة الله ، وهو تأثير العقل أو تأثير الروح ..

فجدوى الصلاة لا تنفى نظام الكون ، لأن المصلين جزء من الكون وجزء من نظامه .. بل بطلان جدوى الصلاة ينفى وجود الاله الذى يخلق النظام خلقا ولا يقوم بين منظماته مقام الآلة التى لا فرق فيها بين أن تدار وأن تدير ..

***

أما فلسفة القرآن فى اثبات وجود الله ، فهى جماع الفلسفات التى تمخضت عنها أقوال الحكماء فى هذا الباب ..

وأشهر الحجج التى اعتمدت عليها الفلسفة الالهية ثلاث ، وهى : برهان الخلق المعروف عند الأوربيين بالبرهان الكونى (١) ، وبرهان النظام المعروف عندهم

(١) Cosmological Argument

ببرهان الغاية أوالقصد(١)، وبرهان الاستعلاء والاستكمال المعروف عندهم ببرهان القديس انسلم (٢)

وفحوى برهان الخلق أو البرهان الكونى انالمتحركات لابد لها من محرك لا تجوز عليه الحركة ، وان الممكنات لابد لها من موجد واجب الوجود ، والا لزم التسلسل الى غيرانتهاء.. وهذا الموجد الواجب الوجود هو الله..

وفحوى برهان القصد أن نظام العالم يدل على ارادة محيطة بما فيه من الأسباب والغايات ..

وفحوى برهان المثل الأعلى أن العقل اذا تصور شيئا عظيما تصور ما هو أعظم منه ، والا تطلب موجبا للوقوف عند حد من العظمة لا تتعداه ، وكلما عظم شيء فهناك ما هو أعظم منه وأعظم حتى تنتهى بالتصور الى العظمة التى لا مزيد عليها . والعظمة التى لا مزيد عليها لا تكون مجرد تصور يقع فى الوهم ولا يوجد فى الواقع لأن العظمة الموجودة فوق العظمة الموهومة أو المتصورة .. فالله اذن موجود لأنه أعظم الموجودات ..

والقرآن الكريم يكرر هذه البراهين فى غير موضع ، ويقيم الحجة بوجود المخلوقات على وجود الخالق وبنظام الكون على وجود المدبر المريد ، وباثبات المثل الأعلى لله فوق كل مثل معروف أو معقول ..

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » ..

***

« فخلق فسوى » ..

***

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم

---

(١) Teleological Argument (٢) Ontological Argument

جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » ..

***

« أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ » ..

***

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين » ..

***

« وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ..

***

« فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ..

***

وقد تكرر فى القرآن الكريم برهان خلق الزوجين تكرارا متجدد الأساليب والمعارض دليلا على القصد والتدبير فى سنن هذا الوجود. وهو لاريب أقوى البراهين على القصد وابتداع الوسيلة اليه ، لأن ظهور الحياة فى وسط المادة عجيب .. وأعجب منه أن تتهيأ الأسباب فى جسدين مختلفين لدوامها وانتقال خصائصها وصيانة ولائدها بين عناصر الطبيعة وآفاتها . وقد عرض الآن من أسرار التوليد ما لم يكن معروفا بين الناس عند نزول القرآن الكريم ، فاذا هو أعجب ، وأعجب من ظهور الحياة ومن أختلاف وظائف الجنسين : عرف الآن أن الناسلات التى يتولد منها الجنس البشرى كله يمكن أن

تجمع فى قمع من أقماع الخياطة أقل من نصف فنجان.
ويتسع هذا الحيز الصغير ـ كما قلنا فى كتابنا عن الله ـ « لكل ما فى النفوس من الأحاسيس والحوافز والأسرار، ولكل ما فى العقول من الافكار والفلسفات والمبتكرات ، ولكل ما فى الضمائر من العقائد والأخلاق والأشواق ، ولكل ما فى الاجسام من الوظائف والمحاسن والاشباه ، ولكل ما بين هؤلاء من الأواصر والوشائج والعلاقات» ..

وخليق بهذا أن يبين لنا ـ كما قلنا هناك ـ « ان الحياة قوة من عالم العقل لا من عالم المكان والزمان ، لأن الحيز الذى يحتوى الناسلة هو الحيز الذى يحتوى كل ذرة فى حجمها من الذرات المادية ، ولكنه يتسع لآفاق من القوى لا أثر لها فى ذرات الاجساد » ..

***

وتوكيد القرآن الكريم لوحدانية الله كتوكيده لوجود الله .. بل هو أشد وألزم فى عقيدة الاسلام ، لأن الايمان بالاله الأحد ألزم من الايمان بالعقيدة الالهية على اطلاقها. اذ كان الايمان بأكثر من اله واحد مفسدا لفهم الكون ومفسدا لفهم الضمير ، ومفسدا لفهم الواجبات الأدبية والفرائض الدينية ومفسدا لفهم الانسان بحقيقة الانسان

وحجج القرآن على الوحدانية قاطعة ، وان قال بعض المتكلمين انها جرت مجرى الأدلة الخطابية لتوجيه القول فيها الى الخاصة والعامة ، والى العلماء والجهلاء ..

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ..

« قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذن لابتغوا الى ذى العرش سبيلا » ..

والذين قالوا بغلبة الدليل الخطابى على الدليل القاطع فى هذه الحجة ، زعموا ان الاختلاف بين الالهين الاثنين او بين الآلهة الكثيرة غير لازم عقلا لجواز الاتفاق ..

وهو زعم مردود ظاهر البطلان ، لأن الكمال المطلق لا يكون كمالين مطلقين ، ولأن الابد لا يكون أبدين ، ولأن الوجودين اللذين يتفقان فى البداية والنهاية وفى تقدير كل شيء وتصريف كل عمل ، ولا يختلفان فى وصف من الأوصاف ولا فى لازمة من لوازم هذه الأوصاف .. هما وجود واحد لا وجودان ، وليس بينهما من فاصل الذات عن الذات ما يجعلهما ذاتين اثنتين ..

أما الآلهة المتعددة ، فهى ان أطاعت الله ولم تخرج عن قضائه وقدره فحكمها حكم المخلوقات ، وان كانت لاتطيعه فهى تنازعه وتبتغي « الى ذي العرش سبيلا » فلا يستقيم على ذلك أمر الوجود ..

***

ومتى ثاب المسلم الى هذه الحكمة القرآنيــة فى أمر الاله ، فقد تزود من كتاب دينه بعقيدة تصحح أخطـاء الديانات كما تصحح أخطاء الفلاسفة .. اذ كانت الديانات قائمة على الايمان ، ولا أحق بالايمان من اله أحد صمد سميع مجيب ليس كمثله شيء وهو محيط بكل شيء . واذ كانت الفلسفة قائمة على القياس ، ولا يصح القياس ما لم يثبت فى مقياسه كل فارق بين وجود الابد ووجود الزمان ..

مسألة الروح

« يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ..

مسألة الروح أعضل مسائل العلم والفلسفة ومذاهب التفكير على التعميم منذ فكر الانسان فى حقائق الاشياء ، بين جميع أصحاب النحل والآراء ، فى جميع العصور..

وسواء فهمنا من الروح انها جوهر مجرد تقوم به حياة الأجساد ، أو فهمنا كما يفهم الماديون انها ظاهرة الحياة فى تركيبة من تراكيب المادة ، فلا يزال العلم بحقيقتها قليلا أو أقل من القليل ..

لأن الماديين الذين يعتبرونها قوة من قوى المادة لم يخرجوا بها عن تسجيل الحس كما يرونه ، ولم يستطيعوا قط تعليل الفارق بين الخلية المادية والخلية الحية بعلة من العلل المادية نفسها فضلا عن العلل التى تتجاوز المادة الى ما وراءها . ولم ينكروا أن الفارق عظيم ، وأنه أبعد فارق بين شيئين من هذه الاشياء التى تقع فى الكون المحسوس أو الكون المعقول ..

فمن معجزات القرآن انه وضعها هذا الموضع الصحيح من الفلسفة والعلم ، وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنها الناس بغير استثناء ..

ويزيد فى تقدير هذه المعجزة ان القرآن لم يستكثر

على الفكر الانسانى أن يخوض فى المسألة الالهية ، وان يصل الى الايمان بالله من طريق البحث والاستدلال والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة ..

فالعقل يهتدى الى وجود الله من النظر فى وجود الاشياء ووجود الأحياء .. ولكنه لا يهتدى الى حقيقة الروح من هذا الطريق ، ولا يذهب فيها مذهبا أبعد ولا أعمق من الاحالة الى مصدر الموجودات جميعا ، وهى ارادة الله ، أو أمر الله

وقد عجب بعض المفسرين لذلك ، وراحوا يتساءلون : أتكون مسألة الروح أكبر من المسألة الالهية وهى غاية الغايات فى سبح العقول ؟..

ولكنهم فى الواقع يرجعون بالعجب الى غير مرجعه الأصيل، لأن المعضلة الفكرية لاتبلغ مبلغ الاعضال بمقدار عظمتها واتساعها بل بمقدار دقتها وخفائها .. وقد تكون عوارض الشمس أوضح فى رأى العلماء من عوارض الذرة الخفية ، وبينهما من التفاوت فى القدر ذلك الأمد البعيد ..

وقد أجمل الامام الرازى أسباب هذا الاعضال فى مسألة الروح فقال : « .. انهم سألوا عن الروح وانه صلوات الله عليه وسلامه أجاب عنه على أحسن الوجوه. وبيانه أن المذكور فى الآية انهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه » ..

« أحدها أن يقال ما ماهيته ؟.. هل هو متحيز أو حال فى المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال فيه ؟..

« وثانيها أن يقال أهو قديم أو حادث ؟ ..

« وثالثها أن يقال هل هو يبقى بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟ ..

« ورابعها أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟ ..

« وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة ، وليست فى الآية دلالة على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا ، الا انه تعالى ذكر فى الجواب : قل الروح من أمر ربى ، وهذا الجواب لا يليق الا بمسألتين : احداهما السؤال عن الماهية أهو عبارة عن اجسام موجودة فى داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبائع والأخلاط ؟ .. أو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ، أو عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو عن موجود يغاير هذه الاشياء ؟ .. فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الاشياء ، بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث الا بمحدث قوله : كن فيكون. فهو موجود يحدث من أمر الله وتكوينه وتأثيره فى افادة الحياة للجســـد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه مطلقا وهو المقصود من قوله : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

***

« وثانيتهما السؤال عن قدمها وحدوثها ، فان لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل كقوله تعالى : « وما أمر فرعون برشيد » . فقوله من أمر ربى معناه من فعل ربى ، فهذا الجواب يدل علىأنهم سألوه عن قدمه وحدوثه فقال : بلى هو حادث . وانما حصل بفعل الله وتكوينه ثم احتج علىحدوثه بقوله : « وما أوتيتم منالعلم الا قليلا» . يعنى ان الأرواح فى مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها . ثم تحصل فيها المعارف والعلوم ، فهى لا تزال متغيرة من حال الى حال ، والتغير من امارات الحدوث » ..

وتلخيص الامام الرازى للمعضلة شـــامل لجوانبها المتعددة ، كما بدت للمفكرين من الفلاســـفة الأقدمين ، وبخاصة علماء الـــكلام

ولانظن ان المحدثين جاءوا بفرض من الفروض فى تفسير

الروح لم يسبقهم اليه الأقدمون مع ملاحظة الفارق فى بحوث علم الحياة ووظائف الأعضاء بين علماء اليوم وعلماء الزمن القديم

فمن المفكرين الأقدمين من قال : ان الروح اجسام لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد ، باقية من أول العمر الى آخره لا يتطرق اليه تخلل ولا تبدل ، حتى اذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء الى سائر الأعضاء ..

***

ومنهم من قال : انه جزء لا يتجزأ فى القلب ، أوقال : انه جسم هوائى فى القلب ، أو قال : انه جسم هوائى فى الدماغ ، أو قال : انه قوة فى الدماغ وهو مبدأ الحس والحركة ، أوقال : انه أجزاء نارية وهى المسماة بالحرارة الفريزية ، أوقال : انه الدم المعتدل تقوى الحياة باعتداله وتفنى بفنائه ، أو قال : انه جسم بخارى يتكون من لطافة الاخلاط وبخاريتها كتكون الاخلاط من كثافتها ، وهو الحامل للقوى الثلاث : وهى قوة الروح الحيوانى ، وقوة الروح النفسانى ، وقوة الروح الطبيعى . ومنهم من قال : بأن الروح جوهر مجرد يتفـــاوت فى التجرد والصفاء ، فهو فى العارفين الخالصين أصفى منه فى غيرهم من ذوى الأرواح ..

ومنهم من قال غير ذلك ، ولم يخرج عن فحوى فرض من تلك الفروض، كما أحصاها صاحب كشاف اصطلاحات الفنون فى مادة الروح ..

أما المفكرون المحدثون ، فهم فى الجملة بين قولين : قول بنشوء الحياة من جوهر مجرد ، وقول بنشوئها من استعداد فى المادة يظهر مع التطور والتركيب ..

وليس بين القـــائلين بالجوهر المجرد من الأقدمين

والمحدثين اختلاف كبير فى غير أسلوب التعبير ..

***

فالمحدثون يقولون : ان الجسم لاينشىء الحيـاة ولا طاقة للمادة بتوليد القوة الحيوية ، ولكنها اذا بلغت مبلغا معلوما من الاستعداد صلحت لحلول الروح فيها وتهيأت لخدمتها . مثلها فى ذلك مثل الجهاز الذى يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء ، فان أجزاءه المتفرقة لا تتحرك ولا تقبل العمل الكهربائى اذا بقيت على تفرقها ، أو اجتمعت على نحو غير النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته . وكذلك الاعضاء الجسدية لا تخلق الحياة ، ولكنها تصلح لاستقبالها وتلبيـة حركاتها متى تم تركيبها على النحو المعروف ..

والأقدمون يقولون بمثل ذلك ، ولـكنهم يعبرون عنه بأسلوبهم المنطقى الذى يستخدمونه للتمييز بين الصور والأجسام .. فالروح عندهم « كمال أول لجسم طبيعى آلى »

***

والكمال عندهم هو الذى تتحقق به ماهية الشىء .. وهو قسمان : قسم يصـدر منه الفعل وهو الـكمال الأول ، وقسم هو الفعل نفسه وهو الـكمال الثانى ..

والانسان جسم آلى لا تتحقق له الانسانية الا بحلول الروح فيه ، فلا تتحقق له الانسانية بمجرد وجود الأعضاء فيه بل باستقبال هذه الأعضاء لمصدر فعلها وحركتها ، وهو الروح .. فالروح اذن هى الكمال الأول لتركيب جسم الانسان ..

ودليل الأقدمين على أن الروح جوهر مجرد يلخصه الشهرستانى فى كتاب « نهاية الاقدام فى علم الكلام » اذ يقول : « ان العلم المجرد الكلى لا يجوز أن يحل فى جسم ،

وكل ما لايجوز أن يحل فى جسم فاذا حل ففى غير جسم ، فالعلم المجرد الكلى اذا حل حل فى غير جسم » ويؤيد ذلك انه غير قابل للانقسام

ويوشك الأقدمون والمحدثون أن يتلاقوا فى توضيح المشكلة التى تنجم من القول بتجرد الروح ثم القول بتأثيرها فى الأجسام ..

فالأقدمون يجعلون الجواهر المجردة درجات فى التلبس بالمادة وقابلية الاشتراك معها فى عملها ، فلا يؤثر الجوهر المجرد فى المادة مباشرة بل يؤثر فيها بواسطة جوهر يقاربه من جهة ويقارب المادة من جهة أخرى ..

***

والمحدثون يقيمون هذه القنطرة بين العالمين ــ عالم الروح وعالم المادة ــ بفروض كثيرة .. منها ان الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى ملتقى الروح بالجسد ، ومنها أن يرتفعوا بالمادة الجسدية الى غايتها من الصفاء لكى تتقبل الأثر من عالم الروح ، ومنها أن يزيلوا العجب من تأثير الأرواح فى الأجسام بقولهم : ان تأثير الروح فى الجسد ليس بأعجب من هذه المؤثرات التى نراها تقع من الأجسام . فلا داعى للجزم بامتناع أثر الجوهر المجرد فى صور المادة على اختلافها بين الجوامد والأحياء

كل فرض من هذه الفروض لايزعم صاحبه انه قال فى معضلة الروح قولا يغنيه عن التمثل فى هذه المعضلة بالآية القرآنية الكريمة : « قل الروح من أمر ربى . وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

والماديون الذين يقولون بنشأة الحياة من المادة لاينيبون ــ بطبيعة الحال ــ الى علم الله فى معضلة من المعضلات . ولكنهم ينيبون على الرغم منهم الى رأى فى تعليل الحياة هو أعجز وابلغ فى التسليم من انابة المؤمنين ، لأن قصارى

ما ذهبوا اليه ان الحياة حصلت لأنها حصلت ، أو لأنها قابلة للحصول ..

فهم يعترفون بالفارق البعيد بين الذرة المادية والخلية الحية ، ولكنهم يقولون : ان الخلية الحية قد تترقى بالتطور والتركيب المتلاحق الى اكتساب خصائص الحياة

ويمثلون لذلك بالعناصر التى تتركب فتظهر فيها بعد التركيب خصائص لم تكن لعنصر من عناصرها على انفراد ..

وهكذا يترقى التركيب بالمادة الى مرتبة النبات ، فالحيوان ، فالانسان العاقل ، فما فوق الانسان مع تطاول الزمان ..

ولكنهم لا يذكرون دليلا واحدا على حدوث الحياة من مثل هذا التركيب .. ولايذكرون سببا ماديا معقولا لالتزام المادة سلم الارتقاء طبقة فوق طبقة منذ الأزل الذى لا يعرف له ابتداء !.. ولا يذكرون سببا ماديا واحدا يوجب أن تنفرد بعض الذرات المادية بهذا التطور دون بعضها ، وهى سواء فى الكنه والحركة وقوانين الوجود ، ولا يشعرون بقصور هذا الفرض عن تفسير الخصائص التى تتوزع بين ألوف الخلايا التى تتولد منها الانواع الحية ، وفى كل خليـــة منها قدرة على التجدد والتعويض ونقل طبائع النوع كله ، وهى فى دقتها أخفى من أن تتراءى الألوف منها للعين بغير منظار ..

فان الناسلات التى تنشىء النوع الانسانى كله يمكن أن تجمع فى قمع صغير من أقماع الخياطة ، وفى هذا القمع الصغير تكمن جميع الخصائص التى يختلف بها ملايين البشر فى الافكار والعادات والاعضاء والالوان ، وتكمن جميع الموروثات التى تلقاها سكان الكرة الارضية عن آبائهم وأجدادهم منذ مئات الالوف من السنين .

وجميع الموروثات التى يخلفونها لأعقابهم الى مئات الوف اخرى بغير انتهاء .

فاذا كانت الحياة معانى تقوم على الوعى الذى لايوجد فى المادة ويكفيها مثل هذا الحيز من الامتداد وهو أقرب الى المعقولات منه الى المحسوسات ـ فماذا أبطل الماديون من القول بقوة الروح المعنوية ؟.. أو ماذا أبطلوا من القول بتوسط هذه المعانى بين الوجود المجرد والوجود المحسوس ؟ ..

اذا كانت الحياة لا توجد فى كل مادة ، وكانت المادة الخاصة التى توجد فيها تتلقاها معانى لايحصرها الحس ، وتأخذ منها كل هذه الاجسام التى تملأ فضاء الكرة الارضية ، فهل هذا هو تفسير السر المغلق أو هذا هو السر المغلق الذى يدق عن العقول ؟

***

واى اجسام بل اى آكام من الاجسام ؟.. اهى اجسام وكفى تتساوى فى جميع الاشكال والاحجام ؟

كلا .. بل هى اجسام تختلف كل ذرة منها عن كل ذرة ، ولا تنوب واحدة منها عن الاخرى أو تختلط شخصية منها بشخصية سواها . فأين يبتدىء التلفيز والتخمين اذا كان هذا نهاية التفسير والتبيين ؟

واذا كان الماديون قد بلغوا بتجريد قوة الحياة أقصى ما يستطيعه المادى من صفات التجريد ، فان القول بالتجريد المطلق لا يقطع الكلام فى مسألة الروح ، ولا يتركه بغير بقية طويلة تستتبع الاسئلة الكثيرة بغيرجواب

فهل الجوهر المجرد البسيط يقبل الفناء ؟.. وهل كان معدوما قبل أن يوجد ؟ ..

ان فريقا من الفلاسفة يقول ان الجوهر البسيط لا يتغير ولايفنى ، لأن الانحلال انما يأتى من جهة التركيب

وليس فى الجوهر البسيط شيء مركب.. وما ليس بقابل للفناء غير قابل للايجاد بعد عدم ، وليس له ابتداء ولا انتهاء ..

وبعض المتدينين يقول بقدم العالم كله لأنه لا يخلق فى زمان ، والجواهر البسيطة من باب أولى قديمة على هذا الاعتبار . وقد يستشهد هؤلاء على قدم الروح بأنها من روح الله : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه . وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون » . فالروح من روح الله وهو أزلى أبدى بلا أول ولا آخر ولا زمان ولا مكان ..

ومنهم من يقول بحدوث الروح ويعنى بذلك انها غير قديمة ، وينكر قدم العالم على الاجمال

وهنا يرد على الخاطر سؤال عن تساوى الارواح فى القدم أو تساويها فى الحدوث ..

فهل وجدت أرواح الآباء والأبناء والأحفاد فى وقت واحد ؟.. أو وجدت على تفاوت فى الترتيب ؟.. وهل تنقطع صلة الأبوة بين الارواح ، أو هناك أرواح توصف بالأبوة ، وأرواح توصف بالبنوة على النحو الذى نشهده فى الحياة ؟.. وما الفارق بين أرواح الآباء والأمهات وارواح الذكور والأناث ؟

ويرد على الخاطر سؤال آخر عن علاقة الروح بالجسد بعد دخوله والامتزاج بأعضائه : هل تأتى بالمعرفة معها من عالم الارواح ، أو هى تتلقى المعرفة من ملابسة الاعضاء وحس الحواس التى تتألف من البصر والسمع واللمس والشم والذوق وما اليها ؟.. وهل تحمل معرفتها معها بعد فراق الجسد أو تتركها وراءها بعد

انقطاع الصلة بينها وبين الاحساس بالحواس ؟..

ويرد على الخاطر سؤال غير هذين السؤالين فى مسألة الثواب والعقاب ، فهل تخلص الروح من الجسد كما دخلته مبرأة من الذنوب ؟ وهل يلصق شيء من الجسد بشيء من الروح ؟ .. واذا كانت قبل نزولها فيه وخروجها منه خالصة من تلك الذنوب فكيف يكون العقاب؟.. او كيف تعاقب الاجساد بمعزل عن الارواح ؟.. او كيف تعاقب الارواح بمعزل عن الاجساد ..؟

والذين قالوا بدخول الروح فى الاجساد أكثر من مرة يسألون : لماذا ينسى الروح حياته الاولى فى الجسد القديم بعد دخوله فى الجسد الجديد ؟ وهل يعود الى التذكر بعد التجرد من الحياة الجسدية ؟ أو هو فى كل مرة يرجع الى ما كان عليه قبل الحياة الجسدية كأنه لم يتلبس قط بالاجساد !.. وماذا تفيد الروح من تكرر الحياة اذا كانت تبقى بعد موت كل جسد كما كانت قبل حياتها فيه ؟

ولا يقل عن هذه الاسئلة فى الاعضال سؤال السائلين : هل الروح والنفس والعقل شيء واحد ، أو هى أشياء مختلفات ؟ وهل هى فردية أو عامة فى جميع الاحياء العاقلة ؟

فمنهم من يقول ان العقل والروح والجسد كلها هى قوام العنصر المجرد فى الانسان ، وان ما عداها عنصر جسدى قابل للانحلال ..

ومنهم من يقول ان العقل وحده هو العنصر المجرد ، وان النفس درجات ، والروح فى أعلى هذه الدرجات.. ثم تنحدر درجات النفس فتلتقى بالجسد فى الحياة الجيوانية ، ولا يختلف شأنها فى هذه الحالة عن شأن الدم الذى تنبعث منه حركة الاعضاء ، أو شأن الابخرة

اللطيفة التى تتخلل تلك الاعضاء

والقائلون بذلك يقولون ان العقل عام فى جميع العقلاء ، وانه غير متوقف على الافراد لأن أحكامه واحدة فى جميع العقول ، وقضاياه ثابتة فى جميع الأحوال ..

وذلك على خـــلاف النفس التى تختلف بأذواقهـــا ومشتهياتها بين فرد وفرد ، وبين حال وحال ..

فالعقـــل اذن هو الخالد الباقى الذى لا يفنى بفناء اجساد الاحياء . أما النفس فشأنها شأن الجسد فى التميز والتحيز وقبول الفناء ..

***

ومن الماديين من يأتى وسطا بين المجردين والمجسدين، فعندهم أن وجود الروح لاحق لوجود الجسد ، وان الجسد اذا ترقى فى التركيب نشأت من تركيبه وحدة معنوية أو شخصية مستقلة صالحة للبقاء بمعزل عنه ، وكانت وجودا جديدا لاينعدم لأن الموجود لايقبل العدم.. ولا فرق فى ذلك بين وجود الكيفية ووجود الكم أوالمقدار

وأقرب ما يمثلون به لذلك وجود القصيدة فى قريحة الشاعر ، أو وجود اللحن الموسيقى فى قريحة الموسيقار، أو وجود الفكرة فى قريحة الفيلسوف ..

فهذه الوحدات المعنوية من عمل الشاعر والموسيقار والفيلسوف ، ولكنها استقلت بوجود قابل للبقاء بعد زوال من خلقوها وانفردوا بخلقها بين اصحاب القرائح التى لا تحصى

وتمثيلهم هذا تمثيل تقريب وليس بتمثيل تحقيق ، لأنهم يقصدون أن « الشخصية الروحية » التى يتمخض عنها تركيب الجسد أو تركيب الدماغ خاصة هى كيان قائم بذاته ، وليس بالكيان الذى يتوقف على غيره كقصيدة الشاعر ولحن الموسيقار وفكرة الفيلسوف..

وكل منها لا يقوم الا بسامع أو معين

***

واذا أردنا أن نشمل بالكلام فى الروح أحاديث القائلين بتحضير الارواح ، فالاسئلة هنا تتوارد من أصحاب الدين كما تتوارد من أصحاب العلم وأصحاب الفلسفة..

فلك أن تسأل : هل السيطرة على الارواح مسألة قدسية الهية ؟.. أو هى مسألة آلية صناعية ؟..

ان كانت قدسية الهية فما هذه الآلات والأشعة والمصورات والمحركات؟.. وما هذا الارتباط بين تحضير الارواح الحديث والمخترعات الحديثة ؟.. وما هذه السيطرة على الارواح بسلطان تلك الآلات والمخترعات فى أيدي قوم لم تعرف عنهم قداسة ضمير أو رياضة نسك وصلاح ؟..

وان كانت آلية صناعية ، فأى تغليب للمادة على الروح أقوى من هذا التغليب الذى ينوط كشف الارواح بتقدم الصناعات والمخترعات .. ويجعل عالم الروح كعالم المادة تابعا لآلة تدار أو مخترع جديد لم يكن معروفا قبل القرن العشرين ؟.. وكيف نفسر ان عالم الروح كله لم يستطع بجهوده وبواعثه أن ينفذ الى عالم المادة ؟.. وان عالم المادة استطاع ببعض الاجهزة أن ينفذ الى عالم الروح؟.. وهل سعت الارواح الينا فعجزت فى مسعاها ؟ أو هى لم تسع قط ونحن الذين أرغمناها على الظهور لنا والتحدث الينا ؟.. وما معنى قدرتنا وعجزها فى هذه الجهود التى لا قوة لنا فيها لغير أدوات التحضير ؟..

***

والى هنا خصصنا الروح بالمعنى الذى يقصد به قوام الحياة ــ أو قوام الحياة والعقل ــ فى الشخصية الانسانية ..

ولكن الروح عممت فى القرآن الكريم لغير هذا المعنى ، فسمي جبريل بالروح الأمين .. ونسبت الى الله روح بمعنى الرحمة تارة ، وبمعنى القوة أو الحياة تارة ، وبمعنى العلم القدسى فى غير هذه المواضع : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » .. « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا »

وبهذه المعانى كلها ترتفع الروح من الوجود المادى الى الوجود المنزه عن المادة وخصائصها ، وقد تلحق بالوجود الالهى الذى لا شبيه له فى الموجودات ..

ولكن الاصطلاح الذى لا يتعرض أصحابه للحصر والتحقيق يطلق الروح أحيانا على معنى الحياة فى كل ذى حياة فيقولون : « كل ذي روح » ويقصدون به عالم الحيوان ، ويجمعون بين الروح والنفس فى معنى واحد، ثم ينحلون النبات نفسا ويفرقون بينها وبين نفس الحيوان ونفس الانسان ببعض الخصائص التى تجعل معنى الكائنات « النفسية » أحيانا بمعنى الكائنات العضوية فى اصطلاح العلم الحديث ..

والذين يطلقون الاصطلاح هذا الاطلاق، فيهم المؤمنون بالدين ، وفيهم من تقدم الأديان الكتابية ، وفيهم من ظهر بعدها وأنكرها كما ينكرها الدهريون الذين قالوا انها حياتنا الدنيا نموت فيها ونحيا ..

فصاحب الهدية السعيدية المولوى محمد فضل الماتريدى يلخص معانى النفس فيقول : « ان المركب الذى له مزاج وليس من المعدنيات يكون ذا نفس أرضية ، والنفس الارضية اما نفس نباتية أو نفس حيوانية أو نفس ناطقة .. وعرفوا النفس النباتية بأنها كمال أول لجسم طبيعى آلى من حيث يتغذى وينمو »

ثم يقول عن النفس الانسانية : « ان النفس جوهر

مجرد واحد ولها وجه الى البدن ، ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل لأثر من جنس مقتضى طبيعة البدن، ووجه الى المبادىء العالية ويجب أن يكون دائم القبول عما هناك . والتأثير منه ـ فمن الجهة السفلية يتولد الأخلاق لأنها تؤثر فى البدن الموضوع لتصرفها مكملة اياه تأثيرا اختياريا وتسمى قوة عملية وعقلا عمليا ، ومن الجهة الفوقانية يتولد العلوم لأنها تتأثر عما فوقها مستكملة فى جوهرها بحسب استعدادها ، وتسمى قوة نظرية وعقلا نظريا . فالقوة النظرية من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة من المادة .. فان كانت مجردة فلا يحتاج فى أخذها الى تجريدها ، وان لم تكن فتصير النفس مجردة بتجريدها حتى لايبقى فيها من علائق المادة»

فاذا أغضينا عن فوارق الاسلوب ، ففى هذا الكلام مواطن اتفاق كثيرة بين الأقدمين والمحدثين ، وبين الفلاسفة والعلماء ، وبين أصحاب الدين وغيرهم من المفكرين ..

فجميع هؤلاء متفقون على التفرقة بين الجسد العضوى والجسد الذى لا تمضى فيه ..

وجميع هؤلاء متفقون على الحاق النبات بعالم الحياة فى خصائصها التى تميزها من المادة على الاطلاق ..

وجميع هؤلاء متفقون على ان « النطق » أو «العقل» خاصة انسانية تميز الانسان من الحيوان ..

ولكنهم اذا جاءوا الى الصفة التى تكسب الحى قدرة المعرفة ، وقع بينهم أكبر اختلاف يقع بين مختلفين ..

فتوزع القوى المدركة فى النفس على حسب الأتجاه العلوى أو السفلى كلام يسيغه بعض الفلاسفة وبعض المتكلمين ولا يسيغه الآخرون ..

وتدرج القوة العاقلة من الحيوان الى الانسان كلام

ينكره الدينيون ولايتفق عليه علماء الطبيعة الذين يجعلون العقل من عنصر غير عنصر الفريزة أو البداهة الحيوانية

وينتهون جميعا الى « علم قليل » فى هـذا المبحث العويص الذى لا يدانيه فى اعتياصه مبحث آخر من مباحث الطبيعة أو ما وراء الطبيعة ..

ولسنا نسرد هذه الخلافات لنقطع فيها بقول فصل لا خلاف عليه ، فليس الى ذلك من سبيل ..

ولسنا كذلك نسرد لنعود فيها الى تلخيص القول فى الخالق والمخلوقات ومكان الروح والحيـاة من تلك المخلوقات . فهذا بحث عرضنا له عند الكلام على وجود الله بما اتسع له المقام ..

ولكننا نسردها ونكتفى بمجرد سردها ، لأن مجرد السرد كاف لبيان اعجاز القرآن فى وضع هذه المعضلة موضعها الصحيح بين معضلات الفلسفة الكبرى فى جميع الأزمان ..

فالرجل الأمى الذى تعلم من البادية كلها غاية علمها ، أو تعلم من عصره كله غاية علمه ، لايتأتى له أن يبسط أمامه مشكلات العقل فى حقائق القوة التى تقوم بها حياة الشخصية الانسانية أو يقوم بها تفكيرها ثم يحيط بما فيها من العقد وما يرد عليها من الاشكال والاستدراك ، وما تنفرد به من المغلقات بين مسألة كالمسألة الالهية أو مسألة كمسألة الوجود بجملته فى السر والعلانية ..

فاذا تتبع معضلة الروح الى مداها ، وعلم غاية ما يتاح للانسان أن يستقصيه من حقيقتها .. فما يعلم ذلك بوحي البادية ، أو بوحى القرن السادس أوالسابع للميلاد ، وانما يعلمه بوحى من الله ..

مسألة القدر

يظهر أن الايمان بالقدر ملازم للايمان بالمعبود منذ اقدم العصور ..

فقبل الأديان الكتابية ، وقبل الأديان الكبرى التى آمنت بها أمم الحضارة فى العصورالقديمة ، كان الانسان فى جهالته الأولى يؤمن بالأرباب والارواح ، ويعبدها لأنها تتصرف فى شئونه ، وتمنعه بعض ما يحب ، وتبتليه ببعض ما يكره ، وتتدخل بارادتها فيما يريد وما لايريد

فلم يكن فى وسعه أن يجهل منذ أقدم القدم انه محدود الحرية ، مغلوب الارادة ، محتاج الى رياضة القوى التى تحيط به وتملك اعطاءه ومنعه تارة بالقرابين والصلوات ، وتارة بالرقى والتعاويذ ..

ينتظر المطر فلا يسقط المطر ، ويخرج الى الصيد فيجده تارة على وفرة ، وتارة على نزارة ، ولا يجده حيث ابتغاه تارات .. فيعلم انه خاضع لارادة تقدر له نصيبه من النجاح والخيبة ، ويعلم ان ارادته وحده ليست هى الشىء الوحيد فيما يشتهيه أو فيما يخشاه

ذلك هو القدر فى معناه الساذج القديم ..

ولكنه قدر لايستلزم فى خلد الهمجى الاول نظاما مرسوما لتدبير الأكوان ، ولا خطة مقررة لتوجيه الانسان .. ذلك فهم للقدر لا يتأتى قبل فهم الكون أو

فهم الظواهر الطبيعية وما يربط بعضها ببعض من القوانين أو العلاقات ..

وكل ما كان يستلزمه فهم القدر على النحو الذى تخيله الهمجى الاول انه سيطرة مرهوبة تملك الانعام والحرمان ، وتتحكم فى الانسان تحكم القوى الذى يمضى على هواه ، ولا يعرف قانونا يتبعه فيما ينكره أو فيما يرضاه ..

وربما خطر للهمجى أن الأرباب أو الارواح التى يعبدها تلتذ تسخيره وتخويفه ، ويحلو لها أن تذله وتعتز بقوتها عليه .. فهو لايعرف ما تريد ولا ما ينبغى أن تريد ، ولكنه يعرف انها فى حاجة الى التمليق والمداهنة والاسترضاء ، لتعطيه ما يريد ..

***

ولما أدرك الانسان شيئا من نظام الأكوان، ترقى بالقدر من معنى الهوى الجامح الى معنى التنظيم والتدبير ، وأدخل فى سلطان القدر كل موجود فى الارض والسماء ، ومنها الانسان ، بل منها الآلهة والأرباب قبل الانسان..

فالهنود الأقدمون كانوا يؤمنون بسيطرة «الكارما» أو القدر على الزمان والمكان وعلى الخالق والمخلوق ، وانه يعيد الكون مرة بعد مرة على نظام واحد يتكرر فيه كل موجود من أكبر الكواكب الى أصغر دقائق الاجسام .. ولا حيلة للقدر نفسه فى تغيير شيء من هذه الاشياء لأنه لا يعى ما يفعل بل يقع منه الفعل ، كما ينبغى أن يقع ولا بد له من الوقوع ، وكلما تمت دورة من دورات الوجود كان تمامها نهاية الوجود وبداية الفناء ، ويبقى القدر مع هذا ليعيد الفناء وجودا متكررا متجددا على النحو الذى ابتدأ منه وانتهى اليه ..

والبابليون كانوا كما نعلم أصحاب نجوم وارصاد ،

فعرفوا الايمان بالقدر على ما يظهر من طريق الايمان بالتنجيم ..

لأنهم آمنوا بسيطرة الكواكب على مقادير الاحياء ، وغير الأحياء ، فكل مولود يولد فانما تكون ولادته تحت طالع من الطوالع التى تتعلق بكوكب من كواكب السماء . والارض نفسها وجدت تحت طالع من هـذه الطوالع ، زعموا انه طالع الشمس فى برج الحمل .. ثم تقاسمت الكواكب خلائق الارض وأيامها ومواقيت الزرع والعمل فيها ، فلا يجرى فى الارض حدث من الاحداث الا بحساب مرقوم فى سجل الافلاك والبروج ..

وكانوا يعتقدون بالسعود والنحوس ، فمن النجوم ما يسعد ويعطى ومنها ما يشقي ويحرم . ولا مهرب للانسان من طالعه الذى يلاحقه بالسعد أو بالنحس مدى حياته ، ولكن المنجمين قد يعلمون مجرى هذه الطوالع فيعالجونها بالحساب كما نعالج قوانين الطبيعة اليوم بما نعلم من أحوالها وما نملك من توجيه تلك الاحوال الى جانب النفع دون جانب الاضرار ..

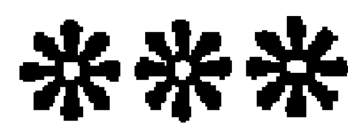
***

ومن الراجح جدا ان القول بالثنوية ــ أو نسبة أقدار الوجود الى مشيئة ربين اثنين ــ انما كان حـــلا لمشكلة القدر عند حكماء المجوس الأقدمين، بعد أن بلغوا بصفات الاله الأكبر مبلغا لايوافق ارادة النقص ولا ارادة الشقاء

فجعلوا تقـــدير الخير لاله ، وتقدير الشر لاله .. وقسموا العالم شطرين بين النور والظلام ، وبين الايجاد والافناء . وحدوا قدرة الخير ليتجنبوا القول بأن اله الخير يريد الشر ويجريه فى قضائه على العباد ..

أما المصريون الأقدمون فكانوا وسطا بين الايمان بحرية الانسان والايمان بسيطرة الأرباب ، لأنهم آمنوا بالثواب

والعقاب فى العالم الآخر فكان ايمانهم هذا كالايمان بأن الانسان يعمل وان الأرباب تتولى جزاءه على عمله بعد ذاك .. فهى قادرة لاشك فى قدرتها ، ولكن الانسان قادر على أن يعمل ما يرضيها ويستحق ثوابها أو ما يغضبها ويستحق عقابها . وقد جاء فى صلواتهم ما يدل على تصريف الآلهة أحوال العالم وأسباب الحياة ، ولكن الكلام فى التقدير عندهم أقل ما عرف فى أديان الزمن القديم ..



واقتبس اليونان شيئا من البابليين وشيئا من المصريين .. اقتبسوا التنجيم ، وطوالع الكواكب من بابل ، واقتبسوا عقيدة الثواب والعقاب من مصر ، ولكنهم لم يحفلوا ــ أو لم يستطيعوا أن يحفلوا ــ كما فعل المصريون باعداد الاجساد للحياة الاخرى ، وتزويدها بما تحتاج اليه فى تلك الحياة من مقومات البقاء ..

وقد كان القدر عندهم غالبا على الآلهة والبشر على السواء، وكانوا كثيرا مايصورونه فى أساطيرهم ورواياتهم غاشما ظالما يتجنى الذنوب على الناس ، ويستدرجهم الى الزلل والغلط ليوقع بهم ما يحلو له من العقاب ، وكانت عندهم النقمة ربة يسمونها « نمسيس » تأخذ الجار بذنب الجار ، وتقتص من الأبناء والأحفاد لجرائر الآباء والأجداد ، وتلاحقهم بالغضب ملاحقة اللدد والاصرار من مكان الى مكان ، ومن جيل الى جيل ..

وكانت صورة «زيوس» رب الارباب فى شعر هوميروس أقرب الى الجماح والكيد ، والى سوء النية الذى يغريه باذلال البشر وترويعهم ، وأن ينفس عليهم حظوظهم ويردهم الى القناعة والصغار .. ثم ترقى به الشاعر هزيود الى نمط من العدل فى محاسبة الناس بميزان يزن

الحساب فى ميزان الحسنات والسيئات ، فيعطف على من أحسن ويسخط على من أساء ..

***

ولكن المساهمة فى مسألة القضاء والقدر تحسب لليونان فى ميدان الفلسفة والتفكير ، ولا تحسب فى ميدان الدين والعقيدة ، لأنهم طرقوا باب البحث فى هذه المسألة فجاءوا بخلاصة الأقوال التى تلاحقت فى مباحث الفلاسفة بعدهم الى العصر الأخير ، ولا نعنى باليونان هنا يونان السلالة والوطن ، وانما نعنى بهم كل من تشملهم الثقافة اليونانية فى وطنهم وفى غيره من الاوطان ..

وأول ما يتجه الذهن من الفلسفة اليونانية الى راى الحكيمين الكبيرين اللذين يحيطان بأطراف الموضوعات فى أكثر مسائل التفكير ، وهما : افلاطون الملقب بالالهى ، وأرسطو الملقب بالمعلم الأول ..

فأفلاطون يتابع استاذه سقراط بعض المتابعة فى نسبة الشر الى الجهل وقلة المعرفة ، ويرى أن الانسان لايختار الشر وهو يعرفه .. بل يساق اليه بجهله أو بعوارض المرض والفساد فيه . ولكنه لا يساق اليه بتقدير الآلهة لأن الآلهة خير لا يصدر عنها الا الخير . وانما يساق اليه باعتراض الكثافة المادية ــ أو الهيولى ــ فى سبيل مطالبه الروحية ، وان هذه الكثافة المادية لازمة ــ مع هذا ــ لتمحيص الخير وتحقيق معناه .. فان الحياة الانسانية التى تكون خيرة لأنها كذلك ، ولا يمكن أن تكون غيرذلك ، ليست بخير يغبط عليه الانسان .. ولكنها تكون خيرة لها فضل فى خيرها اذا اعترضها الشر فجاهدته وانتصرت عليه فى هذه المجاهدة ، فلا خير فى الدنيا اذا زال منها الشر بالنظر الى الانسان ..

وكل شىء من أشياء هذا العالم له ــ فى رأى افلاطون

ـ صورة مثالية أو صورة كاملة فى عقل الاله .. فهذه الاشياء الموجودة فى الحس هى محاولة لمحاكاة صورها الخالدة التى لا نقص فيها ، وانما يشوبها النقص فى عالم الحس لاعتراض المادة دون تحقيق الصورة المثلى . وقد تجرى محاولة الخلق على أيدى أرواح دون الله فى القدرة والخير ، فيظهر النقص فى عملها لأنها لم تبلغ مع الاله كماله المطلق المنزه عن الشرور ..

فالشر موجود فى هذا العالم ، ولكنه ليس من تقدير الاله .. ووجـــوده لازم مع وجود الخير لأن الخير الاضطرارى لا قيمة له ولا دلالة فيه على فضيلة فاعله. وحرية الانسان فى طلب الكمال لا يحدها قدر مقدور من الاله الأعظم ، بل تحدها عوائق الكثافة المادية أوالهيولى، وهى كذلك عائق فى سبيل تحقيق الكمال الذى يريده الله

***

ومذهب ارسطو فى القدر يلائم مذهبه فى صفة الاله ، فان اله ارسطو بمعزل عن الكون وعن كل ما فيه من حى وجماد .. فلا يقدر له أمرا ولا التقدير من شأنه الذى يوافق صفة الكمال المطلق فى رأىالمعلم الأول ، لأن الكامل المطلق الكمال لا يحتاج الى شىء غير ذاته ، فلا يريد شيئا ولا يفكر فى شىء غير تلك الذات .. وما كانت علاقة الاله بالكون الا علاقة المحرك الاول الذى لايتحرك ، لأنه لو تحرك للزم أن تبحث عن مبدأ حركته وسببها وغايته منها ، وكل أولئك لا يتفق عند ارسطو مع صفات الكائن الكامل الذى لا بداية له ولا نهاية ، ولا غاية له من وراء عمل يعمله ، بل لا عمل له غير أن يعقل ذاته فى نعيم سرمدي لا يعرفه العاملون ، لأن العمل حركة واختلاف من حال الى حال ..

ولا اختلاف فى طبيعة الكائن الذى بلغ التمام فى أحسن

الأحوال ، وليس المراد بانه هو المحرك الاول انه عمل شيئا لتحريك جميع هذه المتحركات ، وانما المراد به انه مصدر العقل وان العقل يوحي الي الاشياء أن تتسامى الي مصدرها فتتحرك من صورة الي صـــورة فى طلب الكمال ، لأنها هى المحتاجة الى الحركة واستكمال الصور فى ارتقائها ، دون صاحب الصورة المثلى أو الصــورة المحض التى لا تمتزج بالهيولى أى امتزاج ..

ومذهب أرسطو في القدر يلائم هذا المذهب فى صورة الاله .. فلا قدر هناك ولا تقدير ، وكل انسان حر فيما يختاره لنفسه ، فان لم يستطع أن يفعل فهو على الأقل مستطيع أن يمتنع. وغاية الانسان وغير الانسان من هذه الكائنات أن تحقق ما ينبغى لوجودها على الوجه الذى يناسب ذلك الوجود ..

***

ولفلاسفة اليونان ـ غير افلاطون وارسطو ـ مذاهب فى القدر تتراوح بين مذهب الجبر ومذهب الحرية .. وتتوسط بينهما احيانا فى القول بالاضطرار ، أو القول بالاختيار ..

فعند ديمقريطس ان الموجودات كلها تتألف من الذرات ، وان الانسان مثلها ذرات تتألف فيحيا ، وتتنذثر فيموت

وعند هيرقليطس ان النظام قوام الاشـــياء ، وان الاختلاف ضرورة من ضرورات النظام ، وان العدل فى طبيعة الوجود يعود بالاشياء الى قوامها كلما طغى مزاج منها على مزاج ، وان الشر من صفات الأجزاء وليس من صفات الكل المحيط بجميع هذه الأجزاء .. فيخضع الانسان له لأنه جزء ناقص لا فكاك له من ضريبة النقص المحيق به وبغيره ، ولا حيلة له فى ذلك ولا للاله أو «الكلمة» التى ترادف عنده معنى الاله . ولكنها تطرد

مع قضاء النظام الشامل وتجرى معه مجراه ، الى ان يدركها الاختلال فيردها سواء العدل الى الاعتدال ..

وعند فيثاغوراس كل شيء محسوب ، لأن العدد هو قوام الوجود .. فما من صفة نصف بها الموجودات الا نراها مفارقة لها فى طور من أطوارها ، ما عدا العدد.. فهو الصفة التى لا تفارق موجودا من الموجودات فى طور من الاطوار .. ولا يتضح رأى فيثاغوراس فيمن يحسب الحساب لتركيب هذه الاعداد، ولكنه مقارب لمذهب أهل الهند فى تعليق كل شيء بالحساب السرمدى أو القانون الأبدى المسمى عندهم « بالكارما » كما تقدم . ومرجعه اليهم فى مسألة القدر كمرجعه اليهم فى مذهبه كله على التعميم ..

***

وعنـد زينون وأتباعه الرواقيين ان الناموس يقضى قضاءه فى جميع المخلوقات ، فقولهم بالجبر أرجح جدا من قولهم بالاختيار ..

وعند ابيقور ان الذرات هى قوام الموجودات ، وان الذرات اذا تركبت فى روح الانسان ملك بعض الحرية التى لا يملكها الجماد.. لأن ذرات الروح ألطف من ذرات الجسم الجامد وأقدر منها على التصرف والاختيار .. ولكن الآلهة لا تقدر للناس عند الابيقوريين ، لأنها سعيدة فى سماواتها ولا حاجة بالسعيد الى التفكير فى نفسه ولا فى غيره .. أما القدر الأعمى ، كما تمثله أساطير اليونان، فهو عند ابيقور خرافة أصعب على التصديق من خرافات الامساخ والفيلان .. فهناك قدر فى النظام لا يأتى من الأرباب ولا من ربة القضاء الأعمى .. ولـكنه يأتى من طبيعة الاشياء بمقدار ما فيها من تناسق الأجزاء ..

وأهم الفلاسفة بعد افلاطون وارسطو رأيا فى موضوع

القضاء والقدر ، هو بلا ريب افلوطين ، امام الافلاطونية الحديثة الذى ولد بأقليم اسيوط ، واستفاد معظم دراساته من مدرسة الاسكندرية. وانما يهم راى افلوطين فى هذا الموضوع لأنه على اتصال شديد بالمذاهب الدينية ومذاهب التصوفعلى الخصوص بين أصحاب الأديان..

ويؤخذ منأقوال افلوطين المتعددة ان الانسان فىحياته الارضية خاضع لقضاء سابق من أزل الآزال ، وانه يعاد الى الحياة مرات كثيرة ، ويجزى فى كل مرة على أعماله فى حياته السابقة جزاء المين بالعين والسن بالسن والمثل بالمثل قيد الشعرة فى كل جليل ودقيق.. فمن فقأ عين انسان فقئت عينه فى دور من أدوار الحياة المتلاحقة فى عالم الجسد . ومن ضرب أمه عاد الى الحياة فى جسد امرأة وولد له البنون واقتص منه أحدهم بضربة كتلك الضربة ، يكفر بها عما جناه ..

ولكن من الذى يقدر هذا التقدير ويكتبه فى سجله للحساب والقصاص ؟ ..

ليس هو الاله الأحد ، لأن مذهب افلوطين فى الاله على غرار مذهب ارسطو فى التنزيه والتجريد ، ويتجاوزه كثيرا فى عزل الوجود الالهى عن هذا الوجود المحسوس ..

فعند افلوطين ان « الأحد » أرفع من الوجود ، وأرفع ن الوعى ، وأرفع من التقدير ، وانه لا يحس ذاته لأنه واحد لا يتجزأ ، فلا يكون فيه بعض يتأمل بعضا ، كما يحدث فى حالة الاحساس ..

وعنده ان المادة أو الهيولى لا تعقل ولا تقدر ، ولا تقيم ميزان الحساب ..

فاذا أردنا أن نسمى القدر فى مذهب افلوطين باسم مطابق لمراده ، فهو على الاصح قدر الضرورة التى

لا محيص عنها فى عالم الارواح ، أو فى عالم الاجساد . .

فالخلق يصـــدر من الله ضرورة لأن الخالق يفيض بالانعام ، ضرورة من ضرورات الخير التى لا تنفصل عن آثارها ، ولا بد لها من أثر . .

والإرواح تصـــدر من الخالق ضرورة ، على طبقات تتعالى وتتدانى ؛ على حسب اقترابها من مصـــدرها الاصـيل . .

وكل روح يتصل بالمادة حتما ، لأنه يقتبس طبيعة الخلق من مصدره الاول ، فيمتزج بالمادة ، ليحكى فيها قدرة الخالق على الاعطاء والانعام والتكوين . .

ومتي اتصل بالمادة فهو يغالبها وتغالبه ، وينتصر عليها أو تنتصر عليه . .

فاذا غلبها ارتفع حتما فى معارج الروح ، واذا غلبته بقى حتما فى أوهاق الهيولى ، وحدث له حتما ما يحدث لكل روح وهيولى فى مثل ذلك المزيج ، كما يحدث التحول حتما فى مزيج العناصر المادية ، كلما امتزجت على نحو مقدور . .

***

ومن المناسب أن نستطرد فى تلخيص آراء الفلاسفة فى القدر من ذلك العصر الى العصر الحديث ، قبل أن ننتقل الى مذاهب الأديان ومذاهب العلماء الذين عرضوا للمسألة من جانب العلوم الطبيعية كما عرفت فى القرن العشرين . .

ونتخطى هنا الفلاسفة الدينيين لنعود اليهم بعد الكلام على مذاهب الأديان ، ونبدأ بالفلاسفة الذين عرضـــوا للمسألة من جانب البحث الفلسفى بمعزل عن المذاهب الدينية . .

فالفيلسوف الانجليزى « توماس هوب » يرى أن

الانسان يعمل ما يريد .. ولكنه لايريد ما يريد .. بل يريد ما فرضته عليه الوراثة ، وطبيعة البيئة ، وعادات المكان والزمان .. فهو بين الرغبة والامتناع يقدم أو يحجم ، وكل اقدام أو احجام فله باعث مفروض عليه . وما الارادة الا الرغبة الاخيرة من هذه الرغبات تأتي في النهاية مسبوقة بأسباب بعد أسباب ..

والفيلسوف الفرنسي « ديكارت » يقول : ان الجسد محكوم بقوانين الطبيعة كسائر الاجسام المادية ، ولكن الروح طليقة من سلطان هذه القوانين ، وعليها أن تجاهد الجسد ، وتلتمس العون من الله بالمعرفة والقداسة في هذا الجهاد ..

ومن تلاميذه من يقول : ان الانسان حر في كل فعل من أفعاله ، ولكن الله يعلم منذ الازل ما سيفعله كل انسان ، لأنه عليم خبير ..

ويرى « سبنوزا » أن كل شيء يقع في الدنيا فلا بد أن يقع كما وقع ، ولا يتخيل العقل وقوعه على نحو آخر ، لأن كل شيء يصدر من طبيعة « الجوهر السرمدي » وهو الله ..

وما في الدنيا من خير وشر على السواء هو من ارادة الله . ولكنه يبدو لنا شرا لأننا محدودون ، ننقص من ناحية ، ونتلقى الشر من حيث ننقص . أما الجوهر السرمدي فلا يعرض له النقص ولا تتصل به الاشياء الا على وجه الكمال ..

ومذهب « ليبنتز » يطابق مذهبه المعروف عن الوحدات ، فكل موجود في الكون « وحدة » مستقلة لا تتأثر بوحدة أخرى . ولكنها قد تتفق في الحركة كما تتفق الساعات في الاشارة الى الوقت ، دون أن تتأثر ساعة منها بغيرها . وكل وحدة من هذه الوحدات : فهي

محتوية على ذاتها ، محاكية فى وجودها للوجود الأعلى : وهو الله .. ولكنها تتفاوت فى الكمال على حسب التفاوت فى هذه المحاكاة . فاذا أصابها النقص فهو يصيبها من داخلها ولا يصيبها مما هو خارج عنها . وهى هى مناط قضائها وقدرها بغير سلطان عليها من سائر الموجودات ، وكل ما هنالك أن الشر يعرض لها لأنها ناقصة ، ويقل فيها كلما زاد نصيبها فى محاكاة الله ..

والفيلسوف الالمانى الكبير « عمانويل كانت » يقرر ضرورة الاسباب فى عالم التجارب المحسوسة . ولكنه يرى هنالك عالما أعلى من عالم المحسوس ، هو عالم الحقائق الأدبية . وحرية الارادة حقيقة من هذه الحقائق عند الفيلسوف ، فان لم نجد لها برهانا من ترابط الاسباب فى التجارب الحسية فيكفى أن نعلم أن الايمان بحرية الارادة لازم لتقرير الاخلاق البشرية والتكاليف الأدبية ، ولزومه هذا هو أقوى دليل نستمده من الحس على صدق الايمان بها ، ووجوب العمل على مقتضى هذا الايمان ..

ويتلخص مذهب « هيجل » كله فى الفلسفة التاريخية التى تقرر « أن تاريخ العالم بأجمعه انما هو ترويض الارادة الطبيعية الجامحة حتى تخضع من ثم لقاعدة كونية عامة تتولد منها الحرية الذاتية » ..

فالقوى الطبيعية جامحة لا تعرف الحدود ، وخضوع هذه القوى لقاعدة عامة هو الذى يكف هذا الجماح ، ويخلق الحرية الأدبية . وفحوى ذلك ان الانسان مسوق الى الحرية بسلطان ذلك القانون ، فهو يتلقى الحرية نفسها من طريق الاضطرار ..

***

ويقوم مذهب شوبنهور على الارادة والفكرة ؛ ولكن

الارادة عنده هى مصدر الشر كله فى الكون وفى الانسان، والارادة فى الكون توحى الى ارادة الانسان أن يستأثر لنفسه بالمتعة ويعانى ما يعانيه من الطلب والكفاح . ولا يزال أسيرا لهذه الارادة التى تعزله عن كل ما حوله حتى يخلص الى عالم الفكرة فينجو من الاثرة الفردية. وينتقل الى عالم السكينة و « العموم » الذى لا تنازع فيه بين أجزاء وأجزاء ، ولا بين ارادة وارادة ..

فكلما كانت هناك ارادة فهناك شر ، وكل تقدير فى رأيه فهو على هذا تقدير شرور لا يتأتى الفكاك منه بغير الخروج من عالم التقدير ..

ولايزال فلاسفة العصر يخوضون فى مباحث هذا الموضوع على تفاوت كبير بين القول بالجبر ، والقول بالحرية الانسانية ، ومنهم من يقول بأن الانسان يشترك فى التقدير ، ويخضع له ، لأنه جزء من عناصر الطبيعة التى تفعل فعلها فى الاحداث الكونية ، ولا يقتصر أمرها كله على الانفعال ..

ولكن الفلسفة لا تستأثر بمباحث هذا الموضوع فى القرون الاخيرة ، لأن نهضة العلوم الطبيعية قد أدخلت هذه المباحث فى نطاقها ، ولا سيما علم النفس الذى يعتمد على تجارب تلك العلوم ..

وقد كان أول مدخل للعلوم الطبيعية فى هذه المباحث الفلسفية من جانب علم الفلك ، أو جانب الرياضة على الاجمال ، بعد القول بدوران الارض حول الشمس واعتبارها سيارا من السيارات الشمسية يجرى عليها ما يجرى على غيرها من أفلاك السماء ، ولا تختص بالوقوف فى مركز الكون كله سواء فى المكان أو فى جلالة الشأن وحساب الخلق والتقدير ..

فأخذ العلماء منذ القرن السادس عشر يقررون أن

« القانون الآلى » هو ملاك النظام فى هذا الوجود ، وان هذا القانون عام شامل لا يأذن باختلاف ولا استثناء .. فلا محل فيه لتصرف الأقدار بالتبديل والتحويل ..

ولكن «القانون الآلى» مع هذا لم يبطل القول بالعناية الالهية أو بالتقدير الالهى عند المؤمنين من العلماء الرياضيين أو الطبيعيين الذين يقبلون القول بالنظم الالهية ، والقوانين الشاملة لفلك الارض وسائر الأفلاك

فكان «ديكارت» يفصل بين عالم المادة وعالم الروح ، ويرجع بقوانين الكون الحسى الى المادة والحركة ، ولكنه يعزل عالم الروح عن سلطان هذه القوانين ..

وكان « نيوتن » يفسر حركات الافلاك بقانون الجاذبية وبعض قوانين الحركة ، ولكنه يسمى الجاذبية نفسها روحا Spirit تسرى بين الاجرام سريان الارواح الخفية ، وان كانت لها آثار تقدر وتقاس ..

ولما ظهر علم النفس على المنهج الحديث لم يحسم هذا الخلاف بين الجبر والحرية الانسانية ..

فالقائلون بالمادة وحدها قالوا : ان أعمال الانسان كلها آلية يستطاع تفسيرها بالتفاعل بين وظائف البدن وأخلاطه ، ولا فرق فى أساس هذا التفسير بين تصرف الانسان وتصرف الحيوان ..

والقائلون بالعقل أنكروا امكان تفسير الظواهر العقلية كلها بالحركات الآلية التى تعمل فى الاجسام ، وقالوا بحرية العقل أو بحرية الارادة الانسانية فى كثير من الاعمال ..

وحلت الحتمية الحديثة Determination محل الجبرية القديمة Fatalism فى اصطلاح العلماء ..

فالقائلون بالحتمية يقولون بها لأنهم يؤمنون بالنظم

الآلية وحدها ، ولا يؤمنون بارادة الهية تتعرض لتلك النظم بالتبديل والتحويل ..

ومن ثم أصبح القول بالحتمية مناقضا للقول بالجبرية في كلام علماء الأديان ، لأن الجبرية تحصر الارادة كلها في الاله المعبود .. اما الحتمية فهي على الأقل لا تستلزم وجود اله الى جانب القوانين التى يفسرون بها حركات الوجود ..

وتعاقبت الكشوف فى ميادين العلوم الطبيعية ، وكل منها يرجع الى قانون يزعم أصحابه انه صالح لتفسير كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة بغير حاجة على الاطلاق الى مدد مما وراء الطبيعة ، ولا فرق فى ذلك بين ظواهر المادة العضوية ، وظواهر المادة غير العضوية ، أو بين الحي والجماد .. فكان كل كشف من هذه الكشوف المتعاقبة يرجح بكفة الحتمية على كفة الاختيار من جانب الله ، أو من جانب الانسان ..

ثم تقدمت الكشوف الذرية فى أوائل القرن العشرين..

فاذا بكشف منها يضرب الحتمية ضربة قاصمة ، ويفتح الباب واسعا للقول بالحرية والاختيار ..

وذلك هو الكشف الذى جاء به العالم الدنمركى «نيلز بوهر» صاحب جائزة نوبل للعلوم فى عام ١٩٢٢ ..

فمن المعلوم ان الذرة قد وصفت فى أقوال العلماء الطبيعيين بأنها منظومة كالمنظومة الشمسية ، تشتمل على نواة كالشمس وكهارب تدور فى فلك النواة كما تدور السيارات على وجه التمثيل والتقريب ، وان الاشعاع انما يحدث من انتقال كهرب من فلك عامل الى فلك آخر اقل منه عملا أو أقل منه فى الطاقة على حسب تعبير الطبيعيين ..

فجاء «بوهر» وقرر أن الكهرب يتنقل من فلك الى فلك

بغير قانون معلوم ، وان الوف التنقلات لايشبه بعضها بعضا ولا يمكن التنبؤ عن وقوعها ولا عن سبب وقوعها على اي أساس يمكن أن يسمى باسم القانون المطرد المعاد

وجاء بعده « اوجست هيزنبرج » العالم الجرمانى صاحب جائزة نوبل فى عام ١٩٣٢ ، فذهب فى انكار الحتمية مذهبا أبعد من هذا وأفعل فى اثارة الشكوك القوية من حولها ، فقرر ان التجارب الطبيعية لاتتشابه على الاطلاق ، ولا تأتى تجربة منها وفاقا للتجربة الاخرى تمام الموافقة ، ولو اتحدت الآلات والظروف . وسمى مذهبه هذا « باللاحتمية » Indeterminacy لأنه ناقض به قول الحتميين كل المناقضة فى صميم تركيب المادة ، وهو تركيب الذرة وحركة الاشعاع ..

***

وبلغ من وثوق بعض العلماء بصحة هذه التجارب ان عالما كبيرا كالسير «آرثر ادنجتون» أعلن ان الأمر فيها قلما يحتمل الخلاف ، فقال : «لا أعتقد انهناك انقساما ذا بال فى رأى القائلين بهبوط مذهب الحتمية ، فان كان هناك انقسام فى هذا الصدد بين المشتغلين بالعلوم فانما هو انقسام الراضين والآسفين . فأما الآسفون فهم بطبيعة الحال يرجون أن تعود الحتمية الى مثل مكانها الذى كانت تشغله فى العلوم الطبيعية ، ولعلهم لايرجون المستحيل ، ولكنى لا أرى سببا لتوقع رجعتها فى أى شكل وعلى أية صورة »

ويضاف الى هذا جميعه ان المادة كلها قد انتهت الى اشعاع ، وان الاشعاع أوشك أن يدخل فىحساب الحركة المجردة التى يرصد جانب منها بالحساب ويدق جانبها الأكبر عن الحساب والتخمين

فالحتمية العلمية لا تثبت لقوانين المادة انها تنفرد

بتفسير كل سر من أسرار الطبيعة ، وكل حركة من حركات الاجسام ، ولا تزال تعمل حيث تعمل ومعها متسع كبير للاختيار فى أصغر الذرات فضلا عن أعظم الاجرام ، وهى لا تمنع المؤمن أن يقول مع العلم كما يقول مع الدين « عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » وليس معنى هذا ان الكون يجرى على غير نظام ، وانما معناه ان النظام لايمنع الاختيار ولا يغلق الباب على الايمان ..

والى هنا ندع العلم والفلسفة فى موقفهما الاخير من مسألة القدر ، ونعود الى اجمال هذه المسألة كما عرضت فى الأديان الكتابية ، وهى الموسوية والمسيحية والاسلام

***

فالكلام على التقدير الالهى قديم فى الكتب اليهودية ، وردت الاشارة اليه من أول الأسفار المعتمدة الى آخرها ، ولكن على درجات فى أساليب التقدير تختلف باختلاف الصورة التى كانوا يفرضونها للاله ، أو باختلاف نصيبه عندهم من عظمة المشيئة ، وعظمة القدرة ، وعظمة الصفات ..

وكانت الصورة الاولى للاله عندهم صورة المالك المطلق الذى يريد أن يستأثر لنفسه بالمعرفة والخلود والسلطان، ويكره من الانسان أن يتسامى الى منازعته فى هذه الصفات ، فيبتليه بالعجز والحرمان ويحد من حظوظه فى النعمة والحياة ..

فالنوع الانسانى على هذه الصورة رعية متمردون يخضعون للقوة ويتملصون منها بالحيلة والعصيان ، كلما وجدوا لهم سبيلا الى التملص والاحتيال ...

وعلى هذه الصورة وقعت الخطايا الاولى التى جرت

عليهم غضب الله وحرمتهم نعمة الخلود ، وهى الأكل من الشجرة ، والعيث فى الارض بالفساد ..

وقد غضب الله كما جاء فى سفر التكوين لأن الانسان اكل من الشجرة التى نهى عنها ، وهى شجرة معرفة الخير والشر، أوشجرة المعرفة الالهية فقال الرب الاله : « هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد .. »

ومن هنا حاقت اللعنة بالانسان لأنه أكل من الشجرة ، وبالمرأة لأنها استمعت الى غواية الحية ، وبالحية لأنها سولت لهما هذا العصيان . وكان قضاء مبرما على نوع الانسان كله بعد آدم . فقال الرب الاله للحية : « لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها : هو يسحق رأسك وانت تسحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولادا ، والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك ، وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك واكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا : لا تأكل منهـــا ، ملعونة الارض بسببك .. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الارض التى أخذت منها ، لأنك تراب والى تراب تعود »

ولم يكن الانسان بالمتمرد الوحيد على ارادة الله ، فان أبناء الله سكان السماء ، ويراد بهم الملائكة .. نظروا الى بنات الناس فرأوا أنهن حســنات فاتخذوا منهن نساء ، وغضب الرب فقال : « لا يدين روحى فى الانسان الى الأبد لزيغانه . هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة » ..

وبعد ذلك ايضا «دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا ، وهؤلاء هم الجبابرة المشهورون » .. «فراى الرب ان شر الانسان قد كثر فى الارض ، وان تصور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم . فحزن الرب انه عمل الانسان فى الارض ، وتأسف قلبه . فقال الرب امحو عن وجه الارض الانسان الذى خلقته : الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأنى حزنت اننى عملته . وأما نوح فوجد نعمة فى عين الرب » ..

ويمكن أن يقال على هذا أن الخطيئة الكبرى هى طموح الانسان الى العلم والخلود اللذين استأثر بهما الله. فالله على هذه الصورة مالك يكره من رعاياه أن ينفسوا عليه أسرار الحكم والبقاء ، وهو يملك التقدير والتدبير ، ولكن كما يملك الحاكم فرض الشرائع وفرض الجزاء والعقاب ، وقد يراجع نفسه فيما قضاه فيبطله ويلغيه ويندم عليه ، كما يفعل الملوك فى سياسة الرعايا المحكومين

وقد جاء فى الاسفار المتعددة كلام صريح عن تقسيم الحظوظ بين الآحاد وبين الشعوب من قبل الميلاد . فمن ذلك تمييز بني اسرائيل على غيرهم وتمييز يعقوب على عيسو ، وذرية يعقوب على ذرية عيسو ، وكلاهما جنين فى بطن أمه .. « وتزاحم الولدان فى بطنها .. فمضت تسأل الرب ، فقال لها الرب : فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبده صغير »

وترقى الوعاظ والأنبياء فى فهم عظمة الله ، فدعا اشعيا الى عبادة الله الذى علم الاشياء منذ القدم وهو « المخبر منذ البدء بالاخير » ..

ولكن « القدر » لم يزل عند بني اسرائيل مشيئة حاكم يأمر وينهى ويرجع عما أمر به وقضاه ، ولم يفهموا

القدر قط على انه نظام شامل للوجود محيط بالأكوان ، لا يكل عملا من أعماله الى الغيب المجهول ، ليمضي فيه بعد ذلك أو يرجع عنه رجوع الندم وخطأ الحساب ..

ففي كتاب اشعيا يوصف الله بأنه جابل الانسان ، وينهى الانسان عن مراجعته في قضائه ، لأنه « خزف بين أخزاف الارض . هل يقول الطين لجابله ماذا تصنع؟ أو يقول عملك ليس له يدان ؟ »

***

ولكن هذا الخزف يجبل ويعاد جبله ، ولا يستقر رأى الخزاف على حفظه أو تحطيمه ، فيحطم بعد حفظ ويحفظ بعد تحطيم . وكذلك قال ارميا : « قم انزل الى بيت الفخاري وهناك اسمع كلامي . فنزلت الى بيت الفخاري اذا هو يصنع عملا على الدولاب . ففسد الوعاء الذي كان يصنعه من الطين بيد الفخاري ، فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن في عين الفخاري أن يصنعه. فعاد الى كلام الرب قائلا : أما أستطيع أن أصنع بكم كهذا بيدي يا بيت اسرائيل . يقول الرب هو ذا كالطين بين الفخار أنتم كهذا بيدي يا بيت اسرائيل ، تارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والاهلاك ، فترجع تلك الأمة التي تكلمت عليها عن شرها ، فأندم على الشر الذي قصدت أن أصنع بها ، وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس فتفعل الشر في عيني فلا تسمع لصوتي : فأندم على الخير الذي قلت اني أحسن اليها به»

وربما حسن لليهود أن يتشبثوا بفهم القدر الالهي على هذه الصورة ، لأنهم علقوا آمالهم كلها في الخلاص على « اله » يتحيز لهم ، ويتحول من الغضب الى الرضاء ، لانقاذهم من سطوة أعدائهم .. فأصروا على تصوير القدر لأنفسهم بهذه الصورة ، على الرغم من تقدم العقيدة

الالهية فى عهد الفلسفة وعهد الديانات السرية ..

وقد أراحهم هذا الفهم من مشكلة القضاء والقدر عند أصحاب الديانات الاخرى ، لأن المشكلة انما تأتى من محاولة التوفيق بين ارادة الهية ، محيطة بكل شىء مقدرة لكل حساب ، وبين فعل الانســان للشر طوعا لتلك الارادة.. فاذا آمن الانسان بالله يمكن أن يقابله الانسان بالطاعة والعصيان ، ويمكن مع هذا أن يعدل عن العقاب الى الثواب ، وعن الثواب الى العقاب . فلا مشكلة هناك ولا موجب من ثم لمحاولة التوفيق بين احاطة القدر بكل كبيرة وصغيرة ، وبين حرية الانسان ..

***

ولهذا ســهل على رجل مثل يوسفيوس أن يقول : « ان الأمور كلها تجرى بقدر مقدور ولكنه لا ينتزع من الانسـان حريته فى فعل ما يختار . لأن الله أيضا شاء أن يمزج بين القدر ومشيئة الانسان ليتاح له عمل الخير والشر كما يريد » ..

وهذا بطبيعة الحال فحوى العقيدة الاسرائيلية من بدايتها الاولى . وهو غير المعنى الذى تصــوره فيلون الفيلسوف الاسرائيلى الذى نشأ فى الاسكندرية ، واقتبس عقيدته من الفلسفة وأسرار الديانة المصرية ، فانه يعترف بالشر فى الوجود.. ولكنه يرجع به الى امتزاج الروح بالمادة ومغالبة الحرية بضرورات الهيولى الجسدية .. فهو ينقل المسألة من صورة الحاكم والمحكوم الى صورة المبدأين المختلفين ، اللذين يقومان على اختلاف العقــل والهيولى . ومهما يكن من تشابه بين الرأيين فى النتيجة الظاهرة ، فالمصدر الذى يصدران عنه على أبعد ما يكون المصدران المتعارضان ..

ثم بدأت الدعوة المسيحية فى عصر فيلون ويوسفيوس ،

وذكر السيد المسيح الارواح الشريرة التى تسكن جسد الانسان ، ولكنه لم يذكر قط شيئا يدل على اصول الشر التى وردت فى الكتب الاسرائيلية الاولى ..

وانما فصلت العقائد القانون الالهى والخطيئة الانسانية والكفارة عن هذه الخطيئة على لسان «بولس» الرسول فى عظاته ومحاوراته ، ولاسيما رسالته المفصلة الى أهل رومية ..

ففى تلك الرسالة يقرر «بولس» الرسول ان أصل الشر فى الانسان هو عصيان آدم أمر ربه وأكله من الشجرة المحرمة ، وان الانسان يعمل الشر لوراثته هذه الخطيئة من أبيه ، ولا كفارة لها غير الموت الذى يحل الجسد منها ولكنه لا يحل الروح الا بكفارة اخرى : هى كفارة السيد المسيح .. فالذين يؤمنون بهذه الكفارة يستحقون الحياة الأبدية ، ولكنه لا يقصر ذلك على اليهود أو بنى اسرائيل ، بل يعم به أبناء آدم وحواء اجمعين .. فكل وارث للخطيئة يشمله الخلاص بالنعمة الالهية .. وقضاء الله وحده هو الذى يفصل بين الأشرار والأخيار ، وهو الذى يختار العباد للخلاص الأبدى أو للهلاك الدائم كما يشاء ..

وقد عاد «بولس» فى هذه الرسالة الى مثل الخزف والخزاف لينفى الظلم عن ارادة الله تعالى « فماذا نقول؟ ألعل عند الله ظلما ؟.. حاش لله .. لأنه يقول لموسى ارحم من أرحم واتراءف على من اتراءف .. فاذن ليس الأمر لمن يشاء أو لمن يسعى ، بل الله الذى يرحم . ومن أنت أيها الانسان حتى تجاوب الله ؟.. ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟.. أليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ، فماذا ان كان الله ـ وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته ـ احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة

للهلاك . ولكى يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد ، ليس من اليهود فقط بل من الأمم أيضا كما يقول فى هوشع أيضا سأدعو الذى ليس شعبى شعبى والتى ليست محبوبة محبوبة » ..

ولكن المسيحية ظهر فيها بعد « بولس الرسول » طائفتان من المدافعين عن عقائدها وقضاياها .. هما طائفة المجادلين ، وطائفة المسوغين أو المعتذرين ..

فانصرف المجادلون أو كادوا الى مناقشة أبناء الأمم الاخرى ، وانصرف المسوغون أو كادوا الى مناقشة اليهود والمعترضين من المسيحيين ..

وكانت أكبر حجة للمجادلين ان الله الكامل لايسأل عن الشر ولا يحبه ، وان الانسان اذن هو مصدر الخطيئة وعليه وزر جزائها ..

وكانت أكبر حجة للمسوغين على مثال ما تقدم فى رسالة « بولس الرسول » ، وهى الرجوع الى الأقوال المشابهة لعقائد المسيحيين فى كتب أنبياء بنى اسرائيل..

ووجد مع هذا من الآباء المسيحيين من أنكر وراثة الخطيئة ، وقرر أن الموت نتيجة طبيعية للحياة ، وان الانسان يموت ولو لم تقع خطيئة آدم ، وان باب الخلاص مفتوح لكل من تلقى نعمة السماء ، وآمن بالسيد المسيح.

واشهر هؤلاء القس البريطانى «بلاجيوس» الذى نشأ فى أواخر القرن الرابع ، وتنقل بين رومة وافريقية الشمالية، وفلسطين ، ونادى بدعوته فى كل مكان فأنكرتها مجامع المسيحية كلها فى ذلك الحين ، ومنها مجمع قرطاجنة ومجمع مليف ومجمع أفسس الثالث الذى ختم القرار فى هذه المسائل سنة ٤٣١ ..

وعلى هـذا أصبح من الباطل فى عرف أصحاب تلك المجامع أن يؤمن المسيحى بأن :

١ ـ آدم كان سيموت ولو لم يخطىء ..
٢ ـ ان خطيئة آدم أصابته وحده ، ولم تورث بعده في سلالته البشرية ..
٣ ـ ان الأطفال المولودين لهم من البراءة ما كان لآدم قبل اقتراف الخطيئة ..
٤ ـ ان أبناء آدم جميعا يستحقون البعث لمجرد بعث السيد المسيح ..
٥ ـ ان الأطفال يستحقون الحياة الأبدية بغير عماد
٦ ـ انالانسان قد يخلو منالخطيئة باتباع الوصايا الصالحة ، واجتناب الخطايا الممنوعة ..

وقد أصدرت هذه المجامع قرارها في عصر القديس اغسطين الفيلسوف المسيحي المشهور ، ولم يشهد واحداً منها ، ولكنه أقرها جميعا على ما ذهبت اليه ، وألف كتابه عن « عقاب الخطيئة وغفرانها » لتوضيح الفكرة من ناحية الدين ومن ناحية الفلسفة ، وخلاصتها أن آدم كان حرا في مشيئته فقادته هذه الحرية الى الخطيئة ، وان أبناءه ورثوا عنه الخطيئة ، ولكن العدل الالهي لم يحرمهم وسيلة الخلاص منها ، وهي كفارة الصليب ..

وليس اعتقاد ذلك بالسهل على الذهن الفلسفي ، ولو كان له ايمان كايمان القديس « اغسطين » .. فلم يزل يلقى من جراء التفكير في هذا الاعتقاد أو في هذه العقدة عنتا شديدا عبر عنه في كتاب الاعترافات حيث قال : « ولكنني الى ذلك الحين وان كنت أومن بأنك أنت ياربنا الاله الحق الذي لم يخلق أرواحنا فحسب ، بل خلق أجسادنا ، ولم يخلق أرواحنا وأجسادنا فحسب بلخلقجميع الكائنات وجميع الاشياء منزها عن النقص والتبدل وعن كل اختلاف وتحول . الا انني لم أكن أفهم

بغيرمشقة أوغموض سبب وجود الشر فى العالم . وارهقت نفسى لكى أفقه ما كنت قد سمعته من ان الارادة الحرة كانت هى سبب العمل السيىء منا ، وهى سبب آلامنا رأوجاعنا ، فلم أقدرعلىادراك ذلك ادراكا جليا لايشوبه الغموض . وكلما حاولت أن أنشل نفسى وأرتفع برؤياى من تلك الهاوية عدت اليها فغرقت فيها ، ثم أكررالمحاولة وأكرر العودة اليها . ولكن هذه الجهود رفعتنى قليلا الى ضيائك حتى عرفت اننى أريد كما اننى أحيا ، واننى عندما أقبل شيئا أو أرفضه فانما أنا نفسى الذى أقبل او ارفض ولا أحد سواى . وبدا لى حينئذ ان هذا هو سبب الخطيئة . وكل ما صنعته على خلاف مشيئتى ادركت اذن اننى أحتمله أكثر مما أفعله ، وانه ليس فى الواقع غلطتى بل عقابى ، وأرى لعدلك معترفا به اننى لم أعاقب ظلما وبغير جريرة — الا اننى أثوب فأقول — ومن الذى خلقنى هكذا ؟ . . أليس هو الله الذى لايوصف بأنه كريم فحسب بل هو الكرم المحض والخير كله ؟ . . فمن أين لى اذن أن أريد الشر ولا أريد الخير فأعاقب عدلا بهذا ؟ . . من أودع ذلك طبيعتى وغرس فيها بذور المرارة وقد خلقت بيد الله الحلو الذى لا مرارة فيه ؟ . . وان كان الشيطان هو السبب فمن أين أتى الشيطان؟ . . وان كان ذلك الشيطان أيضا قد انحدر بطبيعته السيئة من ملك كريم الى شيطان رجيم ، فمن أين جاءته تلك المشيئة السيئة التى عكست طبيعته فجعلته شيطانا ؟ »

ولكنه اعتقد بعد هذا القلق إنه استراح من وسواسه هذا بالتوفيق بين النقائض على النحو الذى قدمناه . . وكان مدار راحته النفسية أن سبق العلم بعمل الأخيار وعمل الأشرار صفة لا تنفصل عن الذات الالهية ، وان الله علم ما سيكون كما سيكون ، ولا بد أن يعلمه العلم

الصحيح ، ويقدر تقديره على حسب علمه المحيط بجميع الـكائنات ..

وأكبر الفلاسفة الدينيين فى المسيحية بعد القديس اغسطين هو القديس توما الاكوينى . وهو يوافق أستاذه القديم ، ويرى أن الانسان يقود نفسه ، ولا يقاد كما تقاد الدواب ، وان الارادة تتبع العقل والعقل من نعم الله على الانسان ، وغاية التقدير عنده كفاية التقدير عند أستاذه انه علم سابق من الله . ولكنه كان يخالف اغسطين فى نصيب الاطفال من الرحمة ويقول : ان الخطيئة أضعفت جانب الخير فى الانسان ولم تطمسه كل الطمس ، وان هذا الجانب هو الذى يعينه على تقبل الكفارة والخلاص

وظل الفقهاء الدينيون يقولون بأن السقوط الذى أصاب الانسان فى الخطيئة هو سقوط من عالم «مافوق الطبيعة» الى عالم الطبيعة . فلما قام «لوثر» بدعوته ، فسر السقوط بأنه مسخ للطبيعة وزيغ فيها ، وعزاه الى الشيطان ، خلافا لـكلفن Calvin الذى عزاه الى مشيئة الله لحكمة يعلمها فى سابق أزله ..

على أن مجمع « ترنت » Trent الذى انعقد فى واسط القرن السادس عشر ، قد عرض لمسألة الخطيئة ، فقرر أن حسنات الوثنيين ومن لايدينون بالمسيحية لا تعتبر من الخطايا ولا تكفى العقيدة وحدها للتكفير عن الخطيئة . وسمحت حرية البحث فى العصور الحديثة لبعض الفقهاء أن ينكروا مسألة الخطيئة ، وأن يعلن رجل كالدكتور كيرلس النجتون فى كتابه «قال الأحمق» : ان ادانة أجيال قبل أن تولد من جراء خطيئة آدم عسير أن توصف بالعدل . وان كانت هذه هى العقيدة المسيحية فعسير علينا أن ننظر فى تزكيتها أمام ضمير الأمة » ..

ولكن قرار الكنائس فى هذا الصدد شىء وبحوث

الفقهاء من اتباع الكنائس شيء آخر ، لأنها آراء يدينون بها ويستندون فيها الى المنطق العلمى قبل استنادهم الى نصوص الدين ..

ولما ظهرت الدعوة الاسلامية نهض المسلمون بالحصة الكبرى فى مباحث القضاء والقدر ، لأنها طرحت للبحث من جوانب متفرقة يتلاقى فيها أصحاب الدين والتفسير وأصحاب السياسة والخلافة ، واصحاب العلم والفلسفة ، وأصحاب الجدل والمناظرة مع أبناء الأديان الكتابية وغير الكتابية ، وقد اختلط بهم المسلمون فى كل بقعة من بقاع الدولة الاسلامية ..

ولا نحسب أن قولا من الأقوال فى مسألة القدر لم يرد له ذكر بنصه ، أو بعد التعديل والتنقيح فيه ، على لسان طائفة من طوائف المسلمين . ولكننا نجمل ذلك كله فى المذاهب الثلاثة التى ينقسم اليها المتكلمون فى كل مسألة من المسائل الكبرى ، وهم جماعة الغلاة فى الاثبات ، وجماعة الغلاة فى الانكار ، وجماعة المعتدلين المجتهدين فى التوفيق بين هؤلاء وهؤلاء ..

او هم فى مسألة القدر خاصة جماعة الجبريين ، وجماعة القدريين الذين سموا بهذا الاسم لأنهم يقولون باختيار الانسان مع القدر خلافا لما يسبق الى الذهن من مدلول هذه التسمية ، ثم جماعة المعتدلين من أهل السنة المتوسطين ، بين القول بالجبر والقول بالاختيار

واول القائلين بالجبر فى صدر الدولة الأموية جهم بن صفوان واتباعه ومريدوه ..

كانوا يقولون ان الله خلق العباد ، وخلق لهم افعالهم ، كما خلق لهم اعضاءهم والوانهم ، وزعموا — كما قال الشريف المرتضى — ان ما يكون فى العبد من كفر وايمان ومعصية فالله فاعله كما فعل لونه وسمعه وبصره وحياته

.. وان لله تعالى أن يعذبه من ذلك على ما يشاء ويثيبه على ما يشاء .. وكان جهم يقول على ذلك : ان الله خلق في العبد قوة بها كان فعله ، كما خلق له غذاء به قوام بدنه ، ولا يجعل العبد فاعلا لشيء علىحقيقة الفعل والارادة ..

ومذهب أبي الحسن الاشعري قريب من مذهب جهم ابن صفوان ، لأن خلاصة مذهبه انه لا تأثير لقدرة العبد في مقدوره أصلا بل القدرة والمقدور واقعان بقدرة الله تعالى . ويرى الأشعري أن العبد مكتسب لأفعاله بقدرة يملكها ساعة الفعل ولا تسبقه . ولكنه لايخرج بذلك عن مذهب الجبر لأنه ينفي قدرة التأثير عن العباد ، ويرجع بها الى تفسير واحد هو ارادة الله ..

سأل أستاذه أبا على الجبائي : ماتقول في ثلاثة اخوة : اخترم الله احدهم قبل البلوغ ، وبقي الاثنان فآمن احدهما وكفر الآخر فاين يذهب الصغير؟.. فقال الجبائي : انه يذهب الى مكان لا سعادة فيه ولا عذاب.. فسأله الأشعري : لماذا يذهب الى ذلك المكان ، وهو لم يات شرا ولا خيرا ؟.. فأجابه : انه اختبر ، ولانه علم أنه لو بلغ لكفر. فقال الأشعري : فقد أحيا أحدهم فكفر فلماذا لم يمته صغيرا ؟.. فسكت الجبائي عن الجواب ..

ومراد الأشعري بهذه الاسئلة انه مهما يقل القائلون في تعليل التفرقة بين اهل الطاعة واهل العصيان فمرجع ذلك ، في النهاية ، الى علة واحدة هي ارادة الله ..

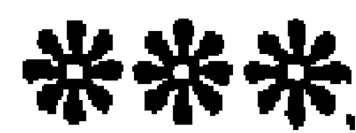
ويرى بعض الجبريين المعتدلين أن الفعل ، من حيث هو ، واقع بقدرة الله ، وانه واقع بقدرة العبد من حيث كونه طاعة ومعصية ..

وهــذا قريب من نفي صفات الخير والشر والحمد والذم عن جميع الافعال في حال صدورها من الله ، لأن

الخير والشر انما يصحان فى حق من يزيد وينقص ، ومن يتغير ويتبدل ، ولكنهما لا يصحان فى حق الواحد الأبدى الذى تنزه عن جميع الغير ، وعن جميع أحوال الاختلاف ..

ولكل فريق من أصحاب الأقوال فى القدر حجج وأسانيد من آيات القرآن الكريم يعتمد عليها فى اثبات دعواه ..

فمن الآيات التى يعتمد عليها الجبريون « والله خلقكم وما تعملون » .. « ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون الا أن يشاء الله » .. « أن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا، وماتشاءون الا أن يشاء الله» .. « ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا . افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» .. « ختم الله على قلوبهم » .. « بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد » .. « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... »



أما القدريون فهم من المعتزلة ، ويسمون انفسهم بأصحاب العدل والتوحيد لأنهم يزعمون انهم ينفون الظلم عن الله ، ويقولون بأن الانسان حر فيما يفعل من خير وشر ، لأن الله لا يجبره على الشر ثم يعاقبه عليه فيظلمه ويجزيه على غير عمله ..

وعند القدريين ان سوء الاختيار الذى علم به الله فى سابق علمه الأزلى هو الذى أوجب ما قضى به الله عليهم من طاعة أو عصيان . ولو لم يكن الانسان قادرا على الفعل والترك لما وجب التكليف ، وهم يفرقون بين الافعال التى يختار فيها الانسان كالتحرك يمنة ويسرة والأفعال التى لا اختيار له فيها كالارتفاع بجسمه فى الفضاء بغير رافع ، ويؤمنون بأن الله لم يكلف احدا فعلا من هـذا

القبيل ، وانما التكليف كله من قبيل الافعال التى تفعل أو تترك بالاختيار ..

***

ومن الآيات التي يعتمدون عليهـا فى اثبات دعواهم « وما ربك بظلام للعبيـد » .. « وما الله يريد ظلما للعباد » .. « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».. « كل امرىء بما كسب رهين» .. « اليوم تجزون بما كنتم تعملون » .. « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى » .. « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم » .. « لبئسما قدمت لهم أنفسهم».. « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .. « رب انى ظلمت نفسى » .. « قل ان ضللت فانما أضل على نفسى وان اهتديت فبما يوحى الى ربى » .. « وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » ..

ولا يخفى أن المعتزلة المتأخرين نظروا فى آراء فلاسفة اليونان ، وعرفوا صفات الله عندهم ولاسيما صفة الله عند ارسطو معلمهم الاول ، وهى صفة المحرك الذى لايتحرك ، أو الاله الخارج عن هذا الكون المحسوس فلم يجدوا صعوبة فى القول بحرية الانسان وعمله بمعزله عن القضاء والقدر ، وان كان التكليف ينقض راى ارسطو كما ينقضه القول بالثواب والعقاب ..

أما المعتدلون من أهل السـنة فيقولون بارادة الله ويقولون باختيار الانسان فيما يقع عليه الجزاء ، ولكنهم يفرقون بين الارادة على الحتم والقسر والارادة على الأمر والتكليف ..

فالله قال : « كونوا قوامين بالقسط » ..
والله يقول لكل شيء : « كن فيكون » ..

وكلا القولين ارادة من الله . ولكن ارادة الأمر تجاب بالطاعة أو العصيان ، وارادة الحتم والقسر تنفذ كما قضى بغير خلاف ..

ومن الآيات التي يستشهدون بها : « ان الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون » .. « ولا يرضى لعباده الكفر » ..

ويذكرون ان آيات القرآن أنكرت حجة الجبريين اذ حكت عنهم أنهم « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » .. « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ..

***

أما استشهاد الجبريين بأن الله يقول : « والله خلقكم وما تعملون » فالكلام فيه موجه الى قوم ابراهيم اذ قال لهم : « لم تعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون » أى خلقكم وخلق هذه الأصنام التى تنحتونها ، وليس المقصود به نسبة معاصى العباد الى الله ..

ويتفق أهل السنة والمعتزلة على التفرقة بين حركات الجبر وحركات الاختيار فى الانسان فيقولون ان الانسان ليس بأقل عقلا، ولا أقل اختيارا من الدابة التي يركبها ، أو كما قال أبو الهذيل العلاف متهكما مفندا : « ان حمار بشر أعقل من بشر .. لأن حمار بشر لو أتيت به الى جدول صغير وضربته فانه يطفره ، ولو أتيت به الى جدول كبير وضربته فانه لا يطفره ويروغ عنه .. لأنه فرق بين ما يقدر على طفره وبين ما لايقدر عليه .. وبشر لا يفرق بين المقدور له وغير المقدور » ..

هذه خلاصة وجيزة لأطراف القول فى مسألة القضاء والقدر بين الفرق الاسلامية ، ومن البين ان القول الفصل فى هذه المسألة الجلى ليس لمذهب واحد من بين جميع المذاهب ، ولا نحسب انه تجمع لمذهب واحد على الاطلاق فيما علمناه وفيما هو شبيه بما علمناه .. لأن المرجع فى سر القضاء والقدر الى حكمة الله . وحكمة الله تتعلق بالأبد الذى لا ابتداء له ولا انتهاء ، ولا تتعلق بهذه الحقيقة أو بتلك الحقيقة فى الزمن الذى يحيط به المخلوقات ..

وليس من دعوانا هنا ، ولا من غرضنا ، أن نأتى بالقول الفصل فى مسألة من المسائل التى تتسع لاختلاف الآراء ولا تنتهى الى قرار .. لأن الغرض الاول من هذا الكتاب هو تقرير مكان الفلسفة القرآنية من الدعوات الدينية التى تنتظم عليها حياة الجماعات البشرية .. ومكان الفلسفة الاسلامية بين تلك الدعوات وأصح حدود

فليس فى الاسلام ما فى اليهودية من صورة الاله الذى ينافس البشر وينافسونه ويقدر لهم حسابهم فيخطىء الحساب ، لأن قدر الله فى الاسلام محيط بكل شىء « قد جعل الله لكل شىء قدرا » .. « وكل شىء عنده بمقدار » .. « وخلق كل شىء فقدره » .. « الذى له ملك السموات والارض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ..

وليس فى الاسلام ما فى المسيحية من كفارة أحد عن أحد ، ولا فى القول بالخطيئة الموروثة بغيرجريرة للمولود فيها ، لأن القرآن يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .. « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ..

اما مسألة التكليف فالقرآن يجمع فيها بين القول باستطاعة الانسان أن يتلقى الأمر والنهى وبتقدير كل

شيء ، ولا تناقض بين القولين فى حكم العقل فضلا عن حكم الدين ..

ولبيان ذلك نفرض كل فرض مستطاع فى مسألة التكليف لنرى أى الفروض أحق بالاعتقاد وأولى بالقبول فى العقل والضمير ..

فاما عالم لاتكليف فيه ولاجزاء .. واما عالم يتساوى فيه التكليف ويتساوى فيه العمل ويتساوى فيه الجزاء

واما عالم يقع فيه التكليف والتقدير على اختلاف كما نرى فى اختلاف العالم الذى نحن فيه ..

فالعالم الذى لا تكليف فيه ولا جزاء لم يتخيله أحد من أصحاب الأديان ، ولا من المفكرين المنكرين ..

وقد تخيل ارسطو الها لا تصريف له فى الكون ولا شأن له بالخلق فى كثير ولا قليل ..

وهو اله لا يستقيم الايمان به من الوجهة الدينية ، ولا من الوجهة الاجتماعية ، ولم يستقم الايمان به من الوجهة الفلسفية على حال من الأحوال ..

وانما قصر ارسطو عمل الاله على الحركة الاولى لأنه اعتقد ان واجب الوجود أشرف الموجودات ، وان أشرف الموجودات بعقل أشرف المعقولات ، وهو ذاته ، فكل تفكير فيما دون ذلك فهو تفكير لا يصح عنده فى حق الاله ..

فكيف اتفقت هذه الحركة الاولى التى وقف عندها عمل الاله ؟..

هل جاءت من الكون شوقا الى الله ؟.. أو جاءت من الله تشويقا للكون اليه ؟ ..

لا يستقيم القول على كلا الرأيين ، فان كان الكون قادرا على التحرك فقد بطل القول بالمحرك الاول ، وان كانت الحركة من قبل الله فحركة واحدة كألف حركة بل كجميع الحركات من أكبر الموجودات الى أصغر الخليات

ومع هذا لا تناقض بتة بين تفكيره فى الخلق وتفكيره فى أشرف الموجودات ، لأن أشرف وجود هو الوجود الذى يليق بالاله الخالق المنعم القادر على كل شىء ، ولن يكون الاله خالقا بغير خلق ، ولا منعما بغير انعام ، ولا قادرا بغير تقدير ..

واذا تركنا الجانب الفلسفي وحصرنا مسألة التكليف فى حدودها الاجتماعية ، فالقائلون بالمؤثرات الطبيعية أنفسهم يوجبون التكليف مع انكارهم لوجود الله ، ولا يمنعون مجازاة الانسان بعمله الا أن يكون « انسانا غير مسئول » عن عمله ، كالمجنون ، والمريض ، والمكره على الاجرام . وهم لايخرجون بذلك عن حكم القرآن الذى يقول : « لايكلف الله نفسا الا وسعها » .. ويقول : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج » .. ويعفى الجانى المكره على جنايته الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان .. « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » .. ثم يرضى عن الاثم بالتوبة والاصلاح .. « الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم » ..

ومهما يقل القائلون باضطرار الانسان ، لانطباعه على عمله بحكم الوراثة أو بحكم البيئة أو بحكم المزاج ، فهم لا يقولون ببطلان فائدة التكليف على الاطلاق ، لأن المشاهد أن الانسان يستسهل الاثم الذى لاعقاب عليه ، ويستصعب الاثم الذى يخشى عليه العقاب ، وانه لا يعلم ما ينطوى عليه من القدرة على الاحسان واجتناب الاساءة فلا يزال بحاجة الى الحافز والوازع لاستبطان تلك القدرة ، واستخراج غاية ما تنطوى عليه ..

ونعود بعد هذا وذاك فنقول ان الاله الذى لا يكلف ولا يصرف اله ملغى من حساب البشر ، فلا يصلح لهم

فى مجال الايمان ولا مجال التفكير ..

أما العالم الذى يتساوى فيه التكليف ويتساوى فيه العمل ، ويتساوى فيه الجزاء فليس بعالم موجود ..

فالعالم الذى يتساوى فيه كل شىء لا شىء فيه .. لأن « التشيىء » معناه تمييز شىء عن شىء ، ووقوع الاختلاف بين أشياء وأشياء ..

ولو تساوت الاشياء لاختلف بها الزمان ، ولوتساوى الزمان لما كان هناك معنى لاختلاف شىء منها عن شىء ، وهى على تعددها تتشابه فى جميع الخصائص وفىجميع الاعمال ، وفى جميع الاوقات ..

فامتناع الاختلاف بالنسبة للأشياء عدم ..

والمساواة بينها على تجدد الاختلاف بينها خلل وظلم ومباينة للمعقول فاذا حدث العالم المخلوق فلا بد فيه من اختلاف ..

واذا حدث فيه الاختلاف ، فلابد مناختلاف التقدير واختلاف التكليف واختلاف الاعمال ..

اما أن نبطل المخلوق ، ونبطل ما يلزمه من صفات المخلوق ، فمعنى ذلك أن يخلق الله خالقا مثله فى الكمال والدوام بغير ابتداء ولا انتهاء ..

وذلك محال ..

وأقل ما فيه من فارق أن يكون هناك فضل للاله الخالق على الاله المخلوق ..

ثم يلزم من ذلك ما يلزم عند أصحاب القول بالعقول العشرة ، أو بتوالى الموجودات من واجب الوجود الى العقل الاول الى سائر العقول والنفوس التى تتوالى من مصدر الى مصدر فى عالم الامكان ..

فالاله المخلوق سيخلق الها دونه فى صفات الكمال ، والاله الذى خلقه سيخلق ما دونه حتى ينتهى الأمر الى

مخلوقات كهذه المخلوقات التى نراها على اختلاف كبير فى العمل والتقدير ..

فالعالم الذى لا اختلاف فيه لا شيء فيه ..

والعالم الذى تختلف فيه الاشياء محال أن يتفق فيه التقدير والتكليف فلم يبق من فروض الالهية الدينية غير فرض واحد يقبله العقل ويستقيم عليه الاعتقاد : وهو فرض الاله الذى يخلق الخلق على اختـــلاف فى التقدير والتكليف ..

ولا اعتراض على هذا الفرض الوحيد الا أن يقال : ان التفرقة بين الناس بقضاء السعادة لقوم وقضـــاء الشقاوة لآخرين ظلم يناقض صفة العدل التى يتصف بها الاله القدير الرحيم ..

ولكنه اعتراض لا يصمد للنظر طويلا دون أن يتبين له أنه لم يثبت على أساس متين ، لأن العدل الاعظم هو العدل الذى يناط به قوام الموجودات ، ولا قوام للموجودات كما أسلفنا مع المساواة المطلقة فى التقدير والتكليف ..

ولأن عدل الاله السرمدى انما يتعلق بالأبد كله ، ولا ينحصر فى حالة من الحالات التى تتتابع بها الازمان . وفى مجال الأبد متسع للتصحيح والتعديل ، وبقية دائما للموازنة والمراجعة ، وللتسوية بين الأقدار والاطوار ، الى انتهاء مقدور ، أو الى غير انتهاء ..

ومن أراد من الأبد أن يحصر حكمته فى لحظة واحدة أو فى عصر واحد أو فى كوكب واحد من هذه العوالم التى لا نعرف عدادها ، فقد أخطأ فى حكم العقل ، ولم يكن قصاراه أنه أخطأ فى حكم الدين ..

ومع هذا نستطيع أن نلحظ فى التقديرات الزمنية بعض الدلائل على الحكمة الأبدية التى تقصر عن الاحاطة

بها مدارك أبناء الفناء ..

فوجود الله لم يحرم الناس حرية كانت تكون لهم بغير وجود الله ..

وقد أعطاهم الله حظوظا من الحرية هى هذه الحظوظ التى يملكونها فى هذه الحياة ..

ولكن المنكرين قد تعودوا أن يسخروا من هذا القول ، وأن يصوغوه فى الصيغة التى يحسبونها مواتية للسخرية والتفنيد ، فيقولون : نعم .. ان الله خلق للناس الحرية .. أى انه اضطرهم أن يكونوا أحرارا مختارين ..

يقولون ذلك ويحسبونه غاية الغايات فى السخرية والتفنيد . ولو استطاعوا أن يقابلوه بصيغة واحدة تسلم من الاحالة لحق لهم أن يسخروا منه ، ولا يطمئنوا اليه

فاذا كان الله قد اضطر الناس أن يكونوا أحرارا ، فقد أصبحوا أحرارا كما أراد .. وهذا هو الذى يعنينا من الحرية كيفما كان السبيل اليها ..

ولا مقابل لهذا القول الا أن يقال : بل ينبغى أن يخلق الناس الحرية لأنفسهم كما يريدون ، وأن تطيعهم الأكوان فى كل ما أرادوه ، وأن تطيع كلا منهم على حدة فى كل خاطرة تخطر لأحدهم وكل رغبة تهجس فى ضمير هذا أو ضمير ذاك ..

وليس هذا هو القول الذى ينجو بصاحبه من السخرية والتفنيد ، لأنه حالة من حالات الوهم ، لا تصح فى الخيال فضلا عن صحة التفكير أو صحة الاعتقاد ..

ومتى رجعنا الى أن الله يخلق الحرية ، فكيف تكون هذه الحرية التى يخلقها الله ؟ ..

أيخلق الله لكل انسان حرية اله فعال لما يريد ؟ .. ذلك محال ..

أم يخلق لهم حرية المساواة فى الأقدار والأعمال ؟ ..

ذلك أمر لايقوم به قوام للموجودات فى عالم الحدود..

فاذا لم تكن حرية آلهة ، ولا حرية تنفى الفوارق والأقدار ، فهى اذن هـــذه الحظوظ من الحرية التى رأيناها للخلق فى هذه الحياة ..

وقد ساء ظننا وساء فهما من يرى أن الله قد أعطى الخلق قوامه بهذه الحظوظ ، وهذه القسم ، وهـذه الأقـــدار ، ثم يفوته أن قوام الخلق لاينتهى الى ظلم واختلال ، وهو فى ذمة الغيب وذمة الأبد ، ولا يمكن أن يكون فى ذمة الحاضر ، ولا فى ذمة العلم الذى يحيط به أبناء الفناء ..

وعلى هذا يستطيع المسلم ان يؤمن بكل حكم من احكام القرآن فى مسألة القضاء والقدر على تعدد الجوانب التى تناولتها هذه الاحكام ، لأنه يؤمن عقلا بأن وجود الله لا يبطل قيام التكليف وان قيام التكليف لايبطل اختلاف الحظوظ والأقدار ، وان اختـــلاف الحظوظ والأقدار لا يختم قدرة الله فى الأبد الأبيد على تحقيق العدل فيما قضاه ..

وهنا محل الايمان بما يرجع الى الغيب ولا تحصره الشهادة ..

ولـــكن الايمان بالغيب ايمانان :

ايمان بما لا يعقل ، وهو تسليم مزعزع الأساس ..

وايمان بما ينتهى اليه العقل حين يبلغ مداه ..

وهكذا يكون الايمان ان كان لابد من ايمان ..

ولا بد من ايمان ..

الفصل السادس

الفرائض والعبادات

.بعريضة الدينية أدب يراد به صلاح الفرد أو صلاح الجماعة ..

ومن محاسن الفرائض الاسلامية أن كل فريضة منها تؤدى الى المقصدين ، وتجعل لانسان ذى ضمير ، ولجماعة ذات ضمير ..

فصلاة الجماعة ـ فى يوم الجمعة ـ واجب على المسلمين مقدم على البيع والشراء ومطالب المعاش : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع. ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون»

نعم .. خير من مطالب المعاش ، ولا شك أن تعلو الجماعة سرا وعلانية ـ فى يوم من الأيام ـ عن صغائر الشح والجشع وهموم الدنيا ، لتخرج من ضيق هذه الشواغل المحصورة ، وتعرف لحياتها غاية أرفع من هذه الغاية ، وقسطاسا أقوم من هذا القسطاس ، وتذكر ما ينفعها ذكره كلما استغرقها ذكر المنافع والغوايات ، وترى عظماءها وصغراءها معا فى ساحة واحدة ، بين يدى العظمة الالهيـــة التى تطامن من كبرياء العظيم ، وترفع من رجاء الصغير ..

واذا صلى المسلم منفردا فى سائر الأيام فهو فى انفراده لا يغيب عنه شعوره بآصرة القربى بينه وبين الجماعة

الاسلامية فى أقطار الارض من شمال الى جنوب ومن مشرق الى مفرب .. لأنه يعلم انه فى تلك اللحظة يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم علىظهرالارض يؤدى فريضة الصلاة ، ويستقبل معه قبلة واحدة ، ويدعو بدعاء واحد ، وان تباعدت الديار ..

وحسبه أن يقف بين يدى الله خمس مرات من مطلع الشمس الى مفيبها لتمتزج حياته بالعنصر الالهى ، ويتمثل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين كل صلاة وصلاة : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .. ولا شىء هو أقمن بالنهى عنهما من الشعور بوزرهما ، كلما تمرست النفس بالدنيا بضع ساعات من ليل أونهار

***

والزكاة مصلحة للجماعة ، لأنها تقيم دعائم التعاون بينالمجدودين والمحرومين ، وتعالج مشكلة الفقر والحاجة علاجا يقوم على التعاطف والولاء بين من يعول ومن يعال. وهى الى هذا رياضة للنفس يأخذ منها الواهب كما يأخذ الموهوب . لأنها تعودها نبل التضحية بالمال العزيز على النفوس ، وتعلمها مفالبة الحرص والسماح بالبذل والايثار ، وتلقى فى روعها انها مسؤولة عن غيرها فيما تكسبه بسعيها وتدبيرها ، فتشعر بتكافل الجماعة شعورا يخرجها من ضيق الاثرة والانفراد ..

***

والحج « مؤتمر عالمى » يعقده المسلمون مرة فى موعده المعلوم من كل عام . يجتمعون فيه الى صعيد واحد ، فيتعارفون ويتشاورون ، ويفضى بعضهم الى بعض بما يعلمون من احوالهم وما يشكون من متاعبهم ورزاياهم . ويستعيدون ماضيهم كرة بعد كرة ، فلا يصبرون طويلا على حاضر دون ذلك الماضى العظيم . ونعم العملالمشترك

عمل لا ينقطع عاما من الاعوام ، ولا يزال حافزا للهمم باعثا للذكرى كلما تجدد على مر السنين ..

اما الفرد فله من الحج رياضة على المشقة ومنشط من طول اللبث والجمام ، وعلم بما يجهله المقيم فى مكانه ، وهو علم يستفاد من السياحة ولا يستفاد من غيرها ، ويحث عليه القرآن الكريم لأنه يفتح البصائر والقلوب ، ويقشع عمى الأبصـــار ، وحجاب الأسماع : « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصـــار ، ولـــكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ..

والصيـــام فى مظهره الاجتماعى يعطينا مظهر أسرة عظيمة ـ من مئات الملايين ـ تنتشر فى جوانب الارض وتقترن شعائرها الدينية كل يوم بأمس ما يحس الانسان فى معيشته اليومية : وهو أمر الطعام والشراب ومنع الاجساد .. ملايين من الناس فى جوانب الارض يطعمون على نظام واحد ويمسكون عن الطعام على نظام واحد ، ويستقبلون ربهم على نظام واحد . وقلما انتظمت أسرة بين جدران بيت على مثل هذا النظام ..

أما الفرد فيستفيد منه خير ما يستفيده الانسان فى حياته الروحية أو حياته الخلقية ، وهو ضبط النفس وشحذ عزيمتها وقدرتها على الفكاك من أسر العادات وتطويع الجسد لدواعى العقل والروح ..

والصيام الاسلامى هو أجدى ضروب الصيام فى تحقيق هذا المقصد ، لأنه يجدد القدرة على ذلك كل يوم مدى شهر من شهور السنة ، ولا يكون قصاراه نقلة واحدة من عادة شهور الى عادة شهور ..

ويقول بعض المتعللين بقواعد الصحة أن الصيام على هذا النحو يخل بوظائف الهضم ومايتصل بها من الوظائف

الجسدية . وهو قول لا يؤيده الواقع المشاهد فى اختلاف أحوال البنية الحية فى تدبير طعامها وشرابها على اختلاف المنبت والاقليم وعادات المعيشة . وما رأينا الناس قد احتاجوا قط الى تربية اجتماعية قوية أو تربية فردية عالية ، الا كان قوامها ترويض الجسد على طعام غير طعامه المألوف ، وتعريضه لطوارىء من تقلبات الجو وتقلبات المعيشة غير التى تعرض لها ونشأ عليها . كذلك تربى الجيوش وكذلك يربى الملوك والأمراء ..

وتلحق « بفكرة » الفرائض الدينية فكرة العيدين فى الاسلام ، وهما : عيد الفطر ، وعيد الأضحى . فعيد الفطر تحية للواجب ، وعيد الأضحى تحية للفداء ..

وليس للنفس الانسانية غاية من الأدب بعد رياضتها على الواجب ورياضتها على الفداء ..

ومدار هذه الفرائض كلها على السماحة واليسر لا على العسر والارهاق ..

« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا »

« ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ..

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ..

تلك رؤوس الفرائض التى تعلمها المسلمون من كتابهم

***

ان كانت للجماعة البشرية عقيدة دينية فلا بد للعقيدة الدينية من شعائر ، وليس بين هذه الشعائر ما هو خير للمعتقدين من شعائر الاسلام ..

التصوف

من آراء بعض الباحثين ـ سواء فى الشرق أو الغرب ـ ان التصوف دخيل على الدين الاسلامى ، وان اسمه نفسه مقتبس من كلمة يونانية هى كلمة الثيوسوفى Theosophy أى الحكمة الالهية ..

واختلفوا فى أصل التسمية فاستبعد بعضهم اقتباسها من اليونانية ، وردوها تارة الى أهل الصفة ، وتارة الى لبس الصوف ، وتارة الى الصفاء ..

ومنهم من قسم التصوف قسمين : قسم يقوم على طلب المعرفة ، وهو فى رأيهم من بقايا مدارس الفلسفة اليونانية ، ولاسيما مدرسة الاسكندرية . وقسم يقوم على تصفية النفس بالعبادة والانقطاع عن الدنيا و«الفناء» فى الله ، ومرجعه الى أهل الهند ، الذين يؤمنون «بالنرفانا» ويعتبرونها غاية الغايات فى الاتصال بالذات الالهية ..

ومما لاشك فيه ان بعض التصوف دخيل فى الاسلام . وهو التصوف الذى يقول بالحلول ووحدة الوجود ، ويغلب على النساك والمتفلسفة الذين جاوروا الهند ، وأطراف البلاد الفارسية ..

ومما لاشك فيه كذلك أن تخوم الهند وأطراف البلاد الفارسية كانت أصلح لانتشار بعض الطرق «السرية» التى لا ترضى عنها الدولة ولاسيما فى عهد بنى أمية ،

فان الطرق السرية كانت تعلم النـــاس الايمان بالامام المستور ، وانكار السلطان الظاهر ، وكان الغضب من السلطان الظاهر على أشده بين «الشعوبيين» أو بين غير العرب من المسلمين ، لأن العرب استأثروا بدولة بنى امية ، وصبغوها بالصبغة القومية .. فكان هناك أكثر من عامل واحد لرواج التصوف بين الفرس وأبناء الأمم الاسلامية غيرالعربية. ومن ثم شاع القول بأن التصوف دخيل على الاسلام من أساسه ، وانه بقية من بقايا الفلسفة الهندية أو اليونانية ولاسيما « الافلوطونية » وهىمزيج منعبادات مصر وعقائد الهند وفلسفة اليونان

لـكن التصوف فى الحقيقة غير دخيـل فى العقيدة الاسلامية ، لأنه كما قلنا فى كتابنا عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية « مبثوث فى آيات القرآن الكريم ، مستكن بأصوله فى عقائده الصريحة . فالمسلم يقرأ فى كتابه أن « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» فيقرأ خلاصة العلم الذى يعلمه دارس الحكمة الالهية . ويقرأ فى كتابه : « ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين » فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذيين حين يؤمنون بأن ملابسة العالم تكدر سعادة الروح ، وأن الفرار منه أو الفرار الى الله هو باب النجاة . ويقرأ فى كتابه أن الله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » و «كل شيء هالك الا وجهه» فلا يزيده المتصوفة شيئا حين يقولون له ان الله أزلى أبدى قديم بغير زمان ولا مكان ، عليم بالكليات والجزئيات ، ويقرأ فى كتابه ان : « الله نور السموات والارض » .. « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ... » .. « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » فلا يزيد المتصوفة الا التفسيرحين يقولون ان الوجود الحقيقى هو وجود الله ،

وانه أقرب الى الانسان من نفسه ، لأنه قائم فى كل مكان يصلى له كل كائن « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »

ومن القرآن الكريم يعلم المسلم الخلاف بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة ، لأنه يقرأ مثلا واضحا لهذا الخلاف فيما كان بين الخضر وموسى عليهما السلام من خلاف : « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ، قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ، قال انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا ... حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا ، قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ، قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فانطلقا ... حتى اذا لقيا غلاما فقتله ، قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا ، قال الم أقل لك لن تستطيع معى صبرا ، قال ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ، فانطلقا ... حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ، قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا

منه زكاة وأقرب رحمـــا ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغــا أشــدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى .. ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا » ..

فالمسلم الذى يقرأ هذه الآيات ـ وهو مطبوع على التصوف والبحث عن خفايا الآثار ودقائق الحكمة ـ يجد فيها غناء من الأصــول الصوفية ، ولا يفوته اذا اكتفى بها أن ينشىء منها مدرسة صوفية اسلامية تلتقى بالمدارس الاخرى فى كثير وتنفصل عنها فى كثير، ولكنها لا تنعزل عن لباب التصوف « بالطبع والفطرة » كما يرى بعض المعقبين على الصوفية الاسلامية التى يستمدها المسلم من الدين

ولكن القرآن حين يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية يحرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية ، وينهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منهـــا « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين »

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لـكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لـكم من الارض »

« يا أيها الناس كلوا مما فى الارض حلالا طيبا »

فالحياة الروحية فى الاسلام تجرى على سنن القصد الصالح للحياة البشرية ، لا استغراق فى الجسد ولا انقطاع عنه فى سبيل الآخرة .. قوام بين هذا وذاك

وإذا كان الاسلام قد عرف أناسا من « النساك »

الذين تفرغوا للمطالب الروحية ، فانما كان ذلك على سنة التخصص فى كل مطلب من مطالب الحياة الانسانية ولم يكن من قبيل الالغاء أو التعطيل لمطلب من هذه المطالب الضرورية

فليس فى تخصص انسان لعلم الطب مثلا الغاء أو تعطيل لغيره من العلوم الشريفة التى يتم بها قوام المعارف الإنسانية ، وليس فى التخصص ايجاب واستنكار وانما هو سبيل التعميم والاستفادة من كل ملكة فى الذهن والذوق والروح . ولا يوجب الاسلام التنسك على جميع المسلمين لأن أناسا منهم تخصصوا له وفضلوه على مطالب الروح أو مطالب الجسد الاخرى . ولكنه يجيزه بالقدر الذى بيناه ، وهو القدر الذى لا غنى عنه فى تدبير حياة الانسان ..

فالملكات الانسانية أكثر وأكبر من أن ينالها انسان واحد . ولكنها ينبغى أن تنال ، فكيف يمكن أن تنال ؟

انها لا تنال الا بالتخصص والتوزيع ، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوزيع اذا سوينا بينها جميعا فى التحصيل ، وألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعا على حد سواء ..

ولا نقصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التى لا يسهل احصاؤها ولا تحصيلها ، ولكننا نعم به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد ، وهى محدودة متقاربة فى جميع الناس

فهذه الملكات الجسدية ـ فضلا عن الملكات العقلية والروحية ـ قابلة للنمو والمضاعفة الى الحد الذى لا يخطر لنا على بال ولا نصدقه الا اذا شهدناه ..

وقد رأينا ورأى معنا الوف من الناس رجلا أكتع يستخدم أصابع قدمه فى أشياء يعجز الكثيرون عن

صنعها بأصابع اليدين .. يكتب بها ، ويشعل عيدان الثقاب، ويصنع بها القهوة ويصبها فى الاقداح ، ويشربها ويديرها على الحاضرين ، ويسلك الخيط فى سم الابرة ويخيط الثوب الممزق ، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمين أو باليسار ..

***

ورأينا ورأى معنا ألوف من الناس لاعبى البليارد فى المسابقات العامة يتسلمون العصا ثم لايتركونها الا بعد مائة وخمسين اصابة او تزيد . ولعلهم لايتركونها الا من تعب أو مجاملة للاعبين الآخرين . وهم يوجهون بها الاكر الى حيث يريدون ويرسلونها بين خطوط مرسومة لا تدخل الاكر فى بعضها ، ولا تحسب اللعبة اذا لم تدخل فى بعضها الآخر .. بحيث لو قال لك قائل ان هؤلاء اللاعبين يجرون الاكر بسلك خفى لجاز لك أن تصدق ما يقول ..

ورأينا من يقذف بالحربة على مسافات فتقع حيث شاء ، ورأينا من ينظر فى آثار الاقدام فيخرج منها أثرا واحدا بين عشرات ولو تعدد وضعه بين المئات . ورأينا من يرمى بالانشوطة فى الحبل الطويل فيطوق بها عنق الانسان أو الحيوان على مسافة أمتار ..

هذه هى الملكات الجسدية المحدودة وهذه هى آماد الكمال الذى تبلغ اليه بالتخصص والمرانة والتوزيع .. فما القول اذا حكمنا على الناس جميعا أن يكسبوا أعضاءهم ملكة من هذه الملكات ؟.. اننا نخطىء بهذا أيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد . ولكننا نخطىء كذلك كل الخطأ اذا حجرنا على انسان لأنه أتقن ملكة من هذه الملكات الجسدية ، ولو جار فى نفسه على ملكات اخرى يتقنها الآخرون ..

فاذا كنا جاوزنا بالقوى الجسدية حدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص ، فما الظن بالقوى الروحيــة أو العقلية وهي لا تتقارب فى الناس هذا التقارب ولا تقف عند هذه الحدود ؟

واذا كان طالب القوة الروحية يؤثرها على جســده فلماذا نلومه ، وننحى عليه ، ونحن لا ننحى على اللاعب اذا آثر المهارة فى اللعب على المهارة فى فنون العقل أو الـكمال فى مطالب الروح ؟

اذا لمنا من يجور على جسده لأنه يضر النــاس اذا اقتدوا به أجمعين ، فمن واجبنا أن نلوم كل ذى ملكة وكل ذى عمل وكل ذى فن وكل ذى رأى من الآراء . فما من واحد بين هؤلاء الا وهو يضر الناس اذا اقتدوا به أجمعين ..

***

ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية ، فضـــلا عن الحقائق الـكونية المصفاة ..

ومما لا جدال فيه ان شواغل العيش وهموم الأسرة عائق عن بعض مطالب الاصلاح فى الحياة اليومية ، فضلا عن الحياة الانسانية الباقية على مر الدهور ..

ومما لا جدال فيه ان طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنية ، له حق كحق المصارع والملاكم وحامل الأثقال فى استكمال ما يشاء من ملكات الانسان ، ولسنا على حق اذا أخذنا عليه انه جار على جسده أو لذاتة عيشه ، لأننا لا نلوم المصارع اذا نقصت فيه ملكة الفن أو ملـكة العلم أو ملـكة الروح ..

لو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس ، ولكن لابد من المصارعة مع هذا ، ولابد من المتفرغين لها

اذا اردنا البقاء ..

ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا ، وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد في الحياة . ولكن لابد من هذه النزعة في بعض النفوس ، والا قصرنا عن الشأو الأعلى في مطالب الروح وفقدنا ثمرة « التخصص » أو ثمرة « القصد الحيوى » الذى ينظم لنا ثروة الروح وثروة العقول وثروة الأبدان ..

و« القصد الحيوى » مكفول بشريعة القرآن في كل مطلب من هذه المطالب الروحيــة .. فهى مباحة لمن يطيقها ، وهى لا تفرض على جميع المسلمين ..

ولا بد من هذه الاباحة ، ولا بد من هذا الاعفاء .. فانهما يجريان بالقدر الذى يفيد ويمنع الضرر في كلتا الحالتين ..

الحياة الأخرى

الأديان الكتابية على اتفاق فى الايمان بالحياة بعد الموت ، وان اختلفت بينها بعض الاختلاف فى تمثيل تلك الحياة ..

وقد آمن الفلاسفة بالحياة الاخرى قبل الاديان الكتابية جميعا وبعدها ..

فمن أشهر المؤمنين بها من الفلاسفة السابقين افلاطون ، ومن أشهرهم فى العصر الحديث عمانويل كانت ، وهما يجمعان أطراف الآراء الفلسفية فى سبب الايمان ببقاء النفس بعد الموت ..

فالنفس فى مذهب افلاطون جوهر مجرد بسيط لا يقبل التجزئة ولا الانحلال وهى قوام الحياة . وما هو حياة لايمكن أن يعود « لا حياة » كما ان « اللاحياة » لا يمكن أن تحيى المادة الصماء

ولكن النفس تتلبس بالمادة فى معارج الترقى والتطهير ، وتتخلص من المادة ـ طورا بعد طور ـ لتعود الى عنصرها الاول من الحرية والصفاء ..

وبقاء النفس فى مذهب « كانت » مرتبط برأيه فى « القانون الاخلاقى » الذى تدين به فطرة الانسان ، ويدل على ارادة الهية فوق ارادة الآحاد والجماعات ، فان الانسان مفطور على أن يفهم الواجب ، وأن يفهم ان

الواجب هو العمل الذى يصلح للاقتداء به ، وانه يتخذ قاعدة عامة تطلب من جميع الناس

وليس من المعقول أن يغرس فى النفس قانون كهذا ، ثم يشقى من يدين به ويسعد من ينبذه ويخرج عليه .. فالحكمة التى غرست هذا القانون فى الطباع خليقة أن ترد الأمر الى نصابه فى حياة بعد هذه الحياة ، لأن الجزاء العدل لا يتم فى حظوظ هذه الحياة

ونريد من الاشارة الموجزة الى رأى هذين الفيلسوفين ، أن يذكر الناظرون فى مسألة الحياة بعد الموت انها مسألة بحث وتفكير ، وليس قصارها انها مسألة اعتقاد وايمان

فالعقل لايخرجها من متناول بحثه ، وأصحاب العلم التجريبى أنفسهم لايملكون من اسانيدهم العلمية ما يسوغ لهم اغلاق الباب فيها لأنهم لم يحصروا قط طبيعة الحياة ، ولم يثبتوا قط انها وليدة المادة الصماء ، فليس لهم أن ينقضوا ويبرموا فى طبيعة شىء ليس بالمحصور فى علمهم ، وليس مقطوعا لديهم بأصل تكوينه وغاية مصيره

لكن العقل نفسه يستلزم فارقا لابد منه بين تمثيل الحقيقة للبحث والتفكير وتمثيل هذه الحقيقة بعينها للتدين والاعتقاد ..

فالحقيقة الاعتقادية لابد أن تمتزج بتصور المؤمنين بها ، لأن الخطاب فيها موجه الى ملايين من البشر منهم العارف والجاهل ، ومنهم الذكى والغبى ، ومنهم كبير النفس وصغيرها ، ورفيع الحس ووضيعه ، ومنهم من يطلب الكمال ومن لا يعرف كمالا يطمح اليه ..

فلا بد من توضيح الحقيقة الاعتقادية بالمحسوسات فى كثير من الاحوال ، وعلى هذا ينبغى أن يروض فكره كل من ينظر الى عقيدة الحياة الاخرى فى القرآن الكريم

فالقرآن الكريم يفرض على المؤمنين عقيدة البعث والحساب ، ويدعوهم الى الايمان بالنعيم والعذاب ..
والجنة هى مقر النعيم ..
والنار هى مقر العذاب ..
وفى القرآن أوصاف محسوسة للجنة كما وصفت فى سورة الواقعة : « فى جنات النعيم ، ثلة من الاولين وقليل من الآخرين ، على سرر موضوعة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب واباريق وكاس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كامثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون ، لايسمعون فيها لغوا ولا تاثيما ، الا قيلا سلاما سلاما »

وفى القرآن أوصاف محسوسة للنار كما وصفت فى سورة الفرقان : « بل كذبوا بالساعة ، وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا »

ولكن من المتفق عليه بنص القرآن ونص الحديث النبوى الشريف ان هذه الموصوفات غير ما يرى ويعهد فى هذه الحياة : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ... والنبى عليه السلام يقول : « فيها ما لاعين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ..

والواقع ان المسلمين يفهمون من هذه الصفات معنى النعيم ومعنى العذاب ، ولا يخل فهمهم لهذا أو لذاك بالغرض المقصود من وعد الله ووعيده بالمثوبة والعقاب
فالامام فخر الدين الرازى مثلا يقول فى تفسير الاتكاء على السرر الموضوعة : « معناه ان كل أحد يقابل كل

احد فى زمان واحد ، ولا يفهم هذا الا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات . وعلى هذا فيكون معنى الـكلام انهم أرواح ليس لهم أدبار وظهور ، فيكون المراد من السابقين هم الذين اجسامهم أرواح نورانية : جميع جهاتهم وجه ، كالنور الذى يقابل كل شىء » ..

وهذا فهم فيلسوف باحث فى الجواهر والاعراض ، وفى مطالب الارواح والاجسام ..

ويفهم المتصوفة ان نعيم الحياة الباقية كله هو الوصول الى الله ولا يتطلعون الى جزاء غير هذا الجزاء

سمعت رابعة العدوية قارئا يتلو قوله تعالى : «وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون » .. فقالت : « نحن اذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطير » ..

***

وسمع الشبلى قوله تعالى : « منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة » فصاح صيحة عظيمة وقال : « فأين الذين يريدون الله تعالى ؟ » وكان يقول فى قوله تعالى : «كلوا واشربوا» : « ان كان ظاهره انعاما فباطنه انتقام وابتلاء واختبار ، لينظر تعالى من هو معه ومن هو من حظ نفسه » ..

فوصف الحقائق بالمحسوسات ــ كما رأينا ــ تعبير يفهمه الخواص الذين يرتفعون بالفهم وبمطالب النفس الباقية عن طبقة الجهلاء ...

ولكن هل التعبير بالمعانى المجردة والحقائق المثالية مفهوم عند هؤلاء الجهلاء ؟ ..

اننا نعلم جميعا ان أحوج الناس الى الايمان بالحساب ــ بل احوجهم الى وازع الدنيا كله ــ هم طبقة الجهلاء الذين تستغرقهم المحسوسات ولا يخلصون منهـا الى تجريد المعاني والشعور بحب الحقيقة وتقديس الكمال.

وهؤلاء لا يعتقدون الا بما يحسون ويفقهون .. فاما عقيدة تمتزج عندهم بشعورهم وتصورهم ، واما اباق من كل عقيدة وفكاك من كل تكليف . وبهذا تبطل كلمة العقيدة فى الجماعات البشرية كل البطلان ..

ولا معدى اذن من احدى صورتين لعقائد الجماعات البشرية :

أما أسلوب يحقق الحكمة من العقيدة عندجميع الناس خاصة وعامة ولابد فيه من التعبير عن المعانى بالمحسوسات

واما أسلوب يترك الخاصة لأنفسهم ، وينفى العامة من حظيرة الاعتقاد وهو لايحقق الحكمة من العقيدة بحال

فى ذلك الاسلوب لا خسارة على أحد من الخاصة او العامة ، وفى هذا الاسلوب لا فائدة للخاصة ولا للعامة ، لأن الخاصة متروكون لأنفسهم يفهمون ما يفهمون بمعزل عن الوحى والرسالة ، ولأن العامة محجوبون عن الوحى والرسالة بكل حجاب

وقد ضلل بعض المغرضين من دعاة الاديان عقولا كثيرة فى شتى الاقطار حين زعموا أن الخطاب بالمحسوسات فى أمر الجنة والنار مقصور على العقيدة الاسلامية ، وان المؤمنين بالدين لا يؤمنون به الا اذا كانوا من المؤمنين بالقرآن ..

فالأنبياء والقديسون فى جميع الاديان الكتابية قد تمثلوا النعيم المحسوس فى رضوان الله ، ووضعوه على هذه الصفة فى كتب العهد القديم والعهد الجديد ، وفى كتب التراتيل والدعوات ..

ففى العهد القديم يصف اشعياء يوم الرضوان فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفره فيقول : « يضع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل وليمة سمائن وليمة خمر على دردى سمائن ممخخة : دردى مصفى

ويفنى فى هذا الجبل وجه النقاب . النقاب الذى على كل الشعوب والغطاء المغطى به على كل الأمم ، يبلغ الموت الى الأبد ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه ..»

وفى العهد الجديد يقول يوحنا الالهى فى الاصحاح الرابع من رؤياه : « بعد هذا نظرت واذا باب مفتوح فى السماء والصوت الاول الذى سمعته كبوق يتكلم معى قائلا : اصعد الى هنا فأريك ما لابد أن يصير بعد هذا . وللوقت صرت فى الروح، واذا عرش يعرض على فى السماء وعلى العرش جالس . وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد وحول العرش أربعة وعشرون عرشا . ورأيت على العرش أربعة وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب ، ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات ، وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هى سبعة أرواح الله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور، وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء . والحيوان الاول شبه الأسد والحيوان الثانى شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر .. »

ويقول فى الاصحاح العشرين : « متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الارض : جوج ومأجوج ، ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ... فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم ... وابليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت .. وكل من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة طرح فى بحيرة النار » ..

ويقول فى الاصحاح الحادى والعشرين : « ثم رأيت

سماء جديدة وارضا جديدة لأن السماء الاولى، والارض الاولى مضتا ، والبحر لا يوجد فيما بعد وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة اورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها . وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا : هو ذا مسكن الله مع الناس »

وكانت آمال النعيم المحسوس تساور قلوب القديسين فى صدر المسيحية ، فضلا عن عامة العباد بين غمار الدهماء . ومن أشهر هؤلاء الاقطاب المعدودين رجل عاش فى سورية فى القرن الرابع للميلاد ، وترك بعده تراتيل مقروءة يتغنى بها طلاب النعيم ، وهو القديس افرايم الذى يقول فى احدى هذه التراتيل : « ورأيت مساكن الصالحين .. رأيتهم تقطر منهم العطور ويفوح منهم العبير ، تزينهم ضفائر الفاكهة والريحان .. وكل من عف عن خمر الدنيا تعطشت اليه خمور الفردوس ، وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان فى صدر طهور »

واتفق أحبار المغرب واحبار المشرق فى وصف النعيم بهذه الصفة . فقال القديس ارنيوس Irenius اسقف ليون فى القرن الثانى أن السيد المسيح أنبأ يوحنا الالهي أن « ستأتى أيام يكون فيها كروم لكل كرمة منها عشرة آلاف غصن ، ولكل غصن عشرة آلاف فرع ، ولكل فرع عشرة آلاف عسلوج ، ولكل عسلوج عشرة آلاف عنقود ، ولكل عنقود عشرة آلاف عنبة ، وتعصر العنبة منها فتدر من الخمر ، مائتين وخمسة وسبعين رطلا » ..

هذه الصفات وأمثالها كثيرة فيما كتب وسجل . وفيما وقع فى الخواطر والاخلاد بغير كتابة وتسجيل ، وكل ما يعنينا منها انها تعم المعتقدين عموما لا يتأتى اغفاله فى خطاب يتجه الى جميع المعتقدين ، ولا يبلغ فى النفوس

مبلغ اليقين الا اذا تخلل الشعور وتغلغل فى الضمير

وقد رأينا فى أول هذا الفصل ان الفلاسفة الذين قالوا ببقاء النفس بعد الموت ، يقولون بذلك لأنهم وجدوا القول به ضرورة عقلية يستلزمها اختلاف النفوس وحاجة كل منها الى التطهر والتكمل فى حياة بعد هذه الحياة ، ووجوب هذا التطهر والتكمل لاستقامة قضاء العدل الألهى بين الأخيار والأشرار ..

فهذا المعنى ملحوظ فى تقدير العذاب الذى يبتلى به المذنبون بعد الموت كما قضت به شريعة القرآن الكريم ، فان المفسرين كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة الى الغفران ، وان الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء . ويؤيد هذا المعنى حديث رواه البخارى يفصله بأسلوب الخطاب الذى يشرح المعانى بالمحسوسات ، ومنه يقول عليه السلام : « ... واذا رأوا أنهم قد نجوا فى اخوانهم يقولون : ربنا اخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا . فيقول الله تعالى : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من ايمان فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار ... فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار الى قدمه والى انصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ، ثم يعودون . فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا . ثم يعودون .. فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فأخرجوه . فيخرجون من عرفوا ... فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار بقيت شفاعتى . فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواما قد امتحشوا فيلقون فى نهر بأفواه الجنة ، يقال له ماء الحياة ، فينبتون فى حافتيه كما تنبت الحبة فى حميل السيل قد رأيتموها الى جانب

الصخرة الى جانب الشجرة. فما كان الى الشمس منها كان أخضر، وما كان الى الظل منها كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فيجعل فى رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة . فيقول أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الرحمن .. »

وللنبى عليه السلام أحاديث أخرى فى معنى ماتقدم ، فحواها جميعا ان العذاب تطهير وتكفير ، وان الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان ..

فاذا اعطينا اسلوب العقيدة حقه من التعبير ، ففى العالم الآخر كما يدين به المسلم رضا للوازع الأخلاقى ، ورضا لدواعى التفكير ، ورضا لعقيدة الدين ..

الإصلاح في الإسلام

وصلت الي فى البريد نشرة من مجلة « البراهين » التي تصدر بباريس ومعها بيان موجز عن دراسة اسلامية تتلخص فيما يلى :

يسأل الاستاذ « جاك استرو Austruy » فى كتابه عن مواجهة الاسلام للتطور الاقتصادي ، هل يجب على المسلمين وهم بسبيل النهوض أن يحققوا نهضتهم خلافا لتعاليم الاسلام ؟.. أو هم مستطيعون أن يحققوها وفاقا لتلك التعاليم ؟ ..

ويرد الاستاذ « فرنسيس نور » على هذا السؤال فيقول :

ان الفكرة الرئيسية فى الكتاب تجعل نظام رأس المال ونظام المادية الاقتصادية مدار الاختيار لمن يطلب التقدم الاقتصادى ، ولكن المسلم المصلح غير مضطر الى اتباع أحد النظامين لأنه يستطيع ان يتبع نظاما ثالثا (من صميم تعاليم الاسلام) كما يقول صاحب الكتاب

وهو لايرى ان المسلمين شعب واحد ، بل شعوب متعددة لا تعوزها موارد الثروة ، الا انه يستحسن أن تقلع الدساتير عن فكرة « ان الاسلام دين الدولة » كما أقلعت عنها الدساتير التي فصلت بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية ، ولا يوافقه الاستاذ «فرنسيس» على

هذا الرأى ، ولكنه لم يبين أسباب معارضته ولا الاسباب التى تعزز الرأى المقبول فى نظره ..

هذه هى خلاصة المساجلة بين الاستاذين فى موقف الاسلام من مواجهة النظم الاقتصادية الحديثة ..

وتعليقنا عليه ان المسلم لايشعر بالحرج الذى يضطره الى الاختيار بين النظامين المذكورين ، ولم يشعر بهذا الحرج قبل العصر الحاضر يوم وقفت به المواجهة أمام نظم أخرى كنظام الفروسية ، أو نظام الاقطاع ، أونظام الصناعة الكبرى ، أو نظام الاستعمار ، لأن الاسلام لم يكن خطة اقتصادية تقيد الأمة ببرنامج محدود تخرج على الدين اذا هى خرجت عليه ، ولكنه عقيدة انسانية تقيم للمسلم أصول الحلال والحرام وتدع له الحرية التامة بعد ذلك فى اختيار التفاصيل الموقوتة على حسب الأزمنة والمصالح والشعوب وعلاقات الأمم والحكومات.

ولا يعاب الاسلام بذلك ، لأنه هو الشرط الاول من شروط الدين الذى ينبغى له قبل كل شىء أن يتكفل للمؤمن باستقرار اليقين ، وبالطمأنينة الروحية فى مواجهة الأطوار والتقلبات ، ومنها زعازع التناقض بين النظم الاقتصادية واضطراب المصالح مع تجدد الطبقات وتبدل العلاقات ..

فالدين الذى يضطر المؤمن الى تغييره مع كل نظام اقتصادى يطرأ على المجتمع ، أو على العالم كله ، انما هو زى من الأزياء العارضة .. وليس بالدعامة الروحية التى تكفل للانسان فضيلة الثبات أمام الطوارىء والغير، وتفتح له باب الرجاء كلما تطرق اليه اليأس بين نظام فاشل ونظام مرهون بالتجربة أو للشكوك فى عقباه الى حين ..

والتضارب بين نظام رأس المال ونظام المادية الاقتصادية

خير جواب على من يطالبون الاسلام بمجاراة النظم الحديثة كلما تقلبت بها أطوار الاجتماع ، فقد كان نقاد الاسلام بالأمس يزعمون ان حياة الأمم رهن بنظام المعاملات التى تقوم على الشركات والمصارف واستغلال رءوس الأموال والأرباح ، وان الاسلام يغل أيدى المسلمين ويعوق حركة التقدم لأنه لايقيم المعاملات كلها على هذا النظام ، ثم شهد العالم نظاما آخر ينكر رءوس الأموال اصلا ويبطل الملكية مالا وارضا وعقارا ويطلب من الاسلام أن يصنع صنيعه فى مواجهة الأزمات العصرية ، ولا يعلم أحد الى أى أمد يطول بها البقاء ، وعلى أى حال من الأحوال تتطور بين اليوم والغد القريب .. وبين هذا وذاك تظهر النظم الفاشية والنازية على شتى الأوضاع والأشكال ..

فكيف كان الاسلام يؤدى حق الدين لو انه تقلب بين هذه النظم الطارئة عليه ؟.. وكيف كان يجمع بينها أو يحض المسلمين على اتباعها فى مواطنها وعهودها ؟..

انه لم يصنع ذلك ، وحسنا صنع ، وانه بذلك يظل دينا للمجتمعات الانسانية بين عصر وعصر ، ولا يضطر المسلم الى الخروج من عقيدته بين حقبة وأخرى ، بل لا يضطره يوما الى ذلك السؤال : هل يجب عليه أن يترك الاصلاح أو يحققه على خلاف أحكام القرآن ؟..

وليس معنى ذلك ان الاسلام ينفض يديه من مهمة الاصلاح الاجتماعى ، فى زمن من الأزمنة كان أو يكون ، ولكن معناه انه يقرر للانسانية أصولا لا يتحقق لها صلاح بغيرها ، ثم يفوض للعقل الانسانى كل الرأى فى اختيار ما يلائمه من تفاصيل الاصلاح ، غير مقيد له بفرع من الفروع المتجددة ما دام امينا على تلك الأصول

كانت « نشرة المجلة الفرنسية » فى طريقها الينا ، ونحن نكتب لمجلة « منبر الاسلام » مقالا عن الاسلام والنظم الاجتماعية ، وفيه نقول :

انما اقام الاسلام قواعد الاقتصاد التى يقام عليها كل نظام صالح .. فقرر أن يمنع الاحتكار وكنز الأموال ، وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل ، وقرر أن يتداول المجتمع الثروة ، ولا تكون دولة بين الأغنياء ، وقرر أن تكون للضعفاء والمحرومين حصة سنوية لا تقل عن جزء من اربعين جزءا من ثروة الأمة كلها ، وقد تزيد عليها بأمر الامام واحسان المحسنين .. ولا خوف على مجتمع قط يمتنع فيه الاحتكار والاستغلال واهمال العاجزين عن الكسب والعمل ..

ونعود ـ بعد الاطلاع على مساجلة الاستاذين : « اوسترو ، وفرنسيس » ـ فنقول : انهما على حق فيما قرراه من امكان المسلم ان يواجه الاصلاح الاجتماعي بغير اضطرار الى مجاراة نظام رأس المال على علاته ، أو نظام المادية الاقتصادية على علاتها ، ونزيد على هذا الرأى الصواب ان الاسلام يتأتى له ذلك دون أن يتقيد بنظام محدود يتبدل غدا كما تبدلت النظم بالأمس ، أو تتبدل أمام أعيننا اليوم فى بلاد المغرب والمشرق ، وحسبه انه يمنع الاحتكار والاستغلال ويحمي الضعفاء والمحرومين ليوفر للمجتمع خير ما يحتاج اليه من صلاح واصلاح ، ويوفر للفرد خير ما يحتاج اليه من عمل وأنفع ما يقدر عليه من جهود ..

ان القرآن صريح فى النهي عن كنز الذهب والفضة ، صريح فى الأمر بتداول المال (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)

وان القرآن صريح فى منع الاستغلال ، ولاسيما

الاستغلال بافساد الحكم والسيطرة على الحكام : «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون »

وان القرآن يأمر بالاحسان ويفرض الزكاة ، وهي تخول الذين يستحقونها جزءا من أربعين جزءا من الثروة العامة — لا من ثروة الربح وحسب — في العام وبعد العام

ومن شاء فليتخيل نظاما اجتماعيا يبطل فيه الاحتكار، ويبطل فيه أكل الأموال (بالباطل) ويأمن فيه المحروم على قوته ومعاشه ، ثم يتخيل موضعا فيه للانتقاد من ناحية الصلاح والاصلاح

ان عقل الانسان ليعجز هنا عن نقد الحياة الاجتماعية في أصولها ، الا أن يكون من عبيد الحروف والعبارات المرضوصة على غير روية

وان « الضمير الديني » ليهدى العقل هنا غاية الهداية التي تطلب من الدين القويم دون أن يربطه بالقيود القاسرة أو يكرهه على الجمود المعطل عن التصرف والتصريف ، وعلى هذا الضمير الديني تقوم رسالة الدين التي تعلو مع الزمن على نظم الاقتصاد وبرامج السياسة وشقاشق الأسماء من دعوة تلهج بالديموقراطية أو صيحة تلفظ بالمادية ، أوحذلقة تتعلق بأطراف المبادىء وأهداب القواعد والنظريات ، وتحسب ان (الانسانية) بنت يوم وساعة ، وان «الضمير الانساني» زى من أزياء الأمم يلبس مع الصباح ويخلع قبل المساء

أما مسألة الدين والدولة في الاسلام ، فقياسها على الأديان الاخرى قياس مع الفارق الكبير كما يقول المناطقة ، ولاسيما الأديان التي توجد فيها الكهانة الدينية أو توجد فيها طائفة من أصحاب الرئاسة الدينية تتولى

الوساطة بين العباد والمعبود ، وتدعي لنفسها ــ من ثم ــ حق الاشراف على المدرسة والمحكمة والهيكل والمدفن، كما تدعى لنفسها حق (التطويب) لــكل سلطة ولكل قانون ، ولا وجود فى الاسلام لهذه الكهانة ولا للوساطة كيفما كانت بين العباد والمعبود ، فليست مسألة الفصل بين الدين والدولة فى الاسلام بالمسألة التى تصطدم بحق الراعى أو حق الرعية على الوجه الذى عرف فى تاريخ هذه المسألة عند الأمم الأوربية ، وليست هى المشكلة المعروضة للبت فيها بين شعب من الشعوب الاسلامية

بين البحث والتخمين

قرأت في عدد شهر ربيع الأول في مجلة «منبر الاسلام» مقالا لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكي بعنوان : « تفسيرنا للقرآن لا يكون بالتخمين » يقول فيه من مبادىء عامة يقررها :

« ان القرآن عربي وأسلوبه خاضع للقواعد العربية » ثم يقول عن قصة خلق آدم :

« فالله تعالى يخبرنا في سورة « ص » بحديثه مع الملائكة : « انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ..

والمبدأ الاول الذى يقرره الاستاذ ويقرره مع فضيلته كل باحث فى معانى القرآن الكريم هو أن قواعد اللغة العربية تقضي « بأن اللفظ لا يصرف عن معناه الظاهر الا لضرورة تقتضى ذلك » .. والا كان صرف اللفظ عن معناه ضربا من التخمين ..

وهذا ــ كما تقدم ــ مبدأ يقرره مع الاستاذ كل باحث فى معانى القرآن الكريم وفى معانى اللغة فى كل كلام مفيد

وانما يحتاج الأمر الى التعريف بالتخمين ما هو ؟ .. وما الفرق بينه وبين البحث عن المعانى فى أخبار الوحى بالأمور الغيبية على التخصيص وهى باتقان الاقوال معلومة الكلمات مجهولة الكيفيات ، وعلى الاخص فيما

ينسب الى الخالق سبحانه وتعالى من عمل أو كلام ..

فالتخمين ـ قطعا ـ فى معنى هذه الآية وسائر الآيات ان يزعم قارىء القرآن ان التسوية الالهية كالتسوية التي نعهدها فى أعمالنا نحن المخلوقين من الآدميين ، وان النفخ فى خلق آدم من الطين كالنفخ عندنا بالأفواه ، وان طينة آدم كطينة التمثال الطينى الذى يصوره المثالون مشابها للانسان بالأعضاء والوظائف بغير حراك ..

ان الذى يزعم ذلك « يخمن » فى فهم اللفظ والمعنى بلا جدال . لأن أعمال الاله جل وعلا تنزهت عن مشابهة الاعمال الآدمية وعن كل عمل محدود من أعمال المخلوقات

فليست معانى الكلمات فى المعجمات اللغوية هى مدار البحث عند تفسير هذه الآيات لأن الأمر فيها يرجع الى الكيفيات المجهولة التى نجزم بحقيقة واحدة منها ، وهى انها (كيفية) منزهة عن مشابهة أعمال المخلوق ..

ما التسوية ؟.. وما النفخ ؟.. وما الروح ؟.. وما مدلول الآية الكريمة بعد التحقق من معانى هذه الكلمات؟

اذا كانت « الكيفيات » مجهولة هنا ، فالمعلوم الذى لا خفاء به قطعا انها ليست تسوية باليدين على مثال تسوية المصورين الآدميين ، وانها ليست نفخا بالأفواه كما ينفخ الانسان الهواء فى الطين او غير الطين ، وان الروح ليست بالروح الانسانية وليست على أية حال بالكيفية المحدودة بالقواميس والمعاجم ، لأن روح الانسان المخلوق مجهولة يعلمها الله وحده كما نفهم من آيات القرآن ، وندع الكلام فيما هو أعظم من ذلك وأخفى على العقل من معنى الروح منسوبا الى الله ..

كل ما يجوز أن نفهمه من معنى النفخ انه بث قوة الحياة فى الطين ..

وفى كم من الوقت حدث هذا ؟.. افى لمحة واحدة ؟..

افى يوم واحد ؟.. أفى الدهر المتطاول ؟..

من جزم بشىء من ذلك ، فانما يخمن ويجزم على التخمين ..

بل لو قيل ان هذا كله تم فى وقت كلمح البصر ، لما جاز لأحد أن يحصره فى اللمحة المعهودة لدينا ، لأن اللمحة عند الله يتم فيها أمر الساعة كله : « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » ..

وهذه اللمحه مقرون بها فى القرآن الكريم خلق كل شىء وتقديره : « انا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » ..

واذا قيل ان بث الحياة فى طينة آدم تم فى يوم واحد ، فان اليوم الواحد مجهول المقدار فى علم الله : « ان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقد يكون اليوم خمسين ألف سنة كما جاء فى قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة »

وهذا من حيث الموعد المقدور لبث الحياة فى طينة آدم بعد تسويتها ..

فما هى التسوية ؟.. وكم من الزمن قدره الله تعالى لاظهار هذه التسوية فى خلق الطين وفى خلق البنيـة الآدمية منه ؟..

من جزم بوقت محدود لهذه التسوية فذلك هو التخمين بغير دليل ، ومثله فى التخمين بغير دليل أن يزعم الزاعم كيفية لهذه التسوية يمتنع ماعداها ويحرم علينا أن نفهمه من مدلول الآيات ..

واذا كان هذا هو مدلول النفخ والتسوية والطينة فالحقيقة التى هى أجل من ذلك قدرا وأخفى من ذلك سرا هى حقيقة الروح ومعناها المقصود فى قوله تعالى : « ونفخت فيه من روحى » ..

فان كلمة الروح قد وردت فى عدة مواضع من القرآن الـكريم ..

منها قوله تعالى فى سورة الشورى : «وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ... »

ومنها قوله تعالى فى سورة الشعراء : « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين » ..

ومنها قوله تعالى فى سورة النحل : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق » ..

ومنها فى سورة النساء : « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه .. »

ومنها فى سورة مريم : « واذكر فى الـكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا .. »

وفى سورة الأنبياء : « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين .. »

وكل كيفية يحدث بها نفخ الروح بالمعنى الذى وردت به فى هذه الآيات فهى كيفية مفروضة على التخمين ، وكل جزم بانكار ما عداها فهو جزم مفروض على التخمين .. وقد كان نفخ الروح من قبيـل ولادة عيسى عليه السلام ، وكان من آياته أن يتمثل بشرا سويا فى غير هذا المقام ، وكان الروح وحيا ومصدرا للوحى وسرا محجوبا على علم بنى آدم فى جميع هذه الأحوال ..

ونعود بعد هذا البيان عن معانى الكلمات لنقرر مرة أخرى كما قرر صاحب الفضيلة الاستاذ السنكى انها كلمات عربية وان الكلمات العربية جميعا خاضعة لقواعد اللغة تنصرف الى معناها ولا يجوز أن تؤخذ بالتخمين ، ولها معنى صريح فى اللغة لا يجوز صرفها عنه الى غيره..

نقرر هذا المبدأ مرة بعد مرة ، ولكننا لا نراه فى مرة من المرات يجيز للمفسر أن يقول تسوية الطين كانت على هذه الكيفية دون غيرها ، وان النفخ فيه على هذا النحو دون سواه ، وان روح الله يعمل عمله فى بث الحياة واخراج الأحياء من الطين على هذا المثال باستثناء كل مثال آخر ، وان التسوية والنفخ وخلق آدم عليه السلام قد تم كله فى لحظة واحدة ، وان هذه اللحظة لا تكون ألف سنة ولا خمسين الف سنة ، ولا الف الف سنة ، لأنها لحظة واحدة مما تلحظه العين الانسانية ، ولا تدل اللغة العربية على معنى معقول لها غير هذا المعنى

ان هذا المبدأ لايجيز للمفسر أن يجزم بقول من هذه الاقوال إلا أن يكون قوله تخمينا يعوزه السند القاطع ولا يلزم أحدا غيره ..

وعلى المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بث روح الحياة فى الطين وسوى الطين سلالة خرج منها آدم عليه السلام ، ولكن ليس لأحد أن يفرض عليه كيفية للتسوية والنفخ والخلق يلغى كل ما عداها ، وأن يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتا محدودا باللمحة أو باليوم أو الدهر ويكون بمقدار واحد ولا يكون بغير ذلك المقدار ..

ومما روى عن أبى هريرة : « انزل القرآن على سبعة أحرف ، فالمراء فى القرآن كفر ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى عالمه .. »

وأيا كان القول فى سند هذا الحديث فالمبدأ السليم الذى قرره صاحب الفضيلة الإستاذ السبكى ينهانا أن نقيد كلمة من كلمات الآية الكريمة بكيفية محدودة ووقت محدود ، وما ينوى ذلك فهو التخمين الذى ينهى عنه الاستاذ السبكى كما ينهى عنه كل مسلم غيور على القرآن وعلى عقائد الاسلام .

تفسير القرآن ..
في العصر الحديث

تصل الى أسئلة كثيرة من طـــلاب العلم والمشتغلين بالدراسات الدينية عن فهم القرآن في عصرنا هذا من وجهة النظر الى العلوم الطبيعية والمخترعات الحديثة ومن أمثلتها سؤال من طالب يقول فيه :

ان المتكلمين عن تفسير القـــرآن الكريم انقسموا الى طائفتين : « احداهما تحبذ تفسير القرآن تفسيرا علميا ، والاخرى تدعو الى فهم القرآن كما كان يفهمه العـــرب الاميون الذين خاطبهم القرآن الكريم .. فمـــا رأى سيادتكم في التفسير العلمي الذى يذهبون اليه ؟ ... وما هي الادلة التي تعززون بها هذا الرأى ؟ ..

ومن أمثلة هذه الاسئلة سؤال لطـــالب اخر بكلية الطب يذكر فيه هذه الآية الشريفة : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القـــوم المجرمين » ..

ثم يقول : « أليس من الممكن أن تعتبر هـــذه الآية الشريفة اشارة مبكرة من القرآن الكريم الى القنـــبلة الذرية ، ودليلا قاطعا على سبق القرآن العلمي الــذى أمكن اثباته في مواضع كثيرة ؟ » ..

وهذه وأمثالها أسئلة تأتى فى أوانها ، ونغتبط بها لأنها تدل على بحث الشباب المتعلم فى أمور عقيدته وضميره ، وحرصه على الفهم المستقل أنفة من التقليد او التسليم بغير دليل • ونرى ان الاسئلة من هذا القبيل ليست بالجديدة فى العالم الاسلامي ، لأنها أعيدت على أساليب مختلفة فى عصور النهضات العلمية وأدوار الانتقال من حضارة الى حضارة ، أو الاشتباك بين الثقافات المتعارضة فى المشرق والمغرب ، وتجددها اليوم معقول منتظر بعد تجدد النظر الى السماء والى أسرار المادة وحقيقة المخلوقات المادية على هذا النحو الذى لم تسبق له سـابقة مثله فيما تقدم من أدوار التاريخ الاسلامى ، وقد شاركت فيه اليوم أبناء الديانات الاخرى من المسيحيين والاسرائيليين والبراهمة والبوذيين ، فيندر أن تطلع على صـحيفة من صحفهم تدرس المباحث اللاهوتية الا رأيت فيها محاولات شتى لإعادة تفسير العقائد الكونية عندهم على ضوء العلم العصرى كما يقولون ، وأهم هذه المحاولات ما كان منها متصلا بمسألة خلق الانسان الاول ، ومسألة السماوات وسكانها ، ومسألة القيامة والحساب ••



والامر الذى لا محل فيه للخلاف ان الانسان العصرى مطالب بفهم كتبه المقدسة ، وفهم ما توجبه على ضميره من الفرائض والشعائر والواجبات ، ولـكن هل معنى ذلك أن الكتب المقدسة لا تفهم الا كما فهمها المخاطبون بها لاول مرة ؟ •• أو معناه انها تفهم فى كل عصر على حسب النظريات العلمية التى انتهى اليها أبناؤه ؟ ••

لا هذا ولا ذاك فيما نعتقد هو الفهم المطلوب من المكلف المخاطب بالكتاب ••

فان المسلم مأمور فى القرآن بالتفكير والتأمل والتدبر

والاستقلال بذلك عن الآباء والأجداد وأحبـــار الزمن القديم وأئمة الدين فيه ..

وليس الخطاب مقصورا على العرب الأميين ولا هو بمقصور على أبناء القرن العشرين ، ولكنه عام مطلق لكل عصر ولكل مكان.. اذ ليس من المعقول أن يفكر الانسان على نسق واحد فى جميع العصور ..

اننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم فى عصرنا كما كان يفهمه العرب الذين حضروا الدعوة المحمدية ، لو أنهم ولدوا معنا وتعلموا ما تعلمناه وعرفوا ماعرفناه واعتبروا بما نعتبر به من حوادث الحاضر وحوادث التاريخ منذ الدعوة المحمدية الى اليوم ..

ولكن التفكير العصرى شىء واقرار النظريات العلمية المتجددة شىء آخر ..

فاننا نستفيد من أخبار الرحلات ، ومن آراء المفكرين، ومن مذاهب العلماء النظريين والتجريبيين ادراكا نافعا لنا فى التأمل والنظر دون أن نؤمن بصحة كل خبر وصواب كل راى وصدق كل نظرية ، ولايمكن أن تتقدم هذه الفائدة زمانها فى موضوعها وان لم يكن موضوعها متعلقا بهذا العلم أو ذاك ..

***

ومثال ذلك ان الانسان المعاصر لا يخطىء فى استدارة الأرض بعد كشف الامريكتين ، فانه لايفسر كلمة البسط بالنسبة للأرض كما فسرها الذين وهموا ان الارض لا تكون مبسوطة أمامنا وهى على شكل الكرة ، لأن الإنسان المعاصر يرى بعينه أن الارض تبسط أمامه كما ينظر اليها ، ولا يمتنع ذلك أن تكون على شكل الكرة فى استدارتها لأننا هكذا نفهم فكرة البسط بالنظر ، وهكذا نعلم علم الواقع اليقين أن بسطها أمامنا وامتدادها

بالسائحين فيها لا ينقض الاستدارة التى لا تقبضها بمعنى من معانى القبض ، وهو نقيض البســـط فى اللغة وفى الادراك المعقول ..

فالمكشف العلمى الحديث يفيد الباحث العصرى فى تصحيح معنى البسط ، ويذكره ان نقيض البسط هو القبض وليس هو الاستدارة الكروية ، ولكنه لا يدعوه الى انكار البسط بهذا المعنى الصحيح ..

وعلى هذا المثال ، ينبغى ان نستفيد من النظريات العلمية دون ان نقحمها على القرآن الكريم أو نعتبر أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن الى زمن ، ومن تفكير الى تفكير ..

ولهذا كان من الخطأ أن نقرر أن القرآن الكريم يؤيد النظرية السديمية فى نشأة المنظومة الشمسية ، أونشأة الكواكب عموما من دخان المجرة المشهودة ، أو دخان المجرات الأخرى التى لا ترى بالعين ولا بالمناظير ..

فقد تعاقبت النظريات منـــذ أيام العالم الطبيعى «بوفون» الى اليوم عن نشأة المنظومة الشمسية ، ولم تزل ينقض بعضها بعضا حتى الساعة ..

هل نشأت المنظومة الشمسية من الاصطدام بمذنب عابر فى الفضاء ؟.. هل نشأت من التقـــاء شمـــسين متعارضتين ؟.. هل نشأت من انفجار الشمس نفسها وتطاير أجزائها . ثم عودتها الى فلكها بفعل الجاذبية ؟ هل نشأت من تجمع السديم وجموده ؟..

كل أولئك آراء يقول بها العلماء ولا يستقر منها رأى واحد الى قرار ومن شاء فليفهم أن النظرية السديمية هى النظرية الراجحة على وجه من الوجوه ، ولكن ليس له أن يجعل رأيه هذا عقيدة من العقائد القرآنية التى يكفر بالذين من يعارضه فيها ، وليس له أن ينفيها بغير

حجة قاطعة من القرآن الكريم ..

***

وقد شاء بعض المفكرين أن يفسر السماوات السبع بالسيارات السبع في المنظومة الشمسية تطبيقا للعلم الفلك في تفسير الكتاب ، وهو اجتهاد حسن على اعتباره فهما لصاحبه لا يوجب على نفسه أن يعتقده ، ولا يوجب اعتقاده على سواه ، ولكنه يجور عن القصد اذا ألزم الناس به الزاما وعرضهم للشك الباطل في الكتاب الا اذا أقحم رأيه عليه ، لان علم الفلك لم يلبث أن أثبت أن السيارات عشر غير النجيمات وغير المئات من السيارات الصغار ، ووجودها بهذا العدد الى اليوم حقيقة لا سبيل الى الطعن فيها ، وقد توجد بعدد آخر بعد حين ..

والذين فسروا الايام الستة بأيامنا هذه ، كما نعدها في كل أسبوع ، قد اخطأوا الفهم ووجب أن يدركوا خطأهم قبل أن يتبين للعلم ان تاريخ الكواكب يمتد الى ملايين السنين ..

نعم .. قد وجب أن يدركوا خطأهم هذا ، وأن يعلموا أن الايام الستة غير أيام الكرة الارضية في دورتها حول نفسها ، وان السنين أيضا غير سنوات الكرة الارضية في دورتها حول الشمس ..لان الشمس والارض لم تكونا مخلوقتين في اليوم الاول من تلك الايام ، فلابد أن يكون للخلق حساب غير حساب الفلكيين للايام والسنين ..

والذين أنكروا مذهب التطور ، يحق لهم أن ينكروه من عند أنفسهم لأنهم لم يطمئنوا الى براهينه ودعاواه ، ولكنهم لا يجوز لهم أن ينكروه استنادا الى القرآن الكريم ، لانهم لا يملكون أن يفسروا خلق السلالة الآدمية من الطين على نحو واحد يمنعون ما عداه ، وكل ما يجوز

لهم ، أن يوجبوا الايمان بأن الله سبحانه وتعالى سوى الطين وبث فيه روح الحياة ، فصنع منه السلالة التى نشأ منها آدم عليه السلام .. فأما أن يحتموا كيفية التسوية وكيفية النفخ وكيفية خلق السلالة والزمن الذى خلقت فيه ، فهو ادعاء على القرآن الكريم لا يقبل منهم على وجه من وجوه النفى أو وجوه الاثبات ، ويجوز أن يكون مذهب التطور مذهبا ناقصا فى تطبيقه على الانسان وعلى الكائنات العضوية ، وبخاصة فى قول أتباعه بتحول الانواع .. ولكن لا يجوز أن نقحم الآيات القرآنية فى انكار النشوء والتطور فانه انكار أخطر من انكار القائلين بتكفير الفلكيين لانهم ذهبوا الى استدارة الارض ودورانها حول الشمس فى الفضاء ..



وكل ما يجب على المسلم أن يؤمن به ، أن كتابه الالهى يأمر بالبحث والتفكير ، ولا ينهاه عنه ، ولا يصده عن النظر والتأمل فى مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا المجهول كيفما كان ، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة ، وهى عرضة بعد قليل للنقض أو التعديل ، بل لا يأمره الكتاب بالتوفيق بين الكيفيات التى يفهمها العلم والكيفيات التى يقدرها العقل لفهم المسائل الكونية فى بداءتها الاولى ونهايتها الاخيرة بين طوايا الغيب المجهول .. لانه ينبغى أن يعلم — عقلا وايمانا — بأن اليوم اذا نسب الى الاله أو نسب الى عمر الكون لن يفهم منه أنه يوم من أيام عمر الانسان ، قبل أنه يوجد ، وقبل أن توجد الارض التى خلق عليها الانسان ..

فنحن مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم ، ومطالبون بأن نفكر وأن نستفيد لأفكارنا من علوم العصر الذى نعيش فيه ، ولكننا لا نطالب فى عصر من العصور بأن نعلق ايماننا بتفسير النظريات العلمية ، وهى لا تستقر عصرا واحدا على تفسير غير قابل للنقض أو للتعديل والتحوير

خاتمة

منذ الحرب العالمية الاولى كثرت فى أوربا وامريكا مجموعات الفصول التى يبسط فيها كاتبوها آراءهم فى العقائد والأديان ، ويلخص كل منهم فيها عقيدته التى استخلصها لنفسه ، وأحس انها تناسب تفكيره وعلمه وشعوره بالعالم الذى يعيش فيه ، وبما يقتضيه أمر الاعتقاد فى عصر العلوم « الوضعية » وتجارب الانسانية الحديثة ..

وتشمل هذه المجموعات غالبا على آراء رجال ونساء ، ينظرون الى الحياة من جوانب شتى .. فمنهم العالم ، والفيلسوف ، ومنهم الفنان ، والمخترع ، ومنهم السياسى ، وصاحب الاعمال ، ومنهم من ينظر الى العالم نظرة وسطى تتلاقى فيها جميع الطوائف ، وجميع مذاهب الحس والتفكير ..

وبعض هؤلاء قد اتخذ له « الها » اصطفاه على حسب المثل العليا التى يتمثل بها الاله ..

وبعضهم يدين بعقيدة بشرية أرضية لا محل فيها لما وراء الطبيعة ، ولا تخرج عن كونها نخبة من قواعد الأخلاق وبرامج الاصلاح

وبعضهم يفسر الدين الذى يؤمن به قومه ، تفسيرا يوائمه ويخالف ما اعتقده قومه من المراسم والعبادات..

وكلهم — فى جملة آرائهم ومذاهبهم — يدلون على شيء واحد : وهو ان الايمان كما قلنا فى خاتمة كتابنا من الله ، ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة « لأن الانسان غير المؤمن انسان غير طبيعى فيما نحسبه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه . فهو الشذوذ وليس هو القاعدة فى الحياة الانسانية وفى الظواهر الطبيعية ، ومن أعجب العجب أن يقال ان الانسان خلق فى هذا الكون ليستقر على ايمان من الوهم المحض أو يسلب القرار » ..



وقد راجعنا كثيرا من هذه العقائد المبتدعة أو العقائد الفردية ، فما وجدنا بينها عقيدة واحدة يدعى لها صاحبها أكثر من دعواه انها تناسبه وتريحه ، أو انها خير ما يناسبه ويريحه ، ان لم يكن بد من الاعتقاد . ولكنهم لا يدعون لها انها عقيدة صالحة للجماعات البشرية ، فى أطوار متعددة ، وأجيال متعاقبة ، ولا يدعون ان هذه الجماعات البشرية تستغنى عن كل اعتقاد موروث وغير موروث ، لأنهم — وهم آحاد — بحثوا لأنفسهم عن اعتقاد ، أو شعروا بخيبة الرجاء لفوات حظهم من الاعتقاد ..

وكل مقابلة بين العقائد الفردية التى من هذا القبيل وبين عقائد الجماعات البشرية تنتهى بنا الى التفرقة بينهما بهذه الفوارق التى لا مناص منها ، وهى : ان عقيدة الفرد ترجع اليه فى تفسيره وتوضيحه وأسلوبه فى فهم الأمور بالحقيقة أو المجاز ..

أما عقيدة الجماعة فلا مناص فيها من ملاحظة شرائط لا تدعو الضرورة اليها كلها فى تلك العقائد الفردية ..

ومنها ان دين الجماعة لا يخلو من المجاز ، لأنه يوحى

اليها بالمغيبات المحجوبة ويقرب اليها المعانى الابدية التى لا تمتزج بالضمير ، ولا تستجيش الحس ، الا اذا اشتملت على مخيلاتهم واقترنت بما يعهدونه من المألوفات والمشاهدات ..

ومنها أن دين الجماعة يعم الخاصة والعامة والمجتهدين والمقلدين ، ولا يؤدى غرضه الاسمى اذا قطع فريقا من هؤلاء عن فريق ..

ومنها ان دين الجماعة لاجيال كثيرة وليس لجيل واحد ، وفى هذه الأجيال الكثيرة يتسع المجال لكثير من المستحدثات فى العلم ، وكثير من الغير والأطوار فى مبادىء الأخلاق ومشارب الأذواق ..

***

وللجماعات البشرية فرص كثيرة لاستحداث العلوم ومتابعة الكشوف والمخترعات ، تستطيع أن تأخذ منها ما تشاء ان لم تأخذها من نصوص الدين ، ولكنها لا تستطيع أن تأخذ الدين من غير مصادر الاعتقاد • وحسبها منه انه يحضها على التعلم ، ولا يصدها عن سبيل المعرفة ، حين تتاح لها مع الزمن بوسائل البحث والاستطلاع ..

ونحن فى هذا الكتاب قد تعرضنا للكلام عن الفلسفة القرآنية من حيث هى عقيدة للجماعات الاسلامية ، لنعرض هذه العقيدة عرضا حديثا يلبى مطالب أبناء العصر الحديث ..

ولم يكن غرضنا فى الكتاب ـ كما ألمنا فى مستهله ـ ان نستشهد للقرآن من مذاهب الفلسفة ، فان كثيرا من الفلاسفة الأقدمين والمحدثين يوافقون الفلسفة القرآنية ، فلا يهمنا من ذلك الآن يعلم المفرقون بين مجال الدين ومجال العلم والحكمة ، ان الأوامر والنواهى التى فى القرآن

قد عرضت للحكماء فى مجال المباحث الاجتماعية ، كما عرضت لهم فى مجال العقائد الدينية ، فلم يكن فيها اعنات للفكر فى سبيل ارضاء الضمير ، لأنها من شأن الفكر ومن شأن الضمير ..

مثال ذلك انهم زعموا ان تحريم الربا أضعافا مضاعفة، مسالة اجتماعية أو اقتصادية قد عرض لها القرآن ، فاتى فيها بحكم قد يرضاه المتدينون ، ولكنها لا ترضى علماء الاجتماع أو خبراء الاقتصاد ..

لكن الفلاسفة الاقدمين والمحدثين قد عرضوا لهذه المسألة فوافقوا فيها عقيدة المسلم الذى يدين بأوامره ونواهيه ، فارسطو قد حرم الربا لأنه يجعل المال نفسه تجارة وهو وسيلة من وسائل التبــادل فى التجارة ، واعداء الاستغلال من فلاسفة الاقتصاد المحدثين يردون مصائب الاجتماع كلها الى تسخير النــاس باسـتغلال رؤوس الأموال ، ولم تتناول هذه المسألة قريحة أدبية عالية ، تقيسها بمقياس الشعور الانسانى والـكرامة النفسية ، الا وصمت الربا بوصمة الخسة والمعابة ، كما قال شكسبير : « انه صدأ المعدن الخسيس » ..

فحكم القرآن فى الربا حكم لايجافى الفكر ، ولا يعطى الضمير حقا أكبر من حقــه المقدور فى تقرير المحللات والمحرمات ، وهذا كل ما يعنينا من الموافقة بين مسالة فكرية ، وحكم من الاحكام التى اشتملت عليها الفلسفة القرآنية ..

ولم نشأ أن نستدل على قداسة القرآن بما ظهر من نظريات العلم الحديث ، اذ القرآن كما أسلفنا .. « لا حاجة به الى مثل هذا الادعاء ، لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكما من

الاحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم حيثما استطاع » ..

***

ومن الخطأ ان نتلقى كل نظرية علمية كأنها حقيقة دائمة نحملها على معانى القرآن ، لأن النظريات العلمية لا تثبت على قرار بين جيل وجيل ..

ومن أمثلة ذلك ما قيل عن النظرية السديمية ، وما قيل فى التوفيق بينها وبين آيات من القرآن الكريم ، منها : « أو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شيء حى »

وقد رجح بعض علماء الطبيعة ـ والفلك خاصة ـ ان المنظومات الفلكية نشأت كلها من السديم تختلف فيه الحرارة فيتشقق ، او ينفصل بعض عن بعضه من أثر التمدد فيه ، فتدور الاجرام الصغيرة منه حول الاجرام الكبيرة ، وتنشأ المنظومات الشمسية وما شابهها من هذا التشقق وهذا الدوران » ..

ولكن النظرية السديمية لا تعدو أن تكون فرضا من الفروض ، يقبـل النقص والزيادة ، بل يقبـل النقض والتفنيد ، ولم ينته ـ بعد ـ بين علماء الطبيعة الى قرار متفق عليه ..

فلنا أن نسأل : هل كان الفضاء كله خلوا من الحرارة ، وكانت الحرارة الكونية كلها مركزة فى السدم ومنا اليها ؟

ولنا أن نسال : من اين جاءت الحرارة للسدم دون غيرها من موجودات هذا الفضاء ؟.. الا يجوز أن يظهر فى المستقبل مذهب يرجع بالحرارة الى الفضاء فى حالة من حالاته !.. اليس خلو الفضاء من الحرارة ـ اذا صح هذا الخلو ـ عجبا يحتاج الى تفسير ؟.. اليس انحصار الحرارة فى السدم دون غيرها أحوج من ذلك

الى التفسير ؟.. الا يقول بعض العلماء اليوم ان الفضاء هو الأثير، وان الاشعاع هو أصل المادة ؟.. وان الاشعاع كله حالة من حالات الأثير ؟..

فالقول المأمون فى تفسير الآية القرآنية فى السماوات والأرضين كانتا رتقا فانفتقتا فى زمن من الأزمان .. اما أن يكون المرجع فى ذلك الى النظرية السديمية فهو المجازفة بالرأى فى غير علم ، وفى غير حيطة ، وبغير دليل

***

ومتى استوفى العقل والضمير حظهما من سعة القرآن على هذا النهج القويم ، فلاحاجة به الى موافقة النظريات المستحدثة ، كلما ظهر منها فرض جديد ..

وعلى هذا النهج نقرر أن الفلسفة القرآنية خير ما تتكفل به الأديان القائمة من عقيدة تعمر الضمير ، وتطلق للعقل عنانه فى سبيل الخير والمعرفة وسعادة الارواح والابدان ، ونحسب اننا وفينا القصد حين نقنع من يقرأ هذه الصفحات بالحقيقة التي أردناها ، وهى : ان جماعة المسلمين لايستغنون عن عقيدة ، وانهم لايصطفون لأنفسهم عقيدة ميسرة سمحة خيرا لهم مما اعتقدوه..

فهرس

كتاب الهلا



لسلة
ثقافية
هرية

أفكار معاصرة

أحمد بهاء الدين

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٣٠ – محرم ١٣٩٠ – ابريل ١٩٧٠

No. 230 - Avril 1970

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر أنحاء العالم ٥ره دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا – والقيمة تســـدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية : فى الخـــارج بتحويل او بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان حلمي التوني

أحمد بهاء الدين

أفكار معاصرة

الطبعة الثانية

دار الهـــــلال

روســـيا وأمــريــكـــا..
والإنســـــان والآلـــــة

قال لى « ســـــافيل ديفز » رئيس تحرير جريدة الكريستيان ساينس مونيتور ، ومن أبرز رجال الصحافة فى أمريكا :

ـ اسمع منى !.. لقد انفقت حياتى فى قلب الحياة السياسية لهذه البلاد ... واستطيع أن أقول لك انني لم أر أمريكا تمر بفترة من النقد الذاتى ، ومحاسبة النفس ، ومحاولة اكتشاف الخطأ .. كهذه الفترة التى تمر بها الآن !

كان هـــذا الحديث فى مبنى الجريدة العريقة ، فى بوسطن ، سنة ١٩٦٠

ويومها كانت مظاهر النقد الذاتى الحاد .. لا تقاس شيئا الى مظـــاهر هذا النقد المتفاقمة اليوم : من تمرد الزنوج الذى وصل الى حد مظاهرات مئات الالوف ، والاشتباكات الدموية العنيفة .. الى حركات التمرد العنيفة ضد حرب أمريكا على شعب فيتنام.. واحراق المجندين لبطاقات تجنيدهم .. الى تجمعات الشباب فى الجامعات تحت شعارات ترفض سياسات أمريكا بشكل او بآخر .. الى الانشقاق الكبير بين اعضاء الكونجرس الامريكى نفسه ، حول تفسير أمريكا لدورها فى العالم بوجه عام

وقد سئل الكاتب المسرحي الامريكى الكبير ارثرميلر اخيرا عن رايه فى الصدمات التى أصابت السياسة الامريكية الخارجية اخيرا فى أكثر من مكان.. من اليابان الى كوبا ، فقال ميلر : « أنا متفائل جدا ! لقد بدأ الامريكيون يتعلمون انه لا يكفى أن تقول للناس : انا امريكى لكى يعاملوك على انك آلة !.. انني أجد ان روح النقد ، وعدم الاذعان ترتفع فى هذه البلاد مرة أخرى »

فى العشر السنوات الاخيرة كان من المستحيل أن تحدث أحدا في الاخطاء الامريكية، فقد كان كثيرون يعتقدون انه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، أما الآن فقد بدأ كثير من الناس يعترفون أن هناك أشياء كثيرة خاطئة.. وهذا حسن . فانك لا تستطيع أن تغير أى شيء الا اذا أحس الناس حقا انه فى حاجة الى تغيير ! »

وأظن ان ما قاله الاثنان صحيح الى حد بعيد . ولا يمكن طبعا القول بأن روح النقد والتغيير قد شملت أغلبية الناس ، أو انها شملت الجهات المسئولة والجهات ذات القوة والنفوذ ولكن وجود هذا النقد على أى حال ظاهرة هامة .

ومن أبرز الاسماء التى تقترن فى امريكا بالنقد و (المخالفة) والمطالبة بالتغيير ، كاتب ومفكر اقتصادى وأستاذ فى جامعة هارفارد . لمع فى السنوات الاخيرة كواحد من أكبر الرؤوس الاقتصادية فى أمريكا .. وهو الدكتور جون كينيث جالبريث ...

وقد اشتهر الدكتور كينيث جالبريث بثلاثة كتب ضخمة أصدرها عن الحياة الاقتصادية فى امريكا وهى :

AMERICAN CAPITALISM, THE AFFLUENT SOCIETY, THE LIBERAL HOUR,

ودكتور جالبريث ليس أستاذ اقتصاد بالمعنى المتجهم الجامد لهذه الصفة .. ولكنه كاتب لامع الاسلوب ، يتدفق ذكاء وسخرية وبساطة .. وكل بحث أو رأى له يثير حوله عواصف من السخط والرضى ، والذم والمدح وقد اخترت أن انقل رأيه فى ثلاثة موضوعات رئيسية :

* ما هو المحور الحقيقى للمنافســـة بين الاتحاد السوفييتى وامريكا ؟
* هل صحيح ان قيمة الآلات ترتفع ، بينما تهبط قيمة الانسان ؟
* كيف أثر التنافس الاقتصـــادى فى أمريكا على الذوق .. وعلى الفن ؟

أما عن التنافس بين الاتحاد السوفييتى وامريكا .. فان جون جالبريث له فيه رأى خطير .. فهو يقول :

— لو درسنا التاريخ .. لوجدنا أن هدف التنـافس العسكرى دائما واحد ، وهو أن تتغلب على العدو ، بأقل ضرر يلحقك . ولكن الاسلحة قد تقدمت وتطورت الى درجة جعلت تحقيق هذا الهدف مستحيلا ، لأى طرف ، مهما كانت درجة تفوقه .

والبديل الوحيـــد للتنافس العسكرى هو التنافس الاقتصادى ، فاذا كان الاسلوب الاول بشعا فلا مفر من الاتجاه الى الاسلوب الأقل بشاعة !.. السوفييت يريدون أن يسبقوا أمريكا فى الانتاج ولذلك يجب على أمريكا أن تسبق نفسها . والجائزة فى النهاية للدولة التى يزيد الدخل القومى فيها بنسبة أكبر ..

وفى الســـنوات الاخيرة نجد أن الاتحاد السوفييتى يزيد انتاجه بمعدل ٧ ٪ بينما يزيد انتاج أمريكا بمعدل ٣ ٪ . وازاء هذه الظاهرة يرى بعض الناس ان أمريكا يجب أن ترفع معدل زيادة الانتــاج فيها حتى تزداد

تفوقا على الاتحاد السوفييتي.. فى حين أن هناك آخرين يحاولون أن يطمئنوا انفسهم بمحاولة اثبات ان الارقام التي يذيعها الاتحاد السوفييتى عن تقدمه غير صحيحة. وقد نشأت فى أمريكا صناعة جديدة ناجحة ــ هى صناعة اثبات أن الارقام السوفييتية غير صحيحة .. ولعل فى الاتحاد السوفييتى أيضا صناعة أخرى مقابلة تحاول اثبات أن امريكا تتأخر !

ومع ذلك فان هــذا ليس معناه ان هدف أمريكا الوحيد يجب ان يكون الدخول فى ســباق مع الاتحاد السوفييتى حول معدل زيادة الانتاج . ان زيادة الانتاج بالنسبة للاتحاد السوفييتى لها معنى ، وبالنسبة لأمريكا لها معنى آخر .

الاتحاد السوفييتى كان حتى وقت قريب بلدا متأخرا ضعيفا .. فالنمو السريع بالنسبة له هام جدا لانــه يسمح له بأن يرفع مستوى المعيشة فيه ويفتح أمامه مجال التقدم الواسع فى المستقبل . ثم لكى يصبح لديه بعد ذلك فائض يوجهه الى العالم الخارجى حيث يساعد سياســته الخارجية . ان الاتحاد السوفييتى يريد القضاء على فكرة انه يأتى فى المرتبة الثانية بعد دولة رأسمالية ، لكى يبدد الشــك فى أن يكون نظامه هو المسئول عن هذا الوضع .

ولــكن السبب بالنسبة لأمريكا يختلف . السوفييت يريدون أكثر لأن أمريكا لديها أكثر . ولكن ، لماذا تحتاج أمريكا الى الأكثر ؟.. هذا هو السؤال الهام الذى يجب أن تفكر فيــه أمريكا . ان مجرد الجرى الى الامام للاحتفاظ بالاولوية فى كمية الانتاج ، لا نتيجة له الا الخراب .

هل تزيد أمريكا من انتاجها فى الطعام مثلا ؟ بالتأكيد

لا ! فمرض أمريكا الآن هو التخمة وليس ضعف التغذية !.. والتقدم فى أمريكا ينصب الآن على طرق تعبئة المأكولات وتقديمها وليس على انتاج المأكولات ذاتها. وحتى فى هذا المجال وصلت امريكا الى آخر الشوط ولم يعد هناك الكثير مما يمكن ابتكاره . كذلك بالنسبة للملابس . لقد عبرت أمريكا مرحلة الحاجة الى زيادة الملابس واصبحت تصمم الملابس للتنافس فى الذوق وللمباهاة لا لمجرد الحاجة اليها . وفى مجال السلع الاخرى كالسيارات كادت أمريكا تصل الى معدل انتاج ١٠ ملايين سيارة فى السنة . وكادت الطرق والجراجات تملأ كل مكان فى البلاد حتى فى صميم الريف .

سيقول الناس : ولكن ما زال فى أمريكا من لايجدون كفايتهم من الطعام والكساء والسيارات والبيوت المريحة وهذا صحيح. ولكن مجرد زيادة الانتاج ليست العلاج. فقبل ايجاد السلع ، يجب أن يكون لهؤلاء الناس دخل كاف لشراء هذه السلع.. ويجب أن يكون لديهم كفايتهم من التعليم والصحة والفرصة لكى يكسبوا ويشتروا .

هناك من يقول ان الاتحاد السوفييتى يزيد من الصناعة الثقيلة عنده لكى يضاعف قوته الحربية . وان امريكا لهذا السبب يجب أن تنافسه . ولاشك ان القوة الصناعية هى أساس القوة العسكرية . ولكن يجب أن نعرف ان هذا يتوقف بمجرد بلوغ مرحلة معينة من القوة الصناعية . فبعد الوصول الى مرحلة معينة من القوة الصناعية تصبح كل زيادة فى الصناعة تافهة الاثر بالنسبة للقوة العسكرية واظن ان الاتحاد السوفييتى قد وصل أو كاد يصل الآن الى هذه المرحلة . فى الحروب القديمة ، عندما كان الحديد يحارب الحديد ، كنا نجد أن هناك حدا أقصى لاستخدام الحديد فى

القتال . وقد استطاعت ألمانيا مثلا فى الحرب العالمية الثانية أن تهزم جيوشا معادية بكمية أقل من الحديد والصلب . فما بالنا والحرب الحديثة ـ كما يسمونها ـ وكأنها كأى موضة جديدة ، تحتاج الى حديد أقل وخامات أقل ؟.. ان المهم الآن ليس كمية الحديد وقوة الصناعة. بدليل ان الاتحاد السوفييتى سبق أمريكا فى مجـــال الصواريخ ، رغم ان قوته الصناعية أقل .

فالتفوق الصناعى ، من حيث الـكمية ، ليس هو المهم . بل انه يمكن القول ان هذا التفوق أحيانا يزود الناس بسلع ورفاهيـــة أكثر مما يجب لدرجة انهم يصبحون عاجزين عن الاستغناء عن هذه الاشياء بالسرعة اللازمة فى الوقت اللازم . الأمر الذى يعد عنصر ضعف وليس عنصر قوة . وصناعة السيارات هى أول مثل وانذار . لقد وصلت صناعة السيارات فى أمريكا الى درجة استهلكت قوتها البدنية ! وكم كان صعبا على جنـــود امريكا فى حرب كوريا مثلا أن يتعودوا كيف يحاربون خصوما لا يركبون سيارات الجيب !

وأخيرا يقال ان زيادة الانتاج فى حد ذاتها ســوف تمكن أمريكا من مساعدة أصدقائها وحلفائها فى الخارج. ولـكن الواقع ان الذى كان يمنع أمريكا عن مساعدة العالم الخارجى فى الماضى لم يكن قلة الانتاج ، بل كان عدم الرغبة فى الانتاج من أجل هذه الغاية !

وهذا يذكرنا بمشكلة أخرى : ان السلع الامريكية ، خصوصا الثقيلة منها ، أصبحت أسعارها عالية بالنسبة للعالم الخارجى الى درجة هائلة . والواقع ان السعر الآن أهم من الـكمية . فلا قيمة لهذا الانتاج اذا ارتفعت أسعاره الى درجة جعلت الآخرين عاجزين عن شرائه .

اذن : فمجرد زيادة الانتاج للاحتفاظ بالتفوق على

الســـوفييت لا قيمة له . ان الزيادة لن تذهب الى المحتاجين لها . ولن تزيد من قوة أمريكا العسكرية أو الاقتصـــادية . ولن يكون لها اثر الا فى تحويل انظار الامريكان الى اشياء أقل اهمية .

اذن فماذا ؟

يستطرد الدكتور جالبريث قائلا :

لكى تفهم امريكا طبيعة المنافسة بينها وبين الاتحاد السوفييتى ، يجب أن تنظر أولا الى الاقمار الصناعية والسفر الى الفضاء .

لنترك جانب العنصر العسكرى ، اذ ليست له قيمة كبيرة . ان هـــذه الاقمار قد زادت من سمعة الاتحاد السوفييتى ونفوذه وهيبته الى حد كبير . ذلك انه غير الفكرة العالمية القديمة التى كانت تفترض دائما ان كل اختراع انما يأتى من امريكا أولا . وان التفوق العلمى الامريكى لا غالب له . والعلم اليوم ليس شيئا نظريا . انه مرتبط تماما ، لا بالقوة العسكرية وحدها ، ولكن بالطعام والصحة والتقدم فى كل ميدان . فالسوفييت قد حققوا تفوقا فى ناحية من نواحى العلم لا نظير لقوتها (الاعلانية) والدعائية !

التفوق فى الســـفر الى الفضـــاء اثبت ان المجتمع السوفييتى يتمتع بنشـــاط وحيوية ذهنيـــة وثقافية ضخمة . وهذا هو ما ترك اثره فى العالم كله ، وفى أمريكا نفسها أيضا . وقد كان الســـوفييت بارعين ، اذ لم يركزوا دعايتهم على الاهمية العسكرية لهذا التفوق ، لأن هذا كان كفيلا أن يقلل من صورة التفوق العلمى فى حد ذاته ، وهى الأكثر أهمية . لقد أراد السوفييت أن يؤثروا فى العالم ، لا أن يخيفوه !

اذا أخذنا هذا النموذج السوفييتى فلا بد من القول

ان التنافس مجاله فى الميادين التى تدل على مدى قوة النظام الاجتماعى وسلامته وحيويته . فهو أيضا ليس تنافسا علميا ضيقا . ان كل ما يثبت كفاءة المجتمع هام فى هذه المنافسة . المجتمع الذى سيثبت انه يتمتع باكبر درجة من نقط القوة والحيوية واقل درجة من نقط الضعف .. هذا المجتمع هو الذى سينال اكبر احترام ، وبالتالى اكبر تأييد ، اى سينال فرصة اكبر للاستمرار. هذا هو جوهر التنافس بين البلدين الآن !

وفى أمريكا ينتشر وهم غريب يقول ان المجتمع الذى يؤمن بالاقتصاد الحر سوف يحقق كل شىء ويتفوق دون أى توجيه أو تدخل . وهذا معناه ألا تهتم أمريكا بمنافسة الاتحاد السوفييتى . تمسكا منها بمبدأ الحرية الاقتصادية ! وهذه نظرية لا ترجمة لها الا « يجب أن نفشل ، لأن النجاح يتعارض مع عقيدتنا ! » ذلك انه لا مفر من مواجهة الحقيقة وهى : ان كل ما تتطلبه المنافسة ، ينطوى على مزيد من « القيادة الحكومية » . ليس هناك أى حل آخر !

ويقول الدكتور جالبريث :

بعض الناس يرددون هذه الايام بكثرة ان الانسان تقل قيمته بينما تزداد قيمة الآلات ! فالاوتوماشين فى المصانع ، والرقابة الالكترونية عليه ، سوف يجعل الصناعة تقوم على الآلة لا على الانسان . وحتى فى مجال الحرب ، الصواريخ الموجهة أصبحت أدق وأجدى من الطائرة التى يقودها انسان ويتعب نفسه فى القاء القنابل على الهدف. والصواريخ الموجهة سوف تقابلها فى القريب صواريخ مضادة تقابلها فى الفضاء وتفجرها فى الهواء .. وهذا قمة انتصار الآلة على الانسان ..

والواقع ان العكس تماما هو الصحيح . ولم يحدث

أن ارتفعت قيمة الانسان كما ترتفع الآن !

اول مظهر يدل على ذلك هو ان الانسان صاحب الخبرة ترتفع قيمته ، فى حين ان الانسان صاحب المال تهبط قيمته . ان من يملك الخبرة يستطيع ان يكسب بها المال . اما من يكسب المال وتنقصه الخبرة ، فهو لايمكن أن يصنع شيئا . واغلب الظن انه سيفقد امواله. فهو حتى لكى يتبرع بأمواله لشىء منتج سوف يحتاج للذهاب الى خبير !

فى أمريكا كانت أغلب المؤسسات الكبرى يديرها أصحابها .. الآن لا نجد بين من يديرون المؤسسات الكبرى الا القليلين جدا من أصحابها . القوة الآن هى قوة المديرين . المديرون الآن يرشحون مجلس الادارة الذى ينتخبه المساهمون . ومجلس الادارة بعد ذلك يعين المديرين الذين رشحوه . الرجال الأقل ثروة ، استولوا الآن على السلطة فى مجال الصناعة لأنهم أكثر ثقافة وأكثر دراية بعملهم وأطول خبرة . وكثير جدا من الشركات التى أصابها الدمار ، كان سبب دمارها ان أصحابها حاولوا الاحتفاظ بالسلطة فى أيديهم وتقليل سلطة المديرين والخبراء . فى الفترة بين سنتى ١٩٣١ و ١٩٤٠ كادت مؤسسات فورد تفلس لأن هنرى فورد الكبير ، مؤسسها ، أصر على أن يحتفظ بالسلطة فى يده . فلما مات ، أسرع خلفاؤه الى تحويل السلطة الى أيدى المديرين والخبراء ، فانقذت مؤسسات فورد وعادت الى النجاح . ان اصرار الراسمالى على أن يدير أمواله بنفسه أصبح مصدرا لكثير من الكوارث .

وارتفاع قيمة الانسان فوق قيمة المادة والآلة يظهر على جميع المستويات وليس على هذا المستوى فقط..

ومع ذلك .. فان أمريكا لا تهتم بالانسان الاهتمام

الكافي في وجه المنافســة المتزايدة .. اى انها لا تهتم بالتعليم الاهتمام الــكافي ...

ان اى اسرة امريكية تستطيع ان تحصل على سيارة في خمس دقائق . ولــكنها لا تستطيع أن تجد مكانا لأبنائها فى المعاهد المناسبة بسهولة. بل لعل مدير مصنع السيارات نفسه ليس واثقا من انه سيجد لابنه المعهد المناسب !

والتقدم الصناعي الآن ــ كما قلنا ــ مرهون بالتقدم العلمي التكنيكي ، لابزيادة كمية الخامات والأيدىالعاملة فقط . ومراجعة النمو الصناعي الامريكي نفسه تدل علىأن التقدم العلمي ساهم فيه بدرجة أكثر مما ساهمت فيه زيادة الخامات أو الأيدى العاملة .

ولكن الابتكار العلمي والاتقان التكنيكي هما من انتاج الانسان ولا يمكن أن يكونا من انتاج الآلات . التقــدم العلمى هو نتيجة عمل الانسان المتقدم والاختراع كما هو معروف الآن لم يعد كما كان قديما رهن صدفة أو الهام عبقرى يهبط على احد المخترعين. كلا. الاختراع الآن اصبح وليد التعليم والتنظيم فى المعامل ومراكز الابحاث . المنطق العلمي والتنظيمى والتجريبى هو الآن الاشياء التى تخلق الاختراع .

التقدم الصناعى يقوم على تحسين الآلات . وتحسين الآلات لا يتم الا عن طريق تحسين الانسان نفسه . اننا نكسب من الانسان المتقدم أكثر كثيرا مما ننفق عليه .

ان الانفاق على الانسان الآن وعلى تعليمه وتدريبه أصبح أهم لسلامة أى مجتمع من الانفاق على السلاح !

وهذا لن يتم الا بأموال عامة ، وبكمية كافية . وأموال عامة معناها أموال الدولة .. أموال الحكومة الاتحادية لاحكومات الولايات. ولا يصح أن يخجل أحد المتحررين

بعد الآن من الدعوة الى هذا !

والدكتور جالبريث من هواة الفن ، وفن الرسم بالذات .. وقد ألقى محاضرة عن هذا الموضوع قال فيها :

من أهم الاشياء التى جنى عليها الاسراف فى التنافس التجارى ، الفن ، والفنان ...

فهناك دائما صراع بين نزعتين : نزعة تحسين الانتاج ، ونزعة زيادة المبيعات .

ان ذوق اغلبية الناس ليس دائما الذوق الاحسن وليس دائما الذوق الاكثر تقدما . ان الفنان عادة قائد لذوق الجماهير . ولكن المصنع الذى ينتج سلعة للناس يهمه طبعا أن ينتج ما يأخذه الناس بسرعة . فهو لا يحاول أن يصنع ما هو أجمل . انما هو يتحرى : ما هو الذى يعتبره الجمهور جميلا .. ثم ينتجه له ، ليبيعه فى نطاق أوسع بدرجة أسرع . حتى ولو كان هذا المطلوب تافها أو قبيحا ..

ولكن الصناعة ، فيما اعتقد ، بدأت تعانى حتى من هذا . ان الذوق ليس شيئا ثابتا . انه شىء متغير . والتغير فى الذوق يبدأ بين ذوى الحاسة الفنية المتفوقة ، ثم يبدأ فى الانتشار ، عن طريق الاقتناع والقدرة والتقليد . والصناعات عندما عزلت نفسها عن الفن ، واستبدلت به « دراسة السوق » ، انما عزلت نفسها عن الحاسة التى تسبق الى التذوق . وهكذا بدلا من أن تتقدم الى الامام درجة ، تراجعت درجة الى الوراء .

ومن نتائج هذا الوضع ، ما تراه من ازدياد وصعوبة تصدير السلع الامريكية الى الخارج وازدياد استيراد السلع الاجنبية الى أمريكا . ذلك ان الصناعة هبطت من حيث لا تشعر عن مستوى ذوق الشعب الامريكى .

نرى هذا فى مصنوعات الاثاث والزجاج والخزف والجلد، حيث هجر الامريكى صناعته الى المستحضرات الايطالية والفرنسيه والسويدية .

ان البلد الفقير لا يتمنى أكثر من ان يصنع السلعة التى يستعملها . أما البلد الغنى فيجب أن يطلب شيئا اكثر من هذا : يطلب الجمال ايضا ! فى البداية يكون « الميكانيكى » هو المهم وعندما يتوفر الميكانيكى ... يأتى دور الفنان !

ثم انظروا الى المبانى والمدن فى أمريكا . ان منطق المنافسة التجارية يسىء اليها . تصوروا مثلا ميـدان سان مارك فى ايطاليا لو امتلأ باعلانات الكوكاكولا وشركات اسـو وتكساكو وهوارد جونسن « محلات جيـلاتى وسندويتشات منتشرة فى كل انحاء الولايات المتحدة » ! ان هذا يحدث فى المدن الامريكية . فاذا اعترض واحد قالوا له انه رجل غير عملى ، وانه ينتقص من النظام الذى صنع لأمريكا كل هذا الرخاء !

ان الاعلان يقوم على لفت النظر . والشىء يلفت النظر حين يتعارض مع ما حوله ويشذ عنه .. وتصوروا ما يحدث من اجتماع عشرات الاشياء المتعارضة ، غير المنسجمة ، بل التى تتعمد عدم الانسجام ! !

ان المجتمع فى امريكا مازال أقل تقبلا لفكرة التخطيط ، من أجل ايجاد التناسق بين الفنـان والوسط المحيط به . اننا نقبل تحطيم الجمال اذا كان يبيع أكثر . الذين يفسدون جمال المدن ما زالوا يقولون انهم انما يخدمون الغاية العليا للمجتمع !

ان رجل الاعمال الامريكى ، كما استطاع ان يوفق بين مصلحته وبين ضرورات العلم .. أصبح عليه ان يوفق بين مصلحته وبين ضرورات الفن !

ويستطرد جالبريث فيقول : ان التقـدم العـلمى والصناعى ليس وحده الدليل على تقدم المجتمع ! ان التقدم الفني والثقافى هام أيضا . ان المثقفين ما زالوا هم الذين يقولون الكلمة الاخيرة عن مدى تقدم هـذا المجتمع او ذاك !

وينتقد جالبريث ، بهذه المناسبة ، البرنامج الذى وضعته أمريكا لزيارة خروشوف مثلا : « لقد جعلوه يقابل الساسة ورجال المال والصناعة فقط . وبعض من رآهم لايمثلون الشعب الامريكي مطلقا . لقد جعلوه يرى المصانع الضخمة وكيزان الذرة الهائلة ولكنهم لم يرتبوا له أى مقابلة مع فنانين أو كتاب . لم يضعوا فى برنامجه زيارة متحف الفن الحديث أو متحف جوجنهايم « من اعظم واحدث متاحف العالم » . لم يهيئوا له أن يرى آرثر ميلر ، أو تنيسى وليامز ، أو غيرهما من الـكتاب المبدعين . لم ير أى مكتبة ضخمة ولا أى جامعة كبرى .

ويقول جالبريث : لاأعرف اذا كان هذا يهم خروشوف او لا . ولـكن حذف أمريكا لهذه الاشياء من برنامج الزيارة له معنى عميق . معناه أن القائمين على مثـل هذا لايعرفون ان هذه أشياء عظيمة .. لها أكبر الاثر فى كسب احترام الآخرين !

قصة فاطمة

« فاطمـــة » هو الاسم الذى تعود الفرنسيون ان يرمزوا به للمراة الجزائرية ، فالكاتب الفرنسى اذا قال « الفاطمات Les Fatmas » فهو يعنى : الجزائريات .

ومن الوهـــلة الاولى ، يندهش الزائر فى الجزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » الى هذا الحد . الحجاب هو مثلث من القماش الابيض المطرز فى نهايته ، يغطى الوجه ، و « الحايك » هو الاسم المحلى للملاءة البيضاء الواسعة التى تلتف المراة المتحجبة بها ..

يندهش الزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » فى مجتمع قريب من أوروبا الى هـــذا الحد . وممتزج بالاوروبيين على هذا النطاق . فى مجتمع خاض غمار ثورة تقدمية لا نظير لها ، اشتهرت خلالها البطلات جنبا الى جنب الابطـــال .. وذاع صيت « الجميلات » أو بالاحرى « الفاطمات » اللائى يفجرن القنابل ، ويحملن المدافع الرشاشة ويصمدن للتعذيب الوحشى فى أعماق السجون .

فكيف صمد هذا الحجاب الحريرى الرقيق فى وجه كل هذه الاحداث ؟..

من حديثى مع الجزائريين والجزائريات ، ومن قراءتى لكتاب بديع اسـمه « الثورة الجزائرية فى عامها

الخامس » للمرحوم المناضل الدكتور فرانز فانون ، خرجت بالاجابات التى أسجلها فى هذا المقال ..

منذ سنة ١٩٣٠ تقريبا ، بدأت معركة الاستعمار الفرنسى ضد الحجاب .

ولم تكن معركة بريئة تستهدف تحرير المرأة وتطويرها بدليل عدم اهتمام الاستعمار بتحرير الرجل أوتطويره . بل بدليل اهتمام الاستعمار بعدم تحرير الرجل وبعدم تطويره .

ولكن الفرنسيين كانوا قد وجدوا أن القضاء على الحجاب هو خطوة هامة للقضاء على « شخصية » الشعب الجزائرى ، بوصفه رمزا يدل على شخصية المرأة الجزائرية وموقفها وحالتها الاجتماعية . ولاحظوا مرة أخرى ان هدف الاستعمار هناك لم يكن الاستغلال فقط بل ومحو الشخصية الجزائرية واذابتها فى الشخصية الاوربية .

ولم يكن هذا قرارا « اداريا » اتخذته الادارة الفرنسية ، ولكنه كان قرارا توصل اليه خبراء فرنسا فى العلوم النفسية والاجتماعية والسياسية .. وقد صاغوا قرارهم هذا فى عبارة شهيرة هى : « اكسبوا النساء أولا ، والبقية تتلو » .

وذلك ان خبراءهم قالوا لهم : ان المجتمع العربى بوجه عام اذا كانت تسوده فى الظاهر سلطة الأب ، فان الذى يؤثر فيه ويوجهه ـ فى الخفاء وخلف الحجب والأستار ـ سلطة الأم والخالة ، والجدة المجوز .

وبناء على ذلك فما على فرنسا الا أن « تغزو النساء أولا ، وبذلك تكسب عنصر المقاومة والعزلة والمقاطعة فى المجتمع الجزائرى » . على فرنسا أن « تفتش عن المرأة الجزائرية ، خلف حجابها ، وحيث يخفيها الرجل » .

ثم أن هذا سوف يكسب الادارة الاستعمارية صورة تقديمه . فهذه الادارة الاستعمارية سوف تدعو الى « تحرير » المرأة « المظلومة » .. « المضطهدة » .. « السجينة » خلف حجابها ، وخلف مشربيتها . انها فرصة ذهبية لوضع الرجل الجزائرى فى قفص الاتهام، وإيقافه فى موقف « الظالم » .. « المتعسف » .. « المستبد » ..

كذلك فانها فرصة لالقاء تبعة التخلف والتأخر والفقر والامية ، لا على عاتق الاستعمار والاستغلال الاجنبى ولكن على عاتق « المجتمع » الجزائرى وعلاقاته الداخلية المتخلفة ..

كان المستعمر يعتقد - بوجه عام - انه كلما قل « الاختلاف » بين المجتمع الجزائرى والمجتمع الاوربى ، قلت مقاومة المجتمع الاول لسطوة الثانى ، وقلت قدرته على المقاومة ، والتمنع ، والرغبة فى الاحتفاظ بشخصيته الأصيلة ..

كانت الدعوى الاساسية للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هى : انه لايوجد شىء اسمه شعب جزائرى . ولا يوجد شىء اسمه شخصية جزائرية . ولذلك فقد كانوا حريصين أولا وقبل كل شىء على تدمير كل ما يمكن أن يميز هذا المجتمع الجزائرى ويذكره بأن له شخصية مستقلة حتى ولو كان هذا المثلث الرقيق من القماش الابيض المشغول ..

وبالعكس ، كان المجتمع الجزائرى ، كلما اشتدت ضراوة الهجوم على ملامحه هذه ، لا يفكر الا فى أن يزداد تمسكا بها ، وتأكيدا لاستمرارها ..

وقد بلغ الهجوم الفرنسى على الحجاب درجة وصلت احيانا الى أن بعض المصانع والمؤسسات ذات الادارة

الفرنسية كانت تعمد الى اقامة حفلات تدعو فيها الجزائرى البسيط الذى يعمل فيها للحضور مع زوجته ، ويضغط رئيس العمل الفرنسى على مرءوسه الجزائرى « انالمصنع أسرة كبيرة يجب أن تحضر زوجتك وبناتك. هل هن محجبات ؟ مستحيل . يجب ! » ويتأزم الرجل الجزائرى . هل يحضرها الى الحفلة ، وبذلك يكون قد خضع لمشيئة الفرنسى .. وفيما يتعلق بزوجته بالذات. أم يقول له : « زوجتى لن تنزع الحجاب » ، ويفقد عمله ؟.. نعم . فقد كان أحيانا يفقد عمله لهذا السبب. وكان هذا الاصرار الفرنسى كافيا لأن يقنع الجزائرى — والجزائرية — ان نزع الحجاب عمل مشبوه ..

أما بالنسبة للجزائرى المثقف ، فالحملة أشد . فالفرنسى كان يعرف جيدا أن الجزائرى المثقف لايؤمن بالحجاب كحقيقة اجتماعية ، ولا يوافق من حيث المبدأ على استمراره ، ولذلك فلا تفسير لموقف هذا الجزائرى حين يصر على بقاء زوجته محجبة الا انه رجل « وطنى » متعصب وانه فى باطنه شديد الكراهية للاستعمار ، لأنه يحتفظ بالحجاب لأسباب وطنية عارية .

فاذا تركنا الاوروبى المشترك عامدا فى هذه الحملة على الحجاب ، وحاولنا أن نعرف موقف الاوروبى العادى منه .. فسوف نجده غريبا بدوره . فالمحامى أوالطبيب الاوروبى الذى يرى — بحكم مهنته — بضع جزائريات سافرات ، لا يمل من التعجب أمام مجتمعه من هؤلاء الناس . ان المجتمع الاوروبى حين يمتلك جمالا أو اتقانا من صنع الطبيعة ، يعمد الى اظهاره وابرازه ، والتباهى به .. فكيف يفسر موقف هذا الشعب العكسى ، واخفاءه لما يتمتع به من جمال ، خلف هذا الستار الكثيف من التحجب والكتمان ..

او يكون رد الفعل ، على العكس ، معاديا يثير فى الاوروبى الغيظ والحفيظة والرغبة فى الاعتداء : يجب نزع حجاب هــذه المراة ، يجب تعرية سرها وتحطيم مقاومتها ، وجعلها مجالا للمغامرة . ان اخفــاء الوجه لا معنى له الا اخفاء سر ، واقامة عالم مصمم على أن يظل رافضا منفصلا .

هذه المراة التي ترى المستعمر دون أن يراها ، تثير اعصابه . ليس فى هــذا الوضع أى مســاواة . انها لا تستسلم ، لا تهادن ، لا تعطى .

والاستعمار الفرنسي ، ودخول جنــوده الى القرى الجزائرية ، اقترن منــذ بدايته الاولى بالاعتــداء على النساء ، مما جعل لهذا التشبث بالعبــاءة والحجاب سببا تاريخيا خاصا ..

ولهذا ظلت امكانيات اللقاء بين الجزائرية والاوروبى ـ على المستوى الفردي ـ نادرة الى أقصى الحدود . ولهذا فالاوروبى كان اذا ساورته أحلام يقظة عن المراة الجزائرية ، لم يخطر له قط أى حلم عن لقاء فردى ، عادى مع جزائرية ، كلقائه مع الاوروبية . لقــاء فيه تدرج ، وتطور ، ومعرفة. كلا كانت أحلامه عن الجزائرية يعرف انهــا لن تتحقق الا بدرجة عالية من العنف ، والقسوة ، فلا أسلوب هناك يوصله الى هذا اللقاء الا الاغتصاب ..

ازاء كل هذا الموقف الاوروبى المريض المعقد ، الفاسد، الشاذ .. وازاء التاريخ الطويل ، وازاء الاغتصـــاب والانتهاك والتدمير ، وازاء الرغبة فى محو الشــخصية الجزائرية محوا نهائيا .. ازاء هذا كله .. اكتسبت هذه الرموز الميتة .. الحجاب والحايك .. حيــاة جديدة ، واصبح لها مغزى جديد ..

ازاء تركيز الاستعمار ضد الحجاب عمد الوطنيون الى تقديس الحجاب .

ازاء محاولة الاستعمار نزع الحجاب كدليل على « التعايش السلمى» بين المجتمعين الاوروبي والجزائرى ، احتفظ الجزائريون بالحجاب كدليل على المقاومة السلبية للمجتمع الاوروبى .

وهكذا .. بعد ان كان الحجاب شيئا يعبر عن موقف المرأة من الرجل .. أصبح رمزا على موقفها ـ بل وموقف أسرتها ـ من الاحتلال .

فى هذا الجو النفسى والسياسى معا ، انفجرت الثورة التحريرية الخالدة ، يوم أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ .

ثورة قومية ، فهى بالتالى تحافظ على مقومات الشعب ، وتنمى شخصيته ، وتعتز بكل ما له من تراث ..

وثورة تقدمية ، فهى بالتالى تعرف ان الحجاب منقرض .. والعباءة منقرضة .. وان التطور لابد آخذ طريقه ..

فماذا حدث ؟

حتى سنة ١٩٥٥ كانت الثورة الجزائرية ثورة الرجل فقط . فالطابع الثورى الفدائى لهذه الثورة فى أيامها الاولى ، والحاجة الى السرية المطلقة ، جعلت المناضل يخفى عن زوجته ـ تماما ـ العمل الخطير الذى يشترك فيه . ولكن تطور الثورة أدى الى تطور اشكال الارهاب الفرنسى وبالتالى أصبحت الحاجة ماسة الى تطوير أساليب النضال ذاتها . لم يعد هناك بد ازاء تشبث العدو ووحشيته من الحرب الشاملة ، الحرب التى لا تستثنى اى عنصر أساسى من عناصر الأمة .. وهكذا برزت ضرورة اشراك المرأة الجزائرية فى المعركة . ولم يكن هذا القرار سهلا .

كان لابد من تحقيق هدفين : الاول اشراك المرأة فى المعركة . والثانى هو الاحتفاظ للمعركة بمستواها العالى من الاستعداد للتضحية والفداء وتحمل كل آلام الكفاح الهائل . أى ان المرأة سيكون عليها أن تقدم نفس ما يقدمه الرجل من تضحيات .

كيف ؟ ..

كيف تواجه المرأة الجزائرية المستعمر ، وتتصدى له ، وهى التى تربت ـ كما رأينا ـ على أن تتجنبه ؟

المرأة التى تعودت الحجاب ، وجدار البيت ، وأمان العزلة .. كيف تتحمل مواجهة السفور ، والطريق المزدحم ، والخطر المتربص ، والمكائد ، والطلقات القاتلة ، بهذه السرعة ؟

وقد رأى رجال الثورة وحشية المستعمر .. اذ مروا جميعا بسجونه ، ومعسكرات اعتقاله ، وغرف التعذيب فيها .. ولن يتردد المستعمر فى ارتكاب نفس الوحشية مع النساء .. المرأة التى تقع سوف تعذب بالتأكيد حتى الموت ، كالرجل تماما .

ألا يمكن أن يكون قرار ادخالها المعركة ذا أثر قاتل على الثورة ذاتها ؟..

ان المرأة الجزائرية لم تدرب على القتال كالرجل . لم يسبق لها مواجهة الموت فى صفوف الجيش الفرنسى كبعض المناضلين . لم تفكر قط فى العمل السرى . بل انها لم تقرأ قصص البطولة فى الروايات ولم تشاهدها فى السينما حتى يقال انها اندفعت وراء الخيال .. لا شىء من هذا قط . ومع ذلك فقد فوجىء العالم بهذه المرأة تخرج دون أى سابقة ، وفى طيات ثيابها قنابل يدوية ، أو رسالة سرية ، تواجه أقسى تجربة : تجربة المتآمر الوحيد ، فى الشارع الصاخب المزدحم ، الذي

يعج بالجنود ، وبنظرات الأعداء الفاحصة .. أقسى تجربة يمكن أن تتعرض لها الأعصاب .

ان الثورة ـ فى تطورها ـ تحتاج الى مهمات جماعية كثيرة غير القتال فى ساحات القتال . جمع الأموال ، التدريب ، التجسس ومقاومة التجسس ، نشر الوعى السياسى ، تكوين التشكيلات السرية الواسعة ، اعداد ثلاث خلايا بمثابة احتياطى لكل خلية تناضل فعلا ، لتحل محلها اذا ضربت أو انكشفت .. كل هذا أجبر رجال الثورة على البحث عن عنصر جديد يقوم بالمهمات ذات الطابع الفردى . وهكذا تقرر ، بعد تردد طويل ، أن تدخل المرأة ساحة النضال والشرف .

وفى البدء تقرر الا يشترك فى التنظيمات السرية الا النساء المتزوجات من مناضلين . ثم أدى اتساع الثورة الى اشراك الأرامل والمطلقات . ثم كل النساء دون الفتيات . لأن البنت الجزائرية التى لم تتزوج قلما يكون قد سبق لها الخروج الى الشارع على الاطلاق . ولكن الفتيات بدأن يتطوعن بكثرة ، ويثرن اذا رفض تطوعهن . ويروى شهود العيان ان البنات الصغيرات فى ذلك الوقت كن يجتمعن ويقسمن أن لايتزوجن الا اذا كان العريس عضوا فى جبهة التحرير!.. وهكذا اتسعت الثورة فشملت كل نساء الجزائر ، دون قيد ، كما شملت من قبل كل رجالها .

وفى البدء ، كانت المرأة المناضلة تقوم بمهمة ضابطة اتصال بين خلايا أو ناقلة لرسائل ومعلومات ، أو حاملة لمتفجرات أو بطاقات شخصية مزورة بالمئات ، أو أموال الثورة بالآلاف ، او تقوم بمهمة السير فى الطريق بضع عشرات من الامتار أمام مناضل رئيسى أو فرقة من المناضلين لتسرع بتحذيرهم اذا اكتشفت حركة غير عادية

أو كمينا معدا .. كانت المرأة تقوم بكل هذا وهي مازالت في حجابها وعباءتها التقليديتين .. ولكن ضراوة المعركة كسرت كل قيد .. لم يعد حي « القصبـــة » حصنا طبيعيا للنساء . لقد اقتحم الغزاة حي القصـــبة كما أصبح على المناضلين أن يقتحموا أحياء الغزاة ..

ان الاوروبيين والجزائريين لايعيشـــون مختلطين . ولكن كلا من الفريقين له احياء خاصة به تماما . وعلى ذلك فالمرأة التى تؤدى مهمة فى حى أوروبى ، اذا لبست عباءة أو حجابا فسوف تلفت الانظار .. وسوف تسقط فى الحال .. لابد لها أن تسير فى الزحام كما تســـير الاوروبيات ، حتى لايعرف حقيقتها أحد . لابد اذن أن تخلع الحجاب والعباءة ، خصوصا اذا كانت شقراء حتى يحسبوها فرنسية عابرة .

لم تكن المرأة الجزائرية تعبر الاحياء الاوروبية قبـل الثورة قط الا لضرورة ماسة كالذهاب الى المقــابر فى أقصى المدينة اذا مات أحد ، ويومها تعبر الحى الاوروبى فى سيارة ، وفى الصباح الباكر جدا على الاغلب ، لأنها تعبر أرضا حراما ، تخشاها . فالآن عليهـــا أن تخلع حجابها وتقتحمها وحيدة ، متخفية ، فى طيــات ثيابها حيثيات عذابها وموتها ...

وفى بعض الاحيــــان ، كان يحدث أن يقع على عاتق امرأة جزائرية لم تعرف القراءة والكتابة قط ، أن تذاكر بضعة أيام متواصلة تعليمات دقيقة معقدة ، حتى تحفظها شفويا عن ظهر قلب ، ثم تخترق بها — فى ذاكرتها — الاحياء الاوروبية ، لتصل الى خليـــة أخرى فى أقصى المدينة تبلغها التعليمات المعقدة ، التى قد تؤدى غلطة واحدة فيها الى ارتباكات خطـــيرة ، ثم تعود ، حتى لا تحمل ورقة تدينها أو تكشف اتصالاتها ..

وقد يحدث أن يكون على فتاة الا تبتعد كثيرا عن مبنى معين يجتمع فى داخله المناضلون حتى تنبههم الى الخطر وعليها أيضا الا تقف ساكتة حتى لا تلفت النظر .. فلا يكون أمامها مفر من أن تتمشى على الرصيف على طريقة بائعة الهوى الاوروبية التى تنتظر زبونا يلتقطها. وتشعر فى باطنها بالخجل الهائل ، بل الرعب ، وتحتاج مع ذلك الى كل أعصابها لكى تتحاشى الزبائن الذين يظنونها بالفعل بائعة هوى ولكى ترى كل صغيرة وكبيرة تدور فى الطريق الساكن أو المزدحم .

وعندما مرت السنوات ، كان كل الجزائريين « الخطرين » فى أى مدينة من المدن قد أصبحوا معروفين للبوليس الفرنسى ، فاذا مر واحد منهم فى الطريق فتشوه أكثر من مرة . لهذا ابتكرت طريقة أن يسير المناضل الذاهب الى مهمة مسلحة ، دون أن يحمل أى سلاح.. الى مقهى سينسفه بقنبلة مثلا أو مكان يحتشد فيه الجنود الفرنسيون سيطلق عليه مدفعه الرشاش.. أما السلاح فتحمله فتاة جزائرية بريئة ذات مظهر عادى ولا يفكر البوليس فى خطرها .. وفى لحظة معينة وفى نقطة قريبة من مكان العمل المسلح ، تسلم الفتاة السلاح للرجل ، الذى يستخدمه خلال لحظات فى أداء المهمة . هذه الفتاة تكون أشبه بقائد الاوركسترا . فهى التى تستطلع ، وتقيس الخطر ، وتتصرف . لأن الاستشارة مستحيلة . تتصرف سواء بأن تسلم السلاح للرجال فلا يكون ثمة مجال للتراجع عن المخاطرة ، او تتصرف بالعودة بسلاحها اذا اكتشفت أن الظروف غير ملائمة .

هكذا وصلت المرأة الجزائرية الى قلب عمليات النضال المسلح ذاتها . وأصبح الكثير من خطط المقاومة يعتمد اساسا عليها . ولم تمض سنوات قليلة حتى خطت المرأة

الجزائرية خطوتها الاخيرة : أصبحت تقوم هى بنفسها بتفجير القنابل بين البوليس الفرنسى ، وضباط الباراشوت ، ومراكز تجمع المستعمرين ، وحتى فى العلاقات الاجتماعية ذاتها ، حدث تغير كبير .

كانت المرأة ـ الزوجة ـ تترك بيتها وتسافر فى مهمات بعيدة أياما طويلة ومعنى هذا أن تسافر بمفردها وتبيت فى عربة القطار بين ناس لا تعرفهم ، وتقضى الليالى فى معسكر سرى للجنود . أو يسافر الرجل المناضل ويترك فى البيت مع العائلة رجلا غريبا ومناضلا آخر مختفيا حيث لايعرف مكانه أحد . ويكون على المرأة وأولادها أن يخفوا سره ويقوموا على طعامه والعناية به حتى يعود الأب ..

علاقات انسانية جديدة ، جديدة تماما على البيت الجزائرى المحجب ، المنفصل ، أحاطتها الثقة والشرف والفداء .. وحررت النفسية الجزائرية تحريرا سليما عميقا ..

ولعل من اللحظات التى لا تنسى ، تلك الايام الاولى لدخول المرأة ساحة النضال .. حين كان الناس يصادفون فتاة جزائرية يعرفونها تسير سافرة ، دون أن يعرفوا انها فى مهمة . فيتهامسون عن سيرتها وعن تقليدها للفرنسيات . ويصل الهمس الى الأب . وحين يواجهها الأب بغضبته ، يكتشف بعد اللحظة الاولى ـ من عينيها ـ أن الأمر ليس أمر سفور . انما الأمر هو ان ابنته الشابة قد دخلت التنظيم السرى . ويحل محل خوف الأب التقليدى على سمعة ابنته خوف من نوع جديد .. خوف عليها من الموت ، أو من التعذيب الرهيب ، وفى أيام تصبح الأسرة كلها ، بما فيها الأب القديم صاحب الأمر والنهى ، واقفة خلف البنت

الشابة ، كل أعصابها مشدودة اليها ، ويكون التطور الطبيعى : أن تصبح الأسرة كلها أعضـــاء فى التنظيم السرى .. بعد أن دخلته « أضعف » عناصر الأسرة ...

هكذا ، فوق موج الأحداث ، دخلت الجزائر كلها ، رجالها ونساؤها وأطفالها ، بوتقة الثورة ، لتصهرها الأحداث ، كما لم تصهر قبلها شعبا عربيا قط !

وأصبح جنود الاستعمار يطاردون الجميع : السافرة والمحجبة .. والجزائرية التى تشـــبه الاوروبيات ، والاوروبية التى تشبه الجزائريات ..

كان عذاب نساء الجزائر شديدا ..

وكان يأس جنود الاستعمار أشد ..

وقد كانت « صحوة الموت » بالنســـبة للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هى : ثورة المستوطنين فى ١٣ مايو.. واسقاط الجمهورية الرابعة فى فرنسا ..واستيلاء ديجول على الحكم ..

يومها فتش الاســـتعمار فى دفاتره القديمة عن كل سلاح مفلول ، يحاول أن يجربه لآخر مرة . ومن بينها سلاح السفور وتحرير المرأة الجزائرية ..

وعقد سوستيل اجتماعات « شعبيـــة » سيق اليها الناس بالقوة . وخطب داعيا الى تحرير المرأة . وتحت ضغط السلاح أكرهت بعض النساء على خلع الحجاب فى حركة مسرحية أمام الجماهير بعد الخطاب .

وكان هذا الحادث كله كأنه كلمة سر . ففى اليوم التالى لم تظهر امرأة جزائرية واحدة فى الطريق سافرة. حتى اللواتى كن قد أسـفرن عن وجوههن عدن الى الحجاب .. كأنهن يقلن للمستعمر ان المرأة الجزائرية لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر الفاجر ! ولـكنها تخلعه فى ساحة القتال .. أو فى وطن مستقل حر !

من هم الذين ينجحون في الحياة .. ولماذا ؟

لماذا يتقدم شخص ويتأخر شخص آخر ؟.. مهن المحاماة والهندسة والمحاسبة .. هل كل منها له عصر ؟ متى يبرز ذوو الاعصاب الثائرة ومتى يبرز ذوو الاعصاب الهادئة ؟ .. « المحلل » مهنة من ابرز المهن فى هذا العصر .. فما هى بالضبط ؟ .. كيف حلت عبقرية « التنظيم السياسى » فى العصر العلمى محل عبقرية «الفصاحة» و «الخطابة» ؟ .. هناك حقائق انسانية .. تتغير فيها أجزاء وتبقى منها أجزاء !.. وهذا كتاب طريف وهام معا .. الترجمة الحرفية لعنوانه هى : « من يملك ماذا ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ »

وهو للمؤلف الامريكى هارولد لاسويل !

وموضوعه موضوع خالد ، هو : مكان كل فرد فى المجتمع .. على ضوء ثروته .. أو مهارته .. أو الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها .. أو مزاجه الشخصى..

يقول المؤلف : ان « صاحب النفوذ » أو « الشخص القوى » .. هو ذلك الشخص الذى يحصل على اكبر كمية ممكنة من الاشياء التى يمكن الحصول عليها .

الاشياء التى يمكن ان يحصل عليها الانسان ـ مادية ومعنوية ـ تتركز آخر الامر فى ثلاثة أشياء اساسية هى : الاهمية ..

والثراء ..
والأمن ! ..
والذين يحصلون على القدر الأكبر من هـذه الاشياء هم « النخبة » ..
ولنبدأ بعنصر « الأهمية » مثلا ..
ان توزيع « الأهمية » بين الناس واضح لا يحتاج الى بيان . وهو شيء بديهى ، بل حتمي ، يوجد فى كل مجتمع وتحت أى نظام من الـكنيسة الـكاثوليكية الى الحزب الشيوعى السوفييتى .. والفرق فى درجـــة التركيز فقط ... أى فى مدى تركيز الأهمية فى أيدى أفراد قليلين أو توزيعها على عدد أكبر نسبيا من الناس

الكنيسة الكاثوليكية مثلا .. على ضخامتها وانتشار رعاياها فى أنحاء العالم .. يراسها عدد قليل نسبيا . فهناك « بابا » واحد فقط ، يليه ٥٥ كاردينالا ، ثم ٢٢ مندوبا بابويا ، ثم ٢٤٥ اسقفا .

والحزب الشيوعي السوفييتى ، اكبر حزب حاكم فى العالم ، هرم الأهمية فيه ساحق الانحدار ، ينتهى الى قمة شاهقة ، هى المكتب السياسى للحزب ، الذى كان عدد أعضائه عادة لايزيد على تسعة أعضاء ، وفى بلد ذىنظام اجتماعى مختلف،كالولايات المتحدة الامريكية ، نجد فى قمة بناء الأهمية فيه رئيسا واحدا للجمهورية ، وتسعة هم أعضاء المحكمة الاتحادية العليا ، ومئات قليلة هم أعضاء الكونجرس بمجلسيه .
فالتدرج الاجتماعي من حيث « الاهميــة » اذن واضح .. وهو عادة يتركب فى صـورة هرم شــديد الانحدار ..
الشيء الثانى الذى يمكن أن يحصل عليه الناس ـ بعد الأهمية ـ هو « الأمن » وهو مدى استقرار الفرد

فى حياته واطمئنانه الى مصيره ومستقبله ، وعدم تعرضه للهزات ، ان « الامن » دائما مطلب عميق فى نفوس الناس .. اى شىء يحصلون عليه لا تكون له قيمة ما لم يكن مستمرا أو قابلا للاستمرار .

وهنا نجد أن توزيع « الامن » بين الناس يبدو غريبا بعض الشىء . فليس أقوى الناس أو أغناهم أو أهمهم هو بالضرورة أكثرهم أمنا .

لقد أجرى المؤلف احصاء بعدد الملوك فى العالم خلال فترة تاريخية معينة فوجد أن عددهم ٤٣٩ ملكا . ظهر أن ٣٢٪ منهم ماتوا ميتة غير طبيعيـــة .. فى حين أن نسبة الموت غير الطبيعى بين الناس العاديين البسطاء أقل من هذا بكثير جدا .. بل ان ٩ ٪ من البابوات الكاثوليك ــ رغم ان أهميتهم دينية لا دنيوية ــ ماتوا بالعنف وهى أيضا أعلى من نسبة الموت بالعنف بين الناس العاديين .

ونسبة توافر الامن للناس ــ بوجه عام ــ تختلف من عصر الى عصر .. حسب حالة الحروب والأوبئة والمجاعات والاضطرابات الاجتماعية .

الشىء الثالث هو الثراء .. ونحن نعرف جميعا أن الثراء ليس موزعا بين الناس بالتساوى . واننا فى بعض البلاد قد نجد ١٠ ٪ فقط من السكان يملكون ٧٠ ٪ مثلا من ثروة البلد .

هذا هو التقسيم العام .

ومنه نرى ان صاحب القوة أو صاحب النفوذ هو الذى يتمتع بقسط أكبر من هـــذا المزيج الثــلاثى : الاهمية ، والثروة ، والامن .

ولكن حظوظ الناس فى الحياة لا تختلف طبقا لاختلاف هــذه القيم فقط .. ولــكن هناك أشياء كثيرة يؤدى

توافرها أو عدم توافرها الى وضع الافراد فى هذا المكان او ذاك . والى تمتع الفرد بقسط كبير او بسيط من الأهمية والثروة والامن .

هناك المهارة مثلا ..

المهارة فى أى فرع من فروع الحياة .

ولكن ليس كل المهرة سواء . فهناك فروع من الحياة تدفع الماهر فيها الى الامام بعكس فروع أخرى. والأمر يتوقف ايضا على الظروف التاريخية والاجتماعية. فان الفرع الذى قد يكون مهما فى وقت من الأوقات ، كثيرا ما تقل أهميته فى وقت آخر .

المهارة فى الحرب مثلا ، كانت دائما احدى المهارات البارزة التى تقود الناس الى القمة بسرعة.. سواء كانت الحرب فى سبيل الله أو الأمة أو الطبقة . ولكن هذا كان يقتضى أن تكون المرحلة مرحلة حروب واصطدام عسكرى. فبغير هذا لا يصعد أصحاب المهارة العسكرية الى القمة ، مهما كانت درجة مهارتهم .

وهناك المهارة فى التنظيم السياسى انها تكاد تكون أبرز أنواع المهارة التى تقرر حظ الانسان من الأهمية على الأقل . ويضرب المؤلف مثلا بالصراع الفذ الذى دار بين ستالين وتروتسكى ، والذى كتب النجاح فيه للأكثر عبقرية فى التنظيم والتكتيك السياسى ، وهو ستالين . رغم ان تروتسكى مثلا ، أكثر فصاحة وأنصع بلاغة وأوسع ثقافة من ستالين . فقديما كان التقدم فى السياسة يتوقف على المهارة فى الخطابة والكتابة والاثارة أما الآن فهو يتوقف على المهارة فى التنظيم السياسى ، وفى الفهم المذهبى معا .

واذا استبعدنا هذه المهن ـ مهن الحرب والسياسة ـ ونظرنا الى مهن الحياة العادية الشائعة .. الطب

والمحاماة ، والهندسة ، والزراعة ، والصناعة ، الى آخره ، نجد أن المهارة فى الحرفة التى يعيش منها الفرد من أهم العوامل التى تحدد مركزه ووضعه الاجتماعى. ولكن هذه المهن نفسها تختلف من عصر الى عصر .

ففى بعض العصور .. نلاحظ ان مهنة المحاماة مثلا تفوق سائر المهن . فى بلادنا كانت هى الطريق الأسرع الى مناصب الحكم والسياسة والاقتصاد والنفوذ من اى لون ، ذلك ان المحاماة تغلب فى المجتمعات التى تطالب بحريتها . اما فى البلاد التى تمر بمراحل البناء مثلا فاننا نجد أن مهنا أخرى تصبح انجح فى دفع صاحبها الى المقدمة ..

ولكن رجال الهندسة والزراعة والمحاسبة فى نفس الوقت ، مهما برزوا ومهما نالوا من الثراء أو الأهمية الا انهم من النادر جدا أن يصبحوا من « معبودى الجماهير » .

ومن الاعتبارات الهامة جدا التى تؤثر أثرا حاسما فى تحديد حظوظ الناس : الطبقة الاجتماعية التى يولدون فيها .. وينتمون اليها ..

ففى بعض العصور والبلاد .. حيث يسود النظام الارستقراطى والعائلى .. نجد أن أبناء الطبقة الارستقراطية هم الذين ينالون أكبر قسط من الاشياء الثلاثة : «الاهمية ، والثراء ، والامن» مهما كانت حرفتهم أو مهارتهم .. أو عدم حرفتهم وعدم مهارتهم !..

فى دراسة لهارولد لاسكي .. يقول : انه من بين السبعين وزيرا الذين تولوا الحكم فى بريطانيا من سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٣١ يوجد ٥٢ وزيرا من أبناء النبلاء !

وفى وزراء الفترة بين سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٦ ، تساوى عدد أبناء النبلاء بأبناء سائر الطبقات .. اى

اصبح الوزراء أبناء الطبقة الارستقراطية ٥٠ ٪ بعد أن كانوا ٧٥ ٪ « مع ملاحظة قلة عدد أفراد الطبـقة الارستقراطية نفسها». وبين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٤ «بعد الحرب الاولى» هبطت نسبتهم الى ٢٥ ٪ فقط.. وهكذا ! ..

وفى اليابان .. عندما قامت الثورة الصناعية ، لم يمتلك الصناعة أبناء طبقة جديدة . انما امتلكها أبناء الطبقـة الاقطاعيـة ذاتها التى تملك الارض اذ كانوا مستعدين ــ بما لديهم من ثراء ــ لتسلم وامتلاك مصدر الثروة الجديد .

ويمضى المؤلف فى التقسيم والتفتيت الى أبعد من هذا ..

انه ليس الطبقة ولا المهنة ولا المهارة فقط هى التى تحدد حظ الفرد من الأهميـة والامن والثراء .. ان المزاج الشخصى أيضا له أثر .

ذلك ان كل مرحلة معينة تحتاج الى مزاج خاص .

فى فترات الهياج والغليان والسخط مثلا .. يبرز زعماء من ذوى الاعصاب الملتهبة .. زعماء لديهم قدرة التهييج واثارة السخط ورفع درجة الحماسة .. فى حين أنه فى فترة ما بين الأزمات أو فترات البناء يبحث الناس عن زعيم هادىء الاعصاب يوحى اليهم بالثقة .

ويضرب المؤلف المثل مرة أخرى بالتاريخ الانجليزى القريب ..

فحين ثارت عاصفة هتلر والحرب، تخلى «تشمبرلن» التاجر الهادىء الطبع عن مركزه لتشرشل المغامر الحاد المزاج الحماسى النزعة . وحين انتهت الحرب ، أسقط الشعب تشرشل واتى بأتلى الهادىء الاعصاب البـارد الطبع للاصلاح والترميم !

وقد رويت عن المؤلف منذ قليل : ان الزراعيين ، والمهندسين ، والمحاسبين ، وأصحاب المهن المشابهة ، مهما نالوا من تقدم وبروز ، ليسوا عاده الفئة التى تكون من « معبودى الجماهير » أى الذين يتمتعون بحب شعبى عارم لهم .

لماذا ؟ ..

يقول المؤلف ان هناك أناسا مهمتهم التخصص فى « الاشياء » كالصناعة ، والزراعة ، والطب .. وهناك اناس مهمتهم التخصص فى « المعانى » التى تملأ احلام الجماهير .. كالزعماء السياسيين والكتاب والفنانين . ان هؤلاء يمثلون « معانى » و « رموزا » فى حياة الجماهير . لذلك فهم يتمتعون بالحب أو الكراهية ، بالتاييد الشديد أو العداء الشديد .

فى المجتمعات التى تؤمن بالخرافة نجد ان حملة « المعانى » و « الرموز » هم الرجال المتخصصون فى « الطقوس » الدينية . ثم أصبحوا رجال السياسة والمعبرين عن السياسة والافكار السياسية سواء كانوا زعماء أو مفكرين أو فلاسفة . ويذكر المؤلف ان اول كرسى فى جامعات أمريكا لتدريس العلوم السياسية انشىء سنة ١٨١٨ فقط ، وقبل ذلك كانت السياسة والاقتصاد يدرسان مع الكيمياء فى مادة واحدة ! ..

وهناك مهنة جديدة فى حياة الانسانية ، أصبح أصحابها يتمتعون بفرصة كبرى للنجاح والتقدم الاجتماعى .

انها مهنة « المحلل » .. الذى يبرع فى تحليل العلاقات الاجتماعية من أى ناحية . المحلل السياسى ، والمحلل الاقتصادى ، والمحلل الاجتماعى

يقول المؤلف : ان « المحلل » فى هذا العصر العلمى

يشغل مكان « المتنبيء » و « المنجم » فى عصر الخرافات.

قيمة كل منهما انه «يقرأ المستقبل» اذا صح التعبير! اى ان يفرش الطريق أمام اتخاذ القرارات ذات التأثير المستقبلى ! ..

كان « المتنبيء » أو « المنجم » فى عصر الخرافات يحظى بأهمية كبيرة .. ولـكن « قراءته للمستقبل » كانت كلها من وحى الخرافة .

أما الآن « فقراءة المستقبل » ، والتنبؤ بالأحداث ، وبرد الفعل المنتظر .. لكل حادث أو قرار .. تحتاج الى ثقافة واسعة جدا وعميقة جـــدا ودراية بالواقـــع الاجتماعى وبعشرات الاعتبارات الاخــــرى ، فالمحلل أو الخبير في العلاقات الاجتماعية سواء كانت سياسيه أو اقتصادية أو نفسية يحظى بأهمية كبيرة !

وبعد ..

لقد قلت فى أول المقال .. ان هناك حقائق انسانية تتغير فيها أجزاء .. وتبقى أجزاء .. !

ومن هذا النوع : تلك الموضوعات التى يطرقها هذا الـكتاب .

ان مكان كل فرد فى المجتمع سيظل دائما موضـــع صراع وكفاح ، وموضـع حرص كل فرد ونضاله وجهده .. فبهذا تتقدم الحياة ، بل تستمر .

صـــحيح ان هناك عوامل يقل أثرها .. كالطبـــقة الاجتماعية .. التى يقل أثرها بتحطيم الحواجز الطبقية .. ثم بالغاء الفوارق الطبقية . وشيوع الملكية العامة للعناصر الاساسية المؤثرة فى حياة المجتمع .. ولـــكن هناك عوامل ستبقى .. كالميـــل الشخصى ، والطبيعة المزاجية والجهد والمهارة .. فبهذا يستمر طعم الحياة المتجدد ..

الاشتراكية الوطنية
وسقوط الرايخ الثالث

من اهم الكتب التى صدرت عن ماساة النازية فى المانيا كتاب « قيام وسقوط الرايخ الثالث » ، وهو كتاب من ١٢٤٥ صفحة من القطع الكبير ، يروى قصة هتلر والحزب النازى والنظام الاستبدادى الفذ الذى فرضه هتلر على شعب ذكى متحضر عريق كالشعب الالمانى ، والنهاية التى انتهى اليها هتلر ، ونظامه ، وشعبه ، كنتيجة منطقية لمثل هذا النظام .

وعندما صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦١ ، اثار من الضجة والجدل اكثر مما اثاره اى كتاب سياسى آخر فى تلك السنة . واعنف هذا الجدل كان فى ألمانيا بالذات. فالمؤلف امريكى . والمانيا هى موضوع الكتاب . والكتاب لا يجعل النازية جريمة فردية ارتكبها هتلر وافراد آخرون ، ولكنه يصورها على انها جريمة جماعية ارتكبتها فئات ومؤسسات وقوى اجتماعية عريقة فى المانيا . يضاف الى ذلك ان الكتاب صدر فى وقت اشتد فيه الخلاف بين المعسكر الشيوعى والمعسكر الرأسمالى بسبب المانيا بالذات ، واحس فيه العالم انه اذا كان هناك احتمال لقيام حرب عالمية ثالثة ، فأغلب الظن ان المانيا ، للمرة الثالثة ، سوف تكون السبب . لكل هذه الاسباب كان الرأى العام الالمانى حساسا جدا وهو يقرا

هذا الكتاب . وكانت الصحافة الالمانية عنيفة جدا وهي تهاجمه وتهاجم مؤلفه . ولأول مرة نجد السفارات الالمانية فى انحاء العالم تطبع نشرات تهاجم فيها الكتاب ومؤلفه !

ولاشك ان من يقرأ الكتاب ويستخلص منه حكما بالادانة على الشعب الالمانى ، يكون مخطئا . صحيح ان الشعوب تختلف فى كثير من سماتها وملامحها . ولكن ليس صحيحا أن هناك شعبا من صفاته الاستبداد وقبول الطغيان وشعبا آخر من صفاته حب الحرية والمساواة. ان حب الحرية والمساواة صفة غريزية فى كل فرد من البشر بوصفه انسانا . ولكن الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية هي التى تجعل هذا الشعب أو ذاك يقع صريع نظام استبدادى ، بل ويتقبله . لو اننا جردنا أى فرد من كل الظروف التى تصنعه ، وهو فرض نظرى لايمكن أن يتحقق فى الحياة الواقعية، لوجدناه نفسا جياشة بحب الحرية والمساواة ، تماما كما انه جسد حى لايمكن أن تعيش خلاياه دون طعام أو غذاء . وقد نجد فردا أو شعبا تعود على حياة الجوع والشظف والحرمان ، ولكننا لا نستنتج من ذلك ان هذا الشعب يحب الجوع ويستسلم للشظف والحرمان . كذلك فاننا حين نجد شعبا أوقعته الظروف بين انياب نظام استبدادى وحشى لحقبة من الزمن ، يجب ألا نستنتج من هذا انه شعب من طبيعته أن يقبل الاستبداد ويسلس قياده للطغيان ..

والذى يؤيد هذا المنطق هو اننا نكاد لا نجد شعبا واحدا لم يعرف تاريخه ساعات من الانطلاق والحرية ، وساعات من القهر والطغيان .

والتجربة الانسانية التعيسة حين تحدث فى بلد من

البلاد ، فهذا البلد فى الواقع يفدى سائر البلاد ! ذلك ان فشل التجربة فى بلد يجعل البلاد الاخرى تتجنب تكرار النموذج البشع . وهكذا فنحن نلاحظ انه حين كان هتلر فى أوج سلطته ، والنازية فى قمة نجاحها المظهرى الاول ، لم يكن هناك بلد فى العالم يخلو من زعيم يحاول أن يكون « هتلر » ومن حركة تحاول أن تكون حكومة نازية . ولكن انهيار النازية الرهيب فى ألمانيا ، والآلام التى صبتها على شعب ألمانيا ، والبشاعات التى تكشفت بعد سقوطها ، كل هذا أدى الى اختفاء هـذه الحركات النازية من كل أنحاء العالم تلقائيا تقريبا. فكما ان التجربة النافعة تصبح ملكا للانسانية كلها ، كذلك فان التجربة الضارة تصبح عبرة للانسانية كلها ..

وقد يتساءل قارىء : ألم تصبح حكاية هتلر ، والنازية ، والحرب العالمية كلها ، حكاية قديمة ؟.. ألم يفت أوان الحديث عنها والصراع حولها ؟ ..

ولكننى احب ان أقول للقارىء الذى قد يطرح مثل هذا السؤال : انه لايوجد سطر فى التاريخ يمكن أن يموت . الانسان نفسه فى رأيى حيوان له تاريخ . الفرق الاساسى بين الانسان والحيوان هو ان السلالة الواحدة من سلالات الحيوان تعيش مليون سنة لايتعلم «جيل» فيها من «جيل» !.. الفار يتم اصطياده اليوم بنفس الطريقة التى كان يصطاد بها منذمئات أوآلاف السنين : مصيدة وقطعة خبز !.. أما الانسان فبالعكس : انه يعرف التاريخ ، ولذلك فهو يتعلم ويتقدم .

على أن لقضية هتلر والنازية أهمية خاصــة . ان النازية ليست الا « اقتراحا » من الاقتراحات لحل المتناقضات الاجتماعية التى عرفتها الحضارة الحديثة. ان حضارة الآلة والصناعة الضخمة والعلم الذى يتقدم

بسرعة قد صادفت ، كغيرها من الحضارات ، مشاكل اجتماعية جسيمة ، وكالعادة ، تجرب الانسانية حلولا كثيرة لاجتياز هذه المشاكل ، حتى تستقر على حل أو على عدة حلول ، والنازية محاولة فاشلة . انها مصل قاتل . ولهذا يجب أن نعرفه . السنا نجد ان الصراع العالمى الضارى الذى نعاصره الآن، يحتدم أكثر مايحتدم بسبب الخلاف بين المذاهب والنظريات والنظم .. أى بسبب الخلاف بين «الحلول» المقترحة لمشاكل الحضارة الحديثة والعلاقات الانسانية المتغيرة ؟ ..

ومؤلف الكتاب « وليم شيرر » ، من الصحفيين الامريكيين الذين اشتهروا بمؤلفاتهم السياسية والروائية. وقدعاش اخصب فترات حياته مراسلا صحفيا فى المانيا. فراى راى العين النازية وهى تولد ، وعرف الأفاقين والمغامرين وهم يقفزون الى مراكز السلطة ويديرون تاريخ العالم كله فى اتجاه الحرب . كما انه عاش المراحل الاولى من الحرب فى المانيا وخلف قواتها الزاحفة. وقد كان على بعد أمتار قليلة من هتلر وهو يرقص طربا على أرض فرنسا ، ساعة كانت جيوشه تمزق آخر معاقل المقاومة الفرنسية وتطرق أبواب باريس .

وكما راى المؤلف اقطاب النازية وهم مغامرون فقراء منبوذون فى حانات ميونيخ ، ثم قادة وحكاما ترتجف الدنيا أمام كلماتهم ، رآهم فى آخر القصة ذابلين شاحبين فى قفص الاتهام خلال محاكمات نورمبرج قبل أن تحملهم أعواد المشانق ..

وليست هذه هى العناصر الوحيدة لدراية المؤلف وليم شيرر بالموضوع الذى يتعرض له . فقد حدث فى نهاية الحرب ان كل وثائق العصر النازى وقعت فى أيدى القوات الامريكية التى دخلت المانيا .. من المذكرات

الرسمية والخطط العسكرية التفصيلية خلال شتى مراحل الحكم النازى والحرب .. الى المذكرات و «المفكرات» الخاصة بزعماء وأقطاب مثل جوبلز وزير الدعاية والساعد الايمن لهتلر ، وبقادة كبار مثل «هالدر» رئيس هيئة أركان حرب الجيش الالمانى خلال الحرب ..

وقد كان من حظ وليم شيرر أن يقع على هذا الكنز الذى لايحلم بمثله مؤرخ .. ومن هذه الثروة التى لانظير لها ، الى جانب المعرفة الشخصية التى ظفر بها ، يستمد المادة الفزيرة لـكتابه الضخم ..

وأول حقيقة تبرز من ثنايا الـكتاب ، وتلخص لنا الكثير مما فيه ومما فى العصر النازى ، هى أن النازية تدخل فى بند ما يسميه المؤرخون السياسيون بالثورة المضادة .

فالثورة هى التى تحطم الاشكال الاجتماعية القديمة لتحل محلها أشكالا اجتماعية أرقى ..

والثورة المضادة هى التى تتوخى — على العكس — الرجوع الى الاشكال الاجتماعية القديمة أو تدعيمها ولو انطوت على تغيير مظهرى .

وقد اضطر المؤرخون السياسيون الى استخدام هذين التعبيرين — تعبير «الثورة» وتعبير «الثورة المضادة» — حتى لايضل الناس فى فهم أحداث التاريخ . لأن بين الثورة والثورة المضادة شبها ظاهريا خادعا ، كلاهما عمل عنيف يستولى على السلطة ويقلب الحكومة القائمة ويحطم ويدمر . ولكن «الحكومة» بالمعنى الادارى والرسمى ليست هى القوى الحقيقية للمجتمع . فالانقلاب على الحكومة قد يكون غرضه الانقلاب على ما تحميه الحكومة ، فهو هنا ثورة . ولكن قد يكون غرضه عزل الحكومة بسبب عجزها مثلا عن حماية القوى التى تمثلها ، فالانقلاب هنا غايته

توفير حماية أحسن للنظام القديم ، فهو «ثورة مضادة»

والمؤلف لم « يفلسف » حركة هتلر على هذا النحو. ولكنني مع ذلك لا أتجنى على المؤلف حين أستخلص هذه الحقيقة الاولى . فالوقائع والمعلومات التى يرويها المؤلف هي التى تؤدى الى هذا الاستخلاص ..

يروى المؤلف فى أكثر من موضع ان هتلر كان يقول دائما ، قبل أن يستولى على الحكم ، ان تكتيكه للوصول الى الحكم يقوم على أساس واحد هو : أن يكون صديقا لكل القوى العريقة فى البلاد ، وهي : الجيش ، وأصحاب القوة الاقتصادية ، والكنيسة ! ..

وقد كانت المانيا فى تلك السنوات تضطرم بالحركات الساخطة على هذه القوى .. الحركات الساخطة على الجيش ، بضباطه البروسيين الذين يكونون طبقة اجتماعية خطيرة والذين يقودون البلاد الى حروب متوالية ويكرسون اقتصادها بل وحتى ثقافتها للحرب ، مقابل المزايا الاجتماعية الضخمة التى يتمتعون بها. وأصحاب الثروات الكبيرة ، سواء كانت اقطاعات شاسعة معفاة من الضرائب تقريبا أو صناعات هائلة . وأخيرا الكنيسة التى تبرر التفرقة الاجتماعية وتحمى الامتيازات الطبقية وتدافع عنها ..

ولكن هتلر كان يتوخى أن يصل الى السلطة بوفاق تام مع هذه القوى القديمة . متعهدا لها بحماية كل امتيازاتها . فهو فى الواقع حين قاد « انقلابه » لم يكن ينقلب على القوى الاجتماعية القديمة . انما كان يعرض عليها قيادة أقوى وأحسم . كان يعرض عليها زعامة تنقل هذه القوى الاجتماعية القديمة من موقف الدفاع ضد التيارات الداعية للتغيير الى موقف الهجوم على هذه التيارات لسحقها . ومن هنا فهو حين وصل الى

الحكم لم ينكل بالقوى القديمة . ولم يطارد الذين امتصوا دماء الشعب وقادوه الى حرب خاسرة وهزيمة مؤسية قبل سنوات قليلة ، بل انه على العكس حمى هؤلاء وكرمهم واخفى هزائمهم ، فى حين شن هجومه واضطهاده ومذابحه ضد كل المطالبين بالتغيير والتطوير. ومن هنا انتهى بألمانيا سنة ١٩٤٥ الى نفس الموقف الذى انتهى به النظام القديم سنة ١٩١٨ ، ولكن الكارثة أكبر وافدح

وقد كانت «البرشامة» التى استخدمها هتلر بسيطة فى «تركيبها» : أن ينافس كل الفئات الاخرى فى المطالبة بالعدل والمساواة والتغيير الاجتماعى علنا ، ثم يذهب سرا الى أصحاب القوى القديمة يقول لهم ان هذا الصياح هدفه خداع الشعب لاغير ، وانه حين يصل الى الحكم سوف يكون رجلهم. وسوف يسحق كل المطالبين بالتغيير ولو كانوا فى صفوف حزبه ، بل خصوصا الذين هم فى صفوف حزبه ، وهو ما حققه بدقة بواسطة حمامات الدم الشهيرة .

واهم صفحات الكتاب فى رايى هى الصفحات التى تروى أسرار هذه العملية الغريبة ، التى تمكن بها هتلر من شراء رضا الجيش ، وأصحاب الاحتكارات الاقتصادية الكبرى .

بالنسبة للجيش مثلا ..

كان الجيش فى المانيا ــ تقليديا ــ ليس مجرد جيش، اى ليس مجرد جهاز من اجهزة الشعب والدولة. ولكنه كان منذ دولة بروسيا القديمة ثم منذ تأسيس دولة المانيا ، سلطة فوق الدولة . سلطة لها نفوذ سياسى واجتماعى. ولها بالتالى امتيازات سياسية واجتماعية. وكان يبرر هذا ان الجيش والضباط البروسيين لعبوا دورا بارزا فى بناء الوحدة الالمانية وفى اقامة الروح

العسكرية الالمانية الشهيرة . ثم جاءت الحرب العالمية الاولى لتكون أول هزيمة عسكرية ساحقة للجيش الالمانى، وقد كان المسئولون عن شن هذه الحرب هم القيصر ، والجيش ، وملوك الصناعة الكبار . وقد رحل القيصر بعد الهزيمة وبقى الجيش وملوك الصناعة .

وهبت التيارات تطالب بأن يتحول الجيش من سلطة توجه البلاد الى جهاز فى يد البلاد . وكان الضباط يدافعون بالطبع عن سلطتهم القديمة وعن امتيازاتهم . وتحقيقا لهذا الفرض بدأوا يقولون ان الجيش لم يخسر الحرب ولكن المدنيين هم الذين استسلموا وعقدوا الصلح وطعنوا الجيش من الخلف . نفس ما يقوله ضباط الجيش الفرنسى المندحر فى الهند الصينية والجزائر وغيرهما . وأراد الضباط أن يطمسوا الحقيقة التى تقول ان القادة الكبار مثل هندنبورج ، ولوندورف ، هم الذين قالوا رسميا انهم خسروا الحرب وانهم غير مسئولين اذا استمر القتال . أراد الضباط أن يطمسوا هذه الحقيقة التاريخية ويلصقوا الهزيمة بالقوى الاجتماعية الجديدة والزعامات الجديدة التى تطالب بالتغيير . وبهذا الثمن اشتراهم هتلر . فهو أيضا تبنى هذه الدعوة ليطعن الاحزاب الاخرى وليتحالف مع الضباط القدامى، الذين سيحتاج اليهم بعد ذلك فى بناء جهازه الحربى .

يضاف الى ذلك ما يسجله الكتاب من أن هتلر أنقذ اقطاعيات الضباط الكبار من الضرائب المستحقة عليها ومن كل قوانين الدولة ومن الدعوة الى توزيعها .. بما فيهم هندنبورج نفسه ، أكبر ضباط المانيا واعظمهم اسما فماذا عن ملوك الصناعة ؟ ..

يروى الكتاب كيف ان هتلر ، قبل أن يستولى على الحكم ، كان فقيرا معدما ، ثم انقلب فجأة الى زعيم

ينفق عن سعة ، ويسكن عشيقته فى أفخر بيوت ميونيخ ، ويركب اغلى السيارات ..

وكانت الضرائب تلاحقه ، تسأله عن مصادر ثروته ، وكان هتلر يراوغ دائما ، ولا يقدم اجابات شافية ، حتى وصل الى الحكم ، فكان من أول ما اهتم به أن ينتهز فرصة احدى مذابحه ليقتل الرجل الذى اطلع على هذه الاوراق فى الضرائب !

ويرجح كذلك ان كبار رجال الصناعة والأغنياء بدأوا من ذلك الوقت فى تمويل هتلر . ولكن الترجيح يصبح يقينا فى السنوات التالية ، التى سبقت وصول هتلر الى الحكم ، حينما انطلق المالى الشهير «دكتورشاخت» ، يعرف هتلر بملوك المال والصناعة ، ويشرح لهم حقيقة حركته ، فيدفعون له الملايين سرا .

فى محاكمات نورمبرج ، روى « والتر فونك » مدير بنك الرايخ فى عهد هتلر ، أن « أصدقائى من كبار الصناعيين خصوصا من أصحاب المناجم طلبوا منى أن انضم الى الحزب النازى سنة ١٩٣١ ، لكى أفرض نفوذهم فيه » . وكان هتلر قد كون « فرق العاصفة » التى بلغ اعضاؤها ١٠٠ ألف شاب ورجل قبل أن يصل الى الحكم . وكان لابد من انفاق مبالغ هائلة على هذه الفرق التى بثت الرعب فى قلب أوروبا كلها .. والمال لا يوجد الا عند أقطاب المال والصناعة .

وكان هتلر يحيط علاقاته بملوك المال بستار كثيف من السرية . لأن انكشاف هذه العلاقة للناس قبل أن يصل الى الحكم كان معناه تحطيم آرائه نهائيا . حتى ان قليلين جدا فى الحزب كانوا يعرفون هذه العلاقات التى لم تنكشف تماما الا من الوثائق المضبوطة بعد الحرب..

مثلا ..

اميل كيردورف ، ملك الفحم ، بدأ يدفع لهتلر بانتظام من سنة ۱۹۲۹ ، وفريتز تيسن رئيس اتحاد الصلب ، ذكر أن أول ما دفعه لهتلر وحزبه كان ١٠٠ الف مارك ذهبا . وكان ملوك صناعات الحديد والفحم بالذات هم اكبر ممولى هتلر لكى يصل الى الحكم .

ويمضى الكتاب فيذكر القائمة التى اعترف بها «والتر فونك» عن أسماء ملوك المال الذين كانوا يمولون الحركة النازية لكى تصل الى الحكم وهى قائمة طويلة من بين اسمائها فون شنيتزلر مديرشركة فارين الكبرى للصناعات الكيمائية ـ اوجست روسترج واوجست واين صاحبا صناعة البوتاس ـ كونو صاحب خطوط السفن الكبرى « هامبورج ـ امريكا » ـ مناجم براون للفحم فى وسط المانيا ـ كونتى للمطاط ـ كورت فون شرودر رئيس اتحاد البنوك فى كولونيا ـ بنك دويتش ـ بنك التجارة ـ بنك درسدن ـ أكبر شركة تامين المانية وهى شركة اليانتز .

بل ان عددا من ملوك الصناعة والمال اسسوا «حلقة» لتمويل هملر وفرق العاصفة بالذات تحت ستار الانفاق على دراسات خاصة بالجنس الآرى المتفوق !

ثم دفع ملوك المال والصناعة لهتلر حتى يوم وصوله الى الحكم ! ..

قال فونك فى اعترافاته ان المبلغ لايزيد عن مليونين من الماركات . ولكن المالى الكبير تيسن يقول فى كتابه : « أنا دفعت لهتلر » ، أنه شخصيا دفع مليون مارك خلال بضع سنوات .. فالمبلغ لابد أن يكون أكبر من هذا بكثير!

وعندما كلف هتلر بتشكيل أول وزارة برئاسته ، كانت سلطته لم تكتمل بعد . كانت أمامه معركة انتخابية قاسية . فكان أول ما فعله بعد تشكيله الوزارة أن عقد اجتماعا مع دكتور شاخت واثنى عشر آخرين من ملوك

المال ، والصناعة ، وكان اجتماعا سريا لم يعرف به أحد، ولكن المحضر الكامل له ظهر بعد نهاية الحرب . ومنه نعرف أن هتلر قال لهم ان مصانعهم وأمبراطورياتهم المالية والصناعية لايمكن أن تبقى لهم لو استمرت الديموقراطية فى المانيا . ولذلك فقد تقرر أن يقضى على الديموقراطية . وقال انه حتى لو خسر الانتخابات فلن يترك الحكم بل انه سوف يبقى فيه بالقوة . ويروى الدكتور شاخت ان ملوك المال قفزوا طربا وبعدها ـ كما يقول شاخت ـ « دعوتهم للتبرع لتمويل دعاية النازى الانتخابية ، فجمعت منهم ثلاثة ملايين مارك فى هذه الجلسة الواحدة ! »

ومع ذلك فان الرجل الذى قام بهذا كله سمى حركته باسم : الاشتراكية ... الوطنية .

لقد وجد هتلر أن القوة النامية هى الشعب وجماهير العمال الواسعة فى بلد صناعى مثل المانيا .. فاراد ان يستولى على قيادة هذه الفئات الواسعة ثم يقوم بترويضها حتى يسلس قيادها فى خدمة الاهداف اليمينية

هل يبدو هذا الكلام غير معقول ؟ ..

ربما . ولكن هذا هو ما حدث بالضبط ..

فعندما أسس دريكسلر وفيدير وهتلر سنة ١٩٢٠ ، « حزب العمال الوطنى الاشتراكى الالمانى » ـ ومن اختصار هذا الاسم جاء اسم « النازى » ـ وضع هتلر فى برنامج الحزب ، بناء على الحاح دريكسلر ، فقرات لاغراء الشعب . فنصت المادة ١١ من البرنامج على الغاء كل ايراد بدون عمل . ونصت المادة ١٢ على تأميم الصناعات ذات الطابع الاحتكارى . ونصت المادة ١٣ على دخول الدولة شريكة فى الصناعات الكبرى .

ولكن هذه المواد لم تكن للتطبيق . كانت غايتها أن

تعيد الشعب الناقم المتخبط فى بئر سحيقة من الهزيمة والفقر والبطالة الى استسلامه القديم تحت قيادة القوى القديمة ، وهي الرأسمالية والاقطاع والجيش ..

ولهذا ...

فعندما حوكم هتلر سنة ١٩٢٤ ، لأنه حاول القيام بانقلاب مسلح للاستيلاء على الحكم ، قال أمام المحكمة : « نعم انا ثورى .. ولكن ضد الثورة ! » بمعنى انه يريد أن يشن ثورة يسبق بها الثورة الاجتماعية ويمنعها

وعندما جلس فىالسجن بعد ذلك يكتبمؤلفه الشهير «كفاحى» قال : «انالدولة ليست مؤسسة اقتصادية ، ولكنها كيان عنصرى . ان قوة الدولة لا تلتقى مع الرخاء الاقتصادى الا فىحالات نادرة . بل ان الرخاء الاقتصادى علىالعكس،كثيرا مايكون دليلا على بدء التحلل والانهيار!»

وفى سنة ١٩٣٠ ، عندما أصبح حزبه حزبا قويا له نسبة كبيرة من مقاعد البرلمـان ، قدم بعض نوابه ـ جريجور ستراسر وفيدير وفريك ـ الى المجلس مشروع قانون لتأميم البنوك الكبرىتطبيقا لمبادىء الحزب، فثار هتلر وأقطاب حزبه على هؤلاء «العصاة» داخل الحزب ثورة هائلة.. وامرهم بسحب مشروع القانونمنالمجلس. وأراد نواب الاحزاب اليسارية المعادية لهتلر أن يكشفوا حقيقته فقدموا نفس المشروع الى المجلس ، ولكن هتلر لم يتزحزح عنموقفه ولم يحرج، بلأمر نوابه بالتصويت صراحة ضد المشروع ، ففعلوا !

وعندما دخل بعض زعماء الحزب النازى بعد ذلك فى وزارة أئتلافية برئاسة الجنرال شليشر ، حاول رئيس الوزراء أن يقدم قانونا بتوزيع...ر...٨٠ هكتار منأراضي الاقطاع التى تملكها طبقة الجونكرز ، على ٢٥ الف عائلة من الفلاحين ، ولكن الحزب النازى ـ أو الاشتراكى

الوطنى ـ احتج وهدد بسحب وزرائه من الحكم ، فمات المشروع ...

ومع ذلك فقـــد ظل فريق كبير من رجال الحزب الاشتراكى الوطنى يصدقون كلمة الاشتراكية الواردة فى اسم الحزب . كانوا يظنون ان هذا كله «تكتيك» من هتلر حتى يصل الى الحكم . ولم يكونوا يعرفون أن هتلر كان خلال هذا كله يلتقي بملوك المال والصناعة والبنوك سرا. وان الحزب كان يتلقى منهم ملايين الماركات سنويا لينفق على منظمته العسكرية وفرق العاصفة الشهيرة . وان «دكتور شاخت» الاقتصادى الشهير الذى ما زال يعيش فى ميونيخ الى الآن ، كان قد أصبح الوكيل السرى لهتلر فى دوائر ملوك المال والصناعة .. وكان شاخت فى ذلك الوقت يعمل مديرا لأكبر شركة تأمين فى المانيا .

فلما تولى هتلر وحزبه الحكم ، دهش انصاره المخدوعون حين وجدوه على العكس ، يأمر فرق العاصفة باحتلال نقابات العمال وحلها ، والغاء طريقة المساومة على الأجر بين نقابات العمال واصحاب العمل ، واعلن انه يجب أن تعود السلطة المطلقة فى المصانع « الى القادة الطبيعيين وهم أصحاب راس المال » ..

أما الذين طالبوه بالثورة الاجتماعية فقد أعلن لهم صراحة : « انه لا توجد ثورة ثانية » . ولكنه لم يكتف بهذا .. بل انه انتهز فرصة « حمام الدم » الشهير الذى قام به ليلة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ ، فقام رجال فرق العاصفة بقتل كل خصومه السياسيين فى بيوتهم بحجة انهم كانوا يدبرون انقلابا ضده ، وكان فى مقدمة الذين قتلهم فى تلك الليلة الرهيبة التى سارت مثلا فى التاريخ : الذين بدأوا يتململون ويقولون له أين الاشتراكية ؟..

فى تلك الليلة الرهيبة قتل هتلر ، اغتيالا ، كل خصومه

القدماء ، والمختلفين معه داخل الحزب ، وزعماء المعارضة ، وكل الذين يعرفون عنه وعن اتصالاته أكثر من اللازم . ويومها قيل أن عدد القتلى فى تلك الليلة بلغ أربعمائة ، ولكن ظهر بعد انهيار هتلر أن عددهم وصل الى الف قتيل .

واستطاع هتلر بعد ذلك أن « يفلسف الاشتراكية » ، فيقول : « الاشتراكي هو الذى يؤمن بشعار (ألمانيا فوق الجميع) .. »

وبقى من «الاشتراكية الوطنية» أو من النازية جانبها العنصري وحده . ومضت هذه النازية تقول للشعب : ان مهمة الدولة الاساسية هى حماية « العنصر » الالمانى نقيا من التلوث بأى عنصر آخر . وان سبب فناء الدول ليس الخراب الاقتصادى ، ولا حتى الهزيمة فى الحرب ، ولكنه تلوث الدم النقى للأمة بدم آخر غريب . وبناء على هذه الفكرة بدأت عملية ابادة الأجناس والشعوب الاخرى التى ارتكبها النازى !

ولم يكن ممكنا فى حقيقة الأمر ، منذ البداية أن تلتقى الفكرة الاشتراكية مع الفكرة العنصرية فى اطار واحد . لأن الفكرة الاشتراكية تؤمن بالمساواة بين كل البشر مهما كانت أجناسهم وأديانهم . ولكنها كذبة كبيرة ، انتهت وألمانيا كلها تحترق !

وبنفس الدقة والتفصيل اللذين يروى بهما وليم شيرر خطوات صعود هتلر .. يروى خطوات هبوطه وأفول نجمه ..

والصورة البعيدة لهتلر توهم الناس انه انهزم وانهار لمجرد انه رجل مجنون . ومن هنا يعجب الناس كيف ان مجنونا استطاع أن يحكم شعبا عظيما ، ويخضع لارادته قادة عسكريين عباقرة ، واقتصاديين دهاة ،

وفلاسفة وأساتذة ، وان يحرز انتصارات عسكرية وسياسية ساحقة ...

ولكن هتلر لم يكن مجنونا .. وان كان الخبل قد بدا يستولى عليه من تأثير الهزائم . فهو من الشخصيات التى لا تتحمل الهزيمة . ولا تعيش الا بخمر الانتصار.. ولذلك فهو شخصية قابلة للكسر ..

والذى يدافع عن قضية عادلة وبأسلوب نظيف لا تصيبه الهزيمة بالجنون ، بل ربما تحمل اليه مزيدا من الحكمة . انها تجعله شهيدا لا غير . اما الذى يرتكب الجرائم والمظالم البشعة ثم ينهزم ، فهو لا يجد حتى اقتناعا معنويا بريئا يتكىء عليه فى محنته .. فينكسر..

اذن .. بما انه ليس مجنونا .. فكيف يصور له عقله انه يمكن أن يحارب الدنيا كلها بمفرده .. من روسيا الى أمريكا ، وهو يعرف مواردها الهائلة ؟ ..

أليس هذا القرار فى ذاته يدل على الجنون ؟

الجواب الذى نجده فى صفحات الكتاب هو : ان التقارير الكاذبة هى التى صورت لهتلر ان هذا ممكن .

فقد كانت النتيجة الطبيعية للطغيان الذى لايرحم أن أصبح كل العاملين مع هتلر يكذبون عليه ، ويقدمون له الحقائق كما يحب هو أن يراها لا كما هى فى الحقيقة ..

فالتقارير التى قدموها له عن قوة الجيش الروسى كانت مضللة ! ..

والتقارير التى قدموها له عن الرأى العام البريطانى كانت مضللة ! ..

والتقارير التى قدموها له عن الموقف فى أمريكا كانت مضللة ! ..

ولم تكن هذه تضليلات مرجعها جهل الذين قدموا له التقارير بقدر ما كانت نفاقا منهم ، الأمر الذى يدلل

عليه الكتاب بقصص ووثائق تفصيلية كثيرة ..

وفى هذا المجال يروى الكتاب مآس مضحكة حقا .. لعل أغربها تلك القصة التي زين فيها بعض الناس لهتلر انه يمكن التفاوض مع دوق وندسور ، الذى كان ملـكا على بريطانيا ثم تنازل عن العرش ، على أن يتزعم حركة لعقد الصلح مع المانيا وعزل أخيه والعودة الى العرش. وكيف ان موظفى هتلر لم يجرؤوا على أن يصـــارحوه بالحقيقة وهى ان هذا لايمكن أن يحدث فمضوا يزيفون التقارير عن مباحثات وهمية جارية !

فاذا جاءت النهاية ، رأينا هتلر ، فى أيامه الاخيرة ، واقفا فى مخبئه يصدر أوامر وهمية ، الى جيوش غير موجودة ، بشن هجمات مضادة لم تبدأ أبدا .. كأن الأمر كله مسرحية فى الخيال !

أزمة الضمير الحديث

مات اوبنهايمر .. أبو القنبلة الذرية الاولى التى القيت على هيروشيما .

مات بعد أن عذبه ضميره .. وطارده .. فأخرجه من عمله .. وأرسله الى قاعات التحقيق ..

الضمير ..

انه ذلك الشيء الغامض المركب فينا جميعا ـ نعم فينا جميعا ـ والذى يخفق بالراحة أو القلق ... بالحيرة أو الهدى ..

وهو من أجل ذلك كان هدفا لكتاب المآسى وشعرائها منذ أقدم العصور ... يتخذون من ذلك الشيء الغامض مسرحا لأروع مآسى الانسان ... وليس مجهولا ماذا صنع الضمير بـ « ماكبث » بعد أن قتل الملك ، ليظفر من بعده بالعرش فلم يكسب الا صياحه : « ان نفسى تأكلها العقارب » ولا ما صنع الضمير بـ « عطيل » بعد أن خنق ديدمونة الطاهرة لأنه زوج أحمق غيور ..

وليس الضمير بعد ذلك مسرحا لقصص الشعراء وحدهم .. ففى الحياة الواقعية أيضا نجد أمثلة كثيرة كانت حياة تولستوى كلها فرارا من ضميره .. كان هذا الاقطاعى الذى يملك آلاف الفدادين يعرف انه لا حق له فى الترف الذى يحيا فيه على حساب آلاف التعساء

.. وكان ضميره يعذبه لأنه كان ينفق على مائدة القمار فى ليلة واحدة ما يطعم عشرة بيوت بأكملها لعام بأكمله..

ولم تكن كل كتاباته دفاعا عن الفقراء ــ وهو يملك هذه الارض ــ لتسكت ضميره المرهق .. فهو يكتب فى يومياته : « اننى لا استطيع أن أحرر نفسى .. فأكتب عن الحق كلمات رنانة لأخدع نفسى .. اننى أدعو الى الماء وأشرب الخمر .. ان ضميرى يهتف بى ، فكيف استطيع أن أفسر له ما لايمكنني تفسيره لنفسى ؟ »

كيف أستطيع ان أدافع أمامه عن نفسى ؟

وفر تولستوى من بيته وأملاكه وزوجته .. ليموت على رصيف قطار .. وهذا الضمير هو الذى جعل نوبل بعد ان اخترع الديناميت يكفر عن اختراعه المدمر بأن يهب أمواله لتكون جائزة للسلام ..

هذا الضمير نفسه.. هذا الشيء الغامض الحساس ، هو الذى يقدم لعالم اليوم أروع مآسيه جميعا ، وهى مآس لا تتخذ مسرحها فى ضمائر العشاق أو الأزواج الغيورين ، بل ضمائر الذين تتكون منهم صفوة الذكاء والمقدرة الانسانية فى هــذا العصر : العلمــاء الذين يصنعون الذرة ..

ان هؤلاء العلماء بشر مثلنا وليسوا شياطين... انهم ينفضون أيديهم آخر كل يوم من أجهزة الذرة التى قد تدمر المدن وتقتل الملايين ، ويعودون الى بيوتهم حيث يضمون ــ بنفس الأيدى ــ زوجاتهم الجميلات ويداعبون أطفالهم الباسمين وأن لهم بعد ذلك ضمائر .. تنتبه بين حين وآخر ، وتناقشهم الحساب ..

وأصبحنا ، لا تمضى بضعة شهور، الا ونقرأ أن واحدا من هؤلاء الذين كرسوا حياتهم للعلم، وانصرفوا يكتشفون المفاتيح السرية لهذا الكون ، قد فر أو اختفى .. أو

اتهم بالخيانة والقى به فى السجن ..

والمؤكد ان هؤلاء العباقرة النادرين لايمكن أن يكونوا خونة أوماجورين، كذلك فانهم ليسوا شيوعيين بالعقيدة، فهم لايهربون من أمريكا لمجرد خدمة المعسكر الشيوعي .

فما هو السر اذن فى هذه المأساة ، أو فى هذه المآسي جميعا ؟ ..

السر تكشفه لنا قصة آخر وأروع مأساة من هذا النوع .. مأساة الدكتور أوبنهايمر الذى تخوض صحف العالم كله فى قصة حياته ، وتغوص فى أعماق ضميره .. والذى يمكن أن نقول عنه انه : «هاملت» هذا القرن العشرين

ان الدكتور أوبنهايمر هو العقل الثاني فى العالم كله .. بعد انشتاين .. وهو الذى صنع القنبلة الذرية الاولى التى ألقيت على هيروشيما وحسمت الحرب الاخيرة ، وهو نفسه الذى أبعده ايزنهاور أخيرا وأمر باقامة جدار كثيف أسود بينه وبين الأسرار الذرية بعد أن حامت حول براءته الشكوك ..

أما أقوى دليل ضده فهو انه « يبدو منذ سنوات وكأن ضميره غير مستريح .. وصاحب مثل هذا الضمير الممزق يجب ألا يعهد اليه بأمانة عمل خطير ... »

وازاء هذا الاتهام ... نشر أوبنهايمر على الناس قصة ضميره كاملة .. نشرها فى مذكرة طويلة من ثلاث وأربعين صفحة .. رسم فيها صورة صادقة للانسان المثقف الممزق فى هذا القرن العشرين ..

لقد ولدت فى نيويورك سنة ١٩٠٤ ، أى مع مطلع هذا القرن تقريبا ، وقد هاجر أبى من ألمانيا وهو فى السابعة عشرة من عمره الى هذه البلاد ، حيث أصبح من رجال الاعمال الناجحين ... ودخلت جامعة هارفارد لأدرس الرياضة سنة ١٩٢٢ .

وفى جامعة هارفارد بدأت آيات ذكائه النادر تظهر : كان يلعب الكرة مع بعض زملائه فى فناء الكلية ، عندما قذف أحد الزملاء الكرة بشدة ، وكان أحد الاساتذة يمر فنهرهم ، وقال لهم ان الكرة قد تصيب أحد العابرين .. وبسرعة غريبة اجرى أوبنهايمر للأستاذ عملية حسابية ، حسب فيها قوة الدفع ومقاومة الهواء وما الى ذلك حتى أثبت له بسلسلة من المعادلات الرياضية أن الكرة لايمكن أن تصل الى أىعابر فى الطريق

ثم أغرم فجأة بالادب الاغريقى القديم الذى تعد دراسته أصعب دراسة لغوية فىالعالم، وبعد ثلاثة شهور كان قد تعلم اليونانية القديمة واتقنها حتى أصبح قادرا على أن يقرأ سوفوكليس فى لغته الاصلية بلا قاموس .

وبعد أن درس الادب اليونانى درس الادب الفرنسى ... ثم الهندى .. ومضت به الايام حتى أصبح من أندر المثقفين فى العلم والادب جميعا ... ولما تخرج أصبح هذا الشاب ذو العقلالذى يشع كالجوهر الاصيل مدرسا للرياضة فى الجامعات الامريكية . على انه كان بالرغم من ذلك كله منطويا على نفسه ، يعشق الوحدة ، ليس له أصدقاء ولا زملاء يختلط بهم . ربما لأنه أعلى منهم مستوى ، فهو يشرف على الناس من قمة عالية بل انه رفض أن يعمل فى نيويورك أو غيرها من المدن المزدحمة ، وآثر أن يكون عمله فى الغرب ... حيث السهول الواسعة والوديان العميقة ، التى يستطيع أن يركب فيها جواده ، ويرخى له العنان أميالا طويلة دون أن يعكر صفو وحدته وانطلاقه مع نفسه انسان .

ويعترف أوبنهايمر بأن تربيته كطفل « جعلته لايعرف ان فى هذا العالم أشياء رديئة أو قاسية » وهو اذ يعدد قراءاته الادبية الرائعة يقول : « ولكننى لم أقرأ شيئا

قط فى السياسة أو الاقتصاد ، كنت أعيش فى انفصال تام عن الحالة العامة فى هذه البلاد أو غيرها ، بل لم أكن أقرأ أبدا أية جريدة أو مجلة ، ولم أقتن فى بيتى أبدا راديو أو تليفون ... كنت مهتما الى أقصى حد بالعلم .. وبدراسة الانسان فى ذاته . دون أن يكون لدى أى فهم عن علاقة الانسان بمجتمعه » .

ولكن الانسان الشريف لا يجد راحة ضميره أبدا فى هذا القرار ، وفى النجاة من أمواج المجتمع بالركون الى صخرة عالية ... وأوبنهايمر رجل شريف .

لايمكن أن يجد انســـان شريف راحة ضميره فى أن يكرس علمه وجهده لكى يحقق لنفســـه أحلام الراحة والهدوء والامن ... فى وسط عالم يزخر بالقلق والظلم والصراع .. لايمكن أن يقرأ مجلداته فى حجرة مضـــاءة وخارج نافذته عالم بأكمله يطبق عليه الظلام ، وهذه الثقافة الرفيعة كلها اذا كانت لا تخلق فى صاحبها ضميرا حيا فكأنها لم تصنع به شيئا .

ان العقل فى الانسان مهما بلغت قدرته ، لا يغنى عن الضمير ، وان ضميرا بغير عقل ، لخير ألف مرة من عقل بلا ضمير .

وأوبنهايمر كما قلت رجل شريف ! وضميره ينتظر الهزة التى تخرجه من القوقعة وتنزله من برجه العاجى .

وجاءته الهزة الاولى كما يقول فى سنة ١٩٣٦ ، عندما سمع عن انتصار الظلام النازى فى أوروبا .. وما يهدد به من القضاء على حريات الناس وكرامتهم . « ورأيت الى جانب ذلك آثار الأزمة الاقتصادية تبدو على تلاميذى » فهناك اذن فقر يسببه الظلم الاجتماعى ! « فبدأت أشعر بأننى يجب أن أساهم بقسط أكبر فى حياة المجتمع . ولكن ذهنى كان خاليا من أى صورة سياسية صحيحة أو

اى خبرة تعطينى القدرة على هذه المساهمة » .

وهنا يقول المعقبون : « ان من تعلم اللغة اليونانية فى ثلاثة شهور ، ليس صعبا عليه أن يتعلم السياسة والاقتصاد فى ثلاثة شهور أخرى ! .. »

وبعد نشوب الحرب ، ألقيت على كاهل اوبنهايمر مهمة رهيبة ، لعلها من أخطر مهام الحرب .

كان عليه أن يطوف أمريكا ليختار صفوة علمائها ، ثم يجمعهم فى فريق واحد يعيش داخل معامل مغلقة ، فى قلب الصحراء ، تحت حصار عسكرى صارم ، حيث يعملون تحت رئاسته بلا كلل لصنع أول قنبلة ذرية !..

واذا كان اوبنهايمر قد اكتشف المجتمع منذ سنوات ، فانه خلال صنع القنبلة الذرية اكتشف شيئا آخر : قدرته على الزعامة والتفوق والتأثير فى الناس .

نعم .. فقد أصبح زعيما روحيا لعلماء الذرة هؤلاء من جميع الجنسيات .

واستمر العمل بلا كلل ..

وفى ١٦ يوليو سنة ١٩٤٥ ، عندما انفجرت أول قنبلة ذرية ــ للتجربة ــ فى صحراء مكسيكو .. وعندما ارتفع السحاب الذرى القاتل الى عنان السماء .. ارتعد أوبنهايمر لأول مرة . ارتعد وهو يتأمل ميلاد هذا السلاح الرهيب وقال : « لقد عرف العلماء طريق الخطيئة !! »

وهذا التعليق الحزين هو الذى يسجله عليه الاتهام اليوم ، كأول بادرة من بوادر أزمة هذا الضمير .. ولاشك انه بات تلك الليلة مؤرقا يحرق عشرات السجاير ويسأل نفسه آلاف الأسئلة : « هل كان هذا الدور الذى شارك به فى حياة المجتمع دورا شريفا ؟ هل يضمن الا يستعمل هذا السلاح الرهيب فى المستقبل الا لحساب العدل والحرية وحدهما ؟ أو انه سيؤدي الى قتل المزيد من

البشر عبثا ؟ .. »

ولاشك ان هذا الضمير اليقظ قد ارتعد رعدة شديدة عندما ألقيت أول قنبلة صنعها على هيروشيما. وعندما جاءت أنباء النجاح بموت عشرات الآلاف وحرق آلاف البيوت ، وتلويث الجو ، وبأن الذين سيولدون ممن تعرضوا للاشعاع سيكونون مشوهين .. و .. و ..

ولكنه ظل بوجه عام متفائلا . كان يعتقد أن نهاية هذه الحرب وظهور هـذا السلاح سيحملان للانسان سلما طويلا ، وكان زملاؤه العلماء يشعرون بالزهو والفرح لأنهم نقلوا العالم فى وثبة واحدة الى عصر جديد تماما . تستطيع الذرة فيه أن تحقق للناس رخاء لم يسبق له مثيل ، وتعلقت آمالهم بأوبنهايمر أن يقود الأبحاث فى هذا الطريق.. وفعلا أستطاع أوبنهايمر بقوة شخصيته أن يجعل الحكومة تقرر وضع شئون الذرة فى أيدى المدنيين لا العسكريين .. وقام بالنصيب الأكبر فى وضع أول مشروع للرقابة الدولية على الطاقة الذرية ..

على أن الايام مضت ، واخذت آمال ما بعد الحرب فى الذبول ، وعاد التوتر الدولى مرة أخرى . وبدا أن مظاهر الظلم والاستبداد والاستعمار لن تختفى بسرعة. وكرست أبحاث الذرة للحرب لا للسلام. وتحدث الناس عن الدمار الرهيب الذى سيراه عصر الذرة .. وتمزقت ضمائر الكثيرين من العلماء الذين صنعوا الذرة ... فهربوا بأسرارها الى المعسكر الآخر ، وأعلن من قبض عليهم منهم فى المحاكمة أنهم وجدوا أن خير طريقة لمنع الحرب الذرية هو أن تكون أسرار الذرة متعادلة عند الطرفين .. فيضطرون الى عدم استخدامها . فهم يرتكبون ما يوصف قانونا بأنه الخيانة .. وفاء للجنس البشرى نفسه .. وللحضارة الانسانية بوجه عام !

وأوبنهايمر وسط ذلك كله ينوء ضميره بأهوال ثقال. وقد بدأ أصدقاؤه وزملاؤه يلاحظون انه يبدو.. وكأن شيئا ما يرهق ضميره .. كما يقول الاتهام !.. وان الكثير من سلوكه يضطرب ، وأن ذكاءه اللامع يختلط ! وقال الذين يعرفونه أيضا : انه أصبح يعتقد ان الظروف ألقت عليه هو وزملائه تبعة تغيير هذا الكون والقضاء على مشاكله . وانه ثائر لأن الساسة والعسكريين على السواء يقودون العالم الى الدمار.. الدمار بالقنبلة التى صنعها هو وزملاؤه ! وقال آخرون : كأنه يعتقد أنه مكلف بانقاذ الانسانية ولكنه لايعرف ماذا يصنع !

انه لايستطيع ان يهرب كما صنع بعض زملائه ، لأنه لا يقر الوسيلة ، ولا يستطيع أن يبقى مطمئنا . ويقف جهده عند الحدود السلبية : فعندما عرض أمر صنع القنبلة الايدروجينية عارض فى صنعها معارضة شديدة ، وعرض نفسه بذلك لاتهام آخر ، وشك جديد !

واخيرا .. لكل هذه الاسباب .. ولأن ضميره غير مستريح ، قررت الحكومة الامريكية أن تبعده عن أسرار الذرة ! ..

أليس أوبنهايمر هذا .. طبعة جديدة من «هاملت» .

لقد رأى هاملت بعقله الذكى المثقف الفساد الذى ينخر فى كل شىء حوله . ورأى أنه مكلف بازاحة كل هذا الفساد .. ولكن الفكر فيه يشل الارادة ويوقف العمل .. فهو يقف دائما على حدود العمل دون أن يعمل شيئا ! ..

حتى عندما رفع خنجره ليقتل الملك الذى هو أصل الفساد ، عاد فتراجع ... لأنه لايستطيع أن يرتكب جريمة ! ..

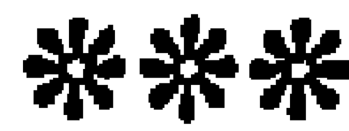
ومن يدرى ؟.. لعل أوبنهايمر سهر ليالى طويلة يفكر

فى الفرار ، أو فى أى شىء آخر ، ثم عاد فتراجع .. كما تهاوى الخنجر فى يد هاملت ، لأنه ليس متأكدا تماما من الوسيلة .. ولا من أى شىء ! ! ..

ومن يدرى ؟.. لعل هذا الذهن النادر الذى قرا الآداب كلها قد قارن نفسه فعلا بهاملت .. ولعله صاح فىنفسه وهو يرى ترددها وحيرتهاكماكان يصيح هاملت : حراكا أيتها الرأس حراكا ! وأماما أيها العزم أماما !..

نعم.. ان مأساة أوبنهايمر هى مأساة كثير من المثقفين فى هذا القرن . ننتظر شكسبير جديدا لكى يكتبها !

مأساة الذين تتحول العزيمة فيهم بفعل التفكير الى شحوب ! ..



والحديث عن أوبنهايمر يذكرنا بعالم آخر..انجليزى هذه المرة ، هو : ج . هالدين .

فعندما هجمت القوات الانجليزية على بورسعيد ، أعلن استقالته من منصبه فى جامعة لندن وتنازله عن الجنسية الانجليزية ، وقال : انه سيسافر الى الهند ، ليبحث هناك عن عمل ، وليطلب منحه الجنسية الهندية .. « ان انجلترا دولة مجرمة منذ شنت هذا الغزو ، وأنا لا أريد أن أموت انجليزيا ، أريد أن أموت حاملا جنسية أكثر مدنية وتحضرا ! .. »

وذكرت ، عندما قرأت هذا النبأ ، ان هـذا العالم العظيم له فى مكتبتى كتاب حملته معى من لندن ، اسمه « اذاعة ممنوعة » . وعندما أخرجت الكتاب لأعيد قراءته ، تداعت فى رأسى عشرات من القصص الغريبة ، التى تتكون منها قصة حياة هذا الرجل الغريب ..

والواقع أن حيـاة هالدين حافلة « بالانفجارات » لا بالقصص العادية فحسب ..

وهذه الانفجارات جاءت من انه ليس عالما من العلماء الذين يحبسون أنفسهم فى سكون المعامل ، لا يبالون اذا كان هذا العلم الذى يصنعونه لخير الانسانية أو دمارها ، انه ليس عالما من الذين يظنون أن بحث العالم لايختلف عن عمل أى «سمكرى» أو «سباك» عليه أن يصنع ما يطلبه منه الذين يدفعون الاجر فحسب ! ! ..

ان جداول الحساب فى هذا الذهن العبقرى مرتبطة بتاريخ التطور البشرى ، ان العلم الذى يكرس له حياته ليس الا وسيلة لكى يجعل حياة الناس حافلة بالعدل والحرية والفكر والجمال ، ومن هنا كان اشتغال هالدين بالسياسة ، وانغماسه فيها ، وشهرته عن طريقها ، لا تقل عن اشتغاله بالعلوم ، وعكوفه فى معاملها ، ونبوغه العلمى فيها ..

وفى أول الأمر ،كان هالدين عضوا فى الحزب الشيوعى الانجليزى ، وكان فى نفس الوقت رئيس هيئة التحرير المشرفة على جريدة «الديلى وركر» لسان الحزب ، وكان أيضا متزوجا من رفيقة له فى الحزب ، ومن النشيطات فى الحركة الشيوعية الانجليزية ، ثم ثارت زوجته على الحزب الشيوعى ، وأصبحت خصـــما لدودا للحركة الشيوعية فى انجلترا ، وتحطم زواج هالدين على صخرة الخلاف السياسى ، فطلق زوجته ، وبقى هالدين زمنا بلا زواج ، حتى تزوج من مساعدته فى المعمل ، فزواجه الثانى زواج علمى بحت ، وليس زواجا سياسيا كالزواج الاول ! ..

وكان أول انفجار هام فى حياته العامة ، هو خروجه من الحزب الشيوعى ، وكان سبب خروجه سببا اقترن فيه العلم بالسياسة ..

_ فقد حدث أن خرج العالم الروسى المشهور ليسنكو،

بنظريته العلمية المعروفة عن البيئة والوراثة ، وثارت مناقشات عنيفة حول هذه النظرية اشترك فيها كثير من علماء البيولوجيا ، ومن بينهم هالدين، وفجأة أعلن العالم الروسي ليسنكو أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي فى روسيا تؤيد نظريته العلمية ..

ومنـــذ تلك اللحظة أصبحت نظرية ليسنكو نظرية رسمية فى الاتحاد السوفييتى .. ولم يرتح هالدين الى هذا الوضع ، لم يقبل أن يحسم البحث العلمى بقرارات سياسية من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وزاد سخط هالدين ، ان الحزب الشيوعى الانجليزى بدأ بعد ذلك حملة دعاية لنظريـــة ليسنكو العلمية عن البيئة والوراثة ! بدأ ينشر كتبا لأساتذة غيرمتخصصين تماما، يقولون فيها ان النظرية صحيحة . فى حين أن هالدين ، أكبر ذهن بيولوجي فى انجلترا ، وعضو الحزب ، لا يقر تماما هذه النظرية ..

وأعلن هالدين استقالته من الحزب الشيوعى ! قال انه ما زال محتفظا بمعتقداته السياسية ولكنه لايستطيع أن يطيع أوامر الحزب فى مسائل علمية ! ..

وقد كانت الحرب العالمية الثانية من أنشط الفترات فى حياة هالدين ، من الناحية العلمية أو السياسية ، على السواء ، كان يكتب فى الصحف بلا انقطاع ، يشرح ويبسط النظريات العلمية المعقدة ، ويربط الثقـافة العلمية بالتيارات السياسية ، ويبث الوعى بضرورة مكافحة الفاشية حتى النهاية ، وفى نفس الوقت ، كان يكرس مجهوده العلمي البحت فىخدمة المجهود الحربى. لجأت اليه انجلترا فى ابحاثها على صـناعة الفواصات وكان من اجل التجارب على قياس الضغط تحت الماء ، يحبس نفسه أحيانا فى غرف التجارب ، كان يجرى

التجارب على نفسه ، متعرضا لأخطار الموت اختناقا أو بالانفجار الداخلى ، وفى احدى تجاربه على نفسه أصيب هالدين بجراح ، ولكنه ظل حتى آخر الحرب يقاوم الفاشية بعلمه وبقلمه ، وبثقافته ..

وفى آخر مرة تحدث فيها فى الاذاعة البريطانية ، كان المذيع يوجه اليه أسئلة وهو يجيب ، فقال انه يتمنى أن يسافر يوما الى الهند ، وأن يساهم فى برنامجها الثانى للسنوات الخمس ، وانه معجب بالطريقة التى تتجه بها الهند الى الاشتراكية ، ولم يكن هالدين يتوقع أن تجىء المناسبة لتحقيق أمنيته بهذه السرعة ، عندما بدأ العدوان الانجليزى على مصر ..

واعود الى كتاب هالدين « اذاعة ممنوعة » ..

ان لهذا الاسم أيضا قصة .. قصة انفجار من انفجارات حياته .. فقد نظمت محطة الاذاعة البريطانية سلسلة من اربعة أحاديث عن موضوع واحد هو : « لماذا تقوم الحرب ؟ » واختارت أربعة متحدثين من أبرز الشخصيات ، وهم :

القسيس انج ، وسير نورمان انجل ، ولورد بيفربروك ، ثم هالدين . واذيعت الأحاديث الثلاثة الاولى ، وجاء الدور على هالدين ، فاذا به يقدم حديثا ناريا يهاجم فيه السياسة البريطانية ، والاستعمار البريطانى ورؤوس الأموال الاحتكارية فى انجلترا . ويسخر من المتحدثين الثلاثة الذين سبقوه ! ..

ورفضت الاذاعة البريطانية أن تذيع الحديث ! وأعاد هالدين النظر فى حديثه ، فخفف بعض الكلمات القاسية ، ورفع المعانى الجارحة .. ولكن الاذاعة رفضت أيضا أن تذيعه ، ورفض هالدين أن يغير فى حديثه أكثر من ذلك ، ونشره بصورته الاصلية فى جريدة الديلى هيرالد ، جريدة

حزب العمال ، مع حمــلة عنيفة على الديمقراطيــة الانجليزية ، والحياد المزعوم لمحطة الاذاعة البريطانية..

وعندما جمع هالدين مجموعة مقالاته وأحاديثه فى كتاب ، أعاد نشر هذا الحديث ، وأطلق على الكتاب كله اسم « اذاعة ممنوعة » ! ..

ماذا قال هالدين فى هذه الاذاعة الممنوعة ؟

* ان الذين يقولون أن الحرب سببها الخوف والحقد كمن يقول ان الحرائق سببها وجود مادة الاكسجين فى الهواء ، نعم ان الاكسجين موجود فى الهواء ، وهو قابل للاشتعال ، ولكن ما هى الاسباب العميقة الاساسية لاشتعال الحرائق ؟ ..

* اذا اشتعلت الحرب ، فابحث عن الذين يكسبون منها . هذه كلمة قديمة ، وليس كارل ماركس هو الذى قال : « حيث توجد أموالكم ، توجد قلوبكم ! »

* أنا لا أقول بالطبع ان حاملى الأسهم فى شركات السلاح يطالبون بالحرب ، كلا ، ولكنهم فقط يعرفون أن زوال شبح الحرب يهبط بالأرباح التى توزع عليهم فى آخر السنة .. اننى اريد أن أقول الحقيقة فى أرق كلمات ممكنة ، حتى لا يغضب أحد ويغلق الراديو ، ان حملة الأسهم هؤلاء لايتألمون كثيرا ، اذا قامت حرب صغيرة فعلا ، فى مكان بعيد عن بلادنا ، اذا كانت هذه الحرب الصغيرة ، البعيدة ، ترفع ايراداتهم ! ..

* ان الجيوش المحاربة لا تحتاج الى السلاح فقط ، انها تحتاج الى كل شىء من الثيــاب الى الاحذية الى الخضر واللحوم . فلو قامت حرب ، حرب بعيدة جدا ، حتى لاينزعج أحد ، بين روسيا واليابان مثلا ، فسوف تروج التجارة ، سوف يشتد طلب الدول المحاربة على كل شىء ، من السلاح الى أحذية الجنود وطعامهم ! ..

واقلب بعد ذلك صفحات الكتاب ، والتقط منه هذه الخواطر والأفكار :

* يقول لورد بيركنهد: انعلم السياسة وعلم القانون هما أقل العلوم قابلية للتغيير العميق ، وهذا خطأ تماما .. لقد راح عهد احتكار المحامين ورجال القانون للسياسة ، اننا نجد الآن بين رؤساء الدول من كانوا مهندسين أو علماء أو ضباطا ، ان أفول نجم « المحامى السياسى » وذهاب احتكاره له مغزى عميق.. ولنضرب مثلا بسيطا : ان العلماء يعرفون مثلا ان « النحاس » و « الالومنيوم » لهما خصائص واحدة ، فكلاهما موصل جيد للحرارة ، وعلىهذا الأساس نعاملهذين العنصرين معاملة واحدة ، ولكن انظروا الىالامبراطورية البريطانية مثلا : ان فيها عناصر كثيرة مثل السكسون والعرب والهندوس والزنوج ، كلها عناصر بشرية لها خصائص واحدة ، ولكن الساسة الانجليز لايعاملونها بالطبع معاملة واحدة ، ولا يعطونها حقوقا واحدة ! ..

* الامبراطورية البريطانية (من حيث الاستراتيجية الجغرافية) دولة قوية فى حالة الهجوم ، لأن قواعدها منتشرة فى كل مكان ، ولكنها دولة ضعيفة جدا فى موقف الدفاع ، لأن حياتها تعتمد على الخارج ، فهى عرضة للاختناق السريع .. أما روسيا ، فهى بحكم وضعها الجغرافى أيضا ، على العكس تماما ، فهى ضعيفة فى الهجوم ، ولكنها قوية جدا اذا كانت فى موقف الدفاع..

ووضع الامبراطورية البريطانية هذا (اذ هى قوية فى الهجوم وضعيفة فى الدفاع) سيىء من ناحيتين : فهو يجعل الآخرين يكرهوننا ويخافون هجومنا عليهم ، من ناحية ، ويجعلهم يظنون أن الهجوم علينا سهلمن ناحية اخرى ، فلو قوينا انفسنا داخليا ، ووجهنا أقل تهديد

للآخرين ، فسوف تقل ولا شك أسباب الحروب ! ..

* ان اروع ماصنعه هتلر .. هو انه وحد صفوف الكثيرين ضده . انني أحارب ضد هتلر ، من أجل شيء يتفق عليه .. انا ، وعامل انجليزى وفلاح صينى ، ومليونير امريكى ، وقومسيير سوفييتي .. هذا الشيء الذى اتفقنا عليه هو : ان كل فرد فى الحياة يستحق أن يكون له اعتبار ، وهذا ما ينكره هتلر .

* انني أحب أن أرى وطني انجلترا ينتصر ، ولكن ليس معنى ذلك انني كنت أتمنى أن ينتصر وطني ضد ثورة الاستقلال فى امريكا . أو ضد ثورة الهند ..

* انني اريد أن ارى الاشتراكية تسود فى انجلترا . ولكنها لن تكون اشتراكية كالموجودة فى روسيا ، ان الكنيسة البروتستنتية مثلا تختلف عن الكنيسة الارثوذكسية ولكن كلتيهما مسيحية ..

* انني أعرف كثيرين ألمان وطليان ويابانيين ، سعداء لأنني احارب ضد حكوماتهم ، ذلك انني أحارب من أجل حريتهم ! ..

* أعلن أخيرا ان ثلاثة من المؤرخين أخذوا جائزة ضخمة لأنهم ألفوا كتابا من ثلاثة أجزاء عن تاريخ الفلسفة ، وقد سألني ناس كثيرون : ما قيمة نظريات الفلسفة القديمة الآن بالنسبة للعلم !.. ما معنى أن نبذل مجهودا لدراسة أفكار ناس قدامى ، ثبت بطلان أغلبها ..

لهؤلاء أقول : ان هناك أسبابا كثيرة تبرر دراسة ما قاله الفلاسفة قديما ، ان هذه الأفكارالقديمة الخاطئة ، كان لدى أصحابها أسباب وحجج قوية لاعتناقها ، وعندما ندرس هذه الحجج ، ونعرف التجارب التى أثبتت بطلانها بعد ذلك ، فهذا يساعدنا على معرفة

الصواب من الخطأ في كثير من المسائل التي تعترضنا اليوم ..

ودراستنا لهؤلاء الفلاسفة القدماء تعلمنا كيف ان كل مفكر انما يعكس العصر الذي يعيش فيه فقط ، وبناء على ذلك فأى مفكر اشتراكى اليوم لايستطيع ان يصف المجتمع بعد عدة أجيال قادمة من تطبيق الاشتراكية .

ثم ان معرفتنا لهذه المبادىء القديمة تجعل مبادئنا التى تؤمن بها اليوم أكثر صلابة ، ان كثيرا منا يأخذون هذه المبادىء على انها بديهيات مفروغ منها ، ولكن دراستنا لمن سبقونا تعلمنا كيف ان اناسا آخرين أذكياء ، كانت لهم آراء مختلفة عنا تماما ..

ثم اننا محتاجون لأن نستعد للمستقبل ، ولن نستعد للمستقبل الا بناء على فلسفة ما، ان بعض الناس يقولون : علينا أن نؤدى واجبنا طبقا لما تواضع عليه البشر ، والله بعد ذلك يصنع ما يشاء ..

وآخرون يقولون : ان التطور التاريخى سيقع حتما ، سواء عملنا أم لم نعمل .. وكلا القولين خطأ ، ان المستقبل يتوقف أيضا علينا ، حتى ولو كنا نحن أنفسنا جزءا من حركة التاريخ ، وهذا الايمان شىء عظيم ، يلهمنا العمل والفكر والانتاج ..

ونحن اذن محتاجون دائما الى فلسفة والى مرشد يقودنا الى العمـــل ، وأيا كان نوع المذهب الذى نؤمن به ، فلن نفهم الا اذا عرفنا تاريخه جيدا .

لهذا كانت معرفة تاريخ الافكار والفلسفات أمرا هاما وضروريا .

* قراء كثيرون يســألوننى عن بعض مشاكل علم النفس : كيف أتغلب على خوفى من كذا ؟ كيف أعالج نفسى من نقص كذا ؟ وأنا لا أفهم كثيرا فى علم النفس ،

ولكننى أقول لهؤلاء ببساطة : ان الانسان يستطيع ان يتغلب على كثير من مشاكله النفسية الداخلية اذا اهتم بشيء كبير ، خارج حدود نفسه .

ان هجرة هالدين ، وطنه وجنسيته ، وهجرة علماء كثيرين تحت وصف قانون مختلف ــ هو خيانة الأسرار الذرية من هذا المعسكر الى ذاك ــ ظاهرة من ظواهر عصر العلم .. عصر الوصول الى مفاتيح رهيبة لها أعظم الأثر فى حيــاة العالم .. حاربها مكتشفوها ، فى اى مجتمع وأى نظام يضعونها ! ! ــ

فى مطابخ الثورات

انهم يعملون للثورة بأيديهم واسنانهم . كل واحد منهم وضع مصلحة الثورة فوق مصلحته الشخصية ، وفوق حاجاته الخاصة ، بل وفوق وجوده وحياته ذاتها

حياتهم متسممة بأفكار الذات المطلق ، والتخلى عن كل طيبات الحياة . وغالبا ما تنتهى حياتهم هذه بتضحيات بطولية كالاساطير . انهم ناس لا ينتمون الى النمط العادى للناس . انهم مفرغون من كل ما يشغل الناس العاديين ، من مشاكل الأسرة ، والنجاح فى العمل ، والسعادة الشخصية . انهم لايعيشون فى الحاضر ، ولا يتذوقون له طعما .. انهم يعيشون فى المستقبل .. يتظلمون حين تهب رائحته عليهم !

هؤلاء هم الثوار !

انك اذا نظرت اليهم عن بعد ، خيل اليك انهم — جميعا — متشابهون . ولكنك اذا عشت معهم ، وخالطتهم عن قرب ، فسوف تجد انهم نماذج مختلفة متفاوتة ، بل انك قد تدهش حين تجد بين أعنف الثائرين من هو فى حقيقته أبعد ما يكون عن محتوى الثورة الحقيقى !

هذا رأى واحد من الثوار أنفسهم . واحد من الثوار الذين اشتركوا فى ثورة أكتوبر الكبرى فى روسيا سنة ١٩١٧ ..

ان ستينبرج هو الوحيد الحى الباقى الى الآن من مجلس وزراء لينين الاول الذى أسفر عن الثورة فى بطرسبرج التى أصبحت ليننجراد ! كان زعيما للجناح اليسارى فى حزب الاشتراكيين الثوريين ، الذى تحالف مع حزب لينين البلشفى فى تدبير الانقلاب المسلح ضد حكومة كيرنسكى ، ثم كان وزيرا فى أول مجلس وزراء سوفييتى ، وكان يومئذ فى التاسعة والعشرين من عمره فقط .

ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن أصبح واحدا من « الذين كنسهم التاريخ فى ترابه » . وهو التعبير الذى أطلقه تروتسكى آنذاك على الذين عجزوا عن مواصلة الثورة الى النهاية . فقد أصبح معارضا للينين ، ثم قبض عليه ، ثم فر .. الى حيث يعيش الآن ، فى الولايات المتحدة الامريكية .. فهناك لحق ستينبرج بمن انقلب عليه «كيرنسكى» الذى كان قد سبقه الى هناك ، ثم لحق بالاثنين، الى المكسيك ، تروتسكى نفسه ، أشهر الأسماء التى كنسها التاريخ فى ترابه !

وألف ستينبرج كتابا سماه «فى مطبخ الثورة» تحدث فيه عن الايام التاريخية بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٢١ . والكتاب بالطبع ملىء بالأحكام والحملات الشخصية ، ومكتوب بكل غيظ وموجدة « واحد من الذين كنسهم التاريخ فى ترابه » بعيداً عن مجرى الثورة .. ولكن ما لفت نظرى فيه هو فصل يقول فيه الكاتب : ان الثوار، وان بدوا متشابهين، الا أنهم فى الواقع ينقسمون الى خمسة أنواع .. عرفتها ، وستظل تعرفها ، كل الثورات ...

النوع الاول هو الثائر من أجل نفسه ، انه ذلك المواطن الذى يثور بسبب الظلم الواقع عليه شخصيا . انه ذلك

الذى يندفع اندفاعا تلقائيا ، ويحارب باخلاص ، من أجل نفسه ، من أجل حقوقه المنتهكة ، وحياته الضائعة المهدورة . انه عنصر أساسى فى كل ثورة من ثورات التاريخ : عنصر جمهور الثورة ، وتابعيها ..

هـذا النوع من الثوار ، هو الجمهور الذى صنع انتفاضات العبيد فى العصر القديم ، وثورات الفلاحين فى العصور الوسطى ، وهو الذى صنع العواصف التى اجتاحت شوارع باريس فى الثورة الفرنسية .

انهم الرجال المسحوقون، الذين يحدث لهم ، فى لحظة تاريخية خاصة ، أن يكتشفوا أنهم يمكن أن يكونوا بلا أغلال على الاطلاق .. وفى قوة بركانيـة ، تنفجر من قلوبهم نيران الألم والغضب والحقد والانتقام ! كل حب الفرد لعائلته وناسه ، مقترنا بالكبت المرهق الطويل ، ينفجر ! لا يبقى ولا يذر !

وليس معنى ذلك ان هذا النوع من الثائرين «انانى» بالمعنى الضيق الشائع .. انه يقدم أكبر التضحيات ، ويأتى أروع ضروب البسالة والاستشهاد .. ولكن نقطة البدء فى نفسه هى : حقوقه المكبوتة ، شرفه المثلوم ، أيامه الحافلة بالفقر والضعة ، خوفه من أن تفشـل الثورة وتعود الايام السوداء !

ان المؤلف يروى لنا مشهدا مؤثرا ، عاشه فى موسكو سنة ١٩١٩ .

كان المسرح يقدم رواية عن سجن كارتوجا القيصرى الرهيب . لم تكن رواية لها حبكة وبداية ونهاية. كانت مجرد عرض أمين دقيق لروتين الحياة فى ذلك السجن. مجرد المنظر الحقيقى للسجن والزنزانات ، والمساجين والسلاسل ، والمشاجرات والفظاعات.. بدون أى مؤثر

مصطنع ، ولا حتى لحن موسيقى . وكان المسرح مكتظا بمئات الرجال الخشنين الشجعان ، الذين خاضوا وما زالوا يخوضون أعنف الأحداث . وفجأة ، فى لحظة واحدة ، بكت القاعة كلها ! تلفت المؤلف حوله فرأى أعتى المحاربين من العمال والفلاحين والجنود وقد نكسوا رؤوسهم ، يبكون كالاطفال ، وبكاء يذيب الصخر !.. وكان الواحد منهم يهمس بين دموعه المتساقطة : تمام ! مثل زنزانتنا بالضبط ! كيف احتملنا ! كيف عشنا هذا ! تصور ! تصور لو عاد هذا مرة أخرى !

دموع خارجة من بئر عميق .. من قلب عرف المرارة بكل خلية فيه ! ..

ويروى الشاعر الروسى «الكسندر بلوك» ، وكان من الاقطاعيين ، انه كان يتنزه هو وعروسه على ظهر جواديهما ذات يوم فى احدى مزارعه .. وقد بدا لهما ان كل شىء جميل سعيد .. حتى الشمس ، والخضرة المزدهرة ، كانت كأنها تشاركهما الفرحة . وفجأة ، لاح على الطريق فلاح عجوز .. واحد من عشرات الملايين الذين يعملون فى الارض الروسية .. ظهر فى أسمال بالية ، محنى الظهر ، مغضن الوجه بآلام اجيال من العبودية . ولم يكد الفلاح يراهما حتى تنحى بسرعة ، ووقف فى الحقل صامتا ريثما يمر السيدان .. وفى لمحة ، التقت عينا الشاعر سليل النبلاء بعين الفلاح العجوز .. وفى هذه اللمحة راى فى عينيه مزيجا مثيرا من الرهبة ، والاحترام ، والحقد ، والخوف ، وكراهية عميقة . وفى تلك اللحظة أدرك الشاعر ماذا حدث فى نفوس هؤلاء الناس ، والهوة الساحقة المخيفة التى تفصل بين القلة المتمتعة والكثرة من التعساء .. فلما نشبت الثورة ، وجاءت أنباء

الفلاحين الذين هجموا على بيوت الاقطاع فى بسـالة وأحرقوها ، تذكر الكسندر بلوك على الفور : هاتين العينين ! ..

النوع الثانى من الثوار ، هو : الثائر العلمى ..

هذا الثائر لا ينبع نشاطه الثورى من العاطفة ، أو من التجاوب التلقائى مع الحوادث ، ولكنه يستمد دافعه من اقتناعه المطلق بنظرية علمية واضحة ، وعملية حسابية محددة . انه يحمل فى نفسه منطلقا صارما لايرحم ، واقتناعا بحتمية تاريخية لا مفر منها .

وليس معنى ذلك ان الثوار من هذا الطراز لايحسون المشاعر الاخرى .. كالألم للواقع الانسانى الظالم مثلا .. فلا شك انهم قبل كل شىء ناس من ذوى الضمائر ، ولكن القوة الكبرى التى تدفعهم الى تقديم التضحيات الهائلة هى : قوة الاقتناع العقائدى ، والحساب اليقينى ..

والثائر العلمى فى الثورة الروسية كان الثائر الماركسى اللينينى . ولكن الثوار العلميين كانوا موجودين فى كل ثورة أخرى حتى قبل ظهور الماركسية : كل ثورة كان فيها الثوار أصحاب الحساب الواضح والاقتناع الراسخ بأنهم أداة مرحلة حتمية من مراحل التاريخ .

والنموذج الاساسى الذى يقدمه المؤلف على هـذا الطراز من الثوار ، هو ، لينين نفسه . فقد كان لينين يعتقد أن الثورة هى الأداة أو العجلة التى يسـير بها التاريخ فى طريقه الحتمى . وانه ــ أى لينين ــ ليس الا «ميكانيكى» يعمل فى خدمة هذه الأداة أو العجلة والعناية بها .. ومن هنا كان عزوف لينين عن اية محاولة لفرض اسمه الشخصى على مسرح الحوادث ، ونفوره من أى دعاية شخصية له .. اذ كان يعتبر هذا عملا ضارا ،

وغير علمي !

والمؤلف يوجه نقدا عنيفا لهذا النوع من الثوار ، فيقول : انهم عادة أقدر الناس على اتخاذ القرارات القاسية . انهم يركزون على المستقبل ، وعلى تحقيق العمل التاريخى الكبير ، لدرجة انهم لا يبالون بالثمن ، او بالآلام التى قد يدفعها الافراد من أجل تحقيقها .. « نفس المنطق ، الذى جعل النمل البشرى ، منذ أربعة آلاف سنة ، يبنى الاهرام ، من أجل مجد فرعون الخالد »

هذا الثائر يطلب من الفرد العادى ثمنا باهظا « ومن أين للرجل الصغير ، المحدود الزمن والمسافة والنظرة ، أن يستوعب الصورة الشاملة لزحف التاريخ العظيم ؟ »

انه يريد أن يحصل على ثمرة تنفعه اليوم ، لا غدا . انه يقول : بيتى ! ولا يقول : العالم ..

الثائر العلمى يظن ان كل انسان يمكن أن يحتمل ويضحى كما يضحى الثائر ، وهذا غير صحيح !

والواقع ان هناك ردا بسيطا على كلام المؤلف . والرد هو ان قرارات الثائر العلمى ، تجد من التاريخ دائما ما يبررها . والمسألة تتوقف على نوع البناء : فبناء خزان هائل يرفع مستوى معيشة الناس وينتشلهم من وهدة الفقر ، ليس كبناء أهرام هائل لدفن فرعون واحد ميت !

والثائر الجمالى هو النوع الثالث من الثوار . انه الثائر الذى تدفعه الى الثورة حاسة مرهفة تتذوق الجمال وتتفهمه .

فقد تجد ــ مثلا ــ انسانا يعتنق الاشتراكية ، لان النظام الرأسمالى أو الاقطاعى ، بما ينطوى عليه من اسراف فى ناحية وفقر فى ناحية اخرى ، يؤذى احساسه

الغنى بالجمال .. انه يرى القبح والتشويه والـكآبة والضياع .. فى حياة الفقير وحياة الغني على السواء ..
ان هؤلاء الثوار ناس أزعجتهم عفونة المجتمع ، فهم يحلمون بمستقبل « أجمل » !

ويضرب المؤلف لهذا النوع امثلة من كتاب انجلترا وفنانيها ..

كان « جون رسكين » مثلا يصف المستقبل الذى يريد صنعه وصفا فنيا فيتحدث حتى عن تغيير الثياب ، وطراز البيوت ، ومفرش المائدة ..

وأوسكار وايلدكان يريد تدميرحياة الارستقراطيين ، لأنها خالية من الجمال.. لأنه كان يراها حافلة بالتظاهر، والسخف ، والثراء المضيع ، والجفاف الروحى ..

و « وليم مدريس » فى كتاب له بعنوان : « كيف أصبحت اشتراكيا » يقول : ان نقطة البدء فى الثورة هى احياء فن الشعب ، وهى أن تخلق لدى الشعب الفقير الرغبة فى الاستمتاع بالجمال ، وتقنعه بأن الجمال والفن أشياء هامة فى حياته كالخبز .

وهناك من ثوار الجمال هؤلاء نوع آخر ، أولئك الذين يجدون فى « اللحظة العظيمة » جمالا فنيا بديعا . فى ذهنهم صور وثورات تاريخية سلفت ، وأحداث وأمجاد .. ثم هم يجدون أنهم يعيشون فى لحظة ثورة أخرى مجيدة .. ويرون أمام أعينهم مشهدا مهيبا ، فيجدون فى ذلك لذة غامرة ، لذة خروج حيـاتهم من الروتين العتيق .

ويروى المؤلف قصة طريفة عن ثائر مشهور من رفاق لينين ، هو « لوناتشارسكى » ، الذى كان على ما أظن أول وزير للتعليم بعد الثورة الروسية .. فيقول : ان

اكبر همومه خلال أيام ثورة أكتوبر العاتية ، كان الخوف من أن يصاب اثر من الآثار الفنية أو الـكنوز التاريخية بالدمار ، وعندما اصابت قنبلة طائشة متحف الفنون ، ثار وقدم استقالته احتجاجا ، ونشر بيانا علنيا ينـدد بذلك ، وكان لينين يطيب خاطره ضاحكا ..

الثائر الرابع فى هذا الجدول من الثوار ، هو الثائر الشفوق .

هذا الثائر لايثور لظلم وقع عليه شخصيا ، ولا لأنه يؤمن بنظرية علمية تدفعه الي الثورة ، ولكنه يثور بسبب الظلم الواقع على الآخرين. انه ذلك الذى يمكن ان نسميه بالرجل الشريف ، ذي الضمير الحى .. انه لايطيق أن يرى الآخرين محطمين مهانين .

ويقول المؤلف ان الادب الروسى فى القرن التاسع عشر، كان يركز جهده على اثارة هذه الروح فى النفوس ، على ايقاظ عواطف الناس وضمائرهم : ففى رواية «الجريمة والعقـاب » لدستويفسكى لابد أن يعطف القارىء على «راسكولينكوف» .. كما لابد أن يعطف على «كاتيوث» فى رواية «البعث» لتولستوى ، وعلى المشردين الذين تحفل بهم روايات مكسيم جوركى .

انه الثائر الذى يثور ، نيابة عن الضعفاء والتمساء !

وعيب هـذا النوع من الثوار ، ان علاقة العطف والشفقة تفترض وجود قوى وضـعيف . القوى هنا يشعر أن الضعيف يحتاج الى مساعدته وعطفه ، ومن العطف والمساعدة يتدرج الى الرغبة فى الوصـاية على هذا الضعيف . انه يشعر بانه مسئول عن الضعفاء ، وهذا فى رأى المؤلف طريق قصير الى : الدكتاتورية ...

وعلى العكس من ذلك ، النوع الخامس والاخير من

الثوار ، وهو الثائر المحب ! ..

ان الثائر بدافع الحب ، يثور أيضا بسبب الظلم الواقع على غيره ، ولكنه يختلف عن الثائر الشفوق ، لأن علاقة الشفقة ليست علاقة مساواة ، أما علاقة الحب فهى علاقة مساواة كاملة ..

ويضرب المؤلف مثلا على هذا النوع من الثوار بحركة المثقفين الروس قبل الثورة ، التى سميت «حركة الرجوع الى الشعب » . ونماذجهم موجودة فى المثقفين الذين نصادفهم فى رواية « الأم » لمكسيم جوركى .

ان الثائر المحب يحب الانسانية كلها حبا عميقا .. يريد لبنى البشر كلهم أن يتحرروا . انه يربط مستقبله تماما بأقل طبقات المجتمع . انه يرتكب العنف مع انه يكره العنف ، انه يحمل السلاح وهو يكره السلاح . ان نموذجه هو الثائر جريجورى جرستون الذى قال للقضاة الذين كانوا يحاكمونه :

ـ اننا نكرهكم ، لا لأنكم تسفكون دماءنا .. ولكن لأنكم ترغموننا على أن نسفك دماءكم !!

ونموذجه أيضا: الفتاة الروسية نيستولارا جوزينيكوف ، التى وضعت الديناميت حول جسدها وهى فى العشرين من العمر ، لتنسف مقر البوليس القيصرى ، وتخلط اشلاءها بأشلائه .. وعندما ذهب بها جلادوها الى حيث ينفذون فيها حكم الاعدام ، كانت تغنى فى الطريق ، وتداعب الجنود ، الذين كانوا يرتجفون رعبا وتأثرا لمشهد ثباتها وتفاؤلها .. وحتى اللحظة الاخيرة رفضت أن تبوح باسم واحد من أسماء رفاقها.. وقالت لهم : ليس الواجب وحده هو الذى دفعنى الى هذا العمل.. ولكنه شيء أكبر من ذلك . انه الحب ! حب الانسانية كلها .

ما أجمل أن نحب الناس ! وما أعظم القوة التى يمنحها لنا الحب ! »

***

ربما كانت الملاحظة التى يمكن ان تقال تعليقـا على هذا الكتاب : هى ان هذه الانواع الخمسة ليست ـ بالضرورة ـ منفصلة . ولكنها كثيرا ما تمتزج كلها ، أو يمتزج بعضها ، فى نفس ثائر واحـد .. فنجد ثائرا واحدا يثور بالمنطق العلمى ، وبالحب ، وبحاسة الجمال معا .. وهو عادة النوع العظيم من الثائرين !

الإعلانات .. الإعلانات

هل يوجد شيء اسمه حرية اقتصادية ؟

بل هل يوجد شيء اسمه « حرية » على الاطلاق ؟..

هـذا هو السؤال الذى يسأله المرء لنفسه ، حين ينتهى من قراءة هذا الكتاب العجيب الغريب.. الكتاب الذى يقول مؤلفه ــ على غلافه ــ « انه يكشف لنا كيف ان رجال الاعلانات يستغلون غرائزنا وامراضنا النفسية لكى يبيعوا لنا كل شيء .. من الثياب النايلون الى الزعماء السياسيين » .

وقد احدث الكتاب ضجة هائلة حين صدر فى الولايات المتحدة الامريكية.. ومن يوم صدوره دخلت اصطلاحاته وتعبيراته فى اغلب الكتب والمقالات .. وأصبح عنوانه : « الدعاة المتسترون » لقبا يطلق على رجال الدعاية ، والاعلان ، والعلاقات العامة ، من جميع الاشكال والالوان

ودائما ، حين أقرأ أو أفكر فى أى موضوع سياسي أو اقتصادى أو اجتماعى ، أجد انى أتأمل فى النهاية صورة واحدة : صورة المواطن العادى.. الرجل البسيط أو المرأة البسيطة أو الطفل البسيط ..

وحين اكتشف ــ فيما أقرأ ــ القوى الهائلة التي تتحكم فى الفرد فى عالمنا هذا الحديث .. تفزعنى صورة الفرد العادى البسيط .. فى وحدته وفى ضآلته .. فى

وقفته أمام الأدوات الجبارة التى تصنع له آراءه السياسية وعقائده الاجتماعية ، وذوقه فى اختيار الثياب ، وطريقته فى معاملة زوجته .. ثم تبتسم هذه الأدوات الجبارة ، كاشفة عن أسنانها الفولاذية الضخمة ، وتقول للفرد الصغير البسيط :

ـ أنت حر ! ..

نعم حر ! حرية الريشة فى مهب الرياح ! حرية النملة فى غابة تسكنها الأفيال ! ..

وقد كانت الطريقة القديمة ، البدائية ، التى يفقد بها الفرد حريته ، هى أن تصدر اليه الأوامر والنواهى من الخارج ، مصحوبة بالتحذيرات والتهديدات ، فيخضع ويذعن ، ويتصرف كما تقول له الأوامر والتعليمات. ولكن هذه الصورة أصبحت قديمة . ففيها قد يتقيد الانسان فى الظاهر ولكنه يحتفظ ـ على الأقل ـ بحرية مطلقة فى باطنه .

كانت مشكلة الفرد فى مثل هذا الوضع أن نصفه ـ الخارجى ـ عبد ، ونصفه ـ الداخلى ـ حر ! ..

أما العصر الحديث ، وأدوات العصر الحديث ، وعلوم العصر الحديث .. فهى لا تكتفى بأن تصدر الى الفرد تلك الأوامر والنواهى من الخارج . لقد اكتشفت فى هذا الفرد آلافا من الثقوب تستطيع أن تتسرب منها الى باطنه ، وتحتل نصفه الداخلى الحر ، وتصدر اليه الأوامر من الداخل ! ..

أليس هذا فظيعا ؟ ..

ان الانسان يعيش الآن فى مرحلة تتميز بأن الأدوات التى خلقها الانسان والعلوم التى اكتشفها أصبحت أقوى منه ـ أى من الانسان نفسه .

وصراع الانسان الاجتماعى ، وكفاحه للبحث عن

فلسفة اجتماعية جديدة ، غايته فى الواقع ان يحل هذه المشكلة ، وأن يتوصل الى نظم تضع الانسان على عرشه الطبيعى : حيث يستطيع ان يكون اقوى من الادوات التى خلقها .

واذا كان هذا الوضع فظيعا ، فالأفظع منه ان الانسان لايدرى الى أى حد هو يعيش فاقدا حريته !.. بل انه أحيانا يتشدق ويزهو بأنه يعيش فى حرية مطلقة !..

أليس الانســـان الامريكى مثـــلا ، من أبرز الذين يتباهون بهذا الوهم ؟..

ان هذا الـكتاب The Hidden Persuaders لمؤلفه « فانس باكارد» يروى لنا قصة غريبة !.. قصة فن الاعلان !

كانت الطريقة البسيطة هى أن يعمد البائع الى سؤال الناس واستفتائهم عما يريدون . ثم ظهر أن الاجابات التى يدلون بها لا علاقة لها أبدا بالحقيقة . ما يقولونه للسائل لا يمت بصلة لسلوكهم الحقيقى لحظة الشراء . فلو سألت واحدا من الناس ماذا يسمع فى الاذاعة مثلا، فقد يقول لك «الاحاديث» لمجرد أن هذا هو ما يليق بمقامه ، فى حين انه فى الواقع لن يفتح الراديو الا ليستمع الى الاغانى ، فالمهم اذن معرفة هذه الحقيقة . ووصل خبراء الاعلان الى ثلاث حقائق :

أولا : ان الفرد لايعرف بالضبط ماذا يريد .

ثانيا : انه حتى اذا كان يعرف ، فانه لن يعترف لك بالحقيقة . انه يجيب بما يناسب الصورة التى يرسمها لنفسه أمام الناس ، لا بما يعبر بصراحة عن نوازعه الخفية .. سئل الناس مرة عن المجلات التى يقرأونها ، فكانت أغلب الاجابات تشير الى المجلات ذات المستوى الرفيع ، فى حين أن هذه المجلات لا تبيع الا قليلا .

وفى مرة أخرى أرادت احدى مؤسسات الاثاث أن

تعرف ذوق الناس فجاءت قبل احدى المحاضرات التى تقبل عليها النساء وفرشت حجرتين للانتظار : حجرة فرشتها بأثاث عصرى بسيط ، وحجرة فرشتها بأثاث كلاسيكى قديم وتحف تاريخية .. الى آخره ، ولاحظ المراقبون الواقفون سرا ان النساء يقبلن على الجلوس والانتظار فى الحجرة الاولى . ولكن حين سئلن اى طراز من الاثاث يفضلن؟ أجبن : الاثاث التاريخي. ذلك ان هذه الاجابة تظهر من تقولها فى هيئة المثقفة بنت العائلة العريقة فى حين انها فى لحظة الاختيار التلقائى ، ذهبت وجلست فى الحجرة البسيطة .

شركة سيارات كريزلر صدقت ما قاله الناس فى الاستفتاءات من انهم يفضلون سيارة بسيطة ، حجمها معقول ليسهل ركنها فى الشوارع المزدحمة .. الى آخره وصنعت سياراتها على هذا النحو واذا بها تكسد كسادا رهيبا هدد الشركة بالخطر . فقد اشترى الناس السيارات الكبيرة ذات الاجنحة والتى لاتتناسب أبدا مع الزحام ، لأنها ترضى اثرا نفسيا معينا فى أفئدتهم .

وقد واجه المعلنون فى أمريكا مشكلتين خطيرتين :

المشكلة الاولى ان كل أمريكى تقريبا أصبح يملك سيارة وثلاجة وراديو وجهاز تليفزيون وما الى ذلك ، وعدم استبدال هذه الاشياء الا بعد أن تستهلك .. معناه أن يقل البيع بشكل ذريع ، وهذا غير معقول ، اذن لابد من اثارة سخط المواطن على ما لديه . لابد من جعله يشمئز من فكرة بقاء سيارته دون تغيير أكثر من ثلاث سنوات ، لابد من اقناعه ان سيارته التى اشتراها وكان شكلها بديعا منذ سنتين قد أصبح الآن شكلها قبيحا جدا ! ويسمى المتخصصون فى هذا الفرع باسم « تجار السخط »

المشكلة الثانية هي ان كل السلع ذات النوع الواحد بدأت تتشابه الىحد بعيد ، فلا يوجد فى الواقع اى فرق جوهرى بين الانواع المختلفة للسيجارة او الويسكى أو البيرة أو معجون الاسنان أو البوتاجاز.. اذن كيف يقنع المعلن المستهلك بأن يشترى هذه الماركة دون تلك ؟..

واجتمع مؤتمر المعلنين لمناقشة مشكلة اتجاه السلع الى التشابه السريع واتفقوا على انه لايمكن اقناع المستهلك هنا عن طريق العقل الواعى .

اذن فلا بد لمواجهة المشكلتين السابقتين من التأثير على العقل الباطن !

وقد توصل علمــاء النفس الذين يخدمون شركات الاعلان الى أن وعى الانسان ـ اى انسان ـ له ثلاثة مستويات أو ثلاث درجات :

الدرجة الاولى : يكون فيها وعى الانسان كاملا ، فهو يعرف ما يريد بالضبط ولماذا يريده .

الدرجة الثانية : هى العقل الباطن ، والانسان فيها ربما يتحسس بوجه عام ما يريد ، ولكنه متأثر فى ذلك بعوامل خفية..كمخاوفه وأحلامه غير المتحققة ونوازعه وما الى ذلك .

والدرجة الثالثة : هىالنوازع والمشاعر التى لايعرفها الانسان .. واذا عرفها فهو لايناقشها .

وقال خبراء الاعلان : ان رسالتهم هى التركيز على الدرجتين الثانية والثالثة فى نفس الانسان .

ومن هنا ولد مبدأ تطبيق قواعد التحليل النفسى على سوق التجارة .

ومن أشهر الاسماء التى يذكرها الكتاب فى هــذا المجال ، اسم ايرنست ديتشر مدير معهد البحث فى الحوافز البشرية.. والذىتقصده الشركاتلكىتستشيره

فى عمليات البيع والشراء .. ولدى هذا المعهد مئات من العائلات التى يستخدمها كحيوانات التجارب ، لاكتشاف النوازع النفسية الكامنة التى تتحكم فى الفرد حين يشترى هذا أو لايشترى ذاك . ولهذا الخبير «ديتشر» عبارات أصبحت أقوالا مأثورة يهتدى بها التجار والمعلنون. فهو القائل مثلا : « انت لا تبيع للمرأة حذاء ، ولكن تبيع لها أملا فى قدمين جميلتين ! » . وفى معهد ديتشر هذا يعمل مئات من علماء النفس والباحثين والاخصائيين. ودستوره أن السلعة لا تباع لمجرد انها جيدة ، ولكن يجب أيضا أن « تلبى حاجة فى نفس الانسان وفى مشاعره أو فى غرائزه » ..

ويروى الكتاب بعض تجارب هذا المعهد والنتائج العجيبة التى حققها .

فى تجارة الويسكى مثلا : لقد وجد تجار الويسكى أن ٨٠ ٪ من الخمور يشربها مدمنو الخمر ، لا الشاربون العابرون ، ووجدوا أن المدمن يشرب الخمر لأن الخمر تعطيه شخصية أخرى غير الشخصية التى يعيش بها فى العادة . ولذلك تتحول شخصية المدمن تماما فى لحظة السكر . فبعض الاشخاص الهادئين جدا يصبحون عدوانيين ، وبعض الذين عرفوا بقلة الكلام يصبحون ثرثارين ، وهكذا ..

وأرادوا أن يكتشفوا « الشخصية الاخرى » التى يحن كل فرد اليها من خلال الخمر فكانوا يحضرون للفرد مثلا عشر صور لعشرة أشخاص . كل واحد من هؤلاء العشرة معروف للشركة جيدا ومعروف انه مريض بشىء معين .. شذوذ جنسى ، أو بارانويا ، أو هستيريا ، الى آخره . ويسألون « الزبون » اذا كان مسافرا فى قطار لمدة طويلة : من يختار من هؤلاء ليكون فى صحبته ؟..

ان الزبون فى هذه الحالة سيختار تلقائيا الشخص المصاب بالمرض الذى توجد ملامح خفيفة منه لدى الزبون ، دون ان يدرى بالطبع .

لماذا ؟ ..

لكى تنشر هذه الصورة فى اعلانات تغرى على المزيد من الشرب !

وبعض السلع يشتريها المستهلك لمجرد انها تقترن فى ذهنه بصورة معينة لمن يستهلكها ، وهو يريد أن يرى نفسه فى هذه الصورة ، وهذا ينطبق على أشياء غريبة ، من السجاير والسيارات الى محطات البنزين ..

فبالنسبة للسيارات مثلا ، ظهر من التحليل النفسى للجمهور أن الفرد العادى قلما يهتم بالجانب الميكانيكى للسيارة ، ولكنه يهتم بمنظرها وبما تمثله من صورة اجتماعية ، يرى أنها تعبر عن شخصيته ، أو يريد أن يظهر بها أمام الناس : « فالسيارة الكاديلاك يشتريها صاحب الذوق المبهرج ، الذى يريد أن يبهر الناس ، رجل الاعمال الذى يعقد الصفقات التى تقدر قيمتها بالملايين ، الرجل المتوسط العمر ، والسيارة «الفورد» يشتريها الرجل السريع الحركة ، العملى ، ابن الطبقة المتوسطة الناجح ، الشاب بوجه عام » . و « الستودى بيكر يشتريها المثقف ، الذى يريد أن يتميز بفرديته وأخلاقه عن الآخرين ، الشاب أيضا ، والبونتياك يشتريها رجل مستقر غير طموح ، أو رجل عادى يجد سعادته فى أن يكون كالآخرين ، أو امراة متزوجة ، أو أم ! » .

وقد اكتشف علماء النفس أيضا ان التاجر يستطيع ان يكسب الملايين اذا عرف كيف يستغل فى الناس مخاوفهم الكامنة ، وشعورهم بالذنب ، وقلقهم واحساسهم بالوحدة ، والتوتر العصبى الذى يشكون

منه ..

فتدخين السجاير مثلا عادة تقترن دائما باحساس مبهم بالذنب .. اما بسبب تحريمها على الفرد وهو صغير واما بسبب ما يقال من انها مضرة بالصحة أو انها تسبب هذا المرض أو ذاك ..

كانت شركات السجاير عادة ترسم فى اعلاناتها وجه رجل ينفث دخان السيجارة وقد ارتسمت على وجهه آيات السعادة والراحة والاطمئنان . وقال دكتورديتشر لمنتجي السجاير انهم مخطئون. ذلك انالمدخنين يعرفون جيدا انهم يحتاجون الى السيجارة حين يكونون تحت ضغط معين أو حالة اجهاد أو يصارعون ضد الزمن . وقال لهم ان تركيز الدعاية على ان السجاير غير ضارة سوف يقتل تجارة السجاير . وبعد أبحاث نفسية وتحاليل معقدة ارجعوا التدخين الى أسباب محددة منها : تهدئة الاعصاب ، والظهور بمظهر اجتماعى ، كتعويض عن التعب بعد مجهود شاق ، كمساعد على التفكير ، كدليل على الشجاعة والجراة ، كدليل على مشاركة الناس فى عاداتهم وعدم الخروج عنها. كما ظهر ان من الافراد من يشعل سيجارة حين يدخل حجرة ممتلئة بالناس لكى يبدو أقل توترا وقلقا ، أو ليخفى خجله ، أو ليبدو أكثر رفاهية واستعلاء ... وسجل البحث انالامريكيين بالذات يدخنونكثيرا لسبب رئيسى هو : أن يبرهنوا على أنهم ناضجون ، نشيطون ، أكفاء ! وانالشاب الصغير يدخن ليبدو أكبر من سنه ، والرجل العجوز يدخن لكى يبدو أصغر من سنه !

وباستغلالهذه التحليلات ، يمكن رسم صورالاعلانات عن هذه السيجارة ، ولكن بالطريقة التى تلبى فى نفس الجمهور الصورة التى يريد أن يراها لنفسه ، أو تلمس

الحاجة الكامنة فى عقله الباطن .

ويضرب الكتاب عشرات الامثلة عن عشرات من السلع، من اللبان الذى ساعد على ترويجه نشر حالة من الرعب من جراثيم الفم ، الى الحديد والالومنيوم والادوات الـكهربائية .

فأحد الجرارات الزراعية الممتازة لم يلق رواجا لأن مقعد السائق يبدو مكشوف الظهر وفى مكان ضعيف ازاء مقدم الجرار الضخم الثقيل ، الأمر الذى يشعر سائقه بعدم الأمن ، ولذلك بدأ يروج حين أمكن تلافى ذلك فى تصميم مكان السائق وتوزيع الثقل بين مقدم الجرار ومؤخرته ...

والطـائرات كان سر عدم الاقبال عليها ليس خوف الرجل من الموت ، ولكن خوف زوجته وأهله الذين لا يسافرون فأصبحت الاعلانات كلها ترسم صورة الزوجة تودع زوجها وهى باسمة مشرقة ، أو تضغط على فكرة ان الطائرة تعيد الزوج الى زوجته بسرعة أكثر .. الى آخر كل مايؤكد فكرة موافقة الزوجة ومشاركتها لزوجها الذى سيركب الطائرة ...

واقبال النـاس على الاقتراض من شركات الاقراض واعراضهم عن الاقتراض من البنوك ، سببه ان البنوك لها مهابة معينة . وان الفرد حين يذهب الى البنك ليقترض يكون كالطفل الذى ارتكب ذنبا وهو ذاهب الى أهله الذين سيعاقبونه وينظرون اليه شذرا .. فى حين انه يذهب الى شركات الاقراض بالربا الفاحش كالرجل الذى يذهب الى مكان سيىء السيرة . المكان هو الجدير بأن يخجل من الرجل !

وأحدى شركات معجون الاسنان استغلت شعور الناس بالذنب لأنهم لاينظفون أسنانهم بعد الأكلات الثلاث ،

وانما يستخدمون المعجون مرة واحدة فى اليوم ، فكسبت الشركه ملايين الجنيهات لمجرد أنها أضافت الى اعلاناتها كلمة : « هذا المعجون يفيد الذين لايجدون وقتا لدعك أسنانهم ثلاث مرات ! .. »

واحدى الشركات التى تطبع وتبيع بطاقات المعايدة ، وجدت من التحليل النفسي للزبائن ان أكثر الناس اقبالا على شراء بطاقات المعايدة فى المناسبات هم الذين يعانون من الشعور بالوحدة ، كالأرامل والمطلقات والذين يعملون فى أماكن بعيدة عن أهلهم ، فأصدرت أوامرها الى الرسامين الذين يرسمون لها البطاقات بأن يختاروا لرسومهم موضوعات تجذب أصحاب هذه النفسية بالذات ، كشجرة وحيدة فى جزيرة ، أو قمر حزين فى سماء زرقاء خالية !

ان القاعدة الذهبية فى فن البيع كما يقول الكتاب هى : انك لا تبيع السلعة نفسها فقط .. ولكنك تبيع المعنى الذى يرتبط بها فى ذهن المشترى ، وبقدر نجاحك فى استغلال هذا الضعف المعين فى نفس المشترى ، بقدر ما تنجح فى مضاعفة مبيعاتك ..

واهم « المعانى » التى تباع للناس هى :

● بيع الاحساس بالامن :

لقد وجدت شركات انتاج الثلاجات ان شراء الطعام ووضعه فى الثلاجة ثم استخدامه ليس عملا اقتصاديا ولا مبرر له . اذن فلا داعى للتركيز فى الاعلانات على الناحية الاقتصادية . ولكنها وجدت أن استخدام الفريجيدير قد زاد بشكل ساحق منذ الحرب العالمية الثانية وما حدث من قلق على ندرة الطعام واختفاء هذا الصنف أو ذاك ، واكتشفت أن الثلاجة فى البيت تعطى احساسا بأن الطعام موجود دائما فى البيت ، ووجود الطعام فى البيت يعطى احساسا بالامن ، والدفء ..

وان الذين لايشعرون بالامن يحتاجون الى أن يكون لديهم من الطعام أكثر مما يستهلكون بالفعل .

وتكييف الهواء يشتريه بعض الناس ليلبى فى نفوسهم رغبة فى العزلة ، والانطواء ، والبعد عن الناس ، بالاحتفاظ بالنوافذ مغلقة ، بل أحيانا يلبى فى الفرد حاجة خفية للعودة الى رحم الأم !

والادوات التى تباع لأنها تقول للفرد : « اصنع هذا وذاك بنفسك » قال ديتشر انه من الخطأ أن يتركز الاعلان عنها فى أنها توفر فلوسا .. انها تلبى لدى الفرد حاجة الى الانطواء والعزلة وعدم الاحتكاك بالناس .. فالفرد العاكف على آلة خاصة ، يصنع لبيته شيئا ، هو فى الواقع فرد ينعم لحظة بعالم مغلق خاص به ، انه متحرر من ضغط العلاقات الاجتماعية . انه مشغول بحوار هادىء مع نفسه ! ..

● بيع الاحساس بالاهمية :

فقد نصحت احدى مؤسسات التحليل النفسى لشركة من شركات الأدوية بالا تقول فى اعلاناتها ان هذا الدواء او ذاك يشفى المرض بسرعة وببساطة . لأن هذا يتحدى شعور الاطباء ، ويبدو كانه يحاول الغاء مهنتهم ، فمن الصعب أن يصفه طبيب لمرضاه ، اذ سيبدو أنه يكرر لهم ما يعرفونه مقدما من الاعلانات انما الاحسن أن يضغطوا فى الاعلان على فكرة أن استشارة الطبيب ضرورية أو انه يجب أن يستعمل تحت اشراف الطبيب. ان هذا يرد للطبيب شعوره بالاهمية وبأنه هو الذى يشفى المريض ، فلا يجد الطبيب حرجا من أن يصف الدواء لمرضاه .. وبالتالى يريد توزيع الدواء !

● بيع الاحساس بالخصوبة :

فالمرء يحب دائما أن يشعر بأنه خصب ، منتج ،

مثمر . لذلك لوحظ إن إثارة الاهتمام بالحدائق والزهور ينجح لدى النسـاء العجائز او الرجال الذين لا اولاد لهم فان العناية بحوض من الزهر كالعناية بطفل . كذلك لوحظ ان احساس المرأة حين تصنع كعكة لأسرتها يشبه احساسها بانجاب طفل . فالاعلانات التى تريد أن تبيع أنواع المواد اللازمة لصنع اصناف « التورتة » لا تحدث المرأة عن فوائدها الغذائية ، ولكنها تركز على منظر المراة الفخور التى ترتاح نفسيا لأنها خصبة ، مثمرة .

وبعض شركات الأغذية المحفوظة تقدمت فى الصناعة لدرجة انه لم يعد على ربة البيت أن تصنع أى شىء لتقديم كعكة مثلا اكثر من وضع كمية من الماء . ولـكن اكتشفت هذه الشركات أن المرأة لاتقبل على هذه الاصناف . وانها تريد أن تشترى شيئا يحتاج الى أن تضيف اليه ربة البيت اى شىء قبل أن يصبح صالحا للطعام . لأن هذا الشىء مهما كان بسيطا يعطيها الاحســاس بأنها ما زالت ربة البيت ، وأن صفاتها كامرأة هى التى أدت الى صنع هذا الشىء !

● بيع الحب :

كحالة المطرب « ليبراس » الذى كسب شهرة هائلة سريعة . لقد لوحظ انه معبود النسـاء اللواتى تخطين السن الصالحة للحمـل والانجاب . فكان التركيز فى تقديمه على هذه الناحية ، حتى لقد صففوا له شعر رأسه بشكل يجعله أقرب الى الاطفال ، حتى تشعر كل امرأة تعدت سن الانجاب أنها تود لو ربتت بيديها على وجنتيه !

● بيع الاحساس بالقوة :

وهو ما تريده شركات السيارات حين تصنع للسيارة ذيولا ضخمة ، وأطرافا من النيكل اللامع الشامخ ، لا فائدة لها الا انها تعطى لصاحبها احساسا بالقوة

● بيع الاحساس بالخلود :

فقد لوحظ فى الدعاية للتأمين على الحياة ، ان اقناع رب الأسرة بالتأمين على حياته خشية الموت المفاجىء لاينجح بقدر ما ينجح اقناعه عن طريق اثارة رغبته الكامنة فى أن يكون مؤثرا فى حياة أسرته حتى بعد وفاته على أساس ان هذا نوع من البقاء الذى يحن اليه الانسان

وليس غريبا أن يلتفت خبراء الاعلان بعد ذلك الى الجنس ، وما له من دور خطير فى الاغراء بالشراء ..

ومن أطرف الامثلة ما لاحظه باعة السيارات من أن الرجال يقبلون فى صالات عرض السيارات على مشاهدة السيارة المكشوفة والاعجاب بها الى أقصى حد ، ولكنهم يشترون بعد ذلك سيارات عادية غير مكشوفة .

وقال لهم دكتور ديتشر أن المسألة بسيطة جدا . ان السيارة المكشوفة تشبه العشيقة فى نظر الرجل . انها تعطيه جوا من المغامرة ، والشباب ، والمخاطرة ، والمتعة المسلوبة . وكما فعل قديما حين عرف أكثر من عشيقة ولكنه تزوج فتاة محتشمة ، فهو يفعل الآن نفس الشيء حين يعجب بالسيارة المكشوفة ثم يشترى سيارة عادية مقفلة ، انه يتزوجها ، انه يشعر انها اقل روعة وجاذبية واغراء ولكنها أكثر الفة وامنا واستقرارا واستكانة ! ولو أمكن صنع سيارة يمكن ان تكون مكشوفة ولكن لها سقف معدنى يمكن أن يركب فيها لكان هذا أشبه بالعثور على امرأة فيها مزايا الزوجة ومزايا العشيقة ! وبالفعل ، نفذت شركات السيارات هذه النصيحة وكانت أنجح أنواع السيارات لسنوات طويلة !

ولكن استغلال الجنس فى الاقناع بالشراء يبرز الى حد كبير ، الاعلان عن أدوات التجميل والملابس الداخلية للنساء .. الى آخره . وقد كانت النغمة أولا هى اقناع

المرأة بأن هذا الشيء أو ذاك هو الذى « يلفت اليها نظر الرجل الذى تريده » . .

ثم أصبحت هـذه نغمة قديمة . واكتشف خبراء التحليل النفسى ان المرأة يهمها فى الاعلان أن يؤكد لها أولا ان هذه السلعة تحفظ لها أنوثتها ـ أى يهمها أولا أن ترى هى نفسها جميلة .. ثم أن تبدو جميلة فى نظر النساء الأخريات .. وبعد ذلك يأتى الرجال فى المرتبة الثالثة من الاهمية .

فصورة امرأة معطرة بعطر معين وهى داخلة الى حفلة وقد نظرت اليها النساء الأخريات فى حسد .. تبيع أكثر من صورتها والرجال يتطلعون اليها فى اعجاب !

ويتساءل المؤلف بعد مائتى صفحة يسرد فيها عشرات الحالات : هل هذا النوع من « الاقناع الخفى » يعد عملا أخلاقيا .. أم انه عمل غير أخلاقى ؟

ويرد قائلا : « ان الاعلان لاشك خدمة كبيرة للبائع وللمشترى على السواء . ولايمكن أن نتصور الحياة الانتاجية والاستهلاكية الحديثة بدون اعلانات .. »

ولكن أين العنصر الأخلاقى فى اقناع ربة البيت بأن تشترى أشياء لاتلزمها ولا تؤدى الا الى افلاس زوجها ؟

أين العنصرالأخلاقى فى استغلال نقط ضعف الناس ، وفى البحث عن مشاعر الاحساس بالذنب والقلق والنقص فى نفوس الناس ، لا لعلاجها ، ولكن لتنميتها والنفوذ منها الى بيع مزيد من السلع ؟

أين العنصر الأخلاقى فى استغلال الغرائز الجنسية لرفع أرقام المبيعات ، ولو أدى الأمر الى تشويه هذه الغرائز ؟

أين العنصر الأخلاقى فى استنزاف موارد البلاد عن طريق اقناع المستهلك بأن ما لديه ردىء ويجب أن يلقيه

فى الزبالة ليشترى بدلا منه ؟

ثم يعقد المؤلف بعد ذلك فصلا مثيرا يسجل فيه كيف ان خبراء البيع عن هـذه الطرق قد دخلوا ميـدان السياسة .. واصـبحوا هم المسيطرين على الحملات الانتخابية.. وهم الذين اشرفوا على عمليات بيع كنيدى أو نيكسون أو ايزنهاور للناخبين !

ويقول : ان خبراء «الاقناع الخفى» يصنعون للانسان نفسا على هواهم : نفسا معبأة فى ربطة أنيقة ، كأية سلعة أخرى من السلع التى يصنعونها ويبيعونها !

ثورة الآمال الكبيرة

أعلن يوجين بلاك ، مدير البنك الدولى ، مولد مهنة جديدة !

أعلن ظهور « دبلوماسي التنمية » و « دبلوماسية التنمية » .. وهى مهنة تختلف عن مهنة الدبلوماسى السياسى كما عرفها العالم قبل ذلك ..

قال يوجين بلاك فى كتاب أصدره : « ان العالم قد عرف السياسى الذى لاينظر الا الى الاعتبارات السياسية .. كما عرف التاجر والمستثمر اللذين لايعرفان الا التجارة والربح والخسارة أى لايعرفان الا الاعتبارات الاقتصادية المحضة .. ولكن بين الاثنين فجوة واسعة ظهرت الآن ليملأها نوع جديد هو « الدبلوماسى الاقتصادى » .. أو « دبلوماسى التنمية » ! .. »

أعلن يوجين بلاك هذا فى كتاب اسمه « دبلوماسية التنمية الاقتصادية » ..

والذى أوحى له بتأليفه ، بالطبع ، هو منصبه كمدير للبنك الدولى ، والتجربة التى أضاءت له الفكرة تجربتان :

الاولى — الدور الذى قام به بعد حرب السويس ، مع الجمهورية العربية المتحدة ، لتصفية الآثار الاقتصادية للمشكلة .

والثانية — الدور الذى قام به لحل الخلاف بين الهند

وباكستان حول استغلال نهر السند .

يقول يوجين بلاك ان هذه « الدبلوماسية الاقتصادية» الجديدة هي التي تصنع أكبر الانباء في هذا العصر .. وان كانت هذه الانباء ليست من النوع الذى تنشره الصحف في صفحاتها الاولى .

ويطالب يوجين بلاك بأن يكون لهذه الدبلوماسية كيان قائم بذاته مستقل عن الجهاز الدبلوماسى السياسى المعروف ..

يقول يوجين بلاك ان دبلوماسية التنمية الاقتصادية هى فن تحقيق التنمية باقل قدر ممكن من الصراع . ذلك ان كل تطوير اقتصادى ينطوى حتما على تغيير اجتماعى . والتغيير لا يتم بسهولة . ومن هنا كانت التنمية مهمة دقيقة وخطيرة .

ويقول يوجين بلاك ان الناس في البلاد الفقيرة بدأوا يرفضون الاعتراف بأن فقرهم حظ لامفر منه ، ويؤمنون أن الانسان يستطيع أن يسيطر على حياته ويغيرها . وقد وجد هذا التغييرالشعبى قادة يعبرونعنه ، وزعماء يريدون أن يحققوا لشعوبهم في أجيال قليلة كلما وصلت اليه الحضارة عبر قرون طويلة . ويطلق يوجين بلاك على هذا اسم : ثورة الآمال الكبيرة !

ودبلوماسية التنمية الاقتصادية عليها أن تواجه هذه الآمال المتحمسة ، فالدبلوماسية السياسية منذ قرون تعرف عملية « توازن القوى » .. أما الدبلوماسية الاقتصادية فعليها أن تواجه عملية جديدة يمكن أن تسمى « توازن الآمال » .. اى : كيف تكون للبلاد المتخلفة اقتصاديا آمال متوازنة .

ويركز يوجين بلاك موقف البلاد الناشئة فيأنمشكلتها الكبرى هى الفقر وازدياد عدد السكان . وهذه الزيادة

فى السكان قضت على الأمل التقليدى للمواطن فى تلك البلاد ، وهو امتلاك قطعة خاصة به من الارض ، لأن الارض لا تكفى. فنحن هنا نواجه حالة «انهيار» الآمال القديمة » . وهذا الفلاح نفسه اذا اضطر للهجرة الى المدينة فانه يحس ـ أول الأمر على الاقل ـ بالضياع وعدم الأمن ازاء هذا الشكل الجديد للحياة والعمل والعلاقات .

اما الآمال الجديدة فهى فى الواقع مركزة فى الاقليــة المتعلمة . ويعتقد يوجين بلاك ان الاقلية المتعلمة هى أبرز عوامل الخطر فى البلاد المتخلفة اقتصاديا . انها تواجه أزمة نفسيةحادة. فالثقافة أعطتها من الآمال والاحساسات أكثر مما قدمت لها من فرص مادية لتحقيق هذه الآمال. الطبيب الذى يعرف ماذا يستطيع الطب أن يصنع من معجزات ، ولكنه لا يجد الادوات . المهندس الذى لايجد المصانع، المدرس الذى لايجد المدارس، والكاتب السياسى الذى لايجد الأتباع الذين يفهمون حقا ما يريد أن يصنعه من أجلهم .

هذه الفئات المرهقة نفسيا ، التى قادت ثورات التحرر الوطنى فى البلاد المتخلفة . وهى التى عليها الآن مهمة اعداد بلادها لنظم اقتصادية حديثة .

ان يوجين بلاك يعتقد ان الزعماء فى تلك البلاد يواجهون مهمة من أقسى وأصعب ما واجه الزعماء من مهمات فى جميع مراحل التاريخ !

انهم يعرفون أن شعوبهم لابد أن تضحى ، لكى تتخلص من فقرها وتخلفها .

والسؤال الخطير هو : هل يستطيع مجتمع فقير أن يتطور ، دون أن يضطر الى الأخذ بنظم قاسية ، أو غير عادلة ؟ ..

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب وعنوانه «دبلوماسية المساعدات الاقتصادية » يبدو يوجين بلاك أكثر فهما لمشاكل البلاد الناشئة من كثير من المفكرين الاقتصاديين فى الغرب .

فهو يعترف بالدور القيادى الذى يجب أن تقوم به « الدولة » فى عملية التنمية الاقتصادية .. ولا يتشبث بفكرة اعطاء كل شىء للاقتصاد الفردى كما يطالب عادة الاقتصاديون الرأسماليون .

وهو يعترف بأهمية أسلوب « التخطيط » فى انهاض البلاد الناشئة .. بل ويطالب بالتخطيط كسلاح أساسى فى هذه المعركة .. فالتنمية الاقتصادية ليست مجرد اقامة سلسلة من المشروعات. بل لابد ان تكون هذه المشروعات داخلة فى اطار خطة عامة اقتصادية .. وهذه الخطة الاقتصادية لابد أن تكون جزءا من السياسة القومية للبلاد .

وهو يطلق على التخطيط تعريفا طريفا فيقول : التخطيط معناه أن يعرف السياسى نتائج القرار الذى يتخذه قبل أن يتخذ هذا القرار ، وليس بعد ذلك . والتخطيط معناه ايجاد صلة وتجارب مستمر بين الذين يتخذون قرارات الخطة ، والذين يتولون تنفيذها ..

وهو بعد ذلك يحذر بشدة من وضع خطة شاملة بشكل أكاديمى على أساس ما يتمناه الناس ، لا على أساس الحقائق . لأن مثل هذه الخطة غير الواقعية ، اذ تصبح قانونا للبلاد ، قد تؤدى الى عواقب وخيمة .

ولكن يوجين بلاك ــ وهو يسجل اهمية دور الدولة وأهمية أسلوب التخطيط ــ يقول : ان الأخذ بهذا الاسلوب لايحتاج الى عقيدة معينة أى « ايديولوجية »

معينة . فهو يعترف بهذه الاساليب ، لأسباب عملية محضة .

والمعنى من هذا الكلام واضح .. فهو يريد أن يستبعد أى فكرة اشتراكية من الموضوع . انه ، كمؤمن بالنظام الاقتصادى الغربى ، يعترف بدور الدولة وبأسلوب التخطيط ، ولكنه يرفض أن تكون هذه الاساليب جزءا من عقيدة اشتراكية . انه يرفض فكرة ان الاشتراكية قد تكون أكثر فهما لمشاكل الدول الناشئة وأكثر ملاءمة للنهوض بها . فهو يرفض فى الواقع أن يوجد أسلوب آخر للحياة غير الاسلوب الغربى ، ولكنه يقبل الأخذ باجراءات استثنائية لفترة مؤقتة ، تعود بعدها الحياة الى شكلها الطبيعى ، أى شكلها الغربى .

انه لا يقول هذا طبعا ، ولكن هذا هو المعنى النفسى الكامن فى الكتاب .

ولذلك فهو يستبعد من الموضوع كله أى لون عقائدى . ويقول : ان الاعتراف بدور الدولة القيادى فى التنمية وبضرورة التخطيط الشامل ، لايحتاج الى عقيدة معينة

فهو يحاول اقامة «جسر» بين هذه الاتجاهات وبين الدول الراسمالية .. بدلا من أن يقوم جسر آخر بينها وبين الاشتراكية .

وليس هذا استنتاجا محضا . فالمؤلف نفسه ، فى الصفحات الاولى من الكتاب ، يذكر هذا البحث لروستو بالتقدير الكبير ..

ثم يعود يوجين بلاك الى اظهار تقديره للصعوبات الجمة التى تواجه البلاد الناشئة ، فى هذا المجال .. فيقول فى صفحات بليغة ان عملية التنمية تصطدم كل يوم وكل ساعة باعتبارات كثيرة .

فهناك صراع دائم بين مطالب التنمية ، وبين مطالب الناس

العادية ورفاهيتهم .

وهناك صراع دائم بين مطالب التنمية وبين مطالب الامن والدفاع الوطنى .

وهناك صراع بين مطالب التنميـــة وبين الرغبة فى تشغيل أكبر عدد .

كل هذه الانواع من الصراع تواجهها خطة التنمية ، كل لحظة يواجه المسئول عنها موقفا يحتاج الى اختيار .. والقاعدة ان اى انفاق فى اى شىء آخر ، يعد ضارا بمصلحة التنمية ، وبالتالى يؤجل حل مشكلة الفقر . ولكن الزعيم السياسى لايستطيع ان يلغى كل شىء فى سبيل التنمية فحسب .. ان عليه أن يوائم بين أشياء كثيرة .. بين مصالح البلاد السياسية ، وظروفهـــا الدفاعية ، ورغبات الناس العادية ، واتجاهات الفئات المحافظة التى لا تتلاءم بسرعة ، وعشرات أخرى من الظروف .

ويقول يوجين بلاك ان «دبلوماسى التنمية الاقتصادية» يجب أن يعترف بأهمية هذه الظروف كلها ويدركها . فلا يمتحن كل شىء على ضوء الربح والخسارة فقط .

ونقطة الخلاف الاساسية مع يوجين بلاك هي انه بعد ان يسرد فى فهم دقيق كل ظروف البلاد الناشئة .. لايصل الى النتيجة المنطقية لذلك وهى : أهمية العقيدة فى الموضوع . فبغير العقيدة فى الواقع لايمكن ربط هذه الاشياء كلها فى حركة متناسقة مندفعة الى الامام .

وقد ركز يوجين بلاك حديثه على ناحية رفع الانتاج ، ولم يشر بشىء الى عدالة التوزيع . وقد يقال ان هذا موضوع خارج من اختصاصه كمدير بنك لا شأن له بالسياسة الداخلية لأى بلد ولكن اذا كان المجال مجال دراسة لوجهة نظر متكاملة .. فلا بد من القول بأن عملية

رفع الانتاج لابد أن يراعى فيها «اعادة التوزيع» تدريجا. وهذا فى الواقع هو أهم ما أراد يوجين بلاك أن يستبعده من دراسته ، وهو من أهم ما نؤمن بضرورة وجوده فى أى خطة اقتصادية للتنمية .

فالمجتمع لايمكن أن تقوده فى تطلعه الى المستقبل مهمة اقتصادية فقط، انما لابد أن تقترن هذه المهمة الاقتصادية بمهمات أخرى معنوية ، وأن تكتسب صفات اخرى كالعدالة ، والتحرر الاجتماعى ، والكبرياء القومى ، والمساواة ، أى لابد أن تقود الشعب عقيدة شاملة على نحو ما ، تشعره أنه يغير «نوع» حياته ذاتها ، لا كمية طعامه وكساءه فقط . وبغير ذلك نكون قد اقتصرنا فى التنمية على جانب اقتصادى تجارى بحت ، ونكون قد وقعنا فى الغلطة التى وضع يوجين بلاك كتابه لكى يحذرنا منها !

١ ـ العقل اليمينى يفكر

المحنة التى تواجهها الاشتراكية

الاهمية الخاصة للمقال الذى أريد ان أعلق عليه هو انه يلخص فى تركيز شديد ، أهم مايردده خصوم الثورة وخصوم الاشتراكية على المستوى العالمى ..

يقول « سرفان شرايبر » الكاتب السياسى الفرنسى المعروف ما معناه انه يعلن موت الثورات ، وموت الاشتراكية ، فى العالم ، يقول ان الاشتراكية قد هزت العالم اكثر مما هزه أى شىء آخر خلال الخمسين سنة الاخيرة . ولكن الآمال التى كانت معقودة على الاشتراكية قد تبخرت . روسيا باقتصادها المخطط لم تلحق بأمريكا ذات الاقتصاد الحر . شرق أوروبا ما زال يناضل لرفع مستواه وغرب أوروبا غارق فى الرخاء . وقد بدا له أن الثورة والاشتراكية ربما تكون حلا ملائما للدول المتخلفة النامية .. ولكن ها هى ذى كوبا والجزائر وغينيا تقاسى الوانا من المتاعب . أما الذى جعله يعلن هذه النتيجة فهو مايحدث هذه الايام فى الصين . فبعد آمال جديدة فى مساواة لا مثيل لها ، وجيش بلا رتب عسكرية ، وما الى ذلك ، تحول الأمر الى ما يشبه الحرب الاهلية صراعا على السلطة « ان أحفاد فورد وروكفلر ـ يقول الكاتب ـ ينعمون بالرخاء والنجاح فى حين أن تلاميذ ماركس ولينين وتروتسكى يتناحرون فى كل مكان ! » .

وهكذا انتهت الثورة العالمية. وانتهت أحلام الاشتراكية. العصر الحالى لم يعد عصر الملاحم المثيرة ، ولكنه عصر العقول الحاسبة والتنظيم العلمي للعمل .

ولو كان هذا الخلط الشديد موجودا فى ذهن الكاتب الشهير وحده لما كان للأمر أهمية . ولكن هذا الخلط نموذج لما يختلط فى الذهن الاوروبى الغربى بوجه خاص وفى الذهن « البورجوازى » العالمى بوجه عام ..

الذهن البورجوازى الاوروبى لايرى على الارض الا مدرسة ثورية واحدة هى الماركسية اللينينية ، ويعتبر كل شيء آخر متفرعا عنها ، ناسيا ان الينابيع التى تفجر الثورات هذه الايام كثيرة ، وان التراث الثقافى والفكرى للثائرين متنوع .. فهناك ما يجمعهم وهناك ما يفرق بينهم .

والذهن البورجوازى ـ الاوروبى والعـــالمى ـ يجد اوروبا الغربية غارقة فى الثراء والرخاء ، ويرى باقى النظم والبلاد ليست على هذا المستوى ، فيرى فى هذا أقوى حجة لمصلحة النظام الرأسمالى ..

ولــكن ..

ما هو عمر « الاستقلال » فى آسيا وافريقيا ؟.. عمره ـ فى المتوسط ـ عشر سنوات !

ما هو عمر « الوجود الاوروبى » فى آسيا وافريقيا قبل ذلك ؟.. عمره ـ فى المتوسط ـ مائتا سنة !

ماذا استفادت آسيا وافريقيا من «الوجود الاوروبى» فيهما خلال مائتى سنة ، وماذا استفادت من الاستقلال ـ وأحيانا الاستقلال النسبى فقط ـ خلال عشر سنوات؟

أوروبا تركت الجزائر والكونغو وغيرهما وليس فيها عشرة أطباء ، ولا جامعة واحدة ، ولا عشرة محاسبين اقتصاديين . تركتها هكذا بعد وجود يزيد على القرن..

ثم يجيء الخواجه شرايبر فيتساءل عما صنعته الجزائر وكوبا والكونغو وغيرها بعد سنوات من الاستقلال لا تبلغ العشر سنوات . بعد فترة لا تكفى لأن يدخل الطفل المدرسة الابتدائية ويتخرج ويصبح فنيا نافعا لبلده .. طبيبا أو مهندسا أو محاسبا ..

وهذا الوجود الاوروبى الذى دام - فى المتوسط - مائتى سنة فى آسيا وافريقيا .. وكان مأساة بالنسبة لآسيا وافريقيا .. هو نفسه الذى كان خيرا وبركة على غرب أوروبا . فنهب ثروات الهند والصين والشرق العربى وافريقيا لحساب أوروبا قصة لا تحتاج الى تكرار .. ولا تحتاج الى تذكير .. لأن الكثير منها مازال قائما الى اليوم !

الغرب نهب من آسيا وافريقيا كل شىء وتاجر فى كل شىء ، تاجر حتى فى البشر ، حين شحن ملايين الزنوج فى تجارة بشعة واسعة الى مزارعه فى أمريكا. وأفسد حتى شن حربا رسمية ضد الصين لارغامها على اباحة تجارة الافيون فى الصين .. الافيون الذى خدر الصين مايقرب من قرن باكمله.. بنيت بأرباحه الآلات والمصانع والسفن والجامعات فى انجلترا وغيرها . واذا كان هذان النموذجان - العبيد والافيون - لهما صفة اخلاقية أبشع من صفتهما التجارية ، فلمجرد التدليل على ان الغرب لم يقف عند أى شىء فى سبيل امتصاص أكبر قدر من الثروات من آسيا وافريقيا .. وترك أكبر قدر من الفقر والتخلف فيهما .

لا مقارنة اذن بين بلاد عرفت المصانع والجامعات والانسيكلوبيديا والبارود منذ مئات السنين .. وبلاد عشعش فيها الظلام هذه المئات من السنين ، وبسبب فعل فاعل هو هذه البلاد المتقدمة ذات المصانع والجامعات

والانسيكلوبيديا ! والنموذج حاضر فى مصر ذاتها ــ وان لم يذكرها الكاتب فى مقاله ــ فالانجليز عندما احتلوا مصر سنة ١٨٨٢ كان أول ما عملوه أن فكوا كل ما كان لدينا من صناعات بازغة.. صناعات الاسلحة والاقمشة والسفن والزجاج وغيرها وباعوها خردة ..

قبل مائة سنة كانت مصر ــ سياسيا ــ فيها أحزاب تطالب بالدستور والديمقراطيـــة واتاحة الفرص أمام المصريين .. متقدمة بذلك على بلاد فى أوروبا لم تكن قد عرفت ذلك بعد . وكانت فيها صناعات بازغة لم تكن بعض بلاد أوروبا تجاريها بعد. ولكن عجلة الدول الكبرى الممثلة ذلك الحين فى انجلترا ، داست هــذا وتعمدت تحطيمه وتدميره حتى يتحقق ما قاله كرومر فى زهو : « اختفت كل الصناعات المصرية من الدكاكين التى امتلات بالسلع الواردة من أوروبا » .

يتحدث الكاتب الفرنسى عن فشل «الثورة» بمعناها الواسع العالمى ، بعد أن هزت العالم واربكته خمسين سنة .. لأن الدول التى قامت فيها هذه الثورات لم تصبح بعد مثل فرنسا وانجلترا وامريكا . يكفى أن هذه الخمسين سنة اسقطت معظم أبنيـــة الاستعمار التى أقامها الغرب عبر مئات طويلة من السنين ! أما قضية تركة التخلف وتحويل العجلة فى اتجاه التقدم. وتحقيق المستوى العالمي من التعليم والتصنيع التكنولوجى فهذا أمر يستغـــرق أجيالا طويلة مهما كان نوع النظـــام الاجتماعى .. « أولا » لأنه صعب وقد استغرق فى الغرب نفسه قرونا . و « ثانيا » لأن الغرب ما زال من وجوه كثيرة يقاوم هذا التطور نفسه . وها نحن نرى الكونغو مثلا تحاول بكل بؤسها وتعاستها أن تستخلص ثروتها الوطنية لتنفق منها على نفسها فى وجه مؤامرات

هائلة من الاذكياء الاغنياء الاقوياء المترفين !

هذا هو الخلط الاول الذى يردده العقل البورجوازى العالمى والمحلى ، حين يعقد مقارنة لا تتوفر أسبابها من الاساس . يعنى الثورة الوطنية العالمية الى الناس ، بطريقة يصبح لا بديل معها الا العودة الى الاذعان للغرب! كأن مئات السنين الماضية بنتائجها المخربة ليست درسا كافيا !

الخلط الاول خاص بالمستوى المادى ، أما الخلط الثانى الذى يردده العقل البورجوازى العالمى ، فهو عن الاستقرار . انظروا الى الاضطرابات والانقلابات والقلق فى العالم الثالث .. وانظروا الى الاستقرار فى أوروبا وامريكا .

نعم.. تعالوا ننظر الى الاستقرار فى أوروبا وأمريكا. سنفترض — لكى يسهل التركيز على نقطة الاستقرار — ان دول غرب أوروبا مثلا قد وصلت الى نوع مستقر من النظام السياسي والاجتماعى والاقتصادى متشابه بين شتى دولها .. وان علاقاتها كدول قد استقرت بحيث لم يعد مجال لقيام حروب أو اصطدامات أساسية وهى مؤامرات متبادلة.. وانها توشك أن تحقق مرحلة أخرى من النضج وهى السوق المشتركة وربما الوحدة الاوروبية

ولكن .. عبر أى طريق وصلت أوروبا الغربية الى هذه المرحلة من الاستقرار ؟ ..

اذا كان تاريخ النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الاوروبى الحالى قد بدأ بالثورة الصناعية والثورات البورجوازية كالثورة الفرنسية ونظائرها .. فهذان القرنان تقريبا قد شهدا فى أوروبا عددا من الانقلابات والثورات والحروب المحلية والعالمية ، لم يعرف العالم

لها مثيلا فى عشرة قرون مجتمعة فى أى حقبة من تاريخه الطويل ..

كم مرة دخلت جيوش الفرنسيين المانيا وكم مرة داست جيوش الالمان باريس .. كم من ثورة وكم من انقلاب ودستور وكم من ملكية وكم من جمهورية عاشتها فرنسا فى مائة سنة فحسب ؟ كم مرة توالت النظم بين ديمقراطية مطلقة وديمقراطية موجهة ونازية وفاشية ودكتاتورية عسكرية وراسمالية مطلقة وراسمالية مقيدة .. على فرنسا والمانيا وايطاليا ؟.. كم مرة نزلت جيوش انجلترا أرض القارة وكم مرة قاطعت القارة انجلترا او حاصرتها اقتصاديا أو دمرتها بالقنابل ؟.. كم مرة انفجر القتال فى الشوارع وشكلت فرق الاعدام وافلست البنوك وجاع العمال واحترقت المدن ؟.. كم مرة تمخضت احشاء أوروبا عن مذاهب وحركات عنصرية وراسمالية وشيوعية واشتراكية ودينية والحادية وفوضوية حتى تلخص قليل من هذه التيارات فى قليل من المؤسسات السياسية المستقرة نسبيا ؟ خاضت أوروبا غمار هذا كله ، قبل أن تعرف درجة الاستقرار الحضارى التى تتباهى بها اليوم . كان هذا هو المخاض الذى تحملته أوروبا والذى لابد أن يتحمله أى كيان حضارى فى مرحلة النمو والتطور . والبحث عن الذات قبل الرسو عند شاطىء الهيكل القابل للاستمرار والاستقرار حقبة تاريخية من الزمن ..

ان ما يحدث فى الصين اليوم .. بصرف النظر تماما عن معناه ومغزاه والمذهب الذى يدور حوله الصراع .. ما يحدث فى الصين ذات السبعمائة وخمسين مليونا اليوم لايختلف عن التقلصات الداخلية التى حدثت فى مرحلة النمو الحضارى ـ فى اطار النظام الراسمالى تلك

المرة ـ فى المانيا وفرنسا وايطاليا فى هذا القرن او القرن السابق عليه .. الم تعرف أمريكا مثلا حربا أهلية طاحنة فى احدى مراحل نموها الحضارى بعد الاستقلال .. ما زالت آثارها باقية فى ولايات الجنوب حتى اليوم ؟.. الم يكن الصراع بين نظام الحزب الواحـــد والاحزاب المتعددة دائرا فى أوروبا منذ قرن فقط .. وتخضبت اوروبا بسببه بالدماء فى اسبانيا ثم فى ايطاليا ثم فى المانيا .. فضلا عن الاصطدامات داخل كل دول القارة حتى وصل الأمر الى الحرب العالمية الثانية ؟ الم تكن الحرب العالمية الثانية صراعا على ترتيب بيت الرأسمالية على مستوى أوروبا وعلى العالم .. انتهى ببدء افلات العالم من قبضة أوروبا ؟ ..

حوادث الصـــين الراهنة لاشك مخاض هائل . قد يكون تطورا وقد يكون مأساة . لا أحد يعرف بعد. ولكن أى فرق بين الظروف الحضارية للصين اليوم والصـــين التى كانت نائمة تحت أقدام الغرب قبل نصف قرن ؟ أى فرق بين الصين ذات الأفيون وبيع الاطفال واقتناء الجوارى والاحتلال من عدة دول والمذابح اليابانية والهوان العميق.. من صين اليوم التى تربض كالتنين الهائل يرهبه الاصدقاء والاعداء على السواء ؟ ..

ولكن ... أين مكان « الاشتراكية » من هذا الجدل كله ؟ ..

هذا هو الخلط الثالث المقصود ، الذى يردده «العقل البورجوازى» فى كل مكان ، والذى عبر عنه « سيرفان شرايبر » فى مقاله الذى اثار هذا التعليق ..

فالكاتب الفرنسى الذى يعبر عن العقل البورجوازى المعاصر، عندما يضرب الأمثلة بالبلاد التى تواجه صعوبات، لايختار أى نموذج فى بلاد العالم الثالث فحسب ، تلك

البلاد التي تشترك فى تركة التخلف وفى مخاض البحث عن صورة مستقرة ، ولكنه يختار بالتحديد البلاد ذات التجارب الاشتراكية أو ذات التجارب الشيوعية.. فهو يذكر الصين مثلا فى آسيا ولا يذكر تايلاند . وهو يذكر كوبا ولا يذكر سلفادور ونيكاراجوا وكورستاريكا وكولومبيا . وهو يذكر غينيا ولا يذكر ساحل العاج أو داهومى . ويذكر الجزائر ولا يذكر السعودية . ولا قياس طبعا بين حالة الاغلبية الساحقة من الشعب فى البلاد من النوع الاول وبينها فى البلاد من النوع الثانى .

هذا فى حين ان الانقلابات فى البلاد ذات النظم الثورية كما يسميها لا تزيد على الانقلابات فى أمريكا الجنوبية ، جنة الراسمالية الغربية والامريكية بالذات ، مع فارق طبعا هو ان البلاد فى النوع الاول ربما تحاول عبر الانقلابات أن تبحث عن شيء ، بعكس انقلابات البلاد من النوع الثانى التى تقع عادة بين نوع واحد من الجنرالات الذين يشتريهم راس المال الاجنبى .

ويتفرع عن هذا الخلط ان الكاتب يفترض ان فى العالم نوعين فقط من النظم : مجتمع رأسمالى ومجتمع غير راسمالى ، تارة يسميه شيوعيا وتارة يسميه اشتراكيا. هذا فى حين ان عالم اليوم فيه أشكال وانواع من النظم. فهناك الرأسمالية المطلقة . وهناك الرأسمالية المطعمة بخدمات كبيرة ماخوذة من الفكر الاشتراكى . وهناك الشيوعية . وهناك الاشتراكية . بل ان هناك اليوم أكثر من نوع من الشيوعية وأكثر من نوع من الاشتراكية . ثم هناك نظم ما زالت اقطاعية ونظم ما زالت قبائلية .

والكاتب المعبر عن العقل البورجوازى يحاكم النظم الاشتراكية والثورية بأضعف تجاربها ، أى انه يريد أن يجمع كل مايواجه هذه النظم من مشاكل وعقبات وأخطاء

ومتناقضات ويضعها كلها على راس كل دولة على حدة.
ويرجع الكاتب الى « معدل النمو » مقياسا يقيس به كل شيء ...
ومعدل النمو الاقتصادي مقياس هام ، ولاشك ، ولكن كيف نستعمله استعمالا صحيحا ؟ ..
حين نستخدمه فى المقارنة يجب أن نقارن بين بلاد تتفق فى ظروفها الحضارية، وتاريخ تحررها من الاستعمار ومستواها الحضارى العام ، وثرواتها الطبيعية المتاحة.
فى هذا الاطار يمكن استخدام معدل النمو للمقارنة بين نظام ونظام . اما أن نقارن هكذا خبط عشواء بين المانيا والهند أو بين أمريكا وبلغاريا ، فهو خلط آخر يمارسه العقل البورجوازى عن تعمد وقصد لأن هذا هو بيت القصيد فى كل الدعايات البورجوازية .

اذن.. فالمحنة التى تواجه الاشتراكية ، والتى يذرف الكاتب الدموع عليها كاشتراكى سابق ، لا وجود لها ..
ليست محنة .. ان الثورية والاشتراكية هزتا العالم خلال خمسين سنة وحررتا أو كادتا تحرران آسيا وافريقيا كلها . ومهما كانت شطحات بعض الدول التى تحررت وانزلاق بعض الثورات أو تعصبها أوانكفاؤها ، فقد كان لابد أن تستقل هذه البلاد أولا ، ثم تبدأ التجربة والخطأ ..
ليست محنة .. ان العالم الثالث يتقدم ويقع ويتعثر وينهض من جديد . ذلك ان العالم الثالث يعلم جيدا انه يصعد جبلا شاهقا حافلا بالمزالق والمهالك .. ولكن لا مفر من صعوده ..

ليست محنة ان العالم الغنى المترف لايدرك بعد مسئوليته ازاء العالم الثالث ويتصرف فى معظم الظروف محاولا الضغط عليه وابقاءه فى مكانه .. فالعالم الثالث

الذى كسب استقلاله سوف يكسب سائر معاركه وفى مقدمتهـــا ايجاد منطق عادل لتوزيع الثراء بين العالم بأكمله ..

ولكن ، اذا كان هذا كله ليس محنة بالمعنى الذى يذهب اليه العقل البورجوازى.. واذا كان الذى يعنينا فى الدرجة الاولى من شتى انواع النظم والمذاهب هو النظام الاشتراكى بالذات ... فما الذى يواجهه اليوم حقا ؟ ..

هل تواجهه محنة ما ؟ .. أم تواجهه تحديات هامة ؟ سؤال .. سنحاول الاجابة عليه فى المقالين التاليين ..

هل الإشتراكية تنتقل من الرأسمالية .. أم العكس؟

كتبت فى الفصل السابق عن « العقل اليمينى » وكيف يفكر فيما يسميه بالمحنة التى تواجهها الاشتراكية .. واستعرضت الالوان الثلاثة من المغالطات الكبيرة التى يروجها العقل اليمينى ..

وكان المفروض أن يكون الفصل الثانى عن « العقل اليسارى » وكيف يفكر فى « التحديات » التى تواجه الاشتراكية . فهناك ولاشك مشاكل وتحديات تواجه الاشتراكية ، وان كانت غير ما يتحدث عنه « العقل اليمينى » .

ولكننى استأذن القارىء فى أن استكمل فى هذا الفصل الحديث عن تفكير العقل اليمينى ..

فبعد الافكار الثلاثة التى ذكرتها فى الفصل السابق التى يروجها العقل اليمينى بوجه عام .. هناك فكرة رابعة يروجها ويرددها العقل اليمينى بنفس الاصرار والتكرار تحتاج الى وقفة خاصة بها ..

يقول العقل اليمينى : انظروا ! هؤلاء هم الاشتراكيون فى كل مكان يستعيرون من النظام الراسمالى ! هذا ليبرمان فى روسيا يدعو الى اللامركزية فى الانتاج والى قدر من المنافسة ، هذه يوغوسلافيا تعترف بقوانين العرض والطلب فى السوق ، هؤلاء هم الاشتراكيون

يتحدثون عن تشجيع الحافز الفردي .

وهم يستنتجون من هـذا ان الافكار الاشـتراكية تنقرض ، وان موجتها تنحسر ، وان الدنيا عائدة يوما الى « الشكل الطبيعى » العادي ، الشـكل الفردى الراسمالى ..

والآن لننظر الى هذه القضية التى يروج لها العقل اليمينى بنشاط ، ونتأملها جيدا ..

الاشتراكية والرأسمالية ، فى هذه المرحلة المتغيرة من حياة العالم ، أى نظام منهما يستعير من الآخر ويبحث لديه عن اكسير الحياة ؟ ..

هناك أسس واحـدة للفكر الاشتراكى ولـكن هناك تطبيقات كثيرة لها ، ومرة أخرى نفرق هنا بين تطبيقات «ماركسية لينينية ستالينية» أعلنت الشيوعية هدفا لها، وبين تطبيقات اشتراكية مختلفة عنها ، هى التى نؤمن بها ونتحدث هنا عنها .

هذه الافكار الاساسية فى الاشتراكية هى :

١ ــ الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع الاساسية

٢ ــ القضاء على الاستغلال ، والمعنى العام النظرى للاستغلال هو أن يحصل فرد على ايراد مصدره عمل فرد آخر .

٣ ــ الاخذ بنظـام التخطيـط فى توجيه الاستثمار القومى .

٤ ــ سياسة ديموقراطية فى الخدمات ، تكفل للمواطن تكافؤ الفرصة فى العمل والعلاج والتعليم والترفيه وما الى ذلك .

هذه المبادىء الاساسية ، لايوجد اى فكر أو نظـام اشتراكى ألا ويعترف بها .. سواء طبقها كلها ، أو بدأ فى تطبيقها ، أو وضعها فى برنامجه الى أن يتمكن من

تطبيقها .. كالاحزاب الاشتراكية فى غرب اوروبا ذاتها.

ما هى حدود الملكية العامة ؟ ما هى درجة استئصال صور الاستغلال ؟ ما هو نطاق التخطيط ؟.. هنا ندخل فى دائرة القضايا النسبية لا المبدئية ، هنا تختلف تجربة عن تجربة وتختلف ظروف عن ظروف .

وهناك بالطبع الحرفيون الجامدون الذين يطبقون هذه المبادىء على اطلاقها والى آخر حدودها مهما كان الثمن وبصرف النظر عن كافة الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية ، ويعتبرون أى شىء غير ذلك انحرافا عن الاشتراكية .

وهناك آخرون ـ نحن منهم ـ يرون ان المبدأ الاساسى شىء ودرجة تطبيقه وتوقيته وظروفه شىء آخر. لأننا نعتقد ان المبادىء تخدم الواقع وليس العكس .

المهم .. انه فى مجال التنازل عن الافكار الاشتراكية والنقل عن الرأسمالية .. نجد انه لايوجد اشتراكى واحد ينفى التزامه بهذه الافكار الثلاثة الاساسية أو يتحلل منها .

أما سائر التفاصيل .. كايجاد درجة من المنافسة بين مؤسسات الملكية العامة ، والاعتراف بوجود سوق تؤثر على الاسعار بشكل أو بآخر .. وتنشيط الحافز الفردى .. فهذه أشياء لاينكرها الفكر الاشتراكى السليم طالما بقيت فى اطار الاشتراكية .

فالحافز الفردى فى نظام اشتراكى غيره فى نظام رأسمالى .

واثر السوق فى نظام اشتراكى غيره فى نظام راسمالى.

والتنافس بين قطاعات من وسائل الانتاج المملوكة ملكية عامة أو التنسيق بينها غير التنافس الفردى والاحتكار الفردى فى نظام رأسمالى .

فهذه كلها أساليب فى ادارة العمل ورفع مستواه وتحريك حوافزه ، لا ينصب عائدها فى النهاية فى جيب الرأسمالى ولكن ينصب — فى الاشتراكية — فى الدخل الذى يوزع ويعاد استثماره بطريقة عادلة .

والاشتراكية نظام تال فى التاريخ الانسانى للنظام الرأسمالى ، وهو يجىء بعده ..

وعبر التاريخ الانسانى ، كان كل نظام اجتماعى تال يحمل معه بعض ملامح وخبرات النظام الاجتماعى السابق عليه. وهذا طبيعى ، لأن توالى النظم الاجتماعية نوع من النمو والتقدم الانسانى المستمر المرتبط ، وبعض الخبرات الانسانية تبقى مراحل تاريخية طويلة . فما اكتشفه العقل الانسانى عقب الثورة الصناعية من ترشيد الانتاج وتنظيم علمى للعمل وأساليب لخفض التكاليف وتقدم تكنولوجى. هذا كله تراث انسانى مستمر، يستفاد بالمزيد منه فى اطار العلاقات الاجتماعية الجديدة .

وليس بين مراحل التاريخ الانسانى جدران صماء تفصل بينها تماما ، والانتقال من مرحلة الى مرحلة ليس كالانتقال من الارض الى المريخ .

أما النظام الذى ينقل عن غيره حقا ، ويبحث لديه عن اكسير الحياة ، فهو نظام الرأسمالية ، الذى ينقل باستمرار عن الاشتراكية ، محاولا أن يطيل فى عمره .

● ان كل أنواع الخدمات والضمانات الاجتماعية التى تعرفها دول الغرب .. كالعلاج المجانى والتأمين الصحى، والحد الادنى للأجور، والتأمينات ضد البطالة والعجز والشيخوخة .. كل هذه النظم ، جاءت وليدة للفكر الاشتراكى ، ويضطر المجتمع الرأسمالى الى تقبلها يوما بعد يوم ، كطريقة لتخفيف الضغط عليه ، أو كاستسلام فى بعض المواقع لحماية مواقع أخرى أهم .

وكل نظام من هذه النظم لم يطبق الا بعد مقاومة شديده عاتية من المؤسسات الرأسمالية والعقل اليمينى سواء فى ذلك انجلترا أو فرنسا أو امريكا أو غيرها .

الفكر الرأسمالى المتكامل يرفض أنواع الرعاية الاجتماعية كلها ، اذ يعتبر أنها تدعو الفرد الى التواكل والاعتماد على المجتمع فى حين ان الفرد يجب أن يكون مسئولا عن نفسه فى الغنى والفقر والصحة والمرض ، فاذا جاع اومرض وعجز عن العلاج أو بلغ سن الشيخوخة دون مدخرات كافية فهذا ذنبه وتقصيره ، يرفض الفكر اليمينى ان تكون الظروف الاجتماعية أحيانا مسئولة عن بؤس البؤساء وحاجة المحتاجين . واذا كان هذا الكلام يبدو لبعض القراء قديما .. فيمكنهم الرجوع الى كتب ألفها زعماء معاصرون مثل لودفيج ايرهارد فى كتاب «الرخاء للجميع» وجولد ووتر فى كتاب «ايمان محافظ»

● ومن جوهر النظام الرأسمالى ، رفض التخطيط الذى يتولاه المجتمع فى جميع صوره واشكاله ، فالمحرك الوحيد للنمو الاقتصادى فى رأيهم هو المنافسة ، وفى ساحة المنافسة – وهى السوق – يسقط مشروع وينجح مشروع ، وتتجه رؤوس الاموال مدفوعة بعنصر البحث عن الربح الى أكثر أنواع المشروعات ربحا وبهذا وحده ينمو الانتاج وتسد حاجات المستهلكين ..

وقد بدأ العقل اليمينى يستسلم تدريجيا فى هذا المجال ، فى البدء قال : ربما كان التخطيط ضروريا للبلاد الناشئة بالذات . اذ ليس لديها عادة فائض كبير من الاموال يسمح لها بترف المنافسة ، وهى أيضا محتاجة الى اقامة مشروعات أساسية غير مربحة ولا يمكن ان يتجه اليها المال الخاص كمد طرق المواصلات وتوليد الطاقة الكهربائية وما الى ذلك ، ولكن النظام الرأسمالى حتى فى الدول المتقدمة بدأ يشعر بالحاجة

الى التخطيط ، ازاء ارتفــاع تكاليف أنواع الانتـــاج المتقدمة ، وظهور قوى دولية أخرى منافسة ، وعجز الوفرة الانتاجية فىحد ذاتها فىحل مشكلة رفع مستوى المعيشة العام وتحقيق المساواة .

هكذا بدأت بلاد فى غرب أوروبا مثل انجلترا وفرنسا تأخذ على استحياء بفكرة التخطيط ، فرنسا فيها درجة من التخطيط يشترط فيها أن يحصل أى مشروع صناعى جديد على اذن من الدولة بمكانه الجغرافى ونوع انتاجه ، وانجلترا فى أواخرعهدحكومة المحافظين ومن باب محاولة انقاذ مايمكن انقاذه كونت أول هيئة للتخطيط. فلما جاءت حكومة العمال وسعت سلطته ووضعت أول خطة عامة للتنمية ، ولست هنا فى مجال الحديث عن الفرق بين تخطيط وتخطيط ، ولكن فى مجال الاجابة عن سؤال محدد فقط هو : أى نظام يتعاطى جرعات من النظام الآخر ، يتقوى بها ؟

● على ان القضية الكبرى فى الموضوع تبقى : قضية الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع الاساسية .
وما أكثر ما نجد المجتمع الراسمالى اليوم يتقبل ــ طائعا أو مضطرا ــ فكرة الملكية العامة فى بعض وسائل الانتاج الاساسية .

ولا يهم هنا ان المجتمع الراسمالى يصل الى هـــذه النتيجة عن غير الطريق الايديولوجى ، فاذا كان المجتمع الرأسمالى يضطر اليها من باب الواقعية فالمذاهب الفكرية انما تستمد جذورها من الواقع !

فى السنوات الاخيرة منذ نهاية الحرب حتى الآن اتجه كثير من دول غرب أوروبا الى تأميم صناعات أساسية ، فمعظم البنوك المركزية وشركات الطـــيران والبتـــرول

والكهرباء والفحم وبعض شركات السيارات وغيرها تؤمم بصورة أو بأخرى فى انجلترا وفرنسا وايطاليا وغيرها .

والواقع انه قد ذكرنى بهذا الموضـوع كله قضيتان عاشتهما انجلترا مؤخرا :

القضية الاولى : هى قرار مجلس العموم البريطاني بالعودة الى تاميم ٩٠ ٪ من مصانع الحديد والصلب فى انجلترا .

ان هذا القرار ذو أهمية خاصة لما لابسه من ظروف. فقد اممت حكومة العمال فى انجلترا هـذه الصـناعة الاساسية لأول مرة سنة ١٩٤٨ ، فلما عادت حكومة المحافظين الى الحكم ابقت كل قرارات التأميم ما عدا تأميم الصلب ، فقد الغته وأعادته الى الملكية الخاصة من جديد . وفى مكتبتى اكثر من كتاب ضخم لمؤلفين انجليز أعلنوا فى مؤلفاتهم موت التأميم بهذا العمل ، وقالوا ان أكبر سبب لسقوط حزب العمال هو تأميم الصلب .

وعندما عادت حكومة العمال الى السلطة منذ بضع سنوات عادت بأغلبية بسيطة قيل ان سببها تمسك الحزب بتأميم الحديد والصلب . فلما أجريت انتخابات عامة جديدة بعد ذلك ، ركز المجتمع الراسمالى ، الحاكم الحقيقى فى انجلترا ، كل ثقله على قضية تأميم الصلب. كان الظن ان التركيز على هذه القضية هو الذى يمكن ان يسقط حكومة حزب العمال ، ولكن الحزب عاد الى السلطة باغلبية كاسحة . وعاد تأميم الصلب بعد الغائه بأربع عشرة سنة . عاد هذه المرة ليبقى بالتأكيد .

لماذا عاد ؟ ..

لأن اليساريين ظلوا على اعتقادهم القديم الذى عبر عنه وزيرهم « ستافورد كريبس » سنة ١٩٥٣ ، وهو

يقدم قانون التأميم الاول من ان صناعة الصلب التى تعد أساس كل الصناعات بما فيها صناعة الاسلحة لا يمكن أن تبقى فى أيدى افراد يملكونها فيكون أساس الاقتصاد القومى فى ايدى افراد هم أقوى من الحكومة ومن البرلمان. ولان بعض المعتدلين وحتى اليمينيين وجدوا ان بقاء عدة شركات متنافسة لم يعد الوضع الذى يمكن صناعة الصلب الانجليزية من التجمع والتكامل والتجديد وتخفيض النفقات بحيث تواجه المنافسة الخارجية الخطيرة . المهم ان الواقع قد جمع أكثر من اتجاه على انه لا مفر من جعل هذه الصناعة الاساسية تحت سلطة المجتمع بأن تكون مملوكة له .

هل يمكن أن يكون لملوك الصلب حقا مثل هذه السلطة فى بلد كبير قوى كانجلترا ؟ نعم . بل وفى أمريكا ذاتها.. حيث نذكر جميعا القصة الشهيرة .

كلنا نذكر كيف ان ممثل اتحاد أصحاب مصانع الصلب فى أمريكا ذهب الى البيت الابيض أيام رئاسة كيندى فى ساعة متأخرة من الليل وسلم اخطارا بأن سعر الصلب سيرفع من صباح غد.. تماما كالطريقة التى كان يتبعها هتلر فى انذار الدول الصغيرة قبل أن تجتاحها جيوشه.

كان معنى هذا رفع أسعار كل شىء حتى فى بلد ضخم كأمريكا .. من ابرة الخياطة الى السيارة الى الدبابة الى المبانى .. الى كل شىء . فهو قرار أقوى من أي سياسة اقتصادية يمكن أن تضعها أية حكومة أو أي مجلس منتخب .

كان معناه أن نفقات الدولة بالذات تزيد بمئات الملايين من الدولارات فلا يكون مفر من فرض ضرائب جديدة وهكذا يصل قرار ملوك الصناعة الى جيب كل مواطن ، ويومها لم يجد كيندى فى يده أى سلطة قانونية لوقف

هذا القرار . فعمد الى استخدام سلاح المشتريات الحكومية الهائلة خصوصا فى مجالات التسلح وامر بالا تشترى الحكومة من أية شركة حديد ترفع اسعارها . ومع هذا كان مطلوبا لينجح هذا القرار ان «تخون» احدى شركات الصلب زميلاتها وتبيع بالسعر القديم . وهذا ما فعلته شركة بتلهيم للصلب ، فانهزم قرار ملوك الحديد واضطروا الى التراجع .

ولكنهم ظلوا يتحينون الفرصة ، ومات كيندى وجاء جونسون وزاد تورط امريكا فى حرب فيتنام وزادت نفقاتها . وعاد ملوك الحديد الى رفع الاسعار، بالاجماع هذه المرة . واصدر جونسون بيانات يعبر فيها عن أسفه لهذا القرار الذى سيؤدى الى التضخم الاقتصادى والى التاثير على مجهود أمريكا الحربى ، ولكن دون جدوى..

وبعد شهور أعلن ملوك الالومنيوم قرارا مشابها .. وأصدر جونسون بيانات أسف واحتجاج مشابهة ! !

● القضية الثانية التى عاشتها انجلترا مؤخرا ، هى قضية جريدة التايمز ، أهم مؤسسة صحفية أو اعلامية يزهو بها الانجليز ويفخرون ..

ان منطق التنافس الراسمالى سعيا وراء الربح ينطبق على المؤسسات الصحفية كأى مؤسسات حديد أوخشب أو زلط . ومع تزايد نفقات الصحف وزيادة اعتمادها على الاعلانات والصلة الحميمة بين الراسماليين أصحاب الصحف اليمينية وبين الراسماليين أصحاب الاعلانات.. بدأت الصحف التى تحاول أن تكون مستقلة تفلس أو تبيع نفسها لمالك أكثر ثراء ..

حدث هذا أكثر من مرة فى السنوات الاخيرة . وفى كل مرة كانت تحدث ضجة .. لكن ليست كالضجة التى ثارت يوم عرف ان المليونير الكندى الاصل الذى يشترى

الصحف لأغراض تجارية ، والذى يعلن انه لاشأن له بالسياسة مطلقا ، والذى قال مرة فى زهو ان المقالات والاخبار لا قيمة لها لديه الا انها لازمة لتوضع بين الاعلانات .. هذا المليونير روى طومسون ، أعلن انه اتفق على شراء جريدة التايمز !

وقال رئيس الوزراء ان الأمر أصبح يحتاج الى تدخل من الحكومة !

وكلف اتحاد الصحف مجلة الايكونومست بعمل دراسة فى أحوال الصحف الانجليزية ولماذا يحدث هذا ..؟

والسبب بسيط ...

ان القوة الاقتصادية للمؤسسة الصحفية أصبحت هى مصدر قوتها الصحفية ، وليس العكس .

القوة الاقتصادية تمكنها من شراء آلات أحدث ، واستئجار كفاءات اكبر ، والقيام بعمليات ترويج أوسع، وبالتالى فقدقالت دراسةمجلة الايكونومست ـ اليمينية ـ انالمؤسسة ذات «الادارة» القوية والموارد الاقتصادية الكبيرة لابد أن تطحن الصحف التى ليست لديها هذه الاسلحة .. مهما كان رأيها ، أو لونها ، أو رسالتها . وانه فى مرحلة معينة من مراحل تراكم القوة الاقتصادية تصبح المنافسة غير صحفية على الأطلاق !!

ومن أين تجىء هذه القوة الاقتصادية ؟

من رأسمالى كبير ، أو من نفوذ خاص يشق الطريق لدى المعلنين الرأسماليين ، كما فعل بيفربروك من قبل.

ولم يتمكن أحد طبعا من أن يفعل أى شىء لو قف روى طومسون من شراء فخر انجلترا ورمز صحافتها «المستقلة» !

ولكن لأول مرة يقف نواب انجليز ويقترحون تأميم جريدة التايمز أو وضعها فى يد هيئة عامة مستقلة على نحو ما .. حتى يبقى فى انجلترا صوت «مستقل» حقا !

٣ ـ العقل اليمينى يفكر

الإشتراكية مازالت تبحث عن شكلها السياسى!

نطرح خلف ظهرنا ، الوان الخلط المتعمد الذى يستخدمه « العقل اليمينى » فى وصف الموقف الراهن للاشتراكية ، ونوع المشاكل التى تواجهها .. كما تعرضت له فى المقالين السابقين .

ماذا اذن يقول العقل اليسارى ، اى العقل الاشتراكى

يقول : ان دحض مزاعم اليمين ليس معناه ان الاشتراكية لا تواجه مشاكل وتحديات شتى . فهى على العكس ، منذ دخلت مرحلة التطبيق فى اماكن مختلفة وتحت ظروف متباينة ، كان لابد لها أن تواجه أنواعا من المشاكل والتحديات ، بعدد البلاد والظروف التى نبتت فيها ...

وهذا بحث قد يكون له أول ، ولكنه ليس له آخر..

ولا مفر من الوقوف ، عند بعض انواع هذه التحديات الكبيرة .

التحدى الذى يخطر على البال ساعة كتابة هذه السطور ، ربما لأننا نوشك فى مصر ان نتباحث فى وضع دستور دائم جديد، هو مشكلة الحكم فى ظل الاشتراكية ، أو بتعبير آخر الشكل السياسى للمجتمع الاشتراكى ، أو بتعبير ثالث المؤسسات السياسية التى تناسب علاقات اجتماعية اشتراكية ...

بصـــورة أو بأخرى نجد أن المجتمع الرأســـمالى البورجوازى ، له صورة سياسية عامة يمكن التعرف عليها . البرلمان المنتخب انتخابا مبـــاشرا وتتركز فيه السلطة التشريعية والسياسية العليا . تعدد الاحزاب. الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ليس معنى ذلك ان هذه الصورة السياسية صورة مستقرة ثابتة واضحة فى كل مجتمع راسمالى بورجوازى. فعلى الرغم من أن النظام الرأسمالى البورجوازى فى غرب اوروبا بالذات عمره يقرب من مائتى ســـنة فى جانبه الاقتصادى والاجتماعى ، الا ان شكله السياسى ظل يهتز بعنف حتى وقت قريب ، ولايزال . وكما لاحظ المفكر الفرنسى اليمينى « ريمون آرون » فى سنة ١٩٣٦ ، قبل الحرب العالمية مباشرة ، كادت هذه الصورة للديمقراطية البورجوازية تختفى فى أوروبا عدا انجلترا واسكندنيفيا، اختفت الديمقراطية البورجوازية من مجتمعات راسمالية مثل المانيا وايطاليا واسبانيا ورومانيا والنمسا والمجر وتشجعت العناصر الفاشية فى بلجيكا وفرنسا ذاتها .

لم يكن هناك اذن تلازم تلقائى بين النظام الراسمالى والديمقراطية الغربية بالملامح السابقة حتى فى أوروبا بتقدمها الصناعى والاجتماعى والحضارى . والى الآن نجد ان هذا التلازم غير قائم فى البلاد الراسمالية التى ليست فى مستوى أوروبا من حيث التقدم. فنظم الحكم الفردية والدكتاتورية موجودة مع المجتمعات الرأسمالية فى أمريكا الجنوبية وفى ايران وغيرها وكل بلاد افريقيا التابعة للمعسكر الغربى .

بعد هذه التحفظات الهامة ، اعود من باب التبسيط الى القول بأن المجتمع البورجوازى الراسمالى ، فى حالة النضج الاقتصادى ، له صـــورة سياسية عامة يمكن

التعرف عليها ، بالملامح التي سبق ذكرها ..

ولكن الاشتراكية - في تقديري الشخصي - لم تجد بعد الصورة السياسية النهائية لها .. اي الشكل السياسي النهائي لممارسة السلطات في المجتمع الاشتراكي ...

وقد يبدو ذلك غريبا ، وهو في الواقع ليس بغريب اذا ذكرنا ان العلاقات الاشتراكية في المجتمع عمرها يقاس بعشرات السنين واحيانا بآحاد السنين ، في حين أن الراسمالية يقاس عمرها بالقرون ...

وقد يبدو ذلك مستنكرا لدى بعض الاشتراكيين ، ولكن هذا البعض من الاشتراكيين هم على الاغلب الذين يقيدون فكرهم بنصوص معينة أو بتجارب معينة أي هم الاشتراكيون الماركسيون اللينينيون بالذات ...

ولكن ، ليس أسهل من التدليل على انه حتى في التجارب الماركسية اللينينية بالذات ، التي تعتبر « مراجعة النظرية » عارا وتهمة لا تغتفر .. تجرى المراجعة على قدم وساق .

روسيا فيها مراجعة ، والصين فيها مراجعة ، ويوغوسلافيا فيها مراجعة ، ورومانيا فيها مراجعة .

في الجانب السياسي المحض الذي أحصر فيه حديثي هذه المرة ، نجد ان الثورة الثقافية معناها ازمة حكم ، معناها أن التعبير السياسي الذي كان موجودا عن المجتمع هناك ما زال في رأى البعض في حاجة الى تغيير ، في الجانب السياسي المحض ، نجد ان نقد ستالين وماتلاه من تغيرات معناه ان التعبير السياسي عن المجتمع هناك قد تبينت فيه ثغرات سمحت بعبادة الفرد وسمحت بهتك الشرعية وانه لابد من تطوير لها ... وهكذا ..

وهذا بدوره موضوع طويل ، ولكن يكفي هنا مجرد تسجيل الظاهرة كما أراها ، لمجرد اثبات : انه حتى

أكثر القائلين بكمال النظرية وثبات التجربة ، يراجعون ويراجعون ، الأمر الذى يعنى ان الوصـول الى ثوب سياسى يناسب العلاقات الاجتماعية الجديدة هناك لم يتم بعد ، وليس هذا غريبا ولا هو ضد طبيعة الأمور.

فماذا عن التجارب الاشتراكية التى لا تعتبر أقوال ماركس ولينين كتبا مقدسة ولا مراجع وحيدة ، انما تعتبرها اضافات فكرية كبيرة سبقتها اضافات وتلتها اضافات وسيتلوها أكثر مما تلاها الى الآن ؟

معظم هـذه التجارب الاشتراكية الجديدة فى بلاد تحررت حديثا من الاستعمار ، وفى المراحل الاولى لتثبيت استقلالها وتنمية اقتصادها .

ومعنى هذا انها فى معظمها ــ ان لم تكن كلها ــ تواجه مصاعب التحول الاشتراكى فى حد ذاته من جهـة ، ومصاعب التنمية الاقتصادية من جهة ثانية ، ومصاعب تثبيت الاستقلال الوطنى ودرء الضـغوط الاستعمارية عنه من جهة ثالثة ...

هذه المرحلة التى تواجه عملية انتقال مثلثة الجوانب ، من شأنها أن تكون مرحلة تجربة وخطأ وبحث عن الشكل السياسى المتطور للعلاقات الاجتماعية المتطورة ...

ولكن ما هى القيمة النظرية للتأكيـد على ان هـذه المرحلة فى حيـاة التجارب الاشتراكية مرحلة تجربة وبحث وانتقال ، لامرحلة ثبوت ووجود وتشكل نهائى ، فى الجانب السياسى ؟

قيمة هذا التأكيد تكمن فى نقطتين :

النقطة الاولى ــ انها تجعلنا نفرق بين ما هو وقتى وبين ما هو دائم . بين ما هو خاص بالاشتراكية كشكل اجتماعى وما هو خاص باعتبارات أخرى ...

فالاشتراكية مثلا لم تجىء الى أى بلد من البـلاد

حتى الآن ، مهما كان لون هذه الاشتراكية ، الا عن طريق الثورة ، والثورة من طبيعتها انها تنطوى على درجة من «الفرض» لأنها تحطم هياكل اجتماعية قديمة وتقيم هياكل جديدة وتجرى جراحات اجتماعية تختصر الزمن. هذا شأن كل ثورة وليست الثورة الاشتراكية وحدها. فالبورجوازية الراسمالية فرضت نفسها بالثورة العنيفة على الاقطاع وبتدمير العلاقات الاقطاعية أحيانا بحمامات الدم كما حدث فى الثورة الفرنسية ، فالثورة التى تفرض ارادتها ، لأن هذه الارادة متمشية مع منطق التاريخ ، ولأن هذه الارادة تلبى الحاجات العميقة للشعب ، الحاجات التى لا يقدر الشعب على انجازها بالوسائل العادية ، «الفرض» فيها سمة من سمات كل ثورة تنقل المجتمع من صورة الى صورة .

« الفرض » اذن صفة مرتبطة بالحدث الثورى ، وبمرحلة الانتقال التى تتحمل الثورة مسئولياتها ، ولكنها ليست صفة مرتبطة بالاشتراكية كنظام اجتماعى أو بالاشتراكية حين تصبح نظاما اجتماعيا عميق الجذور.

والثورة حين تفرض ارادتها بنجاح ، لا تكون فى عزلة عن الشعب ، بل انها تتغذى وتستمد قوتها الدافعة من التأييد الشعبى ، ولكنه تأييد شعبى مباشر ، وليس عبر مؤسسات سياسية محددة ، اذ لا يكون هناك فى أول مراحل الانتقال الا المؤسسات السياسية بأشكالها القديمة التى ثبت عجزها فحطمها الحدث الثورى . ومعنى هذا ان على الثورة بعد ذلك أن تسعى لصياغة مؤسسات سياسية جديدة تناسب المجتمع الجديد .

ومن الأخطاء التى ارتكبها بعض الاشتراكيين فى بعض التجارب ، انهم ظنوا ان الاشكال التى لازمت الحدث الثورى وكانت ضرورة له ، هى الاشكال النهائية ،

فتجمدوا عندها ، وأفقدوا التطبيق الاشتراكى كثيرا من خصوبته ، وعطلوا عملية التوصل الى أشكال سياسية أكثر صلاحية للثبات والاستقرار ، وأكثر تعبيرا عن العلاقات الاشتراكية .

النقطة الثانية ــ انالاشتراكية ليست نظاما «شموليا Totalitarian للمجتمع» ولكنهانظام يستهدف الديمقراطية

ان الاشتراكية قامت على أساس ان الديمقراطية البورجوازية ناقصة ، لأنها ديمقراطية سياسية فقط ، تقف عند حد منح الفرد حق الانتخاب وحق تكوين تجمعات سياسية ، ولكنها لا تمنع بأن تكون الراسمالية والاحتكار وتركز ملكية أدوات الانتاج فى أيدى افراد قلائل ، عقبة تسلب حق الانتخاب والتجمع مغزاه الحقيقى ... فحين تكون البنوك والمصانع والاراضى والمتاجر والصحف ومحطات الاذاعة فى أيدى طبقة محدودة ، يصبح لهذه الطبقة قوة اكبر من أن توازنها اي قوة أخرى فى المجتمع .

الاشتراكية تقوم لكى تكون الديمقراطية سياسية واجتماعية معا. أو بالاصح اجتماعية وبالتالى سياسية. لهذا فالديمقراطية ، اىمشاركة الشعب مشاركة فعالة فى التفكير لنفسه لا حكم نفسه ، هدف أصيل من أهداف الاشتراكية .

وفى بحث الاشتراكية عنتعبيرها السياسيالديمقراطى لابد لها أن تتجنب خطأين شائعين كبيرين :

الخطأ الاول ــ هو ان تقع تحت تأثير العقل اليمينى فى قوله بأن الديمقراطية البورجوازية هى الشكلالوحيد للديمقراطية . فالمجتمع الراسمالى ، وقد اصبحت هذه بديهيات ، مجتمع طبقى تعبر الاحزاب المختلفة فيه عن مصالح مختلفة بينها تناقضات أساسية . وفى هذا

التقسيم الطبقى نجد ان كل الاسلحة ذات الاثر من أموال وملكية وبنوك وصحافة وأحيانا اذاعة وتليفزيون. وقد ترتبت على هـذا الوضـع كل ملامح ومعانى النظـام الديمقراطى البورجوازى .

ولنقرأ الآن ما تنشره الصحف الغربية هذه الايام . فنجد الصحف الفرنسية مثلا تتحدث عن اجتمـاعات رجال المال والصناعة فى فرنسا لتقرير استراتيجيتهم فى الانتخابات المقبلة ، وأى حزب يمنحونه اموالهم لتساعده فى الانتخابات ، وكيف انهم اختاروا حزبى الوسط ـ حزب جان لوكانويه وحزب جيسكار ديستان ـ لاعطائهما هذه الأموال ، حتى يقللوا من قوة اليسار الذى يطالب بتاميم بعض البنوك والشركات ، ومن قوة حزب ديجول الذى يتعارض تخطيطه للسياسة الفرنسية العامة مع مصالح رؤوس الأموال احيانا ، كموقفه من امريكا . ولنقرأ ما تنشره الصحف الامريكية والاوروبية من ان كبار الراسماليين بحثوا عن رجل جذاب واجوف هو الممثل السابق رونالد ريجان لكى ينفقوا عليه ويضعوه فى مركز حاكم كاليفورنيا ، حتى يقضى على التيـارات المتحررة التى نمت فى جامعة كاليفورنيا ، فكان أول قرار له بعد تسلم السلطة فصل مدير الجامعة لأنه ترك الطلبة يحتجون على حرب فيتنام ... الى آخره .

واذا كان نظام الديمقراطيـة اليمينية فى المجتمعات الراسمالية الغنية المتقدمة يقف أثره عند تثبيت الوضع الاجتماعى الراسمالى ، فان هذا النظام ـ واهم ملامحه تعدد الاحزاب ـ فى البلاد النامية الصغيرة يصبح بابا لأخطار اكبر: يصبح بابا لأن تشترى بعض هذه الاحزاب لقوى خارجية أكبر واقوى .

الخطأ الثانى ـ الذى يجب أن يتجنبه الاشتراكيون

هو أن يخلط البعض بين « الجماعية » التى تنطوى عليها الاشتراكية والتى هى جوهر ديمقراطى، وبين «الشمولية» التى لا تنطوى عليها الاشتراكية فى معناها الديمقراطى النهائى ..

ان الشمولية Totalitarianism فى تفسير فقهاء السياسة هى أن تجتمع كل السلطات الاقتصادية والدعائية والعسكرية فى يد فرد أو فئة محدودة، بقصد فرض فكرة واحدة تحكم كل شىء من الاقتصاد الى الفن الى البحث العلمي والاكاديمى .

والشمولية ، تهمة يحاول أن يلصقها اليمين بالفكر الاشتراكى ويربطها به ، فى حين أنها تيار أو انحراف يقع فى مجتمعات ذات نظم سياسية متعددة . فالنازية رأسمالية وشمولية معا .

أما الاشتراكية غير الجامدة ، فهى فى عملها لاذابة الطبقات ، ووضع مرافق الثروة والانتاج الاساسية فى المجتمع، تحاول فى نفس الوقت أن توسع دائرة المشاركين فى السلطة وفى الحكم والادارة على كافة المستويات وتفرق مرة أخرى بين منطق الثورة لبناء الاشتراكية ومنطق الاشتراكية ذاتها ، فالحدث الثورى يحتاج فى اي مرحلة تاريخية الى تثبيت وحماية وتدعيم ، ونجاحه النهائى هو أن تصبح أفكاره هى القاعدة ، بحيث تتحمل الجدل والمناقشة والتجديد والنقد دون أن تتأثر ركائزه الاساسية بشرط أن يكون هناك انتباه مستمر الى ما هو مؤقت وما هو دائم ، والا يعيش المؤقت أكثر من مرحلته التاريخية اللازمة (*).

والاشتراكية غير الشمولية بهذا المعنى ، تفترض استمرار المتناقضات مرحلة طويلة بعد بدء التطبيق الاشتراكى وبالتالى تفترض درجة من التفاعل والنقاش

فى اطار الاتجاه الاشتراكى، وهى تنفتح على قوى الشعب العاملة كلها ، غير آخذة بنظام الفئة المحدودة التي تحتكر الحكم وهى تضع قوى الشعب العاملة فى بوتقة تنظيم واحد لكى يتخذ الخلاف بينها شكل التفاعل ويتجه نحو اذابة الفوارق الطبقية ، بدلا من أن تتجه كل قوة منها الى اقامة تنظيمها المستقل ، فتنمو نموا متنافرا ، وتتحصن كل منها فى حصونها ، ويتحول التناقض المحدود والذى يجب أن يذوب الى تناقض أساسى وصراع ، وعودة تدريجية الى تدعيم النظام الطبقى غير الديمقراطى

والاشتراكية غير الشمولية ترفض البيروقراطية الفكرية وتحذر منها ، هذه البيروقراطية التى تتجه عادة ، بحكم ضحالتها الفكرية ، الى رفض التجربة والتجديد والاستكشاف وحق الخطأ ، فتهبط بالفكر الى مستواها البيروقراطى ، وتحرم المجتمع من محركات التجديد والتطور .

وبعد ...

فاننى لا أعرف اذا كنت قد وصلت الى ذيل المقال دون أن أفقد الصلة برأسه ، أم لا . وقد كان رأس القضية ان الاشتراكية تواجه تحديات بالفعل . وهذا ليس غريبا . وان الاشتراكية ما زالت تبحث عن أشكالها السياسية النهائية ، وهذا أمر طبيعى ، اذا حسبنا عمرها التطبيقى القصير وماتريد أن تدخله من تغيير انسانى عميق

واذا كان اليمين يشوش على هذا البحث عن الشكل السياسى النهائى بالقول بأن الشكل السياسى البورجوازى هو الشكل الخالد ، فان بعض اليسار يشوش على هذا البحث حين يرفض القول بأن هناك تحديا من هذا النوع ، أو حين يعتبر ان ماقام من اشكال بحكم الحدث الثورى وظروفه فى بلد آخر ، هو خاتمة المطاف .

فى الشـــباب والــحــب

هل صحيح ان شبابنا وشاباتنا غير جادين ؟

هل صحيح ان الشباب ـ قبل الثورة ـ كانوا اكثر اهتماما بالسياسة من الآن ؟

هل السينما والتليفزيون ، وارتداء الملابس الشاذة ، و « معرفة الجنس الآخر » هى كل ما يشغل بال الولد والبنت فى هذه الايام ؟

هل صحيح ان الشبان والشابات فى البلاد العربية الاخرى ، عدن مثلا ، أو الاردن ، أو العراق ، أكثر انفعالا بالقضايا القومية والفكرية من شباب القاهرة ، ودمشق ، وحلب ، والاسكندرية ؟

أسئلة تلح فى عقول كثيرة وفى مجالس كثيرة !

وهى تلح على الاقل على عقل تلك الفتاة من الخليج العربى التى قالت لى : انه لا يعجبها فى بنات القاهرة اهتمامهن الكبير بالخلاف حول موضوع فريد الاطرش وعبد الحليم حافظ ، وأيهما يتمتع بصوت أعذب !

هذه الاسئلة .. أحب أن أقرنها بهواجس أخرى تدور فى خاطرى ، ولعلها أيضا تدور فى خواطر الكثيرين .

عندما كنا ـ نحن أبناء الجيل الذى أنتمى اليه ـ طلبة فى الجامعات .. لم نبلغ العشرين من العمر بعد ، كنا نحلم بقيام نظام جمهورى . وكأننا نحلم بخطيئة كبرى .

لو كانت رؤوسنا زجاجية شفافة ورأى الناس ما فيها من احلام لحطموا لنا هذه الرؤى ! كان الحلم بالنظام الجمهوري حلما خطرا . وكنا اذا تحدثنا به كأمنية قد نراها ، وربما لا نراها ، رحنا نهمس به كأنه عالم مسحور دونه مغامرات رهيبة . ذلك ان نظام الحكم كان ملكيا . وأجهزة الدولة كان شعارها ملكيا. ومناهج الدراسة ــ حتى فى الجامعات ــ تدرس لنا مزايا النظام الملـكى !

ولكننا الآن نعيش فعلا فى نظـام جمهورى ، بكل ما ينطوى على ذلك من تطور عميق . ونحن الذين عشنا النظامين : الملكى ، والجمهورى ، نكاد ننسى احيانا اننا كنا نعيش ذات يوم فى ظل نظام ملكى . وحين نتذكر هذه الحقيقة ندهش ! ولا نكاد نتصـور كيف عشنا ــ حقا ــ فى ظل ملك اسمه فاروق ، اذ يبدو لنا هذا كأنه حدث فى عصر ما قبل التاريخ . وحين كنت جالسا فى احد المطاعم منذ ايام ، ودخل احد الأمراء السـابقين دهشت ! ودهش من كانوا معى ! دهشنا من مجرد وجود هذا الأمير السابق على قيد الحياة . لا لأنه أكبر سنا من سائر الاحياء ، ولكن لأنه ينتمى فى ذهننا الى عصر يبدو لنا بعيدا سحيقا .. رغم اننا كنا نعيش تحت وطأته منذ بضع سنوات ! ..

هذه كلها هى مشاعرنا نحن الذين عشنا العصرين ، فماذا عن الاولاد والبنات الذين تبلغ أعمارهم الآن عشرين سنة أو اقل قليلا ، اى الذين كانوا أطفالا يوم قيام الثورة فلم يكونوا يدركون ــ بعمق ــ معنى هذا الذى زال .. هل تراهم يأخذون «الجمهورية» قضية مسلما بها ، وبديهية ؟.. أم هل يتحمسون لها حماستنا نحن الذين عرفنا النظام الاخير ؟ ..

نموذج آخر ، هو .. الاشتراكية ..

على أيام صبانا ، كانت الاشتراكية كلمة محرمة ، وكانت اليسارية مرضا يجب أن يخفيه صاحبه ، وكان هذا جزءا من جاذبيتها فى نظرنا !.. كان الاشتراكى يخفى عقيدته وهو يشعر انه يخفى سرا يتحدى به المجتمع ، السر الذى سيقلب به كل شىء ، الاختراع الذى سيغير به وجه الحياة ! ..

وحين كان الاساتذة يدرسون لنا محاسن الراسمالية والاقطاع ، كنا نضحك منهم فى أكمامنا ، وكنا نهزأ منهم . نهزأ من انهم جبناء لا يجهرون بالحق ، أو نسخر منهم لانهم لا يعرفون الصيحة الجديدة فىعالم النظم الانسانية وكان هذا يغيظنا منهم ، ولكنه كان يرضى فينا ذلك الزهو الذى يحب أن يحس به كلجيلجديد ، احساسه بأنه هو الذى سيغير الحياة ، وسيحرك عجلة التاريخ ، وسيأتى بما لم تستطعه الأوائل .

أما الآن .. فالذى يتزعم الدعوة الاشتراكية هو رئيس الدولة ، والاذاعة والصحف الكبرى ، والمدارس تبشر بالاشتراكية وتشرحها ، ووزير الاقتصاد والخزانة يجلل بها ميزانية الدولة ، وضابط الشرطة يحميها . فما هو يا ترى شعور الشاب الجديد الذى ولد وجدانه فى هذا الجو ؟ ما هو شعوره نحو هذه الشعارات ؟ !

الذين عاشوا حين كانت الاشتراكية خطرا تطارده الدولة .. ما زالوا يرون ما فى هذه الكلمة من لهب .. ويحسون مافيها من ثورية .. وما تصنعه من تفجير للهياكل القديمة . ولكن ما هو شعور الشبان الجدد نحوها ؟.. الذين ولدوا وهى شىء مشروع ، هل يجدون لها هذا الطعم نفسه ؟ ...

واذا كانوا لا يجدون هذا « المذاق الثورى » لكلمات

الاشـــتراكية والجمهورية وما الى ذلك .. فمــا هو « الثورى » فى حياتهم اذن ؟ ..

واعود الي الاسئلة التى طرحتها فى أول المقال ، وهى وثيقة الصلة بهذا الاستطراد ! ..

ان أمامنا الآن سؤالين :

الاول ، هو : هل شباب هــذا الجيل اقل جدية وحماسة من الجيل السابق ؟

والثاني ، هو : هل ـ اذا ثبت ذلك ـ يكون السبب هو ان الاهداف « الثورية » أصبحت الآن أهــدافا « شرعية » ليس فيها مغامرة ولا مخاطرة ولا خفاء ؟..

اننى أعتقد ـ وهو اعتقاد مطروح للمناقشة ـ ان الفرق ليس فرقا من ناحية الدرجة ، ولكنه فرق من ناحية النوع . فمن الخطأ أن نقيس الحماسة والجدية بدرجات واحدة . ولـكن نوع الجدية ونوع الحماسة يختلفان . ذلك ان المرحلتين التاريخيتين ـ ما قبــل الثورة وما بعدها ـ مختلفتان اختلافا عميقا .. ومن الطبيعى أن يختلف « نتاجهما » من الشبان والشابات نفس الاختلاف العميق ! ..

كيف ؟ ..

ان هناك نوعا من الأعداء ، لابد أن تواجهه بعمــل صاخب . .هو القتل مثلا !

وهناك نوع آخر من الأعداء .. لابد أن تواجهه بعمل هادىء .. فيه من المثابرة أكثر مما فيه من الشجاعة .

وعندما نتأمل الكلمة الشــهيرة التى قالها على بن ابى طالب : « لو كان الفقر رجلا لقتلته ! » نجد هذه الحيرة ازاء العدو الذى لايمكن التخلص منه الا بواسطة القتل ! ..

انت تقتل المستعمر أو الغاصب أو تسجنه أوتطرده ،

ولـكن الفقر مثلا لا يمكن اقصاؤه بهذا العمل الدرامى العنيف . انه ليس هدفا محدودا تصيبه بضربة واحدة. انه هدف واسع متشعب عميق الفور ..

ولنطبق هذه الصورة العامة على موضوعنا ..

ان الشاب يكون ثائرا ، بقدر ما يكون هناك شىء آخر يثيره ويستفزه ويتحداه .

الاحتلال الاجنبى مثلا.. اننا نراه فى كل زمان ومكان يستفز الناس الى الثورة ويجعل الغليان والعنف طابع الشباب بوجه خاص . ذلك أن الاحتلال الاجنبى حقيقة صارخة ، واضحة ، مهينة ، تصفع الناظر اليها كل يوم وكل ساعة .

وقد نشأت الاجيال السابقة فى عصر حافل بالحقائق المهينة ، التي تتحدى وتستفز ، التى تشعل الحرقة وتزرع المرارة العميقة ..

الاستعمار الاجنبي ..

الهوان الدولى ..

النظام الملـكى الخائن ..

المجتمع الاقطاعى الراكد ، بينما المجتمعات الاخرى تقفز وتتحرك وتخترع ، التعطـل بالوراثة يتربع على عرش يعنو له كل الذين يسفحون عرقهم فى التراب !

الى آخره .. الى آخره ..

هذه الاشياء وغيرها كانت تصدم الشاب منذ بضع سـنوات وتستفزه وتلسع مشاعره . لذلك كان من المنطق أن يكون طابع شباب ذلك العصر الحماسة الملتهبة والانفعال والتطوع للخطر وكان هـذا يصل الى القاء القنابل على الانجليز ، واطلاق الرصاص على الوزراء ، وحرق عربات الترام .. الى آخره ..

وهذه المظاهر الانفعالية .. هذه الأدلة على الجدية

والحماسة .. ليست أشياء مقصودة لذاتها ، ولكنها نتيجة أوضاع معينة . فهى فى حد ذاتها ليست علامة النضج والاهتمام بالمسائل العامة .. انما هى علامات استثنائية تبدو على الشباب فى ظروف استثنائية ..

ولكن .. هل زال كل نقص فى حياتنا .. وبالتالى هدأ كل غليان فى نفوس الشباب ؟ ..

بالطبع ، لا .. وان أكثر ما كان يبعث على الغليان ليس وجود هذه المشاكل والاوضاع الصارخة فقط ، ولكن عدم وجود حركة شاملة قوية للتخلص منها . فهذا وحده كان يبعث أعظم الغليان فى نفوس الشباب . لم يكن الشباب يعتقدون أن المهمة الطبيعية لهم مثلا هى القتال لاخراج الانجليز من القناة ، ولكنهم كانوا يغتاظون اكثر واكثر من جمود الاحزاب والزعماء والوزارات وتقاعسهم عن هذه المهمة ، فكانوا أحيانا يصبون غضبهم على الانجليز ، وأحيانا على هذه القوى التى كان يجب أن تكون مهمتها الاولى هى محاربة الانجليز ..

أما الآن .. فقد حدث تغيير فى المهمتين :

ـ فمن ناحية ... زال « أصرخ » ما كان يستفز الضمير والاعصاب..كالاحتلال والتبعية الدولية والعرش الخائن والاقطاع والرضا بالمكان المتخلف .

ـ ومن ناحية أخرى .. زال « جمود » الدولة والقيادة والمجتمع ازاء المشكلات ... فلم يعد هناك الاحساس القديم المستفز بأن من يمسكون الزمام لايتحركون ولا يتقدمون .

وهذه أشياء لها أثر عميق جدا فى نفوس الشبان والشابات .. وان كانت لا تبدو واضحة للعيان ..

الشبان والشابات الآن فى سن ١٧ أو ١٨ أو ٢٠ ؛

يجدون أن بلادهم تسير فى ركب الصيحات الجديدة التى تتردد فى جنبات العصر الحديث : الجمهورية والاشتراكية والصناعة .. فهم يشعرون ان القضايا الاساسية لا خلاف عليها ..

ثم ان الشبان والشابات لا يرون حولهم ركودا ولا جمودا . بل يجدون الدولة فى حركة عنيفة واسعة النطاق ، حركة تكاد تصم الآذان ، وتجعل الانفاس تتلاحق لاهثة !

فمن الطبيعى اذن الا تكون لاهتمامهم بهم طبيعة صاخبة . ومن الطبيعى اذن أن نستبعد « الانفعال » و « الغليان » كأدلة على الجدية والاهتمام !

ان الشائع فى وصف الشباب الآن هو: انهم منصرفون الى طلب الرزق .. فى شكل عمل أو وظيفة أو اى شيء آخر ..

ولكن .. ما هو « طلب الرزق » آخر الأمر ؟

ان طلب الرزق ليس عملا هداما بل انه عمل بناء من الدرجة الاولى. فى لحظات الخطر أوالثورة أوالاستفزاز يكون مطلوبا من الناس أن يتركوا طلب الرزق ، لأن الثورة والتطوع هنا يكونان لطلب الحياة الكريمة نفسها. يكونان لصيانة الوطن الذى سنطلب فيه الرزق بعد ذلك! أما فى الاحوال الطبيعية ، حين يكون الوطن كله فى حالة سعى وعمل من أجل التقدم والصعود والارتقاء .. فان طلب الرزق يكون اشتراكا ايجابيا فى عمليات البناء هذه . الشاب الذى يطلب الرزق انما يدفع نفسه الى الأمام فى دراسة ، أو فى اتقان عمله ، أو فى البحث عن عمل أحسن .. وهكذا .. ومن مجموع هؤلاء الشباب الذين يطلبون الرزق يحدث « الصعود العام » وتتكامل عملية البناء الشاملة ..

ولكن .. هنا يرد تحفظ خطير، ونحن نناقش «جدية الشبان والشابات» .

لابد أن نوضح ان هناك فرقا بين طلب الرزق بشكل انتهازى ، وبين طلب الرزق عن طريق المجهود ومحاولة التفوق والاتقان واحترام الخدمة العامة . وفى رأيى ان هذه الناحية لا تتوقف على الشباب أنفسهم ، ولكنها مرهونة بالكبار ، بالاجيال السابقة عليهم ..

كيف ؟ ..

ان الشاب يبدأ حياته ونفسه طاهرة .. والمثل العليا فى فؤاده بريئة من الشوائب الى حد كبير . والمجتمع هو الذى يضيف الى وجدانه هذه الشوائب أو لايضيفها. وهو المجتمع الذى يحكمه الكبار ، والاجيال السابقة على جيل الشباب الجديد ...

لننظر مثلا الى صورة شاب دخل الجامعة وجد واجتهد لكى يتفوق ويضمن عملا يحبه ويحلم به . ثم فوجىء لحظة تخرجه أن أحد الذين كانوا أقل منه مجهودا ينال هذا العمل وتنفتح أمامه الفرصة .. بسبب قرابة أو صداقة أو محسوبية من أي نوع . هذه الصدمة تذهب بطهارة الشاب كلها . انها تقلب كل القيم التى كان يصدقها رأسا على عقب . انه يتصور ان هذه « القيم » نوع من الدراسات النظرية التى لا علاقة لها بالحياة العملية . انها موضوعات انشائية سخيفة . وتضيع طهارة الشاب أو تضيع جديته . فالجدية ليس معناها التجهم والزهد فى الحياة وعدم الاستمتاع بها . ولكن معناها احترام القيم الاساسية وتصديقها والتصرف على هداها .

هذا الشاب تصبح الدراسة والاجتهاد بالنسبة له سخرية . والرابطة العائلية سخرية والجنس الآخر لهوا

ومغامرة . ان نظرته كلها تتغير . و « حاول أن تنهب ما تستطيع بصرف النظر عن أى شيء » .. سيكون شعارا له بدلا من أن يكون شعاره : « ابذل المجهود لكى تتقدم. كن احسن من غيرك لكى تتفوق ! »

ولذلك فحين نرى بعض الشباب « غير جادين » ، بهذا المعنى السابق للجد .. فانه يجب على الاجيال السابقة دائما ان تحاسب نفسها ، وان تسأل ضميرها. ماذا قدمت للشباب لكى ينقذوا جديتهم ؟ ! ..

ولا احد ينكر أن مجتمعنا ـ بماضيه وحاضره ـ مثقل بشوائب كثيرة . ولا أحد ينكر ان النزعات القبلية ما زالت تسكن المدينة وان المحسوبية والاهمال والكسل وعدم الاهتمام والمنافسة غير المشروعة فى مجالات العمل .. الى آخره .. أشياء ما زالت عميقة ومنتشرة . ومن الطبيعى ان الشباب حين يدخلون هذا «الطقس» تصيب بعضهم العدوى .

وفى الوقت الذى يجب أن نحرص فيه أقصى الحرص على « حصر العدوى » .. يجب الا نسرع بلوم الشباب حين يصاب بالعدوى فعلا .. وحين يصبح غير جاد .. وكأنه هو الذى حمل العدوى الينا ، ولسنا نحن الذين حملنا العدوى اليه ! ..

واذا كان بعض الشباب يفقد جديته بفعل النماذج السيئة التى يصادفها ، فبعض الشباب يفقدون جديتهم للسبب العكسى ، وهو المبالغة فى القيود والسدود التى نفرضها عليهم !

فالشباب آخر الأمر لهم عقولهم وقلوبهم التى يفكرون ويحسون بها ، وحين يرون الكبار يحاولون أن يفرضوا عليهم أفكارا اجتماعية بالية ، هى من تركة عصر مضى ، فانهم ينقلبون الى موقف من التحدى وعدم الثقة بأي

شيء يقدمه لهم الكبار ، تماما كالأب الذى يحاول مطالبة ابنته اليوم بألا تذهب الى السينما مثلا ، انها لن تقبل هذا القيد أبدا والعصر من حولها يعاكس رأى أبيها تماما ، انها اما ستثور على أبيها وتناقضه تماما ، واما سوف تنصرف الى ممارسة كل ما تريد فى السر ، وفى كلتا الحالتين تنقطع الصلة بينهما تماما ، وترفض هى من أبيها الحسن والسيىء على السواء وتفقد الثقة بقيمته كلها ، وقد تصبح غير جادة أبدا !

واعود الى القضية العامة ...

ان الشباب يكونون أكثر جدية وحماسة ، كما قلت ، حين يصدمهم شيء ، يشعرون بالرغبة فى مقاومته والتغلب عليه ..

والخدمة العامة نفسها تستهوى نفوسهم حين يتوافر لها عنصر الحماسة والاثارة والتحدى ..

فما هى القضية التى يمكن أن تثير فى نفوس الشباب هذه الطاقة من الحيوية والاهتمام ؟ ..

لقد أشرت فى صدر المقال الى الاشياء التى كانت هدف حماستهم ثم زالت ولكن بقى لنا ولاشك الكثير مما يمكن أن تتجه اليه طاقة الجدية والحماسة والتحدى فى الشباب ..

ولكنى أقترح قضية بالذات ...

هى قضية : التخلف !

انها قضية « الفقر » الذى قال عنه على بن أبى طالب انه لو كان رجلا لقتله ! .. فهى قضية لا تحلها الاعمال العنيفة ، انما يحلها المجهود العنيف والمثابرة العنيفة !

لو أمكننا أن نجسد « التخلف » فى بلادنا بوصفه « الدراما » الكبرى التى تواجهنا .. تماما كما كان الاستعمار مجسدا .. فمن المستطاع ان نثير مخيلة

الشباب بحيث تنفع حماستهم بآلاف الوسائل المختلفة

وانه من الممكن أن نجسد « التخلف » كعدو وطنى ، وأن نجسد مهمة محاربة التخلف كمهمة لا تقل شرفا عن مهمة محاربة المعتدين فى بورسعيد ، يوم تطوع لها كل الشباب !

بشرط أن يكون هذا التجسيد عميقا ..

نجسد التخلف المادى ...

نجسد التقدم الذى تسير فيه البلاد الاخرى والعوالم الجديدة التى يكتشفها الجهد الانسانى يوما بعد يوم..

ونجسد أسباب التخلف .. حتى الاسباب النفسية والاجتماعية والاخلاقية ..

ونجسد ما يمكن عمله ...

ونجسد جريمة الذين يخربون أو يعرقلون مهمة محاربة التخلف ، عن طريق الكسل أو المحسوبية أو استغلال المركز او الدوافع الشخصية كأنهم يخربون قضية وطنية !

نجسد بطولة الذين يعملون ... كأبطال وطنيين وشعبيين ..

الشباب والحب

هل هناك مكان للحب فى حياتنا الجديدة ؟ ..

اننا ننطلق فى الطريق الى بناء مجتمع اشتراكى ، ونحن نريد أن نشحذ كل همة من أجل زيادة الانتاج ومضاعفة الدخل ، وقد نحتاج الى التقشف فى هذا الفرع من فروع الحياة أو ذاك

فهل هناك مكان للحب فى حياتنا الجديدة ؟ ..

هل مطالبة المجتمع بأن يحول فوضى حياته الى خطة مرسومة ، معناها تحويل الانسان الى مسمار فى آلة ، أو الى كيان ميكانيكى أصم ؟ هل معناها تجريد الفرد من انسانيته التى تجعله يقع فى الحب ، ويبحث عن المتعة ، ويرتكب الحماقات ، ويستلقى على ظهره فى ليلة جميلة ، لا يفعل شيئا سوى أن يتأمل النجوم ؟..

اننا محتاجون الى كل دقيقة من وقت كل مواطن ومواطنة ، لأننا نريد أن نبنى فى سنوات ما بناه غيرنا فى عشرات من السنين ، فهل معنى ذلك أن نلغى الدقائق التى تنفقها الفتاة أمام مرآتها ، أو التى ينفقها الفتى فى ترتيب رحلة أو سهرة مرحة ؟ ..

اننا نريد أن نحمى مجتمعنا من الانحراف والضعف فهل الحب انحراف ؟ وهل الوقوع فى هوى الطبيعة الجميلة ضعف ؟ ..

ليس هذا صحيحا !.. بل ان الذين يقولون هذا الكلام ، اما انهم خصوم للمجتمع الجديد ، يريدون تشويه صورته مقدما ، وأما انهم ناس لايهمهم الا أن يكونوا أكثر المتكلمين حماسة وتطرفا ، ولو على حساب المجتمع الجديد نفسه !

ومن الممكن أن نقول ببساطة : ان المجتمع الذى يعمل وينتج ، هو المجتمع الذى يعرف كيف يستمتع بحياته ، أن الكثيرين منا يقعون تحت وهم الصور الناقصة التى تنقل اليهم عن الخارج .. ! فالناس يقرأون ويشاهدون الافلام عن لندن وباريس ونيويورك وغيرها ، فيظنون أن لندن ليست سوى حدائق هايدبارك حيث يباح الهوى ، ونيويورك ليست سوى شارع برودواى حيث أكبر مسارح اللهو ، وباريس ليست سوى مونمارتر حيث يسهر الفنانون بلا عمل حتى الصباح..! ولكن هذه ليست انجلترا وفرنسا وامريكا ان أهم ما فى هذه البلاد هو الجهد العنيف ، هو المناطق الصناعية الهائلة ، هو قاعات العلم ومعامل البحث وأفران الحديد المصهور .. ! والذين تراهم الشوارع والحدائق والمسارح يلهون ويمرحون ، هم أنفسهم الذين تراهم المعامل والمصانع والمدرجات يبحثون ويعملون ويتصببون عرقا .. ! ان ازدهار اللهو جاء نتيجة لازدهار العمل وليس العكس .. !

وبالعكس .. يقرأ الناس عن موسكو مثلا فيحسبون انها مجرد معسكرات هائلة للعمل الشاق العنيف ، وان الناس هناك لايبتسمون ، وهذا أيضا غير صحيح. ففى هذه البلاد التى قفز فيها الانتاج .. قفز أيضا عدد المسارح الهائلة ، وانتشرت الحدائق المضيئة طول الليل والغاصة بأنواع التسلية والالعاب ، وبدأت الشوارع

والحدائق تزدحم بالشباب الذين ينفقون ، لأنهم يؤدون عملهم ويكسبون .

ولـكن .. تعالوا نفكر فى الموضوع من زاوية اخرى

ان الحب يتأثر الى حد بعيد بنظام المجتمع ، وبدرجة نموه الاجتماعى والاقتصادى

ولو حاولنا أن نتتبع تطور الحياة فى اسرة واحدة ، خلال عدة اجيال ، لوجدنا الدليل على ذلك .

فى البدء ، كان المجتمع ــ بوجه عام ــ اقطاعيـــا ، وسيادة النظام الاقطاعى معنـاها ان تقاليـد المجتمع واخلاقه وعاداته كلها تنتسب الى هذا النظام . فى ظل هذا النظام نجد الأب يتمتع بسلطة مطلقة على زوجته وعلى اولاده واحفاده ، سلطة أشبه بحق الملكية الخاصة ، بل انها بالفعل ملكية خاصة ، فالزوجة مملوكة لزوجها ، اشتراها من أبيها بمهر ضخم ، اشتراها دون اختيارها وهى تعلم جيدا أن مهمتها هى أن تخدمه وتطيعـه وتخلص له ولا تناقش رغباته .. فى حين انه هو ليس مطالبا بالوفاء أو الاخلاص لها .. وكذلك الابن أو البنت بالنسبة له .. الابن اذا عمل فهو يعطى ايراده لأبيه ، واذا تزوج فأبوه هو الذى يختار له زوجته ، وهو على الاغلب .. يقيم بأسرته الجديدة مع ابيه . أما البنت فوضعها معروف ، مثل وضع امها تماما .. !

وفى صفقات الزواج تلعب قيمة المهر وثمن الشبكة وكمية العقـارات التى يملكها الزوج الدور الأكبر فى الاختيار . فالمال فى حد ذاته له قيمة خاصة مستقلة عن قيمة الرجل ..

ولـكن هذا الوضع تغير الى حد بعيد .. وما زال يتغير باستمرار .. اكتسبت المراة حق التعليم والعمل، وبهذا كسبت حق الاختيار وحق المسـاواة ، وليس

ضروريا أن تعمل كل النساء ليتمتعن بهذا الحق ، ولكن ظهور هذا الحق يترك أثره بالنسبة لجميع النساء ، وكذلك بالنسبة للأبناء والبنات . لقد زاد حقهم فى الاختيار والاستقلال والانفصال ، أصبح الشاب او الشابة يختار مستقبله ويختار شريك حياته ويستقل بمعيشته ، وفى الزواج تراجعت أهمية الشبكة والمهر ، وتراجعت دلالتهما على نوع « العريس ! » فقد بدا الاحساس ينمو بأن القيمة الاساسية هى قيمة العمل . والعمل صفة لاصقة بالشخص لا تنفصل عنه ، وهى المعيارالذى يقاس به ، ولذلك أصبح «العريس» الناجح أو المتعلم أو الذى « له مستقبل » أهم من عريس خامل استطاع أبوه أن يدفع له مبلغا ضخما فى المهر والشبكة ، أو من عريس خامل يملك بضعة فدادين .

فى نموذج هذه الأسرة .. نجد ان التطور الاجتماعى ، الذى يستند الى تطور مادى واقتصادى ، قد غير معالم الحب القديم تماما . لم يعد الحب هو الخضوع ، ولكنه أصبح المساواة والاحترام ، لم يعد الحب يطالب المرأة — دون الرجل — بالوفاء ، بل أصبح يطالب الاثنين على السواء بهذا الوفاء .. لم يعد الحب قرارا يصدره الأب لابنته بأن تعيش لهذا الرجل أو ذاك .. ولكنه قرار تصدره الفتاة بنفسها ، لأنها هى التى سترتبط به

وليس هذا سوى مثل بسيط جدا ، يصور لنا مدى الاندماج التام بين نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وبين الحب .

ولنقارن مثلا بين فتاة لم تتعلم ولم تعمل وأبوها يعولها بصعوبة .. وبين نفس الفتاة لو انها تعلمت ، وأصبحت تعمل ..! انها فى الحالة الثانية تستطيع أن تخرج .. أن تذهب الى السينما .. أن تبحث عن ثوب

تشتريه وعن ذوق يناسبها .. أن تختار شريك حياتها أو توافق على اختياره لها .. ان تكون لها صديقات..!
والفرق هو التغير المادى والاجتماعى الذى حدث لها نتيجة ثقافتها وعملها .. !

كذلك البيئة الاجتماعية كلها ..

ان الكاتب « كريستوفر كودويل » الذى حارب الفاشية فى أسبانيا حتى سقط قتيلا وهو فى ريعان الشباب ـ هذا الكاتب كانت له كلمة جميلة تقول :
« ان المجتمع عبارة عن انتاج اقتصادى ممزوج بالحب! وكما ان الحب هو الذى يجعل الحياة تمضى ، فان الطريقة التى تمضى بها الحياة تؤثر فى صورة الحب ! »

والحب ليس حب الرجل والمرأة فقط . انه حب الآباء والأبناء .. حب الازواج والزوجات.. حب الطلبة والاساتذة .. حب الرؤساء والمرؤوسين .. حب الزملاء والرفاق .. وهو يتمثل فى صور أخرى كثيرة .. كحب الانسان لوطنه، أو حب الناس جميعا ومشاركتهم لأى انسان يمر بمحنة .. كل هذه ألوان من هذا الحب الذى يحرك الحياة .. وكلها ألوان من الحب تؤثر فى قرارات كلّ فرد وفى مواقفه ومشاعره .. وكلها ألوان مرتبطة ببعضها البعض.. فالشاب الذى يعجز عن حب زوجته يعجز أغلب الأمر فى النهاية عن أن يحب أى شىء آخر فى المجتمع ، كذلك فان الرجل الحاقد الكاره للحياة والناس والمجتمع ، يستحيل عليه فى الواقع أن يحب فتاة واحدة حبا حقيقيا سليما صادقا .. !

واغلب انواع الانحراف ترجع فى الواقع الى نقص فى الحب .. وأى شاب ينحرف يرجع انحرافه دائما الى نقص فى حب أهله أو أساتذته أو زملائه .. أو الى شعوره بأن « المجتمع » بوجه عام ، ككيان واحد ،

لايحبه ..! وكلما انتشر الانحراف ، كان هذا دليلا على اختفاء الحب من الحياة .

والتخلف الاقتصـادى من اكبر العوامل التى تطرد الحب من المجتمع .. !

انالتخلف الاقتصادى، وعدم مجاراة المجتمع لمطالب الناس المتزايدة ولوعيهم الذى ينمو ، والفروق الهائلة بين الطبقات .. كل هذا يؤدى فى النهاية الى ضيـق الارزاق ، وضيق الصدور ، وارتفاع موج العداوة على موج المحبة .. فى هذا الجو ستجد الابن ساخطا على ابيه ، لأنه لا يفهمه ولا يعطيه ما يريد . وستجد الاستاذ ساخطا مهملا لتلاميذه لأن المجتمع لايكافئه على جهده ولا يوفر له حياة معقولة مقابل هذا الجهد .. وستجد الشاب الناشىء ممزقا بين احلام حياة رغدة وبين واقع حياة ضيقة مغبونة . انه على الاقل ييأس من أن يتزوج ويؤسس لنفسه بيتا .. فييأس بالتالى من العلاقات المشروعة ، ويلجأ الى الانحراف .. وهكذا ..

وعندما يتقهقر الحب .. يحل محله شعور مزدوج من الحرمان والاشتهاء .. كل واحد يحس بالحرمان والاشتهاء معا .. اشتهاء الجنس أو اشتهاء المال ، أو اشتهاء المركز والنفوذ .. والاشتهاء غير الحب . ان الاشتهاء هو اقتناص لذة عابرة ، أما الحب فهو احساس بناء ، تمتزج فيه العاطفة بالمسئولية . ان المجتمع فى هذه الحالة لا يتقدم ولا يتطور بنظام .. انما تتقرر فيه أشياء كثيرة بنـاء على الحظ والفرصة .. وكل واحد عليه أن يمسك بفرصتـه الخاصة ولو على حسـاب الآخرين ، والا اقتنصها الآخرون على حسابه ..! الحل العام لمشكلة المجتمع غير موجود فلا مفر من الحلول الخاصة بكل فرد ! وهى عادة حلول وقتيـة فردية

ضيقة .. هى التربة الخصبة للانحراف.. وهى التربة الخصبة لكل ما يغذى الانحراف مثـــل ادب الانحلال وأفلام الانحلال وفكر الانحلال .. وكل ما يهيىء للفرد فى الخيال حياة لن يحققها فى الواقع .. وكل ما يبرر للفرد انحرافه الخاص اذ يقول له : ان الجميع هكذا ! والدنيا كلها هكذا .. !

واعود مرة أخرى الى كلمة جميلة قالها «كودويل» : « ان تحويل الحب الى شذوذ وانحراف .. هو خيانة لقدرة الانسان على الحب .. ! »

وبعد .. فهل هناك علاقة مباشرة بين هذه الرحلة الطويلة ، وبين مجتمعنا الجديد .. ؟

نعم ..

ان نقطـــة الارتكاز فى اى كلام عن مجتمع اشتراكى هى : أغلبية الشعب وليست فئة محدودة منه .. ! فحين نتكلم عن حق الانسان فى كذا وكيت ، نقصد بهذا « الانسان » مجموع الشعب ، وليس فئة قليلة طافية على السطح .. !

وبنفس المنطق .. حين نتحدث عن الحب ، ومكانه فى المجتمع الجديد ، لا نتحدث عنه داخـــل الطبقـــة الاجتماعية الغنية اللامعة وحدها .. انما نتحدث عن مكانه ومستقبله بالنسبة لمجموع الشعب ..

ومشكلة الشعب ـ بمجموعه ـ هى زيادة الانتاج ! هى تكريس كل شىء لرفع مستوى المعيشة .. لتطوير المجتمع ماديا واقتصاديا واجتماعيا بما يسمح للحب أن يزدهر .. ويصبح عاطفة من عواطف الصحة لا المرض ، ومن أسباب السلامة ، لا الشذوذ .. !

اننا لا نستطيع أن نقول ان الناس فى بلادنا عندهم سيارات كاديلاك ، لمجرد أن هناك بضع مئات عنـــدهم

سيارات كاديلاك ..! كذلك لا نستطيع أن نقول ان الناس فى بلادنا يتمتعون بعاطفة الحب .. لمجرد ان هناك عددا محدودا نسبيا يتمتع بهذه العاطفة ! لا نستطيع أن نقول ان كل شاب وشابة فى الثلاثين مليونا الذين يسكنون بلادنا ، تسمح لهم ظروفهم المادية والاجتماعية والثقافية بالاستقلال والاختيار ، وتذوق العواطف الجميلة والاشياء الجميلة !

كما ان الثراء فى بلادنا كان احتكارا للقليلين.. كذلك كان الحب ، وكان تذوق الجمال ..! هناك ملايين تنهكهم الحاجة .. الحاجة الى الغذاء والى الصحة والى الكساء والى الراحة .. وهذه الحاجة تحرمهم من ممارسة شتى الوان الحب والاستمتاع بجمال الناس والفن والطبيعة .. بينما توجد قلة تحترف الحب احترافا ، كما يحترف آخرون فلاحة الارض مثلا..! وعندما تحول الحب عند هذه القلة الى حرفة لم يعد الحب بالنسبة لها حقيقة تعيشها بل أصبح أدوارا تمثيلية تؤديها وتبدلها .. وتعطى بها للناس صورة مشوهة عن الحب .. !

انما نريد فى مجتمعنا الجديد أن تتسع قاعدة الحب. الحب الذى ينبت كالزهرة فى تربة من الشعور بالعدل وعدم الغبن ، والاطمئنان الى التقدم ، والقدرة المادية والمعنوية على ممارسة الاختيار والانتقاء . ان الوردة اذا غرستها فى تربة فقيرة واغلقت عليها هواء فاسدا سرعان ما تذبل وتتعفن وتجف .. وكذلك كل عواطف الحب فى المجتمع .. حب الرجل للمرأة ، والآباء للأبناء ، والاساتذة للطلبة .. وكل حب آخر يحرك الحياة .. !

الأمريكي الهادئ

قد يعجب قارىء اليوم اذا تذكر ان دولة كبرى ، هى الولايات المتحدة الامريكية ، تلعب مثل هذا الدور الحاسم فى حياة العالم ، اذ لم يكن لها دور يذكر على مسرح الحياة الدولية منذ عشرين أو خمسة وعشرين سنة . وهو زمن يمر كغمضة العين فى حساب التاريخ.

لقد زحفت انجلترا أو فرنسا ــ مثلا ــ الى مركز التأثير فى حياة العالم أجمع خلال مئات من السنين ، تكونت لكل منهما فيها خبرات وتجارب وتقاليد . أما امريكا فقد وجدت نفسها ــ فجأة ــ فى مركز الصدارة ، تحمل مسئوليات كبرى فى القارات السبع ، بلا خبرة ولا تجربة ولا تقاليد . بل انها تمتعت ــ لفترة خاطفة من الزمن ــ بميزة ربما لم تتمتع بها دولة من قبل ، هى : احتكارها لسلاح خطير حاسم لاتملكه أي دولة أخرى سواها ، هو القنبلة الذرية .. قبل أن تتمكن روسيا ، ثم انجلترا ، من صنعها ..

والواقع انه الى وقت نشوب الحرب العالمية الثانية ، كانت القوتان الكبريان اللتين تؤثران فى مصير العالم اليوم ــ روسيا وأمريكا ــ غير موجودتين على مسرح السياسة الدولية . كانت كل منهما عاكفة داخل حدودها ، تنمي كيانها الهائل ، منصرفة الى حد بعيد عن التطفل

على مشاكل العالم المعقدة فى القارات السبع : الاتحاد السوفييتي يركز جهوده على انجاز تجربته الاجتماعية الخطيرة الهائلة ، ويخوض بحار المشاكل الداخلية من اجل تحويل المجتمع البدائى المتخلف الاقطاعى الى مجتمع شيوعى وصناعى . وأمريكا ، مكتفية بنفسها ، أو بالاحرى مكتفية بنصف الكرة الغربى ، أي ببلادها وبدول أمريكا الجنوبية التى كانت تعاملها دائماً على انها « حديقة خلفية » لبيتها الكبير .

ومع ذلك ، فان الفرق شاسع حتى بين روسيا السوفييتية وامريكا فى هذا المجال ، مجال الاهتمام بالسياسة الدولية والمشاركة فيها .

فالاتحاد السوفييتى ، قبل الحرب العالمية الثانية ، كان عضوا فى عصبة الامم بينما كانت أمريكا غير مشتركة فيها . وكانت روسيا على صلة بتقلب الاحداث والنظم والتيارات فى القارة الاوربية مركز العالم العصبى فى ذلك الوقت ، بينما كانت أمريكا تنظر عبر المحيط الى أولئك الاوربيين المتنازعين ، نظرة استخفاف ، نظرة فيها مزيج من عدم الفهم وعدم الاهتمام .

يضاف الى ذلك ــ وهو الأهم ــ ان عقيدة النظام السياسي فى الاتحاد السوفييتى أقدم فى الايمان «بالعالمية» من النظام الامريكى .

فالثورة الشيوعية التى انتصرت فى روسيا سنة ١٩١٧ لم تر نفسها ــ منذ البداية ــ على انها ثورة روسية أبدا . ولا على انها ثورة أوربية فحسب . انما هى قد أعلنت نفسها منذ البداية «ثورة عالمية» ، سيرا على العقيدة التى أعلنها كارل ماركس وفردريك انجلز صاحبى « البيان الشيوعى » فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وعلى هذا فمع مولد الدولة الشيوعية

الاولى ولد ايضا « الكومنترن الشيوعى » الذى يضم الاحزاب الشيوعية فى البلاد الاخرى ، والذى يحلم بأن يكون له فى كل قطر من أقطار القارات السبع حزب شيوعى ، تمهيدا لقيام نظام شيوعى عالمى . بل لقد عاشت الثورة الشيوعية بعد انتصارها فى روسيا سنوات طويلة وهى تنصت للعالم الخارجى ، متوقعة أن تسمع يوما نبأ انفجار الثورة فى أماكن أخرى ، مؤمنة بأنها لايمكن أن تعيش وحيدة فى وطن واحد . فهى لم تعمد الى العزلة الا اضطرارا ، ولم تقبل فكرة بناء الشيوعية فى وطن واحد الا على مضض ، والىحين

فالاتجاه العالمى جزء لا يتجزأ منالعقيدة الشيوعية ، وبالتالىمنالسياسة السوفييتية ، والاتحاد السوفييتى اذا كان قد ظل منكمشا حتى أحداث الحرب العالمية الثانية فعن اضطرار ، لا عن رغبة واختيار . كما ان انكماشه كان نسبيا ، اذ بقيتصلته بالاحزابالشيوعية الخارجية قائمة على اى حال ..

أما بالنسبة لأمريكا فالصورة مختلفة . فقبل « روزفلت » لم تعرف أمريكا هذا الاحساس بأنها جزء من العالم وانها مسئولة فيه . حتى ويلسون ، الذى قاد خطواتها فى الحرب العالمية الاولى ، ذهب الى العالم القديم وعاد ، كما يذهب الجار الذى يحاول أن يفض مشاكل جيرانه ، دون أن يتورط معهم بحيث يصبح طرفا دائما فى مشاكلهم . والى ما بعد روزفلت بكثير ، ظلت دعوة « العزلة » فى أمريكا دعوة قوية لها أنصار كثيرون . بل انه يمكن القول ان أمريكا لم تعتنق — اخيرا — فكرة العالمية اعتناقا نهائيا الا كرد فعل لخروج التحدى الشيوعى الى المرحلة العالمية .

ولاشك انه من الصحيح القول ان نمو النظام

الرأسمالى فى أمريكا ، كان من شأنه أن يخرج بها عن عزلتها ، دون حاجة الى وجود التحدى الشيوعى ، لأن النظام الرأسمالى من طبيعته بعد أن يتشبع به السوق المحلى ، أن يبحث لنفسه عن أسواق خارجية جديدة .
وقد بدأت الرأسمالية الامريكية بالفعل تتجه الى العالم الخارجى بشهية هائلة ، تمثلت بعدمضغ أمريكا الجنوبية وهضمها ، فى التهام أو مشاركة كثير من معاقل ثراء الرأسمالية الاوربية.. فوجدناها تضع يدها على بترول المملكة السعودية ، وتشـارك انجلترا فى بترول ايران والعراق ، وتشارك بلجيكا فى مناجم الكونغو ، الى آخره

كل هذا صحيح ولاشك . ولكن المؤكد ان التحدى الشيوعى هو الذى جعل أمريكا تندفع الى شتى أركان الارض بهذه اللهفة الهائلة التى لا مثيل لها ، كأنها تريد أن تصبح مسئولة عن أقدار كل شعب على الارض من كوريا الى لاوس الى الكونغو .. الى جزر هاواى ..

وقد اندفعت أمريكا بالفعل ، أندفعت من أرضـها الحافلة بالثراء ، المزدحمة بناطحات السحاب ، التى لم تنفجر فيها قنبلة منذ انتصار ابراهام لنكولن فى الحرب الاهلية الامريكية .. اندفعت الى العالم القديم ، الممرغ فى التراب.. أوروبا «الحاكمة» محطمة مخربة منهوكة القوى ، وسائر البلاد « المحكومة » فى آسيـا وافريقيا رازحـة تحت ما هو أبشـع من التخريب والتحطيم .. رازحة تحت الاستعمـار ، تحت ظلام أرهق جسدها وكاد يزهق روحها بعد مئات طويلة من السنين ..

اندفعت أمريكا الى جميع أركان الارض .. بمزيج من الثراء الفاحش ، والسذاجة ، وضـيق الافق ، والشهية ، وعدم الدراية . فجأة أصبح ملوك الصابون

ساسة سفراء وخبراء . فجأة أصبح رجل الاعمال الامريكى الذى نجح فى ادارة مصانعه وتسويق منتجاته ، هو النبى الجديد الذى يستطيع أن يدير شئون أى بلد فى العالم ، وأن يصف له الدواء الصحيح .

ولم يكن هناك الا دواء واحد : بضعة ملايين من الدولارات ، وأسلحة يحاربون بها الشيوعيين ، وطبقة تعرف طعم الحياة الامريكية بشتى منتجاتها من أفلام هوليوود الى السيارات الكاديلاك !

وفجأة وجدت أمريكا نفسها غائصة الى عنقها فى مشاكل غريبة .. وجدت أقدامها قد انفرزت فى طين من تعقيدات لا علم لها بها .. فى افريقيا .. فى جنوب شرق آسيا .. وفى الشرق الاوسط .. وربما فى كل مكان !

وأسوأ ما فى الأمر أن أمريكا لم تكن لها « سياسة قومية » فى جميع الظروف بالمعنى المفهوم من كلمة سياسة . فحتى السياسة الخارجية دخلت بشكل غريب فى منطق « الاقتصاد الحر » هناك . وأصبحت بعض القضايا الخارجية لها «توكيلات» ولها «قوى ضاغطة» ، تلك التي يسمونها Pressure Groups . فشركات البترول فى الشرق الاوسط مثلا تدافع عن الملوك العرب ، ومؤسسات أخرى تتبنى قضية الصين الوطنية ، التى تقلصت وأصبحت فورموزا ، ومؤسسات يهودية تتبنى قضية اسرائيل ، وهكذا ..

وعندما أطلق تشارلز ويلسون وزير حربية ايزنهاور والمدير السابق لشركة «جنرال موتورز» كلمته الشهيرة « ان مايفيد جنرال موتورز يفيد أمريكا » لم يكن يقرر الا حقيقة واقعة . فشركات كذا تحدد سياسة أمريكا فى أمريكا الجنوبية ، وشركات كيت مصلحتها فى الشرق الاوسط تأييد هذا النظام أو ذاك .. الى آخره .

ومرت سياسة أمريكا الخارجية بفترة عصيبة. حتى البلاد التى تغرقها أمريكا بملايين الدولارات أصبح العداء فيها لأمريكا شيئا عاديا. وحيث يختفي العداء السياسى يوجد نوع آخر أعجب من العداء العاطفى .

وتصاعد النقد حتى من داخل امريكا نفسها . وكان من مظاهر هذا النقد ظهور عدد من الاعمال الادبية التى احدثت ضجة كبيرة ، ربما كان ابرزها الروايات الثلاث « النصيحة والموافقة » و « الامريكى الكريه » و « الامريكى الهادىء » ..

والروايتان الاوليان هما فى رأيى أقرب الى الاعمال الصحفية والسياسية لا الى الاعمال الفنية . ولكن الرواية التى تتوافر لها شروط العمل الفنى الرفيع ، هى الرواية الثالثة « الامريكى الهادىء » وهى من تأليف كاتب غير أمريكى ، هو الكاتب الانجليزى الشهير جراهام جرين .. وهى الرواية التى سأحاول أن أقدمها هنا فى اسهاب ، بعد أن أشير اشارة خاطفة الى روايتى « النصيحة والموافقة » ثم « الامريكى الكريه » .

الرواية الاولى هى رواية « النصيحة والموافقة » ومؤلفها صحفى أمريكى اسمه «آلن درورى» وقد نالت جائزة بوليتزر .

وهذه الرواية الفائزة بالجائزة وموضوعها : الحياة السياسية الامريكية من الداخل . حوادثها تدور فى واشنطون فى سنة ١٩٦٢ ، أبطالها هم رئيس جمهورية الولايات المتحدة ووزير خارجيتها ، وزعيم الاغلبية فى الكونجرس الامريكى ، واقطاب الحزب المعارض .. وسفراء الاتحاد السوفييتى وبريطانيا والهند وفرنسا فى أمريكا .. وبعض نساء المجتمع الامريكى .

اننا نقرأ كل يوم فى الصحف عن مناقشات الكونجرس

الامريكى .. وخلافات الكونجرس مع رئيس الجمهورية. ولجان التحقيق التى يشكلها الكونجرس للبحث فى نشاط الحكومة .. وفى هذا الجو كله تدور هذه الرواية التى تقع فى ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير .. والتى ينتحر فيها أحد أعضاء الكونجرس البارزين !

ان المشكلة التى تثير أحداث القصة هي : ان رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد اصدر قرارا بترشيح مستر «لفنجويل» ليكون وزيرا للخارجية ، والدستور الامريكى يقضى بأن رئيس الجمهورية يرشح الوزراء ، وان الكونجرس يجب أن يوافق على التعيين .. ولذلك فقد أرسل رئيس الجمهورية اسم المرشح الى الكونجرس لاقراره ...

ولكن اختيار « لفنجويل » لمنصب وزير الخارجية يثير ضجة هائلة ! انه شخصية من تلك الشخصيات التى تثير الجدل العنيف ، والتى يختلف الناس فى شأنها .. فبعض الناس يرونه كفؤا وماكرا يستطيع أن يواجه السوفييت فى المباحثات الدولية القادمة وفى مؤتمرات الاقطاب المتوقعة.. وبعض الناس يعتقدون انه انتهازى عريق .. لا رأى له ولا ولاء لأى شيء ولا لأى مبدأ.. ومن هنا تثور العواصف .. ويدور الصراع العنيف ، فى افق واشنطون السياسى .. فالمعارضة فى الكونجرس عنيفة ضد اختيار « لفنجويل » .. ولكن رئيس الجمهورية ، وقد أعلن اختياره ، أصبح من كرامته أن يحصل على موافقة الكونجرس بأى شكل ... ومهما كان السلاح !

وحوادث القصة تروى على لسان أربعة أشخاص من ابطالها ...

الاول : هو « مونسون » زعيم الاغلبية فى الكونجرس

فهو زعيم الحزب الموالى لرئيس الجمهورية والذى يتمتع بالاغلبية فى المجلس ، ومعنى ذلك ان مهمته هى العمل على اقرار هذا الترشيح من الكونجرس بأى ثمن .. ان «مونسون» رجل جذاب ، له تجربة طويلة فى الكونجرس، وهو فى نفس الوقت صديق حميم للسيدة «دوللى» .. تلك الأرملة المليونيرة .. التى وجدت نفسها بعد وفاة زوجها ، بملايينها الكثيرة ، تحيا حياة راكدة فى احدى الولايات .. فقررت أن تنتقل الى واشنطون حيث تستطيع أن تمارس حياة اجتماعية حافلة.. وقد نجحت «دوللى» فى ذلك الى حد بعيد .. فأصبحت حفلاتها تضم أبرز الشخصيات وأهمها .. ولما كانت «دوللى» تحب «مونسون» زعيم الاغلبية ، وتريد أن تتزوجه ، فهى تساعده فى حياته السياسية ، بأن تقيم فى بيتها الحفلات التى تضم اكبر الشخصيات ، حيث يتاح « لمونسون » أن يلتقى بهم وينشىء علاقات صداقة معهم ومع سفراء الدول الاجنبية ، وكبار الشخصيات التى تزور العاصمة ..

البطل الثانى : هو «سيب كولى» وهو واحد من اقوى أعضاء الكونجرس وأشدهم مراسا وأكثرهم عنادا ، وهو فى نفس الوقت يكره « لفنجويل » المرشح لوزارة الخارجية ، كراهية شديدة .. لأن « لفنجويل » قال له مرة ، فى وجهه ، انه كذاب ... وقد جاءت الفرصة لكى ينتقم فيها «سيب» من « لفنجويل » .. ولذلك فهو يتزعم الحملة لرفض هذا الترشيح ..

البطل الثالث : هو « اندرسون » رجل مثالى حقا ! شريف ونزيه الى أقصى حد .. وهو متزوج من سيدة جذابة اسمها «مابل» .. تحبه كثيرا .. ولكنها تشعر دائما ان هناك شيئا خفيا يفصل بينهما .. وكثيرا ما

توهمت انه لا يحبها !

والبطل الرابع : هو « نوكس » ، وقد كان مرشحا لرئاسة الجمهورية ضد رئيس الجمهورية ، ولكنه سقط فى الانتخابات ... انه رجل كفء وذكى ومثقف ولكنه ينطوى على مرارة نحو رئيس الجمهورية منذ تلك المعركة الانتخابية ..

وقد تفاقم الخلاف فى الكونجرس حول هذا الترشيح .. فتقرر تكوين لجنة تحقيق لبحث الموضوع ، تقوم باختبار المرشح ، وتقدم تقريرها بناء على هذا الاساس. ولما كان موضوع دراسة اللجنة دقيقا ، فقد اختاروا لرئاستها « اندرسون » ، الرجل الشريف المثالى ، لأن سمعته ونزاهته وتجرده فوق مستوى الشبهات ... وهو الوحيد الذى لن يتهم بالتحيز .. أما أعضاء اللجنة فكلهم من الاعضاء البارزين فى الكونجرس.. ومناقشات اللجنة وجلساتها سرية ..

ولكن اللجنة تفاجأ بظهور شاهد يقول أمامها : ان « لفنجويل » كان فى شبابه شيوعيا .. وانه عندما كان أستاذا فى الجامعة أسس مع اثنين آخرين خلية شيوعية

المرشح لمنصب وزير خارجية امريكا .. كانت له ميول شيوعية ؟ ان المسألة خطيرة جداً.. ولذلك يجب التريث والتدقيق فيها .. ومن هنا قالت اللجنة انها لا تستطيع ادانة المرشح بناء على شهادة شاهد واحد فقط ..

ولكن المتحمس لاثبات هذا الاتهام هو «سيب كولى» ، خصم « لفنجويل » القديم .. وهو لذلك مصمم على احضار الاثنين اللذين قيل انهما اشتركا معه فى تأسيس هذه الخلية .. ان أحد الاثنين قد مات ، ولكن الثانى موجود . يعثر عليه « سيب » ، ويجعله يتصل برئيس

اللجنة ، « أندرسون » ، ويروى له كل شىء .

ويجد « اندرسون » ان الموقف قد أصبح خطيرا . ان أحسن تصرف هو الا يذيع هذه الانباء .. على أن يذهب الى رئيس الجمهورية ليروى له كل شىء وينصح له أن يسحب مرشحه فى هدوء .

وكان رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت فى أشد حالات الغضب والثورة . أن تأخير الموافقة على مرشحه كل هذا الوقت فيه اهانة له ! خصوصا أمام الدول الاجنبية ، التى عبر له سفراؤها عن اغتباطهم بترشيح « لفنجويل » .

و « لفنجويل » أيضا له أصدقاء كثيرون ، ولذلك بدأت الصحف تهاجم اللجنة وتهاجم رئيسها اندرسون هاجمته « واشنطون بوست » و « هيرالد تريبيون » و«تايم» و « نيوزويك » ، ومحطتان من محطات الاذاعة

وذهب اندرسون ليقابل رئيس الجمهورية ، وروى له كل شىء ! ..

وفى البداية ، حاول رئيس الجمهورية أن يشترى اندرسون رئيس اللجنة ! لمح له بالمناصب ، ولمح له برشوة غير مباشرة ، فى صورة اعتمادات يستطيع الرئيس أن ينفقها فى الولاية التى ينوب عنها اندرسون فترتفع أسهمه فيها . ولكن اندرسون لم يتزحزح عن موقفه فى مواجهة الحقيقة ، وقال أصدقاء رئيس الجمهورية له : ان اندرسون لايمكن شراؤه .. فرد رئيس الجمهورية قائلا : اذن لابد من تحطيمه !

وتظاهر رئيس الجمهورية بأنه يوافق على سحب ترشيح لفنجويل .. ولكنه طلب من اندرسون بأن لا يذيع أى شىء من الموضوع .. ويوافق اندرسون وهو سعيد لأن الرئيس سيجنب الكونجرس ازمة كبيرة

والواقع ان رئيس الجمهورية لم يتراجع ، ولكنه تظاهر بذلك فقط حتى يكسب وقتا يجد خلاله طريقة لتحطيم اندرسون، وتقع سلسلة من المصادفات السيئة ، تنتهى بتزويد رئيس الجمهورية بالسلاح الذى كان يبحث عنه لتحطيم اندرسون .. وكان سلاحا رهيبا..

لقد عثروا على صورة لأندرسون فى شبابه .. عندما كان مجندا خلال الحرب العالمية الاخيرة.. كانت الصورة له فى هونولولو مع شاب آخر وخلف الصورة اهداء عاطفى غريب من اندرسون الى زميله فى الصورة .. اهداء يثير الشبهة فى ان الاثنين كانت بينهما علاقة شاذة .. ويسرع انصار رئيس الجمهورية الى البحث حتى يكملوا القصة ويتأكد لهم ان هذه العلاقة القديمة حقيقية ..

ان السلاح الذى وقع فى أيديهم رهيب ، وقد بدأوا يهددون به اندرسون .. فماذا يفعل الرجل ؟

انه رجل شريف ونزيه ، وهذه العلاقة القصيرة وقعت له فعلا فى ذلك التاريخ البعيد ، تحت تأثير ظروف الحرب وغيرها . وقد انتهت بسرعة كغلطة لم تتكرر . ومن وقتها واندرسون نموذج للسياسى النزيه الشريف المتجرد عن الهوى .. فماذا يصنع ؟

هل يخضع للتهديد ؟.. ولكنه بذلك سيكذب على الأمة .. وسيوافق على ترشيح وزير خارجية يضر بمصالح أمريكا .. فى رأيه ! ..

هل يتركهم يذيعون القصة ؟.. ان فى هذا تدميرا كاملا له .. ولزوجته .. ولأولاده ..

وفى تلك اللحظة الحرجة .. دس خصومه من اتصل بزوجته وروى لها القصة تليفونيا .. وانهارت الزوجة وفهمت خطأ أن زوجها ما زال يمارس الشذوذ ..

ووجدت فى هذا تفسيرا لهذا الحاجز الغامض بينهما.. وعبثا حاول اندرسون أن يشرح لها ان هذا شيء قديم جدا .. ولكنها تركت البيت ..

كان هذا التخلي من زوجته هو نقطة التحول الحاسمة فى نفسه . فقد قرر أن ينتحر لكى يتخلص من هذا المأزق . وجلس يكتب رسالة لصديقه وزميله «نوكس» يشرح له كل شيء بصراحة تامة .. ثم انتحر ..

وقد تأثر «نوكس» تأثرا عميقا بهذا الحادث ووجد ان الخصوم السياسيين قد استخدموا سلاحا خسيسا وقرر أن يكرس نشاطه لرفض ترشيح لفنجويل .. وكانت العواطف قد اتجهت ضده بشدة .. حتى نجح فى ذلك ، وقرر الكونجرس رفض ترشيح لفنجويل ..

وفى أثناء هذا كله كان الاتحاد السوفييتى قد نجح فى ارسال أول رجال الى القمر وكان الرأى العام العالمى يضغط من أجل عقد مؤتمر عاجل للأقطاب .. ولكن رئيس الجمهورية المريض ، كان يقاسى من أثر رفض الكونجرس لمرشحه .. فمات فجأة ، ذات ليلة ..

وتولى نائب رئيس الجمهورية المكان الذى خلا. وكان نائب رئيس الجمهورية رجلا ضعيفا محدود المواهب ، فآثر أن يختار «نوكس» وزيرا للخارجية حتى يستطيع أن يقف الى جواره ، فى مؤتمر الاقطاب القادم ..

والرواية الثانية هى رواية « الامريكى الكريه » ..

وقد اخترع فيها المؤلفان « وليم ليدرر » و « يوجين بورديك » دولة أسيوية خيالية اسمها «ساركان» تدور فيها حوادث الرواية . ولكنها دولة ذات ملامح حقيقية. فهى بورما أو لاوس أو كمبوديا أو أي دولة من دول هذه المنطقة التى يدور فيها الصراع بين ثلاثة عوامل :

الشيوعية الشرقية ، والرأسمالية الغربية ، والتخلف المحلى !

والفكرة الاساسية التى تريد الرواية أن تثبتها هى : ان المعسكر الشيوعي او الاتحاد السوفييتي بالذات يبعث الى هذه البلاد دبلوماسيين مدربين، خبراء بشئون المنطقة ، ينفذون سياسة محسوبة مرسومة فى دقة هائلة .. فى حين ان أمريكا تبعث ناسا تافهين لايعرفون عن هذه البلاد شيئا . وان هذا هو سر فشل السياسة الامريكية فى تلك البلاد .

ومن أمثلة ذلك ، شخصية السفير السوفييتى وشخصية السفير الامريكى ، كما يرسمها المؤلفان ..

السفير السوفييتى «كروبتزين» كما يرسمه المؤلفان، بدأ حياته الدبلوماسية سنة ١٩٣٥ كسائق سيارة الملحق السوفييتى التجارى فى نيويورك .. فكل رجال السلك السياسى السوفييتى كانوا يبدأون العمل كسائقين وخدم فى السفارات والقنصليات السوفييتية ، يقضون نصف وقتهم فى الخدمة والنصف الثانى فى تلقى دراسات دبلوماسية معينة !.. وبذلك يتجنب السوفييت استخدام اغراب فى سفارتهم من جهة ، ويمكنون شباب السلك السياسى من التدريب الدقيق من جهة اخرى ! ثم نقل كروبتزين الى براغ كسائق أيضا .. ثم الى بكين فى وظيفة كاتب صغير بالسفارة . ثم أعيد الى موسكو ليدرس بضع لغات أجنبية ثم ذهب الى الصين مرة اخرى كمراقب ليتعلم الاختلاط بالآسيويين . ثم عاد الى موسكو ليتخصص فى دراسة منطقة جنوب شرق آسيا بالذات ، وسافر الى هناك فى عدة رحلات . ثم تقرر اختياره سفيرا لروسيا فى ساركان !.. وبدأ هو وزوجته يدرسان لغة ساركان قراءة وكتابة مدة عامين

قبل إن يذهب الى هناك وعلم ان الناس فى ساركان قصار ونحاف ، فقام بعمل رجيم قاس حتى تخلص من بدانته لكى لا يبدو غريبا عليهم مختلفا عنهم ، ودرس الديانة البوذية السائدة هناك والموسيقى الساركانية وكل العادات المحلية بما فيها الجلوس متربعا على الارض بسهولة.. وبعد هـذا ، ذهب ليتسلم منصبـه كسفير للاتحاد السوفييتى فى ساركان ! »

أما السفير الامريكى «سيزر» ، فقد رسم له المؤلفان صورة أخرى .. فهو عضـو فى الحزب الديمقراطى الامريكى ، رشح نفسه فى الانتخابات لعضوية الكونجرس، ولكنه سقط .. ولابد أن يعوض الحزب أنصـاره ، فعرضوا عليه منصب سفير ..

وقال سيزر لهم : ان منصب سفير يحتاج الى رجل غنى ينفق على الوظيفة وانا ضيعت أموالى على الحزب

وفهموا اشارته .. وقالوا له : هناك منصب سفير فى ساركان .. أن مرتب الوظيفـة ١٧ ألف دولار فى السنة ، و ١٥ ألف دولار بدل تمثيل.. فضلا عن انك ستسكن فى بيت فاخرمجانا ، وستشترى الخمور بدون ضريبة ..

ويسألهم : أين الملعونة ساركان هذه ؟

ـ هناك .. عند بورما وتايلاند ..

ـ ولـكننى لا أعرف التعامل مع السود ..

ـ ان شعوب هذه المنطقة ليست سوداء !

ويقبل المنصب ! !

وعندما تعلن الخارجية الامريكية عن حاجتها الى ناس يعملون فى الخارج .. ويجتمع الراغبون فى العمل .. يتحدث اليهم مندوب الوزارة عن مزايا العمل فى الخارج .. فالسفر بالدرجة الاولى والمرتبات كبيرة .. والخمر

والسجاير بالسعر الدبلوماسي الزهيد .. والخدم متوفرون بكثرة فى بلاد آسيا .. والاطعمة الامريكية موجودة فى مقصف السفارة .. وهناك أمريكيون كثيرون فلن يضطر الموظف الى أن يعيش مع أهل البلاد ! !

ويصف المؤلفان حياة الدبلوماسى الامريكى .. انه لايعرف الا البيض من مواطنيه أو من الاوربيين ، وهو يهتم بأن تنشر أخبار نشاطه فى صحف أمريكا لا فى البلد الذى يعمل فيه ، وهو يعتقد انه ناجح اذا كان على علاقة حسنة بالاقلية الفنية فى البلد .. ويقضى أغلب وقته فى الاندية الخاصة ، على الطراز الذى اعتاده فى بلاده ..

ويتحدث المؤلفان عن الجو الذى يعمل فيه الدبلوماسيون الامريكيون فى مثل تلك البلد . فالمترجمون وسائقو سيارات السفارة وعمال التليفونات وغيرهم .. كلهم من أبناء البلد الاصليين مما يجعل التجسس على أعمال السفارة سهلا ! بعكس السوفييت الذين لايستعينون بواحد غريب ، بل يتعلمون لغة البلد قبل الذهاب اليها

ثم ان الدبلوماسيين الامريكان ما زالوا يركزون نشاطهم فى حفلات الكوكتيل . فى حين انهم يجب أن يختلطوا بالكتاب وممثلى العمال والطلبة وكل من يصنعون الرأى العام ويؤثرون فيه ..

هذه هى المعانى العامة التى تدور حولها هذه الرواية. والمؤلفان أكثر دراية ــ بالطبع ــ بالسلك السياسى الامريكى .. ولكن نقطة الضعف الخطيرة فى منطق المؤلفين هى : انهما ركزا على الاشياء الصغيرة التى تصنع السياسة ، لا على الاشياء الكبيرة ..

لقد اعتبر المؤلفان كل مشاكل السياسة الامريكية فى آسيا ترجع الى أسباب صغيرة مثل عدم معرفة اللغة المحلية وما الى ذلك . ولاشك ان كفاءة الدبلوماسى أمر

هام جدا . ولكن الأهم من ذلك : السياسة العليا التى ينفذها الدبلوماسي ..

فاذا كانت سياســـــة أمريكا تؤيد بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول ذات التاريخ الاســـتعمارى فى تلك البلاد.. واذا كانت تحاول أن تساند الطبقات الاقطاعية القديمة ضد الفئات المطالبة بحقها فى الحياة والمساواة .. فماذا يمكن أن يصنع دبلوماسي كفء أو غير كفء ؟

ان الرواية ليست نقدا للسياسة الامريكية . انها نقد « للروتين » فى السلك السياسى الامريكى.. لا اكثر ولا اقل !



أما الرواية التى تعد فى الواقع اعظم عمل ادبى سجل هذه الظاهرة ، فهى كما قلت منذ قليل ، رواية جراهام جرين : الامريكى الهادىء .. التى سأحاول أن ألخصها هنا :

جلست بعد العشاء انتظر «بيل» فى غرفتى التى تطل على شارع «كاتينات» . كان قد قال لى انه لن يتأخر عن الساعة العاشرة ، فلما أصبحت الساعة الثانيةعشرة لم أطق الانتظار ، ونزلت الى الشارع . كان فى الطريق بعض النساء العجائز يتمشين ؛ ورجل يجر عربة ركوب فى بطء ، وعلى البعد تبدو أنوار مصابيح تدل على المكان الذى هبطت فيه الطائرات الامريكية الجديدة ..

وبعد أن تمشيت قليلا لمحت فتـــاة تقف عند أحد الابواب . لم أميز وجهها ، ولكننى عرفتها من فستانها الحريرى الأبيض .. فكم من مرة وقفت هكذا تنتظر عودتى ، ليلة بعد ليلة ..

وناديتها :

ــ فونج ؟ ..

والتفتت الى . كنت أعرف انها أيضا تنتظر بيل .
وقلت لها : انه لم يأت بعد ، خير لك أن تنتظريه معي في حجرتي .. وسوف يأتي بعد قليل ..

وعندما أصبحنا في غرفتي قالت لي : انت قلق ؟..

ـ قليلا .. انه رجل دقيق جدا في مواعيده ، ومن الغريب أن يتأخر هكذا .. !

وخلعت حذائي وكرافتتي ، وبدأت فونج تغلي الماء للشاي . هكذا كانت تصنع بالضبط قبل ستة شهور.. قلت لنفسي وأنا أغمض عيني ، كأنما أريد ان أعود الى تلك الايام ، هكذا كانت بالنسبة لي في ذلك الوقت كل مساء : وشوشة البخار ، وطقطقة براد الشاي ، ووعد بالراحة في هذه الساعة من الليل ..

وتساءلت : ترى في أى شيء يتكلم شخصان مثل بيل وفونج اذا اختليا ؟ هو بمحاضراته عن الشرق الاقصى ، وآرائه عن الديموقراطية .. وشرحه المستمر لما تقدمه الولايات المتحدة الى العالم ، وهي بجهلها المطبق ، فلو ذكرت أمامها اسم هتلر لسألتك من يكون ! وان كانت تعرف عن الأميرة مرجريت وأخبارها أكثر مما أعرف أنا

وكانت قد انتهت من اعداد الشاى ، وانحنت على المائدة تضع الفناجين ، فبدا لونها في ضوء المصباح مثل لون العنبر الداكن ، وسألتني : هل أحشو لك البيبة ؟

وسألتها بدوري ، وهي تمد الافيون : هل ما زال بيل لايدخن ؟

ـ نعم ..

ـ ولكن ، يجب أن تقنعيه بأن « يدخن » والا فقد يذهب عنك مرة ولا يعود ..

كانت نساء المنطقة يعتقدن في خرافة تقول : ان من يدخن لدى الواحدة منهن مرة ، فلا بد أن يعود اليها

حتى ولو كان فى آخر الدنيا . وبدأت رائحة الافيون تتصاعد ، لا شىء فى الدنيا يعدل هذه الرائحة !

وبدأت أشرب الشاى ، وأشرب الافيون ، وأداعب كتف « فونج » ..

وسألت نفسى : هل ترضى ان تنام معى الليلة اذا لم يعد بيل ؟ .. ثم قلت لها : عندما هجرتنى ، كان من حسن حظى أن هناك افيون أغرق فيه .. ولكن كيف تعيشين مع رجل لا يدخن يا فونج ؟ ..

ــ انه سوف يتزوجنى ..

ــ آه .. هذا شىء آخر ..

وعدت أفكر : هل تنام معى اذا لم يعد بيل ؟ سوف يكون لذيذا حقا أن أشعر بوجودها الى جوارى فى الفراش . انها تنام دائما على ظهرها وفى الصباح أصحو فأجدها قد أعدت لى الافيون مرة أخرى ..

ولكنى ، بعد رابع غليون ، لم أعد فى حاجة اليها ..

وارتفع طرق عنيف على الباب ..

وقفزت الى الباب ، وفتحته ، وسمعت صوتا يصيح : مسيو فولر ؟

واجبت : أنا فولر ..

كان الرجل من رجال الشرطة ، فبدأ يشرح بمزيج من الفرنسية والفيتنامية انني مطلوب للذهاب الى مكتب الامن ..

ــ لماذا ؟ ..

انه لايعرف ، فقد تلقى الأوامر ونفذها فحسب .. « وانت مطلوبة أيضا يا آنسة » ..

وحاولت أن أؤجل ذهابنا للبوليس الى الصباح ، ولكنه رفض ..

ان الكلمة الاخيرة هنا للبوليس . انه يستطيع أن

يسحب مني اذن التجول ، ويستطيع منعي من حضور المؤتمرات الصحفية ، بل ويستطيع أن يلغى اقامتى فى البلادكلها. هذا عن الاجراءات القانونية ، أما الاجراءات غير القانونية فهي أدهى ! ..

أعرف صديقا فقد الطباخ الذى كان يعمل عنده ، كان البوليس قد استدعاه للاستجواب ثم اختفى بعد ذلك .. ربما كان الآن يحارب مع الشيوعيين ، ربما كان مع واحد من الجيوش الخاصة التى تعمل قريبا من سايجون ، ربما كان نزيل سجن فرنسي ، ربما كان يتاجر بالنساء فى الحى الصينى ، أو لعله قتل ..

وفى قسم البوليس كان الضابط الفرنسى يقرأ مجلة « بانسيه » الثقافية الفرنسية ، كما لو كان مهتما حقا بالمناقشات الحزبية التى تنشرها هذه المجلات ، وانهال الضابط على فونج بالاسئلة عن بيل :

ـ متى عرفتيه ؟ ..

ـ كم يدفع لك ؟ ..

وصحت فى وجهه : ليس من حقك أن تسألها هذا السؤال ، انها ليست للبيع .. وقال لى : ولكنها عاشت معك سنتين تقريبا أليس كذلك ؟

ثم بدأ يسألنى عن معلوماتى عن بيل. وقلت له : اننى لست مخبرا ، ولا أعرف عن بيل أكثر مما تعرف أنت : عمره ٢٢ سنة ، يعمل فى هيئة المعونة الاقتصادية ، وجنسيته أمريكية .

كان الافيون يساعدنى على احتمال الموقف ، ربما لأنه يهدىء الاعصاب ، ويميت الانفعالات .

وعاد الضابط يسألنى : كيف عرفت بيل ..؟

والواقع انه هو الذى عرفنى. كنت جالسا فى المقهى ، والموائد كلها مزدحمة ، عندما أقبل بقامته المديدة

ووجهه الطيب البرىء ، وقال لى : هل تأذن لى فى الجلوس ؟ ولما جلس قال لى انه جاء الى هنا مؤخرا ، وطلب زجاجة بيرة ؛ وعرفت منه انه منذ عشرة أيام فقط كان يسير فى شـــوارع بوسطن بأمريكا ، محملا بالكتب عن الشرق الاقصى . كان عامر الذهن بالكلام عن الديمقراطية ومسئولية الغرب ، وكان مصمما على أن يسدى خدمة جليلة لا لفرد ما ، ولـكن لشعب ، لقارة ، بل للعالم كله ..

وعندما قال لى الضابط ان بيل قد قتل ، نظرت فورا الى فونج . انها لم تفهم بالطبع لأننا كنا نتحدث بالانجليزية . لابد ان النبأ سيكون قاسيا عليها . انها تحبه . لقد تركتنى من أجله ، لقد علقت أملها كله به وبشبابه ، وها هو يخذلها أكثر مما تخذل الشيخوخة أو اليأس . وقلت للضابط اننى كنت فى انتظاره الساعة العاشرة ، لأنه حدثنى فى التليفون ، وقال لى انه لابد أن يرانى لسبب هام ، لم يقل لى عنه شيئا ، وسألت الضابط :

- أين وجدتم جثته ؟

- فى الماء .. تحت كوبرى « داكو » ..

ان كوبرى « داكو » منطقة محرمة ، واجتيازه أمر بالغ الخطورة فى الليل، لأن الجانب الآخر من النهر يغدو اذا هبط الليل فى قبضة جنود فيتنام الشيوعيين .. انه يقع بجوار مطعم «الطاحونة القديمة» الذى تعشيت فيه هذه الليلة ، لابد اننى كنت أتعشى على بعد ثلاثين مترا فقط من جثته ..

وطلب منى الضابط أن أنزل الى المشرحة لأتعرف على الجثة . لعله أراد أن يواجهنى بجريمتى اذا كنت أنا المجرم ، طبقا لأصول التحقيق ! لعله طاف بباله

انني قتلته بسبب الغيرة !.. وأخرجوا جثته من باب الثلاجة متجمدة تماما .. حتى جروحه كانت متجمدة. وبدا لي أكثر من أى وقت آخـــر انه ليس فى مكانه الطبيعي ! لقد اطلعني يوما على مجموعة صوره العائلية .. ورأيت صوره جالسا مع عائلته فى المزرعة ، وسابحا فى لونج ايلاند ومع أصدقائه فى الطابق الثالث والعشرين انه ينتمي الى عالم ناطحات السحاب والمصاعد السريعة ، و « الايس كريم » ، واللبن المثلج وساندوتشات الدجاج

وأشار الضابط الى جرح فى صدره وقال :

ـ انه لم يمت من هــذا ، لقد أغرقوه فى الطين ، وهذا ما قتله . كان صدره مليئا بالطين ..

وعنـــدما خرجت أنا وفونج كانت تدوى فى راسى مشكلتان : كنت أبحث عن طريقة هادئة أنهى بها الخبر الى فونج ، وكنت فى نفس الوقت أفكر كصحفى بأسلوب العناوين المثيرة وكيف أرسل الخبر الى جريدتى ، وكيف يكون له عنوان كبير مثل « مصرع موظف امريكى فى سايجون » . وطلبت من فونج أن تنتظرنى خارج مكتب التلغراف حتى أبعث ببرقية ، لابد أن يصل النبأ الى جريدتى قبل موعد الطبع ، لا لأهميتــه طبعا .. فلا أهمية له لأنى لن أنشر التفاصيل كما انى لن أنشر أى شيء عن مهمته ، لن أقول مثلا انه مسئول عن مصرع خمسين شخصا على الاقل. فلو انني نشرت هذا لأسأت الى العلاقات بين انجلترا وأمريكا ، ولغضب الوزير المفوض جدا . فقد كان الوزير يحترم بيل الى حد كبير اذ كان بيل حاصلا على شهادة فى علم من تلك العلوم التى لايأخذ أحد فيها شهادات الا الامريكان فى « العلاقات العامة » أو شيء من هذا القبيل ..

وعنـــدما عدت أنا وفونج الى غرفتى ، أدركت أن

حجرتى قد تعرضت لعملية تفتيش ، فقد كان كل شىء في الحجرة منظما ومرتبا أكثر من المعتاد !

وخلعت حذائي وكرافتتي ، وأضاءت فونج المصباح وهى تقول لى :

ـ هل أعد لك الافيون ؟

كان الحادث الذى قاطعنى قد انتهى ، وعاد الليل كما كان : المصباح، ولون بشرتها العنبرى ، وفرنسيتها ذات اللكنة المحلية العذبة .

ـ فونج .. انه مات ..

وانتصبت مرة واحدة ، ونظرت الى كطفل يحاول أن يفهم شيئا عويصا ..

ـ مات .. قتل ..

لا شىء ، لا دموع ، بل مجرد تفكير .. تفكير عميق جدا ، تفكير شخص فوجىء بأن عليه أن يغير مجرى حياته كلها ..

وبدأت تعد لى الافيون ..

***

عندما استيقظنا فى الصباح ، كان كلانا حريصا على الا يذكر بيل ، ولـكنها طلبت منى أن أذهب وأحضر صندوق ملابسها من بيته فى شارع الجنرال دبراتون . ما اكثر غرام الفرنسيين بأسماء جنرالاتهم ! قبل ذلك كان اسم الشارع دى جول ، ثم ليكليرك ، وعن قريب سيصبح دى لاتر ..

كان بيت بيل محاصرا بالبوليس والسيارات والموتوسيكلات ، وفى الداخل وجدت ضابط البوليس الذى استجوبنى بالامس ..

ـ هل ما زلت تبحث عن قاتل بيل ؟

ـ نعم .. ماذا تخمن ؟

قلت له :

ـ ربما قتله جنود فيتنام الشيوعيون لأنه أمريكى. وربما قتله بوليس فيتنام ، لأنه لايرتاح الى نشاطه .. وربما قتله « الكوديست » لأنه صديق للجنرال تى ، وربما قتــله جنود « الجنرال تى » لأنه كان يعرف الـكوديست .. وربما قتله الهاوهاو لأنه تسلل الى حريم قائدهم ! !

وبعد أن جمعت ثياب فونج ، أخذت أنظر الى مكتبة بيل : تقدم الحمر فى الصين ، الخطر الذى يهـــدد الديمقراطية ، دور الغرب فى آســـيا ، ثم كتاب عن سيكولوجية الجنس والزواج .. لعل بيل لم يعرف المسائل الجنسية أيضا الا فى الـكتب !

وبينما أنا خارج من بيت بيل بعد أن أخذت ملابس فونج ، قابلت الملحق الاقتصادى فى السفارة الامريكية داخلا ، فاستوقفنى .. وأخذ يحدثنى عن حزنه ، وعن البرقية التى أرسلها الى أهلَ بيل ، وسألته ماذا كتب فيها ؟ فقال انه كتب : « يؤسفنى أن أبلغكم أن ولدكم بيل قد مات ميتة جندى باسل فى سبيل الديمقراطية » .

وسألته : هلَ يعتبر بعثة المعونة الاقتصادية جيشا ورجالها جنودا بواسل ؟ فهمس فى أذنى : « بيل كان يقوم بمهمات خاصة » ..

ـ أعرف ذلك ..

ـ هل قال لك شيئا ؟..

ـ كلا .. اطمئن .. انه لم يكن يتكلم كثيرا . لقد كان بيل هادئا جدا ..

ـ واذن لماذا تظنه قتلَ ؟ ..

وفاض بى السخط فجأة على الامريكان جميعا .. لقد ضقت ذرعا بهم.. بمخازن الكوكاكولا الخاصة بهم ،

بمستشفياتهم المتنقلة ، بسياراتهم العريضة الملونة ..
وانفجرت فيه : « لقد قتلوه لأنه كان ابرأ من أن يعيش كان صغيرا وجاهلا وأحمق. وكان يحشر نفسه فى كل شيء ! لم تكن لديه أية فكرة عن الأمر كله! مثلكم جميعا ! ولكنكم أعطيتموه دولاوات وبعض كتب عن الشرق الاقصى وقلتم له: «اذهب واكسب الشرق لحساب الديمقراطية»!

ما زلت أذكر ذلك اليوم الذى عرفت فيه بيل لأول مرة فى فندق الكونتننتال. كنت قد شبعت من مصاحبة الصحفيين الامريكان .. كلهم فى ربيع العمر ، كالاطفال، جالسين فى الفندق يملأون الدنيـــا ضجة وصخبا ، ويسخرون باستمرار من الفرنسيين ، الذين كانوا على أى حال يقومون بالقتال ، ومن حين لآخر ، اذا انتهت معركة من المعارك، ورفعت الجثث والاسلحة من الميدان، اخذوهم مع سائر الصحفيين فى طائرة الى هانوى ، حيث يعقد لهم القائد مؤتمرا صحفيا ، ثم يطيرون بهم فوق الميدان على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، ثم يعيدونهم سالمين صاخبين ، كرحلات التلاميذ ، الى فندق الكونتننتال فى سايجون ! !

ومن الوهلة الاولى، وجدت بيل هادئا ، بل ومتواضعا، يبدى من حين لآخر ضيقه بالضجة المنبعثة من الشرفة العليا التى تطل على الشارع ، حيث يجلس الصحفيون الامريكان عادة ، فالشرفة العليا أكثر بعدا عن مرمى القنابل اليدوية من الشرفة السفلى التى كنا نجلس فيها.

وبدات اشرح له الموقف العســكرى .. أين يقف الفرنسيون وكيف يسيطرون على الطرق حتى الساعة السابعة مساء فقط وبعد ذلك لايسيطرون الا على أبراج المراقبة . كنت اكرر ذلك فى ملل لكثرة ما كررته لكل قادم جديد ..

.. وقد قابلت بيل بعد ذلك مرتين، وكانت معى فونج ، وعرفته بها ، وفى المرة الثانية دعاها الى الرقص ورقصا سويا . وبعد هـــذه المرة بقليل ، كان على أن أترك سايجون وأسافر مع الصحفيين الى الجبهة ..

***

من برج الكنيسة ، كان منظر المعركة يبدو كأنه لوحة تاريخية قديمة : جنود الباراشوت يتحركون فى بطء ، ولكنهم لبعد المسافة يبدون وكأنهم لايتحركون، والطائرات تلقى التموين لـكتيبة محاصرة منذ الامس ، وصوت المدافع الرشاشـة رتيب لاينقطع والدخان منعقد على الدوام كأنه صخرة متجمدة ، والسنة اللهب المشتعلة فى سوق البلدة تبدو باهتة فى ضـوء الشمس ، حتى القسيس الجالس جوارى يقرأ الأدعية دون أن يحرك وجهه ليرى شيئا مما حوله . ان الحرب من هذا البعد تبدو نظيفة منظمة ..

كنت قد وصلت الى الجبهة قبل الفجر ، وروى لى ضابط اعرفه كل ما حـدث بالضـبط ، لقـد لحقت بالفرنسيين هزيمة أخرى على أبواب « نام دين » ولكن هذا غير مسموح بنشره .. المسموح بارساله فقط هو أخبار الانتصارات !

وتحتنا مبـاشرة كان يتكوم كل أهالى « نام دين » الكاثوليك والبوذيين وغيرهم ، كل واحد حمل ما يعتز به من متاع : وابور غاز ، لمبة ، مرآة ، دولاب أو صورة مقدسة .. وجاءوا جميعا الى رحاب الكنيسة ! حتى على السلم الصاعد الى برج الاجراس ، كان النـــاس يتكومون ، حاملين أطفالهم وامتعتهم .. انهم يظنون ، على اختلاف أديانهم ، انهم هنا فى أمان . وعندما دخل جندى فيتنامى ، انتزع منه القسيس مدفعه الرشاش،

وهمس رجل فى أذنى : « اننا هنــا فى أرض محايدة لا يجب أن يدخلها سلاح .. اننا فى أرض الله » .

وفكرت : أى شعب عجيب يسكن أرض الله هذه.. خائفا متجمدا من البرد ، يكاد يموت جوعا ؟ ولكننى عدت أقول لنفسى : « ليس هذا غريبا فليس شعب الحاكم القوى دائما أسعد الشعوب » .

كنت أظن اننى سأبقى فى الجبهة أسبوعا واحدا ـ ولكننى بقيت ثلاثة أســابيع . ان الخروج من الجبهة أصعب من دخولها . وعندما وصلت الى «هانوى» كان الصحفيون قد طاروا لكى يرسلوا أنباء الانتصار الاخير!

وذهبت لأشهد المؤتمر الصحفى ، كان الصحفيون الفرنسيون بالذات قد جلسوا جميعا فى جانب القاعة كأنهم جمهور فريق منافس لـكرة القدم ، وقال لنا الضابط الفرنسى ان العدو قد هزم هزيمة ســاحقة وتحمل خسائر فادحة ! ثم أمسك المؤشر وأخذ يشرح لنا على الخريطة . وسأله صحفى أمريكى اسمه جرينجر عن خسائر الفرنسيين.. ان الضابط يعرف جيدا معنى هذا السؤال وهو يتوقعه فى كل مؤتمر ، وأدلى بالرد التقليدى : ان خسائرنا طفيفة ، والرقم الحقيقى لم يعرف بعد ..

وقال جرينجر : هل يقصد الكولونيل انه وجد وقتا يعد فيه قتلى العدو ولم يجد وقتا يعد فيه قتلاه ؟

واحمر وجه الضابط الوسيم ، ثم قال : ان العدو يهرب وراء النهر الاحمر ، فمن الممكن عد قتلاه ، ولكن كيف نعد قتلى جيشنا وهو يتقدم الى الامام ؟ ..

ورد جرينجر : هل من المعقول ان قواد الـكتائب لايبلغون عن عدد قتلاهم .. وبدا واضحا ان الضابط الوسيم قد فقد أعصابه ، فقال فجأة :

ـ اذا وصلت الامدادات التى وعد بها الامريكيون ، فسوف نستطيع ان نفعل أكثر من ذلك ..

ـ هل معنى ذلك ان الامدادات التى كان يجب أن تصل اليكم فى سبتمبر لم تصل بعد ؟

ـ نعم ..

وأسرع جرينجر يكتب هذا فرحا بالنبأ الصحفى ، وقال الضابط :

ـ هذا ليس للنشر ، هذا لمعلوماتك فقط ..

ـ لماذا ؟ .. هذه أخبار ربما يساعدكم نشرها ..

ـ لا اظن .. ان الصحف الامريكية سوف تعلق قائلة : «الفرنسيون لايكفون عن الشكوى والتسول» ! ! وفى باريس سيصيح الشيوعيون قائلين : « ان الفرنسيين يريقون دماءهم فى سبيل أمريكا » وفى آخر الأمر لن يصل الينا شىء ..

وعدت الى حجرتى العارية التى سأبيت فيها ليلتى فى هانوى . كنت أشعر بوحدة قاتلة ، تمنيت أن أبكى ، ولكن دموعى كانت متحجرة . اننى اريد فقط أن أعود الى حجرتى فى سايجون فى شارع كاتينات ..

على ان مفاجأتى الكبيرة كانت عندما دخل على بيل. قال : انه جاء من سايجون الى الجبهة ليقول لى خبرا هاما .. هو انه يحب فونج ! أحبها منذ عرفته بها أول مرة ، ثم راقصها فى مرة تالية ! وسألته : هل قال لها هذا بعد أن تركت سايجون الى الجبهة ؟ فقال لى : لا .. وقال : انه يريد أن يتزوجها ..

ورفضت أن أناقش الموضوع معه ، واتفقنا على أن نبحث الأمر عندما نعود الى سايجون !

وعندما عدت الى حجرتى فى شارع كاتينات جلست اكتب الى رئيس تحرير الجريدة التى أعمل فيها ، طالبا

منه الا ينقلني من هنا في هذه اللحظة . وكانت فونج معى فى الحجرة . وعندما قلت لها ان بيل آت بعد قليل قررت أن تنصرف ، وسألتها عن السبب فقالت : انه طول مدة سفرى لم يسأل عنها ، ومع ان أختها دعته مرة فانه لم يحضر مما يعد اهانة كبيرة وقالت : لابد انه يريد أن يختلى بك لكى تتحدثا فى العمل ..

ـ أى عمل ؟

ـ لا أعرف .. ولكن كل الناس تعرف انه يقوم بعمل هام ، انه يتلقى حقائب كبيرة جدا .. حقائب لا تفتح قط ، لأنها حقائب دبلوماسية ..

ـ لابد انها أدوية للهيئة الامريكية التى تكافح مرض التراكوما ..

ـ هذا ما يقولون ، ولكن أحد موظفى الجمرك فتح احدى الحقائب التى تأتيه خطأ فخرجت منها أشياء مثل لعب الاطفال ، مصنوعة من البلاستيك .

ـ بلاستيك ؟ .. هذه بضاعة غريبة حقا ..

وانصرفت فونج كي تزور أختهـا ، وكنت فى آخر صفحة من صفحات خطابى الى رئيس التحرير واخذت أقول له ان أسبابا خاصة قوية تجعلنى فى حاجة الى البقاء حيث أنا ، وانه لو أصر على نقلى فقد أستقيل لأبقى فى مكانى ، ثم عدت ومزقت هـذه الصفحة الاخيرة ، انها لن تكون سوى موضوع للفكاهة .. هناك فى لندن كلهم يعرفون ان كل مراسل فى الخارج له فتاته التى يقع فى حبها ولا يريد ترك المكان من أجلها ..

ودخل بيل وخلفه كلبه الاسود الكبير .. كان واضحا انعينيه تبحثان عن فونج ، ولما أثرت الموضوع قال لى :

ـ اسمع .. انه ليس من العدل أن نتناقش حول فونج فى غيابها ..

ـ فى اى شىء نتناقش اذن ؟ .. فى البلاستيك ؟

ودهش بيل ، وقلت له ان فونج هى التى أخبرتنى بقصة البلاستيك وان كل المدينة تعرفها . ولما وجد اننى فى انتظار تفسير قال :

ـ انت تعرف.. نحن نريد أن نساعد بعض الصناعات المحلية حتى تقف على قدميها ، وعلينا فى نفس الوقت ان نكون حذرين من الفرنسيين فهم يريدون أن تشترى فيتنام كل شىء من فرنسا ..

ـ لا الومهم على ذلك .. ان الحرب تحتاج الى نقود

ولمحت فى عينيه تلك النظرة من الألم وخيبة الأمل التى تكسو عينيه كلما صدمت الحقيقة شيئا من الاشياء التى يؤمن بها ..

وهنا سمعنا وقع أقدام ، كان واضحا لكلينا انها اقدام فونج ..

قالت انها لم تجد أختها ..

وقال بيل :

ـ الآن نستطيع أن نتناقش أمامها .. هل تترجم بيني وبينها ؟ ان لغتى الفرنسية ضعيفة جدا ، ولهجتها فى الفرنسية تستعصى على فهمى ..

وبدأت أترجم ما يقول :

ـ قل لها اننى أحبها بشدة .. منذ اللحظة الاولى التى رأيتها فيها ورقصت معها ..

وترجمت لها ، أما هى فقد جلست تستمع وتتفرج فى سكون ، كأنها تشهد فيلما سينمائيا ..

واستمر يقول لى وأنا اترجم : وقل لها اننى اريد أن اتزوجها ..

وسكت برهة ثم قال : وقل لها اننى لست غنيا الآن ، ولكن عندما يموت أبى سوف يترك لى خمسين

الف دولار ، وأنا شاب .. صحتي جيدة جدا ، ولدى شهادة طبية بذلك .. وأستطيع أن أطلعها على فصيلة دمى ..

ولم أطق هذا الكلام ، وصحت فيه : هل تحبون هكذا في أمريكا ؟ بأرقام الدولارات وشهادة طبية وفصيلة الدم ؟.. ما شأن فصيلة الدم بهذا ؟..

ـ لكى تعرف اننا نستطيع انجاب أطفال ..

ـ معنى ذلك انك ستطلب منها أيضا شهادة بصحتها وفصيلة دمها ..

ونظرت الى فونج وصحت : قولى له أن يخرج من هنا هو وكلبه ..

وصاح هو بدوره فى فونج : تعالى.. اخرجى معى.. ماذا سيقدم لك ؟.. انه لن يتزوجك . انه فى الخمسين من عمره .. ماذا سيعطيك ؟ سيترك لك مائتى دولار عندما ينقل الى لندن ..

ورفضت فونج أن تخرج معه قائلة : لا !

وهدأ الموقف دفعة واحدة ، واكتشفنا أى موقف سخيف وقفه كلانا ، لقد انتهى الموقف كله بكلمة صغيرة من حرفين : لا ..

وقال بيل :

ـ آسف يافولر.. أظن اننى يجب أن أنصرف حالا .. فقط أرجو أن تنسى هذا .. صدقنى انك ما تزال أعز صديق لدى ..

وعندما انصرف ، وبدأت فونج تعد لى الافيون ، جلست أكتب خطابا ثانيا ..

كتبت الى زوجتى هيلين ، أطلب منها الطلاق .. استعرضت الخمس سنوات التى مضت علينا ونحن منفصلين ، واعترفت لها بكل أخطائى ، وبأننى لا أستحق

رحمتها وموافقتها على الطلاق. ولكنني مع ذلك رجوت منها أن تلبى هذه الرغبة ، قلت لها ان ثمة فتاة عشت معها سنتين ، وأصبحت عاجزا عن أن أعيش بدونها ، رغم انني لست مهما لديها الى هذا الحد ..

وعندما رقدنا فى الفراش قلت لفونج :

ـ انه صغير ..

ـ هذا لا يهم ..

ـ أتعرفين انني أستطيع أن أتزوجك ؟ ..

ـ ولكن أختى لا تصدق ذلك ..

ـ لقد كتبت الى زوجتى أطلب الطلاق ..

ـ واذا لم توافق ..

ـ فونج .. لقد كذبت عليك ، أنا منقول الى لندن ، لقد عينونى رئيسا للقسم الخارجى فى الجريدة ..

وقالت لى بحماسة انها مستعدة للذهاب معى الى لندن ، سواء أكانت زوجة لى أم لا ..

ومضت تحلم بلندن ، « هل هناك ناطحات سحاب فى لندن ؟ »

« كلا .. هذه فى أمريكا فقط » .. اذن سنسكن فى قلب لندن ؟.. سنركب الاوتوبيس ذا الطابقين وسأرى تمثال الحرية ؟ ..

ـ كلا .. هذا أيضا فى أمريكا ياعزيزتى ..

***

فى هذا الموعد من كل سنة ، كان « الكوديست » يقيمون أعيادا دينية هائلة ، عند البحر المقدس فى « تانيين » ..

وذهبنا ـ أنا وبيل ـ فى سيارتى نشهد هذه الاعياد ، ونرى تماثيل بوذا فى صمتها ، وحولها طوابير من الفلاحين بأعلامهم يؤدون طقوسهم العجيبة ..

وفى آخر النهار ركبنا السيارة لنعود .. كان لابد ان نعود الى سايجون قبل أن يهبط الليل والا فاننا نصبح فى خطر حقيقى ، فبعد الليل لا سيطرة لأحد على هذه الحقول الشاسعة ، ومن حين لآخر كنا نمر ببرج من ابراج المراقبة الطويلة النحيفة ، كأنه علامة استفهام ضخمة مرتسمة فى الهواء .

كنت أقود السيارة بأقصى سرعة ممكنة ، وقال لى بيل فجأة :

ـ كيف حال فونج ؟ ..

ـ بخير ..

ـ لقد قابلت اختها فى الطريق منذ ايام ..

ـ ودعتك الى زيارتهم ؟ ..

ـ بصراحة .. نعم ..

ـ أنها لم تيأس بعد ..

ـ من أى شىء ؟ ..

ـ من أن تتزوج أختها ..

واكتشفت فى تلك اللحظة ان البنزين فى السيارة على وشك أن ينفذ . واسرعت كى أصــل الى أقرب برج مراقبة موجود فى الطريق .. فنحن فى هذه الارض التى تسيطر عليها عصابات « الكوديست » و « الهاوهاو » سوف نذبح قطعا لو بقينا بعد الليل فى الطريق ..

وتوقفنا عند أول برج مراقبة. كانت الارض الشاسعة حولنا خالية هادئة تماما .. وبرج المراقبة بلونه الاسود كأنه رسم مطبوع على صفحة السماء الرمادية.. ونزلت من السيارة وأخذت أصيح لعل أحدا من جنود البرج يجيبنى ، ولكن صوتى تبدد ..

وكان الظلام قد سقط علينا فجأة كما يسقط حجر ثقيل . وأخذت أتحسس جدران البرج لعلى أجد سلما

اصعد عليه الى الجنود ، هل تراهم رفعوا السلم ايضا حتى لايصعد اليهم أحد ؟ لا أظن .. فالسلم على أي حال هو طريقهم الوحيد الى الهرب ..

كنت خائفا تماما .. والناس فى لحظات الخوف يفكرون فى الله ، أو فى عائلتهم ، أو فى امرأة ما .. أما أنا فلم أكن أفكر فى شيء .. كأننى توقفت فى تلك اللحظات عن الحياة ..

وبدأت أصعد السلم فى بطء وحذر ، حتى وصلت الى سطح البرج .. هذا مصباح غاز مشتعل على الارض ، ورجلان منكمشان فى خوف ، وبينهما مدفع رشاش . انهما جنديان من فيتنام ، يبدو على وجهيهما الرعب والتوجس ..

واطمأن الجنديان عندما بدأت أشرح لهما القصة ثم سألتهما :

ــ هل لديكم بترول أشتريه ؟

ــ كلا ..

ــ اذن هل أقضى الليلة أنا وزميلى معكما هنا فى البرج ؟ ..

ــ هذا ممنوع ..

ــ ولكننى لن أقضى الليلة فى الطريق عرضة لأن يذبحنى أحد فى أي وقت ..

وفى هذه اللحظة كان بيل قد صعد بدوره ، وأصبح معى ، وسألنى بيل :

ــ الا يجب أن يقف أحد هذين الجنديين فى الشرفة ليراقب الطريق ؟ ..

وقلت له :

ــ انهما يفضلان الا يتعرضا لاطلاق الرصاص ..

ــ واذا هاجمهم الشيوعيون .. ماذا يفعلون ؟ ..

ـ يطلقان طلقـــة واحدة ثم يهربان .. الا تقرا فى الصحف كل يوم ان « العدو احتل أحد أبراج المراقبة احتلالا مؤقتا » ..

وجلســنا انا وبيل الذى قام واشـــعل سيجارتين للجنديين حتى يكسب صداقتهما .. وقلت له :

ـ ان لهما العذر فى هذا الخوف والملل .. تصور ان يجلس جنديان غير مدربين هكذا ليلة بعد ليلة لايعرفان متى يزحف الشيوعيون عبر الحقول ..

وقلت له ثانية :

ـ هل تظن انهما يعرفان انهما يحاربان من أجـل الديمقراطية التى تتحدث عنها ؟ ..

ـ لابد أن لديهما دافعا من ايمان ما .. لايوجـد انسان يعيش بغير ايمان .. الا تؤمن انت بشىء ؟ ..

ـ أنا اؤمن بأننى أقف الآن وظهرى الى الحائط .. وان فى الحجرة معنا مدفعا رشاشا ..

ـ الا تثق فيهما ؟ ..

ـ حتى لو كنت ضابطا فرنسيا لما وثقت فيهما ، انا لا ألوم الجنود ، انكم تحاولون أن تجعلوهم يحاربون لأسباب لا تعنيهم ..

ـ انهم لايريدون الشيوعية ..

ـ انهم يريدون كفايتهم من الارز .. ولايريدون أن يطلق احد عليهم الرصاص .. ولايريدون أن يظل هؤلاء البيض حولهم يشرحون لهم ماذا يريدون ..

ـ ولكن اذا ضاعت الهند الصينية ..

ـ أعرف باقى الاسطوانة : سوف تضيع سيام ، والملايو ، واندونيسيا ، ولكن ما معنى « تضيع ؟ » .. اننى أراهنك على انه بعد خمسمائة سنة ربما لايكون هناك شىء اسمه لندن أو نيويورك .. ولكن ستكون هنا

حقول تنبت الارز! سيكون هنا فلاحون يلبسون القبعات المدببة يحملون المحصول فى صفوف طويلة الى السوق، وسيكون هنا اولاد صغار يركبون ظهور البقر ..

ـ ولكننا سنرغمهم على أن يؤمنوا بما نقوله لهم ، اننا لن نتركهم يفكرون لأنفسهم ..

ـ ان التفكير ياعزيزى ترف .. هل تظن ان الفلاح عندما يعود آخر الليل الى كوخه المبنى من الطين ، يجلس ويفكر فى الله ، أو فى الديموقراطية ؟

ـ ولكن هل كل الناس فلاحون ؟.. هناك أيضـــا المتعلمون ..

ـ المتعلمون ؟.. لقد صنعناهم فى قوالبنا ! ومن اجل ذلك نستحق الذبح لو بقينا فى الطريق ولهذا نلوذ بالبرج .. اننى أفكر فى مؤلفك الامريكى العظيم يورك هاردنج .. الذى وضع عشرات الكتب عن الشرق الاقصى ماذا كان يصنع لو كان معنا الآن ؟

ـ ان يورك هاردنج رجل شجاع ، وفى حرب كوريا ..

ـ أعرف انه ذهب الى هناك ، ولكن كان فى جيبه دائما تذكرة عودة الى بلاده ، هـــذا وضع غير وضع المجندين ، المجند لايعرف متى سيبقى هكذا ، لايستطيع أن يلحق بأول طائرة عائدة الى بلاده ..

ـ بدلا من أن تحمل على يورك .. الا تحمل على الفرنسيين أصحاب هذا الاستعمار ..

ـ على أى حال ، الفرنسيون هم الذين يموتون هنا كل يوم ، أنتم تدفعون الناس الى العمل ، ثم تتركونهم بعتاد قليل وبأنواع من لعب الاطفـال المصنوعة من البلاستيك !

ـ لعب أطفال ؟

ـ نعم .. البلاستيك الذى تحضره ..

ـ آه ..

ـ لست أدرى ، لماذا أتحدث فى السياسة ؟ ! ربما لمجرد قضاء هذه الليلة الرهيبة ، من حسن الحظ اننى لست ملتزما باتجاه ..

ـ الايهمك من يكسب ؟

ـ كلا .. سأظل فقط أكتب الاخبار وارسلها سواء كسب هذا أو ذاك ..

ـ ولكن .. لو كسبوا هم فلن تتمكن من ارسال أخبار صحيحة ..

ـ أن صحفنا لا تهتم عادة بالحقائق !

كان انهماكنا فى الحديث قد طمأن الجنديين.. فعادا الى طعامهما .. وسألنى بيل : اذن .. فأنت تعتقد اننا خسرنا المعركة ؟

ـ لا أقصد ذلك ، ما أقصده هو اننى لا أهتم بأن أراكم تكسبون ، اننى أحب فقط ان أرى هذين التعيسين يتمتعان بالسعادة ، أحب ألا يجلسا خائفين هكذا فى الظلام ..

ـ ولكن .. يجب أن تحارب فى سبيل الحرية ..

ـ اننى لم أر أمريكيا واحدا يحارب هنا . أما عن الحرية ، فمن يستطيع أن يحدد معناها ؟ اسأل هؤلاء وصحت مناديا الجنديين بالفرنسية :

ـ الحرية ! ! هل تعرفان ما معنى الحرية ؟

ونظر الجنديان الى فى دهشة ، وواصلا سكوتهما..

وحاولت أنا وبيل أن ننام ، وحاولت الا أنظر الى الساعة من حين لآخر . وفى الخارج بدأت انفجارات بعيدة تتردد ، ولما سألنى بيل عن معنى هذه الانفجارات كررت له صيغة البلاغ الرسمى « احتلت عصابات الشيوعيين برج مراقبة لبعض الوقت » ومرت دبابة من

أمام البرج.. تقوم بدور الدورية الليلية ، وبعد مرورها بدقائق سمعنا صوت انفجارها الهائل يهز البرج ، لابد أنها داست لغما ..

لا فائدة من النوم ..

ـ هل أنت مستيقظ ؟

ـ نعم ..

ـ فيم تفكر ؟

ـ بصراحة فى فيونج ! ترى ماذا تفعل الآن ؟

ـ لابد انها يئست من عودتي الليلة ، فهي مستلقية على السرير ، تتصفح عددا قديما من مجلة « بارى ماتش » ..

ـ أين عرفت فيونج أول مرة ؟

ـ كانت ترقص فى « الجراند موند » ..

ـ ترقص ؟

قالها كأننى قلت شيئا أليما ..

ـ لا تجزع .. انها مهنة محترمة ..

ـ لابد أن لك تجارب كثيرة مع النساء ..

ـ ومع السنين ..

ـ أما أنا فلم أمتلك امرأة قط ، لم أمتلكها تماما ، أى اننى لم أعرف ما يمكن أن يسمى تجربة حقيقية ..

ـ ذلك انكم تضيعون طاقتكم فى مضغ اللبان ..

ـ اننى لم أخبر أحدا بذلك قط ..

ـ ان الانسان يبدأ حياته زير نساء ، ثم ينتهى مثل جده تماما : مخلصا لامرأة واحدة ..

ـ لو سألك أحد : ما هى أعمق تجربة جنسية مرت بك ، ماذا تقول ؟ ..

وقلت :

ـ عندما كنت راقدا فى السرير ، ذات صباح باكر،

أتأمل امرأة فى قميص نوم أحمر ، تمشط شعرها !
ـ قرأت أن أعمق تجربة جنسية أن تكون فى الفراش مع امرأة زنجية وأخرى بيضاء .. فى وقت واحد ..
ـ هذا ما كنت أعتقده عندما كنت فى العشرين من عمرى !
ـ هل كانت فيونج هى التى رأيتها فى قميص النوم الاحمر ؟
كنت أتمنى الا يسألنى هذا السؤال ، ولكننى أجبت :
ـ كلا .. امرأة أخرى عرفتها بعد أن انفصلت عن زوجتى مباشرة ..
ـ ثم ..
ـ ثم تركتها أيضا ..
ـ لمـاذا ؟
ـ كنت أشفق من فكرة فقدى لها ، ولم أعد أتحمل هذا الشك ، فأسرعت الى النهاية ، كما يجرى جندى جبان الى صفوف الأعداء ، ثم يأخذ نيشانا ..
ـ هل تخاف على فيونج أيضا ؟
ـ فى المرة السابقة كنت أخشى أن أفقد الحب .. أما الآن فلا أخشى الا أن أفقد فيونج فقط ..
كنت ضيقا بهذا الحديث ، فحديث الجنس ليس هو المشكلة الأهم لدى من عرف مشكلة السن والموت ..
ـ ان السؤال هو : اذا تركتنى فونج ، هل أجد النشاط الذى أبحث به عن أخرى ؟
ـ أهذا كل ما تعنيه فونج عندك ..
ـ نعم ، انتظر حتى تخاف من أن تعيش عشر سنوات وحيدا بدون رفيق ، وسوف تبدأ البحث لا عن ذات قميـــص أحمر .. بل عن امرأة ، أيا كانت ، امرأة تستمر معك حتى تنتهى !

وفجاة طرقت آذاننا أصوات تتحدث بلغة محلية
حت البرج .. لابد انهم وجدوا سيارتنا ويبحثون الآن
سن كان بها ، هل ينصرفون ؟ هل ننتظر حتى يهجمون
لى البرج ؟

قال بيل :

ـ هذان الجنديان سيسلمانا لهم ..

ـ لهم الحق ! انها بلادهم على أى حال ! ..

وقررنا الهرب ..

وهبطنا الدرج ، وفى الظلام الداكن ، جريت فى اتجاه حقول الارز ، وبيل يجرى خلفى . وانفجرت قنبلة بازوكا اصابت البرج ، وانكفات على وجهى .. وسمعت صوت بيل الذى كان راقدا الى جانبى : هل أصبت ؟

ـ نعم ..

كان واضحا ان ساقى اليسرى قد اصيبت بكسر ما ، كان الألم الذى تسرب منها حتى وصل الى راسى هائلا، اشبه بألم الاسنان الحاد . وأنسانى الألم كل شيء . انسانى أن أتنبه الى صوت قنبلة أخرى انفجرت فى البرج والمهاجمون يريدون فيما يبدو التأكد من ان كل من فيه قد قتلوا ، وانسانى أن أتنبه الى أنهم ربما يبحثون الآن فى المنطقة التى نختفى فيها .

ـ هل أصابتك رصاصة ؟ ..

ـ كلا ، لقد سقطت على قطعة خشب مدببة .

ـ اسمع ، سأحاول أن أحملك على كتفى ، يجب أن بتعد من هنا فورا ..

كنا نتحدث همسا ، وكان صدرى قد ضاق، وبدأت اصيح فيه صياحا مذبوحا من بين أسنانى :

ـ اتركنى واذهب أنت ، لا تحاول أن تقوم بدور بطولى !

ولـكن بيل أصر على أن يحملنى ، وعندما أصبحت مستندا تماما الى كتفيه ، بدأ يتحرك فى بطء شـديد جدا ، حتى لايحدث أقل صوت من احتكاكنا بعيدان الارز ، وكنا نسمع دقات قلوبنا ، ووقع أقدامه ، وكأنها تصيح فى الليل السـاكن وكأن كل مخلوق يسمعها فى حقول الارز الشاسعة ..

وبلغنا جدولا صغيرا .. وكان لابد أن يعبر بيل هذا الجدول ، وأن يغوص فى الماء الى ركبتيه وأن يخطو فى بطء حتى لا تبعث الأمواج صوتا ينم عن وجود أى جسم يتحرك ، ومن حين لآخر كنا نسمع سلسلة من طلقات مدفع رشاش تنطلق هنا أو هناك ، ربما للتأكد من خلو المنطقة من أى مخلوق ، ورغم ألمى الشديد ، ورهبة الموقف ، استطعت أن أهمس فى أذن بيل وأنا أتأرجح على كتفيه العريضتين :

ـ لابد أنك رأيت أفلام الحرب ، ومغامرات بحارة الاسطول .. ولـكنك ياصديقى لن تأخذ وساما على انقاذى ! ..

وصاح بيل فى فرح :

ـ لقد نجحنا ..

كنا قد عبرنا النهر الصـغير ، فأصبحنا فى أمان نسبى ، واسـتطعنا لأول مرة أن ننظر الى الوراء فى شجاعة . كانت هناك على البعد نار صغيرة مشتعلة فى نشوة ..

ـ انها سيارتى ! ..

وكان الاحساس بالنجاة قد خفف ألمى ، وكأن أعصابى قد ظفرت بساعة هدنة ، وكدت أن أصفر وأغنى ! ..

وعجبت كيف يستطيع صحفى مثلى أن يلخص كل أهوال هذه الليلة فى سطرين اثنين ، يظهران فى ذيل أحد

اعمدة الجريدة ! ..

ان علينا أن ننتظر هنا حتى الصباح ، وتمر أول دورية فرنسية ، لتعيدنا الى سايجون ..

بعد أن قضيت فى المستشفى أسبوعين ، عدت الى شقتى فى شارع كاتينات . كانت فونج تنتظرنى على السلم ، فاستندت الى جسدها الرقيق ، وأخذت أصعد السلم فى بطء ..

قالت لي : افتقدتك كثيرا ..

وكنت فى حاجة حقيقية الى أن اسمع منها هذا . انها دائما تقول لى ما أريد سماعه . وسألتها كيف كانت تقضي وقتها فى غيابى ، فقالت لى انها كانت ترى أختها كثيرا ، وان أختها حصلت على وظيفة مع الامريكان ..

ـ بمساعدة بيل ؟ ..

ـ كلا .. بمساعدة جو ..

ـ من هو جو ؟ ..

ـ الملحق الاقتصادى .. ألا تعرفه ؟ ..

ـ نعم أعرفه ، ولكنى أنساه دائما . انه من ذلك النوع من الناس الذى ينساه المرء دائما .. وعندما وصلنا الى الشقة ، وتمددت بمساعدتها على الفراش ، أعطتنى البريد الذى جاءنى أثناء غيابى . كان من بينه خطاب من زوجتى ، خطاب طويل ، حافل بالتأنيب ، أخذت أقفز فوق سطوره كى أصل الى الكلمة الحاسمة : نعم .. أم لا ..

كان الرد : لا .. انها ترفض الموافقة على الطلاق ، لأنها ما زالت تراه عملاً ضد الدين ! ..

كانت فونج قد استنتجت أن الخطاب من زوجتى ، هل أقول لها الحقيقة ؟ .. لا أظننى أستطيع .

ـ فونج ، ان الخطاب من زوجتى ، انها تفكر فى

الطلاق وتستشير محاميها . ومعنى ذلك ان هناك املا وردت على فونج قائلة :

ـ هذا لا يهم على أى حال ، اننا نستطيع تنظيم أمرنا بدون زواج ..

ـ كيف ؟

ـ ببوليصة تأمين على الحياة مثلا ..

هذا صوت أختها وتفكيرها الواقعى ، وقد اعجبنى على أى حال مواجهتها للواقع العملى البسيط لضمان مستقبلها ، وعدم لجوئها الى التعبيرات العاطفية العنيفة

ولكننى لم أسترح تماما انما جلست أكتب خطابا الى بيل ، خطابا اشكره فيه على أنه انقذنى من نهاية محزنة ، وأبلغه اننى عدت الى البيت ، واننى أسير الآن متكئا على عصا . وفى الختام كتبت له أن زوجتى تفكر فى الطلاق ، وان مستقبل فونج معى أصبح واضحا ..

***

عادت حيـــاتى تمضى فى روتينها العادى ، لولا ان مساعدى الهندى « دومنجز » مرض فجأة .

ان « دومنجز » هندى الأصـــل ، كان يذهب الى المؤتمرات الصحفية بدلا مني ، ويأخذ منى الرســائل الصحفية ليعرضها على الرقابة ، ثم الى مكتب التلغراف . كما كان يساعدنى على معرفة معلومات كثيرة ، يستطيع هو أن يعرفها بسهولة لأنه آسيوى الاصـــل ، ولأننا تعودنا الا نستغل معلوماتنا استغلالا صحفيا رخيصا ، والا ننقلها الى المخابرات الفرنسية ، فقد أصبح دومنجز محل ثقة بعض رجال المقاومة الذين يعملون سرا فى سايجون ..

وفى احدى زياراتى له اثناء مرضه طلب منى ان اذهب الى صديق صينى له ، لأن لديه معلومات تهمنى ..

وبعد ان اعطاني عنوان صديقه هذا سألني :
ـ ماذا تعرف عن بيل ؟
ـ لاشيء أكثر من انه يعمل في جهاز المعونة الاقتصادية الامريكي . ولكنه خلف هذا الستار يقوم بأعمال أخرى فيما أظن. الظاهر انه ينشيء علاقات مع بعض الصناعات المحلية لحساب أمريكا..انني لا أحب أسلوب الامريكيين، يدفعون فرنسا الى القتال، بينما يستولون على أسواقها من الخلف ..
ـ لقد سمعته منذ أسابيع يتحدث في حفلة مع بعض رجال الكونجرس الامريكي الزوار . كان يقول لهم ان انجلترا وفرنسا قوى استعمارية مكروهة في آسيا ، أما امريكا فهي ما زالت نظيفة اليد .
ـ ولم يذكر طبعـا اسـتعمار أمريكا في هاواى وبورتوريكو ، ونيومكسيكو ؟ ..
ـ كان يقول ان على أمريكا أن تعثر على زعيم وطني بعيد عن اى علاقات مع الاسـتعمار القديم ثم تتفاهم معه .. وتوجد معه قوة ثالثة بين الاستعمار الفرنسي والشيوعيين.. والظاهر انه عثر على هذا الزعيم المنشود
وذهبت الى العنوان أبحث عن « مستر شو » . كان على أن أسير طويلا في الحي الوطني بلافتاته الصينيـة وشـوارعه الضيقة .. حتى وصلت الى دكان يزدحم بكل انواع الخردة والمخلفات ، هذا هو دكان مستر شو، ولكن على أن أدخل من الباب الخلفي ، والظاهر أن الباب الخلفي كان يؤدي الى مسكنه ..
كان مستر شو جالسا بين اسرته يسعل بشدة .. رجل نحيف جدا ، له رئة واحـدة ، يشرب الافيون بكثرة هائلة ، ولم استطع ان أفهم منه شيئا ، حتى جاء مساعده الذي قدم نفسه الي باسم مستر «هنج» وقال

لى : ان ذاكرة مستر شو مفككة ، وانه سوف يروى لى كل شىء ..

وعاد بى مستر هنج الى دكان الخردوات ، وبين ركام الحديد الخردة كشف لى عن قالب يحمل اسم شركة امريكية ، وعلمت منه ان بيل يحضر البلاستيك ، وانه يساعد « الجنرال تى » الذى يقود احدى العصابات المسلحة على صنع المتفجرات بهذا البلاستيك والقائها فى سايجون ، بقصد احداث الفوضى والتشكيك فى الحكومة الموالية للفرنسيين فبذلك يمكن اسقاط هذه الحكومة ، واذا جاء « الجنرال تى » الى الحكم ، فهو يستطيع أن يتفاهم مع الامريكيين !

اذن فهذه هى القوة الثالثة التى يفكر فيها !

***

ليس من السهل أن تقابل لأول مرة الشخص الذى انقذ حياتك . وكثيرا ما فكرت أن أدعو بيل الى كأس من الويسكى أو الى العشاء ولكننى كنت أؤجل ذلك دائما ، حتى استيقظت يوما على صوت بيل ينادينى باسمى ويطرق بابى ..

استيقظت على صوته ، وكنت احلم به ! كنت احلم بأننى ملقى فى حقول الارز ، ودمى ينزف وأنا أصيح فيه : ابتعد عنى ! لا أريدك أن تنقذنى ..

وسمعت همسا وراء الباب ، فونج وهو ، يتكلمان ، وعندما فتحت الباب فجأة ، كانا يقفان متقابلين وقد وضع يده على كتفها .. كأنهما كانا يبتعدان بعد قبلة طويلة !

وسألت فونج أين قابلته ، فقالت انها سمعت صوته وهو يطرق الباب فصعدت لتفتح له ..

وبعد أن جلس بيل ، قلت له : هل وصلك خطابى؟

ـ نعم .. وكنت أحب ألا أتلقاه ، لماذا تلجأ الى الكذب على ؟ لقد كنت أثق فيك ..

ـ ياصاحبى .. عندما يكون فى الموضوع امرأة .. لا تثق فى أحد ، ولا تستبعد الكذب ..

ـ ولكن .. ألم يكن فى استطاعتك أن تنتصر بدون كذب ؟

ـ كلا .. هذا موقف أوربا كلها ، وهو موقف ذو وجهين !.. ان علينا أن نعوض فقرنا فى الموارد ! ولكن كيف اكتشفت اننى أكذب ؟ ..

ـ أختها .. انها تعمل الآن مع جو ، وقد قال لها انهم استدعوك الى لندن ، وقد جاءت الى هنا بالامس فوجدت خطاب زوجتك وقرأته ، انها تعرف اللغة الانجليزية ..

واتجهت الى فونج أسألها بالفرنسية :

ـ هل كنت تعرفين كل شيء منذ الامس ؟

ـ نعم ..

ـ ولكنك لم تثورى .. كنت هادئة كالعادة ..

ـ كنت أفكر فقط ..

وسألنى بيل :

ـ هل تستطيع أن تفسر لماذا فعلت هذا ؟

ـ لأحتفظ بها ..

ـ مهما كان الثمن بالنسبة لها ؟

ـ طبعا ..

ـ ليس هذا حبا على طريقتك ..

ـ أنا أريد أن أحميها ..

ـ أنا لا أرى انها تحتـــاج الى حماية .. اننى اريدها أن تبقى معى ، وفى فراشى ..

ـ ولو ضد ارادتها ؟

ــ انها لا تبقى ضد ارادتها ..

كانت فونج قد انصرفت عنا ، واستلقت على السرير ، تتصفح بعض المجلات المصورة ، كأن حديثنا لا يعنيها ، وقال لى بيل :

ــ انها لن تحبك بعد ذلك ..

ــ الحب كلمة غريبة .. نستعملها لأسباب عاطفية ، أو لكى نفطى بها اضطهادنا لامرأة واحدة ..

ــ لولا رجلك المكسورة .. لضربتك !

ــ اننى أدعو الله أن تعلم ماذا أنت صانع هنا . نعم ، أنا أعرف ان دوافعك دائما طيبة ، ولكننى أتمنى أحيانا أن تعرف بعض الدوافع الشريرة فربما ساعدك هذا على أن تفهم البشر ..

ــ اننى أريد أن أعطيها بيتا محترما ..

ــ وثلاجة وسيارة وتليفزيون من أحدث طراز ..

ــ وأطفالا ..

ــ نعم .. مواطنين أمريكيين صغارا ..

ــ وماذا سوف تعطيها أنت ؟ انك لم تكن راغبا فى أخذها معك الى لندن ..

ــ نعم .. فأنا لست قاسيا الى هذا الحد ، انني لن آخذها الا اذا ضمنت لها تذكرة عودة ، انها مخلوق انسانى يا بيل .. وتستطيع أن تقرر ..

وصاح بيل : فونج ..

ورفعت رأسها اليه ، بينما استطرد يقول : انه يخدعك !

قالها بالانجليزية التى لا تفهمها ، فردت عليه بالفرنسية :

ــ لست أفهم ..

وصحت فيه : بيل ، انت تعرف الآن كل ما تريد

ان تعرفه ، فاخرج من هنا ! اذهب الى قوتك الثالثة ، الى مؤلفات يورك هاردنج ، اذهب بعيدا عني والعب بالبلاستيك الذى تحضره ..

ـ لست أفهم ! ..

***

أعتقد انني قد تلقيت جزائي ، فان بيل ، عندما ترك شقتي ، قد حكم على بالقلق لأسابيع كثيرة ، كل مرة أعود فيها الى البيت ، اتوقع الا أجدها ، وكل مرة تخرج هى فيها أتوقع الا تعود ، وعندما تعود أسألها : « محاولا أن أخفى قلقى » أين كانت ؟ فتقول : « فى السوق » وتظهر لى ما اشترته ، أو فى السـينما ، وتطلعني على التذاكر ، أو عند أختها ـ حيث أعتقد انها تقابل بيل ..

أما هى فلم تتغير ، ظلت تطبخ لى ، وتملأ لى الغليون ، وتمنحنى جسدها فى رقة من أجل متعتى ، ولقد أقبلت فى تلك الايام على جسدها بشراهة ، ولكن متعتى ذهبت! كنت أقبل عليها بشراهة كأننى أكرهها ، ولـكننى فى الواقع كنت أكره المستقبل ، كانت الوحدة تتمدد الى جوارى فى الفراش ، وفى الليل لم اكن أضم بين ذراعى سوى الوحدة ! ..

وبدأت ـ دون أن أشعر ـ أكره كل ما هو أمريكى . أصبحت أحاديثى مع الناس مليئة بالاحكام .. برداءة الادب الامريكى ، وفضائح السياسة الامريكية ، وحيوانية الاطفال الامريكيين ، كأن من يريد أن يأخذ فونج منى دولة .. لا رجل ! ..

وفى احدى المرات ، خرجت فونج ولم تعد . وعندما فتحت دولابها وجدت انها قد أخذت كل ملابسها ..

اننا لا نشعر بالألم عادة فى لحظة الصدمة ، ولكن الم

بدأ عندما شرعت أرسم خطة لحياتى التىعلى ان أعيشها
تركت العمل فى يد مساعدى دومنجز وسافرت الى الشمال. كان لى أصدقاء فى قاعدة الطيران فى «هايبونج» وكنت محتاجا الى هذا السفر لأنسى ..

وهناك كان ممكنا أن أركب الطائرات فى غاراتها الجوية . ان الغارات فى هذه الحرب مأمونة جدا ، تماما مثل ركوب اى سيارة عامة ، فالطائرة تطير على ارتفاع لا تبلغه المدافع الارضية .. والعدو لايملك سلاح طيران .. انها رحلة تلقى فيها الطائرة قنابلها وتعود ببساطة ، تقوم فى موعد محدد وتلقى قنابلها فى موعد محدد وتعود فى موعد محدد ..

ولكن صديقى الطيار «تروين» دعانى مرة الى مصاحبته فى غارة من نوع آخر . الغارة هذه المرة تحتاج الى الانقضاض بالطائرة على قرية انسحب منها الفرنسيون، واطلاق المدافع الرشاشة على الارض ..

وفى الطائرة الصغيرة جلست خلف الطيار مباشرة ، فى مقعد صغير يكاد يشبه مقعد الدراجة ..

وعبرنا النهر الاحمر . كان فى تلك اللحظة من الغروب احمر حقا ، من انعكاس الشمس ، فلا شك انه كان هكذا عندما رآه أول من سماه بالنهر الاحمر ، وكان النهر الاسود أسود حقا بالظلال الكثيفة التى تغطيه ، ثم سهول شاسعة من حقول الارز .. فلو هبطت هنا فرقة كاملة لما ظهرت اكثر مما تظهر قطعة من العملة فى حقل من القمح ..

ونظر الى الكابتن تروين وغمز بعينيه ، فقد وصلنا الى القرية ، ورأينا قمة القلعة ، والآن سوف ننقض. وهبطت الطائرة بأنفها هبوطا ساحقا ، وبسرعة هائلة لدرجة اننى لم أعد أرى شيئا ، انما اصبحت احس

فقط كان أمعائى مضطربة لأول تجربة ، وكان شيئا ثقيلا يضغط على صدرى فى عنف .. فلم أشعر باللحظة التى سقطت فيها القنابل، انما سمعت صوت المدافع الرشاشة تنطلق ، ثم انزاح الشىء الثقيل عن صدرى فجأة ، ونحن نصعد الى السماء الآمنة .

كل هذا تم فى أربعين ثانية.. أربعين ثانية اختفى فيها « بيل » من مخيلتى . وعندما نظرت الى الارض كان الدخان يصعد الى السماء بسرعة كأنه يشير الينا ..

وتكررت العملية مرة اخرى .. واربع عشرة مرة ..

وفى عودتنا ، قال لى الكابتن : اننا سنرى مناطق جميلة جدا فى طبيعتها ، ساعة الغروب .

وفى تلك الليلة صمم تروين أن يستضيفنى فى «بيت الافيون » رغم انه لايدخن .. بيت فيه الكئوس ، والجنود ، ودخان الافيون ، والمومسات ..

كأن تروين كان يريد أن يقول لى شيئا ، أو يبرر لى ما رأيت ، واخيرا قال لى :

ـ مهمة الليلة لابأس بها . كان الخطر موجودا بالنسبة لنا وبالنسبة للعدو على السواء . أما ما احتقره ، فهو القاء قنابل النابالم الحارقة وأنا على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فى أمان مطلق !.. انك لم تر منظر غابة تحترق بهذه القنابل !.. والله وحده يعلم كيف يكون منظرها على الارض.. ان هؤلاء المساكين الملاعين يحترقون احياء ، النار تتدفق عليهم كما تتدفق الماء فتغرق كل شىء ..

وتغيرت سحنته اذ كسته مسحة من الكراهية للعالم كله .. وقال لى :

ـ اننى أحسدك على انك تعرف كيف تتخلص من هذا كله . ولا تتورط مثلنا .. ولكنك سوف تتورط

يوما ، لن تستطيع أن تظل هكذا بعيدا دون أن تأخذ اى جانب .. لن تستطيع أن تبقى هكذا زمنا طويلا..

ثم استطرد قائلا :

ـ عندما ألقيت قنابل النابالم لأول مرة ، ألقيتها على قرية نشأت فيها ، وأخذت أفكر : هذه القرية التى تحترق هى التى ولدت فيها ومسيو ديبوا صديق والدى ما زال يعيش فيها ، الخباز ـ الذى كنت أحبه وأنا طفل ـ يجرى الآن هنا وهناك واللهب يطارده ..

ـ ولكنك ما زلت تقذف القنابل ..

ـ نعم .. هذه مجرد حالات كئيبة تستولى على بعد كل غارة بالنابالم . اننا محترفون ، علينا أن نواصل الحرب بالنابالم حتى يقول لنا الساسة كفى ..

كان وجه تروين قد أصبح غريبا عنه ، كأنه قناع ممسوخ كالذى يلبسه الاطفال ويحدقون من خلال فتحاته ..

***

كانت عودتى الى سايجون ، والى شقتى فى شارع كاتينات ، أليمة للغاية . هذه أول مرة أعود ولا أجدها فى انتظارى ، ولكم وددت أن أقول لسائق التاكسى أن يدور مرة أخرى حتى أؤجل عودتى الى البيت . وما أبطأ ما صعدت السلم !.. وعندما اقتربت من الباب سمعت صوت مقعد فى الداخل.. انه المقعد الكبير الذى كانت تجلس فيه ..

وفتحت الباب ، كان فى انتظارى هذه المرة بيل ..

قال : انه علم اننى ذهبت اليه مرة أخرى فى السفارة فجاء يتحدث معى ..

وسألته مباشرة عن فونج وكيف حالها ؟ كنت أستمع اليه وأنا أفتح البريد الذى ينتظرنى .. وعلى رأسه

رسالة من جريدتى : انهم بمناسبة تحرج الاحوال فى الهند الصينية وتراجع الفرنسيين يوافقون على أن ابقى هنا سنة أخرى !

وسألت بيل :

ـ هل تزوجت أنت وفونج ؟..

ـ كلا .. سنتزوج عندما آخذ اجازة فى امريكا وسألنى : هل سنبقى أصدقاء ؟..

فقلت له : انه لامانع عندى ، بشرط الا ارى فونج ، فان فى هذه الشقة ما يكفينى من الاشياء التى تذكرنى بها ، الأمر الذى يجعلنى أبحث عن شقة أخرى انتقل اليها ..

وعندما هم بالانصراف لم أتمالك من أن أقول له :

ـ خذ نصيحة منا نحن الاستعماريين القدماء ، ان هذه القوة الثالثة التى تبحث عنها لعب بالنار !.. ان « الجنرال تى » ليس زعيما وطنيا ، انه زعيم عصابة تتكون من بضعة آلاف فحسب ..

وتظاهر بيل بأنه لايفهم ماذا أعنى. فقلت له بصراحة أكثر :

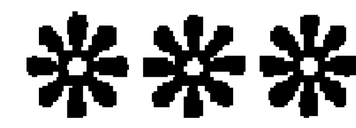
ـ البلاستيك الذى تحضره ، والقنابل الموضوعة فى الدراجات . « تى » ليس النوع الذى يحول دون الشيوعية فى آسيا !..

ـ ظننت انك لا تأخذ جانبا فى اى معركة ..

ـ نعم .. ولكننى عندما أجد انسانا يحول كل شيء حوله الى فوضى ، فاننى أنصحه . اترك هذه الاعمال للملحق الاقتصادى جو . انها نكتة سخيفة وان كانت قد تسببت فى قطع ساق أحد الناس . أما أنت فخذ فونج وعد الى بلادك ، وانس هذه القوة الثالثة ..

ورد علي فى تحفظ :

ـ شكرا على آرائك ..
ثم مضى !..



كنت راغبا بالفصل فى ان أنتقل من شقتى . كنت لا أكف عن رؤية الشقق الجديدة . فاذا تعبت ذهبت الى مقهى أوربى قريب أستريح فيه . كنت أفضل هذا المقهى ، فهو مكان لايمكن أن اقابل فيه فونج . اننى اعرف تماما أماكنها المفضلة والمواعيد التى توجد فيها ، وهى انسانة لا تحب أن تغير عاداتها ..

فى ذلك اليوم لم يكن فى المقهى سوى فتاتين كل ما فيهما ينطق بأنهما أمريكيتان : الحقيبة المعلقة على الكتف ، السيقان الطويلة النحيفة ، الاهتمام الذى يأكلان به الآيس كريم . كانتا جميلتين ، وكنت أريد لهما أن تعودا الى وطنهما أيضا ..

وفجاة نظرت احداهما الى ساعتها وقالت : يجب أن ننصرف الآن .. « وارين » قال لنا أن ننصرف قبل الحادية عشرة .

ـ صحيح.. ولو اننى كنت افضل أن أبقى لأتفرج ، ترى ماذا سيحدث ؟.. مظاهرات ؟

ـ لا أظن .. لقد رأينا مظاهرات كثيرة ..

وانصرفت الفتاتان ، وهما تنظران الى نفسيهما فى المرآة الكبيرة التى تملأ حائط المقهى ، وبعد أن انصرفتا بقليل كانت هذه المرآة تنفجر وتتناثر والمقاعد تطير .. والدخان يتصاعد من الطريق مع الصرخات وصوت الانفجارات ..

وخرجت مسرعا لأرى أكواما من القتلى والجرحى والدماء ، والبوليس قد حاصر المكان ، وعند خروجى الى الشارع وقع بصرى على محل اللبن الواقع فى نهاية

الشارع . ان الدخان يتصاعد منه أيضا ، ان فونج تذهب اليه فى هذه الساعة دائما ..

وقررت أن أقتحم حصار البوليس لأذهب اليها ، ولكن عبثا ، البوليس يرفض ، وبطاقتى الصحفية ليست معى ..

وعدت الى المقهى المحطمة ، وفجاة وجدت نفسى وجها لوجه أمام بيل ، وصحت فيه :

ـ هل معك بطاقة نمر بها ؟.. ان فونج فى محل اللبن ، يجب أن نبحث عنها ..

ـ كلا .. ليست هناك ..

ـ بل انها هناك .. انا أعرف مواعيدها ..

وهز بيل كتفيه : كلا .. لقد نبهت عليها أن تترك المكان وتعود الى البيت قبل الحادية عشرة ..

ـ نبهت عليها ؟..

اخترقت هذه الكلمة رأسى ، كأنها طلقة رصاص ..

والفتاتان الامريكيتان قالتا ان من يدعى « وارين » اخبرهما بأن يتركا المكان قبل الحادية عشرة !.. فلا يجب أن تقع ضحايا أمريكية ! ولكن هؤلاء القتلى والجرحى .. هؤلاء النساء والاطفال لم ينبههم أحد !.. ليسوا من الاهمية بحيث ينبه عليهم أحد ..

وقبضت على كتف بيل فى عنف وغيظ وصحت فيه :

ـ هل رأيت ماذا يصنع البلاستيك فى الايدى الخطأ ؟.. الا تعرفون ان هذه الساعة هى ساعة الشراء وازدحام المكان بالنساء والاطفال ؟.. هل كنت تظن ان « الجنرال تى » سيختار ساعة غير هذه لكى يحدث أكبر ضجة ممكنة ؟.. ها أنت قد جعلت الجنرال تى شهيرا ! هذه هى القوة الثالثة الوطنية التى تصنعها !..

وابيض وجه بيل تماما .. وبدا كأنه علي وشك ان

يغمى عليه ..

وتركت كتفه .. كنت أفكر : ما الفائدة ؟ انه دائما ساذج بريء !.. انك لا تستطيع أن تلوم البريء على ذنب يقترفه !.. ان البراءة هنا نوع من الجنون !..

***

مر أسبوعان على مقتل « بيل » قبل أن التقى مرة اخرى بضابط البوليس الفرنسي فيجوت .. كنت مارا بالنادى الواقع فى شارع شارنيه عندما رأيته جالسا ، فدعانى الى كأس من الشراب ..

وبعد أن تحدثنا قليلا ، قال لى :

ــ لقد عثرنا على كلب بيل ..

ــ حقا ؟

ــ نعم .. كان مقتولا أيضا على بعد خمسين ياردة تقريبا من المكان الذى وجدنا فيه جثة بيل ..

ــ أما زلت مهتما بالموضوع ؟..

ــ الوزير الامريكى المفوض لايكف عن السؤال والالحاح .. من حسن الحظ اننا لا نتعب هذا التعب عندما يقتل رجل فرنسى !..

وقال لى فيجوت انه يحب أن يزورنى فى البيت لنتحدث بصراحة ، واتفقنا على أن أنتظره فى العاشرة مساء ..

وسألته وأنا انهض :

ــ أما زلت تشك فى اننى مشترك فى مصرعه ؟

ــ انا أريد أن اتحدث معك .. هذا كل شيء ..

من يدرى ؟ ربما كان فيجوت يظن اننى قتلته بسبب الغيرة !.. انه يسألنى عما اذا كانت فونج قد عادت الى مرة أخرى بعد مصرع بيل ؟

وفي الليل ، اعطيت فونج نقودا لتذهب مع اختها الي

السينما حتى لا تكون موجودة ، وفى العاشرة تماما جاء فيجوت .

كان أول سؤال القاه على هو :

ـ لقد قلت لى انك لم تر بيل يوم مقتله.. ولكننى اكتشفت انك قابلته !..

واخذ يسرد لى الأدلة على ذلك ، من المواعيد التى ذكرتها له ، الى تحليل اظافر الكلب ، وكان بها أسمنت مبلل ، وفى مدخل بيتى أعمال بناء تملأ الارض بالاسمنت المبلل ، الى اعتقاده بأننى رغم عدم اهتمامى بشىء ، فاننى فى لحظة عاطفية ، يمكن أن أتخذ جانبا ..

ولكننى أخذت أسخر من أدلته ، وكان هو نفسه يشعر بأنها اقل من ان تدين احدا ، فانصرف راجيا منى أن أعتبر المسألة منتهية ، مؤكدا انه لن يزعجنى بهذا الشأن مرة أخرى ..

ولما أصبحت وحيدا فى غرفتى ، وقد تأكدت ان ملف حادث القتل قد أغلق الى الأبد ، وجدت فى نفسى الشجاعة أن أعترف لنفسى بأننى كذبت على الضابط ، واننى قد رأيت بيل ليلة مصرعه ! ..

فبعد أن شاهدت حادث الانفجار الرهيب ، ودماء القتلى والجرحى .. بعد أن رايت هـذه الدماء تلوث حذاء بيل ، ورأيته يقول فى بساطة : يجب أن أمسح حذائى قبل أن أذهب لمقابلة وزيرنا المفوض ..

بعد هذه اللحظات التى رأيت فيها ماذا يصنع بيل.. ذهبت فورا الى الحى الوطنى ، ثم الى دكان «الخردة» بالذات ، أبحث عن مستر هنج .

كان قد علم بحادث الانفجار الرهيب ، ورويت له ماذا رأيت بالضبط . وقلت له : انه «بيل» المسئول عن هذا الحادث أيضا .. وانه لايجب ترك ولد من بوسطن

يلعب بالمتفجرات على هذا النحو ..
وسألنى هنج : لماذا لا تبلغ معلوماتك الى البوليس ؟
فقلت له : ان البوليس لن يتعرض للجنـــرال تى وعصابته .. ولن يتعرض بالطبع لمواطن امريكى ..
واطرق مستر هنج طويلا ، ثم رفع رأسه وقال لى فى خطورة : هل تستطيع أن تدعو مستر بيل ليتعشى معك الليلة ، فى مطعم الطاحونة القديمة ، بين التاسعة والعاشرة ؟..
ــ وما الفائدة ؟..
ــ سوف نقابله فى طريقه الى المطعم ، ونتكلم معه..
ــ ولماذا مطعم الطاحونة القديمة بالذات ؟
ــ انه بجوار كوبرى داكو .. وفى هـــذه المنطقة نستطيع ان نلتقى به ليلا دون أن يزعجنا احد ..
وسكتنا فترة . وسمعت أصواتا تتهامس خلف أحد الأبواب .. فلا شك ان مستر هنج كان يعقد اجتماعا مع رفاقه ..
وقطع مستر هنج السكوت قائلا :
ــ هل تصنع هذا من أجلنا .. يامستر فولر ؟..
وواصلت سكوتى ، كنت افكر فيما انا مقدم عليه . وذكرت كلمة الطيار تروين لى : « ان الانسان لابد فى النهاية أن ينضم الى جانب ، اذا أراد أن يكون مخلصا لادميته » .
وانصرفت من عند هنج ..
ومررت بالسفارة الامريكية حيث تركت ورقة لبيل أطلب منه أن يمر على فى البيت ..
وجاءنى بيل فى البيت فرحا . كان مبعث سروره أن دعوتى له معناها اننى لست غاضبا عليه بعد الكلام العنيف الذى وجهته اليه بعد الانفجار ..

قال لى انه قابل الجنرال تى ..
ـ وهل قطعت صلتك به ؟..
ـ كلا .. اكتفيت بتأنيبه لأنه لم يحسن اختيار موعد الانفجار .. اننى لا أستطيع أن اقطع علاقتى به ، فلو انه وصل الى الحكم لأمكننا الاعتماد عليه ..
ـ وكم من الناس يجب أن يقتلوا هكذا .. حتى يصل جنرالك هذا الى الحكم ؟..
ولم تكن هناك فائدة من المناقشة ، فقلت له :
ـ اننى مشغول الان .. فهل تأتى لتتعشى معى الليلة فى مطعم الطاحونة القديمة ، بين التاسعة والعاشرة مساء ؟
ووافق بيل على الموعد ، وفجأة بدأت اتردد . لقد قال لى هنج انهم سيقابلونه عند الكوبرى ويتفاهمون معه . انه لم يقل لى شيئا عن طريقة التفاهم . ولكن التفاهم فى الحرب ليس له الا طريقة واحدة : كل واحد يستعمل السلاح الذى فى يده . الفرنسى يستعمل قنبلة « نابالم » ومستر هنج يستعمل مسدسا أو سكينا ..
وفكرت أن أعود فأحذر بيل ، ووجدت نفسى أسأله :
ـ هل تحمل سلاحا ؟..
ـ كلا ..
ـ ولا فى الليل ؟..
ـ انه لن ينفعنى .. فلو شاء أحد قتلى فسوف يستطيع ذلك بأى شكل ..
واقترحت عليه أن نلغى موعد العشاء ، ولكنه تمسك به . قال انه يريد أن تعود صداقتنا التى فسدت منذ ..
واكملت له : منذ انقذت حياتى !..
ـ كلا .. لا اقصد هذا . ولكننى آخذ عليك اسرافك فى الحياد . لقد كسرت رجلك ومع ذلك تريد أن تظل غير منحاز الى أى جانب ..

قلت له هامسا : من يدرى ؟.. ربما انحاز فى لحظة انفعال !..

وتهيأ بيل للانصراف ، وقال انه يرجو الا يعطله السفير عن الحضور ، وكأننى اردت أن أمنحه فرصة للنجاة ، فقلت له :

ـ لايهم .. اذا تعطلت فلا تأت الى المطعم ، على أن تزورنى بعد ذلك فى البيت .

وبمجرد انصرافه ، أسرعت الى أقرب دار سينما ، كنت محتاجا الى أى شىء يشغلنى عن نفسى ويمنعنى من التفكير ، وكان الفيلم حول شاب قتل عدوا وانقذ فتاة وعاش فى التبات والنبات ..

وخرجت من السينما وقد جاء الليل ، فذهبت الى مطعم الطاحونة القديمة ، وأخذت مائدة بعيدة بجوار النافذة ..

وبغير قصد منى كانت أذنى تتسمع الى الخارج فى اضطراب متوقعا فى أى لحظة أن أسمع صرخة ، أو طلقة ، أو صوت سيارة بوليس ..

ولأول مرة فى ذلك اليوم فكرت فى فونج .. لماذا .. فهى لن تذهب الى امريكا ولن ترى ناطحات السحاب !

وعندما أصبحت الساعة العاشرة ولم يأت بيل .. ادركت أن كل شىء قد انتهى ، وعدت الى البيت ، لأجد فونج رائحة غادية فى الطريق فى انتظاره فصحبتها الى شقتى ..

***

عادت فونج من السينما فى ساعة متأخرة ، بعد أن انصرف فيجوت بزمن ..

وتمددت فى فراشى ، بينما جلست هى على مقعد وأخذت تروى قصة الفيلم كالعادة بالفعال ..

وقالت لى فونج فجأة : انك لم تفتح بريدك الليلة ؟

قلت لها : نعم .. أنا لا استطيع أن أفكر فى عملى هذه الليلة .. استمرى فى حكاية الفيلم ..

واستمرت تروى .. ومللت الحكاية ، فقمت الى البريد أفتحه ، ما دام النوم ما زال هاربا منى ..

كان فيه خطاب من زوجتى تقول انها غيرت رأيها ، وانها توافق على الطلاق ..

وصاحت فونج تطلب مني أن أستمع اليها وهى تروى لى نهاية الفيلم السـعيدة .. فجذبتها من ذراعها ، وقلت لها : هذا الخطاب ، فيه نهاية سعيدة لقصتك !

فن الكذب السياسى

العلاقات بين الدول : حرب أو سلام ... فى ساحة الحرب يقاتل الجنود ، وفى ساحة السلم يقاتل الدبلوماسيون .

ونحن نعرف عن الدبلوماسية الآن انها سفارات وموائد مستديرة ومؤتمرات .

وعن الدبلوماسيين انهم قوم مدللون يمتازون بشتى انواع الحصانات .. ويقترنون فى أذهاننا عادة باللباقة والرشاقة وثياب السهرة وحفلات الكوكتيل والياقات المنشاة !

ولكن الدبلوماسية لم تكن كذلك على الدوام .

كان الدبلوماسي فى الزمان القديم فدائيا ، اذا ذهب فى مهمة فقد يعود وقد لايعود !.. كان السفير الاجنبى يعامل على انه جاسوس .. وقد يتعرض فى أية لحظة لطعنة خنجر او لكمين فى الطريق !

كانت التقاليد فى روما القديمة تقضى بأن يبقى السفير الاجنبى عند أبواب المدينة حتى يقرر مجلس الشيوخ قبوله كسفير .. أو معاملته كجاسوس !..

وكانت جمهورية البندقية تحتم على من تبعث به سفيرا الا يأخذ معه زوجته ، حتى لا تثرثر فى البلاد الاجنبية بالأسرار ، وأن يأخذ معه طباخا خاصا حتى

لايدس له أحد السم فى الطعام !..

وفى انجلترا ، على عهد كرومويل سنة ١٦٢٣ ، كان عضو البرلمان اذا «ضبط» وهو يتحدث مع أى سفير أجنبى ، فقد مقعده فى الحال !..

وفى موسكو ، سنة ١٦٢٣ ، كان القياصرة يخصصون قلعة ينزل فيها السفراء الاجانب .. كأسرى حرب !..

وفى اليونان القديمةكانت توجدجريمة اسمها «جريمة السفارة الفاشلة» تشبه الخيانة العظمى.. السفير الذى يفشل فى المهمة التى أرسل من أجلها يحاكم ويحكم عليه بأحكام مختلفة تصل الى الاعدام !..

ولاشك ان ذلك كله كان مرجعه الى الروح القبلية المتعصبة التى كانت سائدة بين الدول .. كل دولة تنظر الى الاخرى نظرة احتقار وكراهية وعداء . وفى هذا الجو الرهيب كان على الدبلوماسيين أن يعملوا .. حتى تتغير الظروف ، وتتبدل النظرة ، ويصبح الاصل فى العلاقات بين الشعوب الأخاء والمساواة ..

وكتاب « تطور الاسلوب الدبلوماسى » يعرض علينا قصة هذا التطور فى سلسلة خلابة منالنوادر والحكايات والتعليقات .

أما مؤلفه ، هارولد نيكولسون ، فهو كاتب صحفى انجليزى ودبلوماسى قديم ..

ويقول نيكولسون : أن الدبلوماسية ترجع الى فجر التاريخ .. وان أول مهمة دبلوماسية كانت ولاشك عندما بدأ سكان الغابات البدائيون يتفاهمون على أن تكون لكل جماعة منهم منطقة معينة يصطاد فيها ويبحث عن الطعام .

ولكن المؤلف لايشير ولو بكلمة واحدة الى تاريخ الدبلوماسية فى الحضارات الاولى .. المصرية والصينية

وغيرهما .. بل يذهب مباشرة الى اليونان ، سنة ٨٠٠ فقط قبل الميلاد .. فينقل عن «هوميروس» قصة خطف هيلانة من زوجها الملك وأسرها فى طروادة ، وكيف ان «منلاوس» و « أوديسيوس » ذهبا فى «سفارة» سلمية الى طروادة يطلبان اعادة هيلانة الى زوجها.. ودخل السفيران فى القاعة التى يجتمع فيها المجلس النيابى.. والقى كل منهما خطبة طويلة.. ولكن العضو «انتيماخوس» كان قد جمع حوله اغلبية من الاعضاء رفضت تسليم هيلانة ، فقامت الحروب الدامية المعروفة ..

ويستنتج المؤلف من ذلك : ان البعثات الدبلوماسية كانت فى ذلك الوقت تقابل المجالس النيابية لا الحكام . وان اسلوب المباحثات كان علنيا يتم بواسطة القاء خطب عامة .

وفى مكان آخر من ملحمة هوميروس ، نقرأ أن « ايلوس» طلب من أوديسيوس سما ليغمس فيه سهامه قبل المعركة ، فثار أوديسيوس عليه .. الأمر الذى يجعلنا نعتقد ان اتفاقيات جنيف الحديثة التى تحرم استعمال أسلحة معينة كالرصاص السام والغازات السامة ، كان لها نظير فى ذلك الوقت ، وان الدعوة الى تحريم استخدام الاسلحة الذرية تنبع من ضمير انسانى عمره ٢٧٠٠ سنة على الاقل !..

كانت اليونان فى ذلك الوقت تتكون من اكثر من دولة .. ولم يكن التمثيل الدبلوماسى الدائم معروفا بين تلك الدول بل كانت الدولة لا ترسل بعثة الى دولة أخرى الا فى مهمة معينة فحسب ..

أما « اثينا » فقد كانت جمهورية ديمقراطية ، يحكمها مجلس نيابى تتركز فيه جميع السلطات ، وتمثل فيه مختلف التيارات والاحزاب ، فاذا جاء اليها سفير أجنبى

كان عليه أن يتقدم الى المجلس ، وان يخطب أمامه .. ومعنى ذلك ان اية مباحثات مع دولة أجنبية كانت تجرى علنا ، على مرأى ومسمع من الشعب الأثينى كله . وان الاتفاق الذى يبرم كانت توافق عليه الاحزاب كلها ، أو اغلبيتها على الاقل .. فاذا أرسلت اثينا بعثة دبلوماسية الى بلد آخر ، كان لابد أن تتكون البعثة من أكثر من عضو بحيث تمثل مختلف الاحزاب ، وربما ضمت البعثة الواحدة أعضاء متنابذين متنافرين .. ففى البعثة التى ارسلتها اثينا الى فيليب ملك مقدونيا كان «ديموستين» لايأكل مع زملائه فى السفارة ولا يصافحهم ولا يبيت معهم فى مكان واحد ..

وفى الناحية الاخرى كانت توجد دولة مقدونيـــا ، يحكمها الملك فيليب حكما فرديا .. فهو الذى يختار السفراء ، وهو الذى يعقد المعاهدات ، ولذلك كان أغلب معاهداته سرية ..

وقد وقع الصدام بين الدولتين ، وبينما كان نواب اثينا يتتابعون على المنبر ولا ينتهون من الجدال ، كانت جيوش فيليب تزحف عليهم ، وتدمر بلادهم ، وتطلب راس أكثر خطبائهم فصاحة وهو : ديموستين !..

ويقف نيكولسون مقارنا بين الدبلوماسيتين : الدبلوماسية فى بلد دكتاتورى والتى تتميز بالسرعة والكتمان والحسم ، والدبلوماسية فى بلد ديمقراطى وتتميز بالبطء والعلانية والجدل .

على أن انتصار مقدونيا على اثينا لا يجب أن يكون دليلا على صلاحية الدبلوماسية الاولى ..

فانتصار مقدونيا كان انتصارا عسكريا لا سياسيا ، وليست القوة دائما فى جانب الفضيلة أو الحق ..

ثم ان لدينا تجربة أخرى حديثـة أصلح للقياس ،

اشار اليها نيكولسون أيضا اشارة عابرة : يوم وقفت المانيا النازية فى وجه دول غرب أوربا الديمقراطية وعلى راسها انجلترا ..

كانت أمور المانيا كلها فى يد رجل واحد هو هتلر ، هو الذى يختار الحرب أو السلم ، يعقد المعاهدات أو يمزقها ، ينفق الميزانية على التعمير أو على التسليح . وكان من حقه أن يبقى المعاهدات سرية أو أن يفاجىء العالم بعقدها ، لأن طبيعة النظام كانت تعفيه من رقابة الناس عليه .. وعلى هـــذا كان هتلر يفاجىء العالم بمعاهدات معقودة فعلا ، أو بالغاء معاهدات أخرى ، وكان يفاجىء الدول باعلان الحرب وبالغزو الفعلى ، فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل مثلا كما فعل فى بولندا

وعلى العكس من ذلك كانت بلد كانجلترا ..

لا تستطيع الحكومة أن تزيد ميزانية التسليح الا بعد أن تعرض الأمر على البرلمان، وتنشر الأرقام فى الصحف، ويتحدث المؤيدون والمعارضون ..

ومعنى ذلك ان كل شىء لابد أن يتم علنا وفى تؤدة ، بحيث يعرفه العالم كله ــ بما فيهم الأعداء ــ قبل أن يتم

تماما كما نرى الآن فى مسألة مثل تسليح المانيا : عرض الأمر على كل حزب من الاحزاب ، واحتدم الخلاف فى داخل كل حزب ، قبل أن تقرر انجلترا نهائيـــا قبول مبدأ تسليح المانيا ..

ولكن هذا الاسلوب لم يمنع انجلترا من أن تكون فى مستوى الموقف ازاء هتلر ، ولم يمنعها من احتـــمال بعض الهزائم قبل أن تحرز النصر الاخير .

لم تتكرر فى لنـــدن مأســـاة اثينا الديمقراطية ، ولم ينتصر هتلر كما انتصر فيليب ، لأن الديمقراطيـــة قد نضجت خلال عشرات القرون حتى وصلت الى تحقيق

مبدأ هام لم يكن موجودا فى أثينا هو : الفصل بين السلطات ..

كانت السلطات كلها فى اثينا مركزة فى المجلس النيابى، وهو الذى يستقبل السفراء !..

أما الآن فالديمقراطية تقوم أساسا على ثلاث سلطات مستقلة : السلطة التشريعية فقط يملكها المجلس النيابى، والسلطة التنفيذية تملكها الحكومة ، والسلطة القضائية يملكها القضاء .

هذا الفصل بين السلطات يخلق نوعا من التوازن بين ضرورة الاستناد الى رأى الناس فى ابرام كل أمر خطير وبين ضرورة الحسم والبت والسرية خلال مرحلة التنفيذ ..

وكما كانت اثينا ترسل بعثاتها السياسية من أكثر من حزب .. ذهب تشرشل الى مؤتمر بوتسدام بعد الحرب ومعه أتلى ، زعيم الحزب المعارض لأن انجلترا كانت على وشك معركة انتخابية قد تأتى بهذا الحزب المعارض الى الحكم .

وقد كانت اليونان تعرف الكثير من اصطلاحات و « مراكز » القانون الدولى المعروفة الآن ..

كانت تعرف الحياد ، والتحكيم بين الدول ، وكانوا يختارون للتحكيم بين الدولتين المتنازعتين رجلا مشهورا فى دولة ثالثة ، كأستاذ فى الفلسفة أو بطل فائز فى الالعاب الاولمبية مثلا !..

ثم جاء الشرق ! !..

والى الشرق يعزو المؤلف كل ما تعرفه الدبلوماسية الآن من مظاهر وشكليات ونفاق ومجاملات .. لأنه يعتقد أن هذه الصفات كلها شرقية أصيلة !..

ويعزز كلامه هذا بأن اباطرة القسطنطينية هم الذين

أقاموا لأول مرة قصورا فاخرة لاستضافة السفراء .. ووضعوا تقاليد تقضى باقامة الحفلات الباذخة لاستقبال السفراء بقصد التأثير فيهم واقناعهم بعظمة الدولة التى جاءوا اليها !.. وانهم أنشأوا ما يمكن أن يوصف بأنه أول ادارة مستقلة للبروتوكول.. بل ان الامبراطور كان يصل فى مبالغته فى التأثير على السفراء الى حد انه كان يضع أسودا حية على درجات عرشه ، تزأر من حين الى آخر حتى تبث الرعب فى قلب السفير .. وهو جالس مطمئن لأنه يعرف انها مربوطة بسلاسل خفية من حديد!

ولاشك ان هذا كلام فارغ !..

ولا أقول انه كلام فارغ دفاعا عن الشرق أو تبرئة له من المداهنة والنفاق ! ولكن الواقع ان هذه الشكليات ترعرعت خلال تاريخ طويل فى غرب أوربا بالذات ، وكتب التاريخ ملأى بقصص المبـــارزات التى كانت تقع بين سفيرين لاختلافهما حول أيهما يتقدم الآخر فى الطريق..

فقد كان كل مؤتمر دولى يسبقه خلاف عنيف حول أى المندوبين يدخل باب قاعة الاجتماع قبل الآخر .. حتى تقرر مرة ان يعقد الاجتماع فى قاعة لها ثلاثة أبواب ليدخل كل مندوب من باب فى وقت واحد !..

وخلاف آخر حول من يجلس على رأس المائدة ومن يجلس على الجانبين .. فلم ينته الخلاف الا بأن أصبحت كل موائد المؤتمرات مســـتديرة ، ليس لها رأس ولا جوانب !..

بل لقد حدث سنة ١٧٦٨ ، فى مؤتمر عقد فى لندن ، ان غضب السفير الفرنسى عندما وجد سفيرى النمسا وروسيا يجلسان متجاورين فقـــام ، وتســـلق ظهر مقعديهما ، وحشر نفسه بينهما ، حتى يصبح متقدما فى الترتيب على سفير النمسا .. واشتبك الاثنان فى معركة

انتهت باصابتهما بجروح بالغة !..

والدبلوماسية خلال القرون الوسطى كلها كانت تجرى على هذا المنوال .. ولكننا نلمح خلالها عقلا جبارا هو : مكيافيللى ، الذى كانت له فى فن السياسة فلسفة ..

وفلسفة مكيافيللى تتلخص فى جملة واحدة هى ان « لا أخلاق فى السياسة ! » وان السياسي يجب الا يرعى فى سبيل تحقيق غايته اى اعتبار آخر .. وان مصلحة الدولة العليا تعفى من كل قيد أو التزام ..

أى ان العلاقات بين الدول لا يجب أن يحكمها قانون ايا كان ..

وقد آمن بهذه الفلسفة فى الزمان القديم : سيزار بورجيا وشارل الخامس وفيليب الثانى وغيرهم ..

وفى الزمان الحديث ظهر فى أوربا فلاسفة يدينون بها مثل تريتشكه ، وساسة يطبقونها ، مثل هتلر وموسولينى .

وهى فى الواقع فلسفة كل عدوان .

وبعد مكيافيللى نجد عقلا آخر من نوع فريد ، تحمل صاحبه آلاما لا تطاق لأنه وجد ــ لسوء الحظ ــ قبل العصر الملائم له بثلاثة قرون ..

هذا العقل هو : جروتيوس ..

وهو رجل هولندى ، عاش سنة ١٦٢٥ ، وكان يعمل قاضيا .. تأمل العلاقات الدولية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ثم وضع مؤلفا خطيرا قال فيه : « انه لن يكون فى هذه الارض أمن أو سلام ما دامت هناك قوى متصارعة لا تهتم الا بكبريائها الوطنى ، وان هناك قانونا طبيعيا ينبع من الضمير البشرى يجب أن يخضع له الجميع ، ولن يخضع الجميع لهذا القانون الطبيعى ما لم تشكل هيئة دولية تتكون من محكمين دوليين لا مصلحة لهم وتختص بالفصل فى المنازعات الدولية .

اى انه اقترح انشاء منظمة كعصبة الأمم أو هيئة الأمم المتحدة .

وكان طبيعيا أن تعتبر الحكومات مثل هذا الرجل خطرا على الأمن ، مضللا للعقول ، فعوقب على هذه الأفكار بالسجن فى قلعة رهيبة .. وبالرغم من انه كان شيخا فى الواحد والستين من عمره ، فقد اضطر الى الفرار من القلعة ولاذ بسفينة مهاجرة ، حطمتها عواصف بحر البلطيق فمات غرقا !

وقد مرت بعد جروتيوس ثلاثمائة سنة .. قتل فيها الملايين وهلكت المدن وتشربت الارض بالدماء قبل أن تنفذ فكرته وتقام لأول مرة بعد الحرب العالمية الاولى عصبة الأمم ومحكمة العدل الدولية !

ظلت الدبلوماسية حتى انفجار الحرب العالمية الاولى تسير على « الاسلوب الفرنسى » .

وكان الاسلوب الفرنسي يتميز بالرشاقة والنعومة والتزام قواعد الاتيكيت المعقدة . وكانت العلاقات الدولية تقوم على أربعة أسس رئيسية :

أولا — ان أوربا هى أهم قارة فى العالم كله ، وهى مصدر السلطات فى ميادين السياسة والحرب والاقتصاد. أما آسيا وافريقيا فهما خاملتان مظلمتان ، وأمريكا مشغولة بنفسها ، يفصلها عن العالم القديم بحر عريض.

ثانيا — أن الدول الكبرى فى أوربا هى التى تتحكم فى مصير الدول الصغرى وهذه الدول الصغرى قد تكون لها قيمة استراتيجية أو مالية ولكنها لا تمثل أى وزن سياسى .

ثالثا — ان العلاقات بين الدول الكبرى تسير على أساس من «التوازن الدولى» المحكم الدقيق ، فلا تنفرد دولة واحدة بقوة غير عادية ، وعندما كان يظهر رجال

مغامرون ، يعمدون الى الاخلال بهذا التوازن وحصر السيادة فى بلادهم .. كما فعل فردريك الاكبر فى المانيا ونابليون فى فرنسا .. كانت سائر القوى تتكتل ضده ، حتى تقضى عليه ، وتعيد « التوازن الدولى » الى نصابه

رابعا ـ ان المباحثات بين الدول كانت تجرى كلها فى جو من السرية والكتمان ، لاينشر عنها شيء ولا يطلع عليها الا رؤساء الدول ورؤساء الوزارات والسفراء ، ولا يتعرض المفاوضون فيها لأى ضغط من الرأى العام

حتى فى سنة ١٩١٤ ، قبيل الحرب كان مجلس النواب الفرنسى لايعرف شيئا عن النصوص السرية بين فرنسا وروسيا . وكان السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا يخفى عن أعضاء مجلس الوزراء الاتفاق المعقود بين هيئتى أركان الحرب الفرنسية والانجليزية !..

فلما انتهت الحرب العالمية الاولى ، تغير كل شيء ، وتعرضت الاساليب الدبلوماسية لثورة يمكن أن يطلق عليها اسم : ثورة ١٩١٩ ..

أما أوربا فقد ضاعت هيبتها القديمة ، وتوزعت القوة بين أمريكا وبين القوى الجديدة الهائلة التى تنبهت فى آسيا .

أما التوازن الدولى التقليدى فقد اختل اختلالا شديداً .. ولم تعد المباحثات تجرى فى أروقة سرية ، بل انتشر أسلوب المؤتمرات العلنية ، التى يشهدها الجميع .. حتى اصبحت جلسات مجلس الأمن هذه الايام تذاع فى التليفزيون !.. واختفى الدبلوماسيون المحترفون ، وأصبح يتحكم فى الدبلوماسية الساسة والزعماء والنواب والقادة .

ويقول نيكولسون ان هذه الثورة فى الاساليب الدبلوماسية ترجع الى عدة عوامل :

أولها : التوســع الاســتعمارى الذى زود معركة المنافسة بوقود جديد . اذ فتحت الغنائم الجديدة شهية الدول الكبرى الى الامعان فى المنافسة والصراع ، حتى شمل العالم كله .. وكادت الدبلوماسية أن تنقلب الى عمل تجارى بحت .

وثانيهما : تقدم المواصلات ووسائل الاتصال السريع تقدما كبيرا . فقديما كانت الرسالة تستغرق شــهورا قبل أن تصل من عاصمة الدولة الى سفيرها فى عاصمة اخرى .. الأمر الذى أدى الى جعل كل سفير مسئولا عن توجيه سياسة بلده مسئولية مستقلة الى حد كبير. وكثير من السفراء احتملوا مسئولية تصرفات كبيرة لم يستأذنوا فيها حكوماتهم ، كالسيرستراوفورد راتكليف الذى احتمل مسئولية اشعال معركة نافارين التىأغرق فيها الأسطول المصرى أيام محمد على دون أن يرجع الى حكومته .

أما الآن .. فان وزير خارجية أى بلد يستطيع أن يتحدث وهو فى مكتبه ، عن طريق التليفون ، مع جميع سفرائه فى مختلف أنحاء العالم . كما يستطيعون هم أن يرجعوا اليه فى كل صغيرة وكبيرة ، أولا بأول .. أى أن تقدم المواصلات قضى علي استقلال السفراء القديم ، وجعل المسئولية كلها مركزة بصورة مباشرة فى يد وزير الخارجية ..

علىان نيكولسون يعتقد ان أكبرماتعرض له الاسلوب الدبلوماسى من تغير ، كان سببه : انتشار الديمقراطية

فبانتشار الديمقراطية أصبحت كل حكومة مسئولة أمام شعبها عن كل تصرف من تصرفاتها ، واختفت ــ او بدأتتختفى ــ الطريقة القديمة لحلالمشاكلالدولية ، وهى المباحثات التى تجرى فى الأروقة المغلقة بين ساسة

محترفين ، وحل محلها أسلوب العلنية المفتوحة.. مثل جلسات مجلس الأمن والأمم المتحدة ومؤتمر جنيف وغيره.

ففى مؤتمر جنيف مثلا .. كان منديس فرانس لايذهب الى المؤتمر الا فى حدود شروط معينة وافق عليها البرلمان ، وكان لايبرم أمرا الا بعلم البرلمان . وبعد استشارة الكتل المختلفة .

***

ويقول نيكولسون فى حزن : ان هذا التطور قضى على « الدبلوماسية » بالمعنى المعروف .. وان المفاوضات العلنية معناها الا مفاوضات ! !

وهو فى هذا التعليق يخطىء خطأ فاحشا ، فان هذا التطور لم يقض على الاسلوب السلمى كوسيلة لحل المنازعات .. بل زاد فرصته المتاحة له .

فالاتفاق العلنى له من القوة الادبية أضعاف ما للاتفاقات الشخصية أو السرية .

ورقابة الرأى العام انما تؤدى الى وضع مصالح الشعوب فى الدرجة الاولى من الاهتمام ، وتعلى من قيمة المبادىء الاخلاقية والانسانية فى ساحة المنازعات وتضع نهاية للفن الدبلوماسى بالمعنى القديم : فن الكذب السياسى !!

السلام والعلم والحرية

من فينا لا يجلس احيانا ، و « يسرح » بأفكاره .. يتأمل هذا الكون الغريب المضطرب ، ويضع الخطط لتنظيمه ؟..

هكذا يفعل « الدوس هكسلى » كثيرا وهو كاتب انجليزى الجنسية ، عالمى التفكير ، يعيش منذ أمد بعيد فى أمريكا ، وفى كاليفورنيا بالذات ، محدقا فى أمواج المحيط الهادى ، متأملا مصائب البشر ، قلقا من أجلهم

وهذا الكتاب هو احدى «سرحاته» لكى يضع للعالم نظاما يعفيه من الاستبداد ، والفقر ، والحرب ، وكل ما تأرق له الجفون وتهلع القلوب !

والدوس هكسلى كاتب متشائم ، فهو ثاقب العقل ولكنه ضعيف الروح ، يتأمل الكون فيرى سحب التشاؤم القاتمة ، وينسى أن وراء هذه السحب سماء التفاؤل الزرقاء الصافية .. ومع ذلك فان تشاؤمه من النوع اللماح ، المفيد ، الذى يضع أيدينا على حقائق خطيرة ..

وقد دفع «هكسلى» الى تأليف هذا الكتاب الذى أقدمه له .. كلمة خطيرة قالها تولستوى منذ أكثر من نصف قرن هى : « اذا كان النظام الاجتماعى ظالما ، والقوة فى يد عدد قليل من الناس يستغلون الآخرين ويستبدون بهم .. فان كل تقدم علمى لن تكون له نتيجة

الا تعزيز هذا الاستغلال والاستبداد ! »

فالقسم الاول من هذا الكتاب ، يحاول فيه «هكسلى» ان يثبت صحة هذه الكلمة .. أن يثبت ان كل تقدم يحرزه العالم هو ضد الحرية والرخاء والسلام !

والحجج التى يسوقها « هكسلى » ـ وان كنت ساخالفها بعد قليل ـ وجيهة جدا .. بل وأخاذة أيضا

فقد زود العلم ـ فى الاجيال الثلاثة الماضية ـ الحكام السياسيين بأدوات هائلة للضغط لم تتيسر لأى حاكم من قبل.. يكفى أن نذكر منها القنابل الذرية والدبابات وقاذفات القنابل وقاذفات اللهب .. لنعلم ان أية ثورة شعبية ضد الطغيان أو الاستعمار تكاد تكون شيئا مستحيلا ! ويضرب «هكسلى» مثلا بالثورات الشعبية التى اكتسحت أوربا سنة ١٨٤٨ : لقد كان يكفى المواطنين ان يتحصنوا وراء العربات المقلوبة ويتسلحوا بالخيل والبنادق القديمة لكى يقاوموا ويثبتوا ، اذ لم تكن الجيوش تملك أكثر من ذلك سلاحا .. اما الآن ، فأى شعب يصمد بالخيل والبنادق أمام الدبابات والمدفعية الثقيلة والطائرات ؟ !..

وأضيف الى ذلك مثلا معاصرا : فان «ماو ماو» مثلا كانت تستطيع بغير شك أن تطرد الانجليز من كينيا لو كان العالم لايعرف غير البنادق سلاحا .. ولكن انجلترا تملك فوق البنادق الدبابات وقاذفات القنابل .. فماذا تفعل ماو ماو ؟..

ويستنتج «هكسلى» من ذلك ، أن تقدم العلم كان اذن ضد الحرية !.. فالحرية السياسية والشخصية قديما كانت تستند الى حد بعيد الى ضعف وسائل السلطة الحاكمة .. فالكثرة ولو كانت عزلاء كانت تستطيع أن تهزم القلة ذات السلاح البسيط .. كما

قهر أهل باريس خرس لويس السادس عشر.. أما الآن وبعد أن كرس حضرات العلماء والمهندسين والرياضيين علمهم لاختراع الاسلحة ، فاذا حرمت الكثرة فى أى مكان من وسائل التعبير الديمقراطية ، كالخطابة والكتابة والاجتماع ، أصبح مستحيلا عليها أن تملى ارادتها ، أو تتخلص من الطغيان أيا كان !..

ثم يسأل هكسلى نفسه : أتيأس الشعوب اذن ؟.. أتنصرف تماما عن محاولاتها المتصلة الدامية للتخلص من الاستبداد والاستعمار ؟..

كلا !.. فقد توصل رجل عظيم الى اختراع هائل يستطيع أن يجابه هذه الاختراعات الحربية .. ذلك الرجل هو : غاندى .. وذلك الاختراع هو : المقاومة السلبية والعصيان المدنى !..

نعم .. كانت المقاومة السلبية اختراعا عظيما ، مر بكل المراحل التى تمر بها الاختراعات العلمية الكبرى . بدأ غاندى بتجربة اختراعه فى جنوب افريقيا ، حين كان يعصى القوانين بمفرده .. ثم يحرض المئات ثم الآلاف .. فلما اكتملت تجاربه ، ذهب الى الهند ليعلم مئات الملايين هذا الاختراع العجيب .. وليقوده بنجاح هائل ، وبعد زمن قصير ، لم يكن يتوقعه أحد ..

فالعصيان المدنى ـ الساتياجراها كما يسميه الهنود ـ لم يكن شيئا ارتجاليا بل انه عمل علمى دقيق جدا ، كما ان غاندى الذى اخترعه لم يكن رجلا مثاليا فقط بل وسياسيا واقعيا أيضا. وقد ألفت فيه الكتب ونشرت الابحاث والتعليقات ، تماما كأى اكتشاف علمى هام .. وان ظلت أعظم ميزاته انه برهان عظيم على انتصار الروح على المادة .. فهو يحتاج الى صفات عظيمة من الصبر وضبط النفس وقوة الاحتمال ..

ونجاح هذا الاختراع فى الهند امر معروف للجميع : ولكن الذى لايعرفه الكثيرون ان الشعب فى المانيا قد استعمله سنة ١٩٢٣ ضد الاحتلال الفرنسى لمنطقة الروهر !.. واذا كان لم ينجح حينئذ لعدم تعود الشعب عليه ، فان هكسلى يؤكد أن الشعب الالمانى لو قرر اليوم أن يطرد الاحتلال الاجنبى فلن يجد طريقة أنجع من العصيان المدنى !.. ويقول هكسلى : حينئذ سيبدو غريبا أن يكون البلد الذى أخرج أشهر الشخصيات العدوانية مثل كلازفتز ، وهتلر ، هو أول بلد أوربى يأخذ بالمقاومة السلبية !.. وان هذا الشعب الذى يعبد قوة المادة ، يجد خلاصه فى قوة الروح !!..

ثم يعود هكسلى الى قضيته الاولى ، فيسوق حجة وجيهة أخرى على أن التقدم العلمى كان ضد حرية الانسان : لقد كان المفكرون القدامى يحسبون أن مجرد انتشار التعليم بين الناس كفيل بالقضاء على الطغيان. ولكن التقدم أثبت عكس ذلك تماما ! فالسلطة السياسية الآن ــ سواء كانت ممثلة فى حكومة مستبدة ، أو دولة استعمارية أو طبقة صغيرة تملك الثروة القومية ــ هذه السلطة السياسية أصبحت لا تملك وسائل القهر وحدها ، بل ووسائل الاقناع أيضا !!..

فقديما ، لم تكن هناك صحافة ولا اذاعة .. أما الآن فقد أصبح للصحافة والاذاعة تأثيرهما الهائل على عقول الناس .. لما فيهما من جاذبية واستمرار يرغم الفرد العادى على ادمانهما كما يدمن السجاير مثلا !.. و«الصحف والاذاعة فى البلاد الحرة خاضعة للمعلنين وفى البلاد غير الحرة خاضعة للحكومة» فهما فى الحالة الاولى تعبران عن مصالح أصحاب القوة الاقتصادية ، وهم الأقلية دائما ، وفى الحالة الثانية تعبران عن رأى الحاكم.

و«من يدفع أجر العازف يختار اللحن الذى يعزف!»..

ويضرب مثلا طريفا «..كان صوت مارك انطونى فى روما القديمة لايتجاوز آلاف المحتشدين فى الميدان، أما الآن فصوت أى داعية يصل مذاعا ومطبوعا الى شتى أنحاء الارض ! » .

فالفرد مهما فعل لايمكن ان يتخلص من الدعاية التى ترددها اعلانات أصحاب الشركات دائما فى الصحافة والاذاعة والتى تخدم مصالحهم فىالبلاد الحرة ، ولايمكن أن يتخلص من تأثير الافكار التى ينشرها الدكتاتور فى الصحف والاذاعة فى البلاد غير الحرة .. ولو كانت ضد معتقدات هذا المواطن ... ذلك ان الامتناع عن قراءة الصحف أو الاستماع الى الاذاعة امر صعب جدا يعرف صعوبته كل من حاول الامتناع عن التدخين مثلا !..

وقد أجرى فى أمريكا استفتاء بين قراء الصحف ثبت منه ان الاغلبية الساحقة تعتقد ان جريدة معينة هى أكذب الجرائد ، وانها على ذلك أوسع الجرائد انتشارا .. فقد أصبح فى « جاذبية » الصحيفة أحيانا ما يغنى عن مبدئها !!

وهكذا أدى تقدم العلم ، الى فقدان الفرد لاستقلاله العقلى !..

وكما فقد الفرد حريته السياسية نتيجة للتقدم العلمى فى صنع الاسلحة وفقد استقلاله العقلى نتيجة للتقدم العلمى فى وسائل الدعاية .. كذلك أدى التقدم العلمى الى تركز الصناعة ، مما أدى الى فقدان الفرد حريته الاخيرة : حريته الاقتصادية !..

لقد ادى التقدم العلمى الى ظهور الآلات الكبيرة والصناعات الثقيلة ، ولم يكن ممكنا أن يظل الانتاج فى الدكاكين الصغيرة بعد هذا التطور ، بل أصبح انتاجا

مركزا تمتلكه أيد قليلة .. وقضى هذا الانتاج المركز على طبقة الصناع اليدويين والتجار الصغار .. حتى فى ابسط الاشياء .. ففى أمريكا مثلا لا تجد دكاكين البقالة التى نعرفها فى مصر مملوكة لصغار التجار .. بل هى فروع تابعة لشركات ضخمة ، والذين يعملون فيها مجرد اجراء ..

فالاغلبية الساحقة من البشر الآن يعملون فى مصانع يمتلكها غيرهم . فهم غير مستقلين ، بل هم يعتمدون فى رزقهم على أصحاب المصانع ، مهددون بالاستغناء عنهم فى أى وقت .. فالحرية الاقتصادية بالنسبة لهم الآن مجرد ذكرى قديمة ، أو شىء لايعرفونه قط !

كذلك فان هذا التركز الانتاجى ، والنظام الراسمالى الذى جعل القوة الاقتصادية فى أيدى قلة من الافراد .. ادى الى تفاقم ذلك الداء القديم .. الحرب !..

ويفسر « هكسلى » ذلك بقوله : « ان الرأسماليين القابضين على ناصية الانتاج يقصدون بانتاجهم الربح وليس اشباع حاجات المستهلكين . والربح يدفعهم الى البحث عن مزيد من الاسواق خارج بلادهم ، والتنافس على اسواق التوزيع بين الدول يجر الى الحرب ..

ومن اجل الحصول على هذه الارباح ، نشر النظام الرأسمالى نوعا من الثقافة والدعاية صورت للناس ان الوطنية تقتضى الاعتداء على أوطان الآخرين !.. حتى تجد حجة تسوغ بها للناس دفعهم الى أتون الحرب .

وهذه هى الوطنية العدوانية التى بثها هتلر فى المانيا .. والتى تؤمن بها كل دول الاستعمار الاخرى ، وتصور لأبنائها ان الوطنية هى استغلال سائر الاوطان .. وهذا النوع من الوطنية العدوانية يسوق بدوره الى الحرب .. واغراء السلاح لاصحاب هذه الوطنية كاغراء الخمر

والنساء للمراهقين قوى ، مدمر !..

ويبدى هكسلى أسفه البالغ ، لأن العلماء أيضا تأثروا بهذه العقلية واعتنقوا هذا النوع من « الوطنية » فأصبحوا يتسابقون فى اختراع الاسلحة القادرة على تدمير الجيران وسائر الشعوب .. خصوصا وان هذا النوع من الوطنية يدر عليهم أرباحا هائلة .. فالاسلحة هى السلعة الوحيدة التى لا تكسد أبدا ، مهما ارتفعت أسعارها !..

ولما كان مستحيلا على الاقليات صاحبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية ، أن تبقى العالم فى حالة حرب دائمة من أجل رواج سوقها ودوام سطوتها ، فقد خلقت فى فترات السلم حالة أخرى هى : الاستعداد للحرب !..

وحالة « الاستعداد للحرب » أو «خطر الحرب» لها فوائد كثيرة من وجهة نظر أصحاب القوة الاقتصادية او السياسية ، محلية أو استعمارية .. « فحين يسوء الموقف فى الداخل ، ويصبح السخط العام شيئا لايمكن تجاهله أو اهماله ، فانه من الممكن دائما ـ فى عالم يعتبر الاستعداد للحرب واجبا مقدسا ـ أن تحول أنظار الناس عن مشاكلهم الداخلية الىمسألة عسكريةخارجية .. فتطلق الحكومة حملة من دعايتها الاستعمارية عن طريق أجهزة الاقناع التىتملكها ، تطالببانتهاج «سياسة حازمة » ضد عدو خارجي ما.. وندعو الى « ضم الصفوف » ـ اى الطاعة المطلقة للأقلية المسيطرة ـ وهنا يصبح خائنا كل صوت يرتفع بأى شكوى أو نقد ، من فساد أو اضطهاد ، مهما كانت الشكوى عادلة !! » .

واقرب مثل لذلك ماحدث فى العالم سنة ١٩٣٠ ، لقد اصابت العالم فى تلك السنة أزمة اقتصادية توقفت

لها المصانع ، وهبط الانتاج ، وتعطل الملايين من العمال (وتلك كما يقول هكسلى الحلقة التى تلاحق عالما يتقدم دون أن يخرج من سيطرة القليلين) .. واتخذت انجلترا وامريكا وغيرهما من الدول اجراءات مختلفة قللت عدد العمال المتعطلين ، وخففت من حدة الأزمة دون أن تقضى عليها نهائيا .. وفجأة ظهر هتلر ليشفى العالم من وباء هذه الأزمة !.. لقد اتجه الى التسلح ، واعلن عن نواياه العدوانية .. وشعر العالم بالخطر على نفسه فاقتدى به فى التسلح .. وبقدرة قادر اختفت البطالة نهائيا ، وعادت المصانع تعمل أكثر من ذى قبل !.. واستمر العالم يتعاطى دواء هتلر العجيب حتى وصل الى النتيجة الحتمية له وهى الحرب ، ودفع العالم ثمنا رهيبـــا لشفائه الوقتى ، وخرجت الدول من الحرب أسوأ حالا مما كانت ، قبل أن تتعاطى هذا الدواء !! » .

فخطر الحرب حل أزمة الانتاج فى ظل النظام الراسمالى قبل الحرب العالمية الثانية !.. وأضيف الى ما قاله هكسلى أن القلة التى تتحكم فى الانتاج فطنت الى هذه الحقيقة ، فلم يكد يمضى على انتهاء هذه الحرب زمن قليل حتى خلقت — وبسرعة — حالة جديدة من خطر الحرب.. لتواجه الأزمة قبل أن تقع.. بل لقد احتفظوا بعدة حروب صغيرة متفرقة.. فى كوريا والهند الصينية وغيرهما ، يستعينون بها على احتمال مصائب السلام التى تنزل بانتاجهم ، وبأرباحهم !..

وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع نحن المصريين — بل نحن الشرقيين — أن ندرك لماذا يهددنا الغرب دائما بخطر الحرب .. انه فى ظل خطر الحرب تجد انجلترا حجة لبقائها فى مصر ، وتجد أمريكا حجة لشرائها القواعد فى المغرب ، وتجد الدولتان التبرير لكل ما ترتكبانه فى

البلاد المستضعفة من استغلال واستبداد !..

الى هنا .. تنتهى الأدلة التى ساقها هكسلى ليثبت بها ان التقدم العلمى ضد حرية الانسان ، واستقلاله الفكرى والاقتصادى ، وأمنه الاجتماعى .. هو ضد حريته .. لأنه زود الحكومة فى البلاد الدكتاتورية ـ كما زود الأقلية صاحبة القوة الاقتصادية فى البلاد الديمقراطية ـ بالسلاح الذى يخمد اى ثورة شعبية ، واجهزة الدعاية التى تملى اية دعوة مرسومة ، والانتاج المركز الذى يجعل الأغلبية أجيرة ..

على ان هكسلى قد أشار ـ وبدقة ـ الى بعض جوانب الموقف وجهل جوانب هامة اخرى ! فجاءت الصورة التى رسمها لعالم اليوم ناقصة الى حد كبير ..

فالحقيقة الساطعة التى يؤكدها التاريخ ان هذه الظروف كلها لم تقض على الحرية ، ولم توقف تقدمها.

ان الحكومات الديمقراطية الآن ـ برغم كل هذا التقدم العلمى ـ أكثر منها فى اى وقت مضى ..

وان الشعوب الحرة والثورات الناجحة الآن ـ برغم اختراع القنبلة الذرية ـ تزداد يوما بعد يوم ، بشكل لا محل لانكاره ..

والأمثلة لا تعد ولا تحصى ، فان مركز انجلترا الآن فى كينيا مثلا رغم ما بيدها من سلاح حديث أضعف مائة مرة من مركزها هناك منذ خمسين سنة ، وقبضتها على مصر الآن وهى تملك الطائرات والدبابات أضعف من قبضتها عليها منذ خمسين سنة وهى لا تملك الا الخيالة ومدافع البارود !..

وليس هذا كلاما حماسيا ولكنه حقيقة راسخة ، وكل ذى عينين يستطيع أن يلاحظ ان القيود تتكسر الآن فى كل يوم وفى كل مكان ، كلما انتشر الوعى.

والتهب .. والوعي هنا هو الثقافة التي تكسب الشعوب الاحساس بالكرامة ، وهو التجربة التى تعلمها مكايد الاستعمار القديمة ، وهو العدوى التى تنقل جراثيم الحرية من قطر الى قطر ، ومن رأس الى رأس.. كما تنقل الريح بذور اللقاح ..

على ان تشاؤم هكسلى لم يصل به الى حد اليأس.. او لم يقعد به عن التماس الحل .. وقد جرى منطقه على هذا النحو :

ان الداء الأكبر هو فى تركز الانتاج فى أيدى قلة من الناس ، مما أدى الى العواقب التي أسلفناها.. فالعلاج بناء على ذلك هو الاتجاه نحو الاشتراكية الاقتصادية.. اى بجعل وسائل الانتاج ملكا للجميع ..

ولكنه يرى فى اجتماع السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية فى يد واحدة هى يد الحكومة المركزية ، خطرا كبيراً ، يغرى الحكومات بالطغيان مؤكدا ان التاريخ لايعرف سلطة مطلقة واحدة لم تفسد صاحبها ، فلا مفر بناء على ذلك من العودة الى الديمقراطية بمعناها القديم ، بمعنى حكم الشعب نفسه بنفسه ، بمعنى اللامركزية السياسية ..

ولكنه يشترط لتحقيق اللامركزية السياسية شرطا رئيسيا : هو زوال خطر الحرب ، بل والعدول عنها كوسيلة لفض المنازعات .. ذلك ان الحرب تحتاج دائما الى تركيز السلطة فى جهاز واحد ، والنصر فيها لابد له من السلطة المطلقة فى العمل والانتاج والتوجيه .. فبقاء خطر الحرب معناه بقاء الحكومات المركزية . أما اذا زال الخطر ، فلن يجد الناس بأسا من الأخذ بنظام اللامركزية السياسية ..

أما طريقة القضاء على الحرب .. فانه يلقى أكبر

العبء فيها على عاتق العلماء .. فيدعوهم الى الامتناع عن أى عمل أو ابتكار أو انتاج فيه اعتداء على حياة البشر بأية صورة من الصور . ويقول : ان الديانة البوذية تقرر انه لايعد بوذيا من يكسب رزقه من صنع السموم أو السلاح !.. وما أحرانا أن نأخذ بهذا المبدأ البوذي.. فلا نعتبره انسانا شريفا، العالم الذى يساهم فى صنع سلاح فتاك يقوى الطغيان ، ويتعدى على حق الحياة ، ويسلب الآخرين حرياتهم .

وعلى العلماء بدلا من ذلك أن يتجهوا الى انتاج الطعام : «.. فان مشكلة العالم الاولى هى الطعام ، وهو ليس مشكلة بالنسبة للأقليات التى تحكم العالم فى كل مكان .. فهذه الأقليات تحصل على الطعام بغير جهد فلا تحس بأنه مشكلة قط . لذلك نراها تبحث عن شيء آخر كالقوة أو النفوذ أو السيطرة .. على عكس الملايين الذين تنحصر مشكلتهم الكبرى دائما .. فى الوجبة القادمة ! » ..

ثم هو لاينسى أثر التجارة فى اشعال الحروب ، ويضرب مثلا بالشرق الاوسط : كل دولة من الدول الكبيرة تطمع فى بتروله وخيراته ، وتتطاحن من أجلها فهى تحتل الشرق الاوسط ، وربما اشتبكت فى الحرب من أجله. ويقترح بدلا من ذلك أن تكون كل البلاد حرة ، قوية ، مالكة لثروات أرضها.. فيبيع الشرق الاوسط — بعد تحريره — هذا البترول لجميع المشترين ، من الشرق والغرب على السواء .. فى تجارة حرة متبادلة ، على قدم المساواة !..

وأظننى أستطيع أن أقول لهكسلى بالنسبة لهذه الفقرة بالذات ، ونيابة عن جميع سكان الشرق الأوسط : موافقون ! !

رباعية الإسكندرية .

العالم يتحدث عن هذه الرواية التى أصبحت مشهورة باسم « رباعية الاسكندرية » .. لأنها تتكون من اربعة أجزاء كبيرة .. ولأن حوادثها كلها تدور فى مدينة الاسكندرية .. وهى رواية تقدم صورة غريبة عن بلادنا !

والاجزاء الاربعة لهذه الرواية يقع كل منها فى حوالى ٣٠٠ صفحة .. أى ان عدد صفحات الرواية يصل الى حوالى ١٢٠٠ صفحة ! وكل جزء من الاجزاء الاربعة يحمل اسما مستقلا هو اسم أحد أبطال الرواية .. واسماء هذه الاجزاء بالترتيب هى : « جوستين » و « بلتازار » و « مونتوليف » و« كليا » .

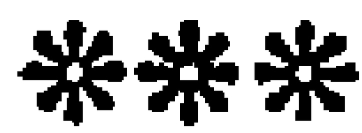
أسماء غريبة على الأذن !

وسيقول القارىء : انها ليست أسماء شائعة فى مدينة الاسكندرية ! ولهذا تفسير سوف يرد بعد قليل .. فقبل ذلك لابد أن أقول كلمة سريعة عن المؤلف نفسه

ان الصحف والمجلات الأدبية فى العالم تقول عنه الآن انه أعظم كاتب قصة ظهر فى السنوات الاخيرة ، وتقول عن هذه الرواية الضخمة انها عمل شامخ خطير .

ومع ذلك فالمؤلف كان قبل ظهور هذا العمل مجهول الاسم تماما ..

انه انجليزى يعيش فى ريف فرنسا منذ سنوات واسمه « لورنس دوريل » ، وهو عندما أخرج هذه الرواية لم يكن شابا . أما شبابه فقد قضاه فى السلك السياسى البريطانى وفى المخابرات البريطانية .. وبحكم وظيفته فى السلك السياسى جاء الى مصر قبل الحرب الماضية وفى خلالها. اشتغل فترة فى السفارة البريطانية هنا ، بين القاهرة والاسكندرية ، ولذلك فان من بين إبطال هذه الرواية الحسية ، الجنسية : السفير البريطانى فى القاهرة ، وعدد كبير من موظفى السفارة ! وكثير من حوادثها يجرى فى مبنى السفارة البريطانية فى جاردن سيتى ، ومبناها الصيفى على كورنيش الاسكندرية !



ولكن المؤلف لم يلبث أن اعتزل السلك السياسى والمخابرات الانجليزية بعد الحرب ببضع سنوات ... وعكف على تأليف الكتب ، وأصدر بالفعل عدة كتب لم تنجح فى أن تصنع له اى اسم مذكور.. حتى أخرج هذه الرواية الطويلة الغريبة ، واذا به يجد نفسه فجأة فوق قمة تلاحقه بالصور والاحاديث ، وسيكوراس ملك السينما يشترى منه القصة ليحولها الى فيلم على الشاشة !..

ولا أذكر اننى وجدت صعوبة فى تقديم أحد الكتب أو الروايات كالصعوبة التى أجدها فى تقديم هذه الرواية.

وليس السبب فقط هو طولها البالغ ١٢٠٠ صفحة ! وبالتالى كثرة الحوادث وتشابكها الشديد .. ولكن الاسباب التى تجعل تقديمها صعبا تكمن فى موضوع القصة نفسها .. وفى أسلوب كتابتها .

أسلوب الكاتب ــ أولا ــ محيرجدا ! فأحيانا تصادفك

صفحات ركيكة ضعيفة .. عشرات من الصفحات المملة الجرداء تتوالى كالصحراء التى ليس فيها الا كثبان من الرمل تجعل خطواتك ثقيلة مرهقة ، وصفحات أخرى جذابة باهرة .. فيها كل مقومات الكاتب الماهر فى صنعته .. من حبكة واثارة وتشويق وتأمل عميق .. الى صور خلابة يرسمها للاسكندرية حتى لتشعر انك تتنفس فى المدينة حقا .. وان الكاتب قد ادخلك فعلا فى الجو والرائحة واللون والحالة النفسية التى يعيش فيها أبطال القصة .

وطريقة الكاتب فى السرد صعبة جدا .. فهو لايروى لك خيطا واحدا من الاحداث. أو لايروى لك الاحداث فى سلسلة متتابعة الحلقات .. ولكنه فى كل جزء يروى القصة كلها تقريبا ، من جانب معين.. وفى الجزء التالى يروى لك نفس الاحداث ولكن من جانب آخر .. وفى كل مرة تتكشف لك حقائق جديدة .. ويبدو لك نفس الأفراد فى ضوء جديد يختلف عن الضوء الذى رأيتهم فيه أول مرة .. ولا أذكر الآن اين قرأت لأحد النقاد قوله : انها كالورقة المطبقة حين تفتحها . انك ترى دائما نفس الورقة ، ولكنها كلما انفتحت امامك ، رأيت مساحات جديدة منها !



فالمؤلف لايقف فى أول أحداث القصة ثم يسير بها الى نهايتها .. كلا .. ولكنه واقف فى وسطها ، أحيانا يسير الى الامام ، وأحيانا يعود الى الوراء ليروى ماحدث من سنوات .. وأحيانا يخطو الى اليمين .. او يخطو الى اليسار ، ليتطلع الى زوايا وجوانب اخرى لايراها من مكانه الاول ..

شخصية « بيرسواردن » مثلا ، موظف السفارة

البريطانية بالقاهرة ، الفنان ، الجساس .. واخته العمياء التى يراسلها فى لندن .. ثم اختلافه مع قسم المخابرات السرية فى السفارة ، فقسم المخابرات يقول ان الشاب المصرى « نسيم » مشترك مع عصابة يهودية تعمل على تهريب الاسلحة من أوربا الى فلسطين (وكان هذا قبل الحرب العالمية أيام كانت عصابات اليهود تقود حركة سرية ضد البريطانيين) ومعنى هذا انه أيضا يخون قضية العرب فى فلسطين .. أما بيرسواردن ، فهو يعارض هذا الرأى .. انه يعرف نسيم وهو صديقه الحميم ومستحيل أن يصنع هذا . ولكنه بعد أن ينتصر على المخابرات البريطانية يكتشف بالصدفة ان هذه الواقعة صحيحة ، وينتحر بيرسواردن ، وينزعج السفير البريطانى الذى كان معجبا به ، وتأتى أخته العمياء الباهرة الجمال الى القاهرة والاسكندرية لتصفى أوراقه

ولكننا فى جزء آخر نرى واقعة انتحاره خلال ضوء جديد .. لقد كانت بين بيرسواردن وأخته العمياء علاقة شاذة ، وقد أنجب منها طفلة ميتة . وبرغم نقله الى مصر فقد ظل بينهما حب غريب عميق لا علاج له . وفجأة ظهر فى حياة هذه الأخت « ليزا » رجل آخر .. وكانت هذه هى النهاية بالنسبة لبيرسواردن .. فانتحر

وفى مكان ثالث .. نعرف ان هذا الرجل الآخر الذى ظهر فى حياة « ليزا » فى لندن هو « مونتوليف » السفير البريطانى فى مصر ، وذلك حين تعرف عليها فى لندن قبل نقله الى القاهرة وقد عرف بيرسواردن ذلك بعد قدوم «مونتوليف» بمدة .. فانتحر .. أما حضور « ليزا » بعد موت أخيها الى القاهرة فلم يكن لتصفية أوراق أخيها كما فهمنا من قبل .. ولكن لكى تعيش مع عشيقها السفير !..

نموذج آخر ...

فى الاجزاء الاولى نرى شخصية « نسيم الشاب » المصرى الواسع الثراء ، وزوجته «جوستين» اليهودية الغامضة الحسناء ، ذات المغامرات التى تتهامس بها المدينة ، والشهوات التى تلهث حولها ، ونستمع الى قصة « دارلى » ، وهو الراوى الذى يروى جزءا كبيرا من الرواية ، ودوره فى الرواية دور رجل انجليزى يقوم بتدريس اللغة الانجليزية فى احدى مدارس الاسكندرية وهو الذى يبدو أن المؤلف يتقمصه كثيرا فى الرواية ، خصوصا اذا لاحظنا ان اسم البطل «دارلى» ، واسم المؤلف « دوريل » .. أقول نستمع الى قصة غرام دارلى هذا بجوستين زوجة نسيم ، وهواه العميق لها ، وهجره صاحبته الراقصة اليونانية « ميليسا » من أجلها .

ولكننا حين نصل الى الجزء الثالث نكتشف عن نسيم وعن زوجته جوستين أشياء غريبة . فنسيم ، كما ذكرت من قبل ، كان مشتركا فى عمليات تهريب سرية لصالح العصابات الصهيونية فى فلسطين ، وقد حار كيف يظفر بقلب اليهودية الغامضة جوستين .. فلم يجد بدأ آخر الأمر من أن يعترف لها بحياته السرية ونشاطه الخطير ، وتعجب به جوستين وتتزوجه ، زواجا فيه من وحدة الهدف أكثر مما فيه من الغرام . وقد كان فى المدينة يهودى آخر عجوز اسمه كوهين ، كان مشتركا مع نسيم فى عمليات التهريب ، ثم مات . وكان كوهين هذا عشيقا لميليسا ، الراقصة التى هى عشيقة دارلى الآن . وقد خاف نسيم أن يعرف دارلى شيئا عنه من ميليسا فاتفق مع زوجته جوستين أن تقنع دارلى بأنها تحبه ولو أعطته كل شىء .. لكى

تعرف منه هل عرف شيئا من « ميليسا » ام لا .. اى ان الهوى كان حقيقيا من ناحية دارلى ومصطنعا من ناحية جوستين .

ولكن ميليسا كانت قد فقدت حبها لدارلى من زمن وأصبحت صديقة بيرسواردن ، وتحدث زلة اللسان المنتظـرة أمام بيرسـواردن لا امام دارلى ، فيعرف بيرسواردن أن نسيم جاسوس ومهرب .

وعندما ينتحر بيرسواردن ـ سـواء بسبب حادث الجاسوسية أو بسبب حادث اخته ـ ويكتب الى السفير مونتوليف خطابا يحيطه فيه بأن اتهام نسيم ـ صديقه وصديق السفير ـ بالتجسس صـحيح ، يقع السفير مونتوليف فى مأزق حرج ، لأن السفير أيضا له قصة قديمة غريبة .

لقد جاء «مونتوليف» الى مصر مرة كشاب مبتدىء فى السلك السياسى البريطانى ، قبل أن يجيئها كسفير. وفى المرة الاولى كان موظفا تحت التمرين وكان قد تعلم اللغة العربية جيدا . فأرسلته السفارة الى بيت أسرة مصرية ليتقن اللغة العـامية ، وكانت الأسرة قبطيـة وهى أسرة نسيم : اب مقعد مريض ، وأم شابة جميلة اسمها ليلى .. متعلمة سافرت الى أوربا كثيرا وتثقفت ثقافة واسعة ولكنهم زوجوها لهذا الرجل الذىاختارته الأسرة طبقا للطريقة القديمة ، وولداها وهما : نسيم ونيروز .

وفى تلك الايام وقعت الأم الشابة ليلى فى غرام الشاب الانجليزى مونتوليف .. جذبها اليه شبابه ، وجذبها اليه أكثر « العالم الذى ينتمى اليه » . انها منذ عادت من أوربا حبيسة هذا البيت الريفى فى « أبو جرج » حيث توجد عزبة زوجها ، نافذتها الوحيدة على العالم

الذى تحبه هو الصحف والمجلات الاوربية التى تشترك فيها بكثرة ، والاوراق التى تكتب فيها خواطرها من حين لآخر ، والزوج المقعد العاجز يحس بهذا وان كان لايظهر علمه الا على شكل انفجارات سياسـسـية أمام مونتوليف يقول فيها ان الانجليز يسيئون الى الاقباط فى مصر ، فقد كان الاقباط دائما يعيشون فى سـلام ويتولون ابرز المناصب ولكن الانجليز هم الذين يحاولون اظهار الغيرة على الاقباط لا لشىء الا لمجرد التفريق بين الطوائف .

وينقل مونتوليف من مصر فلا يعود اليها الا سفيرا . ولكنه طوال هذه السنين كان يربطه بالأسرة شيئان : الاول ، هو صداقة نمت بينه وبين نسيم ، الذى كان يلقاه خلال رحلاته الى أوربا . والثانى ، هو الخطابات التى كان يتبادلها مع ليلى بلا انقطاع طوال هذه السنوات فقد أصبح هو روحها المتجولة خارج حدود «أبى جرج» يرى لها المتاحف ويشاهد لها المسرحيات ويكتب لها عن كل شىء .. ويرسل لها الكتب التى تحب أن تطلع عليها وها هو يعود الى مصر سفيرا وقد توثقت صـداقته بنسيم .. ليجد انه يقوم بعملية تهريب أسلحة ضـد سياسة بريطانيا فى ذلك الوقت !

ويواجه مونتوليف الأمر الواقع ويبلغ الأمر الى وزارة الداخلية المصرية ، وعندما تقوم الحرب تصادر الحكومة أموال نسيم ، وتحدد أقامة زوجته جوستين فى «أبو جرج» بعد أن مات أبوه وارغم أمه على أن تهاجر الى الخارج خشية أن يصيبها شىء بعد أن انكشف تآمره ..

هـذه الاحداث ـ وغيرها ـ ليست هى القصة ، والقصة على أى حال فيها أكثر من ألف صفحة من مثل هذه الاحداث ، ومع ذلك فالشخصيات الهامة فى القصة

تعتبر قليلة نسبيا ، اذا قيست بطول الرواية وكثرة زواياها . فالمؤلف قد اختار طريقة خاصة هى : انتخاب عدد قليل من الشخصيات ، ثم « تقليب » هذه الشخصيات على مختلف الجوانب ، ووضعها فى شتى المواقف والاوضاع ، وكل وضع أو موقف يعطيها جانبا آخر أو ينزع عنها فكرة سابقة .. وكأن المؤلف يمسك بكل شخصية ويقول لك : هذه الشخصية يمكن أن تكون هكذا .. ويمكن أن تكون هكذا .. يمكن أن تكون عادية .. ويمكن أن تكون شاذة .. يمكن أن تكون طيبة ويمكن أن تكون خسيسة .. وهكذا ! فهى لعبة من قطع قليلة يمكن أن تبتكر منها آلاف الاشكال كلما غيرت فى طريقة ترتيبها وتكوينها !

ولكن ...

أين « الاسكندرية » فى هذه القصة ؟ وأين « مصر » التى تقع فيها هذه الاسكندرية ؟

هذا السؤال قد لايخطر على بال قارىء يقرأ القصة فى أى مكان من العالم . أما اذا كان من «مصر» فالسؤال يبدو ملحا وقويا ، وأساسيا .

ولقد اختار المؤلف شخصياته كلها من جو الأقليات المهاجرة الى الاسكندرية . اليهود واليونان والانجليز والارمن والايطاليين والفرنسيين وغيرهم . ومع ذلك ، فهو لم يختر ذلك الفريق من المهاجرين الذين يندمجون فى البلد الذى يعيشون فيه ، أو الذين يعرقون ويتعبون سواء ظلوا بعد ذلك فقراء أو أصبحوا أغنياء .. ولكنه اختار فئة مغلقة على نفسها تماما ، تعيش فى الاسكندرية «كمكان» دون أن تتفاعل معها كشعب أو كمدينة . وهذا صحيح فى بعض الحالات وليس فى كلها ، فلا شك أن بعض الاجانب المهاجرين تكون مأساتهم فى انهم يظلون

أجانب مهاجرين الى الأبد ، منعزلين دائما عن العالم الذى جاءوا اليه ، يدورون حول أنفسهم .

وقد ملأ المؤلف هذه البيئة التى اختارها بأنواع من الشذوذ لا أول لها ولا آخر ، ولا أدرى بأية نفسية جعل المؤلف هذه الحالة من الشـــذوذ الجنسى تغمر الجميع .. ولكننى أجد انها تعبير عن السوس الذى ينخر فى كيان هذه الفئة ، وعن الانهيار الداخلى فيها. وعجزها التام عن أن تخرج من حلقة ضيقة صنعتها لنفسها ، حتى لتشعر احيانا انهم ليسوا غرباء فقط عن المدينة التى يعيشون فيها ، بل وغرباء حتى عن مدنهم الأصلية التى قذفتهم الى الاســكندرية . فهم بدون جذور ، فى أى مكان من الارض و « المصريون » الذين يحتكون بأبطال القصة لايظهرون الا فى صورة خادم أو سائق أو بواب . تماما كما يذهب السائح الى بلد فينزل فى فندق لايبرحه ، فلا يرى من أهل البلد الا خدم الفندق وموظفيه !

الشخصيتان المصريتان الوحيدتان اللتان لهما بعض الدلالة هما : ليلى ونسيم ..

أما ليلى ، فقد رسم بها صورة للمصرية التى تعلمت فى وقت لم ينتشر فيه التعليم ، وشقاء من تعيش بثقافتها العصرية فى جو غير مثقف .

على أن « نسيم » هو الشخصية المصرية الهامة فى الرواية ، وعندما نتأمل الاسباب التى نسجها المؤلف لكى تؤدى الى انحراف نسيم ودخوله فى حركة سرية لحساب العصابات الصهيونية .. نجد انه كان موفقا فى بعضها ، وكان غير موفق فى بعضها الآخر ..

فقد اختار المؤلف أن يكون نسيم من الاقباط ، فى محاولة لادراج الاقباط بين سائر الفئات الاخرى المهاجرة

.. وهذه فكرة خبيثة وغير صحيحة ، فالوطنيون الذين سقطوا برصاص الاستعمار كانوا من جميع الطوائف ، والذين قبض عليهم فى قضايا خيانة أو جاسوسية كانوا أيضا من جميع الطوائف . وانه لمن الطريف أن نلاحظ جملة سجلها المؤلف على انهـا من الخطط التقليـدية للسياسة البريطانية فى أى بلد وهى «التركيز على الاقليات التى تكون مستعدة لأن تناضل» . فمحاولة استثارة الاقليات أسلوب سياسى بريطانى فى كل بلد . ومع ان المؤلف يسجلها متهكما ، فهو كموظف سابق فى السلك السياسى البريطانى لم يستطع الا أن يتأثر بهذا الاسلوب

على أننا يجب أن نسجل ان محاولته هذه ليست كاملة . فان نيروز شقيق نسيم فى القصة كان خطرا على نسيم . وقد اغتيل نيروز فى ظروف توحى بأن شقيقه نسيم وزوجته جوستين هما اللذان حرضا على قتله خشية أن يفتضح أمرهما . وهـذا يجعل الخيـانة محصورة فى نسيم كفرد .

فاذا نظرنا الى نسيم كفرد ، نجد أن المؤلف كان ناجحا فى وضع الملامح التى تجعله فى النهاية قابلا للخيانة . البيئة النازحة التى عاش فيها ، هجرته من عالم بلاده الى عالم « المهاجرين » الى بلاده ، ضعف شخصيته وخستها فى الاصل وهو ما نلحظه فى كونه كان يعلم من البداية بعلاقة أمه بمونتوليف ، وتسهيله لهذه العلاقة بعكس أخيه نيروز الذى كان يقف الى جانب أبيه المخدوع .. هذه البذور الضعيفة فى تكوينه هى التى جعلته كما قال المؤلف منتميا الى هؤلاء الغرباء ، فأصبح معاديا لبيئته من باطنه . وهذا هو السبب الحقيقى لخيانته ، وليس السبب هو التبريرات النظرية السخيفة التى قالها لجوستين وهو يعترف لها بدوره فى المؤامرة .

وخارج هـذه الشخصيات الرئيسية التي تتخبط داخل هذه الدائرة المغلقة ، كانت الاسكندرية تبدو أحيانا ـ على دقة الوصف التفصيلي ـ وكانها ليست الاسكندرية بالذات .. انما هي مكان «مجرد» يمكن أن يكون أي ميناء آخر فى العالم .. يمكن أن يكون هونج كونج أو نابولى او طنجه : وفى كثير من الاحيان كنت اشعر أن المؤلف يتحدث عن اسكندرية عصر كليوباترا . اسكندرية البطالسة .. أو الاسكندرية التى نجدها فى رواية « تاييس » لأناتول فرانس مثلا .

ومن اجل ذلك كان المؤلف يحاول ان يفصل الاسكندرية عن مصر .. انها اسكندرية يونانية رومانية تنتمى للبحر الابيض لا للقطر المصرى فحين انكشف نسيم يقول المؤلف مثلا : « حين ضيق المصريون عليه الخناق خف أهل الاسكندرية لنجدته ... فاشترى أصحابه ممتلكاته لكيلا تصادر ، على أن يعيدوها له فيما بعد». فالمصريون عنده شيء ، وأهل الاسكندرية شيء آخر ، وأهل الاسكندرية الذين يقصدهم طبعا هم تلك الدائرة الاجنبية التى « هاجر » اليها نسيم .

أما مصر ، وعالم « المصريين » ، فكان يبدو كأنه عالم سحيق متخلف ، ومختلف تماما ! أية خطوة يخطوها احد أبطال القصة الى بيئة محلية أو شخصيات محلية ، كانت تبدو كأنها رحلة الى عالم غامض غريب . وقد كان المؤلف يرسم هذا العالم دائما رسما بشعا كريها ..

صحيح انه اختار فترة ضعف وانهيار فى تاريخ مصر .. وهى فترة قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها حين ملأت جنود الحلفاء البلاد .. ولكن صوره البشعة كانت أبعد من ذلك أيضا .

اذا ذهب الى الريف : فهناك يروى أشياء غريبة ..

كمشهد الاعراب يأكلون جملا .. اذ يقول انهم يجعلون الجمل «يبرك» وهو حى ، ثم يهجمون عليه بالسواطير والسكاكين ، كل واحد يقطع جزءا منه ، والجمل رافع رقبته الطويلة والدم يتدفق من فتحات جسده كالنوافير، وكل ألم الدنيا فى عينيه !

أو يصف كيف أن نيروز نادى مرتين على خادم من أبناء الفلاحين فى عربته فلم يحضر .. فأمسكه وقطع له أذنه بسكين عقابا له .. وأمسك الطفل بالأذن المقطوعة فى يده وجرى الى أبيه باكيا والدم يسيل منه !

أشياء وحشية لا ظل لها من حقيقة .. كأنها تحدث فى أعماق الغابات !

واذا ذهب الى الاحياء البلدية فى الاسكندرية .. فهو يصف بيوت دعارة للطفلات الصغيرات .. ويرسم لها صورة بشعة تثير الغثيان .. ويكرر الرحلة الى هذه البيوت كثيرا ، كأنها من الملامح الاساسية .. فالسفير ذهب .. وجوستين ذهب .. ودارلى ذهب !

واذا ذهب الى « الجهاز الحكومى » المحلى .. فهو يصف لنا صورة الدولة المتعفنة التى كانت موجودة فى مصر قبيل الحرب . الوزراء الذين يرتعدون من الملك أو من السفير البريطانى .. والوزراء المرتشون .. والركود ، والخمود ، والفوضى ، والخوف ، والاهمال. رمز هذا رجل اسمه « مملوك باشا » جعله المؤلف وزيرا للداخلية ..

فحين أحس نسيم أن السفارة البريطانية ستبلغ وزارة الداخلية عنه ، بدأ يبحث كيف يتلافى القبض عليه .. فأرشدوه الى « المفتاح » الى قلب «مملوك باشا» وهو الرشوة !

ثم يصف لنا طريقة الرشوة :

كان مملوك باشا يجلس فى غرفة الصالون يستقبل الزوار ، فيقول له الراغب فى رشوته انه قد عثر على مصحف نادر رأى انه جدير بأن ينضـــم الى مجموعة المصاحف النادرة التى اشتهر مملوك باشا باقتنائها . ويقول مملوك باشا انه سيصعد بالمصحف الى الطابق الثانى ليرى هل لديه مثله ام لا . وهناك يفتح المصحف ويعد النقود ، فاذا كانت الرشـــوة كافية ، احتفظ بالمصحف وعاد يقول : « انه فعلا نادر » واذا كانت غير كافية أعاد المصحف الى صاحبه قائلا : « انه وجد أن لديه مثله ! »

وبهذه الطريقة استطاع نسيم أن ينجو !

وفى نهاية الجزء الرابع من الرواية ، وقـــد انتهت الحرب ، نجد ان جوستين قد أطلق سراحها ، ونجدها تسير فى شارع سعد زغلول هى ومملوك باشا ونسيم . لقد رفع الحجر عن نسيم أيضـــا ، وسيســـافر هو وجوستين الى سويسرا حيث يقومان بنشاط أوسع فى التآمر .. أما كيف استولت جوستين على مملوك باشا ؟ انه جوعان للاختـــلاط بالمجتمع الراقى ، جوعان الى التعرف بنساء بيض .. وهذا ما تحققه له جوستين !!

وقد احسست عندما انتهيت من قراءة الرواية ان المؤلف يشبه الرجل الذى افتتح محلا وأراد أن يجلب له أكبر عدد من الزبائن ، فقرر أن يعرض فيه كل أنواع السلع الممكن بيعها للناس !

كذلك فان لورنس دوريل جمع فى قصته كل انواع المفارقات وكل أنواع القصص وكل إنواع المدارس الفنية والقصصية المعروفة ..

ماذا تريد مثلا ؟

مفامرات ؟ هناك مغامرات جاسوسية وتهريب أسلحة

واغتيال فى الظلام ومسدسات .

غرام عذرى ؟ هناك قصص حب بالمراسلات التى تستمر عشر سنوات لا يلتقى فيها العاشقان .

شذوذ وجنس ؟ انه موجود فى أكثر من نصف صفحات الرواية !

هناك أيضا حفلات تنكرية تحدث فيها مفارقات غريبة كالقصص الخيالية القديمة ..

هناك أيضا فتاة يقع فى غرامها رجل وتختفى سنة ثم يجدها الرجل فيجد انها بدون أنف ، فينفق عمره فى البحث عن أنف لها .. والبحث عن أطباء يركبونه لها

هناك أيضا جو الموالد والمجاذيب والسحرة والمشعوذين

هناك كذلك قصة ضابط بوليس انجليزى شاذ ، مات .. وتحول قبره بمجموعة مصادفات الى أسطورة تقول انه من الاولياء .. له مولد وله مقام يزار !

كل حيل كتاب القصة وكل مفاجآتهم التى عرفت فى آلاف القصص .. جمعها لورنس دوريل فى روايته بدون استثناء تقريبا !

وبعد ..

ان المؤلف لورنس دوريل يرسم للاسكندرية صورة بنفسجية بديعة ، بكل ما فيها من تفصيلات وضواح وأسماء . محطة الرمل وشوارع سعد زغلول والنبى دانيال والسبع بنات وفندق سيسيل ومطاعم المكس المطلة على البحر ورمال العجمى البيضاء . ولكنه يرسم للمجتمع صورة جارحة هابطة تنزف بالصديد ، ويرسم « للمهاجرين » صورة تنزف بالصديد ، لايكاد المرء يعثر فى روايته على شخصية فيها ولو قليل من مقومات القوة ، أو حتى على شخصية فيها صراع بين القوة والضعف . كل البشر عنده تقريبا مشوهون من الداخل ،

مستسلمون تماما للضعف والنقائص بدون أية مقاومة أو صراع . واستكمالا لهذا الاحساس حشد فى قصته عددا لا مثيل له من ذوى العاهات .. ليزا الجميلة الفاتنة عمياء ، سميرة عذراء الاسكندرية بدون أنف ، نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتين ، نسيم نفسه يفقد احدى عينيه خلال الغارات ، وتنتهى القصة ، وهو بعين واحدة ، و « كليا » الرسامة ، تنتهى القصة ويدها التى ترسم بها مصابة !

وبعد ...

هل هو كاتب « عظيم » ؟

أعتقد ان التاريخ الادبى لن يضعه فى مصاف الادباء العظماء ، لأن كاتب القصة العظيم لابد ان تكون فيه صفة هامة جدا ، وهي : احساسك بأنه يتعاطف مع الانسانية الممثلة فى أبطال قصصه كلهم.. أو بعضهم .

وهذا ما يفتقده « لورنس دوريل » . انه لا يروى قصة الحياة ولكنه يروى « فضيحتها » . وهو يحاول أن يدس فى نفسك احساسا بالشماتة لا بالعطف .

روسيا والصين *

- ١ -

منذ بضعة ايام قال « كارلو باجيتا » عضو الحزب الشيوعى الايطالى ، فى المؤتمر المنعقد حاليا فى روما : ان حزبنا لديه الشجاعة لكى يقول « الصين » ولا يقول « ألبانيا » ، ما دام يقصد الصين !

وهكذا اعلن رسميا لأول مرة ومن فوق منبر مؤتمر شيوعى يشهده الروس والصينيون على السواء ، ان كل الحملات الموجهة الى البانيا انما تستهدف الصين.

والواقع ان نبأ الخلاف بين روسيا والصين قد تأكد فىالعالم الخارجى منذ اللحظة التىعرف فيها ان روسيا سحبت كل خبرائها منالصين، وكانوا يعدون بالآلاف. فمثل هذه الخطوة الخطيرة ، لايمكن الا أن تخفى وراءها خلافا خطيرا .

واليوم يوشك الطرفان ان يعلنا الخلاف على العالم كله كاملا ، بعد أن جاهدا جهادا عنيفا طوال السنوات الماضية من أجل اخفاء هذا السر الهائل .

وسواء انفجر الخلاف فى المستقبل انفجاره النهائى ، أو أمكن التوصل الى حل للقضاء عليه ، فالمهم اليوم أن نفهم أسباب هـذا الخلاف الذى يعد من اكبر واخطر الاحداث التى وقعتمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية. .

وقبل محاولة العثورعلىالاسباب الجدية ، الاساسية،

(*) كتب هذا المقال عام ١٩٦٢

لهذا الخلاف ، يجب أن نضع امامنا ثلاثة اعتبارات :
الاعتبار الاول ــ هو ان الخلاف العقائدى أو الاستراتيجى الحاد ليس غريبا على الحركة الشيوعية بوجه عام . ففي جميع مراحل الحركة الشيوعية كان يوجد داخلها دائما «يسار» و«يمين» . وفى كل مرحلة كان لابد دائما من «تصفية» الاتجاه الذى يرونه خاطئا ، خصوصا بعد أن تأثرت الحركة الشيوعية بالمبدأ « اللينينى » الذى يضع وحدة الحركة فوق كل اعتبار.

والحركة الشيوعية فيها ما فى بعض الحركات الدينية من عنصر الايمان الصارم العنيف ، والاعتقاد فى نظرة أو قضية يجب أن تغنى صاحبها عن اى نظرة اخرى مهما كان مصدرها ، والتصديق فى حقيقة تعلو كل الحقائق الاخرى ، لايمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

الاعتبار الثانى ــ هو ان الخلاف بين روسيا والصين بالذات ليس حدثا طارئا .

ولأضرب مثلا قديما ..

ففى سنة ١٩٢٧ ،كانت روسيا تؤيد حزب الكومنتانج الذى يقوده شيانج كاى شيك فى الصين ، لأنه كان القوة الكبرى التى تقاوم الاستعمار فى الصين . أما الحزب الشيوعى فلم يكن يمثل يومها الا قلة ضئيلة . وكان راى ستالين فيما يبدو أن تأييد حركة تحريرية مضمونة النتيجة خير من تأييد حركة شيوعية ليس مستقبلها مؤكدا . وكان الحزب الشيوعى الصينى يرى غير هذا الرأى ولكن الحزب الشيوعى الصينى نفذ رأى ستالين وانضم الى صفوف شيانج كاى شيك . وبدأ شيانج كاى شيك زحفه للاستيلاء على بقية الصين ، حتى وصل الى شنغهاى التى كان الاستيلاء عليها قمة النصر.

ولكن كاى شيك لم يكد يستولى على شنغهاى ، بمساعدة الشيوعيين ، حتى انقض عليهم ، ونفذ فيهم مذبحة رهيبة قضت على الحزب لسنوات طويلة ..

ويومها ، كان ماوتسى تونج بالذات ، هو الذى استطاع ان ينقذ ما تبقى من فلول الحزب ، ويلجأ بها الى الجبال ، ليبدأ من هناك حركته التى انتهت باستيلائه على الصين ..

من ذلك اليوم ، ولد لدى الشيوعيين الصينيين احساس عميق بأن موسكو بعيدة عن فهم « واقع الصين » . وان الحركات الشيوعية الاوروبية لها منابت غير الشيوعية الآسيوية . من ذلك اليوم ولد فى الصين الاحساس بالاستقلال الفكرى عن روسيا فى تفسير النظرية الشيوعية ، وان كان هذا لايؤدى الى الانفصال ، أو عدم التعاون مع روسيا ..

ويقول المؤلف الامريكى «جورج كينان» ، وهو أحد خبراء الغرب فى القضايا الشيوعية ، وقد كان سفيرا فى موسكو وهو الآن سفير فى بلغراد ، يقول فى كتاب هام له اسمه « روسيا والغرب فى عهد لينين وستالين » .. يقول ان موقفا من هذا القبيل تكرر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويوم كانت الصين تكاد تكون مقسمة بنسبة متعادلة بين شيانج كاى شيك وماوتسى تونج ..

يومها — مرة اخرى — لم يكن من راى روسيا أن يحاول ماوتسى تونج انهاء حكم شيانج كاى شيك بحرب شاملة . أولا ، لأنها لم تكن واثقة من النتيجة . وثانيا لأن أمريكا فى ذاك الوقت كانت تتوسط بين كاى شيك وماو . وكان احتمال تدخلها المسلح فى هذه الحالة كبيرا . ولكن ماو لم يأخذ بهذا الراى وقال : « ان العدو ليس نمرا حقيقيا ولكنه نمر من الورق » واستطاع

بالفعل أن يلقى كاى شيك وقواته الى البحر ، دون أن تحرك أمريكا ساكنا ...

منـــذ ما يقرب من أربعين سنة اذن ، والشيوعية الصينية « حليفة » الشيوعية الروسية ولكنها ليست تابعة لها . وقد كان لها دائما هذا الوزن الخاص داخل المعسكر الشرقى ..

والآن ...

بعد تسجيل هذين الاعتبارين ، فيم الخلاف الآن ، بين روسيا والصين ؟ ..

ان بعض المعلقين يميلون الى تبسيط الأمور تبسيطا يبعد بنا عن الحقيقة ..

يقولون ـ مثلا ـ ان ماو وخروشوف يتنافسان على زعامة المعسكر الشيوعى . وان ماو يعتبر خروشوف وجها جديدا بالنسبة اليه. ويعتبر نفسه الوحيد الباقى من أصحاب « الاضافات » الهامة الى الماركسية .

أو يقولون ان ماوتسي تونج « ستالينى » فى حين أن خروشوف يهاجم ستالين ، أو يقولون ان خروشوف يؤمن بالتعايش السلمى فى حين أن ماو يؤمن بحتمية الحرب .

وهذه كلها تبسيطات تضيع معها معالم الحقيقة ..

ان أبرز أسباب هذا الخلاف هى :

* الحملة على ستالين .
* الكوميونات الصينية .
* الاستراتيجية الدولية .
* الدول المتحررة غير المنحازة .

والصورة الواضحة لهذا الخلاف ، هى اننا بينما نجد الصين ما زالت ترفع صورة ستالين جنبا الى جنب مع صور ماركس وانجلز ولينين ، فى حفلاتها الشـــعبية

وأعيادها السياسية .. نجد أن خروشوف فى الطرف الآخر ما زال يواصل الحملة على ستالين والستالينية ، وما زالت الاحزاب الشيوعية فى شرق أوروبا تطهر صفوفها من الزعماء والحكام الذين تسميهم ستالينيين، بل ان الاتحاد السوفييتي لم يرضه أن يبقي ستالين فى قبره الى جوار لينين ، فأخرجوه بليل ، ودفنوه فى سور الكرملين مع سواه من الراحلين ..

وقد قيل ان الصين اعترضت ـ منذ البداية ـ على أن يثير خروشوف هذه الحملة المفاجئة ذات الآثار البعيدة على المعسكر كله ، دون أن يستشير مقدما الاحزاب الشيوعية الاخرى . وقيل ان الصين رات ان الحملة كانت أوسع مما ينبغى ، بحيث انها أصبحت فى رايهم تهدد وحدة المعسكر الشيوعى . وان الطريقة التى تناول بها خروشوف الحملة جعلت بعض الاحزاب الشيوعية تتجه الى المطالبة لا بمراجعة اخطاء ستالين وحدها ، ولكن بمراجعة النظم الشيوعية ذاتها .. خصوصا الحزب الشيوعي الايطالى الذى يبشر الآن مثلا بنظرية « تعدد المراكز » فى الحركة الشيوعية ، بدلا من الوضع القائم الآن على « المركز الأوحد » وهو موسكو.

واذا كان الرجوع الى بعض النصوص المنشورة « اضمن » من هذه التخمينات ، فاننا نجد أن الحزب الشيوعى الصينى نشر عقب الحملة على ستالين بحثا شرح فيه رأيه فى الموضوع كان اهم ما فيه :

« أولا » : الاعتراف بأن ستالين ارتكب أخطاء خصوصا فى سنواته الاخيرة . ولكن مع تسجيل انه كان مناضلا ماركسيا لينينيا عظيما، حارب خصوم الشيوعية بلا هوادة ، ومع تسجيل انه لايمكن الغاء دور الأفراد فى تحريك عجلة التاريخ الغاء تاما ..

«ثانيا» : الاشادة بالدور البارز الذى قام به ستالين فى الاسراع بعملية التصنيع وعملية تحويل الزراعة الفردية الى زراعة جماعية . ذلك ان هذه المرحلة التى تحملها ستالين هى المرحلة التى تمر بها الصين الآن ، وهى مرحلة تحتاج الى الضغط والتضييق الى حد كبير .. وقد خشيت الصين أن يمتد نقد ستالين الى نقد كل ما يتعلق به ، خصوصا هذه المرحلة بالذات .

« ثالثا » : تسجيل ان ماوتسى تونج غير ستالين . وتسجيل فكرة ان المركزية الشديدة فى القيادة يجب ان تقترن بديموقراطية واسعة تتغلغل فى القاعدة الشعبية ، وان التركيز على مركزية القيادة دون الديموقراطيــــة يؤدى الى ارتكاب الأخطاء التى ارتكبها ستالين ..

« رابعا » : أوضحت الصين نظرية ماوتسى تونج فى المتناقضات . وهى القائلة بأن المتناقضات ستوجد حتى فى المجتمع الشيوعى ، وحتى فى داخل المعسكر الشيوعى. سواء بين الفرد والمجتمع او بين الدول الشيوعية وبعضها البعض . ولكنها تناقضات غير عدائية كالتناقضات بين الشيوعية والراسمالية مثلا او بين العمل وراس المال فى المجتمع الراسمالى .

وبهذه النظرية ارادت الصـــين أن ترد على الذين دهشوا من المتناقضات التى كشف عنها الهجوم على الستالينية . اى انه بينما بدت الحملة الروســية على ستالين حملة على شخص ، برزت الصين بمحاولة تقديم تفسير نظرى ماركسى لها ..

الخلاف الأهم من ذلك كان على : الكوميونات !

يعرف العالم ــ وتعرف الكتب والنظريات ــ أنواعا كثيرة من الاشتراكية ولكن العالم ، والكتب والنظريات ، لا تعرف حتى الآن الا شيوعية واحدة ..

وذلك أن الاشتراكية لها الآن تطبيقات كثيرة ، فى حين ان الشيوعية لم تطبق قط ، فى أى مكان من العالم ..

هناك اشتراكية تؤمن بوجود ملكية خاصة ، بكميات مختلفة ، الى جانب الملكية العامة ، وبوجود الحافز الفردى الى جانب الحافز الاجتماعى ..

وهناك اشتراكية لا تؤمن بوجود الملكية الخاصة بتاتا. ولكنها مع ذلك تؤمن بوجود الحافز الفردى الطبيعى . ولذلك فان أقصى ما تطلبه هو أن ينال كل فرد من خيرات المجتمع حسب مجهوده وكفاءته وامتيازه .

أما الشيوعية فهى تختلف عن هذا كله اختلافا فى «النوع» لا فى « الدرجة » فهى تؤمن أن الانسان نفسه بعد مرحلة تطور معينة سوف يتغير بحيث يصبح الحافز الفردى أمرا لا قيمة له وبالتالى يصبح ممكنا تطبيق شعار « من كل فرد حسب قدرته ، ولكل فرد حسب حاجته » .

أى أن ينال الناس نفس القدر من خيرات المجتمع ، مهما اختلفت جهودهم وقدراتهم .

والاشتراكى يؤمن بهذه الصورة أو تلك من صور الاشتراكية بوصفها شكلا مثاليا للحياة . أما الشيوعي فهو يعتبرها مجرد مرحلة . أما هدفه الأمثل فهو : المجتمع الشيوعى ، بالصورة التى سبق تلخيصها ..

ومن الطبيعي ــ بناء على ذلك ــ أن تكون عملية الانتقال الى تطبيق الشيوعية حدثا بالغ الخطورة بالنسبة للشيوعي .. حدثا يتعرض للمناقشة والجدل والخلاف الحار ، بوصفه اخطر نقطة تحول تاريخية فى نظره ، والغاية التى كافحت وناضلت الشيوعية الدولية من أجلها أكثر من مائة سنة ..

وروسيا ، بعد أربعين سنة من ثورتها ، ظلت تقول

انها ما زالت في مرحلة الاشتراكية وان مرحلة الشيوعية ما زالت بعيدة ..

ولكن الصين فاجأت المعسكر الشيوعى منذ سنوات بأنها قد اكتشفت « الخلية الاولى » فى بناء الشيوعية. وانها بدأت بالفعل فى بناء هذه الخلية الشيوعية الاولى .. وهى : الكوميون ..

فقد قال القرار الذى أعلن بدء انشاء الكوميونات فى ٢٩ اغسطس سنة ١٩٥٨ : « ان الهدف الاول من اقامة الكوميوناتالشعبية هو الاسراعفيعملية البناء الاشتراكى والتمهيد النشيط للانتقال الى الشيوعية . ان اقامة الشيوعية فى الصين لا تبدو الآن هدفا بعيد المنال ، وعلينا أن نستخدم عملية اقامة الكوميونات لاكتشاف الطريق العملى الى الشيوعية » .

وليس هذا هو مجال الحديث المفصل عن نظام «الكوميون» وهى الوحدة الشيوعية للمجتمع . ولكن يكفى القول هنا ان الكوميون يختلف عن المزرعة الجماعية فى عدة نواح أساسية . أولها ، انه أكبر حجما منالمزرعة الجماعية بكثير . وثانيها ــ بالتالى ــ انه يجمع أنواعا مختلفة من النشاط من الزراعة الى تربية المواشى الى مصانع صهر الحديد الصغيرة البدائية . وثالث هذه الفروق ان الملكية الفردية فيه معدومة تماما . على ان أخطر الفروق هو ان جانبا من « الأجر » الذى يأخذه الفلاح في الكوميون يأخذه « عينا » لا نقدا . فالكوميون يصرف له حاجته من الطعام الذى يقدم فى قاعات كبيرة للجميع على السواء كما يصرف له حاجته من الثياب.. الى آخره ..

وهنا الفارق الخطير . فالصين فى الكوميونات خطت مرحلة نحو نظام : « لكل فرد حسب حاجته » بصرف

النظر عن عمله . لم تخط اليه مائة فى المائة ولكن طبقته بمقدار خمسين فى المائة تقريبا اذ جمعت بين الأجر النقدى الذى قد يختلف والأجر العينى المتساوى . وكانت هذه الخطوة بالذات محل فخر «نظرى» كبير فى الصين ، نسبته الكتابات هناك الى ماوتسى تونج شخصيا

فهل يمكن — حقا — ان تقفز الصين الى مرحلة الشيوعية ، هكذا بعد اقل من عشر سنوات من وصول الشيوعيين الى الحكم ، والشيوعيون فى روسيا ، بعد أربعين سنة من وصولهم الى الحكم ، وبعد التطور الاقتصادى الكبير ما زالوا يرون انهم لم يصلوا الى المرحلة التى تسمح لهم بهذا الانتقال ؟

ان الجذور الفكرية لهذه المحاولة الصينية البالغة العنف والجراة .. مصدرها راى الشيوعيين فى ان الثورة يجب الا تتوقف عند مرحلة من المراحل ، تلتقط انفاسها وتدعم نفسها وتؤجل أهدافها النهائية ، لأن هذا قد يؤدى الى اضعاف الطاقة الثورية للجماهير ، والى استرخاء القيادات واكتفائها بالانتصارات التى حققتها ..

ومن الجذور الفكرية لهذه المحاولة ايضا ، ان الصين تعتقد أنها اكتشفت الاسلوب الأمثل لتطبيق الماركسية فى ظروف البلاد الآسيوية بالذات : فهى فى الواقع قد رفضت التقيد بالنموذج الروسى فى التخطيط والتنمية الاقتصادية . وانتهجت أسلوبا خاصته استغلال كثافة السكان وتحويل وفرة الأيدى العاملة الى سلاح أساسى فى البناء . فكانت اقامة السدود مثلا لا تنتظر الآلات الحديثة الغالية ولكنها تقام بملايين العمال ، بالمعاول والأيدى والمقاطف البدائية ، اى تعويض الآلات بوفرة الأيدى العاملة . كذلك عمدت الى استخدام الوسائل

البدائية جنبا الى جنب مع الوسائل الحديثة وأطلقت على هذه السياسة سياسة المشى على قدمين « القديم والجديد معا » ومن مجموع هذه الجهود الهائلة ، اعتقدت الصين أنها تستطيع أن تختصر مسافات كبيرة من الزمن اللازم لعملية التقدم ، وانها تستطيع أن تطبق سياسة الثورة التى لا تتوقف ، لأنها اذا توقفت عند مرحلة ، فهذه المرحلة ستوجد بنفسها أجهزتها الملائمة لها والتى قد تصبح فى حد ذاتها عقبة فى طريق السير الى مرحلة أخرى تالية ..

ووراء هذه الملامح التى أرويها هنا فى سرعة خاطفة توجد تفسيرات وتفصيلات وتبريرات نظريةومذهبيةطويلة

ومن البديهى ، بعد هذا ، أن تتوقع الصين أن تكون تجربتها هى النموذج الذى يجذب الاحزاب الشيوعية الآسيوية والافريقية على الأقل .

ولكن الحزب الشيوعى الروسى ، بوصفه القائد الوحيد المعترف به فى الحركة الشيوعية ، كان له فى تجربة الكوميونات رأى آخر ..

لم تعلن روسيا رأيها بصراحة فى هذا الموضوع ولم تتخذ منه موقف الهجوم العلنى .

ولكن كثيرا من التصريحات التى قالها خروشوف وغيره من الزعماء الروس كانت تشير من طرف خفى الى هذه النقطة ..

والذى يمكن تصويره من رأى الاتحاد السوفييتى هو انه يرى فى تجربة الكوميونات الصينية انحرافا يساريا خطيرا . وأن سياسة « احراق المراحل » أى عدم الاعتراف بأنه لابد من المرور بمراحل معينة من التطور نحو الشيوعية ، هى سياسة خطرة قد ترتد على النظام بأكمله ..

ويركز الاتحاد السوفييتي نقده على ما تحاوله الصين من تجاهل « الحافز الفردى » ودوره فى الانتاج ، فى هذه المرحلة المبكرة من تطورها . ويستشهد على ذلك بقول لينين : « انه من العبث أن نظن ان مجرد اسقاط الرأسمالية معناه ان كل فرد سيعمل كما يجب أن يعمل من أجل المجتمع فقط حتى ولو لم تكن له مصلحة شخصية فى العمل. وانه من غير الحافز الفردى لايمكن تحريك الملايين الى مزيد من العمل » .

وقد سبق للاتحاد السوفييتي أن مر بمرحلة من الصراع حول فكرة « المساواة التامة » فى الأجور . واستمر هذا الصراع من سنة ١٩٢٥ تقريبا الى حوالى سنة ١٩٣٤ ، وكان «تروتسكى» والاقلية التى يتزعمها يميلون الى هذه المساواة .. فى حين كانت الاغلبية التى يمثلها ستالين ترى ان هذه « المساواة المبتذلة » فكرة غريبة على الاشتراكية ، وانه فى مرحلة البناء والتصنيع بالذات لايمكن أن تنجح بغير تشجيع الخبراء والفنيين والعمال المهرة والمديرين الأكفاء ، وان هذا التشجيع لابد أن يكون ماديا ، فى صورة اجور أعلى وأحسن ، وفى خطاب ستالين الذى ألقاه فى مؤتمر الحزب الشيوعى الروسى سنة ١٩٣٤ قال : « ان اللعب بكلمة المساواة على هذا النحو الساذج ليس الا لعبا بالنار » ووصف هذه التسوية المطلقة بين الأجور بأنها «رجعية ، وسخافة من سخافات البورجوازية الصغيرة لاتليق بالماركسيين»

ويومها ، كان هذا الاتجاه قد انهزم فى روسيا بالفعل، وكان تروتسكى قد نفى الى الخارج ، وأصبحت « التروتسكية » أقسى تهمة توجه الى شيوعى روسى .

وأول أمس فقط ، فى اجتماع مجلس السوفييت الأعلى فى موسكو ، وقف « فاسيلى تولستيكوف » السكرتير

الاول للحزب الشيوعي فى لينينجراد وهاجم قادة البانيا « ومن يؤيدونهم » أى الصينـيين ، واتهمهم بأنهم « تروتسكيون ومنحرفون يساريون ، ومتجمدون مذهبيون ، يخفون أنفسهم وراء تعبيرات ثورية متطرفة »

وعندما نراجع الآن الكثير من القرارات التى اتخذها خروشوف بالنسبة للريف ، نجد انها تتجه الى تشجيع الحافز الذى يدعو الفلاح الى العمل . وفى مقدمة ذلك رفع أسعار المواد الغذائية التى ينتجها الريف ، والغاء المحطات الحكومية التى كانت تؤجر الجرارات والآلات الزراعية للمزارع بحيث تصبح مملوكة لها .

وفى احدى خطب خروشوف روى انه كان يزور عمته فى الريف فوجد لديها أشجار تفاح بديعة فى حديقتها الخاصة ، ولكن عمته قالت انها ستقطعها لأنها لا تدر عليها أى ربح واستخلص خروشوف من ذلك أن أشجار التفاح البديعة يمكن أن تقطع وتفقدها البلاد لأنها لا تدر على الفلاحين أي فائدة .

ويومها وصف خروشوف الذين يعارضونه فى هذه الاجراءات بأنهم «حرفيون ، لايشمون رائحة الحياة» .

وفى المؤتمر الواحد والعشرين ، نجد أن خروشوف قد شن هجوما مضاداً ضد هذا الاتجاه الصينى .

فمن جهة شرح رأيه نظريا فى مسألة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية فقال :

اولا ــ انه لابد من التدرج فى الانتقال الى الشيوعية .. أي لابد من السير خطوة خطوة ..

ثانيا ــ انه ليس معنى ذلك انه يوجد حائط عال بين المرحلتين . ذلك ان المرحلة الثانية تنمو من الاولى « وليس معنى الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ان نغلق بابا ونفتح بابا آخر فنكون قد انتقلنا » .

ثالثا ـ انه يجب عدم اجهاض التطور واحراق المراحل : فلها سرعة ولها بطء ..

ثم ركز خروشوف حديثه فى التقرير على نقطة أخرى هى : ان كل نظام وكل تقدم لابد أن يتوافر له الاساس المادى اللازم من وفرة الانتاج . فلكى تصبح المساواة فى التوزيع ممكنة لابد أن يصل الانتاج الى درجة عالية تكفى الجميع. وهذا هدف لن تبلغه روسيا ـ كما قال التقرير ـ الا بالتصنيع الكامل للبلاد ، مدنها ، وريفها ، وبرفع الطاقة الانتاجية للعامل الى أقصى حد ، باستخدام الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية ، وبتحقيق درجة عالية جدا من التنظيم الادارى والعلمى ، وبتوزيع الصناعات توزيعا عادلا على جميع انحاء البلاد .

وقد أطلق خروشوف على هذا المؤتمر : مؤتمر بناة الشيوعية . ولكن التقرير أعلن ان هذه المهمات التى لابد أن تسبق الشيوعية ستستغرق عشرين سنة كاملة ! وبشرط أن يزيد الدخل القومى ٤٠٠ ٪ فى هذه السنوات العشرين !..

وقال خروشوف عن « المتسرعين » : اذا أصبح الزعماء مغرورين ، وارتكبوا الأخطاء ، وشوهوا التعاليم الماركسية اللينينية فيما يتعلق ببناء الاشتراكية والشيوعية فسوف يستغل أعداء الشيوعية هذه الاخطاء كما استغلوها سنة ١٩٥٦ . وكان يشير بذلك الى ثورة المجر .

وبعد هذين السببين الكبيرين المتعلقين بالسياسة « الداخلية » تصل الى الاسباب الخطيرة ، التى لعبت الدور الاكبر فى الخلاف بين روسيا والصين والتى تطفو على سطح الاحداث بشدة هذه الايام ..

وهى الخلاف بين الدولتين على السياسة التى يجب أن تتبع نحو الدول المحايدة ..

والسياسة التى يجب أن تتبع نحو المعسكر الغربى .

روسيا والصين

- ٢ -

قال ماوتسي تونج لأول مرة كلمته المشهورة : « ان العدو ليس الا نمرا من الورق » .. وذلك فى سنة ١٩٤٦ ، حين شن هجومه الاخير على قوات شيانج كاي شيك التي كانت تفوق قواته عددا وعدة ، وكيف انه ظهر ان قوات شيانج كاي شيك كانت بالفعل «نمرا من الورق » ، اذ لم تلبث أن انهارت انهيارا سريعا.

وفى هذا الاسبوع قال خروشوف : « أن هذا النمر الذي يقولون انه نمر من الورق ، له هذه المرة أسنان ذرية » .

وردت صحيفة صينية بقولها : « ان هذه الاسنان الذرية لا تدخل الرعب فى قلوبنا » ...

وفى هذا الاسبوع أيضا ، اتخذ الحزب الشيوعى الفرنسى أول قرار علنى يتخذه حزب شيوعى كبير، ضد الصين بصراحة . وقد قال القرار : « ان الرفاق الصينيين ما زالوا يصرون على التشكيك علنا فى سياسة التعايش السلمى ، وضرورة البحث عن حلول للمشاكل الدولية عن طريق المفاوضات كما يشككون فى امكانية الانتقال الى الاشتراكية بالوسائل السلمية ، وفى ضرورة القضاء على سياسة عبادة الفرد المتخلفة عن الستالينية»

كما ان جريده « براقدا » انتقلت من التلميح الى

التصريح ، ومن استخدام اسم البانيا الى توجيه النقد المباشر للصين ...

وبرغم تعدد أسباب الخلاف ، وتشعب جذوره ، الا ان الخلاف حول السياسة الدولية بالذات ، هو الذى وصل بالأزمة الي هذا الحد العنيف ...

فيم الخلاف ؟..

ان روسيا والصين كلتيهما دولتان شيوعيتان ، ومعنى ذلك ان كلا منهما تؤمن بأن العالم كله سوف يتحول يوما ما الى الشيوعية ، وان كلا منهما ـ وكل حزب شيوعى على وجه الارض ـ يجب أن يناضل من أجل تقريب هذا اليوم .

ولكن الشيوعى يؤمن بنظرية يعتقد انها علمية تماما. هى الماركسية اللينينية ، بمعنى انه اذا أحكم أى حزب شيوعى فهم هذه النظرية وتمكن من تطبيقها التطبيق السليم ، فهى حتما وبالتاكيد تؤدى الى النتيجة التى يرجوها .

ولهذا ، ففى كل مرحلة يجب ان يتوقف الشيوعيون لتقدير عدة أشياء والاتفاق عليها : ما هى طبيعة المرحلة التاريخية التى يواجهونها ـ ما هى القوى الموجودة التى تؤثر فى هذه المرحلة .. وبالتالى ينتقلون الى تحديد موقفهم : هل يتجهون الى أهدافهم رأسا .. أو يؤجلونها؟ هل يحاولون الوصول اليها بالعنف .. أو بالسلم ؟

وفى سنة ١٩٥٧ ، طرح الشيوعيون على انفسهم هذه الاسئلة .. فاختلفت اجابة الشيوعيين الصينيين عن الشيوعيين الروس .. ومن يومها والخلاف يتفاقم ..

ولكن لماذا طرح الشيوعيون هذه الاسئلة من جديد ، واختلفوا عليها سنة ١٩٥٧ ؟

ان العلم الحديث يغير الحياة وفى تلك السنة ، حقق

العلم معجزة أخرى ..
هذه المعجزة هى الصواريخ عابرة القارات ...
لقد أصبح معروفا ان كلا من روسيا وامريكا تملك صواريخ يمكن اطلاقها فتصيب قلب العدو ، بعد دقائق قليلة ، دون أن يكون هناك أى دفاع يستطيع أن يصدها
معنى ذلك أن القنابل الذرية - لو قامت الحرب - لن تحملها طائرات ، يجب أن تطير الى أهدافها ، وبالتالى يمكن اسقاطها فى الطريق .. بل ان هذه القنابل الذرية سوف تحملها صواريخ ، تعد بالمئات ، تستطيع أن تدمر فى غمضة عين كل المدن الكبرى ، والمراكز الصناعية ، والقواعد العسكرية ، والمرافق العامة . وقد يكون حساب القتلى فى يوم واحد بمئات الملايين ..
هكذا اكتمل التطور المخيف المنتظر فى فن الحروب . ذلك التطور الذى بدأ بتفجير أول قنبلة ذرية وانتهى باكتشاف الوسيلة التى تنقل القنابل الذرية الى أقصى أنحاء الارض ، فى دقائق ودون وجود أى دفاع نافع ضدها ...
وبهذا التطور العلمى ، اكتمل التطور الفكرى الجديد داخل الحزب الشيوعى الروسى فى الاتحاد السوفييتى بوجه عام ، ذلك التطور الذى تبناه وتزعمه خروشوف ، خصوصا منذ خطابه الشهير ضد ستالين سنة ١٩٥٦ ..
لقد أعلن المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى الروسى ، مع نقده لستالين ، انه يؤمن بثلاثة مبادىء جديدة هى :
اولا - ان الحرب لم تعد حتمية الوقوع ...
ثانيا - انه لابد من انتهاج سياسة التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة .
ثالثا - ان الاشتراكية وبالتالى الشيوعية لايلزم أن تتحقق بالثورة اللينينية ولكن يمكن أن تتحقق بوسائل

شتى ، بما فيها الوسائل السلمية ، والوسائل البرلمانية

ما هو الجديد فى هذه المبادىء بالنسبة للأحزاب الشيوعية ؟

الجديد هو ان الفكر الشيوعي كان يعتقد بصفة قاطعة :

اولا ــ انه طالما كان هناك استعمار وهناك دول راسمالية ، فان الحروب سوف تقع وتتوالى بالتأكيد. فالحرب اذن حتمية الوقوع. ان الاستعمار والراسمالية لايمكن ان يقبلا الهزيمة بشكل سلمى . ولن تختفى الحروب نهائيا الا باختفاء الراسمالية واختفاء الاستعمار

ثانيا ــ ان الراسمالية لايمكن ان تسلم فى المجال الداخلى بسهولة . ولذلك لابد من سلسلة اصطدامات عنيفة ، وربما حرب أهلية ، قبل أن تنهزم الراسمالية وينفتح الطريق الى الشيوعية ..

ولكن الروس وجدوا ان ثمة عوامل كثيرة طرات على الموقف ... اكبرها عاملان :

العامل الاول ، هو هذا التطور الحربى المخيف ، الذى يهدد البشرية فى حالة الحرب بالفناء . فلا يمكن ان يقال ببساطة والحالة هذه ان الحرب هى القطار الذى يحمل الشيوعية الى اهدافها ، بما تحمله الحرب من دمار للراسمالية وكشف لمتناقضاتها . الحرب هذه المرة مختلفة تماما . انها قد تدمر الراسمالية والشيوعية معا .

العامل الثانى ، هو التقدم الاقتصادى للاتحاد السوفييتى ، وفى رأي الروس أن التقدم الاقتصادى فى بلادهم سوف يعطى للمعسكر الشرقى جاذبية اكبر ، وسوف يضاعف نفوذه ويضاعف قدرته على التأثير فى مجريات الأمور فى العالم . وبالتالى تصبح الشيوعية قادرة على اجتذاب ملايين جديدة من الناس .

وفى المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشـيوعى فى موسكو ، أكد خروشوف هذه النقطة بل وربطها بفكرة ان الحرب لن تصبح حتميـة حتى فى وجود النظام الراسمالى ، فقال : « وحين يصبح المعسكر الشرقى منتجا الأكثر من نصف الانتاج الصناعى فى العالم كله ، سوف توجد بالفعل الفرصة لاستبعاد احتمال الحرب نهائيا ، حتى لدى أشد الراسماليين تطرفا . وهكذا تنتهى الحروب نهائيا ، رغم استمرار وجود الرأسمالية فى بعض البلاد » .

هكذا وصلت روسيا الى فكرتها فى التعايش السلمى . وفى التركيز على النضال ذى الطابع السلمى والاقتصادى . وفى العمل على منع الحروب . وقد لخص «كوزلوف» نائب خروشوف هذا الموقف حين قال منذ أسبوعين فى روما : « أن الذين يثقون فى مستقبلهم ، ليسوا فى حاجة الى اللعب بالقنابل الذرية » .

ولكن الصين لها رأى آخر تماما . انها ترى فى هذه التجديدات والتطورات انحرافا عن النظرية الماركسية اللينينية . انها ترى أن العالم لم يتغير تغيرا «نوعيا» عما كان عليه منذ أربعين سـنة . فالاستعمار ما زال قائما ، والراسمالية ما زالت قائمة. وبالتالى فالحروب ما زالت حتمية الوقوع ، ولا يجب الخوف منها . واذا كان هناك تغير طرأ فهو أن المعسكر الشيوعى قد أصبح قويا ، الأمر الذى يجب أن يجعل الشـيوعيين اكثر شجاعة واقداما على تحدى الغرب ، وليس العكس ..

فى سنة ١٩٥٧ ، طـار ماوتسى تونج الى موسكو ، ليبشر بهذه الآراء ، أمام الاحزاب الشيوعية المجتمعة هناك ، بمناسبة مرور ٤٠ سـنة على ذكرى الثورة الشيوعية ..

قال ماوتسى تونج فى ذلك الوقت : انالمعسكرالشرقى أصبح بالفعل أقوى من المعسكر الغربى .. « ان أبرز سمة فى الموقف العالمى اليوم هى ان هناك نوعين من الرياح يسودان العالم : رياح شرقية ، ورياح غربية . واننى اعتقد ان الرياح الشرقية تعلو اليوم على الرياح الغربية . بمعنى ان القوى الشيوعية أعظم بكثير من القوى الاستعمارية » .

واسترجع ماو أمام مستمعيه قصة سنة ١٩٤٦ ، والتعبير الذى اطلقه حينذاك عن « النمر الورق » ..

ثم قال ماو : « لقد خرجنا من تجارب صراعنا ضد العدو بصياغة نظرية لنا تتلخص فى الآتى : يجب أن نستهين بالعدو ككل ، وفى المدى الطويل . ولكن يجب أن نحسب حسابه كاملا ولا نستهين به أبدا فى المدى القصير ، وبصدد كل حالة قائمة بذاتها . تماما كتناول وجبة من الطعام . فى البدء يقرر المرء انه يستطيع أن يأكل كل الوجبة الموضوعة أمامه . ولكنه لايأكلها فى « قطمة » واحدة ، بل يأكلها قطمة .. قطمة ! وهـذا ما يسمى فى الادب العسكرى بتحطيم الأعداء واحدا بعد واحد » .

واذا تركنا هذا الخطاب جانبا ، فانه يمكن تصوير موقف الصين من قضية الحرب والسلام كالآتى :

أولا ــ ان الحرب ما زالت حتمية . ذلك انه طالمـا هناك استعمار فسوف تنشب ولاشك حروب تحريرية ووطنية . سوف تضطر الحركات الوطنيـة حتما الى استخدام السلاح . ومعنى ذلك قيام حرب محلية . وهنا سوف يضطر الغرب بالتاكيد الى أن يخوض هذه الحرب المحلية . وفى هذه اللحظة لابد أن يتقدم المعسكر الشرقى ليخوض هذه الحرب المحلية فى مواجهة الغرب.

والحروب المحلية تنتهى فى هذه الحالة بهزيمة الغرب .

ويستطرد منطق الصين قائلا : ان الخوف من أن يؤدى هذا الى قيام حرب عالمية ذرية ، خوف لا مبرر له . ذلك ان الغرب لن يخاطر بتحويل الحرب المحلية الى حرب ذرية عالمية ؛ ازاء التطور الجديد الذى طرا على قوة الاتحاد السوفييتى . والغرب يمكن ان يقبل الهزيمة فى حرب محلية ويجد هذا خيرا من نشوب حرب عالمية ذرية ، كما حدث حين تراجع الغرب فى حرب السويس .

فما يقوله الروس من ان العالم ليس امامه الا احد طريقين : اما حرب عالمية ، واما تعايش سلمى ، ليس صحيحا فى رأى الصين ، فالصينيون يرون أن ثمة طريقا ثالثا ، هو طريق الصراع العنيف ، والضغط المستمر على كل مواقع الغرب ، ودفع الازمات المحلية الى اقصى حد ، والمخاطرة بدخول حروب محلية هنا وهناك ..

وترى الصين أيضا ان المبالغة فى الخوف من حرب ذرية ، ورفع شعارات التعايش السلمى بأى ثمن ؛ والبحث عن حلول وسط مع الغرب ، انما يؤدى الى اطفاء حدة الصراع ، واخماد جذوة الحركات الشيوعية ، والقضاء فى المدى الطويل على أمل قيام شيوعية تسود العالم ..

وقد وصلت روسيا فى بيان المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعى الى حد القول بأن « سياسة التعايش السلمى يؤيدها أيضا جناح هام من البورجوازية فى البلاد الرأسمالية ، وهى البورجوازية التى تنظر نظرة متزنة الى توازن القوى الراهن والى اخطار اى حرب عالمية حديثة » وهذا ما ترفضه الصين بتاتا ، فالبورجوازية هى البورجوازية ، لايوجد فيها فريق

منطرف وفريق متزن .

وقد ردت روسيا على هـــذا المنطق الصينى فيما يتعلق بالحروب المحلية ، بمنطق آخر .. فقالت : انه يجب التفرقة بين« الحروب المحليـــة » و « الحروب التحريرية » .

فالحرب المحلية هى التى تقوم بين دولتين ، والتى يمكن أن تتدخل فيها دول المعسكرين تدخلا مسلحا . وهذا النوع من الحروب يجب منعه والحيـــلولة دون وقوعه ، لأنه يحمل فى طياته خطر قيام حرب عالمية ..

أما الحرب التحـــريرية ، فهى التى يجب أن يهرع المعسكر الشرقى الى مساعدتها . مع العمل دائما على حصرها بحيث لا تتحول الى حرب من نوع آخر ..

وفى مجال هذا الجدل ، كان لابد أن يضرب كل فريق بعض الأمثلة.. فحرب السويس مثلا.. تتخذها الصين دليلا على ان الغرب يمكن أن يقبـــل الهزيمة فى حرب محلية تورطت بالعدوان فيها دول كبرى مثل انجلترا وفرنسا مع دولة صغيرة هى اسرائيل ، فى حين تتخذها روسيا دليـــلا على امكان انتصار الحركات التحريرية ضد الاستعمار دون الحاجة الى تدخل عسكرى مادى من المعسكر الشرقى ..

وثورة العراق.. تقول الصين ان عدم اسراع روسيا الى التدخل أو اعلان عزمها على التدخل ، جعل أمريكا وانجلترا ترسلان قواتهما الى لبنان والاردن دون خشية

ولكن روسيا تستخرج من احداث العراق عبرة أخرى. فقد اندفع الشيوعيون العراقيون تحت تأثير الصين الى المطالبة بالاشتراك فى وزارة عبد الكريم قاسم استعدادا للاستيلاء على الحكم بأكمله ، فكانت النتيجة رد فعل هائل ضدهم فى داخل العراق نفسها وفى البلاد العربية

بوجه عام ، أدى الى تأخير موقفهم هناك سنوات طويلة

واليوم يصف الصينيون موقف روسيا خلال أزمة كوبا بأنه موقف انهزامي . بينما يرى الروس انه موقف مسئول أدى الى انقاذ العـــالم من شـــبح الحرب ، ويسائلون الصين : لماذا اذن ترددون فى طرد الانجليز مثلا من هونج كونج ؟

والملاحظ ان تحليلات الصين كلها لا ترى فى الموقف الا الشرق والغرب . الشيوعية والاستعمار. فهى تهمل تماما وجود القوى الوطنية الثورية الاخرى فى البـلاد المتحررة ، وهذا يقودنا الى نقطة أخرى فى خلاف روسيا والصين : الخلاف حول البلاد المتحررة ، غير المنضمة الى الشرق أو الغرب .

هنا أيضا ، نجد الخلاف حول قضية علاقات الشرق بالغرب ، ينعكس على قضية علاقات الشرق بالبـلاد المتحررة .

فالاتحاد السوفييتى ، وقد قبل مبدأ الوصول الى حلول وسط مع المعسكر المعادى له وهو المعسكرالغربى، وقال ان هناك « بورجوازيين متزنين» فى المعسكر الغربى ذاته ، كان من الطبيعى أن تكون لهم نفس النظرة الهادئة الى قوى أخرى ليست فى المعسكر الغربى ، بل متمردة على المعسكر الغربى ، هى البلاد المتحررة ، الخارجة من نير الاستعمار ، والتى ترفض الانحياز الى هـذا المعسكر أو ذاك ..

لقـد اعترف الاتحاد السوفييتى بهذه البـلاد على مستويات كثيرة ...

اعترف بها فى المجال الواقعى ، سواء بتأييد حركاتها التحررية دون اشتراط أن تكون شيوعية .. او بتقديم المساعدات الاقتصادية غير المشروطة لها ..

ثم اعترف بها على مستوى السياسة الدولية كقوة ذات كيان وذات اثر مادى ومعنوى .. وظهر الاعتراف هذا حين اقترح الروس ـ مثلا ـ أن يكون للأمم المتحدة ثلاثة سكرتيرين بدلا من سكرتير واحد : سكرتير شرقى وسكرتير غربى وسكرتير من الدول غير المنحازة ، وحين اقترحوا ـ فى مؤتمر نزع السلاح ـ تمثيل الدول غير المنحازة لأول مرة جنبا الىجنب مع دولالشرق والغرب وفى النهاية ، اعترف الروس بهذه الدول اعترافا « عقـائديا » نظريا ، وذلك فى برنامج المؤتمر الثانى والعشرين للحزب .

ففي هـذا البيـان ، ترك الروس جانبـا تعبـير « البورجوازية الوطنيـة » التى يعتبرها الشيوعيون « قصيرة العمر نسبيا فى الكفاح السياسى والوطنى » وابتكروا تعبيرا آخر هو « الديمقراطية الوطنيـة » . ووصفوا البلاد ذات النظم « الديمقراطية الوطنية» بأنها تلك التى « تدافع بشدة عن استقلالها الوطنىالسياسى والاقتصادى ، وتكافح ضد التكتلات العسكرية وضد اقامة أى قواعد عسكرية فى أراضيها ، وتكافح تسلل الاستعمار الجديد ، وترفض الاسـاليب الرجعية فى الحكم ، وتبيح لمواطنيها فرصة العمل من أجل الاصلاح الزراعى والتغيير الاجتماعى » .

هذه النظم التى ليست اشتراكية ولا شـيوعية ولا رأسمالية ، فى رأى روسيا ، لابأس أن يساعدها الاتحاد السوفييتى الى أقصى حد مستطاع ، لأنها فى رأيه تجتث نفوذ المعسكر الرأسمالى ، وتتجه الى عدم الانحياز . ثم انالاحزاب الشيوعية فيها ضعيفة جدا ، الأمر الذى يجعل أى وثبة شيوعية فيها الى الحكم مستحيلة وفى رأى الاتحاد السوفييتى ان هـذه البلاد سوف تزداد

تأثرا بالاتحاد السوفييتي ، كلما زادت قوة الاتحاد السوفييتي الاقتصادية ، تطبيقا لنفس الفكرة التي سبق سردها بالنسبة للمعسكر الغربي ذاته .

أما الصين ، فهي لاتوافق على هذا الرأى ، فهي تعتقد أن النظم غير الشيوعية غير قادرة على احداث اي تغيير اجتماعى فى بلادها ، وان مساعدات الاتحاد السوفييتي لهذه النظم ، كمساعدات الغرب تماما ، سوف تؤدى الى تقوية نظم غير شيوعية ، بل وقد تؤدي نهائيا الى تفويت فرصة قيام حكم شيوعي ، ولذلك فالاسلوب السليم فى رأيها هو رفع درجة الضغط على هذه البلاد لوضعها فى الموضع الذى تضطر فئاتها الاجتماعية الى الاختيار فيه بين الشيوعية وبين الرأسمالية .. بين الانحياز للشرق أو الانحياز للغرب.

ونفس الخلاف نجده ـ للمرة الثالثة ـ بصدد موقف الاحزاب الشيوعية الكبيرة فى أوربا ...

فالصين تنتقد هذه الاحزاب وتتهمها بأنها تناضل من أجل أهداف « ديموقراطية » لا من أجل أهداف شيوعية. هذا فى الوقت الذى نجد فيه الحزب الشيوعى الفرنسي ـ مثلا ـ يذهب فى محاولة التفاهم مع الحزب الاشتراكى الفرنسي الى حد انه أعلن هذا الاسبوع انه يعتبر أن تمسك الحزب الاشتراكى بحلف الاطلنطى وبالسوق الاوروبية المشتركة لا يقف عقبة دون تفاهمه مع الحزب الشيوعى ...

هكذا ، نرى أن الصين بوجه عام ترى أن الوقت مناسب للهجوم الشيوعى الشامل فى شتى الجبهات ، فى حين أن روسيا ترى أن الوقت ليس مناسبا لمثل هذا الهجوم ...

ومرجع ذلك أن الصين ترى أن العالم لم يتغير كثيرا ،

فى حين ان روسيا ترى ان العالم قد تغير كثيرا .

ولهذا تتهم روسيا الصين « بالحرفية » اى التمسك بحرفية المبادىء ، فى حين أن الصين تتهم روسيا « بالتحريفية » .. اى تحريف المبادىء الاساسية بما يناسب أهدافها السياسية ..

روسيا متفائلة ، ترى ان التعايش السلمى ممكن ، وانها تستطيع أن تصل الى اتفاقات مع الغرب تمنع الحرب ، وتترك النظم الاجتماعية لامتحان التنافس السلمى .

والصين متشائمة ، ترى ان الوصول الى اتفاقات مع الغرب أمر مستحيل وان الشيوعيين سيعودون يوما الى موقفها وهو : مواصلة القتال فى سبيل نشر الشيوعية ...

الصين تتهم روسيا بانتهاج سياسة « استسلامية » كما قالت جريدة الشعب الصينية منذ أيام .. فى حين أن روسيا تتهم الصين باللعب بالنار .. نار الحرب الذرية !

بين الصين والهند

هل ينهار الحياد بعد هذه الحرب الصغيرة بين الهند والصين ؟

هل تتحول هـذه الحرب المحدودة ، الى حرب غير محدودة بين شعبين تعدادهما الف مليون ، كل منهما فى حاجة الى كل ساعة سلام !

هل تصل الأمور الى أن يصبح شمال الهند « كوريا جديدة» ، مجرد أرض تتحارب فيها العدوتانالنهائيتان : أمريكا والصين ؟

أو هل تكون هذه الأزمة هى « القشة » التى تقصم ظهر البعير ، فتجعل روسيا والصين تقفان ــ علنا ــ فى معسكرين متصارعين ؟

أو ان الأمر لن يكون أكثر من « دمل » جديد من الدمامل الصغيرة فى تلك المنطقة التى تثور آلامها حينا وتهدأ حينا ، مثل لاوس ، وفيتنام ، وكشمير ؟ !

ان هذه المساحات الشاسعة من الاراضى الجبلية ، الثلجية ، والتى يبدو كأنه ليس لها من مغزى سوى أن تكون فاصلا هائلا بين شعبين هائلين : شعب الهند وشعب الصين.. هذه المساحات المتنازع عليها أصبحت تشبه حاجز الموج الذى يفصل بين محيطين ، ويوشك أن ينكسر ، ولو انكسر فليس بعده سوى الطوفان ..

ولعل أول سؤال يجب أن نعثر على اجابة له ، قبل أن نحاول تلمس طريقنا الى القضايا الاخرى الاساسية ، هو :

هل هذا الصراع ـ بالفعل ـ صراع على الحدود .. لايستهدف أكثر من هذه المناطق الجبلية وحدها ؟ أو انه صراع يستهدف غايات اخرى ، سياسية قبل أن تكون جغرافية ؟..

وهنا لابد أن نفرق بين « العمل » السياسى وبين « الفكر » السياسى ..

ففى ميدان « العمل » السياسى ، لابد لنا ـ كدولة تؤمن بالحياد الايجابى ـ أن « نفترض » وأن «نصدق» انها مشكلة حدود فحسب ، وأن نعمل بالتالى على حصرها فى هذا النطاق تمهيدا للوصول الى حل حاسم لها ..

أما فى ميدان «الفكر» السياسى ـ الذى يخدم بدوره العمل السياسى فى مداه الطويل ـ فلا بد أن نطوف بفكرنا ودراستنا كل أرض ، ونحسب حساب كل عنصر من العناصر المؤثرة فى الموقف أو التى سوف تتأثر به ..

هناك اذن احتمالان :

الاحتمال الاول : أن تكون المسألة مسألة نزاع على الحدود لا غير .

والاحتمال الثانى : أن تكون صراعا يستهدف غايات اخرى سياسية قبل أن تكون جغرافية ، وعالمية قبل أن تكون محلية .

الاحتمال الاول ، وهو أن تكون المسألة مسألة حدود فقط ، لا أحب أن نستبعده من حسابنا ببساطة .

فليس من الشاذ ولا من النادر فى تاريخ الدول أن نجد مساحات صغيرة نسبيا من الارض تكون محل صراع

دموى جيلا بعد جيل . وهنالك مثلا مقاطعة الالزاس واللورين التى ظلت المانيا وفرنسا تتحاربان عليهما وتتبادلان ضمها جيلا بعد جيل ، حتى كاد عدد الذين سقطوا قتلى من جرائها يصل الى عدد سكانها ..

وقد كانت المشاكل التى اشعلت كل الحروب فى اوروبا تقريبا مشاكل حدود ، أو كانت تتخذ مشاكل الحدود حجة وذريعة لاشعال الحروب ..

كذلك فان هنالك وهما شائعا هو أن مشكلة الحدود بين الهند والصين مشكلة جديدة طارئة . والواقع انها مشكلة بدأت منذ أكثر من عشر سنوات ، أى منذ اكتمل استقلال كل من الهند والصين . ففي وثائق الحكومة الهندية نفسها نجد أنها أعربت لحكومة الصين عن قلقها بسبب الحالة على الحدود لأول مرة فى أغسطس سنة ١٩٥٠ ، ومن يومها تقريبا والمشكلة قائمة ، تسخن حينا وتبرد حينا آخر ، ولكنها قائمة باستمرار ..

وقد ارتكبت ــ وأنا أستعد لكتابة هذا المقال ــ غلطة كبيرة ، حين حاولت أن أغوص فى وثائق الطرفين ، ونصوص المذكرات المتبادلة بين نهرو وشواين لاي محاولا ان أصل الى تبسيط حقيقة النزاع حول هذه الحدود.. اذ كان جهدى هذا كله عبثا لا طائل وراءه .

فالطرفان يرجعان الى مجموعة كبيرة من الوثائق تتراوح بين معاهدات جدية عقدتها سلطة الحكم الانجليزية فى الهند وسلطة الحكم الامبراطورية البائدة فى الصين ، وبين اتفاقات بين حكام أصغر من حكام ولايات الحدود ، الى خرائط مختلفة طبعتها دور النشر الاوروبية فى عصور شتى ، الى تفاصيل وردت فى دائرة المعارف البريطانية عن هذه المناطق.. الى كتب ومذكرات الرحالة القدماء وأحيانا كنت أصادف أبحاثا عن أصل

أسماء بعض المدن والقرى هناك .. وهل لها اصل فى اللغة الصينية أو فى اللغة الهندية .. الى آخره ؟..

ولو شئنا تلخيص موقف كل من الطرفين - وهو تلخيص لايستبعد كل استثناء - لقلنا ان الهند بوجه عام ترى ابقاء الحال على ما هو عليه ، على أساس أن الحدود القديمة رسمتها الطبيعة والتقاليد والعرف والمعاهدات سواء كانت رسمية أو شبه رسمية .. والصين ترى ان هذه الحدود لم تخطط رسميا قط بين الهند والصين كدولتين مستقلتين .. وان الحدود الحالية مجموعة تلفيقات انجليزية تجمدت فى ظل ظروف شتى يجب الا تستفيد الهند منها الآن ..

وبينما تقول الهند : انها هى التى تحمست لقبول الصين الشيوعية المستقلة فى المجتمع الدولى . وتحمست لتنفي صفة العدوان عنها ، يقول الصينيون : ان الهند استغلت مقاطعة اغلب العالم للصين ، ورغبة الصين فى كسر الثلج حولها ، لكى تحصل من الصين على اعتراف بهذه الحدود .. الأمر الذى لا تقره الصين ..

أقول : كانت عبثا هذه المحاولة للخوض فى الوثائق والمساجلات ، لأنه لو كان الأمر امر وثائق وبيانات فلا بد ان المسألة ستنتهى الى مائدة مفاوضات تستمر سنة أو سنوات ، تنتهى الى قبول تخطيط للحدود بشكل أو بآخر ..

ولكن قضايا الحدود فى عالم اليوم كثيرة جدا ، وهى اما مجمدة فى انتظار الوقت المناسب للتسوية ، واما أن تتم تسويتها بالوسائل السلمية ، وفى بعض الاحيان تقع حوادث مسلحة ولكنها محدودة وفردية ..

أما فى حالة الخلاف بين الهند والصين فالأمر قد تعدى هذا النطاق . الأمر هنا وصل الى حد تحرك

عسكرى ضخم من جانب دولة كبيرة هى الصين ؛ الحق هزيمة عسكرية واضحة بدولة أخرى كبيرة هى الهند..

والآثار العميقة لمثل هذا الحدث لايمكن أن تغيب عن بال قادة دهاة ، توافرت لهم خبرة ســياسية طويلة وعميقة كقادة الصين ..

فهل ياترى كانت حكاية الحدود هــذه من الاهمية عندهم بحيث لم يحفلوا بما يترتب عليها من آثار ؟..

أو انهم قصدوا بحكاية الحدود هذه أن يحققوا هذه الآثار بالذات ، التى لم تكن حكاية الحدود الا وسيلة اليها ..

لنفحص أولا هذه الآثار التى ترتبت على العمل الصينى العسكرى ..

لقد لعبت الصين اللعبة التى تريد أن تحققها ببراعة هائلة ..

استفادت ـ أولا وقبل كل شىء ـ من ان الصين بوجه عام مجتمع مستعد للحرب ، والهند مجتمع غير مستعد للحرب .. فقامت بعملية عســكرية بدت أول الأمر خطيرة وهائلة الى درجة هزت أعصاب الهند والعالم ، ثم أوقفتها فجأة ـ بالتأكيد طبقا لخطة مرســومة من قبل ـ وأعلنت وقف اطلاق النــــار بحيث تظل يدها موضوعة على الجزء الذى أرادت ان تضع يدها عليه ..

وتركت بذلك عبء بدء الهجوم وتجديد القتال على عاتق الهند .. وهى عالمة تماما أن الهند لن تستطيع بالتأكيد أن تبدأ هجوما فى الأجل القريب . أما فى الأجل البعيد ، فلو تحركت الهنــد للقتال فستبدو كأنها هى البادئة بالقتال ..

وحساب الصين ـ على الاغلب ـ مرسوم على أساس أن الهند لن تتقدم الى القتال حتى فى الأجل البعيد ..

واذا بدأت مفاوضات جادة ، فهي أي الصين ستفاوض من مركز قوة ..

وحتى اذا نجحت المفاوضات السلمية فالآثار البعيدة للعمل العسكرى تحققت على أي حال ..

تحقق أن الصين اثبتت لدول آسيا انها القوة العسكرية الاولى فى المنطقة ، وانها هى التى يجب ان تكون مرهوبة الجانب على الدوام ..

وتحقق أنها نفذت ارادتها فيما يتعلق بالحدود الى وقت غير محدود ..

وتحقق أنها « أهانت » دولة كبرى هى الهند ، وجرحت كبرياءها على مرأى ومسمع من العالم أجمع.

وسوف تترك هذه الاهانة اثرا عميقا فى الهند ، بل سوف تغير حياة الهند من الداخل أكثر مما يستطيع أن يغيرها أي انقلاب ..

لقد عاشت الهند حتى الآن حياة دولة لا تؤرق حياتها مشاكل خارجية حادة . الأمر الذى جعلها قادرة على أن تسلك نوعا من الحياد الهادىء نسبيا . مشكلتها الخارجية الحادة الوحيدة كانت مع باكستان . وهي ــ أى الهند ــ على أي حال أكثر عددا وأكبر قوة من باكستان مما يعتبر نوعا من الوقاية الطبيعية لها . وفيما عدا هذا لم يكن هناك أي تحد خارجي حقيقى يسد طريقها . الأمر الذى يعد استثناء فى عالم اليوم . وقد ترك هذا أثره على الحياة الداخلية للهند . فهى لم تضطر الى احداث أي تغيير اجتماعى عنيف. ولم تضطر الى صرف الأموال على اقامة جيش وطنى قوي .. ولم تضطر الى الكثير مما تضطر اليه الدولة الناشئة فى هذا العصر من احساس بالرغبة فى الاسراع الى تصفية المشاكل القديمة بما يصاحب هذا من ضغوط سياسية

واجتماعية عنيفة ..

ولكن صدمة الصين لها جعلت هذا كله يتغير.. الآن شعرت القيادة الهندية بحاجتها القصوى الى تصفية كثير من المشاكل الداخلية المعلقة ، والى الوصول الى درجة من الوحدة الوطنية المعقولة . الآن لابد للهند من اقامة مصانع السلاح ومن شراء السلاح ومن بناء كل الاجهزة التي تضطر دول هذا العصر المضطرب الى بنائها . والآن لابد أن تتأثر برامج التنمية الهندية بهذا كله .

وهذا سوف يجعل حاجة الهند الى الاختيار بين اليمين واليسار ماسة ..

ولكن الغريب فى الأمر ــ وهذا هو الأثر الآخر الخطير ــ هو أن العمل العسكرى الصينى يعطى اليمين فى الهند فرصة لم يكن يحلم بها . فالمعسكر الغربى هو الذى خف الى نجدة الهند ودعاة الاحلاف القدامى يرددون باستمرار أن الصين لم تهاجم أي أرض داخلة فى المعسكر الغربى أوحاصلة على نوع من الضمان الصريح منه مثل هونج كونج أو فورموزا أو باكستان أو حتى ماتسو وكيموى ، ولكنها هاجمت الهند غير المنحازة ..

فاليمين يلوح اليوم للهند بما يبدو انه الحل السهل. ولكنه فى الواقع الحل القصير الأمد ، والقصير النظر.. لأن الرجوع الى اليمين لابد أن ينعكس مع الزمن على كل شيء فى الداخل ومعنى ذلك أن تتجمد الاشكال الاجتماعية القديمة فى الهند وتقوى ، بدلاً من أن يزيلها الجديد شيئا فشيئا . وهذا معناه سلب مجتمع الهند من سلاح التقدم السريع ، الأمر الذى يجعله أكثر ضعفا فى مواجهة التحدى الاجتماعى الخطير الكامن فى دولة الصين ..

لقد اختارت الهند أن تتجه الى الاشتراكية ، واختارت اشتراكية متدرجة تدرجا هادئا بحكم التركيب المعقد للمجتمع الهندى . الأمر الذى جعل اليمين الهندى ما زال قويا عاتيا الى الآن ، ينتهز كل فرصة لرفع شعار تصفية الاشتراكية والعودة الى الراسمالية الاقطاعية القديمة . ولهذا فالهند اليوم ـ فى الداخل ـ تواجه أصعب اختيار صادفها منذ عهد الاستقلال الى الآن ..

اما أن يستولى اليمين على موجة الوطنية الهندية التى حركتها صدمة الصين ، ويستخدمها فى تدعيم مركزه . واما أن يتمكن الاشتراكيون من استخدام هذه الموجة الوطنية استخداما تقدميا فى حل جانب من المتناقضات الداخلية حلا اشتراكيا ، فى نفس الوقت الذى يقف فيه ـ فيما يتعلق بكيان الهند ـ موقفا سليما

ولن يتم هذا الا اذا احتفظت الهند بموقف الحياد الايجابى الذى يضمن نقاء التجربة الاجتماعية الداخلية من المؤثرات التى تدفعها الى الانحراف. وكما استطاعت مصر أن تشترى سلاحها من روسيا وتبقى محايدة ، ففي استطاعة الهند أن تشترى سلاحها من الغرب وتبقى محايدة ..

بل انه فى تاريخ مصر ، انها مرت بأزمة عنيفة مع المعسكر الشرقى أيام أحداث العراق ، ومرت بأزمات أوسع نطاقا وأشد عنفا مع المعسكر الغربى ، ولكنها استطاعت أن تواصل اتجاهها الاشتراكى المستقل فى الداخل ، وموقفها الحيادى الايجابى فى الخارج .

هذه هى المهمة الصعبة التى تواجه نهرو اليوم . وهى بالتأكيد أخطر مهمات حياته السياسية كلها ..

على انه من المستبعد أن تكون الصين قد وضعت فى اعتبارها الاول ، وهى تقدم على عملها العسكرى ، ما

سيحدث من آثار فى سياسة الهند الداخلية ..
اغلب الظن انها فكرت ـ أولا ـ فى وضع الهند الدولى ، وفى آثار هذا العمل العسكرى من الناحية الدولية .
وهنا يرد ذكر خروشوف ..
فلو اننا سألنا انفسنا : من هى الدولة التى وضعها تصرف الصين فى أكثر المواقف حرجا .. لكانت الاجابة حتما : الاتحاد السوفييتى !..

فالاتحاد السوفييتى ـ من جهة ـ هو قائد المعسكر الشيوعى ، الذى ما زال يضم الصين . ومبدأ وحدة الحركة الشيوعية ووحدة الاحزاب الشيوعية مبدأ أساسى من مبادئه منذ قيامه . والاتحاد السوفييتى يعرف أيضا ان اتساع المعسكر الشيوعى وشموله لروسيا وللصين هو سلاح قوى جدا فى مجال الحرب الباردة والصراع الدولى ، ولو حدث أن انقسم المعسكر ـ مرة اخرى ـ بخروج الصين هذه المرة ، فسوف يؤدى هذا الى اضعاف الحركة الشيوعية الدولية الى حد خطير.

ولكن الاتحاد السوفييتى ـ من جهة اخرى ـ جعل من أسس سياسته : الاعتراف بوجود كتلة كبيرة من دول الحياد ، والدول ذات القوميات التقدمية النامية. وسجل الحزب الشيوعى الروسى هذا الواقع فى التقرير النهائى للمؤتمر الثانى والعشرين للحزب . فضلا عن انه يمارس هذه السياسة ممارسة عملية فى صورة تعاون ومساعدات غير مشروطة يقدمها لهذه البلاد التى لا تدخل فى المعسكر الشرقى .
والهند تأتى فى مقدمة البلاد التى لها بالاتحاد السوفييتى هذه العلاقات العميقة ...
ولكن العمل العسكرى الصينى جاء ليضع الاتحاد السوفييتى فى مأزق الاختيار بين وحدة المعسكر الشيوعى

وبين سياسته تجاه الدول المحايدة والمستقلة عن المعسكرات .

ولعل حساب الصين كان يقول : انه اذا اختار خروشوف جانب الصين ، تكون الصين قد نجحت فى ارغام خروشوف على تعديل سياسته وادارة ظهره للعالم غير الشيوعى ، واذا اختار جانب الهند ، فمعنى ذلك انه سيخسر كثيرا داخل الحركة الشيوعية، خصوصا الحركة الشيوعية فى آسيا وافريقيا ، وبذلك تكون الصين اقدر على تسلم قيادة هذه الحركات .

لاشك ان هذا كان من الآثار المحسوبة المتوقعة لدى قادة الصين ، حين قاموا بهذا العمل العسكرى ...

بل ان المؤكد — بالمنطق الشيوعى — ان الصين قد حسبت حساب الأثر المباشر لعملها هذا داخل المعسكر الشيوعى ، وداخل الحركة الشيوعية ، قبل ان تحسب حساب الأثر الذى قد يتركه عملها فى الهند ذاتها ، او فى الموقف الدولى بصفة عامة ..

خصوصا اذا عرفنا ان أزمة الخلاف داخل المعسكر الشيوعى قد وصلت فى الشهور الاخيرة الى ذروة لم تصل اليها قط من قبل ..

ففى خلال الاسبوعين الاخيرين ، انعقدت ثلاثة مؤتمرات للأحزاب الشيوعية .

مؤتمر للحزب الشيوعى المجرى .

ومؤتمر للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ، ومؤتمر للحزب الشيوعى الايطالى ...

وقد اهتمت روسيا بهذه المؤتمرات الثلاثة اهتماما كبيرا ، فأرسلت بريزنيف الى المؤتمر الاول ، وكوزينين الى المؤتمر الثانى ، وكوزلوف الى المؤتمر الثالث وكلهم من الذين يقفون فى الصف الثانى بعد خروشوف مباشرة

فى الاتحاد السوفييتى ..

وفى المؤتمرات الثلاثة تكررت نفس القصة :

مندوب الصين يشن حملة هائلة على تيتو وعلى يوغوسلافيا ، وصل فيها الى اتهام تيتو فى مؤتمر الحزب الشيوعى الايطالى بالخيانة فى الوقت الذى يزور فيه تيتو روسيا ويتباحث مع خروشوف ..

ثم يقف مندوب الاتحاد السوفييتى ومندوبو سائر الاحزاب الشيوعية ــ خصوصا الاوروبية ــ يهاجمون البانيا هجوما قاسيا .

والهجوم على يوغوسلافيا ــ كما هو معروف ــ معناه الهجوم على خروشوف . والهجوم على البانيا معناه الهجوم على الصين ..

بل ان المسألة وصلت فى مؤتمر الحزب الشيوعى الايطالى الى درجة أصرح حيث هاجم تولياتى الصين صراحة وتوالى بعده الهجوم من ممثلى سائر الاحزاب الشيوعية ..

وقد انصب هجومهم على ما سموه « موقف بعض الشيوعيين من سياسة الاتحاد السوفييتى ازاء مشكلة كوبا » و « استخفاف بعض الشيوعيين بخطر الحرب الذرية والهيدروجينية » ..

بل ان التهديد بفصل الصين من المعسكر الشيوعى وقطع العلاقات معها ظهر واضحا لأول مرة ، حين تحدث المندوبون قائلين : « ان الحركة الشيوعية حركة « لينينية » ، لا تقبل وجود المنشقين بين جدرانها .. »

هكذا يمكن القول بأن الخلاف الكبير داخل المعسكر الشيوعى أصبح قضية من اكبر قضايا هذه المرحلة من حياة العالم . وعلى هذا الخلاف وطريقة حسمه يتوقف الكثير جدا من قضايا العالم .. عالمنا المعاصر .

مذكرات مدرسة في خدمة ستالين

في سنة ١٩٣٠ ، تزوجت كاترين ليهمان ، طالبة الآداب الباريسية ، من المهندس السويسرى بيير فيجور. وبعد سنوات قليلة سافرت مع زوجها الى روسيا ، حيث تعاقد مع الحكومة السوفييتية للعمل فى أحد مصانعها فى ليننجراد لمدة عشر سنوات ..

وقد استطاعت ، بجمالها ودماثة خلقها ، أن تجمع حولها دائرة كبيرة من الاصدقاء ، حتى قتل زوجها سنة ١٩٣٧ فى حادث بالمصنع وأسرع أصدقاؤها لمساعدتها ، فحصلوا لها على وظيفة مدرسة فى مدرسة خاصة لأطفال كبار الموظفين وزعماء الحزب ..

ونجحت فى عملها الجديد نجاحا باهرا . وكانوا يسمونها الفرنسية الحسناء . حتى كان ذات يوم اذ استدعيت للذهاب الى موسكو، دون أن تعلم السبب.. وهى تقص بعد ذلك ، قصتها الشائقة :

من خلف النوافذ المزدوجة للسيارة المصفحة ، بدأت أتبين مدينة كأنها فى عالم آخر . ولم أكن قد عرفت من روسيا غير ليننجراد وضواحيها . ولم يسمح عقد استخدام زوجى فى خلال الثلاث سنوات التى قضيناها بأكثر من شهرين اجازة ، أمضيناها فى باريس . وكثيرا ماكنا نحلم ، قبل وفاته ، برحلات طويلة. وكم قال لى :

ــ سأجعلك تزورين موسكو ، وســواحل القرم ، وجبال القوقاز !

ولكن الاقدار جرت بغير ما نحب . وقد عادت الى خاطرى تلك الهواجس المؤلمة ، حين قال لى السائق ، اننا نغادر موسكو .

وبدأت السيارة تسير فى طريق مستقيم متسع .. وعلى جانبيه تتتابع «فيللات» منخفضة ، لونها أخضر وأبيض ، وأحيانا أحمر ، وابتسمت لهذه « الاكواخ » كأنها أصدقاء قدامى اذ شعرت بالتحرر من تلك العمارات الضخمة ، بمنظرها الصارم ، فى ليننجراد ، التى ظلت تحدد أفقى أربع سنوات متتاليات . وكانت الشرفات المصنوعة من الخشب المزخرف ، الفــارقة فى زهور «البانسية» ، و«الجرانيوم» وأســوار البيوت المصنوعة من فروع الشجر . كانت كلها تبعث فى شعورا بالحياة. وحين اندفعت الســيارة بعــد ذلك فى طريقهــا الى «مواجايسك» حيث كنت سأسكن بدأت أغنى من حيث لا أشعر « كلمنى عن الحب ! » .

وبعد دقائق عدت الى واقعى حين وقفت السيارة . وأمام الباب ، كان الرفيق بوسكروبيشف ، السكرتير الخاص لستالين، الذى صحبنى فيما قبل الى موسكو.

وقال لى : هذه هى فيللا « جورينكا » . اذن فهذا السقف الخشبى ، وهذا الاسم هو اسم القرية التى ولد فيها ستالين كما تعلمين . أرجو لك طيب الاقامة . وآمل أن تكونى سعيدة ..

وفى نهاية الحديقة ، وقعت عيناى على فيللا من ثلاثة أدوار ، خضراء اللون ، تتسلق الزهور جدرانها من هنا وهناك . وشعرت بأن هذا البيت سيكون له دور فى حياتى . فقد أفهمونى اننى لن أستطيع مبارحته

كثيرا . اذن فهذا السقف الخشبي ، وهذه الحديقة المهملة تقريبـــا ، سيكونان عالمي لمدة طويلة . ولحظ بوسكروبيشف ـ وكان يسير بجواري ـ خيبة الامل التي ارتسمت على وجهي ، فقال لي بابتسامة :

ـ ان الحياة في جورينكا ستعجبك جدا . كانت هذه الحديقة فيما مضى أكبر من ذلك بكثير ، ومنظمة على الطريقة الفرنسية . ولكن ستالين اقتطع منها جزءا كبيرا وقدمه هدايا الى بعض أصدقائه. وبيتي انا موجود في هذا الاتجاه في خلف الاشجار. وبجواري بيت رئيس بوليس موسكو السابق وأولاده السبعة عشر !..

و « بوسكروبيشف » يبتسم دائما ، وهو يرد الى الخلف خصلة شعره الشقراء المتهدلة على جبينه. ولم أسمعه أكثر من ذلك ، فقد وصلنا الى باب الفيللا . وبدأت اتفحص ما حولي ، وأنا أتوقع ان أرى في أي لحظة الطفلين اللذين سأقوم على تعليمهما . وفتحت لنا الباب سيدة عجوز جدا ، تلبس ثوبا طويلا ، وتضع على كتفيها شالا من القطن الاسود ..

وقال لي بوسكروبيشف :

ـ أقدم اليك رافايلوفنا .. مديرة جورينكا . اننا نسميها كاجوشي .

ثم أضاف بالفرنسية، وبلكنةجورجية ، وهو يبتسم :

ـ انها أقوى شخصية في روســيا كلها ، فستالين نفسه يخضع لأوامرها !..

وقالت رافايلوفنـــا انها ســـتقودني الى حجرتي ، وصعدت خلفها السلم . كانت الساعة التاسعة صباحا ، وكان في نفسي شعور بأن الجميع ما زالوا نائمين . فقد كانت الابواب كلها مغلقة . وفي الطابق الثاني ، فتحت رافايلوفنا بابا ، وقالت لي :

ــ حجرتك .. سأبعث اليك بحقائبك . أيمكنك أن تكونى مستعدة فى الظهر ؟

وكان سؤالها كأنه الأمر . ولم تنتظر اجابتى وانصرفت، وهى تسير بلا أي صوت على البساط الكثيف الذى يغطى الممر . وأغلقت على حجرتى وكانت الشمس تتسرب من خلال النافذة . كانت الارض مغطاة بأبسطة سميكة جدا . وكذلك الحائط ، والسرير أيضا . والقيت نفسى على السرير مؤجلة أختبار الغرفة الى ما بعد . وكانت تزدحم فى ذهنى حوادث ثلاثة أيام متتالية . ولكننى نمت .

وكانت هذه المغامرة قد بدأت ، بزيارة مفاجئة قام بها ضابط كبير يرتدى معطفا رماديا . جاءنى فى شقتى التى كنت أسكنها فى ليننجراد بعد وفاة زوجى ، فى الطابق الثامن من عمارة سكرتيرية الحزب . وقد ساورنى الرعب حين رأيته . فقبل ذلك منذ ثلاثة شهور طرد مهندس فرنسى من البلاد فى خلال ثلاث ساعات ، مع زوجته وولديه ، ولم يحملوا معهم غير حقيبتين فقط . ولم يعرف أحد قط السبب فى طرد هذه العائلة . وكنت فى ذلك الوقت أسكن مع زوجى فيللا جميلة فى الضواحى، ثم أمرنا بتركها . ليحل محلنا مهندس بلجيكى جاء مع اسرة مكونة من احد عشر شخصا !..

توقعت اذن أن يكون هذا الضابط قد جاءنى لشىء من ذلك . سألنى أولا : هل اتكلم الروســـية ؟ ثم استأذننى فى القاء بعض الاسئلة ، وأخرج من جيبه قائمة غريبة .. لماذا حضرت الى روسيا ؟ هل خطك حسن؟ ما وزنك ؟ هل انت صبورة على العمـــل ؟ هل قرأت « رأس المال ؟ » ..

وبدا لى الأمر مضحكا ولكن عجبى تضاعف حين طلب

منى الضابط أن اغنى أغنية « فى ضوء القمر »
au clair de la lune فبدات اغنيها وانا أضحك .

ودامت المقابلة ساعة . ولم أسأل الضابط عن سبب الاسئلة الغريبة . واستأذن فى الانصراف وهو يقول لى :

ــ ان الرقة التى اجبت بها على اسئلتى جديرة بالثقة

وبقيت أفكر فى الأمر حتى الفجر . وفى اليوم التالى لم احدث احدا قط بنبأ تلك الزيارة . وكنت اعطى تلاميذ فصلى فى ذلك اليوم قصة لموباسان عن الحرب السبعينية ، تدور حول طفلين باريسيين، فى أثناء حصار باريس ، يحاولان عبثا اختراق خطوط الالمان . وكانت الصحف فى ذلك الوقت طافحة بأنباء الخلاف مع المانيا. فلما انتهيت من الحصة ، فوجئت بالاطفال ينشدون « المارسلييز » بدلا من نشيد « الانترناسيونال » ، مجاملة لى . واقتربت منى صديقتى ماريا ابرانوفتشى، مدرسة التاريخ بالمدرسة ، وقالت لى :

ــ ياعزيزتى كاتى ، انك ستخلقين لنفسك المتاعب !

وكانت ماريا فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، أجمل امرأة لقيتها فى حياتى ، وكانت تدرس التاريخ وتشرف على التوجيه السياسى والفكرى فى المدرسة عامة بناء على تعليمات الحزب . كذلك كانت تقوم أيضا بمهمة الرقيبة . فكل الكتب التى كانت تصلنى من الخارج لابد أن تمر بها وتفتحها . وقد عرفت فيما بعد أن بعض أصدقائى أرسلوا لى كتبا لأندريه جيد ، ومؤلفات فى التاريخ المعاصر لبانفيل ، ولكنها لم تصلنى قط ! وكذلك كانت تراقب بريد كل المدرسين رجالا ونساء . ولما كان كل أطفالنا من أبناء كبار رجال الدولة فقد كانت الرقابة علينا تباشر بعناية أكثر .

وفى اليوم التالى استدعيت الى مكتب المدير الذى

قال لى ان هناك أمرا بسفرى الى موسكو وقال لى ان ماريا ستصحبنى .

وركبنا فى الصباح اكسبريس موسكو ، الذى قطع المسافة فى ثمان وعشرين ســاعة . وفى خلال الرحلة تعرضت لتجربة مؤثرة . سألت ماريا :

ـ ماريا . . انت تعلمين سبب استدعائى الى موسكو؟

ـ نعم . .

ـ الا تقولين لى ؟ . . اننى أعز صديقاتك . . الا تثقين فى ؟ . .

ـ كلا ! . .

وطيلة الرحلة رفضت ان تعطينى اية معلومات . وفى ذلك الوقت لم تكن هناك عربات نوم فى ذلك القطار ، فنمت طوال الليل مستندة الى كتفها . وفى الصباح ، على رصيف محطة موسكو ، قابلنا فتى أشقر طويل ، انه سكرتير ستالين ، وقدمتنى اليه ماريا قائلة :

ـ هذه كاتى . . المدرسة الجديدة !

وقال لى بوسكروبيشف :

ـ لقد طلب منى الرفيق ستالين ان أبحث عن احسن مدرســة فرنسية فى روسيا . وبمساعدة قومسيارية التعليم ، عثرت عليك . .

وركبنا عربته الطويلة السوداء . وجلست بينه وبين ماريا . .

كان الوقت ليلا ، ولكن الجو ما زال جميلا . وعبرت العربة الميدان الاحمر وقال لى بوسكروبيشف :

ـ ان لستالين ابنا اسمه فاسيلى فى السادسة عشرة ، وبنتا اسمها سفيتلانا فى الثانية عشرة . هما تلميذان مجتهدان . وانت معينة لتعليمهما بأجر قدره ٤٠٠ . . روبل شهريا . وستقيمين فى موجايسك ، حيث تسكن

الأسرة . وهناك معلمة أخرى روسية . ولكن لا شأن لك بها . وفى استطاعتك الاعتذار عن هذه الوظيفة. وفى هذه الحالة عليك مغادرة روسيا مباشرة دون المرور على لينينجراد . والعقد لمدة سنة تتجدد بالاتفاق ..

ثم أضاف باسما ، فى فرنسية ركيكة :

ــ ولكن يا«مدموازيل» اننىأسكنأيضا فىموجايسك. وسأكون فى خدمتك .

وبعد ساعة ، وقعت العقد فى مكتب القوميسارية . وعانقت ماريا ، ثم ركبت السيارة المصفحة التى كانت فى انتظارى . ووضع أحد الجنود حقائبى فى السيارة . وبعد ساعة ، كنت أنام ، تحت سقف سيد روسيا !

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف سمعت طرقا على باب حجرتى . ونهضت فغسلت وجهى وفتحت النافذة المطلة على الحديقة . ولبست « بلوزة » بيضاء من باريس ، بلا نقوش ، وجونلة زرقاء . ووضعت خاتما . وترددت فى وضع « الروج » على شفتى . وسمعت طرقا على بابى مرة ثانيـة . ودقت الساعة الثانية عشرة . وفتحت الباب ، واستأذننى رجل فى أن أتبعه .

كان البيت مازال هادئا ساكنا كما كان فى الصباح . ولاحظت أن الاثاث قليل . وفى الصالون رأيت امرأة سمراء برونزية اللون . وجذبتنى عينـاها .. كانتا سوداوين ، تظللهما أهداب لامعة طويلة ، ذكرتنى بعينى ماريا . وكان شعرها يتهدل على كتفيها . وقد قدرت لها ٣٥ عاما ، ولكنها كانت فى الواقع فىالرابعة والاربعين وابتسمت لى وقالت بالفرنسية :

ــ اجلسى ياسيدتى . اننى سعيدة بمعرفتك ، وآمل أن يحبك فاسيلى وسفتلانا . اننى لست أمهما ، ولكننى

احبهما كما لو كنت .

وقدمت لى سيجارة . واستطردت تقول :

ـ ان الاولاد فى « ثرشى » وهى مزرعة نموذجية على بعد ١٢٠ كيلومترا من موسكو . سيكونان هنا بعد غد. فهناك وقت لكى تتعودى على المكان .

وفى المساء ، ارسلت الى حجرتى باقة كبيرة من الزهور. وهكذا لقيت لأول مرة «روزا كاجانوفتش» ولم تحدثنى قط عن ستالين ، زوجها ، ولا عن لازار كاجانوفتش ، نائب رئيس قوميسارية الشعب سابقا ، أخيها . وقد رآها ستالين أول مرة سنة ١٩٣١ ، وكان متزوجا من ناديا اليليفنا . وبعد سنة ماتت زوجته . فتزوج روزا

وقضيت اليوم التالى بين الحديقة والمكتبة الصغيرة ، وقد اكتشفت فيها نسخة من قصة «الحرب والسلام» ، لتولستوى وعلى هوامشها ملاحظات بخط ستالين .. خط كبير ولكنه منظم واضح . وكانت الملاحظات تحمل معنى التحامل على تمجيد الابطال. ولاحظت تكرار جملة « خطأ اشتراكيا » وقد عرفت فيما بعد أن ستالين يملك فى الكرملين مكتبة هائلة وانه اذا حضر الى جورنكا لبضعة أيام أحضر معه كتابين أو ثلاثة .

وفى صباح اليوم التالى ، حوالى الساعة الثامنة ، قمت وخلعت قميصى واذا بى أفاجأ بالباب يفتح وأنا على هذه الحال . ورأيت ـ وأنا ذاهلة من المفاجأة ـ فتى أسمر الشعر ، أزرق العينين ، يتأملنى ضاحكا ! كان يلبس قميصا أخضر ، وبنطلونا من الفانلة الرمادية. واسرعت أستر نفسى بالروب . والفتى يتأملنى ضاحكا كأنه لا يجد غرابة فى ذلك . وخلف كتفه ، لمحت فتاة صغيرة تتطلع الى ، مهوشة الشعر .

وقلت فى لهجة حاولت أن تكون مؤدبة : ماذا تريدان؟

فقال الفتى وهو يشد قامته : انا فاسيلى ستالين . معذرة أيتها الرفيقة على ازعاجك .

وسمعت الفتاة تقول فى صوت نحيف :

ـ وانا سفتلانا ستالين ، أيتها الرفيقة المعذرة ..

وفى ضحك برىء ، دخل الطفلان حجرتى وبدءا يعبثان فى حقائبى ، وثيابى ، وهما يطرحان على شتى الاسئلة : ما عمرى ؟ هل أعرف مدموازيل ديجيلات ؟ ومسيو ديجيلات ؟ ومدموازيل لابرانش ؟..

كانا يسألاننى عن كل الفرنسيين الذين راوهما .. وبدات بدورى القى الاسئلة. كانا يحملان أطيب الذكرى لكل مدرسيهم السابقين . ثم صحبتهما الى حجرتهما. وهما يشغلان حجرة عظيمة الاتساع ، يقسمها حاجز خشبى كبير الى قسمين . وعلى الحائط صورتان كبيرتان : صورة لستالين، وصورة لسيدة رائعة الجمال

ـ انها أمى !

قالتها لى سفتلانا وهى تنظر الى بعينيها الصغيرتين البندقيتين .

وقد لمست أن سفتلانا على جانب نادر من الذكاء . فبينما كان أخوها يتلعثم فى كلمات فرنسية ، كانت هى تنطق جملا كاملة بديعة التركيب ، قالت لى انها تعلمتها من العم تشيتشرين . وهو دبلوماسى روسى كان يزور الفيللا كثيرا .

وبدأنا الدرس الاول فى نفس اليوم. وكان على فاسيلى أن ينسحب ليحضر درسا عسكريا، فنزلت أنا وسفتلانا الحديقة . وأخذت تعرض على كلابها الصغيرة . وفى المساء عرفتنى بأهل الفيللا جميعا . وبالرغم من انها تتكون من ١٣ حجرة ، فان التى تقوم عليها سيدة عجيبة . رأيت طباخة من جورجيا عمرها ٧٠ سنة .

ورأيت أيضا خادمين من جورجيا . والطابق الثانى من الفيللا يغلق طوال الشتاء . فاذا جاء ستالين الى الفيللا ، حضرت خادمتان أخريان من الكرملين . وفى خلال الصيف الذى قضيته فى جورينكا ، كان ستالين يقيم استقبالا لضيوفه مرة كل أسبوع . ففى صباح يوم الجمعة قالت لى سفتلانا :

ـ ان بابا آت غدا !

ولم أستطع ان أسأل الفتاة الصغيرة عن ستالين ، الرئيس الاعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الروسية . كنت أشعر شعورا غريبا نحو « بابا » هذه التى تنطقها سفتلانا ببساطة وهى تضحك . وفى الحقيقة اننى لم أعد أخشى من مقابلة والد هذين الطفلين . وقالت لى :

ـ انه سيحضر معه بيتر ..

وهو الكلب الذى يقتنيه ستالين فى الكرملين ..

وقد جاءوا فى اليوم التالى بعد الظهر . وجرى الاطفال لاستقبال القادمين . وكنت فى حجرتى ، ولأول مرة سمعت الموسيقى تصدح فى الطابق الاسفل . ثم صعد فاسيلى وقال لى :

ـ لقد جاء الضيوف . ان روزا تسألك أن تنزلى .

وعند باب الصالون ، قابلتنى روزا وأخذتنى من ذراعى . وتحت الثريا المضيئة ، كان رجال ونساء يرقصون ، والى يمين القاعة ، كان جراموفون كبير يطلق أنغام الفالس . وصف من زجاجات الخمر ـ كلها من تفليس ـ كانت مصفوفة على مائدة . وكان فاسيلى فى ثياب عسكرية ، يراقص فتاة صغيرة شقراء . ولما رآنى أشار الى بيده . ولكن الضجة ودخان السجاير جعلانى أكاد أشعر بصداع . ثم انتهت الفالس . وصاحت الفتيات الصغيرات يطلبن عزفها ثانية . فتقدم رجل

من الجراموفون، وادار اسطوانة وقال : هذه «ماريسكيا» كان هذا الرجل .. ستالين ! وقد أذهلتني المفاجأة. وسقطت عني كل الصور التى كنت ارسمها فى مخيلتى لستالين . كان ستالين يبدو أصغر منى سنا . وهو يلبس بذلة عسكرية لجندي ، بلا وشي ولا زخرفة . وكانت رأسه غير عادية ، كبيرة ، كأنها وضعت خطأ على جسم صغير . وذكرتني عيناه بعيني سفتلانا . وكان شاربه ضخما كثيفا جدا . وضع الاسطوانات بحرص على القرص وادار المفتاح . والقى أذنه فترة يستمع ، كأنه موسيقي مدرب ، ثم أمسك كأسا من الخمر وشربها فى جرعة واحدة .

انني ما زلت اذكر هذا اليوم بدقائقه . وقد رآنى ستالين واقفة عند الباب ، فبدت عليه دهشة . واضطربت قليلا وانا لا ادرى ماذا أصنع أو أقول . وقالت له روزا من انا ، فكف عن التحديق فى ، ولكنه فى نهاية السهرة قال لى وهو يمر بجانبى :

ـ مدموازيل ..

وقد قالت لى زوجته بعد ذلك ان هذه هى الكلمة الفرنسية الوحيدة التى يعرفها . وهو يعرف أيضا بضع كلمات ألمانية .. ولا يتقن بعد ذلك غير الروسية ..

وقد تحدثت معه بعد ذلك ، بالروسية ، مرات كثيرة. وكان حديثى الاول معه عن ابنه فاسيلى ، وكان يسبب له متاعب كثيرة . نادانى يوما لمقابلته فى الصالون المهجور وقال لى :

ـ ان زوجتى ، ياكاترينا ، وضعت ابنى الاول فى سنة ١٩٠٣ ، وانا فى وسط روسيا ، اسمه ياشا ، وهو ولد شرير ..

وقد استعمل فى وصفه تعبيرا قاسيا جدا . وفى خلال

السنة التي قضيتها في الفيللا ، لم يأت هذا الابن غير مرة واحدة . وقد أتم دراسته في مدرسة الفنون والصنائع . وقد رحل بعد ذلك الى القوقاز ليمارس رياضة الجبال وهذه هي القصة الرسمية عنه ، ولكن اشاعات كثيرة تدور حوله .. !

وقال لي ستالين انه لا يحب الدراسة النظرية المجردة كثيرا :

ــ ان ابني فاسيلي يحب المزرعة « النموذجية » وهذا حسن .

وقدم لي سيجارة من ماركة خاصة لها فم من الكرتون ، منقوش عليه نجمة حمراء . وهو يدخن اربعين سيجارة يوميا . وقد قال لي طبيبه الخاص ، أنه ، وهو مريض ينتحر بهذه الكمية الضخمة التي يدخنها . « وقبل أن أغادر الفيللا كان قد قللها الى عشرين سيجارة فقط » .

قال لي يوما :

ــ منذ أن كنت في الخامسة عشرة اي منذ أن تركت الدير ، لم اتلق درسا واحدا على أي استاذ . انما قرأت الكتب فقط . فما أطلبه منك هو تخفيف منهج الدراسة . لا اريد الاسراف في الكلاسيكيات . لا كورنيل ولا شكسبير . انك تقولين ان سفتلانا خارقة الذكاء .. حسنا علميها كيف تطهي الطعام !

وكان يضحك مسرورا وهو يتكلم وينظر الى في ود ، ويؤكد لي انه مسرور مني كثيرا ، وحين هم بالانصراف ، تأخر وجعلني أتقدمه في الخروج من الباب . كانت هذه المرة الاولى التي رأيته فيها يتأخر خلف امرأة . وقد بقيت أعتقد انه يرى ان دور المرأة الرئيسي هو قيامها على البيت . وأعلم ان زوجته الاولى ، ناديا ، أم الطفلين رفضت ذلك . وقد كانت تعمل في أحد المراكز

الزراعية ، ولكن ستالين لم يكن راضيا أبدا ، فى اعماقه عن هذا الاستقلال . وكان هذا سبب عدم توافقهما .

وكانت سفتلانا ، على صغر سنها لها آمال واسعة. كانت تريد ان تكون عالمة فى الكيمياء . واستطاعت ان تجعل روزا تنشىء لها معملا صغيرا حيث كانت تقوم بتجارب عجيبة .

وذات يوم ، سمعنا صوت انفجار هائل فى البيت ، فقد انفجر المعمل ، وخرجت الفتاة مصفرة الوجه . ومن يومها لم نسمعها تتحدث عن الكيمياء أبدا .

ومن طموحها ، انها قدمت ذات يوم طلبـــا لمقابلة ستالين فى مكتبه فى الكرملين بصفتها رئيسة للفتيـات الشيوعيات فى موجايسك واخذ الطلب طريقه الرسمى. وبعد سبعة شهور ، حدد موعد للمقابلة ، وصحبتها حتى باب مكتب ستالين ، الذى رايته واقفا خلف مكتب طويل . وعند نهايته من طرفيه ، مدفأة من الخزف الابيض ، والبســـاط المفروش رمادى والاثاث فاتح اللون ، ورأيت على الحائط صورتين للينين .

وكان الزمن المحدد لمقابلة سفتلانا عشر دقائق « بدلا من خمسة » . ووقفت تقرأ على أبيها تقريرا أنصت ستالين اليه ، ساكنا لايتحرك ، وعيناه مثبتتان عليها فى انتباه عظيم . ثم سألها فى بعض النقط والتفاصيل، وأكد لها ان كل شىء سيجاب . وقال لى الحارس الذى كان يقف بجانبى ان هذه كانت المقابلة التاسعة عشرة فى ذلك اليوم .

وفى الفيللا ، لم تتحدث ســفتلانا أبدا عن هــذه المقابلة الرسمية . وحين تكلم فاسيلى فى الموضوع على المائدة تلقى تحذيرا قاسيا ، وبعد ثلاثة أشهر ، انبـه والده علي ذلك مرة ثانية .

ولاشك ان سفتلانا ورثت عن ابيها ذاكرة قوية . فقد ذكرت لي يوما تاريخ قدومي الى الفيللا بالضبط ، وكنت انا قد نسيته . كذلك ورثت عنه مقاومة عصبية قوية . فلم أر ستالين في الفيللا ينام قبل الساعة الثانية صباحا ويستيقظ حوالى العاشرة صباحا ، ثم يحلق ذقنه في بطء .

وقد سألني يوما أن اترجم له من جريدة « الطان » الفرنسية بينما كان يحلق ذقنه ، ولاحظت يومها ان له ذراعا أقصر من الثانية قليلا .

وقد أصبح طبيبه الخاص اعز أصدقائي في الفيللا. فقد تلقى دراسته في باريس ، وكان يطيب له أن يشرب معي قهوة فرنسية كالتي كان يشربها في الحي اللاتيني. وشكا لي يوما من عدم استماع ستالين الى نصائحه :

ـ انه مريض ، ولن يتعدى الستين اذا ظل يشرب ويدخن هكذا .

وكان فاسيلي يسميه العفريت ، ويضحك ستالين كثيرا حين يسمع هذه التسمية . وذات يوم سقط الطبيب مغشيا عليه من نوبة قلبية ، ولم يفق الا بعد جهد . وقد تأثر ستالين جدا . وكان هذا تحذيرا له . ففي اليوم التالي قلل من الشراب والسجاير .

ولما بارحت الفيللا بعد ذلك بشهرين مسافرة الى فرنسا لرؤية أمي التي مرضت ، اصطحبني فاسيلي وسفتلانا حتى موسكو . وعند الحدود تلقيت برقية من روزا ، ولما وصلت الى باريس كانت أمي بدأت تخطو الى الشفاء .

فجأة فى الصيف الماضى

هذه الرواية .. رايتها .. وقراتها .. ثم حاولت ان انساها ، ان اتخلص منها ، ولكننى لم استطع !

انها رواية « فجاة ، فى الصيف الماضى » للكاتب الامريكى المسرحى تنيس ويليامز .. الذى رايتم له ولا شك « عربة اللذة » و « قطة فوق سقف من صفيح ساخن » وغيرهما .

رايتها رواية على شاشة السينما فى باريس منذ شهور .. وكان ابطالها اليزابيث تايلور وكاترين هيبورن ومونتجمرى كليفت .. كانت الصحف تتحدث عنها ، وكانت تعرض فى ثلاث دور للسينما فى نفس الوقت .. كان الجميع يدخلونها ولكنهم يخرجون منها بآراء متباينة

.. بعض الناس تركوها بعد دقائق .. وبعض الناس ظلوا يحدقون فيها وقد امسكوا بمقاعدهم .. كأنهم قد تجمدوا من الرعب ! وبعض الناس تقلصت أمعاؤهم .. أما أنا .. فقد أفسدت على بقية أيامى فى باريس .. اذ ظلت طيورها السوداء تطاردنى .. وتنقض على .. حتى وانا أسير فى زحام الشانزيليزيه .. أو سان ميشيل

وعندما عدت الى القاهرة ، بحثت عن النص الاصلى للمسرحية حتى وجدته .. واخذت اقرأه ..

ومرة أخرى عاد الحاحها على .. ومطاردتها لى ..

وعنــدما قررت أن أتخلص من الحاحها هـــذا .. بتقديمها الى القراء .. ترددت أمامها طويلا ..

هل أراد المؤلف حقا ما فهمته منها ، ان المؤلف شديد التعقيد .. بالغ الغرابة .. وكل شخصياته غريبة !

ثم ما هو المهم فى الواقع : مايريده المؤلف فعلا . أم ما يفهمه القارىء ؟ .. لاشك ان ما يفهمه القارىء هو الأهم !

ولكن القراء كثيرون .. وكل واحد يفهم شيئا لأننا عادة نرى فى الاشياء ما نحب أن نراه أو ما يجعلنـــا بتفكيرنا الخاص نراه ، دون سواه ! ..

وأنا شخصيا أرى فى كل شىء مغزى اجتماعيا ..

ولكن .. لعله من الاحسن الا أفسد عليكم المسرحية .. وأن أؤجل التعليق الى أن ينزل الستار !

ان الذى نراه علي المسرح هو غرفة صالون ، لها شرفة تطل على حديقة غريبة .. فيها نباتات وطيور مستحضرة من مختلف أنحاء الارض ..

وأول من يدخل المسرح « مسز فينابل » سيدة فى الستين من عمرها تقريبا .. تدخــل من الشرفة الى الحديقة .. ومعها شاب وسيم جدا .. أنيق جدا .. هو الدكتور كوكروفيتز ..

مسز فينابل : هذه هى حديقة « سباستيان » أن كل زهرة قد كتب عليها اسمها باللاتينى .. بعضــها زهور نادرة .. من مناطق بعيدة ، تحتاج الى عناية فائقة .. آه لا أستطيع أن اثابر علي هذا المجهود فى العناية بها .. والآن، مارأيك فىحديقة ابنى سباستيان؟

الدكتور : انها أشبه بغابة مرسومة بعناية .

مسز فينابل : تماما .. هــذا هو ماقصده ابنى بالضبط .. انه لم يكن يترك شيئا للصدفة أبدا . كل

شيء كان مرسوما بعناية .. فى حياته أو فى عمله ..

الدكتور : وبالمناسبة .. ماذا كان ابنك يعمل فضلا عن هذه الحديقة طبعا ؟..

مسز فينابل : ما اكثر ما اسمع هذا السؤال ! هل تصدق انه مازال يضايقنى كلما سمعته ؟.. اليس مزعجا ان يظل الشاعر سباستيان مجهولا حتى الآن .. الا من امه وعدد قليل من أصدقائه ؟..

الدكتور : أوه !

مسز فينابل : كانت مهمته الاساسية هى حياته ! لقدكان سباستيان شاعرا.. ومن رايى انحياة الشاعر هى عمله كما ان عمل الشاعر هو حياته .. لاينفصلان ابدا . ان عمل التاجر مثلا ، أو المحامى أو الطبيب يمكن أن يكون منفصلا عن حياته .. أما الشاعر ، فان حياته وعمله لاينفصلان .. وتلهث السيدة .. ويبدو كأنها مصابة بالدوار .. فيمد الطبيب يده اليها لتستند اليه ويسألها : مسز فينابل ، هل وافقك طبيبك الخاص على هذا الذى تنوين عمله ؟

مسز فينابل : لقد انتظرت هذا اللقاء منذ شهور ، لم اكن قادرة على أن أذهب وأقابلها فى مصحة سانت مارى .. فبذلت مجهودا كبيرا كى أجعلهم يحضرون الى هنا ! انتى لن أنهار .. هى التى ستنهار .. ستنهار اكاذيبها .. أمام حقائقى !

وتسير السيدة ، مستندة الىذراع الطبيب ، صاعدة الى الشرفة المطلة على الحديقة ، ثم تتهاوى على احد المقاعد .. وتستمر قائلة :

ــ لقد كرست ما تبقى من حياتى للدفاع عن سمعة ابنى الذى مات ! ان سباستيان ليس مشهورا كشاعر، انه لم يكن يريد الشهرة .. كان يرفضها ، كان يفزع

من القيم الزائفة التى تجلبها الشهرة واستغلال الاسماء الشهيرة ..

كان يقول لى دائما : « أمى فيوليت .. انك ستعيشين بعدى ! »

الدكتور : ولكن ... ما الذى جعله يظن ذلك ؟

مسز فينابل : الشعراء عادة «مكشوف عنهم الحجاب» وقد كان ابنى مريضا بالقلب منذ صغره .. كان لايستطيع أن يركب الخيل أو يسبح مثلا .. كان يقول لى : «بعد أن أموت .. سيكون عملى كله بين يديك .. فاصنعى به ماتشائين» كان يريد أن تجيئه الشهرة بعد وفاته حين لايزعجه مجيئها .. هل فهمت منى ؟ والآن .. اليك اشعار ابنى ..

وتقدم له دفترا صغيرا مجلدا تجليدا فاخرا .. عليه عنوان « قصيدة الصيف » .. وتقدم له الدفتر وهى تنظر اليه .. كأنها تحمل كتابا مقدسا ..

الدكتور : قصيدة الصيف ؟

الأم : نعم .. وعليها تاريخ هـذا الصيف .. ان عندى ٢٥ قصيدة من هذا النوع .. كان يكتب قصيدة واحدة كل سنة .. ثم يطبع منها نسخة واحدة .. على مطبعة يد قديمة من القرن الثامن عشر ..

الدكتور : قصيدة واحدة فى السنة ؟ !

الأم : نعم .. فى الصيف .. حين نسافر سويا .. أما التسعة شهور الباقية من السنة فهى مجرد تحضير للقصيدة .. تسعة شهور مدة الحمل .

الدكتور : أكانت كتابتها صعبة الى هذا الحد ؟ ..

الأم : نعم .. رغم انه كان معى .. اما بدونى فكان مستحيلا عليه أن يكتب .. كما حدث له فى العام الماضى

الدكتور : الصيف الماضى ... الذى مات فيه ؟

الأم : نعم ... بدونى مات فى الصيف الماضى .

ومرة أخرى تبدو كأنها تعانى من دوار عنيف .. فان الذكريات تمزقها .. ثم تستطرد :

الأم : فى ذات صيف بعيد .. طلب ابنى سباستيان أن نذهب الى جزر « انكاتاداس » .. التى قرأ عنها فى بعض الكتب.. واستأجرنا يختا صغيرا وذهبنا الى هذه الجزر .. جزر بركانية قاحلة ولكننا رأينا هناك شيئا لم نقرأ عنه .. رأينا سلاحف البحر الترسة تخرج من الماء .. وتزحف على الشاطىء البركانى كى تضع بيضها عليه.. ففى كل سنة تخرج أنثى الترسة من مياه البحر الاستوائى وتحت الشمس الملتهبة تحفر بأقدامها حفرا صغيرة فى الرمل ، تضع فيها بيضها .. ان عملية وضع البيض عملية طويلة مرعبة.. وعندما تنتهى منها تزحف اناث الترسة المرهقات عائدات الى البحر.. شبه ميتة .. انها لاترى بيضها يفقس قط.. أما نحن فقد رأيناه

سأل ابنى سباستيان عن موعد الفقس .. وعدنا لنشهده ..

الدكتور : عدتم الى الجزر ؟

الأم : نعم ، لنشـــهد فقس الترسة الصغيرة ، وفرارها الرهيب الى البحر ، كان الشاطىء البركانى فى لون الكافيار ، يموج بالحركة .. وكانت السماء أيضا تموج بالحركة .

الدكتور : السماء ؟

الأم : نعم.. كانت غاصة بالطيور السوداء الجارحة تعوى وتصرخ فى الفضاء صرخات مزعجة وبينما تخرج الترسة الصغيرة من بيضها .. وتشب من حفر الرمل، وتبدأ سباقها الى الماء تنقض عليها الطيور الجارحة .. بمناقيرها الحادة ، تحاول أن تقلبهـــا على ظهرها ،

لينكشف بطنها الطرى .. وتنهشـــها الطيـــور ، كان سباستيان يؤكد ان واحدا فى المـائة لا أكثر ينجح فى الوصول الى الماء .

الدكتور : أى شىء فى هذا المشهد كان يجذب ابنك ؟

الأم : بعد ايام سقط مريضا بالحمى .. وتعذب عذابا هائلا .. وعدت مسرعة باليخت الى مناطق أقل حرارة.. الى الهند.. وهناك انطلقنا الى جبال هيمالايا !

الدكتور : هيمالايا ؟

الأم : نعم ... وهناك كاد ابنى سباستيان يترهب فى دير للبوذيين .. حلق شعر راســـه مثل الرهبان البوذيين وبدأ يأكل الارز فقط فى أطباق من الخشب.. ووعد الرهبان بأن يتبرع لهم بكل ما يملك .. فأرسلت برقية على الفور لوالده أطلب منه تجميد كل حسابات سباستيان فى البنوك فورا .. ولكنى تلقيت برقية من محامى زوجى يقول فيها ان زوجى مريض جدا وانه يريدنى .. ويطلب منى الرجوع فورا ...

الدكتور : وهل عدت الى زوجك ؟

الأم : لقد اتخذت أقسى قرار فى حياتى .. قررت البقاء مع ابنى .. بقيت معه لكى اجتاز به هذه الازمة وفى أقل من شهر هجر سباستيان أكواخ الرهبان وألقى أطباق الارز الخشبية وذهبنا الى فنـدق شـــبرد فى القاهرة .. ثم الى فندق ريتز فى باريس !..

وتدخل الخادمة ، وتعطى السيدة حبـــوبا وأدوية تتعاطاها فى مواعيد محددة ثم تقول للدكتور :

ــ لو عرفت ابنى سباستيـــان لأعجبك كثيرا .. ولأعجبته ايضا .. ان ابنى لم يكن متحذلقا فيما يتعلق بثرائه أو بأسرته ، ولكنه كان يتشدد فى اختيار الذين يحيطون به .. كان يصر على أن يكونوا جـــذابين فى

شخصيتهم وفى شكلهم أيضا .. فى كل مكان يذهب اليه .. هنا فى أمريكا أو فى الريفبيرا أو باريس أو فينيسيا.. كانت تحيط به دائما «حاشية» من الناس ذوى الشباب والموهبة والجمال .

الدكتور : هل كان ابنك شابا ؟

الأم : كلانا كان شابا وبقينا شبابا .. انظر، سوف أريك صورتين له .. ان بين هاتين الصورتين عشرين سنة من الزمن .. فهل تستطيع أن تميز أيهما أكبر ، وأيهما أصغر ؟ ان الاحتفاظ بالشباب ليس أمرا سهلا .. انه يحتاج الى مجهود ونظام عنيفين.. كاس واحدة فقط قبل العشاء .. وطعام مسلوق .. وسلاطة خضراء .. حتى لو كان يأكل فى أفخر المطاعم ذات الاغراء .

ثم يوجه لها الدكتور كوكرفيتز سؤالا دقيقا :

ـ كيف كانت الحياة الخاصة «الشخصية» لابنك ؟

وترد الأم فى اضطراب :

ـ كان طاهرا تماما .. وقد كان صعبا أن نحتفظ له بطهارته.. بسبب جماله وجاذبيته . كان من الصعب ابعاد الذين يطاردونه ...

الدكتور : وقد ظل طاهرا حتى الصيف الماضى ؟ كم كان عمره فى الصيف الماضى ؟

الأم : حوالى أربعين سنة ..

وتستمر الأم مؤكدة :

ـ صدقنى .. لقد كان طاهرا تماما .. كنت أنا الوحيدة فى حياته التى احقق له ما يريده من الناس .. وكثيرا ما قطع صداقته بالناس لأنهم لم يكونوا طاهرين ، مثله .. لقد عشنا معا حياة باهرة لم يكن الناس يقولون سباستيان وأمه .. أو مسز فينابل وابنها .. ولكنهم كانوا يقولون : « سباستيـان وفيوليت » هكذا كانوا

يذكروننا فى مدريد .. فى باريس فى كل مكان ..

لقد عشنا حياة عظيمة .. عظيمة لم يعرفها العالم منذ قام أصحاب الدكاكين الناجحين بطرد أمراء عصر النهضة من قصورهم .. كانت هذه حياتنا .. الى ان جاء الصيف الماضى ...

وتسكت لحظة تلتقط فيها انفاسها ثم تقول بحرارة :

ـ اننى لن اغفر له ما فعله فى الصيف الماضى .. رغم انه دفع حياته ثمنا له .. لن اغفر له انه سمح لها ...

الدكتور : تقصدين الفتاة ..؟

الأم : نعم .. الفتاة التى ستراها هنا اليوم .. انها منذ ذلك الوقت تريد أن تدمر سمعته فى المصحة التى حجزناها فيها فى باريس .. فى الطائرة التى نقلناها عليها الى هنا .. حتى فى المطار قبل أن تركب سيارة المصحة .. حاولت أن تتكلم .. حاولت أن تطلق لسانها .. انها دائما تطلق لسانها .. تريد أن تدمر سمعة ابنى سباستيان ..

وقبل أن نمضى فى تلخيص الحوار .. نتساءل : من هو الدكتور كوكرفيتز ؟.. وما الذى جاء به الى بيت هذه السيدة ؟..

اننا نفهم من الحوار بعد ذلك ان الدكتور طبيب متخصص فى نوع جديد من العمليات الجراحية الخطيرة ..فيرمضمونة النتائج بعد .. هى جراحة المخ .. وذلك بالنسبة لذوى الامراض العصبية العقلية .. وهى عملية تجلب لهم الراحة وتجعلهم ينسون انواع الهوس التى تسيطر عليهم .

ولكن المعهد الذى يعمل فيه الطبيب فى حاجة الى اعتمادات وتبرعات ضخمة للانفاق على هذه التجارب .. ومسز

فينابل قد احضرت الطبيب لتساومه : انها مستعدة لدفع تبرع ضخم توقفه علىالمعهد وعلي هذه التجارب ، بشرط أن يجرى هذه العملية الدقيقة للفتاة التى تتكلم عنها كاترين « حتى تكف عن هذه القصص التى ترويها عن ابنى لتدمر سمعته » .

ويقول لها الدكتور :

ـ انه يجب أن يفحص الفتاة أولا .. فقد يكتفى بأن يعالجها بصدمات كهربائية مثلا .

فتقول له :

ـ انهم جربوا فيها كل هذا فى المصحة التى وضعوها فيها ..

ويقول لها الدكتور :

ـ هذه رشوة تدفعينها لى كى أجرى العملية للفتاة

فتقول له العجوز : سمها ما تشاء .. فأنا لن أدفع الا بهذا الشرط ...

ولكن من هى كاترين بالضبط ؟ ما هى علاقتها بهذه السيدة وابنها ؟ وما الذى جعل هذه السيدة تعتقلها فى مصحة سانت مارى ؟

هذا ما سنعرفه الآن .. فقد عادت الخادمة تقول : ان الآنسة كاترين ومعها راهبة ممرضة منمصحة سانت مارى قد وصلت الى البيت .

وترتجف « مسز فينابل » وتقول انها ستصعد الى غرفتها لتشرب مقويا قبل أن تراها . انها لا تستطيع أن تراها هكذا مباشرة ..

وتنصرف مسز فينابل فى اضطراب شديد .. ويبقى الطبيب فى الشرفة المطلة علىالحديقة بينما تدخل كاترين ومعها الراهبة التى تحرسها الى الغرفة المؤدية الى الشرفة .. وتدور مشاكسات بينها وبين الراهبة نعرف

منها ان كاترين تعيش تحت رقابة وحجر شديدين .. ثم تصل أم كاترين وأخوها جورج ونفهم من الحديث انها زوجة خال كاترين وأن سباستيان بناء على ذلك هو ابن خالها .. ان جورج .. ـ أخا كاترين ـ يلبس بدلة فاخرة ـ تعرف كاترين انها بذلة سباستيان .. فتقول لها أمها ان أم سباستيان أعطت جورج كل الملابس التى تركها ابنها .

ثم نعرف ان سباستيان قد ترك وصية أوصى فيها بـ ٥٠ الف دولار لكل من كاترين وأخيها جورج وأمها ، انهم اقارب فقراء لسباستيان وأمه اللذين يتمتعان بثراء واسع ، ولكن كل أموال سباستيان ما زالت تحت الحجر ، وأمه لن تنفذ الوصية مادامت كاترين تروى هذه القصة عن ابنها .

ان أم كاترين واخاها جاءا لاقناعها بأن تعدل عن رواية هذه القصة .. ليتمكنا من أخذ الفلوس ..

وتقول كاترين : معنى ذلك الا أروى ما حدث لنا فى «كابيزا دى لوبو» لقد كان فى امكانى انقاذه .. لو انه تركنى أمسك يده ـ لأمكننى انقاذه ـ ولكنه ترك يدى .. تركنى .. وجرى فى الاتجاه الخطأ ...

ويتشاجر معها أخوها وأمها : انها ما زالت مصرة على ان تروى هذه القصة غير المعقولة التى نبتت فى خيالها ..

ان الجميع اذن يطلبون من كاترين أن تعترف بكذب حكاية تقولها عن سباستيان ، مسز فينابل تريد ذلك لأنها بهذه القصة تدمر سمعة ابنها . وهى من أجل منعها من روايتها تضعها فى مصحة الامراض العصبية .. وتريد اجراء عملية جراحية لها فى مخها .. وام كاترين واخوها يريدان منها ذلك حتى يحصلا على المبالغ التى أوصى بها سباستيان لهما .

ولكن كاترين تصيح : اننى عاجزة عن نسيان ذلك المشهد الرهيب .. وانا اجرى معه على سفح كابيزا دي لوبو ـ اننى أعرف انها قصة بشعة .. ولكنها قصة حقيقية .. حدثت فى هذا العالم المتحضر الذى نعيش فيه ..

ويقطع الشجار .. نزول مسز فينابل .. ودخولها الى الغرفة ..

ان كاترين منزعجة من وجود دكتور كوكروفيتز .. لقد عرفت انه قادم من المعهد الذى يقوم بجراحات فى المخ .. « تريدون أن تفتحوا فجوة فى جمجمتي وتحركوا سكاكينكم فى مخى » وتقول انه لابد من استئذان أمها قبل اجراء اي عملية لها .. لأن مسز فينابل ليست وصية عليها .. ولكن الأم تسكت .. أما مسز فينابل فتقول انها هى التى تصرف على كاترين وعلى أم كاترين، وانهم جميعا عالة عليها .. وترد كاترين قائلة : انك تحقدين على .. تظنين اننى أنا التى جعلت ابنك سباستيان يتركك ويسافر معى فى الصيف الماضى .. فى حين انك كنت مريضة بأزمة قلبية وعاجزة عن السفر ..

وتنفجر مسز فينابل :

ـ لم أكن مصابة بأزمة قلبية .. كنت مريضة مرضا بسيطا فقط .. ولكن هذه البنت السليطة اللسان ضحكت على عقل ابني .. ان هؤلاء الناس لايجمعنى بهم دم القربى .. انهم أقارب زوجى الميت فقط .. لقد كنت دائما أحتقرهم .. أخت زوجى وابنها وابنتها .. لقد صرفت على هذه البنت دون نتيجة .. كان لها دائما لسان سليط .. يحسبه بعض الناس ذكاء .. وكانت دائما وقحة فى معاملة الناس المهذبين ، ولكن بينما كنت أنا أتقزز منها ، كان ابنى سباستيان يجد فيها شيئا

مسليا .. فاخذها معه فى الصيف الماضي.. بدلا مني..

وتصرخ كاترين : كفى ، لا أريد البقاء .. أعيدوني الى المصحة .. هذه المرأة تظن انني مسئولة عن موت ابنها ، انها تريدني أن أكذب ، وانا لا أستطيع أن أكذب .. لا أستطيع أن أغير الحقيقة .. لا أستطيع أن اغير قصة ما حدث لابنها فى « كابيزا دى لوبو » ...

ويتـدخل الدكتور لتهدئة الموقف .. ويطلب منهم جميعا أن يخرجوا ويتركوه هو وكاترين بمفردها .. وعندما يخلو بها يعطيها حقنة مهدئة .. ويتحدث معها حتى تطمئن اليه بالتدريج ...

ويسألها الدكتور :

ــ ماذا كانت علاقتك بابن خالك سباستيان ؟

ــ كنت اعجبه .. ولذلك احببته .

ــ اى نوع من الحب ؟

ــ النوع الوحيد الذى كان يمكن أن يقبله .. نوع من حب الأمومة ــ لقد حاولت كثيرا أن أنقذه ..

ــ من ماذا ؟

ــ من صورة رهيبة ، كان يرسمها لنفسه كضحية.. لقدر قاس ...

ــ كاترين أريد منك شيئا ..

ــ اطلبه .. أعطه لك على الفور .

ــ اعطنى مقاومتك ..

ــ مقاومتى لأى شيء ...

ــ مقاومتك للحقيقة.. للحقيقة التى سوف تروينها امام الجميع ...

ــ ان الحقيقة هى الشيء الوحيد الذى لم أقاومه ابدا ..

ــ الناس احيانا يظنون أنهم لا يقاومون الحقيقة ،

بينما هم يقاومونها ..

ثم أردف قائلا :

ــ يقولون ان الحقيقة توجد عادة فى قاع بئر .. لا قاع لها ...

ويفاجأ الدكتور بكاترين تهجم عليه ، وتحتويه بين ذراعيها ، وتضمه الى صدرها بشدة . ويحاول هو أن يتخلص منها، ولكنها تتشبث به متوترة ، وهى تقول له :

ــ ارجوك ، امسكنى .. اننى وحيدة جدا.. وحيدة حتى الموت ..

وتعود كاترين الى الهدوء .. ويعود الجميع الى الغرفة بناء على استدعاء الطبيب.. تعود مسز فينابل والممرضة الراهبة وام كاترين وشقيقها .

الدكتور : والآن ستروى لنا كاترين القصة كلها ..

كاترين : ان القصة بدأت منذ أن ولد سباستيان .. فى هذا البيت ..

الدكتور : لا داعى لهذا .. لنبدأ من الصيف الماضى فقط ...

كاترين : فى الايام الستة التي قضيناها فى البحر.. فى طريقنا الى أوروبا.. كان رقيقا معى للغاية.. لدرجة ان بعض الناس كانوا يحسبون اننا عروسان فى شهر العسل الى أن اكتشفوا اننا نسكن غرفتين منفصلتين تماما .. وفى باريس غمرنى بمشترياته .. بأفخر الفساتين وأغلى العطور.. وبعد ذلك ، ارتكبت غلطة كبيرة ، لقد بدأت اتجاوب مع رقته وحنانه أكثر مما يجب .. امسك بيده مثلا .. او أستند الى كتفه . أو أتعلق بذراعه .. لقد فسرت حنانه معى اكثر مما أراد هو .. وفجأة اصبح قلقا مضطربا .. كان شيئا فيه كان يتحطم .. وعجز عن أن يكتب سطرا واحدا فى

قصيدته .. وفجأة قرر أن نترك المكان الذى كنا فيه.. المكان الذى عجز فيه عن كتابة قصيدته .. وأن نذهب الى «كابيزا دى لوبو».. لأن هذا الخيط اللؤلؤى الذى تربط به الأم ابنها قد انقطع .

مسز فينابل : انها تعترف بأننى كنت أحميه من الدمار ...

كاترين : كل ما أعرفه .. انه فجأة بدا وكأنه لم يعد صغيرا بعد .. وعندما وصلنا الى كابيزا دى لوبو انتقل فجأة من سهرات الليل الى الخروج عصرا . انتقل من ارتياد الاماكن الفاخرة الارستقراطية الى تفضيل الشواطىء العامة المفتوحة للجمهور ...

مسز فينابل : انظر كيف تكذب .. هل معقول أن يذهب سباستيان الى شاطىء شعبى عام ، قذر، مفتوح للجمهور .. وهو الذى كان يسير بقاربه أميالا فى الماء ليجد ماء نظيفا يستحم فيه ..

الدكتور : مسز فينابل .. أرجوك ألا تقاطعيها .. مهما كان رأيك فيما تقول .

مسز فينابل : حاضر .. لن أتكلم ..

الدكتور : ثم ماذا ؟ تقولين انكما كنتما تذهبان عصر كل يوم الى الشاطىء العمومى ...

كاترين : هناك شاطىء عمومى يدخله الناس مجانا ، وبجواره شاطىء عمومى أيضا يدخله الناس لقاء دفع رسم زهيد ، كان هذا الشاطىء الاخير هو الذى نذهب اليه .. كانت مشكلة سباستيان هى كيف يلفت نظر الناس اليه ، كان عاجزا عن أن يتصل بالناس مباشرة .. وهذا ما كانت تصنعه له أمه .. ولكن هذا كان سهلا فى الاماكن الراقية التى كانا يذهبان اليها اما فى شاطىء عمومى فقد كانت المشكلة أصعب .. كان

سباستيان وحيدا ، كان الفراغ فى الكراسة الزرقاء التى تنتظر قصيدته يتضخم ويتضخم حتى أصبح كالسماء الفارغة ..

الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : ولكنه بعد قليل لم يعد محتاجا لى فى هذا الغرض .. لقد ارتفعت حرارة الطقس وامتلأ البلاج العمومى الملاصق للبلاج الذى كنا نتردد عليه بالناس.. جماعات من الشبان الفقراء .. الجائعين.. كنت اتركه أحيانا .. ثم أعود اليه .. ساعة خروجنا من الشاطىء فأراه قادما ، وهم يتبعونه ...

الدكتور : يتبعونه ؟ من ؟

كاترين : الاولاد والشبان .. الجائعون .. الذين لا مأوى لهم .. كانوا يتزاحمون أمامه على الاسلاك التى تفصل بين شاطئنا وشاطئهم .. يوزع عليهم النقود .. البقشيش .. كأنهم جميعا قد مسحوا له حذاءه .. وكل يوم كان عددهم يزيد وبدأ سباستيان يخاف .. ثم قرر أن نمتنع عن الذهاب الى هذا الشاطىء ...

الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : وذات يوم قرر سباستيان اننا ضقنا بكابيزا دى لوبو ويجب أن نتركها .. وقرر ان نذهب للغداء ساعة العصر آخر يوم لنا فى أحد مطاعم السمك. على الشاطىء تماما فى منطقة مهجورة .. بين المدينة والميناء .. كانت الشمس لافحة ولونها ابيض .. وكان سباستيان يومها فى بياض النهار .. كان يلبس بذلة حريرية بيضاء ناصعة ليس عليها ذرة تراب واحدة .. وحذاء أبيض .. وكرافتة بيضاء .. وكان يلمس فمه ورقبته من حين لآخر بمنديل حريرى أبيض .. ويبتلع أقراصا بيضاء .. اذ كان يحس ببوادر نوبته القلبية .

وعلى مقربة من المطعم .. خارج سور من الاسلاك الشائكة .. كان هناك عدد كبير من الاولاد السمر العراة يسبحون فى البحر .. كانوا شحاذين ومتشردين .. واقتربوا منا بأجسامهم النحيفة السمراء كأنهم طيور سوداء كثيفة .. وملأوا السور ، يمدون أيديهم الينا ويصيحون : « بان .. بان »

الدكتور : ما معنى .. « بان » ..؟

كاترين : اى .. خبز .. كانوا يصرخون طالبين الخبز باصوات كريهة بشعة مقززة .. وبدا سباستيان يدوخ .. فوق انه كان كما قلت لك يحس ببوادر النوبة القلبية .. وقال لى : « لاتنظرى اليهم .. ان المتسولين مرض اجتماعى فى هذا البلد .. انك اذا نظرت اليهم فسد كل شىء فى نظرك .. »

وقد تعودت ان أطيع سباستيان .. فلم أعد أنظر الى هؤلاء الاولاد المتسولين حتى عندما جاء الجرسونات واخذوا يطردونهم بالعصى بعيداً عن السور .. ثم ..

الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : بدأت فرقة المتسولين تغنى وتنشد علينا ، اختلست النظر اليهم عندما كان سباستيان لاينظر الى فوجدتهم يدقون على علب صفيح فارغة .. وفى أيديهم عصى صغيرة وقطع حديد .. وأى شىء يحدث صوتاً .. كانوا يدقون ويعزفون ويصيحون علينا .. من بعيد .. طوال تناولنا الغداء

الدكتور : ألم يعترض لدى المدير ؟

كاترين : اى مدير ؟ الله ؟.. طبعا لا .. مدير المطعم ؟ لا ايضا .. انك لا تعرف ابن خالى سباستيان .. لقد كان يقبل الاشياء .. كما هى .. ويظن انه ليس من حق أحد ان يعترض .. او يتدخل .. بأى صورة من

التدخل .. كان لايؤمن بأن من حق أحد أن يصنع الا الشيء الذى يجد نفسه يصنعه .

الدكتور : وماذا وجد نفسه يصنع ؟

كاترين : قفز فجأة من مقعده.. وصاح فى الجرسون : يجب أن توقفهم.. لايمكن أن يستمر هذا.. اننى رجل مريض.. كانت هذه أول مرة يحاول فيها سباستيان ان يصحح موقفا انسانيا .. ولعل هـذه كانت غلطته القاتلة .. وفى هـذه المرة خرج ما يقرب من ثمانية جرسونات وانهالوا على الاولاد ضربا بالعصى .. بينما ألقى سباستيان حفنة من النقود على المائدة وقام لينصرف وقمت خلفه .. وعند باب المطعم وقف سباستيان.. مرتبكا .. كان أمام المطعم طريق طويل صاعد شديد الارتفاع .. وقلت لسباستيان انه ليس من الصواب أن نمضى فيه فالاحسن أن ندخل المطعم ثانيـة حتى يحضروا لنا تاكسيا نركبه .. ولكنه نهرنى وانطلق يسير فى الطريق الصاعد .. بسرعة .. ويده على قلبه .. وقد بدأ عليه الخوف .. والألم .. والفزع .. ولكنه كان كلما أسرع .. زادوا اقترابا منه ..

الدكتور : من هم ؟

كاترين : الاولاد.. المتسولون.. وآلاتهم الموسيقية المرعبة فى أيديهم.. ثم بدأ سباستيان يجرى.. وما كاد الاولاد يرونه يجرى حتى صرخوا صراخا مرعبا وجروا وراءه .. وأدركوه بسرعة .. واحاطوا به .. وسمعت سباستيان يصرخ .. صرخة واحدة قبل أن يطبق عليه الاولاد كالطيور السوداء الجارحة ..

الدكتور : وانت ماذا فعلت ؟

كاترين : أخذت أجرى فى الاتجـاه المضاد واصرخ واطلب النجدة .. حتى خرج الجرسونات .. وبعض

الناس .. وعندما وصلنا الى حيث أطبقت الطيور السوداء الجارحة على سباستيان ، وجدناه .. راقدا .. عاريا .. وقد ـ انك لن تصدق ولا أحد يصدق .. ولكننا وجدناه عاريا وقد نهشوا لحمه .

وتصرخ مسز فينابل .

وتمضى كاترين قائلة : نهشوا لحمه .. مزقوا أجزاء منه بأيديهم أو أسلحتهم أو الحديد والصفيح الذى كان معهم .. لم يكن هناك شىء سوى جثة سباستيان .. كأنه باقة ورد قد تمزقت .. والقيت .. وديست بالاقدام ..

وتهتز وتقفز مسز فينابل صارخة :

ـ خلاص .. خلاص .. ارسلوها الى المعهد .. لابد من اجراء العملية اقطعوا هذا الجزء من مخها .. اقطعوا هذه القصة من مخها ..

وتبكى أم كاترين .. وييأس أخوها من كل شىء .. وتلتفت الأم الى الطبيب قائلة : الا تقول شيئا ؟

ويقول الدكتور : اظن ان رواية كاترين .. معقولة ..

***

هذه هى خلاصة المسرحية .. المزعجة ..

ان مسز فينابل .. كما انها أم تحتكر ابنها .. وتسيطر عليه .. حتى لقد حرمته من أن تكون له علاقة طبيعية بالحياة .. هى الطبقة الارستقراطية باعتزالها الحياة .. وترفعها .. وعقمها .. وظنها ان الآخرين يعيشون عالة عليها ..

ان ابنها سباستيان .. هو هذه الطبقة حين تشعر بمأساتها .. ولكنها تعجز عن صنع أى شىء بناء على هذا الشعور .. انه يشعر بموتها .. بنهاية رسالتها انه يحاول أن يتصل بالحياة ولكنه يعجز .. لأنه عاش

فى نطاقها القديم الآسر.. لقد تحطم اول مرة حين حاولت كاترين أن تحبه حبا حقيقيا .. وتحطم مرة ثانية حين حاول أن يتصل بالناس فى «كابيزا دى لوبو» فلم يجد وسيلة الا أن يتصدق ..

***

ان المؤلف يرسم صورة قاسية للحياة .. ولصراع البقاء فيها .. كذلك المشهد المرعب .. مشهد الطيور السوداء التى تنهش ترسة البحر .. ترسة البحر التى ارهقت الأمهات فى وضعها .. ثم يترجم هـذا المشهد ترجمة اخرى حين يصور لنا الاولاد الجائعين.. الفقراء .. يستفزهم منظر الشاب الغنى الابيض الناصع ، البراق ، الذى ينثر المال .. ويهرب ..

التفسير السياسى للموسيقى

لماذا تستمع الى الموسيقى والغناء ؟..

ستقول للمتعة ، ولا بأس بذلك ، فان الموسيقى اذا لم تقدم لنا المتعة لا تكون موسيقى ..

ولكن .. ان المتعة فى الموسيقى ليست ضد «المعنى» وفهم الموسيقى لا يسلبها المتعة ، بل يضاعفها . وفى الفن بوجه عام يوجد نوعان من المتعة : الاولى متعة الدقيقة العابرة ، والاسترخاء والراحة من مشاكل اليوم. والثانية متعة انعاش الذهن والحواس، وتنبيهها الى آفاق جديدة من الحياة والمشاعر والافكار.. والفرق بين المتعتين هو الفرق بين الفن التافه والفن الرفيع ..

ثم ..

ماذا تصنع بنا الموسيقى ؟..

تصور انك تستمع الى خطبة مثلا .. ان جوهرها ولاشك هو الافكار التي يقولها الخطيب .. ولكنك لن « تنفعل » بهذه الخطبة اذا كان الخطيب يدحرج كلماتها بلا وقفات ، ولا تغيير فى طبقات الصوت ، ولا أى نغم على الاطلاق .. فموسيقى الالقاء تزيد انسانية الخطبة وتضاعف درجة الانفعال بها ..

والانفعال الذى ينتاب الواحد منا عندما يستمع الى الموسيقى هو علامة الاحساس بالجمال المركز فى اللحن ،

وهو الفرحة التى تصاحب كل قفزة نقفزها الى معرفة جديدة

والموسيقى ليست أصواتا جوفاء .. ولكنها تصوير بالصوت والايقاع لمديد من الصور والعلاقات الانسانية

وما دامت الموسيقى تصويرا للحياة الانسانية ، فاننا لايمكن أن نفهمها الا اذا وضعناها فى سياق العصر الذى انتجها .. بكل ظروفه السياسية والاجتماعية .

اذن.. فكما نقرا تاريخ المجتمع الانسانى فى السياسة والادب والاقتصاد فاننا نستطيع ان نقرأه أيضـــا فى الموسيقى.. وهذا هو مايقدمه لنا «سيدنى فينكلستين» فى هذا الـكتاب ..

والكتاب ــ بناء على هذه الخطة ــ يعتبر جديدا على القارىء المصرى.. الذى خلقت له الصحف وهما كبيرا ، ظن معه ان الفنان انسان لايلهمه الا وجه جميل ، أو خصر نحيل .. وان الموسيقيين بالذات لم تكن لديهم مشكلة .. الا المشكلة الجنســـية !! وانهم مشغولون بمطاردة النساء عن ملاحظة الواقع ، ودراسة المجتمع والـكفاح من أجله ..

فى العصور الوسطى كان النظام السائد فى المجتمع هو الاقطاع .. كان الاباطرة والنبلاء يملكون الارض ، وكان الفلاحون أرقاء تابعين لهذه الارض ، ومن التجار والصناع اليدويين ــ كالنجارين والحدادين والاسكافيين ــ نشأت المدن. واستطاعت مع الزمن أن تختار حكامها ، وأن تصبح أقرب الى الجمهوريات ، مثل البندقيـــة وفلورنسا فى ايطاليا ..

أما الموسيقى ، فكانت توجد منها أيضا ثلاثة أنواع.. كانت هناك موسيقى الكنيسة التى تعزف فى المناسبات الدينية وموسيقى البلاط التى تعزف فى سهرات القصر،

وموسيقى الشعب وهى أغانى الحصاد والزفاف والاعياد

كانت موسيقى الكنيسة تصور الحياة الاخرى .. وكانت موسيقى البلاط تهدف الى تزجية الفراغ فحسب

اما موسيقى الشعب فقد تقدمت موكب التطور .. امتزجت بالشعر ، واتخذت شكلا كفاحيا ، وانطلقت تتغنى بقصص وأناشيد يرددها الفلاحون الارقاء وتدور عادة حول شخصية «الخارج على القانون» الذى يسخر من الملك والنبلاء ويحقق العدالة ويساعد الفقراء ، مثل قصة « روبين هود » فى انجلترا ..

وقد حدث فى سنة ١٤٠٢ ، أن أصدر مجلس العموم البريطانى قانونا يمنع دخول المنشدين مقاطعة ويلز لأنهم تسببوا فى احداث شغب هناك ! !

أما وراء أسوار المدن القليلة ، فقد حدث شيء هام : هو طبع الالحان الموسيقية مما أتاح فرصة انتشارها ودراستها ، وقد ظهرت أول موسيقى مطبوعة فى البندقية سنة ١٥٠٠ .

واستمر الوضع على هذا النحو دون تغير يذكر حتى القرن السابع عشر والثامن عشر .. ظل الرق ، والاقطاع وسلطة الكنيسة ... وكان كل نبيل «يقتنى» فى قصره : طباخا لمطبخه وسائسا لجياده ومعلما لأولاده وموسيقارا لحفلاته ! .. وربما كان هذا الموسيقار فنانا عبقريا من الذين وضعوا ألحانا خالدة ، ولكن مركزه الاجتماعى فى القصر كان لا يختلف عن مركز الطباخ والسائس .. ولم يكن عمله هاما .. مجرد أن يعطى الصغار دروسا فى الموسيقى . وفى الحفلات التى يقيمها النبيل ، يقف فى ركن القاعة يعزف الموسيقى ، بينما المدعوون يأكلون ويثرثرون ويضحكون .

وكان معنى ذلك ان القطع الموسيقية يجب أن تكون

مما يستطيع أن يعزفه فرد أو فرقة قليلة العدد تلائم الخاصة ، وأن تكون رشيقة رقيقة خافتة حتى لايضيق بها جو الصالون ، وأن تكون خالية من تعقيد الافكار لأن الحاضرين لا يتفرغون لسماعها ، انما هى تطرق آذانهم فحسب بينما هم مشغولون بالحديث او الطعام .. أو الغزل !

ثم ظهرت ـ فى فلورنسا والبندقية أيضا ـ الاوبرا .. وكان من اثر ظهور الاوبرا أن ظهرت الفرقة الموسيقية الكبيرة والآلات المعقدة ، التى تطورت الى الفرقة السيمفونية ..

وبعد الاوبرا ظهر « الكونشرتو » ، وهو لون من الموسيقى التى يعزفها عدد كبير من الآلات ..

وكان ظهور الاوبرا والكونشرتو فى الواقع ثورة على الكنيسة والاقطاع . لقد تحول الموسيقار من عازف « يخدم » فى بيت النبيل الى فنان يعزف فى مكان عام يؤمه عدد كبير من الناس ..

ولم يكن هذا التحول سهلا .. أخذ « هاندل » فى انجلترا يعزف فى الاماكن العامة و «فيفالدى» فى ايطاليا يلحن الاوبرات وأعظمهم «باخ» فى المانيا يعزف فى الكنيسة فاتحا أبوابها للجميع .. فوضعوا بذلك أول حجر فى بناء صالة العزف ..

فالموسيقى الجديدة التى يضعها هؤلاء العباقرة لم تعد تلائم تماما صالونات النبلاء .. الاوبرات مثل «أوبرا الشحاذين » التى اكتسحت فى انجلترا ـ وهى تتحدث عن ثورة عامة الناس على مظالم النبلاء ـ وموسيقى «باخ» فى المانيا يهاجمها النقاد «لأنها معقدة» فيرد عليهم صديق له قائلا : « انه لا يضع الحانا لحفلات الشراب وما اليها من المناسبات الأنيقة .. فان عليه ـ كفنان

حقيقى ـ أن يحاكى الطبيعة ، وأن يساعدها اذا أمكن!»
ولم يكن هذا التحرر تاما بالطبع .. فالموسيقار بعد ذلك يجب أن يعيش.. والرزق فى يد الكنيسة والنبلاء.
و«باخ» نفسه كان «يخدم» كموسيقار عند دوق فيمار ثم عمل مدرسا للموسيقى فى الكنيسة.. وكان نظام الاقطاع يقضى عليه بأن لايتنقل من وظيفة الى وظيفة أو من بلده الى بلدة الا باذن من الأمير . ومما يعطينا فكرة من جو ذلك العصر ان نقرأ فى قرار تعيينه عند الأمير :
«عليك أن تكون مخلصا مواليا مطيعا لسعادة الكونت ، وان تكون مهذبا متعاونا مع الادارة ، والا تزج بنفسك فى غير عملك من الأمور ! »

ثم جاء « موزار » فدفع الثورة على الاقطاع مرحلة اخرى .. والنقاد يطلقون على «موزار» اسم « فولتير الموسيقى» لأنه هاجم الموسيقى الاقطاعية بالعنف الذى هاجم به «فولتير» تفكير الاقطاع .. بل انه اشترك فى عدد من الجمعيات السرية لمناوأة النظام الذىكان سائدا

وكانت استقالة «موزار» منخدمة اسقف سالزبرج، اعلانا تاريخيا لاستقلال الفنان ! وتأكيدا لصفته كانسان مفكر مبدع وليس مجرد خادم للكنيسة والنبلاء. وكان اسقف سالزبرج صاحب نفوذ واسع ، مما جعل موزار يتعرض لحرمان هائل هو الذى ادى الى موته المبكر..

وعاش موزار يقاسى العذاب الذى يقاسي منه كل المجاهدين .. كان عليه لكى يرتزق ويعيش أن يجارى الاشكال الموسيقية التى يرضى عنها النبلاء ، وكان عليه لكى يحقق رسالته أن يضع أفكاره وعواطفه الجياشة فى هذه الاشكال القديمة.. ونجحت موسيقاه فى الشوارع اكثر مما نجحت فى الصالونات ! اصبحت الحانه تتردد فى الشوارع والحدائق وحانات البيرة ، حتى ان الشحاذ

عازف الجيتار كان لا يأمل فى جمع نقود الا اذا عزف شيئا لموزار . أما فى الصالونات ، فكان تعليق النقاد « انه لايعطى المستمعين فرصة للراحة .. فما أن تنتهى فكرة جميلة حتى يلحقها بأخرى تنزع الأولى من الرأس فلا يبقى فى النهاية شىء ! » .. فأهل الصالونات لايريدون الموسيقى التى يحتاج سماعها الى مجهود .

كان موزار يضع الحانه المضطرمة فى القوالب التى ترضى مالكى الرزق وكان هذا الثائر مضطرا الى مجاراة النبلاء ، حتى لقد انتحل أحدهم احدى القطع التى وضعها موزار ، وكان عليه أن يسكت ، ما دام قد قبض الثمن ! ..

أما فى الاوبرا ، فقد خطا موزار خطوة كبيرة أخرى .. كانت الاوبرات كلها مطبوعة بطابع الاقطاع ، تدور حول شخصيات من النبلاء فى عالم ثابت غير متغير .. فجاء موزار واخرج أوبرات كوميدية ، تدور مثلا حول انقاذ خادمة من حريم أمير تركى .. وتمتلىء بالكلام عن حرية المرأة واستقلالها .. أو أوبرا « زواج فيجارو » التى جعل الكونت فيها يبدو أحمق خبيثا .. ولم يجعل الخادم « فيجارو » كالعادة ، أبله دنيئا بل جعله بطل القصة .. جعله مخلوقا انسانيا عميق الانسانية ، يدافع عن حقه فى الحب والفوز ! وقد تعرضت « زواج فيجارو » بالذات لاضطهاد شديد من رقابة الاقطاع .

ثم جاءت الثورة الفرنسية فهزت العالم وافسحت الطريق أمام بتهوفن وشوبيرت .

كان بتهوفن فى التاسعة عشرة من عمره عندما انفجرت الثورة الفرنسية . وقد ولد فى مقاطعة الراين ، أقرب المقاطعات الالمانية لفرنسا ، من أب كان يعمل عازفا فى القصر نظير اجر تافه وأم كانت ارملة طباخ ..

وقضى بتهوفن شبابه متطلعا الى الاحداث التى تدور عبر الراين .. حيث أعلنت مبادىء : الحرية والاخاء والمساواة .. وأعلن ميثاق حقوق الانسان ، وهزم الفلاحون وهم ينشدون المارسيلييز جيوش الاباطرة والنبلاء .. واستولت الطبقة المتوسطة على الحكم .

وعندما ذهب بتهوفن الى عاصمة الموسيقى ، فيينا ، سنة ١٧٨٢ ، ليعيش فيها وجدها تحلم بالديمقراطية الجديدة .. ورأى أحلامها هذه تتنفس فى صورة شغف هائل بكل فن يومىء الى الحرية الآتية أو الى انهيار النظام القديم .. وكان صعبا على بتهوفن أن يعلن عن ميوله الجمهورية فى عاصمة الرجعية ، وأن يؤيد جيوش فرنسا .. ومع ذلك فقد وضع لحن البطولة «ايرويكا» وأهداه الى نابليون ! وما كاد ينتهى من اللحن حتى سمع ان نابليون قد ألغى الجمهورية وأعلن نفسه امبراطورا فمزق اللحن ، وأسفر بذلك عن ميوله الجمهورية ..

ونستطيع أن نقسم موسيقى بتهوفن وحياته الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : عندما كان فقيرا مجهولا يشق طريقه بصعوبة ، ويعيش من اعطاء دروس الموسيقى للأغنياء أو العزف فى حفلات خاصة .. فى هذه المرحلة وضع بتهوفن قطع « السوناتا » الرقيقة الملائمة للعزف فى الصالونات حيث يستمع اليها الهواة والأغنياء ..

والمرحلة الثانية : من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨١٤ ، وكان قد ذاع صيته ولمع اسمه فى جميع العواصم الاوروبية .. وازدادت قوة الطبقة المتوسطة وظهر منها جمهور يستطيع أن يعيش الفنان عليه . وأصبح بتهوفن يكسب من حفلات مفتوحة للجمهور .. وأصبح يبيع القطع الموسيقية فى السوق الحرة ، طليقا من احتكار النبلاء .

وفى هذه الفترة أنتج بتهوفن أكثر أعماله .. وضع سيمفونياته الثمانية ، وأوبرا « فيدليو » وافتتاحياته « أجمنت » و « كاريولان » .

وكان انتصار « السيمفونية » على هذا النحو الرائع على يد بتهوفن ثورة حقيقية فى الموسيقى . فالسيمفونية لا تصلح للعزف فى الصالون الخاص ، بل لابد لها من قاعة ضخمة تؤمها الجماهير .. ولابد لمؤلفها من دراية بامكانيات الفرقة الكبيرة والقاعة الواسعة ..

ان الفرق بينهـــا وبين القطع القديمة الرقيقـــة كالفرق بين الخطب العامة فى الجماهير وبين الهمس فى الصالونات !

ودهش الناس من نغمة البطولة السائدة فى سيمفونيات هذا العملاق ودهشوا من اقبال جماهير الطبقة المتوسطة فى المدن عليها اقبالا لم يسبق له مثيل ! ودهشوا قبل كل شيء من قوتها الخارقة حتى وصفوها بأنها «وحشية» !

وانهالت عليه الحملات .. قال عنه النقـــاد : انه لايتوقف عن معارضة كل القوى السياسية الموجودة ! وان عواطفه جمهورية ! وبدعوى ان موسيقاه « تدل على الجهل والابتذال ، وتنطوى على خطر ثقـــافى » منعوا التلاميـــذ فى المدارس من دراســـة موسيقاه ، فكانوا يحفظونها سرا .

وكان سر نجاحها انها تعبر أقوى تعبـــير عن روح العصر .. لم تكن رقيقة واهنة تلائم حفلات الرقص فى القصور .. ولم تكن حزينة اليمة خائرة ، تعبـــر عن الأسف على انقراض العهد القديم .. بل كانت قوية بطولية جارفة .. مليئة بالمعارضات السريعة العنيفة ، فى جو باهر يؤكد ان التغيير ضرورى ومفيد !

أما الفترة الثالثـــة : فكانت من سنة ١٨١٤ حتى

وفاته .. هنا سكت بتهوفن عن انتاج السيمفونيات ١١ سنة كاملة ، ثم أخرج واحدة أخيرة ، هي السيمفونية التاسعة ..

ما سبب هذا الصمت الطويل ؟ لقد هزم نابليون.. وعادت الملكية الى فرنسا ، وتعرضت أوروبا لموجة رهيبة من الرجعية ، وامتلأت العواصم — وعلى راسها فيينا — بالجاسوسية والارهاب .. وانصب الاضطهاد على رؤوس الزعماء المتحررين .. وفى هذا الجو يستحيل القاء تلك الخطب الموسيقية العامة ، فتحول بتهوفن مرة اخرى الى « السوناتا » ومع ذلك ، فاننا لا نجد فيها روح اليأس والتسليم .. بل تملؤنا موسيقاها برغبة المقاومة والعناد الذى هو مفتاح شخصية بتهوفن ، وبالايمان بالحياة وهو نغمته التقليدية .

ان مشاعر الحب فى قطعة « ضوء القمر » ليس فيها اثر للحزن والاستعطاف وهو صورة الحب القديم ، بل هى مزيج من الحنان والفرح ، والنغمة البطيئة التى صور بها مشهد القبر فى « روميو وجولييت » لا يصف فيها قبول الموت ، بل الصراع من أجل الحياة.. لايضع فيها نواحا ، بل استشهادا بطوليا عظيما

ولما لم تعد الروح الديمقراطية الملتهبة تملأ صالات الموسيقى ، وضع هذه السيمفونية التاسعة ، التى ختمها بنشيد جماعى .. عن الأخوة الانسانية والسلام ..

ولما مات ، سارت فيينا كلها فى جنازته ، وكانت الجنازة ذات مغزى سياسى ، الى جانب المغزى الفنى..

وفى الموسيقى التى جاءت بعد بتهوفن نرى طابع الاستبداد والاختناق . نرى أوروبا التى يحكمها « مترنيخ » والمحالفة المقدسة التى عقدها بين الاباطرة ورقابة الاقطاع التى عادت الى المسرح والى كل انتاج

فني .. ونرى فى موسيقى «شوبيرت» نفس القلق العميق الذى كاد يسود أهل فيينا . والانهيار العاطفى اليائس يقتحم أعذب الحانه كأنه الذهول المفاجىء !

وفقدت «قاعة الموسيقى» صفتها الثورية ، واصبحت مكانا يظهر فيه الأغنياء الجدد . انهم ليسوا أقل تحضرا من السادة القدامى ! وأصبحت الموسيقى المطلوبة بناء على ذلك سطحية ، فيها من المظهر أكثر مما فيها من الموضوع .. فيها الضخامة وارتفاع الصوت والضجة أما الموضوع فتائه غامض ، وأصبح الفنان أقرب الى البهلوان : يقف «باجانيني» عازف الكمان الشهير على المسرح فيقطع ثلاثة أوتار أمام الناس ليريهم كيف يستطيع العزف على وتر واحد ! أما قصص الاوبرا فقد عادت تدور حول : العاشق المنتحر .. وقاطع الطريق !

كان لابد ان تتأثر الموسيقى ايضا ، بظهور المذاهب الاشتراكية .

أما كيف تأثرت ، فالأمر بسيط :

ان الحديث عن الفن الواقعى قديم . ولكن هذه الواقعيه كانت فى تغير مستمر . والواقعية فى هذا العصر ، تستمد مادتها من حياة الطبقات العاملة من فلاحين وعمال وموظفين واصحاب الدكاكين الى آخره .

وكما كانت هذه الفئات محرومة من التعليم مثلا ، ومن القراءة ، كذلك فقد كانت محرومة من الاستمتاع بفن الموسيقى ، المتطور الرفيع ..

كانت هذه الفئات تنتج فنها الموسيقى الخاص بها ، فى صورة الاغانى الشعبية ، والموسيقى الشعبية الخاصة بها . وهذه الموسيقى والالحان الشعبية تكون ثروة ضخمة . ولكنها ظلت كالمادة الخام ، ثروة مهملة ، لم تتناولها يد الفن الموسيقى المتطور بتحسيناته وعلومه

والاته الفنية . فقد كانت كل هذه التحسينات حكرا للطبقات القـادرة ، تستمتع بها بمفردها فى قاعات الموسيقى الفاخرة ذات الأجر المرتفع .

ثم ان فنون الموسيقى الرفيعة ، من أوبرا وسيمفونى وغيرها ، أصبحت فى ظل النظام الراسمالى صناعة كأية صناعة اخرى ، وأصبحت الموسيقى والموسيقيون يخضعون لسلطان شباك التذاكر . أى للفئة التى تستطيع أن تقف أمام شباك التذاكر .. وأصبح عامة الناس يشترون السلع الموسيقية التى تعرض عليهم ، سواء أكانت تعبر عنهم ، ومستمدة منهم ، أم لا ...

ولكننا الآن أمام تطور عالمى كبير .. الفروق بين الناس تتحطم وتحل محلها المساواة ، والموسيقى تصبح فى بعض الدول الاشتراكية مرفقا عاما كسائر المرافق الاخرى التى ترعاها الدول كالتعليم والصحة وغيرهما . ورعاية الدولة للموسيقى كأنها مرفق عام ، معناها أن تقدم الى جميع المواطنين ، مهما كانت قدراتهم ومستوياتهم .. فهى لا تشجع الموسيقى وتقدمها للربح ، ولكن تشجعها ليستمتع بها أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب .

وتحرر الموسيقى من سلطان شباك التذاكر ، وتحررها بالتالى من سلطان فئة معينة ، واتجاهها الى النـاس كلهم .. معناه انها تجد نفسها محتاجة الى أن تستمد مادتها من حياة الناس كلهم ، من كفاحهم ومن أحلامهم ومشاعرهم .. كلهم .

وعلى هذا الاساس ، مضى رواد الموسيقى الذين ادركوا مغزى التطور يضعون آذانهم الحساسة على قلب الشعب ، ويدرسون اغانيه والحانه وأساطيره .. ويعبرون عنها فى أوبراتهم وسيمفونياتهم .. ولأول مرة

بدات خامات الفن الشعبى تعرف طريقها الى الاساليب الفنية الحديثة .. لتخرج منهـا موسيقى تجمع بين سلامة الاستعمال اليومى للانسان العادى ، وبين خصوبة التجربة الانسانية والاجتماعية وعمقها .. موسيقى تحمل رغبة الصراع والتقدم والفرح الصحيح العميق بالحياة !

وقد تحدث شوستاكوفيتش ، صاحب اروع سيمفونيات معاصرة ، فى المؤتمر الثقافى العالمى ، الذى عقد فى أمريكا سنة ١٩٤٩ ، تحدث عن رسالة الموسيقار فى هذا العصر ، فقال :

« ان مهمة الموسيقار المعقدة لمواجهة مطالب الواقعية الحديثة ، تتطلب منه أن يبعد عن الافكار العظيمة والمشاعر العظيمة ، وأن تحمل أنغامه احساسا عميقا بالتفاؤل ، وتأكيدا قويا للجمال والكبرياء فى البشر .. ولن يستطيع الفنان أن يصنع ذلك فى عالم مضطرب ممزق محطم الاعصاب .. فالسؤال الذى يجب أن يوجهه كل موسيقار الى نفسه اليوم هو : كيف أخدم بفنى ، قضايا السلام ، والديمقراطية والتقدم ؟ .. »

خطاب إلى قارئة مجهولة

الى القارئة الذكية ، التى طلبت فى ختام رسالتها أن اروى لها قصة امراة عظيمة ، كانت فى نفس الوقت زوجة عظيمة ..

لقد قرأت رسالتك ـ الطويلة ! ـ يا آنستى الى آخرها ..

وفى آخرها وجدت توقيعا ، أغلب الظن أنه مستعار!

ولم يكن صبرى على قراءة رسالتك لمجرد انها كتبت باسلوب أعلى بكثير مما تكتب فتاة لم تزل فى الجامعة بعد . ولكن لأنى ـ أيضا وجدت فيها ذكاء كثيرا ، وصدقا كثيرا ..

ولست أظننى مستطيعا أن أشرك القراء فى كل أسئلتك دفعة واحدة ، فأنت تسألين وتناقشين فى الحب والزواج وفى حرية المرأة فى جسدها ، وفى الاشتراكية ، وفى الموسيقى .. وفى وجود الله ! ..

الحب والجسد .. يكفى فى شأنهما هنا بضع كلمات .

لقد روى « أفلاطون » فى احدى محاوراته أسطورة تقول : أن الانسان كان فى مبدأ الأمر جنسا واحدا . ولكن الاله الاكبر « زيوس » غضب على البشر ، فشطر كل مخلوق الى شطرين ، وجعلهم ذكرا وانثى .. فالانسان حين يحب ، انما يستعيد سعادته بالتقائه

بنصفه الاخر المكمل له .. اى ان الحب : رغبة فى الاكتمال ! ..

انها اسطورة طبعا .. ولكنى احبها .. فهى تلخيص بسيط لفكرة الحب .. وهى اساس منطقى بسيط ايضا للاختيار فى الزواج .

اننا نحب ما يكملنا ..

والحب الناجح أو الزواج الناجح هو الذى يتحقق به هذا التكامل ..

أما ما أعجبنى فى رسالتك بنوع خاص فهو : قلقك اللذيذ !

انك على وشك الانتهاء من دراستك فى الجامعة ، فأنت فى أكثر فترات العمر اضطراما بالاحلام الباهرة ..

وانت تريدين أن تكونى امراة عظيمة . ربما اديبة عظيمة أو مكتشفة عظيمة ، أو سياسية عظيمة ... لا أدرى ... فانك لم توضحى لى أى فرع تدرسين ..

ولكنك تريدين فى الوقت نفسه أن تكونى زوجة ناجحة

ومن أسباب قلقك انك تلاحظين ـ فى اشفاق ـ ان النساء العظيمات ، قلما كن زوجات عظيمات ، وان المرأة العظيمة اذا وفقت الى الزواج ، فقلما ترى بجوارها زوجا الا أن يكون خاملا مغمورا .. وهو أيضا ما لا ترضين به !..

وقبل أن أجيب على هذا السؤال ، أريد بدورى ان أسالك : ما هى العظمة فى رأيك ؟.. وما معيارها ؟..

انها ـ فى رأيى ـ ليست الشهرة ! فالمشهورون خليط من الساسة وأبطال الملاكمة ، واللصوص والوارثين والنساء غير الشريفات !

وهى ليست السلطة ، لأن السلطة سلاح ، والسلاح قد يستخدم فى الدفاع عن حق ، وقد يستخدم فى

اغتصاب حقوق الآخرين !
وهى ليست الذكاء ، لأن النصاب فى العادة اذكى من فريسته !
وهى ليست في حرارة الايمان •• فهذا يتوقف أيضا على نوع المعبود !
وهي ليست الثروة ، لأن الثراء قد يكون غير شريف • والوصول غير الشريف قد يوصف بأى شيء •• الا بأنه عظيم !
فما هى « العظمة » اذن ؟..
فكرى فى هذا السؤال جيدا . فان اجابتك الخاصة عليه ، سوف تحدد لك نوع المستقبل الذى تطلبين ..
أما الاجابة التى اقترحها ــ اقترحها فقط ــ عليك ، فهى : ان العظمة هى الشعور بالمسئولية ، والنهوض بها
والمسئولية ــ يا آنستى العزيزة ــ لها درجات ..
هناك انسان يعتقد انه مسئول عن نفسه فقط ! وهو ينهض بهذه المسئولية كاملة ! فلا يقصر فى أن يوفر لنفسه الراحة والامن ، واللذة ، والبعد عن مشاكل الآخرين ! لا يعنيه من التقدم الصناعي مثلا الا انه يزوده بآلة يحلق بها ذقنه لتصبح فى نعومة الحرير !..
واظن ان هذا المسئول عن نفسه ليس فى حاجة الى اهتمامنا به !..
وهناك انسان يعتقد أنه مسئول عن أسرته • دنياه لا تعدو ثلاث حجرات تسكنها زوجته وأولاده • الحياة خارج دنياه هذه كأنها تدور فى كواكب أخرى ، قد تحترق وتتساقط فى الفضاء دون أن يصيبه شيء ..
وفى هذا الفريق قد تجد نوعا من العظمة !.. كثيرا ما نرى رجلا ــ أو امراة ــ يكافح ثلاثين أو اربعين عاما متوالية بغير كلل ، لكى يظل الموقد فى مطبخه مشتعلا ،

والاناه مليئا • وينفق ســــاعة كاملة يساوم مساومة مضنية لكي يهبط بثمن اقة الخضر مليمين يحفظهما لأسرته، فهذا نوع من العظمة ، وهو نوع منتشر فى مجتمعنا ، ولاشك انك تعرفين من امثلته الكثير ..

وهناك آخر لا يقف احساسه بالمسئولية عند حدود بيته • بل يتعداه الى الفئة التى ينتمى اليها ، أو الى وطنه بأكمله ، هذا النوع الذى يتكون منه وقود الثورات ، او سكان السجون ، أو الباحثون عن المعرفة !..

وهناك أخيرا ، الذين يشمل احســـاسهم بالمسئولية هذا العالم بأسره ، والجنس البشرى كله . وهذا النوع عادة من واسعى الثقافة ، الذين يرون بين انحاء هذا العالم الواسع روابط ووشائج لا يراها الآخرون ، فترينهم يحزنون لقنبلة تلقى فى آسيا ، أو لمشنقة تقام فى كينيا • ويشعرون بأنهم مسئولون ويحاولون القيام بدور يتلاءم مع قدراتهم ومدى احساسهم بهذه المسئولية ..

على هذا الاساس يا آنستى : على أساس الاحساس بالمسئولية ومدى القدرة على النهوض بها ، نستطيع ان نقيس العظمة ، وان نعرف درجاتها ..

وحذار ان تخلطى بين العظمـــة والنجاح . فانهما لايتلازمان بالضرورة ، بل كثيرا ما يفترقان ..

اذا كنت تسألين عن النجاح .. فاننى انصحك بقراءة كتب امريكية كثيرة تملأ الأسواق ، تشرح للقارىء كيف يرفع مرتبه ، وكيف يكسب ثقة رئيسه ، وكيف يصادق الناس الذين ينفعونه ، وكيف يقتنص الحظ ، ويشم اتجاه الريح أى باختصار : كيف يسير فى الزفة .. دون أن يفكر فى نوع هذه الزفة ! ..

أما العظماء ، فربما كانوا أقل الناس استمتاعا بثمار عظمتهم • ومن المحقق ان صاحب أى دكان أدوات كهربائية

يكسب ـ من أجهزة الراديو ـ اكثر مما كسب ماركونى نفسه !

فكرى اذن جيدا .. وأنت ما زلت واقفة على السفح جربى قوتك ، وقدرى المشقة ، وتأكدى بالضبط مما تريدين ! ..

فاذا ارتضيت ـ يا آنستى ـ هذا التفسير الذى اقترحه عليك .. فسوف توافقيننى بسهولة على أن النساء العظيمات والزوجات العظيمات على السواء كثيرات ، وأكثر جدا مما كنت تحسبين ..

انظرى الى الناس من حولك على هذا الضوء ، وستجدين نماذج كثيرة .

فاذا كان الاحتكاك بالواقع ينقصك ، أو لايسعفك ، فاقرئى عن هذه النماذج فى كتب الادب ..

اقرئى قصة « الأم » التى كتبها جوركى .. واقرئى قصص شتاينبك الامريكى أو مالرو الفرنسى .

تأملى فيلما سينمائيا مثل فيلم « أمل بمليمين » الذى يدور حول فتى وفتاة لا يملكان مليما ، ولا مستقبلا ، ويريدان الزواج .. وستجدين ان هؤلاء البسطاء من الناس لهم ـ فى حياتهم ـ لحظات باهرة ومواقف عظيمة ولكن ...

كأنى بك لا تقنعين بهذه البطولات المجهولة ، والعظمة المطمورة فى طين المجتمع .. وتلحين فى البحث عن أمثلة شهيرة ..

أمثلة شهيرة لزيجات لا تقوم على أساس من فلسفة أرسطو ، الذى كان يعتقد ان المرأة « رجل لم يتم !! » ، فهى أقل منه فى القدرة والكفاية ، وكان يقول : ان عبقرية المرأة فى اطاعتها !.. بل زيجات تطبق نظام « جمهورية أفلاطون » فى المساواة التامة بين الرجل والمرأة ..

وأنت ما زلت تخافين أن يحرمك نبوغك من فرصة الزواج المتكافىء الناجح ..

ان الاسماء الشهيرة كثيرة أيضا .. يا آنستى .. فى ميدان العلم ؟..

ان الزوجين ، بل العاشقين ، كورى وجهادهما المشترك فى اختراع الراديوم يقدمان لنا نموذجا رائعا ..

في ميدان الادب ؟ .. انك لا شك تعرفين أن جان بول سارتر وزوجته سيمون دى بوفوار ، كلاهما أديب لامع الاسم ، خصب الانتاج ..

والامثلة كثيرة ..

ولكننى أريد أن ألبى طلبك ، وأن اروى لك ـ بالتفصيل ـ قصة مشاركة زوجية فريدة ، يحفظها لنا التاريخ السياسى وترويها كاتبة انجليزية اسمها « مرجريت كولم » ..

أما هى ، فقد كان اسمها « بياتريس » ، وكانت فى شبابها الباكر جميلة حقا ، ولكنها ضعيفة البدن ، ضعيفة البصر ، لا تبشر بشىء على الاطلاق ، حتى كتبت أمها تقول : « ان بياتريس هى الوحيدة بين أولادى التى تقل عن المستوى العادى للذكاء ! » .. وكانت أمها محقة فى ذلك .. فكل بناتها « الذكيات » منصرفات الى شراء الفساتين الانيقة ، والبحث عن أزواج ناجحين .. ما عدا هذه الفتاة الخائبة ، التائهة بين الكتب ، التى تحب الاستماع الى مناقشات الكبار من أصدقاء أبيها .

وليس من المهم فى شىء أن أقول لك ان بياتريس ولدت سنة ١٨٥٨ ، فالأهم من ذلك أن أحدثك عن العصر الذى ولدت فيه . فنحن أبناء الايام التى نولد فيها وأنت مثلا ، لو انك ولدت ـ بنفس ذكائك ـ قبل مولدك بعشرين سنة ، لما دخلت الجامعة ، ولما ثارت فى

نفسك هذه الاسئلة ..

وقد كان من حظ بياتريس أن تولد فى فترة من أخطر الفترات فى تاريخ المجتمع الانسانى !

لقد ولدت بياتريس بعد أن ظهرت الثورة الصناعية وتم وجودها . ووصلت الى دور الصبا وقد انتزع أصحاب الصناعات الجديدة القوة من أمراء الاقطاع والملاك والمزارعين ومن بعض الملوك . واقترن هذا الكشف العظيم بتعاسات تناسب عظمته .. فقد هجر الفلاحون أرضهم ، وأغلق أصحاب الصناعات الصغيرة دكاكينهم ، وانخرطوا جميعا ضمن جيش جرار من العمال الصناعيين ، يعملون رجالا ونساء وأطفالا طول النهار وأغلب الليل فى ظروف بشعة ، ويسكنون كهوفا مميتة ، فقد أصبحت الآلة تصنع فى ساعة ما كان يصنعه عشرات الرجال فى شهر. ولم تكن الحكومات قد تعودت من قبل ان تهتم بمشاكل رعاياها « الخاصة » .. كالسكن والبطالة والطعام والأجر !

وهنا .. لم يجد المفكرون والفلاسفة مفرا من أن يتركوا ما كانوا غارقين فيه من مناقشات حول أصل الكون ، وما وراء المادة .. ويفكروا فى هذه المشكلة الخطيرة الداهمة ..

ان اكتشاف الصناعة لايمكن أن يكون سيئا .. ولا يمكن أن تكون الآلات الحديثة بذاتها مؤدية الى هذا الشقاء ..

اذن فلا بد أن العيب كان فى طريقة استعمالها .. والمجتمع بناء على ذلك يجب أن يعاد تنظيمه.. ولكن كيف ؟..

وازدحمت أوروبا بعدد من الآراء والنظريات والمحاولات يكفى لمئات اخرى من السنين !!..

قال الفوضويون : نريد مجتمعنا بلا حكومة !.. فاذا كانت الحكومات لم تصنع لشعوبها الا العبودية والاضطهاد والاستغلال فلتذهب الى الجحيم !

وأطلق الفرنسي روبرت أوين لأول مرة كلمة «الاشتراكية» .. ثم لم يلبث أن ظهر من هذه الاشتراكية الف صنف وصنف !..

كان هناك كارل ماركس وفريدريك انجلز من ناحية يقولان انه لابد من أن يقوم العمال بسلسلة من الثورات تنتهي بالانفجار الكبير الذى يستولون به على السلطة ويلغون سائر الطبقات الغاء ..

وكانت هناك « الجمعية الفابية » فى لندن ، تدعو الى التدرج والتطور البطيء والى تحقيق الاشتراكية عن طريق الحياة البرلمانية العادية ..

واسم الجمعية الفابية مأخوذ من اسـم قائد رومانى هو «فابيوس» كان تكتيكه الحربى يتلخص فى أن لايشتبك مع العدو فى معركة حاسمة ابدا ، لأن العدو أقوى منه ويستطيع أن يقهره فى هذه المعركة الحاسمة الواحدة ، فهو يفضل أن يحاربه فى سلسلة من المناوشات الصغيرة المتوالية ، حتى يصل الى النصر ، وهذا الاسم وحـده كاف لشرح فلسفة الجمعية ..

ثم كان هناك ــ بالطبع ــ ملوك الصناعة الجدد ، الذين يدافعون عن النظام القديم الذى استطاعوا فيه أن يحققوا كل الثراء ولو ذهب الآخرون الى الجحيم !

ولدت بياتريس اذن فى هذا العصر الرهيب.. والارض مكتظة بالمفكرين، يملؤها فى وقت واحد ضجيج الفرنسيين برودون وروبرت اوين والالمانيين كارل ماركس وفريدريك انجلز والروسى باكوين والانجليزيين هربرت سبنسر ، وجون ستيوارت ميل !..

وكان هذا كافيا لأن يجعل التفرقة بين الهدى والضلال أمرا عسيرا ، وكان مما يزيد البحث عسرا أن تكون كل هذه الآراء فى بدء تكوينها ، النظرى والعملى على السواء ، لم يمض عليها الزمن والتجربة الكافيان لاختبارها بعد .

وكان البيت الذى ولدت فيه بياتريس ينتمى الى فئة التجار الذين يكسبون وتتضاعف أرباحهم . وعلى صالونه يتردد الزعماء والساسة والفلاسفة والنساء المثقلات بالمجوهرات ..

ولكن بياتريس لم تمض فى موكب أمها واخواتها وهن يبحثن عن المتعة والتسلية وحفلات الشاى .. ولم تتعلق أحلامها بزوج «ناجح» يوفر لها الفراغ والثياب الفاخرة والعربة التى تجرها الجياد ..

لقد كانت تقرأ وتثقف نفسها ، وتهتم بمشاكل الجانب الآخر من المجتمع .. الجانب الذى يعيش فيه التعساء .. حتى استحقت أن تصفها أمها بالغباء ! ..

وكانت تنتظر فى حياتها رجلا ، يحمل فى راسه فكرة ، ولو كان خاوى الوفاض ! ..

ودخل حياتها من هذا النوع ثلاثة رجال !!

كان الاول هو « اوستن تشمبرلن » النجم اللامع فى سماء السياسة الانجليزية فى ذلك الوقت ، رجل باهر الشخصية خلاب الحديث ، من الزعماء الراديكاليين ، لا يكف عن الحديث عن آلام الفقراء وضرورة تحسين أحوالهم ، كان من طبقتها ولكنه أكبر منها بعشرين سنة . احبته من جانبها حبا صامتا ، أما هو فقد اهتز فقط لذكائها وثقافتها المبكرة وشخصيتها . وكان ممكنا أن يجعل منها زوجته الثالثة ، لولا أن صعود نجمه السياسى كان سريعا ، فلم يتمكن من الوقوف عندها كثيرا . ولولا انها جزعت منه عندما عرفته معرفة دقيقة فكتبت عنه

فى مذكراتها الخاصة : « .. لا يستريح الا اذا سحق ما يعترض ارادته !!.. يحب أن يشعر بقدمه موضوعة على أعناق الآخرين ، كأنه هو الحق المطلق والآخرون خطأ محض ! » . وكأنها كانت تتنبأ بمستقبله . فقد تحول ـ مع النجاح ! ـ من مصلح حر الى استعمارى عريق !

أما الرجل الثانى ، فلم يكن عاشقا ، بل كان معلما. ذلك هو الفيلسوف هربرت سبنسر .

كان هربرت يسهر فى صالون خارج البيت ، فلا يجد من يفهم منه غير هذه الفتاة ، فأحبهـــا واتخذها تلميذة وصديقة ومساعدة له . وكانت فلسفته تكاد تغطى كل مشكلة من مشاكل التفكير فى ذلك الوقت ، ويعنينا منها هنا جانبها الاجتماعى . وفى هذا الجانب كان سبنسر يعتقد ان أكثر ما يسىء الى الشعوب هو الحـــكومات ، نظرا لتركز السلطة والقوة كلها فى يدها . وان ظهور الصناعة قد أدى الى توزع القوة بين عدد أكبر من الأفراد ، الأمر الذى أضعف سلطة الحكومة وجعل قدرتها على الطغيان محدودة . وعلى هذا الاساس كان يدعو الى الحرية الاقتصادية المطلقة ، لأن الصناعة فى رايه لايمكن أن تتقدم الا فى ظلها . أما الاشتراكية ، فهى اذ تجعل الدولة مالكة لوسائل الانتاج ، انما تعيد السلطة القديمة الى الحكومة ، وتتيح لها مرة أخرى فرصـــة الطغيان ، هذا الى أن الدولة لايمكن أن تتنبأ وتتحكم فى كل العوامل الاقتصادية ، ولو كان وزراؤها من المنجمين! فمن الخير أن تترك كل شىء لقانون العرض والطلب !

وكان سبنسر أيضا يكره اشتراك الجميع فى التفكير السياسى . وكان لا يفتأ يردد أن الانسان لكى يصبح خبيرا فى الطبيعة مثلا أو الهندسة يحتـــاج الى سنوات طويلة من التعليم والدراسة ، أما السياسة ، فان أى

صبى بقال يعتبر نفسه خبيراً فيها ، ويعتقد انه يعرف الحل ، ويطالب بسماع رأيه !!

ولا شك أن هذه الافكار قد أثرت فى بياتريس فترة من الزمن ، ولكنها لم تستول عليها استيلاء كاملا فى اى وقت .

أما الرجل الثالث ، فقد كان عليها أن تمضى فى طريقها فترة أخرى قبل أن تلتقى به ..

كانت منذ حبها الخائب الأوستن تشمبرلن جريحة القلب ، سيئة الظن ، حتى لقد عقدت العزم على أن تقضى بقية حياتها امرأة وحيدة !

وتركت بياتريس العالم المضىء فى بيتها ، وذهبت تبحث عن أقارب فقراء قيل لها انهم يسكنون فى بعض أزقة لانكشير ، يعملون بالاجر ويقتاتون من الفتات . ذهبت الى هناك لكى تعيش معهم فترة تدرس فبها أحوال العمال ، تمهيداً لوضع كتاب عنهم ؟

وعاشت بياتريس فى لانكشير زمنا .. تقابل العمال وتطوف بالمصانع وتدخل البيوت ، وتسجل الآراء والبيانات والملاحظات ، وأحبها الفقراء هناك حبا شديداً ، ولم يأخذوا عليها الا انها كانت أحيانا تدخن السجاير .. وهو منظر لم يكن مألوفا من النساء فى ذلك الوقت !

واكتشفت بياتريس لاول مرة أن هناك شيئا اسمه الحركة التعاونية ، وأن هذه الحركة تنتشر بين العمال بسرعة .

وعندما عادت الى لندن ، بدأت تضع أول مؤلفاتها ، دعت فيه الى ديمقراطيات المستهلكين .. أى الى تكوين جمعيات تعاونية تشترى السلع وتوزعها على الاعضاء بغير ربح .. ولكنها هاجمت فيه « ديمقراطية الانتاج »

اى ان تقوم مؤسسات أنتاجية عمالها هم أصحابها ، وقالت انها غير نافعة ولا مجدية ، لانها لن تستطيع أن تصمد أمام مؤسسات الانتاج التجارية العادية ·

وقد ظلت حتى ساعة صدور هذا الكتاب الاول لهـا ، على كراهيتها القديمة للاشتراكية ، بل ولقضية المرأة أيضا . فقد اشتركت سنة ١٨٨٩ فى اصدار بيان يهاجم المطالبات بحقوق المرأة السياسية !!

ولكن نقطة التحول فى حياتها كانت تقترب ..

ففى ذلك الوقت بالذات قرأت أول كتاب لجمعية الفابيان ، بعنوان « مقالات فابيانية » ، وكان يضم عدة أبحاث لبعض أعضاء الجمعية ، ولم تكد تفرغ من قراءته حتى كتبت الى صديق لها تقول : « ان أروع ما فيه المقال الذى كتبه سيدنى ويب فان له حاسة تاريخية رائعة » !..

وبعد شهور احتاجت فى بعض ابحاثها الى معلومات من أحوال الطبقة العاملة فى القرن الثامن عشر، فنصحوا لها بأن تقابل مستر سيدنى ويب هذا ..

وذهبت اليه · وعادت من عنـــده مبهورة بكفايته ، تروى كيف انه تدفق أمامها بالمراجع والبيانات الدقيقة .. ثم بدأت تلقاه على موائد بعض الأصدقاء ..

أما هو .. فقد وقع فى هواها من النظرة الأولى !..

أما هى .. فقد أحبته بالتدريج .. كانت أكبر منه بسنتين . وكان حبهـا الخائب الأوستن تشمبرلن قد علمها الا تنساق بعيدا وراء العواطف . ولكنها وجدت متعة حقيقية فى مناقشة وتبادل الآراء والمعلومات والكتب معه · وعندما دعاها للسفر الى جلاسجو لحضور المؤتمر التعاونى لبت الدعوة .. وهناك ، فى ليلة العطلة ، وبين صيحات السكارى وصخب المحتفلين ، كاشفها للمرة الاولى بحبه ..

ولم تقابل اعترافه هذا باجابة واضحة ، ولكنها كتبت فى مذكراتها تلك الليلة جملة واحـدة : « أخيرا .. اصبحت اشتراكية !! »

وكأن بياتريس ظلت تقلب أمر زواجها من سـيدنى زمنا ، متوقعة أن يقابل أهلها هذا الزواج بمعارضـة عنيفة . وبعد سنة تقريبا ، كانا فى عربة يتنزهان عندما أحاطت عنقه بذراعها فجـأة .. فاستبد به الفرح ، اذ عرف انها قد وافقت على الزواج ..

وظلت هى ترسم الخطط لكى تجعل والدها يقبـل زواجها من سيدنى ، ولكن اباها مات بعد شهور دون ان يعلم ..

وهنا فقط أعلنا انهما قررا الزواج . ونشر الخبر فى مجلة جمعية الفابيان ، أما أهلها فقد قاطعوها وقالوا انها تزوجت رجلا من حثالة المجتمع ، بالرغم من شهرته ككاتب ، أما أستاذها القديم هربرت سبنسر فقد ذعر ذعرا شديدا ، وقال لها : من أجل سمعتى التى أحافظ عليها ، لا أتحمل أن يذاع عنى أن تلميذتى أصـبحت سيدة اشتراكية ! مستحيل ! اننى مضطر أن أعلن أن الصلة بيننا كانت شخصية محضة !

ولكنه ، عندما اقترب أجله بعد ١٢ سنة ، لم يجـد من تزوره وترعى شئونه وتسأل عليه غير واحدة فقط هى بياتريس !

ولم يكن « سيدنى ويب » ــ كما قال أهل بياتريس ــ من حثالة المجتمع .. ولكنه كان فقيرا فحسب ! ..

كانت أمه تملك دكانا للخردوات ، وأبوه يتنقل من عمل الى عمل ، بائعا أو حارسا ، أو ما شابه ذلك من الاعمال . وتعلم سيدنى أول حروف القراءة من لافتات المحلات فى لندن ، ثم فى المدارس الليلية ؛ واضطر للعمل

وهو صغير ، ولكنه عندما صار شابا كان موظفا صغيرا فى الحكومة ، يتقن اللغة الانجليزية والفرنسية والالمانية ، ويقرأ الفلسفة والاقتصاد ويتأمل تطور المجتمع .. وقبل خطبته لبياتريس بقليل ، ترك الحكومة وقرر أن يكسب رزقه من الكتابة فى الصحف ، وأن يكرس بقية وقته لجمعية الفابيان ، حيث كان هو وبرنارد شو محورى الحركة والنشاط .

كان هذا هو الرجل الذى تزوجته بياتريس ، بنت الطبقة الغنية الناجحة ، وفضلته على الازواج اللامعين من نجوم المجتمع !.. وقد ذهبت فى تحديها لأسرتها حتى انها تخلت عن اسم أسرتها وقررت أن تحمل اسمه ، فأصبحت من ذلك الوقت « بياتريس ويب » ..

وانضمت معه الى جمعية الفابيان . وعرفت أعضاء الجمعية وأحبتهم واحترمتهم ما عدا برنارد شو الذى قالت انه ساخر أكثر من اللازم ، وانها لا تستطيع أبدا أن تحمله محمل الجد !

أصبحت بياتريس عضوا فى جمعية الفابيان مع سيدنى

وقد قلت لك منذ قليل ان اشتراكية جمعية الفابيان تقوم على التدرج ، بل وعلى « التسلل » .. فلم تكن الجمعية تصطدم مع الحكومات القائمة ، ولم تكن تستند الى أية حركة أو منظمة عمالية ، ولكنها كانت تقوم بمهمة الاقناع .. اقناع الجميع ، حتى الاحزاب المحافظة !..

ولخصت الجمعية رسالتها آنذاك فى كلمتين : الدراسة .. والنشر ! ..

دراسة المجتمع الانجليزى من جميع نواحيه ، واستخلاص كل ما يؤيد الدعوة الى تغيير هذا المجتمع .. ونشر هذه الدراسات على أوسع نطاق ممكن حتى يتكون حولها اقتناع عام قوى ..

وكانت وسائل «النشر» تشمل اصدار الكتب والنشرات والمجلات .. والقاء المحاضرات واقامة حلقات البحث والمناقشة ، والوقوف على أى صندوق فارغ أمام أى جمهور ممكن ، لشرح مبادىء الجمعية ..

ومنذ تزوج سيدني وبياتريس ، قررا أن يكرسا حياتيهما لهذه الرسالة : رسالة الدراسة والنشر .. واستأجرا فى قلب لندن بيتا عاشا فيه ثلاثين سنة متوالية ، لم يلبث أن أصبح أقرب الى خلية النحل التى تموج بالحركة والنشاط منه الى العش الهادىء الذى يركن اليه زوجان !

فالآن تبدأ زمالة من تلك الزمالات النادرة فى التاريخ. زمالة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، لم يسكت فيها هذا « الثنائى » عن الدراسة والانتاج والاتصال بالناس

كان أول نشاط مشترك لهما كتابا فى « تاريخ الحركة النقابية » ثم كتاب « الديمقراطية الصناعية » ، ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف انتاجهما حتى أصبحت مؤلفاتهما المشتركة تعد بالعشرات ..

وحتى سنة ١٩٠٥ ، كان اسم سيدنى هو اللامع ، فى حين ظل اسم بياتريس باهتا بجواره ، خصوصا وان الناس كانوا معتادين على نسبة الفضل فى مثل هذا العمل المشترك الى الرجل ..

وفى سنة ١٩٠٥ ، كان ضغط المطالبة بالعدالة الاجتماعية قد اشتد على الحكومة ، وقررت الحكومة الانجليزية تشكيل لجنة تحقيق لتنظر فى أمر القانون العتيق الذى كان معروفا باسم «قانون الفقراء» والذى كان مصدر كثير من الظلم الواقع على الطبقات الفقيرة ، واختارت الحكومة بياتريس لتكون عضوا فى اللجنة .

قامت اللجنة بدراسة شاملة للحالة الاجتماعية

والاقتصادية فى انجلترا . وكان طبيعيا الا يتفق أعضاؤها على رأى واحد.. وانتهى الأمر بأن يصدر عنها تقريران : تقرير للأغلبية يحمل توقيع كل الاعضاء عدا عضوا واحدا .. وتقرير للأقلية تكتبه وتوقعه بياتريس وحدها !!

وانفجر تقرير « الأقلية » كالقنبلة !..

لقد كان الجو العام فى انجلترا محافظا وكانت نقابات العمال ينظر اليها شذرا على أساس أنها وباء يجب القضاء عليه ، وكان أكثر الناس تساهلا يعتبرها نوعا من البثور تظهر على وجه المجتمع فى فترات الازمة ثم لا تلبث أن تزول .. وكان التفكير السائد المستتر فى نفوس الناس أن الفقر جريمة ! .. وأن الفقراء وحدهم هم المسئولون عن فقرهم ، اما لأنهم جهلة أو لأنهم أغبياء !.. وكانت الحكومة تعتبر نفسها غير مسئولة عن رعاياها الذين لا يجدون عملا ، أو لا يجدون سكنا أو طعاما ..

ولكن تقرير بياتريس ـ مستفيدا من كل تعاليم جمعية الفابيان ـ جاء معارضا لهذا كله ..

لقد دعت فيه الى الاعتراف بنقابات العمال . ودعت الى تدخل الحكومة فى الحياة الاقتصادية لتامين العمال ضد العجز والبطالة والشيخوخة والمرض . وطالبت بوضع نظام للتأمين على العمال ضد هذه الكوارث ، ولتوفير العلاج لهم ، ولاعانة المتعطل فى فترة بطالته .

هذا التقرير هو بعينه تقريبا الذى أصبح بعد أربعين سنة برنامجا رسميا لحزب العمال ، ثم لحكومة العمال. وهو المنبع الاول لتقرير « بيفردج » الشهير الذى ظهر بعد الحرب الاخيرة ! ..

وقد يبدو الحديث عن هذه الاشياء الآن عاديا . وقد ترين أنها استقرت في الاذهان ـ حتى فى أذهان الكارهين

لها ـ كحقوق طبيعية للمواطنين . ولكنها لم تكن كذلك منذ نصف قرن .. حين صدر تقرير بياتريس ..

ورفضت الحكومة بالطبع أن تأخذ بتقرير «الأقلية». ولكن صدور هذا التقرير كان فرصة فريدة ، اقتنصتها الجمعية للدعاية لمبادئها على نطاق واسع

وتزعم سيدني وبياتريس حملة هائلة للدعاية لهذا التقرير

أعلن سيدني وبياتريس ان لكل مطبعة الحق فى أن تطبع التقرير وأن تبيعه كما تشاء.. فتدفقت من المطابع طبعات مختلفة الاشكال والاحجام، وبأسعار زهيدة جدا

وحاولت الحكومة ان تقاوم هذا النشر فأنذرت بياتريس بأن التقرير ملك للحكومة ، ولكنها لم تذعن لهذا الانذار ، ثم أعلن سيدني وبياتريس عن تكوين جمعية للدفاع عن هذا التقرير وانطلقا يعملان عملا مضنيا بغير انقطاع لتكوين هذه الجمعية .. فلم تمض شهور حتى اصبح لها مقر ، وبلغ عدد الاعضاء المقيدين فيها ١٦ الف عضو ، يضمون رجالا ونساء وشبابا من جميع الطبقات والطوائف والهيئات .. حتى الشاب ونستون تشرشل، كان أحد المشتركين فيها !

واذ أصبح للجمعية هذا الدور والانتشار ، بدأ سيدني وبياتريس يحولانها من جمعية للدفاع عن التقرير الى هيئة تطالب بتغيير النظام الاجتماعي بقصد القضاء على الفقر ، بدلا من الانصراف الى علاج آثاره ..

وهنا .. كان لابد أن ينفض عن الجمعية الكثيرون . كان لابد أن يخرج منها كل الذين دخلوها بدافع المروءة ، عندما وجدوا ان رسالتها تتطور الى احداث تغيير أساسى كبير .. يضر بمصالح الكثيرين منهم . وكان من أول الخارجين .. الشاب ونستون تشرشل !..

وبعد سنوات من الكفاح الرائع تمزقت الجمعية ؛

ولكن بقي منها أمر هام .. هو اقتناع سيدني وبياتريس بأن الاعتماد على الاحزاب الموجودة وعلى الافراد لايجدي. وانه قد آن الأوان لتكوين حزب اشتراكي قوي يستمد قوته من نقابات العمال .

فبعد أن اشتركا في جمعية الفابيان ، وأسسا مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية ، وبعد أن خاضا معركة قانون الفقراء ، وبعد عشرات من الكتب ومئات من الابحاث والمحاضرات عن النقابات وحركات التعاون والعمال ، وجد الزوجان ، الزميلان ، ان الوقت قد حان لتكوين حزب

وأعلن عن تكوين حزب العمال .. وكان المهندسان اللذان وضعا برنامجه ورسما له خطة العمل هما : هندرسون وسيدني ويب .. وعندما يقول التاريخ سيدنى فهو يعنى بياتريس أيضا . كما انه عندما يقول بياتريس انما يعنى سيدني !..

ودخل الحزب الجديد أول معركة انتخابية سنة ١٩١٨ ، وفاز بستين مقعدا في مجلس العموم . وأصبح بذلك هو المعارضة الرسمية لحكومة صاحب الجلالة !

وكان أكثر نواب الحزب من العمال غير المدربين على العمل ، وجعلت بياتريس رسالتها أن تعلمهم وتدربهم وتعقد لهم حلقات المناقشة والبحث .

وكانت بياتريس تعتقد أن أعضاء الحزب ـ نوابا وغير نواب ـ لن يستطيعوا شيئا كثيرا ، اذا كانت زوجاتهم جاهلات برسالتهم .. فأنشأت جمعية لزوجات أعضاء الحزب ، أطلقت عليها اسم « جمعية نصف الدائرة » ـ فالدائرة لا تتم الا برجل وامرأة ـ جعلتها أداة لرفع الزوجات الى مستوى رسالة الازواج .. حتى يصبحن مثلها شريكات وزميلات .. لا مجرد تابعات !..

وبعد : يا آنستي .. فأظنك سوف توافقين على اعفائي

من سرد بقية القصة.. فقد أردت ان اقدم لك «صورة» فحسب .. لا قصة كاملة ..

هذا الى أن بياتريس وسيدني قد عاشا طويلا .. عاشا حتى تجاوزا الثمانين. لاينقطع كفاحهما، ولايتردد سيدنى عن خوض المعركة، فى دائرته ..

وقد أصبحا عجوزين، وباتت أعصابهما المرهقة لا تحتمل ضجيج لندن. وذات يوم نشرت الصحف فى اعلاناتها المبوبة اعلانا صغيرا يقول: «مسز ومستر ويب يريدان شراء بيت ريفى، قريب من لندن، فى مكان لا تصل اليه أصوات الديكة والكلاب !!» ..

أما هو، فقد أصبح عضوا فى اللجنة العليا للحزب وصاحب الرأى الاول فيه، ودخل وزارات العمال أكثر من مرة، وحمل لقب «لورد باسفيلد» حتى يدخل مجلس اللوردات ويستريح فى هذه السن من الانتخابات، ولكن بياتريس رفضت أن تحمل لقب «ليدى باسفيلد» واصرت أن تبقى «بياتريس ويب» وشنت عليها الصحف حملة عنيفة لرفضها أن تحمل لقبا انجليزيا عريقا !

ولأول مرة خلال زمالة دامت خمسين سنة، اضطرا الى الافتراق فترات طويلة .. هى فى بيتها الريفى، وهو فى أعماله الضرورية فى لندن ..

ولأول مرة، عندما أصبح يغيب عنها، ندمت على القرار الذى اتخذته عندما تزوجت منذ نصف قرن: بالا تنجب أطفالا !..

ولكن أقاربها الذين انفضوا عنها يوم تزوجت ذلك الشاب الاشتراكى المجهول الخالى من الأناقة، أصبحوا يحجون اليها فى بيتها الريفى، ويقدمون اليها أطفالهم، فتقضى معهم أوقاتا سعيدة ..

وأصبحت الهيئات الرسمية أيضا تعترف بها،

فالاذاعة الرسمية تدعوها من حين لآخر الى الكلام .. وأكاديمية لندن تضمها عضوا ، فتصبح السيدة الوحيدة فى الأكاديمية ومدرسة لندن الاقتصادية تضع فى مدخلها لوحتين لها هى وزوجها اللذان قاما بانشاء المدرسة..

ولكنها كانت فى أيامها الأخيرة ساخطة على حزب العمال .. لا تفتأ تردد انه اصبح يشبه حزب المحافظين فى وجوه كثيرة · وكانت تسأل زوارها دائما ، عن الشبان اللامعين فى الحزب او تتمحل ساعة توليهم زمام القيادة لعلهم يكونون أصلب عودا .. وكان هؤلاء الشباب الذين يترددون عليها ويستمعون الى آرائها هم : ستافورد كريبس وكليمنت آتلى وهربرت موريسون ! ..

ولم تتوقف خلال ذلك كله عن التأليف والدراسة لحظة واحدة !..

وماتت بياتريس سنة ١٩٤٣ ، خلال الحرب الأخيرة

وعندما فاز حزب العمال لأول مرة بالأغلبية المطلقة سنة ١٩٤٥ ، وبدأ فى تنفيذ برنامجه ، وقف هارولد لاسكى يقول : « ان كل الناخبين الذين اختاروا حزب العمال ، يتوجهون اليوم الى ذكرى بياتريس وسيدنى ويب ويحيون « زمالتهما » .. »

فما رأى « القارئة المجهولة » ؟..

انتى لم أقدم الك هذه الصورة لكى تصنعى مثلها ، أو لتحاولى تقليدها .. كلا .. فان أروع ما فى التاريخ ان الناس يتعلمون منه ، ولكنهم يضيفون اليه !

وأنت قد ولدت بعد ميلاد بياتريس بثمانين سنة على الاقل .. ثمانون سنة تفصلك عنها لا بأيامها فحسب ، ولكن باكتشافاتها وتجاربها وأحداثها ! ..

وجه جديد في عائلة نهرو

« نحن ثلاث شقيقات .. ليكها وريتا وأنا . نشأنا والهند مسرح تدور عليه دراما سياسية عظيمة ، سوف تبقى مشاهدها عالقة بأفئدتنا الى الأبد .. وهذا الكتاب يروى قصة الأثر الذى تركته هذه الدراما فى حياتنا ، لعلها تعجب أولئك الذين لم تكن لهم طفولة كالتى مرت بنا ! »

هكذا تقول الفتاة الجميلة التى لايزيد عمرها على العشرين الا قليلا .. وهى تقدم كتابها الحافل بصور من الأحداث الكبيرة والمشاعر الرقيقة !

والفتاة مؤلفة هذا الكتاب اسمها « ناينتارا ساجال» أو « تارا » كما تناديها أمها . أما أمها فهى السيدة فيجايا لاكشيمى ، شقيقة نهرو المعروفة التى زارت مصر عدة مرات ، وراست دورة الأمم المتحدة منذ سنتين والتى تشغل الآن أهم منصب دبلوماسى فى بلادها ، وهو منصب سفيرة الهند فى انجلترا ..

وعندما كانت الهند مستعمرة ، كان الحاكم الانجليزى للمقاطعة يقول عن عائلة نهرو : «هذه العائلة الملعونة» ! وكانت عائلة ملعونة حقا ، فهى التى تثير الاضطرابات ، وتبث الثورة ، وتدخل بأسرها الى السجن .. من الجد العجوز «موتيلال» والد نهرو الى الحفيدة « ليكها » التى

تبلغ الثانية عشرة من عمرها فحسب !!

وليس فى الأحداث التى ترويها لنا «تارا» جديد .. فالدراما التى مثل ادوارها أربعمائة مليون هندى ، والتي تمخضت عن استقلال الهند وتحولها الى قوة دولية كبرى ، احداثها معروفة للجميع ..

أما الجديد ، فهو الزاوية التى تنظر منها «تارا» الى الأحداث بنظرة طفلة ثم شابة تنظر الى الحوادث من الباب الخلفى .. فهى ترسم لنا صور المجاهدين ، والمجاهدات لا فى ميادين المعركة ، ولكن فى بيوتهم ، فى ساعات راحتهم ولهوهم .. فى طعامهم ونومهم وبين أطفالهم .. ومن هنا جاءت رقة الكتاب وعذوبته .. وانسانيته !!

ففى فصل بعنوان «نحن والسياسة» تروى لنا كيف بدأت وهى طفلة صغيرة تفتح عينيها على ما يحيط بها من أحداث .. فتقول : « كنت فى الثالثة من عمرى ، وكنا — أمى وأبى وشقيقاتى — نتناول الشاى ساعة العصر ، وقد صنعت لنا أمى فى ذلك اليوم كعكة بالشيكولاتة . وكان وجود كعكة الشيكولاتة مع الشاى نوعا من الترف لا يتكرر كثيرا ، فله فى نفوسنا الصغيرة فرحة كبيرة .. وبينما نحن نشرب الشاى ونرمق الكعكة بشغف اذ دق الباب ودخل علينا عدد من جنود البوليس ، وسألت اختى « ليكها » عن سبب قدومهم ، فقالت لها أمى : لقد جاءوا لكى يأخذوا أباك الى السجن . وليس هذا مزعجا ، لأن «بابو» يريد أن يذهب اليه . فقمنا وقبلناه جميعا ، وودعناه ، ورأيناه ينصرف وهو يتبادل الحديث مع رجال البوليس ، ولما أغلق الباب وراءه أكملنا التهام كعكة الشيكولاتة .

ومن تلك اللحظة بدأت تعلم شيئا عن حركة العصيان

المدنى التى يتزعمها غاندى ، واقترن السجن فى عقلها الباطن بكعكة الشيكولاتة ، حتى أطلقت على هذا الكتاب اسم : « السجن وكعكة الشيكولاتة » .

ثم هى تصور لنا انطباعات الفتاة الصغيرة ازاء هذه الأحداث التى لا تفهمها بالضبط فتقول : « وعندما وجدنا أن أبى وأمى وخالى وجدى يذهبون كلهم الى السجن أصبحت أنا وشقيقاتى نريد أن نكبر بسرعة لنذهب اليه مثلهم !! .. وقد جربت أختى الكبرى « ليكها » السجن بعد ذلك عندما بلغت الثامنة عشرة ، وعادت تقول لنا : « ان الحياة هناك ليست سارة كما كنا نظن ! » .

وفى جميع صفحات الكتاب نلاحظ ان «تارا» كانت تتأثر بأمها وتعجب بها أكثر مما تتأثر بأبيها وان كانت تكن له نفس التقدير . وقد ذهبت أمها أيضا الى السجن وسمحت السلطات لها يوما وهى فتاة صغيرة بأن تزور أمها فى السجن ، وهى تسجل تلك اللحظات فى سطور بارعة فتقول : « كنا قد تعودنا أن نرى « مامى » فى البيت تحوطها هالة من الجمال والرقة . كنا نراها تخرج فى الصباح الباكر الى الشرفة ، وتركع على ركبتيها ثم تأخذ فى تنظيم الزهور فى آنيتها بعناية وصبر . وكنا نسمع صوت ضحكتها الفضية يتزامى الينا من حجرة الصالون فى الليالى التى يزورنا فيها الضيوف . وما اقسى ان نرى أمنا هذه تذهب الى السجن الكئيب ، وأن نراها واقفة وسط عشرات غيرها فى ثياب السجن الخشنة تلوح لنا من وراء القضبان !.. وأن نرى السيارات المسلحة والجند المدججين بالسلاح يأتون ليقبضوا على هذه المرأة الجميلة الرقيقة التى تدعو الى عدم العنف !! »

حتى الخدم فى البيت كان لهم دور فى المعركة. وعندما وقف خادمها الساذج هارى فى المحكمة وسأله القاضى الانجليزى :

ـ ما عمرك ؟..

سكت الخادم طويلا يفكر ، ثم قال : لا أعرف بالضبط ولكنى بدأت أحلق ذقنى عندما تخرج مستر نهرو من الجامعة !!

فلم تتمالك تارا وشقيقتاها انفسهن من الضحك .. وكن جالسات فى مقاعد المتفرجين !!

وبنفس الطريقة تحكى قصة اول مرة رات فيها غاندى :

« كنت فى الرابعة من عمرى ، وجاء غاندى الى بيتنا وجلس فى الحديقة يقيم أحلى صلواته بين جمع من الناس

« وأعطتنى أمى باقة من الورد وطلبت منى أن أقدمها اليه ، وعندما نزلت الى الحديقة اتجهت الى أبى ، فجذبنى من ذراعى الى رجل ضئيل يجلس على الارض .. وصحت بصوت عال : ان شكله قبيح .. لن أعطيه الزهور ! »

وضحك الرجل الجالس على الأرض وربت على خدى وقال : « أرجو أن تظلى صريحة على الدوام ! » ..

من هذه الحوادث الصغيرة والانطباعات المتوالية تكون الوعى السياسى عند « تارا » ..

وهى عندما تحاول الرجوع بذاكرتها الى بدء ظهور هذا الوعى فى نفسها لا تستطيع أن تحدد تاريخا معينا « لقد بدأ اهتمامنا بالسياسة ينمو تدريجيا وبغير ارادة منا . لقد نشأنا فى الوقت الذى انضوت فيه الهند تحت زعامة غاندى . وكنت أنا وشقيقتاى من أصغر بنات الهند اللواتى أدركهن جانب من اشعاع غاندى الذى أضاء بلادنا كلها ..

« ولم نكن نرى غاندى كثيرا . ولكن أسرتنا كانت ترى فى خالى جواهر لال نهرو رمز انضواء العائلة كلها تحت لواء غاندى . فقد كان خالى مقربا اليه ، وكان من أوائل الذين انضموا الى حركته » .

ولابد أن يخطر لنا فى هذا المقام سؤال ..

ان « تارا » وشقيقتيها لم يتمتعن بالطفولة الهادئة التى يعرفها أغلب الناس . كانت طفولتهن عاصفة ، أهون ما فيها أن تذهب الأم ويذهب الأب الى السجن كل حين وآخر .. فكيف كان أثر هذه الحياة المضطربة على طفولة البنات الصغيرات ..

ان «تارا» تشرح لنا هذا الأثر ، فى أسلوب من الزهو والفخر !..

« لقد كان نمونا ونضجنا مطردا مع نمو النضج السياسى فى الهند على أساس من التضحية وضبط النفس والسلم . وقد أثر هذا فى حياتنا ، وبعث فيها نوعا فريدا من الروعة !..

« الروعة ؟ .. ربما تبدو هذه الكلمة غريبة فى وصف فترة عاش فيها أبى وأمى بعيدين عنا ، بين السجن والعمل السياسى الشاق . ولكن هذا بعض سحر غاندى لقد علمنا أن نرى فى هذا الكفاح نوعا من الفخار لايدانيه اى فخر !!

« لقد كان أروع ما فى تعاليم غاندى انها أقنعت الناس بأن يهجروا روتين حياتهم الرتيب ويخوضوا معركة الحرية فى بسالة . كانت دعوته الى دخول السجن نوعا من عدم التعاون مع الحكومة بأسلوب سلمى . وكان الذهاب الى السجن يتم فى بساطة ولباقة وكبرياء وقد ادى برنامج عدم التعاون هذا الى الفصل بين الازواج وزوجاتهم ، وبين الآباء والأمهات وأبنائهم .. كان معنى

هذا ارتباك الحياة العادية التي يجب أن تتوفر للأطفال وأن ينعدم شعورهم بالامن ، الأمر الذى يؤدى الى اضطراب نفسياتهم .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا ، بل على العكس ، لقد خلق لنا ذلك عالما جديدا من القيم التى اصبحنا نؤمن بها ونعيش من اجلها .

« نعم ، لقد كانت تمر بنا ساعات موحشة من فراقنا عن ابينا وامنا ، كنت افتقد امي فى بعض الليالى وابكى فى الخفاء . اذ كان من تقاليد اسرتنا الا نبكي علنا مهما كان الأمر ، ومع ذلك ففى كل مرة كانت الازمة تمر ، وكنا نزداد اقتناعا بأن أبانا وامنا يسلكان الطريق السليم

« لقد اصبح الوقت الذى نقضيه معهما جميلا ، لأنه كان قصيرا ! واصبحت حياتنا العائلية أكثر سعادة ، لأننا كنا نشعر برابطة عميقة من المثل تربط بين قلوبنا! »

ولا ننسى فى هذه التربية الرائعة ، فضل الأم !..

بل ان تربية الأم فيجايا لاكشيمى لبناتها على هذا النحو ، ليعد اروع ما قامت به من اعمال !..

اليس رائعا حقا ، أن تعرف هذه الأم انها ذاهبة الى المعركة غدا ، فتترك لصغرى بناتها ـ ريتا ـ رسالة تشرح لها فيها كل شىء ، وتقول فى ختامها : «سنذهب جميعا الى السجن وستبقين أنت وليكها وتارا فى الخارج وليس معنى ذلك انكن غير مشتركات فى العصيان المدنى. ان مجرد احتفاظكن بعلم المؤتمر مرفرفا على البيت لهو دور كبير!.. فكرى فى بلادنا الكبيرة الجميلة ، وفى امك وأبيك وخالك الذين يساهمون فى جعلها حرة... أليس هذا شيئا تفخرين به ؟ ! »

ومن أجمل صفحات هذا الكتاب ، الصفحات التى تحكى فيها «تارا» كيف دخلت أمها معركة الانتخابات ، وكيف فازت فى المعركة ، وكيف أصبحت أول امرأة

تشغل منصب وزيرة فى الهند .. وكيف كان احساسها هى الابنة الصغيرة بهذه الأحداث !..

ففى سنة ١٩٣٦ ، قرر حزب المؤتمر أن يدخل الانتخابات الاقليمية لعضوية المجالس التشريعية . وعادت « تارا » من أجازتها الدراسية لتجد أباها وأمها قد رشحا نفسيهما فى دائرتين مختلفتين ..

وسألت تارا أباها : كيف تدخلون الانتخابات فى بلاد ليست حرة ، وللمجالس يملك الحاكم العام الانجليزى حق حلها ؟..

وقال لها أبوها : لقد قررنا دخول الانتخابات بقصد التحدى . ثم ان الانتخابات سوف تساعد الحزب على الاحتكاك بالناس والاتصال بهم عن كثب . اننا لا نريد الفوز بالاغلبية بقدر ما نريد أن نثبت تعلق الجماهير بدعوتنا ..

ثم تسرد لنا المصاعب والمشاكل التى واجهت أباها وأمها كمرشحين : « كان لابد للفلاحين الناخبين أن يقطعوا أميالا طويلة حتى يصلوا الى صناديق الانتخاب ولم يكن الحزب يملك السيارات التى ينقل بها أنصاره ، كما كان يفعل خصوم الحزب من المرشحين الاغنياء . ولكن المشقة لم تكن شيئا جديدا على الفلاح الهندى . انه قد يرتاب فى الراحة التى تعرض عليه لأنه لم يتعود المعاملة الكريمة . ولكنه لايرتاب فيك أبدا اذا عرضت عليه أى لون من المشقة !!.. ودعا الحزب كل الهنود الى الزحف نحو صناديق الانتخاب بنفس الروح التى يحجون بها سيرا على الأقدام الى نهر الكنج المقدس !! وقال لهم ان التصويت شىء مقدس فى حياة البلد كالحج !!.. وانتشرت صيحة « الاقدام الى صناديق الانتخاب ! » .. والناس يظهرون بطولتهم اذا رأوا مثلا

واحدا من البطولة ماثلا أمام أعينهم وقد ساروا الى الصناديق لأنهم رأوا غاندى يسير أميالا طويلة ، وزاده البسيط على كتفه ، الى شاطىء المحيط ، ليخرق قوانين الملح !.. وخرجت الهند من معركة الانتخاب وقد ابت ان يشتريها المال أو الضغط ، ونجح حزب المؤتمر نجاحا ساحقا فى الانتخاب ! »

فكيف عرفت « تارا » نبأ فوز امها فى الانتخابات ؟..

« كانت الايام التى سبقت النتيجة حافلة بالقلق ، لم نكن ناكل أو ننام ، لا نكاد نسمع صوت التليفون يدق حتى نتسابق اليه . وفى ذات ليلة كنت أتناول العشاء أنا وليكها وريتا عندما وصلت الينا برقيـــة ، فتحتها ليكها وصاحت : «مامى نجحت !».. وتبادلنا النظرات أول الأمر فى ذهول ، ثم أسرعنا الى حجرة جدتى حيث كانت تجلس على الارض وأخبرناها بالنبأ السار ..

« وقد تكرر نفس المنظر عندما تلقينا بعد قليل أنباء تقول ان أبى قد هزم خصمه فى الانتخابات ، وكان من كبار الملاك الاغنياء ..

« وفى الصيف التالى تلقينا من مامى خطابا تقول : انها عينت وزيرة للصحة فى وزارة المقاطعة . وفى جميع انحاء الهند أخذت الصحف والمجلات تنشر صورة مامى وتتحدث عن شعرها الناعم الجميل ، وتقول انها أول هندية تشغل منصب الوزارة ، بل ومن أوائل النساء اللواتى شغلن هذا المنصب فى العالم كله !.. وكنا نحن البنات الصغار نتلقى التهانى من الجميع فى فخر !..

« وقد استمرت حياتنا كما هى بعد أن أصبحت أمى وزيرة ، فيما عدا رحلاتنا الى مقر الوزارة ، نحمل لأمى طعامها فى سلة صغيرة ، ونسمع الناس يشيرون اليها قائلين : « جناب الوزيرة ! »

« وكانت مامى قد فرشت مكتبها فى الوزارة بذوقها البديع ، وملأته باوانى الازهار المقطوفة من حديقة الوزارة . وقد فزع السكرتيرون أول الأمر عندما بدأت مامى تعيد ترتيب المكتب على ذوقها . وكانوا يعتقدون ان أية لمسة نسائية رقيقة فى المكتب سوف تبعده عن جو العمل الجاد . وعندما طلبت امى قطف الزهور من الحديقة لوضعها فى الحجرات عبر الموظفون عن استيائهم علنا ، وقال أحدهم لها :

ـ ولكن ياسيدتى ان هذا لم يحدث من قبل !..

فقالت له : فليحدث من الآن !

وحملت سلة صغيرة ونزلت الى حديقة الوزارة تقطف الزهور بنفسها !!

ورأى الموظفون وزيرتهم تقطف الزهور فى الحديقة أمام أعين الرائحين والغادين ، فأسرعوا الى القيام بدلا منها بهذا العمل !

واصبح اسم فيجايا لاكشيمى اسطورة فى المقاطعة . واخذت كل أم تطلق اسمها على أول بنت تولد لها . كانت البنات الصغيرات يقلدنها ، والسيدات العجائز يتحسرن لأنها لم ترزق ولدا ، اذ انجبت ثلاث بنات فقط !!..

وقد كان منظر امرأة تخوض مناطق الكوليرا وتزور أماكن المجاعات منظرا غريبا حقا . بل لقد ظل بعض الفلاحين البسطاء لايصدقون ما يقال لهم من انها امرأة. حدث مرة وهى تلقى خطبة فى جمع من الفلاحين أن همس زوج فى أذن جاره يقول :

ـ تصور .. انها امرأة حقا !!..

وتلاحظ « تارا » هنا ان الحركة النسائية للمطالبة بحقوق المرأة لم توجد فى الهند اصلا . ذلك ان غاندى

دعا النساء منذ بدء الحركة الوطنية الى اتخاذ مكانهن فى صفوف الحركة الوطنية بجوار رجالهن . كما تلاحظ ان تحرر المرأة فى الغرب قد صاحبه تغير منظرها وملابسها ، فظهر الشعر المقصوص والثياب القصيرة البسيطة . اما فى الهند فقد ظلت المرأة رغم تحررها

محتفظة بالسارى الجميل والشعر الطويل فأثبتن بذلك ان المرأة تستطيع ان تؤدى واجبها كاملا مهما كانت ثيابها رقيقة أو طبيعتها ناعمة !..

وتمضى الأحداث بفتاتنا الذكية المرهفة الحس ..
وببلوغها سن الشباب الباكر تعرف طريقها الى المظاهرات .. وتقع أختها الكبرى « ليكها » فى قبضة البوليس ، وتبقى هى واختها الصغرى ريتا مطلقتى السراح ..
وتلتقى الأم والأب فى السجن لحظات ، يقرران فيها ارسال تارا وريتا الى بلد بعيد آمن تتلقيان فيه العلم ، ولما كانت الحرب العالمية الثانية ناشبة فى ذلك الوقت فى أوروبا ، فقد قررا ارسال البنتين الى أمريكا ..

وذهبت الفتاتان الى سجن الرجال ثم الى سجن النساء تودعان الأم والأب ، ثم ركبتا الباخرة الى أمريكا ، الى لوس انجلوس ..
فكيف رأت المؤلفة الشابة امريكا ؟

الأنوار الساطعة ، الخاطفة ، المرنة.. الحياة السريعة التى تلهث مترنحة من التعب .. البائعات الفاتنات فى كل المحلات ، كل واحدة منهن تقف طول النهار وهى تحلم بالمخرج السينمائى الذى قد يمر بها مصادفة فيكتشفها ويجعلها نجمة سينمائية لامعة !.. الناس لايعرفون شيئا خارج حدود امريكا .. تسأل واحدا من الناس : هل تعرف الهند ؟ فيقول لها : أليست تلك

البلد التى تقع بالقرب من مصر ؟ ! فتحزن ، لأن كفاح اربعمائة مليون من البشر، وحضارة خمسة آلاف سنة ، ليست هنا الا .. « تلك البلدة القريبة من مصر ! » وتسأل لماذا يعرف مصر ولايعرف الهند فتعرف السبب : ان هوليوود أخرجت أخيرا فيلما عن كليوباترا ! واذا سألها أحد عن الهند كان السؤال : هل عندكم سيارات وراديوهات كما عندنا ؟.. فاذا أجابتهم : ليس بهذه الكثرة شعروا بالتفوق والارتياح » ؟ !

وفى خلال حياتها فى أمريكا لا تنقطع لحظة واحدة عن متابعة أنباء الكفاح الوطنى فى الهند ..

وتنتهى الحرب ، وتنال الهند استقلالها ..

وتعلم « تارا » يوما ان أول وفد يمثل الهند المستقلة سيصل الى أمريكا قريبا ليحضر أول دورة لهيئة الأمم المتحدة ، وان على رأس هذا الوفد أمها .. السيدة فيجايا لاكشيمى !!

انها الآن فى قمة سعادتها.. لا تملك نفسها من الزهو، وهى ترى أمها تنتقل فى هذا المحفل الدولى ، وتصول وتجول بين أقطاب السياسة الدولية مثل فيشنسكى وغيره .. وهى تسجل ملاحظات سريعة طريفة على رؤساء الوفود .. بيفن ضيق الصدر بقواعد الاتيكيت التى لايعرفها جيدا .. وفيشنسكى بعيونه الزرقاء التى تنطق ذكاء وابنته الطالبة فى جامعة موسكو.. والأمير فيصل بثيابه الفضفاضة ، يغض طرفه كلما مرت به امرأة .. حتى ولو كانت أمها !.. واسم خالها نهرو يتردد على كل لسان ، ولا أحد بعد يجهل الهند !!

الآن ، تعود تارا الى بلادها ، تعود وقد أصبحت الهند بلدا مستقلا ، وأصبح خالها الطيب الذى كان يلعب معها فى الحديقة رئيسا للوزارة .. وعندما وصلت

« تارا » الى البيت الكبير ، كان خالها فى الحمام يستعد للذهاب الى حفلة رسمية ، فذهبت وجلست تنتظره فى حجرة نومه .. فلما عاد ورآها قفزت اليه وتعلقت بعنقه تقبله ، وهو يدور بها فى وسط الحجرة ..

ولكن .. ان وجهه يحمل من التعب والجهد والضنى اكثر مما كان يحمل فى أحرج أوقات الجهاد ، فلا بد ان مسئولية الحكم أشق من مسئولية الكفاح ..

ومضت تهيىء نفسها لكى تعيش مع خالها ، ومن اجل خالها ..

لقد اكتشف نهرو الهند خلال رحلاته وقراءاته واختلاطه بالملايين ، أما هى فقد أحبت الهند من خلاله

لقد قررت أن تجعل رسالتها أن تهيىء لنهرو بيتا مريحا ، بعد أن ماتت زوجته وتزوجت ابنته ، وبعد أن لاحظت قدرته الغريبة على العمل، واحتقاره للراحة ، وعقله المشغول دائما بالخطط الواسعة والمشروعات ، واهماله التام لمطالبه الشخصية .. انه الرجل الذى تنطبق عليه حكمة جالاهاو « اننى أعمل كعشرة رجال .. لاننى صافى القلب ! » ..

انه لا يحكم بروح رئيس الوزارة .. ولكن بروح الفنان المستغرق فى اتمام لوحة خالدة !..

هكذا تمضى خواطرها عن خالها وهى تراه ينهض بهذا العبء الكبير ..

وهى لا تكاد تبادله كلمة واحدة.. لأن برنامجه لايخلو دقيقة واحدة من الزوار أو اللجان أو التقارير .. انه يعمل حتى فى الفراش ، حتى على مائدة الطعام ، بينما تكتفى هى بالتهام طعامها فى المطبخ ..

وفى احدى الليالى أصابها أرق جعلها تسهر فى فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل . ورأى خالها النور مضاء

هو عائد الى فراشه فمر بها .
قال لها وهو يجلس بجوار فراشها :
ـ ها نحن فى بيت واحد .. ولا اراك الا نادرا ..
قالها فى صوت متعب ، ثم استطرد : ما اكثر الكلام الذى أريد أن أقوله لك .. ولكن المسائل الشخصية كلها يجب أن تنتظر ..
ثم قال لها باسما كأنه يقترح نزهة : تعالى معى غدا نزور بابو ..
وبابو هو اللقب الذى كان ينادى به غاندى ..
وقد كانت رؤية غاندى هى راحة نهرو الحقيقية.. هى خلاصه من كل مشاكله المعقدة !!..
وذهبت تارا مع خالهـــا لزيارة غاندى ، فأحست بالراحة فعلا ، ففى الدوامة المحمومة التى كانت تعيش فيها الهند عقب الاستقلال، ظل غاندى هو العقل الهادىء والقلب المستريح.. ليس حوله سوى الاغانى والصلوات والهدوء !!..
ان غاندى لايتكلم ، ولا تشعر بأنه يريد أن يقنعك بشىء ، انه فقط يفكر أمامك بصوت مسموع ..
أما فلسفته التي أوصاها بها حتى النهاية ، فهى : لا تسلكى الى الهدف السليم .. الا الطريق السليم ..
وبعد أيام اغتال أحد المهووسين غاندى ..
وكتبت « تارا » تقول : سيظل الناس الى الأبد عاجزين عن ايجاد سبب معقول لصلب المسيح أو اعدام سقراط ، أو اغتيال غاندي !!

صديقي إينشتين

مؤلف هـذا الـكتاب ـ فيليب فرانك ـ ليس أديبا فقط ، ولكنه عالم أيضا ... وهو عالم فى نفس الفرع الذى تخصص فيه اينشتين ، وقد توثقت بينهما روابط صداقة وطيدة دامت أكثر من ثلاثين سنة ، عاشا خلالها فى أحداث وأبحاث واحدة ..

والـكتاب فى حجمه الاصـلى يزيد على خمسـمائة صفحة.. وقد صدر قبل وفاة اينشتين بسنة واحدة.

وقد بدأ المؤلف كتابه متحدثا عن حياة أينشتين فى اواخر أيامه فقال :

يسكن اينشتين بيتا خشبيا بسيطا يقع فى حديقـة مجاورة لجامعة برنستون الشهيرة ، بالقرب من نيويورك

وفى نهاية سلم ضيق ، بالطـابق الاول يلقاك البرت اينشتين مرتديا صندلا وبنطلونا وقميصا .. أما مكتبه فعبارة عن مائدة عمل ، ومقعدين وثيرين ، ورفوف عليها مذكرات وكتب ، وآلة كمان ، وعلى الحائط صورتان لفاراداى وماكسويل ، وعلى المائدة أوراق صغيرة متناثرة مليئة بمعادلات وأرقام حسابية ، مكتوبة بخط دقيق جدا ، فهذه الاوراق تضم الكثير من أسرار الكون !!..

وبالنسـبة لسكان برنستون ، كما هو الشأن بالنسبة لسكان العالم أجمع ، يعد البرت اينشتين من الشخصيات

لاسطورية فى القرن العشرين ، فهنا تروى قصص كثيرة عنه .. هذه واحدة من جاراته ، لها ابنة فى العاشرة من عمرها ، لاحظت يوما ان ابنتهـا تذهب كثيرا الى اينشتين فى بيته وتمكث عنده طويلا .. وسألتها أمها فى ذلك فقالت : « اننى أجد صعوبة فى حل واجباتى المدرسية فى الحساب ، وقد سمعت ان الرجل الذى يسكن البيت رقم ١١٢ يعرف الحساب جيدا ، فذهبت اليه أطلب منه مساعدتى ، وقد رحب بى كثيرا وشرح لى كل شىء ، وفهمت منه بوضوح وسهولة أكثر مما افهم من مدرستى فى الفصل بكثير ، وقد طلب منى أن اذهب اليه كلما احتجت الى شىء !! » .. وأسرعت الأم الى العالم الكبير تعتذر عن وقاحة ابنتهـا فأجابها : لا داعى لهذا الاعتذار ياسيدتى .. فأنا أستفيـد من الشرح لها أكثر مما تستفيده هى منى !!

وحين كان اينشتين فى الثانية من عمره ، لم يكن قد نطق بالكلام بعد ، وظن أبواه ان ابنهما سيكون شـاذا ناقصا ، فلما نطق بأول كلماته فرحت العائلة بذلك فرحا شديدا ، وكان أبوه يدير مصنعا كهربائيا صـغيرا فى ميونيخ ، بافاريا ..

أما أم اينشتين فقد كانت موسـيقية بارعة . وكان يقيم مع الأسرة واحد من أخوة اينشـتين ، يختص بالاشراف على الجانب الفنى فى مصنع أبيه ، ومنه تلقى اينشتين اول دروسه فى الرياضة ، وكان طفلا هادئا ليس فيه شقاوة الاطفال أو ميلهم الى اللعب والجرى والنط .. وكانت لعبة « العسكر » التى يلعبها أقرانه تسبب له الفزع . وحدث يوما أن كان يقف مع أبيـه يتفرج على استعراض عسكرى تتقدمه الموسيقى ، اذ صرخ باكيا فجأة : الرجال المساكين ! لن افعل مثلهم

أبدا حين أصبح كبيرا !

وفى التاسعة من عمره كان طفلا حالما ، جبانا ، لايكذب أبدا ، وكان مشهورا بدقته فى رواية ما يقع أمامه بلا أى تحريف ، وفى العاشرة من عمره دخل مدرسة لويتبون فى ميونيخ حيث أغرقوه فى طوفان من القواعد اللاتينية واليونانية ، واينشتين مدين للذكاء أحد أساتذته ، الاستاذ رويس ، فانه لم يكره بالرغم من ذلك الثقافة القديمة ، وكان التلاميذ الذين يحصلون على درجات منخفضة يوضعون بعد انتهاء الدراسة فى حصص اضافية تحت اشراف أحد المدرسين كعقاب لهم ، ولكن اينشتين كان يفرح جدا حين يعاقب لأن الاستاذ المشرف على التلاميذ المعاقبين هو .. رويس .

وبعد سنوات طويلة ، حين أصبح اينشتين استاذا فى زيوريخ ، قرر ان يذهب لزيارة أستاذه القديم ، واخذ يتخيل ماسيكون من فرح أستاذه به حين يرى تلميذه قد أصبح أستاذا فى الجامعة .. ولكنه حين ذهب اليه ، فى ثيابه المهملة كعادته ، لم يعرفه أستاذه قط ، وحسبه طالبا فقيرا جاء يطلب مساعدة مالية ، فكان ذلك صدمة لاينشتين حتى أنه فر من وجهه هاربا دون أن يوضح الأمر أو يقول شيئا ..

وفى سن الثانية عشرة ، تلقى أول قبس من العلم .. حين بدأ يقرأ كتابا موجزا فى الهندسة ، فلم يكد يفتحه حتى أصبح لا يقوى على مفارقته .. ولكن حادثا مفاجئا بعد ذلك بسنوات ثلاث ، أثر فى حياته وغير مجراها ، فقد قرر أبوه تصفية مصنعه فى ميونيخ والبحث عن الثروة فى مكان آخر ، وسافر الى ميلان لتأسيس مصنع للمنتجات الكيمائية تاركا ابنه فى ميونيخ حتى يتم دراسته . وكان الصبى متفوقا على زملائه فى الرياضة

تفوقا كبيرا وان ظل متخلفا بعض الشيء فى اللغـــات القديمة .
وكانت اشهر مدرسة علمية خارج المانيا هى مدرسة بوليتكنيكوم فى زيوريخ وســافر اينشتين الى زيوريخ وتقدم لامتحان القبول ، فأحرز درجات فى الرياضــة أذهلت الممتحنين، ولكنه رسب فى اللغات رسوبا شنيعا. واحتار عميد المعهد : فهو لايستطيع قبول الفتى الراسب فى اللغات ، وهو لايريد أن يفرط فيه بعد أن رأى عبقريته المبكرة ، فأشار عليه أن يلتحق سنة بمدرسة صغيرة فى زيوريخ ويحصل على شــهادتها فيدخل المعهــد بغير امتحان ، وفى السنة التالية دخل اينشتين المعهد العتيد

وكان المعهد لما يتمتع به من شهرة دولية ، يضم بين جدرانه شبابا من جميع الجنسيات ، وبين طلبته الاجانب كانت فتاة هنجارية أسمها « ميلفا ماريتشى » لا تهتم الا بدراسة العلوم الطبيعية .. وبلغ اينشتين الحادية والعشرين وحصل على الجنسية السويسرية ، وكانوا يعطون الممتازين حوالى ٣٠٠٠ فرنك فى الشهر ، وهو مبلغ كان كافيا فى ذلك الوقت لكى يعيش بلا هموم ، بل لقد فكر فى أن يتزوج ويبنى أسرة .. وبعد وصوله الى برن بقليل خطب زميلته ميلفا ماريتشى .. كانت أكبر منه بقليل ، ولكن اينشتين لم يكن يستطيع أن يشغل بالحب ذهنه الخلاق .. وقد استفاد منها اذ نظمت له تيار أفكاره المهوشـــة ، وأنجبت له طفلين ، والاطفال مصدر متعة عظيمة لاينشتين .
وعلى العكس من معظم العلمــاء والمخترعين الذين يقضون فراغهم فى لعب الشــطرنج أو قراءة الروايات البوليسية ، نرى اينشتين يقضى فراغه فى اختراع صنوف من الادوات والآلات العجيبة لاستعمالها فى شئون الحياة اليومية .

وفى كل حياته ، ظل اينشتين معتصما بوحدته .. لايغادرها الا ليقابل من الاصدقاء من يستطيع أن يعزف لهم الموسيقى أو يتناقش معهم حول آرائه فى الكون ، وشخصيته البسيطة الجذابة ، السمحة ، طالما اجتذبت اليه الاصدقاء والناس ، ولكن اعتزازه بوحدته صد عنه الذين لم يفهموا هذه الوحدة .

وهو يقول : « ان الفوائد التى تعود من الاحتكاك بالناس والمسئوليات الاجتماعية ، تتعارض دائما مع رغبتى العميقة فى تجنب كل اختلاط أكثر مما يجب بالناس الذين أصادفهم ، لقد خلقت لكى أكون وحيداً ، لا أرتبط بفريق خاص أوجماعة بعينها ، اننى فى الحقيقة لست تابعا لدولة أو شعب أو صديق معين ، بل ولا حتى لعائلتى ، ان هذه الروابط تتعارض دائما مع رغبة كامنة فى الانطواء على نفسى ، تنمو مع الايام ، وهذه الوحدة قاسية ولاشك ولا أستطيع أن أعتذر عن اقتطاع نفسى من مجتمع الناس والاصدقاء وفى مقابل ذلك ، فاننى غير مرتبط بأى حكم سابق ، أو أى أفكار أو عادات للآخرين ، ولا أقامر أبدا بأن أبنى سعادة روحى على أسس متغيرة » .

ومع انه لم يعرف عن اينشتين أبدا انه بذل أى مجهود ليدعو لأفكاره بين الناس ، فانه يحب أن ينشر رأيه بين المحيطين به ، والذين يتصل بهم ، وفى « برن » كان أهم صديق له مهندسا ايطاليا أسمه «بسو» كان أكبر منه فى السن قليلا،كانت له روح ناقدة ذكية وحساسية شديدة . وكانت انتقاداته لآراء اينشتين كلها خالقة منتجة ، ومن أقواله التى ما يزال اينشتين يرددها : « اذا كانت فكرتك جميلة كالزهرة ، فلا بد أن تنتشر لها رائحة » (•)

وهنا يصل المؤلف الى المرحلة التى تعرف فيها الى اينشتين :

لم أكن أعرف الاهمية الخطيرة التى تنطوى عليها نظرية اينشتين فى النسبية قبل سنة ١٩١٢ ، حين قرأت فى جريدة نمساوية مقالا تحت عنوان « الدقيقة فى خطر .. حدث فى العلوم الرياضية » .. وشرح لنا أستاذ الطبيعة حينئذ كيف أن عالما طبيعيا اسمه اينشتين اثبت بطريقة رياضية لم يسبق لها مثيل ان الوقت يمكن أن يقصر ويطول ، أن ينكمش ويمتد ، وانه يمضى فى فترات معينة أسرع منه فى فترات أخرى . وأن هذه الفكرة قد قلبت كل أفكارنا عن الروابط بين الانسان والكون .. فحتى تلك اللحظة كان الناس يولدون ويموتون ، والاجيال تتعاقب ، وبقى الزمن جامدا لايتزحزح ، أما الآن فكل شيء قد تغير ، فالزمن نفسه يمكن أن يعدل وكل ذلك بطريقة رياضية بسيطة .

وفى كلمات بسيطة دعا اينشتين الى ألا نقيس الزمن الذى يستغرقه الحدث بالطريقة القديمة « الزمن الحقيقى الذى يستغرقه الحدث هو الذى تسجله ساعة دقيقة مرتبطة بطريقة ما بالحدث الذى يحدث نفسه ، وكل زمن آخر غير ذلك خداع » .

بهذا جمع اينشتين بين المكان والزمان فى صيغة واحدة ..

كما وحد بعد ذلك بين الكتلة والطاقة ..

ثم اكتشف نظرية جديدة للجاذبية تتعارض مع نظرية نيوتن التى تعلمناها جميعا فى المدارس .

وكان للأبحاث التى نشر اينشتين نتائجها فى برن دوى شديد فى أنحاء العالم ، فلم يلبث أن عين بعدها فورا استاذا فى جامعة زيوريخ ، ولكن مركز هذا الاستاذ من

الناحية المالية لم يكن مريحا ، فاضطرت زوجته الى ان تدير جزءاً من بيتها « بنسيونا » للنزلاء !

وفى خريف سنة ١٩١٠ ، شغر كرسي أستاذ الطبيعة النظرية فى جامعة براغ فأسرعت الحكومة الالمانية تعرض الكرسي الشاغر عليه .. ووصل اينشتين الى براغ ، وقال الذين شاهدوه فى ذلك الوقت ان هيئتـه كانت أقرب الى هيئة مغنى أوبرا ايطالى منها الى هيئة أستاذ المانى .. وكان صيته وشهرته الهائلة بأنه عالم طبيعى غير عادي قد سبقته .. وأصبح كل شخص على أحر من الجمر لرؤية هذا الانسان النادر .

وقد عينت فى كرسي اينشتين حين ترك براغ بعـد ذلك ، ورحيله عن براغ يرتبط فى ذاكرتى بحادثة طريفة فقد كان على الاستاذ الجامعى فى النمسا فى ذلك الوقت أن يلبس بذلة شـبه عسكرية : قبعـة مثلثة الاركان مزينة بالريش المرتفع وسترة مزركشة وبنطلونا محلى بضفائر مذهبة ، وعباءة فضفاضة ، وسيفا !.. وقد اضطر اينشتين لشراء هذه البذلة حين عين فى براغ.. فلما انتهت مدته وقرر العودة الى سويسرا ، اشتريت أنا منه هذه البذلة حتى لا أتجشم ثمن بذلة جديدة ، وهى لن تنفعه بعد ذلك ، وكان ابنه الصغير ــ فى الثامنة من عمره ــ حاضرا هذه الصفقة ، فصاح فى أبيه يريد أن يحتفظ بالبذلة ليسير بها أبوه فى شوارع زيوريخ ويراه الجيران ... وضحك اينشـتين وقال : انهم سيقولون عنى حينئذ اننى أميرال من البرازيل مثلا !!

وكان صيت اينشتين قد ذاع حتى أصبحت الهيئات العلمية تتنافس على الظفر به ، وكان منها حكومة المانيا التى طلبته لكى ينظم الابحاث العلمية فى برلين بصفته استاذا فى جامعتها ، وبعد فترة من وصوله الى برلين

انفصل عن أسرته وعاش فى مسكن بمفرده ، كانت سنه حينئذ ٣٤ سنة .. أصغر من كل زملائه الاساتذة ..

وقد تعودنا أن نرى العلماء دائما مشغولين لا وقت لديهم ، ولكن اينشتين على العكس من ذلك كان يجد دائما الفراغ الطويل !! .. وقد قابلته فى برلين ـ وكنت اعمـــل فيهـــا بدورى ـ وكنت اريد أن أذهب الى «الابسر فاتوار» ولم اكن قد عرفت برلين جيدا بعد ، فاقترح على أن يقابلنى على جسر بوتسدام ليوصلنى الى هناك .. واستكثرت ان يقف هذا العالم الكبير على الجسر ينتظرنى ثم يسير معى مسافة طويلة ليوصلنى ، وقلت له اننى أخشى أن اضيع له وقته ، فقال : « ان مهمتى هى التفكير .. وما الفرق بين التفكير فى البيت والتفكير على جسر بوتسدام ؟ » .

حقا .. ان أفكاره تنثال دائما كالمجرى الذى لاينقطع، فاذا قاطعته بحديث أو حوار ، فكما تلقى حجرا صغيرا فى مجرى النهر ، قد تحدث منه حلقات صغيرة ، ولكنه لا يعطل جريان النهر لحظة واحدة ، وروحه تدفعه عادة الى عمل شاق لا ينقطع بشكل قد لا تتحمله صحته فى بعض الاحيان .

وقد ظل أقاربه الأكثر غنى يعتبرونه كالشاة الضالة عن القطيع ، حتى أجرى له استقبال رسمى فى الاكاديمية البروسية ببرلين ، ورأوا كيف أحيط فى ذلك اليوم بكل علامات الاحترام .. فأصبحوا من تلك اللحظة يفخرون بقرابته لهم ولا يجدون غضاضة فى استقباله عندهم ، بالرغم من فقره وغناهم !! . وقد استقبل هذا الوضع بروح مرحة طيبة .. وعند أحد أعمامه قابل قريبته « الزا » التى عرفها فى ميونيخ طفلة ، كانت أرملة ولها ولدان .. وكانت امرأة بارعة تخلق حولها جوا جميلا

وتقدم طعاما ممتازا وان لم تكن لتستطيع أن تفهم ـ مثل ميلفا الزوجة السابقة ـ أهمية هذا العالم الطبيعي .. كذلك كانت لها روح مرحة ليست جافة صلبة مثل تلك التلميذة السلافية .. وقد أعجبها اينشتين على اي حال .. لأنه كان شهيرا !!

وذات يوم خلال الحرب العالمية الاولى ، دعانى اينشتين الى تناول الغداء عند عمه ، وهناك رأيت الزا لأول مرة .. وقد قالت لى يومها بين الجد والهزل : « انني اعرف أن صغيرنا البرت عالم عظيم .. فان كل الصناديق التى ليست لدينا مفاتيح لفتحها ، يفتحها اينشتين بسهولة تامة !! » .

وقبل انتهاء الحرب تزوج اينشتين من الزا .. فهذا الذى عاش دائما عيشة بوهيمية بدأ يعيش عيشة بورجوازية رتيبة .. وقد احتفظت الزا مع اينشتين بكل عاداتها الموروثة عن «السواب» موطنها الاصلي . فهى تهتم اهتماما زائدا بأن تصنع لحياتها اطارا ثابتا .. ولكن زوجة الرجل الشهير لايقف أمرها عادة عند المظهر ، وكل من اتصل باينشتين لم يستطع الا أن يحكم على الزا بقسوة ، ففى بيئات العلماء ببرلين كان الجميع يقولون انها ليست المرأة الجديرة باينشتين « ترى لو فكر اينشتين كما فكروا فأى امرأة اذن كان يمكن أن يتزوجها ؟ » وأكد البعض انها تحيط زوجها بسور لايقتحم وقال علماء آخرون انها تفضل أن يكون أصدقاؤه من المؤلفين والفنانين ورجال السياسة ، لأنها أكثر اتفاقا معهم ، ويسهل عليها مصادقتهم .

وقد حدث أن اعترضت بعض الاندية النسوية فى امريكا سنة ١٩٣٢ على دخول اينشتين أمريكا بحجة انه على صلة ببعض المبادىء « الهدامة » فقال لمراسل

الاسوشيتدبرس ساخرا : لماذا يكرهون هنا رجلا يريد أن يمنع من العالم كل أنواع الحروب .·. ماعدا الحرب بين الرجل وزوجته ؟

فهذه الكلمة تدلنا على شيئين فيه : مبادئه الانسانية الواسعة ، وعدم سعادته فى الحياة الزوجية .

ومن تعليقاته اللاذعة التى تدل على قسوة تجربته « حين أكون فى البيت تكون زوجتى مشغولة بقطع الاثاث التى لديها ، وحين أخرج معها للنزهة أصبح أنا قطعة الاثاث الوحيدة تحت يدها ! »

كانت لاكتشافات اينشتين اهميـة غمرت العـالم اجمع ، وقد اهتم بها علماء الفلك اهتماما خاصا .

ولكن لم يكن ثمة من سبيل للتحقق من صحة نظرياته بدون حدوث كسوف كلى للشمس لقياس درجة معينة من انحراف أشعة الضوء ، تنبأ بها اينشتين . . وحدثت مصادفة رائعة اذ تبين علمـاء الفلك ان كسـوفا كليا للشمس على وشك الحدوث .

ونظم المعهـد الملـكى للعلوم الفلكية فى لندن بعثتين للتحقق من نظرية اينشتين فلما وقعت الهدنة فى سنة ١٩١٨ شرعت البعثتان فى العمل فورا وكان ذلك باشراف سير أرثر اديز ادينجتون ، أحد القلائل الذين يفهمون نظرية النسبية .

وأرسل المعهد بعثتين الى نقطتين متباعدتين من الكرة الارضية . . واحدة فى جنوب البرازيل والثانية برئاسة ادينجتون نفسه فى احدى جزر غينيـا وحين وصلت البعثة الاولى الى البرازيل قوبلت مقابلة عدائية غريبة !! وكتبت أكبر جرائدها تقول : « بدلا من أن تتعب البعثة نفسها فى اثبات نظرية سخيفة لعالم المانى . . أليس الاجدر بها أن تبحث عن طريقة لاسقاط الامطار عندنا ،

ونحن نشكو الجفاف بهذا الشكل ؟ » . وكان الشعب يشكو الجفاف حقا ، وكان حظ البعثــة حسنا ، اذ أمطرت السماء بعد وصولها بأيام !

ومضت شهور قبل أن تعود البعثتــان الى لنــدن وتخرج الصور التى أخذتها فى المعامل بدقة متناهيــة تلافيا لأى خطأ محتمل . وفى ٧ نوفمبر ســـنة ١٩١٩ وكانت لندن تحتفل بعيد الهدنة الاول، خرجت التيمس تحمل فى صدرها عناوين « الشهداء الابطال ، احتفالات الهدنة ، توقف المواصلات فى جميع أنحاء البلاد » وفى صفحاتها التالية حملت عناوين « ثورة فى العلم ، نظريات نيوتن تنقلب رأسا على عقب ! » . وتحتها تفاصيــل اجتماع المعهد الملكى الذى أعلنت فيه رســميا نتــائج الابحاث . وأعلن المعهد أن بعثتيه اللتين سافرتا الى البرازيل وعنيتا بملاحظة الخسوف الشمسي خرجتا من مشاهداتهما وابحاثهما بأن الاشعة الضوئية منحرفة فى نطاق جاذبية الشمس وفقا لنفس النسبة التى قررها اينشتين فى نظريته عن الجاذبية .

وقد رأيت اينشتين بعد ذلك سنة ١٩٢١ فى براج .. كان قد تغير قليلا وان بقى شديد الشبه بعازف الموسيقى البسيط . وكنت قد تزوجت ، ونظرا لأزمة المساكن اضطررت أن أقيم أنا وزوجتى فى نفس المعمل حيث كنت اجرى ابحاثى .. وهو أيضا نفس المكان الذى كان فيه مكتب اينشتين حين كان استاذا ، وقد اضطر مرة الى أن يقضى الليلة عندى ، نائما على مقعد طويل ، ليتجنب فضول الناس وتجمعهم حوله فى طريقه الى الفنــدق الذى كان نازلا فيه ..

وبعد ذلك بقليل سافر الى امريكا للمرة الاولى ليلقى المحاضرات، وكان وصوله الى نيويورك نذيرا باستقبالات

هائلة ، ومظاهر من الحماسة زائدة .

وتجمع حوله الصحفيون والمصورون ، وسأله واحد منهم : « كيف يمكن أن تلخص فى سطور قليلة نظريتك فى النسبية ؟ »

وسكت اينشتين برهة ثم قال :

ـ استطيع أن أقول لك اننا كنا نظن انه اذا حدث واختفت المادة من الكون كله فسوف يبقى بعد ذلك الفراغ والزمن .. ولكنه وفقا لنظرية النسبية فان الفراغ والزمن سيختفيان بدورهما .

واستدار الصحفيون الى زوجته يسألونها : هل فهمت شيئا ؟

فقالت :

ـ أوه .. كلا .. انه لم يشرحها أبدا .. ولكن اظننى سعيدة هكذا بدون أن أفهمها !

وقد سألت اينشتين عن حقيقة شعوره ازاء كل مظاهر الحماسة التى احيط بها .. فقال :

ـ اننى لم أكتشف بعد أشياء غير عادية .. وأظن ان اي بطل من أبطال الملاكمة يحظى من الجماهير بأكثر من هذه الحماسة !..

ولما عاد اينشتين الى أوروبا ، لفحته موجة الاضطهاد التى شنها النازيون فى الجامعات الالمانية ، اذ بدأوا يطردون الاساتذة والعلماء بالجملة لأسباب عنصرية !

وتسابقت اليه الجامعات كل منها تدعوه اليها ، وتسخو فى الاغراء ، ولكنه كان قد قرر أن يترك أوروبا .. تلك القارة المضطربة المشتعلة كلها ، ويقبل وظيفة أستاذ فى جامعة برنستون بجوار نيويورك ، وانصرف يعمل فى هدوء .

وعاد اسم اينشتين وصوره تشغل الصفحات الاولى

من الجرائد ، وأصبحت النتائج التي ترتبت على نظرية النسبية التي أعلنها سنة ١٩٠٥ في الصلة بين المادة والطاقة حديث الناس جميعا .. حتى قيض له أن يلعب دورا ايجابيا من أخطر الادوار في تاريخ الانسانية ..

ففي سنة ١٩٣٩ ، بعد أبحاث خطيرة قام بها جوليو كوري الفرنسي وهان وليز الالمانيان بدأت الافواه تتناقل اسم قنبلة ذرية يمكن صنعها .. وكانت المانيا بالذات ـ في استعدادها للسيطرة على العالم ـ تبذل جهودا جبارة للوصول الى صنعها .. وفي الولايات المتحدة حاول اثنان من علماء جامعة كولومبيا أن يحركا روزفلت ورجال القيادة الامريكية الى صنع هذه القنبلة .. وكانا يؤكدان في الحاحهما ان هتلر لو عرف سر القنبلة الذرية أولا ، فسوف تكون هذه نهاية الحرية ..

وعبثا حاول الرجلان .. فماذا يصنعان بعد ؟.. لابد من ايجاد رجل له من الشهرة والسمعة والقوة ما يجعل لطلبه صنع هذه القنبلة قيمة كبرى لايمكن تجاهلها .. وقابلا اينشتين .. وشرحا له خطورة وجود هذه القنبلة بين أيدي النازيين ، وكان قد جرب النازيين من قبل ..

وفي ابريل سنة ١٩٣٩ ، كتب اينشتين رسالة تاريخية الى روزفلت :

«.. ان الابحاث التي قام بها جوليو كوري في فرنسا ومزحي وسزيالارد في الولايات المتحدة تجعلني أعتقد ان مادة اليورانيوم سوف تكون ذات أهمية عظمى في المستقبل كمصدر للطاقة ، وأعتقد انه من واجبي أن ألفت نظركم الى ذلك .. والى ان مصادر هذه المادة في الولايات المتحدة ضعيفة جدا ، على حين هي موجودة بكثرة في كندا وتشيكوسلوفاكيا .. وقد علمنا ان هتلر

يبذل جهودا هائلة للحصول عليها ، وهو يقوم فى هذا السبيل بتجارب سرية خطيرة ، وان ميزانيات الجامعات الامريكية لأفقر من أن تقوم بمثل هذا العمل ، فعلى ميزانية الدولة أن تساهم ، وسوف يمكن حينئذ صنع قنبلة تحسم الأمر ، ان قنبلة واحدة من هذا النوع تحملها سفينة الى ميناء ما كافية لتدمير المدينة وما حولها من مدن تدميرا شاملا ، يمنع الحياة فيها لأمد طويل » .

***

وبغير اسم اينشتين ، الممهور فى نهاية الرسالة ، لم يكن روزفلت ليوافق على اعتماد مليارات الدولارات للأبحاث الذرية .

وهكذا غيرت نظرية اينشتين ، ليس فقط الابحاث العلمية ، بل والاستراتيجية السياسية والعسكرية فى العالم أجمع كما أثر فى تاريخها تأثيرا خطيرا .

غير انه لما وجد القنبلة الذرية ـ وقد أفلحت مع اليابان مرة ـ أصبحت تغرى الساسة والعسكريين بالعدوان .. وقف فى الصف الاول مع المطالبين بتحريمها وصرف البحوث الذرية الى الانتاج السلمى .. محذرا ومنذرا البشر أجمعين من هول ما ينتظرهم لو تركوا لشهواتهم العنان ..

بعد الحرب الذرية

هذه قصة غريبة كتبها الكاتب الانجليزى « الدوس هكسلى » وهو كاتب متشائم ، تنتابه القشعريرة منذ سنوات طويلة .. فهو يتأمل ما يسود العالم من توتر وقلق وخوف ومن خطر الحرب المعلق فوق الرؤوس فيقشعر فكره ، وقلمه.. ويكتب قصة «العالم الطريف» يتخيل فيها العالم وقد تقدم حتى أصبح يصنع أطفاله فى انابيب الاختبار!.. وفى كتاب «السلام والعلم والحرية» الذى قدمته اليك ، يثبت ان التقدم العلمى اصبح الآن لمصلحة الاستبداد ، لا الحرية ..

أما فى هذه القصة وعنوانها الاصلى «Ape and Essence» يتحدث عن العالم بعد ١٣٠ سنة . وقد تصور ان الحرب العالمية الثالثة قد نشبت وان العالم قد فنى تقريبا من القنابل الذرية والايدروجينية ..

والمؤكد ان «هكسلى» فى تشاؤمه هذا كله ليس على حق ، ومع ذلك فان لقصته هذه قيمتها ، كتحذير رهيب ، للذين يمهدون للحرب ، أو يتصورونها حلا لمشاكل البشر ..

***

يقول « هكسلى » :
فى اليوم الذى قتل فيه غاندى ، كنت جالسا مع

زميلى بوب فى حجرتنا المشتركة ، بالشركة السينمائية التى نعمل فيها . وكان بوب قلقا ساخطا ، لا لمصرع غاندى - الرجل الذى دعا الى السلام وآمن بالانسان فلم نكتف بطرح الثقة بمبادئه بل قتلناه أيضا - لم يكن بوب قلقا ساخطا لهذا السبب ، بل لأن عشيقته الجميلة تريد منه أن يطلق زوجته ويتزوجها .. وزوجته تأبى عليه الطلاق .. والعشيقة تهدد بالقطيعة ، وقد بدأت تظهر فى الحانات مع مليونير برازيلى صامت .. وهو لايدرى ماذا يصنع !

وكنت أحاول أن أحدث صديقى عن المأساة الكامنة فى مصرع غاندى ، وابرز ذلك بأنه آمن بالانسان نفسه ، لا بالعلم والقوة وغير ذلك ، وبأنه مضى يفتش عن الجوهر ، عن النور الداخلى ، لا عن الاردية الخارجيه .. ولكنه لم يكن يستمع الى ، ماضيا فى حديثه عن عشيقته .. بل وعن سخطه على «لورلوبين» الرجل صاحب الشركة السينمائية الضخمة التى نعمل فيها ككتاب سيناريو.. فقد ذهب بوب اليه وطلب زيادة مرتبه . ونظر اليه الرجل الضخم الثرى من وراء مكتبه وقال :

- لو هبط هنا المسيح نفسه .. فلن ارفع اجرك دولارا واحدا !..

واخذت أتخيل تلك الصورة البديعة : المسيح هابط أمام مكتب « لورلوبين » على رأسه هالة من النور ، وقد ضم يديه فى دعة ، يستعطف الرجل فى زيادة مرتب كاتب السيناريو .. وكيف ان المسيح سينصرف بعد ذلك آسفا ، يلفه ظلام الرجاء المرفوض !

وصاح بوب : اذا كنت قد شربت قهوتك.. فلنخرج

وخرجنا من المكتب ، مارين فى فناء الاستديو بالديكورات ، والابنية الزائفة ، والستائر والمناظر ..

حتى اقتربنا من باب الخروج ..

وكنت تائه الذهن أفكر فى غاندى الذى قتل .. حين جذبنى بوب من ذراعى فجأة .. فأنقـذنى من الوقوع تحت سـيارة نقل ضخمة كانت تعبر الباب . وكانت السيارة تسير بسرعة ، وقد تكدسـت فوقهـا آلاف المخطوطات .. وهى قصص الافلام التى يرسلها الهواة والمغمورون كل يوم الى الشركة .. وكانت السيـارة تحملها الى حيث تحرق ويتخلصون منها ..

وصاح بوب : فى هذه السيارة أدب بمليون دولار !

وانحنى يجمع بعض المخطوطات التى وقعت منها ، يتصفحها . واستوقفنى مخطوط له عنوان غريب .. وقلبت الغلاف ، فوجدت فى أول صفحة منه شـعرا غريبا ، حزينا ، رائعا ، مطلعه :

الانسان .. يختار الوسائل فقط ..

أما الغايات ، فتختارها القرود !

وعدت الى الغلاف اقرأ اسم صاحب هذا السيناريو .. « وليم طاليس » كوتنوود ، كاليفورنيا » .. وقررت أن أذهب لمقابلة هذا الرجل الغريب ..

وركبت السيارة مع بوب الى تلك الضاحية النائية ، رفعتنا الهضاب وخفضتنا الوهاد ، حتى عثرنا على بيت غريب منفرد ، على ربوة مشجرة .. طرقنا بابه وسألنا : مستر طاليس هنا ؟

فأجابتنا سيدة عجوز : لقد ذهب منذ أسابيع ..

ــ ذهب .. الى أين ؟ ..

ــ الى هناك !

وأشارت الى قبر منعزل فريد ، تحت شجرة ضخمة تقوم وحيدة فى السهل المنبسط ، ولما أردنا أن ننصرف ، أصرت السيدة على أن ندخل ونجلس ، وطفقت تحدثنا

فى أسى عن مستر طاليس ، وطيبته ، وشذوذه ، ووحدته القاسية التى كان يعيش فيها ، مفكرا فى أشياء غريبة.. وكان قد استأجر منها هذا البيت لمدة سنة ، ودفع لها الايجار مقدما. غير انها جاءت ذات يوم تحمل اللبن.. فوجدته فى الحمام ، جثة هامدة عارية وقد أوصى بالا يدفن فى مقابر المدينة ، واختار ذلك القبر الوحيد تحت الشجرة المنعزلة .

وسألتها : هل كان مستر طاليس مريضا ؟

فقالت : كلا .. لم يكن مريضا قط . وان كان يشكو من تعب فى القلب .

واخبرتنا السيدة بمعلومات أخرى عن الرجل ، فقد مات فى السادسة والستين ، وهى تعلم انه كتب سيناريو وأرسله الى احدى الشركات السينمائية ، ليحصل على بعض المال .

ـ لم يكن يريد المال لنفسه . بل كان يريد أن يرسله الى أوروبا ، فقد تزوج مستر طاليس من فتاة المانية قبل الحرب الاولى وأنجب منها طفلا ، وعاد الى أمريكا وقامت الحرب ، واليوم لم يبق له الا حفيدة على قيد الحياة هناك . كان يريد أن يرسل لها بعض المال ..

وذكرت صفحات كتبها طاليس فى السيناريو الذى معى .. عن البنات اللواتى يبعن انفسهن بعد الحرب من اجل قطعة شيكولاتة ، أو شريحة خبز ..

ترى فيم كان يفكر هذا الرجل طاليس ؟.. لايدلنا على ذلك غير مخطوطه الذى وجدناه مصادفة يقع بين المهملات فى الاستديو.. وهو سيناريو لفيلم تقع حوادثه فى سنة ٢١٨٠ ..

وهذا هو المخطوط :

أول منظر يظهر على الشاشة ، بحر واسع مضطرب

هو المحيط الهادى ، وعند الافق البعيد يلوح شاطىء صامت مهجور لا معالم له ، هو شاطىء كاليفورنيا .. وثمة سفينة صغيرة ، تحمل علم نيوزيلندا ، تقترب فى بطء ..

واليوم يوم ١٢ فبراير سنة ٢١٨٠ وهؤلاء الرجال والنساء الواقفون على ظهر السفينة يتطلعون هم جماعة من العلماء والمستكشفين النيوزيلنديين فان نيوزيلندا ، حين نشبت الحرب العالمية الثالثة ، قررت أن تعتزل العالم لتنجو من شرور القنابل الذرية واشعة الموت وحرب الميكروبات .. واعتزلت العالم مائة سنة كاملة. لايدخلها انسان ولايخرج منها انسان . وفى تلك الاثناء كانت الحرب العالمية الثالثة تدمر العالم الخارجى تدميرا شاملا .. حتى كانت سنة ٢١٨٠ فقررت نيوزيلندا أن تخرج من عزلتها ، وأرسلت على هذه السفينة أول بعثة من المستكشفين ، ليكتشفوا أمريكا من الغرب هذه المرة لا من الشرق كما فعل كولومبس .

وفى ذلك الوقت كله ، وفى جانب آخر من العالم ، هو وسط افريقيا خرجت جماعة أخرى من السود الذين نجوا من شرور الحرب أيضا سيكتشفون نهر النيل ، من الجنوب الى الشمال هذه المرة .

واقتربت الباخرة النيوزيلندية من الشاطىء الخاوي .. وصاح رجل من الواقفين على سطحها : انظروا هذا هيكل حديدى قائم !.. كانت هنا آبار زيت !

فقال عالم جيولوجى من أعضاء البعثة : اذن فهذه المنطقة لم يحدث فيها أي انفجار ذري .

قال عالم الطبيعة : لايلزم حدوث انفجار ذرى لافناء الحياة .. يكفى أن يكونوا قد استعملوا أشعة الموت !

قال عالم الاحياء : بل ان الميكروبات التى استعملت

كان لها ولاشك النصيب الاكبر فى افناء العالم .

فقال العالم النفسانى : ان التأثيرات النفسية قد ادت مهمة الميكروبات الفاتكة فى حالات كثيرة .. فها هى الدعاية المتصلة فى الصحف والراديو ، ترفع الضغط العصبى عند الناس ، وتبث فيهم خوفا فظيعا ، خوفا هائلا ، خوفا مركبا .. فينطلقون أفواجا الى الانهار والبحار ينتحرون فيها بالجملة ويقتلون بعضهم بعضا ، وينهبون لغير غرض .. قد أصابهم مس من الجنون .. ألم يحدث ذلك فى نيويورك وبوسطن ولندن وباريس وكييف؟.. ان الحب يطرد الخوف ولكن الخوف لايطرد الحب فقط ، بل يطرد أيضا العقل والتفكير السليم والثقة والخير .. أزرع الخوف بين الناس ينهار كل شىء !

وتلقى الباخرة مراسيها على الشاطىء الساكن ، وينزل العلماء والمستكشفون الى الارض، ويهرعون جميعا الى الهيكل الحديدى القائم على تل بعيد .. فى حين يتخلف عنهم عالم النبات المشهور « الدكتور بول » اذ لفتت نظره بعض نباتات متحجرة ، فهو ينصرف الى فحصها .. والدكتور بول عالم مشهور ولكنه فى سن الشباب .. جميل الصورة ، تلاحقه آنسة تدعى «مس هوك» وهى عالمة فى النبات مثله ومساعدة له .. ومن الواضح انها تنصب شباكها حوله .. وهو يحترمها ويقدرها بغير شك .. ولكنه لا يتصور أبدا أن تغدو زوجة له ..

ويتغير المنظر على الشاشة ، وتتجول بنا «الكاميرا» فى ذلك الوادى الذى كانت تقع فيه مدن كاليفورنيا .. وهوليوود .. ولوس انجلوس .. هذه المدن الزاخرة قد تركتها الحرب الذرية الثالثة أطلالا خاوية ، وأكواما

من الجثث والجماجم والحجارة ..

وفى خرابة واسعة بجوار احدى هذه المدن ترى اول جماعة بشرية تسكن المنطقة وتهبط الكاميرا اليها .. أربعة رجال وامرأتان ، فى أسمال بدائية قذرة بالية ، لحاهم طويلة وشعورهم مرسلة وأظافرهم طويلة هائلة .. وعلى ظهورهم وصدورهم نقشت فوق الثياب بحروف ضخمة كلمة « لا » ، وهم جميعا يحفرون بهمة بعض المقابر القديمة وينبشونها بينما جلس رئيسهم يرقبهم وينظف أظافره بأسنانه .

ويعثر الحاضرون على تابوت يفتحونه ويخرجون منه جثة ملفوفة فى أكفانها ويرتفع صوت الرئيس وهو يقضم اظافره ، يسألهم :

ـ رجل أم امرأة ؟

كان رجلا ، ويبدو انه كان من الاثرياء أيضا ، ويمضى الحافرون يجردونه من القماش المتكفن به ، ومن بعض الخواتم الذهبية التى تزين أصابعه .. ويحاول أحد الرجال أن يخفى فى ثيابه خاتما منها ، ويلمحه الرئيس، فيضربه بالسوط الذى فى يده ضربة قاسية ، تسقط الخاتم من يد الرجل .. ويقول :

ـ ستجلد ٢٥ جلدة .

ـ سيدى ..

ـ هـذا هو القانون .. فكل محاولة لسرقة مال الجماعة يعاقب عليها بخمسة وعشرين جلدة .

وهم معذورون . فهم لم يعودوا يملكون آلات للصناعة ، ولا فحما يخرج البخار ولا كهرباء لتوليد القوى .. ولا اي مادة صالحة من المواد الخام .. فلا مفر لهم من الاعتماد الى حد كبير على المقابر القديمة ينبشونها ويستخرجون منها كل ذى قيمة .

ويدير الرئيس وجهه على وقع أقدام آتية تسرع ، فيرى اثنين آخرين من رجاله يقبضان على رجل نظيف ، حليق .. غريب الشكل .. ويدفعانه الى الارض أمام الرئيس .. انه الدكتور بول قد ابتعد عن زملائه دون أن يشعر فعثر عليه هذان الرجلان وامسكا به وقيداه وقاداه الى هنا .

وعجب الرئيس لمنظر هـذا الرجـل .. ومد يده يتحسس بها ذقنه الحليقة وسأل :

ـ أتتحدث الانجليزية ؟

ـ نعم ..

ـ حسنا .. فكوا قيده .. من اين جئت ؟

ـ من نيوزيلندا ..

ـ نيوزيلندا ؟.. ابعيد هذا المـكان ؟

ـ جدا ..

كان صـوت الدكتور بول يخرج خافتا متحشرجا ، وقد جف حلقه .

ـ هل جئت على سفينة كبيرة ؟ لها شراع ؟

ـ كلا .. لقد جئت على باخرة ..

ولمع وجه الرئيس ... باخرة ؟..

تعنى انه ما زالت لديكم بواخر ؟ أتعنى انه تركها لكم

ـ من تركها ؟

ـ الشيطان ..

وكان الرئيس يشير على راسه بهيئة قرنين ، ولم يفهم الدكتور بول شيئا وانطلق الرئيس يوضح الأمر :

ـ نعم .. فقد أصبح الشيطان سيد كل شيء ، بعد أن كسب المعركة حين صنع الانسان كل هذا ..

وكان يشير بيديه الى السهل المترامى من الخرائب والاطلال والحجارة ، حيث كانت فيما مضى .. لوس انجلوس ..

وأدرك الدكتور بول ما يعنى الرجل ، فقال :
ـ آه .. انت تعنى الحرب العالمية الثالثة .. كلا ، لقد كنا محظوظين فخرجنا منها دون خدش واحد .. فان موقعنا الجغرافى البعيد لم تكن له أي أهمية استراتيجية بالنسبة لكم ..
وقاطعه الرئيس : أما زالت عندكم قطارات ؟
ـ طبعا ..
ـ والآلات ما زالت تعمل ؟
ـ طبعا ... وقد كنت أقول ...
ولكن الرئيس لم يستمع بل صفق بيديه فى جذل ، ثم ربت على كتف الدكتور :
ـ اذن فسوف تساعدنا على اعادتها هنا كما كانت.. سيكون عندنا قطارات .. قطارات حقيقية ..
وفى غمرة حماسته هجم على الدكتور بول يقبله والدكتور يرتجف من قذارته .
ـ ولكننى لست مهندسا .. أنا عالم نبات ..
ـ ماذا ..؟
ـ عالم النبات هو الرجل الذى يعرف كيف يستنبت الزرع ..
ـ والآلات ؟..
ـ اننى لا أعرف الفرق بين الآلة البخارية والديزل..
ـ اذن فلن تستطيع أن تصنع قطارات ..
ـ مستحيل ..
ورفع الرئيس قدمه فى غضب .. ورفس الدكتور بول رفسة ألقته على الارض .. وحين كان الدكتور ينهض وينفض التراب عن ثيابه ، كان الرئيس يصيح فى غضب : ادفنوه !
وصاحت واحدة منهم : حيا أو ميتا ؟

ـ حيا ..

وهجموا عليه ، يضعونه فى احدى الحفر وهم يضحكون ، بينما كان واحد يهيل التراب فى الحفرة .. حتى دفن نصفه تقريبا عدا فتاة واحدة كانت تقف محتجة على ذلك.. وكان الدكتور بول يصيح فى الرئيس :

ـ الرحمة .. الرحمة !.. اننى استطيع أن أنفعكم .. استطيع أن أعلمكم الزراعة .. وأضاعف لكم الطعام

واستوقفت هذه الجملة الاخيرة رئيس الجماعة ..

ـ تضاعف لنا الطعام ؟

ـ نعم .. أقسم بالله ..

ـ لا نعرف الله .. هذا تقسم به فى نيوزيلندا ... عليك أن تقسم باسم «بلّيال» ، وبليال هو اسم الشيطان فى الجحيم الذى صوره « ملتون » ..

فصاح الدكتور بول قائلا :

ـ أقسم ببليال العظيم !..

وامر الرئيس به فأخرجوه .. وتقدمت منه الفتاة التى كانت تقف معترضة فأعطته جرعة ماء من زجاجة. وأصدر الرئيس الأمر بالذهاب الى مركز الرئاسة العليا

وسار الجمع فى طابور .. وتلفت الدكتور بول حوله ، فرأى انهم يسيرون فى أطلال مدينة هائلة .. طرقات غطتها كثبان الرمل والتراب.. أكوام هائلة من الحجارة.. هياكل مزعزعة منهارة لمبان ضخمة كانت تقوم ها هنا يوما .. لا شىء أخضر على الاطلاق.. آلاف الآلاف من الجماهير والعظام البشرية ملقاة كالحجارة فى كل مكان لا تثير انتباه أحد ..

وفى أثناء الطريق اقتربت منه تلك الفتاة ، وقالت له :

ـ اسمى لولا .. ما اسمك ؟

ـ الفريد بول ..

ـ سأدعوك آلن .. انى أكره هـذه القبور ، على العكس من الآخرين ..

ـ يسرنى أن أسمع ذلك .

واخذ بول يتأملها .. فاذا بها فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها على الاكثر ، حمراء الشعر ، دقيقة الحجم ، رائعة الجمال .. هى نموذج الزوجة التي يريدها .. لا عقل ولا ذكاء ، بل أنوثة وعواطف طيبة ساذجة .. ولكن هذه الاسمال التى تلبسها ، والاظافر القذرة ، وهؤلاء الوحوش الذين يحيطون بها ؟..

وتحدث بول مع لولا طول الطريق .. وعرف منها أشياء كثيرة فظيعة عن هذه الجماعة التى تعيش فيها.. فهى واحدة من الجماعات التى تخلفت عن الحرب العالمية الثالثة التى أهلكت كل شيء .. تتكون من بضعة آلاف من الرجال والنساء .. وهم اذ رأوا « الشيطان » ينتصر هذا الانتصار الباهر على الانسان وعلى قوى الخير ، عبدوه ، وسموه «بليال» ، والاله «بليال» يحرم اتصال الرجل بالمرأة وتكوين أسرة .. ذلك لأن أسلافهم الذين تعرضوا لأشعة الذرة ولم تقتلهم ، أثرت فيهم هـذه الأشعة القاتلة ، فى أجهزتهم الحيوية.. فأصبحت النساء يلدن أطفالا مشوهين.. بقدم واحدة ، أو بثلاث أقدام ، أو بأربعة عشر اصبعا .. وهكذا.. ودين «بليال» يقضى بقتل من يولد من الاطفال المشوهين وحلق شعور أمهاتهم عقابا .. فالمرأة تخشى لذلك أن تتصل برجل ! وقـد كتبوا على ظهورهم كلمة « لا » لتذكرهم دائما بذلك !

ولكن الشيطان اله الشر ، يرغمهم على اتيــان الشر والاتصال ، فهم كمجتمع القرود.. لا أسرة ولا أزواج.. الجميع للجميع ..

وارتجف الدكتور بول من هول ما سمع ، وكانت لولا قد وقعت فى قلبه ، فبدا يتأملها فى شغف .. وفهمت هى بغريزتها ، وقد شعرت فجأة انها أيضا تحبه .. ولكنها لا تعرف ما ينتظرها ، فهى تصرخ فجأة ، مبتعدة عنه : لا .. لا .. لن أنجب طفلا ! لن يقتلوه !

وفرت هاربة ، وعلى ظهرها تسطع كلمة « لا » !

ووصلوا الى قلب المدينة ، وكان ثمة جزار ينفض يده من دم ثور بعـد أن ذبحه ، وقد فتح باب فرن كبير مشتعل لانضاجه ، ولمح بول بعض الرجال يذهبون الى بقايا بناء ضخم قريب ، كان فيما مضى دار الكتب العامة بالمدينـة ، ويعودون بأكداس من الكتب والمجلدات والمخطوطات ، يضعونها وقودا للنار !

ولم يطق الدكتور بول ، وهو الاستاذ العالم ، هذا المنظر.. وكان احراق التراث الفكرى العظيم أبشع فى عينيه من كل ما رأى فصاح :

ـ هذا فظيع ! ألا تقرأون ؟.. ألا تتعلمون ؟

فقال الرئيس باسما : كلا .. اننا لانريدها ، اننا لا نتعلم غير كلمة واحدة ، هى هذه ..

واشار الى كلمة « لا » المنقوشة على ظهور الرجال والنساء !

وسقط من أحد الحمالين كتاب صغير ، التقطه الدكتور بول فاذا به ديوان شعر «شيلى» .. فدسه فى جيبه ! ورأى فى ناحيــة النساء الخاطئات يحملن المشوهين

وقد حلقت شعورهن وسأل فأخبروه ان الليلة ليلة « بليال » .. اذ يقوم الاسقف بقتل كل هؤلاء الاطفال المشوهين .

وفى الليل وقف يشهد الاحتفال فرأى رئيس الاساقفة على منصة عالية تتقدم الأم اليها تحمل طفلهـــا باكية فيمسكه الاسقف من رقبته ويذبحه ذبح الشاة ، ويلقيه فى جب خلفه .. وتسقط الأم صارخة باكية بلا جدوى والحاضرون يرددون نشيدا دمويا رهيبا .

ونظر بول الى الاطفال وهم يذبحون .. والنشيد الرهيب ، وصراخ الأمهات وصيحات الاطفال .. وسقط مغشيا عليه ، وقد أطلق صرخة هائلة .

واستيقظ بعد وقت لا يدريه ، على الماء البارد يسكبونه على رأسه والصفعات تنهال على وجهه .. فاذا به يرقد فى حجرة رئيس الاساقفة .. وقد اقبل عليه هذا الاخير باسما ، وأمر له بالطعام فأحضروا له طعاما بدائيا وأدوات مائدة فضية فاخرة ، مما وجدوه بين الاطلال من آثار الحضارة الدارسة .

وكان رئيس الاساقفة رجلا ذكيا . أخذ يتحدث مع الدكتور بول وجرهما النقاش الى هذا الدين الجديد ، وكيف أدى اليه سلوك البشر فى تاريخهم السابق على ظهورهم .

ــ ان « الشيطان » ادخل فى رأس الانسان فكرتين كان فيهما القضاء المبرم عليه ، هما : التقدم والوطنية .. آمن البشر بالتقدم ، فصنعوا الآلات بأمر الشيطان .. وظلت الصنـــاعة تتقدم والزراعة تجف وتنضب واعتمد العالم زمنا على استيراد الطعام من العالم الجديد

.. ثم جاء دور هذا العالم الجديد : الصناعة تتقدم ايضا والزراعة تجف وتنضب .. وصار الناس فى عالم غريب ، يتوفر فيه الراديو والقطار والطائرة .. ولا يوجد فيه طعام . وأحس مئات الملايين بالجوع الفظيع .. الجوع المركب .. الجوع الشامل .. والجوع يؤدى الى الحرب ، والحرب تؤدى الى الجوع ..

كذلك آمن الناس بالوطنية ، وظن كل واحد ان وطنه هو المقدس ولا شيء سواه .. انظر كيف أسكن الشيطان هذا الضلال فى رؤوس الساسة : المانيا وروسيا تتفقان على بولندا ، فاذا فنيت تحاربا وجها لوجه .. هتلر يقذف لندن بالقنابل ليدمرها ، وكذلك يفعل الانجليز فى برلين . كان هتلر يعلم النهاية . فلماذا أقدم عليها ؟ لأن « الشيطان » فيه أرغمه على ذلك . فاذا اقتربت النهاية ردد تشرشل كلمة هائلة ، التسليم بلا قيد أو شرط ! فتكون النتيجة أن يجوع الالمان ، وتبيع الالمانية نفسها نظير قطعة من الشيكولاتة !

وسأله بول : واذا كنتم تعرفون ان الشيطان شرير هكذا ، فلماذا عبدتموه ؟..

ــ لأنه الأقوى ، والمنتصر !

***

ويخبو الضوء على الشاشة ، ويتغير المنظر ، وقد انتصف الليل وصعد القمر الى كبد السماء .. وبول يسير مع لولا فى سكون . وفجأة ، يبرز من بين الاطلال رجل ضخم الجثة ، ما أن يرى لولا حتى يفتح فمه وتتسع حدقتاه ، ويتقدم ، فيحمل لولا قسرا ، ويختفى بها خلف الاطلال ..

ويقفز بول وراءهما ، وقد غلى الدم فى عروقه .. ثم يتذكر فجأة فى أى مجتمع يعيش اليوم ، فهنا لايستطيع أن يستأثر بامرأة . انما هى للأقوى وينكس رأسه فى خزى عظيم ..

ويمر به رئيس الاساقفة .. فيخبره بأن أصدقاءه المستكشفين كانوا يبحثون عنه ، فطاردهم الرجال بالسهام والنبال ، فلم يجدوا بدا من أن يعودوا الى باخرتهم ، بعد أن قتل واحد منهم ، راحلين الى كاليفورنيا ..

وهكذا انقطع عن بول أمله فى العودة !

ويشرق النور على الشاشة ، ويطلع الصبح على الدكتور بول وهو راقد فى وكر بين بعض الاطلال.. وهو يستيقظ من نومه ، ويتثاءب ، ويزفر من أعماقه :

ــ يا الهى !.. يا الهى !

وغطى وجهه بيديه ..

وتظهر أمامه «لولا» كأنما نبتت فجأة .. وهى تحمل فى يدها لفافة كبيرة ، وتصيح مقبلة عليه :

ــ آلن .. لقد بحثت عنك كثيرا ..

وتجلس بجواره ..

ــ هل نمت جيدا ؟

وتخرج من اللفافة خبزا وبرتقالا ، وتقطع له قطعة من الخبز ...

ــ انت جوعان ولا شك .. بعد ما حدث بالامس .

وتغير لونه فجأة ، وقال فى صوت ملتهب : لا تتحدثى عن الامس ..

فتأملته برهة .. ثم قالت له : انك تفكر كثيرا ..

وهذا خطر عظيم . اننا لو فكرنا فى الامر لوجدناه فظيعا .. فظيعا ..

وكانت ترتجف ، وقد امتـلأت عيناها بالدموع .. ونظر اليها بول فى رقة ، ثم ضمها اليه.. ورفعت عينيها اليه فى فرح وقالت :

ـ هذا ما كنت أحلم به دائما ..

ـ حقا ؟

ـ ولكنه لم يكن ممكن التحقيق أبدا .. حتى أتيت ، لكم اتمنى ألا تطول لحيتك ، حتى لا تبدو كالآخرين.. ولكنك لست مثلهم أبدا ..

فضحك وقال : لست مختلفا عنهم تماما .

ومال يقبلها فى عينيها ووجنتيها وثغرها .. وقالت : نعم .. ولكن انظر .. كيف نجلس سويا .. انت وانا ؟ نتحدث سعداء .. ليس كالآخرين ..

وفجأة تنحنى لولا على يده تقبلها ، فيسألها : ماذا ؟

فتقول له : لقد فهمت الآن معنى الحياة .

ـ وأنا أيضا !..

لقد اكتشف الاثنان سويا ، من جديد ، الحب النبيل، وما نسميه : الزواج بواحدة !..

***

وتمضى أســابيع ، ونرى الدكتور بول ، وقد طالت ذقنه وأظافره ، فأصبح كالآخرين ، ونقشت على صدره وظهره كلمة « لا » .. ونرى معه رئيس الاساقفة .

وقد عثر الدكتور بول بين اطلال المدينة الدارسة على بقايا معمل من معامل جامعة كاليفورنيا ، فنظفه وأصلح منه ما استطاع وبدأ يجرى بعض التجارب . وعين له

رئيس الاساقفة اثنين يساعدانه وقد طلبت « لولا » ان تكون بين مساعديه ، ولكن الرئيس رفض .. فان المجتمع هنا لاينظر بعين الارتياح الي الصلة التى يبدو انها تربط بينها وبين بول .. لذلك يقرر الرئيس ارسال « لولا » مع فرق نبش القبور لابعادها عنه ...

وتنصرف لولا الى عملها .. ويقترح رئيس الاساقفة على بول أن ينضم الى دينهم ، ويعبد « بليال » مثلهم .. فيطلب بول مهلة اربعة أسابيع ، يفكر فيها فى الأمر .

***

وتمر الاسابيع الاربعة بسرعة ، ونرى « بول » فيما يشبه حديقة صغيرة يجرب فيها زراعة الطماطم . ويخرج «بول» من الحديقة وهو يصفر ويتمتم بأبيات من شعر « شيللى » .

وسار بين اطلال المدينة ، والسكون هائل راسخ .. سكون مدينة كان يسكنها ثلاثة ملايين نسمة ، أصبحت تضم ثلاثة ملايين جثة وبضعة آلاف فقط من الاحياء .. وهذه الخرائب والاطلال والهياكل المصدوعة .. وشعر « بول » بشعور غامض من ... السعادة !..

السعادة ؟.. ألم يحطمها الانسان هنا منذ سنوات ؟ بلى .. ولكنها طبيعة الانسان المتفائلة ، التى استعاض بها عن طبائع القرود : من الحقد والخوف والنزاع الدائم

ودخل « بول » بقايا بناء ضخم .. فلاحظ انه كان « جاراجا » للمدينـة ... وقصـد الى بقايا سـيارة «شيفروليه» ذات أربعة أبواب ، ملقاة أمامها جمجمتان لرجل وطفل.. وفتح أبواب السيارة الممزقة ونادى :

ـــ لولا ..

ودخل وجلس بجوارها . وهم بضمها الى صدره فأبت ، وقالت فى حزن :

ـ اننا نرتكب خطيئة ..

ـ كيف ؟..

ـ انه لايريد.. وهو قادر على الانتقام من العصاة.. الشيطان !..

ـ ولكنك لست مثلهم .. فأنت ما تزال فيك مشاعر البشر وأحاسيسهم .. شكرا لله .

ـ الشيطان سينتقم منا .

ـ لن يستطيع ..

ـ ماذا ؟.. انه استطاع فعلا .. ألم ينتصر ؟

ـ انتصر لأن الناس ساعدوه على النصر ، وما كان لهم أن يساعدوه .. انه قد يحطم كل شيء .. حتى يحطم نفسه .. ثم تطفو الفضائل أخيرا على السطح .

ـ هذا مستقبل بعيد جدا ...

ـ بعيد للعالم .. ولكنه قريب بالنسبة لاثنين .. لزوجين .. لى ولك .. ومهما صنع الشيطان ، فعلينا أن نعود الى طبائعنا .. الى حقيقتنا .

ويتبادلان قبلة طويلة .

ويعود المنظر الى معمل الدكتور بول ، ورئيس الاساقفة يبحث عنه .. وقد تبين انه هرب ، فيطلق الجنود فى أثره .

وتنتقل بنا الكاميرا أخيرا الى جبل هائل ، يتسلق سفحه لولا وبول ، وكل منهما يحمل على ظهره لفافة ضخمة .. ويقفان بعد سير طويل ، ويبسط بول خريطة كبيرة يتأملها ثم يقول :

ـ بقى امامنا ٨ ساعات سيرا على الاقدام ثم نصل الى غايتنا .. انهم يستقبلون الهاربين هناك استقبالا حسنا .

وتبتسم «لولا» وتخرج من لفافتها برتقالا وخبزا.. ثم تقول فجأة : انظر .

وينظر الى حيث تشير ، فيلمح فى قلب الوادى شجرة ضخمة وحيدة ، قد تعرت من أوراقها ولكنها ما تزال قائمة شامخة .. وتحتها قبر وحيد .

وينطلقان الى القبر يفحصانه ، ويقرآن عليه الأبيات الآتية :

وليم طاليس ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨

لماذا تتردد وترتجف ، وتتلفت الى الوراء أيها القلب؟

لقد ذهبت الآمال ، مع كل ما ذهب .

لقد ذهبت ، وآن لك آن تذهب !

قالت لولا : يبدو انه كان رجلا حزينا ..

وناولت بول قطعة خبز ، أخذ يقضمها فى سكون .

ديجول ووحدة الغرب

بينما كان العالم مشغولا بمتابعة أنباء الخلاف الضخم التاريخي بين الاتحاد السوفييتي والصين ، داخل المعسكر الشرقي ، فوجىء بانفجار خلاف آخر لايقل عنه من حيث خطره ومغزاه التاريخي وهو الخلاف الذى فجره ديجول ، برفضه دخول انجلترا السوق المشتركة ، ورفضه لمشروع الدفاع الذرى الموحد للغرب ، وبتوقيعه معاهدة عميقة الأثر مع المانيا .

ومن المراقبين من يعتقدون ان هناك صلة قوية بين خلاف روسيا والصين ، وبين هذا الخلاف بين ديجول وانجلترا وامريكا ، أو هذا الخلاف بين «أوروبا» وبين « الانجلوسكسون » كما يحب ديجول أن يسميه . والصلة هنا ليس معناها ان الخلافين متشابهان أو انهما يرجعان الى أسباب واحدة . ولكن الصلة معناها أن «الطقس» العالمي الذى أنتجهما هو طقس واحد . ففى الخلاف الاول تتمرد الصين على قيادة روسيا للمعسكر الشرقى وعلى طريقتها فى ادارة الحرب الباردة ، والاستعداد لاحتمالات الحرب الساخنة . وفى الخلاف الثاني تتمرد فرنسا على قيادة أمريكا للمعسكر الغربى وعلى طريقتها فى ادارة الحرب الباردة والاستعداد لاحتمالات الحرب الساخنة .. والغريب انه قبل ذلك كان ديجول معارضا

فى فكرة عقد مؤتمرات للأقطاب تماما مثل ماوتسى تونج! وكان ديجول معارضا فى عقد مؤتمرات نزع السلاح ، الى حد انه رفض حضورها بتاتا ، تماما مثل ماوتسى تونج !

وأمريكا عندما تريد أن تغيظ روسيا تقول انها لن توقع معها اتفاقا بنزع الاسلحة الذرية الا اذا اشتركت فيه الصين .. ومنذ أيام أرادت روسيا أن تغيظ أمريكا وتعزز موقف ديجول فقالت انها لن توقع مع أمريكا اتفاقا على نزع الاسلحة الذرية الا اذا وقعته معها فرنسا!

ومن بين الانتقادات الاساسية التى توجهها الصين الى روسيا — خطأ أو صوابا — ان روسيا فى رسمها لاستراتيجية المعسكر الشرقى انما تراعى مصالح «روسيا» قبل مصالح المعسكر الشرقى بأكمله .. كما ان ديجول يتهم أمريكا بأنها تراعى مصالح أمريكا قبل مصالح المعسكر الغربى بأكمله !

والمقارنات دائما خطرة ، لأنها تضلل المرء أحيانا عن الفروق الجوهرية الاساسية . فالصين من حيث المبدأ تؤمن بضرورة وحدة المعسكر الشرقى وضرورة قيادة الاتحاد السوفييتى له ، ولكنها تعترض على سياسة الاتحاد السوفييتى ذاتها . أما ديجول فخلافه له شكل عكسى : فهو لايؤمن بوحدة المعسكر الغربى من حيث المبدأ ، بل يؤمن بضرورة انقسامه الى قوتين منفصلتين، وبعد ذلك يصبح الخلاف قليلا على الاستراتيجية السياسية العامة .

ولكن النتيجة واحدة ..

النتيجة هى ان الزعامة المطلقة للدولتين الكبيرتين —

روسيا وأمريكا ـ داخل معسكريهما ، تتعرض لمحنة شديدة . وقد تحدث بعض النواب الفرنسيين فى البرلمان فقالوا : ان المعسكر الشيوعى الآن يفكر فى الأخذ بمبدأ « تعدد المراكز » فلماذا لا يحدث مثل هذا فى المعسكر الغربى ؟.. واذا كان كنيدى يرفض تعدد المراكز داخل معسكره ، فما الفرق اذن بينه وبين خروشوف ؟..

بل ان ديجول نفسه يرى الصلة بين هذين الخلافين الروسى الصينى والفرنسى الامريكى أشـــد مما يراها سواه . فهو حين يتحدث عن أوروبا فى المستقبل البعيد يقول : « من الاطلنطى الى جبال الأورال » أى ان أوروبا فى رأيه تضم روسيا . ويتحدث عن ساعة تصبح فيها أوروبا هذه التى تمتد من الاطلنطى الى الأورال عازلا بين قوتين أخريين : الصين فى الشرق ، وأمريكا فى الغرب !

وهذه هى النظرة اليمينية المتطرفة ، التى ترى ان التاريخ يحركه صراع القوميات الـكبرى ، فى حين أن اليسار المتطرف فى نفس الوقت يعود الى النبوءة الماركسية الاولى ، وهى : حتميـــة الصراع حتى المـــوت بين الدول الراسمالية . بل ونبوءة ستالين التى أطلقها قبل موته بقليل من أن الحرب قد تقع بين الدول الراسمالية وبعضها وليس بينها وبين الدول الشـــيوعية ، وذلك بحكم الصراع الراسمالى المحتوم على المصالح الاقتصادية . يعزز رأيهم هذا وجود متناقضات اقتصادية حادة وراء هذه الأزمة العنيفة داخل المعسكر الغربى .. وان كانت مختلطة بخلافات أخرى أشد حول الدفاع ، والحرب الباردة ، وما الى ذلك ..

وننظر بعد ذلك الى قضية اليوم ، قضية التصـــدع

التاريخى فى المعسكر الغربى .. وهو التصدع الذى فجرته قضية دخول انجلترا أو عدم دخولها فى السوق الأوروبية المشتركة ..

وأكبر مايضللنا فى فهم المشكلة هو هذا الاسم «السوق الاوروبية المشتركة » لأنه يعطى احساسا بأن المسألة كلها تجارية . وهو احساس غير صحيح ، عبر عنه رئيس منظمة السوق حين قال : « نحن رجال سياسة ولسنا رجال أعمال » أما الاسم الصحيح الذى يستوعب ابعاد هذا الكيان الجديد ويساعدنا على فهم طبيعته فهو: الوحدة الاوروبية .

ان الوحدة الاوروبية ليست اختراعا جديدا. فبالرغم من انه لا توجد قارة مزقتها حروب ابنائها كالقارة الاوروبية .. فان فكرة الوحدة الاوروبية كانت تبرق من حين لآخر ، فى رأس فيلسوف أو فى رأس قائد طموح .

ودائما ، كانت هذه الفكرة تبزغ ، حين يكون هناك تحد خارجى .

فى نهايات الامبراطورية الرومانية ، حاولت أوروبا أن تحتفظ بوحدتها فى ظل هذه الامبراطورية ، ازاء موجات الغزو الخارجى ، ولكن عوامل التحلل والفناء كانت اقوى ، فتحللت الامبراطورية الى عناصر مختلفة ، هى بذور القوميات الحالية فى أوروبا ..

وفى سنة ٨٠٠ بعد الميلاد بعد ١٤ سنة من جلوس هارون الرشيد على عرش الامبراطورية الاسلامية فى بغداد توج شارلمان الفرنسى نفسه امبراطورا على أوروبا ، بعد سنوات قليلة من نجاح سلفه شارل مارتل فى وقف زحف الموجة الاسلامية عند «تور» فى جنوب فرنسا . وسمت أوروبا الموحدة نفسها باسم الامبراطورية الرومانية

المقدسة ، وكان « بابا » روما هو الذى توج شارلمان ، ارتباطا بالماضى السحيق .

وبعد الف سنة كاملة ، فى سنة ١٨٠٠ بعد الميلاد .. استحضر نابليون « بابا » روما الى باريس ليتوجه امبراطورا بعد أن دانت له أوروبا كلها ، وعينه على تجربة شارلمان .

ويومها كانت الفكرة الدينية قد شحبت وبدات الفكرة القومية فى البزوغ ، وأصبحت السياسة أكثر حرصا على استقلالها عن الدين : ففى سنة ٨٠٠ كان البابا هو الذى فاجأ شارلمان بأن وضع على رأسه تاج الامبراطورية .. أما فى سنة ١٨٠٠ فقد فاجأ نابليون البابا ساعة التتويج بأن أخذ التاج من يد البابا ووضعه بنفسه على رأسه ، متوجا نفسه بنفسه اشارة الى التغير الذى طرأ خلال ألف سنة فى علاقات القوى بين رجل الدين ورجل الدولة .

وفى سهرة تالية ، اعترف نابليون لوزير داخليته «فوشيه» بقوله مبررا حروبه المتوالية : « أريد قانونا أوروبيا ومحكمة نقض أوروبية ، وعملة اوروبية موحدة ، وموازين ومقاييس واحدة ، أريد قوانين واحدة لأوروبا بأسرها . هذا ياحضرة الدوق هو ما يناسبنى » .

وبعد مائة وثلاثين سنة ، حاولها هتلر على صورة اخرى ، أكثر تشويها .

ولكن هذه المحاولات كلها كانت تفشل . يقول الكاتب الفرنسى الشهير « اندريه موروا » ان السبب فى فشلها هو ان كل واحد من هؤلاء حاول ان يفرض الوحدة الأوروبية بحد السيف . وأضيف الى قوله هذا ان كل

واحد من هؤلاء حاول أن يفرضها على أساس وجود عنصر أوروبى متفوق على ما عداه وان المصالح الاقتصادية التى نمت مع التطور كانت مصالح انفصالية ، لم تنشأ متكاملة ، فلم يكن أمامها الا أن تتصارع وتشتبك فى حروب دامية .. أو كما يقول اندريه موروا : « تمزق وجهها بيديها » ..

ولاشك ان ديجول أسير هذه الرؤى التاريخية المتعاقبة ، لأن كثيرين جدا فى أوروبا يرون نفس هذه الرؤى وهو اذا كان يرى أوروبا من هذه الزاوية ، فهو اذن أكثر الناس منطقية مع نفسه فى كل تصرفاته السياسية

وقد قال أحد وزرائه منذ أيام ، عن تمرد فرنسا على أمريكا « اننا نقول علنا ما يقوله غيرنا من الاوروبيين همسا ! » .

وديجول ـ من دراسة مؤلفاته وتصريحاته وتصرفاته ـ ليس الرجل الذى يرى التاريخ فى حدود عشرات قليلة من السنين ، ولكن فى نطاق عشرات من القرون الطويلة.

وهو يعتقد ان هذه الصراعات الراهنة بين النظم الاقتصادية المختلفة ، كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية ، صراعات زائلة لا تلبث أن تذهب جفاء ، وتبقى الحقائق التى يراها خالدة : صراع القوميات ، والقارات والحقائق التاريخية والجغرافية الأخرى . وهو لهذا حين يتحدث عن التحولات الكبرى لا يتحدث عن أوروبا وآسيا وأمريكا ، وانما يتحدث عن الجنس الابيض والجنس الاصفر ، يتحدث عن أوروبا من الاطلنطى الى الأورال ، متخطيا تقسيمها الوقتى الحالى الى شرق شيوعى وغرب رأسمالى ... يتحدث عن انجلترا فلا يرى ان النظم الاجتماعية والاقتصادية

تجمعها مع غرب أوروبا كما يرى سواه ، انما يرى أنها ــ كما قال بالحرف الواحد ــ جزيرة ، ودولة بحرية دائما ، لها طبيعة خاصة ، لايمكن أن تلتحم «بالقارة». فهو يعود الى الظروف « القديمة » التى يراها خالدة .

وهو فى هذا يختلف عن نظرة خروشوف وكنيدى معا. خروشوف الذى يرى ان هذه الاعتبارات تزول متجهة بالعالم الى عالم شيوعى واحد ، وكنيدى الذى يرى مثل خروشوف ان هذه الاعتبارات تزول ولكن مع اتجاه العالم الى مجتمع راسمالى واحد .

ان ديجول من الاوروبيين الذين يعتقدون أن أوروبا هى خالقة هذه الحضارة العالمية . هى خالقة الصناعة والصواريخ والراسمالية والشيوعية على السواء . وهى قد هان أمرها وتضاءل شأنها حين اختلفت وتناحرت وتمزقت .. مما شجع « الخارج » عليها . أو كما قال مفكر فرنسى فى هذا المقام : « اذا تشاجر الآباء .. ساء أدب الأبناء ! » واليوم تواجه أوروبا تحديات خارجية خطيرة : تحديات من آسيا .. ومن امريكا .. ومن افريقيا .. لابد ازاءها أن تتحد أوروبا .. أوروبا الحقيقية الصافية .. لكى تعود الى سابق عظمتها وسطوتها من جديد ..

وانجلترا ؟

ما دمنا فى سياق هذه الرؤى التاريخية والذكريات ، لابد من الاشارة الى حقيقة هامة وهى : أن نزعات توحيد أوروبا ــ بالقوة أو بالحسنى ــ كانت تنبع دائما من القارة ، ولم يكن لها أبدا أى صدى فى «الجزر البريطانية». على العكس كان دور انجلترا التاريخى دائما : أن تحول

دون قيام قوة كبرى فى أوروبا تستقطب حولها بقية القارة فكما كانت تقوم دولة كبرى أوروبية ، تهدد بالسيطرة على القارة ، كانت انجلترا تقوم بتجميع الدول الاخرى فى حلف يستهدف تحطيم هذه الدولة الكبرى واعادتها الى حجم أقل. هكذا حاربت انجلترا مع روسيا والمانيا ضد فرنسا وحاربت مع فرنسا وتركيا والمانيا ضد روسيا .. وحاربت مع فرنسا وروسيا ضد المانيا.

واليوم ، يوجد فى أوروبا « القارة » من يقول : ان جيوش انجلترا نزلت أرض أوروبا مرات عديدة مع هذا وضد ذاك . أما جيوش أوروبا فلم تنزل أرض انجلترا مرة واحدة. انشعوب القارة تشعر انحسابها متساو. كلها تبادلت النصر والهزيمة علىحد سواء مره بعد مرة.

أما انجلترا فكانت دائما فى صف المنتصر ، لم تعرف مرارة الاحتلال . وهذا أحد أسباب كبريائها وشعورها التقليدى بالتفوق على أوروبا .

ومن التاريخ القريب الثابت أن كونراد اديناور ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وفى سنة ١٩١٩ بالتحديد، رأى أن الحلالوحيد لأوروبا هو تفاهم وتحالف المانيا وفرنسا. ويومها استنكر مواطنوه رأيه ، وأغرقته صيحة الثأر من فرنسا فلم يرفع رأسه الا بعد كارثة ثانية سنة ١٩٤٦.

ومن التاريخ القريب الذى ان لم يكن ثابتا فانالقرائن الكثيرة ترجحه ، أن ديجول شعر بنفس هذا الشعور حتى والمانيا تحتل فرنسا ، فى غمرة الحرب العالمية الثانية. فيومها كانت فرنسا جاثية على ركبتيها. والمانيا التى تحتل أوروبا بأكملها كالوحش الجريح المحبوس فى قفص . أوروبا الغالب والمغلوب ممزقة محطمة . وفى

الخارج أمريكا و « الجزيرة » البريطانية وروسيا ، يجتمع أقطابها ليتصرفوا فى خريطة أوروبا . وقد كانت عين روسيا مقصورة على جاراتها الملاصقات . أما «الورثة» الحقيقيون لفرنسا فقد وجدهم ديجول فى أمريكا وانجلترا. الكل يحاولون تصفية الامبراطورية المحطمة والتهامها .

ولديجول تاريخ طويل من الصراع ضد انجلترا وامريكا فى هذا المجال خلال الحرب : انتصر حينا كما حدث حين تغلب على الجنرال جيرو الذى قيل انه رجل أمريكا فى شمال افريقيا. وهزم حينا كما حدث حين أنذره تشرشل بالانسحاب من سوريا ولبنان . ولو عدنا الى مؤتمره الصحفى الشهير الذى عقده قبل استقلال الجزائر بقليل وذكرنا اتهامه العلنى الصريح لأمريكا فى هذا المؤتمر بأنها تريد أن ترث فرنسا فى الجزائر ، لوجدنا ان هذه الرؤى لا تبرح مخيلته هو بالذات .

هذا هو بايجاز التراث التاريخى الذى قد يفيدنا فى فهم جانب من جذور الأزمة الحالية ..

ان الناس حين يسمعون أنباء انشقاق المعسكر الغربى، والحديث عن احتمالات قيام محور باريس موسكو .. وهذه الاشياء الغريبة .. تبدو لهم لوحة السياسة الدولية وكأنها نوع من الرسم التجريدى الغامض.. أو مسرحية من مسرحيات اللامعقول . ولكننا حين نرجع الموقف الى عناصره الأساسية يتضح لنا ان هذا اللامعقول معقول جدا .. وان اللوحة التجريدية لم يرسمها «ذيل حمار » كما قال خروشوف عن الفن التجريدى ، بل رسمتها مصالح ، وتواريخ ، وجراح ، كلها عميقة الجذور فى أرض الواقع ..

بهذا التاريخ كله .. عاد ديجول الى حكم فرنسا سنة ١٩٥٨ ، ليجد ان كيانا جديدا قد بدأ ينفذ قبل ذلك بشهور ، اسمه : السوق الاوروبية المشتركة .. فكان لابد أن يرتطم القديم بالجديد، ويتفاعل معه ويؤثر فيه.

فما هو هذا الجديد ؟

ان « معاهدة روما » التى سجلت مولد السوق الاوروبية المشتركة ، والتى وقعت هى وملحقاتها سنة ١٩٥٧ ، من أكثر المعاهدات التى عرفها العالم صعوبة وتعقيدا . ذلك انها كانت أشبه بعملية هندسية تريد أن تفتح الخزانات والسدود القائمة بين ست دول ، فى حذر شديد ، حتى لا تغرق هذه المصلحة أو تلك فى طوفان مفاجىء ..

ولسنا هنا فى حاجة الى هذه التفاصيل المعقدة . يكفى الاشارة الى ملامحها العامة التى تطلعنا على أبعاد التجربة واحتمالاتها المثيرة ..

ان الدول الست المشتركة فى السوق هى : فرنسا ـ المانيا الغربية ـ ايطاليا ـ هولندا ـ بلجيكا ـ لوكسمبرج

والفكرة فى السوقأن ترفع الحواجز كلها ـ لاالحواجز الجمركية وحدها ـ بين هذه الدول الست بالتدريج ، بحيث تصبح فى تاريخ محدد قريب هو سنة ١٩٧٠ ، كيانا واحدا من الناحية الاقتصادية .

* بالتدريج .. ترفع الحواجز الجمركية على السلع التى تنتجها الدول الست .. حتى تنعدم الرسوم الجمركية تماما . فتباع المنتجات الصناعية والزراعية التى تنتجها الدول الست فى أى مكان وتنتقل من مكان الى آخر وكأنها تتحرك فى بلدها .

* وبالتدريج .. ترفع القيود المفروضة على انتقال رؤوس الأموال .. حتى يصبح الممول الايطالى مثلا قادرا على أن يؤسس مشروعا فى المانيا أو فرنسا أو هولندا أو غيرها من دول السوق وكأنه فى بلده . وفى سبيل هذا تتجه القوانين المنظمة لهذا النوع من النشاط ، بما فيها الضرائب ، الى التوحيد .

* وبالتدريج .. ترفع القيود المفروضة على انتقال الأيدى العاملة . وذلك على مراحل أيضا . ففى البدء يجوز لرب العمل الفرنسى مثلا أن يقبل عاملا ايطاليا اذا خلا المكان دون أن يجد له عاملا فرنسيا لمدة كذا أسبوعا . وبعد ذلك يجوز له ذلك اذا قصرت المدة . ثم يجوز للعامل الايطالى ــ بعد مدة أخرى ــ الذى يعمل فى فرنسا ، أن ينتقل من عمل الى عمل بدون شرط هذه المدة .. وهكذا على مراحل الى أن يصبح انتقال العامل من دولة الى دولة واشتغاله بأى عمل غير مشروط بأى شرط .

* وبالتدريج .. تعمل الدول على تقريب قوانينها الخاصة بالأجور والمعاشـات والتأمينـات الاجتماعية والخدمات .. الى آخره . وذلك بقصد توحيد ظروف العمل من جهة ، وبقصد جعل المنافسـة بين جهـات الانتاج عادلة . ففرنسا مثلا تقول ان المزايا الاجتماعية التى يحصل عليها عمالها أعلى من المزايا التى يحصل عليها العامل الالمانى . ومعنى هذا ان السلعة الفرنسية تتكلف أكثر من مثيلتها الالمانية ، الأمر الذى يجعل المانيا أقدر على منافسة السلعة الفرنسية . أما اذا تعادلت الخدمات الاجتماعية وبالتالى تعادلت التكاليف فهـذا

يجعل المنافسة عادلة .

* وبالتدريج .. تزداد عملية التنسيق بين القرارات الاقتصادية التى تتخذها الدول المشتركة فى السوق .

وفى هذا المجال يوجد بنك اوروبى مشترك لمساعدة المناطق الاوروبية المتخلفة عن غيرها فى هـذه الدولة او تلك ويوجد صندوق مشترك لمواجهة حالات البطالة التى قد تظهر فجاة بسبب السوق المشتركة فى هـذه البقعة أو تلك .

* وهـذا السوق ، له أربعة أجهزة تديره وتحركه طبقا لجدول مواعيد متفق عليه فى معاهدة روما وهى :

* مجلس لوزراء يمثلون الدول الست . وهو أعلى جهاز ، ويجتمع من حين لآخر .

* مجلس أوروبى دائم ، هو أشبه بمجلس تنفيذى للسوق يباشر عمله يوما بيوم .

* محكمة أوروبية من سبعة قضـاة تقوم بتفسير الاتفاقات التى قد ينجم نزاع حول تفسيرها .

* مجلس نواب من أعضاء فى برلمانات الدول الست ، يراقب أعمال المجلس التنفيذى .

وحتى الآن ، لابد أن تصـدر القرارات الاسـاسية باجماع كل الدول الاعضاء ، أي ان كل دولة محتفظة حتى الآن داخل السوق بسيادتها كاملة ، لا ترتبط الا بما توافق عليه . أما ابتداء من سنة ١٩٧٠ فسوف يكفي أن يصدر القرار بالاغلبية فتخضع له كل الاعضـاء . وبذلك يختفى حق الفيتو أى ان كل دولة حينئذ تعد متنازلة عن جانب من سيادتها كدولة مستقلة لمصلحة منظمة دولية أعلى سلطة منها .

هكذا استطاع « الراسماليون » أن يحققوا الوحدة الاوروبية التى طالما تغنى البروليتاريون الاوروبيون بأنهم هم الذين سيحققونها ، بعد القضاء على الراسماليين . وقد كان لهذا أثره فى ردود الفعل المختلفة يوم ولدت السوق ! اذ اعتبرتها روسيا سما قاتلا ، ونظر اليها اليسار الاوروبى فى تحفظ اقرب الىالمعارضة ، ورقصت امريكا طربا وفرحا.. وهذا كله قبل أن تخطر علىالبال الاحتمالاتالجديدة التىاتى بها ديجولالى هذه السوق.

وقد قلت فى صدر هذا الحديث ان كلمة «السوق» كلمة مضللة . وان الكلمة الصحيحة هى الوحدة الاوروبية وهذا لاينفى ان الاقتصاد هو الذى يلعب الدور الاول . ولكن الاقتصاد كان دائما مفتاح التطورات السياسية . فمؤرخو اوروبا مثلا يقولون ان ظهور السكك الحديدية ورفع الحواجز الجمركية هو الذىحقق الوحدة الالمانية ، فحولها من عشرات الامارات والولايات المستقلة الى دولة واحدة. ونفس الشىء يمكن أن يصدقعلى أوروبا اليوم. فهذه الخطوات الهائلة نحو الوحدة الاقتصادية ، لابد ان تؤدى الى علاقات عضوية بين هذه الاقطار ، يجعل الوحدة السياسية بعد ذلك خطوة منطقية بل وضرورية لاكمال هذه الآثار الاقتصادية .

بهذه الوحدة الاقتصادية لابد أن تصبح للدول الست سياسة اقتصادية خارجية واحدة . وبالتالى سياسة دولية واحدة . ولابد أن تقرب بين النظم السياسية الداخلية . وكذلك ستخلق علاقات وحدة بين الحركات العمالية والاحزاب السياسية . وحيث ان الضمانات الاجتماعية يجب أن تتشابه بين هذه الدول فمعنى ذلك

ان الضغط الاجتماعى للطبقات المختلفة فى بلد ما لابد أن يسمع صداه فى كل البلاد .. الى آخر هذه الحلقة.

وقد نجحت السوق حتى الآن نجاحا هائلا من الناحية الاقتصادية . فبينما زاد انتاج انجلترا الصناعى مثلا من سنة ١٩٥٨ الى الآن بنسبة ١٣ ٪ نجد أن انتاج المانيا زاد فى نفس المدة ٢٩ ٪ وفرنسا ٢١ ٪ وايطاليا ٤٣ ٪ وهولندا ٢٩ ٪ وبلجيكا ١٧ ٪ .

أما حجم التبادل بين هذه الدول فزاد بما يقرب من ١٠٠ ٪ .

وفى نفس الوقت تفتحت الاحتمالات السياسية الاكيدة الكامنة فى فكرة السوق وفى بنائه العضوى .. بدليل هذه الازمة السياسية الطاحنة . فلو كان الأمر أمر تجارة فقط لهان الأمر ولكن الأمر ابعد من ذلك بكثير

وهنا يجىء دور انجلترا ..

أقرب الدول الخارجية الى السوق ، وأولى الدول قابلية للتأثر بها ..

كيف تلقت انجلترا هدير هذا الحادث التاريخى الجديد ؟

فى البدء هزت انجلترا كتفيها استخفافا بالتجربة كلها . وذلك انها بدورها نظرت اليها من خلال التاريخ القديم لأوروبا فوجدت ان الصعوبات أكثر من فرص النجاح .

وأذكر اننى كنت فى لندن قبل توقيع معاهدة روما وسألت صحفيا انجليزيا عن رايه فى المشروع واحتمالات دخول انجلترا فيه فقال لى : مستحيل أن يقبل الشعب البريطانى هذا الدخول . ان الانجليزى العادى يكره

الالمان ، ويحتقر الطليان ولا يثق بالفرنسيين .. فكيف تريده أن يقبل أن يذوب فيهم ؟..

يومها .. كان الانجليز هم الذين يتحدثون عن الفروق بينهم وبين اوروبا .. وهى النغمة التى يغنيها ديجول الآن ..

« نحن امة بحرية .. البحر الذى شكل تاريخنا كما لم يشكله اى عنصر آخر . هو الذى منح شعبنا صفاته فى الصبر والمغامرة والقدرة على ارتياد الآفاق المجهولة » .

« نظمنا الديمقراطية المستقرة .. انها أعرق نظم فى العالم .. انها تعطى تاريخنا منطقا خاصا .. فلم نعرف ثورات فرنسا الدامية أو دكتاتوريات المانيا المجنونة أو تطاحن الاحزاب بالعشرات كما فى سائر بلاد القارة . انهم يريدوننا ، لكى ننقل استقرارنا اليهم ... ولكن قد يحدث أن ينقلوا فوضاهم الينا .

« الكومنولث .. آخر صورة للأمبراطورية العزيزة .. الرابطة السحرية التى تعطينا أسواقا عدد سكانها يبلغ ثلاثة أضعاف سكان السوق المشتركة . انهم يريدوننا أن ننفصل عنها ... أو أن يشاركونا فيها وكلا الأمرين مستحيل » .

« سياستنا الخارجية .. انها اكثر السياسات تشعبا وتعقيدا .. ولهذا نحن فى أشد الحاجة الى أن نبقى مستقلين . كيف نحرك سياستنا ذات الدهاليز والمنحنيات اذا لزمنا أخذ الأصوات قبل كل قرار ؟

ولكن هذا الموقف أخذ يتغير شيئا فشيئا . ليس عند كل الانجليز ، اذ ما زالت قوى كبيرة فى انجلترا ترفض دخول السوق من الأساس . ولكن عند طائفة كبيرة من

القادة والرأى العام .

عنـدما قدمت انجلترا رسميا طلب الانضـمام الى السوق ، قال لورد هيث مندوبها الذى قدم الطلب فى خطابه الرسمى ، ان الذى جعل انجلترا تقرر دخول السوق ثلاثة اعتبارات :

الأول : رغبتها فى العمل معا مع جاراتها (كلمة انشائية!)

والثانى : أن أوروبا عليها أن تتحد أو تندثر .

والثالث : النجاح الاقتصـادى الهائل الذى حققته السوق فى السنوات القليلة التى مضت من عمرها ..

ولكن انجلترا أرادت أن توفق بين كل المتناقضات ، وتجمع بين شتى الامتيازات ..

أرادت :

* أن تدخل السوق المشتركة ..
* أن تضمن مصالح منطقة التجارة الحرة الاوروبية.
* أن تحتفظ بعلاقاتها مع الكومنولث .
* أن تحتفظ (بعلاقاتها الخاصة) مع أمريكا .

وهنا ارتطمت انجلترا بديجول، الذى يرى أن انجلترا لن تكون داخل السوق سوى (طابور خامس) لأمريكا !

وكشف هذا الارتطام عن كل المتناقضات المحتدمة فى المعسكر الغربى : من خلاف حول الدفاع .. وحول التعامل مع روسيا .. الى المصالح والشركات ورؤوس الأموال ..

ديجــــول وإنجلتــــرا

لقد استمرت المباحثات بين انجلترا ودول السوق سنة ونصف سنة ثم فجأة ، أعلنت فرنسا رفضها دخول انجلترا . وهو القرار الذى فجر الأزمة الاخيرة ..

وقال المراقبون : ان ديجول يثأر من معركة ووترلو التي هزمت انجلترا فيها نابليون ! وان ديجول عرف ان غلطة نابليون هي ان الالمان كانوا فى ووترلو الى جانب الانجليز ، ولذلك عمد الى أن يجعل الالمان هــذه المرة الى جانبه .. فاسرع بعد هــذا القرار بأيام ، يوقع معاهدة مع اديناور ، وبدأت الهمسات تتردد بأنه على صلة خفية بموسكو !

والواقع ان الحجرة التى دارت فيها مباحثات انجلترا ودول السوق فى « بروكسل » والتى أعلن فيها وزير خارجية ديجول قرار الرفض . لا تبعد عن الارض التى دارت فيها معركة ووترلو بأكثر من عشرة أميال !

ومع ذلك فالشبه بين ديجول ونابليون ليس فى معركة ووترلو ، ولكنه فى القرارات الشهيرة التى أصــدرها نابليون سنة ١٨١٠ ، وأعلن بها ما سماه بالنظام القارى، ومن مقتضاه أن تحرم التجارة بين أوروبا وانجلترا وأن يمنع دخول اى سفينة انجليزية الى أى ميناء أوروبى ! ويومها تحملت أوروبا هــذا النظام ، بمزيج من الوعد

والوعيد أقل من سنة ، ثم تمرد قيصر روسيا وخرج على الاتفاق .. فكانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا .. الحملة التى انتهت به الى وحول ووترلو .

ولكن الأمر لو كان مسألة ثأر ، أو رجوع الى تاريخ قديم ، لكفى فيه الرجوع الى أقل من عشرين سنة الى الوراء . روت الصحف الفرنسية هذا الاسبوع أن زائرا أجنبيا لقصر الاليزيه سأل موظفا كبيرا فيه عن سر خصومة ديجول لانجلترا . فأخرج الموظف من مكتبه كتاب مذكرات ديجول. قرأ له منه فقرة تقول : «جاءنى السفير البريطانى بعد انذار انجلترا لفرنسا بسحب قواتها من شوارع دمشق (سنة ١٩٤٥) فقلت له طبعا نحن لسنا فى حالة تسمح لنا باعلان الحرب عليكم .. ولكن هذا العمل من جانب انجلترا لايمكن أن ننساه !»

ومرة أخرى، لايجب أن تدير هذه المقارنات التاريخية رؤوسنا فالفوارق بعد مائة وخمسين سنة من الزمن هائلة .. وأكبر هذه الفوارق هى : ان ديجول لا يريد فى الواقع أن يطرد انجلترا من أوروبا .. انه يريد أن يطرد أمريكا !.. وهو اذا كان قد وجه الصفعة الى انجلترا فلأنه يعتقد انها « حصان طروادة » الذى تريد أمريكا أن تدفعه داخل أسوار الوحدة الاوروبية النامية

فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، دخلت أوروبا الغربية تحت جناح أمريكا . أصبحت لأمريكا سطوة سياسية واقتصادية وعسكرية فى أوروبا . واليوم يريد ديجول أن يحطم هذه السطوة . أوروبا فى رأيه يجب أن تستقل . أوروبا هى الأم . وقد كان كل ما مر بها محنة ، عليها الآن أن تخرج منها وتعود الى سابق

مجدها من جديد ..

الميزة الكبرى للسوق الاوروبية المشتركة فى رايه هى انها ستجعل من أوروبا كيانا قوميا كبيرا فى حجم روسيا وأمريكا . فاذا كان هذا الكيان الكبير سيصبح تحت سطوة أمريكا .. فما الفائدة اذن ؟..

ولهذا يجب أن نتأمل الموقف ازاء أمريكا قبل ان ننظر فى موقف انجلترا .

يقول ديجول : ان الدولة لكى تكون مستقلة ، يجب أن تظل مسيطرة على قوتها العسكرية والدفاعية ، وفى رأيه ان الفكرة الامريكية للدفاع الغربى تسلب أوروبا استقلالها العسكرى . فجوهر الفكرة الامريكية هو ان تنصرف أوروبا الى تعزيز قوتها المسلحة بالاسلحة التقليدية، بينما تنفرد أمريكا بانتاج الاسلحةالصاروخية، الذرية والهيدروجينية ، الحديثة . أما جوهر فكرة ديجول فهو أن أوروبا يجب أن تكون لها قوتها الذرية المستقلة ، وكل وجهة نظر لها ما يبررها .

كنيدى : يعتقد ان الخطر الوحيد الذى يهدد المعسكر الغربى هو المعسكر الشرقى . وأن الاسلحة الصاروخية الامريكية الحديثة جدا كافية لحماية المعسكر الغربى كله وأن ما يمكن أن تصنعه أوروبا من أسلحة فى هذا المجال لن يصل الى واحد على عشرين مما لدى امريكا الآن ولو أنفقت فى هذا الأموال الطائلة والسنوات الطوال. بل ان محاولة أوروبا اللحاق بأمريكا وروسيا عسكريا يمكن ان تحطم أوروبا اقتصاديا ، أو تؤثر فى اقتصادها على الأقل الى حد خطير .

وهذه الفكرة كما هو واضح يحركها «حس تاريخى»

معين ، هو السائد فى أمريكا : فأمريكا ترى ان ثم نوعا من « المجتمع الاطلنطى » الآخذ فى النمو باستمرار . وان هذا المجتمع الاطلنطى الذى يشمل أمريكا وغرب أوروبا يزدادكل يوم ترابطا وانصهارا سياسيا واقتصاديا وعسكريا . مثل هذا المجتمع لايمكن ان ينقسم ولايمكن أن تقوده وتسوده الا الولايات المتحدة الامريكية .

ولكن ديجول يرى التطور التاريخى من زاوية أخرى تماما ..

انه لايؤمن بأن الاطلنطى هو البوتقة التى ستصهر أوروبا وأمريكا فى كيان واحد . لايؤمن بما يقال من أن عصر النفاثات جعل الاطلنطى بحيرة مالحة فى قلب مجتمع واحد . بل على العكس يؤمن بأن البوتقة الاوروبية هى الحقيقة الباقية . أكثر من ذلك فهو يعتقد أن تقسيم أوروبا الى شيوعية ورأسمالية سيختفى ، سيصبح الشيوعيون بورجوازيين معتدلين وسيصبح البورجوازيون فى الغرب اشتراكيين معتدلين. واذا كانت أوروبا ستبقى مستقلة فلا بد أن تكون لها أسلحتها الدفاعية الخاصة بها ، المستقلة عن أمريكا ..

لماذا ؟.. يقول ديجول فى بعض أحاديثه « تذكروا ان حلفاءنا هم فى الوقت نفسه منافسونا » . ويقول : ان مصالح أمريكا وأوروبا يمكن أن تختلفا ذات يوم .. بل انه يؤكد ان هذا الخلاف سوف ينمو حتما كلما توحدت أوروبا وزادت قوتها وزاد نفوذها من جهة ، وكلما أدى هذا بالتالى الى انكماش قوة أمريكا نسبيا من جهة أخرى.

وازاء هذا الخلاف المنتظر أو المحتمل لابد أن تحتفظ أوروبا باستقلالها. ومفتاح هذا الاستقلال هو استقلالها

العسكرى ، بأن تكون لديها اسلحة العصر ، الصواريخ والقنابل الذرية والهيدروجينية الخاصة بها ، والتى يتوقف استخدامها على قرار منها لا على قرار من أمريكا .

بهذا وحده لا تكون أوروبا تابعة لأمريكا ..

ويضرب ديجول مثلين : المثل الاول هو قصة مدينة ستراسبورج ، والمثل الثانى هو ماحدث فى حرب السويس .

* ففى سنة ١٩٤٥ ، حين كان الحلفاء يدفعون قوات هتلر الى الوراء ، وصلت الحرب الى مدينة ستراسبورج الفرنسية ذات القيمة التاريخية والقومية الكبيرة . وكانت أوامر ايزنهاور فيما يبدو ستؤدى الى تدمير المدينة . فالمهم لدى القيادة الامريكية العليا هو تدمير قوات هتلر بأسهل وسيلة . ولكن ديجول أصدر أوامره الى قوات فرنسا التى كانت تابعة له بأن تضع المحافظة على المدينة فى مقدمة أهدافها .

والعبرة : ان القرار الاستراتيجى العام قد يهمل المصلحة المحلية . وما حدث لستراسبورج سنة ١٩٤٥ قد يحدث لفرنسا كلها فى أى ظرف مقبل .

* وفى حرب السويس ، كانت قوات فرنسا التى جاءت لتشترك فى محاولة غزو مصر مندمجة فى قوات انجلترا وتابعة لها . ولذلك فحين اضطر ايدن الى اصدار الأمر بوقف القتال والانسحاب رغم أنف القادة الفرنسيين ، لم يكن أمام فرنسا سوى الاذعان والانسحاب .

وبصرف النظر عن نتيجة الحرب ، فالعبرة التى يريدها ديجول هى : ان الدولة اذا قبلت أن تذوب قوتها فى قوة أخرى ، فهى تصبح عاجزة عن التصرف

تصرفا مستقلا ..

يروى عن ديجول انه يقول لوزرائه : انه لا ينظر في تحركاته السياسية الى سنة ١٩٧٠ ، ولكنه ينظر الى سنة ٢٠٠٠ !

ماذا يمكن أن يحدث من « افتراق » بين استراتيجية أوروبا واستراتيجية أمريكا خلال هذه المدة ؟..

الرأى الفرنسي يقول : ان أمريكا تدافع عن اوروبا منذ نهاية الحرب ، نهاية أوروبا كانت ضرورية للدفاع عن أمريكا. فيها على الأقل قواعد الطائرات والصواريخ الموجهة الى روسيا . ولكن هذه الضرورة تقل . وكل يوم يمضى تصبح أمريكا أكثر استغناء عن أوروبا فى استراتيجيتها العسكرية. بعد ١٥ سنة من نهاية الحرب العالمية الثانيةظهرتالفواصات الذرية المحملةبالصواريخ وهى تغنى تماما عن كل القواعد العسكرية الارضية . فكيف يمكن التنبؤ بما قد يحدث فى خمس عشرة سنة أخرى من الآن .

الآن لم يعد الدفاع عن ارض أوروبا ضروريا للدفاع عن أرض أمريكا . فمن يستطيع أن يؤكد أن أمريكا ستضع الدفاع عن أرض أوروبا فوقمصلحتها الوطنية؟ لو فرضنا انه قامت حالة يمكن أن تتعرض فيها أوروبا للحرب الذرية دون أمريكا فهل تعرض أمريكا نفسها للقنابل الذرية ، لمجرد الدفاع عنأوروبا ، واضعة بذلك مصلحة أوروبا فوق مصلحة أمريكا ؟..

ان الأمم تبقى ، ولكن المحالفات تتطور ، خصوصا اذا كانت محالفات بين دول يفصلها خمسة آلاف ميل من مياه المحيط .

انكنيدى يحب أوروبا ، ولكنه يحبها على انها «تراث» قديم للحضارة الغربية ، وان مصيرها التاريخي الوحيد هو أن تقودها أمريكا . اما ديجول فانه يرى أن أوروبا لها مستقبل لا يقل عن مستقبل أمريكا . بل يرى ان المستقبل لابد أن يعود اليها مرة أخرى .

هذا من الناحية العسكرية .. فماذا عن الناحية الاقتصادية ؟

لقد بدأ بعض الذين كانوا يرحبون براس المال الامريكى فى أوروبا ، يديرون له ظهورهم .

ومنذ أسابيع نشرت الصحف انحكومة فرنسا نبهت دول السوق الاوروبية المشتركة الى خطورة «اغراق» دول السوق برؤوس الأموال الامريكية واستيلاء هذه الأموال على بعض الصناعات الهامة. وفى الاسبوع نفسه كانت فرنسا قد انتبهت الى نبأ يقول ان شركة سيارات كريزلر الامريكية قد اشترت شركة سيارات سيمكا الفرنسية الكبيرة . وان شركة أمريكية أخرى للأغذية قد اشترت عشرات الآلاف من الأفدنة فى فرنسا لتحويلها الى مزارع خاصة تمون انتاجها ..

وهذا كله ليس غريبا ..

فالاحصاءات تقول ان فى فرنسا حوالى ٥٠٠ شركة تحكمها الأموال الامريكية بشكل مباشر أو غير مباشر .

وانه منذ بدء السوق الاوروبية المشتركة سنة ١٩٥٨ ــ اى فى خلال أربع سنوات ــ زحف الى أوروبا ١٥٠٠ مؤسسة امريكية ، بعضها بدأ يعمل فعلا وبعضها ينتظر تطورات السوق ليبدأ العمل . ومن هذه المؤسسات ٢١٨ مؤسسة فى فرنسا و٢١٥ فى المانيا و١٩٧ فى ايطاليا

و ٣١١٠٠ فى باقى دول السوق .

والاحصـــاءات تقول ان رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى الانتاج فى أوروبا وصلت سنة ١٩٦١ الى ٣٥٢٣ مليون دولار فى انجلترا و ١١٧٠ مليونا فى المانيا و ٨٤٠ مليونا فى فرنسا و ٤٦٧ مليونا فى ايطاليا و٣٠٨ ملايين فى هولندا و ٢٥٦ مليونا فى بلجيكا .

والتقـارير الرسمية الفرنسية تقول ان ١٤ ٪ من رأس المال الانتاجي فى فرنسا كلها .. أمريكى !

وان الأموال الامريكية فى فرنسا تنتج ٧٥ ٪ من انتاج فرنسا من وســائل نقل و ٦٠ ٪ من الآلات الزراعية والتليفونات والمصاعد و ٥٠ ٪ من المصابيح و ٣٠ ٪ من الأدوات الكهربائية و ١٢ ٪ من الأجهزة الالكترونية .

كتب الكاتب الفرنسى ميشيل بوسكيه يقول : « ان ربة البيت الفرنسية حين تدخل دكان بقـالة تشترى بضائع أمريكية وهى لا تعرف : اللبن المجفف ، الأطعمة المحفوظة ، البسكويت . وهى تنظف بيتهـــا بسوائل كيميائية أمريكية وتقتنى أدوات كهربائية أمريكية » .

وبينما يعتقد فريق من الاقتصاديين الفرنسيين أن هذا الوضع كان مفيدا لفرنسا ، لأنه الى جانب تهيئته لفرص العمل والانتاج ، قد أوجد صنـــاعات جديدة ومهارات جديدة لفرنسا ، وجعل الصناعات الفرنسية نفسها تنشط وتتجدد حتى تصمد فى المنافسة .. فان فريقا آخر يقول ان هذا الوضع يحرم الدولة من أي فرصة جدية لعمل تخطيط قومى حتى فى الاطار الرأسمالى لأن صناعات كبرى تتخذ قراراتها فى ديترويت وفيلادلفيا ونيويورك وليس فى فرنسا . ويقولون : ان هذا الوضع

يؤدى عمليا الى احتكار أمريكا للتقدم الفنى والعلمى ، استنادا الى انهذه الأبحاث تجرى فىأمريكا ، وتستورد جاهزة الى فرنسا .. مما يجعل الفروع الفرنسية لهذه الصناعات عاجزة عن الانطلاق بمفردها لو احتاج الأمر. تماما كالصواريخ الذرية التى تعرض امريكا على أوروبا أن تستخدمها .. بشرط أن تبقى أسرارها فى يد أمريكا وان هذا أيضا يؤدى الى تبعية أوروبا لأمريكا منالناحية الاقتصادية والفنية والعلمية ، تبعية قد تصبح بعد عشرين سنة نهاية . لا رجعة فيها !..

ومن المقالات المثيرة التى نشرتها الصحف الفرنسية فى الشهور الاخيرة دراسة عنيفة عن الحرب الاقتصادية بين أمريكا وأوروبا فى الكونغو . فنحن نعرف جيدا مصالح بلجيكا وانجلترا وفرنسا فى الكونغو وما حولها ، والمتركزة فى شركات المناجم والتعدين وهى المصالح التى جعلت هذه الدول تحمى تشومبى وتحبذ استقلالكاتنجا حتى الرمق الاخير . فلما ساندت أمريكا أخيرا جهد الأمم المتحدة لانهاء استقلال تشومبى.. انفجرت صحافة غرب أوروبا تهاجم أمريكا. ولكن أعنف اتهامات هىالتى وردت فى هذه الدراسة .

قالت هذه الدراسة : انه لوحظ انهكلما ضعف مركز تشومبى ، ارتفعت أسعار النحاس فى العالم . وانه ليس سرا أن الشركات الامريكية التى تنتج بمالها من فروع فى شيلى وبيرو ٤٠ ٪ من نحاس العالم ، تضغط دائما على حكومة أمريكا لتؤيد الأمم المتحدة فى ضرورة انهاء انفصال كاتنجا وان ادلاى ستيفنسون مندوب أمريكا الدائم فى الأمم المتحدة وأكثر الامريكان حماسا لهذه السياسة هو

المحامى السابق لشركة «تمبلسمان وولده» التىحصلت أخيرا من حكومة الكونغو المركزية على امتياز استغلال منـــاجم الماس فى كاتنجا . وان الشركة الســـويدية « جرانجسبرج » التى تنقب فى أراضى كاتنجا يرأسها شقيق السكرتير العام الراحلداج همرشولد، وان شركة أمريكية اســـمها « أمريكان ميتال كليماكس » تسعى للحصول على امتياز استخراج المواد الاستراتيجية من الكونغو وفى مقدمتها الكوبالت واليورانيوم النقى . وان نائب رئيس هذه الشركة هو مستر آرثر دين رئيس وفد أمريكا فى مباحثات نزع السلاح الذى اســـتقال أخيرا ليعود الى الاشراف على أعمال الشركة ..

وقال كاتب المقال ــ ادوار سابلييه ــ فى الختام : ان أمريكا تشن حربا اقتصادية ضد المصالح الاوروبية . وان أمريكا تخشى أن ينتهى النمو الاقتصادى الاوروبى الى منافسة أمريكا ذاتها . وانها لهذا تحاول أن تفيد أوروبا عسكريا . واســـتشهد بمقال كتبه الصـــحفى الامريكى الكبير جونجنتر وقال فيه : « لابأس أن نشجع أوروبا على أن تنمو اقتصاديا » بشرط أن «تصبح قادرة على الدفاع عن نفسها بدون مساعدة حلف الاطلنطى».

من يملك مفاتيح القوة الاقتصادية ، ومفاتيح القوة العسكرية ، يستطيع أن تكون له كلمة مسموعة فى عالم السياسة . ولذلك فان المحاولة ــ التى يمثلها ديجول ــ لتحرير قوة أوروبا العسكرية والاقتصادية من سيطرة أمريكا ، تهدف فى النهاية الى أن يكون لأوروبا صوتها المستقل فى عالم السياسة . لقد قبلت أوروبا ــ منذ زمن ــ ما يعتقد ديجول انه زعامة امريكية مطلقة. وكلما

اندفع التقدم العسكري في مداه ، واتسعت الهوة بين روسيا وأمريكا من جهة وسائر بلاد العالم من جهة أخرى . زادت امكانية انفراد أمريكا وروسيا بتقرير مصير العالم .

وقد جاءت أزمة كوبا لتؤكد لأوروبا هذه العبرة . لقد ذهبت روسيا وامريكا الى حافة الحرب الذرية وسار العالم كله خلفهما أوتوماتيكيا ، بحكم الارتباطات العسكرية والاقتصادية والسياسية ، دون أن تستشيرا احدا ، روسيا وضعت صواريخها الموجهة في كوبا رغم ما في ذلك من دفع عنيف للحرب الباردة دون ان تستشير احدا . وكنيدى أعلن الحصار ووجه الانذار رغم ما في ذلك من خطر قيام حرب ذرية دون ان يخطر احدا ، وعندما اتفق الطرفان على التسوية اتفقا عليها بمفردهما ، والعالم مكتوف الذراعين ، ينظر . وأوروبا بالذات أول من سوف تدوسها الصواريخ ، لا رأى لها على الاطلاق .

وقد أشارت بعض الصحف الفرنسية الى ان «السبب المباشر» الذى جعل ديجول يبدأ معركته الفنية المفتوحة ضد أمريكا وانجلترا معا هو تقرير سرى جاء فيه : ان قرار أمريكا نزع قواعدها الصاروخية في تركيا وايطاليا كان جزءا من التسوية السرية التي تمت بين كنيدى وخروشوف خلال أزمة كوبا ، وان كانت أمريكا تؤكد علنا ان هذا القرار جاء نتيجة منطقية لاحلال الغواصات الذرية محل القواعد الارضية الثابتة التي يسهل تدميرها

وتقول الصحف الفرنسية أن ديجول استخلص من هذا ان أمريكا عازمة الآن اكثر من أي وقت مضى على حل المشاكل رأسا مع روسيا ، دون استشارة حلفائها استشارة جدية ، حتى في أمور تتعلق بأوروبا ذاتها ،

كقواعد الصواريخ فى ايطاليا وتركيا .

وأغلب الظن ان ديجول استدار الى اديناور ، ولوح له بهذا التقرير قائلا : وبرلين ؟ ألا يجب أن نحسب حساب الهمس المستمر باحتمال بزوغ سياسة أمريكية روسية منفردة بالنسبة لبرلين ؟

المهم : ان الاستقلال السياسى لأوروبا هو التنمية المنطقية للاستقلال العسكرى والاقتصادى ، أو ان الاستقلال السياسى هو الغاية التى يهدف اليها ديجول ، ولا يمكن أن يصل اليها الا اذا حقق لأوروبا درجة من الاستقلال العسكرى والاقتصادى .

تقول مجلة الاكسبريس الفرنسية — والله أعلم ! — ان ديجول قال هذا الاسبوع لخلصائه : « اننى أحاول أن انقذ أوروبا من تبعية أبدية .. سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية .. فاذا فشلت فمعنى ذلك أن تندثر أمجاد أوروبا الى الأبد .. وأن تخضع لحكم البرابرة » .

وبهذه الحيثيات كلها فجر ديجول سلسلة قنابله السياسية الكبرى ، التى بدأت برفض دخول انجلترا السوق المشتركة .

لماذا ؟..

لأن انجلترا ما زالت « غير أوروبية » .

لأن انجلترا ، كما سردت فى القسم الاول من هذا البحث ، هى القوة البحرية المنعزلة عن أوروبا التى كان دورها فى السياسة الاوروبية هو دور منع وحدتها ، وهى التى فضلت دائما علاقات عميقة مفتوحة عبر البحار ، وما زالت متمسكة بها فى صوزة كومنولث ،

ولكنها قبل كل شيء طابور امريكي خامس في قلب الوحدة الاوروبية ، ودخول انجلترا السوق معناه دخول عميل قوى لأمريكا يمكنها من أن تحكم السوق من الداخل فتنهار كل المبررات الكبرى التي يراها ديجول لقيام هذه السوق ..

لقدكانت انجلترا تتباهى دائما بأن لها «علاقةخاصة» بأمريكا . وعندما عاد ديجول الى الحكم سنة ١٩٥٨ ، كان أول شيء اقترحه هو عمل « قيادة ثلاثية » للمعسكر الغربي من امريكا وانجلترا وفرنسا ، بقصد الاشتراك في هذه العلاقة الخاصة ، التي قد تصل الى حد تبادل الأسرار الذرية الكاملة. ولكن امريكا وانجلترا رفضتا هذا الاقتراح رفضا أهان ديجول في ذلك الوقت ، فهو اليوم يعامل انجلترا وأمريكا على هذا الاساس : على أساس هذه « العلاقة الخاصة » بينهما .

وباب الحديث عن هذه «العلاقة الخاصة» بين انجلترا وأمريكا يفتح مجالات لا آخر لها ولا حاجة لها هنا . ولكن يكفي أن نتذكر كل التراث التاريخي المشترك الذي يربط انجلترا وأمريكا .

ويكفي أن نذكر ماجاء ذكره منذ قليل من أن استثمارات أمريكا في انجلترا وحدها تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف مليون دولار ، أي ما يساوي استثمارات أمريكا في سائر بلاد غرب أوروبا . والصلات بين الشركات الانجليزية والامريكية أقوى بكثير من صلات هذه الشركات بالمؤسسات الاوروبية. كذلك فان السياسة الدولية كانت على الدوام محل «تشاور خاص» بين انجلترا وأمريكا وان كان هذا قد شحب في عهد كنيدي بالذات ، والشيء نفسه ينطبق

على الصلات العسكرية وعلى المعلومات الذرية المتبادلة بينهما . وقد كانت قمة هذا الارتباط فى رأى ديجول هى اتفاقية «ناسو» الاخيرة ، التى قبل فيها ماكسيلان نوعا من التبعية العسكرية لأمريكا فى مجال القوة الذرية الصاروخية حين قبل أن يهجر صواريخ «سكاى بولت» الى الصواريخ الامريكية « بولاريس » ..

ديجول يعتقد ان انجلترا ، بكل هذه الارتباطات ، سوف تكون عنصرا فعالا يدعو الى السياسة الامريكية داخل الوحدة الاوروبية ، سوف تستطيع انجلترا بما لها من نفوذ قوى وأصدقاء كثيرين أن تجمع حولها «كتلة أمريكية» داخل السوق ، وقوة اقتصادية أوروبية مستقلة وكتلة أوروبية ثالثة غير تابعة لأمريكا سياسيا ..

لهذا قرر ديجول أن يسد الطريق فى وجه انجلترا ..

ولأن هذا القرار الذى فجر الأزمة كان مجرد جزء من خطة شاملة ، فقد أعقبته سلسلة تحركات سياسية كبرى ، لاشك انها مدروسة ومحسوبة من زمن بعيد ..

* أولها .. المعاهدة التى وقعها ديجول مع اديناور. ان هذه المعاهدة تنص على تنظيم لقاءات منتظمة بين قيادة أركان الحرب فى البلدين ، وعلى اجراء مناورات مشتركة لجيوش الدولتين ، والتعاون فى صناعة بعض الاسلحة ، وتبادل الضباط والوحدات العسكرية ، وتنسيق الأبحاث العلمية فى المجالات العسكرية والاستراتيجية . والتشاور السياسى بينهما لتنسيق موقفهما فى المنظمات الاخرى كالسوق المشتركة وحلف الاطلنطى ..

فهى ليست معاهدة صداقة تقليدية ، بل انها حافلة

بالاحتمالات البعيدة . . ومع ذلك فلو عقدت هذه المعاهدة فى وقت آخر لما كان لها نفس رد الفعل العنيف الذى حدث ، ذلك انها أبرزت كجزء من خطة شاملة . كخطوة فى بناء « مركز ثقل » اوروبى جديد ينافس مركز الثقل الذى تمثله أمريكا وانجلترا .

وقد سبقت هذا تمهيدات طويلة . اظهرها على السطح زيارة ديجول منذ شهور لألمانيا . وهى الزيارة التى أزاح فيها ديجول الستار ، فى حركة رمزية ، عن ان له أقارب فى المانيا ، وأن عائلته لها جدود ألمان تزاوجوا مع الفرنسيين . . وقيل يومها — سخرية — انه يذكر الناس فى الوقت نفسه بأن جدة ماكميلان أمريكية ! واعمق هذه التمهيدات هو الترابط الاقتصادى المتعاظم بين المانيا وفرنسا . حتى قيل ان اهم ما فى السوق المشتركة هو الزواج بين الزراعة الفرنسية والصناعة الالمانية ، وفى مجال المساعدات الخارجية تتفاهم السياستان الالمانية والفرنسية تفاهما عميقا .. وفى احصاء أخير جاء ان المانيا توظف مئات الملايين من الماركات فى المساعدات الاقتصادية لدول افريقيا الداخلة فى الاتحاد الفرنسى ، وأن ٨٠ ٪ من هذه الأموال تنفقها هذه الدول لشراء حاجات . . من فرنسا !

ولاشك أن المانيا — بحكم وضعها الخاص — ليست فى مركز يسمح لها بأن تستغنى بديجول عن حماية أمريكا العسكرية لها . ولكن حركة ديجول أريد بها جذب المانيا خطوة نحو فرنسا . . وكسر الولاء الالمانى المطلق لأمريكا . وفتح الباب لاحتمالات واسعة فى المستقبل . والضغط بهذا الحلف الفرنسى الالمانى على بقية دول السوق

المشتركة وارغامها على الطاعة !

* وثانى هذه التحركات الديجولية كان فى محاولة فتح أبواب السوق امام دول أخرى أوروبية ، غير انجلترا. فبعد أيام من رفضه دخول انجلترا ، استقبل ديجول رئيس وزراء الدانمارك وعرض عليه دخول السوق ، والدانمارك اذا دخلت سوف تسحب وراءها اسكندينافيا كلها . وهى اذا كانت لا تستطيع ان تدخل السوق اليوم « على جثة بريطانيا » كما قال رئيس وزرائها الا انها قد اعترفت بأن العرض مغر ومثير وقابل للتحقيق . وفى الوقت نفسه نشط ديجول فى اسبانيا نشاطا واسعا ، وأخذ وزراؤه يعبرون جبال البرينيه واحدا بعد آخر ، بقصد جذب اسبانيا الى الكتلة الاوروبية المستقلة التى تريد أن تنمو ، قبل أن تتفاقم ارتباطاتها مع أمريكا . وآخر الأنباء تؤكد أن ديجول يفكر فى نوع من الارتباط العسكرى مع اسبانيا ، وانه سيحصل على «تسهيلات» عسكرية هناك كقواعد جوية تكون خطا متصلا من فرنسا الى دول افريقيا الفرنسية ، بعد أن استقل شمال افريقيا ولم يعد يصلح طريقا لفرنسا الى قلب افريقيا.

* وثالث هذه التحركات ، ما تشير اليه الأنباء والتعليقات الفرنسية ، من اهتمام واسع جديد لديجول بمنطقة الشرق الاوسط من جهة ، وامريكا الجنوبية من جهة أخرى .. وعزمه على أن يدخل ميدان المساعدات الاقتصادية مدعما بالصناعة الالمانية — أسوة بأمريكا وروسيا — وقالت بعض صحف فرنسا : ان ديجول يعتقد ان دول أمريكا الجنوبية مثلا تكره أمريكا ولكنها لا تريد أن تكون شيوعية ، وهنا يمكن أن تكون القوة

الاخرى ــ اوروبا ــ هى التى تقودها فى طريق التطوير الاقتصادى . بل قيل ان اتجاه ديجول لتسوية علاقاته مع اسبانيا يقصد بها فتح الطريق الاوروبى الى امريكا الجنوبية ، لأن نفوذ اسبانيا الروحى فى امريكا الجنوبية عميق .. وعزلة اسبانيا عن اوروبا يعزل عنها ايضا امريكا الجنوبية كلها .

* على ان رابع هذه التحركات ، واخطرها ، هو الهمس المتصاعد عن اتجاه ديجول الى التفاهم مع روسيا

طبعا ــ وهذا تحفظ ينطبق على كل الاحتمالات الواردة فى هـذا البحث ــ لا شىء يعنى ان هـذه التطورات ستقع بين يوم وليلة ، أو ستقع بشكل حاسم ، اى بجرة قلم ، ينقلب بها الابيض الى اسود أو العكس . ولكنها احتمالات متتالية ، كل منها يفتح البـاب امام الآخر ..

وفكرة قيام «حوار مباشر» بين ديجول وخروشوف تبدو منطقيـة تماما مع باقى التطورات . ان كنيدى يتحدث مباشرة الى خروشوف . وديجول ثائر اساسا على فكرة انفراد كنيدى ، اى امريكا ، بهذا الحوار ، وهو يطالب بأن يكون لأوروبا دورها المستقل ، وبالتالى فمن المنطق أن يطالب اما بالتشاور على اساس المساواة بين امريكا وأوروبا قبل اى بحث مع روسيا ، واما أن يكون لأوروبا نفس حق أمريكا فى الحوار المنفرد مع روسيا

وانصار هذا الرأى يقولون ان أوروبا لديها فرصة اكبر من امريكا لعمل تسوية مع روسيا . فأوروبا ــ الديجولية طبعا ــ ليس لديها مشاكل « ساخنة » مع روسيا متناثرة حول العالم ، من كوبا الى لاوس وفيتنام ،

مثل امريكا. وديجول قد يفكر فى عقد تسوية مع روسيا نظير اخراج النفوذ الامريكى من أوروبا وديجول بالفعل أعطى روسيا شيئا لم يعطه لها اى حاكم غربى وهو : انه دعا رسميا الى ضرورة الاعتراف بنهر « الاودر » كحدود نهائية بين المانيا « الشرقية » وبولندا ، فى حين

ان الموقف « الرسمى » للغرب انه لا يعترف بالحدود الجديدة بين بولندا والمانيا . ولكن أصعب مشكلة فى محاولة التفاهم بين ديجول وخروشوف هى برلين والمانيا ، لأن ديجول يرسم جانبا كبيرا من سياسته على اساس تأييد المانيا الغربية له . فكيف يوفق بين ارضاء

خروشوف وارضاء اديناور ؟.. هل يبنى سياسته على أساس أن اديناور ـ زعيم المعسكر المتشدد ـ سوف يعتزل المسرح السياسى بعد أقل من سنة ؟

ان بعض المعلقين يقولون ان ديجول لايمكن أن يحاول التفاهم مع روسيا فى حين انه يتظاهر بأنه أشد الواقفين ضد نفوذها .. ولكن معلقين آخرين يقولون : لا تنسوا ان ديجول جاء الى الحكم بأن تظاهر بأنه سيكون أشد الحكام تشددا ضد ثوار الجزائر وظل يتظاهر بذلك حتى بدأ يفاوضهم سرا على الاستقلال !

ليس معنى هذا كله ان الطريق الجديد ، العجيب ، الذى يقتحمه ديجول ، سيكون مفروشا بالزهور ، بالعكس ، انه يصطدم بعقبات هائلة ..

والدلائل تشير الى ان سياسة ديجول تحظى ـ داخل فرنسا ـ بتأييد كبير وتحظى بشىء أهم ، هو : حيرة خصوم هذه السياسة وبلبلتهم واضطرابهم ازاء هذه المواقف الجديدة التى لم يتوقعوها قط : فاليمين المتطرف

يجد فى مغامرة ديجول الجديدة ، التى ترفع لواء الوطنية المتطرفة ، عزاء عن صدمة هذا اليمين المتطرف فى الجزائر ، والمحايدون يرون فى تصرفات ديجول اقترابا غير مقصود من فكرة تحييد أوروبا . واليساريون يرون ان كل بعد عن أمريكا ، قلعة الرأسمالية الكبرى فال طيب لهم .

ولكن الأمر خارج فرنسا على العكس من ذلك فأغلب دول غرب أوروبا تعارض اتجاه ديجول فى طرد انجلترا وأمريكا .

ورد ديجول التقليدى : انه لايطرد انجلترا نهائيا . انه فقط يبقيها خارج الباب حتى تقرر فعلا أن تصبح أوروبية وتترك كل ارتباطاتها الاخرى القديمة . ويومها اهلا وسهلا بانجلترا .

***

روت مجلة بارى ماتش ان أكثر ما يغيظ ديجول هو النشرة الجوية فى انجلترا ! فحين يغمر الضباب بحر المانش تقول النشرة : « ان الضباب غمر المانش ، وأصبحت القارة الاوروبية معزولة تماما ! »

ويغتاظ ديجول من هؤلاء الانجليز الذين يرون أن الضباب يعزل أوروبا ، فى حين انه يعزل جزيرتهم ! كأن جزيرتهم هى القارة ، والقارة كلها جزيرة صغيرة مجاورة !

انه الآن يعزل انجلترا ويعلمها ان القارة هى الأصل !

فهرس

صفحة

صفحة

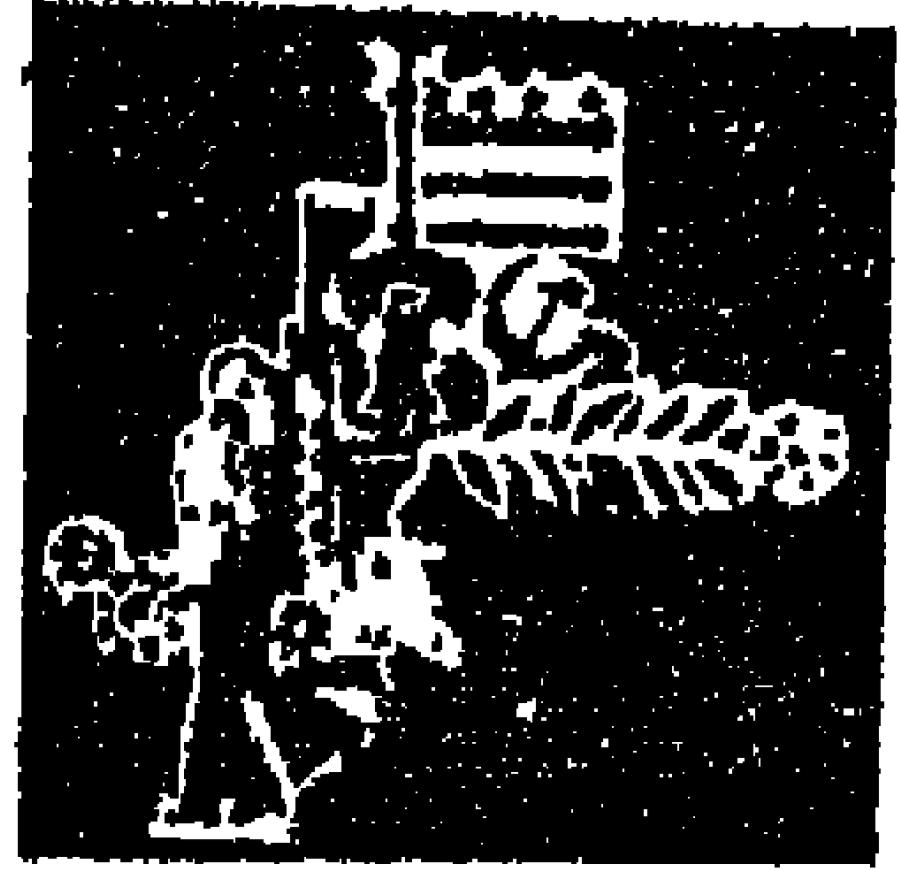
وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

« أفكار معاصرة » كتاب يجمع فيه أحمد بهاء الدين مجموعة من الفصول الهامة التي كتبها في السنوات الاخيرة ، والتي تتناول قضايا رئيسية في الفكر والسياسة والثقافة ... وفي هذا الكتاب يلتقي القارئ العربي مع أحمد بهاء الدين كما تعود أن يلتقي به دائما ، فهو كاتب واسع الثقافة عميق الصلة بالفكر الانساني المعاصر في مختلف ميادينه ، وهو الى جانب ذلك كاتب اشتراكي ينظر الى الدنيا من وجهة نظر عربية رحبة .. وأحمد بهاء الدين صاحب مدرسة في الكتابة تعتمد على الوضوح والجمال والبساطة والضمير اليقظ الحساس ، ومن هنا استطاعت هذه المدرسة أن تلتقي بقلوب الناس وعقولهم بلا تعقيد ولا عناء . وقد مكنت هذه الصفات لكتابات أحمد بهاء الدين من ان يكون لها تأثيرها الواسع على جماهير القراء العرب في كل مكان . بل ان كثيرا من الدارسين الاجانب للثقافة العربية المعاصرة يرون في أحمد بهاء الدين وجها مشرقا من وجوه هذه الثقافة وتعبيرا عن جانب من أصح الجوانب وأكثرها عمقا وسلامة في العقل العربي المعاصر . وفي هذا العمل الفكري الجديد الذي يقدمه «كتاب الهلال» الى القراء العرب رحلة واسعة وعميقة حول بعض المشاكل الرئيسية التي تواجه عالم اليوم وتنعكس على واقعنا العربي بصورة أو بأخرى ، ذلك لان الوطن العربي وثيق الصلة بكل ما يجري في العالم من احداث ثقافية وسياسية وحضارية ، بحكم موقعه وثرواته وتراثه القديم . وفي كتاب أحمد بهاء الدين يمكننا أن نلتقي بنظرة فاحصة ومدققة وعميقة على مشاكل الدنيا من وجهة نظرنا العربية المتفتحة .. وفي هذا الكتاب نستطيع كذلك ان نعيش لحظات ممتعة مع اسلوب من أرقى واجمل الاساليب التي عرفتها الكتابة العربية في عصرها الحديث .

١٨ قرشا

